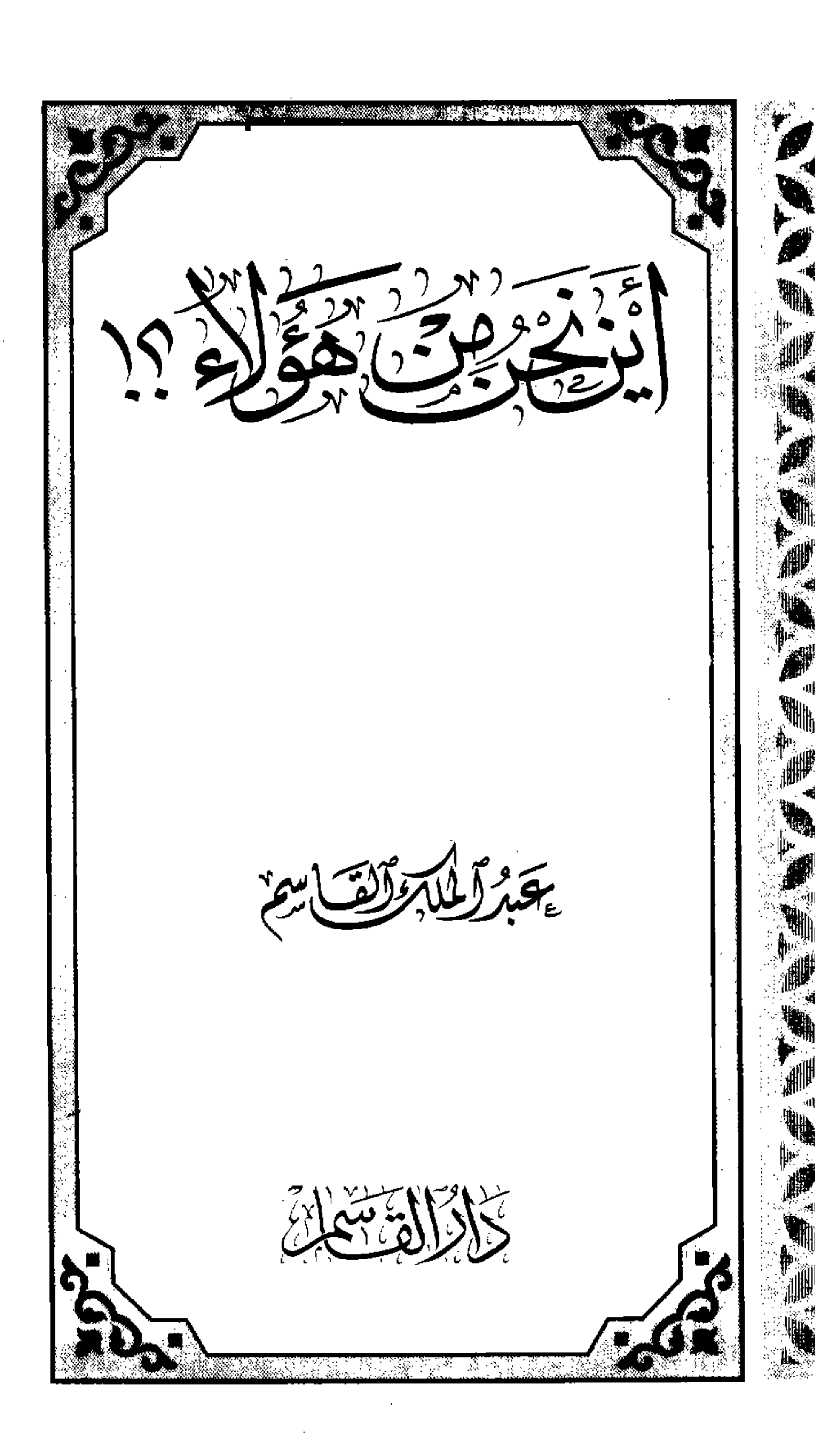


أين نحن من هؤلاء ؟!

عبد الملك القاسم

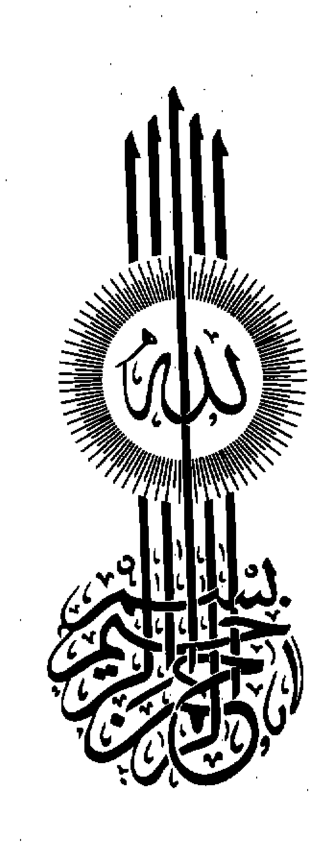
دار القاسم

أين نحن من هؤلاء ؟!

المجلد الأول

عبد الملك القاسم

دار القاسم


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

لحظات ساكنة

والثمن الجنة

أولئك الأخيار

اصبر واحتسب

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الوقت أنفاس لا تعود

الموضوع **الصفحة**

أحصاه الله ونسوه

الدنيا ظل زائل

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

أيسر العبادات

الموضوع **الصفحة**

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

رفقاء طريق

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

وثلث لطعامك

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع **الصفحة**

أنهلك وفينا الصالحون؟!

انفروا خفافًا وثقالاً

* * *

لحظات ساكنة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المجموع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد يسر الله ـ عز وجل ـ إخراج سلسلة متتالية من مجموعة **«أين نحن من هؤلاء؟!»** تعني بعبادة السلف وذكر زهدهم في الدنيا، ومسارعتهم إلى الدار الآخرة، ومن فضل الله ومنته أن انتشرت وطبعت مرارًا. ورغب بعض الإخوة جمعها في مجلدات لسهولة الوصول إليها مع حفظها وبقائها.

وها هي بين يدي القاريء عقد متكامل من اثنين وعشرين عنوانًا أبقيتها كما هي إلا من بعض التعديلات البسيطة والإضافات العارضة.

أسأل الله ـ عز وجل ـ أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، **أما بعد:**

فلقد كان للجانب المادي الذي سيطر على حياة الناس دورٌ كبير في بُعدِهم عن التفكُّر في مآلهم ومصيرهم، وتبعاً لذلك ضعفت الهمم، وخارت العزائم، وكثر البعد عن الله ـ جلَّ وعلا ـ.

وقد يسر الله لي الاطلاع على بعض أخبار الزُّهد وأحاديث الرقائق التي جمعها علماء الأمة في مجلدات ضخمة، بعضها في كتب مستقلة والكثير منثور في كتب السير والتراجم وغيرها، وصَعُب الانتفاع بها لضخامة تلك المجلدات وبُعدها عن متناول الناس، كما أن بعضها اشتمل على بعض المبالغات والغلو في المخلوقين، وكذلك ما كان فيها من شطحات وخرافات الصوفية وغيرهم. وقد عمدت إلى جمع هذه المجموعات من بطون الكتب، وأرجعتها إلى مصادرها، رغبةً في توثيقها، ومساعدةً لمن أراد الاستزادة.

واخترت لهذه السلسلة ـ التي تتجاوز العشرين مجموعة[1] ـ عنواناً مأخوذاً من قول للإمام أحمد عندما ذُكر عنده أخلاق الورعين فقال: (أسأل الله أن لا يمقتنا)، أين نحن من هؤلاء؟[2].

---

(١) متنوعة: المواضيع ـ في العبادات والمعاملات والآداب، والأولى منها بين يديك.
(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٦).

واقتصرت على أخبار السلف ـ من غير الرِّوايات المشهورة ـ وإلا فهناك الكثير منها، وما أنا وإيَّاهم إلا كما قال الإمام الشافعي:

أحبُّ الصَّالحين ولست منهم
لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي
ولو كنَّا سواءً في البضاعة

ولا تستغرب أخي القارىء مما في هذه المجموعات من زهد السَّلف وصلاحهم، وما وقع لهم من النشاط في العبادة؛ حيث إنَّهم بلغوا منزلةً كبيرةً في الخوف من الله والزُّهد والتَّقوى، ومن ثم ضعفنا في هذا الزمن ضعفاً كبيراً، فأصبحنا نستغرب هذا ونستكثره.

وفي الجملة فإن خير الهدى هدي محمَّدٍ ﷺ، وما خالف هديه يُرَدُّ على صاحبه.

وهذا الكتاب فيه تنشيطٌ للعبادة، وتذكيرٌ بالآخرة، وتعريفٌ بالصَّالحين. جعله الله خالصاً لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

abdalmalik@dar-alqassem.com

الوقفة الأولى:

الموت

قيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نُجالس أقواماً يخوِّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله، إنَّك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركَك أمنٌ، خيرٌ من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى يدركك الخوف.

الموت

إن الموت حقيقة قاسية رهيبة، تواجه كل حيٍّ، فلا يملك لها رداً، ولا يستطيع لها أحدٌ ممن حوله دفعاً، وهي تتكرر في كلِّ لحظةٍ، وتتعاقب على مرِّ الأزمنة، يواجهها الجميع صغاراً وكباراً، أغنياءً وفقراء، أقوياء وضعفاء، ومرضى وأصحاء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨].

نهاية الحياة واحدة، فالجميع يموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إلا أنَّ المصير بعد ذلك مختلفٌ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧].

وقد خلق الله الموت والحياة لشأنٍ عظيم وأمرٍ جسيم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢]. وقد وصف سبحانه ـ وتعالى ـ شدَّة الموت في أربع آيات:

الأولى: قوله الحق: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

الثانية: قوله الحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الثالثة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾ [القيامة: ٢٦][1].

ولِعِظَم ما نحن مقدمون عليه وصائرون إليه قال رسول الله ﷺ:

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص٢٠.

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»[١].

ففي الموت عِظةٌ وتذكير، وتنبيه وتحذير، وكفى به - والله - من نذيرٍ؛ قال ﷺ: **«كفى بالموت واعظاً»**[٢].

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، فإن الموت هو الخطبُ الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنَّه الحادث الأهدم للذّات، والأقطع للرَّاحات، والأجلب للكريهات، فإن أمراً يُقَطِّعُ أوصالك، ويُفَرِّقُ أعضاءك، ويَهدِم أركانك، لهو الأمر العظيم والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم[٣].

ولكنا نسيناه أو تناسيناه، وكرهنا ذِكره ولُقياه، مع يقيننا أنه لا محالة واقع وحاصل، ولا مفر منه ولا حائل، والعجبُ من عاقل يرى استيلاء الموت على أقرانه وجيرانه، كيف يطيب عيشه؟ خصوصاً إذا علت سنُّه، واعجباً لمن يرى الأفاعي تدبُّ إليه وهو لا ينزعج، أما يرى الشيخ دبيب الموت في أعضائه، قد أخرج سكين القوى، وأنزل متغشرم الضعف، وقُلِبَ السَّواد بياضاً، ثم في كل يوم يزيد النَّقص[٤].

وهذا النقص يزداد حتى يعبر قنطرة الموت التي لابد من المرور عليها حتى يصل إلى الدار الآخرة.

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه الطبراني وابن عساكر في تعزية المسلم.
(٣) التذكرة، ص٢٨.
(٤) صيد الخاطر، ص٥٣٣.

قال ابن مسعود: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله»[(١)].

ولا يتم لقاء الله إلا بعد الموت وتجرُّع غُصصه وآلامه، ولكننا غفلنا عنه؛ لأن المنهمك في الدنيا، والمُكبُّ على غرورها، المُحبُّ لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، فلا يذكره، وإذا ذُكِّر به كرهه، ونفر منه، أولئك هم الَّذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[(٢)] [الجمعة: ٨].

وأين ذهَبْتَ فهو ملاقيك، ومهما ابتعدت فهو مناديك. ولكن:

استعـــدي يـــا نفـــس للمـــوت واسعـــي
لنجـــاةٍ فـــالحـــازم المُستَعـــدُّ
قـــد تبيَّنـــتِ أنَّـــه ليـــس للحـــيِّ
خلـــودٌ ولا مـــن المـــوتِ بُعـــدُّ[(٣)]

أخي الحبيب:

أعجب العجائب، سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد خُبِّئ لك.

تغتـرُّ بصحتك، وتنسى دُنُوَّ السُّقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم.

لقد أراك مصرعُ غيرك مصرعَكَ، وأبدى مضجَعُ سواك ـ قبل الممات ـ مضجعَكَ.

---

(١) شرح الصدور، ص٤.
(٢) الإحياء (٤/ ٤٧٧).
(٣) البداية والنهاية (١٣/ ١٠٦).

وقد شغلك نَيلُ لذاتك، عن ذكرِ خرابِ ذاتك:

كـأنَّـكَ لَـمْ تَسْمَـع بـأخبـارِ مـنْ مَضَـى
ولـم تَـر فـي البـاقيـن مـا يصنـع الـدَّهْـرُ!

فـإنْ كُنـت لا تَـدْرِي فَتلـكَ ديـارُهـم
محـاهـا مَجَـالُ الـرِّيـحِ بَعْـدكَ والقَبْـرُ[1]

نسمع ذكر الموت وننسى، ونرى العِبر تترى، ولا أحد منا يخشى إلا من رحم ربِّي.

وهناك من لم تُلِهه الدُّنيا، ويغرُّه طول الأمل، فاستعد بترك الذُّنوب، وتجهَّز بالعمل الصَّالح كالقعقاع بن حكيم الذي قال: «قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببتُ تأخير شيءٍ عن شيءٍ»[2].

ونحن دهانا مجرد ذكر الموت والحديث فيه، بل الكثير يغضب إذا ذُكر الموت، ويرى أنه لا داعي لتكدير حياة الناس، وإفساد مجالسهم بذكر الموت وعِبَرِه.

وقد قيل للحسن: يا أبا سعيدٍ، كيف نَصنع؟ نُجالس أقواماً يخوِّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوِّفونك حتى يدركك أمنٌ، خيرٌ من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى يدركك الخوف[3].

---

(١) صيد الخاطر ص٢٦.
(٢) الإحياء (٤/ ٤٨٤).
(٣) الإحياء (٤/ ١٧٠).

وإذا لم تتذكر هذا اليوم، وتستعد له، فاجأك في غدك وأنت في غفلةٍ من أمرك. واعتبر بمن استعدَّ ورحل.

قال الحسن: «كان من كان قبلكم يقربون هذا الأمر، كان أحدهم يأخذ ماءً لوضوئه ثمَّ يتنحى لحاجته؛ مخافة أن يأتيه أمر الله وهو على غير طهارةٍ، فإذا فرغ توضَّأ»(١).

قد قُلتُ: إذا مدحوا الحياة فأكْثِرُوا
في الموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعرف(٢)

قال الربيع بن بزة: «عجبت للخلائق كيف ذهلوا عن أمر حقٍّ، تراه عيونهم، تشهد عليه معاقد قلوبهم إيماناً وتصديقاً بما جاء به المرسلون، ثمَّ هاهم في غفلةٍ عنه سكارى يلعبون!».

ثمَّ يقول: وايم الله، ما تلك الغفلة إلا رحمةٌ من الله لهم ونعمةٌ من الله عليهم، ولولا ذلك لألفي المؤمنون طائشة عقولهم، طائرة أفئدتهم، منخلعة قلوبهم، لا ينتفعون مع ذكر الموت بعيشٍ أبداً(٣).

وهو كما قال القائل:

سبيلُ الخلقِ كلِّهم الفناءُ
فما أحدٌ يدوم له البقاءُ
يقربنا الصَّباحُ إلى المنايا
ويدنينا إليهن المساءُ

---

(١) الزهد لابن المبارك، ص٩٩.
(٢) العزلة، ص٨١.
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٣٥٣).

فــلا تــركــب هــواك وكــن مُعِــدّاً
فليــس مقــدراً لــك مــا تشــاءُ
تــراه أخضــر العيــدان غضًّــا
فيصبــح وهــو مســود غثــاءُ
أتــأمــل أن تعيــش وأيُّ غُصــنٍ
علــى الأيــام طــال لــه النَّمــاءُ(١)

نعم ـ والله ـ حتى ملك الموت، الموكَّل بقبض الأرواح، سيموت، قال ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ولكن أين الاتعاظ والتَّذكُّر لهذا اليوم، مثل تذكُّر السَّلف الصَّالح واتِّعاظهم وتفكُّرهم في مآلهم؟

فقد قال الحكيم بن نوح لبعض إخوانه: اتَّكأ مالك بن دينار ليلةً من أول الليل إلى آخره لم يسجد فيها ولم يركع فيها، ونحن معه في البحر، فلمَّا أصبحنا قلت له: يا مالك، لقد طالت ليلتك لا مصلياً ولا داعياً، قال: فبكى، ثم قال: لو يعلم الخلائق ماذا يستقبلون غداً ما لَذُّوا بعيشٍ أبداً، إنِّي ـ والله ـ لمَّا رأيتُ الليل وهوله وشدَّة سواده، ذكرت به الموقف وشدَّة الأمر هناكَ، وكل أمريءٍ يومئذٍ تهمُّه نفسه، لا يغني والدٌ عن ولدٍ ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً، ثمَّ شهق شهقةً فلم يزل يضرب ما شاء الله، ثمَّ هدأ، فحمل عليَّ أصحابنا في المركب، وقالوا: أنت تعلم أنَّه لا يحمل الذِّكر فلِمَ تُهيجه؟ قال:

---

(١) التبصرة (١/ ٣٥٣).

فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكر له شيئاً[١].

وما خاف مؤمنٌ اليوم إلا أَمِنَ غداً بحُسن اتِّعاظه وصلاح عمله، فإنَّنا في دارٍ أفسح الله لنا فيها بالنِّعم التي يسبغها علينا صباحَ مساءَ، ونحن نُضيع أعمارنا في غير ما خُلقنا له، ثمَّ إذا فاجأنا الموت صرخ البعض: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩﴾ [المؤمنون: ٩٩].

لماذا ترجع وتعود؟

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وأين أنت عَنْ هذا اليوم؟ ألا تعلم وأنت في سعةٍ من أمرك وصحَّةٍ في بدنك؟ لم يَدنُ منك ملك الموت بعد؟

فإنَّ الله ـ تعالى ـ جعل الموت محتوماً على جميع العباد، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد من دار الاعتداد، قضى فأسقم الصَّحيح، وعافى السَّقيم، وقسَّم عباده قسمين: طائع وأثيم، وجعل مآلهم إلى دارين:

دار النَّعيم ودار الجحيم، فلا مفرَّ لأحدٍ من الموت ولا أمان؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن: ٢٦].

فسوَّى فيه بين الحُرِّ والعبد، والصَّغير والكبير، والغنيِّ والفقير، وكلُّ ذلك بتقدير العليم الخبير: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾ [فاطر: ١١]. فالكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الفوْت،

---

(١) جنة الرضا (١/٩٨).

والمسلم من استسلم للقضاء والقدَر، والمؤمن من تيقَّن بصبره الثَّواب على المصائب والضَّرر[١].

تـــذكَّـــر يـــوم تـــأتـــي الله فـــرداً
وقـــد نُصبـــت مـــوازيـــن القضـــاءُ
وهُتكـــت السُّتـــور عـــن المعـــاصـــي
وجـــاء الـــذَّنـــب فـــانكشـــف الغطـــاءُ[٢]

قال بعضهم: «عجباً لِمَنْ يعرف أنَّ الموت حقٌّ، كيف يفرح؟ وعجباً لمَنْ يعرف أن النار حق، كيف يضحك؟ وعجباً لِمَنْ رأى تقلُّب الدُّنيا بأهلها، كيف يطمئن إليها؟ وعجباً لمن يعلم أنَّ القدر حقٌّ، كيف ينصب؟»[٣].

نرى باب الموت مفتوحاً والقبور تزيد. هاهو كل يوم يطرقنا وفي كل لحظة يُنذرنا. ولكن هل سألنا أنفسنا ما هي دارنا الثانية ونحن نعلم أن:

المـــوتُ بـــابٌ وكـــلُّ النَّـــاس داخلـــه
يـــاليـــت شعـــري بعـــد المـــوت مـــا الـــدَّارُ
الـــدَّار جنَّـــة خلـــدٍ إن عملـــت بمـــا
يُـــرضـــي الإلـــه وإن قصَّـــرت فـــالنَّـــارُ[٤]

فإن أنت تذكَّرت وانخلع قلبك فإنَّه إلى صلاحٍ وفلاحٍ كما قال الدَّقاق: «مَنْ أكثرَ من ذكر الموت أُكْرِمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة،

---

(١) صيد الخاطر، ص٨.
(٢) التذكرة، ص٣٦٥.
(٣) مكاشفة القلوب، ص١٥٧.
(٤) ديوان أبي العتاهية، ص٨٦٨.

وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عُوْقِبَ بثلاثة أشياء: تسويف التَّوبة، وترك الرِّضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة».

وهذا ما نراه في واقع حياتنا، فلا نذكر الموت إلا عند حدوث الفاجعة ونزول النَّازلة، بل إنَّه إذا ذُكِرَ أنَّ فلاناً قد مات استرجعنا الذَّاكرة، وكأن الموت طريق فلانٍ وحده، ولذلك نحزن عليه، ولا نرى ما سيحلُّ بنا غداً أو بعد غدٍ.

فإنَّ مَنْ تفكَّر من عواقب الدُّنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطَّريق تأهَّب للسَّفر.

إنـــي أرقـــتُ وذِكْـــرُ المـــوتِ أرَّقنـــي
فقلـت للـدمـع أسعـدنـي فـأسعـدنـي
إنْ لـــم أبـــكِ لنفســـي مُشعـــراً حـــزنـــاً
قبـــلَ الممـــاتِ ولـــم أرق لهـــا فمـــن
يـــا مـــن يمـــوت ولـــم تحـــزنـــه ميتتـــه
ومَـــنْ يمـــوت فمـــا أولاه بـــالحـــزنِ
إنِّـــي لأرقـــع أثـــوابـــي ويخلقهـــا
جـدب الـزَّمـان لهـا بـالـوهـنِ والعفـنِ
لِمَـــنْ أُثْمِـــرُ أمـــوالـــي وأجمعُهـــا
لِمَـــنْ أُروح لَمَـــنْ أغـــدو لِمَـــنْ لِمَـــنْ
لِمَـــنْ سيـــوقـــع بـــي لحـــدي ويتـــركنـــي
تحـت الثَّـرى تَـرب الخـديـن والـذَّقـنِ[1]

---

(١) محاسبة النفس، ص٨٧، والمدهش، ص١٨٣.

أيُّها الحبيب:

جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراها في أهل القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب، والبعيد ما ليس بآتٍ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكِّرات له، والنظر في المنبهات عليه[١].

وهاك أخي الحبيب[٢] وصية **يحيى بن معاذ**: «لا تكن ممَّن يفضحه يوم موته ميراثُه ويوم حشره ميزانُه»[٣].

ومن هذا الخوف العظيم والوجل المستمر كان **محمد بن النضر** إذا ذُكر الموت اضطربت مفاصله حتى تبيَّن الرَّعدة منها.

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً
والقوم حولك يضحكون سروراً
فاعمل ليومٍ أن تكون إذا بكوا
في يوم موتك ضاحكاً مسروراً[٤]

فابكِ على نفسك قبل أن يُبكى عليك، واحمل نفسك على الطَّاعة

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧٥).
(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).
(٣) التذكرة للقرطبي، ص١٠٢.
(٤) صيد الخاطر، ص٢٠٣.

قبل أن تُحمل على الرِّقاب، وحاسب نفسك قبل أن تُحاسب.
لحظاتٌ قليلة تحاسب نفسك فيها خيرٌ من أيام ضائعة تؤخذ بما فيها.

قال عبدالله بن مشيط: «سمعت أبي يقول: أيُّها المغترُّ بطول صحَّته، أما رأيت ميتاً قط من غير سقمٍ؟ أيها المغتر بطول المهلة، أما رأيت مأخوذاً قط غرَّة؟ أبالصِّحَّة تغترُّون؟ أم بطول الأمل تأمنون؟ أم على الموت تجترئون؟»

إنَّ ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أنَّ ساعة الموت ذات كربٍ شديدٍ وغصصٍ وندامةٍ على التفريط؟ ثم يقول: رحم الله عبداً عمل لساعة الموت.

ومن أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنَّه ينتبه انتباهاً لا يوصف، ويقلق قلقاً لا يُحدُّ، ويتلهَّف على زمانه الماضي، ويودُّ لو تُرِكَ؛ كي يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه بالأسف.

هو الموتُ ما منه ملاذٌ ومهربُ
متى حُطَّ ذا عن نعشه ذاك يركَبُ
نؤمِّل آمالاً ونرجو نتاجها
وعلَّ الرَّدى ممَّا نرجيه أقربُ

وما نراه في المقابر أعظم عظة وأكبر معتبر، فحاملُ الجنازةِ اليومَ محمولٌ غداً، ومن يرجع من المقبرة إلى بيته اليوم سيُرجعُ عنه غداً، ويترك وحيداً فريداً، مُرتهناً بعمله، فإن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ. ولكن ما أقلَّ من اتَّعظ! وما أندر من اجتهد!.

قال ثابت البناني: «طوبى لمن ذكر ساعة الموت، وما أكثر عبدٌ

ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله»[١].

فإنَّ مَنْ أيقن بالموت غداً عمل يومه كلَّه في طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهكذا يوماً بعد يوم حتى يأتيه اليقين مصداقاً لقوله:

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خطَّ النَّبيُّ ﷺ خطوطاً فقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاء الخط الأقرب» [رواه البخاري].

فذكرُ الموت، وإنْ كدَّر عليك أيامك وبعثر أحلامك، إلا أنَّه يوقفك على حقيقةٍ لا مفرَّ منها.

وأذكـــر المـــوت تجـــد راحـــةً
فـــي أذكـــار المـــوتِ تقصيـــر الأمـــل[٢]

فإنَّ مَنْ قَصُرَ أمله، وجعل الموت أمام ناظريه عَمِل للآخرة، واستفاد من كلِّ لحظة من لحظات عمرة في طاعة الله، وتحسَّر على كلِّ وقتٍ أضاعه بدون عملٍ صالحٍ يقرِّبه إلى الله زلفى، وهو لما قدَّم فرحٌ مسرورٌ بالانتقال إلى الدَّار الآخرة.

ولذلك قال خالد بن معدان: «ما أُحب أنَّ دابةً في برٍّ ولا بحرٍ تفديني من الموت، ولو كان الموت غايةً يُسبق إليها، ما سبقني أحد إلا سابقٌ يسبقني إليها بفضل قوته»[٣].

---

(١) حلية الأولياء (٢/٣٢٦).
(٢) التذكرة للقرطبي، ص١٠.
(٣) حلية الأولياء (٥/٢١٠).

وهذا كلُّه طمعٌ في جنَّةٍ عرضها السَّماوات والأرض، ورغبةٌ في لقاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفرحٌ بما قدم من الأعمال الصالحة التي ينتظره جزاؤها وثوابها مع رحمة الله.

وعلى الرَّغم من الحرص على لقاء الله ـ جلَّ وعلاَّ ـ والفرح بما عنده للمؤمنين الموحدين، فقد قال **الحسن**: «لا تخرج نفس ابن آدم من الدُّنيا إلا بحسراتٍ ثلاث: أنَّه لم يشبع، ولم يدرك ما أمَّل، ولم يحسن الزَّاد لما قدم عليه»[1].

ومـــا المـــرء إلا راكـــب ظهـــرِ عمـــرِه
علـــى سفـــر يفنيـــه بـــاليـــوم والشهـــرِ
يبيـــت ويُضحـــي كـــلَّ يـــوم وليلـــةٍ
بعيـــداً عـــن الـــدُّنيـــا قـــريبـــاً إلـــى القبـــر

والقبر هو المنزل الثَّاني بعد منازل الدُّنيا، فكيف بنا أهملنا بنيانه، وقوَّضنا أركانه؟ وليس بيننا وبين الانتقال إليه إلا أنْ يقال: مات فلان. فكم نحمل كل يوم إلى تلك المنازل من الأحباب والأصحاب، وكأنَّ هذا الموت لا يطرق إلا أبوابهم، ولا يقضُّ إلا مضاجعهم، أمَّا نحن فلا!!

قال **الحسن** ـ رحمه الله ـ: «ما رأيت يقيناً أشبه بالشَّكِّ من يقين النَّاس بالموت، مع غفلتهم عنه، وما رأيت صدقاً أشبه بالكذب من قولهم: إنَّا نطلب الجنَّة، مع عجزهم عنها وتفريطهم في طلبها»[2].

---

(١) مكاشفة القلوب ١٥٨.

(٢) العاقبة، ص٩٥.

نسيــــر إلـــى الآجـــالِ فـــي كـــلِّ لحظـــةٍ
وأيـــامنـــا تطـــوى وهُـــنَّ مـــراحـــلُ
ولـــم أر مثـــل المـــوت حقَّـــاً كـــأنَّـــه
إذا مـــا تخطتـــه الأمـــانـــي بـــاطـــلُ
ومـــا أقبـــح التَّفـــريـــط فـــي زمـــن الصِّبـــا
فكيـــف بـــه والشيـــب للـــرأس شـــاعـــلُ؟
تـــرحـــل مـــن الـــدُّنيـــا بـــزادٍ مـــن التُّقـــى
فعمـــرك أيـــامٌ وهـــن قـــلائـــلُ[(١)]

فانظر إلى هذه الطَّريق الحرجة، والمسلك الشَّاق، والقنطرة المضطربة، والعقبة الكؤود، الَّتي لا تثبت عليها الأقدام، ولا تجوزها الأوهام، ولا يثبت عليها إلا من ثبَّته الله بالقول الثَّابت، وثبَّت قدماه يوم تزلُّ الأقدام[(٢)].

قال **عمار بن ياسر**: «كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً»[(٣)].

فلمن تذكَّر الموت، وخاف الفوت، كفته العبادة شُغلاً؛ استعداداً لطارقٍ يطرق على غفلةٍ، ويفجع على فرحٍ، لا يعرف الأمير من الوضيع، ولا يفرق بين الكبير والرَّضيع، بل كلُّهم سواءٌ، فمن حانت منيته فهو صاحبه، ومن قَرُب أجله فهو بغيته.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص٤٦٤.
(٢) تسلية أهل المصائب، ص٢٣٣.
(٣) جامع العلوم والحكم، ص٣٥٣، والزهد، ص٢٥٧.

ليــت شعــري فــإنَّــي لســت أدري
أي يــومٍ يكــون آخــر عمــري
وبــأي البــلاد تُقبــضُ روحــي
وبــأيِّ البــلاد يُحفــر قبــري[(١)]

ما أطولها من غفلة! نحن في ليلها نائمون. وفي نهارها سارحون، كما قال إبراهيم بن أدهم: «قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطيةٍ، فلن يكشف العبد اليقين حتى ترفع هذه الحُجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسُّرور بالمدح؛ فإذا فرحتَ بالموجود فأنت حريصٌ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخطٌ، والسَّاخط معذَّبٌ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجبٌ، والمعجب يحبط عمله[(٢)].

وتذكُّر الموت يغرس في المؤمن شجرة الإخلاص، وثمرتها العمل، فالأيام تُطوى، والمراحل تُقضى، فمن جعل هذا حاديه شمَّر وفزِع، وجعل مطيته تسير به إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

قال صلة بن اشيم لمُعاذة: «ليكن شعاركِ الموت؛ فإنَّك لا تبالين على يسيرٍ أصبحت من الدنيا أم على عسر».

فإنَّ من تذكَّر الموت هانت عنده الدُّنيا ومصائبها، وزهد في أموالها وذهبها، وفرشها وسررها؛ لأنَّه علم أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، ولهذا فهو عالي الهمة، قوي العزيمة، لا تقدم عنده الدنيا شيئاً ولا تؤخر إلا ما كان منها في عملٍ صالح موافق لما جاء به ﷺ

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص١٧٢.
(٢) الإحياء (٤/ ٢٣٦).

بعيداً عن الرِّياء والسُّمعة. ولماذا يرائي ويفتخر وهناك من ينتظره؟

قال الحارث بن إدريس: «قلت لداود الطَّائي: أوصني، فقال: عسكُر الموت ينتظرونك»[١].

فالمرء منذ أن يخرج من بطن أمه وملك الموت ينتظر أجله متى يحين؛ حتى يقبض روحه، ولذلك قال عون بن عبدالله: «ما أنزل الموت منزلته من عدّ غداً من أجله، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤمِّلٍ لغدٍ لا يُدركه. إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لبغضتم الأمل وغروره»[٢].

وهذا الأمل هو سبب التَّهاون والتَّكاسل، فكم من مؤمِّلٍ غداً لتوبته مات قبل أن يتوب، وكم من قائل بعد كذا سأتوب، جاءه الموت قبل ذلك.

قال أبو الدرداء: «من أكثر من ذكر الموت قلَّ فرحه، وقلَّ حسده»[٣].

لأن من ذكر تلك النهايات وجعلها بين عينيه، فعَلَامَ يفرح؟! ولماذا يحسد؟! وهو يذكر تلك الأهوال والانقطاع من الدنيا، وهو في حالٍ كما وصفها بعضهم بقوله: «أنا كرجلٍ مادٍّ عنقه، والسيف عليه ينتظر متى يضرب عنقه[٤]».

وهذا السيف ليس بخافٍ علينا، فإننا نراه كل يوم يهوي على حبيب وقريب وصاحب، ليقطع اتصاله بالدنيا ويبعده عن أحبَّته ورفقته. ونحن

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٤١).

(٢) جامع العلوم والحكم، ص٤٦٥، وصفة الصفوة (٣/ ١٠٣)، وشرح الصدور ص٢١.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٥٣).

(٤) الإحياء (٤/ ٤٨٣).

أمهل الله لنا في العمر، ولكن الإمهال إلى أجلٍ معلوم، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر.

كأنَّ المنايا قد قصدن إليكا
يُردنك فانظر مالهن لديكا
سيأتيك يومٌ لست فيه بمكرمٍ
بأكثر من حثوِ التراب عليكا[(١)]

فأنت يا أخي الكريم في سفرٍ منذ بزوغ فجر دنياك ولكن:

وما تدري وإن أجمعت أمراً
بأي الأرض يدركك المقيلُ

فهل تجهَّزت لهذا المقيل؟ واستعددت لهذا الرَّحيل؟ فهو ـ والله ـ خطبٌ جليلٌ، وأمرٌ مهيلٌ، وقد قال عمر بن عبدالعزيز: «من قَرب الموت من قلبه استكثر ما في يديه»[(٢)].

وذلك من الأعمال الصَّالحة؛ استعداداً لدارٍ ترحل إليها وحيداً، لا مال ولا جاه ولا منصب، ولا أحباب هناك ولا أصحاب، وحيداً في قبرك، حتى أقرب الناس إليك لا يؤنس وحشتك.

كان بلال بن سعد يقول في وعظه: «يا أهل الخلود ويا أهل البقاء.. إنَّكم لم تخلقوا للفناء، وإنَّما خُلِقْتُم للخلود والأبد، وإنَّكم تنقلون من دارٍ إلى دار»[(٣)].

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص٣٠١.
(٢) شرح الصدور، ص٢١.
(٣) شرح الصدور، ص٢١.

ولهذه النقلة من الآلام والشدائد ما الله به عليم، كما قال أنس بن مالك: «لم يلقَ ابن آدم شدة قط منذ خلقه الله أشدَّ عليه من الموت»[1].

ومن هذه الأهوال نفكر في الهروب ونطرق جميع الدروب، ولكن:

فهُـــــنَّ المنـــــايـــــا أي وادٍ حللتـــــه
عليهـــــا القـــــدوم أو عليـــــك ستقـــــدم

أخي الحبيب:

لا تغرَّنَّك الصحَّة والقوة والعافية، ولا يغرنَّك الشَّباب وكلام الأصحاب.

لا يغـــــرنَّـــــك عِشـــــاء ســـــاكـــــنٌ
قـــــد يـــــوافـــــي بـــــالمنيـــــات السَّحـــــر[2]

قد يأخذك على حين غفلة من أمرك، وأنت لا ترى الموت يصل إليك قريباً، بل تراه بعيداً وبعيداً جداً. فلا يغلب على تفكيرك حصوله حتى تصيبك سهامه، وتؤلمك سكراته.

قال أبو الدَّرداء: «أُحبُّ الفقر؛ تواضعاً لربِّي، وأحبُّ الموت؛ اشتياقاً لربِّي، وأحبُّ المرض؛ تكفيراً لخطيئتي»[3].

ونحن نرى الغبطة في كثرة الدنيا وزينتها. أما سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ فَلْنَرَ على ماذا كانوا يغبطون؟

---

(١) شرح الصدور، ص٣٤.
(٢) تاريخ عمر، ص٢٠٨.
(٣) شرح الصدور، ص١٥.

قال مسروق: «ما غبطت شيئاً بشيء كمؤمن في لحده، قد أمن من عذاب الله، واستراح من أذى الدنيا»[١].

فإننا ـ والله ـ في دار فتنة وابتلاء، وليس لنا إلا أن نلهج بالدعاء إلى الله بأن يقينا الفتن، ماظهر منها وما بطن، وبالثبات على دينه، والعمل على طاعته؛ فإنَّها سنوات معدودة..

فمن أمدَّ الله في عمره وتخطَّاه الموت في سني الصِّبا والشَّباب، فسيأتيه الشَّيب نذير الموت.

تقـــول النَّفـــس غيِّـــر لـــون هـــذا
عســـاك تطيـــب فـــي عمـــرٍ يسيـــرٍ
فقلـــت لهـــا المشيـــب نـــذيـــر عمـــري
ولســـت مُســـوداً وجـــه النَّـــذيـــر[٢]

فإنَّ هذا الشَّيب شهادةٌ له.

وهذا البياض الذي نهابه ونخافه قال عنه ﷺ: «**من شاب في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة**»[٣]. ألا فليحمدِ الله من أمدَّ الله في عمره حتى رأى بياض الشعر في رأسه ولحيته، وليعد إلى الله عوداً حميداً، فكم من الأقران وُسِّدوا لحود القبور منذ عشرات السنين وأنت أمهل الله لك في عمرك، تصلي، وتصوم، وتدعو، وتستغفر حتى اليوم. فكم من عمل صالحٍ عملت، وكم استغفار عن ذنب استغفرت.

---

(١) شرح الصدور، ص١٧.
(٢) شرح الصدور، ص٤٧.
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي عن كعب بن مرة.

رأيــت الشيــب مــن نُــذر المنــايــا
لصــاحبــه وحسبــك مــن نــذيــر[١]

وحسبك ـ إن شاء الله ـ أنه عمرٌ مديد في عملٍ صالح تجده يوم القيامة ذخراً لك. كما كان سفيان الثوري يقول: «عند الصَّباح يَحمد القوم السُّرى، وعند الممات يحمدُ القوم التُقى»[٢].

فمــا هــي إلا ســاعــةٌ ثــمَّ تنقضــي
ويــذهــب هــذا كلُّــه ويــزول[٣]

فالدُّنيا كالحلم تمرُّ مَرَّ السَّحاب، ساعة من زمنٍ ثمَّ تنقضي، ألا إنَّها ـ يا أخي ـ رحلةٌ بدأت وستنتهي.

أخــيَّ لا تــذهــب بــك المــذاهــب
أظلَّــك المــوت وأنــت لاعــب

أُخــيَّ إن المــوت قــد أظلــك
هَلَّــكَ أن تعنــى بــه لعلــك

قال خليد العصري: «كلُّنا قد أيقن بالموت ما نرى له مستعدَّاً، وكلُّنا قد أيقن بالجنَّة، ولا نرى له عاملاً، وكلُّنا قد أيقن بالنَّار، وما نرى لها خائفاً، فعلامَ ما تعرجون، وما عسيتم تنتظرون؟ الموت. فهو أول وارد عليكم في الله بخير أو شر، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً»[٤].

---

(١) التذكرة، ص٤٦.
(٢) الإحياء (٤/ ٤٣٥).
(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص٢٠.
(٤) صفة الصفوة (٣/ ٢٣١).

ولا ريب أن مما يوقظ الهمم ويقوي العزائم ذكر هادم اللذات.. والتفكر في مآل من سبق.

ولذلك.. يا أخي:

اعمـــد لنفســـك واذكـــر ســـاعـــة الأجـــل
ولا تُغَـــرَّنَّ فـــي دنيـــاك بـــالأمـــلِ
سـابِـق حتـوفَ الـرَّدى واعمـل علـى مهـل
مـادمـت فـي هـذه الـدُّنيـا علـى مِهـلِ[1]

فإن الدنيا دار ممر لا دار مقر، فكم رحل عنها الأجداد والآباء والأبناء. رحل عنها الرؤساء والوزراء. لن يبقى على وجه الأرض منهم أحد. من يجري على ظهرها. سيكون غداً في باطنها.

كـــلُّ حـــيٍّ إلـــى الفنـــاء يـــؤول
فتـــزوَّد إنَّ المقـــام قليـــلُ
نحـــن فـــي دار غـــربـــةٍ كـــلَّ يـــوم
ينقضـــي جيـــلٌ ويحـــدث جيـــلُ

فمن تخطَّاه الموت في زمن الصِّبا والشَّباب، ومدَّ الله في عمره، تحوَّلت قوته إلى ضعف وشدة حركته إلى سكون، وتلك الصحة إلى أسقام وأوجاع. ولكن تنبه يا غافلاً عن الموت؛ فهو يسير إليك وأنت نائم عنه، فلربما فاجأك وأنت بكامل الصحة والعافية؛ تجاهر الله بالمعاصي، وتغفل عن الطاعات، وتهجر النوافل، وتترك العبادات!

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص٣٦١.

يـــا راقـــدَ الليـــل مســـروراً بـــأوَّلـــه
إنَّ الحـــوادث قـــد يطـــرقـــن أسحـــاراً
لا تفـــرحـــنَّ بليـــلٍ طـــاب أولـــه
فَـــرُبَّ آخـــر ليـــل أجـــج النَّـــارا
عـــادت تـــرابـــاً أكـــفُّ المُلهيـــات وقـــد
كـــانـــت تحـــرك عيـــدانـــاً وأوتـــارا[1]

سُئل الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «يا أبا سعيد، كيف رأيت حالك؟ فقال: حال من ينتظر الموت إذا أمسى، وإذا أصبح لا يدري هل يُمسي؟ وكيف يموت؟».

فما أبلغه من جوابٍ! وما أعظمه من استعداد! ونحن منذ خروجنا إلى الدنيا نعلم أن الموت يترصَّدنا في كل ناحية وبقعةٍ، ولكنَّنا نغفل عن هذا!. والدنيا كيوم من نهار، فلو قيل للحي في نهاره ـ الذي هو عمرك في هذه الدنيا ـ: إنَّ هناك عدواً سيخرج عليك في أيِّ لحظة من هذا اليوم، لاستعددت له ولتجهزت لفجأته، فهذه الدنيا وهذا الموت بماذا استعددت له؟ وبماذا تجهزت؟

قال مطرف بن عبدالله بن الشَّخير: «إنَّ هذا الموت نغَّص على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه، فكيف ووراءه يومٌ يُعدم فيه الجواب، وتدهش فيه الألباب، وتفنى في شرحه الأقلام والكتاب، ويترك النظر فيه والاهتمام به الأولياء والأحباب»[2].

---

(١) طبقات الحنابلة (٤/ ١٩٢).
(٢) العاقبة، ص٢٦.

فلعل الموعظة تقع في قلوبنا موقعاً حسناً، ونعود إلى الله عوداً سريعاً، فما أفرح الله ـ جلَّ وعلاَّ ـ بعودة المذنب وإقبال التَّائب!.

تــــزوَّد قـــرينـــاً مـــن فعـــالـــك إنَّمـــا
قـــريـــن الفتـــى فـــي القبـــر مـــاكـــان يعمـــلُ
ألا إنَّمـــــا الإنســـــان ضيـــــفٌ لأهلـــــه
يقيـــم قليـــلاً عنـــدهـــم ثـــمَّ يـــرحـــلُ

ويا أخي:

اعلم أنَّ الموت قادمٌ وخطره عظيم، وغفل عنه النَّاس لقلَّة حديثهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلبٍ فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت قلبه.

فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطرة أو يركب البحر، فإنه لا يتفكَّر إلا فيه[١].

عن **حميد** قال: «بينما الحسن في المسجد تنفَّس تنفساً شديداً، ثم بكى حتى أرعدت منكباه، ثم قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحاً، لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخّض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيومٍ قط أكثر من عورة بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة»[٢].

وفسَّر ذلك التَّلاهي وهذا التشاغل أبو سعيد بن عبدالرحمن عندما

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٧٩).
(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٣٤).

قال: «إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها»[١].

فلو توقف الإنسان عن الجري واللهث، وتفكر في القبر واللحد وما بعدهما، لما هنأ بعيش، ولما قامت المصالح، ولما عمرت الأسواق، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنَّ علينا بالنِّسيان رحمة منه، ولهذا يُنبه السَّاهي ويُذكر الغافل.

يا ساهياً ياغافلاً عمَّا يُراد له
حان الرَّحيل فما أعددت من زاد
تظن أنَّك تبقى سرمداً أبداً
هيهات أنت غداً فيمن غدا غادي[٢]

يا أيُّها النَّاس:

اعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خداعة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المحلاة، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفةٌ، والنفوس لها عاشقةٌ، فكم من عاشقٍ لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دارٌ كثيرة بوائقها، وذمها خالقها. جديدها يبلى، ومُلكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقلُّ، ودُّها يموت، وخيرها يفوت. فاستيقظوا ـ رحمكم الله ـ من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلانٌ عليلٌ أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل؟ وهل إلى

---

(١) الإحياء (٢٨٢).
(٢) الزهر الفائح، ص٥٩.

الطبيب من سبيل؟ فَتُدْعى لك الأطباء، ولا يُرجى لك الشِّفاء.

ثم يقال: فلانٌ أوصى، ولما له أحصى.

ثم يقال: قد ثَقُلَ لسانه، فما يكلِّم إخوانه، ولا يعرف جيرانه.

وعَرِقَ عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك.

وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان.

ومُنعت من الكلام فلا تنطق، وخُتم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عُرِجَ بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسَّلوك وكفَّنوك، فانقطع عوَّادك، واستراح حُسَّادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهناً بأعمالك[1].

فالله الله يا أخي..

أُشْدُدْ حيازمك للموت ... فإنَّ الموت آتيك

ولا تجزع من الموت ... إذا حلَّ بواديك[2]

ولكن ماذا أعددنا لهذا اليوم؟ وكيف استعددنا لهذا الرَّحيل؟ أهو كما ذكر **حوشب عند مالك بن دينار** عندما قال: «سمعت منادياً ينادي: أيها الناس، الرَّحيلَ الرَّحيل، فما رأيت أحداً قام غير محمد بن واسع، فبكى

---

(١) الإحياء (٣/ ٢٢٥).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٣٧).

مالك حتى سقط أو كاد يسقط؟»[١].

وها نحن يُنادى علينا كلَّ يوم: **الرَّحيل الرَّحيل**.

فرحم الله من قام وأطاع، واستعد ليوم يُرحل به من هذه البقاع.

أين نحن أخي الحبيب مما قاله **سفيان الثوري**: «رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، لو أتاني ما أمرته بشيء، ولا نهيته عن شيء، ولا ليَّ على أحد شيء ولا لأحدٍ عندي شيء؟»

ونحن ـ إلا من رحم ربي ـ لو أتانا الموت وأمهلنا لاحتجنا إلى سنواتٍ طويلة نرتب أمورنا، ونسدد حقوقنا، ونطيع الله حق طاعته. ولكن رحمة من الله لنا كما قال **مطرِّف بن عبدالله**: «لو علمت متى أجلي لخشيتُ على ذهاب عقلي، ولكن الله منَّ على عباده بالغفلة من الموت، ولولا الغفلة ما تهنَّأوا بعيشٍ، ولا قامت بينهم الأسواق»[٢].

ونحن في دار العمل نتراخى ونتكاسل! فمتى العمل؟ أبعد الموت؟ أعند نزول الموت؟ أفي القبر؟!

نحن في سعة من أمرنا، وفي حال الطَّلب والتَّوبة والاجتهاد في العبادة. وقد علم **يزيد الرقاشي** ذلك، فكان يخاطب نفسه فيقول: «ابكِ يازيد على نفسك قبل حين البكاء، يا يزيد، من يصلِّي لك بعدك؟ أو من يصوم؟ يا يزيد، من يضرع لك إلى ربِّك بعدك؟ ومن يدعو؟»[٣].

---

(١) الزهد، ص٤٥٦، وصفة الصفوة (٣/ ٢٦٧).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٢٥).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٢٩٠).

ألا كلّ حيٍّ هالكٌ وابن هالكٍ
وذو نسبٍ في الهالكين عريقِ
فقل لغريب الدّار إنَّك راحلٌ
إلى منزلٍ نابي المحل سحيقِ
ولا تعدم الدُّنيا الدَّنيَّة أهلها
شواظ نارٍ أو دخان حريقِ
تجرع فيها هالكاً فقد هالكٍ
وتشجى فريقاً منهم بفريقِ
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها
قراراً فما دنياك غير طريقِ
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفت
له عن عدو في ثياب صديقِ
عليك بدارٍ لا يزول ظلالها
ولا يتأذى أهلها بمضيقِ
فما يبلغ الراضي رضاه ببلغة
ولا ينفع الصادي صداه بريقِ[1]

كان مطرف بن عبدالله يقول: «إنَّ هذا الموت قد أفسد على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه»[2].

وذلك بالاتجاه إلى الله وعبادته حق عبادته، وصدق العودة إليه ـ جلَّ

---

(١) المدهش، ص١٩٨.
(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٢٤).

وعلاَّ ـ، كما قال **العلاء بن زياد** ـ رحمه الله تعالى ـ: «ليُنزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله»(١).

فلو أنزلنا أنفسنا في هذه المنزلة، وأوقفنا أنفسنا هذا الموقف لتغيَّرت أعمالنا، وصدقت نياتنا، وعلمنا مدى التقصير الذي نحن فيه، ولجعلنا عملنا في هذه الدنيا عملاً متواصلاً لا فتور فيه ولا ملل؛ حتى نكون مثل ما قال **سفيان**: «كان يُقال: الموت راحة العابد»(٢).

فانظر في غدك، ودنو أجلك، وقلة عملك، فقد كتب بعض الحكماء إلى رجلٍ من إخوانه: «يا أخي، احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنَّى فيها الموت فلا تجده».

نعم، حتى الموت مع شدَّته وآلامه يُتمنَّى فلا يوجد؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

خلودٌ في جنة ـ جعلنا الله من أهلها ـ أو نارٌ حامية ـ والعياذ بالله ـ ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى: ٧].

أما ما أفنيت شبابك وصحتك وعمرك في جمعه من المال فإذا لم تُقدمه أمامك في عمل صالح فإنَّه يكون كما قال **يحيى بن معاذ**: «مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كلُّه، ويُسأل عنه كلُّه»(٣).

وقد قيل **لعبدالله بن عمر**: «توفى فلان الأنصاري، قال: رحمه الله،

(١) العاقبة، ص٩٠.
(٢) شرح الصدور، ص١٨.
(٣) الإحياء (٣/٢٤٨).

قالوا: ترك مائة ألف، قال: لكن هي لم تتركه. وكيف تتركه وهناك كتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟».

ومن أراد **الجنة** فلابد له من الموت، رغم آلامه وأهواله وغُصصه وروعاته. قال **ابن عبدربه لمكحول**: «أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يُحب الجنة، قال: فأَحْبِبِ الموت؛ فإنَّك لن ترى الجنة حتى تموت»[١].

الطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمورٌ بأهل اليقين والصبر، وهم على الطريق كالأعلام ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة: ٢٤][٢].

أخي المسلم:

وما هي إلا ليلةٌ ثم يومها
وحولٌ إلى حولٍ وشهرٌ إلى شهرِ
مطايا يقربن الجديد من البلى
ويدنين أشلاء الكريم إلى القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره
ويقسمن ما يحوي الشَّحيح من الوفر[٣]

صعد **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ ذات يوم المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر الموت فقال: «عبادَ الله، الموتُ ليس منه فوت،

---

(١) شرح الصدور، ص١٧.
(٢) الفوائد، ص٧٣.
(٣) شذرات الذهب (١/ ٢٧٦).

وإن قمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، فالنجاء النجاء، والوحا الوحا[١]، إن وراءكم طالباً حثيثاً، القبر، فاحذروا ضغطته وظلمته ووحشته، ألا وإن القبر حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث مرات، فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، ألا وإن وراء ذلك يوماً يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢]. ألا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه، نار حرها شديد، وقعرها بعيد، وحُليها ومقامعها من حديد، وماؤها صديد، وخازنها مالك، ليس فيه رحمة. ثم بكى، وبكى المسلمون حوله، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. جعلنا الله وإياكم من المتقين، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم[٢]».

أخي الحبيب:

متى نتوب؟ هل أجبت يوماً على هذا السؤال؟ ولكن لِنَرَ الجواب.

قال **بلال بن سعد** ـ رحمه الله ـ: يقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لِمَ؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحاً، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يُحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله ـ تعالى ـ ولا يؤخر عمل الدنيا[٣].

---

(١) الوحا: الإسراع والعجلة.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٤٩).

(٣) العاقبة، ص٩١.

وقيل لعتبة: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسَّعه عليك[١].

مـــالـــي أرى النـــاس والـــدنيـــا مـــوليـــة
وكـــل جمـــعٍ عليهـــا ســـوف ينتشـــر
لا يشعـــرون إذا مـــا دينهَـــم نقصُـــوا
يـــومـــاً وإن نقصـــت دنيـــاهـــم شعـــروا[٢]

فأكثر همِّ الواحد منَّا نقصُ الدنيا وزينتها!! ونادراً من نراه يغتم بفوات صلاة جماعة أو طاعة من الطاعات، بل أصبح الهم المشترك لغالب الناس اليوم همُّ الدنيا!!

قال بعضهم: «أيها الناس، إن الحكم قد وجب، وإن الموت قد اقترب، والعمر قد ذهب، فكم من آسفٍ عليه، وناظر بعين الشفقة إليه، وإن في تلاشي العمر ما يقصر عن أمل الأريب، ويجمع من همِّ اللبيب، ويرسل من عبرات الكئيب، فرحم الله امرأً بكى سواه؛ فعمل، واستقام، وتفكَّر، وأناب».

أين نحن من التفكُّر في أمرنا ومآلنا كما كانوا يتفكرون ولمآلهم يعملون؟ قال يوسف بن أسباط: «قال لي سفيان الثوري وقد صلَّينا العشاء الآخرة: ناولني المطهرة، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خده، ونمت فاستيقظت وقد طلع الفجر، فنظرت فإذا المطهرة بيمينه، ويساره على خده فقلت: يا أبا عبدالله، هذا الفجر قد طلع، قال:

---

(١) العاقبة، ص٤٠.
(٢) إرشاد العباد، ص٣٦.

لم أزل منذ ناولتني هذه المطهرة أتفكر في أمر الآخرة حتى الساعة[١]».

وجامع الخير من ذلك كلِّه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

سأل **حسان** ـ رضي الله عنه ـ أمه يوماً فقال: «يا أماه، أتحبين أن تلقي ـ الله تعالى ـ؟ قالت: لا، وقد عصيته».

وكان **الربيع بن خثيم** يقول: «أكثروا ذكر هذا الذي لم تذوقوا قبله مثله، ولن تذوقوه إلا مرة واحدة»[٢].

وقد حثنا **الحسن** بقوله: «يا بن آدم، بِعْ عاجلتك بعاقبتك تربحهما جميعاً، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك فتخسرهما جميعاً، الثَّواء[٣] هنا قليل، وقد أُسرع بخياركم، فماذا تنتظرون؟ المعاينة، فكأنها والله قد كانت، إنما ينتظر بأولكم أن يحلق بآخركم»[٤].

فتفكَّر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيُّظها، وقد كُلِّفْتَ أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار[٥].

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٤٨).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١١٤).
(٣) الثواء: الإقامة والبقاء.
(٤) التبصرة (١/ ٣٦٨).
(٥) التذكرة، ص٣٨٥.

مثِّلْ وقوفك يوم العرض عرياناً
مستوحشاً قلق الأحشاء حيرانَا
النار تلهب من غيظٍ ومن حنقٍ
على العُصاة وربُّ العرش غضبانَا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهلٍ
فهل ترى فيه حرفاً غير ماكانا
لما قرأتَ ولم تنكر قراءته
إقرار من عرف الأشياء عرفانَا
نادى الجليل: خذوه يا ملائكتي
وامضُوا بعبدٍ عصى للنار عطشانَا
المشركون غداً في النار يلتهبوا
والمؤمنون بدار الخلد سُكَّانَا[1]

اللهم اجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. اللهم اجعلنا من ورثة جنة النعيم نحن وآباءنا وأمهاتنا وذرياتنا، وحرم وجوهنا على النار.

قال الحسن: «لولا ثلاثة ما طأطأ ابنُ آدم رأسه: الموت، والمرض، والفقر. وإنَّه بعد ذلك لوثَّاب»[2].

وهذا الموت جعله الله نهاية كلِّ حيٍّ، وهو آية من آيات الله تدل على قوته وعظمته وجبروته، فالحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة،

(١) التذكرة، ص٢٩٤.
(٢) الحسن البصري، ص٤١.

وكسر به الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق، فأرداهم في الحافرة، فنُقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلم اللحود[١].

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم لقاك. اللهم إنا نعوذ بك أن يتخبطنا الشيطان عند الموت.

* * *

(١) الإحياء (٤/٤٧٥).

هديه ﷺ في الجنائز[1]

كان هديُه ﷺ في الجنائز أكمل الهدى، مخالفاً لهدي سائر الأمم، مشتملاً على الإحسان إلى الميت ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة عبودية الحي لله وحده فيما يُعامل به الميت.

وكان من هديه في الجنائز إقامة العبودية للربِّ ـ تبارك وتعالى ـ على أكمل الأحوال، والإحسان إلى الميت، وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها، ووقوفه ووقوف أصحابه صفوفاً يحمدون الله، ويستغفرون له، ويسألون له المغفرة والرحمة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه حفرته، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له التثبيت أحوج ما كان إليه، ثم يتعاهدُه بالزيارة له في قبره، والسلام عليه، والدعاء له كما يتعاهدُ الحي صاحبه في دار الدنيا. فأول ذلك: تعاهدُه في مرضه وتذكيرهُ الآخرة، وأمرهُ بالوصية، والتوبة، وأمرُ من حضره بتلقينه شهادة أن لا إله إلا الله، لتكون آخر كلامه، ثم النهيُ عن عادة الأمم التي لا تؤمن بالبعث والنُّشور، من لطم الخدود، وشق الثياب، وحلق الرؤوس، ورفع الصوت بالندب، والنياحة وتوابع ذلك. وسَنَّ الخشوع للميت، والبكاء الذي لا صوت معه، وحزن القلب. وكان يفعل ذلك ويقول: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي**

---

(١) زاد المعاد (١/٤٩٨) وما بعدها.

الرب»[١]. وسَنَّ لأمته الحمدَ والاسترجاع، والرضا عن الله، ولم يكن ذلك منافياً لدمع العين وحُزن القلب، ولذلك كان أرضى الخلق عن الله في قضائه، وأعظمهم له حمداً.

***

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ.

الوقفة الثانية:

الاحتضار

الاحتضار

قال ـ تعالى ـ في أصدق وصفٍ وأحسن تعبير: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ [ق: ١٩ـ٢٠].

وما أدراك ـ ياأخي ـ ما هذا المجيء لسكرات الموت، مجيءٌ لا مناص عنه ولا مهرب، لاتجدي معه حيلةٌ، ولا تنفع معه وسيلة، إنه بداية نهايتك من هذه الدنيا والانقطاع عنها، والإقبال على الآخرة ودخول معبرها، وترك ما وراءك من الأموال والقصور والأهل والدور.

إنها ـ والله ـ ساعةٌ مهولة، ذات كربٍ شديد، وما بعدها إلا وعدٌ أو وعيد، لو تفكَّرت في حلولها وأنت في نعيم وهناء لتكدرت حياتك، ولهانت الدنيا عندك، وصغر عظيمها في عينك، ولتبدَّل فرحك حزناً وسعادتك كدراً. كيف لا، وأنت تفارق المال والولد، والأحباب والأصحاب، إلى دار الجزاء الحساب؟ أهوالٌ تهون عندها أهوال، حتى تنتهي إلى أحد الفريقين: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾[الشورى: ٧].

ولشدةِ سكرات الموت التي أصابت خير الأنبياء والمرسلين وأكرم الخلق على الله أجمعين، فقد قال ﷺ وهو يُدخِل يديه في ركوة ماء ويمسح بها وجهه الشريف: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكراتٍ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن عائشة.

ولما رأت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشّاه قالت: واكرب أباه، فقال لها: «**ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم**»[١].

ونحن ندعو بأثره ﷺ، اللهمَّ، هوِّن علينا سكرات الموت إذا حلت، وثبتنا إذا وقعت؛ فثقل اللسان، وأُغمضت العينان، ومُدت الأكفان. فاللهم برحمتك إلى الجنان.

قال ﷺ: «**ما من أحدٍ يموت إلا ندم، إن كان مُحسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مُسيئاً ندم أن لا يكون نَزَعَ**»[٢].

فهذه الدنيا مزرعة الأخرة، فإن المحسن يتمنى زيادة الإحسان، رفعة في الدرجات وعلواً في المقامات، أما المسيء فيندم على تفريطه في التوبة ودخوله على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بذنوب وأوزار لم يتب منها، يَأمل في التوبة وربما فاجأه الموت قبل ذلك.

حكـــمُ المنيـــة فـــي البـــريَّـــة جـــارِ
مـــا هـــذه الـــدُّنيـــا بـــدار قـــرارِ[٣]

ولذلك قال **الحسن** ـ رحمه الله تعالى ـ: «فضح الموت الدنيا؛ لم يترك لذي لُبٍّ فرحاً[٤]».

فإنه ـ والله ـ ما ترك لهارب سُبُلاً ولا لمحتالٍ حيلاً.

---

(١) أخرجه البخاري عن أنس.
(٢) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وفيه ضعف.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٨٢.
(٤) الإحياء ٤/ ٤٧٩، والسير ٤/ ٥٨٥.

هو الموت فاصنع كلَّ ما أنت صانعُ
وأنت لكأس الموت لابد جارع[1]

أخي الحبيب:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كربٌ ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغَّص عليه عيشه، ويتكدَّر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته. وحقيقٌ بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده[2].

كيف ونحن نعلم أن وراء الموت القبر وظلمته، والصراط ودقته، والحساب وشدته؟ أهوالٌ وأهوال، والنهاية جنةٌ أو نار؛ قال - تعالى -: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠)﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

إنه مشهد الموت، الموت الذي ينتهي إليه كلُّ حيٍّ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حيٌّ، الموت الذي يُفَرِّق بين الأحبة، ويمضي في طريقه ولا يتوقف، ولا يستجيب لصرخة ملهوف، ولا لحسرة مفارق ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف، الموت الذي به يُصرع الجبابرة، ويُقهر به المتسلِّطون كما يقهر به المستضعفون سواء، الموت الذي لا حيلة للبشر فيه، وهم مع ذلك لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه، وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير، وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزوغ منه

---

(١) موارد الظمآن ٣/٦٢٨.
(٢) الإحياء ٤/٤٩٠.

الأبصار، ويتلفت الحاضرون حول المحتضر، يتلمَّسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ روح المكروب ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ لعل رقيةً تغيِّر وتلوي المكروب من السكرات والنزع ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ وبطلت كل حيلة، وعجزت كل وسيلة، وتبين الطريق الواحد الذي يسابق إليه كل حي في نهاية المطاف ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾[1].

روي أن ملك الموت دخل على داود ـ عليه السلام ـ فقال: «من أنت؟ فقال: من لا يهاب الملوك، ولا تُمنع منه القصور، ولا يقبل الرُشا.

قال: فإذاً أنت ملك الموت، قال: نعم، قال: أتيتني ولم أستعدّ بعد. قال: يا داود، أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات. قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد؟[2]».

ووالله، إنَّ في ذلك لعبرة، فنحن نودع الآباء والأبناء، ونرى كيف يوسَّدون الثرى، ولكننا لا نتفكر فيما نحن عليه مقبلون، ولممرٍّ نحن له عابرون، وطريقٍ عليه سائرون.

بكى **الحسن البصري** عند موته وقال: «نُفيسةٌ ضعيفة، أمر مهولٌ عظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون».

ولو تفكرت ـ ياأخي الحبيب ـ الآن في أن الموت ببابك وملك الموت يطلب جنابك لعلمت هول المطلع، ووالله لفزعت وذُهلت، هذا وأنت بحال الدنيا، فكيف والأمر جد، ومن الموت لابد؟.

---

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص١٢.

(٢) التذكرة، ص٤٨.

يا قابضَ الروح من نفس إذا احتضرت
وغافر الذَّنب زحزحني عن النَّارِ[١]

قيل إنَّ أبا وهب ـ زاهد الأندلس ـ باع ماعُونَه قبل موته فقيل: ماهذا؟ قال: أريد سفراً، فمات بعد أيام يسيرة[٢].

والإنسان في هذه الدنيا مسافر منذ أن يخطو على هذه الأرض، ولابد له أن يحط عصا الترحال يوماً من الأيام طالت أو قصرت.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمرُ وهو على حصير قد أثَّر في جنبه، فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشاً أَوْثَرَ من هذا؟ فقال: «**مالي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة من نهار، ثم راح وتركها**»[٣].

فأين نحن اليوم وواقعنا من هذا الحديث الشريف؟ قد اتخذنا من مياثر الفرش وفاخر الرياض ما قست القلوب ونُسي الموت والكروب.

قال **الحسن**: لو علم ابن آدم أن له في الموت راحة وفرحاً، لشق عليه أن يأتيه الموت، لما يعلم من فظاعته وشدته وهوله، فكيف وهو لا يعلم ما له في الموت؟! أَهَلْ لَهُ نعيمٌ دائم أم عذاب مقيم؟!

وكان يقول ـ رحمه الله ـ: «من لم يمت فجأة، مرض فجأة، فاتقوا الله واحذروا مفاجأة ربكم»[٤].

---

(١) شذرات الذهب ١/ ١٢١.
(٢) السير ١٥/ ٥٠٧.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد والحاكم عن ابن عباس.
(٤) الحسن البصري، ص١٠٥.

هــو المــوت لا منجــا مــن المــوت والــذي
أحــاذر بعــد المــوت أدهــى وأفظــع.[(١)]

أخي الحبيب:

أين الأقران؟ وأين سلكوا؟ تالله، لقد فنوا وهلكوا. اجتمع الأضداد في الألحاد واشتركوا، وخانهم حبل الأمل بعد ما أمسكوا، ونوقشوا على ماخلفوا وتركوا، وصار غاية الأماني لو تركوا[(٢)].

لَّما احتضر **أبوبكر** ـ رضي الله عنه ـ، تمثَّلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بهذا البيت:

أعــاذل مــا يغنــي الحــذار عــن الفتــى
إذا حشــرجــت يــومــاً وضــاق بهــا الصــدر

فقال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ: ليس كذلك يا بنية، ولكن قولي: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق: ١٩]. ثم قال: انظروا ثوبَـيَّ هذين فاغسلوهما، ثم كفِّنوني فيهما؛ فإنَّ الحي أحوج إلى الجديد من الميت[(٣)].

ولمعرفة صفة هذا الموت الذي لا يحسُّ ألمه إلا من يعانيه فقد قال عمر لكعب أخبرني عن الموت. قال: ياأمير المؤمنين، هو مثل شجرةٍ كثيرةِ الشَّوك في جوف ابن آدم، فليس منه عرق ولا مفصل، وهو كرجل شديد الذِّراعين فهو يعالجها ينتزعها، فبكى عمر.

---

(١) تسلية أهل المصائب، ص٨٧.
(٢) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص٨٩.
(٣) الزهد، ص١٦٣.

للمــوتِ فــاعمــل بجــدٍ أيُّهــا الــرَّجــلُ
واعلــم بــأنَّــك مــن دنيــاك مــرتحــل
إلــى متــى أنــت فــي لهــوٍ وفــي لعــبٍ
تمســي وتُصبــح فــي اللــذات مشتغــل
كــأنــي بــك يــاذا الشَّيــب فــي كُــربٍ
بيــن الأحبَّــة قــد أودى بــك الأجــل
لمَّــا رأوك صــريعــاً بينهــم جــزعــوا
وودَّعــوك وقــالــوا قــد مضــى الــرجــل
فــاعمــل لنفســك يــا مسكيــن فــي مهــلٍ
مــا دام ينفعــك التــذكــار والعمــل
إن التَّقــيَّ جنــان الخُلــدِ مسكَنُــه
ينــال حــوراً عليهــا التَّــاج والحلــل
والمجــرميــن بنــارٍ لا خمــود لهــا
فــي كــلِّ وقــتٍ مــن الأوقــات تشتعــل[1]

قال وهب بن منبه: «كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها، فلم تعجبه، فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات، وكذلك طلب دابة فأُتي بها فلم تعجبه، حتى أُتي بدواب فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخةً، فجلاه كبراً، ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً، فجاءه رجل رثّ الهيئة فسلم، فلم يرد عليه السلام، فأخذ لجام

(١) بستان الواعظين، ص٢١٧.

دابته، فقال: أرسِل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً. قال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى أنزل، قال: لا، الآن. فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها، قال: هو سر، فأدنى له رأسه، فسارَّه وقال: أنا ملك الملوك، فتغير لون الملك، واضطرب لسانه، ثمَّ قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا، والله، لا ترى أهلك وثقلك أبداً، فقبض روحه، فَخَرَّ كأنه خشبة.

ثمَّ مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال، فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أُذنك، فقال: هات، فسارَّه وقال: أنا ملك الملوك، فقال: أهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته عليَّ، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليَّ أن ألقاه منك، فقال ملك الموت: اقضِ حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله ـ تعالى ـ، قال: فاختر على أيِّ حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم، إنِّي أُمِرْتُ بذلك، قال: فدعني أتوضَّأ وأصلِّي ثمَّ أقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه، وهو ساجد»[١].

ولنَرَ ثمن الزمن عندهم وقيمة الوقت لديهم واغتنامهم لذلك؛ فإنه لما احتضر **عامر بن عبدالله** بكى، وقال: «لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون، اللَّهم إنِّي أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله» ثمَّ لم يزل يرددها حتى مات ـ رحمه الله ـ.

---

(١) الإحياء ٤/٤٩٦.

والله، إنَّ الموت كما قال **مطرف بن عبدالله**: «قد أفسد على أهل النَّعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه»(١).

قال **صفوان بن سليم**: «في الموت راحة للمؤمن من شدائد الدنيا، وإن كان ذا غُصص وكُرَب»، ثم ذرفت عيناه(٢).

ومــامــن يخــاف المــوت والنــار آمــنٌ
ولكــن حــزيــن مــوجــع القلــب خــائــف
إذا تمــنَّ ذكــر المــوت أوجــع قلبــه
وهيــج أحــزانــاً ذنــوبٌ ســوالــفُ

وانظر إلى تأسُّفهم على الدنيا وما فيها لمعرفتهم أنَّها دار عمل؛ فقد بكى أحد العبَّاد عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أن يصوم الصائمون ولستُ فيهم، ويذكر الذَّاكرون ولستُ فيهم، ويصلي المصلون ولستُ فيهم.

أخي الحبيب:

أيام عمرك أيام قلائل، لحظات محسوبة، وأنفاس معدودة، لو أردت زيادة في عمرك ولو للحظات ـ مقابل أموال الدنيا أجمع ـ لما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فكيف بك الآن تضيِّعها في غير طاعة الله؟

وقد ذكر ذلك **أبوحازم** فقال: «إن بضاعة الآخرة كاسدة، يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى

---

(١) السير ١٩/٤.
(٢) السير ٣٦٦/٥.

حالٍ يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية»[١].

ونحن نضيع أعمارنا، وننفق أوقاتنا فيما لا طائل من ورائه، بل إننا فرحون مستبشرون بذلك!

وقد مر **الحسن** برجلٍ يضحك، فقال: يا ابن أخي، هل جُزتَ الصراط؟ فقال الرجل: لا، قال: فهل علمت إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ فقال: لا، قال: فَفِيمَ الضَّحك؟! عافاك الله والأمر هول»، فما رئي الرجل ضاحكاً حتى مات[٢].

ولغلبة الهوى والنفوس والبعد عن الآخرة، ومن باب الموعظة والتذكير:

كان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يقول: أكثروا من ذكر النار؛ فإن حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد[٣].

ولما حضرت الوفاة **فضيل بن عياض** ـ رحمه الله ـ غشي عليه، ثم أفاق وقال: «يابعد سفري وقلَّة زادي»[٤].

أخي الحبيب:

أيُّ سفر أطول من هذا السفر، وأي زاد تحتاج: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: ١٩٧].

أما الموت الذي لم نذقه بعد فلا نَعرفُ ألمه وشدته إلا حين يقع. وكل منا سيمر بتلك اللحظات العصيبة والدقائق الرهيبة؛ الأنفاس

(١) جامع العلوم والحكم، ص٤٦٨.
(٢) الحسن البصري، ص٨٩.
(٣) الحسن البصري، ص١٠٨.
(٤) العاقبة، ص١٣٣.

مشدودة، والعين حائرة كسيرة. إنها لحظة الاحتضار.

وحين تفتح عينك وملك الموت واقف على رأسك، تُفكر في ماذا تلك اللحظات. أما ونحن لم نذق الموت بَعَدُ؛ ألمه وغُصَصه وكُربه. ماهي؟ لنسير لحظات في زمن مضى لنر تلك اللحظات العصيبة والدقائق الحرجة وكيف مرت على أناس قبلنا فذاقوا طعمها وعرفوا شدتها.

لما احتضر **عمرو بن العاص** سأله ابنه عن صفة الموت فقال: «والله لكأن جنبي في تختٍ[(١)] ولكأنّي أتنفَّس من سَمِّ إبرةٍ، وكأنَّ غصن شوك يُجرّ به قدمي إلى هامتي»[(٢)].

هذا هو الموت وهذه شدَّته. سيكون تفكيرك في تلك اللحظات منحصراً في أيِّ الأبواب ستُدخَل؟ وفي أيِّ الدارين تُسكَن؟ وأيِّ المساكن تنزل؟

قال **محمد بن واسع**، وهو في الموت: «ياإخوتاه، تدرون أين يُذهب بي؟ يُذهب بي والله الذي لا إله إلا هو إلى النَّار، أو يعفو عنّي[(٣)]».

وقد **قيل لجابر بن زيد** عند موته: ما تشتهي؟ فقال: نظرة إلى الحسن، فجاء الحسن، فلما دخل عليه قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه وقال: ياإخوتاه، الساعة أفارقكم إما إلى الجنة وإما إلى النار.

مـــــاهـــــي إلا جنَّــــــةٌ ونـــــارٌ

أفلـــح مـــن كـــان لـــه اعتبـــارُ

---

(١) التخت: وعاء تصان فيه الثياب.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص٤٤٩.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٧١.

قال **عبدالله بن عبدالعزيز العمري** عند موته: «بنعمة ربِّي أُحدِّث. إنِّي لم أُصبح أملك إلا سبعة دراهم من لماء شجرة مثلثها بيدي، وبنعمة ربِّي أُحدِّث. لو أنَّ الدنيا أصبحت تحت قدمي لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها ماأزلتها»[١].

أرأيت كيف الدنيا التي نحن نتهافت عليها كيف تكون عند الموت؟ ولمعرفتهم الصحيحة وإيمانهم الصادق كان **ابن سيرين** إذا ذكر الموت، مات كل عضو منه على حدَّته[٢].

وعند ذكر ما بعد الموت يهول الموت وشدته وألمه، خاصة إذا كان الخوف من فتنة الدين كما قال **سفيان الثوري**: ما من موطن من المواطن أشد عليّ من سكرة الموت أخاف أن يشدد علي، فأسأل التخفيف فلا أجاب فأُفتن»[٣].

ولنتأمل في نصيحة **محمد بن واسع**، وهي نصيحة قلبية صادقة في وقت حرج وزمنٍ ضيق، قال **محمد بن عبدالله مولى الثقفيني**: «دخلنا على محمد بن واسع وهو يقضي، فقال: يا إخوتي، يا إخوتاه، هبوني وإياكم سألنا الله الرجعة فأعطاكموها ومَنَعنِيها، فلا تخسروا أنفسكم»[٤].

فيا أخي:

لِنتمثَّل قوله، وأن الله أقالنا، فكم منا من شخص نجا من حادث،

---

(١) الثبات عند الممات، ص١٥٣.
(٢) العاقبة، ص٣٩.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٤٨.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٧١، والثبات عند الممات، ص١٤٦.

وآخر عوفي من مرض، وثالث صحيح معافى تخطاه الموت إلى غيرة، فلنعد إلى الله قبل أن نرى الموت عياناً، ولاتَ حين مناص ولا مهرب.

قـــل للطبيـــب تخطَّفتـــه يـــد الـــرَّدى
مـــن يـــا طبيـــب بطبِّـــه أرداكـــا
قـل للمـريـض نجـا وعـوفـي بعـدمـا
عجـــزت فنـــون الطِّـــب مـــن عـــافـــاكـــا
واســـأل بطـون النَّحـــل كيـــف تقـــاطـــرت
شهـــداً وقـــل للشَّهـــد مـــن حـــلاّكـــا
وإذا تـــرى الثُّعبـــان ينفـــث سُمَّـــه
فـــاســـألـــه مـــن ذا بـــالسمـــوم حشـــاكـــا
واســـألـــه كيـــف تعيـــش يـــا ثعبـــان
أو تحيـــا وهـــذا السـم يمـــلأ فـــاكـــا
فـــالحمـــد لله العظيـــم لـــذاتـــه
حمـــداً وليـــس لـــواحـــدٍ إلاَّكـــا

قال عبدالملك بن مروان في مرض موته: «ارفعوني، فرفعوه حتى شم الهواء، وقال: يا دنيا، ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإنا كنا بك لفي غرور[1]».

إخواني:

جدُّوا فقد سُبقتم، واستعدوا فقد لُحقتم، وانظروا بماذا من الهوى عُلقتم، ولا تغفلوا عمَّا له خُلقتم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكتبت

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٧٥.

الآثام وما أصغيتم، وكأنّكم بالصَّادقين قد وصلوا وانقطعتم، أهذا التوبيخ لغيركم؟ أو ما قد سمعتم؟!

كم سكن مثلك في هذه الدَّار، فحام الموت حول حماهم ودار، ثم ناهضهم وسلب الجار، فمن أنذر قبل هجومه فما جار، ياهذا، العمر عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل، وقد آن الآوان أن يرحل النزيل[١].

لقد خوَّفنا الموت بمن أخذ منا، ونعلم هجومه علينا وقد أَمِنَّا!!

قال **لقمان** لابنه: «يا بني، أمرٌ لا تدري متى يلقاك، استعد له قبل أن يفجأك»[٢].

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فياللموت من وعد ما أصدقه! ومن حاكم ما أعدله! كفى بالموت مقرحاً للقلوب، ومبكياً للعيون، ومفرِّقاً للجماعات، وهادماً للّذات، وقاطعاً للأمنيات.

فهل تفكَّرت يا بن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك؟ وإذا نُقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب الرفيق، وهجرك الأخ والصديق، أُخذتَ من فراشك وغطائك إلى عرر، وغطوك بعد لين لحافك بتراب وقذر، فيا جامع المال والمجتهد في البنيان، ليس لك والله من مالٍ إلا الأكفان. بل هي ـ والله ـ للخراب والذِّهاب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من المال؟ هل أنقذك

(١) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص٩١.
(٢) العاقبة، ص٩٢.

من الأهوال؟ كلا، بل تركته إلى مَنْ لا يحمدك، وقدِمتَ بأوزارك على من لا يعذرك[١].

**هـو المـوت مـا منـه مـلاذٌ ومهـربُ
متـى حـطَّ ذا عـن نعشـه ذاك يـركـبُ
نشـاهـد ذا عيـن اليقيـن حقيقـة
عليـه مضـى طفـل وكهـل وأشيـبُ**[٢]

قيل إنَّ يعقوبَ ـ عليه السلام ـ قال لملك الموت: إنِّي أسألك حاجة قال: وماهي؟ قال: أن تُعْلِمني إذا دنا أجلي، وأردت أن تقبض روحي؟ فقال: نعم، أُرسِل إليك رسولين أو ثلاثة، فلما انقضى أجله أتى إليه ملك الموت فقال: أزائرٌ جئت أم لقبض روحي؟ فقال: لقبض روحك، فقال: أوَلست كنت أخبرتني أنك ترسل إليّ رسولين أو ثلاثة؟ قال: قد فعلت. بياض شعرك بعد سواده، ضعف بدنك بعد قوته، انحناء جسمك بعد استقامته، هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت[٣].

وليس هذا هو السائد؛ فكم أخذ الموت من طفل رضيع، وكم أخذ مَن قد استقام عوده وشبّ؛ بل نرى أكثر أصحاب القبور من الشباب والأطفال والرضع.

ولكن **هاك نصيحة** موثقة تصلح لجميع الأعمار، وتُبنى بها الدِّيار في جنات الخلد؛ قال **أبو حازم سلمة بن دينار**: «كلُّ عملٍ تكره

(١) التذكرة، ص١٠.
(٢) موارد الظمآن ٣/ ٥٩٦.
(٣) إرشاد العباد، ص٧.

الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرك متى متّ»[١].

أرايت ـ **أخي الكريم** ـ كيف القياس؟

هاك الأخرى:

قال **ميمون بن مهران**: «من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلينظر في عمله، فإنه قادم على عمله كائناً من كان»[٢].

وجماع ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨].

وهذه نداءات قلبية صادقة من **أبي الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ، وهو يحتضر، فقد جعل يقول: «ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجلٌ يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟» وبكى، فقالت له امرأته: تبكي وقد صاحبت رسول الله ﷺ؟ فقال: «مالي لا أبكي ولا أدري عَلامَ أُهجم من ذنوبي».

ولكن أين الاستجابة لهذه النداءات المخلصة التي تهز أعماق المسلم وتذكره بتلك اللحظات القادمة إليه؟.

تفـــــتُّ فـــــؤادك الأيـــــام فتَّـــــا
وتنحـــت جسمـــك السَّـــاعـــات نحتـــاً

وتـــدعـــوك المنـــون دعـــاء صـــدقٍ
ألا يـــا صـــاحِ أنـــت أُريـــد أنتـــا[٣]

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٣.
(٢) حلية الأولياء ٤/ ٨٤.
(٣) موارد الظمآن ١/ ٥٣.

قال بعضهم: «دخلنا على عطاء السلمي نعوده في مرضه الذي مات فيه، فقلنا له: كيف ترى حالك؟ فقال: الموت في عنقي، والقبر بين يدي، والقيامة موقفي، وجسر جهنم طريقي، ولا أدري ما يفعل بي. ثم بكى بكاءً شديداً حتى غشي عليه، فلما أفاق، قال: اللهم ارحمني، وارحم وحشتي في القبر ومصرعي عند الموت، وارحم مقامي بين يديك يا أرحم الراحمين».

وصحب رجلٌ عمر بن الخطاب إلى مكة، فمات في الطريق، فاحتبس عليه عمر حتى صلى عليه ودفنه، فقلَّ يومٌ إلا كان عمر يتمثَّل:

وبـــالِـــغُ أمـــرٍ كـــان يـــأمـــل دونـــه
ومختلَـــج مـــن دون مـــا كـــان يـــأمـــلُ[1]

ويحكِ يا نفس، أما تخافين إذا بلغت النفس التراقي أن تبدو رُسُل ربك منحدرة إليك بسوء الألوان وقلح الوجوه وبشرى العذاب؟ فهل ينفعك حينئذٍ الندم، أو يقبل منك الحزن، أو يرحم منك البكاء؟. والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزنين لنقصان عمرك، وما نَفْعُ مالٍ يزيد وعمر ينقص[2].

وها هو أمير المؤمنين المأمون لما حضرته الوفاة أمر بحلِّ دابته ففرش له، فاضطجع عليه، ووضع الرَّماد على رأسه، وجعل يقول: «يا من لا

---

(١) تاريخ عمر، ص٢٠٨.
(٢) الإحياء ٤/٤٤٦.

يزول ملكه، ارحم اليوم من قد زال ملكه»[١].

ولما حضرت الوفاة **أبا جعفر المنصور** أمير المؤمنين، قال للربيع: «يا ربيع هذا السلطان، لا سلطان من يموت»[٢].

إنه الموت نهاية كلِّ حيٍّ، لايفلت منه أحد، ولا يُسبَق فيفوته أحد[٣].

هذا **عبدالملك بن مروان** عندما أيقن بالموت، قال: «والله لوددت أنِّي كنت منذ ولدت إلى يومي هذا حمالاً»[٤].

وقال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: «إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم[٥]».

فالموت قد عدل، ساوى بين الملك والصغير والكبير، يدخل الغرف الصغيرة، ولا يرده حاجب القصور الكبيرة، أفنى من ملكوا الدنيا، وقضى على من لا يملكون شيئاً من الدنيا، ولكن..

النَّـــــاس فـــــي غفـــــلاتهـــــم
ورحـــــى المنيَّـــــة تطحـــــنُ[٦]

قيل **لسعيد بن السائب**: كيف أصبحت؟ قال: «أصبحت أنتظر الموت على غير عدَّة»[٧].

---

(١) العاقبة ص١٣٠.
(٢) العاقبة، ص١٢٨.
(٣) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص٧.
(٤) تاريخ الخلفاء، ص٢٠٥.
(٥) الإحياء ٤/ ٤٨٠.
(٦) تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٢.
(٧) صفة الصفوة ٢/ ٢٨٣.

ولذلك يجب على كل من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعداً، ولا يغتر بالشباب والصحة؛ فإن أقل من يموت الأشياخ وأكثر من يموت الشبان، ولهذا يندر من يكبر.

يعمّر واحد فيُغَر قوم
ويُنسى من يموت من الشباب[1]

قال **أبو سليمان الداراني**: «قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا، قلت: ولِمَ؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقاً لكرهت لقاءه، فكيف بالخالق جلَّ جلاله»[2].

وعندما حضرت **معاوية بن أبي سفيان** الوفاة، قال: أقعدوني. فأُقعد، فجعل يسبّح الله ـ تعالى ـ ويذكره، ثم بكى. وقال: تَذْكُر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط، ألا كان هذا وغَضُّ الشباب نضرٌ ريان؟ وبكى حتى علا بكاؤه، وقال: يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقلَّ العثرة، واغفر الزلة، وجُد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولا يثق بأحدٍ سواك[3].

ولما كان **عمر بن عبدالعزيز** في مرضه الذي مات فيه قال: أجلسوني، فأجلسوه ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله. ثم رفع رأسه وأحدَّ النظر، فقالوا له: إنك لتنظر نظراً شديداً، قال: إني لأرى حضرة ما هم بإنسٍ ولا جن، ثم قبض[4].

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٦٢.
(٢) العاقبة، ص٣٠.
(٣) الثبات عند الممات، ص٨٩.
(٤) حلية الأولياء ٥/ ٣٣٥.

وقد قيل لعبد الله بن مروان في مرض موته: كيف تجدك؟ فقال: أجدني كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤][1].

والموت ـ **أخي الحبيب** ـ لم يَغِبْ عنا لنحتاج من يذكرنا به، فهو في كل يوم يحل بوادينا وللآخرة يدنينا، ولكننا غفلنا عنه، وتناسينا قربه وحلوله.

ولعلنا نكون كما قال **ابن السمَّاك**: «إن استطعت أن تكون كرجل ذاق الموت، وعاش ما بعده فسأل الرجعة، فأُسعِفَ بطلبه، وأُعطي حاجته، فهو متأهب مبادر، فافعل؛ فإن المغبون من لم يقدم من ماله شيئاً ومن نفسه لنفسه»[2].

الناس في غفلة والموت يوقظهم
وما يفيقون حتى ينفد العمر
ويُشَيِّعون أهاليهم بجمعهم
وينظرون إلى ما فيه قد قُبِروا
ويرجعون إلى أحلام غفلتهم
كأنهم ما رأوا شيئاً ولا نظروا[3]

والعمر زمنٌ يمر سريعاً كأضغاث أحلام؛ يراه الإنسان لا نهاية له، ويُلهِهِ الأمل عن الآخرة. ولذلك كان **المعتصم** يقول عند موته: «لو

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٧٤.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.
(٣) صيد الخاطر، ص١٤٩.

علمت أن عمري هكذا قصيرٌ ما فعلت»[١].

كلنا أعمارنا قصيرة، وآجالنا مكتوبة، وأنفاسنا معدودة، ولكن الخوف من نارٍ تلظّى. كما قال **مهدي بن ميمون**: «رأيت **حسان بن أبي سفيان** في مرضه، فقيل له: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، فقيل له: ما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة الطرفين، أُحيي ما بين طرفيها»[٢].

وروي أن **معاذ بن جبل** لما حضرته الوفاة قال: «انظروا هل أصبحنا؟ فأتى فقيل: لم تُصبح، حتى أُتي في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ثم قال: مرحباً بالموت زائر مُغيب، وحبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافُك.. وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُكب عند حَلَق الذكر»[٣].

أخي الحبيب:

أرأيت الحياة لديهم كيف تكون ولماذا يعيشون؟ أين نحن من ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء؟ أين نحن من طلب العلم والاستماع للعلماء؟ كيف نرى أوقاتنا الضائعة إذا وافانا الأجل وحان الرحيل؟

كان **حبيب العجمي** عند موته يبكي ويقول: «أريد أن أسافر سفراً ماسافرته قط، وأسلك طريقاً ما سلكته قط، وأزور سيدي ومولاي وما

---

(١) الثبات عند الممات، ص٩٢.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ١١٧.

(٣) منهاج القاصدين، ص٤٣١.

رأيته قط، وأشرف على أهوال ما شاهدتها قط».

فهـــنّ المنـــايـــا أي وادٍ سلكتـــه
عليهـــا طـــريقـــي، أو علـــيَّ طـــريقهـــا[١]

وكان استعدادهم للموت استعداد من لا يعلم متى يرحل، ولا متى ينتقل، فلا يُلهيه الأمل، ولا يثنيه بُعد الأجل. كانت **معاذة العدوية** إذا جاء النهار قالت: «هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تُصبح»[٢].

وبكى **أبو هريرة** في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكني أبكي على بُعد سفري وقلة زادي، وأني أصبحت في صعود مُهبطاً على جنة ونار، ولا أدري أيهما يؤخذ بي[٣].

فكـــم مـــن صحيـــح بـــات للمـــوت آمنـــاً
أتتـــه المنـــايـــا بغتـــة بعـــدمـــا هجـــعَ
فلـــم يستطـــع إذ جـــاءه المـــوت فجـــأة
فـــراراً ولا منـــه بقـــوّتـــه امتنـــعَ
فـــأصبـــح تبكيـــه النســـاء مقنعـــاً
ولا يسمـــع الـــداعـــي وإن صـــوتـــه ارتفـــعَ
وقُـــرِّب مـــن لحـــد مضـــار مقيلـــه
وفـــارق مـــا قـــد كـــان بـــالأمـــس قـــد جمـــعَ[٤]

أما أصحاب القصور والدور وأصحاب المناصب الذين يغبطهم الكثير

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٢.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢٢.
(٣) حلية الأولياء ١/ ٣٨٣.
(٤) التبصرة ١/ ٣٢٨.

من أهل الدنيا على هذه النعمة لِنَرَ حالهم عند الموت. إنها لحظات عصيبة؛ العيون شاخصة، والأنفاس متتابعة.

فقد قال **محمد بن منصور البغدادي**: دخلت على عبدالله بن طاهر وهو في سكرات الموت فقلت: السلام عليك أيها الأمير، فقال: «لا تسمِّني أميراً وسمني أسيراً».

ولما حضرت **عبدالملك** بن مروان الوفاة جعل يقول: «والله لوددت أنِّي عبدٌ لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها ولم ألي»[١].

وكان **المنتصر** يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: «لا بأس عليك ياأمير المؤمنين. فقال: «ليس إلا هذا، لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة»[٢].

وذُكر أن **الواثق** لما احتضر جعل يردد:

الموت فيه جميع الخلق مشترك
لا سوقه منهم يبقى ولا ملكُ
ماضر أهل قليل في تفارقهم
وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا[٣]

وهذا التفاوت في معايش الدنيا لا يرد الموت عن العدل بين الجميع؛ فهو بأمر الله مهلك القوي ومفني الدول، ولكن البدار البدار، التوبة قبل

---

(١) تسلية أهل المصائب، ص٨٨.
(٢) الثبات عند الممات، ص٩٢.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص٣١٨.

الموت. قال شفيق بن إبراهيم: استعد إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجعة[١].

والرجعة ـ **أخي الحبيب** ـ لن تعطى إياها، فلكل أجل كتاب، ولكن استعد للموت بالعمل الصالح وبالتوبة النصوح.

إن الخلائق في الدنيا لو اجتهدوا
أن يحبسوا عنك هذا الموت ما حَبَسوا
إن المنية حوض أنت تكرهه
وأنت عما قليل سوف تنغمس[٢]

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر: «دخلنا على ورقاء بن عمر بن كليب، وهو يموت، فجعل يكبر ويهلل ويَذكُر الله، فلما كَثُر الناس قال لابنه: اكفني رد السلام، لا يشغلوني عن ربي»[٣].

إنَّ الطَّبيب بطبِّه ودوائه
لا يستطيع دفاع مكروهٍ أتى
ما للطَّبيب يموت بالدَّاء الذي
قد كان يُبري منه فيما قد مضى
ذهب المُداوِي والمُداوَى والذي
جلب الدَّواء وباعه ومن اشترى[٤]

لما نزل الموت بحذيفة بن اليمان قال: «حبيبٌ جاء على فاقةٍ، قد

(١) الزهد للبيهقي، ص٢٣٩.
(٢) موارد الظمآن ٣/ ٤٧٥.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٣٠.
(٤) ديوان أبو العتاهية، ص٢٩.

كنت قبل اليوم أخشاك وأنا اليوم أرجوك[١].

وبكى **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ بكاءً شديداً، فقيل له: يا أبا سعيد ما يبكيك؟ فقال: خوفاً من أن يطرحني في النار ولا يُبَالِي[٢].

ونحن نرى قصص السَّلف تترى، ومواقفهم تتابع، أحاط بنا الموت من كلِّ جانبٍ، ورقت قلوبنا؛ لما نسمع من حالهم، وهم من هم في الصَّلاح والعبادة؛ حريٌ بنا أن نعي قول **العلاء بن زياد الغدوي**: «ليُنزِلَ أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه ـ تعالى ـ نفسه فأقاله، فليقل بطاعة الله»[٣].

فأقلْ ـ **أخي الحبيب** ـ نفسك من اليوم، وكن من بقية القوم الذين للموت استعدُّوا وللآخرة جدوا.

وحالنا قريبة من رجل قيل له وهو يجود بنفسه: ماحالك؟ فقال وما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد، ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى ملكٍ عدلٍ بلا حُجة[٤].

أخي:

كــــأن أهلــــك قــــد دعــــوك فلــــم
تسمــــع وأنــــت مُحشــــرجُ الصَّــــدر
وكــــأنهــــم قــــد قلَّبــــوك علــــى
ظهــــر السَّــــريــــر وأنــــت لا تــــدري

---

(١) العاقبة، ص١٤٦.

(٢) الزهر الفائح، ص٩١.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٤.

(٤) الأحياء ٢/ ٢٥١.

وكـــــأنَّهـــــم قـــــد زودوك بمــــا
يتـــــزود الهلكـــــى مـــــن العِطـــــر

أخي الحبيب:

يـــاليـــت شعـــري كيـــف أنـــت إذا
غُسِّلـــت بـــالكـــافـــور والســـدر
أو ليـــت شعـــري كيـــف أنـــت علـــى
نبـــش الضـــريـــح وظُلمـــة القبـــر
يـــاليـــت شعـــري مـــا أقـــول إذا
وضـــع الكتـــابُ صبيحـــة الحشـــر
يـــا ســـوأتـــا ممـــا اكتسبـــتُ ويـــا
أسفـــي علـــى مـــافـــات مـــن عمـــري
ألا أكـــون عقلـــت شـــأنـــي فـــاســـ
ـتقبلـــت مـــا استـــدبـــرت مـــن أمـــري[1]

لمَّا حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «والله ما أبكي لذنب أعلم أنِّي أتيته، ولكن أخاف أنِّي أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم»[2].

وكان بعض الصالحين ينادي بليلٍ على سور المدينة: الرحيلُ الرحيلُ، فلما توفي فقَد صوته أميرُ المدينة فسأل عنه، فقيل: إنه قد مات، فقال:

(١) التبصرة ١/ ٢٩.
(٢) الثبات عند الممات، ص٩٤.

مـــا زال يلهـــج بـــالـــرَّحيـــل وذِكـــره
حتـــى أنـــاخ ببـــابـــه الجمَّـــالُ
فـــأصـــابـــه متيقِّظـــاً مُتشمِّـــراً
ذا أُهبـــةٍ لـــم تُلهـــه الآمـــالُ[1]

ودخل ابن عباس على عمر بن الخطاب حين طُعن، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين، أسلمت مع رسول الله حين كفَر الناس، وقاتَلتَ مع رسول الله حين خذله الناس، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ، ولم يختلف في خلافتك رجلان، فقال عمر: أعد، فأعاد، فقال عمر: «المغرور من غررتموه، لو أنَّ لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلع»[2].

فلـــو كـــان هـــولُ المـــوت لا شـــيء بعـــده
لهـــان علينـــا الأمـــر واحتُقِـــر الأمـــرُ
ولكنـــه حشـــرٌ، ونشـــرٌ، وجنَّـــةٌ
ونـــارٌ ومـــا قـــد يستطيـــل بـــه الخبـــرُ[3]

وعن عمران الخياط قال: «دخلنا على إبراهيم النَّخعي نعوده، وهو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك أبا عمران؟ قال: انتظر ملك الموت، لا أدري يبشرني بالجنة أم بالنار»[4].

وصدق؛ فما بعد هذه الدنيا إلا جنةٌ ونار. هل نظرنا أين نحن ذاهبون؟

---

(١) التذكرة، ص١٠.
(٢) تاريخ عمر، ص٤٣، التذكرة، ص٩٧.
(٣) أبو العتاهية، ص١٨٩.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٨٩.

ولأي طريق نحن سالكون؟ اجتمع علينا طول أملٍ وغفلة. فاللهم أيقظ قلوبنا من سباتها، وأغثها بالإيمان وحسن الاعتبار.

قال **المغيرة بن حبيب**: «دخلنا على مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه، فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لفرج ولا لبطن»[١].

رحم الله الجميع. بيننا وبينهم البون الشاسع؛ فحبُّ الدنيا عندهم رغبة في العبادة والطاعة، أما الحال اليوم فلماذا حُب البقاء!!

قال **سليمان التيمي**: «دخلت على بعض أصحابنا وهو في النزع، فرأيت من جزعه ما ساءني، فقلت له: هذا الجَزعُ كُله لماذا، وقد كُنتَ ـ بحمد الله ـ على حالة صالحة؟ فقال: ومالي لا أجزع؟ ومن أحقُّ مني بالجزع؟ والله لو أتتني المغفرة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأهمَّني الحياءُ منه فيما أفضيت به إليه»[٢].

أخي الحبيب.. تأهّب..

إن للمـــوت سكـــرة فـــارتقبهـــا

لا يـــداويـــك إذا أتتـــك طبيـــبُ

أعاننا الله على لقائه، وجعلنا ممن استعد للموت وكربه وغصصه، وجعلنا مثل سلفنا الصالح، فقد كان **الجنيد** يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي، فختم، فقيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال:

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٦١.

(٢) تسلية أهل المصائب، ص٨٨.

ومن أحق مني بذلك، وهاهو ذا تطوى صحيفة عملي؟ ثم كَبَّر، ومات[(١)].

وحين حضرت **محمد بن سيرين** الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي؛ لتفريطي في الأيام الخالية، وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية».

والموت يمر عبر السطور، وتقشعر له النفوس، نتمنى أن ينتهي الحديث عن الموت، لكن لِنَرَ **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله ـ وهو يقول: «لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد»[(٢)].

الموت لا يفارق ذهنه ساعة، ونحن لا نصبر على سماع شيء عن الموت ولو ساعة، بل ربما يقوم بعضهم من المكان الذي فيه ذكرٌ للموت وحديث عن الاحتضار، وماذاك إلا من الغفلة، ورغبة في الدنيا ونعيمها الزائل. هذا وهو حديث في مكانٍ منعم بالنعم.

لنتأمل فعل أمير المؤمنين **هارون الرشيد** وهو ينتقي أكفانه بيده، وينظر إليها، ويقول: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٨ ـ ٢٩][(٣)].

لطول الغفلة وكثرة التعلق بالدنيا.. ربَّما لو وجد البعض ثوباً يشبه الكفن في بيته لأخرجه، فلا داعي له، وهل الموت قريب ليستعد له؟!

تنـــام ولـــم تنـــم عنـــك المنـــايـــا
تنبَّـــه للمنيـــــة يــــا نـــــؤومُ

(١) العاقبة، ص١٣٣.
(٢) العاقبة، ص٣٩.
(٣) العاقبة، ص١٢٨.

لما حضرت سليمان الفارسي الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «ماأبكي جزعاً على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب». فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهماً[1].

أخي الحبيب:

أنظر حولك.. أين نحن من هؤلاء؟!

ما النَّاسُ إلا واردٌ وصادرٌ
الطمعُ للغالب فقرٌ حاضر

ذكَّرنَا عمر بن عبدالعزيز بمآلنا وانقطاعنا عن الدنيا فقال: «ألا ترون أنكم تجهِّزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتضعونه في صدع من الأرض، قد توسَّد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب»[2]؟

سفري بعيد وزادي لم يبلغني
وقسوتي لم تزل والموت يطلبني
ولي بقايا ذنوبٍ لست أعلمها
الله يعلمها في السرِّ والعلن

لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب. فبكى نصر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هنا تموت فقيراً غريباً، فقال: اسكت؛ فإنِّي سألت الله أن

---

(١) الثبات عند الممات، ص٩٣.
(٢) الإحياء ٤/ ٤٨٠.

يحييني حياة السعداء ويميتني ميتة الفقراء، ثم قال: لقِّني الشهادة ولا تُعد علي إلا أن أتكلم بكلامٍ ثان[١].

إخواني:

كيف الأمن؟ وهذا **الفاروق** يقول: «لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهباً وفضة لافتديت بها، كيف الأمن من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر».

ولما طُعن **عمر** قال لابنه: «ضع خدي على التراب، فوضعه، فبكى حتى لصق الطين بعينيه وجعل يقول: ويلي، وويل أمي إن لم يرحمني ربي»[٢].

وقالت **أم الدَّرداء**: «كان أبو الدرداء إذا مات الرجل على الحال الصالحة قال: هنيئاً لك، يا ليتني كنت مكانك، فقالت أم الدرداء له في ذلك فقال: هل تعلمين يا حمقاء أن الرجل يصبح مؤمناً ويمسي منافقاً، يُسلَبُ إيمانه وهو لا يشعر، فأنا لهذا الميت أغبط مني لهذا بالبقاء في الصلاة والصيام»[٣].

قيل **للكناني** لما حضرته الوفاة: ماكان عملك؟ فقال: «لو لم يَقرُب أجلي ما أخبرتكم به. وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه»[٤].

أخي:

كم وقفنا على أبواب قلوبنا لنرى ولو ساعة من نهار؟

---

(١) العاقبة، ص١٤٥.
(٢) المدهش، ص١٩١.
(٣) شرح الصدور، ص١١.
(٤) الإحياء ٤/ ٥١٣.

مضى الدَّهر والأيام والذَّنب حاصلٌ
وجاء رسول الموت والقلب غافل
نعيمك في الدنيا غرورٌ وحسرةٌ
وعيشك في الدنيا محالٌ وباطل

لمَّا حضرت **بلالاً** الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: «بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه»[١].

وما الموت إلا رحلةٌ، غير أنَّها
من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي[٢]

وهذا **فاروق الأمة**، لِنَرَ خوفه من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد قال **عبدالله بن الزبير**: «ما أصابنا حزنٌ منذ اجتمع عقلي مثل حزنٍ أصابنا على عمر بن الخطاب ليلة طعن، قال: صلى بنا الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أسر الناس وأحسنهم حالاً. فلما كانت صلاة الفجر صلى بنا رجل أنكرنا تكبيره، فإذ هو عبدالرحمن بن عوف، فلما انصرفنا قيل: طُعن أمير المؤمنين. قال: فانصرف الناس وهو في دمه لم يصل الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين، الصلاة، الصلاة، قال: ها الله ذا لا حظَّ لامرئٍ في الإسلام ضيع الصلاة، قال: ثم وثب ليقوم، فانبعث جرحه دماً، قال: يا أيها الناس، أكان هذا على ملأ منكم؟ فقال له علي بن أبي طالب: لا والله، لا ندري من الطاعن من خلق الله. أنفسنا تفدي نفسك، ودماؤنا

---

(١) الثبات عند الممات، ص٩٣.
(٢) أبو العتاهية، ص٢٨٩.

تفدي دمك، فالتفت إلى عبدالله بن عباس فقال: اخرج، فسل الناس ما بالهم واصدقني الحديث.

فخرج، ثم جاء، فقال: يا أمير المؤمنين، أبشر بالجنة، لا والله ما رأيت عيناً تطرف من خلق من ذكر أو أنثى إلا باكية عليك، يفدونك بالآباء والأمهات، طعنك عبدالمغيرة بن شعبة، وطعن معك اثني عشر رجلاً فهم في دمائهم حتى يقضي الله فيهم ما هو قاض، تَهْنَك يا أمير المؤمنين الجنة. قال: غُرَّ بهذا غيري يا ابن عباس. وَلِمَ لا أقول لك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن كان إسلامك لعزاً، وإن كان هجرتك لفتحاً، وإن كانت ولايتك لعدلاً، ولقد قُتِلْتَ مظلوماً، ثم التفت إلى ابن عباس فقال: تشهد بذلك عندالله يوم القيامة؟ فكأنَّه تلكَّأ. قال: فقال علي بن أبي طالب وكان بجانبه: نعم، يا أمير المؤمنين نشهد لك عند الله يوم القيامة، قال: ثم التفت إلى ابنه عبدالله بن عمر فقال: ضع خدي إلى الأرض يا بني، قال: فلم أبح (أعبأ) بها، وظننت أن ذلك اختلاس من عقله. فقالها مرة أخرى: ضع خدي إلى الأرض يا بني، فلمَّا أفعل، ثم قال لي المرة الثالثة: ضع خدي إلى الأرض لا أم لك، فعرفت أنه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه إلا مابه من الغلبة، قال: فوضعت خده إلى الأرض حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجة من بين أضغاث التراب، قال: وبكى حتى نظرت إلى الطين قد لصق بعينيه، قال: وأصغيت بأذنين لأسمع ما يقول: قال: فسمعته وهو يقول: يا ويل عمر وويل أمه إن لم يتجاوز الله عنه»[١].

---

(١) تأريخ عمر، ص٢٤٥.

كتب الموت على الخلق فكم
فلَّ من جيش وأفنى من دول

قال **عبدالعزيز بن أبي رواد**: «دخلت على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه فقلت: أوصني. فقال: اعمل لهذا المضجع»[(١)].

ونحن ـ **ياأخي** ـ ماذا عملنا لهذا المضجع وماذا قدمنا ليوم الفزع؟

قيل **لأبي مسعود الأنصاري**: ماذا قال حذيفة بن اليمان عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ثلاثاً. ثم قال: اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنهما لن يُتركا عليّ إلا قليلاً حتى أُبَدِّل بهما خيراً منهما أو أُسلَبهما سلباً قبيحاً[(٢)].

خرجْتُ من الدُّنيا وقامت قيامتي
غداة أقل الحاملون جنازتي
وعجَّل أهلي حفر قبري وصيَّروا
خروجي وتعجيلي أجلَّ كرامتي
كأنَّهموا لم يعرفوا قط صورتي
غداة أتى يومي عليَّ وساعتي

وخُلُق المسلم عبادة يتقرب بها إلى الله؛ فهذا **سعيد بن العاص** لما حضرته الوفاة لم ينس إخوانه وأصحابه، فقد جمع بنيه، وقال لهم: «لا يفقدن أصحابي غير وجهي، وصِلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم، واكفوهم مؤنة الطَّلب؛ فإنَّ الرَّجل إذا طلب

(١) حلية الأولياء ٨/ ١٩٤.
(٢) السير ٢/ ٣٦٨.

الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه، مخافة أن يُردَّ»[١].

رحمك الله ورحم أيادٍ أعطت وخيراً أنفقت. فكم من فقير أطعمت وملهوف أنجدت.

قال **عمر بن عبدالعزيز**: «لولا أن تكون بدعة لحلفت أن لا أفرح من الدنيا بشيءٍ أبداً، حتى أعلم مما في وجوه رسل ربِّي إليَّ عند الموت، وما أحبُّ أن يهون عليَّ الموت؛ لأنَّه آخر مايؤجرُ عليه المؤمن»[٢].

وعن **المزني** قال: دخلت على الشافعي في علَّته التي مات فيها، فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدُّنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، ولسوء عملي ملاقياً، وعلى الله ـ تعالى ـ وارداً، فلا أدري روحي تصير إلى الجنَّة فأهنِّيها أو إلى النَّار فأعزِّيها، ثم بكى، فأنشد يقول:

ولمَّـا قسـا قلبـي وضـاقـت مـذاهبـي
جعلـت الـرَّجـا منِّـي لعفـوك سُلَّمَـا
تعـاظمنـي ذنبـي فلمَّـا قـرنتـه
بعفـوك ربِّـي كـان عفـوك أعظمـا
ومـازلـتَ ذا عفـو عـن الـذَّنـبِ لـم تـزل
تجـود وتعفـو منَّـة وتكـرُّمـا[٣]

ولما احتضر **سعيد بن المسيب** ترك دنانير، فقال: «اللهمَّ إنك تعلم

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٩٤.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣١٦.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ٢٨٥، والسير ١٠/ ٧٦.

أنِّي لم أتركها لأصون بها حَسَبي وديني»[١].

والكثير الآن من الأموال جُمعت من حرام، وأُودعت في حرام، وأُنفقت في حرام، وهو ـ رحمه الله ـ ترك دنانير؛ ليصون بها حسبه ودينه.

أرأيت ـ **أخي** ـ كيف تبدلت الأمور، وتغيَّرت المفاهيم؟ طالت الغفلة حتى نسي المسلم لماذا خُلق، والله ـ جلَّ وعلاَ ـ حدَّد ذلك بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

لما احتضر **عبدالرحمن بن الأسود** بكى، فقيل له. فقال: أسفاً على الصلاة والصوم. ولم يزل يتلو حتى مات[٢].

والخروج من هذه الدنيا خروج بكفن، وعمل صالح، تُحمل ملفوفاً بكفن تاركاً وراءك قصوراً شيدتها ودوراً بنيتها، فيها أحباب وأصحاب، وزوجات وأبناء.

وكل هذا لديك ولكنك ترحل بكفن. أرأيت كيف؟ قال **عمر بن الخطاب** لابنه: اقتصدوا في كفني؛ فإن كان لي عند الله خيرٌ أبدلني ما هو خيرٌ منه، وإن كنت على غير ذلك سلبني فأسرع سلبي. واقتصدوا في حفرتي؛ فإنه إن كان لي عند الله خيرٌ أوسع لي منها مد بصري، وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي[٣].

قالت **زينب بنت جحش** حين حضرتها الوفاة: إني قد أعددت كفني،

---

(١) السير ٤/٢٤٥.
(٢) السير ٥/١١٢.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص١٣٦.

فإن بعث لي عمر بكفن، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذا أدليتموني أن تصدقوا بحقوقي فافعلوا.

يـــــاربِّ أنــــت رجـــائـــي
وفيـــك حَسَّنـــتَ ظنـــي

يـــارب فـــاغفـــر ذنـــوبـــي
وعـــافنـــي واعـــف عنـــي

العفـــو منـــك إلهـــي
والـــذنـــب قـــد جـــاء منـــي

لما نزل الموت ببعض الصالحين، وكان على عليائه من العبادة والزهد، شق غليه وساءه ذلك، فقيل له: أتحب الحياة يا فلان؟ فقال: يا قوم، القدوم على الله شديد.

ولمَّا حضرت الحسن بن هانيء الوفاة أنشد:

دبَّ فـــيَّ السقـــام سفـــلاً وعلـــواً
وأرانـــي أمـــوت عضـــواً فعضـــواً

ليـــس مـــن ســـاعـــة مضـــت بـــي إلا
نقصتنـــي بمـــرِّهَـــا بـــيَّ جـــزواً

لهـــف نفســـي علـــى ليـــالٍ وأيـــا
م قضيتُهـــن لعبـــاً ولهـــواً

قـــد أســـأتُ كـــلَّ الإســـاءة فـــا
للَّهـــم صفحـــاً وغفـــرانـــاً وعفـــواً(١)

---

(١) العاقبة، ص١٣٧.

ودخل الحسن البصري على مريضٍ يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام ـ يرحمك الله ـ، فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه[(١)].

مشيناها خُطىً كُتِبَت علينا
ومن كُتِبَتْ عليه خُطىً مشاها
وأرزاقٌ لنا متفرقاتٌ
فمن لم تأته منا أتاها
ومن كُتِبَت منيتهُ بأرضٍ
فليس يموتُ في أرضٍ سواها[(٢)]

وقد بكى سفيان الثوري ليلةً إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: أُكلّ هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبنةً من الأرض وقال: الذنوب أهون من هذه، وإنما أبكي خوفاً من سوء الخاتمة».

وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يُغمى عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]. فمن هذا خاف السَّلف، من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى. قال: واعلم أن

---

(١) التذكرة، ص١٤.
(٢) التذكرة، ص٩٤.

سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه. ما سُمع بهذا، ولا عُلم به، ولله الحمد، إنَّما تكون لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرارٌ على الكبيرة، وإقدام على العظائم، فربَّما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطويّة، ويصطدم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة ـ والعياذ بالله ـ[1].

قــرُب الــرَّحيــل إلـــى ديـــار الآخـــرة
فـــاجعـــل إلهـــي خيـــر عمـــري آخـــره
وأرحـــم مبيتـــي فـــي القبـــور ووحـــدتـــي
وارحـــم عظـــامـــي حيـــن تبقـــى نـــاخـــرة[2]

يروى عن عبدالله بن شرمة أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي على مريضٍ نعوده، فوجدنا لما به، ورجلٌ يلقِّنه الشَّهادة ويقول له: قل لا إله إلا الله، وهو يُكثر عليه، فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلَّم المريض وقال: إنْ يلقني أو لا يلقني، فإني لا أدعُها، ثم قرأ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. فقال الشعبي: الحمد لله الذي نجّى صاحبنا[3].

قال رسول الله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» [رواه أبو داود والحاكم].

(١) الجواب الكافي، ص٢٤٥.
(٢) شذرات الذهب ٧/ ٦٩.
(٣) العاقبة، ص١٣٦.

أخي المسلم:

لشهادة «أن لا إله إلا الله» عند الموت تأثيرٌ عظيمٌ في تكفير السَّيئات وإحباطها؛ لأنَّها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسهُ المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلَّتْ بعد عزِّها، وخرج منها حرصُها على الدنيا وفضولها، واستخذَتْ بين يَدَي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذلَّ ما كانت له، وأرْجَى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرَّد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همّها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجَّهَ العبدُ وجههُ بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهَمِّه عليه. فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سرُّه وعلانيته فقال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه. وقد تخلص قلبُه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيرانُ شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرّتْه من ذنوبه، وأدخلتهُ على ربِّه، لأنه لقي ربَّه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرُّها علانيتها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلى الله من الناس، وأنِسَ به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلبٍ مشحونٍ بالشهواتِ وحُبِّ الحياة وأسبابها، ونفسٍ مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. فلو تجردتْ كتجرُّدها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان.

ماذا يملك من أمره وناصيتُه بيد الله ونفسهُ بيده، وقلبُه بين إصبعين من

أصابعه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته. فلا يتحرك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته. إن وكّله إلى غيره وكله إلى عجز وضيعه وتفريط وذنب وخطيئة، وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه، وجعله أسيراً له. فهو لا غنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطرٌّ إليه على مدى الأنفاس في كل ذرَّة من ذرَّاته باطناً وظاهراً. فاقتُه تامة إليه، ومع ذلك فهو متخلِّفٌ عنه مُعرضٌ عنه، يتبغَّض إليه بمعصيته، مع شدَّة الضَّرورة إليه من كل وجهٍ، قد صار لذكره نسيّاً واتخذه وراءه ظهرياً، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه[1].

وقال **محمد بن قاسم**: «دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور، فقال: يا أبا عبدالله، تعالَ أُبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بي الموت، وقد منَّ الله عليَّ. أنه مالي درهم يحاسبني الله عليه. ثم قال: أغلق الباب ولا تأذن لأحد حتى أموت، وتدفنون كتبي، واعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثاً غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ فيه وكتبي هذه، فلا تكلفوا الناس مؤنة. وكان معه صرة فيها ثلاثون درهماً، فقال: هذا لابني أهداه قريب له، ولا أعلم شيئاً أحل لي منه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أنت ومالك لأبيك**»[2] وقال: «**أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه**»[3] فكفنوني منها، فإن أصبتم لي

---

(١) الفوائد، ص٧٣.

(٢) صحيح: أخرجه البيهقي عن جابر والطبراني عن سمرة.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي والنسائي والبيهقي.

بعشرة ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي لبدي وغطوا عليها كسائي، وأعطوا إنائي مسكيناً»[١].

مـــن المـــوت لا ذو لصبـــرٍ ينجيـــه صبـــره
ولا لجـــزوع كـــاره المـــوت مَجـــزعُ
أرى كـــلَّ نفـــسٍ وإنْ طـــال عمـــرهـــا
وعـــاشـــت لهـــا ســـمٌّ مـــن المـــوت مُنقـــع
فكـــلُّ امـــرىءٍ لاقٍ مـــن المـــوت سكـــرةً
لـــه ســـاعـــةٌ فيهـــا يـــذلُّ ويضـــرعُ
وإنَّـــك مَـــنْ يعجبـــك لا تـــك مثلـــه
إذا أنـــت لـــم تصنـــع كمـــا كـــان يصنَـــعُ[٢]

لمَّا نزل الموتُ بسليمان التيمي قيل له: أبشر فقد كنت مجتهداً في طاعة الله ـ تعالى ـ، فقال: لا تقولوا هكذا؛ فإني لا أدري مايبدو لي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه يقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧][٣].

قال بعضهم: «عملوا أعمالاً كانوا يظنُّون أنها حسنات فوجدوها سيئات»[٤].

أخي الحبيب:

لا تُلهك الدنيا، ولا يغرك الأمل، ولكن:

---

(١) السير ١٢/١٩٩.
(٢) السير ٦/٢٩٥.
(٣) العاقبة، ص١٣٣.
(٤) مثل عبادات خالطها الرياء.

تـــزوَّد مِـــنْ الـــدُّنيـــا فـــإنَّـــك راحـــلٌ
وبـــادر فـــإنَّ المـــوت لاشـــكَّ نـــازلٌ

فإنَّه اليوم نازل بقريب، وغداً بحبيب، وأنت تتخطَّفك المنايا؛ فإن طال عمرك فإنَّك ترى كثرة من يقبـرُ وقلَّة من يعيش.

إن تبـــق تُفجـــع بـــالأحبَّـــة كلِّهـــم
وفنـــاءُ نفســـك لا أبـــالـــك أفجـــع[1]

لما احتضر **سعيد بن مروان** قال: «يا ليتني لم أكن شيئاً، ياليتني كهذا الماء الجاري» ثم قال: «هاتو كفني: أُفٍ لك، ما أقصر طويلك وأقلَّ كثيرك»[2].

ولمَّا احتضر **عثمان بن عفان** ـ رضي الله عنه ـ جعل يقول ودمه يسيل: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعين بك على أموري، وأسألك الصبر على بلائي»[3].

حكـــم المنيَّـــة فـــي البـــريَّـــة جـــارٍ
مـــاهـــذه الـــدُّنيـــا بـــدار قـــرارٍ[4]

وأي قرار في هذه الدنيا، فأين الأمم السابقة والآباء والأجداد؟ إنها والله دار العمل والتزود من الطاعة قبل الرحيل؛ فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، والخروج من دار العمل إلى دار الحساب شديد

---

(١) السير ١٢/ ٩.
(٢) السير ٤/ ٢٥٠.
(٣) العاقبة، ص١٢٢.
(٤) السير ١٩/ ٩.

كما قال **الفضيل بن عياض**: «الدخول في الدنيا هين، ولكن الخروج منها شديد»[(١)].

وقالت **فاطمة بنت عبدالملك بن مروان** امرأة عمر بن عبدالعزيز: «كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخفِ عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه، خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣] ثم هدأ، فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاماً، فقلت لوصيفٍ له: انظر أنائمٌ هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت»[(٢)].

ألـــم تـــر أنَّ الله يكفـــي عبـــاده
فحســـب عبـــاد الله بـــالله كـــافيـــاً

وقيل إنَّ **محمد بن المنكدر** بكى بكاءً شديداً عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فرفع طرفه إلى السماء وقال: «اللهمَّ إنك أمرتني ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت»[(٣)].

أخي الحبيب:

هل وقفت لحظة تفكِّر في أنك ميت؟ ترى مكانك بعد الموت، ترى شدة الحساب. ثم إلى الجنة أو النار.

---

(١) مكاشفة القلوب، ص١٥٧.
(٢) الثبات عند الممات، ص٩٠.
(٣) الزهر الفائح، ص٩١.

أؤمِّل أن أحيا وفي كلِّ ساعةٍ
تمرُّ بي الموتى تُهزُّ نعوشُها
وهل أنا مثلهم غير أن لي
بقايا ليالٍ في الزَّمان أعيشها[١]

قال القعقاع بن حكيم: «قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنةً، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء».

ويروى عن عبدالله بن المبارك أنَّه لمَّا احتضر نظر إلى السماء، فضحك ثم قال: «لمثل هذا فليعمل العاملون»[٢].

واحتضر بعض الصَّالحين فبكت امرأته فقال: مايبكيك؟ قالت: عليك أبكي، قال: إن كنت باكية فابكي على نفسك، فأما أنا فقد بكيت على هذا اليوم منذ أربعين سنةً.

يبكي على ميتٍ ويغفل نفسه
كأنَّ بكفيه أماناً مِنْ الرَّدى
وما الميِّت المقبور في صدر يومه
أحقُّ بأن يبكيه من ميِّت غداً[٣]

قال بكير بن عامر: «كان لو قيل لعبدالرحمن بن أبي نعم قد توجَّه إليك ملك الموت، ماكان عنده زيادة عمل»[٤].

وعن بكير بن عياض قال: «رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غداً

(١) وفيات الأعيان، ص٥٥١٣.
(٢) العاقبة، ص١٣٥.
(٣) الزهد للبيهقي، ص١٢٧٨.
(٤) السير ٥/ ٦٢.

القيامة ما كان عنده مزيد على ماهو عليه من العبادة»[١].

نعم الاستعداد، ونعمت المحافظة على أوقاته التي صرفها في طاعة الله، فهو كما قال القائل:

ولـو قيـل لـي مـت قلـت سمعـاً وطـاعـةً
وقلـت لـداعـي المـوتِ أهـلاً ومـرحبـاً[٢]

أخي الحبيب:

أين نحن من هؤلاء في الخوف من الله وفي الحرص على الطَّاعات واجتناب المحرمات؟ أين المحافظة على الأوقات والسَّاعات؟

ألم تفكِّر **أخي الحبيب** في لحظة احتضارك، وأنت تعلم أنَّك ستعاني منها؟ فإنَّ مشهد الاحتضار ذو لمسة عميقة مؤثرة، حين تبلغ الروح الحلقوم، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين، لا يملكون له شيئاً، ولا يدري ما يجري حوله، ولا ما يجري في كيانه، ويخلص أمره كلَّه لله[٣].

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق: ١٩].

لا تستطيع **أخي الحبيب** أن ترفع يدك ولا تحرك لسانك؛ قدمك قد شُلَّت، وعينك ذرفت، والجميع حولك، ولكن:

تفكَّـرت فـي حشـري ويـوم قيـامتـي
وإصبـاح خـدي فـي المقـابـر شـاديَـا

(١) السير ٥/٣٦٦.
(٢) البداية والنهاية ١٣/١٣٦.
(٣) التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة، ص١٥.

فـــريـــــداً وحيـــــداً بعـــــد عـــــزٍّ ورفعـــــةٍ
رهينـــــاً بجُـــرمـــي والتـــراب وســـاديَـــا
تفكَّـــرت فـــي طـــول الحســـاب وعـــرضـــه
وذلِّ مقـــامـــي حيـــن أعطـــى كتـــابيَـــا
ولكـــن رجـــائـــي منـــك ربِّـــي وخـــالقـــي
بـــأنَّـــك تعفـــو يـــاإلهـــي خطـــائيَـــا[١]

قام بلال بن سعد ينادي: «ياأهل التُّقى، إنَّكم لم تخلقوا للفناء، وإنَّما تنقلون من دارٍ إلى دارٍ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدُّنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنَّةٍ أو نارٍ[٢].

أخي الحبيب:

دعنـــي أســـحُّ دمـــوعـــاً لا انقطـــاعَ لهـــا
لـــو كنـــتَ تعلـــمُ مـــابـــي كنـــتَ تعـــذُرنـــي
كـــأنِّـــي بيـــن تلـــك الأهـــل منطـــرحـــاً
علـــى الفـــراشِ وأيـــدِيهـــم تقلِّبُنـــي
كـــأنِّـــي وحـــولـــي مـــن ينـــوح ومـــن
يبكـــي علـــيَّ وينعـــانـــي ويـنـــدبنـــي
وقـــد أتـــوا بطبيـــبٍ كـــي يعـــالجنـــي
ولـــم أر الطَّبيـــب اليـــوم ينفعُنـــي

(١) مكاشفة القلوب، ص٣٥.
(٢) السير ٥/٩١.

واشتــدَّ نــزعــي وصـــارَ المــوتُ يجــذبُهـــا
مـــن كـــلِّ عـــرقٍ بـــلا رفــقٍ ولا هـــونِ
واستخـــرج الـــرُّوح منِّـــي فـــي تغـــرغـــرهـــا
وصـــار ريقـــي مـــريـــراً حيـــن غـــرغـــرنـــي
وغمَّضـــونـــي وراح الكـــلُّ وانصـــرفـــوا
بعـــد الإيـــاس وجـــدُّوا فـــي شـــرا الكفـــنِ

* * *

هديه ﷺ(١)

كان من هديه ﷺ تسجيةُ الميت إذا مات، وتغميض عينيه، وتغطيةُ وجهه وبدنه، وكان رُبَّما يُقبِّل الميت كما قبل عثمان بن مظعون، وبكى(٢)، وكذلك الصِّدِّيق أكبَّ عليه، فقبله بعد موته، ﷺ.

وكان يأمر بغسل الميت ثلاثاً أو خمساً أو أكثر، بحسب مايراه الغاسل، ويأمر بالكافور في الغسلة الأخيرة، وكان لا يغسِّل الشُّهداء قَتْلى المعركة، وذكر الإمام أحمد أنَّه نهى عن تغسيلهم، وكان ينزع عنهم الجلود والحديد، ويدفنهم في ثيابهم، ولم يُصل عليهم.

وكان إذا مات المُحرِمُ، أمر أن يغسَّلَ بماءٍ وسدرٍ، ويكفَّن في ثوبيه وهما ثوبا إحرامه: إزاره ورداؤه، وينهى عن تطييبه وتغطية رأسه.

وكان يأمر من ولي الميت أن يُحسن كفنه، ويكفِّنه في البياض، وينهى عن المغالاة في الكفن، وكان إذا قصَّر الكفن عن ستر جميع البدن، غطَّى رأسه، وجعل على رجليه من العُشب.

* * *

---

(١) انظر: زاد المعاد ١/ ٥٠٢ ـ ٥٠٤.

(٢) حسن: أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجة عن عائشة.

الوقفة الثالثة

الجنازة

الجنازة

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «**عودوا المريض، واتبعوا الجنائز تذكِّركم الآخرة**»[١].

والإنسان إذا تُيقِّن موته وُجِّه للقبلة على جنبه الأيمن، فإذا خرجت روحه سُنَّ تغميضه وشد لحييه، ثم يُغَسَّل ويُكَفَن الرَّجل في ثلاث لفائف بيض والمرأة في خمسة أثواب «إزار وخمار وقميص ولفافتين».

وتحمل الجنازة؛ ليصلِّى عليها صلاة لا تصلى إلا مرة واحدة، وتكون آخر مرة يدخل المسجد.

واعلم ـ رحمك الله ـ أن في الجنائز عبرة للمعتبرين وفكرة للمتفكرين وتنبيهاً للناسين، وإيقاظاً للنائمين، بينما الإنسان في قيام وقعود ونزول وصعود، وخُذْ وهات ودع هذا، وابن هذا واهدم هذا، وقد كان، وأين ذهب فلان؟ ومن أين جاء فلان؟ إذ جاءه أمرٌ إلهيٌّ وحادثٌ سماويٌّ وحكم رباني فسكن حركته، وأطفأ شعلته، وأذهب نفرته، تركه كالخشبة الملقاة والحجر المرمي، إن صيح به لم يسمع، وإن دُعي لم يجب، وإن قُطّع أو أُحرق لم يتكلَّم.

وحملـــونـــي علـــى الأكتـــاف أربعـــةٌ
مـــن الـــرِّجـــال وخلفـــي مـــن يشيعنـــي
وقـــدَّمـــونـــي إلـــى المحـــراب وانصـــرفـــوا
خلـــف الإمـــام فصلَّـــى ثـــم ودَّعنـــي

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد.

صلَّـــوا علـــيّ صـــلاة لا ركـــوعَ لهـــا
ولا سجـــود لعـــل الله يـــرحمنـــي[1]

نظر عمر بن عبدالعزيز وهو في جنازة إلى قوم تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل، فبكى وأنشد:

مـن كـان حيـن تصيـب الشَّمـس جبهتـه
أو الغبـــار يخـــاف الشيّـــن والشّعثَـــا
ويـــألـــف الظـــل كـــي تبقـــى بشـــاشتـــه
فســـوف يسكـــن يـــومـــاً راغمـــاً جـــدثَـــا
فـــي قعـــرٍ مظلمـــةٍ غبـــراء مـــوحشـــة
يطيـــل فـــي قعـــرهـــا تحـــت الثـــرى اللبثَـــا
تجهَّـــزي بجهـــازٍ تبلغيـــن بـــه
يـــا نفـــس قبـــل الـــرَّدى لـــم تخلقـــي عبثَـــا[2]

قال منازل بن سعيد: صلَّينا خلف جنازة فيها داود الطَّائي وهو لا يراني خلفه فقال: أوه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ثمَّ قال لنفسه:

يا داود، من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله قصر عمله، وكل ماهو آتٍ قريب، واعلم ياداود أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو مشئوم، واعلم يا داود أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور، إنما يندمون على ما يخلفون، ويفرحون بما يقدمون. فيما عليه أهل

---

(١) موارد الظمآن ٣/ ٤٩١.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٢٩.

القبور يندمون، عليه أهل الدُّنيا يقتتلون وفيه يتنافسون، عليه عند القضاء يختصمون[١].

أرأيت تلك الجنازة المحمولة؟ النَّاس حولها يهرولون، لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ربما حُركت يمنة ويسرة وهي لا ترد شيئاً من ذلك، مُقدمةٌ على سؤال وجواب وجنة ونار.

قال **أبو عمرو بن العلاء**: جلست إلى جرير وهو يملي عليَّ كتابه شعراً، فاطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني ـ والله ـ هذه الجنائز.

وأنشأ يقول:

تـــروِّعنـــا الجنـــائـــز مقبـــلات
ونلهـــو حيـــن تـــذهـــب مـــدبـــرات
كـــروعـــة ثلَّـــةٍ لمغـــار ذئـــبٍ
فلمَّـــا غـــاب عـــادت راتعـــاتِ[٢]

والجنائز تمرُّ الآن ولا تدمع العيون، ولا تتحرك القلوب، ولا نرى التكدُّر في الحياة والحزن عل الوجوه، إنَّها ـ والله ـ غفلة، وإلا فمن لا يعتبر بميت محمول إلى حفرة ضيقة.

أين نحن من هؤلاء؟!

قال **الأعمش**: «كنَّا نشهد الجنازة ولا ندري من المعزّي فيها لكثرة الباكين، وإنَّما كان بكاؤهم على أنفسهم لا على الميت».

وقال **ثابت البناني**: «كنَّا نشهد الجنازة فلا نرى إلا باكياً».

---

(١) الزهد للبيهقي، ص٢٣٧.
(٢) العاقبة، ص١٥٢.

وقال إبراهيم النَّخعي: «كانوا يشهدون الجنازة فيُرىَ فيهم ذلك أياماً. كان فيهم الفكرة في الموت وفي حال الميت»[1].

كلُّ ابن أنثى وإنْ طالت سلامته
يوماً على آلةٍ حدباء محمول[2]

مع طول سلامتك واغترارك بصحَّتك وعافيتك، ألا تفكَّرت في يوم تُحمل فيه إلى القبر؟ إلا حملتك قدماك إلى الخير؟ ألا حملك تفكيرك إلى الاستعداد لهذا اليوم الذي ستكون فيه غريباً وأيُّ غريب؟

ليس الغريب غريب الشَّام واليمن
إنَّ الغريب غريب اللحد والكفن

قال داود بن المحبر عن أبيه: مَرَّ بنا الربيع بن برَّة، ونحن نسوي نعشاً لميت فقال: من هذا الغريب الذي بين أظهركم؟ قلنا: ليس بغريب، بل هو قريبٌ حبيب. قال: فبكى، وقال: من أغرب من الميت بين الأحياء؟ قال: فبكى القوم جميعاً.

وكان محمد بن المنكدر مع صفوان بن سليم في جنازة وفيها نفرٌ من العبّاد فلما صُلي عليها، قال صفوان: أما هذا فقد انقطعت عنه أعماله، واحتاج إلى دعاء من خلف بعده، قال: فأبكى والله القوم جميعاً[3].

وماهذه الأيام إلا مراحلٌ
تقرِّب من دار اللقا كل مُبعَدِ

---

(١) العاقبة، ص١٥٣.
(٢) إرشاد العباد، ص٢٤٦.
(٣) السير ٥/٣٦٦.

ومــن ســار نحــو الــدار خمسيــن حجــةً
فقــد حــان منــه المُلتقــى وكــأن قــد

قال أسيد بن حضير: «ما شهدت جنازة وحدثت نفسي بشيء سوى ما يُفعل بالميت وما هو صائر إليه[1]».

وهذه هي المشاهدة الحقة والاعتبار الصحيح. والعجيب أن هناك من يرى الميتَ وكأنه جبلٌ من قسوته؛ فلا يهتز له طرف، ولا يتحرك لديه إحساس، ولا تدمع منه عين، وكأن هذا لن يُطَرقَه والنعشَ لن يُحمَله.

وما علم أنَّ الميت من على نعشه ينادي:

مــا أنــا وحــدي نُقلــت حيــث تــرى
كــلٌّ إلــى مثقلــه سينتقــلُ[2]

لما مرت بالحسن البصري ـ رحمه الله ـ جنازةٌ قال: «يا لها مِن موعظة ما أبلغها! وأسرع نسيانها، يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياةً». ثم قال: «يا غفلة شاملة للقوم، كأنهم يرونها في النوم؛ ميِّتُ غدٍ يدفن ميِّتَ اليوم»[3].

وشهد الحسن بن صالح ذات يوم جنازة فلما قُرِّب الميت، ليدفن نظر إلى اللحد فأرفض عرقاً، ثم غشي عليه، فحمل على السرير الذي كان عليه الميت فَرُدَّ إلى منزله[4].

---

(١) العاقبة، ص١٥٣.
(٢) الإحياء ٤/ ٥١٩.
(٣) العاقبة، ص١٥٣.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ١٥٥.

وقال **إبراهيم النخعي**: «كنا إذا حضرنا الجنازة أو سمعنا بميت عُرِفَ فينا أياماً؛ لأنا قد عرفنا أنه قد نزل به أمرٌ صيَّره إلى الجنَّة أو إلى النَّار، وإنكم في جنازتكم تتحدثون بأحاديث الدنيا»[١].

نسيـــر إلـــى الآجـــال فـــي كـــلِّ ســـاعـــةٍ
وأيـــامنـــا تطـــوى وهـــن مـــراحـــلُ
ولـــم نـــر مثـــل المـــوت حقَّـــاً كـــأنـــه
إذا مـــاتخطتـــه الأمـــانـــي بـــاطـــلُ
ومـــا أقبـــح التفَّـــريـــط فـــي زمـــن الصِّبـــا
فكيـــف بـــه والشَّيـــب فـــي الـــرأس نـــازلُ

أخي الحبيب:

تـــرحَّـــل عـــن الـــدُّنيـــا بـــزادٍ مـــن التقـــى
فَعُمـــرك أيـــامٌ تُعـــد قـــلائـــلُ[٢]

كان **أبوهريرة** إذا مر بجنازة قال: «روحي فإنا غادون، أو اغدي فإنا رائحون، موعظة بليغةٌ، وغفلةٌ سريعة، يذهب الأول ويبقى الآخر»[٣].

عن **سويد بن غفلة** قال: «إنَّ الملائكة تمشي أمام الجنازة وتقول: ما قدم؟ ويقول الناس: ما ترك؟».

وقال **العلاء بن محمد البصري**: «شهدت عطاء السلمي خرج في

---

(١) حلية الأولياء ٤/٢٢٧.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص١٢٩.
(٣) حلية الأولياء ١/٣٨٣.

جنازة فغشي عليه أربع مرات حتى صلَّى عليه، كل ذلك يغشى عليه ثم يفيق، فإذا نظر إلى الجنازة خرَّ مغشياً عليه»[١].

وأبصر رجلٌ رجلاً آخر يضحك في جنازة فقال: «تضحك في جنازةٍ! لا أكلِّمك أبداً»[٢].

وتضحك يا بن آدم من مواطن الموت وفي ديار الأموات! أنت يا بن آدم كما قال الحسن: ابن آدم بين ثلاثة أشياء: بَلِيَّةٌ نازلة، ونعمة زائلة، ومنية قاتلة»[٣].

وقال: «مات أخر لنا فصلَّينا عليه، فلما وضع في قبره ومُدّ عليه الثَّوب، جاء صلة بن أشيم وأخذ بناحية الثوب، ثم نادى: يا فلان بن فلان.

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ
وإلا فإنِّي لا أخالك ناجياً

قال: فبكى وأبكى الناس»[٤].

قدِّم لنفسك ما استطعت من التُّقى
إنَّ المنيَّة نازل بك يا فتى

أصبحت ذا مزح كأنَّك لا ترى
أحبابَ قلبك في المقابر والبلى

قال الحسن البصري لرجل حضر جنازة: «أتراه لو رجع إلى الدنيا

---

(١) صفة الصفوة ٣/٣٢٧.
(٢) الزهد، ص٢٣.
(٣) الحسن البصري، ص٤٤.
(٤) حلية الأولياء ٢/٢٤١.

لعمل صالحاً؟ قال: نعم، قال: فإن لم يكن هو فكن أنت».

الموت مُلاقينا مهما انشغلنا أو تناسينا. سيطرق الباب، وسيأخذ الأحباب والأصحاب.

هـو المـوتُ مـا منـه مـلاذٌ ومهـربُ
متـى حُـطَّ ذا عَـنْ نعشـه ذاك يـركَـبُ
نشـاهـد ذا عيـن اليقيـن حقيقـةً
عليـه مضـى طفـلٌ وكهـلٌ وأشيـبُ
ولكـن عـلا الـرَّانُ القلـوبَ كـأنَّنـا
بمـا قـد علمنـاه يقينـاً نكـذِّبُ

أخي، كلُّنا كذلك:

نـؤمِّـل آمـالاً ونـرجـو نتـاجهـا
وعَـلَّ الـرَّدى ممَّـا نـرجيـه أقـربُ
ونبنـي القصـور المشمخـرات فـي الهـوى
وفـي علمنـا أنَّـا نمـوت وتَخـربُ
إلـى الله نشكـو قسـوةً فـي قلـوبنـا
وفـي كـلِّ يـومٍ واعـظُ المـوت ينـدبُ

أبصر أبو الدرداء رجلاً في جنازة وهو يقول: جنازةً من هذا؟ فقال أبو الدرداء: هذا أنت هذا أنت، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1] [الزمر: ٣٠].

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ٢٠١.

هديه ﷺ[1]

وكان ﷺ إذا صلَّى على ميِّتٍ، تبعه إلى المقابر ماشياً أمامه. وهذه كانت سنَّة خلفائه الرَّاشدين من بعده، وسنَّ لمن تبعها إن كان راكباً أن يكون وراءها، وإن كان ماشياً أن يكون قريباً منها، إمَّا خلفها، أو أمامها، أو عن يمينها أو عن شمالها. وكان يأمر بالإسراع بها، حتى إن كانوا ليَرملون بها رَملاً.

وكان إذا تبعها لم يجلس حتى تُوضَع وقال: «**إذا تبعتم الجنازة فلا تجلسوا حتى توضع**»[2].

---

(١) للاستزادة: انظر زاد المعاد ١/٥١٧ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي سعيد.

الوقفة الرابعة

القبر

القبر

أخي الحبيب:

أما وقد أُدخلت المقبرة محمولاً، وقُربت من الأرض لتُنزل في حفرة ضيقة مظلمة موحشة، أنزلك أقرب أقربائك وأحب أحبابك، وعندها استقررت في لحدك. بسم الله وعلى سنة رسول الله، ووضعت على جنبك الأيمن، وكشف غطاء وجهك، ووضع اللَّبِنُ على لحدك، وبدأ حثو التراب عليك، ثم إذا فرغوا وقف أحدهم وقال: استغفروا لأخيكم، وسَلُوا له التَّثبيت؛ فإنه الآن يُسأل.

قال ﷺ: «**ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه**»[١].

وكان **عثمان** ـ رضي الله عنه ـ إذا وقف على قبر بكى، حتى يُبلل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**»[٢].

فإن تنج منه تنج من ذي عظيمةٍ
وإلا فإني لا أخالك ناجياً

ولما احتضر **نافع** بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ذكرت سعداً وضغطة القبر (أي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن للقبر ضغطةً لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ**»[٣].

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة.
(٢) الزهد، ص١٨٩. والحديث حسن: أخرجه الترمذي والبيهقي والحاكم عن عثمان.
(٣) السير ٥/٩٩. والحديث صحيح: أخرجه أحمد عن عائشة.

وأنــــزلــــونـــي فـــي قبـــرٍ علـــى مهـــلٍ
وأنــــزلــــوا واحـــداً منهـــم يلحـــدنـــي
وكشـــف الثَّـــوب عـــن وجهـــي لينظـــرنـــي
وأسبـــل الـــدَّمـــع مـــن عينيـــه أغـــرقنـــي
فقـــام محتـــدمـــاً بـــالعـــزم مشتمـــلاً
وصَفَّـــف اللبـــن مـــن فـــوقـــي وفـــارقنـــي
وقـــال هُلُّـــوا عليـــه التـــراب واغتنمـــوا
حُســـن الثَّـــواب مـــن الـــرحمـــن ذي المنـــن[1]

لحظات ويتفرَّق من حولك، وتبقى رهين عملك، ويصبح قبرك روضة من رياض الجنة ـ جعلنا الله كذلك ـ أو حفرة من حفر النار ـ والعياذ بالله.

مر فارسي بغلام، فقال: يا غلام، أين العمران؟ اصعد الرَّابية تشرف عليهم، فصعد فأشرف على مقبرة، فقال: إن الغلام لجاهل أو حكيم، فرجع فقال: سألتك عن العمران، فدللتني على مقبرة، فقال الغلام: «لأنِّي رأيت أهل الدنيا ينتقلون إليها ولا يرجعون»[2].

والناس في الدنيا لاَهُون في معايشهم، مشغولون بدنياهم، أما صاحب القبر فقد وُسِّد ولحد في التُّراب.

ثـــوى مفـــرداً فـــي لحـــده وتـــوزَّعـــت
مـــواريثـــه أولاده والأصـــاهـــر

---

(١) موارد الظمآن ٣/ ٤٩٢.
(٢) الذراري في ذكر الزراري، لابن العديم، بتصرف، ص٦٢.

وأحنــــوا علـــى أمــــوالــــه يقسمــــونهـــا
فـــلا حـــامـــد منهـــم عليهـــا وشـــاكـــر
فيـــا عـــامـــر الـــدُّنيـــا ويـــا ســـاعيـــاً لهـــا
ويـــا آمنـــاً مـــن أن تـــدور الـــدَّوائـــر(١)

انظر لحالي وتأمَّل في مآلي:

أصبحـــت بقعـــر حفـــرتـــي مـــرتهنـــاً
لا أملـــك مـــن دنيـــاي إلا كفنـــاً(٢)

أما - والله - سيأتيك مثل يومي، وسيمر عليك ما مر بي، ألا فاعتبر.

قال **أنس بن مالك**: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله - تعالى -؛ إما برضاه وإما بسخطه، ويوم تُعرض فيه على ربك آخذاً كتابك؛ إما بيمينك وإما بشمالك، وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور ولم تبت فيها قط، وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة(٣).

يـــوم القيـــامـــة لا مـــالٌ ولا ولـــد
وضمَّـــة القبـــر تُنســـي ليلـــة العـــرس

كان **داود الطائي** في دار واسعة خربة، ليس فيها إلا بيت وليس على بيته باب، فقال بعض القوم: «أنت في دار وحشة، فلو اتخذت لبيتك هذا باباً، أما تستوحش؟ فقال: حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا.

---

(١) البداية والنهاية ٩/١٢٦.
(٢) شذرات الذهب ٥/٢٤٩.
(٣) التذكرة، ص٩٨.

ومشيِّــــــداً داراً ليسكـــــن داره
سكـــن القبـــور وداره لـــم تسكـــنِ[1]

دخل مالك بن دينار المقابر ذات يوم فإذا رجل يُدفن، فجاء حتى وقف على القبر، فجعل ينظر إلى الرجل وهو يُدفن، فجعل يقول: مالِكٌ غداً هكذا يصير، وليس له شيء يتوسده في قبره، فلم يزل يقول غداً مالِكٌ يصير، حتى خرّ مغشياً عليه في جوف القبر، فحملوه فانطلقوا به إلى منزله مغشياً عليه[2].

تفكَّـــر فـــي مشيبـــك والمـــآب
ودفنُـــك بعـــد عِـــزِّك فـــي التُّـــراب
إذا وافيـــت قبـــراً أنـــت فيـــه
تقيـــم بـــه إلـــى يـــوم الحســـاب
وفـــي أوصـــال جسمـــك حيـــن تبقـــى
مقطعـــةً ممـــزقـــة الإهـــاب
فطلِّـــق هـــذه الـــدُّنيـــا ثـــلاثـــاً
وبـــادر قبـــل مـــوتـــك بـــالمتـــاب

أخي الحبيب:

نصحتُـــكَ فـــاستمـــعْ قـــولـــي ونصحـــي
فمثلُـــكَ يُـــدلُّ علـــى الصَّـــواب

---

(١) السير ٧/ ١٦٩.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٨٠.

خُلقنـــا للممـــات ولـــو تـــركنـــا
لضـــاق بنـــا الفسيـــح مـــن الـــرحـــاب
يُنـــادى فـــي صبيحـــة كـــلِّ يـــومٍ
لِـــدُوا للمـــوت وابنـــوا للخـــراب[١]

وكان سلفنا الصالح لا يفارقهم التفكير في الآخرة؛ فإن رأوا من نعيم الدنيا دعوا الله نعيم الجنة، وإن رأوا من شدة الدنيا وقسوتها تعوذوا بالله من النار.

كان **هشام بن أبي عبدالله** إذا فقد السراج في بيته تملَّل على فراشه، وكانت امرأته تأتيه بالسراج، فقالت له في ذلك فقال: «إذا فقدت السراج ذكرت ظلمة القبر»[٢].

فـــي ظلمـــة القبـــر لا أمٌّ هنـــاك ولا
أبٌ شفيـــقٌ ولا أخ يُـــؤنسُنـــي

وذكر بعض الأفاضل أنه اجتاز جسراً معلقاً مع أحد الدعاة، ولما رأى ارتفاع الجسر وضيقه وظهرت عليه آثار الخوف قال له الداعية: هل تذكرت الصراط ودقته؟

هل منا من اعتبر بتلك الأمور؟ هل منا من وقف على القبر واعتبر وتفكر في المآل؟

خرج **داود الطائي** في جنازة، فقعد ناحية وهي تدفن، فجاء الناس فقعدوا قريباً منه فتكلم فقال: «من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن

---

(١) إرشاد العباد ٤٩.
(٢) صفة الصفوة ٣/٣٤٩.

طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آتٍ قريب».

واعلم ـ يا أخي ـ أنَّ كلَّ ما يشغلك عن ربِّك فهو عليك مشئوم، واعلم أن أهل القبور يفرحون بما يقدمون، ويندمون على ما يخلفون، أهل الدنيا يقتتلون ويتنافسون فيما عليه أهل القبور يندمون[١].

هذه المقابر كم حوت؟ وبأجسامهم ماذا فعلت؟ ظاهرها السكون والصمت. قبورٌ متفرقة. أما ماذا بداخلها فاستمع:

إنِّي سألت القبر: ما فَعلت ... بعدي وجوه فيك مُنعَفِرة

فأجابني: صيرت ريحهم ... تؤذيك، بعد روائح عطرة

وأكلت أجساداً منعمةً ... كان النَّعيم يهزُّها نضرة

لم أبقِ غير جماجم عَريَت ... بيضٍ تلَّوح وأعظم نخرة[٢]

كل امرىءٍ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله، وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك، وقس يومك بأمسك، وكف عن سيئاتك، وزد في حسناتك، قبل أن تستوي مدة الأجل، وتقصر عن الزِّيادة في السعي والعمل[٣].

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٣٥.

(٢) أبو العتاهية، ص٢٠٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص١٢٣.

خرج علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه إلى المقبرة، فلما أشرف عليها قال: يا أهل القبور، أخبرونا عنكم أو نخبركم، أما خبر مَن قبَلنا، فالمال قد اقتسم، والنساء قد تزوجن، والمساكن قد سكنها قومٌ غيركم، ثم قال: أما ـ والله ـ لو استطاعو لقالوا: لم نر زاداً خيراً من التقوى[1].

سألت الدَّار تخبرني
عن الأحباب ما فعلوا
فقالت لي أناخ القو
م أياماً وقد رحلوا
فقلت: فأين أطلبهم
وأيٌّ منازل نزلوا
فقالت بالقبور وقد
لقوا والله ما فعلوا

تمر بنا الأيام سراعاً، وننسى من دفناه من أحبابنا وأقاربنا. كم مرة توقفنا عن الحديث في الدنيا وتحدثنا عن الموت والحساب. كم مرة تفكّرنا في القبر؟

قال عمر بن عبدالعزيز لبعض جلسائه: «يا فلان، لقد أرقت البارحة تفكُّراً في القبر وساكنه، إنَّك لو رأيت الميِّت في قبره بعد ثلاثٍ لاستوحشت منه بعد طول الأنس به، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغير الريح، وتقطع الأكفان.

(١) التذكرة، ص١٣.

وكان ذلك بعد حُسن الهيئة، وطيب الريح، ونقاء الثوب» ثم شهق شهقة ثم خرّ مغشياً عليه[١].

تنبَّـه قبـل المـوت إن كنـت تعقـل
فعمَّـا قليـل للمقـابـر تُنقـلُ
وتُمسـي رهينـاً فـي القبـور وتنثنـي
لـدى جَـدثٍ تحـت الثَّـرى تتجنـدلُ
فـريـداً وحيـداً فـي التُّـراب وإنَّمـا
قـريـن الفتـى فـي القبـر مـاكـان يعمـلُ[٢]

كان عمر بن عتبة ـ رضي الله عنه ـ يخرج كل ليلة إلى المقابر، ويقول: «يا أهل القبور! طويت الصحف، ورفعت الأقلام». ثم يصف قدميه، ويصلِّي إلى الصَّباح.

أتيـت القبـور فنـاديتهـا
فـأيـن المعظَّـم والمحتقـر
وأيـن المـدل بسلطـانـه
وأيـن العظيـم إذا مـا افتخـر
تنـادوا جميعـاً فـلا مخبـرٌ
ومـاتـوا جميعـاً وأضحـوا عبـر

وقد شيّع عمر بن عبدالعزيز جنازة، فلما انصرفوا تأخَّر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، جنازةٌ أنت وليه

---

(١) العاقبة، ص١٩١.
(٢) عقود اللؤلؤ والمرجان، ص٢٩١.

تأخرت عنها وتركتها؟ فقال: نعم، ناداني القبر من خلفي: يا عمر بن عبدالعزيز، ألا تسألني ما صنعت بالأحبَّة؟ قلت: بلى، قال: خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان، ومصصت الدَّم، وأكلت اللحم. ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟ قلت: بلى، قال: نزعت الكفين من الذراعين، والذراعين من العضدين، والعضدين من الكتفين، والوركين من الفخذين، والفخذين من الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين. ثم بكى عمر، فقال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وشبابها يهرم، وحيّها يموت، فلا يغرَّنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها[1].

ضعوا خدي على لحدي ضعوه
ومن عفر التُّراب فوسِّدوه
وشقُّوا عنه أكفاناً رقاقاً
وفي الرَّمس البعيد فغيِّبوه
فلو أبصرتموه إذا تقضَّت
صبيحة ثالثٍ أنكرتموه
وقد سالت نواظر مقلتيه
على وجناته وانفضَّ فوه
وناداه البِلى: هذا فلان
هَلمُّوا فانظروا هل تعرفوه

(١) حلية الأولياء ٥/ ١٦١.

حبيبكـــــم وجـــــاركـــــم المفـــــدى
تقـــــادم عهـــــده فنسيتمـــــوه[١]

قال بعض الحكماء: «أربعة أبحر لأربعة: الموت بحر الحياة، والنَّفس بحر الشَّهوات، والقبر بحر النَّدامات، وعفو الله بحر الخطيئات»[٢].

فنسأل الله العظيم أن يجعل القبر خير بيتٍ نعمره ونسكنه؛ حتى نصير إلى جناتٍ عرضها السَّماوات والأرض في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

قال **أبو عياش القطان**: «كانت امرأة بالبصرة متعبدة يقال لها مُنيبة، ولها ابنة أشد عبادة منها، فكان الحسن ربما رآها، وتعجَّب من عبادتها على حداثتها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ أتاه آتٍ، فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت؟ فوثب الحسن فدخل عليها، فلما نظرت إليه الجارية بكت، فقال لها: يا حبيبتي، ما يبكيك؟ فقالت له: يا أباسعيد، التُّراب يُحثَى على شبابي، ولم أشبع من طاعة ربِّي، يا أبا سعيد، أنظر إلى والدتي وهو تقول لوالدي: احفر لابنتي قبراً واسعاً، وكفِّنها بكفنٍ حسن، والله، لو كنت أُجهز إلى مكَّة لطال بكائي، كيف وأنا أجهز إلى ظلمة القبور ووحشتها وبيت الظُّلمة والدُّود»[٣].

إنَّ الأمـــاكـــن فـــي المعـــاد عـــزيـــزةٌ
فـــاختـــر لنفســـك إن عقلـــت مكـــانَـــا

---

(١) التذكرة، ص١١٤.
(٢) تسلية أهل المصائب، ص١٩٣.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢٧.

قال **أبو الدرداء**: «ألا أخبركم بيوم فقري؟ يوم أنزل قبري»[(١)].

وهذا هو الفقر الأبدي لا فقر الدنيا؛ ففي هذه الحفرة الضَّيقة لا عمل تزيد به الحسنات أو تحط به الخطيئات إلا ماقدمت؛ فاليوم حساب بلا عمل.

شهد **عمر بن ذر** جنازة وحوله الناس، فلما وضع الميت على شفير القبر بكى عمر، ثمَّ قال: «أيها الميت أما أنت فقد قطعت سفر الدنيا، فطوبى لك إن توسدت في قبرك خيراً»[(٢)].

وكان **الحسن بن صالح** إذا أشرف على القبور قال: «ما أحسن ظواهرك، إنَّما الدواهي في بواطنك»

يـاخـدُّ إنَّـك إن تـوسَّـد ليِّنـا
وُسِّـدْتَ بعـد المـوت صـم الجنـذلِ
فـاعمـل لنفسـك فـي حيـاتـك صـالحـاً
فلتنـدمـنَّ غـداً إذا لـم تفعـلِ

قال بعضهم: كفتك القبور مواعظ الأمم السَّالفة[(٣)].

مـالـي وقفـت علـى القبـور مسلِّمـاً
قبـر الحبيـب فلـم يـرد جـوابـي
أَجِـبْ، مـالـك لا تـرد جـوابنـا
أنسيـت بعـدي خلَّـة الأحبـاب

---

(١) العاقبة، ص١٩٠.
(٢) حلية الأولياء ٥/١١٦.
(٣) أدب الدنيا والدين، ص١٣٠.

قـــال الحبيـــب: وكيـــف لـــي بجـــوابكـــم
وأنـــــا رهيــــن جنـــــادلٍ وتـــــراب
أكـــل التـــراب محـــاسنـــي فنسيتكـــم
وحُجِبْـــتُ عـــن أهلـــي وعـــن أقـــرانـــي
فعليكـــــم منِّـــي السَّـــلام تقطَّعـــت
منِّــــي ومنكـــم خلَّـــة الأحبـــاب[(١)]

وبات هرم بن حيان عند حممة صاحب رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال له هرم: يا حممة، ما أبكاك؟ قال: «ذكرت ليلةً صبيحتها تُبعثر القبور، فيخرج من فيها»[(٢)].

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته، فوقف على قبره، وبكى ثم قال: «والله ياأخي، لا تقرُّ عيني بعدك حتى أعلم إلى ما صرت إليه، ولا والله أعلم ذلك مادمت حياً»[(٣)].

ســـلامٌ علـــى أهـــل القبـــور الـــدوارس
كـــأنَّهمـــو لـــم يجلســـوا فـــي المجـــالـــس
ولـــم يبلُغـــوا مـــن بـــارد المـــاء لـــذَّة
ولـــم يَطْعمـــوا مـــا بيـــن رطـــبٍ ويـــابـــس
ولـــم يـــك منهـــم فـــي الحيـــاة منـــافـــس
طـــويـــل المنـــى فيهـــا كثيـــر الـــوســـاوس

---

(١) ديوان الإمام علي، ص٣٠.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢١٤.
(٣) العاقبة، ص١٥٣.

لقد صرتم في موحش التُّرب والثَّري
وأنتم بها مابين راج وآيس
فلو عقل المرء المنافس في الذي
تركتم من الدُّنيا إذا لم ينافس[١]

قال سفيان الثوري: «من أكثر من ذكر القبر وجده روضةً من رياض الجنَّة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرةً من حفر النَّار»[٢].

تزوَّد قريناً من فِعالك إنَّما
قرين الفتى في القبر ماكان يفعلُ
فإنْ كُنت مشغولاً بشيءٍ فلا تكن
بغير الذي يرضى به الله تشغلُ
فلن يصحب الإنسان بعد موته
إلى قبره إلا الذي كان يعملُ
ألا إنَّما الإنسان ضيفٌ لأهله
يقيم عندهم قليلاً ثمَّ يرحلُ[٣]

ووالله، لم نر أحداً لم يرحل. رحل الصَّغير والكبير. من طال بهم العمر، ومن قصر بهم الأجل.

شيَّع الحسن جنازة فجلس على شفير القبر، فقال: «إنَّ أمراً هذا آخره لحقيقٌ أن يُزهَد في أوله[٤]، وإنَّ أمراً هذا

---

(١) أبو العتاهية، ص٢٢٤.
(٢) تسلية أهل المصائب، ص١٩٤.
(٣) عقد اللؤلؤ، ص٩٠.
(٤) يعني الدنيا.

أوله[1] لحقيق أن يُخاف آخره»[2].

وقال **أحمد بن حرب** ـ رحمه الله ـ: «تتعجَّب الأرض ممن يَمْهَدُ مضجعه، ويسوي فراشه للنَّوم، تقول: يا بن آدم، ألا تذكر طول رقادك في جوفي، ومابيني وبينك شيءٌ[3]؟

أخي الحبيب:

أيُّ شيءٍ بينك وبين الموت؟! كم من أصبح ولم يمس وكم من أمسى ولم يصبح..

كتب رجلٌ إلى صالح بن عبدالقدوس.

الموت بابٌ وكلُّ النَّاس داخله
فليت شعري بعد الباب ماالدَّارُ

فأجاب بقوله:

الدَّار جنَّةُ عدن إن عملت
بما يرضي الإله وإن فرَّطت فالنَّارُ
هما محلاَّن ما للنَّاس غيرهما
فانظر لنفسك ماذا أنت مُختار[4]

وكان **مغيث الأسود** يقول: «زوروا القبور كلَّ يوم بفكركم، وتوهَّموا جوامع الخير كلَّ يومٍ في الجنة بعقولكم، وانظروا إلى المنصرف

---

(١) يعني الموت.
(٢) المدهش، ص١٩٠.
(٣) العاقبة، ص١٩٥.
(٤) أدب الدنيا والدين، ص١٣١.

بالفريقين إلى الجنة أو النار بهِمَمكم، وأشعِروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها»[١].

ومن تذكر الموت وانقطاع العمل والتزود من الحسنات فإن ذلك يبعث الهمم ويقوي العزائم. لو أراد الميت تسبيحة واحدة أو تحميدة واحدة لم يستطع. فالبدار البدار.

كان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: «ويحك يا يزيد. من ذا الذي يصلِّي عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يُرضي ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيُّها النَّاس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ ويا من الموت موعده، والقبر بيته، والثَّرى فراشه، والدُّود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر. كيف يكون حاله؟» ثمَّ يبكي حتى يسقط مغشياً عليه[٢].

أمـــرُّ علـــى المقـــابـــر كـــلَّ حيـــنٍ
ولا أدري بـــــــأيِّ الأرض قبـــــــري
وأفـــرح بـــالغنـــى إن زاد مـــالـــي
ولا أبكـــي علـــى نقصـــان عمـــري

قال **السري**: «اجعل قبرك خزانتك، احشوها من كلَّ عملٍ يمكنك، فإذا وردت على قبرك سرَّك ما ترى فيه»[٣].

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ١٤٣.
(٢) العاقبة، ص٤٠.
(٣) الزهد للبيهقي، ص٢٢٩.

ولو أجاب الميّت لقال:

يــــا أيُّهــــا النَّــــاس كــــان لــــي أمــــلٌ
قصَّــــر بــــي عــــن بلــــوغــه الأجــــلُ
فليتــــق الله ربَّــــه رجــــلٌ
أمكنــــه فــــي حيــــاتــه العمــــل
مــــا أنــــا وحــــدي نقلــــت حيــــث تــــرى
كــــلٌّ إلــــى مثلــــه سينتقــــل(١)

وقد مرّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بالمقابر فوقف عليها، فقال: «السَّلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمَّا قليل لاحقون، اللهمَّ اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنَّا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحواله عن الله ـ تعالى ـ»(٢).

وكان بَدْءُ توبة داود الطَّائي أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مقيــــمٌ إلــــى أن يبعــــث الله خلقــــه
لقــــاؤك لا يُــــرجــــى وأنــــت قــــريــــب
تــــزيــــد بِلــــى فــــي كــــلِّ يــــوم وليلــــةٍ
وتُسلــــى كمــــا تُبلــــى وأنــــت حبيــــبُ(٣)

---

(١) مكاشفة القلوب، ص١٣٨.
(٢) العاقبة، ص١٩٦.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٣٢.

أخي الحبيب: أين نحن من سنَّة زيارة المقابر والاتعاظ بما نراه فيها من الأموات الذين أُخذوا بدون علمٍ ودُفنوا بدون ردٍّ؟

قــف بــالمقــابــر واذكــر إن وقفــت بهــا
لله درُّك مـــــاذا تستـــــر الحفــــــر
ففيهمـــو لـــك يـــا مغـــرور مـــوعظـــة
وفيهمـــو لـــك يـــا مغـــرور معتبـــر
كـــانـــوا ملـــوكـــاً تـــواريهـــم قصـــورهـــم
دهـــراً فـــوارتهـــم مـــن بعـــدهـــا الحفـــر[1]

يعجب الإنسان حين يرى البعض وهم في المقابر يتضاحكون، وكأنَّ أديم الأرض لم يَحْوِ رفات الأموات! تراه لاهياً ساهياً، ربَّما تحدَّث طويلاً في كلِّ شيءٍ سوى هذا اللحد وذاك القبر! والميِّت بين يديه! أليست غفلة؟! وأي غفلة من هذا؟! وأين؟ في وسط قبور متراصة وجيرة متباعدين.

روى عن **الحسن البصري** أنه رأى رجلاً يأكل في المقابر، فقال: «هذا منافق؛ الموت بين عينيه، وهو يشتهي الطَّعام»[2].

لو زرت المقابر ورأيت البنيان حولها لردَّدت:

لكـــــلِّ أنـــــاس مقبـــــر بفنـــــائهـــــم
فهـــــم ينقصـــــون والقبـــــور تـــــزيـــــد
هـــــم جيـــــزة الأحيـــــاء أمـــــا محلهـــــم
فـــــدانٍ وأمـــــا الملتقـــــى فبعيـــــد[3]

---

(١) موارد الظمآن ٢/ ٧٤.
(٢) تنبيه الغافلين ٢/ ٦١٧.
(٣) وفيات الأعيان ٧/ ٢٤.

أخي:

تذكّر إذا بدأ الناس ينصرفون من المقبرة، وقد وُسِّدتَ قبرك، وأدخلت لحدك، عاد الصمت والسكون. رحمك الله وآنس وحشتك.

آنـــــــس اللهُ وحشتـــــــك رَحِـــــمَ اللهُ وحـــــدتـــــك

أنـــــتَ فـــــي صحبـــــةِ البلـــــى أحســــــنَ اللهُ صحبتَـــــك[1]

* * *

(١) مكارم الأخلاق، ص١٠.

القبر
هديه صلى الله عليه وسلم[١]

وكان من هديه ﷺ ألاَّ يدفن الميت عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها، ولا حين يقوم قائم الظهيرة، وكان من هديه اللَّحد وتعميقُ القبر وتوسيعه من عند رأس الميت ورجليه، ويُذكر عنه أنه كان إذا وضع الميِّت في القبر قال: «**بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله**»[٢].

ويذكر عنه أيضاً أنه كان يحثو التُّراب على قبر الميت إذا دُفن من قِبَلِ رأسه ثلاثاً. وكان إذا فرغ من دفن الميت قام على قبره هو وأصحابه، وسأل له التَّثبيت، وأمرهم أن يسألوا له التَّثبيت.

ولم يكن من هديه ﷺ تعلية القبور ولا بناؤها بآجرٍ، ولا بحجرٍ ولَبِنٍ، ولا تشييدها، ولا تطيينها، ولا بناء القباب عليها.

ونهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً، ولعن زوَّارات القبور.

وكان هديه ﷺ أن لا تُهانَ القبور وتُوطَأ، وألا يُجلس عليها، ويُتَّكأ عليها، ولا تُعظَّم بحيث تتخذ مساجد، فيصلى عندها وإليها، وتتخذ أعياداً وأوثاناً.

---

(١) للاستزادة انظر زاد المعاد ١/ ٥٢١ وما بعدها.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي وأبوداود وابن ماجة عن ابن عمر.

الوقفة الخامسة

التعزية

التعزية

قال ﷺ: «ما من مؤمنٍ يعزِّي أخاه بمصيبةٍ إلا كساه ـ الله سبحانه ـ من حُلَلِ الكرامة يوم القيامة»(١).

بعد الموت جاء المعزُّون زرافاتٍ ووحداناً، امتثالاً لأمر ربِّهم واهتداءً بسنَّة نبيهم ﷺ، جاءوا يعزون أهل الميت، فهو حبيبهم وأنيسهم؛ ولكنَّهم رضوا بقضاء الله وقدره، كيف لا وهم يرغبون فيما عندالله من الأجر العظيم والثواب الجزيل؟: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦ـ١٥٧].

قال ابن جريج: «من لم يتعزَّ عند مصيبته بالأجر والاحتساب سلا كما تسلو البهائم».

وعزَّى الشَّافعي رجلاً بهذين البيتين:

إنـــي معـــزيـــك لا أرانـــي علـــى ثقـــةٍ
مـــن الخلـــود ولكـــن سُنَّـــة الـــدِّيـــن

فمـــا المُعَـــزَّى ببـــاقٍ بعـــد ميتـــه
ولا المُعـــزِّي ولـــو عـــاشـــا إلـــى حيـــنِ

قال مشيط بن عجلان: «النَّاس رجلان، فمتزوِّدٌ من الدُّنيا ومتنعِّمٌ فيها، فانظر أيُّ الرجلين أنت؟ إنِّي أراك تحبُّ طول البقاء في الدنيا فلأيِّ شيءٍ تحبَّه؟ أن تطيع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتحسن عبادته، وتتقرَّب إليه بأعمال

(١) حسن: أخرجه ابن ماجة.

صالحة، فطوبى لك، أم لتأكل، وتشرب، وتلهو، وتلعب، وتجمع الدُّنيا، وتثمرها، وتنعم زوجتك وولدك؟ فلبئس ما أردت له البقاء.

ونحن ـ ياأخي ـ كما قال بعض الزُّهاد: «لنا من كلِّ ميت عظةٌ بحاله وعبرةٌ بمآله»(١).

سيـر المنـايـا إلـى أعمـارنـا خبـب
فمـا تبيـن ولا يعتـاقهـا نَصَـبُ
كيـف النَّجـاء وأيـديهـا مُصممـة
بـذبحنـا بمُـدى ليسـت لهـا نصـبُ
وهـل يـؤمـل نيـل الشَّمـل مُلتئمـاً
سفـر لهـم كـل يـوم رحلـه عجـبُ(٢)

قال عبيد بن عمير: «كان لرجل ثلاثةُ أخلاَّء بعضهم أخصُّ له من بعض، فنزلت به نازلةٌ، فلقي أخصَّ الثلاثة به فقال: يا فلان، إنه نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تُعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل، فانطلق إلى الذي يليه في الخاصة، فقال: يا فلان، إنَّه قد نزل بي كذا وكذا، وأنا أحبُّ أن تُعينني، قال: فأنطلق معك حتى تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغت رجعت وتركتك، قال: فانطلق إلى أبعد الثلاثة، فقال: يا فلان، قد نزل بي كذا وكذا فأنا أحب أن تُعينني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت، وأدخل معك حيث دخلت، قال: فالأول ماله، خلفه في أهله ولم يتبعه منه شيء، والثاني أهله وعشيرته ذهبوا معه إلى قبره، ثم رجعوا

---

(١) العاقبة، ص٤٣.
(٢) إرشاد العباد، ص٨٢.

وتركوه، والثالث هو عمله وهو معه حيثما ذهب، ويدخل معه حيثمادخل»[١].

النَّفس تبكي على الدُّنيا وقد علمت
أنَّ السَّلامة فيها تَرْكُ ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
إلا التي كان قبل الموت بانيها
فإنْ بناها بخيرٍ طاب مسكنها
وإنْ بناها بشرٍّ خاب بانيها
أموالُنا لذوي الميراث نجمعُها
ودورنُا لخراب الدَّهر نبنيها
كم من مدائنٍ في الآفاق قد بُنيت
أمست خراباً ودان الموت دانيها
لكلِّ نفسٍ وإن كانت على وجلٍ
مِنْ المنية آمال تقوِّيها
فالمرء يبسطها والدَّهر يقبضها
والنفس تنشرها والموت يطويها[٢]

وسُئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الآبق على سيده الغضبان.

---

(١) حلية الأولياء ٣/٢٦٩.
(٢) ديوان الإمام علي، ص٢١٠.

أخي الحبيب:

عِـــشْ مـــا بـــدا لـــك ســـالمـــاً
فـــي ظـــل شـــاهقـــة القصـــور
يُسعـــــى عليـــــك بمـــــا اشتهـ
يـــت لـــدى الـــرواح وفـــي البكـــور
فـــإذا النفـــوس تقعقعـــت
فـــي ضيـــق حشـــرجـــة الصُّـــدور
فهنـــاك تعلـــم مـــوقنـــاً
مـــا كنـــت إلا فـــي غـــرور

كان **حميد الطويل** قائماً يصلِّي فمات، فذكروه لابن عون وجعلوا يذكرون من فضله، فقال: احتاج حميد إلى ماقدَّم[1].

وقال **أبو السور حسان بن حريث** وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. قال: هما نشرتان وطيَّة، أما ما حييت يا بن آدم فصحيفتك منشورة فأمل فيها ما شئت، فإذا متَّ طُويتْ، ثم إذا بعثت نشرت ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[2] [الإسراء: ١٤].

فصحيفة الحي كتابٌ يُدوَّن فيه، حتى إذا انتهى عمره طُويت تلك الصحائف للحساب. فصحفُنا منشورة، ولكن ماذا يدون فيها؟

عن **الحسن** قال: قال رجل لأخيه: أي أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٢.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٣٠.

الضحك إذاً؟ فما رُؤي ضاحكاً حتى مات[١].

وقد أتانا ورود النَّار ضاحية
حقَّاً يقيناً ولمَّا يأتينا الصَّدرُ

عجباً لذاكر الموت كيف يلهو؟! ولخائف الفوت كيف يسهو؟! ولمتيقِّن حلول البلى ثم يزهو! وإذا ذكرت له الآخرة مرّ يلغو![٢].

فما لك يوم الحشر سوى الذي تزوَّدته
قبل الممات إلى الحشر
إذا أنتَ لم تزرعْ وأبصرتَ حاصداً
ندمت على التَّفريط في زمن البذرِ

قال عمر بن عبدالعزيز لأبي حازم: عظني. فقال: «اضطجع، ثمَّ اجعل الموت عند رأسك ثم انظر ما تحبُّ أن يكون فيك تلك الساعة فخذّ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك فَدَعْه الآن».

ووالله لو اضطجعنا وأقمنا الموت عند رؤوسنا لتركنا الكثير من أعمالنا، وأقوالنا، وأفعالنا، ولظهر الاجتهاد في العمل والإخلاص في النيَّات، ولتضاءلت الحياة؛ استعداداً للمات.

عن ثابت بن مطرف أنه كان يقول: «ياإخوتاه، اجتهدوا في العمل؛ فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجاتٌ في الجنَّة، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحاذر لم نقل ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧]، نقول: قد عملنا فلم ينفعنا ذلك».

---

(١) التذكرة، ص٣٩٠.
(٢) المدهش، ص١٨١.

اعمــلْ فــأنــتَ مــن الــدُّنيــا علــى حــذرٍ
واعلــم بــأنَّــك بعــد المــوت مبعــوثُ
واعلــمْ بــأنَّــك مــا قــدَّمــت مــن عمــل
محصــىً عليــك ومــا جمعــت مــوروثُ[١]

وقال رجلٌ لزهير بن نعيم: ياأبا عبدالرحمن، توصي بشيء؟ قال: «نعم، احذر أن يأخذك الله وأنت على غفلة»[٢].

وهذه هي النصيحة الباقية، والمحبة في الله؛ حثٌّ على الطاعات، وتواصٍ باجتناب المحرمات.

لا أُلفينَّــك بعــد المــوت تنــدبُنِــي
وفــي حَيَــاتِــي مــا زودتنِــي زادًا[٣]

قال أبو حازم: «يا بن آدم، بعد الموت يأتيك الخبر»[٤].

وهو خبر لا ينفع فيه الندم، ولا يجدي معه التحسُّر.

وفــي البعــث بعــد المــوت نشــرُ صحــائــفٍ
وميــزانُ قســطٍ طــائــشٌ أو مثقَّــلُ
ونشــرٌ يشيــب بطفــلٍ مــن عظــم هــولــه
وفيــه الجبــالُ الــراسيــاتُ تــزلــزلُ[٥]

فتوهَّم يا أخي أنَّ الكتب قد تطايرت، والموازين قد نصبت، وقد

---

(١) حلية الأولياء ١٠/٢٢٦.
(٢) صفة الصفوة ٤/٩.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص١٨٧.
(٤) شرح الصدور، ص٢٢.
(٥) عقد اللؤلؤ، ص٧٩.

نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان ابن فلان[١].

قال **إبراهيم بن أبي عبدة**: بلغني أن المؤمن إذا مات تمنَّى الرجعة إلى الدُّنيا؛ ليس ذلك إلا ليكبِّر تكبيرةً، أو يهلل تهليلةً، أو يسبح تسبيحةً[٢].

والوقت فيه للحيِّ مُتَّسعٌ، ولكن تُترك تلك الدَّقائق النَّفيسة تذهب سُدىً، فإنَّ الزَّمن يمرُّ مرَّ السَّحاب، ويجريْ جري الرِّيح، ومهما طال عمرالإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو قصير ما دام الموت هو نهاية كلِّ حيٍّ. ورحم الله الشاعر الذي قال:

وإذا كـــان آخـــر العمـــر مـــوتـــاً
فســـواءٌ قصيـــره والطـــويـــل

وعند الموت تنكمشُ الأعوامُ والعقودُ التي عاشها الإنسان حتى لكأنَّها لحظاتٌ مرَّت كالبرق الخاطف[٣].

نسيـــر إلـــى الآجـــال فـــي كـــلِّ لحظـــةٍ
وأيـــامنـــا تطـــوى وهـــن مـــراحـــلُ
ولـــم أر مثـــل المـــوتِ حقَّـــاً كـــأنَّـــه
إذا مـــا تخطتـــه الأمـــانـــي بـــاطـــلُ
ومـــا أقبـــح التفـــريـــطَ فـــي زمـــن الصِّبـــا
فكيـــف بـــه والشَّيـــب للـــرأس شـــاعـــل؟

---

(١) التذكرة، ص٢٩٤.

(٢) شرح الصدور، ص٨.

(٣) الوقت في حياة المسلم، ص٩.

ترحَّل من الدُّنيا بزادٍ من التُّقى
فعُمرك أيامٌ وهن قلائلُ[١]

فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكرٌ ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا منه ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وتربُّص إلا له، وحقيقٌ بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب والبعيد ماليس بآتٍ[٢].

أخي الحبيب:

إذا كان غَيرُك قد أجاب الدَّاعي
فكأنَّني بك قد نعاك النَّاعي
قد طال باعك والمنيَّة بعد ذا
ليست إذا طالت قصيرة باعِ

قال الأوزاعي: «من أكثر من ذكر الموت كفاه اليسير، ومن علم أنَّ منطقه من عمله قلَّ كلامه»[٣].

لقد أخبرتك الحادثات نزولها
ونادتك إلاَّ أنَّ سمعك ذو وقر

(١) عقد اللؤلؤ، ص٣٥١.
(٢) الإحياء ٤/ ٤٧٥.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢٥٨.

تنـــوحُ وتبكـــي لـــلأحبَّـــة إنْ مضـــوا
ونفســـك لا تبكـــي وأنـــت علـــى الأثـــرِ

روى عن بعض السَّلف أنَّ رجلاً جاءه وهو يأكل طعاماً، فقال له: قد مات أخوكَ، فقال: أقعد وكُل، فقد علمت، فقال: من أعلمك وما سبقني أحد؟ قال: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾(١) [آل عمران: ١٨٥].

فإن استطعت ـ **ياأخي** ـ أن تُعدَّ لك كل يوم زاداً لما بين يديك فافعل، فإن الأمر أعجل من ذلك، فتزوَّد يا أخي لنفسك وخذ في جهازك، وكن وصي نفسك، واعلم يا أخي أن الليل والنهار يسرعان في هدم نفسك وفناء عمرك وانقضاء أجلك، فلا تطمئن يا أخي حتى تعلم مسكنك ومصيرك ومستقرك ومنزلك. فانظر لنفسك وأقضِ ما فاتك، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك، وكأني بالأمر يأتيك على بغتة. فكأنك بالقيامة وقد قامت، وبالنفس الأمارة وقد لامت، وانفجعت عينٌ طال ما نامت، ونحرت قلوب العصاة وقد هامت(٢).

إنَّ فـــي المـــوت والمعـــاد لشغـــلاً
وادّكـــاراً لـــذي النُّهـــى وبـــلاغَـــاً
فـــاغتنـــم نعمتيـــن قبـــل المنـــايـــا
صحَّـــة الجســـم يـــاأخـــي والفـــراغـــا

كتب بعض الحكماء إلى رجلٍ من إخوانه: «يا أخي، احذر الموت في هذه الدَّار، قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده»(٣).

---

(١) الثبات عند الممات، ص٢٠.
(٢) الزهر الفائح، ص١٠.
(٣) إرشاد العباد، ص١٥.

قيل لبعض السَّلف: طاب الموت، قال: «لا تفعل، السَّاعة تعيش فيها تستغفر الله خير لك من موت الدَّهر».

وقيل لشيخ كبير منهم: تحبُّ الموت؟ قال: لا، قيل: ولِمَ؟ قال: ذهب الشباب وشرُّه، وجاء الكبر وخيره، فإذا قمت قلت باسم الله، وإذا قعدت قلت الحمد لله، فأنا أحبُّ أن يبقى لي هذا.

ونحن ـ ولله الحمد ـ بقي لنا هذا الآن. فكيف استفدنا من أعمارنا وأوقاتنا؟

قال **الفضيل**: «لاتجعل الرِّجال أوصياءك، كيف تلومهم إن ضيَّعوا وصيتك وأنت قد ضيَّعتها في حياتك؟!»[1]

قيل: إن **حسان بن أبي سفيان**، كان لا ينام الليل، ولا يأكل سميناً[2]، ولا يشرب ماءً بارداً، فلمَّا مات رؤي في المنام، فقيل له: مافعل الله بك؟ فقال: أنا محبوس عن الجنة بإبرةٍ استعرتها فلم أردها لصاحبها[3].

فانظروا في أعمالكم، وحاسبوا أنفسكم قبل انقضاء أعماركم؛ فإنَّ الموت نهاية العمل وبداية الجزاء، والموت قريبٌ لا تدرون متى نزوله، والحساب دقيق لا تدرون متى حلوله، والشَّيب نذير الموت، فاستعدوا له. فكم من مؤمِّلٍ أملاً لا يدركه، وكم من مصبحٍ في يومٍ لا يدرك غروبه، ومُمْسٍ في ليل لايدرك صباحه.

ولم يغرّنا إلا طول الأمل، ولم يلهنا إلا حبُّ الدُّنيا. فكم نؤمِّل أن

---

(١) السير ٨/ ٤٣٢.
(٢) الزهر الفائح، ص٦٩.
(٣) العاقبة، ص٦٧.

نعيش. نرى أنَّ الموت بعيدٌ، والأمل ينسج خيوط الغفلة والتَّقصير!!

كان داود **الطَّائي** يقول: لو أمَّلتُ أن أعيش شهراً لرأيت أنِّي قد أتيت عظيماً، وكيف آمل ذلك، أنا أرى الفجائع تنزل بالخلائق آناء الليل والنهار.

مــــاذا تـــؤمِّـــل والأيـــام ذاهبـــةٌ
ومِـــن ورائـــك لـــلآمـــال قُطّـــاعُ
وصيحـــةٌ لهجـــوم المـــوت منكـــرةٌ
صُمَّـــتْ لـــوقعتهـــا الشنعـــاء أسمـــاع
وغصَّـــةٌ بكـــؤوسٍ أنـــت شـــاربهـــا
لهـــا بقلبـــك آلامُ وأوجـــاعُ[1]

فيا أخي:

اعلم أنَّ العاقل يعتمد على عمله، والجاهل يعتمد على أمله[2].

واعلم أن الأمل يكسل عن العمل، ويورث التَّراخي والتَّواني، ويعقب التشغال والقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويُميل إلى الهوى.

يـــامـــن يعـــد غـــداً لتـــوبتـــه
أَعَلَـــى يقيـــنٍ مـــن بلـــوغ غـــدِ
المـــرءُ فـــي زلـــلٍ علـــى أمـــلٍ
ومنيـــةُ الإنســـان بـــالـــرَّصـــد

---

(١) العاقبة، ص٦٨.

(٢) العاقبة، ص٦٨.

أيــــام عمــــــرك كلُّهــــا عـــــدَدٌ
ولعـــل يـــومـــك آخـــر العَــــدد[١]

قال بعض الصالحين: «دخلنا على مغيرة الخراز وهو مريضٌ، فقلنا له: كيف تجدك؟ فقال: أجدني موقراً الآثام، فقلنا له: فما تشتكي؟ قال: الحسرة على طول الغفلة، قلنا: فما تشتهي؟ قال: الإنابة إلى ماعندالله، والنَّقلة عما يكرهه الله، قال: فبكى القوم جميعاً»[٢].

واعلم ـ رحمك الله ـ أن مما يعينك على التَّفكُّر في الموت، ويفرغك له، ويكثر اشتغالك به تذكّر من مضى من إخوانك، وخلانك، وأصحابك، وأقرانك الذين مضوا قبلك، وتقدَّموا أمامك، كانوا يحرصون حرصك، ويسعون سعيك، ويأملون أملك، ويعملون في هذه الدنيا عملك، وقصَّت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم، وقصمت أصلابهم، فجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آية للمتوسِّمين وعبرة للمعتبرين[٣].

يا لله مصرعهم، كم فيهم من مجرِّر ذيل إعجابه، متطاول على أصحابه، متعاظم على أقرانه وأترابه، تجمع له الأماني، إن بُصِّر لا يتبصر، وإن أُمِر لا يأتمر، وإن زُجر لا ينزجر، لا يسمع إلا داعي الهوى، ولا يستجيب إلا لمن إليه دعا، يلهو ويفرح، ويمزح ويمرح، ويبيت من دنياه مثل ما كان أصبح، قد أبدأ في أمره وأعاد، وأحكم فيه فأجاد، وأشاد من أمله ما أشاد، حتى إذا نال مراده أو كاد صاحت به المنية صيحة

---

(١) المدهش، ص٢٣٢.
(٢) العاقبة، ص١٢٠.
(٣) العاقبة، ص٥٠.

الغضبان، وصدمته صدمة اللهفان، فهدت أركانه، وكسرت أغصانه، وفرقت أنصاره وأعوانه، فأصبح قد باع النفيس بالدون، وأعطى الثمين بالثمون، ومضى يعضّ بنانه المغبون، لم يَرُح بنائل، ولا حصل على طائل. فنعوذ بالله من سوء الأقدار وسيء الاختيار(١).

فِـرّ مـن المـوت أو اثبـتْ لـه لابـدَّ مـن أنَّـك تلقـاه

واكتـب بهـذه الـدَّار مـا شئتـه فـإنَّ فـي تلـك ستقـراه(٢)

لَّما حضرت **عبدالله بن علي** الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي لتفريطي في الأيام الخالية، وقلَّة عملي للجنَّة العالية، وما ينجيني من النَّار الحامية»(٣).

ربَّما ينفعنا البكاء قبل الفوات وقدوم السَّكرات. وأي عيش يهنأ؟ كما قال بعض العلماء: أي عيش يطيب وليس للموت طبيب؟(٤).

لما مرض **الربيع بن خثيم** ـ رضي الله عنه ـ قالوا له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فتفكَّر وقال: «أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونٌ بين ذلك كثيراً؟ قد كانت فيهم الأدواء والأطباء، فلا أرى المداوِي بقى ولا المدَاوَى، كلٌ قد قضى ومضى»(٥).

---

(١) العاقبة، ص٥٢.
(٢) الزهر الفائح، ص٢٧.
(٣) العاقبة، ص١٣١.
(٤) العاقبة، ص٤٣.
(٥) العاقبة، ص١١٩.

يأتي القضاء ولا ينفع الاستشفاء ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾[القيامة: ٢٦-٣٠].

أخي المسلم:

وحـدَّثتك الليالي إنَّ شيمتها
تفريقُ ما جمعَتْه فاسمع الخبرَا
وكنْ على حذرٍ منها فقد نصحتْ
وانظرْ إليها ترى الآيات والعبرَا
فهل رأيتَ جديداً لم يعد خلقاً
وهل سمعت بصفوٍ لم يعد كدرًا[1]

أيُّها الحبيب.. اسمع صوت المنادي وهو يستحثُّ خطاك:

أيُّها الزائرون بعد وفاتي
جدثاً ضمني ولحداً عميقاً
سترون الذي رأيتُ من المو
ت عياناً وتسلكون الطَّريقا[2]

وقيل إنَّ **الحجاج** الزَّاهد رآه بعض أصحابه في النَّوم، فقال: كيف ترى حالك؟ فقال: الأمر سهلٌ، وما رأيت شيئاً ممَّا كنت أخاف منه ـ والحمد لله ـ.

فنحن نقدم على ربٍّ كريمٍ غفورٍ رحيمٍ، غافر الذنب وقابل التَّوب، لا ربَّ لنا سواه، ولا معبود لنا غيره.

---

(١) المدهش، ص١٥٥.
(٢) شذرات الذهب ١٢٩/٤.

قال **مالك بن دينار** ـ رضي الله عنه ـ: «رأيت ابن بشار في النَّوم بعد موته بسنةٍ فسلَّمت عليه، فلم يرد عليَّ السَّلام، فقلت له: ماذا لقيت بعد الموت؟ فدمعت عيناه، وقال: لقيتُ أهوالاً وزلازلَ عظاماً شداداً، فقلت: وما كان بعد ذلك؟ فقال: وما يكون من الكريم، قَبِلَ منَّا الحسنات، وعفا عن السيئات، وضمن لنا الدرجات». ثم شهق مالك شهقةً عظيمةً فخَرَّ مغشياً عليه.

ونحن نبكي على الموتى، ونتذكر حالهم أحرى بنا أن نتذكَّر حالنا:

ويبكي على الموتى ويتركُ نفسه
ويزعمُ أنْ قد قلَّ عنهم عزاؤه
ولو كان ذا رأيٍ وعقلٍ وفطنة
لكانَ عليه لا عليهم بكاؤه[1]

أخي الحبيب:

كان **الحسن** يقول: «ابن آدم، إنَّك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك. ابن آدم، لو أنَّ النَّاسَ كلَّهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرّك معصيتهم. ابن آدم، ذنبك ذنبك، فإنَّما هو لحمك ودمك؛ فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنَّما هي نارٌ لا تُطفأ، وجسمٌ لا يبلى، ونفسٌ لا تموت»[2].

فتدارك الذَّنب بالتَّوبة فإنَّه كما قال بعضهم: وقوع الذَّنب على القلب

---

(١) حلية الأولياء ١٠/٣٥٢.

(٢) الحسن البصري، ص١٠١.

كوقوع الدِّهن على الثَّوب إن لم تعجل غسله وإلا انبسط(١)

ووالله إنَّ أيام المعزِّين قليلةٌ. وبعد أيامٍ وشهورٍ ينسى الخليل خليله.

إذا انقرضت عنِّي من العيش مُدَّتي
فإنَّ عناءَ الباكيات قليلُ
سيعرض عن ذكرى وتنسى مودَّتي
ويحدث بعدي للخيل خليل(٢)

أخي الحبيب:

ألا كلُّ حيٍّ هالكٌ وابن هالكٍ
وذو نسبٍ في الهالكين عريق
فقل لغريب الدَّار إنَّك راحلُ
إلى منزل نائي المحل سحيق
وما تعدمُ الدُّنيا الدَنيَّة أهلها
شواظ نارٍ أو دخان حريق
تجرع فيها هالكاً فقْد هالكٍ
وتشجي فريقاً منهم بفريق
فلا تحسب الدُّنيا إذا ما سكنتها
قراراً فما دنياك غير طريق
إذا امتحن الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفت
له عن عدوٍ في ثياب صديق

---

(١) المدهش، ص٣٥٧.

(٢) ترتيب المدارك ١/ ٣٢٤.

عليـــك بــــدارٍ لا يُـــزال ظـــلالهـــا
ولا يتـــــأذَّى أهلهـــــا بمضيـــــق
فمـــا يبلـــغ الـــرَّاضـــي رضـــاه ببلغـــة
ولا ينفـــع الصَّـــادي صـــداه بـــريـــق

لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربعك، ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم، ولا تَبِتْ وأنت مسرور حتى تعلم عاقبةَ الأمور.

أخي:

إنَّ الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنَّهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم ـ والله ـ دارٌ لم يتزوَّدوا منها، ودخلوا داراً لم يتزودوا لها، فأي ساعة مرّت على من مضى؟ وأي ساعة بقيت علينا؟

أخي:

إن الآمال تُطوى، والأعمار تَفنى، والأبدان تحت التراب تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد، يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغِّب في الباقيات الصالحات.

أخي:

اعمل ما وجدت سبيلاً للعمل، وما دمْتَ في فسحةٍ وَمَهَلٍ، ومهِّد المضجع، ووطِّىء لذلك المصرع[١].

---

(١) فيض القدير ٦/ ١٨٥.

هديه ﷺ[1]

وكان من هديه ﷺ تعزيةُ أهل الميِّت، ولم يكن من هديه أنْ يجتمع للعزاء، ويُقرأ له القرآن، لا عند قبره ولا غيره، وكلُّ هذا بدعةٌ حادثةٌ مكروهةٌ. وكان من هديه السُّكونُ والرِّضا بقضاء الله، والحمد لله، والاسترجاع، ويبرأ ممن خرَّق لأجل المصيبة ثيابه، أو رفع صوته بالنِّدب والنِّياحة، أو حلق لها شعره.

وكان من هديه ﷺ أنَّ أهل الميت لا يتكلَّفون الطعام للنَّاس، بل أمر أن يصنع الناس لهم طعاماً يُرسلونه إليهم، وهذا من أعظم مكارم الأخلاق والشِّيم، والحملِ عن أهل الميت؛ فإنَّهم في شغل بمصابهم عن إطعام الناس.

وكان من هديه ﷺ تركُ نعي الميت، بل كان ينهى عنه، ويقول: «**هو من عمل الجاهلية**».

أخي الحبيب:

جمعني الله وإياك في دار كرامته، وهوَّن علينا سكرات الموت، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وآنس وحشتنا في القبور، وثبتنا على الصِّراط يوم البعث والنُّشور، وحرَّم وجوه آبائنا وأمهاتنا على النار، وجمعنا معهم في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ.

والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) للاستزادة انظر زاد المعاد ص ٥٢٧.

المصادر

[١] إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

[٢] أدب الدنيا والدين، للماوردي، دار الكتب العلمية.

[٣] إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلمان، ص١، ١٤٠٦هـ.

[٤] البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

[٥] بستان الواعظين، للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، حقَّقه عبدالحجار.

[٦] تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، مكتبة الرياض الحديثة.

[٧] تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

[٨] تاريخ عمر، لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

[٩] التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.

[١٠] تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث.

[١١] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي، دار الرياض، ط١٤٠٧هـ.

[١٢] التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[١٣] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض، مكتبة الحياة.

[١٤] تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن النبجي، دار الكتب العلمية، ط١ ١٤٠٦هـ.

[١٥] تتنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.

[١٧] الثبات عند الممات، أبي الفرج جمال الدين بن الجوزي، تحقيق عبدالله الأنصاري، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ.

[١٨] جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.

[١٩] جنة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضي، أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق د. صلاح جرار دار البشير، ١٤١٠هـ.

[٢٠] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

[٢١] ديوان الإمام علي، جمعة وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

[٢٢] ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ.

[٢٣] الزراري في ذكر الزراري، لابن العديم.

[٢٤] روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزي، تحقيق د. السيد جميل، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[٢٥] زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، حققه

شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية، ط٢، ١٤٠١هـ.

[٢٦] كتاب الزهد الكبير، للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط٢، ١٤٠٣هـ.

[٢٧] كتاب الزهد، أبي بكر أحمد ابن عمرو بن أبي عاصم، الدار السلفية بالهند، ط٢، ١٤٠٨هـ.

[٢٨] الزهد، للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.

[٢٩] كتاب الزهد، أبي عبدالله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٣٠] الزهر الفائح في ذكر من تنزَّه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد بن يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٣١] سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

[٣٢] شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

[٣٣] شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ.

[٣٤] صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

[٣٥] صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.

[٣٦] طبقات الحنابلة، للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية، وأخرى دار المعرفة، بيروت.

[٣٧] العاقبة في ذكر الموت والآخرة، الإمام أبي محمد عبدالحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى، ط١، ١٤٠٦هـ.

[٣٨] كتاب العزلة، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، ط١، ١٣٥٦هـ. نشرة عزت العطار.

[٣٩] عقول اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

[٤٠] محاسبة النفس، للحافظ ابن أبي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

[٤١] مختصر منهاج القاصدين، الإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤٠٦هـ.

[٤٢] مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٨هـ.

[٤٣] المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصحّحه د. مروان قباني، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٥هـ.

[٤٤] مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا، حققه ونشره جميز أ. بلمي، مكتبة ابن تيمية.

[٤٥] مكاشفة القلوب، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.

[٤٦] موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ.

[٤٧] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ.

[٤٨] الوقت في حياة المسلم، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ.

* * *

والثمن الجنة

المقدمة

الحمد لله الذي وعد من أطاعه جنات عدن تجري من تحتها الأنهار فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، خير من صلى وصام وعبد الله حتى أتاه اليقين، **وبعد**:

بين يديك ـ أخي القاريء ـ الجزء الثاني من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» تحت عنوان «**والثمن الجنة**» الذي يتحدث عن موضوع مهم ألا وهو الصلاة، التي فرط فيها بعض الناس وتهاون بها البعض الآخر.

ونحن في زمن الضعف والتكاسل والتشاغل أحببت ذكر هِمم من كان قبلنا ومسارعتهم لأداء هذه الفريضة العظيمة حتى تكون محيية للقلوب محركة للنفوس مقوية للعزائم.

جعل الله أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

الصلاة

للصلاة في الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أي عبادة أخرى، فهي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، قال ﷺ: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**»(١).

وهي فريضة دائمة مطلقة، لا تسقط حتى في حال الخوف، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات، وهي أول ما يحاسب عليه العبد، وهي آخر وصية وصى بها رسول الله، ﷺ، أمته عند موته فقال: «**الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»(٢).

وهي آخر ما يُفقد من الدين، فإن ضاعت ضاع الدين كله، قال ﷺ: «**لتُنقضن عُرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عُروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحُكم وآخرهن الصلاة**»(٣).

وقد ذكرها الله تعالى من الشروط الأساسية للهداية والتقوى فقال - تعالى -: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾[البقرة: ١ - ٣].

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه وأحمد وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

واستثنى تبارك وتعالى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة، فقال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣].

وقال ـ عز وجل ـ وهو يحكي عن أهل النار: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ ﴾[المدثر: ٤٢، ٤٣][١].

وقد توعد الله تارك الصلاة بقوله: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، والسهو: هو تركها حتى يخرج وقتها.

وحذر ـ جل وعلا ـ من إضاعة الصلاة وتوعد مضيعها بالعذاب الشديد فقال ـ تعالى ـ: ﴿ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ ﴾ [مريم: ٥٩] والغي: واد في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر جعله الله لمن أضاع الصلاة واتبع الشهوات.

ولقد اهتم المسلمون بهذه الصلوات أيّما اهتمام وحافظوا عليها أشد المحافظة وكان قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ، كما ذكرت ذلك عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه».

هذا هو قدوتنا ﷺ نسير على طريقه ونقتفي أثره..

إذا نحـــن أدلجنـــا وأنـــت إمـــامنـــا
كفـى بـالمطـايـا طيـبُ ذكـراك هـاديـاً[٢]

---

(١) معلومات مهمة من الدين ١٧.

(٢) جامع العلوم والحكم ٢٢٩.

وسار السلف الصالح من هذه الأمة على هذا المنهج النبوي الشريف، فهذا **سعيد بن المسيب** من شدة حرصه على الصلاة حافظ على دخول المسجد قبل الأذان لمدة تزيد عن أربعين سنة، قال برد مولى سعيد بن المسيب: ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد(١).

وقال **ربيعة بن يزيد**: «ما أذن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد إلا أن أكون مريضاً أو مسافراً»(٢).

وأرشد ﷺ، للمحافظة على هذا الخير العظيم فقال: «**اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»(٣).

وشهد أهل الخير لأهل الخير فقد قال يحيى بن معين عن يحيى بن سعيد إنه لم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة(٤).

أولئك قومٌ قلوبهم معلقة بالمساجد وقد جاءتهم البشائر في قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**» وذكر منهم: «**رجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه**»(٥).

وقد حث **سفيان بن عيينة** على السير إلى الصلاة حتى قبل النداء فقال: «لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يُدعى، إئت الصلاة قبل النداء»(٦).

وذلك استجابة لقوله ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا،**

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٤١، حلية الأولياء ٢/ ١٦٣، صفة الصفوة ٢/ ٨٠.
(٢) السيرة ٥/ ٢٤٠.
(٣) أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه الألباني.
(٤) السير ٩/ ١٨١، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٢٩، الزهد ص ٥٣٠.
(٥) متفق عليه.
(٦) التبصرة ١/ ١٣٧.

ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» [رواه مسلم].

الحنين إلى الصلاة:

ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة وأصدق الاستجابة حتى في حالات المرض الشديد، فعندما سمع عامر بن عبدالله، المؤذن وهو يجود بنفسه ومنزله قريب من المسجد قال: «خذوا بيدي، فقيل له: إنك عليل فقال: أسمع داعي الله فلا أجيبه، فأخذوا بيده، فدخل في صلاة المغرب فركع مع الإمام ركعة ثم مات»[1].

وهذا فاروق هذه الأمة ـ رضي الله عنه ـ ينتبه بعدما ذُكّر بالصلاة وهو في حالة الإغماء الشديد. فقد ذكر المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ أن عمر بن الخطاب لما طُعن جعل يُغمى عليه فقيل: إنكم لن تُفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كان به حياة، فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، قد صليت؟! فانتبه فقال: الصلاة ها الله، فلا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى وإن جرحُه ليثعبُ دماً[2].

رضي الله عنه وأرضاه، لقد علم الصحابة شدة اهتمامه وحرصه على الصلاة فعلموا أنه إن ذكرت الصلاة على مسمعه وبه حياة فإنه سيُفيق من الإغماءة التي كان فيها. وقد كان ذلك، فلما ذكروا له الصلاة أفاق.

أما في زماننا فلا يحلو للبعض النوم إلا وقت الصلاة، والبعض يسمع

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٣١، السير ٥/ ٢٢٠.

(٢) تاريخ عمر ٢٤٣، الزهد للإمام أحمد ١٨٢.

صوت المنبه للصلاة ولكن لا يستيقظ، وآخرون يوقظون للصلاة ولا يستجيبون ـ وكأنهم إلى الموت أقرب منهم للحياة ـ ولكن لو سمعوا بأن لصاً في الدار أو أن صافرة الإنذار انطلقت، لرأيت سرعة الانتباه وقوة الوثبة.

لا تعـــرضـــن لـــذكـــرنـــا في ذكـــرهـــم
ليـــس الصحيـــح إذا مشـــى كـــالمقعـــد[1]

أخي المسلم:

سطر الربيع بن خيثم موقفاً عظيماً في حياته فها هو بعدما سقط شقه يُهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحابه يقولون: يا أبا يزيد لقد رُخص لك، لو صليت في بيتك، فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته يُنادي: حي على الفلاح، فمن سمعه منكم ينادي حي على الفلاح فليجبه ولو زحفاً، ولو حبواً[2].

لقد كان هناك دافعٌ يدفعهم ويستحثهم لتحمل المشاق في سبيل إقامة الصلاة طاعة لله ـ عز وجل ـ، وامتثالاً لأوامره، ورغبة فيما عنده.

فهذا عدي بن حاتم يقول: «ما جاء وقت الصلاة إلا وأنا إليها بالأشواق، وما دخل وقت صلاة قط إلا وأنا لها مستعد»[3].

لقد حرّك الداعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الأبيّة والهمم العالية، فأسمع منادي الإيمان من كانت له أذان واعية. وأسمع الله من كان حيًّا

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٢٦٦.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ١١٣.
(٣) الزهد للإمام أحمد ٢٤٩.

فهزه النداء إلى منازل الأبرار وحدا به في طريق سيره فما حطّت به رحاله إلا بدار القرار[١].

أحِـــــنُّ اشتيـــــاقـــــاً للمســـــاجـــــد لا إلى
قصـــــورٍ وفـــــرشٍ بـــــالطـــــرازِ مـــــوشـــــحُ

وهذا الاهتمام بالصلاة تحول إلى فرح وسرور بدخول وقتها وهو فرح وبهجة بالعطاء العظيم من الله الكريم المنان فهو كما ذكر **أبو بكر بن عبدالله المزني**: «من مثلك يا ابن آدم؟ خُلي بينك وبين الماء والمحراب، متى شئت تطهرت ودخلت على ربك ـ عز وجل ـ ليس بينك وبينه ترجمان ولا حاجب»[٢].

فهذه ولله الحمد من نعمه علينا نقصده متى شئنا فترُفع بالصلاة الدرجات وتحط الخطيئات، فسبحانه ما أكرمه وجل جلاله ما أعظمه.

ولا شك أنه يُتأسف على فوات هذه النعم وضياع الأوقات بدون فائدة ورأس مال المسلم عمره.. أفلا يتأسف على ضياعه؟ قال **أبو رجاء العطاردي**: «ما أنفس علي شيء أخلّفه بعدي إلا أني كنت أعفر وجهي في كل يوم وليلة خمس مرات لربي ـ عز وجل ـ»[٣].

أخي المسلم:

لقد أعطوا الصلاة حقها وأنزلوها منزلتها، ولذلك كانت عندهم المقياس الأول، كما أكد ذلك **عمر بن الخطاب** بقوله: «إذا رأيت الرجل

---

(١) رهبان الليل ٣٩.
(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٥٦.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٠٦.

يضيع من الصلاة فهو والله لغيرها أشد تضييعاً»[(١)].

وسار على هذا المنهج **أبو العالية** فقال: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقد من أمره صلاته، فإن وجدته يُقيمها ويُتمها أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه وقلت: هو لغير الصلاة أضيع».

وامتداداً لهذا التواصل الخيِّر امتد هذا الحرص ليصل إلى أطفالهم امتثالاً لقوله، ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع**»[(٢)].

فكان **زيد الأيامي** يقول للصبيان: «تعالوا فصلوا أهب لكم الجوز، فكانوا يجيئون ويصلون ثم يحوطون حوله، فقيل له: ما تصنع بهذا؟ قال: وماعلي، أشتري لهم جوزاً بخمسة دراهم ويتعودون على الصلاة»[(٣)].

والكثير الآن اهتم بتربية أبنائه تربية دنيوية بحتة، فحرص على المأكل والمشرب وتوفير وسائل الترفيه واللهو ولكنه ترك المهمة الأولى والمسئولية الكبرى للآباء ألا وهي تربية أبنائهم التربية الإسلامية الصحيحة وتعويدهم على الصلاة وتفقدهم حال غيابهم عنها والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

الصلاة مع الجماعة:

أوجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ أداء الصلاة المفروضة مع الجماعة فقال تعالى: ﴿ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٤٣]. وداوم عليها ﷺ، وأصحابه

---

(١) تاريخ عمر ٢٠٤.
(٢) أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وحسنه الألباني.
(٣) حلية الأولياء ٥/ ٣١.

مداومة شديدة حتى كأنها جزء من الصلاة، ولم يتركها ﷺ في السلم ولا في الحرب، ولا في مرضه الذي مات فيه.

وفي مساجدنا اليوم اختفى هذا الأمر ولم يحرص الجميع على أدائها مع الجماعة، فإننا نرى حضور المصلين لصلاة الجمعة وامتلاء المساجد بهم، ثم لا نراهم في الصلوات الخمس، أيحسبون أنهم لا يُحاسبون على هذا التقصير والتهاون؟ أم بأي عذر سقطت عنهم صلاة الجماعة حتى يتخلفوا عنها لا سيما وهم يسمعون ذلك النداء الذي يرتفع على المسامع خمس مرات كل يوم.

أخي الحبيب:

لكَمْ نَحمد الله على ذلك، فكم من مسلم في بلاد الكفار يُحرم من سماع هذا النداء، وكم من ميت لم يعد يجب نداء التوحيد، وكم من مريض يحنُّ إلى تلبية الدعوة ويحول بينه وبينها المرض. فإن لنداء التوحيد رنة في الأذن وفرحةً في القلب.. كيف لا، وهي دعوة من الله جل وعلا للسير في ركب الصالحين الراكعين الساجدين.

ولهذا كان **أبو عمران الجزني** إذا سمع الأذان تغير لونه وفاضت عيناه.

وقبله كان سيد المرسلين كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ «**كان رسول الله ﷺ، يحادثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه**» صلوات ربي وسلامه عليه.

وكان **علي بن الحسن** ـ رحمه الله ـ إذا توضأ يصفّر لونه فيقول له أهله: ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول: تدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟![١].

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٩٣.

وحين استيقظ **سليمان بن الأعمش** من النوم لحاجة فلم يُصب ماء، وضع يده على الجدار فتيمم، ثم نام، فقيل له في ذلك قال: أخاف أن أموت على غير وضوء[١].

وذلك امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[٢].

ليس الطريق سوى طريق محمد
فهي الصراط المستقيم لمن سلك
من يمشي في طرقاته فقد اهتدى
سبل الرشاد ومن يزغ عنها هلك[٣]

* توضأ **منصور بن زاذان** يوماً فلما فرغ دمعت عيناه ثم جعل يبكي حتى ارتفع صوته فقيل له: رحمك الله ما شأنك؟ فقال: «وأي شيء أعظم من شأني أريد أن أقوم بين يدي من لا تأخذه سنة ولا نوم، فلعله أن يُعرض عني»[٤].

وماذاك إلا لصلاح قلوبهم وصفاء سرائرهم. فعندما قيل **ليزيد بن عبدالله**: ألا نسقف مسجدنا؟ قال: «أصلحوا قلوبكم يكفيكم مسجدكم»[٥].

فإن من صلح قلبه وأخلص نيته لم ينظر إلى سقفٍ ولا إلى نقش بل اهتم

---

(١) حلية الأولياء ٥/٤٩.
(٢) أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه الألباني.
(٣) ذيل تذكرة الحفاظ ١٧٥.
(٤) صفة الصفوة ٢/١٢.
(٥) حلية الأولياء ٢/٣١٢.

بصلاته وتأديتها على الوجه الأكمل رجاء قبولها.

وهذا **عدي بن حاتم** ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء[(١)].

وتلبية النداء في حياتهم تتم بصورة عملية لا تراخٍ فيها ولا تكاسل، فهو نداء يعني لهم التوجه إلى المسجد وترك مافي أيديهم من أعمال الدنيا.

لنرى **إبراهيم بن ميمون** المروزي ومهنته الصياغة وطرق الذهب والفضة، كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها.

إنهم رجال تفرغوا لتلبية هذا النداء طاعة لرب العالمين وامتثالاً لأمر سيد المرسلين، تركوا الدنيا جانباً وقاموا عن أعمالهم متجهين إلى الله ـ جل وعلا ـ.

أخي المسلم:

صلاة المرء في أخراه ذخرٌ
وأول ما يحاسبُ بالصلاة

فإن يمت فطوبى ثم طوبى
له الفوز فيها بالصلاة

وإلا النار مثواه وتبًّا
له تبًّا بعد الممات

وكانوا من شدة الحرص على الصلاة وعلى الطاعات نراهم يتسابقون إلى المساجد حال النداء فهو كما قال الشاعر:

تراه يمشي في الناس خائفاً وجلاً
إلى المساجد هوناً بين أطمارِ

---

(١) السير ٣/ ١٦٠.

وحالنا اليوم خلاف ذلك، ونرى البون الشاسع والفارق الكبير بين عُبَّاد الأمس ورجال اليوم، فهناك الكثير اليوم ممن لم يدخل المسجد قبل الأذان أو معه، بل إن البعض قد يموت وهو لم يدخل المسجد بل قد يُدخل به للصلاة عليه مع أنه لا تجوز الصلاة على من لا يصلي.

وهذا الاهتمام بأمر الصلاة الذي نراه في واقع حياتهم من حضورهم إلى المساجد مبكرين ومحافظتهم على الصف الأول نراه استجابة لقوله ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لا يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه**»[١].

وحافظ على هذا الخير الكثير من سلف الأمة. فكان **بشر بن الحسن** يقال له (الصفّي) لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة.

وانقلبت الأمور وتغيرت المفاهيم وندر من يحافظ على هذا الواجب العظيم والخير العميم.

أما عن الحرص على حضور التكبيرة الأولى مع الإمام التي لا يدركها الكثير من الناس اليوم فحدث ولا حرج.

قال **سعيد بن المسيب**: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة[٢].

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

هو مطلب يستحق المنافسة، وهو أفق يستحق السباق، وهو غاية تستحق الغلاب.

---

(١) متفق عليه.
(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٥ وحلية الأولياء ٢/ ١٦٣.

والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم، إنما يتنافسون في حقير قليل فانٍ قريب، الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة(١).

بقي سليمان بن مهران سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى(٢). رحمنا الله برحمته، فالبعض قد لا يدرك التكبيرة الأولى في السنة كاملة إلا مرة أو مرتين.. وانظر إلي الصفوف بعد انتهاء الإمام من الصلاة ترى أن من أدرك الصلاة كاملة هم القلة القليلة.

أين نحن من هؤلاء؟

هذا أسيد بن جعفر يقول: ما رأيت عمي بشر بن منصور فاتته التكبيرة الأولى ولا رأيته قام في مسجدنا سائل قط إلا أعطاه(٣).

وقال وكيع بن الجراح: كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى(٤).

بل إن بعضهم ـ رحمهم الله ـ لم تفته التكبيرة الأولى مع الإمام إلا في يومٍ واحدٍ منذ أربعين سنة ولعذر.

فقد قال ابن سماعة: مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى إلا يوم ماتت أمي(٥).

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٣٨٦٠.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٤.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٣٧٦.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٤ والسير ٦/ ٢٢٨ وصفة الصفوة ٣/ ١١٧.
(٥) السير ١٠/ ٦٤٦.

وإذا كان هذا ما عرفناه من اهتمامهم بالصلاة وبتكبيرة الإحرام خصوصاً، فلا غرابة إذا قال **إبراهيم النخعي**: إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك منه[١].

وهذا **إبراهيم التيمي** يؤكد هذا الاهتمام وأنه عنوان صاحبه بقوله: «إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يديك منه»[٢]

وقد أدرك السلف ـ رحمهم الله ـ ذلك فاهتموا بالتبكير إلى الصلاة فقال **سفيان بن عيينة**: إن من توقير الصلاة أن تأتي قبل الإقامة[٣].

هذا هو شدة حرصهم واهتمامهم ما بالك إذا فاتتهم الصلاة في الجماعة مع شدة عنايتهم بها واستعدادهم لها.

قال قاضي الشام **سليمان بن حمزة المقدسي**: «لم أصل الفريضة منفرداً إلا مرتين، وكأني لم أصلهما قط، مع أنه قارب التسعين»(*).

وكانوا يتألمون لفوات هذاالخير العظيم والأجر الجزيل.

قال **محمد بن المبارك الصوري**: كان **سعيد بن عبدالعزيز** إذا فاتته صلاة الجماعة بكى[٤].

ولم تكن صلاة الجماعة تعدل عندهم شيئاً من أمور الدنيا التي أصبحنا نلهث وراءها وربما نؤخر الصلاة من أجلها، فقد أتى **ميمون بن مهران**

---

(١) السير ٥/ ٦٥ وصفة الصفوة ٣/ ٨٨.

(٢) السير ٥/ ٦٢.

(٣) صفة الصفوة ٢/ ٢٣٥.

(*) حدثني أحد المشائخ الفضلاء.. إنه لم تفته صلاة الجماعة إلا مرة واحدة عندما كان عمره تسع سنوات وأضاف كأني لم أصلها مطلقاً.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ٢١٩.

المسجد فقيل له: إن الناس قد انصرفوا فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، لفضل هذه الصلاة أحب إلي من ولاية العراق»[١].

والبعض منا يَفوتْ صلاة الجماعة لأمر بسيط وشُغلٍ قليل من أمور الدنيا لا يعدل شيئاً يذكر، فما بالك بولاية العراق؟!!

وقومٌ أمرهم كذلك لابد أن هناك نوعاً من التأثر على فوات الجماعة فهذا ابن عمر إذا فاتته العشاء في جماعة، أحيا بقية ليلته.

اغتنـــــم في الفـــــراغ فضـــــل ركـــــوع
فعســــى أن يكــــون مـــوتُـــك بغتـــة
كـــم صحيـــح رأيـــت مـــن غير سقـــم
ذهبـــت نفسُـــه الصَحيحـــة فلتـــه

أخي الحبيب:

صلاة الجماعة عند هؤلاء الأخيار لها منزلة عظيمة وفقدها كفقد عزيز لديهم؛ لعظم أمرها ولمعرفتهم بحقيقتها وهو كما جرى **لحاتم الأصم** عندما قال: «فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدين دنيا»[٢].

وهذا من درر الكلام ونفيسه: فما أكثر ما نرى من المعزين بفقد عزيز وذهاب قريب، ولكننا لا نرى من يعزي في فقد جانب من جوانب الدين، فاللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا.

---

(١) مكاشفة القلوب ٣٦٤.
(٢) مكاشفة القلوب ٣٦٤.

قال **يونس بن عبدالله**: «ما لي تضيع لي الدجاجة فأجد لها وتفوتني الصلاة فلا أجد لها»[1].

كم لدينا ممن يغتمون بهموم العمل وزيادة المراتب، ومتى يحين موعد الترقية، ويسهرون الليالي وربما تطاول بهم الهم لا ينامون إلا قليلاً، وفي النهار يتعبون ويجرون هنا وهناك بهمة ونشاط ويحسبون حساباً لكل شاردة وواردة من أمر الدنيا، وتفوتهم الصلاة مع الجماعة وهم لا يألمون ولا يتألمون، وقد يتعذر البعض بكثرة المشاغل ومتطلبات الحياة وأمور الدنيا.

أخي الحبيب:

وأنت تهب من فراشك مسرعاً، تركت لذة النوم ولين الفراش.. تردد مع المؤذن ما يقول ثم تسير إلى صلاة الفجر بخطوات مطمئنة.. في بردٍ قارس وظلامٍ دامس.

لا حرمك الله الأجر وكتب خطواتك.. ألا فأبشر بخير عظيم بشرك به نبي هذه الأمة ﷺ بقوله: «**بشروا المشائين في الظُلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**» [رواه أبو داود والترمذي].

لا يغلبنك الشيطان ولا تتردد في القيام.. سر إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر..

بلغك الله ما قصدت وجعل الجنة مثواك..

أخي المسلم:

لنرى كيف كان اهتمام السلف الصالح بالطاعات والعبادات رغم

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٩ و صفة الصفوة ٣/ ٣٠٧.

الأعباء التي يحملونها، فهذا القاضي **أبو يوسف** يصلي بعد ما ولي القضاء في كل يوم مائتي ركعة[١].

بل إن خليفة المسلمين **هارون الرشيد** بعد أن تولى الخلافة يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن يعرض له علة[٢].

وكان للمسجد عندهم اهتمام خاص لكونه مكاناً للعبادة فعندما رأى **عطاء بن يسار** رجلاً يبيع في المسجد دعاه فقال له: هذه سوق الآخرة فإن أردت الدنيا فأخرج إلى سوق الدنيا.

ونتمثل بقول الشاعر حين نرى التهاون والتكاسل:

أيا عجباً كيف يُعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده جاحدُ

ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهدُ

وفي كل شيء له آية ... تدلُّ على أنه واحدُ[٣]

* * *

(١) تذكرة الحفاظ ١/٢٩٣.

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٦.

(٣) تاريخ بغداد ٦/٢٥٣.

الوقوف بين يدي الله..

كان من تمام محافظتهم على الصلاة القيام بأركانها وواجباتها وسننها ومُستحباتها على الوجه الأكمل. بخشوع وخضوع لله ـ عز وجل ـ وحضور قلب وتدبر وقد مدحهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ٢].

وقال ﷺ: «**إن الرجل لينصرف ما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»[١].

وقد قال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ على المنبر: «إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يُتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله ـ عز وجل ـ فيها»[٢].

هذا قول عمر بن الخطاب في صدر الإسلام، ماذا عن واقعنا نحن اليوم، والكثير ـ إلا من رحم ربي ـ تذهب به أحوال الدنيا كل مذهب، فهو يصلي ببدنه ولكنه يذهب بفكره إلى الدنيا وأسواقها؛ يبيع ويشتري، ويزيد ويُنقص.. وماذاك إلا من الغفلة.

قال الحسن: سمعهم «**عامر بن عبد قيس** وما يذكرون من ذكر الضيعة في الصلاة، قال: تجدونه، قالوا: نعم، قال: والله لئن تختلف الأسنَّةُ في جوفي أحبُّ إليَّ أن يكون هذا في صلاتي»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد وحسنه الألباني.

(٢) الإحياء ١٠/٢٠٢.

(٣) الزهد للإمام أحمد ٣٢١.

وهذا ـ والله ـ واقع من عرف الله حق معرفته وأدى الصلاة كما يجب ولهذا قال **حماد بن سلمة**: «ما قمت إلى صلاة إلا مُثلت لي جهنم»(١).

كيف يا أخي الحبيب ـ ترى صلاة من يخشى الوقوع في نار جهنم؟ إنها صلاة خوف من عذاب الله ورجاء لما عنده، وهي صلاة مودع لما في الدنيا راجٍ بعمله الدار الآخرة ومافيها.. وعليك بوصية **معاذ بن جبل** لابنه: «يابني إذا صليت صلِّ صلاة مودع، لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدمها وحسنة أخرها»(٢).

فلو وقف كل مناد في صلاته هذا الموقف واستشعر هذا الأمر لأتمها كما يجب طاعة لله ـ عز وجل ـ.

يـــامـــن لـــه تعنـــو الـــوجـــوه وتخشـــع
ولأمـــره كـــل الخـــلائـــق تخضـــع
أعنـــو إليـــك بجبهـــة لم أحنهـــا
إلا لـــوجهـــك ســـاجـــداً أتضرعُ(٣)

وهذه وصية **بكر المزني** تنادي بالحرص على الصلاة وإتمامها على وجهها الصحيح إذ قال: «إذا أردت أن تنفعك صلاتك، فقل: لا أصلي غيرها»(٤).

ولو سرنا على هذا الأمر لتبدل حالنا ولصلح أمرنا ولاستقامت صلاتنا، فإن الصلاة زاد المسلم في رحلته من الدنيا إلى الدار الآخرة وأول ما يُسأل عنه في قبره.

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/٢١٩ وشذرات الذهب١/٢٦٣.
(٢) صفة الصفوة ١/٤٩٦.
(٣) ديوان يوسف القرضاوي ص ٣٢.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٦.

قال سفيان الثوري: «لو رأيت منصور بن المعتمر يصلي لقلت يموت الساعة»[(١)].

وما ذاك إلا من شدة المحافظة عليها وتأديتها على أكمل وجه، ومن كان هذا دأبه في كل صلواته فلابد أن تكون له صلاة لا يصلي بعدها أبداً ويختم له إن شاء الله بخير كما ذكر ذلك عبدالله بن مسعود: «مادمت في صلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يقرع باب الملك يُفتح له»[(٢)].

فإن الله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين لمن أطاعه واستجاب لأوامره واجتنب نواهيه.

قال شبرمة: «صحبنا كرزا الحارثي فكنا إذا نزلنا إلى الأرض فإنما هو قائل ببصره هكذا ينظر، فإذا رأى بقعة تعجبه ذهب فصلى فيها حتى يرتحل»[(٣)].

لأن قلبه معلق بالطاعات مغتنم للساعات، وقته كله عبادةٌ وجد.. وهل في عمر الإنسان وقتٌ للهو والعبث وعمره سنوات معدودة وأنفاس محسوبة:

اغتنـــــــم ركعتين زلفـــــــى إلى الله
إذا كنـــــت فـــــارغـــــاً مستريحـــــاً
وإذا مـــــاهممـــــت بـــــالنطـــق بـــــالبـــاطـــل
فـــــاجعـــــل مكـــــانـــــة تسبيحـــــاً
فـــــاغتنـــــام السكـــــوت أفضـــــل مـــــن
خـــوضٍ وإن كنـــت بـــالكـــلام فصيحـــاً

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١١٤.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٤١٥.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٢٠.

والأيام المحسوبة واللحظات المعدودة استثمروها في الطاعات وعملوا فيها بجد وحزم رغبة فيما عند الله من النعيم المقيم، فحياتهم كلها عبادة وطاعة وصلاح وتقوى وقد قيل **لعامر بن عبدالله** هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء . . ؟

قال: «نعم، بوقوفي بين يدي الله ـ عز وجل ـ ومنصرفي إحدى الدارين»[1].

وانظر إلى حالنا اليوم بم تحدثنا أنفسنا في الصلاة؟

بل إن الخواطر والهواجس تتدافع لكثرتها في الصلاة، فلربما استمرت تلك الأفكار طوال الصلاة، وكأن الصلاة متنفس لإطلاق عنان الأفكار والهواجس، فالبيع يزيد في الصلاة والشراء كذلك، وحساب الأرباح والخسائر يعاود مع كل صلاة . . بل إن البعض يسافر ويعود وهو يقف أمام الله ـ عز وجل ـ ولو كان هذا الوقوف بين يدي مسئول لوجدت قوة التركيز وشدة الإنصات، فلا تفوته كلمة ولا تغيب عنه شاردة ولا واردة. أما في الصلاة فلا يوجد من يؤديها على وجههاالصحيح بدون وساوس وخواطر إلا من رحم ربي وقليلٌ ما هم.

أخي:

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همُّه إلا الله وحده تحمّل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمَّه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه، حمَّله الله همومها وغمومها، وأنكادها ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق،

---

(١) الإحياء ١/ ٢٠٢.

ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره[١].

قال أبو عبدالرحمن الأيدي: قلت **لسعيد بن عبدالعزيز**: «ماهذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة؟ فقال: ياابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟ قلت: لعل الله أن ينفعني به، فقال: ماقمت إلى صلاة إلا مثلت لي جهنم»[٢].

ولهذا كان **عاصم بن أبي النجود** إذا صلى ينتصب كأنه عود، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر، وكان عابداً خيراً، يصلي أبداً، ربما أتى حاجة، فإذا رأى المسجد قال: مُل بنا، فإن حاجتنا لا تفوت، ثم يدخل فيصلي.

ومات رحمه الله ـ ونحن رحمنا الله ـ لا نزال..

نـــروح ونغـــدو لحـــاجـــاتنـــا
وحـــاجـــة مـــن عـــاش لا تنقضي
تمـــوت مـــع المـــرء حـــاجـــاتـــه
وتبقـــى لـــه حـــاجـــة مـــا بقـــي

حتى يدركه الموت ويأتيه الأجل وهو يلهث وراء الدنيا ويجري خلف الحطام منها ولا يبقى له إلا ما قدم من العمل الصالح..

قال **القاسم بن محمد**: «غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة ـ رضي الله عنها ـ أُسلم عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي الضحى

---

(١) الفوائد ١١٠.
(٢) السير ٥/٢٥٩.

وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور: ٢٧]. وتبكي وتدعو وتردد الآية فقمت حتى ملكت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو»[١].

سنة الضحى:

وسنة الضحى هذه غفل عنها أكثر الناس اليوم.. فلا يؤديها إلا القليل. والنبي ﷺ، أوصى أبا هريرة كما في الحديث: «**أوصاني خليلي رسول الله، ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام**»[٢].

واليوم نرى حتى من يحافظ على صلاة الفجر لا يذكر الله إلا قليلاً في هذا الوقت الطويل من صلاة الفجر إلى صلاة الظهر.. وهي ساعات طويلة ولحظات غالية نفيسة ربما كانت فيها الغفلة عن الآخرة بذكر الدنيا والتشاغل بها.

يـــؤمـــل دنيـــا لتبقـــى لـــه
فـــوافي المنيـــة دون الأمـــل
حثيثـــاً يـــروي أصـــول الفسيـــل(*)
فعـــاش الفسيـــل ومـــات الـــرجـــل[٣]

---

(١) الإحياء ٤/٤٣٦.
(٢) متفق عليه.
(*) الفسيل ـ النخلة الصغيرة.
(٣) تاريخ بغداد ١٢/٣١٨.

خشوع السلف:

حب الصلاة والمسارعة إليها وأداؤها على أكمل الوجوه وإتمامها ظاهراً وباطناً، هي الآية على قدر ما في القلب من حب الله والشوق إلى لقائه والإعراض عنها والتكاسل والتباطؤ عن تلبية داعيها والتكاسل في القيام إليها أو أداؤها منفردة في غير المسجد مع جماعة المسلمين من غير عذر، آية فراغ القلب حقاً من حب الله والزهد فيما عنده.

ولنرى حال السلف في الصلاة وخشوعهم.

فعن ميمون بن حيان قال: «ما رأيت **مسلم بن يسار** متلفتاً في صلاته قط خفيفة ولا طويلة، ولقد انهدمت ناحية المسجد ففزع أهل السوق لهدته وإنه في المسجد في صلاته فما التفت»[١].

وعندما سُئل **خلف بن أيوب**: «ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطردها قال: لا أُعود نفسي شيئاً يفسد علي صلاتي، قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان فيقال: فلان صبور ويفتخرون بذلك، فأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذباب!!»[٢].

وكان **ابن الزبير** إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع..

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص ٣٥٩.
(٢) الإحياء ١/١٧٩.

وكان **أبو حنيفة** يُسمى الوتد لكثرة صلاته[(١)].

وعن مداومتهم على العبادة وكثرة صلاتهم ما قاله عبيد الله بن سليمان حفيد **أبي عبيد الله الوزير**: أبلى جدنا سجادتين(*) وشرع في ثالثة وأبلى موضع ركبتيه ووجه ويديه من كثرة صلاته ـ رحمه الله ـ وكان له كل يوم كر(*) دقيق يتصدق به، فلما وقع الغلاء، تصدق بكرين.

ولم يكن يشغلهم عن الصلاة شاغل، ولم يكن بينهم وبين الله حائل، فالانتباه مقتصرٌ على الصلاة والخشوع لله.

فقد صلى **أبو عبدالله النباحي** يوماً بأهل طرسوس، فصيح النفير، فلم يخفف لصلاة، فلما فرغوا قالوا: أنت جاسوس، قال: ولم؟ قالوا: صيح بالنفير وأنت في الصلاة فلم تخفف. قال: ماحسبت أن أحداً يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه به الله ـ عز وجل ـ[(٢)].

وهم كما قال عنهم العلامة ابن رجب في كتابه لطائف المعارف: «لـمَّا سمع القوم قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحد منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان أحدهم إذا رأى من يعمل عملاً يعجز عنه خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له فيحزن لفوات سبقه، فكان تنافسهم في درجات الآخرة

---

(١) السير ٦/ ٤٠٠.

(*) أعرف عابداً توفي قبل سنوات جرى له قريباً من ذلك.

(*) الكر: يشبع خمسة آلاف إنسان.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢٧٩.

واستباقهم إليها، ثم جاء من بعدهم قوم فعكسوا الأمر فصار تنافسهم في الدنيا الدنيئة وحظوظها الفانية».

هذا أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ: صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسٌ طار في الشجر يلتمس مخرجاً، فأتبعه بصره ساعة، ثم لم يدر كم صلى؟

فذكر لرسول الله ﷺ، ما أصابه من الفتنة، ثم قال يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت[١].

وصلى رجلٌ في حائط له والنخل مطوقه بثمرها، فنظر إليها فأعجبته ولم يدر كم صلى، فذكر ذلك لعثمان ـ رضي الله عنه ـ وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الله ـ عز وجل ـ فباعه عثمان بخمسين ألفاً[٢].

وما قدّما هذا العمل إلا لعلمهما بعظم أمر الصلاة وشأنها.

ونحن يا أخي سنودع هذه الدنيا بين صلاتين، صلاة أديناها وصلاة ننتظر دخول وقتها، فحريٌّ بنا أن نؤدي صلاة مودع في كل صلاة، عسى الله أن يختم لنا بخير، ويتقبل منا حسناتنا ويتجاوز ـ بمنه وكرمه ـ عن سيئاتنا.

* كان **محمد بن إسماعيل** «الإمام البخاري» يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة، فلما قضى الصلاة، قال: انظروا أيش آذاني[٣].

وهذا الصبر ناتج من عظم خشوعهم واستحضارهم مناجاة ربهم كما قال أبو نصر الفرادس عن **سعيد بن عبدالعزيز**: كنت أسمع وقع دموعه على الحصير في الصلاة[٤].

---

(١) الإحياء ١/١٩٤.
(٢) الإحياء ١/١٩٤.
(٣) السير ١٢/٤٤١.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/٢١٩.

ونحن لقسوةٍ في قلوبنا لا نرى تلك الدموع إلا في شهر رمضان ومن قلة قليلة لانت قلوبهم وخشعوا لربهم وأذلوا جباههم له.

ولم يمنع الصالحين كبر السن وضعف الجسم عن الوقوف الطويل بين يدي الله فهذا أبو إسحاق السبيعي يقول: «ذهبت الصلاة مني، ضعفت ورق عظمي، إني اليوم أقوم في الصلاة فما أقرأ إلا البقرة وآل عمران»[١].

أما عندما ضعف عن القيام بنفسه فإنه كما قال أبو العلاء العبدي: ضعف أبو إسحاق السبيعي عن القيام فكان لا يقدر أن يقوم إلى الصلاة حتى يُقام، فإذا أقاموه فاستتم قائماً قرأ ألف آية وهو قائم[٢].

أما **عطاء بن أبي رباح** فهو كما قال عنه ابن جريج.. لزمت عطاء ثماني عشرة سنة، وكان بعدما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتي آية في البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك[٣].

اجتمعت فيه ثلاثة أمور.. كبر سن وضعف وقراءة طويلة ثم هو خاشعٌ لا يزول منه شيءٌ ولا يتحرك.

لنرى حال **عبدالله بن الزبير** ـ رضي الله عنه ـ وهو المعروف بطول صلاته قال عنه مسلم بن بنّاق المكي: ركع **ابن الزبير** ركعة، فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وما رفع رأسه[٤].

ويؤكد لنا نشاطهم في العبادة ما قاله الوليد بن علي.. كان **سويد بن غفلة** يؤمّنا في شهر رمضان في القيام وقد أتى عليه عشرون ومائة سنة.

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٠٤.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٠٥.

(٣) السير ٥/ ٨٧ وصفة الصفوة ٢/ ٢١٣.

(٤) البداية والنهاية ٨/ ٣٥٩ وصفة الصفوة ١/ ٧٦٧.

وكان **معروف** (ابن وصل التيمي) إمام مسجد بني عمر وابن سعد، وكان يختم القرآن في كل ثلاثة سفراً وحضراً، أمَّ قومه ستين سنة لم يسه في صلاة قط، لأنها تهمه.

وكان **طلق بن حبيب** يقول: إني لأحب أن أقوم لله حتى أشتكي ظهري، فيقوم فيبتديء بالقرآن حتى يبلغ سورة الحِجْر ثم يركع.

وقال ثابت البناني.. كنت أمر **بعبد الله بن الزبير** وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك[١].

وإلى الله المشتكى، أسرع شيء يؤدى في حياتنا الصلاة فمنا من ينقرها نقراً، ومنا من لا يخشع الخشوع الواجب.. ويغلب على الكثرة تأدية الصلاة بلا اهتمام ولا حرص ولو تأملنا في مصالح حياة هذا المُصلي، لرأينا الدقة والحرص والتأني والتمهل والأخذ والعطاء، في سبيل دريهمات تزيد له.

ما بالنا هكذا عن الصلاة معرضون ولواجباتنا مضيّعون.

كان **عبدالله بن مسعود** إذا قام في الصلاة كأنه ثوبٌ ملقى[٢].

وكان **سعيد بن جبير** إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد[٣].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟.

هذا **عبدالله بن الزبير** يركع، فيكاد الرخم أن يقع على ظهره، ويسجد فكأنه ثوبٌ مطروح[٤].

---

(١) البداية والنهاية ٨/٣٥٨.
(٢) الزهد للإمام أحمد ص ٢٣١.
(٣) صفة الصفوة ٣/٧٧.
(٤) البداية والنهاية ٨/٣٥٩.

إننا نستغرب من ذلك الخشوع وتلك الطمأنينة وما ذاك إلا لأننا لا نرى هذا في واقع حياتنا وإلا فإن. .

العنبس بن عقبة كان يسجد حتى تقع العصافير على ظهره، فكأنه جذم حائط[(١)].

ونسير مع الصالحين فهذا أبو بكر بن عياش يقول:

رأيت **حبيب بن أبي ثابت** ساجداً، فلو رأيته قلت ميت، يعني من طول السجود[(٢)].

وكان **إبراهيم التيمي** إذا سجد كأنه جذم حائط ينزل على ظهره العصافير[(٣)].

أما ابن وهب فقد قال: رأيت **الثوري** في الحرم بعد المغرب، صلى، ثم سجد سجدة، فلم يرفع حتى نودي بالعشاء[(٤)].

رُفع لهم علم الجنة فشمروا إليه، ووضح لهم صراطها المستقيم فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول ولا ينفد، بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنغص، ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلاً أبكى كثيراً، وإن سر يوماً أحزن شهوراً، آلامه تزيد على لذاته، وأحزانه أضعاف أضعاف مسرّاته، أوله مخاوف وآخره متالف.

---

(١) الزهد ص ٤٩٦.
(٢) السير ٥/ ٢٩١.
(٣) السير ٥/ ٦١.
(٤) السير ٧/ ٢٦٦.

قال **أبو قطن**: مارأيت **شعبة بن الحجاج** قد ركع إلا ظننت أنه نسي، ولا سجد إلا قلت نسي[١].

وقال علي بن الفضيل.. رأيت **الثوري** ساجداً فطفت سبعة أسابيع(*) قبل أن يرفع رأسه[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

مـــوت التقـــيّ حيـــاةٌ لا انقطـــاع لهـــا
قـــد مـــات قـــومٌ وهـــم في النـــاس أحيـــاء[٣]

ورغم تلك العناية بالصلاة وشدة المحافظة عليها فإن **عثمان بن أبي دهرش** قال: ماصليت صلاة قط إلا استغفرت الله تعالى من تقصيري فيها.

ولنرى ماذا يقولون عن صلاتهم.. ورسم حالهم، فقد قال **معاوية بن مرة**: «أدركت سبعين رجلاً من أصحاب محمد ﷺ، ولو خرجوا فيكم اليوم ماعرفوا شيئاً مما أنتم عليه اليوم إلا الأذان»[٤].

أما ميمون بن مهران فقد قال: «لو نشر فيكم رجل من السلف ما عرف إلا قبلتكم». هذا في القرون الأولى ـ فماذا عنا نحن ـ

أخي الكريم:

زماننا لاح للعاقل تغيره ولاح للبيب تبدله، يبس ضرعه بعد الغزارة، وذبل فرعه بعد النضارة، ونحل عوده بعد الرطوبة، وبشع مذاقه بعد العذوبة.

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/١٩٣.

(*) الأسبوع هنا الطواف الكامل حول الكعبة مرة واحدة.

(٢) السير ٧/٢٧٧.

(٣) تاريخ بغداد ١٣/٢٠٧.

(٤) حلية الأولياء ٢/٢٩٩.

لنرى صورة أخرى معبرة عن أدائهم للصلاة فعندما سُئل **حاتم الأصم** ـ رضي الله عنه ـ عن صلاته فقال: «إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والجنة عن يميني والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيراً بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقُبلت مني أم لا»[1].

والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

إحداها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثانية: من حافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار:

الثالثة: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد.

الرابعة: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يُضَيِّع شيئاً منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، وقد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

---

(١) الإحياء ١/ ١٧٩.

الخامسة: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ـ عز وجل ـ ناظراً بقلبه إليه مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد أضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبتها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغولٌ بربه ـ عز وجل ـ قرير العين به.

فالقسم الأول: معاقب.

والثاني: محاسب.

والثالث: مكفر عنه.

والرابع: مثاب.

والخامس: مقرب من ربه لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه في الصلاة[١].

فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه ـ عز وجل ـ في الآخرة، وقرت عينه أيضاً في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله ـ تعالى ـ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات[٢].

قال بعض السلف: ابن آدم، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة، وكنت من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من

---

(١) وهو رسول الله ﷺ، ففي الحديث: «حُبب إلي من دنياكم الطيب، والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» [أخرجه النسائي وأحمد وصححه الألباني].

(٢) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ٢٧.

الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاما[(١)] .

وصدأ القلوب **يا أخي الكريم** ـ بأمرين ـ بالغفلة والذنب .

وجلاؤها بشيئين : بالاستغفار والذكر ، فمن كانت الغفلة أغلب وقته ، كان الصدأ متراكباً على قلبه ، وصدؤه بحسب غفلته ، وإذا صدأ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ماهي عليه ، فيرى الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل ، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم ، فلم تظهر فيه صورة الحقائق ، كما هي عليه ، فإذا تراكم عليه الصدأ وأسود وركبه الران ، فسد تصوره وإدراكه ، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً وهذا أعظم عقوبات القلب ، وأصل ذلك من الغفلة ، واتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره[(٢)] .

وكيف يلذ العيش من هو عالم
بأن إلهَ الخلق لابد سائله
فيأخذ من ظُلمه لعباده
ويجزيه بالخير الذي هو فاعلُه[(٣)]

قال طلق بن حبيب : «إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»[(٤)] .

---

(١) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ١٩ .
(٢) فضائل الذكر لابن الجوزي ص ٤٦ .
(٣) شرح الصدور ص ٢٩٥ .
(٤) الإحياء ١٦/٤ .

أخي الحبيب.. قال ﷺ، عند موته يوصي أمته: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم»[١].

فلا يفقدك الله حيث أمرك ويجدك حيث نهاك.

* * *

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه وصححه الألباني.

حكم تارك الصلاة

أخي الحبيب:

بعد أن عشنا بين تلك السطور التي يفيض الإيمان بين جوانحها ويزدهر الخير في جذورها.

فلا نرى إلا مصليًّاً قائماً ولا نلمح إلا ملبياً النداء مسرعاً. . حريٌّ بنا أن نعرف حكم تارك الصلاة لعظم الأمر وخطورته ونهب مسرعين إلى أقاربنا وجيراننا وأحبابنا لإنقاذهم من النار. . قراءة متأنية لتلك الأحكام تجعلك تسارع داعياً من تعرف تهاونه بالصلاة لعل الله أن يفتح على قلبه وينير طريقه. .

سئل الشيخ محمد بن عثيمين السؤال التالي:

*** ماذا يفعل الرجل إذا أمر أهله بالصلاة ولكنهم لم يستمعوا إليه هل يسكن معهم ويخالطهم أم يخرج من البيت؟**

فأجاب رحمه الله:

إذا كان هؤلاء الأهل لا يصلون أبداً فإنهم كفار، مرتدون، خارجون عن الإسلام ولا يجوز أن يسكن معهم ولكن يجب عليه أن يدعوهم ويلح ويكرر لعل الله يهديهم لأن تارك الصلاة كافر ـ والعياذ بالله ـ بدليل الكتاب والسنة، وقول الصحابة والنظر الصحيح.

أما من القرآن فقوله تعالى عن المشركين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ مفهوم الآية أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فليسوا إخواناً لنا، ولا تنتفي الأخوة الدينية بالمعاصي وإن عظمت ولكن تنتفي عند الخروج عن الإسلام.

أما من السنة فقول النبي ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**» ثابت في صحيح مسلم، وقوله في حديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ في السنن: «**والعهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**».

أما أقوال الصحابة: قال أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ: «**لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**» والحظ: النصيب، وهو هنا نكرة في سياق النفي فيكون عاماً لا نصيب لا قليل ولا كثير. وقال عبدالله بن شقيق: «كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة».

أما من جهة النظر الصحيح فيقال: هل يعقل أن رجلاً في قلبه حبة خردل من إيمان يعرف عظمة الصلاة وعناية الله بها ثم يحافظ على تركها؟ هذا شيء لا يمكن وقد تأملت الأدلة التي استدل بها من يقول أنه لا يكفر، فوجدتها لا تخرج عن أحوال أربع:

١ ـ إما أنها لا دليل فيها أصلاً.

٢ ـ أو أنها قيدت بوصف يمتنع مع ترك الصلاة.

٣ ـ أو أنها قيدت بحال يعذر فيها من ترك هذه الصلاة.

٤ ـ أو أنها عامة فتخصص بأحاديث كفر تارك الصلاة.

وإذا تبين أن تارك الصلاة كافر **فإنه يترتب عليه أحكام المرتدين** ـ وليس في النصوص أن تارك الصلاة مؤمن أو أنه يدخل الجنة أو ينجو من النار ونحو ذلك مما يحوجنا إلى تأويل الكفر الذي به على تارك الصلاة بأنه كفر نعمة أو كفر دون كفر ـ ومنها:

أولاً: أنه لا يصح أن يزوج فإن عقد له وهو لا يصلي فالنكاح باطل ولا تحل له الزوجة به لقوله تعالى عن المهاجرات: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ثانياً: أنه إذا ترك الصلاة بعد أن عقد له فإن نكاحه ينفسخ ولا تحل له الزوجة.. للآية التي ذكرناها سابقاً، على حسب التفصيل المعروف عند أهل العلم بين أن يكون ذلك قبل الدخول أو بعده..

ثالثاً: إن هذا الرجل الذي لا يصلي إذا ذبح لا تؤكل ذبيحته لماذا؟.. لأنها حرام، ولو ذبح يهودي أو نصراني فذبيحته يحل لنا أن نأكلها، فيكون ـ والعياذ بالله ـ ذبحه أخبث من ذبح اليهود والنصارى.

رابعاً: أنه لا يحل له أن يدخل مكة أو حدود حرمها لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

خامساً: أنه لو مات أحد من أقاربه فلا حق له في الميراث، فلو مات رجل عن ابن له لا يصلي (الرجل مسلم يصلي والابن لا يصلي) وعن ابن عم له بعيد (عاصب)، من الذي يرثه؟ ابن عمه البعيد دون ابنه لقوله ﷺ، في حديث أسامة: «**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**» [متفق عليه]، ولقوله ﷺ: «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكره» [متفق عليه] وهذا مثال ينطبق على جميع الورثة..

سادساً: أنه إذا مات لا يُغسل ولا يُكفن ولا يُصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين، إذاً ماذا نصنع به؟. نخرج به إلى الصحراء ونحفر له وندفنه بثيابه لأنه لا حرمة له وعلى هذا فلا يحل لأحدٍ مات عنده ميت وهو يعلم أنه لا يصلي أن يقدمه للمسلمين يصلون عليه.

سابعاً: أنه يحشر يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف، وأئمة الكفر ـ والعياذ بالله ـ ولا يدخل الجنة ولا يحل لأحد من أهله أن يدعو له بالرحمة والمغفرة، لأنه كافر لا يستحقها لقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣].

فالمسألة يا أخواني خطيرة جداً.. ومع الأسف فإن بعض الناس يتهاونون في الأمر ويقرون في البيت من لا يصلي وهذا لا يجوز.

هذا حكم من ترك الصلاة رجلاً أو امرأة يا من تركت الصلاة أو تساهلت بها تدارك بقية العمر بالعمل الصالح فلا تدري كم بقي من عمرك هل بقي شهور أو أيام أو ساعات العلم إلى الله وتذكر دائماً قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه: ٧٤]. وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

وفقك الله لكل خير وفلاح وجعل الله أيامك سعادة وهناء في ظل شريعة الله علماً وعملاً ودعوة.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٣ ـ تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٤ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

٥ ـ التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

٦ ـ تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.

٧ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.

٨ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

٩ ـ ديوان يوسف القرضاوي «نفحات ولفحات» دار الضياء للنشر، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٠ ـ ذيل تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.

١١ ـ رهبان الليل، سيد ابن الحسين العفاني، مكتبة ابن تيمية، ط١/ ١٤١٠هـ.

١٢ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٣ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٤ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٤هـ.

١٥ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق، محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

١٦ ـ صلاة الجماعة حكمها وأحكامها د. صالح السدلان، دار الوطن ط١، ١٤١٣هـ.

١٧ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية.

١٨ ـ فضائل الذكر لابن الجوزي، دار الجيل ط٢، ١٤٠٥هـ.

١٩ ـ الفوائد لابن القيم الجوزية، دار النفائس.

٢٠ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٩، ١٤٠٠هـ.

٢١ ـ كتاب الزهد للإمام أحمد، دراسة وتحقيق محمد السعيد، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٢ ـ معلومات مهمة من الدين، محمد جميل زينو.

٢٣ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمن، لابن خلكان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ.

* * *



أولئك الأخيار

المقدمة

الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين، ويسر لهم للأعمال الصالحة الموصلة إليها، فلم يتخذوا سواها شغلاً، وسهل لهم طرقها فسلكوا السبيل الموصلة إليها ذللاً، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين الذي قام من الليل حتى تفطرت قدماه.

وبعد:

فإن صحبة الأخيار ومجالسة الصالحين، وسماع أخبارهم تغرس في النفوس حب الخير والرغبة في مجاراتهم والوصول إلى ما وصلوا إليه من الجد والاجتهاد في الطاعة.. فإن القلوب تحتاج إلى تذكير وترغيب خاصة مع ما نراه من طول الأمل واللهث وراء حطام الدنيا.

وهذه هي المجموعة الثالثة من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» تحت عنوان «**أولئك الأخيار**» تتحدث عن قيام الليل.. وهو جانب مضيء مشرق من أعمال سلفنا الصالح. لعل قلوبنا تستيقظ من غفلتها وتصحو من غفوتها.

جعل الله أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

قيام الليل

قال - تعالى -: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) ﴾ [الزمر: ٩].

وقال - جل وعلا -: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

وعندما سُئل رسول الله ﷺ، عن رجل نام الليل حتى أصبح قال: **«ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»**(١).

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - قيام الليل بقوله: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) ﴾ [المزمل: ٦]. وفسر ابن كثير قوله: ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) ﴾ بأنه أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش(٢).

وقيام الليل مرحلة صراع ومجاهدة مع النفس فلا شيء أعظم أثراً في النفس البشرية من الاستمرار في الطاعة والعبادة خاصة وقت الراحة والدعة والسكون، ولذلك شهد الله - سبحانه وتعالى - لقُوّام الليل بالإيمان الصادق ووعدهم بالخير الجزيل فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥)

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٦.

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

أخي الحبيب:

إن قيام الليل عبادة تصل القلب بالله، وتجعله قادراً على التغلب على مغريات الحياة وعلى مجاهدة النفس، في وقتٍ هدأت فيه الأصوات ونامت العيون وتقلَّب النوَّام على الفرشُ، ولكن قُوام الليل يهبون من فرشهم الوثيرة وسررهم المريحة ويكابدون الليل لا ينامون إلا القليل، ولذا كان قيام الليل من مقاييس العزيمة الصادقة وسمات النفوس الكبيرة وقد مدحهم الله وميَّزهم عن غيرهم بقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وقيام الليل سنة مؤكدة حثَّ النبي، ﷺ على أدائها بقوله: «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم ومطردة للداء عن الجسد**»[١].

وقال، ﷺ مبيناً فضل قيام الليل: «**أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل**»[٢]، وقد حافظ عليه، ﷺ، ولم يتركه لا سفراً ولا حضراً وقام، ﷺ وهو سيد ولد آدم وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر ـ حتى تفطَّرت قدماه ـ فقيل له: أما قد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي وأحمد وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) متفق عليه.

وقد رغَّب ﷺ في قيام الليل لما فيه من الخير العظيم والإحسان الجزيل بقوله: «**إن في الليل ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إيَّاه**»(١).

وهذا من منِّه وكرمه ـ جلَّ وعلا ـ.

* هذا **عمر بن ذر** يذكرنا بتلك الساعات والليالي فيقول: «اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده، فإن المغبون من غُبن خير الليل والنهار، والمحروم من حرم خيرهما، وإنما جعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم، ووبالاً على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا الله أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله، كَمْ من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله ـ عز وجل ـ للعابدين غداً، فاغتنموا عُمر الساعات والليالي والأيام يرحمكم الله»(٢).

فيا أخي:

اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة والثمن موجود والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يومٌ لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩] ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ [الفرقان: ٢٧](٣).

قال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: «صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور»(٤).

وقد عَجِبَ أحمد بن حرب ـ رضي الله عنه ـ من نوم النائمين وغفلة

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) حلية الأولياء ٥/١٠٩.
(٣) الفوائد ص ٦٤.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٤.

الغافلين فقال: «عجبت لمن يعلم أن الجنة تزين فوقه، والنار تُضرم تحته، كيف ينام بينهما»[١].

ولذلك تجدهم يستعدون لليل ويفرحون بإقباله ويغتمون بإدباره، فكان **عمر بن ذر** إذا نظر إلى الليل قد أقبل قال: جاء الليل، ولليل مهابة، والله أحق أن يُهاب[٢].

وماذاك إلا من توقير الله ورغبة فيما عنده، وهم أقوام وصفهم **الفضيل بن عياض** بقوله: «أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة، إنما هو على الجنب فإذا تحرَّك قال: ليس هذا لك، قومي خذي حظك من الآخرة»[٣].

وهو كما ذكر عبدالرحمن بن يزيد ـ جابر حين قال: «كنا نُغازي **عطاء الخراساني** وننزل متقاربين، فكان يحيي الليل، ثم يخرج رأسه من خيمته فيقول: يا عبدالرحمن، يا هشام بن الغار، يا فلان، قيام الليل وصيام النهار أيسر من شرب الصديد، ولبس الحديد، وأكل الزقوم، فالنجاء النجاء..»[٤].

أخي..

سفر الليل لا يطيقه إلا مُضَمَّر المجاعة، النجائب في الأوَّل وحاملات الزاد في الأخير[٥].

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٣٥.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ١١١.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ٢٤١.
(٤) السير ٦/ ١٤٣.
(٥) الفوائد ص٦٧.

لبست ثوب الرجاء والناس قد رقدوا
وقمت أشكو إلى مولاي ما أجدُ
وقلت ياعُدتي في كل نائبة
ومن عليه لكشف الضُّر أعتمدُ
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها
مالي على حملها صبرٌ ولا جلدُ
وقد مددتُ يدي بالضر مبتهلاً
إليك يا خير من مُدت إليه يدُ
فلا تردنها يا رب خائبة
فبحرُ جودِك يروي كل من يَردُ[1]

* قال الحسن ـ رحمه الله ـ: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة المال، فقيل له ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره[2].

وهذه المجاهدة والمكابدة في أول الأمر ثم تتبدَّل إلى محبة وشوق، فقد عُرف عن ثابت البناني أنه يقوم الليل ويصوم النهار، وكان يقول: ماشيءٌ أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل.

وقوّام الليل يحبون ـ مثلنا ـ النوم والراحة والدعة ولكنهم نفضوا غبار الكسل واستحثوا الخطى وقووا العزائم انظر إلى عبدالعزيز بن روّاد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول: «إنك لليِّن، والله إن في الجنة

---

(١) طبقات الشافعية ٤/ ٢٢٥.
(٢) الإحياء ١/ ٢٢٠.

لألين منك، ولا يزال يصلي الليل كله»[١].

ويسبق حلول الليل استعداد مبكر ونية صادقة لقيام الليل فهذا **معاوية بن قرّة** يذكر نصيحة أبيه لهم إذا صلَّوا العشاء.. يا بَنيَّ ناموا لعل الله أن يرزقكم من الليل خيراً.

ولا يكن نهار المسلم كما قال الشاعر:

نهارك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ
وليلُك نومٌ والردى لك لازمُ
وتتعبُ فيما سوف تكره غبه
كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم

فكن - **يا أخي** - من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع الأم[٢].

* خرج **سليمان التيمي** إلى مكان يصلي الصبح بوضوء عشاء الآخرة وكان يأخذ بقول الحسن؛ إنه إذا غلب النوم على قلبه توضأ[٣].

إن جهاد النفس جهاد طويل وطريق صعب يحتاج إلى صبر ومثابرة، فقد كان **صفوان بن سليم** في الصيف يصلي في البيت، وإذا كان في الشتاء صلى في السطح لئلا ينام[٤].

وهذا الجهاد والحرص على القيام يكون بأجمل هيئة وأحسن زينة..

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٢) الفوائد ص ٦٨.
(٣) حلية الأولياء ٣/ ٢٩.
(٤) حلية الأولياء ٣/ ١٥٩.

فكان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ له قلنسوة خاطها بيده، فيها قطن فإذا قام الليل لبسها.[(١)]

قـم في الـدجـى واتـل الكتـابَ ولا تنـمْ
إلا كنـومـة حـائـرٍ ولهـان

فلـربمـا تـأتي المنيـةُ بغتـة
فتسـاق مـن فـرشٍ إلى الأكفـان

يـاحبـذا عينـان في غسـق الـدجـى
مـن خشيـة الـرحمـن بـاكيتـان

ومجاهدة النفس صعبة المنال في البداية ولكنها سهلة الانقياد بالإصرار والعزيمة في النهاية، كما ذكر ذلك ثابت البناني بقوله: «كابدت الصلاة(*) عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة»[(٢)].

وكانت أم سليمان ـ رضي الله عنها ـ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، تقول له: «يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة، يابني.. من يرد الله لا ينم الليل، لأن من نام الليل ندم بالنهار»[(٣)].

يـاكثير الـرقـاد والغفـلات
كثـرة النـوم تـورث الحسرات[(٤)]

---

(١) السير ١١/٢٠٦.
(*) أي صلاة آخر الليل.
(٢) السير ٥/ ٢٢٤، صفة الصفوة ٣/ ٢٦٠.
(٣) الزهر الفائح ص ١٩.
(٤) الزهر الفائح ص ١١١.

* كانت أم الربيع بن خيثم إذا رأت قلقه بالليل قالت: «يا بني لعلك قتلت قتيلاً، فيقول.. يا أماه قتلت نفسي»[(١)].

وقالت أم غزوان له: «أما لفراشك عليك حق!؟ أما لنفسك عليك حق؟ قال: يا أماه.. إنما أطلب راحتها، أبادر طي صحيفتي»[(٢)].

أما شداد بن أوس فإنه إذا دخل الفراش يتقلبَّ على فراشه لايأتيه النوم، فيقول: «اللهم إن النار أذهبت النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح»[(٣)].

ينـــاجـــون ربَّ العـــالمين إلهَهُـــم
فتسري همـــومُ الـــدنيـــا والنـــاسُ نُـــوَّمُ[(٤)]

ورغبة في الخير العظيم والجزاء الأكمل.. صام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليلها وكان يبكي، فتقول له أمه: يا بني، قتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصبح، كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرَّق شفتيه(*) وخرج إلى الناس[(٥)].

قال عمرو بن ذر: «لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم، ونظروا إلى أهل الغفلة قد سكنوا إلى فُرشهم ورجعوا إلى ملاذهم من النوم، قاموا إلى الله فرحين مستبشرين بما قد وهب لهم من حُسن عادة السهر وطول التهجد، فاستقبلوا الليل بأبدانهم وباشروا الأرض بصفاح وجوههم،

---

(١) المدهش ص ٤٤٣.
(٢) مختصر قيام الليل ٢٧.
(٣) صفة الصفوة ١/ ٧٠٩.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٣٨٠.
(*) وذلك حتى لا يظهر عليه أثر الجهد والسهر خوفاً من الرياء.
(٥) السير ٥/ ٤٠٦، صفة الصفوة ٣/ ١٦٢.

فانقضى عنهم الليل وما انقضت لذتهم من التلاوة، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة، فأصبح الفريقان وقد ولّى عنهم الليل بربح وغبن، أصبح هؤلاء قد ملّوا النوم والراحة، وأصبح هؤلاء متطلعين إلى مجيء الليل للعادة، شتّان مابين الفريقين».

* حين سألت ابنة الربيع بن خيثم أباها: يا أبتاه الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: يا بنية إن أباك يخاف السيئات[1].

والآن تقلبت الأمور وتغيَّرت الأحوال فمن لم ينم فهو غالباً قائم على منكر أو محرم.. ولربما كان مهموماً مغموماً من نقصان مال وأمر تجارة أو عارض من عوارض الدنيا، ولنرى ما كان يهمهم ويشغلهم.. فقد كان أحدهم وهو بشر الحافي لا يزال مهموماً، فقيل له في ذلك، فقال: إني مطلوب، وكان لا ينام الليل.. وكان يقول: أخاف أن يأتيني أمره وأنا نائم[2].

وقالت ابنة **لعامر بن عبد قيس**: مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام.. فقال: يا بنية إن جهنم لا تدع أباك ينام[3].

ألا يـــــاعين ويحـــــك أسعـــــديني
بطـــــول الـــــدمــــع في ظُلَـــمِ الليـــــالي
لعلـــــك في القيـــــامـــــة أن تفـــــوزي
بخير الـــــدهــــر في تلـــــك العـــــلالي[4]

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٤٦٩.
(٢) الزهر الفاتح ص ١٨.
(٣) الزهد ص ٣١٦.
(٤) صفة الصفوة ٤/ ٥٩.

ولنسمع **مالك بن دينار** وهو يقول: لو استطعت أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون في منار الدنيا كلها يا أيها الناس: **النار، النار**[1].

وحتى سماع هذا النذير إذا بقي الأمر دون جدٍّ ووثبة قوية فهو كما قال هَرِم بن حبان: لم أر مثل النار نام هاربها ولم أر مثل الجنة نام طالبها[2].

تيقــظ لســاعــاتٍ مــن الليــل يــافتــى
لعلــك تحظــى في الجنــانِ بحــورهــا
فقــم فتيقَّــظ ســاعــةً بعــد ســاعــةٍ
عســاك تُــوَفِّي مــا بقــي مــن مهــورهــا

وقيام الليل مِنَّةٌ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفضل منه على عباده الصالحين الذين يسر لهم أسباب القيام على عبادة الصالحين الذين يسر لهم أسباب القيام وأعانهم عليه.

وقيام الليل مِنةٌ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفضل منه على عباده الصالحين الذي يسر لهم أسباب القيام وأعانهم عليه.

* قال **أبو سفيان الداراني**: «من صَفى صُفي له، ومَن كَدر كُدر عليه. ومن أحسن في ليله كوفيء في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفيء في ليله»[3].

ومن أهم الأسباب المانعة التي تعوق عن قيام الليل:

المعاصي والذنوب، فإن قيام الليل منحة ربانية للصالحين من عباده.

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٨٦.
(٢) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٣٣٢.
(٣) صيد الخاطر ص ٣٤.

ذكر ذلك **الحسن** بقوله: «إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل»[١].

وقال **سفيان الثوري**: «حرمت قيام الليل بذنب أحدثته منذ خمسة أشهر»[٢].

ومن حُرم من خير القيام ومناجاة رب العالمين فإنه بسبب ذنوبه ومعاصيه.

ونبه إلى ذلك **الفضيل بن عياض** فقال: «إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك خطيئتك»[٣].

وحين اشتكى شاب إلى الحسن عدم قيامه الليل قال له **الحسن**: قيَّدتك خطاياك[٤].

فمن ترك المعاصي والذنوب أعانه الله على فعل الخيرات والطاعات، فقيام الليل دأب الصالحين، بعيد عن الفاسقين قريب للتائبين.

وفسر ذلك **بشر بن الحارث** عندما قال: «لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات سدًّا»[٥].

فإن من تحرى الخير وجده، ومن بحث عن الطريق لقيه، ومن أقبل على الله أعانه وسدده.

---

(١) الإحياء ١٠/ ٤٤٢٠.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ١٧.
(٣) السير ٨/ ٤٣٥، الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٣٥.
(٥) السير ١٠/ ٤٧٣.

أخي:

همتك احفظها بقيام الليل، فإن الهمة مقدمة الأشياء فمن صلحت له همته وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف فيقول مثل القلب مثل الطائر، كلما علا، بعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات[١].

* قال أبو عصمة بن عصام البيهقي: «بتُ ليلة عند **أحمد بن حنبل**، فجاء بالماء فوضعه فلما أصبح، نظر في الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله رجل يطلب العلم لا يكون له وردٌ بالليل!!.

ونلتفت قليلاً إلى رجال اليوم وكهول الغد.. إلى الشباب أصحاب القوة والنشاط والهمة والعزيمة ونناديهم بنداء **سفيان الثوري** الذي كان يصلي ثم يلتفت إلى الشباب فيقول: إذا لم تصلوا اليوم فمتى؟![٢].

وقد ذكَّر إبراهيم بن شماس أحمد بن حنبل فقال: كنت أعرف أحمد بن حنبل: وهو غلام وهو يحيي الليل[٣].

مـــن لم يقـــم للجـــد قبـــل مشيبـــه
وخمـــود سريَّـــه، فليـــس بقـــائـــم[٤]

وبمقارنة سريعة نرى أن أكثر القُوَّام هم من الشيوخ والكهول.. فأين نصيب الشباب من ذلك.. وهو سن الصحة والقوة والنشاط. مقارنة بذلك الجسم النحيل الضعيف، الذي احدودب ظهره، وضعفت قوته،

---

(١) الجواب الكافي ص ٧٠.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٥٩.
(٣) السير ١١/ ٨.
(٤) عقد اللؤلؤ والمرجان ص ٢٦٩.

وارتعشت أطرافه . . ورغم كل ذلك نجده يقوم لله عابداً، راكعاً، ساجداً.

قال **شميط بن عجلان** موضحاً ذلك التفاوت: إن الله ـ عز وجل ـ جعل قوة المؤمن في قلبه ولم يجعلها في أعضائه، ألا ترون أن الشيخ يكون ضعيفاً يصوم الهواجر ويقوم الليل، والشاب يعجز عن ذلك . . [١].

وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو ممتّع بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبة شديدة، فعوتب في ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر [٢].

وقال بعض العلماء في كلمات صادقة: ليس في الدنيا وقتٌ يشبه نعيم أهل الجنة، إلا مايجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة [٣].

وكان **ابن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويٌّ كدويِّ النحل حتى يصبح [٤].

ويروى أن **طاؤوساً** جاء في السحر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائم، قال: ماكنت أرى أن أحداً ينام في السحر [٥].

إذا مـــا الليـــل أظلـــم كـــابـــدوه
فيسفـــر عنهـــمُ وهـــمُ ركـــوع
أطـــار الخـــوفُ نـــومهـــم فقـــامـــوا
وأهـــلُ الأمـــنِ في الـــدنيـــا هجـــوع

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٣٤١، حلية الأولياء ٣/ ١٣٠.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٦.
(٣) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٤) الإحياء ١/ ٤١٩.
(٥) السير ٥/ ٤٢، صفة الصفوة ٢/ ٢٨٥.

لهـــم تحـــت الظـــلام وهـــم سجـــودٌ
أنينٌ منـــــه تنفـــــرجُ الضلـــــوع[١]

أما **عمرو بن دينار** فإنه جَزَّأ الليل ثلاثة أجزاء، ثلثاً ينام، وثلثاً يدرس حديثه، وثلثاً يصلي[٢].

وهذا كمال الاستفادة من الوقت، ونرى اليوم من أضاع نهاره ثم هو في الليل بين نائم أو قائم على منكر تاركٍ لواجب، لأن النوم والسهر فيما لا فائدة منه مضيعة لأوقات محسوبة باللحظات والأنفاس.

قال **محمد بن عبدالعزيز بن سليمان**: حدثتني أمي قالت: قال أبوك: ما للعابدين وما للنوم؟ لا نوم والله في دار الدنيا إلا نوم غالب، قال فكان والله لا يكاد ينام إلا مغلوباً.

وفي أيامنا هذه يشتكي الكثير من الأرق ومن السهر، ولا يفكر أن يستفيد من هذا الوقت بصلاة أو قراءة قرآن.. بل تجده يتقلّب يمنة ويسره بدون فائدة، فالنوم بعيد والتفكير في صلاة الليل والاستفادة من الوقت غير وارد.

ورحم الله **طاووساً** كان إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة، ثم يثب ويصلي إلى الصباح، ثم يقول: طيرَّ ذِكُر جهنم نوم العابدين[٣].

أخي:

لّما علم الصالحون قِصر العمر، وحثهم حادي ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ

---

(١) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٧٠.
(٢) السير ٥/ ٣٠٢.
(٣) الإحياء ١/ ٤٢٠.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ طوَوا مراحل الليل من النهار إنتهابا للأوقات.

أصغ سمعك لنداء ربك، ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٠] وبادر طيَّ صحيفتك، وأحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الموتى، وشمِّر للسباق غداً، فإن الدنيا ميدان المتسابقين[١].

عن نافع أنه قال: كان ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ يحيي الليل صلاة ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة إلى أن أقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يصبح.

وهاهو الحسن بن علي لا يزال مصليّاً ما بين المغرب والعشاء، فقيل له في ذلك فقال: إنها ناشئة الليل.

أما منصور بن المعتمر فكان يصلي في سطحه، فلما مات، قال غلامٌ لأُمه: يا أماه: الجذع الذي كان في سطح آل فلان ليس أراه؟

قالت: يابني ليس ذاك بجذع.. ذاك منصور قد مات[٢].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟

كــــرِّر عليَّ حــــديثَهــــم يـــــا حـــــادي
فحــــديثُهــــم يجلــــو الفــــؤاد الصــــادي[٣]

كان أسيد ـ رضي الله عنه ـ إذا آوى إلى فراشه يتقلَّب كالحبة على المقلي

---

(١) رهبان الليل ص ٣٧.

(٢) السير ٥/ ٤٠٦، صفة الصفوة ٣/ ١١٣.

(٣) بستان العارفين ص ٤.

ويقول: إنك لين، وفراشٌ ألين منك[١]، ولا يزال راكعاً وساجداً إلى الصباح[٢].

ولم يكن أمام أعينهم هدف سوى الوصول إلى مرضاة الله ودخول جنات عدن، فانظر إلى صنيعهم كما قال **عبدالله بن داود**: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، كان لا ينام الليل[٣].

وهم كما قال فيهم القائل:

ألستـــم خير مـــن ركـــب المطـــايـــا
وأنـــدى العـــالمين بطـــون راح[٤]

ونحن ينطبق علينا قول **إبراهيم التيمي**: «كم بينكم وبين القوم، أقبلت عليهم الدنيا فهربوا، وأدبرت عنكم، فاتبعتموها»[٥].

فالدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخَفِي السابق، والناس في المضمار بين فارس وراجل وأصحاب حُمرٍ معقرة.

قس على نفسك أخي انظر أين أنت منهم.. واعلم أن من علامات الشقاء ما قاله **مالك بن دينار**. أربع من علم الشقاء قسوة القلب وجمود العين وطول الأمل والحرص على الدنيا[٦].

* ذات ليلة زار **قيس بن مسلم**، محمد بن جحادة، فأتاه وهو في المسجد بعد صلاة العشاء، ومحمدٌ قائمٌ يصلي، فقام قيس بن مسلم في

---

(١) يعني في الجنة.
(٢) الزهر الفاتح ص ٢٠.
(٣) الإحياء ٤/ ٤٣٥.
(٤) شذرات الذهب ١/ ١٤١.
(٥) الفوائد ص ٦٥.
(٦) السير ٥/ ٦١، حلية الأولياء ٤/ ٢١٢.

الناحية الأخرى يصلي، فلم يزالا على ذلك حتى طلع الفجر، وكان قيس بن مسلم إمام مسجده، فرجع إلى الحي فأمهم، ولم يلتقيا، ولم يعلم محمد مكانه، فقال بعض أهل المسجد: زارك أخوك قيس بن مسلم البارحة فلم تنفتل إليه. قال: ما علمته، فغدا عليه فلما رأه قيس بن مسلم مُقبلاً، قام إليه فاعتنقه، ثم خلوا جميعاً فجعلا يبكيان(١).

وحالنا اليوم تبدلت فما أن يسلم الإمام حتى ترى من يتفحّص الوجوه ويلتفت يمنة ويسرة بدون داعٍ فيؤثِّر على سكونه وهدوئه وربما غفل عن الأذكار الواردة بعد الصلاة.

حدَّثَ المغيرة بن حبيب فقال: يموت **مالك بن دينار** وأنا معه في الدار لا أدري ما عمله! قال: فصليت معه العشاء الآخرة ثم جئت فلبست قطيعة في أول ما يكون الليل، قال: وجاء مالك فقرَّب رغيفه فأكل ثم قام إلى آخر الصلاة فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: إذا جمعت الأولين والآخرين فحرّم شبيه مالك بن دينار على النار، فوالله مازال كذلك حتى غلبتني عيني، ثم انتبهت فإذا هو على تلك الحال يقدِّم رجلاً ويؤخر رجلاً، ويقول: يا رب إذا جمعت الأولين والآخرين فحرَّم شيبة مالك بن دينار على النار، فمازال كذلك حتى طلع الفجر(٢).

لله قـــــومٌ خلصـــــوا في حُبــــــه
فـــاختـــارهـــم ورضي بهـــم خُـــدَّامـــاً
قـــومٌ إذا جـــن الظـــلام عليهـــمُ
أبصرتَ قـــومـــاً سجـــداً وقيـــامـــاً

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٢٧.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٦١.

فسيغنمـــون عـــرائسـاً بعــرائـس
ويُبَــوَّءون مــن الجِنَان خيــامـاً
وتقــرُّ أعينُهــم بمــا أُخفــي لهــم
ويسمعــون مــن الجليــل ســلامـاً
يتلــذَّذون بــذكــره في ليلهــم
ويكــابــدون لــدى النهــار صيــامـاً[١]

وذُكِرَ أن أبا حنيفة قام ليلةً بهذه الآية: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦]. يرددها ويبكي ويتضرع[٢].

وهذا معمر مؤذِّن سليمان التيمي يقول: صلىَّ إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة وسمعته يقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فلما أتى على هذه الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧]، جعل يرددها حتى خفّ أهل المسجد فانصرفوا، فخرجت وتركته، وغدوت لأذان الفجر فنظرت فإذا هو في مقامه فسمعت فإذا هو يجزها وهو يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٣].

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلباً لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ماانتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق فلمّحوا المقصد، فقرب عليهم البعيد، وكلّما أمرّت لهم الحياة حَلِيَ لهم تذكُّر: ﴿هَٰذَا

---

(١) عقود اللؤلؤ ص ٧٩.
(٢) تاريخ بغداد ١٣/٣٥٧.
(٣) حلية الأولياء ٣/٢٩.

يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣][١].

وقال القاسم بن أبي أيوب: «سمعت ابن جبير يردد هذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٨١][٢].

لله ســــاهـــرُ ليلــــهِ مـــا يهجـــع
وجِــلُ الفــؤاد مـــن الــذنــوبِ مُصــدعُ

يبكـــي بـــدمــع ســـاكـــب هفـــواتــه
والليـــل في جلبـــاتـــه متبرقـــعُ

نـــدمـــاً على مـــاكـــان مـــن عصيــانـــه
ملكـــاً تـــذلُّ لـــه الملـــوك وتخصـــعُ

يـــاربُّ، مـــا للـــذنـــب غيرك غـــافـــرٌ
وإليـــك منـــه يـــا إلهـــي المفـــزعُ

يـــا ربُّ عبـــدُكَ ضـــارعٌ فـــاغفـــر لـــه
مـــا لم يـــزل يـــدعـــوك فيـــه ويضرعُ[٣]

قيل لبعضهم: كيف الليل عليك؟ فقال: ساعة أنا فيها بين حالتين، أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتَمُّ بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط[٤].

وقال وهب بن الورد في نداء حار وكلمات مؤثِّرة: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فأفعل[٥].

---

(١) الفوائد ص ٦٠.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٧٧.
(٣) عقود الؤلؤ ص ٥١.
(٤) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٥) رهبان الليل ص ٣٦.

أخي الحبيب.. في هذه الأمة سباق إلى الخير أين أنت منه؟

قال **قتادة**: إن الملائكة تفرح بالشتاء للمؤمن، يقصر النهار فيصومه ويطول الليل فيقومه.

وذُكر أن عامراً لما حُضِر جعل يبكي.. فقالوا: ما يبكيك يا عامر؟! قال ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكني أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الشتاء[١].

ولما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابه، وتملُّك الشيطان وقياد النفوس، ورأوا الدولة للنفس الأمّارة، لجأوا إلى حصن التضرُّع والالتجاء[٢].

قال **إبراهيم بن أدهم** أفضل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان، ومن وَفَى العمل وُفي له الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير[٣].

ولما لقيام الليل من الأجر العظيم والثواب الجزيل حثَّ ﷺ أن يعُم هذا الخير أهل البيت جميعهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**رحم الله امرأة قامت من الليل، ثم أيقظت زوجها فصلَّى، فإن أبى نضحت الماء في وجهه**»[٤].

وقال ﷺ: «**من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين كثيراً والذاكرات**»[٥].

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٣٢٣.
(٢) الفوائد ص ٦٢.
(٣) كتاب الزهد للبيهقي ص ٢٨٢.
(٤) أخرجه أبو داود وابن ماجة.
(٥) أخرجه أبو داود والنسائي.

واهتم السلف الصالح بأمر أسرهم وساروا على نهجه، ﷺ في الحثِّ على الخير والتذكير به.

فعن القاسم بن راشد الشيباني قال.. كان رفعة بن صالح نازلاً عندنا، وكان له أهلٌ وبنات وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته..

يا أيها الركب المُعرِّسونا
أَكُلُّ هذا الليل ترقدونا
ألا تقومون فتصلونا

قال.. فيتواثبون؛ من هنا باكٍ، ومن ههنا داعٍ، ومن ههنا قاريء، ومن ههنا متوضيء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السُرى[1].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

امنع جفونك أن تذوق مناماً
وذر الدموع على الخدود سجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسب
يامن على سخط الجليل أقاما
لله قوم أخلصوا في حبه
فرضي بهم واختصّهم خدّاما
قوم إذا جنّ الظلام عليهُم
باتوا هنالك سجَّداً وقياماً

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٢٩.

خمص البطون من التعفف ضمرا
لا يعرفون سوى الحلال طعاما

وحين تزوَّج **رياح القسي** امرأة فبنى بها، فلما أصبح قامت إلى عجينتها، فقال: لو نظرتِ إلى امرأة تكفيك هذا، فقالت: إنما تزوَّجت رياحاً القبي ولم أرني تزوَّجت جبَّاراً عنيداً، فلما كان الليل نام ليختبرها، فقامت ربع الليل ثم نادته، قُم يا رياح، فقال: أقوم، فلم يقم، فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يا رياح، فقال أقوم. فلم يقم، فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يا رياح، فقال أقوم. فقالت: مضى الليل وعسكر المحسنون وأنت نائم، ليت شعري من غَرَّني بك يا رياح، قال: وقامت الربع الباقي[1].

وانتبهت امرأة **حبيب العجمي بن محمد** ليلة وهو نائم، فأنبهته في السحر، وقالت له: قم يا رجل فقد ذهب الليل وجاء النهار وبين يديك طريقٌ بعيد وزادٌ قليل، وقوافل الصالحين قد سارت، ونحن قد بقينا[2].

فطالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرة وطلبُه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الألتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه[3].

قالت امرأة **حسان بن أبي سنان**: كان يجيء فيدخل معي في فراشي، ثم

---

(١) صفة الصفوة ٤٤٤.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٣٥.
(٣) الفوائد ص ٧١.

يخادعني كما تخادع المرأة حبيبها، فإذا علم أني نمت سل نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي، فقلت له: يا أبا عبدالله كم تعذِّب نفسك؟ ارفق بنفسك، فقال: اسكتي ويحك يوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زماناً[١].

أخي:

إنما يقطع السفر ويصل المسافر.. بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حادَ المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده[٢]؟

عبَّـــاد ليــــلٍ إذا جـــن الظَّـــلامُ بهـــم
كمـــا عـــابـــدٍ دمعـــه في الخـــد أجـــرَاهُ
وأُسْـــدُ غـــابٍ إذا نـــادى الجهـــاد بهـــم
هبّـــوا إلى المـــوتِ يستجـــدون رؤيـــاه
يـــا ربِّ فـــابعـــث لنـــامـــن مثلهـــم نفـــراً
يُشيِّـــدون لنـــا مجـــداً أضعنـــاه

كان للحسن بن صالح جاريةٌ فباعها من قوم، فلما كان جوف الليل، قامت الجارية، فقالت: يا أهل الدار الصلاة، فقالوا: أصبحنا؟. أطلع الفجر؟ فقالت: وما تصلُّون إلا المكتوبة؟ قالوا: نعم، فرجعت إلى الحسن فقالت: يا مولاي بعتني من قوم لا يصلون إلا المكتوبة، ردني فردها[٣].

عن إبراهيم بن وكيع قال: كان أبي يُصلي، فلا يبقى في دارنا أحدٌ إلاَّ صلَّ حتى جارية لنا سوداء[٤].

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١١٧، الزهر الفاتح ص ١٨.
(٢) الفوائد ص ١٣١.
(٣) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٤) السير ٩/ ١٤٩، صفة الصفوة ٣/ ١٧١.

أرأيت يا أخي الكريم.. كيف أن الخير عم منازلهم حتى الخدم تأثّروا بصلاحهم وعبادتهم..

والنفـــــسُ راغبـــــة إذا رغَّبتهـــــا

وإذا تُـــــرَدُّ إلى قليـــــلٍ تقنـــــعُ

ولننظر في ليلة من ليالي أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ كيف يقضيها، فعن أبي عثمان النهدي قال: **تضيفت أبا هريرة سبعاً**، فكان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل أثلاثاً، يُصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويُصلي هذا ثم يوقظ هذا..[١].

أرأيت **يا أخي**.. كيف يقضون ليلتهم وكيف يحافظون على أوقاتهم.. ونحن نهدر أيامنا ونُضيِّع أعمارنا ولا نبالي ولا نحرص على ذلك وأرخص شيء عندنا الوقت.. الدقائق تمر والأنفاس لا تعود وعُمرك محاسب عليه.. فأعد حساباتك.. واغتنم ساعاتك..

فرحم الله امرءاً كان قوياً فاستعمل قوته في طاعة الله، وكان ضعيفاً فعجز عن معاصي الله[٢].

* كان زيد بن الحارث يُجزيء الليل إلى ثلاثة أجزاء: جزءٌ عليه، وجزءٌ على ابنه، وجزءٌ على ابنه الآخر عبدالرحمن، فكان هو يصلي ثم يقول لأحدهما: قم، فإن تكاسل، صلى جزأه، ثم يقول للآخر: قم، فإن تكاسل، صلّى جزأه، ثم يقول للآخر: قم، فإن تكاسل أيضاً صلى جزأه، فيصلي الليل كله[٣].

---

(١) صفة الصفوة ١/٦٩٢، الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ٢٥٩.

(٢) كتاب الزهد الكبير للبيهقي ص ٢٨٤.

(٣) السير ٥/٢٩٦.

وكان الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ يأخذ بنصيبه من القيام من أول الليل، وكان الحسين يأخذه من آخر الليل.

يا نائم الليل كم ترقد
قُم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخُذ من الليل وأوقاته
وردًّا إذا ماهجع الرُقَّدُ
قل لذوي الألباب أهل التقى
قنطرةُ العرض لكم موعد

ودعا **سليمان التيمي** أهله ليتنافسوا في ليلهم: هلموا حتى نُجَزِّيء الليل، فإن شئتم كفيتكم أوله، وإن شئتم كفيتكم آخره[1].

وقال وكيع بن الجراح: «كان علي والحسن ابنا صالح بن حي، وأمهم، قد جزءوا الليل ثلاثة أجزاء، فكان علي يقوم الثلث ثم ينام، ويقوم الحسن الثلث ثم ينام، وتقوم أمهما الثلث، فماتت أمهم، فجزءا الليل بينهما، فكانا يقومان به حتى الصباح، ثم مات علي فقام الحسن به كله[2].

يا راقد الليل انتبه
إن الخطوب لها سُري
ثقة الفتى بزمانه
ثقةُ محللة العرى[3]

ونحن نعيش معهم في جو العبادة ونرى طول صبرهم ومدى فرحتهم

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٩.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٥٢.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٣٨.

نتذكَّر قول **قتادة بن دعامة**: قلما ساهر الليل منافق[١].

فالمنافق تشق عليه الطاعة وترهقه العبادة.. ولكن أهل الخير والصلاح لا ينامون. وكيف ينام من يترقَّب حلول المساء ويفرح بانقطاعه في العبادة، كما قال **الفضيل بن عياض**: إذا غربت الشمس فرحتُ بالظلام لِخلوي بربي، وإذا طلَعت، حزنت لدخول الناس عليَّ[٢].

وروي عن **ابن أبي ذئب** أنه كان يصلي الليل أجمع، ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً، ما كان فيه مزيدٌ من الاجتهاد..

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

يروى أن **ضيغم** قد تعبَّد قائماً حتى أُقعد، ومقعداً حتى استلقى، ومستلقياً حتى مات وهو ساجد، وكان يقول في دعائه: «اللهم إني أُحب لقاءك لقائي»[٣].

والعجب أن الكثير منا وهبهم الله من الصحة والقوة والنشاط ما لا يوجد في غيرهم ولكن تتفاوت الأعمال، فالبعض لا يصلي حتى ثلاث ركعات كل ليلة، وهو لو قام الليالي المتتابعة لما ضَعُف ولا هزُل.. بل إن بعض الشباب يفتخر أنه يمشي رياضةً كل يوم ثلاثة أو أربعة كيلومترات.. وتراه يغَفُل عن صلاة ركعتين كل ليلة..

وكان **عثمان** ـ رضي الله عنه ـ يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعه من أوله[٤].

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٢) السير ٧/ ١٤١.
(٣) الزهر الفائح ص ١٨.
(٤) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص ١٨٩.

أما الإمام أبو حنيفة فقد كان يُحيي نصف الليل، فمر بقوم، فقالوا إن هذا يُحيي الليل كله، فقال: إني أستحي أن أوصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يُحيي الليل كله، ويروي أنه ماكان له فراش[١].

وهذا الصبر على الطاعة إعانة من الله للصالحين فتراهم كما قال الفضيل: إني لأستقبل الليل من أوله فيهولني طوله، فأفتتح القرآن، فأُصبح، وما قضيتُ نهمتي..[٢]

يـــا رجـــال الليـــل جـــدُّوا
رُبَّ داعٍ لا يُـــرَدُّ
مـــا يقـــومُ الليـــل إلا
مـــن لـــه عـــزمٌ وجـــدُّ
ليـــس شيءٌ كصـــلاة الـ
ـليـــل للقبر يُعـــدُّ[٣]

لننظر بتأمل ما ذكره ابن جريج عندما قال: لزمت عطاء بن أبي رباح. ثماني عشرة سنة وكان بعدما كبر وَضَعُفَ يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم لا يزول منه شيءٌ ولا يتحرك[٤].

وكان بشر بن المفضل يُلقي للفضيل حصيراً بالليل في مسجده، فيُصلي من أول الليل ساعة، حتى تغلبه عينه، فيُلقي نفسه على الحصير فينام قليلاً

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٢) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٣) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٩٥.
(٤) السير ٥/ ٨٧.

ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم، وهكذا حتى يُصبح[١].

أخي:

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمداً ومن كل ما سواه بُدّ ولابُدَّ لك منه[٢].

لهـــاكَ النـــومُ عـــن طلـــب الأمـــاني
وعـــن تلـــك الكـــواتـــس في الجنـــانِ
تعيـــش مُخلـــداً لا مـــوت فيهـــا
وتلهـــو في الخيـــام مـــع الحســـانِ
تيقـــظ مـــن منـــامـــك إن خيراً
مـــن النـــوم التهجـــد بـــالقـــرآن[٣]

قال أبو الجويرية: لقد صحبتُ أبا حنيفة ـ رضي الله عنه ـ ستة أشهر فما رأيته فيها ليلة وضع جنبه على الأرض[٤].

أما إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ فهو كما قال عنه ابنه عبدالله: كان أبي يقرأ كل يوم سبعاً، وكان ينام نومةً خفيفة بعد العشاء، ثم يقوم إلى الصباح يُصلي ويدعو..[٥].

ونحن نلحظ عبادة الصالحين، وتتوالى علينا صور الأخيار العابدين ـ نرى المزيد من حياتهم ومحافظتهم على هذه الحياة والاستفادة منها الاستفادة

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٣٨.
(٢) الفوائد ص ١٢٩.
(٣) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٢٢٥.
(٤) الإحياء ١/ ٤٢٠.
(٥) السير ١١/ ٢١٤.

الكاملة.. لعلمهم أنها دار العمل.. فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل..

* أشتهر بقيام الليل كله، وصلاة الفجر بوضوء العشاء، الكثير من خيار هذه الأمة لا يعرفون ولم يذكروا وبعضهم ذكروا بذلك فمنهم سعيد بن المسيب، وصفوان بن سليم، ومحمد بن المنكدر المدنيون، وفضيل ووهب المكيان، وطاووس ووهب اليمانيان، والربيع بن خثيم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وأبو جابر الفارسيان، وسليمان التيمي ومالك بن دينار ويزيد الرقاشي وغيرهم[1].

أخي المسلم:

قـــم الليـــل يـــا هـــذا لعلـــك تـــرشـــد
إلى كـــم تنـــام الليـــل والعمـــر ينفـــدُ
أراك بطـــول الليـــل ويحـــك نـــائـــمٌ
وغيرك في محـــــرابـــــه يتهجّـــــدُ
أتـــرقـــدُ يـــامغـــرور والنـــار تـــوقـــدُ
فـــلا حـــرهـــا يُطفـــي ولا الجَمـــرُ يخمـــدُ
ألا إنهـــا نـــارٌ يقـــال لهـــا لظـــى
فتظلـــمُ أحيـــانـــاً وحينـــاً تـــوقـــدُ
فيـــا راكـــب العصيـــان ويحـــك خلهـــا
ستحشرُ عطشـــانـــاً ووجهُـــك أســـودُ

---

(١) السير ٥/ ١٢.

ولـــو علـــم البطّـــالُ مـــا نـــال زاهـــدٌ
مـــن الأجـــر والإحســـان مـــاكـــان يـــرقـــدُ
فصـــام وقـــام الليـــل والنـــاسُ نـــوّم
ويخلـــو بـــــربٍّ واحـــــدٍ يتعبـــــدُ
فلـــو كـــانـــت الـــدنيـــا تـــدومُ لأهلهـــا
لكـــان رســـول الله حيًّـــا يخلـــدُ

عن ابن إسحاق قال: قدم علينا **عبدالرحمن الأسود** حاجًّا، فاعتلت رجله، فصلى على قدمٍ حتى أصبح[١].

وقالت امرأة **مسروق**: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفخان من طول الصلاة.

وقال عبدالله بن **أحمد بن حنبل**: كان أبي يصلي في كل يومٍ وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما مرض من تلك الأسوا(*) أضعفته، فكان يصلي في كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة، وقال كان قُرب الثمانين، وكان يقرأ في كل يومٍ سبعاً، يختم في كل سبعة أيام، وكانت له ختمة في كل سبع ليالٍ سوى صلاة الظهر، وكان ساعة يصلي العشاء الآخر ينام نومةً خفيفة ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو[٢].

وكان **سليمان التيمي** يسبح الله في كل سجدة سبعين تسبيحة[٣].

ونحن في زماننا هذا نتساءل.. ونشكو إلى الله ضعفنا وخورنا..

---

(١) المدهش ٤٣١.

(*) الأصوات التي أصابته في فتنة القول بخلق القرآن.

(٢) مناقب الإمام أحمد ٣٥٧.

(٣) تذكرة الحفّاظ ١٥١.

فكـــــم بين مشغـــــولٍ بطـــــاعــــــة ربــــه
وآخـــــر بــــــالــــــذنــــب الثقيــــل مقيــــدُ
فهــــذا سعيـــــدٌ بـــــالجنـــــان منعـــــمٌ
وذاك شقـــــــيٌ في الجحيـــــــم مُخَلَّـــــــدُ
كــــأني بنفسي في القيـــــامــــــة واقـــــفٌ
وقـــد فـــاض دمعـــي والمفـــاصـــل تـــرعُـــد

ومن محبة الله القيام لمناجاته في ظُلم الليالي وهي مناجاة لا يعدلها فرح ولا سرور ذكر ذلك أبو سليمان عندما قال: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل الهوى في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا[1].

وقال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث.. قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في الجماعة[2].

وكيف حالنا اليوم وقد أصبح الناس يتثاقلون في العبادة ويبتعدون عن الطاعة.

فأخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس[3].

ولنرى ليالينا التي أضعناها فيما لا فائدة منه كيف كانوا يختمون بطلوع الفجر وكيف كانوا يفرحون بقيام الليل وصيام النهار.

---

(١) الأحياء ١/ ٤٢٣.
(٢) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٣) الفوائد ١٠٨.

فهذا علي بن البكار يؤكِّد الحزن بقوله: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر[١].

صـــلاتـــك نـــورٌ والعبـــاد رقـــود
ونـــومـــك ضـــدٌّ للصـــلاة عنيـــد[٢]

يا ترى كيف كانت محبتهم للطاعات ومداومتهم عليها حتى جعلها الله عندهم من لذات الدنيا..

كان ثابت البناني يقول: ماشيء أجده في قلبي ألذّ عندي من قيام الليل[٣].

إنه ليل العبادة والطاعة، ليلٌ يناجي فيه رب السموات والأرض.. يفرحون به إذا أتى ويحزنون إذا رحل.

يروى عن محمد بن المنكدر ـ رحمه الله ـ أنه لما نزل به الموت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي حرصاً على الدنيا ولا جزعاً من الموت، ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وقيام ليالي الشتاء.

وصيام ليالي الشتاء وقيامها هي التي سماها النبي، ﷺ الغنيمة الباردة[٤].

بكـــى البـــاكـــون للـــرحمـــن ليـــلاً
وبـــاتـــوا وهـــم لا يســـأمـــونـــا

---

(١) الإحياء ١/ ٤٢٣.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٥.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٦٢.
(٤) أخرجه الترمذي وأحمد.

بقـــاع الأرض مــــن شـــوق إليهـــم
تحـــن متـــى عليهـــا يسجـــدونـــا[١]

قال الخلدي: رأيت أحد العباد في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

مـــن كـــان يـــرغـــب في النجـــاة فمـــا لـــه
غير اتبــــاع المصطفـــــى فيمـــــا أتي
ذاك السبيـــــــل المستقيـــــــم وغيره
سُبـــل الضـــلالـــة والغـــوايـــة والـــردى
فـــاتبِّـــع كتـــابَ الله والسنـــن التـــي
صحَّـــت فـــذاك إن اتبعـــت هـــو الهـــدى[٢]

من أراد قيام الليل والقرب من الله ومن أراد أن ينال هذه المنزلة الرفيعة فعليه أن يأخذ نفسه بهذه الأسباب التي تعين المسلم على قيام الليل ومنها:

١ ـ **لا تكثر الأكل** فيكثر الشرب، فيغلب النوم ويثقل عليك القيام.

٢ ـ **لا تتعب نفسك بالنهار** في الأعمال التي تعيا بها الجوارح، وتضعف بهاالأعصاب، فإن ذلك أيضاً مُجلبٌ للنوم.

٣ ـ **لا تترك القيلولة بالنهار**، فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل.

٤ ـ **سلامة القلب من الحقد على المسلمين**، ومن البدع والخرافات ومن

---

(١) عقود اللؤلؤ والمرجان ص ٣٣١.

(٢) السير ٢٣/ ٣١٤.

هموم الدنيا، فإن هذه الأمراض تصرف عن طاعة الله.

٥ ـ **لا ترتكب الأوزار بالنهار،** فإن ذلك مما يقسي القلب، ويحول بينك وبين أسباب الرحمة.

٦ ـ **خوف يلزمُ القلب مع قصر الأمل،** والتفكر في أهوال يوم القيامة ودركات جهنم.

وأخيراً يا أخي الكريم: تذكَّر أن النبي ﷺ قام من الليل حتى تفطرت قدماه.

وقام السلف الصالح والأخيار الصالحون من هذه الأمة.. أفلا تحب أن تكون بجوارهم في جنات عدن.. مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

أخي المسلم: وأنت خيرُ من يخلفُ سلف الأمة الصالح بطول القيام وبصدق المناجاة فأنت صاحب القلب الحي العامر بالإيمان الصادق.. لا تنسانا من صالح دعائك.

جعلنا الله وإياك من الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

هديه ﷺ في قيام الليل[1]

لم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً، وكان قيامه، ﷺ بالليل إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشرة.

وكان ﷺ يصلي أول الليل أربع ركعات أو ست ركعات ثم يأوي إلى فراشه، وكان إذا استيقظ بدأ بالسواك، ثم يذكر الله ويقول عند استيقاظه: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»، ثم يتطهّر، ثم يصلي ركعتين خفيفتين، وكان ﷺ يقوم تارة إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، وربما كان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك وهو إنما يصيح في النصف الثاني، وكان يقطع ورده تارة ويصله تارة وهو الأكثر.

قيامه بالليل ووتره أنواع فمنها:

النوع الأول: أنه ﷺ يقطع ورده تارة ويصله تارة كما قال ابن عباس في حديث بيته عنده، أنه ﷺ استيقظ فتسوّك، وتوضأ، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة، ثم قام فصلّى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف، فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات، كل ذلك يستاك ويتوضأ، ويقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث، فأذّن المؤذن، فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً،**

---

(١) زاد المعاد ١/٣٢٢ باختصار.

ومن تحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً»، [رواه مسلم]. ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة، فإما أنه كان يفعل هذا تارة، وهذا تارة، وإما أن تكون عائشة حفظت مالم يحفظه ابن عباس.

النوع الثاني: الذي ذكرته عائشة، أنه كان يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يُتم ورده إحدى عشرة ركعة يُسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة.

النوع الثالث: ثلاث عشرة ركعة كذلك.

النوع الرابع: يصلي ثمان ركعات، يُسلم من كل ركعتين، ثم يوتر بخمس سرداً متوالياً، لا يجلس في شيء إلا في آخرهن.

النوع الخامس: تسع ركعات، يسرد منهن ثمانياً لا يجلس في شيء منهن إلا في الثامنة، يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يُسلم، ثم يُصلي التاسعة، ثم يقعد، ويتشهد، ويُسلم، ثم يصلي ركعتين جالساً بعدما يسلم.

النوع السادس: يصلي سبعاً كالتسع المذكورة، ثم يُصلي بعدها ركعتين جالساً.

النوع السابع: أنه كان يُصلي مثنى مثنى، ثم يُوتر بثلاث لا يفصل بينهن.

النوع الثامن: ما رواه النسائي، عند حذيفة، أنه صلَّى عند النبي ﷺ في رمضان، فركع، فقال في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**» مثل ما كان قائماً، ثم جلس يقول: «ربِّ اغفر لي، ربِّ اغفر لي»، مثل ما كان قائماً، ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**» مثل ما كان قائماً، فلما صلَّى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعوه إلى الصلاة.

وأوتر أول الليل، ووسطه، وآخره، وقام ليلة تامة بآية يتلوها ويرددها حتى الصباح وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.
٢ ـ بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، حققه محمد الجار.
٣ ـ تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.
٤ ـ تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي، دار إحياء التراث العربي.
٥ ـ تفسير ابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر ١٤٠١هـ.
٦ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.
٧ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية ط١، ١٤٠٧هـ.
٨ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
٩ ـ رهبان الليل سيد بن الحسين العفاني، مكتبة ابن تيمية ط١، ١٤١٠هـ.
١٠ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الارناؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.
١١ ـ الزهد للإمام أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد، دار الكتاب العربي ط١، ١٤٠٦هـ.
١٢ ـ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن

محمد بن يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي ط١، ١٤٠٦هـ.

١٣ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٥ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق، محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

١٦ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٧ ـ طبقات الشافعية لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي السبكي، تحقيق محمود محمد طناحي ورفيقه، دار إحياء الكتب العربية.

١٨ ـ عقد الؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

١٩ ـ الفوائد لابن القيم الجوزية ـ دار النفائس.

٢٠ ـ كتاب الزهد الكبير للإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، حققه الشيخ عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية ط١، ١٤٠٨هـ.

٢١ ـ مختصر قيام الليل، شيخ الإسلام أبي عبدالله محمد بن نصر المروزي، اختصرهما العلامة أحمد بن علي المقريزي.

٢٢ ـ المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصححه د. مروان قباني، دار الكتب العلمية ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٣ ـ مناقب الإمام أحمد للحافظ أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ١٣٩٩هـ، مكتبة الخاني.

اصبر واحتسب

الإهـداء

* إلى من تكالبت عليه الأيام . . وقلب الله له الدهر ظهر المجن . .

* إلى من أدلهمت السماء فوقه تنذر بالخطوب . . وأُغلقت في وجهه المسالك والدروب . . فإذا به صابراً محتسباً .

* ما اهتز له قلب .

* وما رف له جفن .

* * *

* إلى من نامت قريرة العين برضا الله وقدره . . متوسدةً عاصفة هوجاء . . تتخطفها الأسنة وتنالها الرماح . .

* ماعرف الحزن إلى قلبها مدخلا

* وما استقرت الدمعة في عينها زمنا

* * *

* إلى من فقد الأبناء والأحباب . . والآباء والأصحاب

* إلى كل مؤمن مهموم . . وكل مبتلى مغموم

* * *

* عظم الله أجرك . . ورفع درجتك . . وجبر كسرك .

* * *

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وحصناً حصيناً لا يُثلم.. والصلاة والسلام على خير الصابرين والشاكرين والحامدين محمد بن عبدالله.. وبعد:

في هذه الدنيا سهام المصائب مُشرعة ورماح البلاء مُعدةٌ مرسلة.. فإننا في دار ابتلاء وامتحان ونكد وأحزان، وقد بلغ الضعف والوهن ببعضنا إلى التجزع والتسخط من أقدار الله..

فأضحى الصابرون الشاكرون الحامدون هم القلة القليلة.

وسُنن الله في خلقه ثابتةٌ لم تتغير وقضاؤه على عباده سائرٌ لم يتبدل.. نلاحظ أن النوازل تنزل والقوارع تطرق والناس في هذا الزمن غلبت عليهم أمورٌ أربعة:

الأول: عدم الرضا والصبر والاحتساب.. بل البعض يسلو كما تسلو البهائم.

الثاني: الجزع والتسخط.. وكأن الدنيا ما خلقت إلا للصفو والنعيم..

الثالث: عدم احتساب الأجر سوى في المصائب الكبيرة كالموت وغيره وتناسوا أن الأمر سواء على كل ما يسوء المرء حتى الشوكة تُصيب قدمه..

الرابع: ظن الكثير أن الامتحان والابلاء هو زمن المصيبة فحسب، وما عدوا النعمة والغنى بليةٌ وطامةٌ إن لم تُعن على الطاعة والعبادة.

وهذا هو الجزء الرابع من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» نرى فيه كيف

كان رضا وصبر وشكر من كانوا قبلنا وقد أُبتلي بعضهم بأشد مما يُصيبنا.

وهذا الكتاب فيه تعزية للمُصاب وتسلية للمُبتلى وإعانة على الصبر والاحتساب.

جعلنا الله من الصابرين الشاكرين ممن نُنادي يوم القيامة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤].

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مع الشاكرين

إن العبد في تنقلاته في هذه الحياة وأطواره فيها لا يخلو من حالتين: إما أن يحصل له ما يُحب ويندفع عنه ما يكره، فوظيفته في هذه الحالة الشكر والاعتراف بأن ذلك من نعم الله عليه، فيعترف بها باطناً ويتحدث بها ظاهراً، ويستعين بها على طاعة الله وهذا هو الشاكر حقًّا. .

الحالة الثانية. . أن يحصل للعبد المكروه أو يفقد المحبوب، فيحدث له، همًّا وحزناً وقلقاً فوظيفته الصبر لله، فلا يتسخط ولا يضجر ولا يشكو للمخلوق ما نزل به، بل تكون شكواه لخالقه سبحانه وتعالى، ومن كان في الضراء صابراً وفي السراء شاكراً فحياته كلها خير وبذلك يحصل على الثواب الجزيل ويكتسب الذكر الجميل[1].

والبلاء الذي يصيب العبد لا يخرج عن أربعة أقسام: إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يُحب، والناس مشتركون في حصولها، فغير المؤمن التقي يلقى منها أعظم مما يلقى المؤمن كما هو مشاهد[2].

ورأيت جميع الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذلك وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا

---

(١) الصبر وأثره ص٥.

(٢) الصبر وأثره ص١٢.

السقم، والكبير إلا الهرم والموجود سوى العدم[(١)].

ولابد أن يعلم المصاب أن الذي إبتلاه بمصيبته أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل البلاء ليُهلكه به ولا ليعذبه، ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضّرعه وابتهاله وليراه طريحاً على بابه لائذاً بجنابه، مكسور القلب بين يديه رافعاً قصص الشكوى إليه[(٢)] قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد: ٣١].

وقد ذكر الله الصبر في القرآن في نيف وتسعين موضعاً وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فالهدى والرحمة والصلوات مجموعةٌ للصابرين[(٣)].

وقرنه بالصلاة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٣][(٤)].

---

(١) الثبات عند الممات ص١٩.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٢٢٥.
(٣) عدة الصابرين، ٩٨ مكاشفة القلوب ٢٣٧.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٩.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«من يرد الله به خيراً يُصب منه»**[١].

والحمد لله على فضله وجزيل عطائه فقد بشرنا الرسول ﷺ بقوله: **«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصبٍ ولا هم ولا حزن ولا أذىً ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»**[٢].

والأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتوالى عليهم البلاء مثل كافة الناس وإن كانوا أشد بلاءً فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: **«الأنبياء»** قلت: ثم من؟ قال: **«الصالحون إن كان أحدهم ليُبتلى بالفقر حتى مايجد إلا العباءة يحتويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدهم بالرخاء»**[٣].

والصبر ـ أخي الكريم ـ مقامٌ من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين[٤].

وقد قال **أبو الدرداء**: «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضاء بالقدر»[٥].

وفي حديث عن النبي ﷺ: **«الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»**[٦].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه ابن ماجه.
(٤) الإحياء ٤/ ٦٥.
(٥) الإحياء ٤/ ٥٦.
(٦) ضعيف الجامع الصغير ص ٣٥٣٨.

والحسن ـ رحمه الله ـ يقول: «الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله ـ عزّ وجل ـ إلا لعبد كريم عنده»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[٢].

والخير الحاصل للشاكرين هو الزيادة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

والخير الحاصل للصابرين هو الأجر والثواب والمغفرة والرحمة[٣].

قال **الفضيل**: «إن الله ـ عزّ وجل ـ ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير»[٤].

وقال رحمه الله: «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يُعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وحتى لا يحب أن يُحمد على عبادة الله»[٥].

وسأل رجلٌ **الإمام الشافعي** فقال: يا أبا عبدالله، أيهما أفضل للرجل أن يُمكن أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يُمكن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم ألبتة[٦].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٥.
(٢) رواه مسلم.
(٣) الصبر وأثره ص٥.
(٤) الإحياء ٤/ ١٣٩.
(٥) السير ٨/ ٤٣٤.
(٦) الفوائد ص ٢٦٩.

وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] [السجدة: ٢٤].

والمصائب ـ أخي الكريم ـ تتفاوت ولكن أعظمها المصيبة في الدين فهي أعظم مصائب الدنيا والآخرة، وهي نهاية الخسران الذي لا ربح معه، والحرمان الذي لا طمع معه[2].

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه
فما فاته منها فليس بضائر

وأصل كلمة الصبر هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما[3].

وحقيقة الصبر خُلقٌ فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل ما لا يُحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها وحين سُئل **الجنيد** عن الصبر قال تجرع المرارة من غير تعبس.

وقال **ذو النون**: هو التباعد عن المخالفات، والسكون عن تجرع غُصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقيل: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب[4].

أخي الكريم

لابد من الإبتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه ألبتة،

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٣٩.
(٢) تسلية أهل المصائب ص ٢٤.
(٣) عدة الصابرين ص٢٧.
(٤) عدة الصابرين ص ٢٩.

ولهذا ذكر الله ـ تعالى ـ في غير موضع أنه لابد أن يُبتلى الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولابد أن يبتلى الإنسان بما يسره وما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً. قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [١] [الأعراف: ١٦٨].

ولو تبصر الإنسان فيمن حوله لوجدهم بين أمرين وفي أحد حالين: إما سراء أو ضراء، ولكن النفوس البشرية تغفل عن فتنة السراء ولا ترى إلا فتنة الضراء وهي الظاهرة في شكاوي البشر.. فما من إنسان إلا له ألم أو فجيعة أو وهم أو غم أو نكد، ولا يكاد يمر يوم في هذه الدنيا دون تنكيد، وتنغيص قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

قال **ابن كثير** ـ رحمه الله في تفسير هذه الآية: يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمراً من أمر الآخرة وفي رواية يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة[٢]..

عن **عبدالملك بن أبحر** قال: ما من الناس إلا مبتلى بعافية، لينظر كيف شُكره أو مبتلى ببلية لينظر صبره[٣].

أما نعمة الضراء... فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء[٤].

---

(١) الفوائد ص٢٧١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٣.
(٣) حلية الأولياء ٥/ ٨٥.
(٤) الفتاوى ١٤/ ٣٠٥.

والفقر يصلح عليه خلق كثير، **والغنى** لا يصلح عليه إلا أقل منهم، ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء[1].

وقـــد يُنعـــم الله بـــالبلـــوى وإن عظُمـــت
ويبتلي الله بعـــض القـــوم بـــالنعـــم[2]

أخي الكريم: إذا فجعتك المصائب ونزلت بك الهموم وادلهمت بك الطرق وأظلمت عليك الدروب من حوادث الدنيا المقدره.. فإن عليك بمنزلة الرضا لما قدر الله وقضى فإنها المنزلة الأولى..

فأرض بقضاء الله وقدره ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١].

والدرجة الثانية: الصبر على البلاء وهذه لمن لم يستطع الرضا بالقضاء، فالرضا فضل مندوب إليه مستحب، والصبر واجبٌ على المؤمن حتم.

والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر كف النفس وحبسها عن السخط مع وجود الألم وتمني زوال ذلك، وكّف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء وترك تمني زوال الألم وإن وجد الإحساس بالألم، لكن الرضا يخففه ما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذاقوي الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية[3].

- وينقسم الصبر إلى: واجب: ، ومندوب، ومحظور، ومكروه، ومباح.

---

(١) الفتاوى ١٤/٣٠٥.
(٢) موارد الظمآن ٢/٧٥.
(٣) جامع العلوم والحكم باختصار ص١٩٤.

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع:

أحدها: الصبر عن المحرمات.

والثاني: الصبر على آداء الواجبات.

والثالث: الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها، كالأمراض والفقر وغيرها.

أما الصبر المندوب: فهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله(١).

والصبر المحمود: أنواع: منه صبر على طاعة الله ـ عزّ وجل ـ ومنه صبر عن معاصي الله ـ عزّ وجل ـ ومنه صبر على أقدار الله ـ عزّ وجل ـ(٢).

قال **الفضيل بن عياض** في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤]:

قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه(٣).

ويذكر عن **علي ـ رضي الله عنه ـ** أنه قال: الصبر ثلاثة: فصبرٌ على المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة.

ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة(٤).

---

(١) عدة الصابرين ص٥٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ص٢٦٦.

(٣) تسلية أهل المصائب ص١٩٣.

(٤) عدة الصابرين ص٩٧.

وقال **ميمون بن مهران**: الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية[١].

واحتمال الأذى فهو الصبر ولكنه أشق، وهو بضاعة الصديقين، وشعار الصالحين وحقيقته أن يؤذى المسلم في ذات الله ـ تعالى ـ فيصبر ويتحمل، فلا يرد السيئة بغير الحسنة، ولا ينتقم لذاته[٢].

والله ـ جل وعلا ـ يجازيه على صبره: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

أخي المسلم:

إن الشخص البالغ العاقل مادام في دار التكليف والأقلام جارية عليه، لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال، فإنه بين أمرٍ يجب عليه امتثاله، والصبر لابد منه قولاً وفعلاً، وبين نهي يجب عليه الصبر فيهما، وبين نعمة عليه شكر المنعم عليها والصبر عليه، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه، فالصبر لازم له إلى الممات.

ولما كان الصبر مأموراً به، جعل الله ـ سبحانه ـ له أسباباً تعين عليه وتوصل إليه **فمما يسلي المصاب:** أن يوطن نفسه على أن كل مصيبةً تأتيه هي من عندالله وأنها بقضائه وقدره، وأنه ـ سبحانه ـ لم يقدرها عليه ليهلكه بها، ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره ورضاه، وشكواه إليه وابتهاله ودعاءه، فإن وفق لذلك كان أمر الله قدراً مقدوراً، وإن حرم ذلك كان ذلك خسراناً مبيناً.

---

(١) تسلية أهل المصائب ص١٩٣.

(٢) الصبر وأثره ص١٩.

وعلاج المصائب بأمور منها:

الأول: أن يعلم أن الدنيا دار ابتلاء، والكرب لا يرجى منه راحة.

الثاني: أن يعلم أن المصيبة ثابتة.

الثالث: أن يقدر وجود ماهو أكثر من تلك المصيبة.

الرابع: النظر في حال من ابتُلِي بمثل هذا البلاء، فإن التأسي راحة عظيمة.

الخامس: النظر في حال من ابتُلِي أكثر من هذا البلاء، فيهون عليه هذا.

السادس: رجاء الخلف إن كان من مضى يصح عنه الخلف كالولد والزوجة.

السابع: طلب الأجر بالصبر في فضائله وثواب الصابرين وسرورهم في صبرهم، فإن ترقى إلى مقام الرضا فهو الغاية.

الثامن: أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خيرٌ له.

التاسع: أن يعلم أن تشديد البلاء يخص الأخيار.

العاشر: أن يعلم أنه مملوك، وليس للمملوك في نفسه شيء.

الحادي عشر: أن هذا الواقع، وقع برضى المالك، فيجب على العبد أن يرضى بما رضي به السيد.

الثاني عشر: معاتبة النفس عند الجزع، أن هذا الأمر لابد منه فما وجه الجزع مما لابد منه.

الثالث عشر: إنما هي ساعةٌ فكأن لم تكن(١).

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٩ باختصار.

أخي الحبيب:

متى ما أصابك مكروه في بدنك أو مالك أو حبيبك فاعلم أن الذي قدره حكيم عليم لا يفعل شيئاً عبثاً ولا يقدر شيئاً سدى، وأنه تعالى رحيم قد تنوعت رحمته على عبده، يرحمه فيعطيه، ثم يرحمه فيوفقه للشكر، ويرحمه فيبتليه، ثم يرحمه فيوفقه للصبر، فرحمة الله متقدمة على التدابير السارة والضارة ومتأخرة عنها، ويرحمه أيضاً بأن يجعل ذلك البلاء مكفراً لذنوبه وآثامه ومنمياً لحسناتة ورافعاً لدرجاته[1].

وهنا توجيه نبوي كريم بكتمان المصيبة وعدم التحدث بها قال ﷺ: «**من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة**».

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله ـ عزّ وجل ـ الخفية.. وهذا سر من أسرار الرضا وعدم التضجر والانزعاج.

قال**الأحنف**: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد[2].

ولما نزل في إحدى عيني **عطاء** الماء، مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله[3].

رحمه الله لو رأى زماننا لعجب من كثرة الحديث في المصائب.. بل إن البعض حتى قبل أن تسأله عن صحته وحاله.. يبادر بالشكوى.. ويكثر التسخط.. يحدثك بما فيه من الأمراض.. وبما في أبنائه وأهله.. حتى ليخيل إليك أن هذا الإنسان ما مر به خيرٌ ونعمةٌ ورخاءٌ قط.. والله لو نظر بعين الرضا لرأى الخير في حياته يحف به من جميع الجوانب.. نعمٌ لا تحصى ولا تعد.

---

(١) الصبر وأثره ص٨.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٩.

(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٢٦.

قال ﷺ: «**من كنوز البر كتمان المصائب، وما صبر من بث**» وحين سأل يونس بن زيد ربيعة بن أبي عبدالرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه(١).

وقال **بكر بن عبدالله المزني**: كان يقال من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة(٢).

وقال **خالد بن أبي عثمان**: مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير مقنعاً، فقال لي: إياك والتقنع فإنه من الاستكانة(٣).

وليس الجزع ـ أخي الحبيب ـ أن تدمع العينين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء(٤).

ومن **آداب الصبر** استعماله في أول الصدمة وحين وقوع الفاجعة لقوله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٥).

ومن **الآداب** سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب(٦).

وأما البكاء والحزن من غير صوتٍ ولا كلامٍ محرمٍ، فهو لا ينافي الصبر والرضا.

---

(١) تسلية أهل المصائب ص١٩٤.
(٢) عدة الصابرين ص٣٢٦.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٢٤.
(٤) عدة الصابرين ص٣٢٦.
(٥) متفق عليه.
(٦) مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٩.

قال تعالى حكايةً عن يعقوب ـ عليه السلام: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

قال قتادة: كظيم على الحزن، فلم يقل إلا خيراً، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وقوله تعالى عنه في أول السورة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

وقد جاء في أثرٍ مرفوع إلى النبي ﷺ: «**من بث لم يصبر**» لكن يعقوب ـ عليه السلام ـ ابيضت عيناه من البكاء ولم يناف حُزنه وصبره، فإنه ـ عليه السلام ـ ما شكا بثه وحزنه إلى مخلوق، وإنما شكاه إلى الله[١].

وحُكي عن **شريح** أنه قال: إني لأُصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات وأشكره، إذ لم تكن أعظم مما هي، وإذ رزقني الصبر عليها، وإذ وفقني الاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب، وإذ لم يجعلها في ديني[٢].

ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة، ولطم الوجه، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، وحلق الشعر، والدعاء بالويل[٣].

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها**» [الحديث].

وقد جعل الله كلمات الاسترجاع وهي قول المصاب «**إنا لله وإنا إليه راجعون**» ملجأً وملاذاً لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين من الشيطان

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٢٣.

(٢) تسلية أهل المصائب ص٢٩٠.

(٣) عدة الصابرين ص٣٢٥.

لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة، فيهيج ما سكن، ويظهر ما كمن[١].

وليعلم المصاب أن الجزع لا يرد المصيبةبل يضاعفها، وهو في الحقيقة يزيد في مصيبته، بل يعلم المصاب أن الجزع يشمتُ عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أخزى شيطانه، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات في الأمر الديني قال النبي ﷺ: «**اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر**» فهذا هو الكمال الأعظم، لا لطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والتسخط على المقدور.

قال **بعض الحكماء**: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلوَّ البهائم[٢].

قال **عبدالله بن المبارك** ـ رحمه الله ـ أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت، فقال: ابنك يقضي وأنت تصلي؟! فقال: إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللاً في عمله[٣].

قال **ابن عبدالعزيز** لأمٍ مات ابنها: إتقي الله واحتسبيه عند الله واصبري، ، فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أُفسدها بالجزع[٤].

قال شيخ الإسلام **ابن تيمة**: الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة

---

(١) تسلية أهل المصائب ص١٦.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٩.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٢٤.
(٤) تسلية أهل المصائب ص٢٢٤.

الدين، وإنما اختلفوا في وجوب الرضا[١].

ومما يقدح في الصبر والرضا وينافيهما: إظهار المصيبة، والتحدث بها وإشاعتها، سواء كان كلامًا بها بين الأصحاب أو غيرهم، اللهم إلا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه: مات فلان، يعني والده أو ولده، ونحو ذلك، وما يريد به إظهار المصيبة وإنما يريد إعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشييعه ونحو ذلك مما هو من فروض الكفايات، ويحصل لهم بذلك القراريط من الأجر[٢].

قال **سقيق البلخي**: من شكا مصيبة به إلى غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً[٣].

وما يصيب الإنسان محن وابتلاء من الله ـ جل وعلا ـ فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣]. فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث فمن صبر عليها، كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنةٍ أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنةٍ أشد منها[٤].

قال ثابت: أصيب عبدالله بن مطرق بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه[٥].

---

(١) الفتاوى ١١/ ٢٦٠.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٢٢٦.
(٣) منهاج القاصدين ص٣٠١.
(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٢.
(٥) تسلية أهل المصائب ص٢٢٤.

وكان علي بن أبي طالب يقول: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك[١].

وعندما سأل رجلٌ الإمام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبدالله؟

قال: بخير في عافية، فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، لا تخرجني إلى ما أكره[٢]

وما يكرهه - رحمه الله - التحدث عن المرض وعدم كتمانه، وذلك لما يرجوه من كتمان المرض. فكيف يشتكي العبد ربه إلى مخلوق مثله، وأما إذا كان الإخبار على سبيل الاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرره، لم يقدح ذلك في الصبر.

* بعث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - برسالة إلى أبي موسى الأشعري جاء فيها: عليك بالصبروأعلم أن الصبر صبران، أحدهما أفضل من الآخر، الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله - تعالى -[٣].

وإذا تأملت - أخي - حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات، التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله، كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة، ومنّة

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٩.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٩.

(٣) الإحياء ٤/ ٦٥.

عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان[1].

قال وهب بن منبه: **رؤوس النعم ثلاثة:**

فأولـها: نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها.

والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها.

والثالثة: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا به[2].

ولو رأيت في نفسك وفيمن حولك لحمدت الله الذي أسبغ عليك نعمه ظاهرةً وباطنةً ولا نخرج في حالنا عمَّا قال **عبدالملك بن إسحاق**: مامن الناس إلا مُبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لنظر كيف صبره[3].

والبلاء والمصائب في عمر الإنسان أيامٌ معدودة.. لحظاتٌ ثم تنجلي كان **محمد بن شبرمة** إذا نزل به بلاء قال: سحابة صيف ثم تنقشع[4].

فالحمد لله على نعمه وعلى ماقضى.. ذكر ابن أبي الدنيا: أن داود قال: يارب، أخبرني ما أدنى نعمك عليّ، فأوحى الله إليه: يا داود، تنفس، فتنفس، قال: هذا أدنى نعمي عليك[5].

وتمام النعمة وكمال العطاء ما قاله رسول الله ﷺ: **«إن تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة»**.

وقال **ابن أبي الحواري**: قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد، نسأل الله أن لا يسلبنا إياه، قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٢٩٩.

(٢) عدة الصابرين ص١٨١.

(٣) عدة الصابرين ص١٧٢.

(٤) عدة الصابرين ص١٢٥.

(٥) عدة الصابرين ص١٧٦.

على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قبله[١].

وذُكر عن **هلال بن بساق** قال: كنا قعوداً عند عمار بن ياسر، فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي: ما أشتكيت قط، فقال عمار: ما أنت منا أو لست منا، إن المسلم يُبتلى ببلاء، فتحط عنه ذنوبه، كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر أو قال الفاجر يُبتلى ببلية، فمثله مثل البعير إن أُطلق لم يدر لم أُطلق، وإن عُقل لم يدر لم عُقل[٢].

والحمد لله على هذا الفضل العظيم والإحسان الجزيل قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إن الحمى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقها».

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: **«إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة»**.

قال ابن أبي الدنيا: كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب[٣].

أخي الحبيب:

أرأيت ما نكرهه ونتأذى من وجوده.. يرحمنا الله به ويحط به ذنوباً سلفت لا إله إلا هو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

قال معروف **الكرخي**: إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع، فيشكو إلى أصحابه، فيقول الله ـ تبارك وتعالى ـ وعزتي وجلالي ما ابتليتك

---

(١) عدة الصابرين ص١٧٥.

(٢) عدة الصابرين ص١١٤.

(٣) عدة الصابرين ص١١٦.

بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب فلا تشتكيني[١].

وحين مرض كعب، عاده رهط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجدك يا أبا اسحاق؟ قال: بخير، جسدٌ أخذ بذنبه وإن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه، وإن بعثه بعثه خلقاً جديداً، لا ذنب له[٢].

وقال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء[٣].

وفسر الفضيل قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرعد: ٢٤] بقوله: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه[٤].

أما بكر بن عبدالله فقد سأل أخاً له أن يوصيه فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والإستغفار[٥].

فإن ابن آدم بين نعمة وذنب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار وقد يظن القاريء أن المصيبة هي موت قريبٍ أو فقد حبيب، وربما كانت مرضاً عارضاً أو حادثاً مروعاً.. ولكن نعمة الله وسعت كل شيء.. حتى الشوكة يشاكها المؤمن له فيها سهم من الخير.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من وصبٍ ولا

---

(١) عدة الصابرين ص١٢٢.
(٢) عدة الصابرين ص١١٨.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٢.
(٤) عدة الصابرين ص٩٧.
(٥) عدة الصابرين ص١٧٧.

نصب ولا هم ولا حزنٍ ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه».

فتلمس أخي موضع قدمك ومكان ألمك ومتى ما أصبت بأقل شيء فقل: «إنا لله وإنا إليه راجعون». . واحمد الله الذي رزقنا هذا الفضل وهذا الإحسان.

كان **شميط بن عجلان** يقول: إن العافية سترت البر والفاجر، فإذا جاءت البلايا استبان عندها الرجلان، فجاءت البلايا إلى المؤمن، فاذهبت ماله وخادمه ودابته، حتى جاع بعد الشبع، ومشى بعد الركوب، وخدم نفسه بعد أن كان مخدوماً، فصبر ورضي بقضاء الله ـ عزّ وجل ـ وقال: هذا نظر من الله ـ عزّ وجل ـ هذا أهون لحسابي غداً.

وجاءت البلايا إلى الفاجر فأذهبت ماله وخادمه ودابته، فجزع وهلع وقال: والله مالي بهذا طاقة، والله لقد عودت نفسي عادة، مالي عنها صبر في الحلو والحامض والحار والبارد ولين العيش. فإن هو أصابه من الحلال وإلا طلبه في الحرام والظلم ليعود إلى ذلك العيش[1].

وعاد رجل من المهاجرين مريضاً، فقال: **إن للمريض أربعاً**: يرفع عنه القلم، ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته، وتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها، فإن عاش عاش مغفوراً له، وإن مات مات مغفوراً له، فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعاً[2].

وكانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع، فذكروا

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٣٤٦.

(٢) عدة الصابرين ص١٢٣.

لها ذلك، فقالت: ما أُصابُ بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت في عيني أصغر من الذباب[١].

وقال أحمد بن حاتم: بلغني أن عروة بن الزبير قطعت رجله من الأكلة فقال: إن مما يطيب نفسي عنك، أني لم أنقلك إلى معصية لله قط[٢].

وحينما دخل رجلٌ على **داود الطائي** في فراشه فرآه يرجف فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقال: مه، لا تعلم بهذا أحداً، وقد أُقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد[٣].

أخي المسلم:

الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه ولو عرف الناس لما شكا إليهم[٤].

قال **بعض السلف**: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم.

على ذا مضى الناس اجتماعٌ وفرقةٌ
وميتٌ ومولودٌ وبشرٌ وأحزانُ

ثم قال: ولعمري أن أصل الانزعاج لا ينكر، إذا الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا، وإنما الإفراط فيه والتكليف، كمن يخرق ثيابه

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٤٠.
(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص٩٦.
(٣) عدة الصابرين ص٣٢٧.
(٤) الفوائد ص١١٤.

ويلطم وجهه ويعترض على القدر، فإن هذا لا يرد فائتاً، لكنه يدل على خور الجازع ويوجب العاقبة[١].

وكتب ابن نجيح يعزي بعض الخلفاء: إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له، واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه[٢].

وقال **حسان بن أبي جبلة** في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] قال: لا شكوى فيه[٣].

والصبر مكانته عظيمة ومنزلته رفيعة كما قال علي بن أبي طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له[٤].

وقال **عمر بن الخطاب**: وجدنا خير عيشنا بالصبر[٥].

وذكر **سلمان الفارسي** أن رجلاً بسط له من الدنيا، فانتزع مافي يديه فجعل يحمد الله ـ عز وجل ـ ويثني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بوري، فجعل يحمل الله ويثني عليه وبسط للآخر في الدنيا فقال لصاحب البوري: أرأيتك أنت على ما تحمد الله ـ عز وجل ـ؟ قال: أحمد الله على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه، قال: وماذاك؟ قال: أرأيت بصرك؟

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٣.
(٢) الإحياء ٤/ ٧٧.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٧.
(٤) عدة الصابرين ص١٢٤.
(٥) عدة الصابرين ص١٢٤.

أرأيت لسانك؟ أرأيت يدك؟ أرأيت رجلك؟[١].

ومر وهب بمبتلى أعمى مجزوم، مقعد عريان، به وضح، وهو يقول الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المبتلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة، فانظر إلى كثرة أهلها، أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري[٢].

أي أن الله ـ جل وعلا ـ خصه بالبلاء ليمحصه ويطهره.

قال **أبو الدرداء**: «من يتفقد يفقد، ومن لا يعد الصبر لفواجع الأمور يعجز»[٣].

واعلم ـ أخي ـ أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن.

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنه وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٢٩٤.

(٢) عدة الصابرين ص١٨١.

(٣) حلية الأولياء ١/ ١٨١.

وبغوا وعتوا وتجبروا في الأرض، وعاثوا فيها بالفساد، فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمرٌ ونهيٌ، وصحةٌ وفراغٌ، وكلمةٌ نافذةٌ من غير زاجرٍ شرعي يزجرها، تمردت وسعت في الأرض فساداً مع علمهم بما فُعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟! ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بعبده خيراً سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه، وصفّاه، أهله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته، ورقاه أرفع ثواب الآخرة وهي رؤيته[١].

وهذا **أبو الدرداء** يُعلمنا بثلاثة أمور تُضعف الإنسان وتجعله قريباً إلى خالقه فقال: ثلاثة أحبهن ويكرههن الناس: الفقر والمرض والموت، أحب الفقر تواضعاً لربي، والموت اشتياقاً لربي، والمرض تكفيراً لخطيئتي[٢].

وقال **بعض السلف**: ثلاثة يُمتحن بها عقول الرجال: كثرة المال، والمصيبة، والولاية[٣].

وقال **يزيد بن ميسرة**: إن العبد ليمرض المرض، وماله عند الله من عمل خير، فيُذَكِّره الله سبحانه بعض ما سلف من خطاياه، فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله، فيبعثه الله إن بعثه مطهراً، أو يقبضه إن قبضه مطهراً[٤].

ولا يصيب العبد من المصائب إلا بذنوبه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٤.
(٢) السير ٢٠/١٤٩.
(٣) تسلية أهل المصائب ص١٧.
(٤) عدة الصابرين ص١٥٠.

مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ [الشورى: ٣٠].

هذا محمد بن سيرين يقول لما ركبه الدين وأغتم لذلك: إني لأعرف هذا الغم بذنبٍ أحدثته منذ أربعين سنة(١).

وهو سبحانه بمنه وكرمه يعفو عن كثير وإلا لو كانت مصائبنا على قدر ذنوبنا لعظمت وكثرت.

أخي المسلم:

ينبغي للعبد أن لا ينكر في هذه الدنيا وقوع هذه المصائب على اختلاف أنواعها، وما استخبر العقل والنقل أخباره بأن الدنيا مارستان المصائب، وليس فيه لذةٌ على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر، فكلُ ما يظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، وجمعها فهو للذهاب، ومن خاض الماء الغمر لم يخل من بلل، ومن دخل بين الصفين لم يخل من وجل، فالعجب كل العجب ممن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضرِّ النفع.

أخي:

طبعــــت على كـــدرٍ وأنـــت تــــريــــدهـــا
صفـــــواً مــــن الأقـــــذاء والأكـــــدار

قال أبو الفرج ابن الجوزي: ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعتور فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار، فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح بكى ثلثمائة عام، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسي

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٧١.

فرعون ويلقى من قومه المحن، وعيسى ابن مريم لا مأوى له إلا البراري في العيش الضنك، ومحمد ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ يصابر الفقر، وقُتل عمه حمزة وهو من أحب أقربائه إليه، ونفور قومه عنه، وغير هؤلاء من الأنبياء والأولياء مما يطول ذكره، ولو خلقت الدنيا للذة لم يكن حظ للمؤمن منها[١].

قال شفيق البلخي: ذهب بصر عبد العزيز بن أبي راود عشرين سنة فلم يعلم به أهله ولا ولده فتأمله ابنه ذات يوم فقال له: يا أبت ذهبت عيناك؟ قال: نعم يا بني، الرضا عن الله أذهب عين أبيك منذ عشرين سنة[٢].

وقال علي بن الحسن: كان رجل بالمصيصة ذاهبٌ نصفه الأسفل لم يبق منه إلا روحه في بعض جسده، ضريرٌ على سرير مثقوب، فدخل عليه داخل فقال له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: ملك الدنيا منقطع إلى الله ـ عزّ وجل ـ مالي إليه من حاجةٍ إلا أن يتوفاني على الإسلام[٣].

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟!

إن من جواهر البر كتمان المصيبة حتى يُظن أنك لم تصب قط. فالمؤمن الموفق ـ نسأل الله تعالى حسن التوفيق ـ من يتلقى المصيبة بالقبول، ويعلم أنها من عند الله لا من عند أحدٍ من خلقه، ويجتهد في كتمانها ما أمكن[٤].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣١.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٩١.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢٨٧.
(٤) تسلية أهل المصائب ص٢٤.

فمن كمال الصبر، كتمان المرض وسائر المصائب، **ومن كنوز البر** كتمان المصائب والأوجاع والصدقة[١].

نقل عن الحسن بن عرفة قال: دخلت على أحمد بن حنبل بعد المحنة، فقلت له: يا أبا عبدالله قمت مقام الأنبياء، فقال لي: اسكت، فإني رأيت الناس يبيعون أديانهم، ورأيت العلماء ممن كان معي يقولون ويميلون فقلت: من أنا وما أنا؟

وما أقول لربي غداً إذا وقفت بين يديه ـ جل جلاله ـ؟ فقال لي: بعت دينك كما باعه غيرك، ففكرت في أمري ونظرت إلى السيف والسوط فأخترتهما، وقلت: إن أنا مت صرت إلى ربي ـ عزّ وجل ـ فأقول: دعيت إلى أن أقول في صفة من صفاتك مخلوقة، فلم أقل فالأمر إليه، إن شاء عذب وإن شاء رحم فقلت: وهل وجدت لأسواطهم ألماً؟

قال لي: نعم، وتجلدت إلى أن تجاوزت العشرين، ثم لم أدر بعد ذلك، فلما حل العاقبان كأني لم أجد له ألماً، وصليت الظهر قائماً، قال الحسن: فبكيت فقال لي: ما يبكيك؟ قلت: بكيت مما نزل بك، قال: أليس لم أكفر؟ ما أبالي لو تلفت[٢].

وقال عنه ـ رحمه الله ـ شابك التائب: لقد ضُرب أحمد بن حنبل ثمانين سوطاً لو ضُربت على فيلٍ لهدته[٣].

وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل صبر فظفر وهو في حالٍ كما قال

---

(١) الإحياء ٤/ ٧٨.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ١٤٠.

(٣) السير ١١/ ٢٩٥.

عون بن عبدالله: الخير الذي لا شر معه: الشكر مع العافية والصبر مع المصيبة[١].

ولقد فُقد الأول وضَعُفَ الثاني.. فالكثير الآن ينسى شكر النعم قولاً وفعلاً، والكثير ينزعج لنزول البلاء انزعاج من لا يرى أنها من الله ـ جل وعلا ـ ويجب الرضا عن قضائه وقدره والصبر على ابتلائه وتمحيصه.

هذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت[٢].

وقدم **سعيدالجريري** من الحج فجعل يقول: أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا، ثم قال: تعداد النعم من الشكر[٣].

وعن عمارة بن سعيد بن وهب قال: دخلت مع **سلمان** ـ رضي الله عنه ـ على صديق له من كندة يعوده فقال له سلمان: إن الله تعالى يبتلي عبده المؤمن بالبلاء ثم يعاقبه فيكون كفارة لما مضى. فيستعتب فيما بقي، وإن الله عز اسمه يبتلي عبده الفاجر بالبلاء ثم يعاقبه، فيكون كالبعير عقله ثم أطلقوه فلا يدري فيم عقلوه حين عقلوه، ولا فيما أطلقوه حين أطلقوه[٤].

وحين ضربت **أم إبراهيم العابدة** دابة فكسرت رجلها، فأتاها قوم يعزونها فقالت: لولا مصائب الدنيا وردنا مفاليس[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٤.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٢٧٦.
(٣) عدة الصابرين ص١٨١.
(٤) حلية الأولياء ١/٢٠٦.
(٥) صفة الصفوة ٤/٣٨.

أخي:

لئـــــن ســـــاءني دهـــــر سرني دهـــــر
وإن مسنـــــي عسر فقـــــد مسنـــــي يسر
لكـــــل مـــــن الأيـــــام عنـــــدي عـــــادةٌ
فـــــإن ســـــاءني صبرٌ وإن سرني شكـــــر[(١)]

قال **ابن المبارك**: من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما زقل ما يتمتع[(٢)].

وتأمل في قول **أبي سعيد الخزار**: العافية سترت البرّ والفاجر، فإذا جاءت البلوى يتبين عندها الرجال[(٣)].

وانظر إلى ـ رحمة الله ـ بالعباد وعظيم إحسانه.. قال **عمر بن عبدالعزيز**: ما أنعم الله على عبد نعمة، فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلاَّ كان ما عوضه خيراً مما انتزعه[(٤)].

ويجب علي المؤمن أن يكون شاكراً في نعمائه صابراً في ضرائه منيباً إلى ربه في جميع أحواله وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

فمن تعرف إلى الله في النعمة والرخاء عرفه الله وحفظه حين الضراء والبأساء ولكن..

---

(١) ديوان الإمام علي ص٨٧.
(٢) جامع العلوم والحكم ص١٩٥.
(٣) صفة الصفوة ٢/٤٣٨.
(٤) عدة الصابرين ص٢٤.

نحـــن نـــدعـــو الإلــــه في كــــل كــــرب
ثــــم ننســـاه عنـــد كشـــف الكــــروب[١]

قال **سلمان الفارسي**: إذا كان الرجل دعّاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة صوتٌ معروف فشفعوا له، وإذا كان ليس بدعاء في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوتٌ ليس بمعروف، فلا يشفعون له.

وقال رجلٌ لأبي الدرداء أوصني، فقال: أذكر الله في السراء يذكرك الله ـ عز وجل ـ في الضراء[٢].

فمن خاف الله وحفظه في صحته، حفظه في مرضه، ومن راقب الله في خطر حرسه الله في حركاته وسكناته[٣].

وقال **بعض السلف**: يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة، أكثرت فيها قرع باب سيدك[٤].

قال **أبو الدرداء**: ادع الله في يوم سرائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك، وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا الموت وما بعده أشدّ منه إن لم يكن مصير الصبر إلى خير[٥].

فالسعادة كلها في طاعة الله، والأرباح كلها في معاملته، والمحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، إن

---

(١) جامع العلوم والحكم ص١٣٠.
(٢) جامع العلوم والحكم ص١٨٩.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٣٨.
(٤) تسلية أهل المصائب ص٢٣٦.
(٥) جامع العلوم والحكم ص٢٣١.

ربنا لغفور شكور، أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة.

يطاع فيشكر، وطاعته من توفيقه وفضله. ويُعصى فيحلم، ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له، الحسنة عنده بعشر أمثالها، أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان، والسيئات عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور، بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار، وسماء عطاء لا تقلع عن الغيث، بل هي مدرار، ويمنه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، لا يلقى وصاياه إلا الصابرون، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك عليه إلا الهالكون، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون.

أهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته[1].

أخي الكريم: وطِّن نفسك على الشكر حين الشكر وعلى الصبر حين المصيبة. فإن الدنيا لا تخلو من أمرين حلٌ ومُر وسعادة وشقاء.. وصفاءٌ وكَدَر.

لابد للمرء من ضيق ومن سعة
ومن سرور يوافيه ومن حزن
والله يطلب منه شكر نعمته
مادام فيها ويبغي الصبر في المحن

---

(١) عدة الصابرين باختصار ص٣٣٩.

فمــا على شــدة يبقــي الــزمــان يكــن
ومــا على نعمــة تبقــي على الــزمــن[١]

قال **سفيان الثوري**: ما كان الله ليُنعم على عبدٍ في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه[٢].

وفي الحديث عن أبي يحيى صهيب بن سنان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**» [رواه مسلم].

وما ننعم به من نعم الأمن وسعة العيش وتيسر المواصلات وكثيرٌ لا يحصيه إلا الله إنما هي بلية إذا لم تكن مما يقرب إلى الله وإذا لم تكن وسيلة إلى الطاعة والعبادة.

قال **سلمة بن دينار**: كل نعمة لا تقرب من الله ـ عزّ وجل ـ فهي بلية[٣].

ويجب أن نستفيد من هذه النعم في الدعوة إلى الله وإلى نشر العلم الشرعي بين الناس وإلى كل عمل يحبه الله ويقربنا إليه زلفى.

قال **يونس بن محمد المكي**: زرع رجل من أهل الطائف زرعاً، فلما بلغ أصابته آفة فاحترق فدخلنا عليه لنسليه فيه، فبكى وقال: والله ما عليه أبكي ولكن سمعت الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٨٣.
(٢) عدة الصابرين ص١٧٥.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ١٥٧.

فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة، فذلك الذي أبكاني[١].

أحمـــــدُ الله على كـــــل حـــــال
إنمـــا الـــدنيـــا كفـــيء الظـــلال
إنمـــا الـــدنيـــا منـــاخٌ لـــراكـــب
يسرع الحـــث بشـــد الـــرحـــال
ربَّ مغترٍ بهـــا قـــد رأينـــا
نفســـه فـــوق رقـــاب الـــرجـــال[٢]

قال ثابت البناني: انطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوده، فخرج إلينا ابنه، وقال: هو مبطون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه، فقال الحسن: إن أباك إن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه، خير من أن يأكله التراب[٣].

وليعلم المصاب أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده لربه واسترجاعه على مصيبته، فلينظر أي المصيبتين أعظم، مصيبته العاجلة بفوات محبوبه، أو مصيبته بفوات بيت الحمد في جنة الخلد.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**يود ناسٌ لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب أهل الدنيا**».

وليعلم المصاب الجازع، وإن بلغ به الجزع غايته ونهايته فآخر أمره إلى

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٥٨.
(٢) أبو العتاهية ص٣٦١.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٠.

صبر الاضطرار وهو غير محمود ولا مثابٌ عليه. فإنه استسلم للصبر وانقاد إليه على رغم أنفه[١].

وقد نظر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى عدي بن حاتم كئيباً فقال: يا عدي مالي أراك كئيباً حزيناً؟ قال: وما يمنعني وقد قتل أبنائي وفقئت عيني، فقال: يا عدي، من رضي بقضاء الله كان له أجر ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله[٢].

وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبدالملك ومعه ابنه محمد وكان من أحسن الناس وجهاً، فدخل يوماً على الوليد في ثياب وش، وله غديرتان، وهو يضرب بيديه، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش، فعانه فخرج من عنده متوسناً. فوقع في إصطبل الدواب، فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات. ثم إن الأكلة وقعت في رجل عروة، فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا: إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها فنشروها بالمنشار فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة، فغشي عليه، ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر، فأخذها وجعل يقلبها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام، ولا إلى معصية ولا إلى مالا يرضي الله. ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين، فلما قدم من عند الوليد إلى المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه، فجعل يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يزد عليه ثم

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٦.

(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٠٥.

قال: لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد لنعمة، فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هناك. فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أباً لشانيئك، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فلما كشف عن ركبته فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع، قد أبقى الله أكثرك، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك. فقال له: ياعيسى: ما عزاني أحدٌ بمثل ما عزيتني به.

ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع فقال: إنما إبتلاني ليرى صبري، أفأعارض أمره[1].

وقال مسلمة بن محارب: وقعت في رجل عروة بن الزبير الأكلة وقطعت، ولم يدع تلك الليلة وِرده وقطعت ولم يمسكه أحد[2].

رحمنا الله.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال عبيد الله بن أبي نوح: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أحصي ذلك كثرة، قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت: لا والله. ولكنه أحسن إليّ وأعانني قال: فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعني شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلا أعانني، قال: أرأيت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء، قال فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك والله لشكره أيسر من

---

(١) عدة الصابرين ص١٢٥ وانظر البداية والنهاية ٩/ ١١٤.

(٢) صفة الصفوة ٢/ ٨٦.

مكافأة عباده إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد شكراً[١].

وعندما سئل **سفيان بن عيينة** عن الزهد في الدنيا فقال: إذا أنعم عليه فشكر، وإذا ابتلي ببلية فصبر، فذلك الزهد[٢].

وكان**الفضيل بن عياض** إذا قرأ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد: ٣١] يبكي ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا[٣].

فاللهم ارحمنا برحمتك وألطف بنا في قضائك وارحم ضعفنا واجبر كسرنا.

أخي.. عندما نسمع ما حصل بالقوم ورضاهم عن الله ـ جل وعلا ـ وصبرهم على المصائب واحتسابهم الأجر.. نرى البون الشاسع بين حالنا وحالهم.. لنستمع إلى هذه الواقعة.. ونقيسها على ما بنا من مصائب ومحن.. إنها نقطة في بحر.. ورذاذٌ من مطر.

قال **حكيم من الحكماء**: مررت بعريش مصر وأنا أريد الرباط فإذا برجل في مظلة قد ذهبت عيناه ورجلاه، وبه أنواع البلاء وهو يقول: الحمد لله حمداً يوافي محامد خلقك بما أنعمت عليّ وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً، فقلت: لأنظرن شيئاً يملكه أم ألهمه الله إلهاماً؟ فقلت: على أي نعمة من نعمه تحمده أم على أي فضيلة تشكره، فوالله ما أرى شيئاً من البلاء إلا هو بك، فقال: ألا ترى ما قد صنع بي؟ فوالله لو أرسل السماء عليَّ ناراً فأحرقتني، وأمر الجبال فدكتني وأمر البحار فغرقتني، ما أزددت

(١) عدة الصابرين ص١٧٤.
(٢) السير ٨/ ٤٦٨.
(٣) الإحياء ٤/ ٣٨٤.

له إلا حمداً وشكراً، وإن لي إليك حاجةً: بنيّة كانت تخدمني وتتعاهدني عند إفطاري انظر هل تحس بها؟ فقلت: والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قربةً إلى الله ـ عز وجل ـ فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون من أين آتي هذا العبد الصالح فأخبره بموت ابنته؟ فأتيته فقلت له: أنت أعظم عند الله منزلة أم أيوب ـ عليه السلام ـ ابتلاه الله في ماله وولده وأهله وبدنه حتى صار عرضاً للناس، فقال: لا، بل أيوب، قلت: فإن ابنتك التي أمرتني أن أطلبها أصبتها وإذا السبع قد أكلها. فقال: الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي منها شيء فشهق شهقة فمات[(١)].

أعلم ـ أخي ـ أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفو عند النوازل[(٢)].

تنكــــر لي دهــــري ولم يــــدر أننــــي
أغــــر وأحــــداث الــــزمــــان تهــــون
وظــــل يــــريني الــــدهــــر كيــــف اغترارہ
وبــــت أريــــه الصبر كيــــف يكــــون[(٣)]

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل **بين أمرين:** إما أن يقول أحدهم آمنا وإما أن لا يقول آمنّا، بل يستمر على عمل السيئات، فمن قال آمنا، امتحنه الرب عزّ وجل وابتلاه، وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا، فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته، فإن أحداً

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٣٣٤.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٢٧٦.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ١٩٠.

لن يعجز الله تعالى، هذه سنته تعالى يُرسل الرسل إلى الخلق فيكذبهم الناس ويؤذونهم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقال تـ عالى ـ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

ومن آمن بالرسل وأطاعهم عادوه وآذوه، فابتُلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم عوقب فحصل له ما يؤلمه أعظم لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والكافر تحصل له النعمة ابتداءً ثم يصير في الألم[١].

والمصائب لا تكون فقط في موت حبيب أو قريب بل وليست مخصوصة بمرضٍ ونحوه بل كل ما أصابك حتى وإن صغر فهو مصيبة تُحتسب عند الله.

انقطع شسع نعل **عمر بن الخطاب** فاسترجع وقال: كل ما ساءك مصيبة[٢].

فليتنا نداوم على الاسترجاع في كل ما أساءنا لعل الله أن يعوضنا خيراً منها.

وليعلم العبد أن ما أصابه هو بسبب ذنوبه ويعفو جل وعلا عن كثير.

قال **عبدالله بن السري**، قال لي ابن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٢٦٩.

(٢) تاريخ عمر ص٢١٢.

حمل علي به الدين، قلت لرجل من أربعين سنة يا مفلس.

قال **أبو سليمان الداراني**: قَلّت ذنوبهم فعرفوا من أين يؤتون. وكثرت ذنوبنا فليس ندري من أين نؤتى[(١)].

وشكا ابن أخ **للأحنف بن قيس** وجع ضرسه فقال له الأحنف بن قيس لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحد[(٢)].

ونستمع إلى التوجيه النبوي الكريم: «**إذا أصاب أحدكم همّ أو لأواء فليقل: الله الله ربي لا أشرك به شيئاً**».

وقال ﷺ: «**المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء**».

ومن عرف حقيقة الدنيا وعرف أن الله يختار للعبد ما فيه خيرٌ له رضي بذلك فإن الله أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين.

قال **عمر** ـ رضي الله عنه ـ ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأني لا أدري أيهما خيرٌ لي[(٣)].

وفي الأثر: يا ابن آدم: البلاء يجمع بيني وبينك، والعافية تجمع بينك وبين نفسك[(٤)].

والله ـ تبارك وتعالى: يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وصبره ورضاه بما قضاه عليه، فهو سبحانه وتعالى يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من الصائب وغيرها، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم، فيثيب كل عبد على قصده ونيته، وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه ولم

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٧٢.

(٢) الزهد ص٣٣٧.

(٣) الإحياء ٣/ ٣٣٦.

(٤) تسلية أهل المصائب ص٢٣٧.

يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1] [المؤمنون: ٧٦].

أخي الحبيب:

عليك بالصبر إن نابتك نائبة

من الزمان ولا تركن إلى الجزع

وإن تعرضت الدنيا بزينتها

فالصبر عنها دليل الخير والورع[2]

قال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر وجرعة غيظ ردها بحلم[3].

قال بعض السلف فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة[4].

وقد قال الفضيل بن عياض: إذا أحب الله عبداً أكثر غمه، وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه[5].

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر المصاب ويفرق بين أعظم اللذتين والمتعتين تمتع الحياة الدنيا الفانية، وتمتع الدار الآخرة الباقية، وأدومهما لذة وتمتعاً بما أصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له على قوله وفعله من استرجاع وصبر ونحوه، فإن ظهر له الرجحان فآثر الراجح فليحمد الله على توفيقه له. وإن آثر المرجوع من كل وجه فليعلم أن مصبته في عقله وقلبه

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٢٩.

(٢) مكاشفة القلوب ص١٣٢.

(٣) عدة الصابرين ص١٢٧.

(٤) تسلية أهل المصائب ص١٧٣.

(٥) شذرات الذهب ١/ ٣١٨.

ودينه، أعظم من مصيبته التي أصيب بها في دنياه[١].

وعن **سفيان** قال: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة[٢].

وهذا عكس فهمنا اليوم فنحن نعد الرخاء نعمة والبلاء مصيبة.. وماذاك إلا من ضعف علمنا وقِصر فهمنا وحبنا للدنيا الفانية ورغبتنا في الراحة والدعة.

قال **سفيان** ـ رحمه الله ـ قد أنعم الله على عبدٍ في حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها[٣].

والغالب اليوم ينسى الدعاء حتى تصيبه المصائب، والله ـ جل وعلا ـ يحب عبده الداعي.. فيجب ـ **يا أخي** ـ الإكثار من الدعاء في حال العافية والسلامة ومتى ما أصيب الإنسان كانت الحاجة إلى الدعاء أكبر لتفريج الهم وإزالة البلاء.

مر **الربيع بن أبي شيبة** برجل به «زمانه»(*) فجلس يحمد الله ويبكي، فمر رجل فقال: ما يبكيك رحمك الله؟ فقال: ذكرتُ أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء فذلك الذي أبكاني[٤].

وقال **أبو الدرداء** وكأنه يرى حالنا الآن: تلدون للموت وتعمرون

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٨.

(٢) السير ٧/٦٦.

(٣) تسلية أهل المصائب ١٧٢.

(*) الزمانة مرض يدون ولايرجى برؤه.

(٤) الشكر ص٢٩.

للخراب وتحرصون على ما يفنى، وتذرون ما يبقى، ألا حبذا المكروهات الثلاث: الموت والمرض والفقر[١].

والأمر اليوم خلاف ذلك ولكن يا أخي من أحب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً ولساناً ذاكراً شكوراً.

جاء أحمد بن صالح يوصي أبا عبدالله «أحمد بن حنبل» يوماً وقد بل أوب عبدالله خرقة فألقاها على رأسه فقال له أحمد بن صالح: يا جدي أنت محموم، قال: أبو عبدالله: وأنى لي بالحمى؟

لم يتجزع ـ رحمه الله ولم يخبر بمرض أو يشتكي.

أين نحن من هؤلاء؟!

كثير الآن قبل أن تسأله يروي لك رحلته مع الأطباء وأنه ما نام البارحة ولا ذاق طعاماً ولا شرب شراباً، حديثٌ طويل.. ثم يُعدد بعد ذلك أنواع الأدوية التي يأخذها.. ويُعرج في حديثه على مستوى الأطباء وخدمات المستشفى.. ولا ينسى أن يلوم فلانٌ وفلان.. لأنهم لم يزوروه.

حديثٌ طويل.. الصبر والرضا.. ليسا فيه.

قال الفضيل لرجل يشكو إلى رجل: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟[٢]

تتلــــذ لـــــه الشكــــوى وإن لم يجـــد بهـــا
صـــلاحــاً كمــا يتلـــذ بـــالحـــكِّ أجــربُ[٣]

ولكن لنود لمريض من سلفنا كيف كان زيارته وماذا يقول لزائريه.

---

(١) شرح الصدور ص١٥.
(٢) السير ٤٣٩/١.
(٣) موارد الظمآن ٤٧/٢.

قال عبدالعزيز بن أبي روّاد: رأيت في يدمحمد بن واسع قرحة، فكأنه رأى ماشق عليَّ منها، فقال: تدري مالله علي في هذه القرحة من نعمة؟ قال: فسكت فقال: حيث لم يجعلها على حدقتي ولا طرف لساني ولا على طرف ذكري، قال: فهانت علي قرحته[1].

أخي الحبيب:

ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ويتجنب المحظورات فحسب، إنما المؤمن هو الكامل، لا يختلج في قلبه اعتراض، ولا يساكن نفسه فيما يجري وسوسة، وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه وقوي تسليمه، وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً، وسره لا يتغير لأنه يعلم أنه مملوك ولا مالكٌ يتصرف بمقتضى إرادته، فإن اختلج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة، كما جرى لإبليس والإيمان القوي يبين أثره عند قوة البلاء[2].

قال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح مسلم: عند قوله ﷺ: **«ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومُحيت عنه بها خطيئة»** وفي رواية: «إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه خطيئة» قال: وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين فإنه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها[3].

---

(١) صفة الصفوة ٣/٢٦٨.

(٢) صيد الخاطر ص٣٦٠.

(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٩٢.

وروي في الخبر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١٢٣] قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**غفر الله لك يا أبا بكر؟ ألست تمرض؟ أليس يصيبك الأذى أليس تنصب؟ أليس تحزن فهذا مما تجزون به**». يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك.

واعلم أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والأذى وقد أمر الله تعالى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالصبر فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾(١) [الأحقاف: ٣٥].

وروى عن مالك بن أنس من حديث عطاء بن يسار أن النبي ﷺ قال: «**إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين فقال: انظرا ماذا يقول لعُواده، فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله ـ وهو أعلم ـ فيقول لعبدي عليَّ إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته**».

وعندما مرض أبو بكر فعادوه، فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟

فقال: قد رآني الطبيب، قالوا: فأي شيء قال لك؟ قال: إني فعَّال لما أريد(٢).

وقال أبو هريرة: إذا مرض العبد المسلم، نودي صاحب اليمين: أن أجر على عبدي صالح ما كان يعمل وهو صحيح ويقال لصاحب الشمال:

---

(١) تنبيه الغافلين ص١٣.
(٢) تسلية أهل المصائب ص١٩٣.

أقصر عن عبدي ما دام في وثاقي، فقال رجل عند أبي هريرة: ياليتني لا أزال ضاجعاً، فقال أبو هريرة كره العبد الخطايا[١] .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طلقاً. .**».

فالحمد لله الذي أجرى الخير لابن آدم وهو لم يعمل فالحمد لله ربٌ رحيم جوادٌ كريم.

وقد يحصل للعابد الجاهل بمصيبته من الجزع ما يسوء الناظر إليه، والسامع عنه، من الاعتراض على الأقدار وماذاك إلا لإدلاله بعبادته، فإنه قد شوهد أن خلقاً كثيراً من أهل الدين والخير عند موت أحبابهم جرى منهم أمورٌ ينكرها العقال من الناس فمنهم من خرق ثيابه، ومنهم من لطم خده، ومنهم من اعترض على القضاء والقدر[٢] .

فلا شيء أنفع من العلم، لأن العالم لو حصل له هلعٌ شديد في مصيبته يعلم أنها زلة منه، فيدري كيف يتنفس، والعابد الجاهل كلما غاص إلى أسفل يظن أنه صاعدٌ إلى فوق فإذا إمتحن الشخص ينبغي له أن يتداوى بالأدوية الشرعية[٣] .

أما علمت ـ أخي ـ أنه لابد من الفرقة، ومن المرض بعد الصحة. . ومن البعد بعد القرب. . فهذه حال الدنيا **وأنت يا أخي:**

---

(١) عدة الصابرين ص١١٤ .
(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٤.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٣٤.

لــــن تستطيــــع لأمــــر الله تعقيبــــاً
فــاستنجــد الصبر أو فــاستثمــر الحُــوبــا
وافــــزع إلى كنــــف التسليـــم وارض
بمــا قضــى المهيمــن مكــروهــاً ومحبــوبــاً(١)

وروي عن جابر أنه قال: قال رسول الله ﷺ قال جبريل: «**يا محمد عش ما عشت فإنك ميتٌ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه**».

إن الموت قادم بعد الحياة والمرض بعد العافية.. نفارق من نحب ونودع من نُعز.. هذه الدنيا لا تُبقي على أحد..

ولكن نعوذ بالله من عدم الصبر عند المحنة، ونسأله الثبات في الأمر، فإنه والعياذ بالله يُخاف على الشخص من سوء الخاتمة إذا سخط الأقدار، ونازع القضاء، القدر أهله، فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

كان **عبد الأعلى التيمي** يقول: أكثروا من سؤال الله العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن من البلاء، وما المبتلون اليوم إلاَّ من أهل العافية بالأمس، ومالمبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم ولو كان البلاء يجر إلى خير ماكنا من رجال البلاء، إنه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة(٢).

---

(١) السير ١٤/ ٢٨٠.
(٢) عدة الصابرين ص١٧٨.

قال **ميمون بن مهران**: ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فما دونه إلاّ بالصبر[١].

وقال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صديق[٢].

لا يفتر لسانك من ذكر وشكر المُنعم المتفضل ولا تنس حال المصيبة كلمة الاسترجاع فقد تضمنت كلمة «إنا لله وإنا إليه راجعون» علاجاً من الله ورسوله لأهل المصائب.

فإنها من أبلغ علاج المصائب وأنفعه للعبد في عاجله وآجله، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته.

أحد الأصلين: أن يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده ملك لله ـ عزّ وجل ـ حقيقة، وقد جعله الله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ عاريته من المستعير، وأيضاً: فإنه محفوف بعدمين، عدمٍ قبله، وعدمٍ بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير.

وأيضاً: فإنه ليس هو الذي أوجده عن عدم، حتى يكون ملكه حقيقةً ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده ولا يبقي على وجوده فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

وأيضاً فإنه متصرف فيه بالأمر، تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولابد أن يخلف

---

(١) عدة الصابرين ص١٢٤.

(٢) تسلية أهل المصائب ص١٩٨.

الدنيا وراء ظهره، ويأتي ربه يوم القيامة فرداً، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن يأتيه بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله فيه، ونهايته وحاله فيه، فكيف يفرح العبد بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا، أم كيف يأسى على مفقود، ففكرة العبد في بدايته ونهايته من أعظم علاج المصائب.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[١].

ولا ينبغي للمؤمن أن ينزعج من مرض أو نزول موت، وإن كان الطبع لا يملك إلا أنه ينبغي له التصبر مهما أمكن، إما لطلب الأجر بما يعاني، أو لبيان أثر الرضا بالقضاء، وما هي إلا لحظات ثم تنقضي.

وليتفكر المعافى من المرض في الساعات التي كان يقلق فيها، أين هي في زمن العافية؟ ذهب البلاء، وحصل الثواب، كما تذهب اللذات المحرمة ويبقى الوزر، ويمضي زمان التسخط بالأقدار ويبقى العتاب. وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهب، فليتصور المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس، وقد هان ما يلقى كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرة، ولا ينبغي أن يقع جزع بذكر البلى، فإن ذلك شأن المركب، أما الراكب ففي الجنة أو في النار. وإنما ينبغي أن يقع الاهتمام الكلي بما يزيد في درجات الفضائل قبل نزول المعوق عنها. فالسعيد من وفق لاغتنام العافية، ثم يختار تحصيل الأفضل. فالأفضل في زمن الاغتنام. وليعلم أن زيادة المنازل في الجنة على قدر التزيد من الفضائل ههنا، والعمر قصير

---

(١) تسلية أهل المصائب ص١٩.

والفضائل كثيرة فليبالغ في البدار فيا طول راحة التعب، ويا فرحة المغموم، ويا سرور المحزون، ومتى تخايل دوام اللذة في الجنة من غير منغص ولا قاطع، هان عليه كل بلاء وشدة[(١)].

رضيـــــت بـــــالله في عسري وفي يسري
فلســـت أسلـــك إلا أوضـــح الطـــرق[(٢)]

قال **كعب**: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وغُمومها[(٣)].

وقال **عمر بن عبدالعزيز** رحمه الله تعالى: ما قضى الله فيّ بقضاء فسرني أن يكون قضى لي بغيره، ما أصبح لي هوى إلا في مواقع القدر[(٤)].

وجاء رجل إلى **يونس بن عبيد** فشكا إليه ضيقاً في حاله ومعاشه واغتماماً بذلك فقال: أيسرك ببصرك مئة ألف؟ قال: لا، قال: فبسمعك؟ قال: لا قال: فبلسانك؟ قال: لا، ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة[(٥)].

ولننظر في حال من سبقنا ماذا يرجون في حال المرض.. قال **الحسن**.. كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة لما سلف من الذنوب. وقال **إبراهيم النخعي**: كانوا يستحبون للمريض أن يجتهد عند الموت[(٦)].

وكانوا يقولون: آخر شدة يلقاها المؤمن عند الموت[(٧)].

---

(١) صيد الخاطر ص٣٦٨.
(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٧٦.
(٣) شرح الصدور ص٢٢٠.
(٤) الإحياء ٣/ ٣٣٦.
(٥) السير ٦/ ٢٩٢.
(٦) تسلية أهل المصائب ص٣٧.
(٧) تسلية أهل المصائب ص٩٧.

ولنرى سعد بن أبي وقاص وهو المعروف بإجابة الدعوة قيل له: لو دعوت الله لبصرك ـ وكان قد أضر ـ فقال الله أحبّ إليّ من بصري[1].

والحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه فإن الأمر كما قال سليمان التيمي: إن الله أنعم على العباد على قدره، وكلفهم الشكر على قدرهم[2].

ومن نعم تسلية أهل المصائب: أن ينظر العبد بعين بصيرته، فليعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة في الآخرة، يقبلها الله تعالى، وحلاوة الدنيا هي بعينها مرارة في الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعةٍ إلى حلاوةٍ دائمةٍ خيرٌ من عكس ذلك، فإن خفي عليك ذلك فانظر إلى قول الصادق المصدوق: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**».

ومما يسلي أهل المصائب: أن المصاب إذا صبر واحتسب وركن إلى كريم، رجاء أن يخلف الله تعالى عليه، ويعوضه عن مصابه، فإن الله تعالى لا يخيبه بل يعوضه، فإنه من كل شيء عوض إلا الله تعالى فما منه عوض كما قيل.

من كل شيءٍ إذا ضيعته عوضٌ
وما من الله إن ضيعته عِوضُ

بل يعلم أن حظه من المصيبة ما يحدثه له، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، فاختر لنفسك خير الحظوظ أو شرها، فإن أحدثت لك سخطاً وكفراً كنت في ديوان الهالكين، وإن أحدثت لك جزعاً وتفريطاً في ترك واجب أو فعل محرم كنت في ديوان المفرطين، وإن أحدثت لك شكايةً

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٤٤٨.
(٢) كتاب الشكر ص١١.

وعدم صبر ورضا كنت في ديوان المغبونين، وإن أحدثت لك اعتراضاً عليه وقدحاً في حكمته ومجادلة في الأقدار، فقد قرعت باب الزندقة، وفتح لك وولجته، فأحذر عذاب الله يحلّ بك، فإنه لمن خالفه بالمرصاد.

وإن أحدثت لك صبراً وثباتاً لله كنت في ديوان الصابرين، وإن أحدثت لك رضا بالله ورضا عن الله وفرحاً بقضائه كنت في ديوان الراضين، وإن أحدثت لك حمداً وشكراً كنت في ديوان الشاكرين الحامدين، وإن أحدثت لك محبة واشتياقاً إلى لقائه كنت في ديوان المحبين المخلصين[١].

عن النبي ﷺ قال: «**إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط**».

فأنفع الأدوية للمصاب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وإن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه، وأسخط عليه محبوبه.

وقال قتادة: قال **لقمان** وقد سأله رجل: أي شيء خيراً؟ قال: صبرٌ لا يتبعه أذى، قال: فأي الناس خيراً؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأي الناس أعلم؟ قال: الذي يأخذ من علم الناس إلى علمه، قيل: فما خير الكنز. من المال أو من العلم؟ قال: سبحان الله، بل المؤمن العالم الذي إن ابتغى عنده خيراً وجد، وإن لم يكن عنده كف نفسه، وبحسب المؤمن أن يكف نفسه[٢].

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لما يرجون من ثوابها[٣].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٤١.

(٢) عدة الصابرين ص١٢٦.

(٣) تنبيه الغافلين ص١٢٤.

والشكر لله جل وعلا شكرٌ باللسان وبالعمل وأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر[١].

أخي الكريم:

يبين إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثراً للإجابة، ولا يتغير أمله ورجاؤه، ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان، فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء، فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل، فذاك ضعيف الإيمان، يرى أن له حقّاً في الإجابة، وكأنه يتقاضى أجرة عمله.

أما سمعت قصة يعقوب ـ عليه السلام ـ: بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير.

فإياك ـ أخي ـ: أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء[٢].

عزى ابن السماك رجلاً فقال: «عليك بالصبر فإنه يعمل من احتسب وإليه يصير من جزع»[٣].

ومن المصائب استطالة الناس وتعرضهم وكثرة قيلهم وقالهم..

استطال رجل على أبي **معاوية الأسود**: فقال له رجل: مه، فقال أبو

---

(١) عدة الصابرين ص١٧٢.

(٢) صيد الخاطر ص٥٥٢.

(٣) عدة الصابرين ص١٢٩.

معاوية: دعه يتشفى ثم قال: اللهم اغفر الذنب الذي سلطت عليّ به هذا.

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات[١].

اشتكى ابن أخي الأحنف بن قيس وجع ضرسه فقال له **الأحنف**: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ماذكرتها لأحد[٢].

قال **الفضيل**: إذا أحب الله عبداً أكثر غمه، وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه[٣].

واعلم ـ أخي ـ أن الزمان لا يثبت على حال كما قال ـ عزّ وجل ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فتارة فقر، وتارة غنى وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي، فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال وهو تقوى الله[٤].

ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في المصائب المختصة بذات الإنسان.. قال: **رأيت جمهور الناس إذا طرقهم المرض** أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة بالجزع والشكوى، وتارة بالتداوي إلى أن يشتد عليهم، فيشغلهم اشتداده عن الالتفات إلى الصالح من وصية، أو فعل خير، أو تأهب للموت، فكم ممن له ذنوب لا يتوب منها، أو عنده ودائع لا يردها، أو عليه دين أو زكاة، أو في ذمته ظلامة لا يخطر له تداركها، وإنما حزنه على فراق الدنيا،

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٢٤٥.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١١٩.
(٣) السير ٨/ ٤٣٢.
(٤) صيد الخاطر ص١٧٠.

إذ لا هم له سواها، وربما أفاق وأوصى بجور[١].

فينبغي للمتيقظ أن لا يتأسف على مافات، وأن يتأهب في حال الصحة قبل هجوم المرض، فربما ضاق الوقت عن عمل، واستدراك فارط، أو وصية، فإن لم تكن له وصية في صحته فليبادر في مرضه، وليحذر الجور في وصيته، فإنه من المحرمات، فإنه يمنع المستحق ويعطي من لايستحق، فيحتاج أن يحارب نفسه وشيطانه، وليعلم أن هذا الواقع من المصائب في نفسه وماله وولده، وقع برضى مالكه وخالقه، فيجب على العبد أن يرضى بما يرضى به السيد، ويعاقب نفسه إذا جزعت، ويقول لها: أما علمت أن هذا لابد منه، فما وجه الجزع، وإنما هي ساعة كأن لم يكن ماكان، ومن تلمح العواقب هان عليه مرارة الدواء.

وعن أبي محمد الحريري قال: حضرتُ عند الجنيد قبل وفاته بساعتين، فلم يزل تالياً وساجداً، فقلت له: يا أبا القاسم قد بلغ ما أرى من الجهد، فقال: يا أبا محمد، أحوج ما كنت إليه هذه الساعة، فلم يزل كذلك حتى فارق الدنيا[٢].

لم يجزع على الدنيا إلا بقدر فوات العمر بدون طاعة. فإن أشدنا حبّاً للدنيا أشدنا جزعاً عند المصيبة.

وقال اسماعيل بن عمرو: دخلنا على **ورقاء بن عمر** وهو في الموت، فجعل يهلل ويكبر ويذكر الله ـ عزّ وجل ـ وجعل الناس يدخلون عليه ويسلمون عليه، فيرد عليهم السلام، فلما كثروا عليه أقبل على ابنه فقال:

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٥.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٦.

يا بُني، اكفني رد السلام على هؤلاء لا يشغلوني عن ذكر ربي ـ عزّ وجل ـ[١].

وقال عمر بن عبدالعزيز ما أحب أن يهوّن علي في سكرات الموت فإنه آخر ما يكفر عن المرء المسلم[٢].

قال إبراهيم بن داود: قال بعض الحكماء إن لله عباداً يستقبلون المصائب بالبشر.

قال: أولئك الذين صفت من الدنيا قلوبهم[٣].

ينبغي للمصاب بنفسه، أو بولده أو بغيرهما، أن يجعل في المرض مكان الأنين ذكر الله ـ تعالى ـ والاستغفار والتعبد، فإن السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ كانوا يكرهون الشكوى إلى الخلق، سأل رجل أبا بكر بن عبدالله فقال: ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً في الجنة[٤].

قال الحسن وذكر الوجع.. أما والله ما هو بشر أيام المسلم أيام نورت له فيها مراحله، وذكر فيها ما نسي من معاده، وكفر بها عنه خطاياه[٥]

قال أبو مسعود البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوباً أو ضرب صدراً فكأنما أخذ رمحاً يريد أن يقاتل به ربه ـ عزّ وجل ـ[٦].

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٦.
(٢) تسلية أهل المصائب ص٣٧.
(٣) تسلية أهل المصائب ص٢٣.
(٤) الشكر ص٥٤.
(٥) عدة الصابرين ص١١٩.
(٦) الإحياء ٤/١٣٩.

أخي: إن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب وما ينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين.. فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وهي وإن كان فيها راحة إلا إنها تدل على ضعف وخور، والصبر عنها دليل قوة وعز، وهي إشاعة سر الله ـ تعالى ـ عند العبد، وهي تؤثر شماتة الأعداء ورحمة الأصدقاء.

لا تشكـــون إلى صـــديـــق حـــالـــة
تـــأتيـــك في السراء والضراء
فلـــرحمـــة المتـــوجعين مـــرارةٌ
في القلـــب مثـــل شمـــاتـــة الأعـــداء[١]

قال عون: الإنسان إن سقم ندم، وإن صح أمن، وإن استغنى فتن، وإن افتقر حزن[٢].

وعندما سئل الأحنف بن قيس: ما الحلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلاً[٣].

وصدق والله فهو وقت قليل ثم يزول.. سحابة صيف وتنقشع ولو تأملت ماجرى لك من المصائب والآفات لرأيت كيف طواها النسيان، فإن

---

(١) تسلية أهل المصائب ص٣٦.
(٢) الزهد لأبي عاصم ص٣٧.
(٣) عدة الصابرين ص١٢٥.

احتسبتها فقد بقيت لك حسناتها وأجر صبرها، وإلا فقد سليت كما تسلو البهائم.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: ٨٣] ونحو هذه الآيات ورأى شواهد النصر والعزة على مراحل العصور للمسلمين اطمأن قلبه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والكفار يصيبهم من البلاء والمصائب كأي إنسان على وجه الأرض.. والعبرة بالنهايات والنجاة من النار. وقد جمع الله لعباده الصالحين السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

قال وهب: عبدالله عابد خمسين عاماً، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك، قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنب؟ فأذن الله بعرقٍ في عنقه يضرب عليه، فلم ينم ولم يُصل، ثم سكن فنام ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق[١].

وذكر عن أبي معمر الأزدي قال: كنا إذا سمعنا ابن مسعود شيئاً نكرهه، سكتنا حتى يفسره لنا، فقال لنا ذات يوم: ألا إن السقم لا يكتب له أجر، فساءنا ذلك وكبر علينا، فقال: ولكن يكفر به الخطيئة فسرنا ذلك، وأعجبنا[٢].

هذا من كمال علمه وفقهه ـ رضي الله عنه ـ فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية به ومما تولد منها، فالطاعات ترفع الدرجات،

---

(١) عدة الصابرين ص ١٧٥.

(٢) عدة الصابرين باختصار ص ١١٤.

والمصائب تحط السيئات ولهذا قال ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**» وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». فهذا يرفعه، وهذا يحط خطاياه[1].

قال سلام بن أبي مطيع: دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطرق، اذكري من لا مأوى له ولا من يخدمه[2].

صبراً جميلاً ما أسرع الفرجا
من صدق الله في الأمور نجا
من خشى الله لم ينله أذى
ومن رجا الله كان حيث رجا[3]

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً[4].

وقال **سليمان بن القاسم**: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر[5].

لعلك ـ أخي الكريم ـ أدركت منزلة الصبر فهي عدةٌ للنوائب والمصائب

(١) عدة الصابرين ص ١١٥.
(٢) عدة الصابرين ص ١٧٤.
(٣) السير ١٢/ ٥٨٩.
(٤) عدة الصابرين ١٢٤.
(٥) عدة الصابرين ١٢٤.

تؤجر على الصبر وترضى عن ربك على قضائه وقدره.. قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

عن مسلم بن يسار.. كان أحدهم إذا بريء قيل: ليهنك الطهر[١](*)

أخي: لعله خطر في بالك هذه المحاورة مع الإمام الغزالي..

لعلك تقول هذه الأخبار على أن البلاء خيرٌ في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء، فأقول: لا وجه لذلك، ولما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**» وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها[٢].

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لك علم، فشمر إليه فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة منيته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير، فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح، إنه غفورٌ شكور، واعلم ـ رحمك الله ـ أن الأعمال بخواتيمها، فإنه ربما أضله في اعتقاده، وربما حيل بينه وبين التوبة، فينبغي للمصاب بنفسه أو بغيره أن يعلم أو يعمل لغيره أنها صبر ساعة فيتجلد ويحارب العدو جهد طاقته، فبصدقة تحصل له عليه الإعانة من الله[٣].

أخي الحبيب:

قال شفيق البلخي: من يرى ثواب الشدة، لا يشتهي المخرج منها.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٩٤.

(*) بريء عوفي من المرض ويعني بالطهر: الخلاص من الذنوب.

(٢) الإحياء ٤/ ١٤٠.

(٣) تسلية أهل المصائب باختصار ٣٧.

فاللهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.. أعطيت فأجزلت وقضيت فلطفت. . لانرجو سواك ولا نلجأ إلا إليك.

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة**» [رواه الترمذي].

وعنه ﷺ قال: «**ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك**».

قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥] قال: إنهما معونتان على رحمة الله(١).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه نُعي إليه ابن له، فاسترجع وقال: عورة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله تعالى، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله ـ تعالى ـ، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

وما دمنا على هذه الأرض نسير فوق ثراها فإننا معرضون للبلاء والمصائب تارةً في النفس وأخرى في المال وثالثة في الأبناء.

هذا نبي الله ابيضت عيناه من الحزن على ابنه يوسف وهو كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف: ٨٤] قال

---

(١) تسلية أهل المصائب ١٨٩.

همام بن قتادة: كظيم على حزن فلم يقل إلا خيراً[١].

وقد روي عن شمر أنه كان إذا عزى مصاباً قال: اصبر لما حكم ربك[٢].

وقال سفيان بن عيينه في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤] قال: لما أخذ برأس الأمر جعلناهم رؤوساً[٣].

وقد جمع الله للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

قال بعض السلف، وقد عُزي على مصيبة نالته: مالي لا أصبر. وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها[٤].

عن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابن، كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانباً كبيراً، قال: فمات، فجئت أعزيه فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا، قال: فقلت له: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجب ولقنته الحديث والفقه؟ قال: نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبياناً بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم حاراً شديداً حره، قال:

---

(١) عدة الصابرين ١٢٧.
(٢) عدة الصابرين ١٢٥ تسلية أهل المصائب ١٧٥.
(٣) عدة الصابرين ١٢٥.
(٤) عدة الصابرين ٩٩.

فقلت لأحدهم: أسقني من هذا الماء، قال: فنظر إليّ وقال: ليس أنت أبي، قلت: فأي أنتم؟ قال: فقال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلفنا آباؤنا فنستقبلهم فنسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته[١].

أخي: إنه لابد من الابتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه ألبتة، ولهذا ذكر الله ـ تعالى ـ في غير موضع أنه لابد أن يُبتلى الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولابد أن يبتلى الإنسان بما يسره وما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾[٢] [الكهف: ٧].

قال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج: ٥] قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو[٣].

وقد مات ابن لبعض قضاة البصرة، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع[٤].

عزى رجلٌ رجلاً في ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه، فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى الرزيتين لك والسلام[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب ٤٣.
(٢) الفوائد ٢٧١.
(٣) عدة الصابرين ١٢٨.
(٤) عدة الصابرين ٣٢٦.
(٥) عدة الصابرين ١٢٨.

أمـــا والـــذي لا خُلـــد إلا لـــوجهــه
ومـــن ليـــس في العـــز المنيـــع لـــه كفـــو
لئـــن كـــان بـــدء الصبر مـــرًّا مـــذاقـــه
لقـــد يُجنـــى مـــن غبتـــه الثمـــر الحلـــو[1]

أخي الحبيب:

من نزلت به بلية فأراد تمحيقها، فليتصورها أكثر مما هي تَهُن، وليتخيل ثوابها وليتوهم نزول أعظم منها، يرى الربح في الاقتصار عليها، وليتلمح سرعة زوالها، فإنه لو لا كرب الشدة، مارجيت ساعة الراحة، وليعلم أن مدة مقامها عنده، كمدة مقام الضيف، يتفقد حوائجه في كل لحظة، فيا سرعة انقضاء مقامه، ويا لذة مدائحه وبشره في المحافل ووصف المضيف بالكرم. فكذلك المؤمن في الشدة. ينبغي أن يراعي الساعات، ويتفقد فيها أحوال النفس، ويتلمح الجوارح، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة، أو من القلب تسخط، فكأن قد لاح فجر الأجر، فانجاب ليل البلاء، ومدح الساري بقطع الدجى، فما طلعت شمس الجزاء إلا وقد وصل منزل السلامة ومن عرف جريان الأقدار ثبت لها وصبر لها ساعة[2].

لما مات عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز دفنه عمر وسوى عليه، ثم استوى قائماً، فأحاط به الناس فقال: رحمك الله يا بني، قد كنت براً بأبيك، والله مازلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ماكنت قط

(١) عدة الصابرين ١٢٨.
(٢) صيد الخاطر ١٠٤.

أسر بك سروراً ولا أرجى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيرك الله إليه[١].

ولما مات أبو بكر الصديق قال علي بن أبي طالب: رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمرنا إنا لله وإنا إليه راجعون[٢].

وعندما أصيب **مطرف بن عبدالله** في ابن له، فأتاه قوم يعزونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بشراً، ثم قال: إني لأستحي من الله أن أتضعضع لمصيبة[٣].

صبرت فكــــان الصبر خير مغبــــة
وهــــل جــــزع يجــــدي عليّ فــــأجــــزع
ملكــــت دمــــوع العين حتــــى رددتهــــا
إلى نــــاظــــري فــــالعين في القلــــب تــــدمــــع[٤]

أخي الكريم:

ليحذر العبد كل الحذر أن يتكلم في حال مصيبتة وبكائه بشيء يحبط به أجره ويُسخط به ربه، مما يشبه التظلم، فإن الله تعالى عادلٌ لا يجور، وعالم لا يضل ولا يجهل، وحكيمٌ أفعاله كلها حكم ومصالح، ما يفعل شيئاً إلا بحكمه، وهو الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء له الخلق والأمر، بل إنما يتكلم بكلام يُرضي به ربه، ويكثر به أجره، ويرفع الله به قدره[٥].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٠١.
(٢) تسلية أهل المصائب ٢١٣.
(٣) عدة الصابرين ١٢٩.
(٤) عدة الصابرين ١٢٨.
(٥) تسلية أهل المصائب ٥٨.

كان صلة بن أشيم في غزاة له ومعه ابن له فقال له: أي بني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقُتِل، فاجتمعت النساء، فقامت امرأته معاذة العذرية فقالت للنساء: مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئنني مرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن[1].

حدث يزيد بن أبي حبيب: أن ابناً لعياض بن عقبة حضرته الوفاة، وكان عياض غائباً فقالت أم الغلام: لو كان أبو وهب حاضراً لقرت عينه، فلما حضرت وفاة عياض بن عقبة قال لأخيه أبي عبيد: يهنئك الظفر قد كنت أرجو أن تكون قبلي فأحتسبك[2].

أي أنك تحتسبني وتصبر على مصيبتي وينالك الأجر بذلك. وحين مات عبدالله بن مطرف، خرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد أدهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبدالله، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهناً؟ قال: أفأستكين لها، وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا وما فيها قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾[3] [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

ولنتأمل مسابقتهم إلى ذلك الخير ورغبتهم فيما عندالله ورضاهم عن الله ـ جل وعلا ـ قال سهيل بن الحنظلية الأنصاري ـ وكان لا يولد له ـ لأن يولد لي ولد سقط، فأحتسبه أحب إليّ من أن يكون لي الدنيا بأجمعها، وكان

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٩٩.
(٢) تسلية أهل المصائب ٤٤.
(٣) مختصر منهاج القاصدين ٢٩٩.

ابن الحنظلية ممن بايع تحت الشجرة[١].

أخي الحبيب:

الدنيا وضعت لبلاء فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ماحصل من المراد فلطف، ومالم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا.

وهنا تتبين قوة الإيمان وضعفه، فليستعمل المؤمن من أدوية هذا المرض التسليم للمالك والتحكيم لحكمته[٢].

ستمضي مــــع الأيــــام كــــل مصيبــــة
وتحــــدث أحــــداث تنسي المصــــائــــب[٣]

نسير مع هذه الصور الحية الناطقة في حياة من سبقنا ونرى كيف صبرهم ونلمس رضاهم عن الله ـ جل وعلا ـ في كل المصائب.

قال **عمر بن عبدالعزيز** لابنه: كيف تجدك؟ قال: في الموت، قال: لأن تكون في ميزاني أحب إلي أن أكون في ميزانك، فقال: والله يا أبه، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب[٤].

وعندما قيل لبعض الصالحين: قتل ولدك في سبيل الله! فبكى، فقيل له: أتبكي وقد استشهد؟ فقال: إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله ـ عز وجل ـ حين أخذته السيوف[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب ٤٤.
(٢) صيد الخاطر ٥٠٧.
(٣) بغداد ٦/ ٢٥٩.
(٤) تسلية أهل المصائب ٢١٣.
(٥) تسلية أهل المصائب ٢١٠.

أخي أين نحن من هؤلاء؟!

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن سفيان، قال: سمعت سفيان يقول: مافي الأرض أحد أحب إلي من سعيد، وما في الأرض أحدٌ يموت أحب إلي منه، فمات فرأيته يبكي، قال: قد كنت تمنى موته، قال: أذكر قوله: آه جنبي[1].

ومات ابن لعبدالرحمن بن مهدي فجزع عليه جزعاً شديداً. فبعث إليه الشافعي يقول له: يا أخي، عزّ نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمضَّ المصائب فقد سرورٍ وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر، فتناول حظَّك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد تنأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأحرز لنا بالصبر أجراً[2].

ألا إنمـــا الـــدنيـــا غضـــارة أيكـــة
إذا اخضر منهـــا جـــانـــبٌ جـــف جـــانـــب
ومـــا الـــدهـــر والآمـــال إلا فجـــائـــعُ
عليهـــا ومـــا اللـــذات إلا مصـــائـــب
فـــلا تكتمـــل عينـــاك منهـــا بعبرة
على ذاهـــب منهـــا فـــإنـــك ذاهـــب[3]

سبحان المتصرف في خلقه بالاغتراب والإذلال ليبلو صبرهم، ويظهر جواهرهم في الابتلاء.

---

(١) تسلية أهل المصائب ٤٦.
(٢) تسلية أهل المصائب ١٧٥.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ٣٢٠.

فمن تلمح بحر الدنيا وعلم كيف تُتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعه الأيام لم يستهول نزول بلاء ولم يفرح بعاجل رخاء[١].

كان عروة بن الزبير قد صحب معه بعض أولاده وكان من جملتهم ابنه محمد، وكان أحبهم إليه، فدخل دار الدواب فرفسته فرسٌ فمات، فأتوه، فعزوه فيه فقال: الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فطالما أعطيت[٢].

مكانة الصبر عظيمة يقول عمر بن عبدالعزيز: ما أنعم الله على عبده نعمة فانتزعها منه فعاضها مكانها الصبر إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزعه منه.

وعندما سئل الجنيد عن الصبر قال: هو تجرع المرارة من غير تعبس[٣].

والمصائب تنزل حولنا وتحف بنا.. كيف قلوبنا.. عامرةٌ بالصبر، عامرةٌ بالتقوى والرضا.. مستعدة لأشد بلاء يقابل المسلم.. ألا وهو الموت.

عزى صالح المري رجلاً قد مات ولده فقال: إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة في نفسك فنعم مصيبتك، وإن كانت لم تحدث لك عظة في نفسك فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك[٤].

---

(١) صيد الخاطر ٢٣٦.
(٢) البداية والنهاية ٩/١١٥.
(٣) تسلية أهل المصائب ١٩٣.
(٤) تسلية أهل المصائب ١٢٨.

ولنسمع عن فضل الله وإحسانه على عباده:

عن أبي بكر قال: إن المسلم ليؤجر في كل شيء حتى في النكبة وانقطاع شسعه، والبضاعة تكون في كمه فيفقدها، فيفزع لها فيجدها في غبة[١].

وقد مات لعقبة ابن يقال له يحيى فلما نزل في قبره قال له رجل: والله إن كان لسيد الجيش فأحتسبه، فقال والده وما يمنعني أن أحتسبه وكان من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات[٢].

أخي الكريم لينظر المصاب في كتاب الله وسنة رسول الله فيجد أن الله تعالى أعطى لمن صبر ورضي ماهو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.. ومن أنفع الأمور للمصاب.. أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل قرية ومدينة بل في كل بيت من أصيب، فمنهم من أصيب مرة، ومنهم من أصيب مراراً، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتي على جميع أهل البيت حتى نفس المصاب فيصاب، أسوة بأمثاله ممن تقدمه، فإنه إن نظر يمنة فلا يرى إلا محنة، وإن نظر يسرة فلا يرى إلا حسرة[٣].

فإذا علم المصاب أنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، فسرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً وإن سرت يوماً ساءت دهراً، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حبرةً إلا ملأتها عبرة، وحصلت للشخص في

---

(١) تاريخ الخلفاء ٩٦.

(٢) تسلية أهل المصائب ٤٢.

(٣) تسلية أهل المصائب ٢٠.

يوم سروراً، إلا خبأت له في يوم شروراً[١].

عن الأحوص قال: دخلنا على ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وعنده بنون له ثلاثة غلمان كأنهم الدنانير فجعلنا نتعجب من حسنهم فقال: كأنهم يغبطونني؟ قلنا أي والله لبمثل هؤلاء يغبط المسلم فرفع رأسه إلى سقف البيت وقد عشعش فيه خطاف وباض فقال: والذي نفسي بيده لأن أكون قد نفضت يدي من تراب قبورهم أحب إلي من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه، ثم قال: ما أصبحت على حال فتمنيت أني على سواها[٢].

وقال عمر بن ميمون بن مهران: كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة، فلقي أبي شيخاً فعانقه أبي، مع الشيخ فتى قريباً مني، فقال له أبي: من هذا؟ قال: ابني، فقال: وكيف رضاك عنه؟ قال: ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه إلا واحدة، قال: وماهي؟ قال: كنت أحب أن يموت وأوجر فيه!.

قال: ثم فارقه أبي، قال: فقلت لأبي من هذا الشيخ؟ قال: هذا مكحول[٣].

هذا يحيى بن معاذ يقول في درر من الكلام: ابن آدم.. مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت، ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت[٤]؟

قال بعض السلف وقد سأله رجل فقال: عظني؟! فقال: انظر منك إلى

---

(١) تسلية أهل المصائب ٢١.
(٢) تسلية أهل المصائب ٤٥.
(٣) تسلية أهل المصائب ٤٦.
(٤) تسلية أهل المصائب ٤٠.

آدم هل ترى منهم عينٌ تطرف؟ فقال حسبك[١].

كتـــب المــــوت على الخلـــق فكـــم
فــل مـــن جيـــش وأفنـــى مـــن دول

قال عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: أبتلينا بالضراء فصبرنا وأبتلينا بالسراء فلم نصبر، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨] ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾[٢] [التغابن: ١٤].

وقال الزجاج.. أعلمهم الله ـ عز وجل ـ أن الأموال والأولاد مما يفتنون به، وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله ـ تعالى ـ[٣].

عن يعلى بن الوليد قال: لقيت أبا الدرداء فقلت: ما تحب لمن تُحب؟ قال: الموت، قلت: فإن لم يمت؟ قال: يقل ماله وولده[٤].

ومما يسلي العبد قول بعض الحكماء.. قد مات كل نبي، ومات كل نبيه ولبيب وفقيه وعالم، فلا تجزع ولا يوحشنك طريق الخلائق فيها[٥].

---

(١) تسلية أهل المصائب ٤٠.
(٢) منهاج القاصدين ٢٩٦.
(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٠.
(٤) السير ٢/ ٣٤٩.
(٥) تسلية أهل المصائب ٤٠.

أخي.. كلنا سائرون في طريق نهايته معروفة.. الموت هادم اللذات. ولكن

اصبر لكل مصيبةٍ وتجلد
واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ما ترى أن المصائب جمة
وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة
هذا سبيل لست عنه بأوحد
وإذا ذكرت مصيبة تسلو بها
فاذكر مصابك بالنبي محمد[(١)]

فمن أعظم مصائبنا التي نحتسبها عند الله موته ﷺ ومن أعظم البشارات لمن أصيب بمصيبة فذكرها بعد مدة طويلة فجدد لها استرجاعاً وصبراً، ماله عند الله من الأجر كلما ذكرها واسترجع. قال ﷺ: «**مامن مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها**».

مات لرجل من السلف ولدٌ، فعزاه سفيان بن عيينة وآخرون وهو في حزن شديد حتى جاءه **الفضيل بن عياض** فقال: يا هذا أرأيت لو كنت في سجن وابنك، فأُفرج عن ابنك قبلك أما كنت تفرح؟ قال: بلى قال: فإن ابنك خرج من سجن الدنيا قبلك، فسرى عن الرجل وقال: تعزيت[(٢)].

---

(١) تسلية أهل المصائب ٢٥.
(٢) تسلية أهل المصائب ١٢٠.

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي في «عيون الحكايات» قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق، فقصدناها فسلمنا فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: وما أنتم؟ قلنا: قوم ضالون عن الطريق، أتيناكم فأنسنا بكم فقالت: يا هؤلاء ولو وجوهكم عني حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فألقت لنا مسحاً فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني، ثم جلست ترفع طرف الخيمة وتردها إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها، فقال: يا أم عقيل، أعظم الله أجرك في عقيل، قالت: ويحك مات ابني؟ قال: نعم قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت الأبل فرمت به في البئر، فقالت: انزل فاقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرب إلينا الطعام فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكورت فقالت: يا هؤلاء: هل منكم من أحد يُحسن من كتاب الله شيئاً؟ قلت نعم، قالت: اقرأ علي من كتاب الله آيات أتعزى بها، قلت يقول الله ـ عزّ وجل ـ في كتابه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] قالت: الله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: الله إنها لفي كتاب الله هكذا، قالت: السلام عليكم، ثم صفت قدميها وصلت ركعات ثم قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون» عندالله أحتسب عقيلاً، تقول ذلك ثلاثاً، اللهم إني فعلت ما أمرتني به فانجز لي ما وعدتني(١).

---

(١) تسلية أهل المصائب ١٩٤.

وعن مسلم بن يسار قال: قدمت البحرين، فأضافتني امرأة لها بنون ورقيق ومال ويسار فكنت أراها محزونة، فلما خرجت من عندها قلت لها ألك حاجة؟ قالت: نعم. إن أنت قدمت بلدتنا هذه أن تنزل عليّ، فغبت عنها كذا وكذا سنة، ثم أتيتها فلم أر ببابها أنيساً، فاستأذنت عليها فإذا هي ضاحكة مسرورة، قلت لها ما شأنك؟ قالت: إنك لما غبت عنا لم نرسل في البحر شيئاً إلا غرق، ولا في البر شيئاً إلا عطب، وذهب الرقيق ومات البنون، فقلت لها: يرحمك الله رأيتك محزونة في ذلك اليوم ومسرورة في هذا اليوم؟ فقالت: نعم إني لما كنت فيه من سيئة الدنيا خشيت أن يكون الله قد عجَّل حسناتي في الدنيا، فلما ذهب مالي وولدي ورقيقي رجوت أن يكون الله قد ادخر لي عنده خيراً ففرحت[1].

اعلم - أخي الكريم - أن الرضا بالمصائب أشق على النفوس من الصبر، وقد تنازع العلماء والمشايخ في الرضا بالقضاء هل هو واجب أو مستحب، على قولين فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها، فالرضا أعلى من مقام الصبر، لكن الصبر اتفقوا على وجوبه والرضا اختلفوا في وجوبه، والشكر أعلى من مقام الرضا، فإنه يشهد المصيبة نعمة، فيشكر المبتلى عليها قال عبدالواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا وسراج العابدين[2].

فعليك - أخي - بالشكر لما قضى والرضا بما جرى والصبر على ما كان.

---

(١) تنبيه الغافلين ١٣٤.

(٢) تسلية أهل المصائب ٢٠٨.

فإن للبلايا مهما طالت نهايات مقدرة عند الله ـ عزّ وجل ـ.

وتأمل في قول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]. فإن في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن من أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها مالا يعمله العبد، **وأوجب له ذلك أموراً:**

منها: أنه لا أنفع له منهامتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذاتٌ وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خيرٌ لها وأنفع، ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ماليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً. بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له، أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أُخرى، ومع

هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله، أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، «وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدَّره[1].

أخي الحبيب:

في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصاب عبداً همٌّ ولا حزنٌ فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحاً، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: بلى. ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**».

* **سُئل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: عمن يتسخط إذا نزلت به مصيبة؟**

فأجاب بقوله: الناس حال المصيبة على مراتب أربع:

المرتبة الأولى: التسخط وهو على أنواع:

النوع الأول: أن يكون بالقلب كأن يتسخط على ربه يغتاظ مما قدره الله عليه، فهذا حرام، وقد يؤدي إلى الكفر قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ

---

(١) الفوائد بإختصار ١٧٩.

عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

النوع الثاني: أن يكون التسخط باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وهو حرام.

النوع الثالث: أن يكون التسخط بالجوارح كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور وما أشبه ذلك وكل هذا حرام مناف للصبر الواجب.

المرتبة الثانية:

الصبر: وهو كما قال الشاعر:

والصبرُ مثل اسمه مر مذاقته
لكن عواقبه أحلى من العسل

فيرى أن هذا الشيء ثقيل عليه لكنه يتحمله، وهو يكره وقوعه ولكن يحميه من السخط، فليس وقوعه وعدمه سواء عنده، وهذاواجب لأن الله تعالى أمر بالصبر فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

المرتبة الثالثة:

الرضا: بأن يرضى الإنسان بالمصيبة بحيث يكون وجودها وعدمها سواء فلا يشق عليه وجودها، ولا يتحمل لها حملاً ثقيلاً، وهذه مستحبة وليست بواجبة على القول الراجح، والفرق بينها وبين المرتبة التي قبلها ظاهر لأن المصيبة وعدمها سواء في الرضا عند هذا، أما التي قبلها فالمصيبة صعبة عليه لكن صبر عليه.

المرتبة الرابعة:

الشكر: وهو أعلى المراتب، وذلك بأن يشكر الله على ما أصابه من

مصيبة حيث عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته قال ﷺ: «مامن مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها حتى الشوكة يشاكها»[1].

أخي الحبيب:

إن كانت الدنيا أطلقت سهامها وسلت سيوفها.. فإنا رضينا بقضاء الله وقدره نشكره على قضائه ونصبر على طاعته، فهو صاحب الإحسان الجزيل والعطاء الكثير.. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

جعلني الله وإياك من الشاكرين الراضين الصابرين المحتسبين.. وجمعني وإياك في جنات عرضها السموات والأرض فيها السعادة بلا شقاء والحياة بلا موت والنعيم بلا زوال.

وجعلني الله وإياكم من الصابرين ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

* * *

---

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين ٢/ ١٠٩.

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامدالغزالي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

٢ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.

٣ ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ـ ابن قيم الجوزية ـ مكتبة الرياض الحديثة.

٤ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٥ ـ تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

٦ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

٧ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.

٨ ـ تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن المنبجي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ.

٩ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ.

١٠ ـ الثبات عند الممات لابن الجوزي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

١١ ـ جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي ـ مكتبة طيبة.

١٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

١٣ ـ ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٤٠٠هـ.

١٤ ـ ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

١٥ ـ كتاب الزهد لأبي عبدالله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٦ ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وحسين الأسد مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث.

١٨ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٤هـ.

١٩ ـ كتاب الشكر لابن أبي الدنيا. ط٣، ١٤٠٥هـ.

٢٠ ـ الصبر وأثره في حياة المسلم، عبدالله بن جار الله آل جار الله، دار الصميعي ط١ ـ ١٤١٣هـ.

٢١ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

٢٢ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٢٣ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى مطبعة السنة المحمدية.

٢٤ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية تحقيق محمد عثمان دار الكتاب العربي ط ٢، ١٤٠٦هـ.

٢٥ ـ فتاوى ابن تيمية جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد تصوير ط١ ـ ١٣٩٨هـ دار العربية بيروت .

٢٦ ـ الفوائد لابن القيم، دار النفائس .

٢٧ ـ مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ـ جمع فهد السليمان، دار الوطن ١٤١٣هـ .

٢٨ ـ مختصر منهاج القاصدين تأليف الإمام أحمد عبدالرحمن بن قدامة المقدسي تحقيق زهير الشاويش المكتب الإسلامي ط٧، ١٤٠٦هـ .

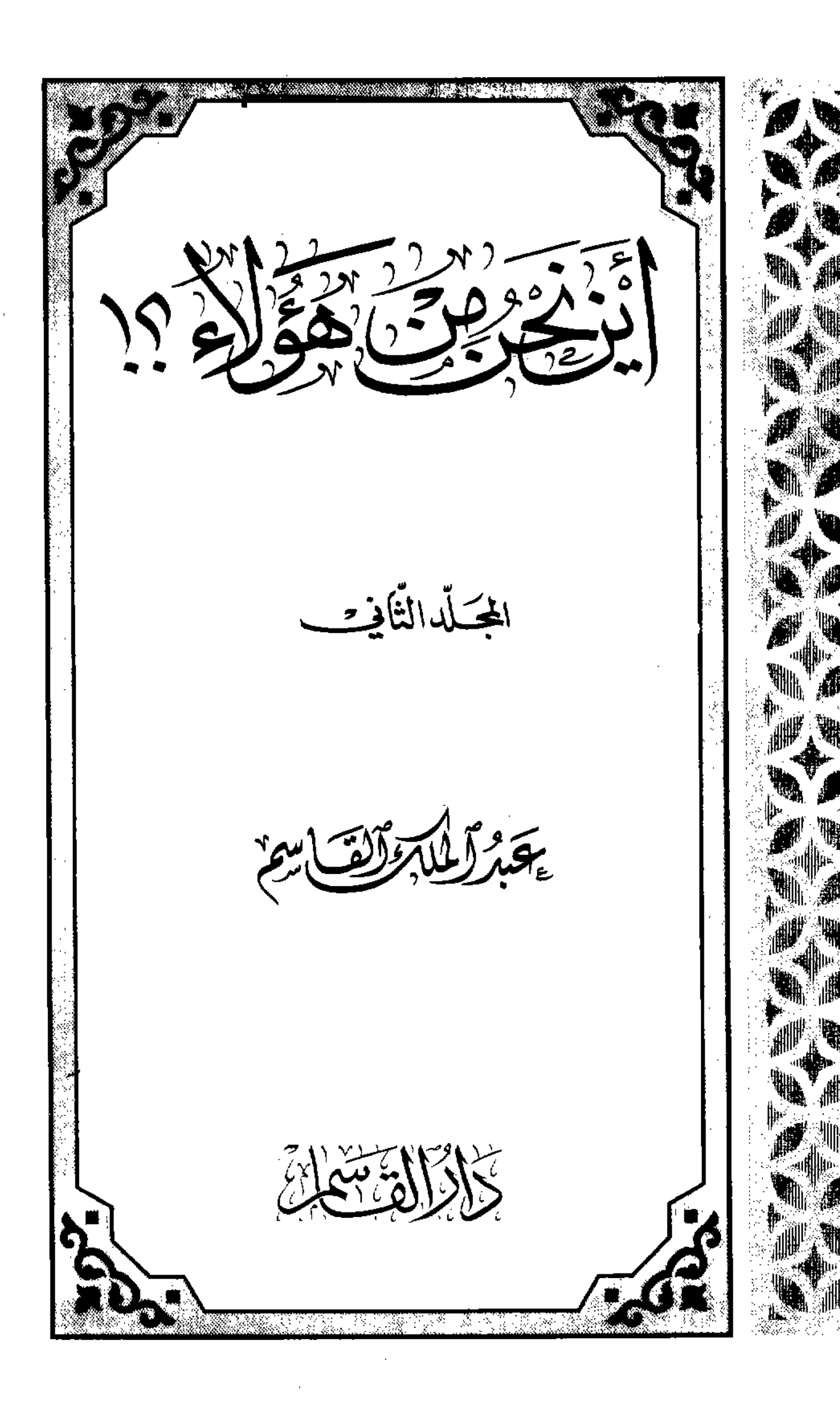
٢٩ ـ مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية ـ مكتبة الرياض الحديثة .

٣٠ ـ مكاشفة الصدور المقرب لحضرة علام الغيوب للإمام الغزالي ـ دار إحياء العلوم .

٣١ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ .

٣٢ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ .

* * *

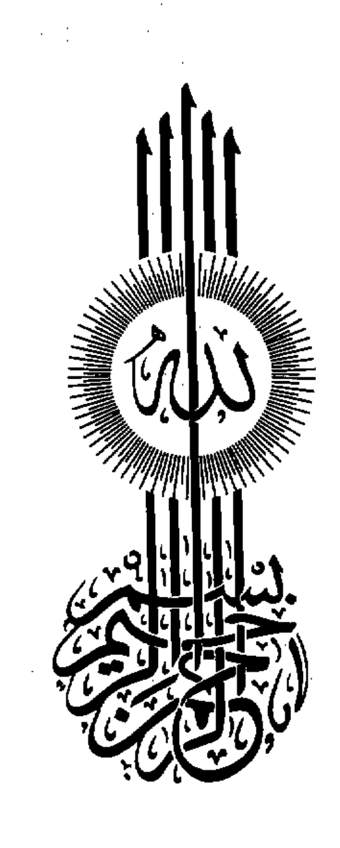


أين نحن من هؤلاء ؟!

المجلد الثاني

عبد الملك القاسم

دار القاسم


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

الوقت أنفاس لا تعود

المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

فإن رأس مال المسلم في هذه الدنيا وقت قصير.. أنفاسٌ محدودة وأيام معدودة.. فمن استثمر تلك اللحظات والساعات في الخير فطوبى له، ومن أضاعها وفرط فيها فقد خسر زمناً لا يعود إليه أبداً.

وهذا العصر الذي تفشى فيه العجز وظهر فيه الميل إلى الدعة والراحة.. جدبٌ في الطاعة وقحطٌ في العبادة وإضاعة للأوقات فيما لا فائدة..

أقدم هذا الكتاب.. ففيه ملامح عن الوقت وأهميته وكيفية المحافظة عليه وذكر بعض من أهمتهم أعمارهم فأحيوها بالطاعة وعمروها بالعبادة.

وفقنا الله إلى استثمار أوقاتنا وجعل مما في الكتاب إحياء للقلوب وتذكير بعدم التفريط واستدراك لما بقي من الأيام.

وصلى الله على نبينا محمد.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر: ١ - ٣] أقسم تعالى بالعصر وهو الدهر الذي هو زمن تحصيل الأرباح والأعمال الصالحة للمؤمنين وزمن الشقاء للمعرضين، ولما فيه من العبر والعجائب للناظرين[(١)].

وقد عرض القرآن الكريم والسنة المطهرة للزمن، قيمةً وأهميةً وأوجه انتفاع وأثراً، وأنه من عظيم نعم الله التي أنعم بها سبحانه. .

يقول الله - تعالى - في بيان هذه النعمة العظيمة التي هي من أصول النِّعم: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾ [النحل: ١٢].

ويقول - جل وعلا - ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان: ٦٢].

ولبيان أهمية الزمن وأثره، نجد أن المولى سبحانه يُقسم بأجزاء منه في مطالع سور عديدة:

فيقسم بالفجر: ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) ﴾ [الفجر: ١، ٢].

ويقسم بالليل والنهار ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل: ١، ٢].

ويقسم بالضحى: ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) ﴾ [الضحى: ١، ٢].

وقَسَمُه - سبحانه - بأجزاء الزمن تلك كان لفتاً للأنظار نحوها، لعظيم

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول ص ٧.

دلالتها عليه، والجليل ما اشتملت من منافع وآثار[١].

فلا شيء أنفس من العمر، وفي تخصيص القسم به إشارة إلى أن الإنسان يضيف المكاره والنوائب إليه، ويحيل شقاءه وخسرانه عليه، فإقسام الله تعالى له دليل على شرفه، وأن الشقاء والخسران إنما لزم الإنسان لعيب فيه لافي الدهر، ولذلك قال ﷺ: «**لاتسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»[٢].

وعمر الإنسان القصير والذي لا يتجاوز عشرات معدودة من السنين سيُسأل عن كل لحظة فيه وعن كل وقت مر عليه وعن كل عمل قام به.

قال ﷺ: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه**» لن تزول قدما العبد في هذا الموقف العظيم حتى يحاسب عن مدة أجله فيما صرفه.. وعما فعل بزمانه ووقت شبابه بخاصة فإنه أكثر العطاء وأمضاه، وهو تخصيص بعد تعميم، لأن تمكن الإنسان من الزمن في وقت الشباب أعظم وآكد وأثمر من طرفي العمر حيث ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة..[٣].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال: رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**».

قال **ابن الخازن**: النعمة ما يتنعم به الإنسان ويستلذه، والغبنُ أن يشتري بأضعاف الثمن، أو يبيع بدون ثمن المثل.

---

(١) سوانح وتأملات ص ١٥.
(٢) تفسير غرائب القرآن.
(٣) سوانح وتأملات ص ٧.

فمن صح بدنه، وتفرغ من الأشغال العائقة، ولم يسع لصلاح آخرته، فهو كالمغبون في البيع، والمراد بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ بل يصرفونهما في غير محالهما، فيصير كل واحد منهما في حقهم وبالاً، ولو أنهم صرفوا كل واحد منهما في محله لكان خيراً لهم، أي خير[1].

وأكد على ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شُغلك، وحياتك قبل موتك**»[2].

عمر الإنسان هو موسم الزرع في هذه الدنيا وحصاد ما زرع يكون في الآخرة.. فلا يحسن بالمسلم أن يضيع أوقاته وينفق رأس ماله فيما لا فائدة فيه.

ومن جهل قيمة الوقت الآن فسيأتي عليه حين يعرف فيه قدره ونفاسته وقيمة العمل فيه، ولكن بعد فوات الأوان، وفي هذا يذكر القرآن موقفين للإنسان يندم فيهما على ضياع وقته حيث لا ينفع الندم.

الموقف الأول: ساعة الاحتضار، حيث يستدبر الإنسان الدنيا ويستقبل الآخرة، ويتمنى لو منح مهلة من الزمن، وأُخر إلى أجل قريب ليصلح ما أفسده ويتدارك ما فات.

الموقف الثاني: في الآخرة حيث توفى كل نفس ما عملت وتُجزى بما كسبت ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، هناك يتمنى أهل النار لو يعودون مرة أخرى إلى حياة التكليف، ليبدءوا من جديد عملاً صالحاً..

---

(١) سوانح وتأملات ص ١٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك.

هيهات هيهات لما يطلبون فقد انتهى زمن العمل وجاء زمن الجزاء.

ونلحظ في زماننا هذا الجهل بقيمة الوقت والتفريط فيه.

هذا الزمن زمن العجز.. زمن الدعة والراحة والكسل ماتت الهمم وخارت العوائم.

تمر الساعات والأيام ولا يُحسب لها حساب.

بل إن هناك من ينادي صاحبه

تعال.. لنقضي وقت الفراغ..!!

أخي.. هل لدى المؤمن وقت فراغ؟

اسمع قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ الشرح: ٧، ٨].

إذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ومع شواغل الحياة..

إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذن إلى من يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد العبادة والتجرد والتطلع والتوجه(١).

هذا مع أن المسلم باحتسابه وإخلاصه في أعمال الدنيا في عبادة، وهو في جهاد في حياته..

ولقد أجمل ـ جلّ وعلا ـ ذلك كله في آيات محكمات: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال ـ جل وعلا ـ في آية أخرى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أخي الحبيب:

لنعد قليلاً.. في سطور مضيئة وكلمات صادقة إلى حال من سبقنا

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٣.

لنرى كيف نظروا إلى هذه الأوقات.. ومـاذا عملوا فيها.. وكيف استفادوا منها..

قال عبدالله بن مسعود: ماندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي.

تسافر بالراكب الأيام وتسير به الليالي.. في وضح النهار وفي غسق الدُجى.. آناء الليل وأطراف النهار.. رحلة متواصلة.. وسيرٌ حثيث.. حتى تحط به الركاب.

فالناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في جنة أو نار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يُطلَب فيه نعيم ولذة وراحة. إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كلّ آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكَّلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير[١].

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ: «سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول: ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوًا، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسفاهة أنْ يُتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية، ولا يتلف عمر بسهر في لذة باقية عند الله الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم»[٢].

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ٢٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٤٥.

إن الليـــــالي لـــــلأنـــــام منــــاهـــــل
تطـــــوى وتنشر دونهـــــا الأعمـــــار
فقصـــــارهـــــن مـــــع الهمـــــوم طـــــويلـــــة
وطـــــوالهـــــن مـــــع السرور قصـــــار[١]

إن الساعات ثلاث:

ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية.

وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا، ولا يدري ما يقضي الله فيها.

وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى. ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة. وتكون جميع أحـوالـه مقصورة على ما رواه أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ من قوله ـ عليه السلام ـ «**لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث: تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم**»[٢].

أخي الحبيب..

إن الصحة والفراغ والمال هي الأبواب التي تلج منها الشهوات

---

(١) مكاشفة القلوب ص ٢٢١.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم.

المستحكمة، ويتربع في فنائها الهوى الجامح فيأتي على صاحبه، وقد صدق من قال من الفراغ تكون الصبوة. وقد تميز المؤمن عن ذلك كله فهو كما قال قتادة بن خليد: المؤمن لا تلقاه إلا في ثلاث خلال.. مسجد يعمره، أو بيت يستره، أو حاجة من أمر دنياه لا بأس بها.(١)

فإن العاقل الموفق من أدرك حقيقة ذلك، فاغتنم عمره في علم نافع يحفظه ويحفظ الأمة من نفسها ومن عدوها، ويجعلها أمة يدها هي العليا وليست هي السفلى، في جهادٍ مبارك.. قلماً ولساناً وسناناً، في أمرٍ بمعروف ونهي عن منكر، في تربية لعقول وأفئدة وأحاسيس تنفع الناس وتمكث في الأرض لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

إنَّ من أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أدّاه، أو مجد أثله، أو حمد حصَّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه وظلمه.

هذا يتحسسه أشد ما يكون عند ساعة احتضاره، عندما يراه قد أودى به إلى الخسران المبين، فيتمنى على الله أن يؤخره حتى يُصلح ما أفسد، ويتدارك مافات، وأنى له أن يُمْهلَ وقد تحتّم الأجل ونزل الموت في ساحته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١ ﴾ [المنافقون: ٩](٢).

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٣١.

(٢) سوانح وتأملات ص ٢٢.

ولهذا حرص الموفقون على الاستفادة من كل دقيقة وثانية بالعمل الصالح وعدوا ذلك مغنما.. وعلموا أن ضياعها بدون فائدة مغرماً.

قال **عمر بن ذر**: قرأت كتاب سعيد بن جبير.. إن كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة[١].

وهذا المغنم إنما هو حصيلة أعمال صالحة قُدمت.. صلاةٌ وصيام وتسبيح وغيرها.

فالأوقات والأزمنة عمرٌ قصير وأجل محدود كما قال عنها **طيفور البطامي**: إن الليل والنهار رأس مال المؤمن، ربحها الجنة، وخسرانها النار[٢].

فإن السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمارها. فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرته شجرة طيبة، ومن كانت أنفاسه في معصية فثمرته حنظل[٣].

ومن جهلنا بقيمة الوقت.. نفرح بمغيب شمس كل يوم ونحن لا ندرك أن هذا نهاية يوم من أعمارنا لن يعود أبداً.. صحائف طويت وأعمالٌ أحصيت وأنفاسٌ توقفت.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها
وكل يوم مضى يُدني من الأجل[٤]

---

(١) الإحياء: ٤/ ٢٧٦.
(٢) الزهد للبيهقي ص ٢٩٧.
(٣) الفوائد لابن القيم ص ٢١٤.
(٤) صفوة الصفوة: ٣/ ٣٩٠.

قال الحسن: من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلاناً من الله ـ عز وجل ـ[١].

فإنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تُقدّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فأفعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ماهو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك[٢].

إنما الدنيا إلى الجنة والنار طريق
والليالي متجر الإنسان والأيام سوق[٣]

أخي الحبيب..

كان **شميط بن عجلان** يقول: الناس رجلان، فمتزود من الدنيا ومتنعم فيها، فانظر أي الرجلين أنت؟

إني أراك تحب طول البقاء في الدنيا فلأي شيء تحبه أنت؟ إن تطع الله عز وجل وتحسن عبادته وتتقرب إليه بالأعمال الصالحة..؟ فطوبى لك.

أم لتأكل وتشرب وتلهو وتلعب وتجمع الدنيا وتثمرها وتنعم زوجتك وولدك..؟ فلبئس ما أردت له البقاء[٤].

فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ويحال بينه وبينها، إما بمرض أو موت أو غير ذلك من العلل والآفات..

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٣٩.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٣.
(٣) الزهد للبيهقي ص ٢٩٨.
(٤) صفوة الصفوة: ٣/ ٣٤٣.

قال أبو حازم: إن بضاعة الآخرة كاسدة يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية[١].

ولنرى الإمام الشافعي كيف استفاد من وقته فقد جزأ ـ رحمه الله ـ الليل إلى ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام[٢].

وكان الحسن يقول: ما مر يوم على ابن آدم إلا قال له: ابن آدم، إني يوم جديد، وعلى ما تعمل فيَّ شهيد، وإذا ذهبت عنك لم أرجع إليك، فقدم ما شئت تجده بين يديك، وأخر ماشئت فلن يعود أبداً إليك[٣].

تؤمل في الدنيا طويلاً ولا تدري
إذا جن ليل هل تعيشُ إلى الفجر
فكم من صحيحٍ مات من غير علةٍ
وكم من مريض عاش دهراً إلى دهر[٤]

كثيرون باتوا ولم يروا ضوء الفجر التالي، وكثيرون أشرقت عليهم الشمس ولم يدركوا مغيبها.. وهل الإنسان إلا هكذا ميت بليل أو نهار، ينتظر الموت من أين يُقبل!!

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٨.
(٢) صفة الصفوة: ٢/ ٢٥٥.
(٣) الحسن البصري ص ١٤٠.
(٤) موارد الضمآن: ٢/ ٢٤٥.

إن توقفت أنفاسه نهاراً لم ير الليل وإن سكنت أطرافه بالليل أصبح محمولاً إلى القبر . .

ألا إنها أوقاتٌ محسوبة ولحظاتٌ مقسومة وأنفاسٌ معدودة . . تمر مر السحاب طوبى لمن عمل بها وإستزاد من الخير وقدم ليوم المعاد .

كان أبو مسلم الخولاني يقول: لو رأيت الجنة عياناً ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عياناً ماكان عندي مستزاد(١) .

وهذه المحافظة على الأوقات من علامات النفوس الكبيرة والهمم القوية .

قال أبو النصر أباذي: مراعاة الأوقات من علامات التيقظ(٢) .

ومن أضاع أوقاته فيما لا فائدة منه فيرسم لنا حاله مورق العجلي بقوله :
ياابن آدم تودى كل يوم برزقك وأنت تحزن، وينقص عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك، وعندك ما يكفيك .

وللمـــرء يـــوم ينقضي فيـــه عمـــره
ومـــوت وقبر ضيـــق يُـــولـــجُ(٣)

قال الحسن: لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار وتقريب الآجال، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، فأصبحوا قد أقدموا على ربهم ووردوا على أعمالهم، وأصبح الليل والنهار غضين جديدين لم يبلهما ما مرّا به، مستعدين لمن بقي بمثل ما أصاب به من مضى . . (٤) .

---

(١) صفوة الصفوة: ٤/٢١٣، والسير: ٤/٩ .
(٢) الزهد للبيهقي ص ١٩٧ .
(٣) إرشاد العباد ص ٤٨ .
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٤ .

نهارٌ طويل ماذا كان يُعمل فيه وماذا يُستفاد منه.. قال حماد بن سلمة: ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله ـ عز وجل ـ فيها إلا وجدناه مطيعاً. إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصلياً وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضأ أو عائداً مريضاً، أو مشيعاً لجنازة، أو قاعداً في المسجد، قال: فكنا نرى أنه لا يحسن أن يعصي الله ـ عز وجل ـ[1].

أخي الحبيب:

ينبغي للمؤمن أن يتخذ من مرور الليالي والأيام عبرة لنفسه، فإن الليل والنهار يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويطويان الأعمار، ويشيبان الصغار، ويفنيان الكبار كما قال الشاعر:

أشاب الصغير وأفنى الكبير
كرُّ الغداة ومرُّ العشي
إذا ليلة أهرمت يومَها
أتى بعد ذلك يومٌ فتي

إن مضي الزمن واختلاف الليل والنهار لا يجوز أن يمر بالمؤمن وهو في ذهول عن الاعتبار به، والتفكير فيه، ففي كل يوم يمر، بل في كل ساعة تمضي، بل في كل لحظة تنقضي، تقع في الكون والحياة أحداث شتى، منها ما يُرى وما لا يُرى، ومنها ما يُعلم ومنها لا يُعلم..

من أرض تحيا، وحبة تنبُت، ونبات يُزهر، وزهر يثُمر، وثمر يقطف، وزرع يصبح هشيماً تذروه الرياح، أو من جنين يتكون، وطفل يولد،

---

(١) حلية الأولياء: ٢/ ٨٢.

ووليد يشب، وشاب يتكهل، وكهل يشيخ، وشيخ يموت..[1].

إذا كنت في الأمس اقترفت إساءة
فثن بإحسانٍ وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير يوماً إلى غدٍ
لعل غداً يأتي وأنت فقيد
ويومك إن عاتبته عاد نفعاً
إليك وما ضُحى الأمس ليس يعود[2]

دخل رجلٌ على داود الطائي يوماً فقال: إن في سقف بيتك جذعاً مكسوراً.. فقال: يا ابن أخي.. إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف[3].

رحمه الله.. ماذا عن واقع حياة عامة الناس اليوم.. حديث بدون فائدة وأسئلة بلا نهاية.. متى كُسر هذا..؟ ثم تفصيل طويل لا يُفيد مستمع ولا ينفع مُتحدث.. وبالإمكان الغُنية عن هذا كله لو تحرزنا في أحاديثنا وأمسكنا بزمام ألسنتنا.. مجالس طويلة تمتد الساعات الطوال بدون فائدة..

أعد ـ أخي ـ إن استطعت خمس ساعات من عمرك لتسبح تسبيحة واحدة!؟

أرأيت الغبن وضياع رأس المال دون فائدة؟!. أما إذا امتد الحديث لغيبة ونميمة فتلك شر المجالس وبئس الأُنس.. في مقابل ما يضيع من أعمارنا

---

(١) الوقت للقرضاوي ص ١٨.
(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ٧٣.
(٣) الإحياء: ٤/ ٤٣٤.

دون فائدة لنرى كيف كانوا يستثمرون اللحظات ويستفيدون منها. . إنهم أهل الطاعة والعبادة. .

قالت داية داود **الطائي**: يا أبا سليمان أما تشتهي الخبز. .؟. قال: يا داية بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية[١].

وقال ابن مهدي: كنا مع الثوري جلوساً بمكة، فوثب وقالك النهار يعمل عمله[٢].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟

وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه وليلته تنعاك إن كنت تشعر[٣].

كان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه يقول: إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل[٤].

وحال الكثير اليوم كما تعجب منها أحد الحكماء بقوله: عجبت ممن الدنيا مولية عنه والآخرة مُقبلة إليه يشغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة[٥].

أخي الحبيب..

تمر الخواطر وتتتابع الأسئلة ولكن. . هل سألت نفسك يوماً لماذا تعيش؟

---

(١) صفوة الصفوة: ٣/ ١٤٠، والزهد للبيهقي ص ١٩٩.
(٢) السير: ٢٤٣٧.
(٣) موارد الظمآن: ٢/ ٣٩.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٠.
(٥) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٠.

بالجواب يتحدد الهدف ويتضح الطريق ويسهل الوصول . .

لنسمع جواب **أبي الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ حين قال : «لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً . . الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر» .

وهذه الدنيا كما وصفها **عمر بن عبدالعزيز** بقوله . . إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء وكتب الله على أهلها الظعن، فكم من عامر موثق عن قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى .

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن من دار إقامة ولا وطناً فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين . .

إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة، همه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة[١] .

فإن من تيقن ذلك ونظر إليه بعين المتأمل كان مثل **عبدالرحمن بن أبي نعم** عندما قال عنه بكير بن عبدالله : كان لو قيل له قد توجه إليك ملك الموت ما كان عنده زيادة عمل[٢] .

قال **الحسن**: ياابن آدم إنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره، فلا تحقرن من الخير شيئاً وإن هو صغر فإنك إذا رأيته سرّك مكانه ولا تحقرن من

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٠ .

(٢) السير ٥/ ٦٢ .

الشر شيئاً فإنك إذا رأيته ساءك مكانه رحم الله رجلاً كسب طيباً وأنفق قصداً وقدم فضلاً ليوم فقره وفاقته. هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحال بالها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناقكم، أنتم تسوقون الناس، والساعة تسوقكم، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون[١].

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر
ولابد من زاد لكل مسافر
ولابد للإنسان من حمل عدة
ولا سيما إن خاف صولة قاهر[٢]

أخي..

راحلة الأيام تسير بنا إن توقفت اليوم أو هي غداً لابد واقفة ولمن عليها تاركة..

ولكن أين الزاد لمر صعب وموقف عظيم.. يوم تذهل فيه كل مرضعةٍ عما أرضعت!!

فإن للعبد رب هو ملاقيه وبيتٌ هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله إليه..[٣].

فإن الإنسان كما قال عنه أحمد بن مسروق: أنت في هدم عمرك منذ خرجت من بطن أمك[٤].

---

(١) صفوة الصفوة ٣/٢٣٥.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٣.
(٣) الفوائد ص ٤٥.
(٤) صفة الصفوة ٤/١٢٩.

أخي المسلم:

إن المترقب إلى من يبني له داراً في الدنيا يرى كم من الساعات ينفق في سبيل بنائها وصيانتها والوقوف عليها. . بل ربما نسي أن له داراً ثانية غير هذه. . وأضاع ليله ونهاره!!؟ وهو يعلم أنه راحلٌ عنها؟!

قال يحيى بن معاذ: الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والنهار نقي فلا تدنسه بآثامك[١].

واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة فإن في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة**» فكم يضيع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل، وهذه الآيام مثل المزرعة، فكأنه قيل للإنسان كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف في البذر ويتوانى[٢].

كان الحسن يقول: يا ابن آدم نهارك ضيفك فأحسن إليه فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك وإن أسأت إليه ارتحل بذمك، وكذلك ليلتك[٣].

إن في الموت والمعاد لشغلاً
وادكاراً لذي النّهى وبلاغا
فاغتنم خُطّتين قبل المنايا
صحة الجسم يا أخي والفراغا[٤]

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٩٤.
(٢) صيد الخاطر ص ٦٢٠.
(٣) الزهد للحسن البصري ص ١٤٠.
(٤) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٥٢.

قال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يشغلك عن الله ـ تعالى ـ أحد فأفعل[١].

لأن الأمر كما قال الحسن: ابن آدم إنك بين مطيتين يوضعانك، الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة فمن أعظم منك يابن آدم خطراً[٢].

وقالت رابعة العدوية لسفيان: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلُّ وأنت تعلم.. فاعمل[٣].

ألم تـــــر أن اليـــــوم أسرعُ ذاهـــــب
وأن غـــداً للنـــاظـــريـــن قـــريـــب

أخي الشاب:

زمن الشباب زمن الصحة والقوة.. الحركة سريعة والوثبة قوية والحواس مكتملة.. ماذا قدمت في هذا الوقت؟.. وهي صحةٌ لن تعود ونشاط لن يبقى وحواس تنقص.. كانت صفية بنت سيرين توصي فتقول: يا معشر الشباب خذوا من أنفسكم وأنتم شباب فإني ما رأيت العمل إلا في الشباب[٤].

إن الشَبـــاب حُجَـــةُ التّصـــابي
روائـــح الجنـــة في الشبـــاب[٥]

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ١٤٠.
(٢) الزهد للبيهقي ص ٢٠٤.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢٩.
(٤) صفة الصفوة ٤/ ٢٤.
(٥) ديوان أبي العتاهية ص ٤٩٥.

الشاب يرى أن لديه وقت فراغ. . وساعات لا يحتاج إليها. . ويبرر لنفسه بما يشاء. . لنسمع **القاضي شريح** وقد خرج على قوم من الحاكة في يوم عيد وهم يلعبون، فقال: مالكم تلعبون؟

قالوا: إنا تفرغنا!!

قال: أو بهذا أمر الفارغ، وتلا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝﴾ [الشرح: ٧، ٨][1].

وأكد ذلك الأمر **الشيخ ابن عقيل** حيث قال مفتيا: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح.[2].

وسأل **الفضيل بن عياش** رجلاً فقال له: كم أتت عليك؟ قال. . ستون سنة.

قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون!!

فقال الفضيل: أتعرف تفسيره تقول ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ فمن عرف أنه لله عبد، إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف، فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليعدّ للسؤال جواباً.

فقال الرجل: فما الحيلة؟

قال: يسيرة. . قال: ماهي؟

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٣٤.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٤٦.

قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي.

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

وإن المـــرء قـــد ســـار ستين حجـــة
إلى منهـــل مـــن ورده لقـــريـــب[(١)]

أخي الحبيب:

كلمح البصر سنواتٌ مرت كأضغاث أحلام.. نقترب بمضيها من نهايتنا من الحياة.. نتقدم كل لحظة خطوة إلى المنايا..

تجري بنا الأيام كسحاب تهب عليه الريح.. تغمض عينيك برهة من الوقت فلا تجد السحاب.. ولن تُمسكه.. يُمسك الزمن قلةٌ وهبهم الله عوناً وتوفيقاً، حرصٌ ومثابرة.. لم يتركوا لحظة تمر دون عمل..

يحدثنا عن أحد هؤلاء موسى بن إسماعيل يقول: لو قلتُ أني ما رأيت **حماد بن مسلمة** ضاحكاً لصدقت، كان يُحَدِّث أو يسبح أو يقرأ أو يصلي، قد قسم النهار على ذلك[(٢)].

وعندما سُئل **المعافى بن عمران**: ما ترى في الرجل يقرض الشعر ويقوله؟ قال: «هو عمرك فأفنه بما شئت»[(٣)].

ومـــن عجـــب الأيـــام أنـــك جـــالـــسٌ
على الأرض في الـــدنيـــا وأنـــت تسير

---

(١) جامع العلوم ص ٤٦٤.
(٢) شذرت الذهب ١/ ٢٦٢.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٨٠.

فسيرك يـــــاهــــذا كسير سفينــــةٍ
بقــــومٍ جلــــوسٍ والقلــــوع تطير[1]

قيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ماظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة[2].

لوتأملنا بقليل من التفكر هذه الحقيقة لنظرنا إلى ما بقي من أعمارنا نظرة **عيسى بن الهزيل** حين قال: «ابن آدم ليس لما بقي من عمرك ثمن».

وأي ثمن ـ أخي الحبيب ـ لأعمارنا؟ لننظر إلى اللحظات الأخيرة والبقية الباقية من عمر أبي **يوسف يعقوب الأنصاري**.. كما يرويها إبراهيم بن الجراح الكوفي بقوله: مرض أبـو يوسف، فأتيته أعوده، فوجدته مغمي عليه، فلما أفاق قال لي:

يا إبراهيم، ما تقول في مسألة؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو به ناج؟

ثم قال: يا إبراهيم، أيما أفضل في رمي الجمار ـ أي في مناسك الحج ـ أن يرميها ماشياً أو راكباً، قلت: راكباً، قال: أخطأت، قلت ماشياً قال: أخطأت، قلت: قل فيها، يرضى الله عنك.

قال: أما ما كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشياً، وأما ماكان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكباً. ثم قمت من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات رحمة الله عليه[3].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ١٦٦.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٢.

(٣) سوانح وتأملات نقلاً عن الجواهر المضيئة لأبي محمد القرشي.

لقد بـارك الله في أيامهم وأوقاتهم وأعمالهم لأنـهم يرون أيامهم كما قال القائل:

إذا مـــــر بي يـــــومٌ ولم أقتبـــــس هـــــدى
ولم أستفـــد علمـــاً فمـــاذاك مـــن عمـــري[1]

وأنظر أخي إلى يومك الذي تعيش فيه الآن ماذا قدمت فيه؟ وأنت تعلم أن الدنيا ثلاثة أيام.

ها هي الدنيا يقول عنها **الحسن**: «أنها ثلاثة أيام، أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غداً فلعلك لا تدركه، فاليوم لك فاعمل فيه»[2].

وقال **داود الطائي**: «يابن آدم فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء مدة أجلك، سوَّفت بعملك كأن منفعته لغيرك»[3].

وماهـذا التحسر والندم على أيام ذهبت إلا كما ذكر **أبو سليمان الداراني**: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على لذة مافاته من الطاعة فما مضى كان ينبغي له أن يبكيه حتى يموت[4].

أخي الحبيب:

أسرع ما نؤديه الواجبات ولا نحسب لها حساب بل نؤديها كيفما اتفق.. وهي دقائق معدودة.. ثم ترانا نضيع ساعات طوال في مجالس بدون فائدة أو في لهو ولعب.. سبحان الله..

---

(١) إرشاد العباد ص ٣٧.
(٢) الزهد للبيهقي ص ١٩٦.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٤٠.
(٤) حلية الأولياء ٩/ ٢٧٥.

إنـــا لنفـــرح بـــالأيـــام نقطعهـــا
وكـــل يـــوم مضـــى يـــدني مـــن الأجـــل
فـــاعمـــل لنفســـك قبـــل المـــوت مجتهـــدا
فـــإنمـــا الـــربـــح والخسران في العمـــل

مضى يومنا هذا بضوئه ورحل بعمله.. إن حملت صحائفه طاعة وعبادة فطوبى الغنيمة التي قال عنها **سعيد بن جبير**. . إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة لأداء الفرائض والصلوات ومايرزقه الله من ذكره[١].

والمحافظة على الأوقات نرى أثرها في الدنيا قبل الآخرة وهل العايد مثل اللاهي.. والعاصي مثل المطيع!!

قال **إبراهيم بن شيبان**: من حفظ على نفسه أوقاته فلا يضيعها بما لا رضا لله فيه، حفظ الله عليه دينه ودنياه[٢].

فإن الليل والنهار كما وصف **داود الطائي** مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ماهو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك[٣].

اذان المـــــرء حين الطفـــــل يـــــأتي
وتـــــأخير الصـــــلاة إلى المـــــات

---

(١) شرح الصدور للسيوطي ص ٧.
(٢) الزهد للبيهقي ص ٢٩٨.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٣.

دليـــــــل أن محيــــــاه يسير كمــــــا
بين الآذان إلى الصـــــــــــــــلاة

يا أخي.. يخيل لك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق سوقاً حثيثاً، الموت متوجه إليك والدنيا تطوى من ورائك ومامضى من عمرك فليس بعائد إليك.

فكيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح من يقود عمره إلى موته؟! إنها رحلة سفر.. إنها والله ظل زائر.

سبيلـــك في الـــدنيـــا سبيـــل مســـافـــر
ولابـــدّ مـــن زادٍ لكـــل مســـافـــر
ولابـــدّ لـــلإنســـان مـــن حمـــل عـــدة
ولا سيمـــا إن خـــاف صـــولـــة قـــاهـــر[1]

قال أبو ضمرة يتحدث عن **صفوان بن سليم**: رأيته ولو قيل الساعة غداً ماكان عنده مزيد عمل[2].

أخي الحبيب:

نندم على التفريط عندما نسمع مثل هذه الهمة وهذا التوفيق.. محافظة تامة واستجابة كاملة.. ونتحسر على أيامٍ أضعناها وأوقات تركناها.. ذهبت بما حملت..

---

(١) جامع العلوم ص ٤٦٣.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٥.

نتقرب من قول أبي سليمان . . لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة، لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله[١].

هذا **مالك بن دينار** المعروف بزهده وورعه وعبادته يحدثنا عنه سلام بن مطيع، يقول: دخلت على مالك بن دينار ليلاً وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يكدمه، فقلت له: يا أبا يحيى ألا سراج؟ ألا شيء تضع عليه خبزك فقال: دعوني فوالله إني لنادم على مامضى[٢].

أراني في انتقاص كل يوم
ولا يبقى مع النقصان شيء
طوى العصران ما نشراه مني
فأخلق جدَّتي نشرٌ وطيٌّ[٣]

مواعظ تتسابق وأحداثٌ تتكرر . . وصورٌ من المحافظة على الوقت نراها بين السطور وعلى رسم الحروف ولعله يكون لنا نصيبٌ من قول **عمرو بن قيس الملائي**: إذا بلغك شيء من الخير فاعمل به ولو مرة تكن من أهله.[٤]

فإذا عزم العبد على السفر إلى الله ـ تعالى ـ وإرادته، عَرَضَت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولاً بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه أُبتلي

---

(١) الإحياء ٤/ ١٣.
(٢) حلية الأولياء ٦/ ١٨٩.
(٣) السير ١٤/ ١٨٦.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ١٢٤.

بوطء عقبه[١] وتقبيل يده والتوسعة له في المجلس والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك.

فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظَّه، وإن لم يقف معها ابتلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بالتجريد والتخلي ولذه الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظراً إلى مراد الله منه وما يحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابّه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعَّم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليّه وسيّده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره، فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء ألبتة[٢].

ولقد منَّ الله على الكثير بالمحافظة على الأوقات والاستفادة منها في القيام بالطاعات هذا سفيان يحدثنا عن **عمرو بن قيس** فيقول:

عمرو بن قيس هو الذي أدبني، علّمني قراءة القرآن وعلمني الفرائض وكنت أطلبه في سوقه فإن لم أجده في سوقه وجدته في بيته إما يصلي وإما يقرأ في المصحف، كأنه يبادر أموراً تفوته، فإن لم أجده في بيته وجدته في بعض مساجد الكوفة في زاوية من زوايا المسجد كأنه سارق قاعداً يبكي،

---

(١) أي بالسير خلفه.

(٢) الفوائد لابن القيم ص ٢٢٣.

فإن لم أجده وجدته في المقبرة قاعداً ينوح على نفسه..[١].

ولا أؤخـــر شغـــل اليـــوم عـــن كســـلٍ
إلى غـــدٍ إن يـــوم العـــاجـــزيـــن غـــدُ[٢]

كان **عمرو بن دينار** قد جزأ الليل ثلاثة أجزاء، ثلثاً ينام، وثلثاً يدرس الحديث، وثلثاً يصلي[٣].

الحال اليوم تبدلت والأمور تغيرت.. هناك عزم وهمة ولكن وراء الدنيا.. خوفٌ على فواتها وسعي لإدراكها وهلع على نقصانها.. أما الآخرة فلا ينظر إليها بعين.. ولا يرمي لها بسهم.

كأن **محمد بن المبارك** يرى حالنا وهو يقول: تخاف أن يفوتك عند البقال من قطعتك، تبادر إليه وتبكر عليه، ولا تخاف أن يفوتك من الله ما تؤمل بكثير القعود عنه والتشاغل عن المبادرة إليه[٤].

* قال **الجنيد** لرجل وهو يعظه: جماع الخير كله في ثلاثة أشياء.. إن لم تمضِ نهارك بما هو لك فلا تُمضه بما هو عليك، وإن لم تصحب الأخيار فلا تصحب الأشرار، وإن لم تنفق مالك فيما لله فيه رضا فلا تنفقه فيما لله فيه سخط[٥].

وهذا أقل القليل وإلا باب العمل مفتوح وطالب الدار الآخرة لا يرضى

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٢٥.
(٢) الوقت للقرضاوي ص ١٣.
(٣) السير ٥/ ٣٠٢.
(٤) حلية الأولياء ٩/٢٩٨.
(٥) الزهد للبيهقي ص ٢٩٠.

بالقليل فقد كان وكيع بن الجراح لا ينام حتى يقرأ حزبه في كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر فيصلي ركعتين(١).

والخوف ملازم لهم والشفقة ملاحقة لهم فكانوا يخافون من رد العمل.. كان الضحاك بن مزاحم إذا أمسى بكى فيقال له، فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي(٢).

أخي الحبيب:

وصيةٌ صادقة ونصيحة غالية من الفضيل بن عياض: تفكروا واعملوا من قبل أن تندموا، ولا تغتروا بالدنيا، فإن صحيحها يسقم وجديدها يبلى ونعيمها يفنى وشبابها يهرم(٣).

ومن شدة محافظتهم على الوقت استفادوا حتى من اللحظات القليلة التي ربما تضيع في المشي والجري فقد أوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم(٤).

والعجب تجد الشاب يجري ساعات طوال ولا يؤدي السنن الراتبة وربما أهمل في الفريضة.

أيـــام عمـــرك تـــذهـــب
وجميـــع سعيـــك يكتـــب

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ٥٠١.
(٢) السير ٤/ ٦٠٠.
(٣) الزهد للبيهقي ص ١٩٧.
(٤) صيد الخاطر ص ٦٢٠.

ثـــــم الشهيـــــــد عليـــــك
منـــــك فـــــأيـــــن المهـــــرب[1]

أما أوقات العمل الضائعة فقد استعدوا لها واستفادوا منها . . فهذا ابن الجوزي يشرح تلك الحال ويحكي لنا كيف استفاد من الوقت في حضور البطالين [2] فيقول: لما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أُدافع اللقاء جهدي، فإذا غُلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالاً لاتمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً . . فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد[3] وبري الأقلام، وحزم الدفاتر فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي[4].

وكان تقي الدين المقدسي لا يضيع شيئاً من زمانه، كان يصلي الفجر ويلقن القرآن وربما لقن الحديث، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاث مائة ركعة إلى قبيل الظهر، فينام نومة فيصلي الظهر، فينام نومة فيصلي العصر ويشتغل بالتسميع أو النسخ إلى المغرب فيفطر إن كان صائماً ويصلي إلى العشاء، ثم ينام إلى نصف الليل أو يعدم ثم يتوضأ ويصلي إلى قريب الفجر وربما توضأ سبع مرات أو أكثر ويقول: تطيب لي الصلاة مادامت أعضائي رطبة ثم ينام

---

(١) السير ١٨/١١٦.
(٢) فارغي النفوس والعقول
(٣) وهو الورق.
(٤) صيد الخاطر ص ٣٠٦.

نومة يسيرة قبل الفجر، وهذا دأبه[١].

وقال **موسى بن إسماعيل**: لو قلت لكم: إني ما رأيت **حماد بن مسلمة** ضاحكاً قط لصدقتكم، كان مشغولاً بنفسه إما أن يحدث وإما يقرأ وإما يسبح، وإما أن يصلي، كان يقسِّم النهار على هذه الأعمال[٢].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

كلما ازداد إدراك المرء للغاية التي من أجلها خُلق، ازداد اغتناماً لزمنه، وبالتالي كان أقرب لتلك الغاية وأكثر تحققاً بها.. إن الزمن يساوي عطاء الإنسان وحصاد عمره، يساوي اليد التي ستحمل كتابه يُمنى تكون أو يُسرى.

أؤمل أن أحيا وفي كل ساعة
تمر بي الموتى يهز نعوشها
وهي أنا إلا مثلهم غير أن لي
بقايا ليالٍ في الزمان أعيشها[٣]

كان **الشافعي** قد جزأ الليل، فثلثه الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام[٤].

أخي الحبيب:

هلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٧٦.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٣٦٢ وحلية الأولياء ٦/ ٢٥٠.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ٣٥٥.
(٤) السير ١٠/ ٣٥.

عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما ضى وما يُستقبل، فالذي مضى تُصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لاتعب عليك فيه ولا نصب ولا معناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب. وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك.

فيما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس في هذين نصب ولاتعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفُزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها.

وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب إنقضت عنك بسرعة واعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مُقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله[1].

قال أحمد بن مسلمة النيسابوري: كان هناد بن السري كثير البكاء..

---

(١) الفوائد ص ١٥١.

فرغ يوماً من القراءة لنا فتوضأ وجاء إلى المسجد فصلى إلى الزوال وأنا معه في المسجد، ثم رجع إلى منزله فتوضأ وجاء فصلى الظهر بنا، ثم قام على رجليه يصلي إلى العصر ويرفع صوته بالقرآن ويبكي كثيراً، ثم صلى بنا العصر وأخذ يقرأ في المصحف حتى صليت المغرب، فقلت لبعض جيرانه: ماأصبره على العبادة فقال: هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل[١]

اغتنـــم ركعتين زُلفـــى إلى الله
إذا كنـــت فـــارغـــاً مستريحـــاً
وإذا مـــا هممـــت بـــالقـــول في البـــا
طـــل فـــاجعـــل مكـــانـــه تسبيحـــاً[٢]

أخي الحبيب:

أول واجب على الإنسان المسلم نحو وقته أن يحافظ عليه كما يحافظ على ماله، بل أكثر منه، وأن يحرص على الاستفادة من وقته كله فيما ينفعه في دينه ودنياه، وما يعود على أمته بالخير والسعادة والنماء الروحي والمادي وقد كان السلف ـ رضي الله عنهم ـ أحرص ما يكونون على أوقاتهم لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها[٣].

قال السري بن المفلس: إن اغتنمت بما ينقص مالك، ابك على ما ينقص من عمرك[٤].

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٥٠٨.
(٢) ديوان الإمام علي ص ٥٨.
(٣) الوقت القرضاوي ص ١٢.
(٤) صفة الصفوة٢/٣٧٦.

ومقارنة سريعة وصف لنا فيها **الحسن البصري** حال أولئك الأخيار فقال: أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على درهمه..

وحين سئل نافع.. ماكان ابن عمر يصنع في منزله؟

قال: «الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما».

أتــــاك حـــديـــث لا يُمـــل سمـــاعـــه
شهـــيٌ إلينـــا نثـــره ونظـــامـــه
إذا ذكـــرتـــه النفـــس زال عنـــاؤهـــا
وزال عـــن القلـــب المعنـــى ظـــلامـــه

إن صحبة الأخيار ومجالسة الصالحين وسماع أخبارهم تغرس في النفس حب الخير والرغبة في مجاراتهم والوصول إلى ما وصلوا إليه من الطاعة والعبادة.

فإن النفس تحتاج إلى تذكير وترغيب خاصة في زمن طول الأمل واللهث وراء الدنيا.. لنعتبر ونتأمل في قصة معروف الكرخي عندما أقام الصلاة فقال لرجل: تقدم فصل بنا، فقال الرجل: إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها.

فقال له معروف: وأنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى، نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل(١).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

إن الأمل باب التسويف ومدعاةٌ لضياع الوقت.

---

(١) جامع العلوم ص ٢٤٦، وحلية الأولياء ٨/ ٣٦٢.

والـــوقـــت أنفـــس مـــا عنيـــت بحفظـــه
وأراه أسهـــــل مـــــا عليـــــك يضيـــــعُ

ومن حسن التربية تعويد الأبناء على الاستفادة من الأوقات وعمارها بما هو مفيد حتى يتعودوا على ذلك من الصغر قال **عبدالله بن عبدالملك** رحمه الله: كنا مع أبينا في موكبه فقال: سبحوا حتى تلك الشجرة، فنُسبح حتى نأتيها، فإذا رفعت لنا شجرة أخرى قال: كبروا حتى تلك الشجرة، فكان يصنع بنا ذلك..

أما معشر الشباب وما يراد منهم فإن **الحسن** قد سأل ذات يوم جلساه: يا معشر الشيوخ ماذا ينتظر بالزرع إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد.

قال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه العاهة قبل أن يبلغ.[1].

واجتهد **أبوموسى الأشعرى** قبل موته اجتهاداً شديداً فقيل له: لو أمسكت ورفقت بنفسك؟ قال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها، أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك.

ومـــا المـــرء إلا راكـــبٌ ظهـــر عمـــره
على سفـــرٍ يطـــويـــه بـــاليـــوم والشهـــر
يبيـــت ويضحـــى كـــل يـــوم وليلـــة
بعيـــداً عـــن الـــدنيـــا قـــريبـــاً مـــن القبر

عن **أنس بن عياض** قال: رأيت **صفوان بن سليم** ولو قيل له: غداً يوم القيامة.. ما كان عنده مزيد على ماهو عليه من العبادة.[2].

---

(١) الزهد للبيهقي ص ٢٠١.
(٢) السير ٥/٣٦٦.

وقيل لحامد اللفاف: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت اشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: ألست في عافية في كل الأيام؟ فقال: العافية يومٌ لا أعصي الله تعالى فيه[1].

أخي المسلم:

إن وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر مر السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ماقطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته[2].

قال رجل من أهل داود الطائي: قلت له يوماً: يا أبا سليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصني؟ قال: فدمعت عيناه، ثم قال لي: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل تنزل بالناس مرحلة مرحلة، حتي تنتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم فإن استطعت أن تقدم في كل ليل يوم مرحلة زاداً لما بين يديه فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ماهو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك وأقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك، إني لأقول ذلك وما أعلم أحداً أشد تضييعاً مني لذلك، ثم قام[3].

هـــاذي منـــازل أقـــوام عهـــدتهـــم
في رغـــد عيـــش رغيـــب مـــالـــه خطـــر

---

(١) الإحياء ٢/ ٢٥١.

(٢) الجواب الكافي ص ١٨٤.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ٣٤٥ ـ صفة الصفوة ٣/ ١٣٨.

صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا
إلى القبور فلا عينٌ ولا أثر[١]

قال يحيى بن معاذ: لست أبكي على نفسي إن ماتت، إنما أبكي على حاجتي إن فاتت[٢].

وكيف لا تفوت حاجته والأيام والليالي مطايا تسير به وإن لم يسر وتطوى به مراحل العمر وإن لم يترك مكانه..

وماهذه الأيام إلا مراحل
يحثّ بها داع إلى الموت قاصد
وأعجب شيء لو تأملت أنها
منازل تطوى والمسافر قاعد[٣]

قال بلال بن سعد: عباد الله، اعلموا أنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مُقام، وفي دار نصب وحزن لدار نعيم وخُلد[٤].

لعمرك ما الأيام إلا مُعارةٌ
فما استطعت من معروفها فتزود[٥]

ولأن أيام التزود قليلة ورحلة الدنيا قصيرة فإن المغبون من أضحى يومه

(١) الزهد للبيهقي ص ٢٥٧.
(٢) السير ١٣/١٥.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٤.
(٤) صفة الصفوة ٤/٢١٩.
(٥) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص ١١.

في نقصان ومر عمره في خسران كما قال **أبو سليمان الداراني**: من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان[١].

لأن كل يوم يزول يدني من الموت.. فيجب أن يحرص المسلم على يومه ويسرع الخطى فيما بقي من أجله.

فيا أخي:

فقدنا من هم في أعمارنا منذ أعوام.. أُمهلنا هذه السنوات.. ماذا قدمنا فيها وماذا جمعنا فيها؟.. إنها أعمار تجري ولحظات تسير.. وسنتوقف لحظة عن الدنيا ونبدأ بمغادرتها والرحيل منها.. يبقى ماذا قدمنا لدارنا الآخرة؟ وكيف استفدنا من أيامنا؟ وهي أيام ثلاثة كما قال عنها **السري بن المفلس**: أمس أجل واليوم عمل وغداً أمل[٢] من كانت أيامه ثلاثة: أمس لا يدري ما رفع من عمله.. ما تقبل منه وما رُدّ.. ويومٌ هو سارحٌ فيه لا يعلم هل يتمه أم يوسده قبر في آخره.. أما غداً فأمل ربما لا يرى شعاع شمسه ولاضوء نهاره..

وكان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: ويحك يا يزيد.. من ذا الذي يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يُرضي ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟. ويامن الموت موعده والقبر بيته، والثرى فراشه والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حاله؟[٣].

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ٢٣٠.

(٢) صفة الصفوة ٢/ ٣٨٣.

(٣) العاقبة ص ٤٠.

أخي الحبيب..

نسير إلى الآجـــال في كـــل لحظـــةٍ
وأيـــامنـــا تطـــوى وهـــنَّ مـــراحـــل
ولم أر مثـــل المـــوت حقَّـــاً كـــأنـــه
إذا مـــا تخطتـــه الأمـــاني بـــاطـــل
ومـــا أقبـــح التفـــريـــط في زمـــن الصبـــا
فكيـــف بـــه والشيـــب للـــرأس شـــاعـــل

أخـي..

تـــرحـــل مـــن الـــدنيـــا بـــزاد مـــن التقـــى
فعمـــرك أيـــام وهـــنَّ قـــلائـــل[(١)]

لنرى حال عامر بن قيس وهو ينادي: من أُقرىء، فيأتيه ناس، فيقرئهم القرآن، ثم يقوم فيصلي إلى الظهر، ثم يصلي إلى العصر، ثم يقرىء الناس إلى المغرب، ثم يصلي ما بين العشاء، ثم ينصرف إلى منزله، فيأكل رغيفاً وينام نومة خفيفة. ثم يقوم لصلاته ثم يتسحر رغيفاً ويخرج..[(٢)].

أما أوقاتنا الضائعة وأيامنا التائهة التي تمر دون فائدة.. نتوانى عن العمل الصالح فيها ونقصر عن الاستفادة منها.. بل ولا نتأسف على ضياعها ولا نغتم بمضيها وزوالها.

بل ربما نفرح بانقضائها ونبحث عما نُقطِّع به أوقاتنا ونسلي به ساعاتنا.. **حالنا كحال من لا يعرف ثمن وقته ولا جوهر زمنه..** أما من

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٤.
(٢) السير ٤/ ١٥.

سبقنا فقد وضعوا للأمر موازينه وللرحيل عدته . .

هذا إبراهيم بن أدهم يأخذنا إلى بعض إخوانه عندما عاده في مرضه . . فجعل يتنفس ويتأسف، فقال له إبراهيم بن أدهم: على ماذا تتنفس وتتأسف؟ فقال: ما تأسفي على البقاء في الدنيا، ولكن تأسفي على ليلةٍ نمتها، ويوم أفطرته، وساعةٌ غفلت فيها عن ذكر الله تعالى.

وقيل لأبي مسلم الخولاني حين كبر ورقَّ: لو قصرت عن بعض ما تصنع، فقال: أرأيتم لو أرسلتم الخيل في الحلبة، ألستم تقولون لفارسها: دعها وارفق بها حتى إذا رأيتم الغاية لم تستبقوا منها شيئاً؟ وغاية كل ساعة الموت فسابق ومسبوق[1].

ما أكثر الذين يأخذون من التسويف شعاراً لهم، يمكنونه من قلوبهم، حتى تقطعت آمال وانقطعت آجال . . فإن يوم العاجزين غَدٌ، وصاحب الهمة لا يعرف يوم العاجزين، لأن الحقوق مرتبطة بزمانها والواجبات أكثر من الأوقات، والتسويف تفويت لحق لزمه، وتضييع لواجب غده.

اعلم أن من له أخوان غائبان، وينتظر قدوم أحدهما في غدٍ، وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غداً، فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار، فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل بالمدة ونسي ما وراء المدة. ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك

---

(١) صفة الصفوة ٤/٢٠٩.

يمنعه من مبادرة العمل أبداً فإنه أبداً يرى لنفسه متسعاً في تلك السنة فيؤخر العمل[١].

أخي الحبيب.. صوت ينادي..

هذا **أبو كريمة العبدي** يقول: «ابن آدم ليس لما بقي من عُمرك ثَمن»[٢].

وأي ثمن لعمر الإنسان.. لو أنفق جميع ما يملك من أموال الدنيا بثمن لحظة واحدة لما أُجيب إلى ذلك.. أكد على ذلك السري السقطي بقوله.. إذا فاتني جزء من وردي لا يمكنني أن أقضيه أبدا[٣].

وإضاعة الوقت كما يراها **الإمام ابن الجوزي** بقوله: «رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً.. إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق.. فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة.. وهي تجري بهم، وما عندهم خبر، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد والتأهب للرحيل.. إلا أنهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلة العلم بما ينفق في بلد الإقامة، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلى الإخبار بالنافع هناك، فيستكثرون منه، فيزيد ربحهم.. والغافلون منهم يحملون ما اتفق.. وربما خرجوا لا امع خفير..

فكم ممن قطعت عليه الطريق فبقي مفلساً، فالله العلم في مواسم العمل والبدار البدار قبل الفوات..

---

(١) سوانح وتأملات ص ٤٦.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢٣٥.
(٣) صفة الصفوة ٢/ ٣٧٨.

واستشهدوا العلم، واستدلوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد، فكأن قد حدا الحادي فلم يفهم صوته من واقع الندم»[١].

ليكن شعارنا العمل وعدونا التسويف..

لنكن مثل قول القائل..

بقيـة العُمـر عنـدي مـالهـا ثمـنٌ ... وإن غـداً ليـس محسـوبـاً مـن الـزمـن

يستـدرك المـرء فيهـا كـل فـائتـه ... مـن الـزمـان ويمحـو السـوء بـالحسـن

ونحن قد توسدنا الغفلة والتحفنا التسويف.. لنَهُبَّ من تلك الغفوة ونستيقظ من ذلك السبات..

لنستمع لوصية **محمد بن يوسف** ونطبقها ولو ليوم واحد في حياتنا!! بل لساعات من أيامنا!!

أوصى بقوله: إن استطعت أن لا يكون شيء أهم إليك من ساعتك فاعمل..

أخي الحبيب..

لا تغرك الصحة والقوة والشباب.. ولا تسير في ركب الحياة لاهياً ساهياً..

وتنسى وقفة الموت!! كم من صحيح سليم معافى سمعنا نعيه.. وكم من مريض سقيم طال أجله.. كم في القبور من الشباب والأطفال والرضع..

---

(١) صيد الخاطر ص ١٩٨.

لا تغتر بشبـــــاب نـــــاعــــم خظـــــل
فكـــم تقـــدم قبـــل الشيـــب شُبـــان[١]

نتشبث بهذه الدنيا ونتمسك بها.. لا نغادرها إلا مكلومين ولا نتركها إلا مُجبرين..

وقد دخل أناس على بعض الصالحين فقلبوا بصرهم في بيته فقالوا: إنا نرى بيتك بيت رجل مرتحل، فقال: لا أرتحل ولكن أطرد طرداً[٢].

ودخل رجل على أبي ذرّ فقال: يا أباذرٌ أين متاعكم؟ فقال: إن لنا بيتاً نتوجه إليه، فقال: إنه لابد لك من متاع مادمت هاهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا هاهنا[٣]..

في زمن تكالبت فيه المادة.. وتوسع الناس في الملهيات.. إضاعة للأوقات وتهاون عن الطاعات.. فرطنا في الكثير.. وما أبقينا إلا القليل..

كل امرىء يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله، وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك، وقس يومك بأمسك، وكف عن سيئاتك، وزد في حسناتك قبل أن تستوي مدة الأجل وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل[٤].

لنسمع **الثوري** وهو يحدثنا قال: رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة انتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته

(١) موارد الظمآن ٢/٢١.
(٢) جامع العلوم ص ٤٦٠.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٠.
(٤) أدب الدنيا والدين ص ١٢٣.

بشيء ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء ولا لأحدٍ عليَّ شيء . .

إذا كنـــت أعلـــم علمـــاً يقينـــا
بـــأن جميـــع حيـــاتي كســـاعـــة
فلـــم لا أكـــون ضنينـــاً بهـــا
واجعلهـــا في صـــلاحٍ وطـــاعـــة(١)

قال رجل لحاتم الأصم: ما تشتهي؟ قال: أشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: أليست الأيام كلها عافية؟

قال: إن عافية يومي أن لا أعصي الله فيه(٢).

وهذا من صلاح قلوبهم فإن من عرف الله لقيه سالماً، والويل كل الويل لمن ذهب عمره في الدنيا باطلا.

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟

لنتوقف لحظات معدودة ونقلب صحفة يوم أمس.. كيف أمضيناه؟ ماذا عملنا فيه؟

هذه أعمارنا . . وتلك أيامنا . .

إن كانت الأوقات ضائعة والنفوس ضعيفة . . فالعودة من قريب . .

وإن كانت الأيام مرصعة بتاج الطاعة والأعمال الصالحة . . فطوبى ثم طوبى . . رزقنا الله مما رزقك وأعاننا على طاعته . .

تمـــر الليـــالي والحـــوادث تنقضي
كـــأضغـــاث أحـــلام ونحـــن رقـــود

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٣٢.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ١٦٢.

وأعجب من ذا أنها كل ساعة
تجد بنا سيراً ونحن قعود[١]

عن ابن مسعود أنه كان يقول: إنكم في ممر من الليل والنهار، في آجال منقوصة وأعمالٍ محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شراً فيوشك أن يزرع ندامة، ولكل ذراعٍ مازرع[٢].

أخي الحبيب:

ماذا تزرع اليوم.. فهنا بذرك وغداً حصادك!! فانظر ما تزرع وما تحصد!!

قيل للحسن: هاهنا رجل لم نره جالساً إلى أحد، إنما هو أبداً خلف سارية وحده، فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني به، قال فمر به ذات يوم ومعهم الحسن، فأشاروا إليه فقالوا: ذاك الرجل الذي أخبرناك، فقال: امضوا حتى آتيه، فلما جاءوه، قال: يا عبدالله: أراك قد حُببت إليك العزلة. فما يمنعك من مخالطة الناس؟

قال: ما أشغلني عن الناس، قال: فيأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه، قال: ماأشغلني عن الحسن وعن الناس، قال له الحسن: فما الذي شغلك يرحمك الله عن الناس وعن الحسن؟ قال: إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسي عن الناس بالاستغفار للذنب والشكر لله على النعمة، فقال له الحسن: أنت يا عبدالله أفقه عندي من الحسن، الزم ما أنت عليه[٣].

---

(١) شذرات الذهب ٨/ ١٣٧.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٤٠٩، والفوائد ص ٤٠٩.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٤.

وندم يحيى بن معاذ فقال. . لست أبكي على نفسي إن ماتت إنما أبكي على حاجتي إن فاتت[١].

وماهي حاجته؟. . صلاة وصيام. . طاعة وعبادة. . ونحن نبكي على أنفسنا وعلى حاجتنا. . ولا نزال.

نروح ونغدو لحاجاتنا
وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته
وتبقى له حاجة ما بقي[٢]

تمر بنا ساعات طويلة لا نذكر الله فيها ولا نسبحه ولا نكبره ولا نستغفره. . لننظر إلى العابد معروف الكرخي. . فقد قص إنسانٌ شارب معروف الكرخي. . فلم يفتر من الذكر فقال: كيف أقص؟ قال: أنت تعمل وأنا أعمل[٣].

من أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه، فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يُشغلها بما ينفعها، شغلته بما يضره ولابد[٤].

لقد هاج الفراغ عليك شغلاً
وأسباب البلاء من الفراغ

قال أبو بكر الكتاني: كان رجل يحاسب نفسه، فحسب يوماً سنيه فوجدها ستين سنة، فحسب أيامها فوجدها واحداً وعشرين ألف يوم

---

(١) السير ١٣/ ١٥.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٥٣.
(٣) السير ٩/ ١٤١.
(٤) طريق الهجرتين ص ٢٧٠.

وخمسمائة يوم، فصرخ صرخة وخر مغشياً عليه، فلما أفاق، قال: ياويلتاه، أنا آتي ربي بواحد وعشرين ألف وخمسمائة ذنب؟!

يقول: هذا لو كان ذنب واحد في كل يوم؟ فكيف بذنوب كثيرة لا تحصى.

ثم قال: آه عليَّ عمرتُ دنياي وخربت أخراي، وعصيت مولاي، ثم لا أشتهي النقلة من العمران إلى الخراب؟ وكيف أشتهي النقلة إلى دار الكتاب والحساب والعتاب والعذاب بلا عمل ولا ثواب.. وأنشد:

منـــازل دنيـــاك شيـــدتهـــا
وخــــربــــت دارك في الآخــــرة
أصبحـــت تكـــرههـــا للخـــراب
وتـــرغـــب في دارك العـــامـــرة[1]

أخي.. أين نحن من هؤلاء...؟!

قال ابن السماك: أوصاني أخي داود الطائي بوصية: انظر لا يراك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك من حيث أمرك، واستحيه في قربه وقدرته عليك[2].

---

(١) العاقبة ص ٣١.

(٢) صفة الصفوة ٣/١٤٢.

خصائص الوقت

للوقت خصائص يتميز بها، يجب علينا أن ندركها حق إدراكها، وأن نتعامل معه على ضوئها منها:

١ ـ سرعة انقضائه..

فهو يمر مر السحاب، ويجري جري الريح، سواء كان زمن مسرة وفرح، أم كان زمن اكتئاب وترح، وإن كانت أيام السرور تمر أسرع، وأيام الهموم تسير ببطء وتثاقل، لا في الحقيقة ولكن في شعور صاحبها.

ومهما طال عمر الإنسان في هذه الدنيا فهو قصير، مادام الموت هو نهاية كل حي.

إذا كـــان آخـــر العمـــر مـــوتـــاً
فســــــواء قصيرة والطــــــويــــــل

وعند الموت تنكمش الأعوام والعقود التي عاشها الإنسان، حتى لكأنها لحظات مرت كالبرق الخاطف.

٢ ـ إن ما مضى منه لا يعود ولا يُعوض..

وهذه خصيصة أخرى من خصائص الوقت، فكل يوم يمضي، وكل ساعة تنقضي، وكل لحظة تمر، ليس في الإمكان استعادتها، وبالتالي لا يمكن تعويضها، وهذا ما عبر عنه الحسن البصري بقوله البليغ: مامن يوم ينشق فجره إلا وينادي: ياابن آدم.. أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة.

٣ ـ إنه أنفس ما يملك الإنسان.

لما كان الوقت سريع الانقضاء، وكان مامضى منه لا يرجع، ولا يعوض بشيء كان الوقت أنفس وأثمن ما يملك الإنسان، وترجع نفاسة الوقت إلى أنه وعاءٌ لكل عملٍ وكل نتاج، فهو في الواقع رأس المال الحقيقي للإنسان فرداً أو مجتمعاً.

إن الوقت ليس من ذهب فقط كما يقول المثل الشائع، بل هو أغلى في حقيقة الأمر من الذهب واللؤلؤ والماس، ومن كل جوهر نفيس، وحجر كريم[١].

مامضى من الأعمار ماقيمته وأهميته لننظر في ذلك بعين المحاسب والناقد لنفسه..

قال الحجاج بن أبي عيينة: كان جابر بن زيد يأتينا في مصلانا، فأتانا ذات يوم عليه نعلان خلقان، فقال: مضى من عمري ستون سنة، نعلاي هاتان أحب إليَّ مما مضى. إلا يك خيراً قدمته[٢].

يـــانفـــس كفـــي عـــن العصيـــان واكتسبـــي
فعـــــلاً جميـــــلاً لعـــــل الله يـــــرحمنـــــي[٣]

أخي الحبيب:

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمرٌ، وله عليه فيه نهيٌ، وله فيه

---

(١) الوقت للقرضاوي باختصار ص١٠ ـ ١١.
(٢) حلية الأولياء ٣٠/ ٨٨.
(٣) موارد الظمآن ٣/ ٤٩٣.

نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قدم لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه فيه وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته.

وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر ولا وقوف في الطريق ألبتة، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: ٣٧][1].

كان **عبدالله بن وهب** قد قسم دهره أثلاثاً، ثلثاً في الرباط، وثلثاً يعلم الناس وثلثاً في الحج[2].

هذا **حماد بن سلمة** يحدثنا عمن حفظ وقته واستثمار ساعته في طاعة الله.. قال عن **سليمان التيمي**: ما أتيناه في ساعة يطاع الله عز وجل فيها إلا وجدناه مطيعاً، فإن كان في ساعة صلاة وجدناه مصلياً، فإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئاً أو عائداً مريضاً أو مشيعاً لجنازة أو قاعداً يسبح في المسجد، فكنا نرى أنه لا يحسن أن يعصي الله[3].

أخي الكريم:

إن إضاعة الوقت أشد من الموت لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله

---

(١) الفوائد ص ٢٤٩.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٠٥.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٩٧.

والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها[١].

ولذا يجب على المسلم أن يحاسب نفسه في كل دقيقة ويأخذ بنصيب من قول مسروق: إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها فيذكر فيها ذنوبه فيستغفر منها[٢].

أخي الحبيب:

حالنا اليوم حال من اشتكى أمره إلى الحسن فقال: سبقنا القوم على خيلٍ دهم ونحن على حمر معقرة فقال: إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم[٣].

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا﴾ [فاطر: ٣٧] لم يجدوا للسؤال جوابا..

فقد قطع الله الأعذار، حيث أعطى كل مكلف من العمر ما يتسع لعمل ما كلف به، ويذكره إذا غفل عنه، وبخاصة من عاش من العمر سنوات طويلة ففي هذا القدر من السنين ما يكفي لأن ينتبه الغافل، ويؤوب الشارد، ويتوب العاصي..

مامضى من الدنيا أحلام.. كنائم رأى مسيرة حياته في لمح بصر ثم استيقظ.. ذهبت الأيام بآلامها وآمالها وأحلامها.. بشدتها وقسوتها.. ولكن بقي الحساب.

قال بلال بن سعد رحمه الله: يقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا،

---

(١) الفوائد ص ٤٥.

(٢) الزهد للإمام أحمد ص ٤٨٥.

(٣) الفوائد ص ٥٧.

فيقال له: لِـمَ؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحاً، فيقال: اعمل فيقول سوف أعمل، فلا يُحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله تعالى ولا يؤخر عمل الدنيا[١].

أخي الحبيب:

دعوة إلى العودة وإلى التوبة.. ولنسمع عن هذه الغنيمة قال أحمد بن عاصم الأنطاكي: هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك يُغفر لك ما مضى..[٢].

إذا كنـــــت أعلـــــم يقينـــــاً
بـــأن جميـــع حيـــاتي كســـاعـــة
فلـــم لا أكـــون ضنينـــاً بهـــا
وأجعلهـــا في صـــلاح وطـــاعـــة[٣]

أخي المسلم..

رأس مالك في هذه الدنيا دقائق وأيام.. ماذا قدمت في هذه الأوقات وماذا سجلت في تلك الصحائف.. هل تسرُك إذا نظرت فيها يوم القيامة أم تسؤوك.

لا تلهك الأماني فإن لحظات مرت لن تعود.. وساعات مضت لن ترجع..

---

(١) العاقبة ص ٩١.
(٢) الزهد للبيهقي ص ١٩٩.
(٣) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٢.

جعلني الله وإياك ممن طال عمره وحسن عمله.. قد أعد للسؤال جواباً وللجواب صواباً.. وختم لنا بجنات عرضها السموات والأرض.. ممن ينادون في ذلك اليوم العظيم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩].

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

٢ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.

٣ ـ إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلمان، ط١، ١٤٠٦هـ.

٤ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير مطبعة المتوسط.

٥ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٦ ـ تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث.

٧ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥، ١٤٠٠هـ.

٨ ـ الجواب الكافي، ابن قيم الجوزية ـ تحقيق أبي حذيفة دار الكتاب العربي ط، ١٤٠٧هـ.

٩ ـ حاشية ثلاثة الأصول، للشيخ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم.

١٠ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

١١ ـ ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

١٢ ـ ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٤٠٠هـ.

١٣ ـ ديوان الشافعي ـ دار الجيل ـ بيروت ط٣، ١٣٩٢هـ.

١٤ ـ كتاب الزهد الكبير للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار العلوم ط٣ ١٤٠٣هـ.

١٥ ـ الزهد للحسن البصري تحقيق د. محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.

١٦ ـ كتاب الزهد للإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتاب العربي ط١، ١٤٠٦هـ.

١٧ ـ سوانح وتأملات في قيمة الزمن، خلدون الأحدب، دار الوفاء ط٣ ١٤١٠هـ.

١٨ ـ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ حسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

١٩ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

٢٠ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ط ١٤٠٤هـ.

٢١ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.

٢٢ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي ط٢، ١٤٠٧هـ.

٢٣ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية ودار المعرفة، بيروت.

٢٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب، دار الكتاب العربي.

٢٥ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة، الإمام أبي محمد عبدالحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٦ـ الفوائد لابن قيم الجوزية، دار النفائس.

٢٧ ـ في ظلال القرآن سيد قطب ط١٤٠٠هـ دار الشروق.

٢٨ ـ مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، حققه ونشره جميرا. بلمي، مكتبة ابن تيمية.

٢٩ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ.

٣٠ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣، ١٤٠٣هـ.

٣١ ـ الوقت في حياة المسلم، د يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٣١، ١٤٠٥هـ.

* * *

أحصاه الله ونسوه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

أقدم للقاريء الكريم الجزء السادس من سلسلة «أين نحن من هؤلاء: !» تحت عنوان: «أحصاه الله ونسوه» الذي يتحدث عن آفات اللسان ومزالقه.

وقد بدأت بمداخل عن اللسان وعظم أمره، ثم آفة الغيبة وأتبعتها النميمة والكذب والاستهزاء.

وهي أمراض خبيثةٌ تسري في جسد الأمة فتحصد الحسنات وتجلب السيئات وتضيع الأوقات.. بزلة واحدة تهدم الأسر وتفرق الأحبة وتقطع الأرحام، وبكلمة واحدة ربما يهوى بها صاحبها في النار سبعين خريفاً.

وقد ساعد على تفشي هذه الآفات في المجتمع قلة الوازع الديني وتيسير أسباب المعيشة وكثرة أوقات الفراغ، كما أن لسهولة الاتصالات الهاتفية سهمٌ في ذلك.

حفظ الله ألسنتنا ونزَّه أسماعنا عن كل ما يعيب.

وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

إن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجُرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان(١).

فهذا المخلوق الصغير يُعبر الإنسان عن بُغيته ويفصح عن مشاعره، به يطلب حاجته ويدافع عن نفسه ويعبر عن مكنون فؤاده، يحادث جليسه ويآنس رفيقه.. به السقطة والدنو وبه تظهر الهمة والعلو.

واللسان: رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحدّ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلقه عذبه اللسان وأهمله مُرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفاء جرف هار إلى أن يضطره إلى دار البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله.

وعِلمُ ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان(٢).

---

(١) الإحياء ٣/١١٧.
(٢) الإحياء ٣/١١٧.

إذا تُرك له العنان يصول ويجول . . يتحدث عن فلان ويغتاب فلان . . يستهزىء بهذا ويشتم هذا .

وقلةٌ هم الذين أمسكوا بعنان ألسنتهم ووقفوا به عن مالا يعنيهم .

فحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سَكَتَّ عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال .

وينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام : إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة ، فالسنة الإمساك عنه ، لأنه قد يَنجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وذلك كثير في العادة ، والسلامة لا يَعْدِلُها شيء[(١)] .

وفي اللسان آفتان عظيمتان: إن خلص من أحدهما لم يخلص من الأخرى : آفة الكلام وآفة السكوت .

وقد يكون كل منهما أعظم من الأخرى في وقتها ، **فالساكت** عن الحق شيطان أخرس ، عاص لله ، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه ، **والمتكلم** بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق مُنحرف في كلامه وسكوته ، فهم بين هذين النوعين ، وأهل الوسط ـ وهم أهل الصراط المستقيم ـ كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة ، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعه ، فضلاً عن أن تضره في آخرته ، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به[(٢)] .

---

(١) رياض الصالحين ص ٤١٤ .

(٢) الجواب الكافي ص ١٧٣ .

وكثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان، وإيذاء الخلق وهتك العورات، فهذه آفات وهي سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان. والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب. ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة فذلك عظمت فضيلته. هذا مع مافيه من جمع الهمم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة[١].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية موضحاً حال الكثيرين: ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يُلقي لها بالاً، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول[٢].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٢١.

(٢) الجواب الكافي ص ١٧١.

آفات اللسان

آفات اللسان كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت أو التحرز في الكلام.

ومن آفات اللسان ما يلي:

الآفة الأولى:

الكلام فيما لا يعني.. اعلم أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأن من ترك ذكر الله واشتغل فيما لا يعني كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها بدرة. وهذا خسران العمر.

الآفة الثانية:

الخوض في الباطل.. وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق، وقريب من ذلك الجدال والمراء، وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه وإفحامه. والباعث على ذلك الترفع، فينبغي للإنسان أن ينكر المنكر من القول. ويبين الصواب، فإن قُبل منه وإلا ترك المماراة، هذا إذا كان معلقاً بالدين، فإما إن كان في أمور الدنيا فلا وجه للمجادلة فيه.

الآفة الثالثة:

التقعر في الكلام.. وذلك يكون بالتشدق، وتكلف السجع.

الآفة الرابعة:

الفحش والسب والبذاء.

الآفة الخامسة:

المزاح.. أما اليسير فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً.

الآفة السادسة:

السخرية والاستهزاء.. ومعنى السخرية الاحتقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه.

الآفة السابعة:

إفشاء السر وإخلاف الوعد والكذب في القول واليمين، وكل ذلك منهي عنه، إلا ما رُخص فيه من الكذب لزوجته وفي الحرب فإن ذلك يباح.

وضابطه: أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً، وإن كان المقصود واجباً فهو واجب، فينبغي أن يتحرز عن الكذب مهما أمكن.

الآفة الثامنة:

الغيبة.. وهي ذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواءً كان نقصاً في بدنه أو في نسبه أو في ثوبه[1].

الآفة التاسعة:

النميمة.. وهي إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه..

* وهناك آفات أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.. وقد حذر الله ـ جل وعلا ـ من تلك الآفات وأخبر أنها من الأعمال التي تُحصى على ابن آدم ويحاسب عليها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق: ١٨].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ١٦٥ ومابعدها باختصار.

وقال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن الأحاديث ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» [رواه البخاري ومسلم].

وعنه ﷺ أنه قال: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**» [رواه الترمذي وابن ماجه].

وحين سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل النار؟ قال: «**الفم والفرج**» [رواه الترمذي وابن ماجة].

وعندما سأل معاذ بن جبل رسول الله ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، أخبره النبي ﷺ برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «**كف عليك هذا**»، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكب الناس على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم**» [رواه الترمذي].

وأنظر أخي الكريم إلى عظم الأمر وخطورة الكلمة فقد قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يَزِلُّ بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**» [متفق عليه].

وهذا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ آخذاً بطرف لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد»(١) *.

---

(١) صفة الصفوة ١/٢٥٣.

* رواه مالك وقال الشيخ الألباني: إسناده صحيح.

والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره. والله عند لسان كل قائل: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[١].

وحين سُئل الحسن يوماً: كيف أصبحت يا أبا سعيد؟ قال: والله مامن انكسرت به سفينة في لجج البحر بأعظم مني مصيبة.

قيل: ولم ذاك؟ لأني من ذنوبي على يقين. ومن طاعتي وقبول عملي على وجل، لا أدري أُقبلت مني أم ضرب بها وجهي.

فقيل له: وأنت تقول ذلك يا أبا سعيد؟ فقال: ولم لا أقول ذلك، ما الذي يؤمنني من أن يكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد نظر إليَّ وأنا على بعض هناتي نظرة مقتني بها، فأغلق عني باب التوبة، وحال بيني وبين المغفرة، فأنا أعمل في غير معتمل[٢].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: مامن شيء يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليه حتى أنينه في مرضه، فلما مرض الإمام أحمد فقيل له: إن طاووساً كان يكره أنين المرض، فتركه[٣].

والكثير الآن لا يُعد الكلام من العمل وما علم أنه يحصى عليه كل لفظ وقول وأنه غداً محاسب على كل كلمة وحديث.

قال عمر بن عبدالعزيز: من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه[٤].

---

(١) الجواب الكافي ص ١٧٣.
(٢) الحسن البصري لابن الجوزي ص ١٢.
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٢.
(٤) البداوية والنهاية ٩/ ٢٢٥.

وأكد ذلك الإمام **الأوزاعي** بقوله: من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله قلَّ كلامه[١].

ولكثرة آفات اللسان والتهاون فيها وإطلاق الألسن في كل مكان وحديث.. قال **الحسن بن صالح**: فتشنا الورع فلم نجده في شيء أقل منه في اللسان[٢].

وغالب آفة اللسان أذى للمسلم ونقص في قدره ورمي له بالتحقير والتصغير..

والفضيل بن عياض يقول في ذلك: والله ما يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف تؤذي مسلماً[٣].

وفي حديث صادق ونصائح غالية هذا **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ يقول: خمسٌ لهن أحب إليّ من الدهم الموقوفة.. لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يقلبك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تُحب أن يذكرك به، واعفه بما تُحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تُحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاجترام[٤].

---

(١) السير ٧/ ١١٧.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٥٤، وحلية الأولياء ٧/ ٣٢.
(٣) السير ٨/ ٤٢٧.
(٤) الإحياء ٣/ ١٢٢، وأمراض النفوس ص ٣٠.

لعمـــرك مــا للمـــرء كــالـــربِّ حـــافــظٌ
ولا مثـــل عَقْـــلِ المـــرء للمـــرءِ واعـــظٌ
لســـانُــك لا يُلقيــكَ في الغَـــيِّ لفظُـــهُ
فـــإنَّــك مـــأخـــوذ بمـــا أنـــتَ لافـــظٌ[١]

قال **عطاء بن رباح**: إن من كان قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لابد منها، أتنكرون أنَّ عليكم حافظين، كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته؟![٢]

* هذه حالهم في ذلك الزمن وهم أهل الطاعة والذكر، مجالسهم خالية من الغيبة والنميمة والكذب والاستهزاء بل كانوا يطرزون مجالسهم بالبكاء والخشوع وإظهار الجزع.. وكان عامة كلامهم مثل كلام أحدهم وهو ابن سيرين.. سبحان الله العظيم. سبحان الله وبحمده.

هذا نموذج لمجالسهم العامرة بالخير، وزيادة في الحرص كان **عبدالله بن الخيار** يقول في مجلسه: اللهم سلمنا، وسلم المؤمنين مِّنا[٣].

وكان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يقول: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به[٤].

---

(١) الصمت ص ٣٠٥.
(٢) السير ٥/ ٨٦، والإحياء: ٣/ ١٢٣.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٩.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٦١.

وللخوف من السقوط في النار . . ومن خوف شدة الحساب غداً.

أخي:

تعهد نفسك في ثلاثة مواضع: إذا عملت فاذكر نظر الله تعالى عليك. وإذا تكلمت فانظر سمع الله إليك، وإذا سكت فانظر علم الله فيك[١].

قال **سلمة بن دينار**: ينبغي للمؤمن أن يكون أشد حفظاً للسانه منه لموضع قدمه[٢].

ولا يكون هذا الحفظ سهلاً إلا بمراقبة الله - جل وعلا - في كل كلمة تخرج وفي كل حركة تظهر . . والاقتصاد في الكلام من علامات التيقظ والتنبه.

قال **ابن مسعود**: إياكم وفضول الكلام حسب امريء ما بلغ حاجته[٣].

وحتى فضول الكلام الذي هو دون الضرر فإنه حسرات يوم القيامة لأن أزمنةً تضيع في ما لافائدة فيه حسرة وندامة . .

قال **بعض السلف** . . يُعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره، فكل ساعة لم يذكر الله فيها تتقطع نفسه عليها حسرات . .

من هنا يُعلم أن ماليس بخير من الكلام فالسكوت عنه أفضل من التكلم به، اللهم إلا ما تدعو إليه الحاجة مما لابُد منه[٤].

ومـــــا أدري وإن أملـــــتُ عمـــــراً
لعلي حين أصبـــــح لســـــت أُمسي

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٧٥.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٥٧.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ١٦١.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٦١.

ألم تــــــر أن كـــــل صبـــــاح يـــــوم
وعمـــــرك فيـــــه أقصر منـــــه أمـــــس[(١)]

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يالسان قل خيراً تغنم، أو اسكت عن شرٍّ تسلم[(٢)].

فإن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء، وإن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه من شيء، يأتي الرجل ولا يملك له ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، فيقسم له بالله إنك لذيت ولذيت، فيرجع وما جُنيَ من حاجته بشيء ويسخط الله عليه[(٣)].

فهذا الرجل عاد وقد أسخط الله جل وعلا بسبب لسانه الذي لم يتحفظ منه بل أطلقه بالأيمان الكاذبة.. هذا موقف واحد.. أما من تربع في مجلس ساعات طوال لم يسلم المسلمون من لسانه غيبة ونميمة وإفشاء سر وإشاعة فاحشة فإنَّ ذلك محاسبٌ عليه.. لا يرى عيباً إلا أشاعه ولا يسمع حديثاً إلا تكلم به.

قال عبدالله بن مسعود: كفى بالمرء إثماً، أن يحدث بكل ماسمع[(٤)]*.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٦٦.
(٢) كتاب الصمت ص ٦٦.
(٣) الفوائد ص ١٩٣.
(٤) تذكرة الحفاظ ص ٣.
* روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع».

أخي الكريم:

ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال لتكون من المحسنين:

أحدهما: إنك إن لم تنفعه فلا تضره.

والثانية: إنك إن لم تسره، فلا تغمه.

والثالثة: إن لم تمدحه، فلا تذمه[١].

فإن أكثر الناس خطايا أفرغهم لذكر خطايا الناس كما قال ذلك محمد بن سيرين[٢].

فإن عبت قوماً بالذي فيك مِثلُهُ ... فكيف يعيبُ النَّاسَ مَنْ هو أعورُ

وإن عبت قوماً بالذي ليس فيهم ... فذلك عندالله والناس أكبرُ[٣]

إن اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فإن اتباع الهوى يُعمي عن الحق معرفةً وقصداً، وطول الأمل يُنسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها[٤].

فمن طال أمله قَلَّ عمله ومن نسي الآخرة لم يُحاسب نفسه..

مجالسنا الطويلة بماذا نعمرها وبأي أمر نُجمِّلها وهي مجالس طويلة بعضها يمتد لساعات طوال..

قال الزهري: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب[٥]. وإذا لم تكن

---

(١) تنبيهح الغافلين ١/١٧٨.
(٢) كتاب الصمت ص ١٠٤.
(٣) منهاج القاصدين ص ١٨٧.
(٤) الفوائد ص ١٣٠.
(٥) الإحياء ٣/٣٦٦.

مجالس خير وذكر فإن الشيطان يحرك الألسن ويشفي الصدور . . وقد ينزل إلى شهوات البطن والفرج، وقد قال **الأحنف بن قيس** يحكي صفات الرجولة الحقة: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أُبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه[١].

ولو خطر في بال أحدنا أن يُسجل ما يتحدث به في مجلس واحد . . لرأى كم من الأوراق يحتاج . . ولو حاسب نفسه لوجد الكثير من الزلات والسقطات.

وقد حدد **الربيع بن خيثم** الكلام بأنه لا خير فيه إلا في تسع: تهليل وتكبير، وتسبيح وتحميد، وسؤالك من الخير. وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن[٢].

أخي الكريم:

هل وقفنا بألسنتنا عند هذه الأمور التسعة، فأضحى التهليل والتكبير ملازماً لنا . . وأصبحنا والقرآن ربيع قلوبنا؟!

أم أن نصيب الدنيا في ألسنتنا هو الغالب وذكر الله وقراءة القرآن هو النادر . . ونحن في منحدر من الدنيا وإقبال على الآخرة . .

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما
منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدٍ[٣]

---

(١) السير ٤/ ٩٤.
(٢) كتاب الصمت ص ٨٤.
(٣) عقود اللؤلؤ ص ٣٦.

عن سفيان قال: طول الصمت مفتاح العبادة[١].

فإن في طول الصمت تفكُّراً وكفًّا عما لا ينبغي.. واستفادةً من الأوقات.. ومحاسبةً للزلات..

قال الفضيل بن عياض: ما حجٌ ولا رباطٌ ولا جهادٌ أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يهُمك لسانك، أصبحت في همٍّ شديد[٢].

همٌ وهو يتعاهد لسانه ويحافظ على كلماته!!.

فإن اللفظات ـ حفظها بأن لا يُخرج لفظة ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر.. هل فيها ربح وفائدة أم لا؟

فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر.. هل تفوت بها كلمة هي أربح منها..؟ فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على مافي القلب، فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على مافي القلب، شاء صاحبه أم أبى!!

قال يحيى بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها.. فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلوٌ وحامض، وعذبٌ وأجاج، وغير ذلك. ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه.. أي كما تطعم بلسانك طعم مافي القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته، كذلك تطعم مافي قلب الرجل من لسانه، فتذوق مافي قلبه من لسانه كما تذوق ما في تلك القدور بلسانك[٣].

---

(١) كتاب الصمت ص ٢٢٢.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ١٦٢.

(٣) الجواب الكافي ص ١٧٠.

والكلام إذا كان دفاعاً عن خير ودعوة إلى علم وقراءة للقرآن وذكر لله فذلك. فأكثر منه فقد سلكت الجادة . . فإنه يسُرك يوم القيامة إذا نظرت في صحيفتك . . وأخذت كتابك بيمينك.

قيل لإياس بن معاوية: إنك تكثر الكلام؟ قال: أفبصواب أتكلم أم بخطأ؟

قالوا: بصواب، قال: فالإكثار من الصواب أفضل[١].

أخي الحبيب:

اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يُقدر على رد شوارده، فَحُقٌّ على العاقل أن يحترز من زلله، بالإمساك عنه أو بالإقلال منه[٢].

هنا موقفٌ أبان فيه اللسان عن حقيقة الرجل ولو سكت لجُهِلَ أمره . . فقد حُكي عن أبي يوسف الفقيه أن رجلاً كان يجلس إليه، فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تسأل؟

قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غربت الشمس، قال: فإن لم تغرب إلى نصف الليل؟! فتبسم أبو يوسف ـ رحمه الله ـ وتمثل ببيتين من الشعر:

عجبتُ لإزراء العييِّ بنفسه
وصمت الذي قد كان بالقول أعلما

(١) كتاب الصمت ص ٣٠٣.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٥.

وفي الصمـــت سترٌ للعـــي وإنمـــا
صحيفـــةُ لُـــبِّ المـــرء أن يتكلمـــا[١]

* أقام المنصور بن المعتز: لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة، وقيل: ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلما فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء[٢].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

قيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنيني[٣].

وحُكي أن بعض الحكماء رأى رجلاً يُكثر الكلام ويُقل السكوت، فقال: إن الله ـ تعالى ـ إنما خلق لك أذنين ولساناً واحداً، ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به[٤].

والكثير الآن تجاوز هذا الضعف.. يهذر بما يعلم وما لا يعلم.. لا يُتحدث في علمٍ إلا له فيه قول.. ولا يمر اسم فلان من الناس إلا لمزه وغمزه.

وقد حذر الجنيد من ذلك بقوله: أقل مافي الكلام سقوط هيبة الرب ـ جل جلاله ـ من القلب. والقلب إذا عَرى من الهيبة عَرى من الإيمان[٥].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٦.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢١.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢١.
(٤) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٨.
(٥) السير ١٤/ ٦٨.

ولكي يسلم المُتحدث من الزلل في حديثه والنقص في مقاله فإن عليه أن يراعي **شروطاً أربعة:**

الشرط الأول: أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر.

الشرط الثاني: أن يأتي به في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته.

الشرط الثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته.

الشرط الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به[١].

إذا توافرت هذه الشروط فعليك بالحديث وإلا فإن الصمت يجمع للرجل خصلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه[٢].

ومن يَقْدِرُ الآن على الصمت ونحن في زمن يُخيل للسامع أن الإنسان خلق بلسان دون أذن.. فالكل يتحدث.. ترتفع الأصوات في المجالس ويكثر اللغط ولا تعلم من يُحدث منْ؟! ومن يستمع لمنْ؟!.

ترى اثنين يتحدثان بصوت مرتفع.. وتبحث عن المستمع فلا ترى أحداً.

الكل يتحدث.. ولكن أين المستمع؟!

هذا **عبدالله بن أبي زكريا** يقول: عالجت الصمت ثنتي عشرة سنة، فما بلغت منه ماكنت أرجو[٣].

وقال **مورق العجلي**: أمرٌ أنا أطلبه منذ عشر سنين لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه، قالوا: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني[٤].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٦.

(٢) كتاب الصمت ٦٩، الإحياء: ٣/ ١٢٠.

(٣) كتاب الصمت ٣٠٣.

(٤) كتاب الصمت ص ٩٧، وجامع العلوم والحكم ص ١٣٨، والإحياء: ٣/ ١٢٢.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

قومٌ جاهدوا أنفسهم وحاولوا سنوات طويلة.. أفلا نفكر ولو أيام معدودة في الصمت عما لا يعنينا..؟! ولو لساعات فقط؟!

ولكن الأمر كما قال **محمد بن واسع** لمالك ين دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم(١).

مع أنه مامن أحد من الناس يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله(٢).

يصـاب الفتـى مـن عثـرة بلسـانـه
وليـس يصـاب المـرء مـن عثـرة الـرِجـلِ
فعثـرتـه بـالقـول تُـذهـب رأسـه
وعثـرة بـالـرِجـل تبرى على مهـل(٣)

انظر - أخي - إلى قول **الأوزاعي**: من أكثر من ذكر الموت كفاه اليسير ومن علم أن منطقه من عمله قل كلامه..

ومن قل كلامه فيما لا فائدة فيه.. استكثر مما ينفع في الآخرة.. وحدد **محمد بن عجلان** الكلام بأربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتسأل عن علم فتخبر به، أو تكلم فيما يعنيك من أمر دنياك(٤).

---

(١) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٣) شذرات الذهب ٢/ ١٠٦.
(٤) جامع العلوم والحكم ص ١٦٢.

فإنه حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه، مقبلاً على شأنه[١].

فالأمر كما قال **الحسن**: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه[٢].

فإن من المحافظة على دين المرء المحافظة على اللسان.. قال رجل **لحامد اللفاف**: أوصيني، قال: اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات، قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك طلب الدنيا إلا مما لابد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لابد منه؟ وترك مخالطة الناس إلا فيما لابد منه[٣].

وسبقه **عمر بن عبدالعزيز** برسالة بعث بها: أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه[٤].

أخي الحبيب:

من منا الآن يعد كلامه.. ويقف دون زلاته.. لنعد لحظات نسعد فيها بسماع حديث السلف.. نتربى في مدارسهم ونسير على أثرهم..

قال **الفضيل**: أعرف من يعدّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة[٥][٦].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٣) الإحياء ٤/ ٥٨.
(٤) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٥) أعرف الآن من يُعدّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة، وقد توفي رحمه الله قريبًا.
(٦) صيد الخاطر ص ٦١٩.

وربما نحاول في مجلس أن نعد كلامنا.. فلا نستطيع.. ما بالك إذا كانت أعواماً وشهوراً!!

صحب بعضهم الربيع بن خيثم عشرين عاماً.. فقال: ما سمعت منه كلمة تعاب[١].

استر العـــي مـــا استطعـــت بصمـــت
إن في الصمـــت راحـــةً للصمـــوت
واجعـــل الصمـــت إن عييـــت جـــواباً
رب قـــول جـــوابـــه في السكـــوت[٢]

وحتى في السكوت ربما يلحقك مذمة.. ويتبعك ملامة ولكن عليك - أخي الحبيب - بقول أبي الدرداء: أدركت الناس ورقاً ولا شوك فيه، فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، إن نقدتهم نقدوك، وإن تركتهم لا يتركوك، قالوا: فكيف نصنع؟ قال: تقرضهم من عرضك ليوم فقرك[٣].

فأقرض ياأخي من عرضك ليوم فقرك.. واعلم أنها حسنات تُجمع لك تراها يوم القيامة مثل الجبال.. يَسُرُّكَ مقَدَمُها في ذلك اليوم العصيب.

قال رباح القيس: قال لي عتبة (الغلام): يا رباح: إن كنت كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمت، فبئس الناظر لها أنا، يا رباح.. إن لي موقفاً تغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول[٤].

---

(١) السير ٤/٢٥٩.
(٢) كتاب الصمت ص ٣٠٠.
(٣) صفة الصفوة ١/٦٣٨، حلية الأولياء: ١/٢١٨.
(٤) صفة الصفوة ٣/٣٧٢.

وهو موقف يوم يشيب فيه الولدان.. حسابٌ ومنصرفان.. إما إلى الجنة أو إلى النار ولهذا الموقف قال **أبو حازم**: أنظر الذي تحب أن يكون معك في الآخرة، فقدمه اليوم، وانظر الذي تكره أن يكون معك ثم، فاتركه اليوم(١).

أخي: يكفي من طول بعض المجالس قليلٌ من الوقت.. فإن طال المجلس.. انتهى حديث السلام والسؤال.. وبدأت آفات اللسان.. فاحفظ أمرك وحاسب نفسك.

لقـــاء النـــاس لي يفيـــد شيئـــاً
ســوى الهـــذيـــان مـــن قيـــل وقـــال
فـــأقلـــل مـــن لقـــاء النـــاس إلا
لأخـــذ العلـــم أو إصـــلاح حـــال(٢)

قال ابن **الحسن بن بشار**: منذ ثلاثين سنة ما تكلمت بكلمة أحتاج أن أعتذر منها.

* لهم باع في الحديث وفي تسيُد المجالس لو أرادوا ولكنهم عفّوا وحفظوا ألسنتهم. يخافون يوماً يرجعون فيه إلى الله.

قال **عمر بن عبدالعزيز**: إنه ليمنعني من كثير من الكلام، مخافة المباهاة(٣).

والإنسان لا يخلو من محادثة الكثير ممن تتفاوت عقولهم وتختلف

---

(١) شرح الصدور ص ٢١.
(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٢٨٣.
(٣) كتاب الصمت ص ٨٨.

مداركهم، وتتلون طباعهم ووجه وهب بن منبه لهذا الأمر بقوله: دع المراء والجدل، فإنه لن يعجز أحد رجلين، رجل هو أعلم منك، فكيف تُعادي وتُجادل من هو أعلم منك؟.

ورجلٌ أنت أعلم منه، فكيف تُعادي وتجادل من أنت أعلم منه، ولا يطيعك[١].

وخيرٌ للمرء إن أراد المحافظة على دينه من النقص وعلى كرامته من الخدش أن يلزم الصمت أو يقول خيراً.

ولا خير في الحياة كما قال **سعيد بن عبدالعزيز**: إلا لأحد رجلين: صموت واع، وناطق عارف[٢].

أخي: ألا ترى معي أن:

الصمت أزين بالفتى
من منطقٍ في غير حينه
والصدق أجمل بالفتى
في القول عندي من يمينه
وعلى الفتى بوقاره
سمت تلوح على جبينه

جعلني الله وإياك ممن إذا تكلم نفع وكان حديثاً في موازين أعماله، وإن سكت كان خيراً له.

---

(١) السير ٤/٥٤٩.
(٢) السير ٨/٣٦.

قال بشر بن منصور كنا عند أيوب السختياني فغلطنا وتكلمنا، فقال لنا: كفوا.. لو أردت أن أخبركم بكل شيءٍ تكلمت به اليوم لفعلت(١).

وحديثهم إن تحدثوا فهي كلمات خير.. موزونة معلومة.. لا لغط فيهاولا مُنكر.

حدث أبو حيان التيمي عن أبيه قال: رأيت ابنة الربيع بن خثيم أتته فقالت: يا أبتاه، أذهب ألعب؟ قال: يا بنيتي، اذهبي قولي خيراً(٢).

وكل ذلك خوفاً من أن تسجل كلمةٌ عليه ألا وهي.. الأمر باللعب.. وهو يعلم أنها ما خلقت لهذا..

ووالله إن حفظ اللسان من المجاهدة والمكابرة.. قال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم(٣).

وانظر ـ يا أخي ـ إلى أحوال الناس في البيع والشراء والأخذ والعطاء.. ربما يجادل الواحد منهم وقتاً طويلاً في سبيل دُريهمات، إن لم يكن فيها شيء من ضياع الوقت وارتفاع الأصوات فإن فيها من رداءة الخُلق وشح الأنفس الشيء الكثير.

قال شداد بن أوس يوماً: هاتوا السفرة نعبث بها، فأخذوها عليه، فقال: أي بني أخي: إني ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله ﷺ إلا كلمة مزمومة مخطومة قبل هذه(٤).

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٨.
(٢) كتاب الصمت ص ٢١٨.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٠.
(٤) حلية الأولياء ١/ ٢٦٥، الإحياء: ٣/ ٣٣٦.

وأكثر ألسُن الناس اليوم ليس لها زمام ولا خطام.. ولو أن هذه الألسن تسير في الشوارع والطرقات لضاقت بها الأرض ولما وجدنا موطىء قدم من كثرتها.

رأى **إبراهيم بن أدهم** رجلاً يُحدث من كلام الدنيا، فوقف عليه وقال له: كلامك هذا ترجو فيه؟ قال: لا، قال: فتأمن عليه؟ قال: لا، قال: فما تصنع بشيء لا ترجو فيه ولا تأمن عليه[1].

تعاهد لسانك إن اللسان ... سريع إلى المرء في قتله

وهذا اللسان بريد الفؤاد ... يدل الرجال على عقله

قال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: أنصف أُذنيك من فيك. فإنما جعل للإنسان أذنان، وفم واحد، لتسمع أكثر مما تقول..

فالزم الصمت، فإنه يكسبك صنوف المحبة، ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثواب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار[2].

قال رجل من بني تيم: جالست **الربيع بن خثيم**: عشر سنوات فما سمعته يسأل عن شيء من أمور الدنيا إلا مرتين، قال مرةً: والدتك حية؟ وقال مرة: كم لكم مسجداً[3]؟

وواقعنا اليوم مثل رجلٍ قال **لسلمان الفارسي**: أوصني، قال: لا

---

(١) حلية الأولياء ٨/١٦.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٥.
(٣) حلية الأولياء ٢/١١٠.

تتكلم!! قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم، قال: فإن تكلمت فتكلم بحق أو اسكت[١].

وهذه النصيحة تصلح لكل زمان ولزماننا خاصة ولكن يبقى فقط أن نطبقها في واقع حياتنا وفي مجالسنا.. ومكالماتنا الهاتفية!!

عن **عبدالله بن مسعود** قال: والله الذي لا إله إلا هو ما على وجه الأرض شيءٌ أحوجُ إلى سجن من لسان[٢].

فإن لم يُسجن وأُطلق له العنان فإنه كما وصف **طاووس**: لساني سبعٌ إن أرسلته أكلني[٣].

وهو والله أشد.. يأكل الحسنات ويجلب السيئات.. تفاجأ يوم القيامة بذنوب كالجبال.. من آفات وسقطات اللسان.. يتعلق بك من بهته ويُمسك بك من اغتبته.. ويقبض على رقبتك من استهزأت به.. قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] حديثك تنساه بمجرد إطلاق الكلمة وانتهاء المجلس.. ولكنه مُحصى عليك.. موقوفٌ أنت حتى يُقتص منك.. يؤخذ من حسناتك لهم فإن فنيت حسناتك أُخذ من سيئاتهم فحطت عليك..!؟.

مصيبةٌ أن تُفجع في ذلك اليوم بمثل هذا وأنت أحوج ما تكون للحسنة الواحدة..

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٦٢.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٤٥٠.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٠.

لنرى تحفظ من سبقنا.. وكيف كانوا يملئون صحائفهم.. قيل **للمعافى بن عمران**: ما ترى في الرجل يُقرض الشعر ويقوله؟ قال: هو عمرك فأفنه بما شئت!!

وسُئل **مسروق** عن بيت من شعر فكرهه، فقيل له؟ فقال: إني أكره أن يوجد في صحيفتي شعر[(١)].

هذاالشعر ضربٌ من ضروب الكلام حسنه حسنٌ ورديئه رديء.. ولكن أصحاب الهمم ومن يرى أن تسبيحه وتحميده خيرٌ له، حَفِظَ سطور صحائفه إلا في رفع درجة وحط خطيئة..

وقد قال رجل **للربيع بن خثيم**: ما يمنعك أن تمثل بيتاً من الشعر فإن أصحابك قد كانوا يفعلون ذلك؟ قال: إنه ليس أحد يتكلم بكلام إلا كُتب، ثم يعرض عليه يوم القيامة، فإني أكره أن أقرأ في كتابي يوم القيامة بيت شعر[(٢)].

ويا أخي الكريم.. هو لسانك.. وهذه صحيفتك.. فَأَمْلِ ما شئت.. وقل ما شئت..

* اجتمع **قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي**، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، ووجدت خصلة إن استعملها سترت العيوب كلها، قال: وماهي؟ قال: حفظ اللسان[(٣)].

---

(١) كتاب الصمت ص ٢٨٢.
(٢) كتاب الصمت ص ٣٠٨، حلية الأولياء ٢/ ١١٣.
(٣) الأذكار النووية ص ٢٨٧.

أخي الحبيب:

للسان آفات كثيرة. ومزالق خطيرة وسأقتصر على أربع آفات فقط:

الآفة الأولى: الغيبة.

الآفة الثانية: النميمة.

الآفة الثالثة: الكذب.

الآفة الرابعة: الاستهزاء.

الآفة الأولى: الغيبة

اعلم ـ أخي الكريم ـ أن الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكره كيفما كان.

وأما النسب: فبأن تقول أبوه قبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكافي أو زبال، أو شيء مما يكره كيفما كان.

أما الخلق: فبأن تقول هو سيء الخلق، بخيل، متكبر، مراء، شديد الغضب، جبان، عاجز، ضعيف القلب، متهور، وما يجري مجراه.

وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يتحرز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها، أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس.

وأما فعله المتعلق بالدنيا.. فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقًّا أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو أنه كثير الكلام نئوم ينام في غير وقت النوم، ويجلس في غير موضعه.

وأما في ثوبه: فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب[(١)].

وهذه أمثلة قليلة وإلا ففي أحاديث المجالس كثير من أنواع الغيبة.

والغيبة محرمة بالإجماع ولا يُستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة[(٢)].

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ثعلب في تفسير هذه الآية: أي لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه.

وفي الآية إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه، وكما أنه يحرم أكل لحمه، يحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه مالا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية وتستكرهه الجبلة الإنسانية. فضلاً عن كونه محرماً شرعاً[(٣)].

وقد أبان ﷺ الغيبة فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما يقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[رواه مسلم].

وبهذا يبين ﷺ الفرق بين الغيبة والبهتان وأن الكذب عليه بهتٌ له.

---

(١) الإحياء ٣/ ١٥٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٢.
(٣) فتح القدير ٥/ ٦٥.

فالكذب على الشخص حرام كله سواء كان الرجل مسلماً أو كافراً، برًّا أو فاجراً، لكن الافتراء على المؤمن أشد. بل الكذب كله حرام[(١)].

والغيبة تعدٍ على أعراض المسلمين والنبي ﷺ قال في خطبته يوم النحر بمنى في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم، حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت**» [متفق عليه]. وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله وعرضه**»[رواه مسلم].

والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم[(٢)].

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظَّم شأنه فقال: «**إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وأربى الربا عرض المسلم**»[(٣)] [رواه أحمد وأبو داود].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال رجل من القوم: يا رسول الله ما أعجز فلاناً؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أكلتم لحم أخيكم، واغتبتموه**»[(٤)].

ويقول الإمام القرطبي: «والإجماع على أنها من الكبائر، وأنه يجب التوبة منها إلى الله».

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٢٣.
(٢) الإحياء ٣/ ١٥٢.
(٣) روى أحمد من حديث سعيد بن زيد مرفوعًا: «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق».
(٤) كتاب الصمت ص ١٣٦.

بواعث الغيبة

لا شك أن هناك بواعث للغيبة منها:

١ ـ من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره، مع علمه أن المغتاب بريءٌ مما يقولون أو فيه بعض ما يقولون، لكن يرى أنه لو أنكر عليهم لقطع المجلس واستثقله أهل المجلس، ونفروا منه.

٢ ـ ومنهم من يخرج الغيبة في مواكب شتى تارة في قالب ديانة وصلاح، ويقول ليس لي عادةٌ أن أذكر أحداً، إلا بخير، ولا أحب الغيبة والكذب، وإنما أخبركم بأحواله ويقول: والله إنه مسكين ورجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت، وربما يقول: دعونا منه الله يغفر لنا وله، وقصده من ذلك استنقاصه.

٣ ـ ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة والحسد.

٤ ـ ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تسخر ولعب، ليُضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به.

٥ ـ ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب، فيقول: تعجبت من فلان، كيف لا يفعل كيت وكيت، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت.

٦ ـ ومنهم من يخرج الغيبة في قالب الاغتمام فيقول مسكين فلان، غمني ما جرى له، وما تم له، فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف، وقلبه منطو على التشفي به، ولو قدر لزاد على ما به وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به.

٧ ـ ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر، وقصده غير ما أظهر[١].

أخي الكريم:

هذه بواعث للنفوس الضعيفة والقلوب المريضة وإلا فالمؤمن لا يترك لنفسه هواها بل يراعي في ذلك حدود الله وما نهى عنه.

ذكر عن **إبراهيم بن أدهم** ـ رحمه الله ـ أنه أضاف أناساً، فلما قعدوا على الطعام، جعلوا يتناولون رجلاً، قال إبراهيم: إن الذين كانوا قبلنا، كانوا يأكلون الخبز قبل اللحم وأنتم بدأتم باللحم قبل الخبز[٢].

وفي ذلك إشارة إلى أنهم يأكلون لحم أخيهم المسلم.. وانظر إلى أثر ذلك في دين الرجل.

قال **الحسن**: والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده[٣].

وقال **سفيان بن عيينه**: الغيبة أشد من الدين، الدين يُقضى والغيبة لا تقضى[٤].

ولكي لا يكون عليك دين لا يقضى إلا يوم القيامة.. **ليكن حظ المؤمن منك ثلاثاً**: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى باختصار يسير ٢٨/ ٢٣٧.
(٢) تنبيه الغافلين ص ١٧٧.
(٣) كتاب الصمت ص ١٢٩، الإحياء: ٣/ ١٥٢.
(٤) حلية الأولياء ٧/ ٢٧٥.
(٥) صفة الصفوة ٤/ ٩١.

* قال **سفيان بن الحصين**: كنت جالساً عند إياس بن معاوية فمر رجل، فنلت منه، فقال: اسكت، ثم قال لي سفيان: هل غزوت الروم؟ قلت: لا، قال: غزوت الترك؟ قلت: لا، قال: سلم منك الروم وسلم منك الترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم، قال: فما عدت إلى ذلك بعد[(١)].

ولعلنا نكون مثله فيسلم المسلمون منا ونسلم منهم وكفى المرء نبلاً أن تُعد معايبه.. يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية**:

إن بعض الناس لا تراه إلا منتقداً داءً ينسى حسنات الطوائف والأجناس ويذكر مثالبهم، فهو مثل الذباب يترك موضع البرء والسلامة ويقع على الجرح والأذى، وهذا من رداءة النفوس وفساد المزاج.

أخي الحبيب:

هل تقبل أن تكون كذلك؟! أم تقبل أن تكون مستمعاً لما حرم الله من الغيبة وأنت تعلم أن المغتاب لو لم يجد أذناً صاغية لما اغتاب واسترسل في الحديث.. فأنت باستماعك تكون مشجعاً وعوناً له على المعصية فلا تكن شريكاً في الإثم.

قال **الإمام الشافعي**: قبول السعاية أضر من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دلَّ على شيء كمن قبل وأجاز، والساعي ممقوت إذا كان صادقاً لهتكه العورة، وإضاعته الحرمة، ومعاتب إن كان كاذباً لمبارزته الله بقول البهتان وشهادة الزور[(٢)].

---

(١) تنبيه الغافلين ١/ ١٧٨.

(٢) حلية الأولياء ٩/ ١٢٣، وصفة الصفوة ٢/ ٢٥٣.

واعلم أخي: أن مجالس الغيبة ليست بمجالس خير وهي مجالسٌ تؤكل فيها لحوم المسلمين.

روي عن **حاتم الزاهد** ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: ثلاثة إذا كن في مجلس فالرحمة عنهم مصروفة: ذكر الدنيا، والضحك، والوقيعة في الناس[(١)].

وقال **أبو بكر بن عبدالله**: إذا رأيتم الرجل موكَّلاً بعيوب الناس، ناسياً لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكر به[(٢)].

أخـي:

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً. إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة لك إليه فإنك تضيع به زمانك، وتحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.. ولو هللت الله ـ سبحانه ـ وسبحته لكان خيراً لك، فكم من كلمة يُبنى بها قصراً في الجنة، ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز، فأخذ مكانه قذرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً، وهذا مثال من ترك ذكر الله ـ تعالى ـ واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً، بل رأس مال العبد أوقاته، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله[(٣)].

---

(١) تنبيه الغافلين ١/١٧٨.
(٢) صفة الصفوة ٣/٢٤٩.
(٣) الإحياء ٣/١٢١.

وذكر ذلك عون بن عبدالله في قوله: ما أحسب أحداً تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه[١].

وهل هناك أكثر من غفلة عن جلب الحسنات واستبدالها بسيئات.. والمغتاب إذا أطلق لسانه قد لا يسلم منه حتى من قد رحلوا إلى الدار الآخرة.. بل للأحياء نصيب وللأموات..

قال يحيى بن معين: إنا لنطعن على أقوامٍ لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من أكثر من مائتي سنة[٢].

دع عنك ذكر فلانةٍ وفلان
واجنب لما يُلهي عن الرحمن
واعلم بأن الموت يأتي بغتةً
وجميع ما فوق البسيطة فانٍ
فإلى متى تلهو وقلبُك غافلٌ
عن ذكر يوم الحشر والميزان[٣]

ذُكر عن إبراهيم بن أدهم.. إنه دُعي إلى طعام فلما جلس قالوا: إن فلاناً لم يجيء، فقال رجل منهم: إن فلاناً رجل ثقيل، فقال إبراهيم: إنما فعل هذا بي بطني حيث شهدت طعاماً، اغتبت فيه مسلماً، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام[٤].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٠١.
(٢) السير ١١/ ٩٤، وتذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣١.
(٣) شذرات الذهب ٥/ ٢٨١.
(٤) تنبيه الغافلين ١/ ١٧٩.

قال **مالك بن دينار**: لو كُلِّف الناس الصحف لأقلوا من المنطق(١).

ووالله لاحتاج البعض إلى من يحمل معه تلك الصحف..

وأذكر أن إحدى قريباتي ذهبت لزيارة امرأة بها صمم فلا تسمع وكانت طريقة التفاهم معها هي الكتابة وذلك لعدم إجادتها لغة الإشارات فحملت قلماً وأوراقاً وعندما عادت بدأت تُقلب ماذا كتبت فإذا الأمر مهول.. ولو قامت بإحصاء حديث الغيبة لطال الحساب وهي زيارة لم تدم سوى فترة زمنية قصيرة.. أما الحديث الذي لا فائدة فيه فهو كثير.

فكيف إذا أُحصي حديث اللسان وهو أسرع من الكتابة خاصة أن انتظار الجواب كتابةً أيضاً!! وهذا يعني ضياع جزء من الوقت في نفس الكتابة فحسب!!

فكيف لو كان اللسان منطلقاً والأذن تسمع.. فكم من حديث يُحاسب عليه الإنسان وهو لا يدري من سرعة مروره وتهاونه فيه ولكن الأمر كما قال **أبوبكر بن عبدالرحمن**: لا يلهينك الناس عن ذات النفس، فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكيت وكيت، فإنه محفوظ عليك ما قلت(٢).

ومحاسبٌ على ما قلت.. في يومٍ أنت أحوج فيه إلى جلب حسنة وإلى دفع سيئة.

مر **الحسن** بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس، فقال له الحسن: يا فتى هل مررت بالصراط؟ قال: لا، قال:

---

(١) كتاب الصمت ص ٤٨٤.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ١٣٠.

فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار، قال: لا، قال: فما هذا الضحك؟ فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكاً[١].

وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له كيف أصبحتم؟ قال: ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا[٢].

أخي: والحال هذه.. أعمارنا تجري.. وألسنتنا تنطق وصحائفنا تُسجل.. كيف الخلاص من تلك الآفة التي تفتك بالحسنات وتأتي بالحسرات. هذا أحد من حرص على مجاهدة لسانه ومحاسبته.. يروي لنا كيف تخلص من هذه الآفة.

قال ابن وهب: نذرت أني كلما اغتبت إنساناً أن أصوم يوماً، فأجهدني فكنت أغتاب وأصوم، فنويت إني كلما اغتبت إنساناً أن أتصدق بدرهم، فمن حُبِّ الدَّراهم، تركتُ الغيبة[٣].

أخي المسلم:

لو هللت ـ الله ـ وذكرته وسبحته لكان خيراً لك فكم من كلمة يبنى بها قصراً في الجنة، ومن قدر أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً، وهذا مثال من ترك ذكر الله ـ تعالى ـ واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً[٤].

---

(١) الإحياء ٤/ ١٩٤.
(٢) السير ٤/ ٢٥٩.
(٣) السير ٩/ ٢٢٨.
(٤) الإحياء ٣/ ١٢١.

وعن الأحنف قال: قال لي **عمر بن الخطاب**: يا أحنف من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قل ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه(١).

ولو تأمل القارىء كيف تدرج الأمر حتى وصل إلى موت القلب وتساوي الأشياء لنزه نفسه عن هذا وحرص على منطقه.. وحفظ جوارحه.

* اغتاب رجل عند **معروف الكرخي** فقال: اذكر القطن إذا وضع على عينيك(٢).

فمن تذكر تلك اللحظات.. ومصيره بعدها لتراجع عن غيبته وأعاد لسانه قبل أن يتحدث..

هذا **عبدالله بن أبي زكريا** يقول: مكثت اثنتي عشرة سنة أتحفظ من لساني(٣).

* فمثِّل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات، فمن قائل يقول: إن فلاناً ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب ولا تقدر على رد الجواب، ثم تبكي ابنتك وهي كالأسيرة، وتتضرع وتقول: حبيبي أبي، من ليُتمي بعدك؟ ومن لحاجتي؟ وأنت والله تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٨٧.

(٢) السير ٩/ ١٤١.

(٣) الزهد لأبي عاصم ص ٣٩.

وأقبلت الصغرى تمرِّغُ خدها
على وجنتي حيناً وحيناً على صدري
وتمسك خَدَّيها وتبكي بحرقةٍ
تنادي: أبي إني غُلبتُ على الصبر
حبيبي أبي من لليتامى تركتهم
كأفراخ زغب في بعيد من الوكر[١]

ورُحل بك من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة.. حملت أوزارك معك.. ورحلت وحيداً حيث الحساب والجزاء.. فرحم الله من حفظ لسانه ليوم فقره.. ورحم الله من استبدل مكان الشر خيراً فسرته صحيفته إذا رآها غداً.

قال سفيان الثوري: أقل من معرفة الناس تقل غيبتك[٢].

لقاء النَّاس ليس يفيد شيئاً
سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلاَّ
لأخذ علم أو إصلاح حالٍ[٣]

قال رجلٌ للفضيل بن عياض: إنَّ فلاناً يغتابني قال: قد جلب لك الخير جلباً[٤].

---

(١) التذكرة ص ٢٤.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٨، والسير ٧/ ٢٧٦.
(٣) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٢٢.
(٤) حلية الأولياء ٨/ ١٠٨.

وكتب أشهب بن عبدالعزيز إلى رجل كان يقع فيه: أما بعد: فإنه لم يمنعني أن أكتب إليك أن تتزايد مما أنت فيه إلا كراهية أن أُعينك على معصية الله، واعلم أني أرتع في حسناتك كما ترعى الشاة الخضر والسلام[١].

وقال عبدالرحمن بن مهدي: لولا أني أكره أن يُعصى الله تمنيت أن لا يبقى في هذا العصر أحدٌ وإلا وقع فيّ واغتابني فأي شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته يوم القيامة لم يعملها ولم يعلم بها[٢].

ويظن البعض أن الغيبة تقتصر على أناس دون آخرين وعلى مجتمع دون آخر بل هي تشمل الجميع وإنها ـ لعمري ـ في العلماء أعظم وأشنع كما أنها في غيرهم سواء.. يتساوى في ذلك من ارتفعت به درجات الدنيا ومن قصرت ممن ولاهم الله أمور المسلمين.

* قال سفيان: لو كان معكم من يرفع الحديث إلى السلطان، أكنتم تتكلمون بشيء؟ قلنا: لا، قال: فإن معكم من يرفع الحديث..

يعني الملكان الموكلان.. ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾.

أخي الحبيب:

إن من تغتابه غالباً تكرهه وتحمل عليه.. ولكن انظر ماذا يصنع معك.. إنه يأخذ منك أكثر مما تأخذ منه.. وأين؟. إنه في وقت الشدة وزمن الحاجة:

يشـــاركـــك المغتـــاب في حسنـــاتـــه
ويعطيـــك أجـــري صـــومـــه وصـــلاتـــه

---

(١) ترتيب المدارك ١/ ٤٥٠.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٥.

ويحمــــل وزراً عنـــك ضَـــن بحملـــه
عــن النجــب مــن أبنــائــه وبنــاتــه
فــلا تعجبــوا مــن جــاهــلٍ ضر نفســه
بــإمعــانــه فينفــع بعــض عُــداتــه
ويحمــــل مــــن أوزاره وذنـــوبــه
ويهلـــك في تخليصـــه ونجـــاتـــه[١]

من تريد تحقيره في هذه الدنيا . . هاهو الفوز اليوم . . أخذ من حسناتك . فهلا ضننت بحسناتك لنفسك .

قال **ابن مسعود**: أنذرتكم فضول كلامكم، حسب امريء من الكلام ما بلغ به حاجته[٢].

وقال **الحسن**: ياابن آدم بسُطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل[٣].

* دُخل على **أبي دجانه**: وهو مريض وكان وجهه يتهلل، فقيل: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنين: أما أحدهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً.

والمؤمن كما قال **إبراهيم التيمي**: إذا أراد أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً[٤].

---

(١) إرشاد العباد ص ٢٦.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٤.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٤.
(٤) الإحياء ٣/ ١٢٤.

وفي حال الدنيا يتحرز بعض الناس في المجالس.. والسؤال ما دافع هذا التحرز؟

لم يكن هذا الدافع هو الخوف من الله!!

بل إنه حضور شخص له مكانته وهيبته.. فلا تسمع في المجلس إلا خيراً.. فأين هم من حساب الله يوم القيامة.؟! وهم الذين يتحرزون عند حضور هذا الرجل ولا يخافون من الله وهو مطلع على السرائر؟!

عن حاتم الأصم قال: لو أن صاحب خير جلس إليك لكنت تتحرز منه، وكلامك يُعرض على الله فلا تتحرز منه[1].

أخي الحبيب:

لا يكن الله أهون الناظرين إليك..

وإياك والغيبة فإنها كما قال عنها علي بن الحسين: إدام كلاب الناس[2].

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً
وللناس قال بالظنون وقيل[3]

قال جبير بن عبدالله: شهدت وهب بن منبه وجاءه رجل فقال: إن فلاناً يقع منك فقال وهب: أما وجد الشيطان أحداً يستخف به غيرك؟ فما كان بأسرع من أن جاء الرجل، فرفع مجلسه وأكرمه[4].

---

(١) السير: ١١/٤٨٧.
(٢) منهاج القاصدين ص ١٨٥.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص ١٢١.
(٤) الورع لعبدالله بن حنبل ص ١٨٦.

وقال رجل للفضل بن بزوان: إن فلاناً يقع فيك، قال: لأغيظن من أمره، غفر الله له، قيل له: من أمره؟ قال الشيطان[١].

وهذا رجل قال لبكر بن محمد: بلغني أنك تقع فيّ، قال أنت إذاً أكرم عليَّ من نفسي.

وقصد من هذا أن الحسنات التي يعملها تذهب له إذا اغتابه فجعله بهذا العمل أكرم من نفسه ومقدم عليها في جلب الحسنات.

وروى الربيع بن صبيح أن رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد إني أرى أمراً أكرهه، قال: وما ذاك يا ابن أخي، قال: أرى أقواماً يحضرون مجلسك يحفظون عليك سقط كلامك ثم يحكونك ويعيبونك فقال: ياابن أخي: لا يكبرن هذا عليك، أخبرك بما هو أعجب، قال: وماذاك يا عم؟ قال: أطعت نفسي في جوار الرحمن وملوك الجنان والنجاة من النيران، ومرافقة الأنبياء ولم أطع نفسي في السمعة من الناس، أنه لو سلم من الناس أحد لسلم منهم خالقهم الذي خلقهم، فإذا لم يسلم خالقهم فالمخلوق أجدر أن لا يسلم[٢].

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يومٌ حار، ويومٌ بارد، ولقد رؤي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسُئل عن حاله، فقال: أنا موقوف على كلمة قُلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث، فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي[٣].

---

(١) صفة الصفوة ٣/٧٣.
(٢) أمراض النفوس ص ٥٩.
(٣) الجواب الكافي ص ١٧٣.

* قال محمد بن سيرين: يُحدِّث رجلاً: ما رأيت الرجل الأسود، ثم قال: استغفر الله، ما أراني إلا أغتبت الرجل[١].

والإمام البخاري صاحب الكتاب المعروف الذي جاب الآفاق يجمع حديث الرسول ﷺ يقول: أرجو أن ألقى الله، ولا يحاسبني باغتياب أحد[٢].

وعقب على هذا الأمر أبو عبدالله الحافظ بقوله: يشهد لهذه المقالة كلامه في الجرح والتعديل فإن أبلغ ما يقول في الرجل المتروك أو الساقط، فيه نظر، سكتوا عنه ولا يكاد يقول فلان كذاب، وفلان يضع الحديث وهذا من شدة ورعه[٣].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟

رأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع في آخر. فقال له: ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل، وإنما نظر إلى شر مافي وعائه فافرغه في وعائك، ولو رددت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها كما شقي بها قائلها.

تزوَّد من الدنيا فإنك ميت
وإنك مسئول فما أنت قائله[٤]

ووالله إن الزاد هو زاد الآخرة.. فبماذا تزودنا وكيف تجهزنا؟ عن أبي

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٢.
(٢) طبقات الشافعية ٢/ ٢٢٣.
(٣) طبقات الشافعية ٢/ ٢٢٤، والسير ١٢/ ٤٣٩.
(٤) البداية والنهاية ١٠/ ١٧٩.

ذر قال: مالي وللناس وقد تركت لهم بيضاءهم وصفراءهم[١].

لقد ترك الناس وسلم منه المسلمون.. ترك أعراضهم فلم يتناولها وهجر ذهبهم وفضتهم.. ماله وللناس ـ رحمه الله ـ استعد لنزل دائم وظل لا يزول.. في جناتٍ عرضها السموات والأرض.

قال أبو عاصم النبيل رحمه الله: ما اغتبت منذ علمت أن الله حرم الغيبة[٢].

أدبــــت نفسي فمـــــا وجـــــدتُ لهـــــا
مـــــن بعـــد تقـــوى الإلــــه مـــــن أدبٍ
في كـــــــلِّ حـــــالاتهـــــا وإن قصرت
أفضــــل مـــــن صمتهـــا عـــــن الكـــذب
إن كــــان مــــن فضـــةٍ كـــلامـــك يـــا
نفـــس فــــإن السكـــوت مـــن ذهـــبٍ[٣]

والغيبة محرمة بنص كلام الله ـ جل وعلا ـ وعلى لسان نبيه ﷺ فما هذا التجرؤ على محارم الله وحدوده.. ألا نكون وقافين عندها، طائعين لما فيها؟!.

قال عبدالله بن محمد بن زياد: كنت عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: ياأبا عبدالله قد اغتبتك، فاجعلني في حلٍّ، قال: أنت في حل إن لم تعد، فقلت له: أتجعله في حل ياأبا عبدالله وقد اغتابك؟ قال: ألم ترني اشترطت عليه[٤].

---

(١) الزهد لأبي عاصم ٤٢.
(٢) كتاب الصمت ص ٣٠٠.
(٣) كتاب الصمت ص ٣١٢.
(٤) حلية الأولياء ٩/ ١٧٤.

وجاء ابن سيرين أُناسٌ فقالوا: إنا نلنا منك فاجعلنا في حل، قال: لا أحل لكم شيئاً حرمه الله[١].

أخي الحبيب:

إذا شئـــت أن تحيـــا ودينـــك ســـالم
وحظـــك مـــوفـــورٌ وعـــرضـــك صينٌ
لســـانـــك لا تـــذكـــر بـــه عـــورة امـــريء
فكلـــك عـــوراتٌ وللنـــاس ألســـنُ
وعينيـــك إن أبـــدت إليـــك معـــايبـــاً
لقـــوم فقـــل يـــا عين للنـــاس أعينٌ[٢]

قال ابن منبه: دخلت على محمد بن سيرين فقال: كأني أراك شاكياً؟ قلت: أجل، قال: أذهب إلى فلان الطبيب فاستوصفه ثم قال: اذهب إلى فلان فإنه أطب منه، ثم قال: أستغفر الله أراني قد اغتبته[٣].

وأنظر ـ أخي ـ إلى العاقبة الدنيوية لزلات اللسان.

قال ابن سيرين عيرت رجلاً وقلت: يا مفلس، فأفلست بعد أربعين سنة[٤].

يمنعنـــي مـــن عيـــب غيري الـــذي
أعـــرفـــه عنـــدي فـــوق العيـــب

---

(١) السير ٤/ ٦٢٠.
(٢) شذرات الذهب ٣/ ٣٥٠.
(٣) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٢.
(٤) صيد الخاطر ص ٤٤.

عيـــي لهـــم بـــالظـــن منـــي لهـــم
ولســـت مـــن عيبـــي في ريـــب
إن كـــان عيبـــي غـــاب عنهـــم فقـــد
أحصـــى عيـــوبي عـــالم الغيـــب[١]

قال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس[٢].

أخي الحبيب:

هذه نصيحة من الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء[٣].

وبما أن ذكر الناس داءً فإن له دواء.. أفلا نبحث عنه لنعالج نفوسنا ونُبرِأ جراح ألسنتنا.. ونرفع في الآخرة درجاتنا.

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٩٠.
(٢) الإحياء ٣/ ١٥٢.
(٣) الإحياد ٣/ ١٥٢.

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة

أولاً: أن يعلم أنه بغيبته تعرَّض لسخط الله ـ تعالى ـ ومقته وشديد عقابه.

ثانياً: لابد أن يدرك أن عمله هذا محبط لحسناته يوم القيامة.

ثالثاً: أن يتدبر في نفسه ويصلح عيوبه ويتدارك نفسه.

رابعاً: إن كان ما اغتاب في المسلم من عيب غير موجود فيه فليحمد الله وليشكره على نعمته.

خامساً: من اغتابه على سبيل التنقيص والاحتقار، فاز بحسنات يوم القيامة فهو يأخذ الحسنات والمغتاب يكسب السيئات والأوزار.

سادساً: أن يتصور حين يغتاب أخاه المسلم أنه كمن يأكل لحمه وهو ميت.

سابعاً: أن يتذكر وهو يغتاب أنه يأكل وينهش في لحم أخيه المسلم.

ثامناً: أن يتذكر موقفه يوم القيامة عند الحساب ذليلاً كبلته الذنوب وأحاطت به الأوزار..

باب ما يباح من الغيبة*[1]

قد يفاجأ أخ كريم بقوله إن هذه غيبة مباحة . . فنعرض قوله على شروط إباحة الغيبة . . فإن وافقت فقدأصاب وإلا فلا . .

تباح الغيبة لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها . . وهي ستة أسباب :

الأول : التظلم ، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية ، أو قدرة على إنصافه من ظالمه ، فيقول : ظلمني فلان بكذا .

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد العاصي إلى الصواب ، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر : فلان يعمل كذا ، فازجُره عنه ، ونحو ذلك ، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر ، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً .

الثالث : الاستفتاء فيقول للمُفتي : ظلمني أبي ، أو أخي ، أو زوجي ، أو فلان بكذا ، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه ، وتحصيل حقي ودفع الظلم؟ ونحو ذلك فهذا جائز للحاجة ، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول : ما تقول في رجلٍ أو شخصٍ ، أو زوجٍ ، قال أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ، ومع ذلك فالتعيين جائز .

الرابع : تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم ، مثل جرح المجروحين من الرواة والشهود ، ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان أو مشاركته أو غير ذلك ، فله أن يبين حاله بنية النصيحة .

---

(١) * للاستفادة انظر رياض الصالحين ص ٤١٩ ، الإحياء ٣/ ١٦١ .

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه، أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر وتولي الأمور الباطلة فيجوز ذكره بما يُجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذُكر.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب، كالأعمش والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

أخي الحبيب:

إن ضعفت عن ثلاث، فعليك بثلاث، إن ضعفت عن الخير فأمسك عن الشر، وإن كنت لا تستطيع أن تنفع الناس، فأمسك عنهم ضرك، وإن كنت لا تستطيع أن تصوم فلا تأكل لحوم الناس[١].

روي عن الحسن أن رجلاً قال: إن فلاناً قد اغتابك، فبعث إليه طبقاً من الرطب، وقال: بلغني أنك أهديت إليّ حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدر أن أكافئك بها على التمام[٢].

وذكر عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن العبد ليُعطى كتابه يوم القيامة فيرى فيه حسنات لم يكن عملها، فيقول يارب: من أين لي هذا؟

فيقول: هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر[٣].

فيـــا عجبـــاً نـــدري بنـــارٍ وجنـــةٍ
وليـــس لـــذي نشتـــاق أو تلـــك نحـــذرُ

---

(١) تنبيه الغافلين ص ١٧٩.
(٢) تنبيه الغافلين ص ١٧٦، الإحياء ٣/ ١٦٤.
(٣) تنبيه الغافلين ص ١٧٧.

إذا لم يكـــن خـــوفٌ ولا شـــوقٌ ولا حيـــا
فمـــاذا بقـــي فينـــا مـــن الخير يـــذكـــرُ
ولسنــــــا صــــــابـــــريــــــن ولا بلى
فكيـــــف على النيران يـــــا قـــــوم نصبر
وفـــــوت جنـــــاتِ الخلـــــد أعظـــــم حسرة
على تلـــــــك فليتحسر المتحسِّـــــــــرُ

روى خالد الربعي قال: كنت في المسجد الجامع، فتناولوا رجلاً، فنهيتهم عن ذلك، فكفوا وأخذوا في غيره، ثم عادوا إليه، فدخلت معهم في شيء من أمره، فرأيت تلك الليلة في المنام كأني أتاني رجل أسود طويل، ومعه طبق عليه قطعة من لحم خنزير، فقال لي: كُل، فقلت: آكل لحم خنزير؟ والله لا آكله، فانتهرني انتهاراً شديداً، وقال: قد أكلت ماهو شرٌّ منه، فجعل يدسه في فمي، حتى استيقظت من منامي، فوالله لقد مكثت ثلاثين يوماً أو أربعين يوماً، ما أكلت طعاماً، إلا وجدت طعم ذلك اللحم ونتنه في فمي[(١)].

وذكر عن إبراهيم بن أدهم، أنه قال: يا مُكذب.. بخلت بدنياك على أصدقائك، وسخوت بآخرتك على أعدائك، فلا أنت فيما بخلت به معذور، ولا أنت فيما سخوت به محمود[(٢)].

أخي الحبيب:

خـــــلِّ جنبيـــــــك لـــــــرام
وامـــــض عنـــــه بســـــلام

---

(١) تنبيه الغافلين ص ١٧٧.
(٢) المرجع السابق.

مُـــــتْ بـــــداءِ الصَّمـــــتِ خيـــــرٌ
لـــــكَ مِـــــنْ داءِ الكـــــلام[١]

والكثير ـ بحمد الله ـ تتحرك الكلمة على لسانه وتضطرم في صدره ولكنه يمنعها مخافة من الله ـ عزّ وجل ـ ورغبة فيما عنده، أولئك ـ الأحبة ـ الذين قدموا الباقية على العاجلة . . جعلنا الله منهم، ورزقنا نصيباً من صمتهم وسكوتهم عما حرم الله .

* ذُكر عن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ: أنه قال لأصحابه : أرأيتم لو أتيتم على رجل قائم، قد كشف الريح عند بعض عورته كنتم تسترون عليه؟

قالوا : نعم، قال : بل كنتم تكشفون البقية، قالوا : سبحان الله ! ! كيف نشكف البقية؟

قال : أليس يذكر عندكم الرجل، فتذكرونه بأسوأ ما فيه، فأنتم تكشفون بقية الثوب عن عورته .

حمانا الله وإياكم كشف عورات المسلمين وهتك أعراضهم والخوض فيها . . باللسان وغيره .

اعلم ـ أخي ـ أن الذكر باللسان إنما حُرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة، وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام .

فمن ذلك قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ دخلت علينا امرأة فلما ولت، أومأت بيدي أنها قصيرة، فقال ـ عليه السلام ـ «اغتبتيها» ومن ذلك المحاكاة

---

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ١٩٣ .

يمشي متعارجاً أو كما يمشي فهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم. . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين(١).

روى عن **جابر بن عبدالله** ـ رضي الله عنهما ـ قال: هاجت ريح منتنة على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «**إن أناساً من المنافقين، قد اغتابوا أناساً من المسلمين فلذلك هاجت هذه الريح النتنة**»(٢).

وقيل لبعض الحكماء: ما الحكمة في أن ريح الغيبة ونتنها كانت تتبين على عهد رسول الله ﷺ ولا تتبين في يومنا هذا؟ قال: لأن الغيبة قد كثرت في يومنا، فامتلأت الأنوف منها، فلم تتبين الرائحة، وهي النتن، ويكون مثال هذا، مثال رجل دخل دار الدباغين، لا يقدر على القرار فيها من الشدة الرائحة، وأهل تلك الدار، يأكلون فيها الطعام، ويشربون الشراب ولا تتبين لهم الرائحة، لأنه قد امتلأت أنوفهم منها. كذلك أمر الغيبة في يومنا هذا(٣).

ولننظر إلى صفاء النفوس. . ورفعة النفس وقبل ذلك طاعة الله ـ عزّ وجل ـ ورسوله ﷺ.

ذكر عن **وهب المكي** أنه قال: لأن أدع الغيبة، أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا ومافيها، منذ خُلقَتْ إلى أن تفنى، فأجعلها في سبيل الله ـ تعالى ـ ولأن أغض بصري عما حرم الله ـ تعالى ـ، أحب إليَّ من أن تكون لي الدنيا وما فيها فأجعلها في سبيل الله ثم تلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] وتلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠](٤).

---

(١) الإحياء ٣/ ١٥٤.
(٢) رواه أحمد وأبو عوانة والبخاري في الأدب المفرد.
(٣) تنبيه الغافلين ص ١٧٥.
(٤) المصدر السابق ص ١٧٩.

ومع الأسف انتشر في مجالس بعض القوم من جعل الغيبة مصدر رزق له فيُسأل عن فلان.. فيتحدث حديثاً بين الجد والهزل تتبعه ضحكات القوم.. ويسترسل في الغيبة ونهش أعراض المسلمين على سبيل الإضحاك.. فلا يبقى لحماً لمسلم لم يأكله، ولا يبقي عظماً لآخر لم ينهشه.. ويُكافأ على ما حرم الله بملىء بطنه أو بمليء كُمه.. يُستظرف حديثه.. ويُستخف دمه.. ليعيث غيبة في أعراض المسلمين.

وكان جزاؤه في ما سبق إسكاته أو إخراجه من المجالس لكي لا يفسدها بمعصية الله ـ جل وعلا ـ وفي بعض المجالس الآن يسأل عن غيابه ولماذا لم يأت ـ فسبحان الله ـ.

ولربما رأيته في مجلس آخر ينهش أعراض من تعشى معهم مساء البارحة. فانظروا إلى العدل في المعاملة.

أما في مجتمع بعض النساء.. فالحديث لا يُمل.. والإنصات مستمر.. ولو تأملت المتحدثة لرأيتها تجول وتصول في الأعراض.

عن **يحيى بن معاذ** قال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال لتكون من المحسنين.

إحداها: إنك إن لم تنفعه، فلا تضره.

والثانية: إن لم تسره، فلا تغمه.

والثالثة: إن لم تمدحه، فلا تذمه[١].

أخي الحبيب:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عُرج بي مررت**

(١) المصدر السابق ص ١٧٨.

بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». [رواه أبو داود].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»**[متفق عليه].

وهذا الحديث صريحٌ في أنه ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً، وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة فلا يتكلم[١].

أخي الحبيب:

هذا اللسان الكريه، العاصي لربه.. هل نتركه يُلوِّث مجالسنا ويُحبط أعمالنا..

انظر لِعظم أجر إسكات المغتاب والرد عليه والدفاع عن أعراض المسلمين وعرضك من أعراضهم ولسان المغتاب ربما افترى عليك في مجلس أنت غائب عنه.

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»** [رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: **«من حمى مؤمنا من منافق يغتابه، بعث الله ـ تعالى ـ إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد شينه حبسه الله ـ تعالى ـ على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»** [رواه أحمد وأبو داود].

وعن النبي ﷺ أنه قال: **«مامن امريء يخذل امرءاً مسلماً في موضع**

---

(١) رياض الصالحين ص ٤١٨.

تُنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته، ومامن امريء ينصر امرءاً مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله ـ عز وجل ـ في موطن يحب فيها نصرته» [تفرد به أبوداود].

قال **كعب الأحبار**: قرأت في كتب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أن من مات تائباً من الغيبة، كان آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها، كان أول من يدخل النار(١).

وروي أن رجلاً أتى **ابن سيرين** فقال: إني اغتبتك فاجعلني في حل فقال: وكيف أحلُّ ما حرم الله؟

فكأنه أشار إليه بالاستغفار، والتوبة إلى الله تعالى مع استحلاله منه(٢).

وقال عبدالله بن المبارك: قلت **لسفيان الثوري**: ياأبا عبدالله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ماسمعته يغتاب عدوًّا له قط، فقال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يُذهبها.

أخي:

هذه أعراض المسلمين فكما أنك لا تقبل أن يكون عرضك حديث المجالس فكيف تقبل هذا لمسلم مثلك.. فربما إذا استمعت للمغتاب اليوم استمع لغيبتك غداً، ولكن رُدَّ عن أعراض المسلمين ليَرُدَّ الله عنك.. ولا تقبل أن يكون مجلسك مجلس سوءٍ وشر.

---

(١) تنبيه الغافلين ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩.

كفارة الغيبة

تؤرقنا تلك الهنات . . وتزل ألسنتنا . . فكيف الطريق إلى محو السيئات وإقالة العثرات .

تنازع العلماء في كفارة المغتاب ولكنهم اتفقوا جميعاً على توبته كخطوة أولى .

وقال **العلماء**: إن التوبة واجبة من كل ذنب .

وشروط توبة المغتاب أربعة:

أولاً: أن يقلع عن الغيبة .

ثانياً: أن يندم على فعلها .

ثالثاً: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً .

رابعاً: استحلال من وقع في غيبته، فإن لم تبلغ إلى صاحبه تلك الغيبة أو خشي أن يصيبه ضرر من إخباره، فتوبته أن يستغفر الله ـ تعالى ـ له .

أخي الكريم:

هذه شروط التوبة . . وهذا طريق الطاعة . . وإذا كان من الصعوبة استحلال من نغتابهم فإن الأمر الأسهل حفظ ألسنتنا وجوارحنا .

هيا نبادر وخيرنا من إذا سمع وعى وإذا ذُكِّر ذكر . . وإذا عُوتب أناب وعاد . .

فاللهم سلم المسلمين منا وسلمنا من المسلمين ياأرحم الراحمين .

النميمة

حرم الله على المؤمنين ما يوقع بينهم العداوة والبغضاء كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ١٩].

وامتنَّ على عباده بالتأليف بين قلوبهم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ٣][1].

وكل أمرٍ يقطع وشائج المحبة وينقض عُرى الأخوة فهو مما حذر الله منه فإن المؤمنين أخوة يجمعهم الخير والتآزر والتآلف.

ولهذا المعنى حُرم المشي بالنميمة لما فيها إيقاع العداوة والبغضاء وإحلال التدابر والتفرق مكان المحبة والاجتماع.

والنميمة: من آفات اللسان وتطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان.

مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا.

بل حدها: كشف ما يُكره كشفه سواءً كان من الأقوال أو الأعمال حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره.. فهو نمام[2].

وحقيقة النميمة: إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل مارآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره، فينبغي أن يسكت عنه إلا في حكايته

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٢٨.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ١٧٤.

فائدة لمسلم أو دفعٌ لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره، فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر.

فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه، كان قد جمع بين الغيبة والنميمة[١].

والباعث على النميمة قلة الخوف من الله جل وعلا وعدم مراقبته.

وكذلك إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب والتقرب للمحكي له.

أو لتفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

كما أن التشفي والحسد والغيظ من أهم دوافع النميمة.

والنميمة خصلةٌ ذميمة قال الله ـ تعالى ـ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم: ١١]، ثم قال: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ٦٨].

قال عبدالله بن المبارك: الزنيم، ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث وأشار به إلى من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطاً من الآية الكريمة[٢].

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**» [رواه البخاري ومسلم] وهو النمام.

فإذا لم يدخل الجنة لم يكن مأواه إلا النار لأنه ليس هناك إلا الجنة أو النار فإذا ثبت أنه لا يدخل الجنة ثبت أن مأواه النار[٣].

وعن **ابن عباس** ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال: مر النبي ﷺ بقبرين

---

(١) الإحياء ٣/ ١٦٥.

(٢) مكاشفة القلوب ص ٤٥٣.

(٣) تنبيه الغافلين ص ٨٩.

جديدين فقال: : «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين وغرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ فقال: لعله أن يخفف عنهما مالم ييبسا**» [رواه البخاري].

ومعنى قوله: «**وما يعذبان في كبير**» يعني ليس بكبيرة عندكم ولكنه كبيرة عند الله»[١].

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: ٤] قال أكثر المفسرين: إن الحطب أراد به النميمة وإنما سميت النميمة حطبا، لأنها سبب للعداوة والقتال فصار بمنزلة إيقاد النار[٢].

والنميمة حرام لما فيها من السعي بالوشاية بين الناس وإفساد قلوبهم وتغيير أخلاقهم وطبائعهم. .

كان بكر بن عبدالله يقول: عليكم بأمر إن أصبتم أُجرتم، وإن أخطأتم لم تأثموا، وإياكم وكل أمر إن أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أثمتم، قيل: وما هو؟ قال: سوء الظن بالناس، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا، وإن أخطأتم أثمتم[٣].

وكان سليمان بن عبدالملك جالساً وعنده الزهري، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت: فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٢٦.

يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، ثم قال للرجل: اذهب بسلام[١].

فانظر إلى نتيجة عمل النمام ومُقام الرجل بين يدي ولي الأمر.. فلربما كان سبباً في هلاكه أو سجنه أو إيذائه.. وأقل ما يأتيه ترويعه بهذا الأمر ولا يجوز ترويع المسلم بشيء.

وقد روي عن **عمر بن عبدالعزيز** ـ رضي الله عنه ـ أنه دخل عليه رجلٌ فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١١] وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً[٢].

وكان يقال: عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من البول، وثلث من النميمة»[٣].

فهل منا من يطيق عذاب القبر ونار الآخرة..؟!

وقال رجل **لعمرو بن عبيد**: إن الأسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشر، فقال له عمرو: يا هذا، ما رعيت حق مُجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره، ولكن أعلمه أن الموت يعُمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا، والله ـ تعالى ـ يحكم بيننا وهو خير الحاكمين.

---

(١) الإحياء ٣/١٦٦، مختصر منهاج القاصدين ص ١٧٤.
(٢) الإحياء ٣/١٦٦، تنبيه الغافلين ١/١٨٦.
(٣) تنبيه الغافلين ص ٨٩.

مثِّل لقلبك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور
قد كورت شمس النهار وصغفت
حرًّا على رأس العباد تفورُ
وإذا الجبال تقلعت بأصولها
فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت عن أهلها
خلت الديار فما بها مغرورُ
وإذا الجنين بأمه متعلقٌ
خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنبٍ يخاف لهوله
كيف المقيم على الذنوب دهور[(١)]

رفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعةً نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع على ظهرها: السعاية قبيحة، وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكاً في مستور، ولو لا أنك في خفارة شيبتك، لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوق العيب، فإن الله أعلم بالغيب، الميت ـ رحمه الله ـ، واليتيم جبره الله، والمال ثمرة الله، والساعي لعنه الله[(٢)].

هذه النميمة لو لقيت باباً مفتوحاً لتعدت على مال يتيم والله ـ تعالى ـ

---

(١) عقود اللؤلؤ ص ٣٥٢.
(٢) الإحياء ٣/١٦٧.

يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

فانظر إلى أين يصير وأين مستقره؟ والعياذ بالله ولكن رحم الله من رده مثل الصاحب ذليلاً فهذا أقل ما يقابل به.

قال أكثم بن صيفي: الأذلاء أربعة: النمام والكذاب والمديون واليتيم[١].

فالواجب على النمام أن يتوب إلى الله ـ تعالى ـ فإن النمام ذليل في الدنيا وهو في عذاب القبر بعد موته، وهو في النار يوم القيامة، آيس من رحمة الله ـ تعالى ـ، فإن تاب قبل موته تاب الله عليه[٢].

قال يحيى بن أكثم: النمام شرٌّ من الساحر، ويعمل النمام في ساعة مالا يعمل الساحر في شهر[٣].

بكلمةٍ واحدةٍ يفرِّق بين زوج وزوجته وبأخرى يُقطِّعُ الأرحام ويسبب العداوات وهو في كل ذلك ينمُّ لك اليوم وينم عليك غدا.

قال الشافعي: من نَمَّ لك نم عليك[٤].

وهذه إشارة إلى أن النمَّام ينبغي أن يُبغض ولا يُوثق بقوله ولا بصداقته.. لأنه لا يخاف من الله ـ عزّ وجل ـ فهذا ديدنه وتلك مهنته.. يُحب الفُرقة ويزرع الشتات، لا يهنأ بعيش وهو يرى الاجتماع والائتلاف.

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٢) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٣) المرجع السابق.
(٤) السير ١٠/ ٩٩.

مِــــل عـــــن النمــــــام وازجُـــــرهُ فمــــا
بلــــــغ المكــــــروه إلا مـــــــن ثقــــــلِ

رُوي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: ياهذا نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين[١].

ويقال: عمل النمام أضر من عمل الشيطان لأن عمل الشيطان بالخيال والوسوسة، وعمل النمام بالمواجهة والمعاينة[٢].

أخي الحبيب:

مـــن نـــمّ في النـــاس لم تـــؤمـــن عقـــاربـــه
على الصـــديـــق ولم تـــؤمـــن أفـــاعيـــه
كـــالسيـــل بـــالليـــل لا يـــدري بـــه أحـــدُ
مـــن أيـــن جـــاء ولا مـــن أيـــن يـــأتيـــه
الـــويـــل للعهـــد منـــه كيـــف ينقضـــه
والـــويـــل للـــودِّ منـــه كيـــف ينعيـــه[٣]

قال رجل لعبد الله بن عمر ـ وكان أميراً ـ بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك؟ قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني، وحسبي إني لم أصدقه فيما قال، ولا أقطع عنك الوصال[٤].

---

(١) الإحياء ٣/١٦٦.
(٢) تنبيه الغافلين ص ٨٩.
(٣) مكاشفة القلوب ص ٣٥٤.
(٤) الإحياء ٣/١٦٦.

أما البهتان على البريء: فأثقل من السموات، وويلٌ لمن سعى بوشايةٍ بريء عن صاحب سلطان.. فصدقه، فربما جُني على هذا المسلم بأمرٍ يسوءه وليس له ذنب إلا وشاية كاذبة.

قال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قبول السعاية شرٌ من السعاية، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دلَّ على شيءٍ فأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي، فلو كان صادقاً في قوله لكان لئيماً في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة.

والسعاية هي النميمة إلا أنها إذا كانت إلى من يُخاف جانبه سُمِّيت سعاية[(١)].

والنمية يا أخي مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذُلِّ.

قال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترىء بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك[(٢)].

وقد ذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه، فأخبره بخبرٍ عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات:

بغضت أخي إليّ، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة[(٣)].

هذه ثلاث مساوىء من أثر النميمة وهناك شرورٌ أشد ومساوىء أكبر، وإليك قصة تحكي شرًّا من شرور النميمة وأثراً من آثارها.

---

(١) الإحياء ٣/ ١٦٧.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الإحياء ٣/ ١٦٦.

روي عن حماد بن سلمة أنه قال: باع رجلٌ غلاماً، فقال للمشتري: ليس فيه عيب إلا أنه نمَّام، فاستخفه المشتري فاشتراه على ذلك العيب، فمكث الغلام عنده أياماً، ثم قال لزوجة مولاه: إن زوجك لا يُحبك وهو يريد أن يتسرى عليك، أفتريدين أن يعطف عليك؟ قالت: نعم، قال لها: خذي الموسى واحلقي شعرات من باطن لحيته إذا نام، ثم جاء إلى الزوج وقال: إن امرأتك تخادنت (يعني اتخذت خليلاً) وهي قاتلتك، أتريد أن يتبين لك ذلك؟

قال: نعم، قال: فتناوم لها، فتناوم الرجل، فجاءت امرأته بموسى لتحلق الشعرات فظن الزوج أنها تريد قتله. فأخذ منها الموسى فقتلها، فجاء أولياؤها فقتلوه، فجاء أولياء الرجل ووقع القتال بين الطرفين[١].

أخي المسلم:

يجب على كل من حملت إليه النميمة وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو في ممالأة عدوّك أو تقبيح حالك أو ما يجري مجراه، فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يُصدقه لأن النمَّام فاسق وهو مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله.

الثالث: أن يبغضه في الله ـ تعالى ـ فإنه بغيضٌ عند الله ـ تعالى ـ ويجب بغض من يبغض الله ـ تعالى ـ.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء.

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٨٩.

الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث للتحقق.

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً وقد تكون أتيت ما عنه نهيت[1].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٦٥.

أعظم من الغيبة والنميمة

وأعظم ـ أخي الكريم ـ من الغيبة والنميمة هذا الذي يتردد بين المتعادين، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه.

قال ﷺ: «**من كان له وجهان في الدنيا كان له لساناً من نار يوم القيامة**»(١).

وقال ﷺ: «**تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث**» [أخرج الشيخان نحوه وهو عند ابن أبي الدنيا بهذا اللفظ].

فإن قلت: بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حّد ذلك؟ فأقول: إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شرٌ من النميمة(٢).

ومن ذي الوجهين: من يمدح الإنسان في وجهه ويبالغ في ذلك لقصد دنيوي ثم في غيبته يذمه عند الناس ويعيبه وهكذا يفعل مع أغلب من لا يناسبه.

فلا تكن أخي المسلم عوناً للشيطان بتفريق وتمزيق المحبة والألفة بينهم

---

(١) رواه أبو داود وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٨٨٩.

(٢) الإحياء ٣/١٦٨.

بل كن صاحب خير ورسول صلح إلى المتخاصمين تنال بذلك الأجر..
وكن صدوقاً تُظهر ما تُبطن لا تكن متزلفاً ثم مغتاباً.

أخي هاهو ذو الوجهين:

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا
تأمن غوائل ذي الوجهين كياد[(١)]

(١) مكاشفة القلوب ص ٣٥٥.

الكذب

الكذب من قبائح الذنوب وفواحش العيوب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»[متفق عليه].

وقال ﷺ: «**أربع من كن فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلةٌ من نفاقٍ حتى يدعها: إذا أئتمنَ خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «**لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**».

فالكذب على الشخص حرامٌ سواءً كان الرجل مسلماً أو كافراً، برًّا أو فاجراً، لكن الافتراء على المؤمن أشد، بل الكذب كله حرام[١].

أخي الحبيب:

إياك والكذب فإنه يُفسد عليك تصور المعلومات على ماهي عليه، ويُفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يُصوِّر المعدوم موجوداً، والموجود معدوماً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، والخير شرًّا والشر خيراً، فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له، ونفس الكاذب معرضة

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٢٣.

عن الحقيقة الموجودة نزاعة إلى العدم مؤثرة للباطل[١].

والكذب أساس الفجور كما قال ﷺ: «**إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار**».

وأول ما يسرى الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يَقْلَعُ تلك المادة من أصلها[٢].

قال **مالك بن دينار**: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يُخرج أحدهما صاحبه[٣].

وقال **الحسن**: تكلم قومٌ عند معاوية ـ رحمه الله ـ والأحنف ابن قيس ساكت، فقال له: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت[٤].

وقد قال **عمر بن عبدالعزيز** ـ رضي الله عنه ـ: ما كذبت منذ علمت أن الكذب يضر أهله[٥].

فالكذب ـ ياأخي ـ يسقي باب كل شر، كما يسقي الماء أصول الشجر[٦].

---

(١) الفوائد ص ١٧٨.
(٢) الفوائد ص ١٧٨.
(٣) الإحياء ٣/١٤٦.
(٤) الإحياء ٣/١٢٠.
(٥) السير ٥/١٢١.
(٦) كتاب الصمت ص ٢٥٠.

ولأنه باب كل شر قال الإمام **الشافعي** ـ رحمه الله تعالى ـ: ما حلفت بالله صادقاً ولا كاذباً[١].

وافترى رجل على **زين العابدين بن الحسين** فقال له: إن كنت كما قلت فأستغفر الله، وإن لم أكن كما قلت، فالله يغفر لك، فقبل رأسه وقال: جعلت فداك لست كما قلت، فاغفر، قال: غفر الله لك[٢].

وقال رجل **للشعبي** كلاماً أقذع فيه. فقال له: إن كنت صادقاً غفر الله لي وإن كنت كاذباً غفر الله لك[٣].

وأصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب[٤].

لا يكـــذب المـــرء إلا في مهـــانتـــه
أو مفعلـــة الســـوء أو مـــن قلـــة الأدب

ولقد استرسل بعض الناس في الكذب وعدوه ممدحة وذكاء، والكذب هو الكذب لأي سبب كان، قال عبدالله بن عامر: جاء رسول الله ﷺ إلى

---

(١) السير ١٠/٣٦.
(٢) شذرات الذهب ١/١٠٥.
(٣) وفيات الأعيان ٣/١٤.
(٤) الفوائد ص ١٧٨.

بيتنا وأنا صغير، فذهبت لألعب فقالت أمي: يا عبدالله تعال حتى أعطيك، فقال رسول الله ﷺ: **«وما أردت أن تعطيه»** قالت: تمراً، فقال: **«أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة»** [رواه أبو داود وأحمد وحسنه الألباني].

روي عن **أبي عبدالرحمن الخريبي** قال: ما كذبت إلا مرة واحدة، قال لي أبي قرأت على المعلم؟ قلت: نعم، ولم أكن قرأت(١).

وسمع **طلحة بن أبي مصرف** رجلاً يعتذر إلى رجل فقال: لا تكثر الاعتذار إلى أخيك أخاف أن يبلغ بك الكذب(٢).

وقال **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة(٣).

لعمرك ما للمرء كالرب حافظٌ
ولا مثل عقل المرء للمرء حافظٌ
لسانك لا يُلقيك في الغيِّ لفظُه
فإنك مأخوذٌ بما أنت لافظٌ(٤)

أخي الحبيب: لنرى مدى الوفاء بوعودهم وصدق حديثهم.. لما حضرت **عبدالله بن عمرو** الوفاة قال: إنه كان خطب إليَّ ابنتي رجل من قريش، وقد كان مني إليه شبيه الوعد، فوالله لا ألقى الله ـ عزّ وجل ـ بثلث النفاق، اشهدوا أني قد زوجتها إياه(٥).

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/٣٣٨.
(٢) حلية الأولياء ٥/١٧.
(٣) الإحياء ٣/١٤٦.
(٤) كتاب الصمت ص ٣٠٥.
(٥) صفة الصفوة ١/٦٥٩.

أدبــــت نفسي فمــــا وجــــدت لهــــا
مـــن بعــــد تقــــوى الله مــــن أدب
في كــــل حــــالاتهــــا وإن قصرت
أفضــــل مــــن صمتهــــا عــــن الكــــذب
وغيبــــة النــــاس إن غبتهــــم
حــــرمهــــا ذو الجــــلال في الكتــــب
إن كــــان مــــن فضــــة كــــلامــــك يــــا
نفــــس فــــإن السكــــوت مــــن ذهــــب[١]

* جاءت أخت الربيع بن خيثم عائدة إلى بني له، فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يابنيّ؟ فقال الربيع: أرضعتيه؟ قالت: لا، قال: ما عليكِ لو قلت ياابن أخي، فصدقتِ[٢].

وهذا عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالى يقول: ماكذبت كذبة منذ شددت على إزاري[٣].

وحين سُئل خالد بن صبيح: أيُسمَّى الرجل كاذباً بكذبة واحدة؟ قال: نعم[٤].

وكانوا من شدة حرصهم على توخي الصدق يعدون زلات لسانهم فهذا الأحنف بن قيس يقول: ما كذبت منذ أسلمت إلا مرةً واحدةً، فإن عمر

---

(١) كتاب الصمت ص ٣١٢.
(٢) كتاب الصمت ص ٢٥٥.
(٣) كتاب الصمت ص ٢٤١.
(٤) الإحياء ١٤٦/٣.

سألني عن ثوب: بكم أخذته؟ فأسقطت ثلثي الثمن[١].

لنرى بعضاً من خلق الإمام **أبي حنيفة** ـ رحمه الله تعالى ـ كان أبو حنيفة قد جعل على نفسه أن لا يحلف بالله في عرض كلامه إلا تصدق بدرهم، فحلف فتصدق به، ثم جعل أن يتصدق بدينار، فكان إذا حلف صادقاً في عرض الكلام تصدق به، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها، وكان إذا اكتسى ثوباً جديداً كسى بقدر ثمنه الشيوخ العلماء، وكان إذا وضع بين يديه الطعام أخذ منه فوضعه على الخبز حتى يأخذ منه بقدر ضعف ما كان يأكل، فيضعه على الخبز ثم يعطيه إنساناً فقيراً، فإذا كان في الدار من عياله إنسان يحتاج إليه دفعه إليه، وإلا أعطاه مسكيناً[٢].

أخي الحبيب:

هل نعجز أن نستفيد من بعض أفعالهم فنطبقها على أنفسنا شيئاً فشيئاً فالنفس إذا كان لديها الرغبة في الخير أعانها الله ووفقها. فلماذا لا نبادر ونعوِّد النفس على الخير والمعروف؟!.

عن أبي بردة بن عبدالله قال كان يقال: إن **ربعي بن حراش** ـ رضي الله عنه ـ لم يكذب كذباً قط، فأقبل ابناه من خرسان قد تأجلا فجاء العريف إلى الحجاج فقال: أيها الأمير: إن الناس يزعمون أن ربعي بن حراش لم يكذب قط، وقد قدم ابناه من خرسان وهما عاصيان، فقال الحجاج عليّ به، فلما جاء قال: أيها الشيخ، قال: ما تشاء؟ قال: مافعل ابناك؟ قال: الله المستعان خلفتهما في البيت، قال: لا جرم والله لا أسوؤك فيهما. هما لك[٣].

---

(١) كتاب الصمت ص ٢٥٣.
(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٣٥٨.
(٣) كتاب الصمت ص ٢٢٩.

وماشيء إذا فكرت فيه
بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه
وأبعد بالبهاء من الرجال[1]

وقد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال ـ رضي الله عنه ـ: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟

وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن له حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً، ولكن التعريض أهون.

وكان إبراهيم النخعي إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية: قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس هاهنا كيلا يكون كذباً.

وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية: ضعي الأصبع فيها وقولي ليس هاهنا.

وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم الكذب وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة[2].

أخي الحبيب:

عود لسانك قول الخير تحظ به
إن اللسان لما عودت معتادُ
موكلُ بتقاضي ما سننت له
فاختر لنفسك وانظر كيف ترتادُ

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٥٣.

(٢) الإحياء ٣/ ١٤٩.

الاستهزاء*[١]

مما شاع بين الناس وفي بعض المجالس السخرية والاستهزاء وهو محرم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى **السخرية** الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء[٢].

وأشد أنوع الأستهزاء: الاستهزاء بالدين وأهله، ولخطورته وعظم أمره فقد أجمع العلماء على أن الاستهزاء بالله وبدينه وبرسوله كفر بواح، يخرج من الملة بالكلية.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: إن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفرٌ يكفر صاحبه بعد إيمانه[٣].

ولقد تُفنن في أنواع السخرية والاستهزاء فهناك من يهزأ بالحجاب وآخر بتنفيذ الأحكام الشرعية ولرجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصيب من ذلك.. كما أن السنة أيضاً لها نصيب فهذا الاستهزاء باللحية وقصر الثوب وغيره.

ولنعلم خطورة الاستهزاء على دين الرجل.. ما نسمعه يُتلى في سورة التوبة: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ

---

(١) * هذا الموضوع لم يكن في أصل الكتاب ولأهميته أضفته على مافيه من قصور.
(٢) الإحياء ٣/ ١٤٠.
(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٧٣.

وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وقد ورد في سبب نزولها أن رجلاً من المنافقين قال: ما أرى قراءناهؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء فرفع ذلك إلى الرسول ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال يا رسول الله: إنما كنا نخوض ونلعب فقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥] إلى قوله ﴿مجرمين﴾ وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ[1].

وثابت من سيرة رسول الله ﷺ أنه أرحم الناس بالناس، وأقبل الناس عذراً للناس، ومع ذلك كله لم يقبل عذراً لمستهزيء، ولم يلتفت لحجة ساخر ضاحك[2].

ولعلك ـ أخي ـ لحظت في الآية الكريمة أن الله شهد لهم بالإيمان قبل الاستهزاء فقال: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

ولقد فضح الله تعالى موقف المستهزئين بالمؤمنين فقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

والبعض إذا قيل له هذا من باب الاستهزاء بالدين، قال: نحن لم نقصد الدين، ولم نقصد الرجل بذاته، بل نمزح ونمرح.. وما علم إلى أين يؤدي به هذا المرح وذاك المزاح؟

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١١١.

(٢) الاستهزاء بالدين وأهله ص ١١.

خزيٌ في الدنيا وعذاب في الآخرة.

هلاكٌ ودمارٌ في العاجلة.

وعذاب مقيم في الآجلة[١].

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨ ـ ١١١].

وقال جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها جلساءه يهوي بها من أبعد من الثريا**» [رواه أحمد].

وعندما رأى **أبو الدرداء امرأة سليطة اللسان قال: لو كانت هذه خرساء لكان خيراً لها**[٢].

وقال عبدالله بن مسعود: لو سخرتُ من كلب، لخشيتُ أن أكون كلباً، وإني أكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في عمل آخرة ولا دنيا[٣].

وهذا **مالك بن دينار** يقول: كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة، وكفى المرء شرًّا أن لا يكون صالحاً ويقع في الصالحين[٤].

وكان **علي بن الحسين** يقول: لا يقول رجلٌ من الخير مالا يعلم، إلا

---

(١) الاستهزاء بالدين وأهله ص ٧١، يرجع للكتاب ففيه مباحث هامة واستشهادات جيدة.

(٢) كتاب الصمت ص ٨٩.

(٣) السير ١/ ٤٩٦.

(٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٨٦.

أوشك أن يقول من الشر مالا يعلم[١].

فأحذر زلة لسان تزل بها الأقدام إلى نارٍ تلظى.. حمانا الله وإياكم من زلات اللسان ومن غضب الرحمن.

أخي الحبيب:

قال الرسول ﷺ لأصحابه: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: يارسول الله المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

قال ﷺ: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا وسفك دم هذا وأكل مال هذا ونال من عرض هذا وضرب هذا، فيؤخذ لهذا من حسناته ولهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**» [رواه مسلم].

ولقد تحققت كثير من العقوبات على من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أو بعباده الصالحين وأوليائه المتقين.

حكى **ابن خلكان** قال: بلغنا أن رجلاً يدعى أبا سلامة من ناحية بصرى كان فيه مجون واستهتار، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة فقال: والله لا أستاك إلا في المخرج (يعني دبره) فأخذ سواكاً فوضعه في مخرجه ثم أخرجه، فمكث بعده تسعة أشهر وهو يشكو من ألم البطن والمخرج، فوضع ولداً على صفة الجرذان له أربعة قوائم ورأسه كرأس السمكة وله أربعة أنياب بارزة وذنب طويل وأربعة أصابع وله دبر كدبر الأرنب، ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات فقامت ابنة ذلك الرجل فرضحت رأس الحيوان الغريب وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٢١.

ومات في الثالث، وكان يقول: هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي. قال ابن كثير: وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحية وخطباء ذلك المكان ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيًّا، ومنهم من رآه بعد موته[١].

هذه قصة واحدة جرت في زمن مضى.. وهناك الكثير لو تتبعنا كُتب السير والتاريخ.

ونعود لعصرنا الحاضر يحدثنا العلامة أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ فيقول: (الشيخ طه حسين) طالباً في الجامعة المصرية القديمة، وتقرر إرساله في بعثه إلى أوربه فأراد حضرة السلطان حسين ـ رحمه الله ـ أن يُكرمه بعطفه ورعايته، فاستقبله في قصره استقبالاً كريماً، وحباه هدية قيمة المغزى والمعنى.

وكان من خطباء المساجد التابعين لوزارة الأوقاف. خطيب فصيح متكلم مقتدر، هو الشيخ محمد المهدي خطيب مسجد عزبان، وكان السلطان حسين ـ رحمه الله ـ مواظباً على صلاة الجمعة.

فصلَّى الجمعة يوماً ما، بمسجد المبدولي القريب من قصر عابدين العامر، وندبت وزارة الأوقاف ذلك الخطيب لذلك اليوم، وأراد الخطيب أن يمدح عظمة السلطان، وأن ينوه بما أكرم (الشيخ طه حسين) وحُقَّ له أن يفعل، ولكن خانته فصاحته، وغلبه حبّ التعالي في المدح، فزلّ زلَّةً لم تقم له قائمة من بعدها.

إذ قال أثناء خطبته «جاءه الأعمى، فما عبس في وجهه وما تولى»! وكان من شهود هذه الصلاة والدي الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقاً ـ رحمه

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٦٣، بستان العارفين ص ٥١.

الله ـ فقام بعد الصلاة يعلن الناس في المسجد أن صلاتهم باطلة، وأمرهم أن يعيدوا صلاة الظهر فأعادوها، ذلك بأن الخطيب كفر بما شتم رسول الله ﷺ تعريضاً لا تصريحاً، لأن الله سبحانه عتب على رسوله ﷺ حين جاءه ابن أم مكتوم الأعمى، وهو يحدث بعض صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فأعرض عن الأعمى قليلاً حتى يفرغ من حديثه، فأنزل الله عتاب رسوله في هذه السورة الكريمة ثم جاء هذا الخطيب الأحمق الجاهل، يريد أن يتملق عظمة السلطان ـ رحمه الله ـ وهو عن تملقه غني والحمد لله، فمدحه بما يوهم السامع أنه يريد إظهار منقبة لعظمته، بالقياس إلى ما عاتب الله عليه رسوله، واستغفر الله من حكاية هذا فكان صنع الخطيب المسكين تعريضاً برسول الله ﷺ لا يرضى به مسلم، وفي مقدمة من ينكره السلطان نفسه.

ولكن الله لم يدع لهذا المجرم جرمه في الدنيا قبل أن يجزيه جزاءه في الأخرى، **فأُقسم بالله**: لقد رأيته بعيني رأسي بعد بضع سنين وبعد أن كان متعالياً منتفخاً مستعزاً بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء، رأيته مهيناً ذليلاً خادماً على باب مسجد من مساجد القاهرة، يتلقى نعال المصلين يحفظها في ذلة وصغار حتى لقد خجلت أن يراني، وأنا أعرفه وهو يعرفني، لا شفقة عليه فما كان موضعاً للشفقة، ولا شماتةً فيه، فالرجل النبيل يسمو على الشماتة، ولكن لما رأيت من عبرةٍ وموعظةٍ[1].

---

(١) كلمة الحق ص ١٧٣.

كيف كان لسانه ﷺ

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة لفظ وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب[١].

كان ﷺ أعدل الناس وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له أعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام.

روى الترمذي عن علي: أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣] وسأل هرقل أبا سفيان: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا[٢].

ومما رواه البحتري قال: ما شتم رسول الله ﷺ أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة، وقيل له وهو في القتال: لو لعنتهم يا رسول الله فقال: «**إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً**»[٣].

كان ﷺ نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهزار وكان كلامه

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٤٦٥.
(٢) الرحيق المختوم ص ٤٦١.
(٣) الإحياء ٢/ ٣٩٤.

كخرزان نظمن، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا، وكان كلامه نزراً وأنتم تنثرون الكلام نثراً[١].

وكان ﷺ يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه[٢].

يحدثنا أنس خادم رسول الله ﷺ وهو الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات يقول: ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا مُتفحشاً ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وكان جل ضحكه ﷺ التبسم وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غض بصره[٣].

وكان رسول الله ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلاَّ على ذكر.

ولنترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم[٤].

---

(١) الإحياء ٢/٣٩٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مختصر الشمائل المحمدية للألباني ص ٢١.

(٤) الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٤٦٧.

وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق متقاربين، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا تُرفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم ـ لا تخشى فلتاته ـ يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة ويؤنسون الغريب.

كان دائم البشر سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه، قد ترك نفسه من ثلاث: لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير. حديثهم حديث أولهم يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر على الغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافيء[1].

أكمل له جل وعلا الصفات وأحسن له الأدب وأثنى عليه بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤] بأبي هو وأمي ﷺ اللهم اجمعنا معه في دار كرامتك.. فإن كانت بَعُدَت بيننا الأيام.. فاللهم لا تحرمنا شفاعته يوم القيامة يا أرحم الراحمين.

---

(١) الرحيق باختصار ص ٤٦٨.

المصادر

١ ـ الاستهزاء بالدين وأهله، د/ محمد بن سعيد القحطاني، دار الوطن ط١، ١٤١٢هـ.

٢ ـ الأذكار النووية للإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي/ دار الملاح للطباعة ١٣٩١هـ.

٣ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ـ دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٦هـ.

٤ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي ـ دار الكتب العلمية.

٥ ـ إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد/ عبدالعزيز السلمان ط١، ١٤٠٦هـ.

٦ ـ أمراض النفوس، إبراهيم محمد الجمل، دار الكتاب العربي ط٢، ١٤٠٨هـ.

٧ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ـ مطبعة المتوسط.

٨ ـ بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، تحقيق محمد الحجار.

٩ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ـ دار الكتب العلمية.

١٠ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

١١ ـ التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع ط٢، ١٤٠٧هـ.

١٢ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض، مكتبة الحياة.

١٣ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ.

١٤ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق ١٤١٠هـ.

١٥ ـ جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي، ط٥ ـ ١٤٠٠هـ.
١٦ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية، تحقيق أبي حذيفة ـ دار الكتاب العربي ط١ ـ ١٤٠٧هـ.
١٧ ـ الحسن البصري لابن الجوزي.
١٨ ـ حصائد الألسن، حسين العوايشه، دار عمار، ط٢ ـ ١٤٠٩هـ.
١٩ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم ـ دار الكتاب العربي.
٢٠ ـ ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٤٠٠هـ.
٢١ ـ الرحيق المختوم للمباركفوري، دار العلم بيروت ط٢ ـ ١٤٠٨هـ.
٢٢ ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، للإمام النووي ـ دار الجيل بيروت.
٢٣ ـ كتاب الزهد، أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، الدار السلفية بالهند، ط٢ ـ ١٤٠٨هـ.
٢٤ ـ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة السالة ١٤٠١هـ.
٢٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار إحياء التراث العربي.
٢٦ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين السيوطي ـ دار الكتب العلمية.
٢٧ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي ـ تحقيق محمود فاخوري ـ محمد رواس ـ دار المعرفة ١٤٠٥هـ.
٢٨ ـ كتاب الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا تحقيق أبي إسحاق الحويني الأثري، دار الكتاب العربي ط١ ـ ١٤١٠هـ.
٢٩ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي ـ دار الكتاب العربي، ط٢ ـ ١٤٠٧هـ.

٣٠ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية ودار المعرفة بيروت.

٣١ ـ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي السبكي، دار إحياء الكتب العربية.

٣٢ ـ عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

٣٣ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد تصوير ط١، ١٣٩٨هـ.

٣٤ ـ فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني ـ دار المعرفة.

٣٥ ـ الفوائد لابن القيم ـ دار النفائس.

٣٦ ـ كلمة الحق ـ أحمد محمد شاكر ط١ ـ ١٤٠٧هـ دار الكتب السلفية.

٣٧ ـ مختصر الشمائل المحمدية للإمام الترمذي، اختصره وحققه محمد ناصر الدين الألباني المكتبة الإسلامية ـ عمان ـ الأردن ط١ ـ ١٤٠٥هـ.

٣٨ ـ مختصر منهاج القاصدين، الإمام أحمد بن محمد المقدسي ـ تحقيق زهير الشاويش المكتب الإسلامي ط٧ ـ ١٤٠٦هـ.

٣٩ ـ منهاج القاصدين. ابن الجوزي.

٤٠ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي دار إحياء العلوم، ط١ ـ ١٤٠٣هـ.

٤١ ـ كتاب الورع للإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل، تحقيق د/ زينب القاروط، دار الكتب العلمية.

٤٢ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ.

***

الدنيا ظل زائل

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الدنيا دار ممر والآخرة دار مقروالصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

فإن من رأى تهافت الناس على الدنيا والفرح بها والجري وراء حطامها ليأخذه العجب.. فهل هذا منتهى الآمال ومبتغى الآجال؟! كأنهم ما خلقوا إلا لتحصيل المادة وجمعها واللهث ورائها. ونسوا يوماً يرجعون فيه إلى الله.

وهذا هو الجزء السابع من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان «الدنيا ظلٌ زائل» جمعت فيه نظر من كان قبلنا إلى هذه الحياة الدنيا وهم الذين أيقنوا وعلموا أنها دار ممر ومحطة توقف ثم بعدها الرحيل الأكيد والحساب والجزاء.

والكتاب فيه تذكير بالمعاد والمصير وتزويد للسائر على الطريق.

جعل الله أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

قال الله ـ جل وعلا ـ في وصف الدنيا: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر: ٣٩]. وحذر ـ سبحانه ـ من فتنة الأموال والأولاد، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [الأنفال: ٢٨]. ونهى جل وعلا عن النظر إلى مافيه أيدي الناس ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣].

والآيات الواردة في ذمِّ الدنيا وأمثلتها كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذمِّ الدنيا، وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة. فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها[١].

وها هو رسول الله ﷺ يرتسم على لسانه نظرته إلى الدنيا بقوله: «**مالي وللدنيا! إنما مثلي ومثل الدنيا: كمثل راكب قال في ظلِّ شجرة، ثم راح وتركها**». [رواه أحمد والترمذي].

ولكثرة مشاغل الدنيا وأعمال الحياة. حَثَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الاستعداد ليوم الرحيل والتزود للدار الآخرة، فقال: «**كن في الدنيا: كأنك غريب، أو عابر سبيل**»[رواه البخاري].

ومن رأى تهافت الناس على الدنيا وانكبابهم على جمع حطامها من حلال وحرام، تذكر قوله ﷺ: «**إذا رأيت الله ـ عزّ وجل ـ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**»[رواه أحمد والبيهقي].

---

(١) الإحياء باختصار: (٣/٢١٦).

ومن تعلق بالدنيا الزائفة، وجرى في اللهث وراء المادة، فإن ذلك ربما يصرفه عن: الطاعة، والعبادة، وعن تأدية الواجبات في وقتها، وعلى أتم وجه وأكمله.

قال ﷺ: **«اقتربت الساعة، ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً، ولا يزدادون من الله إلا بعداً»**[رواه الحاكم].

أما جمع الدنيا بحلال وصرفه في حلال فهذه: عبادة، يتقرب بها إلى الله ـ جل وعلا ـ أما إذا كانت من حرام، أو وضعت في حرام، فبئست الزاد إلى النار.

قال **يحيىٰ بن معاذ**: لست آمركم بترك الدنيا، آمركم بترك الذنوب: ترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، وأنتم إلى إقامة الفريضة أحوج منكم إلى الحسنات والفضائل.

والدنيا أخي الكريم: أعيان موجودة للإنسان، فيها حظٌّ وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكم، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله ـ عزّ وجل ـ فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يُصلِحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور يُمدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنفه الشره، وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الأخرى، فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على

السير، إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي: الوسطى، وهي أن يوخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاءَ النفس ما تشتهيه عونٌ لها وقضاءٌ لحقها[١].

قال **عون بن عبدالله**: الدنيا والآخرة في القلب: ككفتي الميزان، ما ترجح أحدهما تخفُّ الأخرى[٢].

ومَـــنْ يَحْمـــدِ الـــدنيـــا لعيـــشٍ يسرُّه
فســـوف لعمـــري عـــن قليـــل يلـــومُهـــا
إذا أدبـــرتْ كـــانـــتْ على المـــرءِ حسرةً
وإنْ أقبلـــتْ كـــانـــت كثيراً همـــومُهـــا[٣]

وقيل **للحسن**: يا أبا سعيد: من أشدُّ الناس صُراخاً يوم القيامة؟ فقال: رجل رُزِقَ نعمة؛ فاستعان بها على معصية الله[٤].

ولاشك أن من استعان على الدنيا بالطاعة، فإنه في خير عظيم، يتصدَّقُ، وينفق، ويساهم في نشر العلم وبناء المساجد. وهذه نعمةٌ من الله له، أن وجهه لاستعمال هذا المال فيما ينفعه في آخرته.

والإنسان: محبٌّ للمال: جامع للذهب والفضة، يجري من مولده حتى موته خلف الدرهم والدينار، ولكن ماذا يبلغ.. وأين ينتهي..؟!

يَسْعـــى الفتـــى لأمـــورٍ ليـــس يـــدركُهـــا
والنفـــسُ واحـــدةٌ والهـــمٌّ منتشرُ

---

(١) مختصر منهاج القاصدين: (٢١١).
(٢) تزكية النفوس: (١٢٩).
(٣) بستان العارفين: (١٧).
(٤) الحسن البصري: (٤٧).

فـــالمـــرء مـــا عـــاش ممـــدودٌ لـــه أجـــلٌ
لا تنتهـــي العين حتـــى ينتهـــي الأثـــرُ

والدنيا مقبلةٌ ومدبرة.. فمِنْ غِنَىً إلى فَقْرٍ، ومن فرح إلى ترَوح، لا تبقى على حال، ولا تستمرُّ على منوال.. فهذه سُنَّةُ الله في خَلْقِهِ.. والناس يجرون خلف سراب.. سنوات معدودة وأيام معلومة.. ثم تنقضي.

ومـــا هـــي إلا جيفـــةٌ مستحيلـــةٌ
عليهـــا كـــلابٌ هُمُّهُـــنَّ اجْتِـــذَابُهـــا
فـــإنْ تجتنبْهـــا كنـــت سلْمـــاً لأهلهـــا
وإنْ تجتـــذبْهـــا نـــازعتْـــكَ كـــلابُهـــا[(١)]

قال عمر بن الخطاب: الزهد في الدنيا راحة القلب، والبدن[(٢)].

وقال الحسن: أدركتُ أقواماً لا يفرحون بشيء من الدنيا أتوه، ولا يأسفون على شيء منها فاتهم[(٣)].

وجماع ذلك قول الإمام: الزهد في الدنيا: قصر الأمل[(٤)].

والمؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه فيها على جناح سفر[(٥)].

وهذا هو الفهم الصحيح.. والعلم النافع.. ذكر ذلك يحيىٰ بن معاذ

---

(١) شذرات الذهب: (٢٠/١٠).
(٢) تاريخ عمر: (٢٦).
(٣) الزهد لأحمد: (٢٣٠).
(٤) مدارج السالكين: (٢/١١).
(٥) جامع العلوم: (٣٧٨٠).

فقال: كيف لا أحب دنياً، قُدِّرَ لي فيها قوت، أكتسب به حياة، أدرك بها طاعة. أنال بها الجنة[١].

هذا هو مَنْ يُغبطُ في هذه الدنيا، لا أصحاب الدُّور والقصُور.. المُفرِّطون في العبادات، والمضيِّعون للطاعات.

إذا ما كساك الدَّهرُ ثوباً لصحةٍ
ولَمْ تخلُ من قوتٍ يحلُ ويعذُبُ
فلا تَغْبِطَنَّ المُترفين فإنه
على حسب ما يعطيهم الدهرُ يسلُبُ[٢]

وقال عبدالله بن عمر: إن الدنيا: جنة الكافر، وسجن المؤمن.. وإنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه، كمثل رجل كان في سجن فأُخْرِجَ منه، فجعل يتقلَّبُ في الأرض ويتفسَّحُ فيها[٣].

أيها الناس! إنَّ سهام الموت صُوِّبتْ إليكم، فانظروها، وحِبَالَةُ الأمل قد نُصبتْ بين أيديكم، فاحذروها، وفتن الدنيا قد حاطت بكم من كلِّ جانب، فاتقوها، ولا تغتروا بما أنتم فيه من حسن الحال، فإنه إلى زوال، ومقيمة إلى ارتحال، وممتدة إلى تقلُّص واضمحلال[٤].

تمرُّ بنا الأيام تَتْرَى وإنما
نُساقُ إلى الآجالِ والعينُ تَنْظُرُ

---

(١) تزكية النفوس: (١٢٨).
(٢) الزهد للبيهقي: (١١٦).
(٣) شرح الصدور: (١٣).
(٤) العاقبة: (٦٩).

فــلا عـــائــدٌ ذاك الشبــابُ الــذي مضــى
ولا زائـــلٌ هـــذا المشيــبُ المكَــدَّر[١]

فمن تفكَّر في عواقب الدنيا أخذ الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر[٢].

وقد لهونا في هذه الدنيا . . وتتابعت ذنوبٌ خلف ذنوب.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

عن أنس بن عياض قال: رأيت **صفوان بن سليم**، ولو قيل له: غداً القيامة ما كان عنده مزيد على ماهو عليه من العبادة[٣].

عجبت لحالنا . . الدنيا مولية عنا، والآخرة مقبلة علينا، ونشتغل بالمدبرة، ونعرض عن المقبلة . . كأننا لن نصل إليها . . ولن نحطَّ رحالنا فيها . .

وقد قال عمر بن عبدالعزيز في خطبته: إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء، وكتب الله على أهلها منها الظعن، فكم من عامر موثق عن قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا ـ رحمكم الله ـ منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطناً، فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين، إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة، همُّه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم

---

(١) شذرات الذهب: (٦/ ٢٣١).
(٢) صيد الخاطر: (٢٥).
(٣) السير: (٥/ ٣٦٦).

ألبتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة[١].

فما فرحتْ نفسي بدُنياً أخذتُها
ولكنْ إلى المَلِكِ القَديرِ أَصِيرُ
ومَالِي شيءٌ غيرُ أنِّي مُسلمٌ
بتوحيدِ ربِّي مُؤمنٌ وخبيرُ[٢]

والناس تتصارع وتتكالب على هذه الدنيا.. يفقد البعض دينه، وينسى الكثير أبناءه.. انتشرتِ الأحقاد.. وزُرعت الضَّغائن.. وعَمَّتِ البغضاء.. لنرى كيف نظر الفضيل إلى هذه الدنيا بقوله: لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالي من أكل الدنيا.

أخي الحبيب:

تبلَّغْ من الدنيا بأيسر زَادِ
فإنَّكَ عنها راحلٌ لمعادِ
وغُضَّ عن الدنيا وزُخرفِ أهلِها
جُفونَك وأكْحلْها بطيب سُهادِ
وجَاهِدْ عن اللذَّات نَفْسكَ جاهِداً
فإنَّ جهادَ النَّفس خَيرُ جِهادِ
وما هي إلاَّ دارُ لهوٍ وفتنةٍ
وإنَّ قُصارى أهْلِها لِنَفادِ[٣]

قال بلال بن سعد ليذكرنا بمآلنا ومصيرنا: يا أهل التقى، إنكم لم تخلقوا

---

(١) جامع العلوم: (٣٧٩).
(٢) شذرات الذهب: (٢/١١٩).
(٣) المنتخب: (٤٠١).

للفناء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار[١].

ولذلك قال الحسن: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه باب شُغْلٍ. إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[٢].

وقال ابن السماك: من جرعته الدنيا حلاوتها لميله إليها، جَرَّعَتْهُ الآخرة مرارتها لتجافيه عنها[٣].

أيـــا نَفْـــسُ وَيْحَـــكِ جَـــاءَ المَشِيـــبُ
فمـــاذا التَّصَـــابِي ومـــاذا الغَـــزَلْ
تَـــولَّ شَبـــابِي كـــأَنْ لَمْ يكـــنْ
وجـــاءَ مَشِيبِـــي كـــأن لم يَـــزَلْ
كـــأَنِّي بنفسِي عَلَى غِـــرَّةٍ
وخَطْـــبُ المَنُـــونِ بهـــا قَـــدْ نَـــزَلْ[٤]

أخي الحبيب:

أساس كلِّ خير أن تعلم: أن ماشاء كان، ومالم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرَّع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك

(١) السير: (٥/ ٩١).
(٢) الزهد لابن المبارك: (١٨٩).
(٣) شذرات الذهب: (١/ ٣٠٤).
(٤) وفيات الأعيان: (٣/ ٣١٠).

وبينها، ولا يَكِلَكَ في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك[١].

عندما سُئل إبراهيم بن أَدْهَم: كيف أنت؟ قال:

نُــرقِّـــعُ دُنْيــانــا بتَمْــزِيــق ديننــاَ فــلا دِينُنَــا يَبقَــى ولا مَــا نُــرَقِّــعُ

فَطُـــوبَـــى لعبـــدٍ آثــــر الله ربَّـــهُ وجَــادَ بــدُنْيــاهُ لِمَــا يُتَــوَقَّــعُ

إن من علامات حبِّ الدنيا: حُبَّ أهل الدنيا، والتملق لهم، ومحاباتهم، وعدم إنكار منكرهم.. وقد أكد ذلك سفيان الثوري بقوله: إني لأعرف حبَّ الرجل للدنيا، بتسليمه على أهل الدنيا[٢].

وانظر إلى الفقير الصالح المتعفِّفِ.. لا يُتحدَّثُ معه.. بل ويسلَّمُ عليه سلام من يخاف أن يُعْدِيَهُ بفقره.. السلام: بأطراف الأصابع.. والسؤال عن الحال: فيه عُبوس وجه، وسوء أدب.

والتفت ـ أخي ـ يمنةً لترى كيف وقف القوم.. يهلِّلون ويرحبون.. مَنِ القادِمُ؟ إنه من أهل الدنيا.. من حاز الدينار والدرهم.. وربما أنه لا يصلي..

وربما يَصُمُّ الآذانَ، ويزكِّمُ الأنوفَ.. سوءُ عمِله.. ولكن انظر الفرق.. بين من لو أقسم على الله لأبَرَّهُ، وكيف هو لا يُسأل عنه، إن غاب أو حضر، وبين من لا يزن عند الله جناح بعوضة كيف استقباله والحفاوة به..

---

(١) الفوائد: (١٢٧).

(٢) حلية الأولياء: (٧/ ٣٧).

إنها الدنيا . .

واعلـــم بـــأنَّ المَـــرْءَ غيرُ مُخلَّـــدٍ
والنـــاسَ بَعْـــدُ لغيرهـــم أخبـــارُ

قال **عبدالله بن عون**: إن من كان قبلنا كانوا يجعلون للدنيا مافَضَل عن آخرتهم، وإنكم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم(١).

أخي المسلم:

إن عمر الدنيا والله قصير، وأغنى غَنيٍّ فيها فقير، وكأني بك في عَرْصَةِ الموت، وقد استنشقت ريح الغربة قبل الرحيل، ورأيت أثر اليتم في الولد قبل الفراق، فتيقظ إذن من رقدة الغفلة، وانتبه من السكرة، وأقلع حب الدنيا من قلبك، فإن العبد إذا أغمض عينه وتولَّى، تمنى الإقالة فقيل كلاَّ(٢).

في يوم من أيام الحياة ستدبر الدنيا وتقبل الآخرة.. وما كان بعيداً أضحى قريباً.. وما كنتَ تراه في الذَّاهِبينَ.. سيراه الأحياء فيك.. موتٌ فجأة.. أو مرض بغتة.. أو أنت على فراشك تحمل إلى قبرك.. إنها عِبرٌ تُرى ومصارع تَتْرَى.. ونحن في غفلتنا نائمون.. وفي غيِّنا تائهون.

تَبّـــاً لطـــالـــب دنيـــا لا بقـــاءَ لهـــا
كـــأنمـــا هـــيِ في تصريفهـــا حُلْـــمُ
صَفَـــاؤهـــا كَـــدَرٌ، سرَّاؤُهـــا ضَررٌ
أَمَـــانُهـــا غَـــرَرٌ، أَنْـــوَارُهـــا ظُلَـــمُ

---

(١) صفة الصفوة: (٣/١٠١).

(٢) عدة الصابرين: (٣٢٩).

شَبَــابُهَــا هَــرَمٌ، راحــاتُهَــا سَقَــمٌ
لــذَّاتُهَــا نَــدَمٌ، وُجْــدَانُهَــا عَــدَمٌ
لا يستفيـــقُ مـــن الأنكـــادِ صـــاحبُهَـــا
لـــو كـــان يَمْلِـــك مـــا قـــد ضمنـــتْ إرَمُ
فخَـــلِّ عنهـــا، ولا تـــركـــنْ لـــزهْـــرتِهَـــا
فـــإنهـــا نِعَـــمٌ في طيِّهـــا نِقَـــمُ
واعمـــلْ لـــدَارِ نَعيـــم لا نفـــادَ لهـــا
ولا يُخَـــافُ بهـــا مـــوتٌ ولا هـــرمُ[(١)]

قال أبو حازم: من عرف الدنيا لم يفرح فيها برخاء.. ولم يحزن على بلوى.

وقال علي بن أبي طالب: من جُمِعَ فيه ستُّ خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً، أولها: من عرف الله وأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها[(٢)].

وحُسْـــنُ ظَنِّـــكَ بـــالأيـــام معجـــزةٌ
فظـــنَّ شرًّا وكـــنْ منهـــا على وجَـــلَ

والوجل ـ أخي الكريم ـ هو الخوف مما ذكره الفضيل بن عياض بقوله: الدخول في الدنيا هَينٌ، ولكن الخروج منها شديد[(٣)].

والخروج أنفاس تتوقف.. ولحظات عصيبة.. تُنتزَعُ فيها الرُّوح

---

(١) مكاشفة القلوب: ٣٢٩).
(٢) الإحياء: (٣/ ٢٢١).
(٣) الإحياء: (٣/ ٢٢٤).

انتزاعاً. . وحتى إن كان الخروج سهلاً، فإن الجري وراء الدنيا واللهث وراء المادة. . يجلب تشتت الذهن وكثرة الهموم. . واضطراب النفس.

أرى الدُّنيا لِمَنْ هي في يديهِ
هُموماً كلَّما كثُرتْ لَديْهِ
تُهينُ المُكْرمينَ لها بصُغْرٍ
وتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هانتْ عَلَيْهِ
إذا استغْنَيتَ عن شيءٍ فَدَعْهُ
وخُذْ ما أنتَ مُحتاجٌ إليهِ[١]

أخي الحبيب:

كن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع الأم، والدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها، فكيف تَعْدُو خلفها[٢]؟.

انفضْ يَديكَ من الدنيا وساكِنِها
فالأرضُ قَدْ أَقفرتْ والناسُ قد ماتوا[٣]

قالت امرأة حبيب بن محمد: كان يقول: إن متُّ اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني، وافعلي كذا واصنعي كذا، فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟ قالت: هذا قوله كل يوم[٤].

أخي. . إذا استغنى الناس بالدنيا، فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرحْ أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعلْ أنسك بالله، وإذا

---

(١) الإحياء: (٢/ ٣٤٤).
(٢) الفوائد: (٦٨).
(٣) شذرات الذهب: (٣/ ٣٨٨).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٣٢٠).

تعرَّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقرَّبوا إليهم؛ لينالوا بهم العزة والرفعة، فتعرَّفْ أنت إلى الله، وتودَّدْ إليه تنلْ بذلك غاية العزِّ والرفعة[١].

وخطب عمر بن عبدالعزيز فقال في خطبته: لكل سفر زاد، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدَّ الله له من عذابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم. وتنقادوا لعدوكم، فإن الله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يمسي بعد إصباحه، ولا يصبح بعد إمسائه، وربما كانت له كامنة بين ذلك خطرات الموت والمنايا، وإنما يطمئنُّ من وثق بالنجاة من عذاب الله وأهوال يوم القيامة، فأما من لا يداوي من الدنيا كَلْما إلا أصابه جارح من ناحية أخرى، فكيف يطمئنُّ؟ أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي وتبدو مسكنتي في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق[٢].

يا لاهياً بالمَنايا قد غَرَّهُ الأَمَلُ
وأنتَ عمَّا قَليلٍ سوف ترتحِلُ

تبغي اللُّحوقَ بلا زادٍ تُقَدِّمُهُ
إنَّ المُخِفِّين لَمَّا شَمَّروا وصَلُوا

لا تركننَّ إلى الدنيا وزُخرُفِها
فأنتَ من عاجل الدنيا ستنتقِلُ

أصبحت ترجو غداً يأتي وبعدَ غدٍ
وربَّ ذي أملٍ قدْ خانَه الأَمَلُ

---

(١) الفوائد: (١٥٢).
(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٢٨٣).

هـــذا شبـــابُـــكَ قـــد ولَّـــتْ بشـــاشتُـــهُ
مـــابَعْـــدَ شَيْبِـــكَ لا لهـــوٌ ولا جَـــدَلُ
هـــذا التعلُّـــلُ بـــالـــدنيـــا وقـــد نشَرَتْ
لأَهْلِهـــا صِحـــةً في طَيِّهـــا عِلـــلُ(١)

قال محمد بن أبي عمران: سمعت حاتماً الأصم وسأله رجل: على ما بنيت أمرك هذا في التوكل على الله؟ قال: على خصالٍ أربع: علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فاطمأنت به نفسي، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أُبادره، وعلمت أني لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مستحي منه.

زعـــم الـــذيـــن تشرَّقُـــوا وتغـــرَّبـــوا
أنَّ الغـــريـــب وإنْ أُعِـــزَّ ذَلِيـــلُ
فـــأجبتُهـــم إنَّ الغـــريـــبَ إذا اتقـــى
حيـــثُ استقَـــلَّ بـــه الـــرّكـــابُ جَلِيـــلُ(٢)

قال عبدالله بن المبارك: يا ابن آدم.. استعدَّ للآخرة، ، وأطعِ الله بقدر حاجتك إليه، وأغضبِ الله بقدر صبرك على النار.

سبحانك ربنا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.. نعصيك بجهلنا وتعفو برحمتك.

* هذا الفضيل بن عياض يصوِّرُ حال المؤمن في هذه الدار بقوله: المؤمن في الدنيا مهموم حزين.. هَـمُّه مرمة جهازه، ومن كان في الدنيا كذلك،

---

(١) التبصرة: (١/ ٤٩).
(٢) شذرات الذهب: (٦/ ٣٤٩).

فلا همَّ له إلا التزودُ بما ينفعه عند العود إلى وطنه، فلا ينافس أهل البلد الذي هو غريب بينهم في عزّهم، ولا يجزع من الذّل عندهم[١].

إنَّمـــــا الـــــدُّنيـــــا فنـــــاءٌ
ليـــــس للـــــدُّنيـــــا ثُبـــــوتُ
إنمـــــا الـــــدنيـــــا كبيـــــتٍ
نَسَجتْـــــهُ العَنكبُـــــوتُ[٢]

قال وهب بن الورد: اتق أن تسبَّ إبليس في العلانية وأنت صديقه في السرِّ.

فهذا إبليس، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى أرسوا قلاعهم ليصدوا المسلم عن دينه ويزينوا له العثرات.. فإنهم يعملون في هذه الدنيا لصدِّه عن الحق وتزيين المعصية.

أخي الحبيب:

الدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخفي السابق، والناس في المضمار بين فارس وراجل وأصحاب حمر معقرة..

ســـــوف تـــــرى إذا انجَلَى الغُبَـــــارُ
أَفَـــــرسٌ تَحْتَـــــكَ أَمْ حِمَـــــارُ

ونحن نسير إلى آجالنا.. تنقُصُ أعمارنا وتدنو نهاياتنا.. نسير: لاهونَ غافلون، لا نحسب لهذا اليوم حساب.. ولا نتجهز ليوم المعاد.

قال الحسن: تؤمِّل أن تُعمَّر عُمر نوح، وأمر الله يطرق كل ليلة[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٣٧٩).
(٢) الشافعي: (٥٤).
(٣) الزهد: للحسن البصري.

يــــؤمِّـــــلُ دنيـــــا لِتبقَـــــى لَـــــهُ
فـــــوافَى المَنيَّـــــةَ قبـــــلَ الأمَـــــلِ
حثيثـــــاً يـــــروي أُصـــــولَ الفَسِيـــــلِ
فعـــاشَ الفَسِيـــلُ ومَـــاتَ الـــرَّجـــلُ[1]

قال أبو حازم سلمة بن دينار: إن كان يغنيك من الدنيا ما يكفيك، فأدنى عيش من الدنيا يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك، فليس شيء يكفيك[2].

فوالله رأينا من يملك الدنيا رَحَل بكَفَنٍ.. ورأينا من لا يملك من الدنيا شيئًا رحل بكفن.. تساوى الجميع عند هذه الحفرة ـ القبر ـ واختلفوا في داخلها.. فإما روضة من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار.

إنمـــا الـــدنيـــا إلى الجنـــة والنـــار طـــريـــقٌ
والليـــالي مَتْجـــر الإنســـانِ والأيـــامُ سُـــوقٌ[3]

عندما سُئل أبو صفوان الرّعيني: ما هي الدنيا التي ذمها الله في القرآن، والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟ فقال: كل ما أحببت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أحببت منها تريد به الآخرة فليس منها[4].

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يصف الدنيا: حلالها حساب، وحرامها النار.

وقيل: أُوحي إلى داود ـ عليه السلام ـ: يا داود: إني لأنظر إلى الشيخ في

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٦٥).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ١٥٨).
(٣) الزهد: للبيهقي: (٣١٧).
(٤) تزكية النفس: (١٢٨).

كل يوم صباحاً ومساءً أقول له: ياعبدي، كبر سنك، ورق جلدك، ودقَّ عظمك، وحان قدومك عليَّ، فاستحي مني فإني أستحي منك[١].

يــــا بــــؤس لـــلإنســـانِ في الـ دنيـــا وإن نـــال الأمـــلَ

يعيـــشُ مكتـــوم العِلَـــلِ فيهـــا ومكتـــوم الأجَـــلِ

بينـــا يُـــرى في صِحـــةٍ مُغْتَبَطـــاً قِيـــل اعْتلَـــلَ

وبينمـــا يُـــوجـــد فيـ هـــا ثـــاويـــاً قِيـــل انتقـــلَ

فـــأوفَـــرُ الحـــظِّ لمـــنْ يتبعُـــهُ حُسْـــنُ الْعَمَـــلِ[٢]

قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ ياابن آدم، إنما هي أيام إذا مضى يومك ينقصك.

ولهفنا ولهثنا وراء الدنيا.. نخاف من الفقر ونطمع في جمع الحُطام.. كأننا نُخلَّد أو نبقى فيها إلى الأبد.. نخاف الفقر، ولا نخاف الحساب.. نخاف الجوع، ولا نخاف من التقريع والعقاب.

قال يحيى بن معاذ ـ رحمة الله عليه ـ: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة[٣].

---

(١) الزهر الفائح: (٤٢).
(٢) تاريخ بغداد: (١٠/ ٣٦٧).
(٣) الإحياء: (٤/ ١٧٠).

وانظر إلى حال من سلف كما قال عنهم الحسن البصري: والذي نفسي بيده، لقد أدركتُ أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه.

نَذمُّ زماناً ماله من جِنايةٍ
ونشكوه لو يُغني عن المرءِ شكواهُ
ولا ذنبَ فيها للزمَّانِ وإنما
جَنيْنَا فعُوقبنا بما جَنيْنَاه
هو القَدَرُ الجاري على الكُرهِ والرِّضا
فصبراً وتسليماً لما قَدَّر الله[1]

قال الفضيل، يُفصِّلُ واقع الأيام، ويحكى سيرها: إنما أمس: فعل، واليوم: عمل، وغداً. أمل[2].

أخي المسلم:

إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدِّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإنَّ انقطاع السفر عن قريب ما هو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقضِ ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بَغتك.

كتب بعض السلف إلى أخ له: ياأخي: يخيل إليك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت متوجه إليك، والدنيا تطوى من ورائك. وما مضى من عمرك فليس بكارٍّ عليك يوم التغابن[3].

ونحن نسير في ركب الزاهدين، وتمرُّ بنا قوافل الصالحين.. كيف نرى

(١) جنة الرضا: (٢/ ٢٦٠).
(٢) السير: (٨/ ٤٢٧).
(٣) جامع العلوم والحكم: (٣٨١).

الجمع بين الدنيا والآخرة . . وبين الزهد والقناعة . . قال علي بن الفضيل : سمعت أبي يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ، ونراك تأتي بالبضائع ، كيف ذا؟ قال : ياأبا علي ، إنما أفعل ذلك لأصون وجهي ، وأكرم عرضي ، وأستعين به على طاعة ربي ، قال : يا ابن المبارك . . ما أحسن هذا إن تم هذا ! !

أخي الحبيب:

كيف ترانا على هذه الدنيا؟! ما أحسن الدنيا إذا أتت من حلال . . وصرفت في حلال . . فأوجه الخير لا تُحصى . . فمِنْ : صدقة ، إلى إعانة ملهوف ، ونجدة مصاب . . إلى رعاية أرامل ، وكفالة أيتام .

أخي . . قال سفيان : احذر سخط الله في ثلاث : احذر أن تقصر فيما أمرك ، واحذر أن يراك وأنت لا ترضى بما قسم لك ، وأن تطلب شيئاً من الدنيا فلا تجده أن تسخط على ربك .

إن من قَسَّمَ الأرزاق في هذه الدنيا هو : الله ، فلابد أن ترضى لما قسم لك قَلَّ أو كثُر . . أتى أو ذهب . . وسواء أقبلت الدنيا أو أدبرت . . لابد أن ترضى بنصيبك منها لا تُشغل بالك . . فلا تسخط لما قسم لك الله ، ولا تنظر إلى من أعلى منك دنيا ، ولكن انظر إلى الصالحين والأخيار . .

مَنْ شاء عَيْشاً رحيباً يستطيلُ به
في دينه ثمَّ في دُنياه إقْبالاً
فَلْيَنْظُرنَّ إلى مَنْ فوقَهُ وَرَعاً
ولْينظُرنَّ إلى مَنْ دُونَهُ مَالاً[1]

---

(١) الإحياء : (٤/ ١٣١).

وخيرٌ من ذلك كلِّه ماقاله ـ جل وعلا ـ في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

قال إبراهيم الأشعث: سمعت **الفُضَيل** يقول: رهبة العبد من الله على قَدْرِ علمهِ بالله وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة. من عَمِلَ بما عَلِمَ استغنى عمَّا لا يعلم، ومن عمل بما علم وفَّقه الله لما يعلم، ومن ساء خلقه شان دينه وحسبه ومروءته(١).

قال **بعض الزهاد**: ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها: بذكرٍ، أو صلاةٍ، أو قراءةٍ، أو إحسانٍ، فقال له رجل: إني أكثر البكاء، فقال: إنك إن تضحك مُقرٌّ بخطيئتك خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلّ بعملك. وإن المدلّ لا يصعد عمله فوق رأسه، فقال: أوصني فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكُنْ في الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طَيِّباً وإن أطعمت أطعمت طيباً، وإن سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه(٢).

أخي الحبيب:

ما تذكَّر أحدٌ الموت إلا هانت الدنيا في عينه، وزالت الغشاوة من أمام ناظره.. فإنها سنوات معدودة مهما جمعت فيها ومهما حصلت على كنوزها؛ فإن وراء ذلك هادم اللذات ومفرق الجماعات.

قال الحسن: إن الموت فضح الدنيا، فلم يترك لذي لُبٍّ فيها فرحاً(٣).

وأي فرح ـ أخي ـ وها هي الدنيا..

---

(١) السير: (٨/٤٢٦).
(٢) الفوائد: (١٥٣).
(٣) تاريخ بغداد: (١٤/٤٤٤).

قَـــد نَـــادتِ الـــدُّنيـــا على نَفْسِهـــا
لَـــو كَـــانَ في العَـــالَمِ مَـــنْ يَسَمـــعُ
كَـــمْ واثـــقٍ بـــالعُمـــرِ أَفْنيتُـــهُ
وجَـــامِـــعٍ بَـــدَّدتُّ مـــا يَجْمـــعُ[1]

قال أبو عبيدة الناجي ـ رحمه الله ـ: دخلنا على الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في يومه الذي مات فيه، فقال: مرحباً بكم وأهلاً، وحيّاكم الله بالسلام، وأحلَّنا وإياكم دار المُقام، هذه علانية حسنة إن صدقتم وصبرتم، فلا يكونن حظكم من هذا الأمر أن تسمعوه بهذه الآذان، وتخرجوه من هذه الأفواه، فإن مَنْ رأى محمداً رسول الله ﷺ رآه غادياً ورائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له علم فشمَّر إليه.. الوحا الوحا، النجاء النجاء، علام تعرجون؟ ارتبتم ورب الكعبة، كأنكم والأمر معاً، رحم الله امرءاً جعل العيش عيشاً واحداً، فأكل كسرة، ولبس خلقاً، ولصق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وفرَّ من العقوبة، وطلب الرحمة، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[2].

قال النابغة الجَعْدي عن الدنيا وحال الإنسان فيها:

المَـــرْءُ يـــرغَـــبُ في الحيـــا
ةِ وطُـــولِ عيـــشٍ قـــد يَضُرُّهُ
تَفْنَـــى بشَـــاشتُـــهُ ويَبْـ
قَـــى بَعْـــدَ حُلـــو العَيْـــش مُـــرُّهُ

---

(١) طبقات الشافعية: (٦/٧٨).
(٢) العاقبة: (٨٩).

وتَسُــــــــوءُهُ الأيّـــــــــام حَتَّـ
ـــــى مــــا يَــــرَى شيئـــاً يَسُـــرُّهُ

روى أبو كبشة عن النبي ﷺ قال: «**إنما الدنيا أربعةُ نَفَر: عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحمهُ، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل. وعبدٌ رزقه الله علماً، ولم يرزقْه مالاً؛ فهو صادق النيّة، فيقول لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعمل فلانٍ، فهو بنيته فأجرُهما سواءٌ. وعبدٌ رزقه الله مالاً ولم يرزقْهُ علماً فهو يتخبَّطُ في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصلُ فيه رحمه، ولا يعلم فيه لله حقًّا، فهذا بأخبث المنازلِ. وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، وهو يقول: لو أن لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلانٍ؛ فهو بنيَّتِهِ فوزْرُهما سواءٌ**»[1][2].

أخي الحبيب:

يكفي من الدنيا أنها مزرعة الآخرة، وأنها موسم العبادات وزمن الطاعات، وفيها نتزوَّد للآخرة.. ونسير مرحلة إلى الآجلة.

لا تُتبِــــع الـــدُّنيـــا وأيّـــــامَهــــا
ذمًّـــــا وإنْ دارتْ بـــــكَ الـــــدَّائـــــرةْ
مِــــنْ شَرَفِ الـــدنيـــا ومِــــنْ فَضْلِهـــا
أنَّ بهـــــا تُستــــــدركُ الآخـــــرةْ[3]

قال الفضيل ـ رحمه الله: جعل الله الشرُّ كلَّه في بيت، وجعل مفتاحه

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٤٢٩).
(٢) الحديث رواه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح [تحفة الأحوذي] (٦/ ٦١٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.
(٣) أدب الدنيا والدين: (١٣٤).

حبَّ الدنيا، وجعل الخير كلَّه في بيت مفتاحه الزهد في الدنيا[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال عبدالله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، أي كان لا ينام طول الليل، يصلِّي ويسبِّح ويستغفر.. يستدرك ما مضى من عمره ويستعدُّ لما أقبل من أيامه.

إنَّ لله رِجَـــالاً فُطَنَـــا ... طَلَّقــوا الــدُّنيــا وخــافــوا الْفِتَنَــا

نَظَـــروا فيهـــا فلمَّـــا عَلِمـــوا ... أنَّهـــا ليســـتْ لِحَـــيٍّ وَطَنَـــا

جَعَلُـــوهـــا لُجَّـــةً واتَّخَـــذُوا ... صَـــالِـــحَ الأعمـــالِ فيهـــا سُفُنَـــا

كان عبدالله بن ثعلبة يقول في موعظته: تضحك يا هذا ولعلَّ أكفانك عند القصَّار!![٢].

يا راقداً وقد أُوذن بالرحيل، يا مشيد بالبنيان في مدارج السيول، بادر العمل قبل انقضاء العمر.. لا تنس من يعدُّ الأنفاس للقائك.

أخي الحبيب:

خـــذْ مِـــنَ الـــرِّزْقِ مـــا كَفَـــا ... ومِـــنَ الْعيْـــشِ مـــا صَفَـــا

---

(١) الإحياء: (٤/٢٥٧).

(٢) العاقبة: (٨٨).

كُــــــلُّ هـــــــذا سَيَنْقَضِي
كَسَرَاجٍ إذا انْطَفَـــــــــــــا

قال يحيى بن معاذ: الدنيا ذات اشتغال، والآخرة دار أهوال، ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال حتى يستقرَّ به القرار، إما إلى جنة وإما إلى نار[١].

أخي المسلم:

من بذل وسعه في التفكر التام، علم أن هذه الدار رِحْلَةٌ، فجمع للسفر رَحْلَهُ، ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات، ثم إلى الدنيا، ثم إلى القبر، ثم إلى الحشر، ثم إلى دار الإقامة الأبدية، فدار الإقامة هي دار السلام من جميع الآفات، وهي دار الخلود، والعدوُّ سبانا إلى دار الدنيا، فنجتهد في فِكَاكِ أسْرنا، ثم في حثّ السير إلى الوصول إلى دارنا الأولى. وليُعلم أن مقدار السَير في الدنيا يسير ويقطع بالأنفاس، ويسير بالإنسان سير السفينة لا يحسُّ بسيرها وهو جالس فيها.

ولابدَّ له في سفره من زاد، ولا زاد إلى الآخرة إلا التقوى، فلابد من تعب الشخص والتَّصبرُ على مرارة التقوى، لئلا يقول وقت السير: ربِّ ارجعون، فيقال: كلا، فلينتبه الغافل من كسل مسيره، فإن الله تعالى يريه في قطع مسافة سفره آيات يرسلها تخويفاً لعباده، لئلاً يميلوا عن طريقهم المستقيم، ونهجهم القويم، فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة، فرأى ما يخاف منه، فليرغب إلى الله بالرجوع إليه عما ارتكبه من السبل، فيتوب من معصيته[٢].

---

(١) الزهد: للبيهقي: (٢٤٨).
(٢) عدة الصابرين: (٣٣٠).

والحال في الدنيا كما وصفها **الرَّبيعُ بن خُثيم** عندما سُئل: كيف أصبحت يا أبا يزيد؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا[١].

وكان **شميط بن عجلان** يقول إذا وصف أهل الدنيا: حيارى سكارى، فارسهم يركض، وراجلهم يسعى سعياً، لا غنيهم ولا فقيرهم يقنع[٢].

أخي:

خُـــذِ القَنـــاعـــة مِـــنْ دُنْيـــاكَ وارضَ بهـــا
لَـــو لَمْ يكـــنْ لـــكَ فيهـــا إلاَّ راحـــةَ البَـــدَنِ

ومن استعد للقاء الله، واستثمر أوقاته فيما يعود عليه نفعها في الآخرة؛ فإنه سيفرح يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.. يوم تتطاير الصحف، وترتجف القلوب، وتتقلب الأفئدة.. وترى الناس سكارى وماهم بسكارى.. ولكن عذاب الله شديد.

قال **أنس بن عياض**: رأيت صفوان بن سليم.. ولو قيل له غداً القيامة، ما كان عنده مزيدٌ على ماهو عليه من العبادة[٣].

هؤلاء قوم جاهدوا أنفسهم.. وتفكَّروا في آخرتهم.. واستعدوا لمعادهم.

إذا مـــــــاعَـــــــدَتِ النَّفْـــــــسُ
عَـــــنِ الْحَـــــقِّ زَجَـــــرْنَـــــاهـــــا

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٦٧).

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٣٤٦).

(٣) حلية الأولياء: (٣/ ١٥٩).

وإنْ مـــالَــتْ إلى الــدُّنيـــا
عـــن الأخْـــرَى مَنَعْنَـــاهَـــا
تُخَـــادِعُنـــا ونَخْـــدَعُهـــا
وبـــالصَّبرْ غَلَبْنَـــاهـــا[١]

قال محمد بن الحنفية: كل ما لا يُبتغَى به وجه الله يضمحلُّ[٢].

فمن أراد الدنيا للدنيا انقطعت عنه مع أنفاسه الأخيرة.. وولت هاربة عنه في لحظاته الرهيبة.. ومن أراد الدنيا طريقاً إلى الآخرة وسبلاً إلى جنة عرضها السموات والأرض، فحسبه ماطرق.. وسبيله إلى دار السلام برحمة من الله ورضوان.

وأهل الطاعة والصلاح قومٌ مِثْلُنا يحبُّون الدنيا وزينتها، ولكنهم قدَّموا باقية على فانية، فسهل الله لهم الطريق وأذل لهم الصعاب.

صَبرْتُ على اللـــذَّات لّمـــا تـــولَّـــتْ
وألـــزمـــتُ نَفْسي صبرَهـــا فـــاستمـــرَّتْ
وكـــانـــتْ علىَ الأيَّـــام نَفْـــسٌ عَـــزِيـــزةٌ
فلمَّـــا رأَتْ عَـــزْمـــي على الـــذُّل ذَلَّـــتْ
فقلـــتُ لهـــا يـــا نَفْـــسُ مُـــوتي كـــريمـــةً
فقـــدْ كـــانـــتِ الـــدنيـــا لنـــا ثـــمَّ ولَّـــتْ
خَليلِي لا والله مـــا مِـــنْ مُصيبـــةٍ
تمـــرُّ على الأيّـــام إلا تَجَلَّـــتْ

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١١٤).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١٧٦).

ومـــا النفـــسُ إلاّ حيـــثُ يجعلُهـــا الفتـــى

فـــإنْ أطعـــتْ تـــاقـــتْ وإلاّ تسلّـــتْ[١]

قال رجل للفضيل بن عياض: كيف أصبحت يا أبا علي؟

فكان يثقل عليه، كيف أصبحت؟ وكيف أمسيتَ؟! فقال: في عافية، فقال: كيف حالك؟ فقال: عن أي حالٍ تسأل؟ عن حال الدنيا أو حال الآخرة؟ إن كنتَ تسأل عن حال الدنيا فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كلَّ مذهب، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة، فكيف ترى حال مَنْ كثُرتْ ذنوبه، وضعف عمله، وفني عمره، ولم يتزوَّد لمعاده، ولم يتأهب للموت، ولم يخضع للموت، ولم يتشمَّر للموت، ولم يتزيَّن للموت.. وتزيَّن للدنيا[٢].

وحال الكثير مِنَّا يصفه عوف بن عبدالله حينما قال: إن من كان قبلكم كانوا يجعلون للدنيا ما فَضَلَ عن آخرتهم، وإنكم اليوم تجعلون لآخرتكم ما فَضَل عن دنياكم[٣].

ومانراه اليوم من بذل الأوقات والجهد والأخذ والعطاء والتدقيق والتمحيص لأجل الدنيا لوجدنا العجب.. حتى أن البعض لو أراد شراء حاجة حقيرة أشغل نفسه أياماً عديدة، وأضاع من أوقاته ساعات ثمينة.. ولو رأيته في المسجد لرأيت نقر الصلاة وعدم الاهتمام بركوعها وسجودها.. بل ومسابقة الإمام.. يؤديها بغير خشوع.. ولا تُرى منه الدموع.

---

(١) شذرات الذهب: (٢/ ٣٦٤).

(٢) حلية الأولياء: (٨/ ٨٦).

(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٩٩).

فالكثير من الناس مهموم مغموم في أمور الدنيا، ولا يتحرك له طرف إذا فاتته مواسم الخيرات أو ساعات تحرِّي الإجابات.. تراه لاهياً.. شارداً.. يجمع ويطرح، ويزيد ويُنقص.. وكأن يومه الذي يمر به سيعود إليه.. أو شهره الذي مضى سيرجع إليه؟!

قال بُندار يتحدث عن يحيى بن سعيد: اختلفت إليه عشرين سنة، فما أظن أنه عصي الله قط[١].

أخي المسلم:

اصبرْ على مضض الإدلاج بالسَّحرِ
وفي الرَّواح على الطاعات والبكرِ
لا تَضْجَرنَّ ولا يُعجزَك مَطلبُها
فالهمُّ يتْلَفُ بين اليأس والضَّجَرِ
إنِّي رأيتُ في الأيَّام تجربةً
للصَّبْرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثَرِ
وقَلَّ مَنْ جدَّ في أمرٍ يطلُبُهُ
واستصْحبَ الصبرَ إلاَّ فازَ بالظَّفَرِ[٢]

قال يحيى بن معاذ: يا ابن آدم.. طلبت الدنيا طلب من لابد له منها، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها، والدنيا قد كُفِيتَها وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها.. فاعقل شأنك.

---

(١) موارد الظمآن: (٣/ ٢٧٦).
(٢) عدة الصابرين: (٣٥٥).

أخي الحبيب:

من العجب كل العجب أن العبد يُصدِّق بدار الخلود، وهو يسعى لدار الغرور، فمن أحبه الله حماه عن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه عن الماء، وقد ورد في الحديث مرفوعاً: «**إنَّ الله لَمْ يَخْلُقْ خلْقاً أبغض إليه مِن الدُّنيا، وإنه مُنْذُ خلقَها لَمْ يَنْظُرْ إليها**».

وقيل **لعلي بن أبي طالب**: يا أمير المؤمنين صِفْ لنا الدنيا؟ قال: وما أصف لكم من دار: مَنْ صَحَّ فيها أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار.

وقد وصف الدنيا يونس بن عبيد فقال: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه[١].

وكان **شميط بن عجلان** يقول: إنسانان معذبان في الدنيا: غَنيٌّ أعطي دنيا فهو بها مشغول، وفقير زويت عنه فهو يتبعها نفسه، فنفسه تقطع عليها حسرات[٢].

وحين ذمَّ رحل الدنيا عند **علي بن أبي طالب** قال: الدنيا دار صِدْقٍ لَمَنْ صادقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوَّد منها[٣].

وكثيرٌ يذم الدنيا وأنها السبب في الطغيان والبعد عن الطاعة.. وما علم أنها دارٌ للاستزادة.. بها الطريق إلى الجنة يُبنى.. وبها التزود من الدرجات العلا.. ولكن:

---

(١) عدة الصابرين: (٣٥٥).

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٣٤٧).

(٣) أدب الدنيا والدين: (١٣٤).

يَعيــــبُ النَّــــاس كُلُّهـــم الـــزَّمـــانَ
ومـــا لـــزمـــانِنَـــا عَيـــبٌ سِـــوانـــا
نعِيـــبُ زمـــانَنـــا والعَيْـــبُ فينـــا
فلـــو نَطَـــقَ الـــزَّمـــانُ بـــه رِمَـــانـــا[1]

قال الأوزاعي يعظ الناس.. تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة؛ التي تطَّلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواء (الإقامة) فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلون، خلائف بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا آنقها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمدَّ أجساماً، ونقَّبوا في البلاد مؤثرين ببطش شديد: وأجسام كالعماد، فما لبثتِ الأيام والليالي أن طويت مدتهم، وعفت آثارهم، وأخوت منازلهم، وأنست ذكراهم، فما تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً﴾[2]. كانوا بلهو الأمل آمنين، لبيان قوم غافلين ولصباح قوم نادمين[3].

أخي الحبيب:

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا الزهد في الدنيا ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول:

النظر في الدنيا وسرعة زوالها، وفنائها، واضمحلالها، وتقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة

---

(١) الزهد للبيهقي: (١٥٧).
(٢) الركز: الصوت الخفي.
(٣) الشكر: (١٥).

والأسف، فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها.

النظر الثاني:

النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ماههنا، فهي كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧]. فهي خيرات كاملة دائمة[١].

ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ
وكلُّ نَعيمٍ لا محالةَ زائلُ

إلا نعيم الجنة؛ جعلنا الله من أهله وممن يتفيأ ظلالها عن اليمين وعن الشمال.

أخي المسلم:

كان فخر الدولة علي بن ركن (من ملوك بني بويه) يقول: جمعت لولدي ما يكفيهم، ويكفي عسكرهم خمس عشرة سنة، وتوفي في قلعة بالري، وكانت مفاتيح خزائنها مع ولده، ولم يحضر، فلم يوجد له كفن، فابْتِيعَ من قَيِّم الجامع الذي تحت القلعة ثوب خلف فيه، واختلف الجند فاشتغلوا عنه حتى أراح، فلم يمكنهم القرب منه، فشُدَّ بالحبال، وجُرَّ على درج القلعة من بُعْد حتى تقطَّع، وكان قد ترك ألفي ألف دينار، وثمانمائة وخمسة وستين ألفاً، وكان في خزائنه من الجوهر والياقوت واللؤلؤ والبلخش والماس أربعة عشر ألفاً وخمسمائة قطعة قيمتها ألف ألف دينار، ومن أواني

---

(١) الفوائد: (١٢٣).

الفضة ما وزنه ثلاث آلاف ألف، ومن الأثاث ثلاثة آلاف حمل، ومن السلاح ألف حمل، ومن الفرش ألفان وخمسمائة حمل[(١)].

سبحان الله العظيم في تدبيره وفي تصريفه.. ملكٌ يملك تلك الأموال، ولا يجد له كفن فيكفَّنُ بقيمة ما ابْتِيعَ من قَيِّمِ الجامع.

ملك الأموال والفرش والدور والقصور ولم يوجد له كفن يكفن فيه..؟!

حالي مع الدَّهْرِ في تَقَلُّبِهِ
كطائِر ضَمَّ رَجْلَيْهِ شَرَكُ
هِمَّته في فِكاكِ مُهجَتِهِ
يرومُ تخليصَها فتشْتَبِكُ[(٢)]

قال أبو الدرداء: من لم يكن غنيًّا عن الدنيا فلا دنيا له[(٣)].

وقال الحسن - رحمه الله - يصف الدنيا: نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن، ذلك أنه عمل قليلاً، وأخذ زاداً منها إلى الجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه ضيع لياليه وكان زاده منها إلى النار[(٤)].

يامَنْ تمتَّع بالدنيا وبهجَتها
ولا تنامُ عن اللذَّات عَيْناهُ
أفنيتَ عُمرَكَ فيما لستَ تدركَهُ
تقولُ لله ماذا حينَ تَلْقَاهُ[(٥)]

---

(١) شذرات الذهب: (٣/ ١٢٤).
(٢) السير: (١٩/ ٥١٧).
(٣) حلية الأولياء: (١/ ٢١٠).
(٤) جامع العلوم والحكم: (٣٦٠).
(٥) الزهد للبيهقي: (٢٨٢).

وحال المؤمن في هذه الدنيا حال عسيرة.. فهو في جهادٍ ومجاهدة وصبرٍ ومصابرة.

قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ـ عزّ وجل ـ[١].

أخي المسلم:

فـــإن تجْتَنِبْهـــا كنـــت سِلْمـــاً لأهلِهـــا
وإنْ تجْتَـــذِبْهـــا نـــازعتْـــكَ كِـــلابُهـــا[٢]

قال ابن مسعود: ما أحدٌ أصبح في الدنيا إلا وهو ضيفٌ، ومَالُه عارية، والضيف مرتحل، والعارية مردودة.

ومـــاهـــذه الأيّـــام إلاَّ مـــراحـــلُ
يحـــثُّ بهـــا داعٍ إلى المـــوتِ قـــاصـــدُ
وأعجـــبُ شيءٍ لـــو تـــأمَّلْـــتَ أنهـــا
منـــازل تُطْـــوى والمســـافـــرُ قـــاعـــدُ

نداء أخي الكريم من أبي حازم **سَلَمَةَ بن دينار**: إن بضاعة الآخرة كاسدة، فاستكثروا منها في أوان كسادها، فإنه لو قد جاء يوم نَفَاقِها لم تصل منها لا إلى قليل ولا إلى كثير[٣].

فإن يوم القيامة يوم الجزاء والحساب.. هناك عندما تشرق شمس الآخرة حساب بلا عمل، وهنا حيث شمس الدنيا عمل بلا حساب..

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢٦٩).
(٢) شذرات الذهب: (٢/١٠).
(٣) حلية الأولياء: (٣/٢٤٢).

فلْنُكثر من العمل قبل انقطاعه ونستفيد من العمر قبل انقضائه.. ونستعد للحساب قبل سؤاله.

إنمـــا الـــدنيـــا وإنْ سرَّتْ قَليـــلٌ مِـــنْ قليـــلِ
ليـــس تَعْـــدوُ أنْ تُبْـــدِي لـــك في زيٍّ جَميـــلِ
ثـــمَّ تَـــرمِيـــكَ مِـــن المَـــأ مـــنِ بـــالخَطْـــبِ الجليـــل
إنمـــا العَيـــشُ جِـــوارُ الله في ظِـــلٍ ظَليـــلِ[١]

وحال السلف في هذه الدنيا خير حال.. فلم ينظروا إلى زخرفها ومُتعها ودورها وقصورها.. فهذا عمر بن الخطاب يعتلي المنبر، ويخطب في الناس، وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة.

الخليفة الثاني هذا هو على المنبر.. لو تمزَّق ثوب أحدنا لما ذهب إلى المسجد وتخلَّف عن صلاة الجماعة.. بل الكثير يترك صلاة الجماعة لأوْهى الأعذار..

* من وصايا المسيح ـ عليه السلام ـ لأصحابه: اغبروها ولا تعمروها، وروي أنه قال: من ذا الذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً[٢].

---

(١) حلية الأولياء: (١٠/٢١٧).
(٢) جامع العلوم والحكم: (٣٧٩).

لنسير مع مَسْرُوق بن الأجدع وقد أخذ بيد ابن أخ له فارتقى به على كُناسة بالكوفة فقال: ألا أُريك الدنيا، هذه الدنيا، أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلُّوا فيها محارمهم، وقطعوا فيها أرحامهم[١].

وقال الحسن يصف حال الأخيار والصالحين: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدوّها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافاً[٢].

وإني إذا مـــافـــاتَنِـــي الأمـــرُ لم أبـــت
أقلِّـــبُ كَفِّـــي أثـــرة مُتنـــدِّمـــا[٣]

أخي الحبيب: هذه الدنيا التي نحب؟ ما نهايتها؟ وهذه الأموال التي نجمع أين مصيرها؟

كتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فإن الدنيا حُلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام، والسلام.

وانظر - أخي الحبيب - إلى مافات من عمرك إنه كأضغاث أحلام.. سنوات مرت كلمح البصر.. ذهبت بأفراحها وأحزانها.. وحلوها ومُرِّها.. ولكن - أخي - بقي الحساب!!

لا تَغبَطـــنَّ أخـــا الـــدنيـــا لِـــزُخْـــرفهـــا
ولا للَّـــذةِ وقْـــت عَجَّلَـــتْ فـــرحـــا
فـــالـــدَّهـــر أسرعُ شيءٍ في تقلُّبـــهِ
وفِعْلُـــهُ بيِّنٌ للخلْـــق قَـــدْ وَضَحـــا

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٩٧).
(٢) الإحياء: (٣/ ٢٢١).
(٣) شذرات الذهب: (٣/ ٥٧).

كَـــمْ شَـــاربٍ عسَـــلاً فيـــه منيَّتُـــهُ
وكـــم تقلَّـــدَ سيفـــاً مـــنْ بِـــهِ ذُبحـــا[(١)]

قال ضرار بن مرة: قال إبليس، إذا استمكنت من ابن آدم ثلاثاً أصبت منه حاجتي: إذا نسي ذنوبه، واستكثر عمله، وأُعجب برأيه[(٢)].

قال بعض السلف: احذروا دار الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت، فإنهما يفرِّقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرِّقُ بين العبد وربه[(٣)].

عَنَـــتِ الـــدُّنيـــا لطَـــالِبهـــا
واسْتَرَاحَ الـــزَّاهـــدُ الفطِـــنُ
كُـــلُّ مَلِـــكٍ نَـــالَ زُخْـــرفَهَـــا
حَسْبُـــه مِمَّـــا حـــوى كفـــنُ
يَقْتَنـــي مـــالاً ويتركُـــهُ
في كـــلا الحـــالين مُفْتَتَـــنُ[(٤)]

حالنا كما يراها أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ بقوله: مامن أحد إلا وفي عقله نقصٌ عن حلمه وعلمه، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بزيادة في مال ظل فرحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان في هدم عمره لا يحزنه ذلك، ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

الكثير يحملهم طلب الدنيا على الهمِّ والغمِّ وتكدُّر العيش، ولم نرَ إلا

---

(١) السير: (١٨/٢٩٦).
(٢) صفة الصفوة: (٣/١١٦).
(٣) تسلية أهل المصائب: (٢٤٨).
(٤) السير: (١٩/٤٨٣).

القليل يحزن لذهاب عمره ودنوٍّ أجله.

ينسى الكثير سنوات عمره التي مضت، أيامه التي انقضت، ولا ينسى شيئاً من أمور الدنيا.. كأنَّ الهدف جمع الدنيا والتفرُّغ لها.

تفكَّرتُ في الدنيا فأبصرتُ رُشْدَها
وذلك بالتَّقوى مِنَ الله جِدَّها
أسأتُ بها ظنًّا فأخلَفْتُ وعْدَها
وأصبحتُ مولاها وقد كنتُ عَبْدَها(١)

هذا صوت يأخذه العجب من عدم توازن الأمور.. هذا يحيى بن معاذ يقول: عجبت ممن يحزن على نقصان ماله!! كيف لا يحزن على نقصان عمر؟!

لم نر ولم نسمع عمَّن بات مهموماً مغموماً من نقصان عمره.. وذهاب أوقاته.. ولكننا نرى الكثير مهموماً مغموماً من نقصان ماله!! أين هو عن تبدُّل المنازل بعد فترة يسيرة؟! أين هو عن الحساب والجزاء؟!

مَنْ كان يوحشُه تبديلُ منْزِلِهِ
وأَنْ يُبدَّلَ منها منزلاً حسناً
ماذا يقولُ إذا ضمَّتْ جوانبها
عليه واجتمعتْ مِنْ هاهنا وهنا
ماذا يقولُ إذا أمْسَى بحُفْرَتِهِ
فرداً وقدْ فارقَ الأهْلينَ والسَّكنا
هنالك يعلمُ قدرالوحْشتين وما
يلقاه مَنْ باتَ باللذَّات مُرْتَهَنا

---

(١) طبقات الحنابلة: (٢٨٥).

أخي الحبيب:

يــا غفلــةً ورمــاحُ المــوت شــارعــةٌ
والشَّيــبُ ألقــى بــرأسي نحــوه الــرسنــا
ولمْ أُعِــدَّ مكــانــاً للنــزول ولا
أعــددتُ زاداً ولكــن غــرة وقنــى[١]

من درر الكلام ونفيسه قول الحسن ـ رضي الله عنه ـ: من كثر ماله، كثرت ذنوبه. ومن كثر كلامه كثر كذبه. ومن ساء خلقه، عذَّب نفسه[٢].

أخي الحبيب:

نجمع المال لنُدرك السعادة.. ونبني القصور لنُسكن الأنس في قلوبنا.. ونسافر لننسى أحزاننا.. نسير في كل الطرق.. وننفق ما في أيدينا لنستمتع بالسعادة.. ولكن هل هذه هي السعادة.

هناك مَنْ طَرَقَ هذه الأبواب قبلنا، وجرَّبَ هذه الدروب معنا.. ولكن الجميع يتفق على أن السعادة في طاعة الله والقرب منه، والعمل لدار سعادة لا شقاء فيها ولنعيم لا زوال عنه.

ومــا الــدَّهــرُ والأيّــام إلا كمــا تــرى
رَزيَّــةُ مــال أو فــراقُ حبيــب
وإنَّ امــرءاً قــد جــرَّب الــدهــر ولم يَخَــفْ
تَقَلُّــب حــاليــه لغيرُ لبيــب[٣]

---

(١) العاقبة: (١٨٨).
(٢) كتاب الصمت: (٨٥).
(٣) ديوان الإمام علي: (٢٤).

قال وهب بن منبه: مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى[١].

والحال ـ رحمنا الله ـ قال عنها الحسن البصري: عجبت لأقوام أُمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وهم يلعبون!!

أخي الحبيب: ماهو القياس في هذه الدنيا.. وبماذا توزن الأمور.. هذا علي بن أبي طالب يقول: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك، ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة، أو رجل يسارع في الخيرات، ولا يقلُّ عملٌ في تقوى كيف يقلُّ ما يُتقبّل[٢].

عجبتُ لمبتاع الضلالة بالهدى
وللمشتري دنياه بالدِّين أعجبُ
وأَعْجَبُ من هذين من باع دينَهُ
بدنيا سواه فهو من ذين أخيبُ[٣]

ومن أتته الدنيا بخيلها ورجلها وأقبلت إليه بأصفرها وأبيضها.. عليه أن يدرك قول الحسن: والله ما أحد من الناس بسط له دنياه، ولم يخف أن يكون مكر به فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد مسلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه[٤].

---

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٥١).
(٢) صفة الصفوة: (١/ ٣٢١).
(٣) وفيات الأعيان: (٦/ ١٧٠).
(٤) حلية الأولياء: (٦/ ٢٧٢).

أخي الحبيب:

اعلم أن أيام الدنيا كأحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرَّتْ يوماً أو أياماً ساءت أشهراً وأعواماً، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما حصلت للعبد فيها سروراً إلا خبأت له أضعاف ذلك شروراً.

قالت: **هند بنت النعمان**: لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أذل الناس، وأنه حق على الله ـ عز وجل ـ أن لا يملأ داراً حبرة إلا ملأت عبرة.

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذات صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا، وما في العرب أحد إلا يرحمنا.

وبكت أختها حرقة **بنت النعمان** يوماً وهي في عزها، فقيل لها: ما يبكيك؟ فذكر أنها قالت: رأيت كثرة أهلي وسرورهم، وقلما امتلأت دارٌ سروراً إلا امتلأت حزنا، قال إسحاق بن طلحة: دخلت عليها يوماً، فقلت لها: كيف رأيت عبرات الملوك؟ فقالت: ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس، إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرة إلا سيعقبون بعدها عبرة، وأن الدهر لم يظهر بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه[1].

سـلِ الأيـامَ مـا فعلـتْ بكسْرى
وقيصَر والقصـور وسـاكنيهـا

---

(١) عدة الصابرين: (٣٢٦).

أمـــــا اسْتَـــــدْعَتْهــــــم للبين طــــــرًّا
فلــــم تـــدع الحليــــم ولا السفيهـــــا[١]

خطب عمر بن عبدالعزيز ـ رحمة الله عليه ـ فقال: يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر، إن كنتم تصدِّقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى، إنما خلقتكم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون. عباد الله، إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص، وعن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما أنتم صارون إليه وخالدون فيه، ثم غلبه البكاء[٢].

إنْ كنـــتَ نِلْـــتَ مـــن الحيـــاةِ وطيبهـــا
مَـــع حُسْـــنِ وَجْهِـــكَ عِفَّـــةً وشَبـــاباً
فـــاحْـــذَرْ لنفسِـــكَ أنْ تُـــرى مُتمنيـــاً
يـــومَ القيـــامـــةِ أنْ تكـــون تُـــرابـــاً[٣]

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال الحسن: والذي نفسي بيده، لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه[٤].

رحم الله الحسن.. هذا قوله في زمانه، فماذا لو رأى زماننا، وكيف تكالب الناس على الدنيا لقد قُطِّعت الأرحام، وتباعد الأخوان، وغدا حديث الناس عن أموال فلان.. وما جمع فلان!!

---

(١) مكاشفة القلوب: (٢٨٨).
(٢) الإحياء: (٣/ ٢٨٨).
(٣) السير: (١٩/ ١٩٥).
(٤) تسلية أهل المصائب: (٢٤٥).

بل إن هناك مجالس عامرة بحديث الدنيا وأموالها. . لا يُذكر فيها اسم الله ولا يتورع فيها عن الغيبة وأكل السحت والحرام.

بل سل حديث المجالس عن أرحام تقطعت ووشائج انفصلت بسبب الدنيا. . حديث طويل. . فهذا لم ير أخاه منذ عشر سنوات بسبب حفنةٍ من مال، وذاك لم يردعه دين أو خوف من الله عن أكل أموال الأيتام. . وآخر همه مصروف كيف يحصل على الأرض الفلانية ولو بالكذب والحلف بالزور.

تناسى الجميع حفرةً ضيقة. . وأهوالاً مقبلة. . !!

قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ: يا عجباً من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور ومن ورائه الموت[١].

أخي. . ألا عودة من قريب. .

تمـــــرُّ الليـــــالي والحـــــوادث تنقضي
كـــأَضْغـــاثِ أحـــلامٍ ونحـــنُ رقـــودُ
وأعجـــبُ مِـــنْ ذا أنهـــا كُـــلُّ ســـاعـــةٍ
تَجِـــدُّ بنـــا سيراً ونحـــنُ قُعـــودُ

والسؤال يروح ويغدو على ألسنتنا. . ألا نعمل لهذه الدنيا؟! بلى ياأخي! اعمل وَجِدَّ فإن الإسلام دين العمل. . ولكن تنبه لوصية تالية. .

قال رجل لسفيان الثوري: أوصني؟ قال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها، والسلام[٢].

---

(١) تنبيه الغافلين: (١/ ٢١٢).
(٢) حلية الأولياء: (٧/ ٥٦).

قارن أخي بين مدة البقاء في هذه الدنيا وبين الخلود في الدار الآخرة. . أعمار ـ أمة محمد ـ ﷺ مابين الستين والسبعين. . هذا لمن لم يدركه الموت قبل. . ولكن لنرى يوماً واحداً من أيام الآخرة كم طوله ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج: ٤٧].

أخي. . هاهي مدة البقاء. قياس بسيط. . اعمل للآخرة. . وللدنيا. . جعلني الله وإياك ممن كان في طاعة الله فبلغه برحمته جنات عدن. . وهيأ لنا من التوفيق ما نصل به إلى رضوانه.

أخي الحبيب:

مَنْ أراد مِنَ العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل وبأي شُغلٍ يشغله[١].

ولننظر أخي إلى مكانتنا من الله، وبماذا استعملنا؟ إن كان في طاعته وعبادته فتلك والله النجاة، وإن كان غير ذلك فالتوبة من قريب. . ألا نستحي من إلهنا وخالقنا ورازقنا، من أحسن صورنا، وسخر لنا النعم ظاهرة وباطنة.

يعيــــش المــــرءُ مـــا استحيـــا بخيرٍ
ويبقَـــى العـــودُ مـــا بقِـــيَ اللِّحـــاءُ
فـــلا والله مـــافي العيـــش خيرٌ
ولا الـــدنيـــا إذا ذهـــبَ الحيـــاءُ
إذا لم تخـــشَ عـــاقبـــةَ الليـــالي
ولم تَسْتَـــحِ فـــاصنـــعْ مـــا تَشَـــاءُ

---

(١) الفوائد: (٦٨).

قال شداد بن عمرو: إن الآخرة وعدُ صادق، يحكم فيها ملك قادر، وإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن السامع المطيع لا حجة عليه، وإن السامع العاصي لا حجة له، ولا تعدو هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تُبقي على أحد، ولا ترفضوها مع ذلك فإن الآخرة لا تُنال إلا بها.

والمـــرء مـــاعـــاش في الـــدنيـــا لـــه أمـــلٌ
إذا انقضـــى سفـــرٌ منهـــا أتـــى سفـــرٌ
لهـــا حـــلاوةُ عيـــشٍ غير دائمـــةٍ
وفي العـــواقـــب منهـــا المـــرُّ والصبرُ[1]

قال عبيد بن عمير يحذرنا من كثرة الدنيا وحسرة إقبالها: ما كثر مال عبد إلا اشتدَّ حسابه ولا أكثر أتباعه إلا كثر شياطينه، ولا زاد من السلطان قرباً إلا زاد من الله بعداً.

ومن هذا الخوف كان مسروق يقول: إنما تحفة المؤمن حفرته.

أخي الحبيب:

جعل الله الدنيا عرضاً عاجلاً ومتاع غرور، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب، وحفَّ الدنيا بالشهوات وزيَّنها بها، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤]. فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة، هو سبعة أشياء: النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها

---

(١) التبصرة: (١/١٠٩).

وأعظمها فتنة، والبنين اللذان بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذان هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التي هي عز أصحابها وفخرهم، وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم، وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم، والحرث الذي هو مادة قُوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم، وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك متاع كله: متاع الحياة الدنيا، ثم شوّق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى، فقال: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥].

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع، ومن هم أهله الذين هم أولى به، فقال: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦ ـ ١٧][1].

أخي المسلم:

لنتأمل قول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ويلٌ لمن كانت الدنيا أمله والخطايا عمله، عظيم بطنته. قليل فطنته، عالم بأمر دنياه، جاهل بأمر آخرته[2].

---

(١) عدة الصابرين: (٢٠٩).

(٢) العاقبة: (٩٠).

وكتب عمر إلى أبي موسى: إنك لن تنال عمل الآخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا.

أخي:

دَعِ الحِرْصَ على الدنيا
وفي العَيْشِ فلا تَطْمَعُ
فلا تجمعْ مِنَ المالِ
فما تدري لَمَنْ تجْمَعُ
فإنَّ الرِّزقَ مَقْسُومٌ
وسُوءَ الظنِّ لا يَنْفَعُ
فقيرٌ كلُّ ذِي حَرْصٍ
وغَنِيٌّ كُلُّ مَنْ يَقْنَعُ[1]

روي عن **أبي حازم** أنه قال: لو كانت الدنيا لا يدخلها أحد إلا بترك جميع ما يُحب من الدنيا لكان يسيراً في جانبها، فكيف وقد تدخل الجنة بترك جزء من ألف جزء مما تُحب، وقد تنجو من النار بتحميل جزء من ألف جزء مما تكره[2].

أخي الحبيب:

دررٌ من الحِكم تُنثر.. ولكن تبقى الهمة العالية.. والمسارعة المستمرة. ويبقى دوماً تذكر يوم المعاد.

قال **الفضيل بن عياض**: رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله،

---

(١) بستان العارفين: (١٥).
(٢) تنبيه الغافلين: (١/ ٨٥).

وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة[١].

قــــد نـــــادت الــــدنيـــا على نفسهـــا
لـــو كـــان في العـــالم مِـــنْ يَسْمَـــعَ
كَـــمْ واثـــقٍ بـــالعُمـــرِ أفنيتُـــهُ
وجَـــامِـــعٍ بـــدَّدتُ مـــا يُجْمَـــعُ[٢]

ولنتأمل في قول الحسن ـ رضي الله عنه ـ: إن أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم؛ فإن كان الذي هموا به لله، مضوا فيه، وإن كان عليها أمسكوا، وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا، أخذوها على غير محاسبة، فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر، ثم قرأ: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[الكهف: ٤٩].

ومن تأمل في مزرعة الدنيا ووقت الحصاد رأى أن الأمر جدٌّ لا هزل فيه، وتشميرٌ لا هوادة فيه. فمن قدم بين يديه اليوم رآه غداً في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة.. يومٌ تذهل فيه كل مرضعةٍ عما أرضعت.. وتضع كل ذات حمل حملها.. يومٌ تتطاير فيه الصحف.

قال سلمان بن دينار: ما أحببت أن يكون معك في الآخرة فقدمه اليوم. وما كرهت أن يكون معك في الآخرة فاتركه اليوم[٣].

فهذه الدنيا دار العمل، وغداً هناك حين تغيب شمس الدنيا، ويشرق

---

(١) السير: (٨/٤٢٦).
(٢) عقد اللؤلؤ والمرجان: (٢٨٥).
(٣) صفة الصفوة: (٢/١٦٦).

يوم القيامة، هناك دار الحساب والجزاء.. فعلينا أن نجزم الأمر ونُعد العدة.

أخي الحبيب:

هذا **يحيىٰ بن معاذ** في وصيته يقول: الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والنهار نقيٌ فلا تدنسه بآثامك:

وكن في الدنيا عابر سبيل.. نرى الرحيل أسرع من البقاء والنقلة أسرع من المهلة.

قال **شميط بن عجلان**: من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها[١].

يـا غـافـلاً ولـه في الـدهـر مـوعظـةٌ
إن كنـتَ في سِنَـةٍ فـالـدهـر يقظـان[٢]

قال **محمد بن سوقة**: أمران لو لم نُعذب إلا بهما لكنا مستحقين بهما العذاب، أحدنا يزداد في دنياه فيفرح فرحاً، ما علم الله منه قط أنه فرح بشيء قط زيد في دينه مثله، وأحدنا ينقص من دنياه فيحزن حزناً ما علم الله منه قط أنه حزن على شيء نقصه من دينه مثله[٣].

وحالنا اليوم همٌّ وغمٌ وتكدر عيش إذا غُلبنا في دريهمات أو نقص من مالنا شيءٌ يسير.. ولا نغتم ولا نحزن بفوت صلاة الجماعة عنا؛ بل الأمر لا يعدو تحريك الرءوس ونسيان الأمر.

قال **محمد بن واسع**: إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٤٢).
(٢) موارد الظمآن: (٢/ ٧١٠).
(٣) حلية الأولياء: (٥/ ٤).

بكائه؟ قيل: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه!![١].

وحال الكثير اليوم ينطبق عليه قول سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض، فذلك المغبون الذي يُلعب بوجهه وهو لا يشعر[٢].

أخي الحبيب:

تــزوَّدْ مــن الــدنيــا فــإنــك لا تــدري
إذا جــنَّ ليــلٌ هــل تعيــشُ إلى الفجــر
فكــم مــن فتــى أضحــى وأمســى ضــاحكــاً
وقــد نُسجــتْ أكفــانُــه وهــو لا يــدري
وكــم مــن صغــارٍ يــرتجــى طــول عمــرهــم
وقــد أُدخلــتْ أجســادُهــم ظلمــة القبرِ
وكــم مــن عــروس زيَّنــوهــا لــزوجهــا
وقــد قُبضــتْ أرواحُهــم ليلــة العُــرْسَ

هاهي الدنيا دار أماني وغرور ـ فاحذرها، فإن أمانيها كاذبة، وإن آمالها باطلة، عيشها نكد، وصفوها كدر، وأنت منها على خطر، إما نعمةٌ زائلة وإما بلية نازلة، وإما مصيبةٌ موجعة، وإما ميتةٌ قاضية[٣].

وقد أصاب أبو هريرة في وصف حالنا بقوله: ماصدقتكم أنفسكم؛ تأملون مالا تبلغون، وتجمعون مالا تأكلون، وتبنون مالا تسكنون.

---

(١) الإحياء: (٣/ ١٣٧).
(٢) مكاشفة القلوب: (١٥٧).
(٣) حلية الأولياء: (٢/ ١٣٦).

وحال الكثير اليوم: جمع مالا يأكل، وبنى مالا يسكن... وحتى إن أكل وسكن سنوات معدودة وأزمنة محدودة.

قال **أبو حازم**: إن عوفينا من شر ما أُعطينا؛ لم يضرنا فقد مازوي عنا[١].

هـي القناعـة لا تبغـى بهـا بـديـلاً
فيهـا النعيـمُ وفيهـا راحـةُ البـدن
انظـرْ لمـن مَلَـكَ الـدنيـا بـأجمعهـا
هـل راح منهـا بغير القُطـن والكَفـن[٢]

قال **أبو محرز الطفاوي**: شكوت إلى جارية لنا ضيق الكسب عليَّ وأنا شاب، فقالت لي: يا بُني استعن بعز القناعة عن ذل المطالب. فكثيراً ما رأيت القليل عاد سليماً، قال أبو محرز: مازلت أعرف بركة كلامها في قنوعي.

أخي الحبيب:

كـلُّ مـن لاقيـتُ يشكـو دهْـرَه
ليـت شعـري هـذه الـدنيـا لِمـنْ[٣]؟!

هل رأيت أخي غير ذلك؟! ولكن القناعة: مكسب وعز، والنفس خير مركب..

وقد قال **شعيب بن حرب**: من أراد الدنيا فليتهيأ للذل. ومن تهيأ للذل، أطلق عنانه، ولم يمسك بلجامه.. يتساوى لديه: الحلال والحرام،

---

(١) أدب الدنياوالدين: (١٢١).
(٢) التذكرة: (١١).
(٣) موارد الظمآن: (٢/ ٧١).

والرد والصد.. يجري خلف المادة، ويلهث وراء الدنيا.. وكان أبو حازم يرى هذا الجري وذاك اللهث، فقال: لوددت أن أحدكم يتقي على دينه، كما يتقي على نعله.

يـــا غـــاديـــاً في غفلـــةٍ ورائحـــاً
إلى متـــى تستحســـنُ القبـــائِحَـــا
وكـــم إلى كـــم لا تخـــافُ مـــوقفـــاً
يستنطـــقُ الله بـــه الجـــوارحـــا
واعجبـــاً منـــك وأنـــت مبصرٌ
كيـــف تجنَّبْـــت الطـــريـــقَ الـــواضِحـــا
وكيـــف تـــرضـــى أن تكـــون خـــاسراً
يـــوم يفـــوزُ مَـــنْ كـــان رابحـــاً

أخي الحبيب:

إن رب الأرباب ومسبب الأسباب جعل الآخرة: دار الثواب والعقاب، والدنيا: دار التحمل والاضطراب والتشمر والاكتساب، وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها[١].

قال يحيىٰ بن معاذ: يا ابن آدم طلبت الدنيا طلب من لابد له منها، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له بها، والدنيا ـ أخي ـ قد كُفيتها وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها، فاعقل شأنك[٢].

---

(١) الإحياء: (٢/٦٩).
(٢) صفة الصفوة: (٤/٩٣).

وقد فصل رحمه الله في طلب الدنيا وتركها، فقال: ترك الدنيا شديد، وترك الجنة أشد منها، وإن مهر الجنة ترك الدنيا[١].

فهل قدمنا ـ أخي هذا المهر؟! بل نحن لاهون ساهون في هذه الدنيا؛ ونحن نعلم أن وراء كل فرح حزناً، ووراء كل نعيم كدراً.

قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لكل فرحة ترحة، وما مليء بيتٌ فرحاً إلا مليء ترحاً[٢].

وكان مسعر بن كدام يكثر بهذه الأبيات في جنازة:

ويحدث رَوْعاتٍ لدي كل فَزْعَةٍ
ونسرعُ نسياناً ولم يأْتِنا أَمْنُ
فإنا ولا كفران لله ربنا
كما البدن لا تدري متى يومها البدن[٣]

قال بعض السلف: ابن آدم، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة وكن من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة، فُزْتَ بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاماً[٤].

وكيفَ يَلِذُّ العيش مَنْ هو عالِمٌ
بأنَّ إلهَ الخلقِ لابدَّ سائلُهُ

---

(١) تنبيه الغافلين: (١/ ٨٥).
(٢) تسلية أهل المصائب: (١٥).
(٣) حلية الأولياء: (٧/ ٢٢١).
(٤) فضائل الذكر: لابن الجوزي: (١٩).

فيـــــأخــــذُ مِنْــــهُ ظُلْمَــــهُ لعبــــادِهِ
ويجــزيــه بــالخيرِ الــذي هــو فــاعِلُــهُ(١)

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد: فإن الدنيا: دار ظعن، وليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزّها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله مَنْ لا يعرفه وهو حتفه، فكن كالمداوي جراحته، يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغّرارة، الحيّالة الخداعة، التي زينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشرفت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلية، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلِّهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر على الأول مزدجر، ولا العارف بالله ـ عزّ وجل ـ حين أخبر عنها مدكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتبر، وطغى، ونسي المعاد، فشغل فيها لبه حتى زالت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أَسَرَّ ما تكون فيها؛ أَحْذَرَ ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور، أشخصه إلى مكروه، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالحزن، لا يرجع منها ماولىَّ فأدبر، ولا يُدْرَى ماهو آت فيُنتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على

---

(١) شرح الصدور: (٢٩٥).

خطر، ولقد عُرضت على نبيك محمد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها، فأبى أن يقبلها، كره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، جاءت الرواية أنه تبارك وتعالى قال لموسى عليه السلام: **«إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين»**[١].

أخي الحبيب:

لو كنتَ رائد قوم ظاعنين إلى
دُنياك هَذِي لَمَا ألفيتَ كذَّابا
لقلتَ تلك بلاءٌ نبتُها سقمٌ
وماؤُها العَذْبُ سمٌّ للفتى ذَابا[٢]

أخي: والدنيا تطوى من أمامك.. وشمس الآخرة تقبل عليك.. ماذا حالك؟!

وكيف ترى الأمر؟!

لنرى حال **سلمان** رضي الله عنه عندما احتضر فبكى، قيل له: ما يبكيك؟ وأنت صاحب رسول الله ﷺ قال: ما أبكي أسفاً على الدنيا، ولا رغبة فيها، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً، فتركنا ما عهد إلينا، أن تكون بُلْغَةُ أحدِنا كزاد الراكب، ثم نُظِر فيما ترك، فإذا قيمة ما ترك بضع وعشرون درهماً أو بضع وثلاثون درهما[٣].

---

(١) عدة الصابرين: (٣٣١).
(٢) موارد الظمآن: (١/ ٦٤٠).
(٣) أدب الدنيا والدين: (١١٩).

الدنيا سراب ممتد وليل مظلم. . طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا[(١)].

فإنه لا حد لها ولا منتهى إلا بالقناعة الزهد والرضى بما قسم الله. . والاستفادة من مرور الليالي والأيام في طاعة الله - جل وعلا -.

قال **مالك بن دينار**: خرج أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيب شيء فيها. قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله - تعالى -[(٢)].

وانظر - أخي الحبيب - في حال المحتضرين من الصالحين ترى الهدوء والسكينة على النفوس المطمئنة، وترى غير ذلك على أصحاب الحرام، اللاهثين وراء الحطام وزخرف الدنيا.

العَبْدُ ذو ضَجَرٍ والرَّبُّ ذو قَدَرٍ
والدهرُ ذو دُولٍ والرزقُ مَقْسُومُ
والخيرُ أجمعُ فيما اختارَ خَالِقُنا
وفي اختيارِ سواه اللَّومُ والشَّومُ

قال **أبو الدرداء**: لولا ثلاث لأحببت أن أكون في بطن الأرض لا على ظهرها: لولا إخوة يأتوني ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى طيب الثمر، أو أعفر وجهي ساجدًا لله - عزَّ وجلَّ - ، أو غدوةٌ أو روحةٌ في سبيل الله - عزَّ وجلَّ -[(٣)].

هذه الرغبة الصادقة فيما عند الله. . وهذ هي الاستفادة الكاملة من الأوقات وتلك والله الأمنيات الخيرة. .

---

(١) السير: (٥/ ٢٦٣).
(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٢٣٣).
(٣) الزهد: (١٩٨).

قال وهيب بن الورد: الزهد في الدنيا أن لا تأسى على الناس على ما فاتك منها، ولا تفرح بما آتاك منها[١].

أخي الحبيب:

إنما الدنيا إذا فكرت فيها: ثلاثة أيام، يومٌ مضى لا ترجوه، ويومٌ أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه، ويومٌ يأتي لا تدري أنت من أهله أم لا، ولا تدري لعلك تموت قبله، وليكن سعيك في دنياك لآخرتك، فإنه ليس لك من دنياك شيء إلا ما صدرت أمامك، فلا تدخرن عن نفسك مالك، ولا تتبع نفسك ما قد علمت أنك تاركه خلفك، ولكن تزوَّد لبُعْدِ المشقة[٢].

وليكن طلبك الدنيا اضطرارًا، وتذكرك في الأمور اعتبارًا، وسعيك لمعادك ابتدارًا، فاعمل المرتحل، فإن حادي الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك[٣].

قال الحسن - رحمه الله -: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[٤].

صاحب الدنيا الذي يعظمه البعض ـ حتى وإن كان تاركًا للصلاة ـ ويوسع له في المجلس، لننظر إلى الحسن ـ رحمه الله ـ كان إذا ذكر صاحب الدنيا يقول: والله ما بقيت له ولا بقي لها، ولا سلم من شرها ولا تَبِعَتِها

---

(١) حلية الأولياء: (٨/ ١٤٠).
(٢) حلية الأولياء: (٢/١٣٨).
(٣) أدب الدنيا والدين: (١٢٢).
(٤) حلية الأولياء: (٢/ ١٥٣).

ولا حسابها، ولقد أُخرج منها في خرق[١].

وكتب **علي بن أبي طالب** إلى عبدالله بن عباس: أما بعد فإن المرء يسوءه فوت مالم يكن يدركه، ويسره درك ما لم يكن ليفوته، فليكن سرورك بما قلت من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلت من دنياك فلا تكثرن به فرحًا، وليكن همك فيما بعد الموت.

أَرَى طالبَ الدنيا وإنْ طَال عمرُهُ
ونَالَ من الدنيا سُرورًا وأَنعما
كبانٍ بَنَى بُنيانه فأقامَه
فلمَّا استوى ما قَدْ بَنَاهُ تَهَدَّما[٢]

أخي الحبيب:

يقال: غمُّ الأحياء خمسة أشياء، ينبغي للإنسان أنْ يكونَ غمه في هذه الخمسة:

أولها: غم الذنوب الماضية، لأنه قد أذنب ذنبًا، ولم يتبين له العفو، فينبغي أن يكون مغمومًا بها مشغولاً بها.

الثاني: أنه قد عمل الحسنات، ولم يتبين له القبول.

الثالث: قد علم حياته فيما مضى كيف مضت؟ ولا يدري كيف يكون الباقي.

الرابع: قد علم أن لله - تعالى - دارين، ولا يدري إلى أية دار به يصير.

الخامس: لا يدري أن الله - تعالى - راضٍ عنه أم ساخطٍ عليه.

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ١٤٤).

(٢) إرشاد العباد: (١٢٠).

فمن كان غمه فيه هذه الأشياء الخمسة في حياته فإنه يمنعه من الضحك[١].

قال إبراهيم التيمي: كم بينكم وبين القوم؟ أقبلت عليهم الدنيا، فهربوا، وأدبرت عنكم فاتبعتموها[٢][٣].

كـأنَّـك لم تسمـعْ بـأخبـار مَـنْ مَضَـى
ولْم تَـرَ في البـاقين مـا يصنـعُ الـدهـرُ

فـإن كنـتَ لا تـدري فتلـكَ ديـارُهـم
محَـاهـا مجَـالُ الِّـريـح بَعْـدَكَ والقَطْـرُ

على ذاك مـرُّوا أجمعـونَ وهكـذا
يمـرُّون حتـى يستردُّهـم الحشْرُ

فحتـى متـى لا تصحُـو وقَـدْ قَـرُبَ المـدى
وحتـى متـى لا يَنْجَـابُ عـن قلبـك السكْـرُ

بـل سـوف تَصْحـو حين ينكشـف الغَطَـا
وتَـذْكُـرُ قـولي حينَ لا ينفـعُ الـذكْـرُ

قام أبو ذر الغفاري عند الكعبة فقال: يا أيها الناس أنا جندب الغفاري، هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق، فاكتنفه الناس، فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرًا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟

قالوا: بلى.

قال: فإن سفر طريق يوم القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا ما يصلحكم.

---

(١) تنبيه الغافلين: (١/ ٢١٣).

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٩٠).

(٣) السير: (٥/ ٦١).

قالوا: وما يصلحنا؟

قال: حجوا حجة لعظائم الأمور، وصوموا يومًا شديدًا حره لطول النشور، وصلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدَّق بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مجلسين، مجلسًا في طلب الحلال، ومجلسًا في طلب الآخرة، الثالث: يضرك ولا ينفعك لا تَرده. اجعل المال درهمين: درهمًا تنفقه على عيالك من حِلَّه، ودرهمًا تقدِّمه لآخرتك.

أخي المسلم:

انظـــرْ إلى مَـــنْ حَـــوَى الـــدنيـــا وزِينتَهـــا
هـــل رَاحَ منهـــا بغيرِ الكَشْـــبِ والكَفَـــنِ

ها هو الحسن البصري: في تباين واضح بين حالنا وحالهم.. يقول: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يقبلون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب، ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أَمَرَ مَنْ في بيته بصنعة طعام قط. فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم، فلم يزالوا على ذلك. والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا من الذنوب إلا بالمغفرة، رحمة الله عليهم ورضوانه[١].

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٣٩).

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

تصـــلُ الـــذنـــوبَ إلى الـــذنـــوبِ وتَـــرْتجَـــي
دَرَجَ الجِنَـــانِ بهـــا وفـــوزَ العـــابِـــدِ
ونسيـــــتَ أن الله أَخْـــــرَجَ آدمًـــــا
منهـــا إلى الـــدنيـــا بـــذنـــبٍ واحـــدِ

ونحن - أخي - نبحث عن المُتع والملذات.. نبتعد عن المكدرات والمنغصات..

هذه حالنا أما حال أبي الدرداء فهي كما قال: أحب الفقر تواضعًا لربي - عزَّ وجلَّ - وأحب الموت اشتياقًا إلى ربي - عزَّ وجلَّ - وأحب المرض تكفيرًا لخطاياي[(١)].

للنـــاس حـــرصٌ على الـــدنيـــا بتـــدبير
وصفـــوهـــا لـــكَ ممـــزوجٌ بتكْـــديـــر
لم يـــرزقـــوهـــا بعقـــلٍ بعـــد مـــا قُسِمَـــتْ
لكنهـــم رُزِقـــوهـــا بـــالمَقَـــاديـــرِ
كـــم مِـــنْ أديـــبٍ لبيـــب لا تســـاعـــدُهُ
وأحمـــقٍ نَـــالَ دنيـــاه بتَقْصيرِ
ولـــوكـــانَ عـــن قـــوةٍ أوعـــن مُغـــالبـــةٍ
طَـــارَ البُـــزاةُ بـــأرزاقِ العَصَـــافير[(٢)]

والدنيا وإن كانت دنيئة حقيرة.. إلا أنها ممر إلى الدار الآخرة ومعبر إلى

---

(١) الزهد: (٢١٧).
(٢) تاريخ الخلفاء: (١٧١).

إحدى المنزلتين. جنةٌ أو نار.. ولنرى أحد تلك الممرات التي تؤدي إلى الجنة.. وهي من أعمال الدنيا.

قال ﷺ: «**حُوسب رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يُوجد له من الخير شيءٌ، إلا أنه كان يُخالطُ الناس، وكان مُوسرًا، فكان يأمرُ غِلمانَهُ أن يتجاوزوا عن المُعْسر، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نحن أحقُّ بذلك منه، تجاوزوا عنه**» رواه البخَاري ومسلم واللفظ له.

يقول الإمام الشافعي: أشدُّ الأعمال ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرجى ويُخاف[1].

وقال الحسن: غدًا كل امريء فيما يهمه، ومن همَّ بشيء أكثر من ذكره، إنه لا عاجلة لمن لا آخرة له، ومن آثر الدنيا على الآخرة فلا دنيا له ولا آخرة[2].

أخي الحبيب:

وأنت تسير في هذه الدنيا.. هناك يوم سيتوقف بك المسير وتحط بك القافلة ولكن:

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُّقى
ولاقيتَ مَنْ بعد الموت قَدْ تَزوَّدا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمثْلِهِ
وأنكَ لم ترصدْ كما كان أرْصَدَا[3]

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥١).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ١٤٤).
(٣) عقود اللؤلؤ: (٣١).

عن حفص الجعفي قال: ورث داود الطائي من أمه أربعمائة درهم، فمكث يتقوت بها ثلاثين عامًا، فلما نفدت جعل ينقض سقوف الدويرة يبيعها[١].

وقال عمر بن أيوب: قال أبو الشعثاء (جابر بن زيد): يا عمر، ما أملك من الدنيا إلا حمارًا[٢].

سهل عليه الحساب وخف به المسير.. ونحن ماذا نملك..؟! وماذا نأمل؟!

أخي المسلم:

عجبًا لمن يعرف أن الموت حق، كيف يفرح؟ وعجبًا لمن يعرف أن النار حق، كيف يضحك؟ وعجبًا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها، كيف يطمئن إليها؟ وعجبًا لمن يعلم أن القدر حق، كيف ينصب[٣]؟!

رأيتُ الدهرَ مختلفًا يدورُ ... فلا حزنٌ يدومُ ولا سرورُ
وقد بَنَتِ الملوكُ به قصورًا ... فلم تَبْقَ الملوكُ ولا القصورُ[٤]

ونحن في هذه الدنيا لاهون ساهون هذا صوت ينادي.. صوت بلال بن سعد يقول: يا أهل التقى إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا ومن

(١) السير: (٧/ ٤٢٤).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ٨٩).
(٣) الإحياء: (٣/ ٢٢٤).
(٤) ديوان الإمام علي: (١٠٠).

الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار[١].

مراحل متتابعة.. وأزمنة متتالية، قطعنا منها مراحل عدة.. من الأصلاب إلى الأرحام ومن الأرحام إلى الدنيا.. ها نحن نسير عليها، ننتظر النقلة التالية إلى القبور.. ووالله نحن في غفلة وإلا كيف تحلو الحياة، ويطيب العيش، ووراءنا القبور والموقف.. ثم الخلود.. أهوالٌ وأهوالٌ.

قال أبو بكرالمروذي: دخلت على أحمد بن حنبل يومًا فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: كيف أصبح من ربه يطالبه بأداءِ الفرض، ونبيه يطالبه بأداء السنة، والملكان يطالبانه بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يطالبه بالفحشاء، وملك الموت يطالبه بقبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة[٢].

هذه الدنيا التي نحن نتكالب عليها.. ونتقاتل عليها.. لننظر الوجه المشرق لمن عرف قيمة الوقت في هذه الدنيا..

يحدثنا أبو ضمرة عن صفوان بن سليمفيقول: رأيته ولو قيل له الساعة غدًا: ما كان عنده مزيد عمل[٣].

أرى حُلــــلاً تصــــانُ على أنــــاسٍ
وأَعْــــراضـًـــا تُنَــــالُ ولا تُصَــــانُ

(١) السير: (٥/ ٩١).
(٢) مناقب الإمام أحمد: (٣٥٥).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٣٤).

يقولـــونَ الـــزمـــانُ زَمَـــانُ سُـــوءٍ
وهـــمْ فســـدوا ومـــا فَسَـــدَ الـــزمـــانُ[١]

قال **بعض السلف**: من ادعى بغض الدنيا فهو عندي كذاب إلى أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه، فهو مجنون[٢].

لأن هذه الدنيا مزرعة الآخرة.. يتزود فيها بالطاعات والصالحات. وهو أحد رجلين طالب دنيا، فكيف يبغضها وهو يسير في ركبها، ورجل آخر يطلب الآخرة.. فأنى له أن يبغض زمن الزرع ووقت العمل؟!

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وتقوده حياته إلى موته[٣].

وقال **الفضيل بن عياض**: العجب كل العجب لمن عرف الله ثم عصاه بعد المعرفة[٤].

أهـــون بـــداركـــم الـــدنيـــا وأهليهـــا
واضرب بهـــا صفحـــاتِ مِـــنْ مُحِبِّيهـــا
الله يعلـــــمُ أَنِّي لســـــتُ وامقهـــــا
ولا أريـــــدُ بقـــــاءَ ســـاعـــةٍ فيهـــا
لكـــنْ تمـــرَّغـــتُ في أدنـــاسِهـــا حُقُبـــًا
وبِـــتُّ أنشرُهـــا حينـــًا وأطـــويهـــا

---

(١) الزهد للبيهقي: (١٥٧).
(٢) صيد الخاطر: (٢١٢).
(٣) جامع العلوم والحكم: (٣٨١).
(٤) الزهر الفائح: (٩٥).

أيـــام أسحـــب ذيلي في مـــلاعبهـــا
جهـــلاً وأهْـــدمُ مـــن دينـــي وأبنيهـــا
وكـــم تحملـــتُ فيهـــا غير مكترثٍ
مـــن شـــامخـاتِ ذنـــوبٍ لســـتُ أحصِيهـــا
فقلـــتُ أَبقَـــى لعلِّي أهـــدُم مـــا
بنيـــتُ منهـــا وأَذْنَـــاسي أُنَقِّيهـــا
ومـــن ورائـــي عقـــابٌ لســـت أقطعهـــا
حتـــى أخفـــف أحمـــالي وأُلقيهـــا
يـــا ويلتـــي وبحـــارُ العفـــوِ زاخـــرةٌ
إن لم تصبنِـــي بـــرشٍ في تَثَنِّيهـــا[1]

إخواني: تفكروا ما في الحشر والميعاد، ودعوا طول النوم والرقاد، وتفقدوا أعمالكم، فالمُناقِشُ ذو انتقام، إن في القيامة لحسرات، وإن عند الميزان لزفرات، فريقٌ في الجنة وفريق في السعير. ففريق يرتقون إلى الدرجات، وفريق يهبطون إلى الدركات، وما بينك وبين هذا الأمر إلا أن يقال: فلان قد مات، يا من كان له قلب فمات!، يا من كان له وقت ففات!، أشرف الأشياء قلبك ووقتك، فإن أنت ضيعت وقتك، وأهملت قلبك، فقد ذهب منك الفوائد، إن كنت تبكي على ما فات، فابك على فرقتك، وإن كنت تبكي على ما مات، فابك على قلبك[2].

ونحن - أخي الحبيب - في هذه الدنيا على قدمٍ وساق سائرون، ولا

(١) العاقبة: (٣٠).
(٢) الزهرالفائح: (٤١٤).

يأمن مضيعون، نفوت أوقاتنا، ونضيع أيامنا.. ونلهث في سير حثيث وراء حطام الدنيا كأنها تفوت.

قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك في التوكل؟

قال: على خصالٍ أربع:

* علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فأطمأنت به نفسي.

* وعلمت أن عملي لايعمله غيري، فأنا مشغول به.

* وعلمت أن الموت يأتي بغتة، فأنا أبادره.

* وعلمت أني لا أخلو من عين الله فأنا مستحي منه[١].

إنَّ إلٰهـــــي لغنـــــيٌّ حميـــــدٌ
في كـــلِّ يـــومٍ منـــهُ رزقٌ جـــديـــدُ
الحمـــــدُ لله الـــــذي لم يَـــزَلْ
يفعـــلُ بي أكثـــرَ مِمَّـــا أُرِيـــدُ[٢]

همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء فهمته شغله، ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة، رأيت البزاز ينظر إلى الفرش، ويحرز قيمته. والنجار إلى السقف، والبنَّاء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط، والمؤمن إذا رأى ظلمة، ذكر ظلمة القبر، وإذا رأى مؤلمًا، ذكرالعقاب، وإن سمع صوتًا فظيعًا، ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نيامًا، ذكر الموتى في

---

(١) السير: (١١/ ٤٨٥)، وفيات الأعيان: (٢/ ٢٧).

(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٥٢).

القبور، وإن رأى لذة، ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثَمَّ، وذلك يشغله عن كل ما تم[١].

ولا خير في الدنيا لمن لم يكنْ لهُ
مِنَ الله في دارِ المُقام نَصِيْبُ
فإنْ تُعْجِبِ الدنيا رِجالاً فإنه
متاعٌ قليل والزوالُ قريبُ

قال عبد الله بن مسعود في دُررٍ من الكلام: إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، مَنْ زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًّا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يُدرك حريصٌ ما لم يُقدر له، فمن أُعطي خيرًا فالله أعطاه، ومن وُقي شرًّا فالله وقاه، المتقون السادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة[٢].

وقيل لعلي – رضي الله عنه –: يا أبا الحسن صف لنا الدنيا؟ قال: أطيل أم أقصر؟ قالوا: بل أقصر، قال: حلالها حساب، وحرامها النار[٣].

كلمات تُغني عن مواعظ لمن كان له قلب، ألا وإن الدنيا دار ابتلاء وحزن ونصب وشقاء.

قال سيار أبو الحكم: الفرح بالدنيا والحزن بالآخرة لا يجتمعان في قلب عبد، إذا سكن أحدهما القلب فرَّ الآخر[٤].

---

(١) صيد الخاطر: (٥٢١).
(٢) السير: (١/ ٤٩٧).
(٣) تسلية أهل المصائب: (٢٤٣).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ١٣).

أخي الحبيب:

حـــاســـبْ زمـــانَـــك في حـــال تصرفـــه

تجـــده أعطـــاكَ أضعـــافَ الـــذي سَلَبـــا

نفسي التـــي تملـــك الأشيـــاء ذاهبـــةٌ

فكيـــف أبكـــي على شيءٍ إذا ذهبـــا[1]

حال **أبي الدرداء** في الجاهلية والإسلام يرويها بنفسه فيقول: كنت تاجرًا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام أخذت التجارة والعبادة، فلم يجتمعا لي، فأقبلت على العبادة، وتركت التجارة.

ولا شك أنه - رضي الله عنه - ضحى بدنيا فانية وأعوام قليلة لينعم برحمة الله في دار كرامته.

وليس معنى ذلك ترك العمل وتحصيل المعاش وبذل الأسباب ولكن لا يكن الهم الأول جمع الدنيا واللهث ورائها. وإلا فالإسلام يحثُّ على العمل، ويعتبره نوعًا من أنواع الجهاد، إذا خلصت النية، واستوفى الشروط الأخرى من أمانة وإخلاص وغيرهما.

قال **عبد الله بن مسعود**: من أراد الدنيا أضر بالآخرة، ومن أراد الآخرة أضر بالدنيا، يا قوم، فأضروا بالفاني للباقي.

لا تـــأســـفْ على الـــدنيـــا ومـــا فيهـــا

فـــالمـــوتُ لا شـــكَّ يُفْنينـــا ويُفْنيهـــا

واعمـــلْ لـــدار البقـــاءِ رضـــوانُ خـــازنهـــا

والجـــارُ أحمـــدُ والجبَّـــارُ بـــانيهـــا[2]

---

(١) موارد الظمآن: (٢/ ٧٧).

(٢) الزهر الفائح: (٧٩).

نصيب الدنيا في حياتنا كبير وتعلقنا بهاشديد.. لا نتحدث إلا فيها ولا نغتم إلا من أجلها.. بل ربما العلاقات الاجتماعية أصبحت المادة أساسًا لها.. ولقد هالني يومًا ما رأيته من قلة زائري أحد جيراننا، وكان مسؤولاً كبيرًا فالباب مفتوح كما هو والجار جالسٌ في صدر المجلس في وسط حديقة غناء بعد صلاة العشاء ولم أر حركة ولا زوَّارًا.. فإذا به تلك الليلة أُحيل للتقاعد. زوَّار الأمس هم زوار الدنيا وأهل الكراسي.. أما زوار الآخرة والمحبة الصادقة فإنهم لا يتجاوزون نصف عدد أصابع اليد الواحدة.

هذه هي النظرة المادية.. والمرض الاجتماعي.. ولو تحدث أحدهم لذم الدنيا والتكالب عليها، ولكن ظهر منه حب الدنيا والقرب من المسؤولين دون أن يشعر ودون أن يعلم..

يحكى أن حسان بن أبي سنان مَرَّ بغرفة فقال: متى بُنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه، فقال: تسألين عما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها.

كم سنصوم من السنين لو حسبنا حسابه وسلكنا طريقه..!

قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقد ارتاح من أفرغ قلبه من همِّ الدنيا، وأقبل على الله، واستعد يوم الرحيل.. هذا حماد بن سلمة لو قيل له: إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا[1].

أخي المسلم:

من تأمل بعين الفكر: دوام البقاء في الجنة، في صفاء بلا كدر، ولذات بلا

---

(١) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٠٣).

انقطاع، وبلوغ كل مطلوب للنفس والزيادة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من غير تغيير ولا زوال، إذ لا يقال: ألف ألف سنة، ولا مائة ألف ألف، بل ولو أن الإنسان عدَّ الألوف ألوف السنين لا ينقضي عدده، وكان له نهاية. فبقاء الآخرة لا نفاد له، إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر، وما مقدار عمر غايته مائة سنة، منها خمسة عشرة صبوة وجهل، وثلاثون بعد السبعين إن حصلت ضعف وعجز، والتوسط نصفه نوم، وبعضه زمان أكل وشرب وكسب، والمنتحل منه للعبادات يسير، أفلا يشتري ذلك الدائم بهذا القليل، إن الإعراض عن المشروع في هذا البيع والشراء لغبنٌ فاحشٌ في العقل، وخلل في الإيمان بالوعد[1].

ولولا ثلاثٌ هنَّ من لذَّةِ الفتى وَرَبِّكَ لَمْ أَحفَلْ مَتَى قَام عُودي

سِيَاحَةُ قلبي في رياضِ أَرْيضةٍ من العِلْم مُجتازًا على كلِّ مَوْرُدِ

وتسبيحًا لله جل جلاله عشياً وبالأبكار في كل مَسجدِ

وترتيل آياتِ الكتاب مُنوِّرًا بها جوف ليلٍ في قيام التهجد[2]

قال الحسن: نعمت الدار الدنيا للمؤمن، وذلك أنه عَمِلَ قليلاً، وأخذ

---

(١) صيد الخاطر: (٤٥٢).

(٢) موارد الظمآن: (٢/ ٢٨).

زاده منها للجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه ضيَّع لياليه وكان زاده إلى النار[١].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

عن أنس بن عياض قال: رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غدًا القيامة، ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة[٢].

نحن في دنيا: أعمارها قصيرة، وفرحها مُكدِّر.. ونعيمها زائل..!!

وقد وصفها أبو حازم سلمة بن دينار بقوله: ما مضى من الدنيا فحلم، وما بقي فأماني.

يا من تمتَّع بالدنيا وزينتها
ولا تنام عن اللذاتِ عيناهُ
شغلتَ نفسَكَ فيما ليس تدركه
تقولُ لله ماذا حينَ تلقاهُ[٣]

قال الحكيم: أربعة طلبناها فأخطأنا طرقها: طلبنا الغنى في المال؛ فإذا هو في القناعة، وطلبنا الراحة في الكثرة؛ فإذا هي في القلة، وطلبنا الكرامة في الخلق، فإذا هي في التقوى، وطلبنا النعمة في الطعام واللباس، فإذا هي في الستر والإسلام[٤].

أخي.. انظر أين مطلبك من هذه؟ وعلى ماذا تقع عيناك.. وأين تذهب بك المذاهب؟!

---

(١) تزكية النفوس: (١٢٨).
(٢) صفة الصفوة: (٢/١٥٣).
(٣) مكاشفة القلوب: (٢٩٣).
(٤) تنبيه الغافلين: (١٢٨).

ولعلَّ لنا نصيبًا من قول عطاء الخرساني: إني لا أوصيكم بدنياكم، أنتم بها مستوصون، وأنتم عليها حُرَّاص، وإنما أوصيكم بآخرتكم، فخذوا من دار الفناء لدار البقاء، واجعلوا الدنيا كشيء فارقتموه، فوالله لتفارقنها، واجعلوا الموت كشيء ذقتموه، فوالله لتذوقنه، واجعلوا الآخرة كشيء نزلتموه، فوالله لتنزلنها[1].

ننافِسُ في الدنيا ونحنُ نَعِيبُها
وقد حذَّرتناها لعمري خُطُوبها

وما نحسبُ الأيامَ تنقضي مدة
على أنها فينا سريعٌ دَبِيبُها

كأني برهطٍ يحملونَ جَنازتي
إلى حفرة يُحْثىٰ عليَّ كثيبُها

وكم ثم مِنْ مُسْترجع متوجِّعٍ
ونائحةٍ يعلُو عليَّ نحيبُها

وباكيةٍ تبكي عليَّ وإنني
لفي غَفْلَةٍ من صوتها ما أُجيبُها

أيا هادم اللذات ما منك مهربٌ
تحاذر نفسي منك ما سيصيبُها

وإني لَمَنْ يكْرَهُ الموتَ والبلا
ويُعْجِبُهُ رُوحُ الحياةِ وطيبُها

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٥١).

رأيـــت المنـــايـــا قُسِّمـــت بين أنفُـــسٍ
ونفسي سيـــأتي بعـــدهـــنَّ نصيبُهـــا[(١)]

ذُكر عن شقيق البلوخي أنه قال: الناس يقولون ثلاثة أقوال وقد تألفوها في أعمالهم:

* يقولون: نحن عبيد الله وهم يعملون عمل الأحرار، وهذا خلاف قولهم.

* ويقولون: إن الله كفيل بأرزاقنا، ولا تطمئن قلوبهم إلا بالدنيا وجمع حطامها، وهذا أيضًا خلاف قولهم.

* ويقولون: لابد لنا من الموت وهم يعملون أعمال من لا يموت، وهذا أيضًا خلاف قولهم[(٢)].

وقال إبراهيم التيمي: مثَّلتُ نفسي في الجنة، آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثَّلت نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت: لنفسي: أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي.

أفٍّ للـــدنيـــا فليســـتْ لي بـــدارٍ
إنمـــا الـــراحـــةُ في دَارِ القَـــرارِ
أبَـــتِ الســـاعـــاتُ إلا سُرعـــةً
في بلى جَسْمِـــي بليـــلٍ ونهـــارٍ[(٣)]

---

(١) حلية الأولياء: (١٠/١٤١).

(٢) مكاشفة القلوب: (٣٥).

(٣) صفة الصفوة: (٢/٥١٧).

خطب علي - رضي الله عنه - فقال: ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وآذنت باطلاع، ألا وإن المضمار اليوم، والسباق غدًا، ألا وإن السبقة الجنة، والغاية الموت، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل يرثه عجل، فمن عمل في أيام مهلة قبل حضور أجله، نفعه عمله، ولم يضره أمله، ومن لم يعمل في أيام مهلة قبل حضور أجله ضره أمله وساءه عمله(١).

لا تطمئنَّ إلى الدنيا وزخرُفِها
وإن توشَّحَتْ من أثْوابها الحَسَنا
أينَ الأحبة والجيرانُ ما فعلوا
أينَ الذين هم كانُوا لنا سَكَنا
سقاهم الدهرُ كأسًا غيرَ صافيةٍ
فصيَّرَهم لأطباقِ الثَّرى رُهُنا(٢)

وصف حالَ الإنسان في هذه الدنيا وما بعدها يحيى بن معاذ فقال: من الدنيا لا ندرك آمالنا، وللآخرة لا نقدم أعمالنا، وفي القيامة لا ندري ما حالنا(٣).

ونحن ـ أخي المسلم ـ نفرح بالدنيا، تقبل من كل جانب، وتدخل علينا مع كل باب.. لا نلقي بالاً لما أتى، ولا نبالي كيف أتى. لنرى قول أبي حازم سلمة بن دينار في هذا الإقبال من الدنيا.

يقول: نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا، أعظم من نعمته عليَّ فيما

---

(١) العاقبة: (٦٤).
(٢) السير: (١٣/ ١٨٩).
(٣) حلية الأولياء: (١٠/ ٥٦).

أعطاني منها، إني رأيته أعطاها قومًا فهلكوا[١].

أترانا نخاف مثله من إقبال الدنيا بأبيضها وأصفرها نحونا، أم ترانا نفرح ولا ندري ما أُعدَّ لنا؟!

قال ذو النون المصري: سقم الجسم في الأوجاع، وسقم القلوب في الذنوب، فكما لا يجد الجسم لذة الطعام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب.

أخي.. هب أن الدنيا أقبلت عليك.. في كل مكان لك نصيب.. وفي كل استثمار لك سهم. كيف سيكون خشوعك في الصلاة؟! وكيف ستؤدي السنن الرواتب؟! وهل سيكون لسانك رطبًا من ذكر الله؟!

وانظر حال من زُويت عنهم الدنيا، وكانت حياتهم كفافًا، لترى نعم الله في قلة الهَمِّ والغم والتفرغ للعبادة والطاعة.

قال مضاء بن عيسى: من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه، ومن أحب شيئًا آثره على غيره.

أخي الكريم:

من موعظة لأبي بن كعب -رضي الله عنه- قال: لا تغبط الحي إلا بماتغبط به الميت[٢].

وبماذا نغبط الميت؟! إنه العمل الصالح، وحسن الذكر، وطول العبادة.

أخي:

هـــبِ الـــدنيـــا تُســـاقُ إليـــكَ عفـــوًا
أليـــــسَ مصيرُ ذاك إلى انتقـــــالِ

---

(١) حلية الأولياء: (٣/ ٢٣٣).

(٢) بستان العارفين: (١١١).

ومـــــا دنيـــــاك إلا مِثْـــــلَ فيءٍ
أظلَّـــــكَ ثُـــــمَّ آذن بـــــالـــــزَّوالِ

قال رجل لمعاذ بن جبل: علمني. قال: وهل أنت مطيعي؟ قال: إني على طاعتك حريص، قال: صم وأفطر، وصلّ، ونم، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتن إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم[١].

إذا المـــرءُ صـــامَ عـــنِ الـــدنـــايـــا
فكـــلُّ شُهـــورِهِ شَهْـــرُ الصِّيـــام[٢]

قال بشر بن الحارث: ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومن زهد فيها أحب لقاء مولاه[٣].

وقال سلمان الفارسي - رضي الله عنه -: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، أما الثلاث الأول: فمؤمل دنيا، والموت يطلبه. وغافل وليس بمغفول عنه. وضاحك ملء فيه، ولا يدري أساخط عليه رب العالمين أم راض عنه.

أما الثلاث التي أحزنتني حتى أبكتني: ففراق محمد ﷺ وفراق الأحبة، والوقوف بين يدي الله - تعالى -، ولا أدري أيؤمر بي إلى الجنة أم إلى النار[٤].

دنيـــاك غـــرَّارةٌ فـــذرهـــا
فـــإنهـــا مـــركـــبٌ جَمُـــوحُ[٥]

(١) صفة الصفوة: (١/ ٤٩٦).
(٢) البركة في فضل السعي والحركة: (١١١).
(٣) السير: (١٠/ ٤٧٦).
(٤) العاقبة: (٦٤).
(٥) صفة الصفوة: (٤/ ٣٥٢).

قيل لهرم بن حيان: أوصِ. قال: قد صدقتني نفسي، وما لي ما أوصي به، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النمل[١].

وقال حماد لداود الطائي: يا أبا سليمان لقد رضيت من الدنيا باليسير. قال: أفلا أدلك على من رضي بأقل من ذلك؟ من رضي بالدنيا كلها عوضًا عن الآخرة[٢].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو داود السجستاني: ما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط.

نـــامـــتْ عيـــونُ الآمنين عـــن الـــرَّدى
وعيـــونُـــهُ مِـــنْ حـــرْصِـــهِ تَتَـــوقَّـــدُ

فـــاستـــأْمَنُـــوا مَكْـــرَ الإلـــه وإنَّـــه
مكـــرُ يُســـل على الـــدوام ويغمَـــدُ

حتـــى إذا هَتَـــفَ الهـــلاكُ تنبَّهـــتْ
نفـــسُ الضعيـــفِ وهَـــالَهـــا مـــا تُـــوعَـــدُ

يـــا ويحهـــم إن الهَـــوى يلْهُـــوْ بهـــم
والمـــوتُ في كفـــن الهـــوى يَتَـــوعَّـــدُ

لقد ضربت الدنيا في نفوسنا بسهم، ونصبت في قلوبنا رايات.. ليلنا ونهارنا في حديث عن الدنيا.. جلُّ تفكيرنا كيف نفعل؟! وأكثر حيلنا كم نربح!! إن ضرب موعد للدنيا ذهبنا إليه مبكرين، وأقمنا عند بابه فرحين.. ولا نُبقي للآخرة في قلوبنا ركنًا ولا زاوية... وانظر إذا رُفع

---

(١) السير: (٤/٤٨).

(٢) صفة الصفوة: (٣/١٤١).

الأذان، كم ترى من المبكرين المسرعين.. والتفت إلى الشوارع والطرقات ترى الكثرة تسير بعجلة للدنيا.. مولية عن الآخرة مقبلة على الدنيا..

قال سعيد عبد العزيز: من أحسن فليرج الثواب، ومن أساء فلا يستنكر الجزاء، ومن أخذ عزًّا بغير حق أورثه ذلاً بحق، ومن جمع مالاً بظلم أورثه الله فقرًا بغير ظلم.

نُرقِّع دُنيانا بتمزيقِ دينِنَا
فلا دينُنا يَبْقَى ولا ما نُرقِّعُ[1]

قال الحسن البصري: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم[2].

الدنيا إن قلت أو كثرت ليست مقياسًا للسعادة، ولا مدخلاً للنعيم.. إنما هو قياسٌ نسبي.. فهناك من إذا كثر ماله كثر غمه وهمه، والبعض هاديء البال مطمئن الفؤاد.. لديه ما يكفيه لدفع حاجات الدنيا، فلا يبذل وجهه لأحد، ولا هو يشكو من قلة أو حاجة.

وفي حياتنا نرى الأمثلة محسوسة والشواهد قائمة، وأذكر أن شخصًا يملك من الثروة ما تكفي زكاة ماله لألوف الأسر المحتاجة.. ويشكو لي بين حين وآخر: كدر الدنيا، وقلة سعادتها، وكثرة همومها ومشاغلها..

وعاشرت مؤذن مسجدٍ فترة من الزمن، فما رأيته يشكو ولا يتذمر، بل رأيته يسعد بأيامه، ويفرح بأبنائه، ويعدد نعم الله عليه.. رغم أنه يسكن

---

(١) حلية الأولياء: (٨/ ١٠).
(٢) مختصر منهاج القاصدين: (٢١).

في بيت المسجد، وحالته المادية يعلم الله بها فلديه من الأبناء الكثير..
ولكن سبحان من يُعطي القناعة والرضا، ويستعمله في طاعته، ويقربه من رحمته.

أقِـــلَّ مـــن الـــدهـــر مَـــا أتـــاك بِـــهِ
واصْبر لـــرَيْـــبِ الـــزمـــانِ إنْ عَثُـــرا
مـــا لامـــريء فـــوقَ مـــا يجـــري القضـــاءُ بِـــهِ
فـــالهـــمُّ فضـــل وخيرُ النـــاس مَـــنْ صَبرَا
يـــا رُبَّ ســـاعٍ في سَعْيِـــهِ أَمـــلٌ
يُفْنَـــى ولم يقـــض مِـــنْ تـــأْمِيلـــهِ وَطَـــرَا
مـــا ذَاقَ طَعْـــمَ الغِنَـــى مَـــنْ لاَ قُنـــوعَ لَـــهُ
ولـــن تَـــرَى قنعـــا مـــا عَـــاشَ مُفْتَقِـــرَا
والعُـــرفُ مَـــنْ يـــأْتِـــهِ يَحْمـــدْ عـــواقِبَـــهُ
مـــا ضـــاعَ عُـــرفٌ وإنْ ولَّيْتَـــهُ حَجَـــرَا[1]

قال بعض الحكماء: عجبت لمن يحزن على نقصان ماله ولا يحزن على نقصان عمره، وعجبت لمن الدنيا مدبرة عنه، والآخرة مقبلة عليه، كيف يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة.

أخي المسلم:

إذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهي باعثه، وكلما كان أشد طلبًا للجنة

---

(١) حلية الأولياء: (٧/ ٢٢٠).

وعملاً لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشد والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق[١].

والكثير يسير في هذه الدنيا، يبحث عن الجادة، وينشد الطريق، ويسرع نحو السعادة.. يا ترى هل أخطأ الطريق وأضاع العلامة.. لنرى ذلك. في قول **مالك بن دينار** حينما قال: خرج أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله[٢].

مَنْ شاء عيشًا هنيئًا يستفيد به
في دينه ثمَّ في دُنياه إقبالاً
فلينظرنَّ إلى مَنْ فوقَهُ أَدَبا
ولينظرنَّ إلى مَنْ دُونَهُ مَالا[٣]

قال **داود الطائي**: اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطرت على الموت[٤].

وحين سأل رجلٌ الحسن بقوله: ياأبا سعيد، من الفقيه؟ قال: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المجتهد في العبادة، هذا الفقيه.

الدنيا- أخي - بزينتها ومراكبها.. بقصورها ودورها.. إنما هي:

أحلامُ نَوْمٍ أو كظلٍّ زائِلٍ
إنَّ اللبيبَ بمثْلِها لا يُخدَعُ[٥]

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٨٢).
(٢) السير: (٥/ ٢٣٦).
(٣) أدب الدنيا والدين: (٨١).
(٤) صفوة الصفوة: (٣/ ١٣٤).
(٥) الإحياء: (٣/ ٢٢٨).

ويا أخي الحبيب:

عجبًا لأمنِك والحياةُ قصيرةٌ
وبفقد إلْفٍ لا تزال تُروَّعُ[١]

حال من سبقنا بحالنا اليوم.. بونٌ شاسع.. وفرق واضح.

هذا **محمد بن الفضل** يقول: ما خطوت أربعين سنة خطوةً لغير الله - عزَّ وجلَّ - وما نظرت أربعين سنة في شيء أستحسنه حياءً من الله - عز وجل - وما أمليت على ملكي ثلاثين سنة شيئًا، ولو فعلت ذلك لاستحييت منهما[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

ها هي الدنيا تساق بخطامها وزمامها.. بحملها وركابها ولكن ماذا فعلوا؟!

عن مالك الداري أن **عمر بن الخطاب** - رضي الله عنه - أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة. فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تَلَهَ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب الغلام، قال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. قال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل، وتَلَهَ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع،

---

(١) التبصرة: (١/ ٥٢).

(٢) صفوة الصفوة: (٤/ ١٦٥).

فذهب بها إليه، قال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأته فقالت: ونحن والله مساكين، فأعطنا، ولم يبق في الخزنة إلا ديناران، فدحا «رمى» بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.

ولو لم يأت من ترك الدنيا إلا الراحة عند الموت والاستعداد لما بعد الموت لكفى.. وقد قيل لبعض الزهاد: ألا توصي؟ قال: بماذا أوصي؟ والله ما لنا شيء، ولا لنا عند أحد شيء ولا لأحد عندنا شيء.

انظر إلى هذه الراحة، كيف تعجّلها؟! وإلى السلامة كيف صار إليها؟![1]

تَجَرَّدْ من الدنيا فإنك إنما
سَقَطتَ إلى الدنيا وأَنْتَ مُجَرَّدُ[2]

قال محمد بن سوقة: أمران لو لم نعذب إلا بهما لكنا مستحقين بهما لعذاب الله. فرح أحدنا يزاد الشيء من الدنيا، فيفرح فرحًا، ما علم الله أنه فرح بشيء زاد قط في دينه، وينقص الشيء من الدنيا، فيحزن عليه حزنًا، ما علم أنه حزن على شيء نقص قط في دينه.

وأوصى عبد الله بن خبيق بقوله: لا تغتم إلا من شيء يضرك غدًا، ولا تفرح بشيء لا يسرك غدًا، وأنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك الفكرة بقية عمرك.

---

(١) أدب الدنيا والدين: (١٢٠).
(٢) مكاشفة القلوب: (٣٢٨).

أخي المسلم:

الدخول في خوض غمار الدنيا، والسير في وهادها ميسر؛ ولكن الخروج منها شديد.. سكرات الموت مقبلةٌ تقتل كل فرحة في الدنيا.. وما بعد الموت يهون عنده الموت.

إن الليـــالي والأيـــامَ حـــاملـــةٌ
وليـــس يعلـــمُ غير الله مـــا تَلِـــدُ[1]

قال: الحسن: - رضي الله عنه -: إن الله - تعالى - أمر بالطاعة، وأعان عليها، ونهى عن المعصية، وأغنى عنها، فاعمل بقدرك على النار ولا تجعل في ركوبها حجة[2].

وقال **التميمي** ـ رحمه الله ـ: شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الوقوف بين يدي الله[3].

ومـــا شـــاب رأسٌ مِـــنْ سنينَ تَتَـــابعـــتْ
عليَّ ولكـــنْ شيَّبَتْنـــي الـــوقَـــائِـــعُ

كان سفيان **الثوري** يقول: أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة: رجل كان له عبد فجاء يوم القيامة أفضل عملاً منه، ورجل له مال فلم يتصدق به فمات، فورثه غيره فتصدق منه، ورجل عالم لم ينتفع بعلمه فعلَّم غيره فانتفع به.

أخي المسلم:

وهذه الدنيا تُلْقِي سهامها علينا.. ونحن في ضعف وتقصير.. نفرح

---

(١) صيد الخاطر: (٨٧).
(٢) الزهر الفائح: (٩٥).
(٣) العاقبة: (٣٩).

برحمة أرحم الراحمين. . ربٌ رحيم، . . غفور كريم.

قيل إن الشبلي رُؤِيَ في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: حاسبني وناقشني حتى يئست، فلما رآني يئست، تغمدني برحمته[1].

وقال يحيىٰ بن معاذ: إن غفرت فخير راحم، وإن عذبت فغير ظالم[2].

أخي الحبيب:

جعل الله طريقنا في هذه الدنيا نهايته في جنات عدن، وجعلنا ممن تزود في هذه الدار الفانية لدار فيها النعيم المقيم والظل الظليل.

جمعني الله وإياك وآباءنا وأمهاتنا وأقاربنا في مستقر رحمته وجعلنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

---

(١) الزهر الفائح: (٤١).

(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٩٦).

خاتمة:

قال - تعالى -: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥].

* * *

المصادر

١ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١ - أدب الدنيا والدين، للماوردي، دار الكتب العلمية.

٣ - إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلمان، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٤ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٥- البركة في فضل السعي والحركة لأبي عبدالله محمد الجيش، دار المعرفة، ١٤٠٦هـ.

٦ -بستان الواعظين للإمام النووي.

٧ -تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٨ - تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

٩ - تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

١٠ -التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١١ -تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

١٢ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٣ - تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف، ماجد بن أبي الليل وآخر، دار القلم.

١٤ - تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن محمد البنجي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١٥ - تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.
١٦ - جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.
١٧ - جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، لأبي يحيى محمد عاصم الغرناطي، تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير، ١٤١٠هـ.
١٨ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
١٩ - ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دارالكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.
٢٠ - ديوان الشافعي، جمع وتعليق محمد عفيف الزعبي، دار الجيل، بيروت ط٢/ ١٣٩٢هـ.
٢١ - الزهد لابن المبارك.
٢٢ - كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دارالكتاب العربي ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢٣ - كتاب الزهد الكبير للإمام أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم ط٢/ ١٤٠٣هـ.
٢٤ - الزهد للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبد الرحيم محمد، دار الحديث.
٢٥ - الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢٦ - سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.
٢٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

٢٨ - شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٠٤هـ.

٢٩ - كتاب الشكر لابن أبي الدنيا، ط٣/ ١٤٠٥هـ.

٣٠ - صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

٣١ - كتاب الصمت وآداب اللسان للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا، تصنيف أبي إسحاق الحويني دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.

٣٢ - صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

٣٣ - طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية ودار المعرفة بيروت.

٣٤ - طبقات الشافعية للسبكي، تحقيق محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية.

٣٥ - العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي. تحقيق خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣٦ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم الجوزية، ط٢/ ١٤٠٦هـ، دار الكتاب العربي.

٣٧ - عقود الؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم ابن عبيد.

٣٨ - الفوائد لابن قيم الجوزية. دار النفائس.

٣٩ - المجموع المنتخب من المواعظ والأدب، زامل الزامل.

٤٠ - مختصر منهاج القاصدين للإمام أحمد بن محمد المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧/ ١٤٠٦هـ.

٤١ - مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢/ ١٤٠٨هـ.

٤٢ - مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١/ ١٤٠٣هـ.

٤٣ - مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، مكتبة الخاني، ١٣٩٩هـ.

٤٤ - موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان، ط١٣/ ١٤٠٣هـ.

٤٥ - وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان، دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ.

* * *

الفجر الصادق

مدخل

قال أحمد بن عاصم: هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يُغفر لك ما مضى.

المقدمة

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين.

وبعد:

أقدم للإخوة القراء الجزء الثامن من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان «**الفجر الصادق**» وهو زمن مشرق ناصعٌ في حياة المسلم.

إنه فجرٌ صادق.. وهل هناك أصدق ممن صدَّق الله وصَدق في عودته؟

إذا سلك من مسالك الشيطان مدخلاً واجلب عليه بخيله ورجله، تذكر منتبهًا من الغفلة مستدركًا للتوبة.

إنها إشراقات تُبدد ظلام المعصية وتزيل غشاوة الذنب.

فجرٌ تبدأ معه رحلة العودة إلى الله بقلوب منكسرة، ودموع منسكبة وجباه خاضعة.. حتى تطأ الأقدام أولى عتبات الآخرة.. ورجاء الآية يخاطب شغاف القلوب ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩].

وحديث الرسول ﷺ ملء السمع والبصر: «**يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**».

جعلنا الله ممن إذا أذنب استغفر وإذا زل تاب وثاب ورزقنا الإخلاص في القول والعمل.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

خلق الله الإنسان للطاعة والعبادة، وفتح له باب التوبة والإنابة، يستدرك بها ذنوبه، ويمسح بها تقصيره، ويصلح بها زلاته.

فالتوبة واجبة على الدوام، لأن الإنسان لا يسلم من معصية، ولا يخلو من نقص.. إنما الخلق يختلفون في المقادير.. وقد أمر الله - عز وجل - بالتوبة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وفي آياتٍ كثيرةٍ حثٌّ على التَّوبة والرُّجوع والأوبة قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وهذا نبي الهدى والرحمة يقول في الحديث الشريف: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»[١].

وقال ﷺ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[٢].

وانظر إلى عظيم فضل الله - جل وعلا- على التائب العائد قال ﷺ: «**التائب من الذنب كما لا ذنب له**»[٣].

وأبواب السماء مشرعة للتائبين، مفتوحة للعائدين. فإن هناك من يعرض عن هذه الأبواب.. ويترك هذه الأسباب قال ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي، وابن ماجة، والحاكم، قال الشيخ الألباني إسناده حسن.

(٣) رواه ابن ماجه، والطبراني، وحسّنه الحافظ ابن حجر لشواهده وكذا الشيخ الألباني.

أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[١].

فهذا الحديث بشارة لجميع المسلمين بالجنة إلا صنفًا منهم لا يريد دخولها، لا زهدًا فيها؛ ولكن جهلاً بالطريق الموصلة إليها، وتراخيًا وتكاسلاً عن دخولها وتفضيلاً لهذه المتع الدنيوية الزائلة على تلك النعم الخالدة في الجنة[٢].

يا من يذنب ولا يتوب، كم قد كتبت عليك ذنوب؟ خل الأمل الكذوب، فرب شروق بلا غروب، وأسفى أين القلوب؟

تفرقت بالهوى في شعوب ندعوك إلى صلاحك ولا تؤوب واعجبا الناس ضروب، متى تنتبه لخلاصك أيها الناعس؟ متى تطلب الأخرى يا من على الدنيا تنافس؟ متى تذكر وحدتك إذا انفردت عن موآنس؟ يا من قلبه قد قسا وجفنه ناعس، يا من تحدثه الأماني.. دع هذه الوساوس.

وانظر إلى قول **الحسن** ولعل لنا نصيب منه: يا ابن آدم ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة[٣].

إنـــي بُليـــت بـــأربـــع يـــرميننـــي
بـــالنبـــل قـــد نصبـــوا علـــي شـــراكـــا
إبليـــس والـــدنيـــا ونفســـي والهـــوى
مـــن أيـــن أرجـــو بينهـــن فكـــاكـــا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) واحات الإيمان: (١/ ١٢٥).

(٣) الزهد: للإمام أحمد ص (٢٤٢).

يــــا رب ســـــاعـــدنــــي بعفـــو إننـــي
أصبحـــت لا أرجـــو لهـــن ســـواكـــا[١]

قال **حميد الطويل** لبعض إخوانه*[٢]: عظني، فقال: يا أخي، إذا عصيت وظننت أنه يراك فقد تجرأت على عظيم، ولكن بجهلك تظن أنه لا يراك.

وقال رجل لوهيب بن الورد: عظني؟ فقال: اتقي أن يكون الله أهون الناظرين إليك[٣].

أخي المسلم:

لو لحظك مسؤول أو رجل حسبه وأنت تهم بفعل زلةٍ لتوقفت تعد الخطى وتستثقل فعل المعصية، كيف والله - جل وعلا - يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، مطلعٌ على كل صغيرة وكبيرة. ولكنها قسوة القلوب وفساد النفوس..

وما ضرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وما خُلقت النار إلا لإذابة القلوب القاسية، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، فإذا قسا القلب قحطت العين.

أخي الحبيب:

قسوة القلب من أربعة أشياء: إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة، كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام

---

(١) التذكرة ص (٤٧٥).
(٢) * مات وهو قائم يصلّي ـ رحمه الله ـ.
(٣) جامع العلوم ص (١٩٥)، حلية الأولياء: (٨/ ١٤٢).

والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع*[١] فيه المواعظ.

ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته، فالقلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها، القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها. شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهورة[٢].

وذاك الداء وهذا الدواء ولكن:

يا من تمتع بالدنيا وزينتها
ولا تنام عن اللذات عيناه
أفنيت عمرك فيما لست تدركه
تقول لله ماذا؟ حين تلقاه[٣]

كان **الحسن** كثيرًا ما يقول: يا معشر الشباب عليكم بالآخرة فاطلبوها، فكثيرًا رأينا من طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحدًا طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا[٤].

وليس للعبد- يا أخي - مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد، اشتغل به في الحياة يكفيك ما بعد الموت[٥].

تعصي الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في القياس بديع

---

(١) * لم تنجع: أي لم تؤثر.
(٢) الفوائد ص (١٢٨).
(٣) صفة الصفوة ص (٢/ ٥١٦).
(٤) الزهد للبيهقي ص (٩).
(٥) الفوائد ص (٩).

لـــو كـــان حبـــك صـــادقًـــا لأطعتـــه
إن المحـــب لمـــن يُحـــب مطيـــع[١]

أخي المسلم:

القلب يمرض كما يمرض البدن. وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى[٢].

فإياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً، ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بُدٌّ، ولا بُد لك منه[٣].

سبحان الله رب العالمين: **لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي**، إلا إقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب، أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس، انتصارهم وحميتهم له إذا أوذي

---

(١) الزهد للبيهقي ص (٣٢٩).
(٢) الفوائد ص (١٢٩).
(٣) المرجع السابق.

وظُلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبُعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا.

أما في الآخرة.. فإنه إذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة، ينعم فيها إلى يوم القيامة.

فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحرِّ والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين[1].

يا أيها الغافل جد في الرحيل
وأنت في لهوٍ وزادٍ قليل
لو كنت تدري ما تلاقي غدًا
لذبت من فيض البكاء والعويل

---

(١) الفوائد ص (١٩٨) باختصار.

فـــأخلـــص التـــوبـــة تحظـــى بهـــا
فمـــا بقـــي فـــي العمـــر إلا القليـــل
ولا تنـــــم إن كنـــــت ذا غبطـــــةٍ
فـــإن قـــدامـــك نـــوم طـــويـــل[١]

قالت عائشة - رضي الله عنها -: أَقِلُّوا الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله -عز وجل- بشيء أفضل من قلة الذنوب.

وقال مورق العجلي: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا مثل رجل في البحر على خشبة فهو يدعو: يا رب، يا رب، لعل الله -عز وجل- أن ينجيه[٢].

ولهذا الأمر ومن شدة الخوف وطمعًا في ما عند الله.

كان رسول الله ﷺ سيد الكل، ثم إنَّه قام حتى ورمت قدماه..

وكان أبو بكر -رضي الله عنه- شجي النشيج*[٣].

وكان في خدي عمر -رضي الله عنه- خطان من آثار الدموع.

وكان عثمان -رضي الله عنه- يختم القرآن في ركعة.

وكان علي -رضي الله عنه- يبكي بالليل في محرابه حتى تخضلَّ لحيته بالدموع ويقول: يا دنيا غُـرِّي غيري!.

وكان سعيد بن المسيب ملازمًا للمسجد فلم تفته صلاةٌ في جماعة أربعين سنة[٤].

---

(١) الزهر الفائح ص (١٩).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ٢٣٥)، صفة الصفوة: (٣/ ٢٥٠).
(٣) * يبكي بكاءً مؤثرًا تتقطع له النفس.
(٤) صيد الخاطر ص (١٠٦).

فيا أخي الكريم اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يَمنَ عليك بقلب، فإنه لا قلب لك[١].

فحيهـــــلا إن كنـــــت ذا همــــــةٍ فقــــــد

حـــدا بـــك حـــادي الشـــوق فـــاطـــو المـــراحـــلا

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة: قد رفع لك علم، فشمر إليه فقد أمكن التشمير واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير[٢]

اتخــــــذ طـــــاعــــــة الإلــــــه سبيــــــلا

تجــــد الفـــــوز بـــــالجنـــــان وتنجـــــو

واتـــــرك الإثـــــم والفـــــواحـــــش طُـــــرًا

يـــؤتـــك الله مـــــا تـــــروم وتـــــرجـــــو[٣]

قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي.. التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله - تعالى - بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله - عز وجل - مع الإفراط.

تـــرجـــو النجـــاة ولـــم تسلـــك مســـالكهـــا

إن السفينــــة لا تجـــــري علــــى اليبـــس[٤]

---

(١) الفوائد ص (١٩٥).

(٢) عدة الصابرين ص (٣٣٨).

(٣) طبقات الحنابلة: (٤/ ١٧٧).

(٤) تزكية النفوس ص (١١٤).

قال **يحيى بن معاذ** -رضي الله عنه-: من أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات.

ونحن في غفلة.. ونجانب باب التوبة.. حالنا كما قال **الحسن** عندما سأله رجل: يا أبا سعيد: كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر، فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسان منهم بخشبة؟ على أي حال يكون؟ قال الرجل: على حالٍ شديدة. قال الحسن: حالي أشد من حالتهم[1].

عيني هلا تبكيان على ذنبي
تناثر عمري من يدي ولا أدري
أنت في غفلة وقلبك ساهٍ
ذهب العمر والذنوب كما هي[2]

أخي:

أجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجلٍ، لا يأمن سوء مغبته. فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها، ولم ينظر في حلال وحرام، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذ. ولقي من مرير الحسرات ما لا يقاومه ولا ذرة من كل لذة، ولو كان هذا فحسب لكفى حزنًا، كيف والجزاء الدائم بين يديه.

فالدنيا محبوبة للطبع لا ريب في ذلك، ولا أنكر على طالبها ومؤثر

---

(١) الإحياء: (٤/١٩٧).
(٢) مكاشفة القلوب ص (٣٤).

شهواتها. ولكن ينبغي له أن ينظر في كسبها ويعلم وجه أخذها، لتسلم له عاقبة لذته، وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار.

وهل عُدَّ في العقلاء قط من قيل له: اجلس في المملكة سنة ثم نقتلك؟ هيهات بل الأمر بالعكس، وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة بل سنين ليستريح في عاقبته[1].

قال الحسن: والله ما صدَّق عبد بالنار إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف هذا الحائط لم يُصدق بها حتى يتجهم عليها.

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
درج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من
ملكوتها الأعلى بذنب واحد[2]

ونحن نسير في هذه الدنيا.. لا نرى لها نهايةً ولا للحياة توقف حتى يفجأنا أمر الله وقدره.. نؤخر التوبة.. ونؤجل العمل..

قال الحسن البصري: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إني أُحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل[3].

---

(١) صيد الخاطر ص (٢٣٩).
(٢) الجواب الكافي ص (١٤٢).
(٣) الجواب الكافي ص (٣).

وقال **الربيع بن خثيم***[١] لأصحابه: تدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب فلا تعود[٢].

وحال الكثير منا اليوم كما قال عنه **أحمد بن حرب**: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس، ثم لا يؤثر الجنة على النار[٣].

نعرف اليوم القائظ من المعتدل والبارد من الحار.. ونشكو إلى بعض من حر هذا اليوم وشدته.. رغم أننا تحت ظلال وارفة.. ومكيفات باردة.. ولا نفكر في نار حرها شديد وقعرها بعيد.. وها هو باب التوبة مشرع الأركان فأين نحن منه؟!

يقول **إبراهيم بن أدهم**: من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة الناس؛ وإلا لم ينل ما يريد[٤].

وحذَّر **أبو الوفاء بن عقيل** بقوله: احذر ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدًا[٥].

فلنسابق أخي إلى التوبة والأوبة.. باب مفتوحٌ مُشرع لا يردنا حاجب ولا يُقصينا طالب.. بل يفرح الله بتوبة أحدنا.. ويتجاوز عن سيئاته..

---

(١) صفة الصفوة.
(٢) الإحياء ص (٤/ ٥٦٨).
(٣) * ثقة عابد قال له ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك».
(٤) السير: (٧/ ٣٨٩).
(٥) الجواب الكافي ص (٦٩).

قال بكر بن عبد الله المزني: من مثلك يا ابن آدم؟ خلي بينك وبين المحراب والماء، كلما شئت دخلت على الله - عز وجل - ليس بينك وبينه ترجمان(١).

أخي: اعلم أن الجزاء بالمرصاد إن كان حسنة أو كانت سيئة، ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عِقوبة أنه قد سومح، وربما جاءت العقوبة بعد مدة(٢).

خـلِّ الـذنـوب صغيـرهـا
وكبيـرهـا فهـو التقـى
واصنـع كمـاشٍ فـوق أرض
الشـوك يحـذر مـا يـرى
لا تحقـرن صغيـرة
إن الجبـال مـن الحصـى(٣)

قال أبو حازم بن دينار: قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك(٤)

أخي الحبيب:

الشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ثمرها في الدنيا: الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها في الآخرة: الزقوم والعذاب المقيم(٥).

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٩).
(٢) صيد الخاطر ص (٥٩٣).
(٣) جامع العلوم والحكم ص (١٩٢).
(٤) حلية الأولياء: (٣/ ٢٣١).
(٥) الفوائد ص (٢١٥).

فسارع أخي بخطى العزيمة.. وارفع نفسك الكريمة فإنها نفسٌ كالطفل تُقبل وتدبر وتعصي وتُطيع.

والنفس كالطفل إن تهمله شب على

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

إن ترك الشهوات لله.. وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته، فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به، لا تحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم، فإن الله - سبحانه - أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعز ذلا دونه، والذل عزًّا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه[1].

عن طلق بن حبيب قال: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين[2].

وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله، ما عصوا الله - عزَّ وجلَّ -[3].

فوا عجبًا كيف يُعصى الإله

أم كيف يجحده جاحدُ

ولله في كل تحريكة

وتسكينة أبدًا شاهدُ

---

(١) الفوائد ص (٢٥٢).

(٢) السير: (٤/ ٦٠٢).

(٣) الإحياء: (٤/ ٤٥١).

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة
تـــدل علـــى أنـــه واحـــد[١]

كان وهيب بن الورد يقول: خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قربه منك.

أخي المذنب - وكلنا كذلك -.. قال هلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت[٢].

إنه الله الواحد الأحد مدبر الكون خالق كل شيء..

يـا مـن يـرى مـد البعـوض جنـاحهـا
فـي ظلمـة الليـل البهيـم الأليـل
ويـرى منـاط عـروقهـا فـي نحـرهـا
والمـخ فـي تلـك العظـام النحـل[٣]

سبحان الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.. لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.. خلق كل شيء وأحصى كل شيء..

قال مطرف: من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده.

وكان الحسن بن عبد العزيز يقول: من لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع[٤].

وتأمل أخي الحبيب في قول ابن عباس: خوفك من الريح إذا حركت

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ٢٢٥).
(٢) الجواب الكافي ص (٩٥).
(٣) شذرات الذهب: (٤/ ١٢١).
(٤) طبقات الحنابلة: (١/ ١٣٥).

ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا فعلته[١].

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غدًا للناظرين قريب[٢]

قال **الحسن**: إن المؤمن قوَّام على نفسه يحاسب نفسه لله - عزَّ وجلَّ - وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يَفجؤ الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات، هيهات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا مالي ولهذا؟ والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله، إن المؤمنين قومٌ أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله - عز وجل - يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (٤٣).
(٢) الإحياء (٤/ ٤٢٢).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٤).

ولو تفكرنا في ذلك وأنزلنا أنفسنا موقف الحساب لعملنا ولتبنا إلى الله - عز وجل - فنحن في زمن التوبة.. وفي طريق الأوبة.. في دار أفسح الله لنا فيها أفلا نعود من قريب!؟

قال **وهب بن منبه**: ما طالت فكرة امريء قط إلا علم، وما علم امرؤ قط.. إلا عمل[١].

فلتكن أخي! من أهل العمل، ولا تكن من أهل الأمل.. فإن أعجب العجائب سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك عما قد خبيء لك، تغتر بصحتك، وتنسى دنو السقم. وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم، لقد أراك مصرع غيرك، وأبدى مضجع سواك قبل الممات مضجعك[٢].

هذا **شميط بن عجلان**: في نداءات خالصة ينادي.. أيها المغتر بطول صحتك! أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة! أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة؟ أبالصحة تغترون؟! أم بطول العافية تمرحون؟! أم بالموت تمنثون؟ أم على ملك تجرئون؟

إن الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك.. أما علمت أن ساعة الموت: ذات كرب شديد، وندامة على التفريط؟ رحم الله عبدًا عمل لساعة الموت، رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت.. رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت[٣].

أخي:

إن من **علامات السعادة والفلاح**: أن العبد كلما زيد في علمه، زيد في

---

(١) الإحياء: (٤/ ٤٥١).

(٢) صيد الخاطر ص (٢٦).

(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٣٤٧).

تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله، زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره، نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس، وقضاء حوائجهم، والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في عمله، زيد في كبره وتيهه. وكلما زيد في عمله، زيد في فخره، واحتقاره للناس، وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في بخله وحرصه، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في كبره وتيهه.

وهذه الأمور: ابتلاء من الله، وامتحان يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام، ويشقى بها أقوام[1].

فانظر أين أنت؟ وأين موضع قدمك؟.. واسمع وصية الإمام مالك وهو يوصي رجلاً.. قال: إذا هممت بأمر في طاعة الله، فلا تحبسه إن استطعت فواقًا*[2] حتى تمضيه، فإنك لا تأمن الأحداث، فإذا هممت بغير ذلك، فإن استطعت أن لا تمضه فافعل، لعل الله يحدث لك تركه، ولا تستحي إذا دعيت لأمر ليس بحق؛ أن تقول: قال الله - تعالى - في كتابه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وطهر ثيابك، وأنقها عن معاصي الله؛ وعليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سفسف منها، فإن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها، وأكثر تلاوة القرآن، واجتهد أن تأتي عليك ساعة من ليل أو نهار، إلا ولسانك رطبًا

---

(١) الفوائد ص (٢٠١).

(٢) * الفواق: ما بين الـحَلْبَتَيْـنِ من الوقت: أي الوقت اليسير جدًّا.

من ذكر الله، ولا تمكن الناس من نفسك، واذهب حيث شئت[١].

وقد قال **عمر بن عبد العزيز** في خطبته: إن لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه، ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري، لعله لا يُصبح بعد مسائه، ولا يُمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيت.. ورأيتم من كان بالدنيا مغترًا، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله - تعالى -، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة، فأما من لا يداوي كلمًا إلا أصابه جرح من ناحية أخرى.. فيكف يفرح[٢].

نموت ونبلى غير أن ذنوبنا
إذا نحن متنا لا تموت ولا تبلى
ألا ربَّ عينين لا تنفعانه
وما تنفع العينان من قلبه أعمى

أخي التائب:

احذر نفسك، فما أصابك بلاءٌ قط إلا منها، ولا تهادنها، فوالله، ما أكرمها من لم يُهنها، ولا أعزها من لم يُذلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يتعبها، ولا أمَّنَّها من لم يُخَوِّفُها، ولا فَرَّحَها من لم يُحْزِنُها[٣].

---

(١) ترتيب المدارك: (١/ ١٨٧).
(٢) الإحياء: (٤/ ٤٨٣).
(٣) الفوائد ص (٩٠).

قال أبو بكر بن عياش: قال لي رجلٌ مرة، وأنا شاب: خلص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رقّ الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوكٍ أبدًا[١].

أخي التائب:

وأنت تسير في ركاب التائبين.. تحط رحالك - إن شاء الله - في جنات عدن.. لا تلتفت إلى نزعات الهوى، ولا تترد مع وساوس الشيطان، وعليك بلزوم الجادة، تنجو وتسلم.

قال الحسن: ابن آدم! إنك ناظر غدًا إلى عملك، يوزن خيره وشره، فلا تحقرن شيئًا من الشر أن تتقيه، فإنك إذا رأيته غدًا في ميزانك ما سرك مكانه[٢].

وجهاد النفس - يا أخي - جهادٌ طويل.. وطريق محفوف بالمكاره.. مذاقه مرٌّ وملمسه خشنٌ.. ولكن لا تكن من الذين وصفهم **يحيى بن معاذ** بقوله: مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار[٣].

يا مدمن الذنب أما تستحي
والله في الخلوة ثانيكا
غرَّك من ربك إمهاله
وستره طول مساويكا[٤]

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٦٤).
(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٣٠٧).
(٣) السير: (١٣/ ١٥).
(٤) جامع العلوم والحكم ص (١٩٦).

قال **حاتم الأصم**: من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار فهو مغتر لا يأمن الشقاء:

الأول: خطر يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان؟!

الثاني: حين خُلق في ظلمات ثلاث، فنادى الملك: بالشقاوة والسعادة، ولا يدري أمن الأشقياء هو أم من السعداء؟!.

الثالث: ذكر هول المطلع، فلا يدري أيبشر برضا الله أم بسخطه؟!.

الرابع: يوم يصدر الناس أشتاتًا، فلا يدري أي الطريقين يُسلك به[1]؟.

أخي الحبيب:

لا تحسبن سرورًا دائمًا أبدًا
من سره زمنٌ ساءته أزمانُ
لا تغتر بشباب آنفٍ خضلٍ
فكم تقدم قبلَ الشيب شبانُ
ويا أخا الشيب لو ناصحت نفسك
لم يكن لمثلك في اللذات إمعانُ

كان **الحسن بن يسار** كثيرًا ما يقول: يا ابن آدم! نطفة بالأمس وجيفةٌ غدًا، والبلى فيما بين ذلك، يمسح جبينك كأن الأمر يعني به غيرك، إن الصحيح من لم تمرضه الذنوب، وإن الطاهر من لم تنجسه الخطايا، وإن أكثركم ذكرًا للدنيا. وأن أهل العبادة من أمسك نفسه عن الشر، وأن

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (٧١).

البصير من أبصر الحرام، فلم يقربه، وأن العاقل من يذكر يوم القيامة ولم ينس الحساب[١].

أخـي:

علم أرباب القلوب: أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار، ومساقي الماء إليها، وأن القلب المستغرق بالدنيا: كالأرض السبخة، التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحدٌ إلا ما زرع، ولا ينمو زرعٌ إلا من بذر الإيمان[٢].

وانظر إلى: تقسيم الهمم، ومقدار العزائم.. قال **محمد بن السماك**: همة العاقل: في النجاة، والهرب. وهمة الأحمق: في اللهو، والطرب[٣].

وأعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد، وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حد.

فكلما أصبح وأمسى معافى.. زاد الاغترار، وطال الأمل.

وأي موعظة أبلغ من أن ترى: ديار الأقران، وأحوال الإخوان، وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى..

حاشا من له عقل أن يسلك هذا المسلك.

---

(١) الزهد للبيهقي ص (٩٤).
(٢) منهاج القاصدين ص (٢).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ٢٠٤).

بلى والله إن العاقل ليبادر السلامة، فيدخر من زمنها للزمن، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة.

خصوصًا لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل لها، وأن التدارك بعد الفوت لا يمكن.

وقدِّر أن العاصي عُفي عنه، أينال مراتب العمال؟

ومن أجال على خاطره ذكر الجنة، التي لا موت فيها، ولا مرض، ولا نوم، ولا غم، بل لذَّاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجد ههنا انتهب هذا الزمان، فلم ينم إلا ضرورة، ولم يغفل عن عمارة لحظة.

ومن رأى أن ذنبًا قد مضت لذته، وبقيت آفاته دائمة؛ كفاه ذلك زاجرًا عن مثله[1].

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل
تقاه عدة لصلاح أمرك

وبادر نحو طاعته بعزم
فما تدري متى يُمضي بِعُمرك[2]

عن الحسن قال: يا ابن آدم! إذا رأيت الناس في خير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في هلكة فذرهم وما اختاروا لأنفسهم، قد رأينا أقوامًا آثروا عاجلتهم على عاقبتهم، فذلوا وهلكوا[3].

---

(١) صيد الخاطر ص (٤٢٧).

(٢) جنة الرضا: (١/ ١٤١).

(٣) حلية الأولياء: (٢/ ١٥٧).

أخي التائب:

نادى منادي الإيمان: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣١].

أَسْمَعَ والله لو صادف آذاناً واعية، وتبصر لو صادف قلوبًا من الفساد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء؛ فأطفأت مصابيحها، وتمكنت في آراء الرجال، فأغلقت وأضاعت مفاتيحها، ران عليها كسبها، فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذًا، وتحكمت فيها أسقام الجهل، فلم تنتفع معها بصالح العمل(١).

كتب الحسن إلى فرقد:

أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والعمل بما علمك الله، والاستعداد لما وعد الله، مما لا حيلة لأحد في دفعه، ولا ينفع الندم عند نزوله، فأحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الجاهلين، وشمر الساق، فإن الدنيا ميدان مسابقة، الغاية: الجنة أو النار، فإن لي ولك من الله مقامًا، يسألني وإياك عنه: وساوس الصدر، ولحظ العيون، وإصغاء الأسماع، وما أعجز عنه(٢).

اليـــوم تفعـــل مـــا تشـــاء وتشتهـــي
وغـــدًا تمـــوت وتـــرفـــع الأقـــلام

أخي التائب:

إن أصول المعاصي كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة:

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٧).

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٣٠٢).

١ ـ تعلق القلب بغير الله.

٢ ـ وطاعة القوة الغضبية.

٣ ـ والقوة الشهوانية.

وهي: الشرك، والظلم، والفواحش.

فغاية التعلق بغير الله: شرك، وأن يُدعى معه إله آخر.

وغاية طاعة القوة الغضبية: القتل.

وغاية طاعة القوة الشهوانية: الزنا.

ولهذا جمع الله - سبحانه - بين الثلاثة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[1] [الفرقان: ٦٨].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يا صاحب الذنب! لا تأمن فتنة الذنب، وسوء عاقبة الذنب، ولتتبعك الذنب أعظم من الذنب إذا عملته.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء...؟!

قال بندار يتحدث عن **يحيى القطان**: اختلفت إليه عشرين سنة، فما أظن أنه عصى الله قط[2].

وقال **عون بن عبد الله** ـ يحذرنا من طول الأمل ـ: ما أحد ينزل الموت حق منزلته، إلا عد غدًا ليس من أجله، كم من مستقبل يومًا لا يستكمله، وراج غدًا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره[3].

---

(١) الفوائد ص (١٠٦).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٩٩).

(٣) حلية الأولياء: (١/ ٢٤٣).

أخي المذنب ـ وكلنا كذلك ـ . . هيا نسارع إلى جنة عرضها السموات والأرض، فيها: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر . . ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠].

هَبــكَ عُمِّــرت مثــل مــا عــاش نــوح
ثــم لاقيــت كــل ذاك يســارا
هــل مــن المــوت لا أبــالــك بــدّ
أيَّ حــي إلــى ســوى المــوت صــارا[١]

إن الحزن على الدنيا طويل، والموت في الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في الجسم دبيب، فبادر قبل أن تُنادى بالرحيل[٢].

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها[٣].

قُــلْ للمفــرط يستعــد
مــا مــن ورود المــوت بُــدُّ[٤]

قال **ابن الجوزي**: تأملت وقوع المعاصي من العصاة، فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم، فوقع العصيان تبعًا.

فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة؛ فإذا به

---

(١) السير: (١٠/ ٢٣٣).
(٢) الإحياء: (٤/ ٤٨٣).
(٣) التذكرة ص (١٣).
(٤) التبصرة ص (١/ ٧٠).

ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر. ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته، انبسطت كف بمخالفته[١].

يـــا أيهـــا المـــذنـــب المحصـــي جـــرائمـــه
لا تنـــس ذنبـــك واذكـــر منـــه مـــا سلفـــا
وتـــب إلـــى الله قبـــل المـــوت وانـــزجـــر عنـــه
يـــا عـــاصيًـــا واعتـــرف إن كنـــت معتـــرفـــا[٢]

قال رجل **لداود الطائي**: : أوصني، قال: اتق الله، وبر والديك: ويحك.. صم الدنيا، واجعل فطرك الموت، واجتنب الناس[٣].

وكان زياد بن جرير يقول: تجهزتهم؟ فسمعه رجل يقول: ما يعني له بقوله تجهزتم؟ فيقول: تجهزتم للقاء الله ـ تعالى ـ[٤].

ألا أيهـــا المغـــرور مـــالـــك تلعـــب
تـــؤمـــل آمـــالاً ومـــوتـــك أقـــرب

قال **أويس القرني** ـ رضي الله عنه ـ لبعض إخوانه: يا أخي، إذا نمت، فأذكر الموت، واجعله أمامك. وإذا قمت، فلا تنظر لصغر ذنبك، ولكن انظر إلى من عصيت.

أخي الحبيب:

الهمة العالية: من استعد صاحبها للقاء الرب ـ جل وعلا ـ..

سلك الطريق وأظمأ الهواجر.. وقام من الليل.. فإنها لحظات قادمة

---

(١) صيد الخاطر ص (٢٨٥).
(٢) مكاشفة القلوب ص (٩١).
(٣) السير: (٧/ ٤٢٤).
(٤) حلية الأولياء: (٤/ ١٩٧).

وآجال محدودة.. وانظر يمنةً ويسرةً، لترى أين ذهب ذلك الفتى؟ وماذا أصابه؟.. ومن فاجأه!.

بينما الفتى مرح الخطا فرح بما يسعى له إذ قيل: قد مرض الفتى
إذ قيل: بات ليلة ما نامها إذ قيل: أصبح مثخنًا ما يُرتجى
إذ قيل: أصبح شاخصًا وموجهًا ومعللاً إذ قيل: أصبح قد قضى[(١)]

عن **الحسن** قال: ابن آدم.. السكين تُحد، والكبش يُعلف.. والتنور يُسَجرُ[(٢)].

فينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله ـ تعالى ـ قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل. وإن كان حلمه يسع الذنوب، إلا أنه إذا شاء عفا، فعفا كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ وأخذ باليسير.. فالحذر الحذر[(٣)].

وكان **الحسن يقول**: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس..

ابن آدم! إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك[(٤)].

وقال **عبد الله بن سميط**: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول

(١) التذكرة ص (٢٢).
(٢) السير: (٤/ ٥٨٦).
(٣) صيد الخاطر ص (١٨٥).
(٤) حلية الأولياء: (٢/ ١٥٥).

صحته! . أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة! أما رأيت مأخوذًا قط من غير عدة[(١)]؟

وما هي إلا ليلة بعد ليلةٍ
ويوم إلى يوم وشهرٌ إلى شهر
مطايا يقرِّبن الجديد إلى البلى
ويُدنين أشلاء الصحيح إلى القبر[(٢)]

وحين سأل رجل عبد العزيز بن أبي رواد: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت والله في غفلة عظيمة عن الموت، مع ذنوب كثيرة قد أحاطت بي.. راحل يسرع كل يوم في عمري.. ومؤمل لست أدري على ما أهجم.. ثم بكى[(٣)].

أخي الحبيب:

ترجو البقاء بدارٍ لا ثبات لها
فهل سمعت بظلٍ غير منتقل[(٤)]

فالواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي، فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفيء تلك النار إلا ما كان من عين العين[(٥)].

---

(١) الإحياء: (٤/ ٤٨٣).
(٢) عقود اللؤلؤ والمرجان: (٢١٦).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ١٩٤).
(٤) طبقات الشافعية: (٢/ ٢٣٩).
(٥) صيد الخاطر: (٢٦٧).

قال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في النار: أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها وأشرب من زمهريرها، فقلت: يا نفس! أي شيء تشتهين؟! قالت: أرجع إلى الدنيا، أعمل صالحًا، عملاً أنجو به من النار.. من هذا العذاب.

ومثلت نفسي في الجنة: مع حورها، وألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها، فقلت: يا نفس! أي شيء تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملاً أزداد من الثواب؟ فقلت: أنت في الدنيا وفي الأمنية[١].

مثــــل لنفســــك أيهــــا المغـــــرور
يــــوم القيـــامـــة والسمـــــاء تمـــور
إذا كـــــورت شمــــس النهـــــار وأدنيـــت
حتــــى علــــى رأس العبــــاد تسيـــــر
وإذا النجـــوم تســـاقطـــت وتنــــاثـــرت
وتبـــدلـــت بعـــد الضيـــاء كـــدور
وإذا البحــــار تفجـــرت مـــن خـــوفهـــا
ورأيتهــــا مثـــــل الجحيـــــم تفـــــور
وإذا الجبـــــال تقلعــــت بـــأصـــولهـــا
فـــــرأيتهـــــا مثـــــل السحـــــاب تسيـــــر
وإذا الـــوحـــوش لـــدى القيـــامـــة أحشـــرت
وتقـــــول لـــــلأمـــــلاك أيـــــن نسيـــــر[٢]

---

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٢١١).
(٢) التذكرة ص (٢٤٤).

ونحن في غفلةٍ.. تعجب منها **مالك بن دينار** بقوله: عجبًا لمن يعلم: أن الموت مصيره، والقبر مورده.. كيف تقر بالدنيا عينه؟ وكيف يطيب فيها عيشه[(١)]؟.

ولما حضر الموت **الحسن**، دخل عليه رجال من أصحابه، فقالوا له: يا أبا سعيد! زودنا منك كلمات تنفعنا؟ قال: إني مزودكم: ثلاث كلمات، ثم قوموا عني، ودعوني لما توجهت له، ما نُهيتم من أمر فكونوا من أترك الناس له. وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم: خطوتان: خطوة لكم، وخطوة عليكم، فانظروا، أين تغدون؟ وأين تروحون[(٢)]؟.

*خطب **عمر بن عبد العزيز** فقال:

أما بعد: فإن كنتم مؤمنين بالآخرة، فأنتم حمقى. وإن كنتم مكذبين بها، فأنتم هلكى[(٣)].

إن من نازعته نفسه إلى لذة محرمة، فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها، وسمع نداء العقل يناديه: ويحك لا تفعل.. فإنك تقف عن الصعود، وتأخذ في الهبوط، ويقال لك: أبعد بما اخترت، فإن شغله هواه فلم يلتفت إلى ما قيل له، لم يزل في نزول[(٤)].

قيل **للشافعي** ـ رحمه الله ـ مالك تكثر من إمساك العصا، ولست

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧٧).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ١٥٤).
(٣) حلية الأولياء: (٥/ ٢٩٠).
(٤) صيد الخاطر ص (٢٥٦).

بضعيف؟ قال: لأذكر أني مسافر(١).

وكان **عطاء السلمي** يقول: رب ارحم في الدنيا غربتي، وفي القبر وحدتي، وطول مقامي غدًا بين يديك(٢).

أخي التائب:

إذا كثرت منك الذنوب فداوها
برفع يدٍ في الليل والليل مُظلم
ولا تقنطن من رحمة الله إنما
قُنوطك منها في خطاياك أعظم
فرحمته للمحسنين كرامة
ورحمته للمسرفين تكرم(٣)

(١) السير: (١٠/ ٩٧).
(٢) حلية الأولياء: (٦/ ٢٢٤).
(٣) التبصرة: (١/ ٢٠٠).

أضرار الذنوب

اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها، مثمرة للألم بعد انقضائها، فإذا اشتدت الداعية منك إليها، ففكر في انقطاعها، وبقاء قُبحها وألمها، ثم وازن بين الأمرين، وانظر ما بينهما من التفاوت(١).

قال **عبد الله بن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: إن للحسنة: ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة: سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر، ووهنًا في البدن ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق(٢).

ومن آثار الذنوب والمعاصي ما قاله **أبو الدرداء**: ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدرون مم هذا؟ إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر(٣).

والتعب ـ أخي الحبيب ـ بالطاعة ممزوج بالحسن، مثمر للذة والراحة، فإذا ثقلت على النفس، ففكر في انقطاع تعبها، وبقاء حسنها ولذتها وسرورها، ووازن بين الأمرين، وآثر الراجح على المرجوح، فإن تألمت بالسبب، فانظر إلى ما في المسبّب من الفرحة والسرور واللذة يَهُن عليك مقاساته، وإن تألمت بترك اللذة المحرمة؛ فأنظر إلى الألم الذي يعقبه، ووازن بين الألمين(٤).

---

(١) الفوائد ص (٢٤٨).
(٢) الجواب الكافي ص (٩٩).
(٣) الجواب الكافي ص (٩٦).
(٤) الفوائد ص (٢٤٨).

وتفكر أخي الكريم في نتائج الذنب.. وما يسببه في قلبك وانظر إلى نور الحسنة، واتبعها أختها.

قال **أبو الحسن المزين**: الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة[١].

فإن الذنوب والمعاصي تضر ولا شك وضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرور إلا سببه الذنوب والمعاصي.

هذا **ابن عباس** يحذرنا من الذنوب والمعاصي، فيقول: لا تأمنن من سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال هشام بن حسان: كنت أمشي خلف العلاء بن زياد، فكنت أتوقى الطين، قال فدفعه إنسان فوقعت رجله في الطين فخاضه، فلما وصل إلى الباب وقف فقال: رأيت يا هشام؟ قلت: نعم، قال: كذلك المرء المسلم يتوقى الذنوب، فإذا وقع فيها خاضها[٣].

العبد لا يريد **بمعصيته مخالفة سيده**، ولا الجرأة على محارمه، ولكن: غلبات الطبع، وتزيين النفس والشيطان، وقهر الهوى، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة، هذا من جانب العبد، وأما من جانب الربوبية: فجريان الحكم، وإظهار عزِّ الربوبية، وذلِّ العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى.. كالعفو والغفور والتواب والحليم، لمن

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٢٢٦).

(٢) جامع العلوم والحكم ص (٤٣٠).

(٣) حلية الأولياء: (٢/ ٢٤٤).

جاء تائبًا نادمًا، والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد لمن أصر ولزم المجرة.

فهو ـ سبحانه ـ يريد أن يُري عبده تفرده بالكمال، ونقص العبد وحاجته إليه، ويشهده كمال قدرته وعزته، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وأن رحمته به إحسان إليه لا معارضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة.

فلله كم في تقدير الذنب من حكمة وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة[1].

قال سليمان التيمي: إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته.

أخي التائب:

وإن امـــرءًا لـــم يصـــف لله قلبـــه
لفـــي وحشـــة مـــن كـــل نظـــرة نـــاظـــر
وإن امـــرءًا لـــم يـــرتحـــل ببضـــاعـــة
إلـــى داره الأخـــرى فليـــس بتـــاجـــر
وإن امـــرءًا ابتـــاع دنيـــا بـــدينـــه
لمنقلـــب منهـــا بصفقـــة خـــاســـر

والتوبة من الذنب: كشرب الدواء للعليل، ورب علة كانت سبب الصحة[2].

اعلموا إخواني! أن للذنوب تأثيرات قبيحة، مرارتها تزيد على

---

(١) الفوائد ص(٨٨).

(٢) المرجع السابق.

حلاوتها أضعافًا مضاعفة. والمجازي بالمرصاد لا يسبقه شيء ولا يفوته.

والذنوب كما قيل: جراحات، ورب جرح وقع في مقتل[(١)].

فرب جرح قتل، ورب عثرة أهلكت.. ورب فارط لا يستدرك.

*كان **الحسن** يقول إذا قرأ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

يقول: ابن آدم ما كان في غدوة أو روحة ما تصبر على المعصية[(٢)].

إذا أنـــت طـــاوعـــت الهـــوى قـــادك الهـــوى

إلـــى بعـــض مـــا فيـــه عليـــك مقـــال[(٣)]

---

(١) الفوائد ص (٥٤).

(٢) الحسن البصري ص (١٤٩).

(٣) شذرات الذهب: (١/ ١٦٥).

نصح المذنب

سأل رجل ابن مسعود عن ذنب ألم به.. هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه، فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب: كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكًا موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس[١].

أخي الكريم:

كلنا أصحاب ذنوب وخطايا، ولكن خيرنا من يسارع إلى التوبة.. تحثه الخطى، وتسرع به الدمعة.. ويعينه أهل الخير.. رفقاء الدنيا والآخرة..

عن أبي قلابة أن أبا الدرداء مر على رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله ـ عز وجل ـ الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغض علمه، فإذا تركه فهو أخي[٢].

وكان رجل على حالٍ حسنة، فأحدث حدثًا أو أذنب ذنبًا، فرفضه أصحابه، ونبذوه، فبلغ إبراهيم النخعي، فقال: تداركوه وأعطوه ولا تدعوه[٣].

من واجب المحبة والنصيحة عدم ترك العاصي يستمر في معصيته، بل يحاط بإخوانه، ويُذكر، ولا يهمل، فيضل.. ويطرق أبوابًا أخرى.. وهنا

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٦).

(٢) صفة الصفوة: (١/ ٦٤٠)، حلية الأولياء (١/ ٢٢٥).

(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٨٩).

يكمن الأخ المخلص والصديق الوفي . . يحوطه قبل أن تزل قدمه وتهوى .

قال رجاء بن حيوة: لرجلين وهو يعظهما: انظرا الأمر الذي تحبان أن تلقيا الله ـ عز وجل ـ فخذا فيه الساعة، انظرا الأمر الذي تكرهان أن تلقيا الله ـ عز وجل ـ عليه فدعاه الساعة[1].

فلله در قوم بادروا الأوقات، واستدركوا الهفوات، فالعين مشغولة بالدمع عن المحرمات، واللسان محبوس في سجن الصمت عن الهلكات، والكف قد كفت بالخوف عن الشهوات، والقدم قد قيدت بقيد المحاسبات، والليل لديهم يجأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات، فكم من شهوة ما بلغوها حتى الممات، فتيقظ للحافهم من هذه الرقدات، ولا تطمعن في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات، ولا تؤملن النجاة وأنت مقيم على الموبقات.

شمـــر عســـى أن ينفـــع التشميـــر
وانظـــر بفكـــرك مـــا إليـــه تصيـــر
طـــولـــت آمـــالاً تكنفهـــا الهـــوى
ونسيـــت أن العمـــر منـــك قصيـــر
قـــد أفصحـــت دنيـــاك عـــن غـــدراتهـــا
وأتـــى مشيبـــك والمشيـــب نـــذيـــر
دار لهـــوت بهـــا زهـــوًا متمتعًـــا
تـــرجـــو المقـــام بهـــا وأنـــت تسيـــر[2]

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٢١٤).

(٢) التبصرة: (١/ ١٢٠).

أخي الحبيب:

اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير.. ذلك يوم التغابن - يوم يعض الظالم على يديه -.

ويا أخي:

إذا أنــت لــم تــرحــل بــزادٍ مــن التُّقــى
وأبصــرت يــوم الحشــر مــن قــد تــزودا
نــدمــت علــى أن لا تكــون كمثلــه
وأنــك لــم تــرصــد كمــا كــان أرصــدا[1]

---

(١) الفوائد ص (٦٤).

نماذج من المحافظة على الأعمار

الأعمار تُطوى والمراحل تُقضى. . وهي أيام تمر مر السحاب. . إذا فات يوم لم نستطع تداركه، وإذا زال نهار أقبل ليل جديد. .

كان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: ويحك يا يزيد!! من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله[1]؟!

وهذا **ميمون بن مهران**، يرفع صوته بنداءات حارة، فيقول لجلسائه: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض؟ قالوا: الحصاد، فنظر إلى الشباب، فقال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد.

أخي الحبيب.. البدار البدار:

ومــــا مضـــــى الشبـــــاب بمستـــــرد
ولا يــــــوم يَمـــــــرُّ بمستعـــــــاد

ويا أخي:

دع عنــك مــا قــد فــات فــي زمــن الصبــا
واذكــر ذنــوبــك وابكهــا يــا مــذنــب
واخـــش منـــاقشـــة الحســـاب فـــإنـــه
لابـــد محـــص مـــا جنيـــت ويكتـــب

---

(١) التذكرة للقرطبي ص (١٠).

لـــــم ينســـه الملكـــان حيـــن نسيتـــه
بـــل أثبتـــاه وأنـــت لاهٍ تلعـــب[١]

أخي:

إنما فضل العقل بتأمل العواقب، فأما قليل العقل؛ فإنه يرى الحال الحاضرة، ولا ينظر إلى عاقبتها.. فإن اللص يرى أخذ المال، وينسى قطع اليد، والبطال يرى لذة الراحة، وينسى ما تجني من فوات العلم وكسب المال، فإذا كبر فسئل عن علم لم يدر، وإذا احتاج سأل فذل، فقد أربى ما حصل من التأسف على لذة البطالة. ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيا.

قس على هذه وانتبه للعواقب، ولا تؤثر لذة تفوت خيرًا كثيرًا، وصابر المشقة تحصل ربحًا وافرًا[٢].

قال **عبد العزيز بن أبي رواد** لرجل: من لم يتعظ بثلاث لم يتعظ بشيء.. الإسلام والقرآن والمشيب[٣].

ألـــم تـــك منهـــاة عـــن الـــزهـــو أننـــي
بَـــدَا لـــي شيـــب الـــرأس والضعـــف والألـــم
ألـــمَّ بـــي الخطـــب الـــذي لـــو بكيتـــه
حيـــاتـــي حتـــى ينفـــد الـــدمـــع لـــم أُلَـــمْ[٤]

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ص (٤٧).
(٢) صيد الخاطر ص (٦١٣).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٢٢٩).
(٤) السير: (٢٢/ ٩).

قال **أبو عبدالله القرشي**: سيروا إلى الله ـ تعالى ـ عرجًا ومكاسير فإن انتظار الصحة بطالة[(١)].

وقال بعضهم: أكثر من يموت الشباب، وآية ذلك أن الشيوخ في الناس قليل.. فكن ـ أخي ـ على حذر من أن يفجأك من لم تستعد له.. فتمسي في قبرك بدون زاد.. فإن:

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر
ولابد من زادٍ لكل مسافر
ولابد للإنسان من حمل عدة
ولا سيما إن خاف سطوة قاهر[(٢)]

قف يا أخي! حاسب نفسك، وكن مثل **محمد بن الفضل** عندما قال: ما خطوت منذ أربعين سنة خطوة لغير الله ـ عز وجل ـ[(٣)].

وهذا خارجة بن مصعب يقول: صحبت **عبدالله بن عوف** أربعًا وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة[(٤)].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

تمر أيامنا، وتنقص أعمارنا، ونحن لا نزال في غفلاتنا.. نسوف في التوبة.. ونلمح سراب الأمل.. وقد قال **أبو سليمان الداراني**: من كان يومه مثل أمس فهو في نقصان.

وكيف لا يكون في نقصان، وهو يقترب نحو منيته.. ويسير إلى

---

(١) وفيات الأعيان: (٤/٣٠٦).
(٢) التبصرة: (١/٣٥).
(٣) جامع العلوم والحكم ص (٩٣٠).
(٤) حلية الأولياء: (٣/٣٧).

نهايته.. وهو في تقصير متتابع، ولهو، ووقت ضائع.

وحين عوتب **عطاء السليمي** في الرفق بنفسه قال: أتأمرونني بالتقصير، والموت في عنقي، والقبر بيتي، وجهنم أمامي.. ولا أدري ما يصنع بي ربي - عز وجل -[(١)].

المـــــرء تــــأكلـــه الليــــالــــي
كــأكــل الأرض ســاقطــة الحــديــد[(٢)]

قال **سعيد بن جبير**: إن بقاء المسلم كل يوم غنيمة، فذكر الفرائض والصلوات وما يرزقه الله من ذكره[(٣)].

وقال **ميمون بن مهران**: لا خير في الدنيا إلا لرجلين، رجلٌ تائب، ورجل يعمل في الدرجات[(٤)].

* **قال ابن الجوزي**: تذكرت في سبب دخول جهنم، فإذا هو المعاصي.. فنظرت في المعاصي، فإذا هي حاصلة في طلب اللذات، فنظرت في اللذات، فرأيتها خدعًا ليست بشيء، وفي ضمنها من الأكدار ما يصيرها نغصًا فتخرج عن كونها لذات.

فكيف يتبع العاقل نفسه، ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار؟
وهي ليست بكثير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا[(٥)]؟.

---

(١) الزهد للبيهقي ص (٢٢٨).
(٢) وفيات الأعيان: (٦/ ١٠٣).
(٣) السير: (٤/ ٣٢٦).
(٤) حلية الأولياء: (٤/ ٨٣).
(٥) صيد الخاطر ص (٥٥٣).

ولا خيــر فــي الــدنيــا لمــن لــم يكــن لــه
مــــن الله فـــــي دار المقـــــام نصيـــــبُ
فــإن تعجــب الــدنيــا رجــالاً فــإنــه
متــــاعٌ قليــــل والـــزوال قـــريـــب

قال رياح القيس: لي نيف وأربعون ذنبًا، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة[1].

كثـــرت ذنـــوبنـــا فلـــم نحصهـــا
وقلـــت ذنـــوبهـــم فعـــرفـــوهـــا

قال أبو إسحاق القرشي: كتب إليَّ أخي من مكة.. يا أخي! إن كنت تصدقت بما مضى من عمرك على الدنيا، وهو الأكثر، فتصدق بما بقي من عمرك على الآخرة، وهو الأقل[2].

وفي حديث لتحريك الهمم وشحذ النفوس، قال السري: يا معشر الشباب! جدوا قبل أن تبلغوا مبلغي، فتضعفوا، وتقصروا كما قصرت.. وكان ـ رحمه الله ـ في ذلك الوقت لا تلحقه الشباب إلى العبادة.

وكان العلاء ابن زياد يقرل: ينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ فأقاله.. فليعمل بطاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

ونحن ـ يا أخي ـ أقالنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأمد في أعمارنا.. وفتح لنا باب التوبة.. والإنابة والأوبة.. فماذا بقي..؟ إنها محاسبة النفس، والجد في الطاعة، والإسراع في التوبة.

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٦٨).
(٢) الزهد للبيهقي ص (١٧٥).

تصـل الـذنـوب إلـى الـذنـوب وتـرتجـي
درج الجنـان وطيـب عيـش العـابـد
ونسيـت أن الله أخـرج آدمًـا
منهـا إلـى الـدنيـا بـذنـب واحـد[١]

* رأيت من نفسي عجبًا.. تسأل الله ـ عز وجل ـ حاجاتها، وتنسى جناياتها.. نحرص على جمع الدنيا وحطامها وهي سنوات محدودة.. ولهونا عن الآخرة وهي الحياة الأبدية. قال رجل لأبي حازم: أوصني؟ قال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فأجتنبه[٢].

وقال الحسن ـ وهو يحكي حالنا ـ: إن المؤمن لا يصبح إلا خائفًا.. ولا يصلح إلا ذاك، لأنه بين ذنبين.. ذنب مضى لا يدري كيف يصنع الله فيه، وأجل أو قال آخر.. لا يدري ما كتب عليه فيه.

وقال ـ رحمه الله ـ: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث:

أنه لم يتمتع بما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه[٣].

قال ابن الجوزي: رأيت الخلق كلهم في صف محاربة، والشياطين يرمونهم بنبل الهوى، ويضربونهم بأسياف اللذة.

فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء.

وأما المتقون ففي جهد جهيد من المجاهدة، فلابد مع طول الوقوف

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٢٩١).
(٢) الإحياء: (٤/ ٢٨).
(٣) حلية الأولياء: (٦/ ٢٧٢).

في المحاربة من جراح، منهم يجرحون ويداوون إلا أنهم من القتل محفوظون، بلى! إن الجراحة في الوجه شين باق، فليحذر ذلك المجاهدون[١].

مضـــى أمســـك الأدنـــى شهيـــدًا معـــدَّلاً
ويـــومـــك هـــذا بـــالفعـــال شهيـــد
فـــإن تـــك بـــالأمـــس اقتـــرفـــت إســـاءة
فثـــنِّ بـــإحســـان وأنـــت حميـــد
ولا تـــرج فعـــل الخيـــر منـــك إلـــى غـــدٍ
لعـــل غـــدًا يـــأتـــي وأنـــت فقيـــد[٢]

أخي الحبيب:

قس نفسك، وانظر ماذا يهمك في هذه الدنيا.. آمالك وطموحاتك ما هي.؟ أهي حطام الدنيا أم جنة عرضها السموات والأرض؟ وانظر ما يهمك من أمر، أهو للآخرة أم للدنيا، فقد قال **الجنيد بن محمد**: علامة إعراض الله عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه[٣].

فلا تُشغلك الدنيا بزينتها وزخرفها فإننا:

نسيـــر إلـــى الآجـــال فـــي كـــل لحظـــة
وأيـــامنـــا تطـــوى وهـــن مـــراحـــلُ
ولـــم أر مثـــل المـــوت حقًّـــا كـــأنـــه
إذا مـــا تخطتـــه الأمـــانـــي بـــاطـــل

---

(١) صيد الخاطر ص (٢٥٧).

(٢) مكاشفة القلوب: (١٣٢).

(٣) صفة الصفوة: (٢/٤١٨).

وما أقبح التفريط في زمن الصبا
فكيف والشيب للرأس شاغل
فارحل من الدنيا بزاد من التقى
فعمرك أيام وهن قلائل

الإنسان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه، والتزم أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته، وآثره على هواه. وشر المخلوقات إذا تباعد عنه، ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته، فمتى اختار التقرب إليه، وآثره على نفسه وهواه، فقد حكم قلبه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وحكم رشده على غيه، وهُداه على هواه، ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده[1].

عن **مسروق بن الأجدع** قال: إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها، يتذكر ذنوبه يستغفر منها[2].

وقد كان ابن أبي ذئب الإمام يجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غدًا ما كان فيه مزيد اجتهاد[3].

أيأسوني لما رأوا من ذنوبي
أتراهم هم الغفور الرحيم
اتركوني وإن تعاظم ذنبي
إنما يغفر العظيمَ العظيمُ[4]

---

(١) الفوائد ص (٢٢٥).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٦).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٩١).
(٤) جنة الرضا: (١/ ١٣٥).

* تأملت في الخلق وإذا هم في حالة عجيبة، ويكاد يقطع منها بفساد العقل، وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ، وتذكر له الآخرة، فيعلم صدق القائل، فيبكي، وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه.

فإذا قيل له: أتشك فيما وعدت به؟ قال: لا والله، فيقال له: فاعمل، فينوي ذلك، ثم يتوقف عن العمل، وربما مال إلى لذة محرمة، وهو يعلم النهي عنها[(١)].

قال أبو الدرداء: تمام التقوى، أن يتقي الله العبد حتى يتقيد من مثقال ذرة[(٢)].

أخي التائب:

الحذر الحذر من المعاصي.. فإن عواقبها سيئة، وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبدًا مع تعثير أقدامه، وشدة فقره، وحسراته على ما يفوته من الدنيا، وحسرة لمنْ نالها.

فالله الله في تجويد التوبة عساها تكف كف الجزاء.. والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله ـ تعالى ـ تسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر، وقد أصلح لك أحوال العلانية.

ولا تغتر بستره، فربما يجذب عن عورتك، ولا بحلمه فربما بغت العقاب. وعليك بالقلق واللجأ إليه والتضرع[(٣)].

---

(١) صيد الخاطر ص (٤٦١).
(٢) جامع العلوم ص (١٩٢).
(٣) صيدالخاطر ص (٢٦٤).

صورٌ من التوبة

قوافل التائبين تسير.. وجموع المنيبين تُقبل.. وباب التوبة مفتوح. ودعوةٌ تتلى من آيات القرآن الكريم: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: ٣١].

دموع التائبين صادقة، وقلوبنهم... منخلعة.. يخافون يومًا: تتقلب فيه القلوب والأبصار.

قال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: اجلسوا إلى التوابين، فإنهم أرق أفئدة[(١)].

وذكر أن **الفضيل بن عياض** كان شاطرًا في قطع الطريق. وكان يتعشق جارية، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جدارًا، إذ سمع قارئًا يقرأ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٦١]، فقال: بلى، فتاب، وأقلع عما كان عليه، ورجع إلى خربة، فبات بها، فسمع سفارًا يقول: خذوا حذركم؛ إن فضيلاً أمامكم يقطع الطريق، فأمنهم واستمر على توبته، حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة، ثم صار علمًا: يقتدى به، ويهتدى بكلامه، وفعاله[(٢)].

خَلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُّقى

---

(١) الإحياء: (٤/١٦).

(٢) البداية والنهاية: (١٠/٢٢٦).

واصنـــــع كمـــــاشٍ فـــــوق أر
ضِ الشـــوكِ يحـــذر مـــا يـــرى
لا تحقـــــرن صغيـــــرة
إن الجبـــال مـــن الحصـــى[١]

قال إبراهيم بن بشار: قلت لإبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمرك؟ قال: غير ذا أولى بك، قال: قلت: أخبرني لعل الله أن ينفعنا به يومًا، قال: كان أبي من الملوك المياسير، وحبب إلينا الصيد، فركبت، فثار أرنبٌ أو ثعلب، فحركت فرسي، فسمعت نداءً من ورائي: ليس لذا خُلقت، ولا بذا أُمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس، ثم حركت فرسي، فأسمع نداء أجهر من ذلك: يا إبراهيم ليس لذا خلقت، ولا بذا أمرت، فوقفت أنظر فلا أرى أحدًا، فقلت: لعن الله إبليس، فأسمع نداء من قربوس (حنو الفرس) سرجي بذاك، فقلت: انبهت، انبهت، جاءني نذير، والله لا عصيت الله بعد يومي ما عصمني الله، فرجعت إلى أهلي، فخليت فرسي، ثم جئت إلى رعاة لأبي، فأخذت جبة كساء، وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، فعملت بها أيامًا، فلم يصف لي منها الحلال، فقيل لي: عليك بالشام[٢].

فـــــي الـــــذاهبيـــــن الأولـ
ـيـــن مـــن القـــرون لنـــا بصـــائـــر
لمـــــا رأيـــــت مـــــواردًا
للمـــوت ليـــس لهـــا مصـــادر

---

(١) بستان العارفين ص ١٠٥).
(٢) السير: (٧/ ٣٩٥).

ورأيــــت قـــومــي نحــوهـــا
يسعـــى الأصـــاغـــر والأكـــابـــر
لا يــــرجـــع المــاضـــي إلـــيَّ
ولا مــــن البــاقيـــن غـــابـــر
أيقنـــــت أنـــــي لا محـــــا
لـــة حيـــث صـــار القـــوم صـــائـــر[(١)]

قال **سلاَّم بن أبي مطيع**: كن لنعمة الله عليك في دينك، أشكر منك لنعمة الله عليك في دنياك[(٢)].

وقالت **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ: إنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قلة الذنوب، فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد، فليكف نفسه عن كثرة الذنوب[(٣)].

أخي الحبيب: عليك بلزوم الطريق والسير على الجادة.

واتـــــق الله فتقــــوى الله مـــــا
جـــاورت قلـــب امـــريء إلا وصـــل
ليـــس مـــن يقطـــع طـــرقًـــا بطـــلاً
إنمـــا مـــن يتـــق الله البطـــل

كان **الحسن** يقول: نضحك، ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا[(٤)].

فالدنيا خدَّاعة غدَّارة.. ترى منها الـحُسنَ.. فتلهيك عن الدار

---

(١) تاريخ بغداد: (٢/ ٢٨١).
(٢) حلية الأولياء: (٦/ ١٨٨).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٣٢).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٣).

الآخرة.. ثم يفجأك الموت على حين غفلة من أمرك..

فـــلا تغـــرنـــك الـــدنيـــا وزينتهـــا
وانظـــر إلـــى فعلهـــا فـــي الأهـــل والـــوطـــن
وانظـــر إلـــى مـــن حـــوى الـــدنيـــا بـــأجمعهـــا
هـــل راح منهـــا بغيـــر الـــزاد والكفـــن[١]

وتأمل - أخي - في قول **الحسن**: المؤمن من علم أن ما قال الله كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملاً، وأشد الناس وجلاً، فلو أنفق جبلاً من مال، ما أمن دون أن يعاين، لا يزداد صلاحًا وبرًّا إلا ازداد فرقًا، والمنافق يقول: سواد الناس كثير وسيغفر لي، ولا بأس عليَّ، فيسيء العمل ويتمنى على الله[٢].

وكان **الربيع بن خثيم** يقول لأصحابه: تدرون ما الداء، والدواء، والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء: الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء: أن تتوب ثم لا تعود[٣].

أخي الحبيب: جهاد النفس يحتاج إلى: صبر، ومثابرة، وخوفٍ، ووجل، ورجاءٍ، وأمل.. لا يُتهاون بالصغائر، ولا تؤتى الكبائر.

قال **عمرو بن مرة**: نظرت إلى امرأة فأعجبتني، فكف بصري فأرجو أن يكون ذلك كفارة[٤].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) موارد الظمآن: (٣/ ٤٩٢).
(٢) السير: (٤/ ٥٨٦).
(٣) حلية الأولياء: (٢/ ١٠٨).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ١٠٦).

أين من يطلق بصره على محارم الله؟! من يتتبع الخطوات، ويلحظ المسلمات بعين شرهة.. لا يكف بصره ولا يخاف ربه.

تفنـــي اللـــذاذة ممـــن نـــال صفـــوتهـــا
مـــن الحـــرام ويبقـــى الإثـــم والعـــار
تبقـــى عـــواقـــب ســـوء مـــن مغبتهـــا
لا خيـــر فـــي لـــذة مـــن بعـــدهـــا النـــارُ

قال أبو حازم سلمة بن دينار في نصيحة أخوية صادقة: انظر إلى الذي تحب أن يكون معك في الآخرة فقدمه اليوم، وانظر الذي تكره أن يكون معك ثم فاتركه اليوم[1].

أخي المسلم:

إذا مـــا خلـــوت يـــومًـــا فـــلا تقـــل
خلـــوت ولكـــن قـــل علـــيَّ رقيـــبُ
ولا تحسبـــنَّ الله يغفـــل ســـاعـــةً
ولا أن مـــا تخفـــي عليـــه يغيـــب
لهـــونـــا عـــن الأيـــام حتـــى تتـــابعـــت
ذنـــوبٌ علـــى آثـــارهـــن ذنـــوب

قال **مالك بن دينار** ـ رحمه الله ـ: رأيت في البادية في يوم شديد البرد شابًا عليه ثوبان خلقان، وعليه آثار الدعاء وأنوار الإجابة، فعرفته، وكنت قبل ذلك عهدته في البصرة: ذا ثروة، وحسن حال، وكان ذا مالٍ وآمال.

قال: فبكيت لما رأيته على تلك الحال، فلما رآني بكى وبدأني

---

(١) حلية الأولياء: (٣/٢٣٨).

بالسلام، وقال لي: يا مالك بن دينار: ما تقول في عبد أبق من مولاه؟ فبكيت لقوله بكاءً شديدًا، وقلت له: وهل يستطيع المسكين ذلك؟ البلاد بلاده، والعباد عباده، فأين يهرب؟

فقال: يا مالك سمعت قارئًا يقرأ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]. فأحسست في الحال بنار وقعت بين ضلوعي، فلا تخمد، ولا تهدأ من ذلك اليوم، يا مالك.. أتراني أُرحم وتطفأ هذه الجمرة من قلبي؟

فقلت له: أحسن الظن بمولاك، فإنه غفورٌ رحيم، ثم قلت له: إلى أين؟ قال: إلى مكة شرفها الله ـ تعالى ـ لعلي ممن أكون إذا التجأ إلى الحرم استحق مراعاة الذمم.

قال مالك: ففارقني ومضى، فتعجبت من وقوع الموعظة منه موقعها، وما تأجج بين جنبيه من نار التيقظ والإنابة، وما حصل عليه من صدق القبول وحسن الاستماع[١].

فحي على جنَّات عدن فإنها
منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى
نعود إلى أوطاننا ونسلم[٢]

أخي:

* طال بنا الأمل.. ومضى بنا التسويف.. فماذا ننتظر لنتوب؟

---

(١) العاقبة ص (٨٢).

(٢) عقود اللؤلؤ ص (٣٣).

وحالنا وتسويفنا حاكه أبو حازم بقوله:

نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت(١).

لهونا عن الأيام حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب

فيا ليت أن يغفر الله ما مضى ... ويأذن لي في توبةٍ فأتوب(٢)

قال **يونس بن سليمان البلخي**: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والجنائب والبزاة، فبينما إبراهيم في ذلك اليوم وهو على فرسه يركضه، إذا بصوت من فوقه.. يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة.

قال: فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة(٣).

وقال **الفضيل بن عياض** لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال: الرجل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾، فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟! تقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول، فليعد للسؤال جوابًا، فقال الرجل: فما الحيلة؟

---

(١) أدب الدنيا والدين ص (١٠٩).

(٢) حلية الأولياء: (٩/ ٢٢٠).

(٣) صفة الصفوة: (٤/ ١٥٢).

قال: يسيرة.. تُحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى وما بقي[(١)].

أرأيت ـ أخي ـ هذا الفضل العظيم والإحسان الجزيل.. فالتوبة تَـجُبُّ ما قبلها.

بلغت من عمري ثمانينا
وكنت لا آمل خمسينا
فالحمد لله وشكرًا له
إذ زاد في عمري ثلاثينا
وأسأل الله بلوغاً إلى
مرضاته آمين آمينا[(٢)]

قال **عبد الرحمن بن يزيد بن جابر**: كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية خلا لعبد الملك بن مروان، فلما مات عبد الملك بن مروان وتصدع عن قبره، وقف عليه، فقال: أنت عبد الملك الذي كنت تعدني فأرجوك، وتوعدني فأخافك، أصبحت وليس معك من غير ثوبين، وليس لك منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين، ثم انكفأ إلى الله، واجتهد في العبادة، حتى صار كأنه شن بال، فدخل عليه بعض أهله، فعاتبه في نفسه وإضراره بها، فقال للقائل: أسألك عن شيء تصدقني عنه؟ قال: نعم، قال: أخبرني عن حالتك التي أنت عليها، أترضاها لنفسك؟ قال: اللهم لا، قال: أفعزمت على الانتقال منها إلى غيرها، قال: ما انتصحت رأي في ذلك، قال: أفتأمن أن يأتيك الموت

(١) جامع العلوم: (٤٦٤).
(٢) تاريخ بغداد: (٥/٢١١).

على حالك التي أنت عليها؟ قال: اللهم لا.

قال: حال ما أقام عليها عاقل، ثم انكفأ إلى مصلاه.

لبست ثوب الدجى والناس قد رقدوا
وبتُّ أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت: يا أملي في كل نائبة
ومن عليه لكشف الضر أعتمد
أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها
مالي على حملها صبرٌ ولا جلد
وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً
إليك يا خير من مدت إليه يد
فلا تردَّنَّها يا رب خائبة
فبحر جودك يروي كل من يرد[١]

دخل لص على مالك بن دينار فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئًا من الدنيا، فترغب في شيءٍ من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل، ثم جلس وخرج إلى المسجد، وخرج، فسئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق، فسرقناه[٢]!!

قال مطرِّف بن عبد الله: لأن أبيت نائمًا، وأصبح نادمًا: أحب إليَّ من أن أبيت قائمًا، وأصبح معجبًا[٣].

نسير إلى الله في توبة صادقة وبقلبٍ وجل.. عسى الله أن يرحمنا..

---

(١) عقود اللؤلؤ ص (٢٥١).

(٢) السير: (٥/ ٣٦٣).

(٣) السير: (٤/ ١٩٠).

يــا رب إن عظمــت ذنــوبــي كثــرة
فلقــد علمــت بــأن عفــوك أعظــمُ
إن كــان لا يــرجــوك إلا محســنٌ
فمــن الــذي يــدعــو ويــرجــو المجــرم
أدعــوك رب كمــا أمــرت تضــرعــاً
فــإذا رددت يــدي فمــن ذا يــرحــم
مــا لــي إليــك وسيلــة إلا الــرجــا
وجميــل عفــوك ثــم إنــي مسلــم[١]

أخي:

أين نحن من تذكر ذنوبنا، وأن ما أصابنا هو بسبب ذنوبنا!؟ فقد أغلظ رجل لوكيع بن الجراح، فدخل بيته، فعفر وجهه في التراب، ثم خرج إلى الرجل، فقال: زد وكيعًا بذنبه، فلولاه ما سُلطت عليه[٢].

وقال ابن سيرين: إني لأعرف الذنب الذي حُمل به عليَّ الدين ما هو، قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس[٣].

رحمهم الله ـ لقلة ذنوبهم ـ عرفوا من أين يؤتون.. ونحن لكثرة ذنوبنا لا نحصي.. ولا نتذكر..!!

قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قلت ليزيد بن مرثد: مالي أرى عينك لا تجف؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله أن ينفعني به، قال: يا أخي إن الله قد توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٧١)، جامع العلوم والحكم: (٤٧٧).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١٧١).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٦).

لم يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريًا أن لا تجف لي عين، فقلت له: فهكذا أنت في خلواتك؟ قال: وما مسألتك عنه، قلت: عسى الله أن ينفعني به، فقال: والله إن ذلك ليعرض لي حين أسكن إلى أهلي. فيحول بيني وبين ما أريد، وإنه ليوضع الطعام بين يدي فيعرض لي، فيحول بيني وبين أكله، حتى تبكي امرأتي ويبكي صبياننا، ما يدرون ما أبكانا[1]

قـــدم لنفســـك فـــي الحيـــاة تـــزودًا
فلقـــد تُفـــارقهـــا وأنـــت مُـــودعُ
واهتـــم للسفـــر القـــريـــب فـــإنـــه
أنـــأى مـــن السفـــر البعيـــد وأشســـعُ
واجعـــل تـــزودك المخـــافـــة والتُّقـــى
وكـــأن حتفـــك مـــن مســـائـــك أســـرع[2]

قال ابن سيرين: إذا أراد الله ـ عز وجل ـ بعبده خيرًا جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه[3].

أخي الحبيب:

خـــذ مـــن شبـــابـــك قبـــل المـــوت والهـــرم
وبـــادر التـــوب قبـــل الفـــوت والنـــدم
واعلـــم بـــأنـــك مجـــزيٌ ومـــرتهـــن
وراقـــب الله واحـــذر زلـــة القـــدم[4]

---

(١) حلية الأولياء: (٥/ ١٦٤).
(٢) ديوان الإمام علي: (١٢٩).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٣).
(٤) ترتيب المدارك: (٢/ ٤٦١).

القلوب التائبة منكسرة بين يدي الله.. تسبقها الدمعة.. ويحدوها عفو الله وسعة كرمه.. وهي قلوب قال عنها **عوف بن عبدالله**: قلب التائب بمنزلة الزجاجة يؤثر فيها جميع ما أصابها، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة، وهم إلى الرقة أقرب، فداووا القلوب بالتوبة، فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتى أوفدته عليها، وجالسوا التوابين، فإن رحمة الله إلى التوابين أقرب[١].

وقال **الفضيل بن عياض**: كل حزن يبلى.. إلا حزن التائب[٢].

إلهـــي لا تعـــذبنـــي فـــإنـــي
مقـــرٌ بـــالـــذي قـــد كـــان منـــي
ومـــا لـــي حيلـــة إلا رجـــائـــي
وعفـــوك إن عفـــوت وحســـن ظنـــي
وكـــم مـــن زلـــة لـــي فـــي الخطـــايـــا
وأنـــت علـــيَّ ذو فضـــلٍ ومـــنٍّ

يقول **ابن الجوزي**: ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه، وإن تاب منها، وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمر غائب، ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها.

فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلاً.

وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد، لأنه يرى أن العفو قد غمر

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٠٤).
(٢) حلية الأولياء: (٨/ ١٠١).

الذنب بالتوبة الصادقة.. وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل[١].

قال **سلمان الفارسي**: ـ رضي الله عنه ـ إذا أسأت سيئة في سريرة فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأت سيئة في علانية. فأحسن حسنة في علانية، لكي تكون هذه بهذه[٢].

أخي المسلم:

من نعم الله علينا أن طريق التوبة مفتوح.. ليس عليه حُجَّابٌ ولا دونه أبواب..

إنه باب: أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، غافر الذنب، وقابل التوب..

قال **أحمد بن عاصم الأنطاكي**: هذه غنيمةٌ باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يغفر لك ما مضى[٣].

الحمد لله الذي أمهلنا ومن العيوب سترنا.. وإلى بابه: باب التوبة سيرنا..

قدم لنفسك توبة مرجوةً
قبل الممات وقبل حبس الألسن[٤]

قال بعض السلف: كان داود ـ عليه السلام ـ بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال **سعيد بن جبير**: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها

---

(١) صيد الخاطر ص (٥٠٢).
(٢) صفة الصفوة: (١/٥٤٨).
(٣) الزهد للبيهقي ص (٢٢٨).
(٤) التذكرة ص (٥٣).

الجنة، وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب إليه منها[١].

وقال **مالك بن دينار**: إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه: طعام، ولا شراب، ولا نوم، ولا راحة. وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة[٢].

أخي:

أقبـل علـى صلـواتـك الخمـس
كـم مـن مصبـح وعسـاه لا يُمسـي
واستقبـل اليـوم الجـديـد بتـوبـةٍ
تمحـو ذنـوب صحيفـة الأمـسِ
فليفعلـن بـوجهـك الغـض البلـى
فعـل الظـلام بصـورة الشمـس[٣]

إذا عزم العبد على السفر إلى الله ـ تعالى ـ: وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولاً: بالشهوات، والرياسات، والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه، ابتُلِيَ: بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك، فإن وقف معه، انقطع به عن الله، وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات، والكشوفات، فإن وقف معها، انقطع بها عن الله وكان حظه،

(١) تسلية أهل المصائب ص (٢١٨).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ٧٦٣).
(٣) أدب الدنيا والدين ص (٩٧).

وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد، والتخلي ولذة الجمعية، وعزة الوحدة، والفراغ من الدنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود[١].

وطريق التائب طريق فيه مشقة، وتحفه المزالق والشهوات، ولكنه يسير إلى رب غفور كريم.

الحسنة عنده بعشرة أمثالها، أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان. والسيئة عنده بواحدة، ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور.. بابه الكريم مناخ الآمال، ومحط الأوزار، وسماء عطاء لا تقلع عن الغيث، بل هي مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار.. إن ربنا لغفور شكور[٢].

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، إن ربنا لغفورٌ شكور[٣].

يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم
يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
وأنت يا حي يا قيوم لم تنم

---

(١) الفوائد ص (٢٢٣).
(٢) عدة الصابرين ص (٣٤٠).
(٣) عد الصابرين ص (٣٣٩).

هب لي بجودك ما أخطأت من جرم
يا من إليه أشار الخلق بالكرم
إن كان عفوك لم يسبق لمجترم
فمن يجود على العاصين بالنعم[1]

ألقى الله ـ سبحانه ـ العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب، وابتلي العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمدَّ كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالاً[2].

فشمر ـ أخي الحبيب ـ عن همتك.. وبادر نفسك.. فإننا كما قال **معاذ بن جبل**: ـ رضي الله عنه ـ إن المؤمن لا يسكن روعه، حتى يترك جسر جهنم وراءه[3].

تفكرت في حشري ويوم قيامتي
وإصباح خدي في المقابر ثاويا
فريدًا وحيدًا بعد عز ومنعةٍ
رمينا بجرمي والتراب وساديا
تفكرت في طول الحساب وعرضه
وذُلَّ مقامي حين أُعطي حسابيا
ولكن رجائي فيك ربي وخالقي
بأنك تعفو يا إلهي خطائيا

---

(١) عقود اللؤلؤ ص (١٩٧).
(٢) الفوائد ص (٧٨).
(٣) الإحياء: (٤/١٩٨).

والله ـ تعالى ـ يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه . . ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة، كمن ذاق الجوع والعطش، والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه، والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك(١) .

* عاد حماد بن سلمة **سفيان الثوري**، فقال سفيان: يا أبا سلمة: أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي، لأخذت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي.

قال **خالد بن معدان** مهيبًا لاغتنام الفرص واستثمار الأوقات: إذا فتح لأحدكم باب خير، فليسرع إليه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه(٢) .

إذا هبت رياحُك فاغتنمها
فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها
فما تدري السكون متى يكون
وإن دَرَّت نياقك فاحتلبها
فما تدري الفصيلُ لمن يكون(٣)

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٥٥).
(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٢١١)، السير: (٤/ ٥٤٠).
(٣) أدب الدنيا والدين ص (٢٠٢).

قال يحيى بن معاذ: لا تستبطيء الإجابة، وقد سددت طريقها بالذنوب[١].

الله يغضب إن تركت سُؤَالَه
وابن آدم حين يُسأَلُ يَغْضَبُ[٢]

يا أرحم الراحمين نرفع أيدي التوبة.. ونستغفرك من كل ذنوبنا فنحن من التائبين العائدين.. قلوب تخفق وعيون تدمع.

أسير الخطايا عند بابك يقرع
يخاف ويرجو الفضل فالفضل أوسع
مقرٌ بأثقال الذنوب ومكثرٌ
ويرجوك في غفرانها فهو يطمع
فإنك ذو الإحسان والجود والعطا
لك المجد والأفضال والمن أجمع
فكم من قبيح قد سترت عن الورى
وكم نعم تترى علينا وتتبع
ومن ذا الذي يرجى سواك ويتقى
وأنت إله الخلق ما شئت تصنع[٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة، فأما ما حصل منه توبة، فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة، كما قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة

---

(١) السير: (١٣/١٥).
(٢) عقود اللؤلؤ ص (٢٨٣).
(٣) موارد الظمآن: (١/٥٤٧).

أحسن منه حالاً قبل الخطيئة، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر، فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب، ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصًا ولا عيبًا، بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانًا، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم، فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها(١).

والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع بعشر أسباب:

أحدها: أن يتوب توبةً نصوحًا ليتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الثاني: أن يستغفر الله فيغفر الله ـ تعالى ـ له.

الثالث: أن يعمل حسنات يمحوها لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

الرابع: أن يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيًّا وميتًا.

الخامس: أن يهدي له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

السادس: أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ.

السابع: أن يبتليه الله في الدنيا بمصائب في نفسه وماله وأولاده، وأقاربه، ومن يحب ونحو ذلك.

الثامن: أن يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة، وهي عصر القبر، فيكفر بها عنه.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٥٣).

التاسع: أن يبتليه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

العاشر: أن يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة، فلا يلومن إلا نفسه، كما قال ـ تعالى ـ في الأحاديث الإلهيات: «**إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»(١) [رواه مسلم في صحيحه].

يا أهل لذة لهوٍ لا تدوم لهم ... إن المنايا تبيد اللهو واللعب

كم من رأيناه مسرورًا بلذته ... أمسىٰ فريدًا من الأهلين مغتربا(٢)

قال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم، قلع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار(٣).

أخي الحبيب:

الأيام تمر والساعات تسير.. ونحن في رحلة إلى الدار الآخرة قد بدأت.. فوقتك هو رأس مالك.. فإضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

كيف ـ يا أخي ـ يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة(٤).

---

(١) تسلية أهل المصائب ص (٢١٨).

(٢) شرح الصدور ص (٢١٧).

(٣) السير: (١٣/ ١٥).

(٤) الفوائد ص (٤٥).

أخي الحبيب:

فيـــا ليـــت أن الله يغفـــر مـــا مضـــى
ويـــأذن فـــي تـــوبـــاتنـــا فنتـــوب[1]

أخـي المسلم:

وأنت في طريق التوبة تلمس علامات صحة التوبة في أمور خمسة:

أولاً: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ثانـيًا: أن لا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع البشرى تأتيه: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ ﴾ [فصلت: ٣٠].

ثالثًا: انخلاع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الذنوب.

رابعًا: انكسار، وذل، وخضوع بين يدي الله.

خامسًا: الازدياد في الأعمال الصالحة والمداومة عليها.

* قال يحيى بن معاذ: للتائبين فخرٌ لا يعادله فخر، فرح الله بتوبته.

أخي الحبيب: حان وقت التوبة والرجوع.. والإيمان والخشوع والندم والدموع، فاسكب العبرات، وادع رب الأرض والسموات..

ولمـــا قســـا قلبـــي وضـــاقـــت مـــذاهبـــي
جعلـــت رجـــائـــي نحـــو بـــابـــك سلمـــا
تعـــاظمنـــي ذنبـــي، فلمـــا قـــرنتـــه
بعفـــوك ربـــي كـــان عفـــوك أعظمـــا

---

(١) موارد الظمآن: (٢/ ٩٤).

الخاتمة

ختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله ـ تعالى ـ على سبيل التفاؤل بذلك.

فقد كان رسول الله ﷺ يحب التفاؤل، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به أن يختم الله عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله ـ تعالى ـ فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال ـ تعالى ـ: : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠].

ونحن نستغفر الله ـ تعالى ـ من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم. ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدنا به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزيناً للناس بها[١].

---

(١) الإحياء: (١/٥٧٨).

أخي الحبيب:

جعلني الله وإياك من أهل التوبة والعودة والرجوع والأوبة . .

وجمعني وإياك ووالدينا وأحبابنا في جنات عدن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المصادر

١ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢ - أدب الدنيا والدين للماوردي - دار الكتب العلمية.

٣ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير - مطبعة المتوسط.

٤ - بستان العارفين للإمام أبي يحيى زكريا بن شرف النووي، تحقيق محمد الحجار.

٥ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية.

٦ - التبصرة لابن الجوزي - دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٧ - تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

٨ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض، ط ١٤٠٧هـ.

٩ - التذكرة في الاستعداد لليوم الآخر، علي صالح الهزاع ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٠ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض - مكتبة الحياة.

١١ - تزكية النفوس، جمع د. أحمد مزيد، دار القلم، بيروت.

١٢ - تسلية أهل المصائب لأبي عبد الله محمد بن محمد النبجي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١٣ - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.

١٤ - جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي - تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير ١٤١٠هـ.

١٥ ـ الجواب الكافي لابن قيم الجوزية ـ تحقيق أبي حذيفة ـ دار الكتاب العربي ط١/ ١٤٠٧هـ.
١٦ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم ـ دار الكتاب العربي.
١٧ ـ الحسن البصري لابن الجوزي.
١٨ ـ ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.
١٩ ـ ديوان الإمام الشافعي، دار الجيل ـ بيروت ط٣/ ١٣٩٢هـ.
٢٠ ـ كتاب الزهد الكبير، للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط٢/ ١٤٠٣هـ.
٢١ ـ كتاب الزهد للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني، دارالكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢٢ ـ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد بن يوسف الجرزي، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢٣ ـ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.
٢٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار إحياء التراث العربي.
٢٥ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢٦ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي ـ تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس ـ دار المعرفة ١٤٠٥هـ.
٢٧ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.
٢٨ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية.

٢٩ ـ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، دار إحياء الكتب العربية.

٣٠ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣١ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عثمان، دار الكتاب العربي ط٢/ ١٤٠٦هـ.

٣٢ ـ عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان، إبراهيم بن عبيد.

٣٣ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير ط١/ ١٣٩٨هـ.

٣٤ ـ الفوائد لابن القيم ـ دار النفائس.

٣٥ ـ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ط٢/ ١٤٠٨هـ.

٣٦ ـ مفتاح السالكين لابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة.

٣٧ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١/ ١٤٠٣هـ.

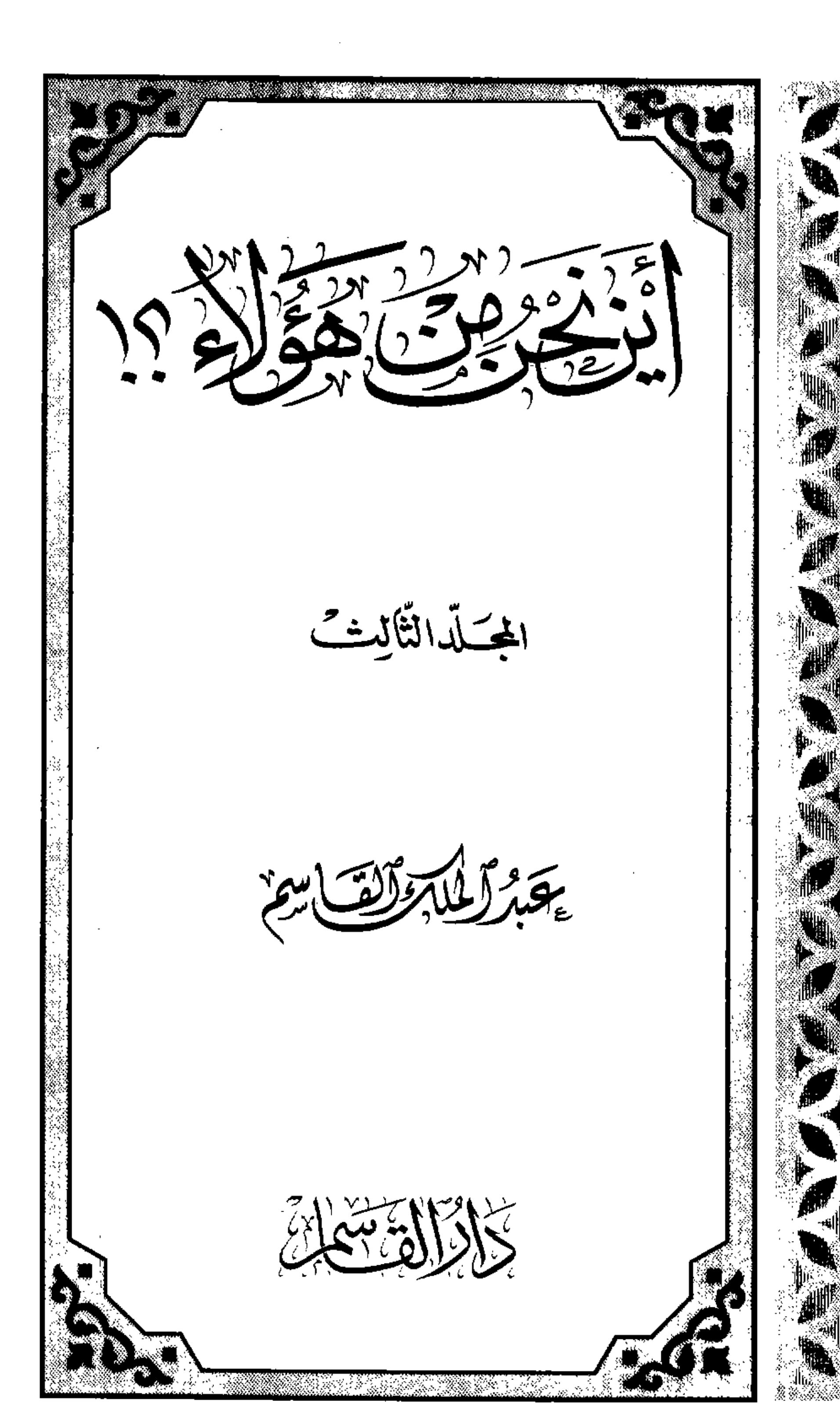
٣٨ ـ منهاج القاصدين لابن الجوزي.

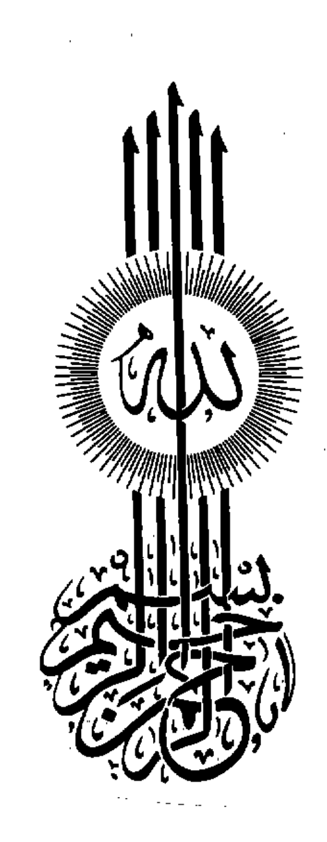
٣٩ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان، ط١٣/ ١٤٠٣هـ.

٤٠ ـ واحات الإيمان لعبد الحميد البلالي، دار الدعوة ط٤/ ١٤٠٩هـ.

٤١ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ.

* * *


أين نحن من هؤلاء؟!
المجلد الثالث
عبد الملك القاسم
دار القاسم


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

فقيهاً فجاهد

الإهداء

إلى من أدرك أبويه عند الكبر، فبرهما فدخل الجنة... هنيئًا له ما قدَّم.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدَّر فهدى، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، قولاً وفعلاً، وصلةً وبرًّا..

أمَّا بعد:

فامتثالاً لأمر الله ـ جل وعلا ـ بوجوب التعاون على البر والتقوى، والنصح لكل مسلم، وتذكيرًا لي وللإخوة الشباب، أقدم الجزء التاسع من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان: «**ففيهما فجاهد**»، الذي يعني بوصية الله ـ تعالى ـ لعباده من برِّ الوالدين والإحسان إليهما، وإكرامهما وحفظ حقوقهما.

وبين دفتي الكتاب ذكرٌ لحال السلف وبرهم بأبائهم وأمهاتهم، مع حسن رعايتهم والقيام على شؤونهم بنية العبادة الخالصة لله.

وبين السطور صوت كلمة حانية.. وأنين قلب مفجوع.. ولظى عبرة مسفوحة.. ولذا جمَّلته بأحاديث الرسول ﷺ، التي تلين القلوب، وتذيب القسوة، وتجلي الغفلة، وتُنزل الوالدين منزلتهما.

والكتاب لا يخلو من دمعة تفريط واعتراف بالتقصير في حق الوالدين، متعنا الله بحياتهم، ورفع درجاتهم، وأعلى منازلهم، وأجزل مثوبتهم، وأسكنهم الفردوس الأعلى، وجمعنا وإياهم في جنات عدن، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

قال الله ـ جل وعلا ـ في محكم كتابه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٥].

أخرج الديلمي عن الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «**لو علم الله شيئًا من العقوق أدنى من (أف) لحرمه**»[١].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ هي كلمة كراهة.

وقال مقاتل: الكلام الرديء الغليظ.

ويقال: نُهي الولد أن يقول لهما: ﴿أُفٍّ﴾ إذا شم منهما رائحة كريهة؛ فالنهي عما فوق ذلك أعظم.

وقال مجاهد: إن بلغا عندك من الكبر فيبولان ويخريان فلا تتقززهما ولا تقل لهما: ﴿أُفٍّ﴾؛ وأمط عنهما الخراء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيرًا ولا يتأففان.

وقال عروة بن الزبير في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ هو: ألا يمنعهما شيء[٢].

---

(١) فتح القدير: (٣/ ٢١٨).
(٢) الدر المنثور: (٥/ ٢٥٩).

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات، فإن كان والدا المسلم ذميين استعمل معهما ما أمره الله به هاهنا إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر[١].

قال الإمام أبو بكر الجصاص: قال أصحابنا في المسلم يموت أبواه وهما كافران إنه يغسلهما ويتبعهما ويدفنهما، لأن ذلك من الصحبة بالمعروف التي أمر الله بها[٢].

وقال ـ تعالى ـ: مؤكدًا على حق الوالدين: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [البقرة: ٨٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: فأمرهم ـ تعالى ـ أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يُعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين. ولهذا يقرن ـ تبارك وتعالى ـ بين حقه وحق الوالدين، كما قال ـ تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾[٣] [لقمان: ١٤].

وأثنى الله ـ تعالى ـ: على الأنبياء، وخص بالذكر منهم يحيى، ـ عليه السلام ـ، لأنه كان برًّا بوالديه على كبر سنهما، والبر في وقت الحاجة

---

(١) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٤٤).
(٢) أحكام القرآن للجصاص: (٢/ ٢٣٦).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٠).

أعظم منه في غيره، والحاجة لا تتحقق إلا في سن الشيخوخة والضعف: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم: ١٤].

وأُطري على عيسى ـ عليه السلام ـ لتفانيه في خدمة أمه واعتزازه ببرها، واعترافه بفضلها، وخفض الجناح لها: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم: ٣٢].

ولنا في أنبياء الله وسلفنا الصالح الأسوة الحسنة؛ فهذا أبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتلطف في دعوة أبيه إلى الله، فلما نهره أبوه قابله بالرفق والوعد بالاستغفار له. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٨].

وأما سلفنا الصالح فكان منهم **أويس القرني**، فعن أسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، إذا أتى أمدادُ أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال: أنت أويس بن عامر؟ فقال: نعم. فقال: مِنْ مُرَادٍ ثم من قَرَن.

قال: نعم، قال: فكان بك برصٌ فبرَأْتَ إلا مَوْضع درهم؟ قال: نعم.

قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أَمْدَادِ أهل اليمن من مراد، ثم من قَرَن، كان به**

برص فبرأ منه إلا موضع درهم، **له والدة هو بها برٌّ. لو أقسم على الله لأبرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**». فاستغفر لي. فاستغفر له. فقال عمر: أين تريد؟

قال أريد الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إليَّ.

قال: فلما كان من العام المُقْبِل حج رجل من أشرافهم. فوافق عمر ـ رضي الله عنه ـ، فسأله عن أويس.

قال: تركتُه رَثَّ البيت قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ ثُمَّ من قَرَن، كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضِعَ درهم، له والدة هو بها برٌّ. لو أقسم على الله لأَبرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**» فأتى أويسًا فقال: استغفر لي. قال: أنت أحْدث عَهْدًا بسفر صالح، فاستغفر لي. قال: لَقِيتَ عمر؟ قال: نعم فاسْتَغْفَرَ له، فَفَطِنَ له الناس، فانطلق على وجهه[١].

وقد أجمع علماء الإسلام على أن **بر الوالدين واجب**، واختلفت عباراتهم في ذلك.

قال **ابن حزم**: إنه فرض. قال في الآداب الكبرى: قال **القاضي عياض**: بر الوالدين واجب في غير الحرام[٢].

واستدلوا بالأدلة الصحيحة الصريحة الكثيرة منها:

* قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) غذاء الألباب: (١/ ٣٨٢).

إِحۡسَٰنًا . . .﴾ الآية. [النساء: ٣٦] فهذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، خصوصًا بعد أن قرنه بعبادته وتوحيده، ولم يوجد لهذا الأمر صارف.

* وقوله ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومعنى: ﴿قَضَىٰ﴾ كما قال **ابن كثير**: وصَّى.

وقال القرطبي: أي أمر وألزم وأوجب.

وقال الشوكاني: وفي جعل الإحسان إلى الأبوين قرينًا لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكيد حقهما والعناية بشأنهما ما لا يخفى[(١)].

معنى بر الوالدين:

البر: الإحسان، ومنه قول الرسول ﷺ: «**البر حسن الخلق**». وهو في حق الوالدين والأقربين ضد العقوق.

فالعقوق: هو الإساءة وتضييع الحقوق.

* قال **الحسن البصري**:

البر: أن تطيعهما في كل ما أمرك به ما لم تكن معصية الله. **والعقوق**: هجرانهما، وأن تحرمهما خيرك[(٢)].

* وقال **القرطبي**: عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برهما، موافقتهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه إذا لم يكن ذلك الأمر معصية. وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله. كذلك إذا كان من قبيل المندوب[(٣)].

---

(١) فتح القدير: (٣/ ٢١٨).
(٢) الدر المنثور: (٥/ ٢٥٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٦/ ٢٣٨).

* وقال **شيخ الإسلام**: قال أبو بكر في زاد المسافر: من أغضب والديه وأبكاهما يرجع فيضحكهما. وهذا يقتضي قوله أن يُبرَّا في جميع المباحات، فما أمراه إئتمر، وما نهياه انتهى، وهذا فيما كان فيه منفعة لهما ولا ضرر عليه فيه ظاهر، مثل ترك السفر والمبيت عندهما ناحية[١].

* جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: **«أحيٌّ والداك؟»** قال: نعم. فقال: **«ففيهما فجاهد»**[٢].

* قال **الجصاص** في أحكام القرآن: قال أصحابنا: لا يجوز أن يجاهد إلا بإذن الأبوين إذا قام بإزاء العدو من قد كفاه الخروج؛ قالوا: فإن لم يكن بإزاء العدو من قام بفروض الخروج: فعليه الخروج، بغير إذن والديه، لأن الجهاد حينئذ فرض عين على كل قادر، وليس فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين[٣].

* قال **الإمام النووي** في شرح صحيح مسلم: قال أبو محمد بن عبد السلام: يحرم على الوالد الجهاد بغير إذن الوالدين لما يشق عليهما من توقع قتله أو قطع عضو من أعضائه وشدة تفجعهما على ذلك.

* وقال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: ثلاث آيات مقرونة بثلاث لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها، فذكر منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ٣١] قال: فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه.

---

(١) غذاء الألباب: (١/ ٣٨٢).
(٢) رواه البخاري.
(٣) أحكام القرآن للجصاص: (٤/ ٢٣٥).

ولذا قال النبي ﷺ: «رضا الرب من رضا الوالد، وسخط الرب من سخط الوالد»[(١)].

وقد أوصى النبي ﷺ بطاعة الوالدين. فعن أبي الدرداء قال: أوصاني رسول الله ﷺ بتسع:

«لا تشرك بالله شيئًا، وإن قُطعت أو حُرقت.

ولا تتركن الصلاة المتكوبة متعمدًا، ومن تركها متعمدًا برئت منه الذمة.

ولا تشربن الخمر، فإنها مفتاح كل شر.

وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج لهما...» الحديث.[(٢)].

وقال محمد بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: إن الله رضَّا الآباء للأبناء، فحذرهم فتنتهم: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾ [التغابن: ١٥]، ولم يوصهم بهم، ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم. وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق، وشر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط.

ويعود السبب في عدم تعرض القرآن إلى توصية الآباء بأبنائهم إلى أمرين:

الأول: الرحمة التي أودعها الله ـ تعالى ـ قلب الأب.

الثاني: إن الولد جزء من الوالد، والأصل يحنُّ إلى الفرع ويعطف عليه.

وهذه العاطفة الأبوية موجودة عند جميع المخلوقات الحية. وكما أن الوالد مأجور على تعبه ونصبه وسعيه على أبنائه، فإن الابن مأجور على

---

(١) كتاب الكبائر: (٤٠).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد.

سعيه على والديه وخدمتهما ورعايتهما وإدخال السرور على قلوبهما.

فعن **كعب بن عجرة** ـ رضي الله عنه ـ قال: مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب النبي ﷺ جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله. وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل االشيطان**»(١).

عن **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاءتْ امرأةٌ ومعها ابنتانِ لها تسألني، فلم تجد عندي شيئًا غيرَ تمرةٍ واحدةٍ فأعطيتها إياها فأخذتها فشقَّتها باثنتين بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامتْ فخرجتْ هي وابنتاها، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ، فحدثته حديثها، فقال رسول الله ﷺ: «**من ابتُلِيَ من البنات بشيء فأحسن إليهن كُنَّ له سِترًا من النار**»(٢).

وقال **عبدالله بن أبي أوفى**: قال رجل: يا رسول الله! إنَّ هٰهُنا شابًّا يجود بِنَفسِهِ، يُقال له: قل: «**لا إله إلا الله**»، فلا يستطيع. فجاءه النبي ﷺ، فقال: «**قل: لا إله إلا الله**» قال: لا أستطيع، قال: «لِـمَ»؟ قال: أُقْفِلَ على قلبي، كُلَّما أردت أن أقولها غَمَرَ القَفْلُ قلبي. قال: «بِمَ»؟ قال: بعقوقي والدتي، فأرسل النبيُّ ﷺ إليها، فقال لها: «**أرأيتِ إنْ أججتُ نارًا ضخمة، فقيل لك: استغفري له أو نلقيه فيها؟**» قالت: إذن أشفع له يا رسول الله! قال: «**فاشهدي الله وأشهديني برضاك عنه**».

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه الشيخان.

قالت: اللهم إني أشهدك، وأشهد رسولك ﷺ برضاي عنه. فقال النبي ﷺ: «يا شابُّ! قل: لا إله إلا الله». قال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له» فقال ﷺ: «الحمد لله الذي أنقذك من النار». ثلاث مرات[١].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسبًا إلا فتح الله له بابين ـ يعني من الجنة ـ وإن كان واحد فواحد، وإن أغضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه، قيل: وإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه[٢].

أخي الحبيب:

ما أعظم فضل الله، وما أوسع رحمته! لقد أعد لكل من الوالدين بابًا من الجنة، يتفتح بالخير على الولد كلما خرج يسعى لهما، وتتساقط عليه رحمة الله ـ تعالى ـ ما دام حريصًا على إرضائهما، فإن أغضبهما أو أغضب أحدهما غضب الله عليه فأغلق دونه باب الخير وإن كان الولد محقًّا، ليعلم الأبناء أن ليس لهم من الحق شيء تجاه آبائهم.

والأمر بالإحسان إلى الوالدين عام مطلق، ينضوي تحته مايرضي الابن وما لا يرضيه من غير احتجاج ولا جدل ولا مناقشة. وهذه نقطة مهمة جدًّا يجب الانتباه إليها لأن أكثر الأبناء يغفلون عنها إذ يحسبون أن البر فيما يروق لهم، ويوافق رغباتهم.

والحقيقة على عكس ذلك تمامًا، فالبر لا يكون إلا فيما يخالف أهواءهم وميولهم، ولو كان فيما يوافقها لما سمي برًّا.

---

(١) رواه الطبراني.
(٢) أخرجه البيهقي.

وشروط البر ثلاثة:

الأول: أن يؤثر الولد رضا والديه على رضا نفسه وزوجته وأولاده والناس أجمعين.

الثاني: أن يطيعهما في كل ما يأمرانه به وينهيانه عنه، سواء وافق رغباته أو لم يوافقها، ما لم يأمراه بمعصية الله ـ تعالى ـ.

الثالث: أن يقدم لهما كل ما يلحظ أنهما يرغبان فيه من غير أن يطلباه منه عن طيب نفس وسرور، مع شعوره بتقصيره في حقهما ولو بذل لهما دمه وماله.

* قال ﷺ: «**ثلاث دعوات لا تُردُّ: دعوة الوالد لولده، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر**»(١).

ولو لم يكن من البر بالوالدين إلا استجابة دعوتهما لكفى، فربما بدعوة منهما لا تشقى بعدها أبدًا.

ومن بر والديه فإن الله يتقبل عمله، قال ـ تعالى ـ فيمن بر والديه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ [الأحقاف: ١٦] فجمع ـ سبحانه وتعالى ـ لمن بر والديه قبول العمل وتكفير الخطيئة.

* ورحمة الوالد بابنه وحرصه عليه ليست بحاجة إلى تفصيل وإيضاح.. فإنها تبدأ منذ الخطوات الأولى للأبوة.. فعندما يبحث الأب عن زوجة فهو يختار لابنه المنبت الطيب والحضن الدافيء والأم العاقلة.

وذلك طمعًا في صاحب الدين لأنه أهلٌ لصلة الأرحام والأقارب.. أما أهل الفسق فإنهم أبعد الناس عن الخير والصلة والبر.

---

(١) صحيح الجامع برقم (٣٠٢٩).

ولم تكن تلك المحبة والألفة مدعاة إلى تضييع حقوق الله والتساهل في تربية أبنائهم. بل إنها باب للسمع والطاعة والقبول.

فحين تفقد **هشام بن عبد الملك** أحد أولاده يوم الجمعة فلم يجده، بعث إليه: مالك لم تشهد الجمعة؟! فقال: إن بغلتي عجزت عني، فبعث إليه: أما يمكنك المشي؟ ومنعه أن يركب سنة وأن يشهد الجمعة ماشيًا[(١)].

وهذا نوع من التأديب لأبنائهم وأخذهم على الحق وإلزامهم الاستقامة.

وهناك أيضًا باب آخر في هدأة الليل المظلم. وسكون الأصوات.

إنها لحظات الوقوف بين يدي الله.. والتوجه بالدعاء والتضرع إلى الله بصلاحهم وبرهم وتوفيقهم.

عن هشام بن حسان قال: قال سعيد بن جبير: إني لأزيد في صلاتي من أجل ابني هذا، قال هشام: رجاء أن يحفظ فيه[(٢)].

وعندما رأى مالك بن دينار رجلاً يسيء صلاته، قال: ما أرحمني لعياله. فقيل له يسيء هذا صلاته وترحم عياله؟! قال إنه كبيرهم ومنه يتعلمون[(٣)].

وهذا يُبين أن للوالدين يد طولى في بر أبنائهما لهما، من حسن تربية وعناية ودعاء ومحافظة عليهم. لهذا كان لزامًا على الأب المسلم والأم المسلمة أن يحميا أولادهما من هذا العقاب الشديد (عقاب العقوق) عند الله ـ تعالى ـ، بأن يُربيا أبناءهما تربية حسنة، فيعرفانهم حدود الله وأسباب غضبه ومقته، ويساعداهم ويعيناهم على برهما.

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٣٩٦).

(٢) حلية الأولياء: (٤/ ٢٧٩).

(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٨٧).

قال **الغزالي**: يعينهم على بره - يعني الأب - ولا يكلفهم من البر فوق طاقتهم، ولا يلح عليهم وقت ضجرهم، ولا يمنعهم من مخافة أن يعصيه في ذلك فيستوجب النار[(١)].

وكان يقال في أمر التربية: ولدك سبع سنين أسير، وسبع أمير، وسبع وزير[(٢)].

وعن **محمد بن حاطب** قال: سمعت ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول لرجل أدب ابنك فإنك مسؤول عن ولدك ما علمته وهو مسؤول عن برك وطاعته لك.

فالصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما ينقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عُود الخير وعُلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة.

وصلاح الآباء يدرك الأبناء، قال - تعالى -: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢] قيل: هو الأب السابع، وقيل: العاشر[(٣)].

والمحبة لا تغفل حق الله؛ ولا تضيع حقوق العباد هذا ابنٌ **لشريح بن الحارث** يقول لأبيه: بيني وبين قوم خصومه فانظر فإن كان الحق لي خاصمتهم، وإن لم يكن لي الحق لم أخاصمهم، فقص قصته عليه، فقال: انطلق فخاصمهم. فانطلق فخاصمهم إليه، فقضي على ابنه، فقال له لما رجع إلى أهله: والله لو لم أتقدم إليك لم أَلُمكَ فضحتني!! فقال: والله يا بني لأنت أحب إليَّ من ملء الأرض مثلهم، ولكن الله - عز وجل - أعز على

---

(١) تنبيه الغافلين: (٩٨).

(٢) البركة في فضل السعي والحركة: (٩٨).

(٣) فتح القدير: (٣/ ٣٠٤).

منك أن أخبرك أن القضاء عليك فتصالحهم فتذهب ببعض حقهم[١].

وحسن الأدب وجميل الخلق سمات ظاهرة على من بر والديه فعن **أبي غسان الضبي** أنه خرج يمشي بظهر الحرة وأبوه يمشي خلفه؟ فلحقه **أبو هريرة** فقال: من هذا الذي يمشي خلفك؟ قلت: أبي، قال: أخطأت الحق ولم توافق السنة، لا تمش بين يدي أبيك؛ ولكن أمش خلفه أو عن يمينه، ولا تدع أحدًا يقطع بينك وبينه، ولا تأخذ عرقًا ـ أي لحمًا مختلطًا بعظم ـ نظر إليه أبوك فلعله اشتهاه، ولا تحد النظر إلى أبيك، ولا تقعد حتى يقعد، ولا تنام حتى ينام[٢].

أخي الحبيب:

غير خاف على عاقل حق المنعم، ولا منعم بعد الحق ـ تعالى ـ على العبد كالوالدين، فقد تحملت الأم بحمله أثقالاً كثيرة، ولقيت وقت وضعه مزعجات مثيرة، وبالغت في تربيته، وسهرت في مداراته، وأعرضت عن جميع شهواتها، وقدمته على نفسها في كل حال.

وقد ضم الأب إلى التسبب في إيجاده محبته بعد وجوده، وشفقته وتربيته بالكسب له والإنفاق عليه.

والعاقل يعرف حق المحسن، ويجتهد في مكافأته، وجهل الإنسان بحقوق المُنعم من أخس صفاته، لاسيما إذا أضاف إلى جحد الحق المقابلة بسوء المنقلب[٣].

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٤٠).
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط.
(٣) بر الوالدين لابن الجوزي: (٢٧).

* روى **الشعبي** عن النبي ﷺ أنه قال: «**رحم الله والدًا أعان ولده على بره**».

قال **أبو الليث**: إذا كان الولد صالحًا وعلمه الأب القرآن والعلم، فيكون أجره لوالده من غير أن ينقص من أجر ولده شيء، فإذا كان الوالد لا يعلمه القرآن ويعلمه طريق الفسق يكون وزره على أبيه من غير أن ينقص من وزره شيء[1].

قال ـ جل وعلا ـ محذرًا من التفريط في الأمانة والتهاون في أمر التربية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

واسمع قول النبي ﷺ، فسوف يحاجك ابنك يوم القيامة إذا ضيعته وأهملته قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع، ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته...**» الحديث. [متفق عليه].

* قال ﷺ: «**من قرأ القرآن وعمل به، أُلبِسَ والداه تاجًا يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا! فما ظنكم بالذي عمل بهذا**»[2].

وعلى الوالدين أن يدعوا لأولادهما، ويكونان قدوة يقتدى بها في الخير، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤].

---

(١) تنبيه الغافلين (٩٩).

(٢) جامع الأصول: (٨٢).

أخي الحبيب:

عـــــــود بنيـــــــك على الآداب في الصغـــــــر
كيمـــــا تقـــــر بهـــــم عينــــاك في الكبر
فـــــإنمـــــا مثــــل الآداب تجمعهـــــا
في عنفـــوان الصبـــا كـــالنقــــش في الحجــــر
هــــي الكنـــوز التـــي تنمـــو ذخـــائـــرهـــا
ولا يخــــاف عليهـــــا حـــــادث الغير
إن الأديـــــب إذا زلـــــت بـــــه قـــــدم
يهـــوي إلى فـــــرش الـــديبـــاج والسرر

وعندما بلغ عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم كتب إليه: بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم، واشبع به ألف بطن، واتخذ خاتمًا بدرهمين، واجعل فصه حديدًا حينيًا، واكتب عليه رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه[1].

أخي الحبيب... أين نحن من هؤلاء؟!

مر أبو حازم سملة بن دينار بأبي جعفر المديني وهو مكتئب حزين، فقال: ما لي أراك مكتئبًا حزينًا، وإن شئت أخبرتك؟ قال: أخبرني ما وراءك؟ قال: ذكرت ولدك من بعدك، قال: نعم، قال: فلا تفعل، فإن كانوا لله أولياء فلا تخف عليهم الضيعة. وإن كانوا لله أعداء فلا تبال ما لقوا بعدك[2].

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٤٥).

(٢) حلية الأولياء: (٣/ ٢٣٢).

* وقال أبو حيان التيمي: رأيتِ مجمعًا التيمي يبكي في جنازة ابنه، فقلت ما يبكيك؟ قال: إني أجد له ما يجد الوالد لولده، وأبكي عليه إني لا أدري إلى جنة يصير أو إلى نار(١).

هذا هو الاهتمام وتلك هي الغاية. فإن الدنيا ظلٌّ زائل، والمقام والنعيم هناك في دارالخلود. جعلني الله وإياك وآباءنا وأبناءنا ممن يجتمعون فيها. ويلتقون بها.

* قال كثير بن تميم الداري: كنت جالسًا مع سعيد بن جبير فطلع عليه ابنه عبد الله بن سعيد وكان به من الفقه، فقال: إني لأعلم خير حالاته فقلت: وما هو؟ قال: أن يموت فأحتسبه(٢).

أما صلة بن أشيم فقد كان في مغزى له ومعه ابن له فقال: أي بُني تقدم فقاتل حتى أحتسبك. فحمل فقاتل حتى قُتل(٣).

أراد أن يجمع أجرين: أجر استشهاد ابنه، وأجر احتسابه وصبره(٤).

إذا مـــا دعـــوت الصبر بعــــدك والبكـــى
أجـــاب البكـــى طـــوعًـــا ولم يجـــب الصبر
فـــإن ينقطـــع منـــك الـــرجـــاء فـــإنـــه
سيبقـــى عليـــك الحـــزن مـــا بقـــي الـــدهـــر(٥)

---

(١) حلية الأولياء: (٥/ ٩٠).
(٢) حلية الأولياء: (٤/ ٢٧٥).
(٣) صفة الصفوة: (٤/ ٢٣).
(٤) ذكرت كثيرًا من المواقف العجيبة عند مصيبة فقد الولد في كتابي «اصبر واحتسب» فلا داعي لتكرارها هنا مرة أخرى.
(٥) شذرات الذهب: (٢/ ٦٥).

أخي الحبيب:

كيف نربي أبناءنا وعلى ماذا ننشئهم؟! أهو على اللهو واللعب وضياع الأوقات فنخرج أمةً ضائعة تائهة؟ أم نربيهم على العز والفخار، ونعلمهم العلم النافع، نربيهم على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتنهض الأمة وترتفع رايتها؟. **هاك وصية من أراد الرفعة والفوز:**

قال **لقمان** لابنه: يا بني زاحم العلماء بركبتك، ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاًّ، وصم صومًا يكسر شهوتك، ولا تصم صومًا يضر بصلاتك، فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين[١].

ولقد أهمل الكثير تربية أبنائهم التربية الإسلامية؛ وتساهلوا في توجيههم ونصحهم؛ وأصبح الهم منصرفًا إلى غذائهم وكسائهم ولهوهم. فترى بعض الأطفال يجهل كثيرًا من الأحكام الشرعية، ويقعون في بعض المحرمات فلا يُزجرون عنها، ولا يُنهون عنها، بل ولا يُنبهون عليها. بل إن بعض الآباء والأمهات يُعينون أطفالهم على فعل المعصية! فينشأ الصغير وهو لا يميز بين الحلال والحرام والمستحب والمكروه.

أما حال من سبقنا فإن أبصارهم تتابع الأبناء، وتسير مع خطواتهم. تعليم ونصيحة، وتوجيه وتأديب. بهم تقر الأعين، وتهنأ النفوس، وتحيا الأمة.

* كان **ابن محيريز** يقول: من مشى بين يدي أبيه فقد عقه، إلا أن يمشي

---

(١) الإحياء: (٤/٥٨).

فيميط له الأذى عن طريقه، ومن دعا أباه باسمه أو بكنيته فقد عقه، إلا أن يقول يا أبه[١].

* قال فرقد قرأت في بعض الكتب: ما برَّ ولد مدَّ بصره إلى والديه، وأن النظر إليهما عبادةٌ، ولا ينبغي للولد أن يمشي بين يدي والديه، ولا يتكلم إذا شهدا، ولا يمشي عن يمينهما، ولا عن يسارهما، إلا أن يدعوانه فيجيبهما، أو يأمرانه فيطيعهما، ولكن يمشي خلفهما مثل عبدٍ ذليل[٢].

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

أخي المسلم:

لا تمش إليهم بل كن مثل الطائر في سرعة إجابتهم والوصول إلى رضاهم.. ومع ذلك الجهد كله.. فأنت مقصر ولكن اتبع تقصيرك العملي بدعاء لهما بالرحمة والمغفرة.

هذا هوالنهج الذي يجب أن يسلكه الولد مع أبيه، يرى نفسه أقل منه فلا يمشي أمامه، ويوقن أنه قطعة منه فلا يدع أحدًا يفصل بينهما، ويعرف أنه دونه فلا يعلوه في سطح ولا مجلس، ويعترف أنه يعيش على فضله وإحسانه فلا يتناول ما اختصه لنفسه.

ومن أمور التربية الواضحة الجلية القدوة الحسنة.. فالأب والأم هما القدوة التي يقتدي بها الأبناء. فكم من مضيع للصلاة ومفرط في المنهيات تاركًا للأوامر مقترفًا للكبائر. كيف يأمر وينهى مثل هذا؟ بل كيف يا ترى

(١) البر والصلة لابن الجوزي: (١١٣).
(٢) المصدر السابق.

ينشأ أبناؤه على الخير في وسط هذا الفساد؟

* عن ابن عمر قال: كان عمر إذا نهى الناس عن شيء دخل على أهله ـ أو قال: جمع أهله ـ فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء منكم فليتأخر(١).

* لما كانت الصرعة التي هلك فيها عمر بن عبد العزيز دخل عليه مسلمة بن عبدالملك، فقال: يا أمير المؤمنين: إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، فتركتهم عالة لا شيء لهم، فلو أوصيت بهم إليَّ أو إلى نظرائي من أهل بيتك. فقال: أسندوني ثم قال: أما قولك: إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فإني والله ما منعتهم حقًّا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك: لو أوصيت بهم إليَّ أو إلى نظرائي من أهل بيتك. فوصيي ووليي فيهم الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، بين أحد رجلين، إما رجل يتقي فسيجعل الله له مخرجًا، وإما رجل مكث على المعاصي فإني لم أكن لأقويه على معصية الله.

فاللهم منصرفٌ إلى الدار الآخرة. أما الدنيا فدار ممر وليست بدار مقر(٢).

* قال يزيد بن معاوية: أرسل أبي الأحنف بن قيس فقال له: يا أبا الحسن ما تقول في الأولاد؟ قال: يا أمير المؤمنين هم ثمار قلوبنا، وعماد

---

(١) تاريخ بغداد: (٤/ ٢١٩).

(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٣٣٣).

ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولاتك عليهم قفلاً فيملوا حياتك، ويحبوا وفاتك، ويكرهوا قربك. فقال معاوية: لله أنت يا أحنف لقد دخلت علي وأنا مملوء غضبًا على يزيد[(١)].

والبر بالوالدين توفيق وهداية من الله للأبناء فعن طاووس عن أبيه، قال: كان رجل له أربعة بنين فمرض، فقال أحدهم: إما أن تمرضوه وليس لكم من ميراثه شيء، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء قالوا: بل تمرضه وليس لك من ميراثه شيء، فمرضه حتى مات، ولم يأخذ من ميراثه شيئًا، قال: فأُتي في المنام فقيل له: إئت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: لا. فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت: خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش بها. فلما أمسى أُتي في النوم فقيل له: إئت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير. فقال: أفيها بركة؟ قالوا: لا. فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت له: مثل ذلك. فأبى أن يأخذها. فأُتي في الليلة الثالثة فقيل له: إئت مكان كذا وكذا وخذ منه دينارًا، قال: أفيه بركة؟ قالوا: نعم. قال: فذهب فأخذ الدينار، ثم خرج به إلى السوق، فإذا هو برجل يحمل حوتين فقال: بكم هما؟ قال: بدينار. فأخذهما منه، وانطلق بهما إلى بيته. فلما شقهما وجد في بطن كل واحد منهما درة لم ير الناس مثلها. فبعث الملك يطلب درة يشتريها فلم توجد إلا عنده، فباعها بثلاثين وقرًا (حملاً) ذهبًا. فلما رآها الملك قال: ما

---

(١) البركة في فضل السعي والحركة: (٩٧).

تصلح هذه إلا بأخت، فاطلبوا أختها ولو أضعفتم الثمن. فجاءوه، فقالوا: أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك؟ قال: نعم. فأعطاهم الثانية بضعف ما باع به الأولى[١].

هذا هو التنافس على البر والعناية بالوالدين. يتنافسون في بره والعناية به مقابل تنازله عن إرثه. وما ذاك إلا لعلمهم أنهم قدموا رضى الله ثم طاعة والدهم على كنوز الدنيا.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

عن **أنس بن النضر الأشجعي**: استقت أم ابن مسعود ماء في بعض الليالي، فذهب فجاءها بشربة، فوجدها قد ذهب بها النوم، فثبت بالشربة عند رأسها حتى أصبح[٢].

وعن **ظبيان بن علي الثوري** - وكان من أبر الناس بأمه - قال: لقد نامت ليلة وفي صدرها عليه شيء، فقام على رجليه يكره أن يوقظها، ويكره، أن يقعد، حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانه، فما زال معتمدًا عليهما حتى استيقظت[٣].

وكان يسافر بها إلى مكة، فإذا كان يوم حار حفر بئرًا، ثم جاء بنطع فصب فيه الماء، ثم يقول لها: أدخلي تبردي في هذا الماء[٤].

ولننظر إلى حال الكثير وهو يهرب من أبيه حال كبره ولا يزوره إلا في فترات متباعدة، بل ربما وضعه في أحد الملاجيء أو دور العجزة، وربما

---

(١) المحاسن والمساويء: (٥٤٨).

(٢) بر الوالدين لابن الجوزي: (٥٤).

(٣) بر الوالدين لابن الجوزي: (٥٤).

(٤) المصدر السابق.

نهر أمه أو أباه بصوت مرتفع وكلام سيىء وكأنه يتخاصم مع عدوه.

بل - والله - رأيت من يتعامل بحسن خلق ولين جانب مع الكفار، وهو سيىء الطبع والخلق مع والديه. فسبحان الله العظيم ما أحمله علينا!!

أما غالب حال الشباب اليوم فإن منزلة الصديق أعلى منزلة، وأجل مكانة من الوالدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* قال سفيان بن عيينة: قدم رجل من سفر، فصادف أمه قائمة تصلي، فكره أن يقعد وأمه قائمة، فعلمت ما أراد، فطولت ليؤجر[١].

ونحن في زمن ظهر فيه العقوق وهجر الآباء.. نرى حال من سبقنا وبرهم بأبائهم وتقديرهم وإكرامهم فنردد قول الشاعر.:

وإن الجـــــرح يـــــدمـــــى بعـــــد حين
إذا كـــــان البنـــــاء على فســـــاد

روِيَ أنَّ الفقيه نصر بن أبي حافظ المقدسي لَمَّا رحل من بيت المقدس في طلب العلم إلى الفقيه (الكازروني) (بميَّافارقين) من أرض العراق، قال له الكازروني: ألك والدة؟ قال: نعم. قال: فهل استأذنتها؟ قال: لا. قال: فو الله، لا أقرأتك كلمة حتى ترجع إليها فتخرج من سخطها. قال: فرجعت إليها، فأقمت معها إلى أن ماتت، ثم رحلت في طلب العلم[٢].

وعن هشام قال: كانت حفصة تترحم على هذيل، وتقول: كان يعمد إلى القصب فيقشره ويجففه في الصيف، لئلا يكون له دخان، فإذا كان الشتاء جاء حتى قعد خلفي وأنا أصلي، فيوقد وقودًا رفيقًا ينالني حره ولا

(١) بر الوالدين لابن الجوزي: (٥٥).
(٢) بر الوالدين لاين الجوزي: (٨٢).

يؤذيني دخانه، وكنت أقول له: يا بني، الليلة اذهب إلى أهلك، فيقول: يا أماه أنا أعلم ما تريدين، فادعه فربما كان ذلك حتى يصبح.

وكان يبعث إليَّ بحلبة الغداة، فأقول: يا بني تعلم أني لا أشرب نهارًا فيقول: أطيب اللبن ما بات في الضرع، فلا أحب أن أوثر عليك، فأبعثي به إلى من أحببت.

فمات هذيل، فوجدت عليه وجدًا شديدًا، وكنت أجد مع ذلك حرارة في صدري لا تكاد تسكن. قالت: فقمت ليلة أصلي، فاستفتحت النحل فأتيت إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل: ٩٦] فذهب عني ما كنت أجد[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو بكر بن عياش: ربما كنت مع منصور في منزله جالسًا فتصيح به أمه وكانت فظة غليظة فتقول: يا منصور يريدك ابن هُبيرة على القضاء فتأبى وهو واضع لحيته على صدره ما يرفع طرفه إليها[٢].

وكان حيوة بن شريح وهو أحد أئمة المسلمين يقعد في حلقته يُعلم الناس، فتقول له أمه: قم يا حيوة فألق الشعير للدجاج فيقوم ويترك التعليم[٣].

* قال محمد بن المنكدر: بات عمر يعني أخاه يصلي وبت أغمرُ رجل أمي، وما أحب أن ليلتي بليلته.

---

(١) بر الوالدين لابن الجوزي: (٥٣).
(٢) البر والصلة لابن الجوزي: (٨٥).
(٣) البر والصلة لابن الجوزي: (٧٩).

وكان **حجر بن الأدبر** يلمس فراش أمه بيده فيتهم غلظ يده فيتقلب عليه على ظهره فإذا أمن أن يكون عليه شيء أضجعها[1].

وكان **أمية بن الأسكر الكناكي** من سادات قومه، وكان له ابن اسمه كلاب هاجر إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فأقام بها مدة ثم لقي ذات يوم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فسألهما: أي الأعمال أفضل في الإسلام؟ فقالا: الجهاد. فسأل عمر فأغزاه في الجند الغازي إلى الفرس. فقام أمية وقال لعمر: يا أمير المؤمنين هذا اليوم من أيامي لولا كبر سني، فقام إليه ابنه كلاب وكان عابدًا زاهدًا فقال: لكني يا أمير المؤمنين أبيع الله نفسي وأبيع دنياي بآخرتي، فتعلق به أبوه وكان في ظل نخلٍ له وقال: لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين ربياك صغيرًا حتى إذا احتاجا إليك تركتهما. فقال: نعم أتركهما لما هو خيرٌ لي. فخرج غازيًا بعد أن أرضى أباه، فأبطأ، وكان أبوه في ظل نخل له، وإذا حمامة تدعو فرخها، فرآها الشيخ فبكى، فرأته العجوز. فبكت وأنشأ يقول:

لمن شيخان قد نشدا كلابا
كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيُعرض في إباء
فلا وأبي كلاب ما أصاب
إذا هتفت حمامة بطن وجٍّ[2]
على بيضاتها ذكرا كلابا

---

(١) البر والصلة لابن الجوزي: (٨٥).

(٢) وج: أسم واد بالطائف.

فـــــإن مهــــاجـــريـــن تكنـــــاه
ففــــارق شيخــــه خَطِئــــاً وخـــابــــا
تــــركـــت أبـــاك مُـــرعَشَـــةً يــداه
وأمَّـــك مـــا تسيـــغ لهـــا شرابــــا
تنفّـــض مهـــده شفقـــاً عليـــه
وتجنبـــه أبـــا عـــرهـــا الصعــابـــا
فـــإنــك قـــد تـــركـــت أبـــاك شيخـــاً
يطـــارق[1] أنيقـــاً[2] شربـــاً[3] طـــرابـــاً
إذا رُتعـــن إرقـــالاً[4] سراعـــاً
أثـــرن بكـــل رابيـــةٍ تـــرابـــا
طـــويـــلاً شـــوقـــه يبكيـــك فـــردًا
على حـــزن ولا يـــرجـــو الإيـــابـــا
فـــإنـــك والتمـــاس الأجـــر بعـــدي
كبـــاغـــي المـــاء يتبـــع السَّرابـــا

وكان أمية قد أضر (أي عمي) فأخذ قائده بيده ودخل به على عمر وهو في المسجد فأنشده:

أعـــاذل قـــد عـــذلـــتِ بغير علـــمٍ
ومـــا تـــدريـــن عـــاذل مـــا ألاقـــي

---

(١) يطارق: يضرب.
(٢) أنيقًا: جمع ناقة.
(٣) شربًا: ضامرة.
(٤) الإرقال: السير السريع.

فـــإمـــا كنـــتِ عـــاذلتنـــي فـــردي
كـــلابـــاً إذ تـــوجـــه للعـــراق
ولم أقـــض اللُّبـــانـــة مـــن كـــلاب
غـــداة غـــد وآذن بـــالفـــراق
فتـــى الفتيـــان في عسر ويسر
شـــديـــد الـــركـــن في يـــوم التـــلاقـــي
فـــلا وأبيـــك مـــا بليـــت وجـــدي
ولا شفقتـــي عليـــك ولا اشتيـــاقـــي
وإيقـــادي عليـــك إذا شتـــونـــا
وضمَّـــك تحـــت نحـــري واعتنـــاقـــي
فلـــو فلـــق الفـــؤاد شـــديـــدُ وجـــدٍ
لهـــمَّ ســـوادُ قلبـــي بـــانفـــلاق
ســـأستعـــدي على الفـــاروق ربَّـــاً
لـــه دفـــع الحجيـــج إلى بســـاق[١]
وأدعـــو الله مجتهـــدًا عليـــه
ببطـــن الأخشبين[٢] إلى دقـــاق[٣]
إن الفـــاروق لم يـــردد كـــلابـــاً
على شيخين هـــامهمـــا زواق[٤]

---

(١) بساق: جبل عرفات.
(٢) الأخشبين: جبلان بمكة.
(٣) دقاق: موضع.
(٤) زواق: زقا صاح وصراخ الهام معروف وهو من خرافات العرب.

فكتب عمر برد كلاب إلى المدينة. فلما قدم ودخل عليه قال له عمر: ما بلغ من برِّك بأبيك؟ قال: كنت أوثره وأكفيه أمره، وكنت إن أردت أن أحلب له لبنًا أجيء إلى أغزر ناقة في إبله فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها (ضروعها) حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

فبعث عمر إلى أمية فجاءه فدخل عليه وهو يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى، فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟

فقال له: كما ترى يا أمير المؤمنين.

فقال: يا أبا كلاب، ما أحب الأشياء إليك اليوم؟

قال: ما أحب اليوم شيئًا، ما أفرح بخير ولا يسوؤني شر.

فقال عمر: بل على ذلك.

قال: بلى، كلاب أحب أنه عندي فأشمه شمة وأضمه ضمة قبل أن أموت. فبكى عمر وقال: ستبلغ ما تحب إن شاء الله ـ تعالى ـ.

ثم أمر كلابًا أن يحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث بلبنها إليه ففعل وناوله عمر الإناء وقال: اشرب يا أبا كلاب. فأخذه، فلما أدناه من فيه قال: والله يا أمير المؤمنين إني لأشمُّ رائحة يديْ كلاب. فبكى عمر وقال له: هذا كلاب عندك وقد جئناك به. فوثب إلى ابنه وضمه، وجعل عمر والحاضرون يبكون، وقالوا لكلاب: الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا، ثم شأنك بنفسك بعدهما، وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه.

وتغنت الركبان بشعر أبيه فبلغه فأنشأ يقول:

لعمـــرك مـــا تـــركـــت أبـــا كـــلابٍ
كبير الســـــن مكتئبـــــاً مصـــــابـــــا

وأمّــــــاً لا يـــــــزال لهـــــا حنين
تنـــادي بعـــد رقـــدتهـــا كـــلابـــا
لكســـب المـــال أو طلـــب المعـــالي
ولكنـــي رجـــوت بـــه الثـــوابـــا

وكان كلاب من خيار المسلمين فلم يزل مقيمًا عندهما حتى ماتا[١]. [٢].

إنها قصة ينفطر لها الفؤاد أسى، وتذوب النفس لسماعها حسرة، ويكلم القلب القاسي ويلين.. وتسخن العين الجامدة وتذرف.. إنها مشاعر الوالدين.

فيا من أبكى أبويه وأحزنهما، وأسهر ليلهما، وحملهما أعباء الهموم، وجرعهما غُصص الفراق، ووحشة البعاد، هل أحسنت إليهما وأجملتَ في معاملتهما: صغيرًا يبكيان عليك إشفاقًا وحذرًا، وكبيرًا يبكيان منك خوفًا وفرقًا. فهما أليفا حُزنٍ، وحليفا هَمٍّ وغمٍّ.

فلما بلغتَ موضع الأمل ومحلَّ الرجاء، قلت: أسيح في الأرض أطلب كذا وكذا، ففارقتهما على رغمهما باكيين، وتركتهما في وكرهما محزونين، فأثكلتهما أحب طلعة على وجه الأرض إليهما. فإن غاب شخصك عن

---

(١) الأغاني: (١٨/١٥٧).

(٢) حدثني من أثق به عن ولد عاق لأمه أودعها في إحدى دور العجزة ولم يزرها إطلاقًا حتى ترددت حالتها، وعندها طلبت من مسؤول الدار الاتصال على ابنها لتراه، وتقبله قبل أن تموت. وسبقتها الدموع وهي تنادي باسمه أن يحضر، ولكن العاق العاصي ـ والعياذ بالله ـ رفض ذلك وادعى ضيق الوقت. فلما توفيت الأم، تم الاتصال بالابن العاق فكان جوابه: أكملوا الإجراءات الرسمية وادفنوها في قبرها.

عيونهما لم يغب خيالك عن قلوبهما. ولئن ذهب حديثك عن أسماعهما لم يسقط ذكرك عن أفواههما.

ولطالما بكيا وحزنا إن تأخرت حين الرواح والمساء، فكيف إذا أغلقا بابهما دونك، وأبصرا خلو مكانك، ففقدا أنسك، ولم يجدا رائحتك، فكان ملاذهما سح الدموع، وملجأهما الاستكانة والخضوع، فصار العين أثرًا، وعاد الولدُ خبرًا، فكل غريب ولدهما، وكل ميتٍ هو لهما.

يتباكيان، ويشكوان جواهما
بمدامع تنهل من برحائه
يتجاوبان إذا الرياح تناوحت
عل الرياح هببن من تلقائه

كيفما توجها نظرا آثارك، وحيثما تلفتا أبصرا مواضع أخبارك. فهنالك تُسكبُ العبرات، وتتضاعف الحسرات.

وسل عن حديثهما إذا لقيا إخوانك، وأبصرا أقرانك، ولم يريا وسطهم مكانك، فهل هُنالك تسيل النفوس، وتذوب القلوب[١].

* قال رجل **لإبراهيم بن أدهم** ـ رحمه الله ـ: طوبى فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة فقال: لروعة منك بسبب العيال، أفضل من جميع ما أنا فيه[٢].

فالحمد لله على نعمائه.. والحمد لله على فضله وإحسانه.. نؤجر على التربية ونؤجر على الروعة..

---

(١) بر الوالدين لابن الجوزي: (١١٦).
(٢) الإحياء: (٢/ ٢٧).

قال أحدهم:

نعـــــم الإلـــــه على العبــــــاد كثيرة
وأجلهـــــن نجـــــابـــــة الأبنـــــاء

فإن الثمرة أولها بذرة. فلا وجود للثمرة إن لم يكن هناك ماء يسقي هذه البذرة فالبذرة هي أبناؤك، والماء هو الغذاء البدني والروحي الذي يتلقاه الأبناء، والثمرة هي نتاج ذلك كله، فإما ثمرة صالحة أو ثمرة فاسدة.

أخي المسلم:

اغرس حب الله ـ تعالى ـ وحب رسوله ﷺ في قلوبهم، واجعل كلمة التوحيد «**لا إله إلا الله**» محفورة في صدورهم، وأطعمهم من زاد التقوى واسقهم من شراب الطاعة والأخلاق الفاضلة، وليكن منهاجهم ومنار سبيلهم قال الله ـ تعالى ـ، وقال الرسول ﷺ[١].

* حين ضاق رجل بالحياة ذرعًا، وسُددت في وجهه أبواب الرزق، وله بنيات صغيرات لا يستطيع فراقهن شفقة وحنانًا، ولو لا هن لانتشر في أرجاء الأرض يبتغي من فضل الله قال يومًا:

لـــــولا بنيـــــات كـــــزَغـــــب[٢]القطـــــا
حططـــــن مـــــن بعـــــض إلى بعـــــض
لكـــــان لي مضطـــــرب واســـــع
في الأرض ذات الطـــــول والعـــــرض

---

(١) رسائل إلى أمي وأختي: (٩).
(٢) الزغب: الشعيرات الصفر على ريش الفرخ.

وإنمـــــا أولادنـــــا بيننـــــا
أكبـــــادنـــــا تمشي على الأرض
لـــو هبـــت الـــريـــح على بعضهـــم
لامتنعـــت عينـــي مـــن الغمـــض
أنـــزلنـــي الـــدهـــر على حكمـــه
مـــن مـــرقـــب عـــال إلى خفـــض

وعتب أمية بن أبي الصلت على ابنه يومًا، وقد ضن عليه في الإنفاق بعدما هرم وشاخ، فقال له:

غـــذوتـــك مـــولـــودًا وعُلتـــك يـــافعًـــا
تعـــل بمـــا أُجنـــي عليـــك وتنهـــل
إذا ليلـــة نـــابتـــك بـــالشجـــو لم أبـــت
لشكـــواك إلا ســـاهـــرًا أتملمـــل
كـــأني أنـــا المطـــروق دونـــك بـــالـــذي
طُـــرقـــت بـــه دوني فعينـــي تهمـــل
تخـــاف الـــردىٰ نفسي عليـــك وإننـــي
لأعلـــم أن المـــوت حتـــم مـــؤجـــل
فلمـــا بلغـــت الســـن والغـــايـــة التـــي
إليهـــا مـــدى مـــا كنـــت فيـــك أُؤمـــل
جعلـــت جـــزائـــي غلظـــة وفظـــاظـــة
كـــأنـــك أنـــت المنعـــم المتفضـــل

فليتــــــك إذ لم تــــــرع حــــــق أبــــــوتي
فعلـــت كمـــا الجـــار المجـــاور يفعـــل[١]

عن معاذ قال: أوصاني رسول الله ﷺ: «**لا تعق والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك**»[٢].

وعن **عبدالله بن عمر** عن أبيه، قال: كانت تحتي امرأة كان عمرُ يكرهها، فقال: طلقها فأبيت فأتى عمر النبي ﷺ، فقال: «**أطع أباك**»[٣].

وعن **أبي الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً أتاه فقال: إن لي امرأة، وإن أمي تأمرني بطلاقها. فقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه**»[٤].

في هذا الحديث بيان واضح أن في عقوق الوالدين إضاعة لأوسط أبواب الجنة، وأوسطها أعدلها وأكثرها خيرًا، وفي برهما حفظه. فمن التمس السعادة حافظ عليه، ولو على حساب راحته وسروره، ومن باع آخرته بدنياه وآثر الحياة الفانية على الحياة الباقية، وفضل اللذة المؤقتة على اللذة الدائمة فإنه لا يبالي إن حفظ أو ضاع. هذا إذا كانت المرأة صالحة وأمراه بفراقها. أما إذا كانت سيئة الخلق، خبيثة المنبت، رديئة الطبع، جموح القيادة فطلاقها خير وأبقى.

* نحر أعرابي جزورًا، وقال لامرأته: أطعمي أمي منه. فقالت: أيها أطعمها؟ فقـال: لها الورك، قالت: ظوهرت بشحمه وبطنت بلحمه،

---

(١) الأغاني: (٣/ ١٩١).
(٢) رواه أحمد والطبراني.
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٤) رواه الترمذي.

لا لعمر الله. قال: فقطعي لها الكتف. قالت: الحاملة الشحم من كل مكان؟ لا لعمر الله. قال: فما تقطعين لها؟ قالت: اللَّحْي. ظوهرت بجلدة وبطنت بعظم. قال: فتزوديها إلى أهلك، وخلي سبيلها.

هذا مثال للمرأة السيئة، لا يصلح إحسانك فسادها، ولا يقوم صبرك عليها إعوجاجها، لأنها كالغصن اليابس إن لم تسرع إلى قطعه سرت عدواه إلى بقية الأغصان، فنبتت أفنانها أسوأ منه، أفيلام الزوج بعد هذا على تخليه سبيلها؟ أنصفن يا معشر النساء، ولا تنظرن إلى تلك المرأة كما لو كانت إحداكن بديلة منها، وأرادت إطعام حماتها من الجزور، بل انظرن إليها كما لو كانت زوجة أخيكن وأرادت إطعام أمكن، ثم احكمن بعد ذلك لها أو عليها.

قال الشاعر:

فلا تطع زوجةً في قطع والدةٍ
عليك يا ابن أخي قد أفنت العُمرا

فكيف تنكر أمّاً ثقلك احتملت
وقد تمرغتَ في أحشائها شهرًا

وعالجت بك أوجاعَ النفاسِ وكم
سُرَّت لما ولدت مولدها ذكرًا

وأرضعتك إلى الحولين مكملة
في حِجْرِها تستقي من ثديها الدررا

ومنك ينجسها ما أنت راضعه
منها ولا تشتكي نتناً ولا قذرًا

وقـــل هـــو الله بـــالآلاف تقـــرؤهـــا
خـــوفـــاً عليـــك وتـــرخـــي دونـــك السترا
وعـــاملتـــك بـــإحســانٍ وتـــربيـــة
حتـــى استـــويـــتَ وحتـــى صرت كيـــف تـــرى
فـــلا تفضـــل عليهـــا زوجـــة أبـــدًا
ولا تـــدع قلبهـــا بـــالقهـــر منكسرًا
والـــوالـــد الأصـــل لا تنكـــر لتربيـــة
واحفظـــه لاسيمـــا إن أدرك الكبرا
فمـــا تـــؤدي لـــه حقّـــاً عليـــك ولـــو
على عيـــونـــك حـــج البيـــت واعتمـــرا

* أيها المضيع لآكد الحقوق ، المعتاض من بر الوالدين العقوق، الناسي لما يجب عليه، الغافل عما بين يديه، بِرُّ الوالدين عليك دين، وأنت تتعاطاه باتباع الشين، تطلب الجنة بزعمك، وهي تحت أقدام أمك. حملتك في بطنها تسعة أشهر، كأنها تسع حجج. وكابدت عند الوضع مايذيب المهج، وأرضعتك من ثديها لبنًا، وأطارت لأجلك وسنًا، وغسلت بيمينها عنك الأذى، وآثرتك على نفسها بالغذاء، وصيرت حجرها لك مهدًا، وأنالتك إحسانًا ورفدًا، فإن أصابك مرض أو شكاية، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلت مالها للطبيب، ولو خُيرت بين حياتك وموتها، لطلبت حياتك بأعلى صوتها، هذا وكم عاملتها بسوء الخلق مرارًا، فدعت لك بالتوفيق سرًّا وجهارًا. فلما احتاجت عند الكبر إليك، جعلتها من أهون الأشياء عليك، فشبعت وهي جائعة، ورويت وهي قانعة. وقدمت عليها أهلك وأولادك بالإحسان، وقابلت

أياديها بالنسيان، وصعب لديك أمرها وهو يسير، وطال عليك عمرها وهو قصير، هجرتها ومالها سواك نصير، هذا ومولاك قد نهاك عن التأفف، وعاتبك في حقها بعتاب لطيف، ستعاقب في دنياك بعقوق البنين، وفي أخراك بالبعد من رب العالمين، يناديك بلسان التوبيخ والتهديد: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[1] [آل عمران: ١٨٢].

قضـــــى الله أن لا تعبـــــدوا غيره حتمـــــاً
فيـــا ويـــح شخـــص غير خـــالقـــه أمـــا
وأوصـــاكمـــو بـــالـــوالـــدين فبـــالغـــوا في بـــرهمـــا
فـــالأمـــــر في ذاك والـــــرحمـــــا
فكـــم بـــذلا مـــن روفـــة ولطـــافـــة وكـــم
منحـــا وقـــت احتيـــاجـــك مـــن نُهـــا
وأمـــك كـــم بـــاتـــت بثقلـــك تشتكـــي
تـــواصـــل مـــن مـــاشقهـــا البـــؤس والغمـــا
وفي الـــوضـــع كـــم قـــاســـت وعنـــد ولادهـــا
مشقّـــاً يـــذيـــب الجلـــد واللحـــم والعظمـــا
وكـــم سهـــرت وجـــدًا عليـــك جفـــونهـــا
وأكبـــادهـــا لهفـــى بجمـــر الأس تحمـــا
وكـــم غسلـــت عنـــك الأذى بيمينهـــا
حنـــوًا وإشفـــاقًـــا وأكثـــرت الـــرمـــا

(١) الكبائر: (٤٤).

فضيعتهـــا لمـــا أسنـــت جهـــالـــة
وضقـــت بهـــا ذرعـــاً وذوقتهـــا سُمّـــاً
وبـــت قـــريـــر العين ريـــانـــاً نـــاعمـــاً
مكبّـــاً على اللـــذات لا تسمـــع اللـــومـــا
وأمـــك في جـــوع شـــديـــد وغـــربـــة
تلين لهـــا ممـــا بهـــا الصخـــرة الصمـــا
أهـــذا جـــزاهـــا بعـــد طـــول عنـــائهـــا
لأنـــت لـــذو جهـــل وأنـــت إذًا أعمـــى

وعندما سُئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن أصحاب الأعراف من هم؟ وما الأعراف؟ فقال: أما الأعراف فهو جبل بين الجنة والنار، وإنما سمي الأعراف لأنه مشرف على الجنة والنار وعليه أشجار وثمار وأنهار وعيون، وأما الرجال الذين يكونون عليه فهم رجال خرجوا إلى الجهاد بغير رضا آبائهم وأمهاتهم فقتلوا في الجهاد، فمنعهم القتل في سبيل الله عن دخول النار، ومنعهم عقوق الوالدين عن دخول الجنة، فهم على الأعراف حتى يقضي الله فيهم أمره[(١)].

* قال **مجاهد**: لا ينبغي للولد أن يدفع يد والده عنه إذا ضربه. ومن شد النظر إلى والديه فلم يبرهما، ومن أدخل عليهما حزنًا فقد عقهما[(٢)].

* قال **الأصمعي**: حدثني رجل من الأعراب، قال: خرجت من الحي أطلب أعق الناس وأبر الناس، فكنت أطوف بالأحياء، حتى انتهيت إلى

---

(١) الكبائر: (٤١).
(٢) البر والصلة لابن الجوزي: (١١٣).

شيخ في عنقه حبل يستقي بدلو لا تطيقه الإبل، في الهاجرة والحر الشديد، وخلفه شاب في يده رشاء من قد ملوي يضربه به، قد شقَّ ظهره بذلك الحبل، فقلت: أما تتقي الله في هذا الشيخ الضعيف؟ أما يكفيه ما هو فيه من مد هذا الحبل حتى تضربه؟ قال: إنه مع هذا أبي. قلت: فلا جزاك الله خيرًا. قال: اسكت فهكذا كان هو يصنع بأبيه، وكذا كان يصنع أبوه بجده. فقلت: هذا أعق الناس.

ثم جلت أيضًا حتى انتهيت إلى شاب، وفي عنقه زبيل فيه شيخ كأنه فرخ، فكان يضعه بين يديه، في كل ساعة، فيزقه كما يزق الفرخ. فقلت: ما هذا؟ قال: أبي وقد خرف، وأنا أكفله، قلت: فهذا أبر العرب[١].

ويذكر أن عاقًا كان يجر أباه برجله إلى الباب ليخرجه من الدار، فكان له ولدٌ أعقُّ منه، وكان يجره برجله إلى الشارع، وإذا بلغ به الباب، قال: حسبك، ما كنت أجر أبي إلا إلى هذا المكان فيقول له ولده: هذا جزاؤك، والزائد صدقة مني عليك.

فانظر رحمك الله إلى هذه الحادثة أيضًا تبين لك أن الحياة دين ووفاء، وأنك كما تُدين تُدان، فعامل أبويك بما تحب أن يعاملك به بنوك. ولا يكن هذا هدفك فحسب فإن هذا هدف دنيوي بل اجعل ابتغاء وجه الله أمام عينيك يكمُل إخلاصك وتنال مرادك.

أيها الشباب:

لا تحسبوا المال ثروة دائمة، فالمال يجيء ويذهب والرجال كالأشجار يكسون ويعرون. وكم من غني كبير أصابتْ ماله جائحة فاستعطى؟ وكم

---

(١) المحاسن والمساويء: (٢٥٢).

من فقير معدم بسط الله له في الرزق فأصبح يُشار إليه بالبنان؟.

ولا تخالوا المال كل شيء في الحياة، فقد يكثر ولكنه ينفق على الصحة، ويبقى صاحبه عليلاً، محرومًا لذة الطعام والشراب، ويتمنى لو فقد ماله على أن تعود إليه صحته. وكم سمعنا أن غنيًّا حسد عاملاً على طعامه البسيط، تمنى أن يكون له مثل صحته فيعمل بيده مثله؟

قد يقل المال، ويقنع صاحبه بما آتاه الله فيكون سعيدًا، والغنى هو الرضا، رضا الوالدين خير من الدنيا وما فيها. يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ليس الغنى عن كثرة العرضِ ولكن الغنى غنى النفس**». ولئن كان المال ذخرًا في الدنيا، فرضا الوالد ذخرًا في الدنيا والآخرة. والوالد شجرة وارفة تأوي إلى ظلها، وحصن منيع تلوذ به، وسيف قاطع يذب عنك، وراع يحميك، ومجرب يسدي إليك الحكمة التي تبصرك بشؤون الحياة، فإذا فقدته فقد خسرت كل هذه النعم. وكم من نعمة لا يعرف المرء قيمتها إلا بعد زوالها؟[١].

* قيل **لمعاوية بن قرة**: كيف ابنك؟ قال: نعم الابن كفاني أمر دنياي وفرغني لآخرتي[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **المأمون** ـ رحمه الله تعالى ـ: لم أر أحدًا أبر من الفضل بن يحيى بأبيه. بلغ من بره أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بماء مسخن، وهما في السجن، فمنعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فقام الفضل ـ حين أخذ

(١) بر الوالدين للحناوي: (١٠٣).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١٢٤).

يحيى مضجعه ـ إلى قمقم كان يسخن فيه الماء، فملأه ثم أدناه من نار المصباح، فلم يزل قائمًا وهو في يده حتى أصبح[١].

وحكى غير المأمون أن السجان فطن لارتقافه بالمصباح في تغيير الماء فمنعه من الاستصباح في الليلة القابلة فعمد الفضل إلى القمقم مملوءًا فأخذه معه في فراشه وألصقه بأحشائه حتى أصبح وقد فتر الماء[٢].

وحضر **صالح العباسي** مجلس المنصور، وكان يحدثه، ويكثر من قوله: «أبي رحمه الله» فقال له الربيع: لا تكثر الترحم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين. فقال له: لا ألومك فإنك لم تذق حلاوة الآباء. فتبسم المنصور وقال: هذا جزاء من تعرض لبني هاشم[٣].

والولد لا يفي والده حقه، مهما يبذل في سبيله، اللهم إلا في حال واحدة، اعتبرها رسول الله ﷺ مكافأة له، فقال: «**لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**»[٤].

وحذر رسول الله ﷺ من عقوبة عقوق الوالدين فقال: «**ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف**» [رواه الطبراني].

وعن معاوية بن جاهمة السلمي: أن جاهمة ـ رضي الله عنه ـ أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو وجئت أستشيرك. فقال: «**هل لك**

---

(١) عيون الأخبار: (٣/ ٩٧).
(٢) البر والصلة لابن الجوزي: (٨٥).
(٣) محاضرات الأدباء: (١/ ٢٠٣).
(٤) أخرجه مسلم.

من أم؟» قال نعم. قال: «**الزمها فإن الجنة عند رجليها**»[١].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان. فقال: «**ارجع فأضحكهما كما أبكيتهما**»! وفي لفظ آخر: «**لا أبايعك حتى ترجع إليهما فتضحكهما كما أبكيتهما**»[٢].

إن انصراف الولد بكليته إلى خدمة أبويه. وقيامه بشؤونهما. وطاعته أوامرهما واعترافه بما لهما عليه من حق وفضل ـ ولا سيما والدته ـ مدعاة إلى فوزه برضا الله ـ تعالى ـ ودخوله الجنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال: «**فهل من والديك أحد حي؟**». قال: نعم كلاهما، قال: «**فتبتغي الأجر من الله؟**» قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»[٣].

أخي المسلم:

إن الأجر الذي تطلبه ليس وقفًا على الجهاد. ولا قصوراً على الهجرة. فهناك عمل آخر هو خير وأبقى، يختص بك وحدك. ولا يرتبط بغيرك. ولا يمضيه أحد سواك. فيه الأجر الذي تطلبه والثواب الذي تبتغيه. ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما. والزم خدمتهما وأطع أمرهما. وأدخل السرور على قلبيهما، فإن عملت ذلك عدل عملك الجهاد وفاقه.

* قال **بشر بن الحارث**: الولد بالقرب من أمه حيث تسمع نفسه أفضل

---

(١) رواه أحمد، والنسائي.
(٢) رواه البخاري، وأبو داود في الأدب المفرد.
(٣) رواه مسلم.

من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله ـ عز وجل ـ، والنظر إليهما أفضل من كل شيء.

* قال **بعض العلماء**: من تغرب عن الوالدين في طلب عيش أو في ضرورة فليدمع وليسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يغفر ذنبًا حرمه القرب من الوالدين.

ويظن الكثير أن الالتزام هو في العبادات من صلاة وصوم وغيرها ولا يتعدى ذلك إلى العلاقات الاجتماعية من رعاية والدين وتفقد الأقارب وزيارة الجيران.. والعبادة: «**اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال والأعمال الظاهرة والباطنة**».

* **عن عطاء**: أن رجلاً أقسمت عليه أمه ألا تصلي إلا الفريضة، ولا تصوم إلا شهر رمضان. قال: يُطيعها.

وقال **هشام بن حسان**: قلت للحسن إني أتعلم القرآن، وإن أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: تعش العشاء مع أمك تقر به عينها، أحب إلي من حجة تحجها تطوعًا[1].

* قال **أبو الليث**: كان بعض الصالحين لا يأمر ولده مخافة أن يعصيه في ذلك فيستوجب النار[2].

والآن انقلبت الموازين واختلت المعايير.. انظر إلى حال بعض الشباب مع والديهم.. تأفف وتضجر، وإظهار للسخط وعدم الرضا.. بل وإظهار للشر ورفع للصوت، وعدم إجابة لحاجتهم، لا لعدم مقدرة،

(١) بر الوالدين لابن الجوزي (٤٥)

(٢) البركة في فضل السعي والحركة: (٩٧).

ولكن لقسوة القلوب، والبعد عن منهج الله في طاعة الوالدين، ولو أمره صديقه لما تردد ولما تأخر.

بل الملاحظة بين بعض الشباب والفتيات أن منزلة الصديق والصديقة أعلى من منزلة الأب والأم في تقديم العون والمساعدة والإسراع في ذلك.

* قال ﷺ: «**كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإنه يعجل لصاحبه**» [رواه الحاكم].

* **قال كعب الأحبار**: إن الله ليعجل هلاك العبد إذا كان عاقًّا لوالديه ليعجل له العذاب، وإن الله ليزيد في عمر العبد إذا كان بارًّا بوالديه ليزيده برًّا وخيرًا[1].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

عن **ابن عون**: إن أمه نادته فأجابها، فعلا صوته صوتها فأعتق رقبتين[2].

وكان **كهمس الدعاء** يعمل في الجص كل يوم بدانقين فإذا أمسى اشترى به فاكهة فأتى بها إلى أمه[3].

أخي الحبيب:

مسكينة هذه المخلوقة التي تسمى (أمًّا) كم تقاسي من عنت وشدة في سبيل ولدها، منذ استقراره نطفة في رحمها حتى انتهاء لبثها في الدنيا؟ تحمله في بطنها، فيزداد نموه مع الأيام، ويزداد ثقله، وتقاسي من مرارة الوحام والقيء والحب والكره ما لا يوصف. ثم يبدأ في الحركة فيجول في بطنها ليلاً ونهارًا. يتجمع في ناحية منه فيضغط عليه كأنما يحاول تمزيق أحشائها،

---

(١) الكبائر: (٤١).
(٢) السير:)١/ ٣٦٦).
(٣) حلية الأولياء: (٦/ ٢١٢).

ثم يتحول إلى ناحية أخرى فيفعل بها كما فعل بالأولى. وهكذا لا يدعها تستريح لحظة، فإذا هدأ عن الحركة قلقت عليه، فأسرعت إلى القابلة تشكو أمرها فإذا اطمأنت على سلامته فرحت واستبشرت. ثم ينبت شعره فتقاسي منه ما لا يستطيع أحد وصفه، وينمو جسمه على حساب جسمها، ويدفع بطنها إلى التوسع، فتقاسي من ألم توسعه أكثر مما يقاسي أحدنا لو مط جلدة بطنه، ولا يدع الجنين أمه تهنأ في طعام أو تهدأ في نوم، وهو جزء عالق بها، ولكنه جزء مزعج مضن فهو منها كالرأس المصدوع، واليد المحمومة، والعين الرمدة، تؤلم في الحركة والسكون، واليد المحمومة، والعين الرمدة، تؤلم في الحركة والسكون، والنوم واليقظة، والمشي والجلوس، إلا أن ألمها يخف تدريجيًا وألم الجنين يزيد تدريجيًا.

لو أن شابًا قويًا حمل (كيلو جرامًا) في يده اليمنى وسار به فهل يستطيع المضي في السير والكيلو في يمناه من غير أن ينقله إلى يسراه؟ الجواب طبعًا: لا! وهذا مثال واقعي محسوس فما بالك بهذه المرأة التي تحمل في بطنها عدة كيلوات لا تنقلها من طرف إلى طرف، ولا من كتف إلى كتف. أليست تقاسي في هذا الشأن ما لا يقاسيه أقوى الرجال، وهي الواهية الواهنة الضعيفة؟ فإذا حل بها الشهر التاسع، وأزفت ساعة خروجه إلى الدنيا، حلت الطامة فلا هو براغب في البقاء في الأحشاء، ولا هو براغب في الخروج إلى دار الفناء. وهنا الشدة التي لا تُطاق، والمأزق الذي لا يسهل، والعقبة التي لا تُذلل. ثم لا يخرج في أكثر الأحيان إلا قسرًا وإرغامًا، فيمزق اللحم أو يبقر البطن أو تسلط عليه آلة الضغط، والطبيب يقطع لحم أمه، القابلة تجهد في سحبه. ثم يتسابق وروحها في الخروج، وكثيرًا ما تسبق الروح فتموت الأم ويحيى هو. وإذا كان لها فسحة في الأجل أفاقت بعد هذه المعركة اللاهبة،

حتى إذا ما رأته إلى جانبها تبسمت وقالت له: (تقبرني).

يا الله ما هذا الحنان؟ وما هذا الإيثار؟ تقاسي منه ما تقاسي، ثم تتمنى أن تموت في حال حياته، وأن يقبرها بيديه؟[١].

لأمـــك حـــق لـــو علمـــت كثير
كثيرك يـــا هـــذا لـــديـــه يسير
فكـــم ليلـــة بـــاتـــت بثقلـــك تشتكـــي
لهـــا مـــن جـــواهـــا أنـــة وزفير
وفي الـــوضـــع لـــو تـــدري عليهـــا مشقـــة
فمـــن غصـــص منهـــا الفـــؤاد يطير
وكـــم غسلـــت عنـــك الأذى بيمينهـــا
ومـــا حجـــرهـــا إلا لـــديـــك سريـــر
وتفـــديـــك ممـــا تشتكيـــه بنفسهـــا
ومـــن ثـــديهـــا شرب لـــديـــك نمير
وكـــم مـــرة جـــاعـــت وأعطتـــك قـــوتهـــا
حنـــانـــاً وإشفـــاقـــاً وأنـــت صغير
فـــآهـــاً لـــذي عقـــل ويتبـــع الهـــوى
وآهـــاً لأعمـــى القلـــب وهـــو بصير
فـــدونـــك فـــارغـــب في عميـــم دعـــائهـــا
فـــأنـــت لمـــا تـــدعـــو إليـــه فقير[٢]

---

(١) بر الوالدين للحناوي: (٧٨).
(٢) الكبائر: (٤٠).

أخي الحبيب . . أين نحن من هؤلاء؟!

كان الزبير بن هشام بارًا بأبيه إن كان ليرقى إلى السطح في الحر فيؤتى بالماء البارد فإذا ذاقه فوجد برده لم يشربه وأرسله إلى أبيه[1].

وكان أبو هريرة يلي حمل أمه إلى المرفق وينزلها عنه، وكانت مكفوفة كبيرة[2].

* رأى **ابن عمر** ـ رضي الله عنهما ـ رجلاً قد حمل أمه على رقبته وهو يطوف بها حول الكعبة. فقال: يا ابن عمر أتراني جازيتها؟ قال: ولا بطلقة واحدة من طلقاتها ولكن قد أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيرًا[3].

* **أخي المسلم**: لو أكرمك إنسان يومًا من الدهر أو يومين لأكثرت من الثناء عليه وشكره وتعداد محاسنه، فما بال والديك لا يريان إلا الجحود والصدود وهما من همًا في حياتك. . عشرون سنة أو ثلاثون سنة وهما يكرمانك ويقدمان لك الغذاء والكساء والرحمة والحنان. ويمتدحونهما لك ومحبتك حتى تموت بل يمتد هذا الحب ليصل لأبنائك وأبنائهم.

لو لم يُحرم الله العقوق لكان من نبل الأخلاق عدم عقوقهما.

كرام الناس تتقدم منزلة والديهم على الصاحب والصديق معرفة منهم ووفاء لدين وقضاء لمعروف. . هذا وهم يقدمون الأجر والثواب على ذلك.

* * *

(١) البر والصلة لابن الجوزي: (٨٢).
(٢) المصدر السابق: (٨١).
(٣) الكبائر: (٤٢).

صور من العقوق[1]

١ ـ إبكاؤهما وتحزينهما بقولك أوفعلك أو غير ذلك:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه، فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان. قال: «**فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**»[2].

قال **ابن عمر**: بكاء الوالدين من العقوق والكبائر[3].

وكما تقدم الحديث: «**رضا الرَّبِّ في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما**».

يا سبحان الله! أتدع والديك يبكيان، ويهتز لبكائهما عرش الرحمن، وتضج الملائكة في السموات وتزعم أنك تريد الجهاد ليرضى عنك الله؟ عد إليهما فأضحكهما بلقائك كما أبكيتهما بفراقك فإذا ضحكا رضيا وإن رضيا رضي الله ـ تعالى ـ عنك.

كل هذه الأحاديث تدل دلالة واضحة على أن الله ـ تعالى ـ أعد للوالدين منزلة عالية. وفرض لهما حقوقًا كثيرة. وقدم برهما على الجهاد في سبيله رحمة منه وفضلاً. وليس هذا البر في الحقيقة إلا نوع من الجهاد، فهو جهاد الجسم في الخدمة، وبالنفس في الطاعة. والمال في الإنفاق. ولا يقوم بذلك إلا من أراد الله له الخير وكتبه من السعداء.

---

(١) من كتاب [قضاء الدين ببر الوالدين].

(٢) رواه أحمد.

(٣) الأدب المفرد للبخاري ص (٢٥).

٢ ـ إدخال المنكرات أو مزاولتها أمامهم:

مثل ترك الصلاة عمدًا، وشرب الخمر، واستماع آلات اللهو، ومشاهدة ما حرم الله ـ عز وجل ـ من الأفلام الخليعة، والصور الماجنة، وغيرها من المنكرات.

ووجه كون هذا من العقوق أنه إما يسخطا عليه ويؤذيهما، والله نهى عن قوله: ﴿أُفٍّ﴾ وهذا أكبر منه. أو أنهما يتبعانه فيقعان في الذنب والمعصية، فإن حبَّ الوالدين لابنهما يحملهما على السكوت عليه واتباعه، فيهلكون جميعًا، وقد قال المفسرون في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الكهف: ٨٠] معناه: خشينا أن يحملهما حبه على اتباعه في دينه[١].

٣ ـ البراءة منهما أو التخلي عنهما:

* فعن أنس الجهني عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «**إن لله ـ تعالى ـ عبادًا لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم**» قيل: من أولئك يا رسول الله؟ قال: «**متبريء من والديه راغب عنهما، ومتبريء من ولده، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم**»[٢].

* وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كافر**»[٣].

ومن هذا التخلي عن الوالدين ما يحدث من بعض العاقين إما بطرده من البيت ـ والعياذ بالله ـ أو إدخاله في دور العجزة والمساكين، للتخلص منه

---

(١) فتح القدير: (٣/ ٣٠٤).
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) رواه البخاري، ومسلم.

ومن الإنفاق عليه، ونسي كل الفضل والإحسان الذي قدم إليه من أبيه وأمه.

وليعلم أن النفقة على الوالدين والقيام بحقهما خصوصًا في حال الكبر والضعف أمر واجب يحاسب عليه الابن في الدنيا والآخرة.

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل عجز عن الكسب ولا له شيء، وله زوجة وأولاد، فهل يجوز لولده الموسر أن يُنفق عليه وعلى زوجته وإخوته الصغار؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، نعم على الولد الموسر أن ينفق على أبويه وزوجة أبيه وعلى إخوته الصغار، وإن لم يفعل ذلك كان عاقًّا لأبيه، قاطعًا لرحمه، مستحقًّا لعقوبة الله ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرة ـ والله أعلم ـ[1].

بل إن المال الذي بيد الابن هو للأب. قال رسول الله ﷺ لرجل قال له: يا رسول الله إن لي مالاً وولدًا، وإن أبي يريد أن يحتاج مالي، فقال: «**أنت ومالك لأبيك**»[2].

* وعن **زرعة بن إبراهيم** أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: إن لي أمًّا بلغ بها الكبر، وإنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري مطية لها، وأوضئها وأصرف وجهي عنها، فهل أديت حقها؟ قال: لا! قال أليس قد حملتها على ظهري وحبست نفسي عليها؟ قال: إنها كانت تصنع ذلك بك وهي تتمنى بقاءك وأنت تتمنى فراقها!![3].

٤ ـ تقديم الزوجة على الأم أو الأب فيما للوالدين فيه دخل:

وهذا من العقوق أيضًا، وقد انتشر في زماننا، فإذا كان الولد آثمًا في

---

(١) مجموع الفتاوى: (٣٤/ ١٠١).

(٢) رواه ابن ماجه بسند صحيح.

(٣) بر الوالدين لابن الجوزي.

تقديم النوافل كما في قصة جريج حينما قال: أمي أو صلاتي؟ فقدم صلاته، عوقب. فما بالك بما هو دون ذلك، ويزداد الأمر سوءًا إذا كانت الزوجة سيئة أنانية تحاول إبعاد زوجها عن والديه ليبقى لها وحدها، أو تتأذى من بقائهما في داره وتحرمه عليهما فهذا من أكبر العقوق.

٥ ـ عدم زيارتهما والسؤال عنهما أو التأخير في ذلك:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله ـ عز وجل ـ الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فقال: مه. قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: أترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب. قال: فذلك لك**»[١]. ثم قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٢].

ولقد عرف الصحابة هذا الأمر فكانوا حريصين عليه.

وكان **أبو هريرة** ـ رضي الله عنه ـ في بيت وأمه في بيت، فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها فقال: السلام عليكم يا أمتاه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتيني صغيرًا، فتقول رحمك الله كما بررتني كبيرًا، ثم إذا أراد أن يدخل صنع مثله[٢].

ومن العقوق:

يا معشر الأبناء أن ينظر الولد إلى أبيه نظرة شزر عند الغضب. أو يعتبر نفسه مساويًا له. أو يتعاظم عن تقبيل يدي والديه أو لا ينهض لهما احترامًا وإجلالاً.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد: ص(١٨).

ومن العقوق:

أن يستحوذ الغرور على الأولاد فيستحيون أن ينسبوا إلى آبائهم، لاسيما إذا كانوا في مراكز اجتماعية مرموقة، وبسطة في المال واسعة، وكان آباؤهم في مهن وضيعة، وضيق ذات يد في الرزق.

ومن العقوق:

أن لا ينفق الولد على أبويه الفقيرين فيضطرهما إلى إقامة الدعوى عليه ليلزمه القاضي الإنفاق عليهما.

وسب الوالدين من **أكبر العقوق** أن يجلب الولد السبة لوالديه بتعديه على غيره بالسب أو الضرب أو القذف أو الغيبة. ينصب الشيطان له شركًا فيقع فيه، فلا يجد لنفسه بردًا ولا عزاء إلا الشتم فيشتم ويُشتم.

ومن أقبح العقوق:

أن يتمنى الولد زوال أبيه ليرثه إن كان غنيًا، أو ليتخلص منه إن كان فقيرًا، أو لينجو من مراقبته ومحاسبته إن كان مؤدبًا، كأن أباه وباء عليه.

حسَّن الله أخلاقنا، وأصلح نفوسنا، وهدانا سواء السبيل.

أخي الحبيب:

في القرآن الكريم آيات تأمر ببر الوالدين معًا، وآيات تفرد كل واحد منهما بالبر، وذلك دليل على اهتمام الشارع الحكيم بحقوقهما وبرهما. وأبلغ الأمثلة التي أوردها القرآن العظيم وهي صورة حية صادقة من صور البر قصة سيدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ١٠٧].

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ هو إسماعيل ـ كما يرجح سياق السيرة والسورة ـ وسنرى آثار حلمه الذي وصفه ربه به وهو غلام. ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته. لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام، الذي يصفه ربه بأنه حليم.

والآن آن لنا أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم. بل في حياة البشر أجمعين. وآن لنا أيضًا أن نقف من سياق القصة في القرآن أمام المثل الموحي الذي يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ يا لله! ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم.. هذا إبراهيم الشيخ. المقطوع من الأهل والقرابة، المهاجر من الأرض والوطن. هاهو ذا يرزق في كبره وهرمه بغلام. طالما تطلع إليه. فلما جاءه جاء غلامًا ممتازًا يشهد له ربه بأنه حليم. وهاهو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة.. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرى في منامه أنه يذبحه، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية. فماذا؟ إنه لا يتردد، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم.. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ فهي كلمات المالك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يواجهه، الواثق بأنه يؤدي واجبه.

والأمر شاق ـ ما في ذلك شك ـ فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه

الوحيد إلى معركة. ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرًا تنتهي به حياته.. إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده. يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه.. وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروى في أمره، وأن يرى فيه رأيه!

إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه. وينتهي. إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر. فالأمر في حسه هكذا. ربه يريد. فليكن ما يريد. على العين والرأس. وابنه ينبغي أن يعرف. وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلامًا، لا قهرًا واضطرارًا. لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم!

إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى.

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح تصديقًا لرؤيا رآها أبوه؟

إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه: ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب، ولكن في رضا كذلك وفي يقين.. ﴿يَاأَبَتِ﴾ في مودة وقربى فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده.. بل لا يفقده أدبه ومودته. ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرْ﴾..

ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ولم يأخذها بطولة. ولم يأخذها شجاعة. ولم يأخذها اندفاعًا إلى الخطر دون

مبالاة. ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجمًا ولا وزنًا. . إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣﴾.

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة. وعظمة الإيمان. وطمأنينة الرضا بأمر الله وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان. إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعدادًا. وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعًا. وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانًا.

لقد أسلما. . فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم. وتنفيذ. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم.

إنها ليست الشجاعة والجرأة. وليس الاندفاع والحماسة. قد يندفع المجاهد في الميدان، يقتُل ويُقتل. وقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود. ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر. . ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافقة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضا الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾[1].

والبر بالوالدة موصول في قلب الابن المؤمن طاعة وامتثالاً لأمر الله

---

(١) في ظلال القرآن باختصار: (٥/ ٢٩٩٤).

ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان: ١٤].

إنها الأم الرءوم حملتك في بطنها تسعة أشهر، تزيدها بنموك ضعفًا، وتحملها فوق طاقتها عناء، وهي الضعيفة الجسم، الواهنة القوة. ثم أخرجتك، فيئست في خروجك من حياتها، فلما بصرت بك إلى جانبها نسيت آلامها، وعلقت فيك آمالها، ورأت فيك بهجة الحياة وزينتها، ثم انصرفت إلى خدمتك ليلها ونهارها، تغذيك بصحتها وتنميك بهزالها، وتقويك بضعفها، تخاف عليك رقة النسيم، وطنين الذباب، وتؤثرك على نفسها بالغذاء والراحة. فلما تم فصالك في عامين، وبدأت في المشيء، أخذت تحيطك بعنايتها، وتتبعك نظراتها، وتسعى وراءك خوفًا عليك، وبقيت ترعاك وتحنو عليك حتى آخر لحظاتها من الدنيا. ومن هنا قدمها الله ـ تعالى ـ في الطاعة على أبيك، ووصاك بها رسول الله ﷺ، بأكثر مما وصى بأبيك. والأحاديث في هذا الشأن كثيرة، نروي الآن بعضها ليتعظ الأبناء ويعرفوا حقوق أمهاتهم عليهم:

* عن **أبي هريرة** ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(١).

هذا الحديث يبين بوضوح ما تستحقه الأم من بر وصلة، وخدمة وطاعة، لقاء ما بذلته من جهد ونصب، فخصها الشرع بثلاثة أضعاف ما

---

(١) رواه البخاري.

خص به الأب، وجعل للأب نصيبًا واحدًا لقاء إنفاقه وعطفه وتوجيهه ربعًا واحدًا.

قال **ابن بطال**: إن الأم تنفرد عن الأب بثلاثة أشياء:

صعوبة **الحمل**، وصعوبة **الوضع**، وصعوبة **الرضاع**.

وفي تقديم الأم على الأب حكمة بالغة، فهي ـ بالإضافة إلى ما تبذله من جهد يفوق جهده ـ في حاجة إلى من يعولها ويبرها، لأنها ضعيفة الجسم عديمة الكسب، ومن أولى ببرها من ابنها؟ ومن أحق بخدمتها والإحسان إليها منه؟

قال **الحسن البصري**: حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم.

وروي عن **عمر** أن رجلاً قال له: قتلت نفسًا، قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: فأبوك؟ قال: نعم، قال: فبره وأحسن إليه، ثم قال عمر: لو كانت أمه حية فبرها وأحسن إليها رجوت ألا تطعمه النار أبدًا[(١)].

واستمع يا أخي إلى كلمة **علي بن الحسين بن علي** ـ رضي الله عنهم ـ وقد ضرب لنا المثل الرائع في بر الوالدة حين قيل له: أنت من أبر الناس، ولانراك تؤاكل أمك؟ فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما قد سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها[(٢)].

لا تعجب من هذا الجواب، فقائله من بيت النبوة نشأ في الإسلام على التقوى، وعرف حق أمه عليه فأقام لنفسه حدًّا دونه: عرف أن البر لا يكون بالكلام، وإنما هو اطمئنان في النفس، واعتراف بالفضل، ونكران

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١٧٢).

(٢) البر والصلة: (٨٢).

للذات. وأن الرضا لا يكون باللسان، وإنما هو شعور يتدفق من القلب ويجري مع الدم فينبسط له الوجه ويبش.

عرف أن البر بالأم أن يشعر الولد بشعورها، ويدرك بحدسه ما يجول في نفسها، ويفهم من نظراتها مرادها، فإذا فقد هذه المعاني فقد حقيقة البر.

*** أنصف أيها العاقل وقل:**

لو أن أباك مرض يومًا فهل تهجر فراشك ليلاً، وتعطل عملك نهارًا، وتلزم سريره كما لو كنت أنت المريض؟

ولوأنه تأخر ساعة عن موعد حضوره إلى الدار مساء يوم، فهل تقلق عليه وتضطرب، وتحسب لتأخره ألف حساب كما لو تأخرت أنت؟

كم تخطيء معه فيصفح عنك؟ وكم يرى منك ما يسيء فيتغاضى عنك؟

لو أنه اضطر إلى تأديبك يومًا لأشار إلى أمك أن تشفع لك، ولو بكيت منه لبكى قلبه لبكائك، ولو نطق لسانه يومًا بالدعاء عليك لانبسط قلبه بالرجاء إلى الله ـ تعالى ـ ألا يقبل منه ما نطق.

*** أنصف أيها العاقل:**

أنصف وأجب وأسمع نفسك.. إنسان له عشرون سنة أو تزيد يتابعك بالنظر، ويجوع لتشبع ويعرى لتلبس.. يشقى لتسعد، ويعمل لترتاح، إذا عطشت أسقاك، وإذا ظمأت أرواك.. إذا مرضت داواك، وإذا بكيت أرضاك.. وإذا ضحكت فرح.. إذا نهضت أتبعك النظر.. وإذا جلست أتبعك الدعاء.. ما ظنك بهذا الرجل.. وما جزاؤه؟!

* هذارجل يطالب بمال فلا يؤديه، ويضرب من أجله فلا يسمح به، فلمَّا أُخذ ابنه وضُرب جزع. فقيل له: في ذلك فقال: ضرب جلدي

فصبرت، وضرب كبدي فلم أصبر[١]!!

كتب إبراهيم بن داحة إلى أحد أبويه: جعلني الله فداءك. فكتب إليه: لا تكتب بمثل هذا فأنت على يومي أصبر مني على يومك. أي إنك على يوم موتي أكثر صبرًا مني على يوم موتك، لأن موتي يؤلمك ثم يزول هذا الألم بعد حين، أما موتك فيجرح قلبي، وجرح القلب لا يبرأ.

ولـــــدي يـــــا نبضـــــة في خـــــافقـــــي
ولـــــدي يـــــا فلـــــذة مـــــن كبـــــدي
ولـــــدي يـــــا كـــــوكبـــــاً أرقبـــــه
كـــــي أرى فيـــــه ضيـــــاء الفـــــرقـــــد
كلمـــــا جفـــــت ينـــــابيـــــع الصفـــــا
بـــــك يصفـــــو سلسبيـــــلاً مـــــوردي
وريـــــاضي إن ذوت أزهـــــارهـــــا
أنـــــت فيهـــــا الطـــــل والـــــزهـــــر النـــــدي
وإذا مـــــزق صـــــدري زفـــــرة
كنـــــت أنـــــت الطـــــب يشفـــــي جســـــدي
أو تخلَّ الصمـــــت عـــــن مـــــوعـــــده
أنـــــت مـــــن يصـــــدقنـــــي في المـــــوعـــــدِ
إن ســـــألـــــت الله يـــــومًـــــا أن أرى
في خـــــريـــــف العمـــــر أزكـــــى مشهـــــدي

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء: (١/ ٢٠١).

فشبـــــاب خـــــاشـــــع في طــــاعــــة
طـــــاهـــــر النظـــــرة معصــــوم اليـــــدِ
أو ســــــألــــــت الله يــــومـــــاً أمـــــلاً
قبـــــل أن ألقـــــى الـــــردى في مـــــرقـــــدي
فلـــــــذتي يخشـــــــع في محـــــرابـــــه
ويبـــــاري النجـــــم عنـــــد الســـــؤددِ
ولـــــدي إن كنـــــت تـــــرجـــــو رحمـــــة
وســــــلامًـــــا مـــــن إلـــــه سرمـــــدي
فـــــاتخـــــذ خير دليـــــلٍ قبســـــاً
مـــــن سنـــــا القـــــرآن حتـــــى تهتـــــدي
وليكـــــن خير مكـــــان في الـــــدنـــــا
يـــــا هنـــــاء الـــــروح ركـــــن المسجـــــد
ولـــــدي إن كـــــان يـــــومـــــي حـــــالكًـــــا
أنـــــت إطـــــلالـــــة فجـــــري وغـــــدي
ونـــــدائـــــي في الحنـــــايـــــا أبـــــدًا
وهتـــــافي وحنينـــــي ولـــــدي

* * *

فضل بر الوالدين

أولًا: أنه من أفضل الأعمال:

عن **عبد الله بن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة في وقتها**». قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[١].

ثانيًا: أنه سبب من أسباب مغفرة الذنوب:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا . . .﴾ إلى أن قال: في آخر الآية الثانية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦].

ثالثًا: أنه من أسباب دخول الجنة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رغم أنفه، رغم أنفه**». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما، أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة**»[رواه مسلم].

رابعًا: أنه سبب في زيادة العمر:

عن **أنس بن مالك**: «من سره أن يمد له عمره ويزاد في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه» [رواه أحمد].

خامسًا: أنه سبب في بركة الرزق:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن**

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

يبسط له في رزقه وأن ينسأ في أثره فليصل رحمه»[1] [رواه البخاري].

سادسًا: أنه سبب في بر أبنائك لك:

عن **ابن عمر** ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفوا تعف نساؤكم**». [رواه الطبراني].

* * *

(١) حدثني من أعرفه أن رجلاً طحنه الفقر، وأهلكه الجوع حتى إنه جاوز الثانية والثلاثين من عمره وهو لم يتزوج لعدم استطاعته، ولكنه كان بارًا بأمه، ومن بره بها أنه حجَّ بها من نجد إلى الحجاز على ظهره. وقد فتح الله له أبواب الرزق الواسعة وأغدق عليه من فضله وجوده ما لا يُحصى فأصبح يُشار إليه بالبنان لغناه ويُسر حاله.

بر الوالدين بعد موتهما[(١)]

لم تكتف آيات سورة الإسراء بالأمر بالإحسان إلى الوالدين وإطاعتهما وإكرامهما، بل فرضت على الابن أن يذكر معروفهما وأياديهما بالشكر والثناء فلا ينساهما من الدعاء والاستغفار وطلب الرحمة: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤]، ولا يقتصر على الدعاء لهما في حياتهما فحسب بل بعد موتهما أيضًا حيث تنقطع أعمالهما عن الدنيا، فلا يتزودان بأكثر مما قدما إلا بما يهبه لهما ابنهما، والسفر الطويل، والزاد مهما يبلغ ضئيل، ولا يسهل السفر ويعزز الزاد إلا أحد ثلاثة ذكرها الرسول ﷺ بقوله: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[(٢)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ترفع للميت بعد موته درجته. فيقول: أي ربي أي شيء هذا؟ فيقول له: ولدك استغفر لك»[(٣)].

ألا إن خير ما يرجو الولد لوالديه المغفرة لهما: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، وهو ما جاء على لسان الرسل الكرام، وطلب الرحمة لهما: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤].

إن استغفاره لهما مقبول عند الله ـ تعالى ـ لأنه شكر على معروف. وإسداء لفضل، ووفاء لدين. والوالدان بعد موتهما في أشد الحاجة إلى الإحسان؛ لأنهما أدركا حقيقة المسؤولية الكبرى، وذاقا ضمة القبر وهول

---

(١) بر الوالدين للحناوي.

(٢) أخرجه مسلم وغيره.

(٣) أخرجه ابن ماجة.

الحساب، وندما على كل لحظة قضياها في حياتهما الدنيا في لهو وعبث، وتحسرا على ضآلة زادهما من العمل الصالح، وانقطع رجاؤهما إلا من رحمة الله ـ تعالى ـ، فإذا وصل إليهما خير من ولدهما تلقياه بابتهاج كما تتلقى الأرض الجدبة ماء السماء.

* حدث **مالك بن ربيعة الساعدي** ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هل بقي عليَّ من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «**نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما**»[١].

فالصلة إذن مازالت قائمة بين الولد وأبويه، يطلب الرحمة والمغفرة لهما من الله ـ تعالى ـ هي من قبلهما، فينال بذلك رضا الله ورضاهما. ومن الوفاء ألا ينسى الإنسان المعروف. ولا يجحد الفضل. ومن كافأ على معروف أسدي إليه، وهو لا يزال يعتبر نفسه مقصراً تجاه صاحبه، كان أكثر الناس وفاء ومروءة، والولد المغمور بأفضال والديه حري به أن يرى نفسه عاجزًا ومقصرًا ومدينًا، ولو بلغ في البر أقصاه.

* لما ماتت أم **إياس بن معاوية** بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة، وغُلق أحدهما.

* وعن **رفاعة بن إياس** قال: رأيت الحارث العكلي في جنازة أمه

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

ـ يعني يبكي ـ فقيل له: تبكي؟ قال: ولِمَ لا أبكي وقد أُغلق عني باب من أبواب الجنة.

* وقال **عامر بن عبدالله بن الزبير**: مات أبي، فما سألت ـ حولاً ـ إلا العفو عنه[١].

* هذا **عبد الله بن عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنهما ـ يضرب لنا المثل الصالح في الولد الصالح، ويروي لنا **عبدالله بن دينار** ذلك فيقول: إن عبدالله بن عمر لقيه رجل بطريق مكة فسلم عليه عبدالله وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير. فقال عبد الله: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر ابن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر صلة الرجل أهل وُدِّ أبيه**»[٢].

كما أن من برهما زيارة قبرهما ـ دون شد الرحال ـ والسلام عليهما والدعاء لهما.

زر والديك وقف على قبرهما
فكأنني بك قد حملت إليهما[٣]

أخي الحبيب:

عليك بأهل البر والصلاح واحذر الصديق العاق فإنه كالسراب يلمع ولا ينفع فإن من عق والديه وقطع رحمه يبغض في الله ولا يغرك منه صلته بك ولين حديثه فهو ليس من أهل الوفاء ولا من أصحاب الرحم الذين

---

(١) بر الوالدين لابن الجوزي: (٧٨).
(٢) رواه مسلم.
(٣) التذكرة: (٩٣).

يرون للعشير حقًّا ويحفظون للصاحب مكانة وفضلاً.

عن بعض الحكماء: لا تصادق عاقًّا، فإنه لن يبرك، وقد عق من هو أوجب منك حقًّا[(١)].

أخي الشاب:

وصية من الله إليك من فوق سبع سماوات، من كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسوله ﷺ.. هاهما بجوارك.. قد بدأ المشيب إليهما.. واحدودب منهما الظهر وارتعشت الأطراف.. لا يقومان إلا بصعوبة ولا يجلسان إلا بمشقة.. أنهكتهما الأمراض وزارتهما الأسقام والأوجاع.

عليك بوصية الله ـ جل وعلا ـ ووصية رسول الله ﷺ، ألن جانبك لهما وارع حقهما.. وقبل رأسهما، واسكب الدمعة لعل الله يرحمهما.. ويعفو عن تقصيرك في حقهما..

أخي الحبيب.. أخي الحبيب..

«ففيهما فجاهد»

(١) بر الوالدين لإبن الجوزي: (٦٣).

الخاتمة

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

اللَّهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا، وأجزهم عنَّا خير الجزاء..

اللَّهُمَّ ارفع درجتهم واعلِ قدرهم، واجعل ما أصابهم تكفيراً لذنوبهم ورفعًا لمنزلتهم.

اللَّهُمَّ أسكنهم الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء.

* * *

المصادر

١ ـ الأدب المفرد للإمام البخاري، فرج أحادية محمد فؤاد، دار البشائر الإسلامية، ط٣/ ١٤٠٩هـ.

٢ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣ ـ البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٤ ـ بر الوالدين لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوسي، تحقيق محمد عبد الحكيم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣/ ١٤١١هـ.

٥ ـ بر الوالدين لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١/ ١٤٠٨هـ.

٦ ـ بر الوالدين، عبد الرؤوف الحناوي، ط١.

٧ ـ البركة في فضل السعي والحركة لأبي عبدالله محمد الجيش، دار المعرفة، ١٤٠٦هـ.

٨ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٩ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

١٠ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

١١ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٢ ـ تسلية أهل المصائب، الإمام أبي عبدالله محمد بن محمد البنجي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

١٣ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق، ١٤١٠هـ.

١٤ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط ١٤٠٠هـ.

١٥ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

١٦ ـ سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

١٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٨ ـ شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، مؤسسة الرسالة، ط٢/ ١٤٠٠هـ.

١٩ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

٢٠ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية ودار المعرفة، بيروت.

٢١ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢٢ ـ فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة.

٢٣ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٠/ ١٤٠١هـ.

٢٤ ـ قضاء الدين ببر الوالدين، لولوه الفضية، دار المسلم، ط١/ ١٤١٤هـ.

٢٥ ـ كتاب البر والصلة لابن الجوزي، تحقيق عادل عبدالموجود وعلي

معوض، مكتبة السنة، ط١/ ١٤١٣هـ.

٢٦ ـ كتاب الكبائر، للإمام شمس الدين الذهبي، دار كاتب وكتاب.

٢٧ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير، ط١/ ١٣٩٨هـ دار العربية.

٢٨ ـ مختصر تفسير ابن كثير، اختصار الشيخ محمد كريم راجح، دار المعرفة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٧هـ.

٢٩ ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢/ ١٤٠٨هـ.

٣٠ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١/ ١٤٠٣هـ.

٣١ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، دار صادر بيروت، ١٣٩٧هـ.

* * *

اللهم سلم

مقدمة

الحمد لله الذي أمَّن الخائفين منه وجعل مثواهم جنات عدن، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

في زمن النسيان والغفلة والأمل والتسويف أقدم للإخوة القراء الجزء العاشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان: «**اللَّهُمَّ سلِّمْ**».

وفيه ذكر فضيلة الخوف من الله التي تقود إلى العمل وتحرك الهمم. وطرزته بحال السلف خوفًا ورجاءً.

جعل الله لنا نصيبًا من ذلك ورزقنا خشيته سرًّا وعلانية. ورزقنا من التقوى ما نتزود به ليوم المعاد.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

لقد نثر طول الأمل رداءه على البعض فأصبح الكثير من الناس يقترف المحرمات، ويتهاون في الطاعات وأمسىٰ التسويف حاجزًا لهم عن التوبة، والفرح بهذه الدنيا منسيًا لما أمامهم من الأهوال والعقبات. فلم يطرق الخوف قلوبهم، ولم يلازم الوجل نفوسهم. فانهمكوا في الفرح والترح، وكأنهم مخلدون في هذه الدنيا.. تجاهلوا سيرة من كانوا قبلهم في تذكُّر الموت والخوف مما بعد الموت.. فقد كان يُقرأ على بعض السلف ما يُليِّن القلوب ويحيي النفوس.. يَشْحِذُ الهمم، ويقوّي العزائم ويزيل ران الغفلة والسفه.. فهذا **ابن المبارك** إذا قُرِيء عليه كتاب الزهد كأنه ثورٌ قد ذبح، لا يقدر أن يتكلم[(١)].

والخوف أخي الحبيب! عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل.

ومن توقع مكروهًا في المستقبل سعىٰ إلى الاستعداد له، والمثابرة على اجتيازه، وقد جمع الله للخائف منه فضلاً عظيمًا، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

قال **القرطبي**: المعنىٰ خاف مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية[(٢)].

وقال **ابن كثير** ـ رحمه الله ـ: أي خاف القيام بين يدي الله ـ عز وجل ـ،

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/٢٧٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٧/١٧٦).

وخاف حكم الله فيه، ونهى النفس عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤١] أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء[١].

وقال **مجاهد والنخعي** ـ رحمهما الله ـ: هو الرجل يهم بالمعصية، فيذكر الله فيدعها من خوفه.

وقال **محمد بن علي الترمذي** ـ رحمه الله ـ: جنة لخوفه من ربه، وجنة لتركه شهوته.

ومن فضل الله ومَنِّه على عباده الطائعين المنيبين ما جاء في الحديث القدسي، قال الله ـ تعالى ـ: «**وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أَمْنَـيْنِ ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي**»[٢].

وعن **أنس** ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط. قال: **لو تعلمونَ ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**»، فغطى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنينٌ[٣] [متفق عليه].

ومن ثمرة الخوف من الله ـ عز وجل ـ في الدنيا ما ذكره عامر بن قيس بقوله: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء.

وانظر إلى أهل الوجل والخوف من الله؛ إنهم أهل القدوة، وأصحاب الكلمة المسموعة..

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٦٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب.

(٣) الـخَنِينُ: البكاء مع غُنَّةٍ وانتشاق الصوت من الأنف.

أما من عصىٰ الله وفرَّط في حدوده، فإنَّه زائغ النظرات، يترقَّب وقوع المصيبة. . بل هو في قلق وحسرة وندامة.

ويظن البعض أن الخوف هو خوف الدنيا الطبيعي من الوحوش والسباع والظلام والوحدة، وما علموا أن ما قطَّع قلوب المؤمنين الصادقين إنما هو الخوف من عذاب الله ورجاء رحمته وعفوه ومغفرته.

قال **عمر بن عبد العزيز**: اللهم إن كنت تعلم أني أخاف شيئًا دون يوم القيامة فلا تؤمِّن خوفي[(١)].

قال **يزيد بن حوشب** محدثًا بما كان يراه من صلاح القوم وخوفهم: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما.

وعن **عبد الرحمن بن الحارث بن هشام** قال: سمعت عبدالله بن حنظلة يومًا وهو على فراشه، وعُدتُّه من علَّته، فتلا رجل عنده هذه الآية: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١] فبكى حتى ظننت أن نفسه ستخرج، وقال: صاروا بين أطباق النار ثم قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبدالرحمن اقعد قال: منعني ذكر جهنم القعود، ولا أدري لعلي أحدهم.

فإن هذا هو الخوف المحمود الذي يحرك النفس البشرية إلى الاستعداد والعمل والاستقامة والإنابة.

وهذا هو الخوف الحقيقي والوجل الصادق. .

كان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يسأل حذيفة. . أُنْشِدُكَ الله: هل سماني لك رسول الله ﷺ، يعني في المنافقين؟ فيقول: لا ولا أزكِّي بعدك أحدًا[(٢)].

---

(١) تاريخ الخلفاء: (٢٢٤).
(٢) الجواب الكافي: (٧٩).

نعم هذا وهو عمر بن الخطاب.. أمير المؤمنين الفاروق وثاني الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

بل ها هو قد جعل نقش خاتمه.. كفى بالموت واعظًا يا عمر[(١)]

مستـــوفـــديـــن على رَحْـــلٍ كـــأنهـــم
ركـــبٌ يـــريـــدون أن يمضـــوا وينتقلـــوا
عَفَـــتْ جـــوارحُهـــم عـــن كـــلِّ فـــاحشـــةٍ
فـــالصِّـــدقُ مـــذهبُهـــم والخـــوفُ والـــوَجِـــلُ[(٢)]

أخي المسلم:

إن اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد. فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصدًا، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصد عن الاستعداد لها[(٣)].

قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: نعم، كذبت، وإن قلت: لا، كفرت[(٤)].

فأين الخوف من الله؟ وأين التفكر في المآل والمعاد والجزاء والحساب..

أيها الحبيب:

هذا أبو سليمان الداراني لما حضره الموت، قال له أصحابه: أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم. فقال لهم: ألا تقولون تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير.

---

(١) البداية والنهاية: (٧/ ١٤٧).
(٢) ترتيب المدارك: (١/ ٣٦).
(٣) الفوائد: (١٣٠).
(٤) تزكية النفوس: (١١٧).

وصدق الله ـ عز وجل ـ إذ يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

والخوف ليس من الذنوب وحدها، بل أيضًا من سوء الخاتمة وسوء المنقلب.. قال عبدالرحمن بن مهدي: بات سفيان عندي فلما اشتدَّ به الأمر، جعل يبكي. فقال له رجل: يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب. فرفع شيئًا من الأرض، وقال: والله لذنوبي أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أُسْلَبَ الإيمان قبل أن أموت(١).

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٣٧ ﴾ [النور: ٣٧].

نعم يا عبدالله لقد خافوا هذا اليوم العظيم يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [الحج: ٢].

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة، لا يأكلون فيها أكلة، ولا يشربون فيها شربة، حتىٰ إذا انقطعت أعناقهم عطشًا، واحترقت أجوافهم جوعًا، انصرف بهم ـ يقصد العصاة والمجرمين ـ إلى النار فسُقوا من عين آنية قد آن حرُّها، واشتدَّ لَفَحُها(٢).

قال وهيب بن الورد: بلغنا أنه ضُرب لخوف الله مثلٌ في الجسد، قيل:

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٥٠).

(٢) الإحياء: (٤/ ٥٠٠).

إنما مثل خوف الله كمثل الرجل يكون في منزلة فلا يزال عامرًا مادام فيه ربه، فإذا فارق المنزل ربه وسكنه غيره خرب المنزل، وكذلك خوف الله ـ تعالى ـ إذا كان في جسد لم يزل عامرًا مادام فيه خوف الله، فإذا فارق خوف الله الجسد خرب، حتى إن المار يمرُّ بالمجلس من الناس فيقولون: بئس العبد فلان، فيقول بعضهم لبعض: ما رأيتهم؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا غير أنا نبغضه، وذلك أن خوف الله فارق جسده.

وإذا مرَّ بهم الرجل فيه خوف الله، قالوا: نِعْمَ والله الرجل فيقولون: أي شيء رأيتم منه؟ فيقولون: ما رأينا منه شيئًا غير أنا نحبه[1].

فكَّرتُ في نارِ الجحيم وحرِّها
ياويلتاه ولاتَ حين مَنَاص
فدعوتُ ربِّي إنَّ خيْرَ وسيلتي
يوم المعادِ شهادةُ الإخلاص[2]

جاء سائل إلى ابن عمر فقال لابنه: اعطه دينارًا، فلما انصرف قال ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمتُ أن الله يتقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت، أتدري ممن يُتقبل؟ إنما يتقبل الله من المتقين.

وقد فسر الحسن قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال: كانوا يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم مشفقون؛ ألا

---

(١) التخويف من النار لابن رجب: (٥).
(٢) شذرات الذهب: (٤/ ٣).

ينجيهم ذلك من عذاب الله ـ عز وجل ـ[١].

ولهذا الفهم الصحيح والإدراك الصادق، قال: **يونس بن عبيد** عن **الحسن**: ما رأيت أطول حزنًا من الحسن. وكان يقول: نضحك ولعل الله قد اطلع على أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا.

والخوف من الله حصن من المهالك، وحماية دون المنزلقات.. قال **الفضيل**: من خاف الله دلَّه الخوف على كل خير[٢].

والقدرُ الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات كان ذلك فضلاً محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًّا لازمًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله ـ عز وجل ـ لم يكن محمودًا[٣].

قال **ابن القيم**: سمعت **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ قدس الله روحه ـ يقول: الخوف المحمود: ما حجز عن محارم الله[٤].

وحين مرَّ **طاوس** برأس (بائع الرؤوس) قد أخرج رؤوسًا، فغُشي عليه وكان إذا رأى الرؤوس المشوية لم يتعشَّ تلك الليلة[٥].

قال **سفيان بن عيينة**: خلق الله النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا.

---

(١) الزهد: (٤٢٠).

(٢) الإحياء: (٤/ ١٧٠).

(٣) التخويف من النار: (٣٣).

(٤) مدارج السالكين: (١/ ٥١٤).

(٥) حلية الأولياء: (٤/ ٤)، والبداية والنهاية: (٩/ ٢٧٢).

والخائفون الوجلون المشفقون هم أهل الصلاح والتقى والورع والزهد. .

فإن من لامس الخوف شغاف قلبه وسرى في عروقه أورثه ذلك عملاً وصلاحًا. . أولئك الخائفون الذين سُئل عنهم ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال: قلوبهم بالخوف فرحة، وأعينهم باكية، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله موقفنا[١].

والخوف الحقيقي خوف السر والخلوة حيث لا يراك مخلوق ولا تراءي عيون وآذان هذا **أنس بن مالك يقول**: خرج عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يومًا، وخرجت معه، حتىٰ دخل حائطًا، فسمعته يقول: وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. . بَخْ[٢]، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنَّك[٣].

وبكى **معاذ** ـ رضي الله عنه ـ بكاءً شديدًا فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: لأن الله ـ عز وجل ـ قبض قبضتين، فجعل واحدة في الجنة والأخرى في النار، فأنا لا أدري من أي الفريقين أكون[٤].

قال **موسىٰ بن مسعود**: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه[٥].

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٩٤).
(٢) بَخ! أي: عَظُم الأمرُ وفَخُمَ.
(٣) محاسبة النفس: (٣١)، والزهد للإمام أحمد: (١٧١).
(٤) الزهر الفائح: (٢١).
(٥) الإحياء: (٤/ ١٨١).

قال **الحسن البصري**: يخرج من النار رجل بعد ألف عام يا ليتني كنت ذلك الرجل[١].

أيها الحبيب أولئك أعلام أمة محمد ﷺ فبهداهم اقتد وعلى نهجهم سر وأسرع الـخُطا.

قـال **شقيق بن إبراهيم** ـ رحمه الله ـ: ليس للعبد صاحب خيرًا له من الهمِّ والخوف، همٌّ فيما مضى من ذنوبه وخوف فيما بقي لا يدري ما ينزل به.

وقال **عامر بن قيس** ـ رحمه الله ـ وكأنه يرى حال كثير منا: أكثر الناس فرحًا في الآخرة أطولهم حزنًا في الدنيا، وأكثر الناس ضحكًا في الآخرة أكثرهم بكاءً في الدنيا، وأخلص الناس إيمانًا يوم القيامة أكثرهم تفكرًا في الدنيا.

والإنسان ـ أخي المسلم ـ بين منزلتي الخوف والرجاء.. خوفٌ من الله، ورجاء لما عنده. وهو بهذا الميزان يسير خائفًا راجيًا.

قال **الفضيل بن عياض**: مادمت حـيًّا فلا يكن شيء عندك أخوف من الله ـ عز وجل ـ، وإذا نزل بك الموت فلا يكن عندك شيء أرجى من الله ـ عز وجل ـ[٢].

وقال **صالح بن أحمد بن حنبل**: كان أبي إذا دعا له رجل، يقول: الأعمال بخواتيمها[٣].

---

(١) الإحياء: (٤/١٨١).

(٢) العاقبة: (١٤٦).

(٣) السير: (١١/٢٢٦).

أخي الحبيب:

للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه للصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هَوَّنَ عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفِّه حقه، شدَّد عليه ذلك الموقف، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ۝٢٧﴾ [الإنسان: ٢٦، ٢٧].

كان **شميط بن عجلان** يقول في مواعظه: إن المؤمن يقول لنفسه: إنما هي ثلاثة أيام: فقد مضى أمس بما فيه، وغدًا أمل لعلك لا تدركيه، إنما هو يومك فإن كنت من أهل غد فسيجيء رب غد برزق غد، إن دون غد يومًا وليلة تخترم فيه أنفس كثيرة فلعلك المخترم فيه.

كفى كل يوم همَّه، ثم حملت على قلبك الضعيف هم السنين والدهور والأزمنة وهمَّ الغلاء والرخص وهم الشتاء قبل أن يجيء، وهم الصيف قبل أن يجيء، فماذا أبقيت من قلبك الضعيف للآخرة؟

ما تطلب الجنة بهذا، متى تهرب من النار؟ كل يوم ينقص من أجلك ثم لا تحزن. أعطيت ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع.

فالعجب كل العجب لمن صدَّق بدار الحيوان كيف يسعى لدار الغُرور.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو مسهر: ما رأيت سعيد بن عبدالعزيز ضحك قط، ولا تبسَّم، ولا شكا شيئًا قط.

وقال بعض أصحاب الحسن: كنا ندخل على الحسن. فما هو إلا النار والقيامة والآخرة وذكر الموت(١).

وعندما سأل الحجاج سعيد بن جبير متعجبًا: بلغني أنك لم تضحك قط!! قال له: كيف أضحك وجهنم قد سُعِّرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أُعدَّت.

وعندما بكى الحسن فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي(٢).

أين أصحاب السهر والسمر والضحكات التي تجلجل من هذه الدرر؟!

امنـــعْ جُفــــونَـــكَ أن تـــذوقَ منـــامـــا
وذَرِ الـــدمـــوعَ على الخـــدودِ سجـــامَـــا

واعلـــمْ بـــأنَّـــك ميـــتٌ ومحـــاســـبٌ
يـــا مَـــنْ على سُخْـــط الجليـــلِ أقـــامـــا

لله قـــــوم أخلصــــوا في حُبِّـــــه
فـــرضَـــى بهـــم واختصَّهـــم خُـــدَّامـــا

قـــومٌ إذا جَـــنَّ الظـــلامُ عليهـــم
بـــاتـــوا هنـــالـــك سُجَّـــدًا وقيـــامـــا

خُمـــصُ البطـــون مـــن التعفُّـــف ضُمْـــرا
لا يعـــرفـــون ســـوىٰ الحـــلالِ طَعـــامـــا

---

(١) العاقبة: (٣٩).

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٣).

أخي الحبيب:

قال **ابن عون**: لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدري أيقبل منك أم لا؟! ولا تـأمن ذنوبـك فإنك لا تدري أَكُفِّرَتْ عنك أم لا؟ إن عملك مغيب عنك كله(١).

وقال **الحسن**: أدركت أقوامًا لو أنفق أحدهم ملء الأرض ما أمن لعظم الذنب في نفسه(٢).

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال **معروف**: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال **بعض العلماء**: من قطع عضوا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا(٣).

ولنرى البون الشاسع والفرق الكبير بيننا وبين مَنْ سبقنا.. بماذا كانوا يُطرِّزون مجالسهم وبماذا كانوا يُجمِّلون حديثهم؟

قال **موسى بن مسعود**: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وفزعه.

وكان **سفيان** إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم.

وصح أن **زُرارة بن أوفى** صلى بالناس الغداة، فلما قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢١١).
(٢) المصدر السابق.
(٣) الجواب الكافي: (٢٦).

ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ [المدثر: ٨] خرَّ مغشيًا عليه فحُمل ميِّتًا[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

بكى بُديل بن ميسرة حتى قرحت مآقيه[٢]، فكان يعاتب في ذلك فيقول: إنما أبكي من طول العطش يوم القيامة[٣].

وهذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو يسير بين الرجاء والخوف يقول: لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحدًا، لخفت أن أكون هو، ولو نادى منادٍ: أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحدًا لرجوت أن أكون هو[٤].

عن عروة عن أبيه قال: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلم عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، وتدعو وتبكي وترددها. فقمت حتى مللت القيام فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي، تُصلي وتبكي[٥].

عن إبراهيم التيمي قال: لقد أدركت ستين من أصحاب عبد الله في مسجدنا هذا أصغرهم الحارث بن سويد وسمعته يقرأ: ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ﴾ حتى بلغ: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾[الزلزلة: ٧] قال: فيبكي ثم يقول: إن هذا الإحصاء شديد[٦].

---

(١) الإحياء: (١٦٩)، والسير: (٤/٥١٦).

(٢) مَآقِي: جمع مَأق العين وهو مجرى الدمع من العين.

(٣) صفة الصفوة: (٣/٢٦٥).

(٤) حلية الأولياء: (١/٥٣).

(٥) صفة الصفوة: (٢/٢٢٩).

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية: (٤/١٢٧).

أخي المسلم:

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدمٍ أو كل آنٍ من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف وقد ثبت أنه مسافرٌ على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير[١].

قال الجنيد كنت بين يدي السرِّي ألعب وأنا ابن سبع سنين، فتكلموا في الشكر، فقال: يا غلام ما الشكر؟ قلت: أن لا يعصى الله بنعمه، فقال: أخشى أن يكون حظُّك من الله لسانك.

قال الجنيد: فلا أزال أبكي على قوله[٢].

وتأمل ـ أخي الكريم ـ في بُعْدِ النظرة وصدق الإخلاص والخوف من الله ـ عز وجل ـ. قال يونس بن عبيد دخلنا على محمد بن واسع نعوده فقال: وما يغني عني ما يقول الناس إذا أخذ بيدي ورجلي، فألقيت في النار[٣].

وقيل عن يونس بن عبيد: ما كان بأكثرهم صلاةً ولا صومًا ولكن لا والله ما حضر حقٌّ لله إلا وهو متهيِّيء له[٤].

---

(١) الفوائد: (٢٤٥).
(٢) السير: (١٤/٦٨).
(٣) محاسبة النفس: (٥١).
(٤) السير: (٦/٢٩١).

ونظر عمر بن عبد العزيز إلى رجل متغير اللون فقال له: ما الذي أرى بك؟

قال: أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين إن شاء الله.

فأعاد عليه عمر فأعاد الرجل مثل ذلك ثلاث مرات.

فقال: إذا أبيت إلا أن أخبرك، فإني ذقت حلاوة الدنيا فصغر في عيني زهرتها وملاعبها، واستوى عندي حجارتها وذهبها، ورأيت كأن الناس يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار، فأسهرت لذلك ليلي وأظمأت له نهاري، كل ذلك صغير حقير في جنب عفو الله وثواب الله - عز وجل - وجنب عقابه[1].

أخي المسلم:

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمرٌ، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدَّى شكر نعمته عليه فيه وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطَّل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرّته.

وله عليه في كل وقت من أوقات عبوديته تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شَغَلَ وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر ولا وقوف في الطريق البتة. قال - تعالى -: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾[2] [المدثر: ٣٧].

---

(١) التخويف من النار: (٤٤).

(٢) الفوائد: (٢٤٩).

ومن سبر حال الناس اليوم لم يجد للخوف في قلوبهم موطنًا ولا للوجل في أنفسهم مكانًا، بل ألهتهم الدنيا وغرتهم الأماني. فلا يرجون جنة ورحمة ولا يخافون نارًا وغضبًا.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال ابن أبي مُليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه[(١)].

وعندما سُئل الحسن: أتخاف من النفاق؟! قال: وما يؤمنني وقد خافه عمر ـ رضي الله عنه ـ[(٢)].

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضًا على لحيته ويقول: يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ففي أي الدارين منزل مالك؟![(٣)].

وكان بعضهم يبكي ليلاً ونهارًا، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف أن الله ـ تعالى ـ رآني على معصية، فيقول: مُر عني فإني غضبان عليك[(٤)].

وأثر الخوف من الله يتجلَّ في صفات وأخلاق المؤمنين من محافظة على الأمانة وتأدية للحقوق وابتعاد عن المظالم.. فحين خرج عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى مكة فعرَّس في بعض الطريق فانحدر عليه راعٍ من الجبل فقال له: يا راعي بعني شاة من هذه الغنم، فقال: إنني مملوك، فقال: قل لسيدك أكلها الذئب، قال: فأين الله، فبكى عمر بن الخطاب ثم

---

(١) الجواب الكافي: (٧٩).
(٢) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٤٥١).
(٣) جامع العلوم والحكم: (٧٠٠).
(٤) الزهر الفائح: (٩١).

غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أَعْتَقْتُك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

وأما ما شاع بين الناس من أخذ الحقوق ونقص المكاييل وبخس الموازين فهو علامة من علامات خُلُوِّ القلب من الخوف والمراقبة والمحاسبة والمراجعة.. وإلا فكل صغيرة وكبيرة ستعرض يوم القيامة.. فأين الاستعداد؟

قال **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك، فيقول: أنت أخذت طينة من حائطي وآخر يقول: أنت أخذت خيطًا من ثوبي.. فهذا وأمثاله قطع قلوب الخائفين[1].

أخي المسلم:

إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل.. فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده[2]؟!

قال **سفيان الثوري**: رأيت رجلاً متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول: اللَّهُمَّ سَلِّم، فقلت له: ما شأنك؟ وممَّ تطلب السلامة؟ فقال لي: يا أخي.. كنا أربعة إخوة، تنصَّر أحدُنا عندًا، وتهوَّد الآخر، وتمجَّس الثالث، وبقيت أنا خائفًا من الله ـ تعالى ـ، وراغبًا في السلامة[3].

* بين العبد وبين الله قنطرة تقطع بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق، فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس، ويُسقط الناس

---

(١) الزهر الفائح: (٦٩).
(٢) الفوائد: (١٣١).
(٣) الزهر الفائح: (٣٤).

ويلغيهم فيما بينه وبين الله، فلا يلتفت إلا إلى مَنْ دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه[١].

وعن **عثمان بن أبي دهرش** أنه كان إذا رأى الفجر قد أقبل عليه تنبَّه وقال: أصير الآن مع الناس ولا أدري ما أجني على نفسي[٢].

وقال **أبو القاسم الحكيم**: من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه[٣].

وعندما قيل لأبي عبدالله **أحمد بن حنبل**: ما أكثر الدَّاعين لك، تغرغرت عينه وقال: أخاف أن يكونَ هذا استدراجًا[٤].

أخي المسلم:

أعظم الخلق غرورًا من اغترَّ بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أحسن من النسيئة ويقول بعضهم: ذرة منقودة، ولا دُرَّة موعودة.

ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين بالشك.

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهائم العجم أعقل من هؤلاء، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تُقْدِمْ عليه ولو ضُرِبت، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطبة وهو بين مصدِّق ومكذِّب.

---

(١) الفوائد: (٧٢).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢١٨).
(٣) تزكية النفوس: (١١٧).
(٤) الورع عبد الله بن حنبل: (١٥٢).

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له[١].

أخي الحبيب:

أين موقع قدمك؟ وما هو عملك وأين مكانك غدًا عندما ينصرف الناس إلى أحد الدارين وهل تجهزت لهذا الأمر كما تحرص وتجتهد في أمر الدنيا؟!

قال **إبراهيم التيمي**: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مُكذِّبًا[٢]؟!

قال **الغزالي** عن الخوف: إنه يقمع الشهوات، ويكدِّر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سُمًّا فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهمِّ لخوفه، والنظر في عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة والضنة بالأنفاس، واللحظات[٣].

* قالت فاطمة بنت عبد الله بن مروان امرأة **عمر بن العزيز**: يكون في الناس من هو أكثر صومًا وصلاةً من عمر، وما رأيت أحدًا أشد خوفًا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد ثم رفع يديه فلم يزل يبكي حتى يغلبه النوم، ثم ينتبه فلا يزال يدعو رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عيناه[٤].

---

(١) الجواب الكافي: (٣٦).
(٢) الجواب الكافي: (٧٩).
(٣) الإحياء: (٤/١٦).
(٤) تذكرة الحفاظ: (١/١٢٠).

هذا هوالخوف الذي يمنع من الوقوع في المعصية ويحول دون اقتراف السيئة..

قال حكيم من العلماء: الحزن يمنع الطعام، والخوف يمنع الذنوب، والرجاء يقوّي على الطاعة، وذكر الموت يزهّد في الفضول[١].

والخوف المطلوب يجب أن لا ينقلب إلى اليأس والقنوط من رحمة الله لأنه: ﴿ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٧].

فرحمة الله وسعت كل شيء وهو الرحيم الغفور الجواد الكريم ولكن لابد من الخوف وتذكر الآخرة وما أعده الله ـ عز وجل ـ للعصاة المذنبين حتى يكون ذلك الخوف مانعًا له من تخطي حواجز المعاصي والولوج في مائها والوقوع في أدرانها.

ولابد من بقاء الأمل برحمة الله وما أعده الله ـ عز وجل ـ من نعيم وثواب جزيل للمؤمنين المتقين الذين يقفون عند حدود الله.

مهما يكن من أمر فإن عصرنا هذا الذي تفشَّى فيه مرض الغفلة عن الله وتنازعتنا الدنيا بزينتها وانتشر وباء التبلُّد وعدم الاهتمام بالمصير فيما بعد هذه الحياة الدنيا.. يتطلب منا أن نلجأ إلى الدواء ونلتمس مواطن الخلل.. نتذكر الدار الآخرة وما أعد الله فيها للمحسنين وما أعد الله فيها للعاصين المذنبين.. لعل قلوبنا تستيقظ من غفلتها وتهب من رقدتها.

وحالنا لاهية ضاحكة عابثة كيف تكون حال من سبقنا؟ أيا ترى هم مثلنا في الغفلة والتفريط؟!

---

(١) تنبيه الغافلين: (٢/٤١٩).

قال إبراهيم بن عيسى: ما رأيت أطول حزنًا من الحسن وما رأيته إلا حسبته حديث عهدٍ بمصيبة[١].

وحين دخل العلاء بن محمد على عطاء السليمي وقد غُشي عليه، فقال: لامرأته أم جعفر: ما شأن عطاء؟! فقالت: سجرتْ جارتنا التنور، فنظر إليه فخرَّ مغشيًا عليه[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال سليمان الداراني: ما رأيت من الخوف أظهر عليه من الحسن بن صالح قام ليلة بـ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١﴾ فغُشي عليه، فلم يختمها إلى الفجر[٣].

إذا ما الليلُ أظلم كابَدُوه ... فيُسْفِرُ عنهم وهم رُكُوعُ

أطارَ الخوفُ نومَهم فقامُوا ... وأهل الأمن في الدنيا هُجُوعُ

يا مغرورًا بالأماني، لُعن إبليس وأُهبط من منزل العزِّ بترك سجدة واحدة أمر بها، وأُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها. وأُمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قَدْرِ الأنملة فيما لا يحلُّ، وأُمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة من مُسكر، وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم.

فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٥].

دخلت امرأة النار في هِرَّةٍ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٣).

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٣٢٦).

(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢١٦).

يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار، العمر بآخره والعمل بخاتمته[١].

ولهذا كان **سفيان** يبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت[٢].

والدنيا عند هؤلاء معبر للآخرة ما رأوا أمراً إلا تمثَّلت أمامهم الآخرة وما وقفوا بموقف إلا تذكروا الموقف الأكبر.. إنها حياة القلوب.

قالت: **رابعة بنت إسماعيل**: ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادي القيامة، ولا رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف، ولا رأيت جرادًا إلا ذكرت الحشر.

والقلوب المتجددة الإيمان يسري في نبضتها ومضات الخوف وتستشعر الموقف مع كل لحظة تعلم اقتراب الأجل وبعد نهاية كل يوم توقن بدنوٍّ الحساب والعقاب.

قال **خالد بن خداش**: قريء على عبد الله بن وهب كتاب أهوال يوم القيامة ـ تأليفه ـ فخرَّ مَغْشيًّا عليه. قال: فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام رحمه الله ـ تعالى ـ[٣].

أخي المسلم:

إن قوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه. وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته

---

(١) الفوائد: (٨٣).
(٢) جامع العلوم والحكم: (٧٠).
(٣) السير: (٩/٢٢٦).

وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع عن المحظورات ويسمَّى الكف الحاصل عن المحظورات ورعًا، فإن زادت قوته كفَّ عما يتطرق إليه إمكان التحريم فكفَّ أيضًا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى، إذ التقوى أن يترك ما يريبه، إلى مالا يريبه، وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس. وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله ـ تعالى ـ نفسًا من أنفاسه فهو الصدق، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقًا ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة، فإذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكفِّ والإقدام ويتجدد له بسبب الكفِّ اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعًا، ووراء اسم الصديق والمقرب[(١)].

عن **يحيى بن الفضل** قال: سمعت بعض من يذكر عن محمد بن المنكدر أنه بينما هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى فكثر بكاؤه ففزع له أهله، فسألوه ما الذي أبكاك؟ فاستعجم عليهم، فتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم وأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، فقال: يا أخي ما الذي أبكاك قد رُعت أهلك؟! فقال له: إني مرَّت بي آية من كتاب الله ـ عز وجل ـ، قال: ما هي؟ فقال: قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٦٤).

ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر: ٤٧] قال: فبكى أبو حازم واشتد بكاؤهما، قال: فقال بعض أهله لأبي حازم جئنا بك لتفرِّج عنه فزدته.

قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما[(١)].

وما شاب رأسي عن سنين تتابعت
عليَّ ولكن شيَّبَتْنِي الوقَائِعُ[(٢)]

وعندما سُئل حسان بن أبي سنان في مرضه: كيف تجدك؟! قال: بخير إن نجوت من النار[(٣)].

وهذه نصائحُ غالية ودررٌ صافية من مُطرف بن عبدالله إذ يقول: اجتهدوا في العمل فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات، وإن يكن الأمر شديدًا كما نخاف ونحذر لم نَقُلْ ربنا أرجعنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل، نقول: قد عملنا فلم ينفعنا ذلك[(٤)].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال يوسف بن أسباط: رأيت الحسن ثلاثين سنة لم يضحك وأربعين سنة لم يخرج، قال: وقال الحسن: لقد أدركت أقوامًا ما أنا عندهم إلا لص[(٥)].

ولما احتضر عمرو بن قيس بكى، فقال له أصحابه: على ما تبكي في الدنيا فوالله لقد كنت تبغض العيش أيَّام حياتك؟! فقال: والله ما أبكي على

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ١٤١)، السيرة: (٥/ ٣٥٥).
(٢) شذرات الذهب: (١١٨).
(٣) الزهر الفائح: (١٠١).
(٤) جامع العلوم والحكم: (٢٨٣).
(٥) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٤).

الدنيا إنما أبكي خوفًا أن أحرم خوف الآخرة[١].

قـــد كُنـــتَ ميتـــاً فصرتَ حيـــا
وعـــن قليـــلِ تَصِيْـــرُ حيَّـــاً
بنيـــت بـــدار الفنـــاءِ بيْتـــا
فـــابْـــنِ لـــدار البقـــاءِ بيتـــا[٢]

وهذه القلوب العامرة بالطاعة والعيون المنهمرة بالعبرات ملأ الخوف والرجاء جوانحها وأثار مكامنها.. تهبُّ إلى جنات عدن.. ترجو رحمة الله وتخشى عذابه.

قال أبو سليمان **الدَّاراني** ـ رحمه الله ـ: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب[٣].

فانظر ـ أخي الحبيب ـ إلى قلبك واصدق القول مع نفسك.. ما منزلة الخوف من الله في نفسك؟!

أخي:

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيرُه وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلِّصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هٰذين الحبسين وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٢٥).
(٢) ديوان الإمام علي: (٥٢).
(٣) الإحياء: (٤/ ١٧٠).

الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا، إما متخلِّص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس[(١)].

وهذا الحبس أدمىٰ الأفئدة، وأبكى العيون، وجرح القلوب..

بكى **عبدالله بن رواحة** فبكت امرأته فقال: ما يبكيكِ؟ قالت: رأيتك بكيت فبكيت لبكائك، قال: إني أنبئت أني وارد، ولم أنبَّأ أني صادر[(٢)].

قال **التيمي**: شيئان قطعا عني لذة الدنيا، ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله ـ تعالى ـ[(٣)].

وقيل: إن **أبا عبيدة الخواص** لم يضحك منذ أربعين سنة، ولا رفع رأسه إلى السماء حياء من الله.

إذا المـــرء لم يكفـــفْ بـــوادرَ غيظـــه
شكـــا الـــدهـــر أو ألقـــى المقـــادة صـــاغـــرا
وإنْ هـــو لم يـــزجـــرْ عـــن الغـــي نفســـه
أصـــاب لهـــا مـــن حـــادث الـــدهـــر زاجـــرا

قال **حفص بن غياث**: كنا ذات يوم عند ابن ذر وهو يتكلم فذكر رواجف القيامة وزلزالها، فوثب رجل من بني عجل، يقال له: ورّاد، فجعل يبكي ويصرخ ويضطرب، فحُمل من بين القوم صريعًا، فقال ابن ذر: ما الذي قصَّر بنا وكلم قلبه حتى أبكاه؟! والله إن هذا يا أخا بني عجل إلا من صفاء قلبك وتراكم الذنوب على قلوبنا[(٤)].

---

(١) الفوائد: (٧٠)

(٢) الزهر الفائح: (٢٩٤).

(٣) التذكرة للقرطبي: (١٠).

(٤) صفة الصفوة: (٣/ ١٦١).

إن الأماني الكاذبة والآحلام الباطلة والتسويف الطويل سببٌ من أسباب الغفلة وران على القلوب الضعيفة.. فها نحن كل يوم نسمع عن الموت وتطرق مسامعنا المواعظ والخطب.. والقلوب كما هي.. غفلة طويلة وسبات عميق فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قال **مالك بن دينار** لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانًا لفرقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها: أيها الناس النار النار[(١)].

وهذا الخوف والوجل متى ينتهي.. ومتى يزول؟!

قال **معاذ بن جبل** ـ رضي الله عنه ـ: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

أخي المسلم:

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرَّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقرَّبوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرَّف أنت إلى الله وتودَّدْ إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة[(٢)].

قال **سهل بن عبدالله**: من دقَّ الصراط عليه في الدنيا عرض عليه[(٣)] في الآخرة ومن عرض عليه الصراط في الدنيا دق عليه في الآخرة[(٤)].

والمسلم في هذه الدنيا بين أمرين يملآن جوانحه ويضيفان عليهما من

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٣٦٩).

(٢) الفوائد: (١٥٢).

(٣) عرض: أي وسع.

(٤) صفة الصفوة: (٤/ ٦٤).

نبعه ألا وهما الخوف والرجاء.. الخوف من الله والرجاء فيما عند الله..

قال الحسن: الرجاء والخوف مَطِيَّتا المؤمن.

فإذن لابد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع أنياط قلبه ويعين على تعجيل موته.

وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبًّا لله ـ تعالى ـ ليكون محبًّا للقاء الله ـ تعالى ـ، فإن من أحب لقاء الله ـ تعالى ـ أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب[(١)]

وقال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: إن الخوف إن أدى إلى القنوط واليأس من رحمة الله فهو مذموم، بل إساءة أدب على رحمة الله ـ تعالى ـ، التي سبقت غضبه، وجَهْلٌ بها[(٢)].

وكان **أبو عبيدة الخواص** ـ رضي الله عنه ـ يقول في مناجاته: قد كبر سني، وضعف جسمي، ووهن العظم مني فاعتقني[(٣)].

وقد أثنى الله ـ جلَّ وعلا ـ على من قرن الخوف بالرجاء في مواضع كثيرة من كتابه فقال ـ تعالى ـ في حق الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٤).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٤٢).

(٣) الزهرة الفائح: (١١١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الخشية أبدًا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، فأهل الخوف لله والرجاء له هُمْ أهل العلم الذين مدحهم الله.

أيـــا عجبًـــا للنـــاسِ في طـــولِ مـــا سهَـــوا
وفي طـــول مـــا اغتروا وفي طـــول مـــا لهـــو
يقـــولـــون نـــرجـــو الله ثـــمَّ افتروا بـــه
ولـــو أنهـــم يـــرجـــون خـــافـــوا كمـــا رجـــوا

قال أبو سليمان الداراني: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ـ عز وجل ـ، وكل قلب ليس فيه خوف فهو قلب خَرب[1].

يـــا فـــرقـــة الأحبـــاب لابـــدَّ لي منـــكِ
ويـــا دار دنيـــا إننـــي راحـــلٌ عنـــكِ
ويـــا قصر الأيـــام مـــا لي وللمُنـــى
ويـــا سكـــرات المـــوتِ مـــالي وللضحـــك
فمـــــا لي لا أبكـــــي لنفسي بعبرة
إذا كنـــت لا أبكـــي لنفسي فمـــن يبكـــي
ألا أي حـــي ليـــس بـــالمـــوت مـــوقنًـــا
وأي يقين أشبـــه اليـــوم بـــالشـــك

اشتكى ثابت البناني عينه فقال له الطبيب: اضمن لي خصلة تبرأ عينك. قال: ما هي؟ قال: لا تبك. قال: وما خير في عين لا تبكي[2].

---

(١) الإحياء: (٤/١٥٩).
(٢) صفة الصفوة: (٣/٢٦٢).

وكان الحسن يقول: ما اغْرورقتْ عين بمائها من خشية الله إلا حرَّم الله جسدها على النار، فإن فاضتْ على خدها لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة، وليس من عمل إلا له وزن وثواب إلا الدمعة من خشية الله فإنها تطفيء ما شاء الله من حرٍّ النار ولو أن رجلاً بكى من خشية الله فإنها تطفيء ما شاء الله من حرٍّ النار ولو أن رجلاً بكى من خشية الله في أمة لرجوت أن يرحم الله ببكائه تلك الأمة بأسرها[١].

رحمنا الله برحمته وأزال قساوة قلوبنا أين تلك الدموع وأنات الضلوع؟ بل أين التوبة والرجوع؟.

ونحن أحوج ما نكون لتنزل الرحمات وتكفير السيئات وعلو المقامات هذا عمر بن الخطاب الخليفة الثاني المبشر بالجنة ـ رضي الله عنه ـ. كان في وجهه خطان أسودان من البكاء[٢].

والدموع ـ أخي المسلم ـ عنها سؤال ولها موقف؟!

قال سفيان: البكاء عشرة أجزاء: جزء لله، وتسعة لغير الله. فإذا جاء الذي لله في العام مرة فهو كثير!!

والدموع الصادقة والعبرات المتتالية علامة على صدق التوبة وحسن الالتجاء إلى الله ـ جل وعلا ـ. وأكثر الموفَّقين إلى العبادة هم أهل الرقة والخوف.. رقيقة قلوبهم، لطيفة مشاربهم.. الكلمة الصادقة تؤثر فيهم والآية من القرآن تبكي مدامعهم.. فتراهم يقبلون على الطاعة بحب وشوق ويستثمرون أوقات العبادات وتنزل الرحمات.. مشغولون عن

---

(١) الزهد للحسن البصري: (٩٩).

(٢) الزهد للبيهقي: (٦٧٨).

الدنيا، سائرون إلى الآخرة في جادة طُرقتْ من قبلهم بهدي سيد المرسلين ﷺ، وصحابته الكرام البررة.

قال **الحسن**: اعلم أنك لن تحبَّ الله حتى تحبَّ طاعته(١).

وكان **محمد بن المسيب** يقرأ فإذا قال: قال رسول الله ﷺ بكى حتى يُرحم(٢).

وقرأ **عمر بن الخطاب** - رضي الله عنه - سورة الطور حتى قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝﴾ [الطور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه(٣).

وأهل الخير والصلاح يبكون يخافون من انقطاع الدنيا، وهي دار التزود ومحطة التوقف ومزرعة الآخرة.

فقد بكى بعض العباد فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أن يصوم الصائمون ولست فيهم ويذكر الذاكرون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولستُ فيهم(٤).

ونحن نسير مع الصالحين ونلمح تلك القسمات المضيئة والحياة المشرقة.. أين نصيب الخوف والمحبة من حياتنا.. وأين واقعها في مسيرتنا!!

قال **أبو يعقوب النهراجوري**: كل من ادعى محبة الله - عز وجل - ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة(٥).

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٩٢).
(٢) تذكرة الحفاظ؟ (٣/ ٧٩٠).
(٣) الجواب الكافي: (٧٧).
(٤) التبصرة: (١/ ٢١٧).
(٥) جامع العلوم والحكم: (٩٢).

وأين نحن من هذه الدعوى إنها عودة من قريب، ونحن في دار العمل، دعوة إلى التوبة والعودة إلى البكاء والندم على ما سلف وكان.. واغتنام لأيام بقيت.

قال **يحيى بن معاذ**: من عبد الله ـ تعالى ـ بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار. ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادّكار[١].

وأثر الدمعة على قلب المسلم عجيب، ولهيبها على وجنتي التائب غريب، تطفيء لهب المعصية وتزيل أثر المهلكة.. فهي كالغيث للأرض.. تحيي الغافل، وتنير الطريق، إنها دموع التوبة..

قال **كعب الأحبار**: لأن أبكي من خشية الله فتسيل دموعي على وجنتي أحبُّ إلي من أن أتصدق بوزني ذهبًا[٢].

والبكاء والدموع أحيانًا تكون في لحظات صفاء ودقائق توجه إلى الله، ثم يزول كل ذلك، ويزول أثر الدمعة بعد ساعات أو ربما أقل.

ولهذا قال بعضهم: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه[٣].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان سعيد بن المسيب يبكي بالليل حتى عمش[٤].

وكان حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يبكي بكاءً شديدًا! فقيل له: ما بكاؤك؟

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٤).
(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٣٦٦).
(٣) منهاج القاصدين: (٣٣١).
(٤) تذكرة الحفاظ: (١/ ٧٦).

فقال: لا أدري على ما أقدم؟ على رضا أم على سخط؟[١].

وقال **أبو رجاء العطاردي**: رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وهذا **أبو بكر بن عياش** يقول: كنت إذا رأيت عطاء بن السائب وضرار بن مُرَّة رأيت البكاء على خدودهما[٢].

قال **حفص بن عمر**: بكى الحسن فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي[٣].

وقال **أبو حيان التيمي**: سمعت منذ ثلاثين سنة أو أكثر أن عبد الله بن مسعود مرَّ على الذين ينفخون على الكير فسقط.

وقال **سعد بن الأَخْرَم** كنت أمشي مع ابن مسعود فمرَّ بالحدادين وقد أخرجوا حديدًا من النار فقام ينظر إليه ويبكي.

وعن **سمير الرياحي** عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر ماءً مبردًا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [السبأ: ٥٤] فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئًا، شهوتهم الماء، وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].

والبكاء والحزن مرده إلى أمرٍ ذكره **الحسن** بقوله: يحق لمن يعلم أن الموت مورده وأن الساعة موعده وأن القيام بين يدي الله مشهده أن يطول حزنه[٤].

---

(١) الزهر الفائح: (٢١).

(٢) السير: (٦/١١٦).

(٣) صفة الصفوة: (٣/٢٤٦).

(٤) حلية الأولياء: (٢/١٣٣).

فيبكـــــي على ميـــــتٍ ويغفـــــل نفســـــه
كـــأنَّ بكفَّيـــه أمـــانـــاً مـــن الـــرَّدى
ومـــا الـميِّـــتُ المقبـــور في صـــدر يـــومـــه
أحـــق بـــأن يبكيـــه مـــن ميِّـــتٍ غـــداً[1]

قال الحسن بن عرفة: رأيت يزيد بن هارون بواسط، من أحسن الناس عينين، ثم رأيته بعين واحدة، ثم رأيته أعمى، فقلت: يا أبا خالد! ما فعلت العينان الجميلتان؟ قال: ذهب بهما بكاء الأسحار![2].

الله أكبر ما أجمل الفعل، وما أجمل القول.. ذهب بهما بكاء الأسحار أين نحن من وقت السحر؟!.. وقتٌ تتنزل فيه الرحمات وتوزع فيه العطيات. إنها غفلة طويلة وأمل بعيد.

كان مالك بن دينار ـ رضي الله عنه ـ يبكي حتى سوَّدت الدموع خدَّه. وكان يقول: لو ملكت البكاء لبكيت أيام حياتي[3].

أما السري السقطي فإنه يدافع البكاء في أول الليل، فإذا نام الناس أخذ في البكاء إلى الصباح[4].

ومن الناس اليوم. بل غالبهم لا يبكي من خشية الله إلا مرة في العام أو مرة في عمره كله..

أما النساء اليوم فتوسعن في البكاء من كل شيء وفي كل شيء، إلا من خشية الله.. فتراها تبكي لتأخر ثيابها.. وتراها تبكي لنقصٍ في ملبسها..

---

(١) محاسبة النفس: (٨٣).
(٢) تذكرة الحفاظ: (٣/ ٧٩٠).
(٣) الزهر الفائح: (٢١).
(٤) الزهر الفائح: (١٨).

تبكي من كل شيء إلا من خشية الله. . وهي رقيقة القلب. قريبة إلى التوبة. . صاحبة الخير ومنادية الفلاح. فأين هي من خشية الله والبكاء على الذنوب والتقصير في الطاعات؟

أيهما أشد لتبكي عليه سقط من حطام الدنيا أم الآخرة وأهوالها؟

قال **مالك بن دينار**: البكاء على الخطيئة يحطُّ الخطايا كما يحط الريح الورق اليابس[(١)].

لنفسي أبكـــــي لســـــتُ أبكـــــي لغيرهـــــا
لنفسي في نفسي عـــــن النـــــاس شـــــاغـــــل[(٢)]

أخي المسلم:

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله ـ سبحانه ـ حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأفكارها، ووكله إلى نفسه فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾[(٣)] [الزخرف: ٣٦].

كان **محمد بن المنكدر** ـ رحمه الله ـ إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه

---

(١) الزهر الفائح: (١٨).
(٢) محاسبة النفس: (٧٩).
(٣) الفوائد: (١١٠).

ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعًا مسته الدموع[١].

ورُوي عن بعض الصالحين وقد بكى عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لفراق هذه الدار حرصًا على غرس الأشجار وإجراء الأنهار، لكن على ما يفوتني من الادِّخار ليوم الافتقار، والاكتساب ليوم الحساب[٢].

جسمي على مبرد ليس يقوىٰ
ولا على النار والحرارةِ
وكيف يقوى على سعيرٍ
وقُودُها الناسُ والحجَارة[٣]

أخي المسلم:

اعلم أن الخوف محمودٌ، وربما يُظَنُّ أن كل ما هو خوف محمود. فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد؟؟ وهو غلط، بل الخوف سوط الله يسوق عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله ـ تعالى ـ والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي، ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمودة. وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال والوسط[٤].

والخوف مع مراقبة الله يثمر الاستمرار على الجادة والسير الحثيث إلى جنة عرضها السموات والأرض؟ بعد رحمة الله وسعة فضله.

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٢).
(٢) العاقبة: (٣٠).
(٣) الزهر الفائح: (١٠٧).
(٤) الإحياء: (٤/ ١٦٥).

قيل لأم الدرادء: ما كان أكثر عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكر[١].

ومن تفكَّر في المال والمصير فقد أبصر الطريق وعرف الجادة؟!

نرجو البقاء بدارٍ لا ثبات بها
فهل سمعتَ بظلٍ غير منتقلِ

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان أبو سنان يقول: الآن كبر السن، ووهن العظم، ووقع التحفظ.. فلا يزال يبكي حتى يُغشى عليه[٢].

وبكى يزيد الرقاشي حتى أظلمت عيناه، وأحرقت الدموع مجاريها[٣].

وقال أبو النضر إسحاق بن إبراهيم: كنت أسمع وقع دموع سعيد بن عبد العزيز على الحصير في الصلاة[٤].

وهذا إسماعيل بن زكريا يروي حال حبيب بن محمد وكان جارًا له يقول: كنت إذا أمسيت سمعت بكاءه. وإذا أصبحت سمعت بكاءه، فأتيت أهله. فقلت: ما شأنه؟! يبكي إذا أمسى. ويبكي إذا أصبح؟! قال: فقالت لي: يخاف والله إذا أمسىٰ أن لا يصبح. وإذا أصبح أن لا يمسي.

وانتبه الحسن ليلة فبكى، فضج أهل الدار بالبكاء، فسألوه عن حاله فقال: ذكرت ذنبًا لي فبكيت[٥].

---

(١) حلية الأولياء: (١/٢٠٨).
(٢) الزهر الفائح: (١١١).
(٣) الزهر الفائح: (٢١).
(٤) السير: (٨/٣٤).
(٥) التبصرة: (٢٨٧).

وذُكر عن **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله ـ أنه كان يصلي ذات ليلة فقرأ: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧١، ٧٢] فجعل يرددها ويبكي، حتى أصبح[١].

عن **تميم الداري** ـ رضي الله عنه ـ أنه قرأ هذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١] فجعل يرددها ويبكي.

أخي المسلم:

ألا فأبشر بالخير وأنت تقصد باب الكريم الجواد، رب غفور رحيم..

اسمع قول **ابن عرف**: لو أن رجلاً انقطع إلى هؤلاء الملوك في الدنيا لانتفع، فكيف من ينقطع إلى من له السمٰوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى!!

هذا هو ملك الملوك رب الدنيا والآخرة، بيده مفاتيح الخير. نغفل عن دعائه ورجاء ما عنده، وننصرف إلى زخارف الدنيا؟

قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر **ليزيد بن مرثد**: ما لي أرى عينيك لا تجف؟؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى أن ينفعني به في الدنيا. قال: لو لم يتواعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريًّا أن لا تجف لي عين[٢].

ما بالك أخي بمن يتوعده الملك الجبار بسجن في نار جهنم؟! أليس حري أن يطول حزنه ويزيد بكاؤه ويعلن توبته.

كان **الضحاك بن مزاحم** إذا أمسى بكى. فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي[٣].

---

(١) تنبيه الغافلين: (٢/ ٦٢٠).
(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٢٠٥).
(٣) صفة الصفوة: (٤/ ١٥٠).

يـــا ليتنـــــي والأمـــــاني غيرُ طـــــائلـــــة
إلا تعلـــــل مشغـــــوفٍ بهـــــا شُغـــــلا
علمـــــت أي بـــــلاد الله مُضطجعـــــي
إذا تبـــــايـــــن عنـــــي الـــــرُّوح وانفصـــــلا
لعلنـــــي أن أشُـــــوب أدمُعـــــي بـــــدمـــــي
فيـــــه وأشرح مـــــن حـــــزني بـــــه جمـــــلا
وأنْ أســـــوِّي مـــــن تـــــربـــــائـــــه بيـــــدي
حتـــــى يكـــــون وثيرُ المـــــس معتـــــدلا
هيهـــــات هيهـــــات مـــــا للقبر تســـــويـــــة
إلا اليقين وإلاَّ القـــــول والعمـــــلا

أخي المسلم:

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار، أما الاعتبار، فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله ـ تعالى ـ في الآخرة، إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه، فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة، إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف. فالخوف هو النار المحرقة للشهوات. فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات بقدر

ما يكف عن المعاصي، ويحثُّ على الطاعات. ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق. . وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة. وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى.

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر. وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله ـ تعالى ـ للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان[١].

حين عوتب يزيد الرقاشي على كثرة بكائه. وقيل له: لو كانت النار خلقت لك ما زدت على هذا؟! فقال: وهل خلقت النار إلا لي ولأصحابي ولإخواننا من الجن والإنس[٢].

أما الربيع بن خثيم فقد كان لا ينام، ويخاف البيات. وكان يبكي ليلاً ونهاراً، لا يفتر عن البكاء[٣].

وصور الخوف تترى أمام أعيننا، ولحظات الصفاء تطرق قلوبنا، هذه رسالة حفظت لنا. . وجهها محمد بن سمرة إلى يوسف بن أسباط قال فيها: أي أخي إياك وتأثير التسويف على نفسك، وإمكانه من قلبك. فإنه محل الكلال وموئل التلف، وبه تقطع الآمال، وفيه تنقطع الآجال. فإنك إن فعلت ذلك أدلته من عزمك فاجتمع وهواك عليك، فغلبا واسترجعا من بدنك بنافعة، وبادر يا أخي فإنك مبادر، وأسرع فإنك مسروع بك، وجدَّ فإن الأمر جدٌّ، وتيقظ من رقدتك. وانتبه من غفلتك. وتذكر ما أسلفت،

---

(١) الإحياء: (٤/١٦٨).
(٢) التخويف من النار: (٢٥).
(٣) الزهر الفائح: (١٨).

وقصرت، وأفرطت، وجنيت، وعملت، فإنه مثبتٌ محصى، كأنك بالأمر قد بغتك فاغتبطك بما قدمت، وندمت على ما فرطت، فعليك بالبكاء والمراقبة والاعتزال، وقلة الملاقاة. فإن السلامة في ذلك موجودة. وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور. ولا قوة بنا إلا بالله. وصلى الله على سيدنا محمد[1].

قال غزوان: لله ـ تبارك وتعالى ـ عليَّ ألا يراني الله ضاحكًا حتى أعلم أي الدارين داري. قال الحسن: فعزم ففعل فما رؤي ضاحكًا حتى لحق بالله ـ عز وجل ـ[2].

* فإن الخوف من الله صفة من صفات الكمال في حق الله، وكذلك الحب في الله صفة كمال فسبحان من تتعدد وتضاد له الصفات ولكن كلها صفات كمال، وهذا بعكس الإنسان، فإن الخوف فيه من غير الله صفة نقص، وخور، وضعف.

والإنسان إذا خاف من شيء خشي لقائه، بل وكره ذلك اللقاء، ولكن بالضد تمامًا وهو أننا نجد أن الإنسان إذا خاف من الخالق ـ جلت قدرته ـ عاد إلى طاعته ولجأ إليه واحتمى به. وهنا نرى الروعة الإلهية، والقدرة الربانية، ويبدو ذلك واضحًا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم، فروا منه إليه، واعملوا بطاعته.

إن الخوف من الله يدخل فيه الخوف من النار، والبكاء من خشية الجبار،

---

(١) صفة الصفوة: (٤/٢٣٨).

(٢) الزهد للإمام أحمد: (٣٠٠).

والندم على التقصير في حق القهار. وهذا الخوف ـ من الله ـ من الخوف المحمود، لأنه يؤدي إلى الوصول إلى المحبوب، والفوز بالمرغوب، والنجاة من المرهوب.

وأهل الخير والصلاح والتقى فعلهم عجيب، وأمرهم مجاهدة.. استثمار للأوقات وتعرض للنفحات بإخلاص وصدق وبعد عن الرياء والتصنع.

قال **محمد بن واسع**: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم.

وحين سُئل **عطاء السليمي**: ما هذا الحزن؟ قال: ويحك؟ الموت في عنقي. والقبر بيتي. وفي القيامة موقفي. وعلى جسر جهنم طريقي. لا أدري ما يصنع بي؟[1].

أخي المسلم:

واقع الناس اليوم وتوسعهم في أمر الحديث والضحك والدعابة والهزال والمزاح مدعاة إلى التفكر والسؤال.. سؤال يطرق الآذان: ما الذي دعاهم إلى كل هذا الفرح والسرور؟

قال الحسن: ضحك المؤمن إنما هو غفلة منه[2].

وقد كان الحسن يطبق هذا القول في واقع حياته فقد قال عنه يونس: لا تكاد تلقاه إلا وكأنه رجل قد أصيب بمصيبة[3].

هذه هي حالهم، وتلك دنياهم.. رحلوا ورحلت معهم أعمالهم.. ونحن نسير على الجادة.. راحلون لا محالة قرب الأجل أو بعد!!

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٢٧).
(٢) الزهد للإمام أحمد: (٣٩٣).
(٣) الزهر الفائح: (٦٦).

قال سلام بن أبي مطيع: دخلنا على مالك بن دينار ليلاً وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يكدمه[١] فقلنا له: أبا يحيى! ألا سراج؟! ألا شيء تضع عليه خبزك؟! فقال: دعوني فوالله إني لنادم على ما مضى. وما ذاك إلا لعلمهم بأن الأمر جد والحساب قادم ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

هذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو الصائم القائم، رآه ولده في المنام بعد موته فقال: يا بني منذ كم فارقتكم؟ قال: يا أبت منذ عشرين سنة، فقال: الآن لما خرجت من الحساب، كأن عرشي يهوي لولا أني لقيت ربًا كريمًا[٢].

أخي المسلم:

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن أيهما أفضل؟

وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟

وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع. والماء أفضل للعطشان. فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوي بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود. فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله ـ تعالى ـ والاغترار به

---

(١) كدم الرغيف: عضه بمقدم فمه.
(٢) الزهر الفائح: (٧٠).

فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله، فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل. ويجوز أن يقال مطلقًا: الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه: الخبز أفضل من السكنجبين، إذ يعالج بالخبز مرضى الجوع، وبالسكنجبين مرضى الصفراء، ومرضى الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل، لأنه مستسقى من بحر الرحمة ومستسقى الخوف من بحر الغضب. ومن لاحظ من صفات الله ـ تعالى ـ ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام، وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله. وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص[٢].

وقال الشيخ ابن سعدي: علامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه والنصح به[٣].

* قال ابن القيم في فضيلة منزلة الخوف: هي من أجلِّ منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد.

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٣).
(٢) الإيمان: (١٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن: (٢/ ١٨٥).

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل: ٥١].

ومدح أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ـ عز وجل ـ فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط[١].

أيها الحبيب:

نحن رفقاء طريق وأحبة سطور.. بعد مسيرة مع الخوف تقطع أنياط القلب وتبعث الهمم وتجدد التوبة.. هذا الرجاء يطلُّ وهذا باب من أبواب الرحمة يدفع للتوبة ويقود للعودة.. يستحث الخطى بعظيم رحمة الله وكرمه ومنِّه..

لما اشتد بسفيان الثوري المرض جزع جزعًا شديدًا. فدخل عليه مرحوم بن عبدالعزيز فقال: ما هذا الجزع يا أبا عبدالله؟ تَقْدُمُ على ربٍّ عبدته ستين سنة، صمت له، صليت له، وحججت له، فسري عن الثوري![٢].

وهاهو الثوري يقول ـ وهو يعلم سعة رحمة الله جل وعلا ـ: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي، لأني أعلم أن الله ـ تعالى ـ أرحم بي منهما.

وكان أبو عبيدة الخواص يبكي ويقول: قد كبرتُ فأعتقني من النار[٣]

---

(١) مدارج السالكين: (١/٥٤٨).

(٢) البداية والنهاية: (٨/٤٧).

(٣) الزهر الفائح: (٢١).

وذلك لعلمه كرم الله ـ عز وجل ـ ورحمته بعباده.

أخي المسلم:

إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤد، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفًا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء، ولا يصد عنه نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف[١].

قال **سفيان الثوري** ـ رضي الله عنه ـ: مات أخ لي، فرأيته في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: رضي عني وأدخلني الجنة، وقال: إفرح كما كنت تحزن.

* وآمال الناس اليوم طويلة.. وأحلامهم بعيدة، لا ينتظرون آجالاً ولا يتذكرون مآلاً..

تؤمّل في الدنيا طويلاً ولا تدري
إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجرِ
فكم مِنْ صحيحٍ ماتَ مِنْ غيرِ علَّةٍ
وكم من عليلٍ عاشَ دهرًا إلى دهرِ
وكم مِنْ فتىً يُمْسي ويصبح آمنًا
وقد نُسِجَتْ أكفانه وهو لا يدري[٢]

---

(١) الإحياء: (١٤٩/٤).

(٢) ديوان الإمام علي: (٩٦).

قال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء[١].

وطول الأمل داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكّن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من بُرْئِه الحكماء والعلماء. وما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل[٢].

وبطول الأمل تقسو القلوب وبإخلاص النية تقلُّ الذنوب[٣].

وطول الأمل الذي داهمنا والتسويف الذي لازمنا جعلنا لا نرى نهاية لهذا الإنسان ولا نستشعر قرب الرحيل من هذا المكان.

قال بعض السلف: ما نمت نومًا قطُّ فحدثت نفسي أني أستيقظ منه[٤].

يـــــا أيهـــــا النَّـــــاسُ كـــــان لي أمـــــلٌ
قصَّر بي بُلـــــوغـــــه الأجـــــلُ
فليتـــــق الله ربَّـــــهُ رَجُـــــلٌ
أمكنـــــه في حيـــــاتـــــه العَمَـــــلُ
مـــــا أنـــــا وحـــــدي بفنـــــاء بيـــــتٍ
يـــــرى كـــــلٌّ إلى مثلـــــه سينتقـــــلُ[٥]

قال الحسن: اجتمع ثلاثة من العلماء فقالوا لأحدهم: ما أَمَلُك؟ قال: ما أتى عليَّ شهر إلا ظننت أني سأموت فيه، قال: فقال صاحباه: إن هذا

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ١١).
(٢) أدب الدنيا والدين: (١٠٨).
(٣) العاقبة: (٦٨).
(٤) جامع العلوم والحكم: (٤٦٥).
(٥) البداية والنهاية: (١٣/ ٤٠).

هو الأمل، فقال للآخر: فما أملك؟ قال: ما أتت عليَّ جمعة إلا ظننت أني سأموت فيها، قال: فقال صاحباه: إن هذا هو الأمل، فقال للآخر: فما أملك؟ ما أمل من نفسه في يد غيره؟

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال بكر المزني: إن استطاع أحدكم أن لا يبيت إلا وعهده عند رأسه مكتوب فليفعل. فإنه لا يدري لعله أن يبيت في أهل الدنيا، ويصبح في أهل الآخرة[١].

وقال **محمد بن أبي توبة**: أقام معروف الكرخي الصلاة، ثم قال لي تقدم، فقلت: إن صليت لكم هذه الصلاة لم أصل لكم غيرها.

فقال لي: أراك تحدث نفسك أنك تعيش حتى تصلي صلاة أخرى أعوذ بالله من طول الأمل. فإنه يمنع من خير العمل[٢].

وقيل **لمحمد بن واسع**: كيف أصبحتَ؟ قال: قريبًا أجلي، بعيدًا أملي، سيئًا عملي[٣].

هوِّن عليك فما الدنيا بدائمة
وإنما أنت مثل الناس مغرور
ولو تصوَّر أهلُ الدهر صورتَهُ
لم يُمْسِ منهم لبيب وهو مسرور[٤]

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٤٦٥).
(٢) حلية الأولياء: (٨/ ٣٦١)، العاقبة: (٩٠).
(٣) السير: (٦/ ١٢١).
(٤) إرشاد العباد: (٧١).

قال **داود الطائي**: سألت عطوان بن عمرو التميمي قلت: ما قصر الأمل؟ قال: ما بين تردد النفس.

قال رستم: فحدثت به **الفضيل بن عياض** فبكى. وقال: يقول: يتنفس فيخاف أن يموت قبل أن ينقطع نفسه، لقد كان عطوان من الموت على حذر[(١)].

وقال **داود الطائي**: لو أمَّلت أنْ أعيش شهرًا لرأيتني قد أتيت عظيمًا، وكيف أؤمِّل. ذلك وأرى الفجائع تفني الخلائق في ساعات الليل والنهار[(٢)].

قصر الآمال في الدنيا تفز
فدليل العقل تقصير الأمل

يا طويل الأمل في قصير الأجل، أما رأيت مستلبًا وما كمل؟! أتؤخر الإنابة وتعجل الزلل؟

يا مَن يعدُّ غدًا لتوبته
أعَلَى يقين من بلوغِ غدِ
المرءُ في زَلَلٍ على أملٍ
ومنيَّة الإنسان بالرَّصدِ
أيام عمرك كلُّها عددٌ
ولعلَّ يومك آخرُ العدَدِ

يا أخي:

التوبة التوبة قبل أن تصل إليك النوبة، الإنابة الإنابة قبل أن يغلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة فيا قرب وقت الفاقة، إنما الدنيا سوق للتجر

---

(١) صفة الصفوة: (٣/١٢٧).

(٢) الإحياء: (٤/٤٨٣).

ومجلس وعظ للزجر، وليل صيف قريب الفجر، المكنة مزنة صيف، الفرصة زورة طيف، الصحة رقدة ضيف، الغرة نقدة زيف، الدنيا معشوقة وكيف.. البدار البدار فالوقت سيف[(١)].

ولقصر عمر الدنيا ومخافة الفوت قال **عبد الله العصري**: المؤمن لا تلقاه إلا في ثلاث خلال، مسجد يعمره، أو بيت يستره أو حاجة من أمر دنياه لا بأس بها[(٢)].

يا من بدنياه اشتغل
وغرَّه طول الأمل
الموتُ يأتي بغتةً
والقبرُ صندوقُ العمل[(٣)]

وما ضر المسلم مثل الأمل. وما أضاع أوقاته إلا التسويف..

قال **سعيد بن سعيد**: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت[(٤)].

وقال **عيسى** ـ عليه السلام ـ: عجبت لثلاثة: غافل غير مغفول عنه، ومؤمل الدنيا والموت يطلبه، وباني قصرًا والقبر مسكنه.

أخي الحبيب:

أَحْسَنْتَ ظَنَّك بالأيام إذْ حسُنَتْ
ولَمْ تخَفْ سوء ما يأتي به القدر

---

(١) المدهش: (٢٣٢).
(٢) الزهد للإمام أحمد: (٣٣٨).
(٣) ديوان الإمام علي: (١٥٨).
(٤) الزهر الفائح: (٩٥).

وسالمتْك الليالي فاغتررْت بها
وعندَ صفو الليالي يحدُثُ الكدرُ

كان فضالة بن صيفي كثير البكاء، فدخل عليه رجل وهو يبكي فقال لزوجته ما شأنه؟ قالت: زعم أنه يريد سفرًا بعيدًا وماله زاد.

ونحن مثله أصحاب سفر طويل ورحلة شاقة.. ولكن أين الزاد؟؟ الزاد أخي هو قصر الأمل والتزود لدار المعاد.. إنها رحلة بدأت وستنتهي.. نسير في دنيا كأضغاث أحلام أو كظل زائل.. زمن يسير.. ثم نتوقف في موقف عظيم.. يوم يبعثر منْ في القبور ويحصل ما في الصدور.

قال إبراهيم بن خميس: يضحك القضاء من الحذر. ويضحك الأجل من الأمل، ويضحك التقدير من التدبير، وتضحك القسمة من الجهد والعناء.

قصِّر الآمال في الدنيا تفُزْ
فدليلُ العقلِ تقصيرُ الأمل
إنَّ مَنْ يطلبه الموتُ على
غِرَّةٍ منه جديرٌ بالوجل[1]

فلا تطمئن يا أخي حتى تعلم أين مسكنك ومصيرك ومستقرك ومنزلك؟ فانظر لنفسك، واقض ما فاتك، واقض ما أنت قاض من أمرك، وكأني بالأمر يأتيك على بغتة، وإني لا أقول ولاأعلم أحدًا أشد تضييعًا مني لذلك فكأنك بالقيامة وقد قامت وبالنفس الأمارة وقد لامت، وانفجعت

(١) موارد الظمآن: (٢/ ٢٦).

عين طالما نامت ونحرت قلوب العصاة وقد هامت[١].

غـــدًا تُـــوفَّى النفـــوسُ مـــا كسبـــتْ
ويحصُـــدُ الـــزارعـــون مـــا زرعـــوا
إن أحسنـــوا أحسنـــوا لأنفسهـــم
وإن أســـاءوا فبئـــس مـــا صنعـــوا

وحالنا العجيبة في اللهث وراء حطام الدنيا تعجب منها بعض الحكماء بقوله: عجبت ممن يحزن على نقصان ماله، ولا يحزن على نقصان عمره، وعجبت ممنْ الدنيا مدبرة عنه، والآخرة مقبلة عليه، كيف يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة[٢].

وقال في هذا الأمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قولة بليغة وموعظة سديدة. قال: عباد الله لا تغتروا بطول حلم الله، واتقوا السفه فقد سمعتم قوله - عز وجل - في كتابه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وكان الحسن يقول في موعظة تحيي القلوب وتحرك النفوس: المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله - عز وجل -، رحم الله امرءًا نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه[٣].

فقـــلْ للـــذي قـــدْ غـــرَّه طُـــولُ عمـــره
ومـــا قـــد حـــواه مـــن زخـــارف تَـخْـــدَعُ

---

(١) الزهر الفائح: (١١).
(٢) العاقبة: (٩٠).
(٣) الإحياء: (٤/٤٨٨).

أفــــقْ وانظـــــر الـــــدنيـــــا بعينِ بصيرةٍ

تجـــدْ كـــلِّ مـــا فيهـــا ودائـــعَ تُـــرجـــعُ[1]

ولقد غرنا طول الأمل وألهانا التسويف. . فإذا بنا نجري في هذه الدنيا غافلين لاهين حتى إذا فاجأ الموت البعض قال: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ لماذا ترجع وتعود؟ ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

آمال حال من سبقنا فهي حال التيقظ والفطنة وتجهيز العدة والاستعداد ليوم الرحيل. روي عن حبيب العجمي أنه كان إذا أصبح يقول لامرأته: إذا مت اليوم ففلان يغسلني وفلان يحملني[2].

مـــا الـــدَّهـــرُ إلا يقظـــةٌ ونـــومٌ

وليلـــــةٌ بينهمـــــا ويـــــومُ

يعيـــشُ قـــومٌ ويمـــوتُ قـــومٌ

والـــدهـــر قـــاضٍ مـــا عليـــه لـــوم[3]

قال سعد بن معاذ: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة؟ وما هو مقول لها؟ وما سمعت النبي ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق[4].

أخي المسلم:

كـــمْ ذا التشـــاغـــل والأمـــلُ

كـــم ذا التـــواني والكســـلُ

---

(١) إرشاد العباد: (٧٠).

(٢) صيد الخاطر: (٢٠٤).

(٣) ديوان الإمام علي: (١٧٢).

(٤) الإحياء: (٣/ ٣٣٦).

حتـــــى متـــــى وإلى متـــــى
يُحصَـــى عَليـــكَ فـــلا تمـــلُّ
هـــل بعـــد شيـــب العـــارضين
ســـوى التـــوقـــع لـــلأجـــلِ
يـــا مـــن يعـــز بنفســـه
وعـــن الصَّـــلاح قـــد امتهـــلَ
فـــالمـــوت أقـــربُ نـــازلٍ
والقبر صنـــــدوق العمـــــلِ

قال بعض الصالحين ـ رضي الله عنهم ـ: رأيت بعض الصالحين في النوم بعد وفاته فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلني الجنة، قلت: أي الأعمال أفضل عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل[1].

أخي المسلم:

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بد ولابد لك منه[2].

والنـــاس في غفـــلاتهـــمْ
وَرَحـــى المنيَّـــة تطحـــنْ[3]

كل يوم نسمع بنعي فلان.. نسترجع.. ونتأمل لحظات.. ثم نعود إلى غفلتنا وطول أملنا وكأن الموت لا يطرق أبوابنا ولا يأخذ أرواحنا[4].

---

(١) الزهر الفائح: (٥٠).
(٢) الفوائد: (١٢٩).
(٣) السير: (١٠/ ١٦٩).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٣٨١).

قال عبد الله بن ثعلبة: تضحك؟ ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار[١].

وهذه درر من كلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وبعض من حديثه قال: ويل لمن كانت الدنيا همّه، والخطايا عمله، كيفما يقدم غدا؟ بقدر ما تحرثون تحصدون!!.

وقال محمد بن يزيد: رأيت وُهيب بن الورد صلى ذات يوم العيد، فلما انصرف الناس جعلوا يمرون به، فنظر إليهم ثم زفر، ثم قال: لئن كان هؤلاء القوم أصبحوا متيقنين أنه قد تقبل منهم شهرهم هذا لكان ينبغي لهم أن يكونوا مشاغيل بأداء الشكر عما هم فيه، وإن كانت الأخرى لقد كان ينبغي لهم أن يصبحوا أشغل و أشغل. ثم قال: لا يكن هم أحدكم في كثرة العمل، ولكن ليكن همه في إحكامه وتحسينه، فإن العبد قد يصلي وهو يعصي الله في صلاته، وقد يصوم وهو يعصي الله في حياته[٢].

وطول الأمل أودى بالناس إلى الفرح بهذه الدنيا والتشاغل بها عن الآخرة، فلا ترى إلا مهمومًا بالدنيا.. خطوته يتبعها الأخرى من أجل الدنيا.. لهث وجري.. عناء ونصب من أجل حطام الدنيا.. أما ساعات الراحة وأوقات الاستراحة فإنها ضائعة في ضحك ولعب وغفلة.. فأين التذكر والتفكر؟

قال وهيب: عجبًا للعالم كيف تجيبه داوعي قلبه إلى ارتياح الضحك. وقد علم أن له في القيامة روعاتٍ ووقفاتٍ وفزعاتٍ. ثم غُشي عليه[٣].

---

(١) القصار: هو محور الثياب ومبيضها.

(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥).

(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٢٢١).

أخي الحبيب:

قال **مكحول الدمشقي**: منْ عَبَدَ الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجيء ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو مُوحِّدٌ(١).

وقال **الشيخ ابن سعدي**: يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجاء من ربه تمام النعمة بقبولها وخاف من ردها بتقصيره في حقها، وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها، وخشي لسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثبته الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ويخشى من اجتماع المعصيتين: فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يُوفَّقْ للقيام بالصبر بالواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب النافع، وبه تحصل السعادة(٢).

أخي المسلم:

هلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين. وهو

---

(١) الإحياء: (٤/ ١٧٤).

(٢) القول السديد: (١١٩).

في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب وامتناعك ترك وراحة، ليس هو عملا بالجوارح يشق عليك معاناته وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله بما ذكرت نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم وحفظه أسعد من إصلاح ما قبله ما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلا لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك إما الجنة وإما النار، فإن اتخذت إليها سبيلا إلى ربك؛ بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله[1].

* * *

(١) الفوائد: (١٥١).

علامات الخوف من الله

إن العبد يستطيع أن يعرف نفسه هل هو من الخائفين من الجليل، أم هو من الغافلين اللاهين، وهذا بيان ببعض هذه العلامات:

أولها: يتبين في لسانه، فيمتنع من الكذب والغيبة وكلام الفضول ويجعل لسانه مشغولاً بذكر الله، وتلاوة القرآن ومذاكرة العلم.

والثاني: أن يخاف في أمر قلبه، فيخرج منه العداوة والبغضاء وحسد الإخوان، ويدخل فيه النصيحة والشفقة للمسلمين.

والثالث: أن يخاف في أمر بطنه فلا يأخذ إلا طيبًا حلالاً، ويأكل من الطعام مقدار حاجته.

والرابع: أن يخاف في أمر بصره، فلا ينظر إلى الحرام، ولا إلى الدنيا بعين الرغبة وإنما يكون نظره على وجه العبرة.

والخامس: أن يخاف في أمر قدميه فلا يمشي في معصية.

السادس: أن يخاف في أمر يده، فلا يمدَّنَّ يده إلى الحرام، وإنما يمدُّ يده إلى ما فيه طاعة الله ـ عز وجل ـ.

والسابع: أن يكون خائفًا في أمر طاعته فيجعل طاعته خالصة لوجه الله، ويخاف الرياء والنفاق، فإذا فعل ذلك فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٥].

يقول الفقيه السمرقندي ـ رحمه الله ـ: من عمل الحسنة يحتاج إلى خوف أربعة أشياء، فما ظنك بمن يعمل السيئة؟!

أولها: خوف عدم القبول: لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

والثاني: خوف الرياء: لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

والثالث: خوف التسليم والحفظ: لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠][1].

والرابع: خوف الخذلان في الطاعة: لأنه لا يدري أنه هل يوفَّق لها أم لا؟ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

أخي الحبيب:

جعلني الله وإياك ووالدينا وأحبابنا من الآمنين حين الخوف والفزع ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] وممن ينادون في ذلك اليوم العظيم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩].

* * *

---

(١) الإحياء: (١٦/٤).

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢ ـ الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الفكر، بيروت.

٣ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.

٤ ـ إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد، عبدالعزيز السلمان، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٥ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.

٦ـ تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

٧ ـ التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٨ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.

٩ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي، دار الرياض ط ١٤٠٧هـ.

١٠ ـ التخويف من النار لابن رجب الحنبلي، حققه وخرج أحاديثه بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، ط٢/ ١٤٠٩هـ.

١١ ـ تزكية النفوس، جمع د. أحمد مزيد، دارالقلم، بيروت.

١٢ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض مكتبة الحياة.

١٣ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ.

١٤ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبدالعزيز الوكيل، دار الشروق ١٤١٠هـ.

١٥ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

١٦ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.

١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن.

١٨ ـ الجواب الكافي لابن قيم الجوزية، تحقيق أبي حذيفة، دار الكتاب العربي ط١/ ١٤٠٧هـ.

١٩ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

٢٠ ـ ديوان الإمام علي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

٢١ ـ كتاب الزهد للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيوني دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢٢ ـ كتاب الزهد الكبير للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق د. تقي الدين الندوي دار القلم، ط٢/ ١٤٠٣هـ.

٢٣ ـ الزهد للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبد الرحيم محمد، دار الحديث.

٢٤ ـ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن محمد يوسف الجزري، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢٥ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

٢٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

٢٧ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس. دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

٢٨ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

٢٩ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة للإمام أبي محمد عبدالحق الأشبيلي، تحقيق خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى ط١/ ١٤٠٦هـ.

٣٠ ـ الفوائد لابن القيم الجوزية، دار النفائس.

٣١ ـ القول السديد.

٣٢ ـ محاسبة النفس للحافظ ابن أبي الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

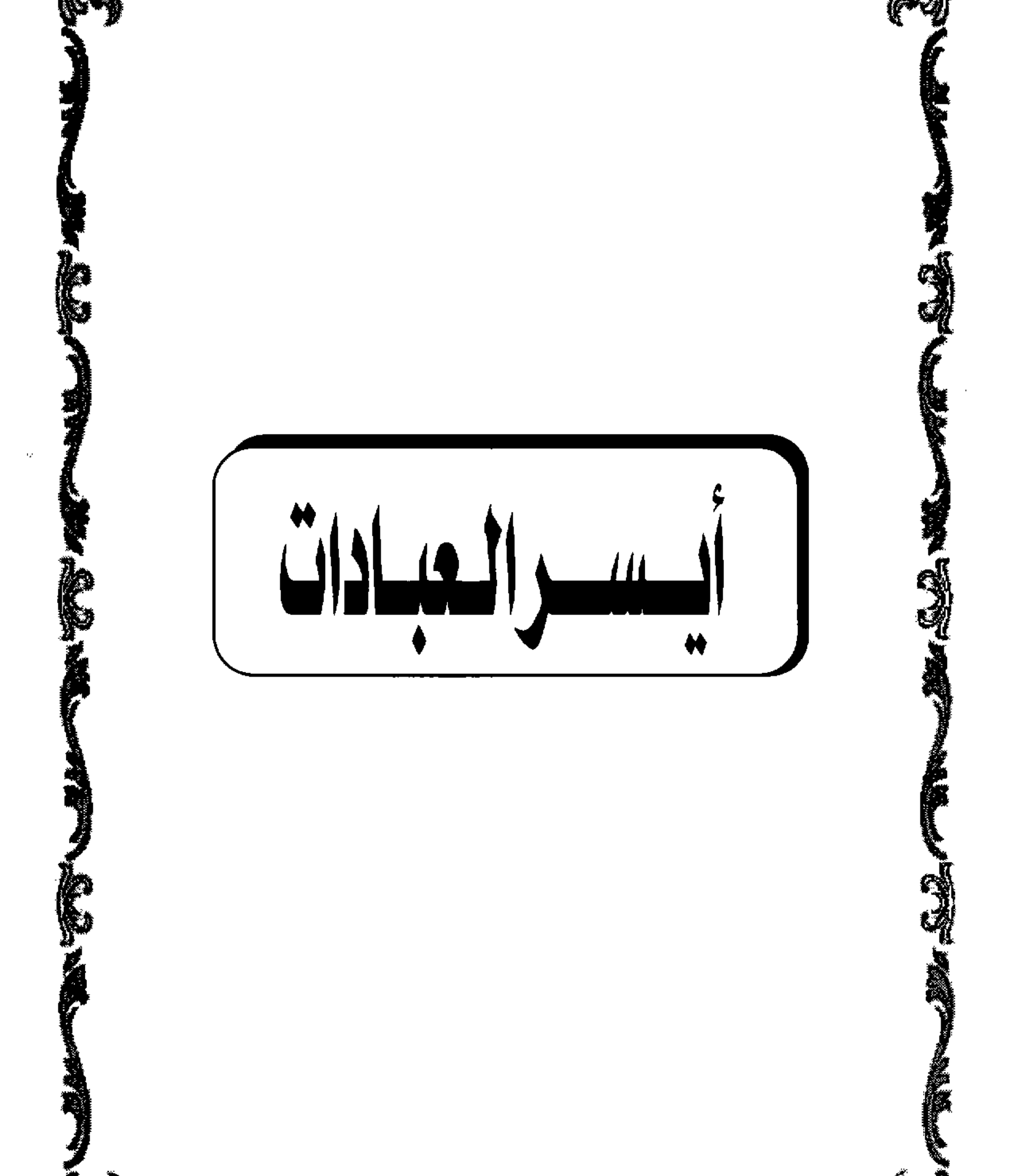
٣٣ ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ط٢/ ١٤٠٨هـ.

٣٤ ـ المدهش لأبي الفرج جمال الدين الجوزي، ضبطه وصححه د. مروان قباني، دار الكتب العلمية ط٢/ ١٤٠٥هـ.

٣٥ ـ مختصر منهاج القاصدين تأليف الإمام أحمد بن قدامة المقدسي تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ط٧/ ١٤٠٦هـ.

٣٦ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز السلمان، ط١٣/ ١٤٠٣هـ.

* * *



أيسر العبادات

المقدمة

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه، وأدب نبيه محمدًا ﷺ فأحسن تأديبه.

أما بعد:

فنحمد الله ـ عز وجل ـ أن منَّ علينا بنعمة الإسلام وحثنا على مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ورتب الأجر والمثوبة على ذلك.

وهذا الكتاب هو الجزء الحادي عشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» مطرز بحلل الآداب ومزين بفضائل الأخلاق.. نرى البون الشاسع بين من تجملوا وتدثروا بها وحالنا التي شحت فيها الأنفس وضاقت الصدور وتكدرت منابع الإحسان وندرت صنائع المعروف.

نفع الله به وجعله خالصًا لوجهه الكريم.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

مكارم الأخلاق صفةٌ من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها تُنال الدرجات، وتُرفع المقامات، وقد خصَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ نبيه محمدًا ﷺ بآية جمعت له محامد الأخلاق ومحاسن الآداب، فقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤].

وحُسن الخلق يوجب التحاب والتآلف، وسوء الخلق يُثمر التباغض والتحاسد والتدابر، ومهما كان الثمر محمودًا كانت الثمرة محمودة[١].

والأثر واضح في الدنيا والآخرة لمن حَسُن خلقه، وجمع الله له بين التقوى وحسن الخلق. قال ﷺ: «**أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق**»[٢].

وحُسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى عن الناس. هذا مع ما يلازم المسلم من كلام حسن.. ومداراة للغضب وكتمانه واحتمال الأذى..

هذا هو حسن الخلق الذي يؤدي إلى السلامة، ويأمن صاحبه الندامة. وقد قال ﷺ: «**بعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاقِ**»[٣].

وأوصى ﷺ أبا هريرة بقوله: «**يا أبا هريرة! عليك بحسن الخلق**»، قال أبو هريرة رضي الله عنه ـ: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: «**تصل**

---

(١) الإحياء: (٢/ ١٧١).

(٢) أخرجه الترمذي، والحاكم.

(٣) رواه أحمد، والبيهقي، والحاكم وصححه.

من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك»[١].

وانظر ـ أخي المسلم ـ إلى الأثر العظيم والثواب الجزيل لهذه المنقبة المحمودة. فقد قال ﷺ: «**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» [رواه أحمد]، وعدَّ ﷺ حسن الخلق من كمال الإيمان. فقال: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**».

وتأمل أخي قول الرسول ﷺ: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله ـ عز وجل ـ سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولئن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن اعتكف في المسجد شهرًا**» [رواه الطبراني].

أخي المسلم:

الكلمة الهينة اللينة تقولها، لك بها أجر، وتكون لك صدقة، فقد قال ﷺ: «. . . **والكلمة الطيبة صدقة**» [متفق عليه].

وكل ذلك لما للكلمة الطيبة من أثر محمود وفعل مشهود، فهي تُقرب القلوب، وتُحبب النفوس، وتُزيل الكلفة والتنافر . .

والتوجيهات النبوية في الحثِّ على حسن الخلق واحتمال الأذىٰ كثيرة معروفة. ومنها قوله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن**» [رواه الترمذي].

وخلق المسلم ملازم له في كل مكان وزمان يحببه إلى المسلمين، ويقربه منهم في كل طريق يطرقه، وفي كل مكان ينزل فيه. . له سهم من المحبة والمودة في عمله وفي طريقه. . بل في بيته، حتى اللقمة يرفعها

---

(١) رواه البيهقي في الشعب.

إلى فم زوجته يؤجر عليها.. فيها تطيب نفس، وإدخال فرح، وإزالة كدر. قال ﷺ: «**وإنك مهما أنفقت من نفقة فهي صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى فيِّ امرأتك**» [رواه البخاري].

كل هذا إظهار للمودة والمحبة، ووأد للتفرق، وإزالة للشقاق..

أخي الحبيب:

المؤمنون إخوة. ويجب على المسلم أن يُحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه.. وانظر إلى ما تحب لنفسك فقدمه لأخيك المسلم، وما تكرهه فأخره وأبعده عنه.. وإياك وتحقير من آمن بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيًّا.

فقد حذر ﷺ من ذلك بقوله: «**بحسب امريء من الشَّرِّ أن يحقر أخاه المسلم**» [رواه مسلم].

أخي المسلم:

طريقٌ سهلٌ وعبادةٌ ميسرةٌ في كلِّ حينٍ. قال ﷺ لأبي الدرداء: «**ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها ـ أخفها ـ على البدن؟ الصمت وحسن الخلق**» [رواه ابن أبي الدنيا في الصمت].

وأجر المؤمن على حسن خلقه يتساوىٰ مع أجر المؤمن الذي يقوم الليل كلَّه ويصوم النَّهار. فالمؤمن كما يقول ﷺ: «**ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**».

وعلى هذا الاعتبار كان **الصحابي الجليل أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ يقول: «إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة، ويسيء خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار».

قال **الإمام الشافعي**: ـ رحمه الله ـ: «من استغضب ولم يغضب فهو حمار. ومن استُرضي فلم يرض فهو شيطان. فلا تكن حمارًا ولا شيطانًا، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك، واحترز أن تكون شيطانًا إن لم تقبل»(١).

وحين سُئل **سهل التستري** عن حُسن الخلق. قال: أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم، والاستغفار له، والشفقة عليه»(٢).

وقد جُمعت **علامات حسن الخلق** في صفات عدة، منها:

أن يكون الإنسان كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًّا وصولاً، وفورًا، صبورًا، شكورًا، راضيًا، حليمًا، رفيقًا، عفيفًا، شفيقًا، لا لعانًا ولا سبابًا، ولا نمَّامًا ولا مغتابًا، ولا عجولاً ولا حقودًا ولا بخيلاً، ولا حسودًا، بشاشًا هشاشًا، يحب في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله.

والرجل ذو الخلق الحسن يحتمل أذى الناس، ويلتمس دومًا لهم العذر فيما يرتكبونه من أخطاء، ويحرص كل الحرص على تجنب تتبع أخطائهم والبحث عن عيوبهم للتشهير والإضرار بهم، ومن المتعارف عليه أن من شكا سوء خلق غيره، فإن ذلك دليل قاطع على سوء خلقه، والمؤمن لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال سيء الخلق حيث قال ﷺ: «**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق**»(٣).

---

(١) الإحياء: (٢/ ٢٠١).
(٢) الإحياء: (٣/ ٥٧).
(٣) الأدب المفرد: ((١/ ١٠٧).

وحين سُئل الشعبي عن حسن الخلق؟ قال: البذالة والعطية والبشر الحسن[١].

أخي المسلم:

صوتك الحبيب يرتفع وهو يقول:

لـــو أننـــي خيـــرت كـــل فضيلـــة
مـــا اختـــرت غيـــر محـــاســـن الأخـــلاق[٢]

وقد ذكر علقمة العطاردي أثر حسن الخلق في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة.. فقال: يا بُني! إذا عرضت لك صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك! وإذا صحبته زانك. وإن قعدت بك مؤنة أعانك، واصحب من إذا مددت يدك بخير مدها. وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئةً سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتدأك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولت أمرًا أمرك، وإن تنازعتما آثرك، فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائمًا بجميعها.

قال ابن أكثم: قال المأمون: فأين هذا؟ فقيل له: أتدري لم أوصاه بذلك؟ قال: لا.. قال: لأنه أراد أن لا يصحب أحدًا[٣].

لا تســـأل المـــرء عـــن خـــلائقـــه
فـــي وجهـــه شـــاهـــدٌ مـــن الخبـــر[٤]

(١) التواضع والخمول: (١٩١).
(٢) الأدب المفرد: (١/ ٢٧٦).
(٣) الإحياء: (٢/ ١٨٦).
(٤) أدب الدنيا والدين: (٢٤٠).

أخي المسلم:

إن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساوئها، ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه[١].

وعدد **علي بن أبي طالب** حُسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال[٢].

ومن ثمار حسن الخلق ما ذكره **يحيى بن معاذ** بقوله: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق[٣].

أخي:

أصل الأخلاق المذمومة كلها: الكبر، والمهانة، والدناءة.

وأصل الأخلاق المحمودة كلها: الخشوع، وعلو الهمة.

فالفَخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة وأن يُحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك، كلها ناشئة من الكبر.

وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع

---

(١) الإحياء: (٢/ ٣٨٦).
(٢) الإحياء: (٣/ ٥٧).
(٣) المصدر السابق.

والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ونحو ذلك، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس[١].

قال الإمام الشافعي: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب[٢].

أخي المسلم:

كل يوم تُقابل وتحادث أناسًا بهم طبائع مختلفة وأخلاق متباينة.. فهذا به من الحمق الشيء الكثير، وذاك به من السفه نصيب.. وآخر استهواه الشيطان فهو يهوىٰ الجدال والخصام.. وهل - أخي - في الدواب مثل ذلك؟!

والإمام الشافعي - رحمه الله - أتم علاجه وأشفى ببيانه فقال: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط[٣].

وصاحب بمعروف وجانب من اعتدى
وفارق ولكن بالتي هي أحسن[٤]

ومن البله أن تبادر عدوًّا أو حسودًا بالمخاصمة، وإنما ينبغي إن عرفت حاله أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما، إن اعتذر قبلت، وإن أخذ في الخصومة صفحت، وأريته أن الأمر قريب، ثم تبطن الحذر منه، فلا تثق به في حال وتتجافاه باطنًا مع إظهار المخالطة في الظاهر. وإن بالغ في

(١) الفوائد: (١٨٨).
(٢) السير: (١٠/٩٨).
(٣) صفة الصفوة: (٢/٢٥٣).
(٤) شذرات الذهب: (٣/٣٥٠).

السب فبالغ في الصفح، تنب عنك العوام في شتمه، ويحمدك العلماء على حلمك[١].

قال شفيق البلخي: اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها واحذر أن تُحرقك[٢].

وقال وهيب بن الورد: خالطت الناس خمسين سنة، فما وجدت رجلاً غفر لي ذنبًا، ولا وصلني إذا قطعته، ولا ستر عليَّ عورة، ولا ائتمنته إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حمق[٣].

يقولون لي منك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أُكرما[٤]

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: يا عجبًا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً. فلو كان لا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا، لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها مما تدل على سبيل النجاة.

فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ؟.

فقال: نعم، وما هو خير منه، لما أتي بسبايا طيء وقفت جارية في السبي فقالت: يا محمد! إن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء

---

(١) صيد الخاطر: (٤٤٧).
(٢) صفة الصفوة: (٤/ ١٦٠).
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ١٤٦).
(٤) شذرات الذهب: (٣/ ٥٧).

العرب، فإني بنت سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطائي. فقال ﷺ: **«يا جارية! هذه صفة المؤمنين حقًّا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلُّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق»**[(١)].

أخي الحبيب:

أنفعُ الناس لك رجلٌ مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيرًا، أو تصنع إليه معروفًا، فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك، فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر، وأضر الناس عليك من مكَّن نفسه منك حتى تعصي الله فيه، فإنه عونٌ لك على مضرتك ونقصك[(٢)].

وخير الأصحاب ما قال عنه **الشافعي**: ليس بأخيك من احتجت إلى مُداراته[(٣)].

ومن الناس اليوم من تغيرت أنفسهم وفسدت بواطنهم. كيف الوقوف معهم، والسير في ركابهم؟!

قيل: إن **أحمد بن حنبل** خرج إلى حاتم الأصم ورحب به، وقال له: كيف التَّخلُّص من النَّاس؟ قال: إن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحدًا حقك، وتحتمل مكرههم ولا تكرههم على شيء، وليتك تسلم!![(٤)].

---

(١) الإحياء: (٢/٣٨٨).
(٢) الفوائد: (٢٤٨).
(٣) السير: (١٠/٩٨).
(٤) السير: (١١/٤٨٧).

أخي! ليتك تسلم!!

قال **أبو الدرداء**: أدركت الناس ورقًا لا شوك فيه، فأصبحوا شوكًا لا ورقة فيه، إن نقدتهم نقدوك، وإن تركتهم لا يتركوك، قالوا: فيكف نصنع؟ قال: تقرضهم من عرضك ليوم فقرك!!

وحدث بكار بن محمد السيريني، فقال: كان **عبد الله بن عون** مشغولاً بنفسه وما سمعته ذاكرًا بلال بن أبي بردة بشيء قط، ولقد بلغني أن قومًا قالوا له: يا أبا عون! بلال فعل كذا.

فقال: إن الرجل يكون مظلومًا، فلا يزال يقول حتى يكون ظالمًا، وما أظن أحدًا منكم أشد على بلال مني، قال: وكان بلال قد ضربه بالسياط[(١)].

وهذه نصيحة غالية ثمينة من **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: لا تعرض لما يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله ـ تعالى ـ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله[(٢)].

ومن حسن الخلق ما نراه في بعض صلحاء القوم من الحلم وسعة البال. فقد كان أحدهم يقع في **عمر بن ذر** ويشتمه فلقيه عمر فقال: يا هذا لا تُفرط في شتمنا، وابق للصلح موضعًا، فإنا لا نكافيء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه[(٣)].

---

(١) السير: (٦/ ٣٧٠).
(٢) الصمت: (٩٧).
(٣) السير: (٦/ ٣٨٩).

ليـــــس دنيــــــا إلا بـــــــديـــــــن وليـ
ـــــــس الـــــديـــــن إلا بمكـــــارم الأخـــــلاق[١]

ولنا أن نتعجب من علو الشأن وشموخ الأخلاق وسمو الأنفس.. قال **ابن عباس** - رضي الله عنهما -: أربعة لا أقدر على مكافأتهم.. رجل بدأني بالسلام، ورجلٌ وسع لي في المجلس، ورجل أغبرت قدماه في المشي في حاجتي، فأما الرابع فما يكافئه عني إلا الله - عز وجل -. قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمرٌ، فبات ليلته يفكر فيمن يقصده.. ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي[٢].

ولو طُرقت الأبواب الآن لحاجةٍ لأُغلقت.. ولو سمعت الآذان نائبةً لصمتت.. سبحان الله يفرحون بمن يقصدهم ويعدون ذلك شرفًا ورفعة.. وكرامة لهم..

ولكن الجود والخير بحار مغلقة.. ليست لها جادة ولا تُستهدى بعلامة.. فلهذا قل واردها.. وندر من أبحر فيها.. تتوقف دونها المراحل، وتظهر في ركوبها المراجل.. إنها تقسم مثل ما تقسم الأرزاق والآجال..

قال الشافعي: لو علمت أن الماء البارد ينقص من مروءتي ما شربته[٣].

أخي الحبيب:

وإذا بحثـــــت عـــــن التقـــــى وجـــــدتـــــه
رجـــــلاً يصـــــدق قـــــولـــــه بفعـــــال

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٣٩٩).
(٢) وفيات الأعيان: (٣/ ٦٣).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥٤).

وإذا اتقـــــى الله امـــــرؤ وأطـــــاعـــــه
فيـــــداه بيـــــن مكـــــارم ومعـــــال
وعلـــى التقـــي إذا تـــراسـخ فـــي التقـــى
تـــاجـــان تـــاج سكينـــة وجمـــال
وإذا تنـــاسبـــت الـــرجـــال فمـــا أرى
نسبـــاً يكـــون كصـــالـــح الأعمـــال

حسن الاستماع ولطف الإنصات من علامات الأدب الجم، ومن صفات الإنسان المسلم.. فلا هو يَرُد متحدثًا ولا يصد متكلمًا.. بل يدع المتحدث يُتِمُّ حديثه.. هذا **عطاء بن رباح يقول**: إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصت له، كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[١].

والنفس ـ أخي الحبيب ـ تحتاج إلى تقويم ومعالجة، فلن تستقيم أمورها، وتصلح أحوالها إلا بإلزامها الجادة، والصبر على ذلك..

قال **محمد بن المنكدر**: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت[٢].

وإن من استقامة النفس عدم التكالب على الدنيا والنظر إلى المادة على أنها السعادة والراحة.. بل إن السعادة تلوح مع بريق المادة، ولكنها تختفي، ولا تصل إلى قرارة النفس، لأن من أتبع عينيه مباهج الدنيا ونعيمها الزائل كدر حياته ونغص أيامه.. فمن متابعة أحوال الناس وحسدهم إلى غيبتهم ونميمتهم..

---

(١) السير: (٥/ ٨٦).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ١٤١).

وقد قال الفضيل في ذلك: لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالي من أكل الدنيا[١].

فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد الله في قضائه ومحبته وكراهته[٢].

ألا قــــل لمــــن كــــان لــــي حــــاســــدًا
أتـــدري علـــى مـــن أســـأت الأدب
أســـأت علـــى الله فـــي فعلـــه
لأنـــك لـــم تـــرض لـــي مـــا وهـــب
فجـــازاك عنـــه بـــأن زادنـــي
وســـد عليـــك وجـــوه الطلـــب[٣]

وما ذنب محسودٍ يُحسد.. وما هبه الله هو كرمٌ منه وعطاء فهو يرتقي درجات المعالي.. ويسمو بنفسه عن الدنايا.

فتراه يُحسد على علمٍ حصله، أو تقوى وإيمان آنس به نفسه.. بل تراه يُحسد على الصحة والعافية وحتى يُحسد على أمرٍ لم ينله بعد.. سبحان الله أيُعترض على عطاء الله؟!

ولكن صوت المحسود يأتي بصوت قوي.. زانه الإيمان وطرزه الفرح بالشكر لله الذي وهبه.. ويتساءل ماذا لو كانوا هم المنفقون والواهبون؟!

---

(١) السير: (٨/ ٤٣٣).
(٢) الفوائد: (٢٠٦).
(٣) تاريخ بغداد: (١٣/ ٢٣٠).

إن يحسدوني فإني غير لائمهم
قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسدوا
فدام لي ولهم وما بي وما بهم
ومات أكثرنا غيظاً بما يجد

ولنسمع قول الإمام الشافعي في هذه الخصال الذميمة.. قال: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد(١).

أخي المسلم:

وأنت تسير في هذه الدنيا تلمح سيء الخلق وترى تصرفاته.. من حمق إلى بُخلٍ ومن قلة أدب إلى سوء صنيع، ولا يغيب عن أذنيك صوته المرتفع وحديثه الممجوج.. هل هذا خلق المؤمن؟!

وضرر سيء الخلق لا يقتصر على صاحبه وحده، بل يمتد إلى من حوله وإلى كل من عرفه وقابله.. بل يمتد هذا الضرر إلى أناس بعيدين.. بل ولا يسلم من شره وآذاه حتى الحيوانات.

عن أبي حازم سلمة بن دينار قال: السيء الخلق أشقى الناس به نفسه التي بين جنبيه، هي منه في بلاء، ثم زوجته ثم ولده. حتى أنه ليدخل بيته وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته فينفرون عنه، فرقًا منه، حتى إن دابته تحيد مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه ليراه فينزو على الجدار، حتى أن قطه ليفر منه(٢).

---

(١) السير: (١٠/٤١).
(٢) السير: (٦/٩٩).

وانظر ـ أخي ـ وتفكر في عظم فقه **إبراهيم التيمي** عندما قال: إن الرجل ليظلمني فأرحمه[(١)].

وذلك لعلمه أن للظلم سؤال في موقف عظيم.. الحسنات فيه غالية عزيزة، وفيه الهامات مرتفعة.. لمن ظُلم يبحث عن حقه.. ألا يرحمه!!

قال **الحسن**: من ساء خلقه عذب نفسه[(٢)].

لمــا عفــوت ولــم أحقــد علــى أحــدٍ
أرحــت نفســي مــن غــم العــدوات
إنــي أحــي عــدوي عنــد زاويتــه
لأدفــع الشــر عنــي بــالتحيــات
وأظهــر الشــر لــلإنســان أبغضــه
كمــا أملــي قلبــي مــن محبــات
ولســت أسلــم ممــن لســت أعــرفــه
فكيــف أسلــم مــن أهــل المــودات[(٣)]

وعن الحسد قال **الفقيه السمرقندي** ـ رحمه الله ـ: ليس شيء أضر من الحسد؛ لأنه يصل إلى الحاسد خمس عقوبات، قبل أن يصل إلى المحسود مكروه:

أولاهـا: غم لا ينقطع.

الثانـية: مصيبة لا يؤجر عليها.

الثالـثة: مذمة لا يُحمد عليها.

---

(١) السير: (٥/ ٦١).

(٢) الإحياء: (٣/ ٥٧).

(٣) ترتيب المدارك: (٢/ ٦٧).

الرابعة: يسخط عليه الرب.

الخامسة: تغلق عليه أبواب التوفيق[١].

هذه خصلة الحسد وهي من خصائلَ ذميمة ونفوس دنيئة.. ولكن.

اصبر على كيد الحسو
د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها
إن لم تجد ما تأكله

والناس غالبهم اليوم فرَّغ نفسه من حُسن الخلق فهو يناصر هذا ويدافع ذاك ويصرخ على آخر.. لننظر حال من قبلنا كيف استفادوا من أوقاتهم وبماذا عمروها وهي سنوات قصيرة وأيام معدودة.

قال **عبد الرحمن بن مهدي**: لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا!!

هذه الإفادة الكاملة من الوقت.. والرغبة فيما عندالله..

وكان **عامر بن قيس** إذا أصبح قال: اللهم، غدا الناس إلى أسواقهم وأصبح لكل امريء منهم حاجة، وحاجتي إليك يا رب أن تغفر لي.

قال أبو تراب: قال شفيق **لحاتم الأصم**: منذ صحبتني، أي شيء تعلمت مني؟

قال: **ست كلمات**:

* رأيت الناس في شك من أمر الرزق، فتوكلت على الله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

---

(١) تنبيه الغافلين: (١/ ١٩٠).

* ورأيت لكل رجل صديقًا يفشي إليه سره ويشكو إليه، فصادقت الخير ليكون معي في الحساب، ويجوز معي الصراط.

* ورأيت لكل أحد له عدو، فمن اغتابني ليس بعدوي، ومن أخذ مني شيئًا ليس بعدوي، بل عدوي من إذا كنت في طاعة أمرني بمعصية، وذلك إبليس وجنوده، فاتخذتهم عدوًّا وحاربتهم.

* ورأيت الناس كلهم لهم طالب، وهو ملك الموت، ففرغت له نفسي.

* ونظرت في الخلق، فأحببت ذا وأبغضت ذا، فالذي أحببته لم يعطني، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئًا، فقلت: من أين أتيت؟ فإذا هو من الحسد فطرحته. وأحببت الكل، فكل شيء لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم.

* ورأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوى، ورأيت مأواي القبر، فكل شيء قدرت عليه من الخير قدمته لنفسي لأعمر قبري..

قال شفيق: عليك بهذه الخصال[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

نماذج حية لسيرهم وحياتهم.. إنها دررٌ من الكلام تطرق القلب.. وتحيي الفؤاد..

استعمل **عمر بن الخطاب** - رضي الله عنه - بحمص **سعيد بن عامر بن حزيم**، فلمَّا قدم عمر حمص قال: يا أهل حمص كيف وجدتُّم عاملكم؟

---

(١) السير: (١١/ ٤٨٥).

فشكوه إليه، وكان يقال لأهل حمص: «الكويفة الصغرى» لشكايتهم العمال.

قالوا: نشكو أربعًا:

لايخرج إلينا حتى يتعالى النهار.

قال: أعظم بها، قال: وماذا؟

قالوا: لا يجيب أحدًا بليلٍ.

قال: وعظيمة، قال: وماذا؟

قالوا: له يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا.

قال: عظيمة، وماذا؟

قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام أي تأخذه موته.

فجمع عمر بينهم وبينه وقال: ـ اللهم لا تفيل رأيي فيه اليوم ـ ما تشكون منه؟

قالوا: لا يخرج حتى يتعالى النهار.

قال: والله إن كنت لأكره ذكره، إنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجينهم، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم.

فقال: ما تشكون منه؟

قالوا: لا يجيب أحدًا بليلٍ.

قال: ما يقولون؟

قال: إن كنت لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله ـ عز وجل ـ.

قال: وما تشكون منه؟

قالوا: إن له يومًا في الشهر لا يخرج إلينا فيه.

قال: ما يقولون؟

قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثيابٌ أبدلها، فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار.

قال: ما تشكون منه؟

قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام[١].

قال: ما يقولون؟

قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري، وقد بضعت قريش لحمه، ثم حملوه على جذعٍ.

فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدًا شيك بشوكة، فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننت أن الله ـ عز وجل ـ لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا، فتصيبني تلك الغنطة.

فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفيل فراستي.

سيُعطي الصادقين بفضل صدقٍ
نجاة في الحياة وفي الممات[٢]

إن الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والإخلاص والمكافأة

---

(١) الغنط: أشد الكرب والجهد.

(٢) شرح الصدور: (٢١٦).

على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك، فكلُّها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة، والله ـ سبحانه ـ أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق.

وأما النار فطبعها العلو والإفساد ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذله، وكذلك المخلوق منها فهي دائمًا بين العلو إذا هاجت واضطربت، وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت، والأخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها، والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها، فمن علت همَّته وخشعت نفسه اتصف بكل جميل، ومن دنت همتُه وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل(١).

أخي الحبيب:

كانت ابنة **الربيع بن خثيم** تأتيه فتقول: يا أبتاه ائذن لي أن ألعب. فيقول: يا بنية قولي خيرًا، قال: فتلقنها أمها: قولي أتحدث، فيقول: إني لم أسمع الله رضي لأحدٍ اللعب(٢).

إنـــــا أنـــــاس مـــــن سجيتنـــــا
صـــدق الحـــديـــث واينـــا حتـــم(٣)

قال **يحيى بن معاذ**: إن العاقل المصيب من عمل ثلاثًا: ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى ربه قبل أن يلقاه.

---

(١) الفوائد: (١٨٩).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٦٤).
(٣) الصمت: (٢٣١).

هي النفس ما حملتها تتحمل
وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة
وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمةٌ
ولكن عارًا أن يزول التجملُ

والنار من مستصغر الشرر.. كل يوم نرى لهيبها في البيوت والطرقات. في الساحات والميادين.. ترتفع الأصوات ويكثر اللغط. ويتجنى المسلم على أخيه المسلم.

قيل إن رجلاً خاصم **الأحنف بن قيس** وقال: لئن قلت واحدةً، لتسمعن عشرًا، فقال: لكنك إن قلت عشرًا لم تسمع واحدًا[1].

هذا هو الحلم وذاك العقل.. ما بال المسلم يتجنبه.. وفي الأزمات والملمات يتركه.. فتشتعل الأرض لهبًا وترمي السماء شُهبًا..

قال **حاتم الأصم**: تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك[2].

وأنت ـ أخي ـ حين ترى ارتفاع الأصوات، وتداخل الكلمات وكثرة الهرج والمرج.. تذكر قول **عبد الله بن مسعود** حين قال: إن الرجل يخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء، يأتي الرجل لا يملك

---

(١) السير: (٤/٩٣).
(٢) السير: (١١/٤٨٥).

له ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعًا فيقسم بالله أنك لذيت وذيت فيرجع وما جيء من حاجته بشيء ويسخط الله[١].

وهذه الصور تمر أمامنا كشريط يصور مناجي الدنيا ويرحل بنا في خبايا النفس الإنسانية فترتسم الصفات الإسلامية شامخة فوق هامات الرجال تعاملاً وحديثاً وخلقًا.

عن **عبيد الله بن عبد الله بن عتبة** قال: ما كان البر يُعرف في عمر ولا في ابنه حتَّى يقولا، أو يفعلا، عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ[٢].

قال **الحسن**: من استطاع منكم أن يكون إمامًا لأهله، إمامًا لحيه، إمامًا لمن وراء ذلك، فإنه ليس شيء يؤخذ عنك إلا كان لك منه نصيب[٣].

أخي:

مر **حسان بن أبي سنان** بغرفة فقال: مذ كم بنيت هذه؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: وما عليك مذ كم بنيت؟! تسألين عما لا يعنيك. فعاقبها بصوم سنة[٤].

وقال **عبد الله بن عوف**: أحبُّ لكم يا معشر إخواني ثلاثًا: هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكفَّ عن أعراض المسلمين[٥].

---

(١) صفة الصفوة: (١/ ٤١٨).
(٢) حلية الأولياء: (١/ ٣١١).
(٣) الزهد لابن المبارك: (٢٩٢).
(٤) حلية الأولياء: (٣/ ١١٥).
(٥) حلية الأولياء: (٣/ ٣٧).

أخي المسلم:

من حُسن الخلق إظهار الأدب وإبراز المحاسن والأفعال الإسلامية هذا **الإمام الشافعي** يحكي جزءًا من حياته يقول: ما كذبت قطُّ، ولا حلفت بالله، ولا تركتُ غُسل الجمعة، وما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها في ساعتي[١].

وانظر ـ أخي ـ إلى الخصال الحميدة والأفعال الجملية.. قال سلم بن جنادة: جالست **وكيعًا بن الجراح** سبع سنين فما رأيته بزق ولا مس حصاة ولا جلس مجلسه فتحرك، ولا رأيته إلا مستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله[٢].

ونحن نتعجَّب من هذه الأمور المجتمعة فيه.. هذا **عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ** يقول: إنَّه ليعجبني الشَّاب النَّاسك نظيف الثَّوب طيِّب الرِّيح[٣].

والبعض لا يرى للنَّظافة حقَّها ولا لحسن المظهر أثره.. فتراه مهملاً في ملبسه، رثة ثيابه.. كأنَّه قادمٌ من سفر في صحراء قاحلة وأرض مجدبة.. ما رأى الماء منذ شهور ولا اغتسل منذ دهور..

قال **عبد الله بن أحمد** قال: إني ما رأيت أحدًا أنظف ثوبًا ولا أشد تعهدًا لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوبًا وأشده بياضًا من أحمد بن حنبل.

رحمه الله ورحمنا برحمته لم يهمل جانبًا على حساب جانب، ولم يضيع أمرًا أو يفرط فيه. بل اتبع السنة المطهرة في أمور حياته..

---

(١) السير: (١٠/٩٧).
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/٣٠٧).
(٣) تاريخ عمر: (٢١٩).

أخي المسلم:

ما نراه من التهافت على الدنيا ونقص المكاييل والموازين والفرح بخداع المسلم في البيع والشراء إنما هو نتيجة لغفلة نحن سائرون في ظلامها وبحور من الأماني مبحرون في لجحها.. ما زادتنا الدنيا إلا حرصًا ولا الغنى إلا شحًّا.. لنرى موقفًا رواه الوليد بن بشار حيث قال: جاءت امرأة فسألت حسان بن أبي سنان، فقال لشريكه: هكذا، وأشار بأصبعيه السَّبَّابة والوسطى، فذهب شريكه يزن لها درهمين، فوزن لها مائتين.

فقالوا: يا أبا عبد الله.. كنت ترضى بهذا.. كذا وكذا من سائل.

فقال: إنِّي ذهبت في شيء لم تذهبوا منه، وإنِّي رأيت بها بقية من الشَّباب وخشيت أنْ تحملها الحاجة على بعض ما أكره.

نعم المال!.. ونعم المسلم! يعِفُّ أخته المسلمة.. يصون عرضها بماله، ويقضي حاجتها قبل أنْ يشتدَّ بها العوز والحاجة إلى ما لا يحلُّ.

فهذه فائدة المال وهذا حسن التصرف..

أصـــون عـــرضـــي بمـــالـــي لا أدنســـه

لا بـــارك الله بعـــد العـــرض فـــي المـــال

وحين نظر إلى سفيان وفي يده دنانير فقال: يا أبا عبد الله تُمسك هذه الدنانير، فقال: أسكت، فلولاها لتمندل بنا الملوك.

إذا أعســـرتُ لـــم يعلـــم رفيقـــي

وأستغنـــي فيستغنـــي صـــديقـــي

حيـــائـــي حـــافـــظ لـــي مـــاء وجهـــي

ورفقـــي فـــي مطـــالبتـــي رفيقـــي

ولـــو أنّـــي سمحـــتُ بمـــاء وجهـــي
لكنـــت إلـــى العُـــلا سهـــل الطـــريـــق[١]

احتجم داود الطائي فدفع دينارًا إلى الحجام، فقيل له: هذا إسراف؟!

فقال: لا عبادة لمن لا مروءة له!!

كيف لو رأى زمانًا يفاصل الكثير في ما لا يُذكر من قليل النقود.. بل البعض يضيع من وقته الكثير في سبيل سقط من الدنيا.. يجادل ويخاصم وربما حلف وأقسم!!

قال الأوزاعي: هلك ابن بلال بن سعيد، فجاء رجل يدعي عليه ببضعة وعشرين دينارًا.

فقال له بلال: ألك بينة؟! قال: لا، قال: فلك كتاب؟! قال: لا، قال: فتحلف؟ قال: نعم، قال: فدخل فأعطاه الدنانير، فقال: إن كنت صادقًا فقد أديتُ عن ابني، وإن كنت كاذبًا فهي لك صدقة!!

لنعد قرونًا طويلة.. فقد كان جابر بن زيد لا يماكس[٢] في ثلاث: في الكراء إلى مكة، وفي الرقبة يشتريها للعتق، وفي الأضحية. وكان لا يماكس في كل شيء يتقرب به إلى الله ـ عز وجل ـ[٣].

أخي المسلم:

تســـامـــح ولا تستـــوف حقـــك كلـــه
وأبـــق فلـــم يستـــوف قـــط كـــريـــم

---

(١) السير: (١٤/٢٧٦).

(٢) لا يماكس: أي لا يساوم ولايطلب إنقاص الثمن.

(٣) صفة الصفوة: (٣/٢٣٧).

ولا تغــل فــي شــيء مــن الأمــر واقتصــد
كــلا طــرفــي قصــد الأمــور ذميــم[١]

جاء رجل إلى وكيع بن الجراح فقال: إني أُومتُّ إليك بحرفة، قال: ما حرفتك؟ قال: كنت تكتب من محبرتي في مجلس الأعمش، فوثب وكيع فدخل منزله فأخرج له صرة فيها دنانير، فقال: أعذرني فإني ما أملك غير هذا[٢].

لم يكن هناك هلع على الدنيا ولا حرصٌ على جمع المال.. بل علموا أنهم ما خلقوا إلا للعبادة والطاعة فأهمهم الأمر واستعدوا للرحيل..

وحين جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى إبراهيم الحربي بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد، فرده فانصرف الرسول ثم عاد، فقال: إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقه في جيرانك فقال: عافاك الله، هذا مال لم نُشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته، قل لأمير المؤمنين: إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك!! والكثير الآن يتحول إلى جواره!!

موقف لا يُنسى لعبد الله بن المبارك فقد قال محمد عيسى: كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرطوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله مرة فلم يره، فخرج في النفير مستعجلاً، فلما رجع سأل عن الشاب؟

فقال: محبوس على عشرة آلاف درهم، فاستدل على الغريم، ووزن له عشرة آلاف وحلفه ألا يخبر أحدًا ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن

---

(١) العزلة (٩٩)، شذرات الذهب: (٣/١٢٨).
(٢) تاريخ بغداد: (١٣/٥٠٠).

المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرقة، فقال: يا فتى، أين كنت؟ لم أرك، قال: يا أبا عبد الرحمن كنت محبوسًا بدين، قال: وكيف خلصت؟ قال: جاء رجل فقضى ديني ولم أدره، قال: فاحمد الله، ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله.

أخي المسلم:

ألم يمر بك يوم وقد احتجت إلى صاحب وصديق.. الكثير تمر به تلك المواقف فمقل ومكثر منها.. فكيف ترى فرحة صديقك عندما احتجت إليه وقدمته على غيره أم تراه من الذين يتوارون عنك عند الحاجة ويهربون منك وقت الشدة؟! إنَّها مواقف معدودة في حياة المرء ولكنَّها تظهر الصديق الصدوق من ذلك الذي يختفي وقت الحاجة ويهرب وقت الشدة.

قال مطرف بن عبد الله لبعض إخوانه: يا أبا فلان. إذا كانت لك حاجة، فلا تكلمني وأكتبها في رقعة، فإني أكره أن أرى في وجهك ذُل السؤال[1]

فلا وأبيك ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاءُ[2]

دخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه فجعل محمد يبكي، فقال: ما شأنك؟ قال: عليَّ دين، قال: كم هو؟ قال:

---

(١) السير: (٤/ ١٩٤).

(٢) مكارم الأخلاق: (٢١).

بضعة عشر ألف دينار، قال: فهو عليَّ[١].

وروي أن مسروقًا أدان دينًا ثقيلاً، وكان على أخيه خيثمة دين، فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم[٢].

أخي المسلم:

حين يتقدَّم إليك أخوك المسلم في حاجة له فافرح بذلك واعلم أنَّه قدَّمك على غيرك واصطفاك لقضاء حاجته.. ألا فأعنه.. ولا تقف دون قضاء حاجته ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

قال حكيم بن حزام: ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها.

والحاجة قد لا تكون مادية بل أحيانًا شفاعة.. فالكثير لا تُقضى حوائجهم إلا بتلك الشفاعة.. وبذل الجاه أحيانًا تزيد حاجته عن بذل المال.. فمن يبذل جاهه اليوم؟! إنهم قلة قليلة.. ومن قلتهم عُرفت أسماؤهم.. وقُصدت منازلهم.

كتب الحسن بن سهل لرجل كتاب شفاعة، فجعل الرجل يشكره، فقال الحسن: يا هذا، علام تشكرنا؟ إنا نرى الشفاعات زكاة مروءتنا ثم أنشأ يقول:

فُرِضَتْ عليَّ زكاةُ ما ملكت يدي
وزكاةُ جاهي أن أُعين وأشفعا

---

(١) السير: (٤/ ٣٩٤).

(٢) الإحياء: (٢/ ١٨٩).

فـــإذا ملكـــت فجـــد فـــإن لـــم تستطـــع
فـــاجهـــد بـــوسعـــك كلـــه أن تنفعـــا[١]

وتأمل ـ أخي المسلم ـ في فضل السعي في قضاء حوائج المؤمنين.

عنه ﷺ أنَّه قال: «**أحبُّ النَّاس إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنفعهم للنَّاس، وأحبُّ الأعمال إلىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سرورًا يُدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربه، أو يقضي عنه دينًا، أو يطرد عنه جوعًا، ولإن أمشي مع أخٍ في حاجة أحبُّ إليَّ من أنْ أعتكف في هذا المسجد شهرًا، ومن مشىٰ مع أخٍ في حاجةٍ حتَّىٰ تنتهيَ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام. وإنَّ سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل**»[٢].

والأخلاق الإسلامية مترابطة متواصلة في جميع أمور الحياة وعبر الأوقات والأزمان..

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: خمس خذوهن عنِّي: لا يخافن أحد منكم إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربَّه، ولا يستحيي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحيي من لا يعلم إذا سُئل عمَّا لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وإذا ذهب الرأس ذهب الجسد[٣].

أخي المسلم:

صفة الحلم التي نسيها النَّاس ولم نسمع بها سوىٰ في كتب التُّراث وأقوال العلماء، أين نحن من التَّجمُّل بها والتَّزيُّن بها.

---

(١) وفيات الأعيان: (٢/ ١٢٠).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن.

(٣) تاريخ الخلفاء: (١٧٣).

فقد قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلَّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها: أنت حرَّة، لا بأس عليك[١].

أخي:

ليست الأحلام في حين الرضا
إنما الأحلام وقت الغضب[٢]

قال الحسن: لقد رُوي أن رجلاً شتم أبا ذر ـ رحمه الله ـ فقال: إن بيني وبين الجنَّة عقبة إن جزتها فأنا خير ما تقول، وإن عرج بي دونها إلى النَّار فأنا شرٌّ ممَّا قلت فانته أيُّها الرَّجل، فإنَّك تصير إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصُّدور[٣].

وانظر ـ أخي ـ إلى حسن الصَّنيع وإلى مقابلة الشرِّ بالإحسان! فحين شتم رجل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فلمَّا قضى مقالته، قال: يا عكرمة، انظر هل للرَّجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرَّجل رأسه واستحى[٤].

واسمع ـ أخي ـ جماع الخير كما في قول الشافعي: الخير في خمسة:

---

(١) الإحياء: (٢/ ٢٤٠).
(٢) حلية الأولياء: (٤/ ٣٢٧).
(٣) الحسن البصري: (٢٥).
(٤) منهاج القاصدين: (١٩٩).

غنى النَّفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، والتَّقوى، والثِّقة بالله[١].

وهذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل مايشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون[٢].

أخي الحبيب:

سامح ولا تحقد على أحد ليكن شعارك الآخرة، وكنْ كما قال قائل:

لما عفوت ولم أحقد على أحدٍ
أرحت نفسي من حمل المشقات[٣]

يحكى أنَّ **الفضيل بن عياض** ـ رحمه الله ـ كان في الحرم فجاء خرساني يبكي، فقال له: لماذا تبكي؟ قال: فقدت دنانير، فعلمت أنَّها سرقت منِّي، فبكيت، قال: أتبكي من أجل الدَّنانير؟ قال: لا، لكنِّي بكيت لعلمي أنِّي سأقف بين يدي الله أنا وهذا السَّارق، فرحمت السَّارق فبكيت!!

وعندما سُرق للربيع بن خثيم فرس أعطى به عشرين ألفًا، فقالوا له: أدع الله عليه، فقال: اللهم إن كان غنيًّا فاغفر له. وإن كان فقيرًا فأغنه[٤].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال بكار بن محمد السيريني: كان فيما حدثني بعض أصحابنا لابن عون ناقة يغزو عليها ويحجُّ، وكان معجبًا بها، قال: فأمر غلامًا له يستقر عليها، فجاء بها وقد ضربها على وجهها، فسالت عينها على

---

(١) السير: (١٠/ ٩٧).
(٢) الإحياء: (٣/ ١٨٧).
(٣) شذرات الذهب: (٨/ ٧١).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٦١).

خدها، فقلنا: إن كان من ابن عون شيء فاليوم، قال: فلم يلبث أن نزل، فلمَّا نظر إلى النَّاقة، قال: سبحان الله أفلا غير الوجه، بارك الله فيك، أخرج عنِّي، اشهدوا أنَّه حرٌّ[١].

أخي المسلم: إذا رأيت كثرة الظُّلم وجور النَّاس وتسلُّط الآخرين فاسمع قول إبراهيم التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه، وهذا إحسان وراء العفو، لأنَّه يشتغل قلبه بتعرضِّه لمعصية الله ـ تعالى ـ بالظُّلم وأنَّه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب[٢].

النـــاس فـــي الخيـــر لا يـــرضـــون عـــن أحـــد
فكيـــف ظنُّـــك سيمـــوا الشَّـــر أو ســـامـــوا[٣]

قال عمرو بن قيس: ثلاث مِنْ رؤوس التَّواضع: أنْ تبدأ بالسَّلام على مَنْ لقيت، وأنْ ترضىٰ بالمجلس الدون من الشَّريف، وأنْ لا تحبَّ الرِّياء والسُّمعة والمدحة في عمل الله[٤].

والتَّواضع من خصال الإسلام الكريمة، وصفاته الحميدة.. فكان سيد المرسلين متواضعًا يخفض جناحه للمؤمنين.

قال بكر بن عبد الله إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني[٥].

---

(١) السير: (٦/ ٣٧١).
(٢) الإحياء: (٣/ ١٩٥).
(٣) وفيات الأعيان: (٢/ ٨٢).
(٤) حلية الأولياء: (٥/ ١٠١).
(٥) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٨).

وانظر ـ أخي المسلم ـ إلى أثر الرِّفقة على سلوك الإنسان وحياته. . قال **عون بن عبدالله**: صحبت الأغنياء فلم يكن أحدًا أطول غمًّا منِّي، إنْ رأيت أحدًا أحسن ثيابًا مني وأطيب ريحًا منِّي، فصحبت الفقراء فاسترحت[١].

وهذا **عمر بن عبد العزيز** الخليفة العادل يسطر موقفًا في التَّواضع وحسن الخلق. . فقد روى رجاء بن حيوة ذلك فقال: سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز، فعشي السراج، وإلى جانبه وصيف، قلت: ألا أنبهه؟، قال: لا، قلت: أفلا أقوم؟

قال: ليس من مروءة الرجل استخدامه ضيفه!!

فقام إلىٰ بطة الزيت وأصلح السِّراج ثمَّ رجع. وقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[٢].

ما أجمل هذا التَّواضع! وما أطيب صفاء النَّفس!. . لم يتكبَّر ولم يتجبَّر، قام ـ رحمه الله ـ وهو عمر ورجع وهو عمر. . لم يرغب في خدمه ولم يطلب ثناءً أو مدحًا.

وقد قال **الثوري**: من عرف نفسه لم يضره مدح الناس[٣].

وما ذاك إلا لعلمهم أن الثناء والمدح لا يقدم ولا يؤخر. . فعندما دُخل على محمد بن واسع يُعاد في مرضه قال: ما يغني عني مايقول الناس إذا أخذ بيدي ورجلي فألقيت في النَّار[٤].

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٠١)، حلية الأولياء: (٤/ ٢٤٣).

(٢) تاريخ الخلفاء: (٢٢١).

(٣) الإحياء: (١/ ٢٧١).

(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧١).

بل ربما يكون هذا المدح باب للكبرياء والغرور والتجبر. وانظر إلى بعض من يحب الثناء والأبهة..

قال **أبو إسحاق الغزاوي**: إن من الناس من يحب الثناء عليه، وما يساوي عند الله جناح بعوضة[١].

كان **زيد بن الحارث** إذا كانت ليلة مطيرة أضاء بشعلة من نار فطاف على عجائز الحي فقال: أوكف عليكم البيت، أتريدون نارًا، فإذا أصبح طاف على عجائز الحي ويقول: ألكم في السوق حاجة؟ أتريدون شيئًا؟[٢].

أخي المسلم:

من منَّا الآن يجري ويسعى في حوائج الأيتام والأرامل؟ من منَّا من يتفقَّد حاجاتهم ويسدُّ عوزهم؟!

من يفعل الخير لا يُعدم جوازيه
لا يهلك العرف بين الله والناس[٣]

إن المسارعة إلى سد حاجات الناس ـ وخاصة من فقدوا عائلهم ـ: من خصال المسلم الحميدة، وعرفت شخصًا جزاه الله خيرًا فرغ نفسه للأرامل والأيتام فيراجع عنهم الدوائر الرسمية، ويقضي حاجاتهم. ويبث شكواهم إلى القادرين، ويتفقَّد أحوالهم.. فيتابع هذا اليتيم في المدرسة، ويبحث عن مرتبات التقاعد إن كان لهم فيها نصيب، ويذهب بأطفالهم إلى المستشفى.. جزاه الله خيرًا ورزقه الإخلاص في العمل..

---

(١) حلية الأولياء: (٨/ ٢٥٥).
(٢) حلية الأولياء: (٥/ ٣١).
(٣) مكارم الأخلاق: (٣٨).

خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه الناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك، قال: ارجعوا فإنَّه ذلَّة للتَّابع وفتنة للمتبوع.

وحين سُئل يوسف بن إسباط: ما غاية الزهد؟ قال: لا تفرح بما أقبل ولا تأسف على ما أدبر.

وقيل له: فما غاية التواضع؟ قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدًا إلا رأيت أنه خير منك[١].

وهذا عمر الندي يقول: خرجتُ مع ابن عمر، فما لقي صغيرًا ولا كبيرًا إلا سلم عليه[٢] ـ رضي الله عنه ـ فما أشد تواضعه رغم غزارة علمه ورفعة قدره، فهو الذي يبدأ بالسَّلام على الصغير والكبير.. والبعض اليوم يتثاقل حتَّى في رد السَّلام. فلا نرى تلك البشاشة وذلك الارتياح.. بل الكثير عليه آثار الغضب والعبوس من أمرٍ بسيطٍ وشأنٍ حقيرٍ.

من كان يأمل أن يرى
من ساقطٍ نيلاً سنيا
فلقد رجا أن يجتني
من عوسج رُطَبًا جنيا[٣]

كان قاسم الجوعي يحدث في حلقته: اغتنموا من زمانكم خمسًا، إن حضرتم لم تعزموا، وإن غبتم لم تفتقدوا، وإن شهدتم لم تشاوروا، وإن قلتم شيئًا لم يقبل قولكم، وإن عملتم شيئًا لم تعطوا به.

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٢٦٥).

(٢) السير: (٣/ ٢٢١).

(٣) أدب الدنيا والدين: (١٩٤).

وأوصيكم بخمس أيضًا: إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مدحتم لا تفرحوا، وإن ذممتم لا تجزعوا، وإن لذبتم فلا تغضبوا وإن خانوكم فلا تخونوا[١].

أخي المسلم:

تتجسد الصور أمامنا.. وتمر العبر حولنا.. ولكن أين الاعتبار والاستعداد.. بل والتأثر والمتابعة.. لحظات قليلة.. ثم ننسى ما سمعنا وما قرأنا..

أخي:

من خصال الخير في سلفنا الصَّالح الورع، ويتجلَّى بأبهى صورة وأنصع رؤيته في الرَّعيل الأوَّل.. ثمَّ يمتدُّ حتَّىٰ زماننا الحاضر على قلَّة وندرة. فكثيرًا مانسمع عن ورع العلماء والعُبَّاد والصَّالحين في كلِّ زمان ومكان.. تركوا الدُّنيا ولم يتهافتوا عليها.. كان هـمُّهم الدَّار الآخرة..

قال **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ: ما ضربت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت على قدمي حتَّى أنظر أعلى طاعة أو على معصية؟ فإن كانت طاعة تقدَّمت، وإن كانت معصية تأخَّرت[٢].

والأمر يسير على من يسره الله عليه ووفقه وأعانه وجاهد نفسه حتَّى أراها الاستقامة وألزمها الجادة.

عن **ابن المنكدر** قال: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت[٣].

إنها مكابدة ومصابرة ومجاهدة حتى في أدق الأمور وأصغرها.. فقد

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٢٣٧).
(٢) جامع العلوم والحكم: (٩٣).
(٣) السير: (٥/ ٣٥٥).

مر رجل يحمل حشيشًا فتناول منه رجل طاقة، فقال له: ابن عمر: أرأيت لو أن أهل منى أخذوا من هذا طاقة وطاقة.. بقي منه شيء؟! قال: لا، قال: لم فعلت؟!

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **عبد الله بن أحمد بن حنبل**: لم ير أحد أبي إلا في مسجد، أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق[1].

إن كنت تبغي الرشاد محضًا ... لأمر دنياك والمعاد

فخالف النفس في هواها ... إن الهوى جامع الفساد[2]

أخي الحبيب:

هلا وقفت معي نتأمل في ورع **سلمان الفارسي** فقد روى الحسن بقوله: كان عطاء **سلمان الفارسي** خمسة آلاف، وكان أميرًا على زهاء ثلاثين ألفًا من المسلمين، فإذا خرج عطاؤه أمضاه، ويأكل من سفيف يده[3].

وإني بحمد الله لا ثوب غادر ... لبست ولا من غدرة أتقنع

بل أخي:

إذا أظمأتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعًا وريا

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص (٣٥٠).

(٢) تذكرة الحفاظ: (٣/ ١١٤٥).

(٣) يعني: أنه كان يتصدق بوظيفته من بيت المال ثم يسف الخوص ويأكل منه.

فكــــــن رجـــــلاً رجلــــــه فـــــي الثــــرى
وهـــــامـــــاً همتـــــه فـــــي الثـــريـــــا
أبيـــــاً لنفســـــك عـــــن بـــــاخـــــل
تـــــراه بمـــــا فـــــي يـــــديـــــه أبيـــــا
فـــــإن إراقـــــة مـــــاء الحيـــــاة
دون إراقـــــة مـــــاء المحيـــــا

أخي المسلم:

للذنوب والمعاصي آثار على المسلم.. ولكن كثرت ذنوبنا فلا ندري من أين نُؤتى.

كان **الفضيل بن عياض** يقول: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي[1].

وقيل: إن سبب ترك **عافية بن يزيد بن قيس** القضاء: أنه تثبت في حكم، فأهدى له الخصم رطبًا، فرده وزجره، فلما حاكم خصمه من الغد قال **عافية**: لم يستويا في قلبي، ثم حكاها للخليفة قال: هذا حالي وما قبلت، فكيف لو قبلت، فأعفاه.

وعفاف النفس وغناها يضرب المثل فيهم ربهم.. قال **أبو يوسف الفولي**: إنه ليكفيني في السنة اثنا عشر درهمًا، في كل شهر درهم، وما يحملني على العمل إلا ألسنة هؤلاء القراء يقولون: أبو يوسف من أين يأكل، وكان يقول: أتفقه في مطعمي من ستين سنة.

وقال موسى بن طريف: سمعت **يوسف بن إسباط** يقول: لي أربعون

---

(١) صيد الخاطر ص (٣٤).

سنة ما حك في صدري شيء إلا تركته.

أخي الحبيب:

صن النفس وأحملها على ما يزينها
تعش سالماً والقول فيك جميل
ولا تريَن الناس إلا تجملاً
نبا بك دهر أو جفاك خليل[١]

عن إسحاق بن راهويه قال: لمَّا خرج **أحمد بن حنبل** إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة فأكري نفسه من بعض الجمالين إلى أن وافي صنعاء، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئًا.

وحين سُئل **الثوري** عن مسألة وهو يشتري شيئًا، قال: دعني فإن قلبي عند درهمي.

أخي المسلم:

ترى الكثير يعجبك مظهره ويجذبك سحر حديثه، وترى أنه هوالرجل.. ولكن قبل أن تستعجل الحكم، عليك بميزان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ حين قال: لا تعجبكم من الرجل طنطنته، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس لهو الرجل[٢].

* * *

---

(١) ديوان الإمام علي ص (١٥٧).

(٢) تاريخ عمر ص (٢٢٦).

حدود الأخلاق

للأخــلاق حد متى جوازته صارت عدوانًا، ومتى قصرت عنه كان نقصًا ومهانة.

فللغـضـب حَـدٌّ وهـو الشجـاعـة المحمـودة والأنفـة مـن الـرذائـل والنقائص، وهذا كماله. فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

وللحـرص حد وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

وللحـسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس. قال النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس**»، فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

وللشهـوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك، فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقًا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغًا في طلب الكمال والفضل كانت ضعفًا وعجزًا ومهانة.

وللراحة حد وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتى زاد على ذلك صار توانيًا وكسلاً وإضاعة وفات به أكثر مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مضرًّا بالقوى موهنًا لها وربما انقطع به كالمنبت الذي لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

والجود له حد بين طرفين، فمتى جاوز حده صار إسرافًا وتبذيرًا، ومتى نقص كان بخلاً وتقتيرًا.

وللشجاعة حد متى جاوزته صار تهورًا، ومتى نقصت عنه صار جبنًا وخورًا، وحدها الإقدام، في مواضع الإقدام والإحجام في مواضع الإحجام، كما قال معاوية لعمر بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: أعياني أن أعرف أشجاعًا أنت أم جبانًا تقدم حتى أقول من أشجع الناس، وتجبن حتى أقول من أجبن الناس، فقال:

شجاع إذا أمكنتني فرصةٌ
فإن لم تكن لي فرصة فجبان

والغيرة لها حد إذا جاوزته كانت تهمة وظنًّا سيئًا بالبريء، وإذا قصرت عنه كان تغافلاً ومباديء دياثة.

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

وللعز حد إذا جاوزه كان كبرًا وخلقًا مذمومًا، وإن قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

خير الأمور الوسط:

وضابط هذا كله العدلُ، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي

الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به. فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك. وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولاسيما حدود المشروع المأمور والمنهي. فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]، فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلاً[١].

أخي الحبيب:

أين أنت من قول وهب: المؤمن يخالط ليعلم، ويسكت ليسلم، ويتكلم ليفهم، ويخلو لينعم[٢].

* * *

(١) الفوائد: (١٨٣، ١٨٤).
(٢) السير: (٤/٥٥١).

الخاتمة

أخي الحبيب:

وقد عشنا سطورًا مضيئة من حياة السلف ومواقفهم الزكية العطرة.. نختم ذلك كله بحديث الرسول ﷺ فقد روى أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**».

قاله مرتين أو ثلاثًا، فقال القوم: بلى يا رسول الله. قال: «**أحسنكم خلقًا**».

ومع أن رسول الله ﷺ كان على خلق عظيم كما وصفه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في محكم آياته فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكثر في دعائه بأن يمنحه الله حسن الخلق، فيقول: «**اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر**».

وجاء في حديث آخر أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي**».

وسوء الخلق والعياذ بالله يفسد العمل ويدفع الإنسان إلى ارتكاب الإثم والاستمرار في ارتكابه، لأنه ـ كما يقال ـ كلما خرج من ذنب دخل في ذنب آخر بسوء خلقه.

أخي المسلم:

جعلني الله وإياك ممن حسن خلقه، وزكّى نفسه، وجمعنا وإياكم ووالدينا في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.

٢ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.

٣ ـ الأدب المفرد للبخاري.

٤ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دارالكتب العلمية.

٥ ـ تاريخ الخلفاء، الحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

٦ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.

٧ ـ تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث.

٨ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض، مكتبة الحياة.

٩ ـ تنبيه الغافلين، الفقيه نصر السمرقندي، تحقيق عبد العزيز الوكيل دار الشروق، ١٤١٠هـ.

١٠ ـ التواضع والخمول لابن أبي الدنيا تحقيق لطفي الصغير، دار الاعتصام.

١١ ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.

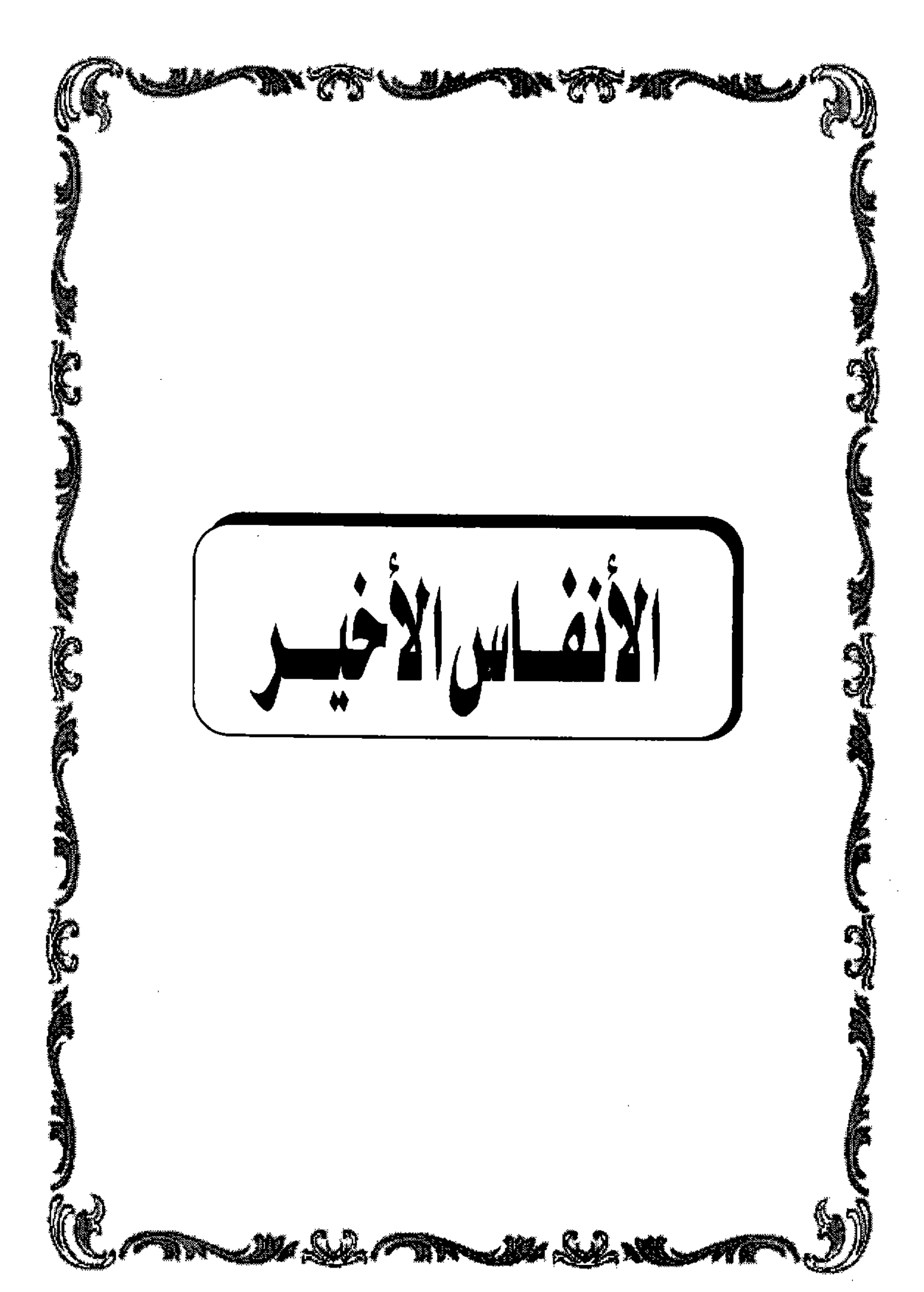
١٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.

١٣ ـ الحسن البصري لابن الجوزي.

١٤ ـ ديوان الإمام علي جمعه وشرحه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.
١٥ ـ الزهد لابن المبارك.
١٦ ـ الزهد للحسن البصري، تحقيق د/ محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.
١٧ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، حسين الأسد، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.
١٨ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.
١٩ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للحافظ جلال الدين السيوطي، دارالكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٤هـ.
٢٠ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، ومحمد رواس، دار المعرفة ١٤٠٥هـ.
٢١ ـ كتاب الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا دار الكتاب العربي ١٤١٠هـ.
٢٢ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.
٢٣ ـ كتاب العزلة للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، ط١/ ١٣٥٦هـ نشرة عزت العطار.
٢٤ ـ الفوائد لابن القيم الجوزية، دار النفائس.
٢٥ ـ مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، حققه ونشره جينز أ ـ بلمي، مكتبة ابن تيمية.

٢٦ ـ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، مكتبة الخاني، ١٣٩٩هـ.
٢٧ ـ منهاج القاصدين، لابن الجوزي.
٢٨ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ.

* * *



الأنفاس الأخير

كلمة صادقة

كان الحسن يقول: ابن آدم إنَّك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك.

ابن آدم: لو أنَّ النَّاس كلُّهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لمْ تضرك معصيتهم

ابن آدم: ذنبك ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك وإنْ تكن الأخرى فإنما هي نار لا تطفأ وجسمٌ لا يبلى ونفسٌ لا تموت[1].

(١) الحسن البصري: (١٠١).

المقدمة

الحمـد لله رب العـالميـن والصـلاة والسـلام علـى أشـرف الأنبيـاء والمرسلين.

أما بعد:

فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل هذه الدنيا دار ممر لا دار مقر وجعل بعدها الحساب والجزاء، ولما كان آخر أنفاسنا من هذه الدنيا هي ساعة الاحتضار وما يلاقيه المحتضر من شدة وكرب فإن الكيس الفطن هو من يرى كيف مر الموقف بغيره، وكيف تغشى أحبته وماذا جرى لهم لكي يستعد ويتجهز ويكون على أهبة لملاقاة الموت.

وقد انتقيت للأخ الحبيب مجموعة من تلك المواقف المختلفة ابتداء بنبي الأمة محمد ﷺ ومرورًا بالصحابة والسلف ليكون على بصيرة فينظر موضع قدمه ونهاية أنفاسه.. وهي صور فيها خوف ووجل ولكنها عبرة لمن اعتبر وإيقاظ لمن غفل. وهذا الكتاب هو الثاني عشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» أخذت أصله من كتابي «**لحظات ساكنة**» بناء على طلب بعض الإخوة.

أدعو الله ـ عز وجل ـ أنْ يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله وأن يمتعنا على طاعته وأنْ يجعل خير أيامنا أواخرها وخير أعمالنا خواتمها وأنْ يجعل ما يصيبنا في سكرات الموت تكفيرًا لذنوبنا ورفعًا لدرجاتنا.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

أخي الحبيب:

ها أنت تسافر في كل حين. . تبحث عن تجارب الآخرين وتنظر في آثار السابقين. . سافر معنا خمس دقائق أو تزيد لترى موقفًا سيمر عليك بمفردك وستقف معه لوحدك. . شئت أم أبيت.

إنَّه موقف مر به المؤمن والكافر والبر والفاجر. . الذكر والأنثى والصغير والكبير. . بل حتى الأنبياء والرسل مر بهم الموقف المهول واللحظات الحاسمة.

إنَّه موقف قادم إليك، فتعال لترى وتسمع وتعيش لحظات مع من مر بهم الموقف قبلنا. . فخبروه وعرفوه وذاقوا طعمه وشربوا من كأسه.

أمَّا وإنَّك العاقل الفطن تسير في عيون الآخرين لترى تجاربهم وتقلِّب الكتب لترى كيف تاريخ الأمم. . تعال لترى نهاية أيَّامهم وآخر أنفاسهم فلقد قرأت كثيرًا وسمعت كثيرًا. . فتواضع لحروفي وأطلق بصرك لتسير معي في رحلة بين السُّطور. .

إنَّها رحلة عبر الزَّمن لمنْ مرَّ بهم الموت وحلَّ ضيفًا عليهم. . إنَّها رحلة العمر. . رحلة بدأت وستنتهي، فانظر بين السُّطور نهايتك واختر لنفسك.

لا يزعجك الخوف فلا فائدة منه لدفع الموت ولا لرده، بل تأمل ساعات النهاية لهؤلاء واحسب نفسك منهم فلكل حي نهاية. . وربما يكون لك في ذلك عبرة. فأنت من الأموات غدًا. . ومن أصحاب القبور.

سآخذ بيدك وتأخذ بيدي في رحلة نوآنس بعضنا وتلتقي فيها قلوبنا. . فنحن رفقاء طريق. .

سنسير مع الأنبياء والصالحين ونرى حالهم وما نزل بهم من الكرب وشدة الموت.

فإن لخروج الروح آلام وشدائد.. فهي تنزع من الجسد وتجذب معها العروق والأعصاب، ألم تر أن الميت ينقطع صوته وصياحه من شدة الألم!!

إنَّه مشهد مؤثر وموقف لن يتكرر..

إنَّه مشهد الموت ولحظات الاحتضار.. عندما تبلغ الروح الحلقوم وترتفع من كل مفصل ويتحشرج الصدر وتذرف العينان.

عندها يتيقين ويتأكد الفراق.. ويأتي هذا التأكيد بطوي القدمين ورفعهما من الدنيا وكأنك تودع حياة الجري والسعي في هذه الأرض إلى دار الجزاء والحساب.. قال ـ تعالى ـ في أحسن وصف لهذا المشهد: ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) ﴾ [القيامة: ٢٩].

عندها تبدأ مسيرة الآخرة.. ورحلة الجزاء والحساب: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) ﴾ [القيامة: ٣٠].

حال من يرى ظلالاً من الحزن وساعاتٍ من الندم وتفكر في المآل والمصير.

فالموت حقيقة قاسية رهيبة، تواجه كل حي، فلا يملك لها ردًا، ولا يستطيع لها أحدٌ ممن حوله دفعًا، وهي تتكرر في كل لحظةٍ وتتعاقب على مر الأزمنة، يواجهها الجميع صغارًا وكبارًا، أغنياءً وفقراء، أقوياء وضعفاء، ومرضى وأصحاء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٨) ﴾ [الجمعة: ٨].

نهاية الحياة واحدة فالجميع يموت ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ﴾

[آل عمران: ١٨٥] إلا أن المصير بعد ذلك مختلف ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

والله - عزَّ وجلَّ - خلق الموت والحياة لشأن عظيم وأمر جسيم، فقال - تعالى -: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

وقد وصف - سبحانه وتعالى - شدة الموت في أربع آيات:

الأولى: قول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

الثانية: قول الحق سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الثالثة: قوله - تعالى -: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: قوله - تعالى -: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦﴾ [القيامة: ٢٦].

وقال - تعالى - يصف مشهد الموت بتفصيل عجيب وتصوير متتابع لهذا الحدث العظيم: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠].

وقال - تعالى - في أصدق وصف وأحسن تعبير: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠﴾ [ق: ١٩، ٢٠].

وما أدراك - يا أخي - ما هذا المجيء لسكرات الموت؟ مجيءٌ لا مناص عنه ولا مهرب، لا تجدي معه حيلةٌ ولا تنفع معه وسيلة، إنَّه بداية نهايتك من هذه الدنيا وانقطاعك عنها، والإقبال على الآخرة ودخول معبرها، وترك ما وراءك من الأموال والقصور، والأهل والدور.

إنها - والله - ساعة مهولة ذات كربٍ شديدٍ وما بعدها إلا وعدٌ أو

وعيد، لو تفكرت في حلولها وأنت في نعيم وهناء لتكدرت حياتك ولهانت الدنيا عندك، وصغر عظيمها في عينيك، ولتبدل فرحك حزنًا وسعادتك كدرًا.. كيف لا، وأنت تفارق المال والولد، والأحباب والأصحاب إلى دار الجزاء والحساب، أهوالٌ تهون عندها أهوال.. حتَّى تنتهي في رحلة طويلة شاقة إلى أحد الفريقين: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ ﴾ [الشورى: ٧].

قال الحكيم بن نوح لبعض إخوانه: اتكأ **مالك بن دينار** ليلة من أول الليل إلى آخره لم يسجد فيها ولم يركع فيها، ونحن معه في البحر، فلمَّا أصبحنا قلت له: يا مالك، لقد طالت ليلتك لا مصليًا ولا داعيًا، قال: فبكى، ثم قال: لو يعلم الخلائق ماذا يستقبلون غدًا ما لذوا بعيش أبدًا، إني ـ والله ـ لما رأيتُ الليل وهوله وشدة سواده، ذكرت به الموقف وشدة الأمر هنالك، وكل امريء يومئذٍ تهمُّه نفسه، لا يغني والد عن ولد ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا، ثم شهق شهقة فلم يزل يضطرب ما شاء الله، ثم هدأ، فحمل عليَّ أصحابنا في المركب، وقالوا: أنت تعلم أنه لا يحمل الذكر فلم تهيجه؟ قال: فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكر له شيئًا(١)..

إنَّه التذكر الدائم والوجل المستمر من ساعة الاحتضار وما بعدها والاستعداد لها بالعمل الصالح والتوبة النَّصوح.. إنَّه استعداد الأخيار ومبادرة الصَّالحين.

ونحن في هذا الزمن نضيع أعمارنا وننفق أوقاتنا فيما لا طائل من

(١) حلية الأولياء: (١/١٨).

ورائه.. ولا فائدة من بعده بل إننا فرحون مستبشرون بذلك.. أرأيت كيف يضيع يومك وتنفق عمرك؟!

أما **الحسن** فحين مر برجلٍ يضحك، سأله: يا ابن أخي.. هل جزت الصراط؟ فقال الرجل: لا، قال: فهل علمت إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ فقال: لا، قال: ففيم الضحك؟! عافاك الله والأمر هول، فما رُؤي الرجل ضاحكًا حتى مات[1].

أخي الحبيب:

أي سفر أطول من هذا السفر؟ وأي زاد تحتاج؟ إنه ـ أيها الحبيب ـ زاد الآخرة: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقر: ١٩٧].

أما الموت الذي لم نذقه فلا نعرفُ ألمه وشدته إلا حين يقع.. فكل منَّا سيمر بتلك اللَّحظات العصيبة والدَّقائق الرَّهيبة.. الأنفاس مشدودة والعين حائرة كسيرة.. إنَّها لحظة الاحتضار.

وحين تفتح عينك وملك الموت واقف على رأسك.. تُفكر في ماذا تلك اللحظات؟!

ونحن لم نذق الموت بَعْد.. ألمه وغُصَصه وكُربه.. ما هي؟ لحظاتُ لنرى حال من سبقنا إلى ذلك فهذا **عمرو بن العاص** ـ رضي الله عنه ـ لما احتضر سأله ابنه عن صفة الموت فقال: والله لكأن جنبي في تخت ولكأني أتنفس من سم إبرة، وكأن غصن شوك يجر به قدمي إلى هامتي[2].

وسأل **عمر** ـ رضي الله عنه ـ كعبًا، فقال: أخبرني عن الموت؟

---

(١) الحسن البصري ص (٦٩).

(٢) جامع العلوم ص (٤٤٩).

قال: يا أمير المؤمنين، هو مثل شجرة كثيرة الشوك في جوف ابن آدم، فليس منه عرق ولا مفصل، وهو كرجل شديد الذراعين فهو يعالجها ينتزعها، فبكى عمر.

هذا هو الموت وهذه شدته.. سيكون تفكيرك في تلك اللحظات منحصرًا في أي الأبواب ستدخل، وفي أي الدارين تسكن؟

أخي الحبيب:

إن الموت هو الخطبُ الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنه الحادث الأهدم للذَّات، والأقطع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمرًا يُقطِّعُ أوصالك، ويُفرِّق أعضاءك، ويهدم أركانك، لهو الأمر العظيم والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم.

أيها الحبيب:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كربٌ ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده[١].

كيف ونحن نعلم أن وراء الموت القبر وظلمته والصراط ودقته والحساب وشدته أهوالٌ وأهوال.. إنها رحلة ستنتهي بالجميع إلى محط الرحال هناك حيث النهاية جنةٌ أو نار.

قال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها، فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد

---

(١) الإحياء: (٤/ ٤٩٠).

مرات، وكذلك طلب دابة فأُتي بها فلم تعجبه، حتى أُتي بدواب فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فجلاه كبرًا، ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرًا، فجاءه رجل رث الهيئة فسلم، فلم يرد عليه السلام، فأخذ لجام دابته، فقال: أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرًا عظيمًا. قال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى أنزل، قال: لا، الآن. فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها، قال: هو سر، فأدنى له رأسه فسارَّه وقال: أنا ملك الموت، فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا، والله لا ترى أهلك وثقلك أبدًا، فقبض روحه فخر كأنه خشبة.

ثم مضى فلقي عبدًا مؤمنًا في تلك الحال، فسلم عليه، فرد عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك، فقال: هات، فسارَّه وقال: أنا ملك الموت، فقال: أهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته عليَّ فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليَّ أن ألقاه منك، فقال ملك الموت: اقضِ حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله ـ تعالى ـ، قال: فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم إني أمرت بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد[١].

أما ـ والله ـ سيأتيك يوم مثل يومي.. وسيمر عليك ما مر بي.. ألا فاعتبر.

قال أنس بن مالك: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق

---

(١) الإحياء: (٤/٤٩٦).

بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله ـ تعالى ـ إما برضاه، وإما بسخطه، ويوم تُعرض فيه على ربك آخذًا كتابك. إما بيمينك وإما بشمالك. وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور ولم تبت فيها قط، وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة[١].

روي أن ملك الموت دخل على داود ـ عليه السلام ـ فقال: من أنت؟ فقال: من لا يهاب الملوك، ولا تمنع منه القصور، ولا يقبل الرُّشا. قال: فإذًا أنت ملك الموت، قال: نعم، قال: أتيتني ولم استعد بعد!؟ قال: يا داود أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات. قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتسعد[٢].

أخي الحبيب:

أيام عمرك أيام قلائل، ولحظات محسوبة، وأنفاس معدودة، لو أردت زيادة في عمرك ولو للحظات ـ مقابل أموال الدنيا أجمع ـ لما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فكيف بك الآن تضيعها في غير طاعة الله.. تنفق الساعات الطوال في لهو ولعب وهي لحظات عمرك الغالية وساعات حياتك الثمينة.. وقد ذكر ذلك **أبو حازم** فقال: إن بضاعة الآخرة كاسدة، يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل ولا كثير، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى حالٍ يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية[٣].

ولنسير لحظات لنرى بعضًا من حالات الاحتضار ونزلات الموت التي

---

(١) التذكرة: (٩٨).

(٢) التذكرة: (٤٨).

(٣) جامع العلوم: (٤٦٨).

هي إلينا قادمة عاجلاً أو آجلاً . هذه حال رسول الله ﷺ خير الأنبياء والمرسلين وأكرم الخلق على الله أجمعين عندما أصابته سكرات الموت وشدتها .

فقد قال ﷺ: وهو يدخل يديه في ركوة ماء ويمسح بها وجهه الشريف : «**لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات**» [رواه البخاري] .

ولما رأت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه قالت: واكرب أباه، فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**» [رواه البخاري] .

هذه حال سيد الخلق وحال من تفطَّرت قدماه وغفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخَّر .

أما حال **الصديق أبي بكر** ـ رضي الله عنه ـ وهو المبشر بالجنة لما احتضر ـ رضي الله عنه ـ تمثلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بهذا البيت :

أعــاذل مـــا يغنـــي الحـــذار عـــن الفتـــى
إذا حشـــرجـــت يـــومًـــا وضـــاق بهـــا الصـــدر

فقال **أبو بكر** ـ رضي الله عنه ـ: ليس كذلك يا بنية ولكن قولي: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق : ١٩] .

ثم قال: انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما ثم كفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت[1] .

وهذا **فاروق الأمة** وثاني الخلفاء الراشدين والمبشر بالجنة . . هذه حاله وهذا خوفه من الله ـ عز وجل ـ فقد قال **عبد الله بن الزبير** : ما أصابنا حزنٌ منذ اجتمع عقلي مثل حزن أصابنا على عمر بن الخطاب ـ رضي الله

---

(١) الزهد: (١٦٣).

عنه ـ ليلة طُعن، قال: صلى بنا الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أسرالناس وأحسنهم حالاً. فلمَّا كانت صلاة الفجر صلى بنا رجل أنكرنا تكبيره، فإذا هو عبدالرحمن بن عوف، فلمَّا انصرفنا قيل: طُعن أمير المؤمنين. قال: فانصرف الناس وهو في دمه لم يُصل الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين الصلاة، الصلاة. قال: ها الله ذا لاحظ لامريء في الإسلام ضيع الصلاة، قال: ثم وثب ليقوم فانبعث جرحه دمًا، قال: يا أيها الناس أكان هذا على ملأ منكم؟ فقال له علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لا والله، لا ندري من الطاعن من خلق الله؟. أنفسنا تفدي نفسك، ودماؤنا تفدي دمك، فالتفت إلى عبدالله بن عباس فقال: أخرج، فسل الناس ما بالهم وأصدقني الحديث.

فخرج ثمَّ جاء، فقال: يا أمير المؤمنين أبشر بالجنَّة، لا والله ما رأيت عينًا تطرف من خلق من ذكر أو أنثى. . إلا باكية عليك، يفدونك بالآباء والأمهات، طعنك عبد المغيرة بن شعبة، وطعن معك اثني عشر رجلاً فهم في دمائهم حتَّى يقضي الله فيهم ما هو قاضٍ، تَهْنَك يا أمير المؤمنين الجنَّة. . قال: غُر بهذا غيري يا ابن عباس، فقال ابن عباس: ولِمَ لا أقول لك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن كان إسلامك لعزًا، وإن كانت هجرتك لفتحًا، وإن كانت ولايتك لعدلاً، لقد قُتلتَ مظلومًا، ثمَّ التفت إلى ابن عباس فقال: تشهد بذلك عند الله يوم القيامة؟ فكأنَّه تلكأ. قال: فقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وكان بجانبه: نعم يا أمير المؤمنين نشهد لك عند الله يوم القيامة، قال: ثمَّ التفت إلى ابنه عبد الله بن عمر فقال: ضع خدي إلى الأرض يا بني، قال: فلم أبح (أعبأ) بها وظننت أن ذلك اختلاس من عقله. فقالها مرة أخرى: ضع خدي إلى الأرض يا بني، فلمَّا أفعل، ثمَّ

قال لي المرة الثالثة: ضع خدي إلى الأرض لا أم لك، فعرفت أنَّه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه إلا ما به من الغلبة، قال: فوضعت خدَّه إلى الأرض حتَّى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجة من بين أضغاث التُّراب، قال: وبكى حتَّى نظرت إلى الطِّين قد لصق بعينيه، قال: وأصغيت بأذنين لأسمع ما يقول، قال: فسمعته وهو يقول: يا ويل عمر وويل أمه إن لم يتجاوز الله عنه[1].

فلــــو كـــــان هـــــول المـــــوت لا شـــــيء
لهـــــان علينـــــا الأمـــــر واحتُقِــــر الأمـــــرُ
ولكنَّـــــه حشـــــرٌ، ونشـــــرٌ، وجنَّـــــة
ونـــــارٌ ومـــــا قـــــد يستطيـــــل بـــــه الخبـــــرُ

ولمَّا احتضر **عثمان بن عفَّان** ـ رضي الله عنه ـ جعل يقول ودمه يسيل: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعين بك على أموري، وأسألك الصبر على بلائي.

هؤلاء أصابتهم شدة الموت وسكراته وهم الصحابة الأجلاء والرفقاء الأخلاء.. خلفاء الأمة الراشدون والمبشرون بالجنة.. فما بالك بحالنا وكيف إذا نزل بساحتنا؟! فالله المستعان.

أما **معاوية بن أبي سفيان** ـ رضي الله عنه ـ عندما حضرته الوفاة، قال: أقعدوني. فأقعد، فجعل يُسبح الله ـ تعالى ـ ويذكره، ثم بكى. وقال: تَذْكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط، ألا كان هذا وغض الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه، وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا

---

(١) تاريخ عمر ص (٢٤٥).

القلب القاسي، اللهم أقل العثرة، واغفر الزل، وجد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولا يثق بأحدٍ سواك[١].

وبكى أبو هريرة في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أمَّا إنِّي لا أبكي على دنياكم هذه، ولكنِّي أبكي على بعد سفري وقلَّة زادي، وأنِّي أصبحت في صعود مُهبطٌ على جنة ونار، ولا أدري أيَّهما يؤخذ بي[٢].

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبدالعزيز: كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخفِ عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلمَّا كان اليوم الذي قبض فيه، خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعته يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣].

ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلامًا، فقلت لوصيف له: انظر أنائمٌ هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت[٣].

الله أكبر ما أسرع قدوم تلك اللحظات إلينا: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨] نعم أينما اتجهنا ومهما اختفينا فإنه ملاقينا يومًا ما. ولو قيل: إنه سيقدم علينا بعد مئات السنين لأهمنا نقص اليوم والليلة لأن ذلك يقربنا إليه ويدنينا منه وكيف وأعمارنا دون المائة وتقارب الستين.. بل وربما نؤخذ ونحن في زهرة الشباب أو دون ذلك.

---

(١) الثبات عند الممات: (٨٩).
(٢) العاقبة: (١٣٥).
(٣) حلية الأولياء: (١/ ٢٨٣).

ولكن أين الاستعداد للرحيل. . والاستعداد لملاقاته ثم والله ما بعده من السُّؤال في تلك الحفرة الضيقة ثم الفزعات والأهوال يوم القيامة. . ثمَّ المنصرف إلى أحد الدارين.

أخي المسلم:

قال **صفوان بن سليم**: في الموت راحة للمؤمن من شدائد الدنيا وإن كان ذا غُصص وكُرب، ثمَّ ذرفت عيناه(١).

وعند ذكر ما بعد الموت يهون الموت وشدَّته وألمه وغصصه وسكراته خاصَّة إذا كان الخوف من فتنة الدين كما قال **سفيان الثوري**: ما من موطن من المواطن أشد عليَّ من سكرة الموت أخاف أن يشدد علي، فأسأل التخفيف فلا أجاب فأفتن(٢).

وقد بكى ليلة إلى الصَّباح، فلمَّا أصبح قيل له: أكلُّ هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال: الذُّنوب أهون من هذه، وإنَّما أبكي خوفًا من سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه أنْ يخاف الرجَّل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنَّه لمَّا احتضر جعل يُغمى عليه ثمَّ يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

---

(١) السير: (٥/٣٦٦).

(٢) صفة الصفوة: (٣/١٤٨).

فمن أجل هذا خاف السَّلف من الذُّنوب أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أنَّ سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه.. ما سُمع بهذا ولا عُلم به ولله الحمد، إنَّما تكون لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرار على الكبيرة، وإقدام على العظائم، فربَّما غلب ذلك عليه حتَّى نزل به الموت قبل التَّوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطَّوية، ويصطدم قبل الإنابة، فيظفر به الشَّيطان عند تلك الصَّدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة ـ والعياذ بالله ـ[(١)].

لما نزل الموت بسليمان التيمي قيل له: أبشر فقد كنت مجتهدًا في طاعة الله ـ تعالى ـ، فقال: لا تقولوا هكذا فإني لا أدري ما يبدو لي من الله ـ عز وجل ـ فإنه يقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧].

قال بعضهم: عملوا أعمالاً كانوا يظنُّون أنَّها حسنات فوجدوها سيِّئات.

وقالت أم الدَّرداء: كان أبو الدَّرداء إذا مات الرَّجل على الحال الصَّالحة قال: هنيئًا لك، يا ليتني كنت مكانك، فقالتْ أمُّ الدَّرداء له في ذلك فقال: هل تعلمين يا حمقاء أنَّ الرَّجل يصبح مؤمنًا ويمسي منافقًا، يُسلبُ إيمانه وهو لا يشعر، فأنا لهذا الميت أغبط منِّي لهذا بالبقاء في الصَّلاة والصِّيام[(٢)].

---

(١) الجواب الكافي ص (٢٤٥).

(٢) شرح الصدور ص (١١).

أخي المسلم:

اسأل الله الثَّبات على هذا الدين فكل حين نسمع أخبار من ترك طريق الهداية وزلَّت به قدمه في طريق الغواية.. أخبار تقشعرُّ لها الأبدان وتذهل لها العقول فإنَّها أشدُّ فتنة وأكبر مصيبة أن يتحوَّل الإنسان من حال الصَّلاح إلى حال أخرى ـ عصمنا الله من ذلك وأحيانا مسلمين وأماتنا مسلمين ـ.

لما حضرت **ابن المنكدر** الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته، ولكن أخاف أني أتيت شيئًا حسبته هينًا وهو عند الله عظيم[1].

ووالله إن في ذلك لعبرة، فنحن نودع الآباء والأبناء ونرى كيف يوسدون الثرى وينثر عليهم التراب وتغلق عليهم تلك الحفر الضيقة في قبور صغيرة موحشة، ولكننا لا نتفكر فيما نحن عليه مقبلون، ولممر نحن له عابرون.. ولطريقٍ عليه سائرون.

بكى **الحسن البصري** عند موته وقال: نُفيسة ضعيفة، وأمر مهولٌ عظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولو تفكرت ـ **يا أخي الحبيب** ـ الآن في أن الموت ببابك وملك الموت يطلب جنابك، لعلمت هول المطلع، ووالله لفزعت وذُهلت، هذا وأنت بحال الدنيا، فكيف والأمر جد، ومن الموت لابد.. نزل بساحة من سبقنا وله منزل بساحتنا حتى نقدم على الله ـ عز وجل ـ. وما ظنك بهذا القدوم.. وكيف تجهزت له؟! إنه قدوم على الله بعد مسير في هذه

---

(١) الثبات عند الممات: (٩٤).

الدنيا وضرب في أطرافها وحساب لأزمانها وأوقاتها وذنوبها وحسناتها.. إنه حساب لا يدع مثقال ذرة إلا أحصاها ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا في كتاب.

سئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الآبق على سيده الغضبان.

أخي الحبيب:

عش ما بدا لك سالمًا ... في ظل شاهقة القصور

يُسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور

فإذا النُّفوس تقعقعت ... في ضيق حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنًا ... ما كنت إلا في غرور

أخي الحبيب:

حريٌّ بنا أنْ نعي قول العلاء بن زياد الغدوي: ليُنزِلَ أحدكم نفسه أنَّه قد حضره الموت فاستقال ربَّه ـ تعالى ـ نفسه فأقاله، فليقل بطاعة[1].

فأقل ـ **أيُّها الحبيب** ـ نفسك من اليوم، وكنْ منْ بقيَّة القوم الذين استعدوا وللآخرة جدُّوا.

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٢٤٤).

وحالنا ـ الآن ـ قريبة من رجل قيل له وهو يجود بنفسه: ما حالك؟ فقال: وما حال من يريد سفرًا بعيدًا فلا زاد، ويدخل قبرًا موحشًا بلا مؤنس، وينطلق إلى ملكٍ عدلٍ بلا حُجَّة[١].

وقال بعضهم: دخلنا على **عطاء السُّلمي** نعوده في مرضه الذي مات فيه، فقلنا له: كيف ترى حالك؟ فقال: الموت في عنقي، والقبر بين يديَّ، والقيامة موقفي، وجسر جهنَّم طريقي.. ولا أدري مايفعل بي.

ثمَّ بكى بكاءً شديدًا.. حتَّى غشي عليه، فلمَّا أفاق، قال: اللَّهمَّ ارحمني وارحم وحشتي في القبر ومصرعي عند الموت، وارحم مقامي بين يديك يا أرحم الراحمين.

ويا أخي:

اعلم أنَّ الموت قادم وخطره عظيم، وغفل عنه النَّاس لقلَّة حديثهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلبٍ فارغٍ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت قلبه.

فالطَّريق فيه أنْ يفرغ العبد قلبه عن كلِّ شيءٍ إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أنْ يسافر إلى مفازة خطرة أو يركب البحر فإنَّه لا يتفكَّر إلا فيه[٢].

وإلا لأصابه ما أصاب الحسن حين دخل على مريض يعوده فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدَّة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللَّون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطَّعام يرحمك الله، فقال: يا

---

(١) الإحياء: (٢/ ٢٥١).
(٢) الإحياء: (٤/ ٤٧٩).

أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتَّى ألقاه[١].

وأهل الإيمان استعدُّوا بالعمل الصَّالح وبرجاء رحمة الله.. هاهم يطوون أكفانهم ويجهزون أنفسهم ويستعِدُّون للرَّحيل.

قالت **زينب بنت جحش** حين حضرتها الوفاة: إنِّي قد أعددت كفني، فإن بعث لي عمر بكفن، فتصدَّقوا بأحدهما، وإن استطعتم إذ أدليتموني أن تتصدَّقوا بحقوقي فافعلوا..

أمَّا **عبدالله بن عبد العزيز العمري** فقد قال عند موته: بنعمة ربي أُحدِّث.. إنِّي لم أصبح أملك إلا سبعة دراهم من لحاء شجرة مثلثها بيدي، وبنعمة ربي أحِّدث.. لو أنَّ الدُّنيا أصبحت تحت قدمي لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها ما أزلتها[٢].

وقال **المغيرة بن حبيب**: دخلنا على مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه، فرفع رأسه إلى السَّماء، ثمَّ قال: اللَّهمَّ إنَّك تعلم أنِّي لم أكن أحبُّ البقاء في الدُّنيا لفرج ولا لبطن[٣].

رحم الله الجميع.. بيننا وبينهم البون الشَّاسع، فحبُّ الدُّنيا عندهم رغبة في العبادة والطَّاعة.. أمَّا الحال اليوم فلماذا حُبُّ البقاء!!

سؤال لا يحتاج إلى جواب، فالحال يُغني والواقع يشهد بأنَّ الدُّنيا ثارت ثائرتها وأجلبت بخيلها ورجلها.. فطار غبار الكثير يلهث خلفها

---

(١) التذكرة: (١٤).
(٢) الثبات عند الممات: (١٥٣).
(٣) حلية الأولياء: (٣/ ٣٦١).

ويجري في إثرها.. فأناخ ركابه ببابها وكأنَّه مخلد فيها.. فالله المستعان.

قيل: إن محمَّد بن المنكدر بكى بكاءً شديدًا عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فرفع طرفه إلى السَّماء وقال: اللَّهمَّ إنَّك أمرتني ونهيتني فعصيت، فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت[1].

وعندما سُئل سعيد بن السَّائب: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أنتظر الموت على غير عدة[2].

ولذلك يجب على كل من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعدًا، ولا يغتر بالشَّباب والصِّحة.. فإن أقلَّ من يموت الأشياخ.. وأكثر من يموت الشُّبان، ولهذا يندر من يكبر..

ولكن من يدري متى يبغته الموت وتنشب المنيَّة أظفارها في عمره؟ فإذا بها تسكت أنفاسه وتقطع أوصاله.. وتنقله في لحظات من دار الدُّنيا إلى دار الآخرة فسبحان من ملك فأمر وحكم فعدل وتجاوز فغفر.

عن عمران الخيَّاط قال: دخلنا على إبراهيم النَّخعي نعوده، وهو يبكي، فقلنا له، ما يبكيك أبا عمران؟ قال: أنتظر ملك الموت لا أدري يبشِّرني بالجنَّة أم بالنَّار[3].

وصدق فما بعد هذه الدُّنيا إلا جنَّةٌ ونار.. ولكن هل نظرنا أين نحن ذاهبون ولأيِّ طريقٍ نحن سالكون، اجتمع علينا طول تسويف وغفلة

---

(١) الزهر الفائح ص (٩١).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢٨٣).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٨٩).

وأمل ورقدة.. فاللَّهمَّ أيقظ قلوبنا من سباتها وأغثها بالإيمان وحسن الاعتبار.

أخي الحبيب. تأهب:

إن للمـــــوت سكـــــرة فـــــارتقبهـــــا
لا يـــــداويـــــك إذا أتتـــــك طبيـــــبُ

أعاننا الله على لقائه وجعلنا ممن استعد للموت وكربه وغصصه وجعلنا مثل سلفنا الصالح، فقد كان الجنيد يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي، فختم، فقيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال: ومن أحق منِّي بذلك، وها هو ذا تطوي صحيفة عملي ثم كبَّر.. ومات[١].

وقال محمد بن واسع وهو في الموت.. يا إخوتاه تدرون أين يذهب بي؟ والله الذي لا إله إلا هو إلى النَّار، أو يعفو عني[٢].

أخي:

كـــأن أهلـــك قـــد دعـــوك فلـــم
تسمـــع وأنـــت مُحشـــرج الصـــدر
وكـــأنَّهـــم قـــد قلَّبـــوك علـــى
ظهـــر السـريـــر وأنـــت لا تـــدري
وكـــأنهـــم قـــد زودوك بمـــا
يتـــزود الهلكـــى مـــن العِطـــر

(١) العاقبة: (١٣٣).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧١).

أخي الحبيب:

يـــا ليــــت شعــــري كيــــف أنـــــت إذا
غُسِّلـــــت بـــــالكــــافـــور والســـــدر

أوليــــت شعـــري كيـــف أنــــت علــــى
نبــــش الضــــريـــــح وظُلمـــــة القبـــــر

لما نزل الموت بأحدهم، وكان صاحب طاعة وعبادة شق عليه وساءه ذلك، فقيل له: أتحب الحياة يا فلان؟ فقال: يا قوم القدوم على الله شديد.

الله أكبر إذا قدمنا على أهل الدنيا حسبنا ألف حساب وقدمنا وأخرنا وأصلحنا وأبدلنا.. هذا وهم بشرٌ مثلنا فكيف القدوم على رب الأرباب ونحن في حال من الزلل والخطأ.. والمعصية والذنب لا يعلمها إلا الله.

أرأيت ـ أخي الحبيب ـ كيف نستعد لامتحان الدنيا ونبذل الغالي والرخيص ونعطل مصالح كثيرة ولا نبالي بسؤال الآخرة.. وهو ـ والله ـ عنوان الفوز أو الخسارة.

قيل لأبي مسعود الأنصاري: ماذا قال حذيفة بن اليمان عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: أعوذ بالله من صباح إلى النَّار.. ثلاثًا.. ثمَّ قال: اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنَّهما لن يتركا عليَّ إلا قليلاً حتَّى أبدِّل بهما خيرًا منهما أو أُسلبهما سلبًا قبيحًا[١].

أخي الحبيب:

هذه نداءات قلبية صادقة من أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ وهو يحتضر

---

(١) السير: (٢/٢٦٨).

فقد جعل يقول: ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ وبكى، فقالت له امرأته: تبكي وقد صاحبت رسول الله ﷺ؟ فقال: ما لي لا أبكي ولا أدري علام أُهجم من ذنوبي.

أين الاستجابة لهذه النداءات المخلصة التي تهز أعماق المسلم وتذكره بتلك اللحظات القادمة إليه؟ إنها لحظات طوتها الغفلة وألقى عليها التسويف رداءه، فطال الأمل وقصر العمل وبَعُدَ فجر التوبة.

قال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا، قلت: ولِمَ؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقًا لكرهت لقاءه.. فكيف بالخالق ـ جلَّ جلاله ـ[1].

والناس في هذه الدنيا على ضربين مختلفين كما ذكر ذلك شميط بن عجلان بقوله: الناس رجلان، فمتزود من الدنيا ومتنعم فيها، فانظر أي الرجلين أنت؟ إني أراك تحب طول البقاء في الدنيا فلأي شيء تحبه؟ أن تطيع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتحسن عبادته وتتقرب إليه بأعمال صالحة فطوبى لك، أم لتأكل وتشرب وتلهو، وتلعب وتجمع الدنيا وتثمرها، وتنعم زوجتك وولدك؟ فلبئس ما أردت له البقاء.

ونحن ـ يا أخي ـ كما قال بعض الزهاد: لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بمآله[2].

كان حميد الطويل قائمًا يصلي فمات، فذكروه لابن عون وجعلوا

---

(١) العاقبة: (٣٠).

(٢) العاقبة: (٤٣).

يذكرون من فضله، فقال: احتاج حميد إلى ما قدم[١].

وقال أبو السور حسان بن حريث وقرأ هذه الآية: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣] قال: هما نشرتان، وطية، أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك منشورة فأمل فيها ما شئت، فإذا متَّ طويتْ، ثم إذا بعثت نشرت: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[٢] [الإسراء: ١٤].

فصحيفة الحي كتابٌ يُدون فيه حتى إذا انتهى عمره طويت تلك الصحائف للحساب. فصحفنا الآن منشورة ولكن ماذا يدون فيها؟ أهي أعمال صالحة وعبادة مقبولة أم غير ذلك.. ولو حمل أحدنا ورقة وقلمًا لمدة ساعة وسجل فيها أفعاله وأقواله ثم أعاد قراءتها بعد تلك الساعة لعلم حاله ورأى صحيفته وهو حي!!

وربما تدارك زلله ورجع عن غيه وأحسن العمل وجدد التوبة.

عن حميد قال: بينما الحسن في المسجد تنفس تنفسًا شديدًا، ثمَّ بكى حتَّى أرعدت منكباه، ثمَّ قال: لو أنَّ بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحًا لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة[٣].

ولمَّا حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب. فبكى نصر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هنا تموت فقيرًا غريبًا، فقال: اسكت فإني سألت الله أن

---

(١) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٥٢).

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٠).

(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٣).

يحييني حياة السعداء ويميتني ميتة الفقراء، ثمَّ قال: لقني الشهادة ولا تعد علي إلا أن أتكلم بكلام ثان[١].

الله أكبر همهم الآخرة.. يرون الدنيا مطية للآخرة ومزرعة للحسنات ورفعًا للدرجات.. ولذا استثمروا أوقاتهم وحافظوا على أيامهم وألزموا أنفسهم الطاعة والبعد عن المعصية.. فكانت حياتهم زيادة في الخير.. وطول أعمارهم زيادة في عمل الصالحات.

قال **مهدي بن ميمون**: رأيت حسان بن أبي سفيان في مرضه، فقيل له كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، فقيل له: ماتشتهي؟ قال: ليلة بعيدة ما بين الطرفين، أحي ما بين طرفيها[٢].

لقد كان استعدادهم للموت استعداد من لا يعلم متى يرحل فلم يلهه الأمل ولم يثنه بُعد الأجل.. كانت **معاذة العدوية** إذا جاء النَّهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تُمسي، وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها، فلا تنام حتى تصبح[٣].

وقال **أبو المنذر إسماعيل بن عمر**: دخلنا على ورقاء بن عمر بن كليب وهو يموت فجعل يكبر ويهلل ويذكُر الله، فلمَّا كَثُر الناس قال لابنه: اكفني رد السلام لا يشغلوني عن ربي[٤].

إنَّ الطبيب بطبه ودوائه
لا يستطيع دفاع مكروه أتى

---

(١) العاقبة: (١٤٥).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١١٧).
(٣) صفة الصفوة: (٤/ ٢٢).
(٤) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٣٠).

مـا للطبيـب يمـوت بـالـداء الـذي
قـد كـان يُبـري منـه فيمـا قـد مضـى
ذهـب المُـداوي والمَـداوى والـذي
جلـب الـدواء وبـاعـه ومـن اشتـرى

لمَّا نزل الموت بحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: حبيبٌ جاء على فاقة.. قد كنت قبل اليوم أخشاك وأنا اليوم أرجوك[1].

وبكى الحسن ـ رضي الله عنه ـ بكاءً شديدًا، فقيل له: يا أبا سعيد ما يبكيك؟ فقال: خوفًا من أن يطرحني في النَّار ولا يبالي[2].

وقال سليمان التيمي: دخلت على بعض أصحابنا وهو في النزع، فرأيت من جزعه ما ساءني، فقلت له: هذا الجزعُ كله لماذا؟ وقد كُنت ـ بحمد الله ـ على حالة صالحة؟ فقال: وما لي لا أجزع ومن أحقُ مني بالجزع؟، والله لو أتتني المغفرة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأهمني الحياءُ منه فيما أفضيت به إليه[3].

الله أكبر عرفوا الله حق معرفته وقدروه حق قدره فاستحيوا من سيئاتهم وندموا على زلاتهم، همهم الآخرة ورجاؤهم في الله كبير.. تخالط الآية شغاف قلوبهم: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩] يحدوهم الرجاء ويرفرف فوق قلوبهم الخوف.

هذا الربيع بن خثيم لما مرض قالوا له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فتفكر

---

(١) العاقبة ص (١٤٦).
(٢) الزهر الفائح ص (٩١).
(٣) تسلية أهل المصائب ص (٨٨).

وقال: أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثيرًا؟ قد كانت فيهم الأدواء والأطباء، فلا أرى المداوي بقي ولا المداوى، كل قد قضى ومضى(١).

يأتي القضاء ولا ينفع الاستشفاء: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٣٠].

أخي المسلم:

وحـــــدثتــــــك الليــــــالــــــي إن شيمتهــــــا
تفــــريــــق مـــــا جمعتـــــه فـــــاسمــــع الخبـــــرا
وكـــــن علـــــى حـــــذر منهـــــا فقـــــد نصحـــــت
وانظـــــر إليهـــــا تـــــرى الآيـــــات والعبـــــرا
فهـــــل رأيـــــت جـــــديـــــدًا لـــــم يعـــــد خلقًـــــا
وهـــــل سمعـــــت بصفـــــوٍ لـــــم يعـــــد كـــــدرا

والموت يمر عبر السطور.. وتقشعر له النفوس.. نتمنَّى أن ينتهي الحديث عن الموت.. لكن يا رفيق الرحلة بقي خطوات قليلة.. تعال لنرى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وهو يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد(٢).

عجبًا لهم أمة فيها قلوب حية وأذنًا مستمعة.. الله المستعان الموت لا يفارق ذهنه ساعة، ونحن لا نصبر على سماع شيء عن الموت ولو شطر

---

(١) العاقبة ص (١١٩).
(٢) العاقبة ص (٣٩).

ساعة.. بل ربما بعضهم يقوم من المكان الذي فيه ذكرٌ للموت وحديث عن الاحتضار.. وما ذاك إلا من الغفلة والحرص على الدنيا ونعيمها الزائل.. هذا وهو حديث في مكانٍ مُنعم بالنعم.. ولغلة الهوى والنفوس والبعد عن الآخرة ومن باب الموعظة والتذكير.

كان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يقول: أكثروا من ذكر النار فإن حرها شديد وقعرها بعيد، ومقامعها حديد[(١)].

ولما حضرت الوفاة **الفضيل بن عياض** ـ رحمه الله ـ غشي عليه، ثم أفاق وقال: يا بعد سفري وقلة زادي[(٢)].

وكان **مطرف بن عبد الله** يقول: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه[(٣)].

وذلك بالاتجاه إلى الله وعبادته حق العبادة وصدق العودة إليه ـ جل وعلا ـ كما قال **العلاء بن زياد**: ليُنزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله[(٤)].

فلو أنزلنا أنفسنا في هذه المنزلة وأوقفنا أنفسنا هذا الموقف لتغيرت أحوالنا ولصلحت أعمالنا.. فصل ـ أيها الحبيب ـ صلاة مودع.. واستشعر قرب الموت ودنو الأجل يصلح عملك وينقطع رجاؤك إلا من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

تهون الدنيا في عينيك وتجعل الآخرة والسعي لها في قلبك.. يلازمك

---

(١) الحسن البصري: (١٠٨).
(٢) العاقبة: (١٣٣).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٢٢٤).
(٤) العاقبة: (٩٠).

خوف ورجاء.. وعمل وطمأنينة.. فهو خوف بعده أمن وتعب بعده راحة.. ونعيم ما بعده زوال.

وما خاف مؤمنٌ اليوم إلا أمن غدًا بحُسن اتعاظه وصلاح عمله، فإننا في دارٍ أفسح الله لنا فيها بالنعم التي يسبغها علينا صباح مساء، ونحن نُضيع أعمارنا في غير ما خُلقنا له، ثم إذا فاجأنا الموت صرخ البعض: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

لماذا ترجع وتعود وأنت لك سنوات تسعى في هذه الدنيا؟ هل نسيت شيئًا لترجع؟ وهل أضعت مفقودًا لتعود وتنظر؟ سنوات طويلة مرت من عمرك أنت غافل عنها ومقصر في حقها فالآن تطلب الرجوع وترجو العودة.

نعم أنادي بالعودة ﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وأين أنت عن هذا اليوم؟ ألا تعمل وأنت في سعة من الوقت وفسحة من الزمن؟

قيل **لجابر بن زيد** عند موته: ما تشتهي؟ فقال: نظرة إلى الحسن، فجاء الحسن، فلمَّا دخل عليه قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه وقال: يا إخوتاه السَّاعة أفارقكم إما إلى الجنَّة وإما إلى النَّار.

ما هي إلا جنَّةٌ ونارُ
أفلح من كان له اعتبارُ

وصدق ـ والله ـ في قوله.. فهناك معبران أحدهما إلى الجنَّة وآخر إلى النَّار.. وعندها لا يستوي أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار.. ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر: ٢٠].

عن **المزني** قال: دخلت على **الشافعي** في علته التي مات فيها، فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني

مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله ـ تعالى ـ واردًا، فلا أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها، ثم بكى[(١)].

ولمَّا احتضر **نافع** بكى، فقيل ما يبكيك؟ قال ذكرت سعدًا وضغطة القبر (أي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيًا منها نجا سعد بن معاذ**»)[(٢)].

أخي المسلم:

ها هو **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله ـ يذكرنا بمآلنا ومصيرنا وانقطاعنا عن الدُّنيا فيقول: ألا ترون أنَّكم تجهزون كلَّ يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التُّراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب[(٣)].

بل هذا **عبدالله بن علي** لمَّا حضرته الوفاة بكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لتفريطي في الأيَّام الخالية وقلَّة عملي للجنَّة العالية، وما ينجيني من النَّار الحامية[(٤)].

ولنرى ثمن الزَّمن عندهم وقيمة الوقت لديهم واغتنامهم لذلك فإنَّه لمَّا احتضر **عامر بن عبد الله** بكىٰ، وقال: لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون، اللَّهمَّ إنِّي أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله، ثمَّ لم يزل يردِّدها حتَّى مات رحمه الله.

---

(١) صفة الصفوة: (٢/٢٥٨)، والسير: (١٠/٧٦).

(٢) السير: (٥/٩٩).

(٣) الإحياء: (٤/٤٨٠).

(٤) العاقبة ص (١٣١).

أخي الحبيب:

والله إنَّ الموت كما قد أفسد على أهل النَّعيم نعيمهم، ووالله أنَّ النَّعيم في جنَّات عدن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. جنَّة فيها الأنبياء والصدِّيقون والشُّهداء وحسن أولئك رفيقًا.. فسر إليها وجد في طلبها وأسرع الخطا لتنالها.

قال **إبراهيم بن أبي عبده**: بلغني أنَّ المؤمن إذا مات تمنَّى الرَّجعة إلى الدُّنيا ليس ذلك إلا ليكبِّر تكبيرةً، أو يهلِّل تهليلةً أو يسبِّح تسبيحةً[1].

ولمعرفتهم لهذا ولأهمية الزَّمن في حياتهم والاستفادة منه في الطَّاعة والتَّزوُّد للآخرة حرصوا على الاستفادة منه وعدم التَّفريط في لحظاته.

قال **بكير بن عامر**: كان لو قيل لعبد الرحمن بن أبي نعيم: قد توجَّه إليك ملك الموت، ما كان عنده زيادة عمل[2].

وكان **يزيد الرقاشي** يقول لنفسه: ويحك يا يزيد.. من ذا الذي يصلِّي عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا الذي يُرضي ربَّك بعد الموت؟ ثمَّ يقول: أيُّها النَّاس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ ويا من الموت موعده والقبر بيته، والثَّرى فراشه والدُّود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر.. كيف يكون حاله؟ ثمَّ يبكي حتَّى يسقط مغشيًا عليه[3].

وروي أنَّ **معاذ بن جبل** لما حضرته الوفاة قال: انظروا هل أصبحنا؟ فأتي فقيل لم تُصبح، حتَّى أتى في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحنا.

---

(١) شرح الصدور: (٨).
(٢) السير: (٥/ ٩٢).
(٣) العاقبة: (٤٠).

فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النَّار، ثمَّ قال: مرحبًا بالموت زائر مُغيب، وحبيب جاء على فاقة، اللَّهمَّ إنِّي كنت أخافك.. وأنا اليوم أرجوك.. اللَّهمَّ إنَّك تعلم أنِّي لم أكن أحبُّ الدُّنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار.. ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشِّتاء.. ومكابدة السَّاعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذِّكر(١).

أخي الحبيب:

أرأيت الحياة لديهم كيف تكون ولماذا يعيشون؟ أين نحن من ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء؟ أين نحن من طلب العلم والاستماع للعلماء؟ كيف نرى أوقاتنا الضائعة إذا وافانا الأجل وحان الرحيل؟

كان **حبيب العجمي** عند موته يبكي ويقول: أريد أنْ أسافر سفرًا ما سافرته قطُّ.. وأسلك طريقًا ما سلكته قط.. وأزور سيدي ومولاي وما رأيته قط.. وأشرف على أهوال ما شاهدتها قط..

أما **عمر بن عبد العزيز** ـ رحمه الله ـ فقد قال: لولا أن تكون بدعة لحلفت أن لا أفرح من الدُّنيا بشيء أبدًا، حتَّى أعلم ممَّا في وجوه رسل ربي إليَّ عند الموت، وما أحبُّ أنْ يهون على الموت لأنَّه آخر ما يؤجر عليه المؤمن(٢).

وقال **بعضهم**: عجبًا لمن يعرف أنَّ الموت حقٌّ، كيف يفرح؟ وعجبًا لمن يعرف أنَّ النَّار حقٌّ، كيف يضحك؟ وعجبًا لمن رأى تقلُّب الدُّنيا

---

(١) منهاج القاصدين ص (٤٣١).
(٢) حلية الأولياء: ٥/٣١٦).

بأهلها، كيف يطمئنُّ إليها؟ وعجبًا لمن يعلم أنَّ القدر حقٌّ، كيف ينصب[1]؟.

ونحن في هذه الدُّنيا تتخطَّفنا الآمال ونبحر في نهر التَّسويف.. نجاهد النَّفس والهوى والشَّيطان.. حينًا وحينًا.. لنا في نصيحة عمر بن عبدالعزيز تطبيق عملي لغلبة الأماني والتَّفكُّر والمآل والمصير.

قال **عمر بن عبد العزيز** ـ رحمه الله ـ لأبي حازم: عظني. فقال: اضطجعْ ثمَّ اجعلْ الموت عند رأسك ثمَّ انظرْ ما تحبُّ أنْ يكونَ فيك تلك السَّاعة فجد فيه الآن، وما تكره أنْ يكونَ فيك فدعه الآن.

يا أيُّها النَّاس:

اعملوا على مهلٍ، وكونوا من الله على وجلٍ، ولا تغترُّوا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدُّنيا فإنَّها غدَّارة خدَّاعة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيها، وتزيَّنت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المحيلة، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفةٌ، والنُّفوس لها عاشقةٌ، فكم من عاشقٍ لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنَّها دارٌ كثير بوائقها، وذمَّها خالقها. جديدها يبلى، ومُلكها يفنى، وعزيزها يذلُّ، وكثيرها يقلُّ، ودها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا ـ رحمكم الله ـ من غفلتكم ومن رقدتكم قبل أنْ يقال فلانٌ عليل أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل؟ وهل إلى الطبيب من سبيل؟ فتُدعى لك الأطبَّاء، ولا يُرجى لك الشِّفاء.

ثمَّ يقال: قد ثقل لسانه فما يكلِّم إخوانه، ولا يعرف جيرانه، وعرق

---

(١) مكاشفة القلوب ص (١٥٧).

عند ذلك جبينك وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك.

وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطق، ثمَّ حلَّ بك القضاء، وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثمَّ عُرج بها إلى السَّماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفانك، فغسَّلوك وكفَّنوك، فانقطع عوادك واستراح حسَّادك، وانصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مرتهنًا بأعمالك[١].

واعلم ـ رحمك الله ـ أنَّ ممَّا يعينك على التَّفكُّر في الموت ويفرغك له ويكثر اشتغالك به تذكر من مضى من إخوانك وخلانك، وأصحابك وأقرانك، الذين مضوا قبلك وتقدَّموا أمامك، كانوا يحرصون حرصك ويسعون سعيك ويأملون أملك ويعملون في هذه الدُّنيا عملك، وقصت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم وقصمت أصلابهم، وفجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آيةً للمتوسِّمين وعبرةً للمعتبرين[٢].

فالموت قد عدل.. ساوى بين الملك والصغير والكبير، يدخل الغرف الصغيرة.. ولا يرده حاجب القصور الكبيرة.. أفنى من ملكوا الدُّنيا وقضى على من لا يملكون شيئًا من الدُّنيا، ولكن..

النَّـــــاس فـــــي غفـــــلاتهــــم
ورحـــــى المنيـــــة تطحـــــنُ

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٢٥).

(٢) العاقبة: (٥٠).

أمَّا أصحاب القصور والدور وأصحاب المناصب الذين يغبطهم الكثير من أهل الدُّنيا على هذه النِّعمة لنرى حالهم عند الموت. . كيف يواجهونه وكيف يستقبلونه. . هل تبقى القوَّة والمنعة والأبهة والوجاهة؟ أم يسقط كل ذلك ويبقى العمل؟

قال **محمد بن منصور البغدادي**: دخلت على عبدالله بن طاهر وهو في سكرات الموت فقلت: السَّلام عليكم أيُّها الأمير، فقال: لا تسمني أميرًا وسمني أسيرًا.

ولما حضرت **عبد الملك بن مروان** الوفاة جعل يقول: والله لوددت أنِّي عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالهم ولم آلي[١].

وكان **المنتصر** يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ليس إلا هذا، لقد ذهبتِ الدُّنيا وأقبلت الآخرة[٢].

وهذا التفاوت في معايش الدنيا لا يرد الموت عن العدل بين الجميع فهو بأمر الله مهلك القوى ومفني الدول. . ولكن البدار البدار. . التوبة التوبة قبل الموت.

قال **شفيق بن إبراهيم**: استعد إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجعة[٣].

والرَّجعة ـ أخي الحبيب ـ لن تُعطى إيَّاها، فلكلِّ أجلٍ كتاب. . ولكن استعد للموت من الآن بالعمل الصَّالح وبالتَّوبة النَّصوح قبل أنْ تقول نفس: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله. . إنَّه ذهاب لا رجوع بعده وندم لا تجدي معه دموع. . ورحيل من الدُّنيا بلا عودة. . إنَّه نهاية

---

(١) تسلية أهل المصائب: (٨٨).
(٢) الثبات عند الممات: (٩٢).
(٣) الزهد للبيهقي: (٢٣٩).

الدُّنيا . . والرَّحيل من فوق أرضها إلى داخلها . . من سعة القصور ورحابة الدُّور إلى ضيق القبور . . سؤال وجواب . . وحساب ونقاش . .

لمَّا كان **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله ـ في مرضه الذي مات فيه قال : أجلسوني ، فأجلسوه ثمَّ قال : أنا الذي أمرتني فقصرت ، ونهيتني فعصيت ، ولكن لا إله إلا الله . ثمَّ رفع رأسه وأحدَّ النَّظر ، فقالوا له : إنَّك لتنظر نظرًا شديدًا ، قال : إنِّي لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ، ثم قُبض(١) .

وها هو **أمير المؤمنين المأمون** لمَّا حضرته الوفاة أمر بجل دابته ففرش له ، فاضطجع عليه ، ووضع الرماد على رأسه وجعل يقول : يامن لا يزول ملكه ارحم اليوم من قد زال ملكه(٢) .

ولمَّا حضرت الوفاة **أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين** ، قال للربيع : يا ربيع هذا السلطان . . لا سلطان من يموت(٣) .

إنَّه الموت نهاية كل حي ، لا يفلت منه أحد ، ولا يُسبق فيفوته أحد . .

وعندما أيقن **عبد الملك بن مروان** بالموت ، قال : والله لوددت أنِّي كنت منذ ولدت إلى يوم هذا حمالاً(٤) .

وقال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ : إذا ذكرت الموتى فعدَّ نفسك كأحدهم(٥) .

وقد قيل **لعبد الملك بن مروان** في مرض موته : كيف تجدك؟ فقال :

---

(١) حلية الأولياء : (٥/ ٣٢٥) .
(٢) العاقبة ص (١٣٠) .
(٣) العاقبة ص (١٢٨) .
(٤) تاريخ الخلفاء ص (٢٠٥) .
(٥) الإحياء : (٤/ ٤٨٠) .

أجدني كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

نعم.. لقد ذهب ملك الدنيا وزخرفها.. وقدم الكل على الله.

والعمر زمنٌ يمرُّ سريعًا كأضغاث أحلام.. يراه الإنسان لا نهاية له.. ويلهه الأمل عن الآخرة ولذلك كان **المعتصم** يقول عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصيرٌ ما فعلت[١].

كلُّنا أعمارنا قصيرة وآجالنا مكتوبة وأنفاسنا معدودة.. أعمارنا التي مضت كأنَّها حلم، ووالله إنَّها كساعة من نهار ولكن الخوف من نار تلظَّى.. وحفرة تختلف فيها الأضلاع.

لنتأمل فعل أمير المؤمنين **هارون الرشيد** وهو ينتقي أكفانه بيده وينظر إليها ويقول: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

من منا ينتقي أكفانه ويضعها في بيته.. بل ربما لو وجد البعض ثوبًا يشبه الكفن في بيته لأخرجه.. فلا داعي له.. وهل الموت قريب ليستعد له..؟!

تنام ولم تنم عنك المنايا
تنبه للمنية يا نؤومُ

أخي الحبيب:

لا تقف عن القراءة استمر لحظات وانظر في حال من سبقك واعتبر بحالهم فإن من أتى بعدك سيعتبر بحالك!!

لما احتضر **عبدالرَّحمن بن الأسود** بكى، فقيل له، فقال: أسفًا على

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٧٤).

الصَّلاة والصَّوم. . ولم يزل يتلو حتَّى مات[١].

والخروج من هذه الدنيا خروج بكفن وعمل صالح تُحمل ملفوفًا بكفن تاركًا وراءك قصورًا شيدتها ودورًا بنيتها، فيها أحباب وأصحاب، وزوجات وأبناء.

وكل هذا الديك ولكنك ترحل بكفن. . أرأيت كيف هوان الدنيا ونهايتها؟

قال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ لابنه: اقتصدوا في كفني فإنْ كان لي عند الله خيرٌ أبدلني ما هو خيرٌ منه، وإنْ كنت على غير ذلك سلبني فأسرع سلبي. . واقتصدوا في حفرتي. . فإنَّه إنْ كان لي عند الله خيرٌ أوسع لي منها مدَّ بصري. . وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليَّ حتَّى تختلف أضلاعي[٢].

ولمَّا **احتضر سعيد بن مروان** قال: يا ليتني لم أكنْ شيئًا، يا ليتني كهذا الماء الجاري، ثمَّ قال: هاتوا كفني. . أُفٍّ لك، ما أقصر طويلك وأقل كثيرك[٣].

وقال **عبدالملك بن مروان** في مرض موته. . ارفعوني فرفعوه حتَّى شمَّ الهواء، وقال: يا دنيا ما أطيبك. . إنَّ طويلك لقصير، وإنَّا كثيرك لحقير، وإنَّ كنَّا بك لفي غرور[٤].

إخواني:

جدوا فقد سُبقتم، واستعدُّوا فقد لُحقتم، وانظروا بماذا من الهوى

---

(١) الثبات عند الممات ص (٩٢).

(٢) السير: (٥/ ١١٢).

(٣) تاريخ الخلفاء ص (١٣٦).

(٤) السير: (٤/ ٢٥٠).

علقتم.. ولا تغفلوا عمَّا له خُلقتم، ذهبت الأيَّام وما أطعتم، وكتبت الآثام وما أصغيتم، وكأنَّكم بالصَّادقين قد وصلوا وانقطعتم، أهذا التَّوبيخ لغيركم؟ أو ما قد سمعتم؟!

كم سكن مثلك في هذه الدار!، فحام الموت حول حماهم ودار، ثمَّ ناهضهم وسلب الجار، فمن أنذر قبل هجومه فما جار، يا هذا العمر عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل.. وقد آن الأوان أن يرحل النزيل[١].

يروى عن عبد الله بن شرمة أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي على مريضٍ نعوده، فوجدنا لما به.. ورجلٌ يلقنه الشهادة ويقول له: قل لا إله إلا الله، وهو يُكثر عليه، فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلم المريض وقال: إن يلقني أو لا يلقني فإني لا أدعها، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] فقال الشعبي: الحمد لله الذي نجا صاحبنا[٢].

وقال القعقاع بن حكيم: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء.

ويروى عن عبد الله بن المبارك أنه لما احتضر نظر إلى السماء، فضحك ثم قال: لمثل هذا فليعمل العاملون[٣].

واحتضر بعض الصالحين فبكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ قالت:

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٧٥).
(٢) التذكرة في الاستعداد لليوم الآخرة ص (٩١).
(٣) العاقبة ص (١٣٦).

عليك أبكي.. قال: إن كنت باكية فابك على نفسك، فأما أنا فقد بكيت على هذا اليوم منذ أربعين سنة[١].

وقال **محمد بن القاسم**: دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور، فقال: يا أبا عبدالله، تعال أبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بي الموت، وقد منَّ الله عليَّ.. إنَّه ما لي درهم يحاسبني الله عليه.. ثمَّ قال: أغلق الباب ولا تأذن لأحد حتَّى أموت، وتدفنون كتبي، واعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثًا غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ فيه وكتبي هذه، فلا تكلفوا الناس مؤنة.. وكان معه صرة فيها ثلاثين درهمًا، فقال: هذا لابني أهداه قريب له، ولا أعلم شيئًا أحلَّ لي منه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أنت ومالك لأبيك**» وقال: «**أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه**» فكفنوني منها.. فإن أصبتم لي بعشرة ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي لبدي وغطوا عليها كسائي.. وأعطوا إنائي مسكينًا[٢].

وقيل **للكناني** لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ فقال: لولم يقرب أجلي ما أخبرتكم به. وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه[٣].

أخي:

كم وقفنا على أبواب قلوبنا.. لنرى ولو ساعة من نهار.. ماذا في صحائفنا وماذا نعمل في أيامنا وليالينا..

---

(١) العاقبة: (١٣٥).

(٢) الزهد للبيهقي: (١٢٧٨).

(٣) السير: (٢/١٩٩).

هذا **بلال** ـ رضي الله عنه ـ مؤذن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة قالت: امرأته: واحزناه، فقال: بل واطرباه غدًا نلقي الأحبة؛ محمدًا وحزبه[١].

وعن **أنس بن عياض** رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له: غدًا القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة[٢].

وقد قيل **لعبد الله بن عمر** ـ رضي الله عنهما ـ: توفي فلان الأنصاري، قال: رحمه الله، قالوا: ترك مائة ألف، قال: لكن هي لم تتركه.

وكيف تتركه وهناك كتابٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. إنَّها الدُّنيا حلالها حساب وحرامها عذاب.

أخي الحبيب:

وقد دبَّ الخوف إلى قلبك.. وتعثر لسانك واهتزت أطرافك وتبعثرت أوراقك ترغب في توبة صادقة وتجد في طلب ملجأ آمن.. رنت عيناك نحو الدَّار الآخرة وهمك مطلب عال سام.. ترجو رحمة ربك وتخشى عذابه.

أبشر برحمة ومغفرة لمن لجأ إلى جناب الله هاربًا من ذنوبه فارًا من معاصيه.

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إنه فرار إلى الله من المعاصي والذنوب ولجوء إلى الرحمن الرحيم غافر الذنب وقابل التوب.

ومن أراد الجنة فلابد من الموت، رغم آلامه وأهواله وغصصه وروعاته.

---

(١) الإحياء: (٤/ ٥١٣).

(٢) الثبات عند الممات ص (٩٣).

قال ابن عبد ربه **لمكحول**: أتحب الجنَّة؟ قال: ومن لا يُحبُّ الجنَّة؟ قال: فأحبب الموت فإنَّك لن ترى الجنَّة حتى تموت[١].

وقال **بلال بن سعد** ـ رحمه الله ـ: يقال لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لِمَ؟ فيقول: حتَّى أتوب وأعمل صالحًا، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يُحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله ـ تعالى ـ ولا يؤخر عمل الدنيا[٢].

* * *

---

(١) السير: (٥/٣٦٦).

(٢) شرح الصدور: (١٧).

نصائح غالية ودرر نفيسة
تقدم لمن أراد النجاة وأراد الآخرة

قال **أبو حازم سلمة بن دينار**: كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه، ثمَّ لا يضرك متى متَّ(١).

أرأيت ـ أخي الكريم ـ كيف القياس..

هاك الأخرى..

قال **ميمون بن مهران**: من كان يريد أنْ يعلم منزلته عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلينظر في عمله، فإنَّه قادم على عمله كائنًا من كان(٢).

وجماع ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾ [الحشر: ١٨].

قال **أبو عياش القطان**: كانت امرأة بالبصرة متعبدة يقال لها منيبة ولها ابنة أشد عبادة منها، فكان الحسن ربما رآها وتعجب من عبادتها على حداثتها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ أتاه آت، فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت، فوثب الحسن فدخل عليها، فلمَّا نظرت إليه الجارية بكت، فقال لها: يا حبيبتي ما يبكيك؟ فقالت له: يا أبا سعيد، التراب يحثى على شبابي ولم أشبع من طاعة ربي، يا أبا سعيد، انظر إلى والدتي وهي تقول لوالدي: احفر لابنتي قبرًا واسعًا وكفنها بكفن حسن، والله لو كنت أجهز إلى مكة لطال بكائي.. كيف وأنا أجهز إلى ظلمة

---

(١) العاقبة: (٩١).
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٣٣).

القبور ووحشتها وبيت الظلمة والدود[١].

ولنتأمل في نصيحة **محمد بن واسع** وهي نصيحة قلبية صادقة في وقت حرج وزمنٍ ضيق. قال محمد بن عبدالله مولى الثقفيني: دخلنا على محمد بن واسع وهو يقضي، فقال: يا إخوتي، يا إخوتاه.. هبوني وإيَّاكم سألنا الله الرجعة فأعطاكموها ومنعنيها، فلا تخسروا أنفسكم[٢].

نعم أنا وأنت سألنا الرجعة فنحن في دار العمل فهيا إلى البدار ولنجلي صدأ القلوب بتوبة صادقة. وأوبة سريعة فالأنفاس لم تتوقف بعد ولازلنا في دار العمل.

كان بعض الصَّالحين ينادي بليلٍ على سور المدينة. الرحيلُ.. الرحيلُ، فلمَّا تُوُفِّي فَقَدَ صوته أمير المدينة فسأل عنه، فقيل: إنه قد مات. فقال:

مـــــازال يلهـــــج بـــــالـــــرحيـــــلِ وذِكـــــره
حتَّـــــى أنـــــاخ ببـــــابـــــه الجمـــــالُ
فـــــأصـــــابـــــه متيقظًـــــا مُتشمِّـــــرًا
ذا أُهبـــــةٍ لـــــم تُلهـــــه الآمـــــال[٣]

قيل: إنَّ يعقوب ـ عليه السلام ـ قال لملك الموت: إنِّي أسألك حاجةً؟ قال: وما هي؟ قال: أن تعلمني إذا دنا أجلي وأردت أنْ تقبض روحي؟ فقال: نعم، أرسل إليك رسولين أو ثلاثة، فلمَّا انقضى أجله أتى إليه ملك الموت فقال: أزائر جئت أم لقبض روحي؟ فقال: لقبض

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ٢٧).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧١).
(٣) التذكرة للقرطبي ص (٤٠).

روحك، فقال: أولست كنت أخبرتني أنَّك ترسل إليَّ رسولين أو ثلاثة؟ قال: قد فعلت.. بياض شعرك بعد سواده، ضعف بدنك بعد قوته، انحناء جسمك بعد استقامته، هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت[1].

وليس هذا هو السائد فكم أخذ الموت من طفل رضيع.. وكم بغت من قد استقام عوده وشب..

بل نرى أكثر أصحاب القبور من الشباب والأطفال والرضع.. ولكن هاك نصيحة موثقة تصلح لجميع الأعمار وتُبنى بها الديار في جنات الخلد.

تأمل ـ **أيُّها الحبيب** ـ في وصية تكتب بماء الذهب وتحفظ في ثنايا القلوب.

فقد قال رجل لزهير بن نعيم: يا أبا عبد الرحمن توصي بشيء؟ قال: نعم، احذر أن يأخذك الله وأنت على غفلة[2].

وهذه هي النصيحة الباقية.. والمحبة في الله.. حثٌّ على الطاعات وتواص باجتناب المحرمات. تذكير بالآخرة واستعداد لها.

قال **عبيد بن عمير**: كان لرجل ثلاثة أخلاء بعضهم أخص له من بعض، فنزلت به نازلة، فلقي أخص الثلاثة به فقال: يافلان إنه نزل بي كذا وكذا وإني أحب أن تعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل، فانطلق إلى الذي يليه في الخاصة، فقال: يا فلان إنه قد نزل بي كذا وكذا وأنا أحب

---

(١) إرشاد العباد ص (٧).
(٢) صفة الصفوة: (٤/٩).

أن تُعينني، قال: فانطلق معك حتى تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغت رجعت وتركتك، قال: فانطلق إلى أبعد الثلاثة، فقال: يا فلان، إنه قد نزل بي كذا وكذا فأنا أحب أنْ تُعينني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت، وأدخل معك حيث دخلت، قال:

فـالأول: ماله، خلفه في أهله ولم يتبعه منه شيء.

والـثاني: أهله وعشيرته ذهبوا معه إلى قبره، ثم رجعوا وتركوه.

والـثالث: هو عمله وهو معه حيث ما ذهب، ويدخل معه حيث ما دخل[1].

أخي الحبيب:

دعنـــي أســـحُ دمـــوعًـــا لا انقطـــاع لهـــا
لـــو كنـــت تعلـــم مـــا بـــي تعـــذُرنـــي
كـــأنـــي بيـــن تلـــك الأهـــل منطـــرحًـــا
علـــى الفـــراش وأيـــديهـــم تقلبنـــي
كـــأنـــي وحـــولـــي مـــن ينـــوح ومـــن
يبكـــي علـــيَّ وينعـــانـــي ويـنـــدبنـــي
وقـــد أتـــوا بطبيـــب كـــي يعـــالجنـــي
ولـــم أر الطبيـــب اليـــوم ينفعنـــي
واشتـــد نـــزعـــي وصـــار المـــوت يجـــذبهـــا
مـــن كـــل عـــرقٍ بـــلا رفـــقٍ ولا هـــونِ

(١) حلية الأولياء: (٣/٢٦٩).

واستخـــرج الـــروح مني فـــي تغـــرغـــرهـــا
وصـــار ريقـــي مـــريـــرًا حيـــن غـــرغـــرنـــي
وغمضـــونـــي وراح الكـــل وانصـــرفـــوا
بعـــد الإيـــاس وجـــدُّوا فـــي شـــر الكفـــن
وأنـــزلـــونـــي فـــي قبـــري علـــى مهـــلٍ
وأنـــزلـــوا واحـــدًا منهـــم يلحـــدنـــي
وكشـــف الثـــوب عـــن وجهـــي لينظـــرنـــي
وأسبـــل الـــدمـــع مـــن عينيـــه اغـــرقنـــي
فقـــام محتـــدمًـــا بـــالعـــزم مشتمـــلاً
وصَفَّـــف اللبـــن مـــن فـــوقـــي وفـــارقنـــي
وقـــال هُلـــوا عليـــه التـــراب واغتنمـــوا
حُســـن الثـــواب مـــن الـــرحمـــن ذي المنـــنِ

إنَّها رحلة سريعة كلمح البصر.. سحابة، بدت واختفت تلك هي الدنيا.. تمر مر السحابة ساعة من زمن ثم تنقضي، ألا إنها ـ يا أخي ـ رحلة بدأت وستنتهي.

عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قام رسول الله ﷺ على حصيرة فقام وقد أثَّر في جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً! فقال: «**ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرةٍ ثم راح وتركها**» [رواه الترمذي].

الخاتمة

أيُّها الحبيب:

سرت معي في دروب نالك فيها من الخوف الكثير فهانت الدنيا في عينك ولكن هاهو بصرك بدأ يفارق حزوفي فأوصيك ونفسي بتقوى الله . . انفض غبار الدنيا، الق رداء الكسل وعليك بالعزيمة الصَّادقة في مجاهدة النفس . . واجعل آخر حرف في هذا الكتاب بداية للتَّوبة . . تسبقها دمعة تُجمل مآقيك وينفتح لها قلبك . وأبشر بجنتين وعدك إيَّاها من لا يخلف الوعد : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

أيُّها الحبيب:

سنستوحش أنا وأنت إذا افترقنا ولكن لنا في كتاب الله عصمة وفي حديث الرسول ﷺ قدوة وفي مجالسة الصالحين أنسٌ وفرحة . . فنعم الزاد ليوم المعاد .

أخي الحبيب:

جمعني الله وإياك في دار كرامته وهون علينا سكرات الموت، وثبَّتنا بالقول الثَّابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة، وآنس وحشتنا في القبور، وثبتَّنا على الصِّراط يوم البعث والنُّشور، وحرم وجوه آبائنا وأمهاتنا عن النَّار، وجمعنا معهم في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر . . والحمد لله ربِّ العالمين .

سهم إبليس وقوسه

المقدمة

الحمد لله الذي خلق السَّمع والأبصار والأفئدة، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى نعمة البصر، وهي وإن كانت نعمة في ذاتها فإنَّها ربما أوردت صاحبها المهالك إذا أطلقها في غير ما أحلَّ الله.

ولتوسع الناس في أمر النَّظر المحرَّم وكثرته، أقدِّم للأحبَّة القرَّاء الجزء الثَّالث عشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء**» تحت عنوان «**سهم إبليس وقوسه**» فيه أطايب الكلام من قول الله ـ جلَّ وعلا ـ، وكلام رسوله ﷺ وذكر حال السلف في مجاهدة أنفسهم وحفظ أبصارهم.

نزَّه الله أسماعنا وأبصارنا وجوارحنا عن كلِّ ما نهى عنه وجعلها عونًا علىٰ الطَّاعة ومتَّعنا بها حتَّى نلقاه.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

لقد أسبغ الله ـ جلَّ وعلا ـ علينا نعمًا ظاهرةً وباطنةً لا تعدُّ ولا تُحصىٰ ومن أعظم وأشرف تلك النِّعم نعمة البصر، قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الملك: ٢٣].

ومن عظيم قدرها أن أبدل الله من سلب منه عينيه فصبرَ الجنَّةَ، قال رسول الله ﷺ: «**إذا ابتلَيتُ عبد بِحَبِيْبَتَيْه، ثم صَبرَ، عوَّضتُه منها الجنَّة**»(١).

ونعمة البصر أعظم النِّعم إذا استخدمها العبد في طاعة الله ـ سبحانه ـ، أمَّا إذا كان خلاف ذلك، فإنَّها تكون سببًا للحسرة في الدُّنيا، والعذاب في الآخرة، ولذا جاء الأمر الإلهي للمؤمنين كافةً بغضِّ البصر وحفظه قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ . . . ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

قال ابن كثير: وهذا أمر من الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين أنْ يغضُّوا من أبصارهم عمَّا حرَّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النَّظر إليه، وأنْ يغضُّوا أبصارهم عن المحارم، فإنْ اتفق أن وقع البصر على محرَّم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعًا(٢).

وقال ابن كثير: في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أي أطهر

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ٤٣).

لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته. ويروى في قلبه[١].

وقال - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى -: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ... ﴾:

هذا أمر من الله - تعالى - للنِّساء المؤمنات وغيرةٌ منه لأزوجهنَّ عباده المؤمنين، وتمييز لهنَّ عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات[٢].

وقال الشوكاني - رحمه الله - أيضًا حول هذه الآية: خصَّ الإناث بهذا الخطاب علىٰ طريق التَّأكيد لدخولهنَّ تحت خطاب المؤمنين تغليبًا كما في سائر الخطابات القرآنية[٣].

و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله - تعالىٰ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ للتَّبعيض فكأنَّه خصَّ بالحظر والتَّحريم نوعًا من النَّظر وأطلق بعض النَّظر إلى ذوي المحارم، وما تدعو الحاجة إليه، ثمَّ عطف على ذكر النِّساء مفردًا لهنَّ بالذِّكر مع أنَّهن يدخلن في عموم خطاب الشَّرع تبعًا للرِّجال، فقال: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ تأكيدًا لزمن النَّظر، واحتياطًا لصيانة الفرج عن الزِّنا والخطر، ولئلا يتوهَّم متوهِّم أنَّ الأمر يختصُّ بالرِّجال[٤].

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: وأمر الله - تعالى - نبيَّه أن يأمر المؤمنين بغضِّ أبصارهم وحفظ فروجهم، وأنْ يُعلِّمهم أنَّه مشاهد

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٤٤).
(٢) المرجع السابق.
(٣) فتح القدير: (٤/ ٢٢).
(٤) أحكام النظر ص (١٨).

لأعمالهم مطلع عليها ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩]
ولمَّا كان مبدأ ذلك من قِبَلِ البصر جعل الأمر بغضِّه مقدَّمًا على حفظ الفرج، فإنَّ الحوادث مبدأها من البصر كما أنَّ معظم النَّار من مستصغر الشَّرر تكون نظرة، ثمَّ خطرة، ثمَّ خطوة، ثمَّ خطيئةً، لهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات والخطرات، واللقطات والخطوات.

فينبغي للعبد أنْ يكونَ بوَّاب نفسه علىٰ هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط علىٰ ثغورها فمنها يدخل عليه العدوُّ فيجوس خلال الديار فيُتبِّر ما علا تتبيرًا[١].

وقد جعل الله ـ سبحانه ـ العين مرآة القلب فإذا غضَّ العبد بصره غضَّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

ولما كان إطلاق البصر سببًا لوقوع الهوىٰ في القلب، أمر الشَّرع بغضِّ البصر عمَّا يُخاف عواقبه.

قال **ابن القيم** معلِّقًا على حديث الرسول ﷺ: «**كُتب علىٰ ابن آدم حظُّه من الزِّنا...**»[٢] الحديث. فبدأ بزنا العين لأنَّه أصل زنا اليد والرِّجل والقلب والفروج.

ثمَّ قال أيضاً: وهذا الحديث من أبين الأشياء علىٰ أنَّ العين تعصي بالنَّظر وأنَّ ذلك زناها، ففيه ردٌّ علىٰ من أباح النَّظر مطلقًا، وثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «**يا علي لا تتبع النَّظرة النَّظرة فإنَّ لك الأولىٰ وليست لك الثَّانية**»[٣].

---

(١) الجواب الكافي: (١٧٩).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) روضة المحبين ص (٩٣، ٩٤). الحديث رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

فاحذر يا أخي ـ وفَّقك الله ـ من شرِّ النَّظر فكم قد أهلك من عابدٍ، وفسخ عزم زاهدٍ، فاتعظ بذلك وتلمح معنىٰ قول النبي ﷺ: «**النَّظرة سهمٌ مسموم**»[١] لأنَّ السم يسري إلى القلب فيعمل في الباطن قبل أنْ يرى عمله في الظَّاهر، فاحذر من النَّظر فإنَّه سبب الآفات إلا أنَّ علاجه في بدايته قريب، فإذا كرَّر تمكّن الشر فصعب علاجه.

وأضرب لك في ذلك مثلاً: إذا رأيت فرسًا قد مالت براكبها إلى درب ضيق فدخلت فيه ببعض بدنها، ولضيق المكان لا يمكن دخولها، فإنَّ قبل وردَّها خطوة إلىٰ ورائها، سَهُل الأمر، وإنْ توانى حتَّى ولجت، ثمَّ قام بجذبها بذنبها طال تعبه وربما لم يتهيَّأ له.

وكذلك النَّظرة إذا كثرتْ في القلب. فإن عجَّل الحازم بغضِّها وحسم المادة من أولها سَهُلَ علاجه، وإنْ كرَّر النَّظر نقب عن محاسن الصُّورة ونقلها إلىٰ قلب متفرغ فنقشها فيه، فكلَّما تواصلت النَّظرات كانت كالمياه تُسقى بها الشجرة، فلا تزال تنمى فيفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به، ويخرج بصاحبه إلى المحن ويوجب ارتكاب المحظورات ويلقى في التلف. والسبب في هذا الهلاك. أن الناظر أوَّل نظرة التذَّ بها فكرَّرها يطلب الإلتذاذ بالنظر مستهيناً بذلك فأعقبه ما استهان به التَّلف، ولو أنَّه غضَّ عند أوَّل نظرةٍ لَسَلِمَ في باقي عمره[٢].

أخي الحبيب:

إنَّ فتنة النَّظر إلىٰ ما حرَّم الله أصل كلِّ فتنةٍ، ومنجم كلِّ شهوةٍ، فالنَّظر

---

(١) رواه أحمد والحاكم.

(٢) ذم الهوى ص (٨٢).

هو رائد الشَّهوة ورسولها، وحفظه أصل حفظ الفرج، فمن أطلق نظرة أورد نفسه موارد الهلاك، وقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ العين مرآة القلب، فإذا غضَّ العبد بصره غضَّ القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

لذلك لمَّا أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في سورة النُّور بحفظ الفرج قدَّم الأمر بغض البصر لأنَّه هو بريد الزِّنا وبابه حيث قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

فمن سرح ناظره أتعب خاطره، من كثرتْ نظراته ضاعت أوقاته ودامت حسراته، فيا من يريد السلامة، ويطلب الخلاص، غض من بصرك، وأقصر عن محارم الله طرفك، ولا تقلِّل من شأن النَّظر وتستصغره فإنَّ كلَّ الحوادث مبدؤها من النَّظر، كما أنَّ معظم النَّار مبدؤها من مستصغر الشَّرر، تكون نظرةً، ثمَّ خطرةً، ثمَّ خطوةً، ثمَّ خطيئةً.

أخي المسلم:

إنَّ الذي أجمعت عليه الأمَّة واتفق علىٰ تحريمه علماء السَّلف والخلف من الفقهاء والأئمَّة هو نظر الأجانب من الرِّجال والنِّساء بعضهم إلىٰ بعض، وهم مَنْ ليس بينهم رَحمٌ من النَّسب، ولا محرم من سبب، كالرِّضاع وغيره، فهؤلاءِ حرامٌ نظر بعضهم إلى بعض، وهم كل من حرَّم الشّرع تزويج بعض منهم ببعض علىٰ التأبيد، فالنَّظر والخَلوة محرم على هؤلاء عند كافَّة المسلمين، لا يباح بدعوى زهد وصلاح، ولا تَوَهُّم عدم

آفة ترفع عنهم الجناح، إلا في أحوال نادرة من ضرورة أو حاجة، فما سوى ذلك محرم: سواء كان عن شهوة، أو عن غيرها، وكذلك لا يجوز النَّظر إلى الأمرد[١] بشهوةٍ وغيرها من غير حاجةٍ، كلُّ ذلك لخوف الفتنة والوقوع في الهلكة.

ففي غضِّ البصر: زكاة وطهارة لقلوب المؤمنين، وحفظ لفروجهم، وقد قدم الله ـ سبحانه ـ الأمر بغضِّ البصر على الأمر بحفظ الفرج، لأنَّ مبدأ المعاصي من النَّظر، وهو بريد الزِّنا، والنَّظرة تفعل في القلب ما يفعل السَّهم في الرَّميَّة، فإنْ لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النَّار تُرمى في الحشيش اليابس، فإنْ لم تحرقه كلَّه، أحرقت بعضه، كما قيل:

كلُّ الحوادثِ مَبْداها مِنَ النَّظَرِ
ومُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُستَصْغَرِ الشَّرَرِ
كم نظْرةٍ فتكتْ في قلبِ صاحبِها
فتك السِّهام بلا قوسٍ ولا وترِ
والمرءُ مادام ذا عينٍ يقلبها
في أعين الغيد موقوفٌ على خطر
يسرُّ مقلته ما ضرَّ مُهجته
لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضرر[٢]

والله ـ سبحانه ـ مطلع على أعمالنا؛ سرِّها وعلانيتها، ألا ترى أنه ـ سبحانه وتعالى ـ عقَّب على الأمر بغضِّ البصر وحفظ الفرج بقوله:

---

(١) الأمرد: الشاب طَرَّ شاربه ولم تنبت لحيته.
(٢) الجواب الكافي: (٢٢٤).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠ ﴾[النور: ٣٠]، وهو ـ سبحانه ـ: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩ ﴾[١] [غافر: ١٩].

* عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «**إن الله كتب على ابن آدمَ حظَّه من الزِّنا أدركَ ذلك لا محالةَ: فزنا العينِ النَّظرُ، وزنا اللِّسان المنطقُ، والنَّفسُ تَمنَّى وتشْتَهِي، والفرج يُصدِّق ذلك كلَّه ويكذِّبه**» [متفق عليه].

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: محل الشَّاهد منه، قوله ﷺ: **فزنا العين النَّظر**» فإطلاق اسم الزِّنا علىٰ نظر العين إلىٰ ما لا يحلُّ دليل واضح علىٰ تحريمه والتَّحذير منه.

ومعلوم أنَّ النَّظر سبب الزِّنا، فإنَّ منْ أكثر من النَّظر إلىٰ جمال امرأة مثلاً قد يتمكَّن بسببه حبها من قلبه تمكنا يكون سبب هلاكه والعياذ بالله، فالنظر بريد الزِّنا[٢].

قال البخاري: قال **سعيد بن أبي الحسن** للحسن: إنَّ نساء العجم يكشفن صدورهنَّ ورؤوسهنَّ، قال: اصرف بصرك عنهنَّ، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾[النور: ٣٠]

قال قتادة: عمَّا لا يحلُّ لهم.

﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾.

يقول **الشنقيطي** في تلك الآيات: وبه تعلم أنَّ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾ فيه الوعيد بمن يخون بعينه بالنَّظر إلى ما لا يحلُّ له، وهذا

---

(١) أحكام النظر لابن القيم ص (٩).

(٢) أضواء البيان: (٦/ ٩١).

الذي دلَّت عليه الآيتان من الزَّجر عن النَّظر إلىٰ ما لا يحلُّ جاء موضحًا في أحاديث كثيرة[١].

قال **أطباء القلوب**: بين العين والقلب منفذ وطريق، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد وصار المزبلة التي هي محلُّ النَّجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكن معرفة الله ومحبَّته، والإنابة إليه والأنس به، والسُّرور بقربه، وإنَّما يسكن فيه أضدادُ ذلك[٢].

وعن **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: إنَّ النَّبي ﷺ أردف الفضل بن عباس خلفه في الحجِّ، فجاءت جارية من خَثْعَم تستفتي رسول الله ﷺ فلوَّىٰ النَّبيُّ ﷺ عُنُقَ الفضل لئلا ينظر إليها، فقال له: عمُّه العبَّاس: لمَ لوَّيْتَ عنقَ ابن عمِّك يا رسول الله، فقال ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ: **رأيتُ شاباً وشابَّة، فلمْ آمن الشَّيطان عليهما**»[٣]، يعني: أنَّ يشغل قلب أحدهما بصاحبه إذا نظر إليه.

فانظر كيف فعل بابن عمِّه وهو في حضرته متلبس بأسباب حجِّه، ولم يأمن الطِّباع من الفتنة، والشَّيطان من الوسوسة والمحنة.

وعنه ﷺ أنَّه قال يومًا لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «**يا عليُّ، إنَّ لك، كَنزًا في الجنَّة، فلا تُتْبعِ النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنَّ لكَ الأولى، وليستْ لك الآخرةُ**»[٤]، يعني: أنَّ النَّظرة الأولى نظرة الفجأة من غير قصدٍ يمنح لك عفو بلا إثم، وليست لك الثَّانية إذا أتبعتها نظرة تمتُّعٍ.

---

(١) أضواء البيان: (٦/ ٩١).
(٢) تزكية النفوس ص (٣٨).
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه أحمد، وابن حبان. تقدم تخريجه دون قوله: «**إنَّ لك كنزًا في الجنة**» فالله أعلم.

هذا خطابه لعلي ـ رضي الله عنه ـ، مع علمه بكمال زُهده وورعه، وعفَّة باطنه، وصيانة ظاهره، يحذره من النَّظر، ويؤمنه من الخطر، لئلا يدَّعي الأمن كلُّ بطَّال، ويغترَّ بالعصمة والأمن من الفتنة ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

وعن جرير بن عبدالله البجلي، قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال لي: «اصرف بصرَكَ»[١] يعني: عن النَّظر الثَّاني؛ لأنَّك لا تأمن فيه الشَّهوة والفتنة.

ولاشكَّ أنَّ حفظ البصر أشدُّ من حفظ اللِّسان، فإنَّ العين مبدأ الزِّنا فحفظها مهم، وهو عسر من حيث إنَّه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلُّها منه تنشأ.

والنظرة الأولى إذا لمْ تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها.

قال مجاهد: إذا أقبلت المرأة جلس الشَّيطان على رأسها فزيَّنها لمن ينظر، وإذا أدبرت جلس على عجزها فزيَّنها لمن ينظر[٢].

قال العلاء بن زياد: لا تتبع بصرك رداء المرأة فإنَّ النَّظر يزرع في القلب شهوة، وقلَّما يخلو الإنسان في ترداده عن وقوع البصر على النِّساء والصبيان. فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطَّبع المعاودة وعنده ينبغي أنْ يقرِّر في نفسه أنَّ هذه المعاودة عين الجهل، فإنَّه إن حقَّق النَّظر فاستحسن ثارت الشَّهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التَّحسُّر، وإن استقبح لم يلتذ؛ لأنَّه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه، فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر، ومهما حفظ العين بهذا

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٢/ ٢٢٧).

الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التَّمكن فذلك يستدعي غاية القوَّة ونهاية التَّوفيق[١].

وفي الصَّحيحين عنه ﷺ: «**لا يحلُّ دم امريء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثِّيب الزَّاني، والنَّفس بالنَّفس، والتَّارك لدينه المفارق للجماعة**»، وهذا الحديث في اقتران الزِّنا بالكفر وقتل النَّفس نظير الآية التي في الفرقان، ونظير حديث ابن مسعود.

فقد بدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعًا، والذي يليه، فالزِّنا أكثر وقوعًا من الرِّدَّة، وأيضًا فإنَّه انتقل من الأكبر إلى ما هو أكبر منه، ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم، فإنَّ المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس وإن حملت من الزِّنا، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزِّنا والقتل، وإن حملته على الزَّوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبيًا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنا الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتَّلف والفساد، وفي هذه الكبيرة خراب الدُّنيا والدِّين، وإن عمرت القبور في البرزخ والنَّار في الآخرة، فكم في الزِّنا من استحلال لحرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!.

ومن خاصيته: أنَّه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا: أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب

---

(١) الإحياء: (٣/ ١١٤).

الهم والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنَّها زنت.

وقال **سعد بن عبادة** ـ رضي الله عنه ـ: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسَّيف غير مُصفح»[١]، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**تعجبون من غيْرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير منِّي، ومن غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[٢] [متفق عليه].

أخي الحبيب:

خَلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُّقىٰ

واصنع كماشٍ فوقَ أرض الشَّوكِ يحذرُ ما يَرىٰ

لا تحقرنَّ صغيرة إنَّ الجبال من الحصىٰ

قال محمد بن عبدالعزيز: جلسنا إلى **أحمد بن رزين** من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة، فقيل له في ذلك فقال: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله ـ تعالى ـ، فكلُّ من نظر بغير اعتبار كتبت له خطيئة.

الله أكبر.. أين من يطلق بصره ليل نهار، بل أين هذا الذي يقصد

(١) مصفَح: بضم الميم وفتح الفاء، يقال: أصفحه بالسَّيف، أي: ضربه بعرضه دون حده.
(٢) الجواب الكافي: (١٤٧).

الأسواق وغيرها للنظر في ما لا يحل له، بل أين من يبقى ساعات طوال ليشاهد القنوات والمحطات.. الرجل ينظر إلى النساء والمرأة تنظر إلى الرِّجال.. أين غض البصر وحفظه عن تلك المحرمات؟!!.

قال سعيد بن المسيب: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء.

وقال **سعيد** وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: وما من شيء أخوف عندي من النساء[1].

أخي: اختلت الموازين واختلفت المعايير، وإلا فأين من يطلق بصره من قول **عمرو بن مرَّة**: نظرت إلى امرأة فأعجبتني، فكُفَّ بصري، فأرجو أن يكون ذلك كفَّارة.

وانظر إلى ما يتواصوان به ويحرصون عليه، ونحن أحق به وأولى خاصة في هذا الزمن الذي انتشرت فيه الفتن وعمَّت به المحن!!.

قال وكيع: خرجنا مع **سفيان الثوري** في عيد، فقال: إنَّ أوَّل ما نبدأ به في يومنا غضُّ أبصارنا[2].

قال **سفيان الثوري**: عليك بالمراقبة لمن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة.

أين أنت ـ أيُّها المسلم ـ من الثواب العظيم إذا صرفت بصرك وأطعت ربك؟ ألا فأبشر بوعد من لا يخلف الوعد..

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٨٠)، السير: (٤/ ٢٣٧).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا: (٦٣).

قال ابن سيرين: إني أرى المرأة في المنام فأعرف أنَّها لا تحل لي، فأصرف بصري عنها.

الله أكبر.. في المنام ويصرف بصره؛ لأنه يعلم أنَّها لا تحلُّ له، ومن صرف بصره في النَّار لم يرض بغير ذلك في المنام..

وأما من زلَّتْ به العين فماذا يرى كفارة ذلك.. أهي المعاودة وتكرار النَّظر أم التَّوبة إلى الله.

قال عمر بن مرَّة: ما أحبُّ أنِّي بصير أني أذكر أني نظرت نظرة وأنا شاب[١].

وحين خرج حسَّان بن أبي سنان يوم العيد، فلمَّا رجع قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرت اليوم إليها؟ فلمَّا أكثرت عليه، قال: ويحك! مانظرت إلا في إبهامي منذ خرجت حتَّى رجعت إليك[٢].

أيُّها الحبيب:

أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسَّلامة، وتأميله الإصلاح فيما بعد وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حدٌّ. فكلَّما أصبح وأمسى معافى زاد الاغترار وطال الأمل.

وأي موعظة أبلغ من أنْ ترى ديار الأقران وأحوال الإخوان وقبور المحبوبين فتعلم أنَّك بعد أيَّام مثلهم، ثمَّ لا يقع انتباه ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى[٣].

---

(١) صفة الصفوة: (٣/١٠٦).

(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص (٦٤).

(٣) صيد الخاطر: (٤٢٧).

وكنـــتَ متـــى أرسلـــتَ طـــرفـــك رائـــدًا
لقلبـــك يـــومًـــا أتعبتْـــك المنـــاظـــرُ
رأيـــتَ الـــذي لا يـــأكلـــه أنـــت قـــادرٌ عليـــه
ولا عـــن بعضـــه أنـــت صـــابـــرُ

قال أبو الدرداء: يا بني لا تتبع بصرك كلَّما ترى في الناس فإنَّه من يتبع بصره كلَّما يرى في الناس يطل تخزنه ولا يشف غيظه ومن لا يعرف نعمة الله إلا في مطعمة أو مشربة فقد قلَّ علمه وحضر عذابه ومن لا يكن غنيًّا من الدنيا فلا دنيا له[1].

أيها الحبيب:

اعلم أن شهوة الفرج والعين هي أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل، إلا أنَّ مقتضاها قبيح يستحيا منه ويخشى من اقتحامه، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه، وليس في شيء من ذلك ثواب فإنَّه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر. نعم من المعصية أن لا يقدر ففي هذه العوائق فائدة وهي دفع الإثم، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأيِّ سبب كان تركه، وإنَّما الفضل والثَّواب الجزيل في تركه خوفًا من الله - تعالى - مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب.

وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج، ومن لم يقدر على غضِّ بصره لم يقدر على حفظ فرجه.

---

(١) الزهد: (١٩٦).

قال **عيسى** ـ عليه السلام ـ: «إيَّاكم والنَّظرة فإنَّها تزرع في القلب شهوةً وكفى بها فتنة».

قال **داود** ـ عليه السلام ـ: «يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة».

وقيل **ليحيىٰ** ـ عليه السَّلام ـ: ما بدء الزِّنا؟ قال: «النَّظر والتَّمنِّي».

وقال **الفضيل**: يقول إبليس: هو قوسي القديمة وسهمي الذي لا أخطيء به يعني النظر[(١)].

وقال **بعض الحكماء**: كلٌّ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بأمسك، وكفَّ عن سيئاتك، وزد في حسناتك، قبل أن تستوفي الأجل، وتقصر عن الزيادة في السَّعي والعمل[(٢)].

هذه نصائح غالية ودرر ثمينة ممن يعرفون عظَم الذنب وقدر من يطلع على السَّرائر فيخافون ربهم ويخشونه.

قال **يحيىٰ بن معاذ**: ألا إن العاقل المصيب من عمل ثلاثًا: ترك الدنيا قبل أن تتركه وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى ربه قبل أن يلقاه[(٣)].

أيُّها الشاب:

إن إطلاق البصر فيما لا يحل ذنب قد يؤدي بك إلى المهالك وقد ترى أثره في الدنيا قبل الآخرة كما قال **حماد بن زيد** ـ رضي الله عنه ـ: إذا

---

(١) الإحياء: (٣/ ١١٢).

(٢) العاقبة ص (٨٨).

(٣) صفة الصفوة: (٤/ ٩٤).

أذنب العبد بالليل أصبح ومذلته في وجهه[1].

يـــا راقـــدًا الليـــلَ مَسْـــرورًا بـــأوَّلـــه
إن الحـــوادث قـــد يطـــرقـــن أسحـــارًا
أفنـــى القـــرون التـــي كـــانـــت مسلطـــةً
مـــرُّ الجـــديـــديـــن إقبـــالاً وإدبـــارًا
يـــا مـــن يكـــابـــدُ دنيـــا لا مقـــام بهـــا
يُمســـي ويصبـــح فـــي دنيـــاه سيَّـــارًا
كـــم قـــدْ أبـــادتْ صُـــروفُ الـــدَّهـــر مـــنْ
ملـــكٍ قـــدْ كـــان فـــي الأرض نفَّـــاعَـــا

وفضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور في قلب الناظر؛ فيحدث أنواعًا من الفساد في قلب العبد:

منها: ما ذكره رسول الله ﷺ كما جاء في المسند: «**النظرة سهمٌ من سهام إبليس؛ فمنْ غضَّ بصره لله أورثه حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه**»[2].

منها: دخول الشيطان مع النَّظرة، فإنَّه ينفذ معها أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي؛ ليُزيِّن صورة المنظور، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب، ثمَّ يعده ويمنِّيه، ويوقد على القلب نار الشَّهوات ويُلقي حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة.

منها: أنَّه يشغل القلب؛ وينسيه مصالحه، ويحول بينه وبينها؛ فيفرط

(١) تقدم تخريجه.
(٢) الزهرة الفائح: (٩٥).

عليه أمره، ويقع في اتباع الهوى والغفلة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[١] [الكهف: ٢٨].

قال داود الطائي: كانوا يكرهون فضول النظر[٢].

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان فإنَّ النَّظرة تولد الخطرة، ثمَّ تولد الخطرة فكرة، ثم تولد شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة حازمة فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع مانع، وفي هذا قيل الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.

قيل: إن **حسان بن ثابت** ـ رضي الله عنه ـ خرج يوم عيد، فصلَّى ثم عاد إلى زوجته فقالت له: يا حسان، كم رأيت من وجه مليح؟ فقال: والله ما رفعت طرفي ولا علمت ما كان من الناس ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نظر إلى ما لا يحل له حرَّم الله عليه النظر إلى وجهه وألقاه في النار**»[٣].

وهذه الدنيا مزرعة الآخرة ودار عملٍ وتعب ونصب فإنْ أحسن العبد فيها فهنيئًا له وإنْ قصَّر وفرَّط ندم في يوم تشخص فيه الأبصار.

قال أحمد تنهدت عند **أبي سليمان الداراني** يومًا فقال: إنَّك مسؤول عنها يوم القيامة فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك وإن كانت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك[٤].

قال **الثوري**: يُسألون والله عن كلِّ شيءٍ حتَّى التبسم فيم تبسمت يوم

---

(١) تزكية النفوس: (٣٧).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا: (٦٢).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ٣٣٧).
(٤) المنتخب: (٢٠).

كذا وكذا؟ فذلك قوله: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩].

أخي الحبيب:

إذا ما خلوتَ الدَّهر يومًا فلا تقلْ
خلوتُ ولكنْ قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفلُ ساعةً
ولا أنَّ ما تُخفيه عنه يغيبُ
ألمْ تر أن اليوم أسرعُ ذاهبٍ
وأنَّ غدًا للنَّاظرين قريب

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر: ٦١].

قال علماء التفسير: كان هذا الإنسان المذكور عابدًا في صومعة له، مشهورًا بالعبادة، ومشهورًا بالزهادة، يستشفي بدعائه المرضى، وإذا عرض بأحد مرضٌ أو جنون حُمل إلى صومعته، ليدعوَ له ليبرأ، فمرضت ابنة بعض كُبراء البلدة ذات جمال، فجاءوا بها ومضوا، فلمَّا خلا بها نظر إليها فأعجبته، فواقعها فعلقتْ (حملت) منه، فجاءه الشيطان الذي أغراه حتى نظر إليها، وأمَّنه الفتنة حتَّى خلا بها، فقال له: اقتلها وادفنها في جانب الصومعة، فإذا جاءوا يطلبونها، تقول: ماتت، فيقبلوا قولك لموضعك عندهم، وإلا أتوا فرأوها حُبْلى منك، فتفضح وربما قتلوك، فقبل منه وقتلها ودفنها، فلمَّا جاء أهلها أخبرهم بموتها، وأنَّه دفنها، فصدَّقوا قوله ومضوا. فمضى الشيطان إلى إخوتها، وأخبرهم بخبر العابد وفعله بأختهم، وقتله لها، وقال: علامة ذلك دفنها في الموضع الفلاني

من صومعته، فجاءوا إلىٰ العابد، ودخلوا الصومعة، ونبشوا الموضع، فوجدوا ابنتهم، فأخذوا العابد ليصلبوه، فلمَّا رُقي به الخشبة ليصلب، أتاه الشيطان، فقال له: أعلمت أني فعلت بك هذا كلَّه وأنا أقدر أن أخلصك مما أنت فيه؟ فقال: افعل، قال بشرط أن تسجد لي سجدة واحدةً، وأخلِّصك، فسجد له، فكفر بهاوصُلب، فولَّى الشيطان عنه يقول: إنِّي بريء منك.

فاغتر أوَّلاً بعبادته واغترَّ آخراً بعدة عدوِّه، فهكذا العبادة بالجهل، يخيل لصاحبها الأمن، وكان سبب هلاك هذا العابد نظرةً أصابه فيها سهم من الشيطان، فلا ينبغي للعاقل أنْ يغتر بالعبادة، وقبول العام، ولا يأمن من فتنة النظر على مر الأيام.

ولعظم الأمر المترتب على النظر وما يقود إليه من فساد وربما الوقوع في فاحشة الزنا فقد حرَّمه الله ـ سبحانه ـ رحمةً بعباده لئلا يقعوا في تلك الجريمة الشنعاء، تلك الجريمة التي خصَّ الله حدَّ فاعلها بخصائص قال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: خصَّ سبحانه حدَّ الزنا من بين الحدود **بثلاث خصائص**:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خفَّفه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجَلْدِ وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة..

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم، فإنَّه ـ سبحانه ـ من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بهم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا ـ وإن كان عامًّا في سائر الحدود ـ ولكن ذكر في حد الزنا خاصة

لشدة الحاجة إلى ذكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني مايجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله.

* **وسبب هذه الرحمة**: أنَّ هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه.

وأيضًا فإن هذا ذنب غالبًا ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه، وفي النفوس شهوة غالبة له فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحدِّ، وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أنْ تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقًا لربِّه ـ تعالى ـ في أمره ورحمته.

الثالث: أنه ـ سبحانه ـ أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحدِّ وحكمة الزجر[١].

وأعقلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يرتكب سبباً
حتَّى يفكِّر ما تجني عواقبه

كان **وهيب بن الورد** يقول: خف الله على قدر قدرته عليك، واستح منه على قدر قربه منك.

---

(١) الجواب الكافي ص (١٧٦).

وقال له رجل: عظني، فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

أيُّها المسلم:

تخشى رجال الحسبة والأمن بل وعامة الناس، ولا تخشى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو مطلع على خلوتك وسريرتك. لا يبلغ بك الجهل أن يكون الله أهون الناظرين إليك.

أخي الحبيب:

هاك جواب لمن يبرر النظرة الثانية وأنَّها تطفيء لهب النظرة الأولى..

سُئل ابن قيم الجوزية:

ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرة فعلق حبها بقلبه واشتد عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوت عنها، فهل يجوز له تعمد النظر ثانيًا لهذا المعنى؟

فكان الجواب: الحمد لله، لا يجوز هذا لعشرة أوجه:

أحدها: أنَّ الله ـ سبحانه ـ أمر بغض البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد.

الثاني: أنَّ النبي ﷺ سُئل عن نظرة الفجأة، وقد علم أنَّه يؤثر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنَّه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحال أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقصه، والتجربة شاهدة والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسُنُ المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنَّه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسن لتتم البليَّة.

السابع: أنَّه لا يُعان على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرَّمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثَّامن: أن النظرة الأولى سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشدُّ سُمًّا فكيف يتداوى من السم بالسم.

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق ـ عزَّ وجلَّ ـ في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًّا تركه، فإذًا يكون تركه، لأنَّه لا يلائم غرضه لا لله ـ تعالى ـ، فأين معاملة الله ـ سبحانه ـ بترك المحبوب لأجله؟.

العاشر: يتبين بضرب مثل مطابق للحال، وهو: أنك إذا ركبت فرسًا جديدًا فمالت بك إلى درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصح بها وردها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلى ورائها سهُل الأمر، وإن توانيت حتى ولجت وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذنبها عسُر عليك أو تعذر خروجها، فهل يقول عاقل: إن طريق تخليصها سَوْقُها إلى داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثَّرت في القلب، فإن عجَّل الحازم وحسم المادة من أولها سهُل علاجه، وإن كرَّر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال شجرة الحب تنمو!! حتى يفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به فيخرج بصاحبه إلى المحن ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن ويلقى القلب في التلف.

والسبب في هذا أن الناظر التذَّت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غض أوَّلاً لاستراح قلبه وسَلِمَ، وتأمل قول النبي ﷺ: «**النظرة سهم من سهام إبليس**»، فإن السهم شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السم الذي يسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله ولابد.

قال المروذي: قلت **لأحمد**: الرجل ينظر إلى المملوكة. قال: أخافُ عليه الفتنة. كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلاء[1].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: وقد أمر الله في كتابه بغضِّ البصر، وهو نوعان: غض البصر عن العورة، وغضها عن محل الشهوة، والثاني: أشد من الأول.

وأمَّا ما يجوز من النَّظر إلى الأجنبية لحاجة ما، ففي **حالات**:

* **منها**: إذا أراد الرجل التزويج بامرأة، فإنَّه يجوز له أن ينظر إلىٰ وجهها وكفيها وما يدعو إلى نكاحها، لما روى جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **إذا خطب أحدُكم المرأة، فاستطاع أن ينظر إلى ما يدعوهُ إلى نكاحها، فليفعلْ**»[2].

يعني: الوجه والكفين وهي مستترة، ولا يباح له النظر إلى جسمها، ولا شيء من عورتها بحال.

* **الحالة الأخرى**: إذا أردت شراء جارية، فيجوز أن تنظر إلى ما دون السُّرة والرُّكبة ومواضع التقليب لأجل الشراء لا متمتعًا بالنظر عبثاً، فإنْ

---

(١) أحكام النظر ص (١٠).

(٢) رواه أحمد، وأبو داود.

قصد التمتع بالنظر، وأظهر إرادة الشراء، كان عاصيًا لمولاه، كاذبًا في دعواه، كمن يظهر أخوة النسوان بناموس الزهد، وقصده التمتع بمعاشرتهن، فهو ملعون ممقوت عند الله، مارق عن شريعة رسول الله ﷺ.

* **الحالة الأخرى**: في المعاملة المفتقرة إلى الشهادة عليها، والتعريف لها، للرجوع بالعهدة، إلى غير ذلك مما تدعو إليه ضرورة المعاملة، فينظر الشاهد إلى وجهها، لتحقيق الشهادة، لا ليتمتع بالمشاهدة، فإنْ قصد هذا، فسق وعصى، وإن كان الأولى صيانتهنَّ عن المعاملات المفضية إلى هذا النَّوع من تبذلهنَّ، والتَّعرض لفتنتهنَّ، والافتتان بسببهنَّ.

ويجب على من نظر للحاجات المذكورة أن يتحفظ بقصر نظره على محل الضرورة، ولا يتعدى إلى التمتع فيقع في الخطر والتحريم والفتنة.

* **والحالة الأخرى**: يجوز للطبيب أن ينظر من المرأة إلى المحل الذي تدعو الضرورة إلى نظر إليه لمداواة العلَّة.

كما أبيح النظر إلى العورة لوجوب الختان ضرورةً.

ورُبما تسامح بعض الجهال من العوام في نظر الأخ إلى زوجة أخيه، والمرأة تنظر إلى زوج أختها، لا سيَّما إن اجتمعوا في منزل واحدٍ، وربما خلا كل واحد من الأخوين بزوجة الآخر في غيبته، وكلُّ ذلك محرَّم ممنوع شرعًا، لا يسيغه مذهب.

وقد روى عقبةُ بن عامر أن النبي ﷺ قال: «**إيَّاكم والدخول على النساء**»، فقال رجلٌ من الأنصار: أريت الحَمُو؟ فقال ـ عليه السلام ـ: «**الحمو الموت**»[1].

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

وروي فيه أنَّه قال: «**الحمو القبر**».

قال العلماء: أراد بالحمو هاهنا أخا الزوج.

فانظر كيف كان بالغ في الزجر عن التسامح في نظر أخي الزوج إلى امرأة أخيه، حتَّى آثر الموت في القبر عليه ومن سد الأبواب التي تؤدي إلى النظر وما وراءه أنَّه لا يجوز الدخول على من غاب عنها زوجها، وإن كان قد وكَّله بأمرها أو نفقتها، فضلاً عمن هو أجنبي منه ومنها(١).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قبل النساء، وكُفر من بقي من قبل النساء(٢).

والإسلام عندما حرَّم النظر إلى ما لا يحل فإنه أيضًا سد جميع الوسائل التي تفضي إلى تحريك الشهوة والوقوع في الحرام حتى ولو كان بالوصف أو بالتشبيه؛ لأن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا.

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «**لا تنعتِ المرأة المرأةَ لزوجها كأنَّه ينظر إليها**»(٣).

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف نهى عن وصف المرأة المرأةَ لزوجها صفة امرأة أجنبية؛ لئلا تسمو همته إليها؛ لأن الوصف يقوم مقام النظر، كلُّ ذلك احتياطٌ وزجرٌ عن النَّظر وما يُدانيه.

وقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم ممَّا روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ**

---

(١) أحكام النظر: (٣٨).

(٢) أحكام النظر: (١٥).

(٣) رواه البخاري بلفظ: «**لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنَّه ينظر إليها**» فتح الباري: (٩/٣٣٨).

كتب على ابن آدم حظَّه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين بالنظر، وزنا اللسان النطق، وزنا اليدين اللمس، والنفس تتمنَّى وتشتهي، والفرج يصدِّق ذلك كلَّه أو يُكذِّبه»[1].

فسمَّى النظر إلى غير المحارم، والحديث معهن ولمسهن أجزاءً من الزنا الحقيقي، الذي يصدق إلى تحقيقه الفرج، ويصدقه في وجوب الحد في الدنيا، واستحقاق النار في الأخرى.

وفي الحديث الآخر عن المصطفى ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس**».

معناه: أنَّ النَّظر من الرَّجل إلى المرأة، أو المرأة إلى الرَّجل سهم يرمي به العدو إلى النَّفس والقلب، فقد يهلكها دنيا وأخرى، كالسَّهم المسموم؛ لأنَّه يجرح الظَّاهر بحدِّه، ويفسد الباطن بسمِّه.

وأما الخطوات: فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينوبها لله، فتقع خطاه قربة.

ولما كانت **العثرة عثرتين**: عثرة الرجل، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطوات في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[2] [غافر: ١٩].

---

(١) رواه البخاري، دون قوله: وزنى اليدين اللمس».

(٢) الجواب الكافي ص (١٧٤).

كتب ابن السمَّاك الواعظ إلى أخ له:

أمَّا بعد: أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كلِّ حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنَّك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظُم منه حذرُك وليكثُر منه وَجَلُك والسَّلام[١].

أيُّها الشاب:

دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة. فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها[٢].

ولا تنس أنَّ كلَّ ذلك في صحائفك التي ستنشر لك وتراها يوم القيامة إن خيرًا فخيرًا وإنْ شرًّا فشرًّا.

نمــــوت ونبلــــى غيـــــر أن ذنــــوبنـــا
إذا نحــــن متنـــا لا تمـــوت ولا تبلـــى[٣]

التقوى ثلاث مراتب:

إحـداهـا: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

الـثانية: حميتها عن المكروهات.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (١٦١).

(٢) الفوائد ص (٤٦).

(٣) البداية والنهاية: (١٠/ ٢٦٣).

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى: تعطي العبد حياته، والثانية: تفيده صحته وقوته، والثالثة: تكسبه سروره وفرحه وبهجته[١].

واعلم أن باب الخير مفتوح وكذلك باب الشر، فجاهد نفسك وخذها بقوة تستقم أمورك ويصلح حالك وتفوز في العاجلة والآجلة.

من خلقه الله للجنَّة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره، ومن خلقه للنَّار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات[٢].

عليك ـ أيُّها الشاب ـ بنصيحة اجتهد في تطبيقها وسترى أنَّها ستثمر في قلبك حلاوةً وخيرًا.

عن أبي روح عن أنس قال: إذا مرَّتْ بك امرأة فغمِّض عينيك حتَّى تجاوزك[٣].

وماذا يضرك لو أغمضت عينيك وصرفت بصرك طاعةً لله ولرسوله؟! إنَّها أسهل من النظرة الثانية وما بعدها ثم الحساب والجزاء!!؟

وفي غض البصر عدَّةُ فوائد:

أحدها: تخليص القلب من ألم الحسرة، فإنَّ من أطلق نظره، دامت حسرته، فأضرُّ شيء على القلب إرسال البصر، فإنَّه يريه ما يشتد طلبه، ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه.

الفائدة الثانية: أنَّه يُورثُ القلبَ نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي

---

(١) الفوائد ص (٤٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الورع لابن أبي الدنيا ص (٦٦).

الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه.

الفائدة الثالثة: أنَّه يورث صحة الفراسة؛ فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب، صحت الفراسة.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه؛ وذلك بسبب نور القلب.

الفائدة الخامسة: أنَّه يورث قوَّة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الـحُجَّة.

الفائدة السَّادسة: أنَّه يورث القلب سرورًا وفرحةً وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته، وحبس شهوته لله، وفيها مسرةُ نفسه الأمارة بالسوء، أعاضه الله ـ سبحانه ـ مسرَّةً ولذةً أكمل منها.

الفائدة السَّابعة: أنَّه يخلِّص القلب من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه.

الفائدة الثَّامنة: أنَّه يسدُّ عنه بابًا من أبواب جهنَّم، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب ـ تعالى ـ وشرعه حجابٌ مانع من الوصول، فمتى هتك الحجاب، ضري على المحظور، ولم تقف نفسه منه عند غاية، فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد.

الفائدة التَّاسعة: أنه يقوي عقله، ويزيده ويثبته فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفَّة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب،

فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب، ومُرسلُ النظر لو علمَ ما تجني عواقبُ نظره عليه، لما أطلق بصره.

الفائدة العاشرة: أنه يخلِّص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ويوقع في سكرة العشق.

فالنظرة كأسٌ من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فإنَّ سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلَّما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات.

وفوائد غضِّ البصر وآفات إرساله أضعافُ ما ذكرنا، وإنَّما نبَّهنا عليه تنبيهًا[1].

أيُّها الشاب:

إن مـمَّا يعين على غضِّ البصر المسارعة إلى الزواج قال ﷺ: حاثًّا على ذلك: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج فإنَّه أغضُّ للبصر وأحفظ للفرج**»[2].

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور[3].

وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيَّام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبًا[4].

واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلةً فسأل

---

(١) أحكام النظر: (١٧).
(٢) رواه البخاري، ومسلم.
(٣) الإحياء: (٢/٢٦).
(٤) المصدر السابق.

من أعقلهما؟ فقيل: العوراء، فقال: زوِّجوني إيَّاها[١].

وتأمل في نظرتهم العلوية في اختيار الزوجة وأن هذه الدار دار عمل وجد.. إنَّها أنفسٌ سمت عن هذه الدنيا وفتنتها وتطلعت إلى جنَّة عرضها السمٰوات والأرض.

قال **شميط بن عجلان**: رحم الله رجلاً تبلَّغ بامرأة وإنْ كانت نصفًا، وكان في وجهها رداءة، أنْ كان موقنًا بنساء أهل الجنة[٢].

قال **ابن طاوس**: قلت لأبي: أريد أن أتزوج فلانة، قال: اذهب فانظر إليها، قال: فذهبت فلبست من صالح ثيابي وغسلت رأسي وادَّهنت، فلمَّا رآني في تلك الهيئة قال اقعد لا تذهب.

وما ذاك إلا لأنَّه تجاوز الحدَّ الذي يخشى والده عليه وعليها أيضًا.

كان **مالك بن دينار** ـ رحمه الله ـ يترك أحدكم أن يتزوج يتيمة فيؤجر فيها أن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان يعني أبناء الدنيا، فتشتهي عليه الشَّهوات وتقول أكسني كذا وكذا[٣].

تلك هي نظرتهم للزواج الإسلامي أنَّه مودة ورحمة وسكن وراحة وهو قبل ذلك من أنواع العبادة التي يحبُّها الله ورسوله، فيها إعفاف مسلمة وحسن معاشرة، وإنفاق وصدقة وصلة رحم وذرية يعبدون الله ويوحدونه ويجاهدون لإعلاء دينه.. وفيها ما شاء الله من الخير والأجر.

قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

---

(١) الإحياء: (٢/ ٤٤).

(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١٣١).

(٣) الإحياء: (٢/ ٤٤).

لكــــل أبـــي بنـــت يـــراعـــي شُـــؤونهـــا
ثـــلاثـــة أصهـــار إذا حُمـــد الصِّهـــر
فبعـــل يـــراعيهـــا وخـــدر يُكفهـــا
وقبـــرٌ يـــواريهـــا وأفضلهـــا القبـــر[1]

روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ أنَّها قالت: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النَّوى لناضحه وأعلفه واستقي الماء وأخرز غربه وأعجن وكنت أنقل النَّوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنَّما أعتقني[2].

وقال أبو هاشم الزَّاهد: أخذُ المرءِ نفسه بحسن الأدب تأديب أهله[3].

فإن مَنْ حسَّنَ خُلُقه وجمَّل أفعاله رأى ذلك في تصرفاته وأفعال أهله، وهل هو إلا صورة لمنزله ينعكس ضوءه فينير دروب الزوجة والأبناء؟!

وفي حسن العشرة وكمال الخلق تسير مركبة الأسرة في بحور من نور كل منهم يشد الآخر ويدله على طريق الآخرة.. يتجاوز عن زلله ويصفح عن خطئه.

قال عمرو بن العاص: لا أمل ثوبي ما وسعني، ولا أمل زوجتي ما

---

(١) أدب الدنيا والدين: (١٦٢).
(٢) القصة رواها البخاري فتح الباري: (٩/ ٣١٩).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٣٠٦).

أحسنت عشرتي ولا أملُّ دابتي ما حملتني، إن الملال من سيء الأخلاق[1].

وهذه صورة مشرقة من صور صدر الإسلام.. تُعيدك قرونًا لترى حال الآباء والأجداد ممن صنعوا مجد هذه الأمة بإيمانهم وأعمالهم.

عن مالك بن دينار قال: لما أتى عمر ـ رضي الله عنه ـ الشام طاف بكورها (مدنها) قال: فنزل بحضرة حمص، فأمر أن يكتبوا لهم فقراءهم، قال: فرفع إليه الكتاب فإذا فيه **سعيد بن عامر بن حزيم** أميرها، فقال من سيعد بن عامر؟ قالوا: أميرنا، قال: أميركم؟ قالوا: نعم، فعجب عمر ثم قال: كيف يكون أميركم فقيرًا، أين عطاؤه، أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئًا.

قال: فبكى عمر، ثم عمد إلى ألف دينارٍ فصرَّها، ثمَّ بعث بها إليه وقال: اقرئوا منِّي السَّلام وقولوا بعث بهذه إليك أمير المؤمنين تستعين بها على حاجتك، قال فجاء بها إليه الرَّسول، فنظر فإذا هي دنانير.

قال: فجعل يسترجع، قال: تقول له امرأته: ما شأنك أمات أمير المؤمنين؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني، الفتنة دخلت عليَّ، قالت: فاصنع فيها ما شئت، قال: عندك عون؟ قالت: نعم.

قال: فأخذ دريعة (قميص المرأة) فصرَّ الدنانير فيها مرارًا ثمَّ جعلها في مخلاة ثمَّ اعترض جيشًا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها، فقالت له امرأته: ـ رحمك الله ـ لو كنتَ حبست منها شيئًا نستعين به، قال: فقال لها: إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لو اطلعت امرأة من نساء أهل**

---

(١) السير: (٣/ ٥٧).

الجنَّة إلى أهل الأرض لملأت بريح مسك»[١] وإنِّي والله، ما كنت لأختارك عليهن، فسكتت.

خــذي العفــو منِّــي تستــديمــي مــودَّتــي
ولا تنطقــي فــي ســورتــي حيــن أغضــب
ولا تنقــرينــي نقــرك الــدُّفَّ مــرة
فــإنَّــك لا تــدريــن كيــف المغيَّــب
ولا تكثــري الشكــوى فتــذهــب بــالهــوى
ويــأبــاكِ قلبــي والقلــوبُ تقَلَّــبُ
فــإنِّــي رأيــتُ الحــبَّ فــي القلــب والأذى
إذا اجتمعــا لــم يلبــثِ الحــبُّ يــذهــبُ[٢]

أيُّها الحبيب:

تعدد الزوجات أمر مندوب إليه لمن استطاع العدل فكيف حالهم ـ رحمهم الله ـ في هذا العدل وكيف حفظوه وقاموا به. هذه صورة من ذلك العدل وتلك الصور المشرقة في حياتهم. كما يفعل البعض من الظلم وقهر إحدى الزوجين على حساب الأخرى.

كانت تحت معاذ بن جبل امرأتان، فإذا كان عند أحدهما لم يشرب من بيت الأخرى الماء[٣]*.

---

(١) رواه البزَّار من حديث سعيد بن عامر وأخرجه البخاري من حديث أنس بلفظ: «لو أنَّ امرأة من نساء أهل الجنَّة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحًا» أي: طيبة. قاله الحافظ ابن حجر فتح الباري: (١١/٤١٨، ٤٤٢).

(٢) مكاشفة القلوب: (٣٩٨).

(٣) حلية الأولياء: (١/٢٤٣).

* وأعرف من يفعل مثل ذلك الآن.

وعندما وقع طاعون (عَمْواس)[١] توفيت زوجتاه في يوم واحد، وكان الناس في شغل عن حفر قبر لكل إنسان لكثرة الموتى بسبب هذا الوباء، فدفنهما ـ رضي الله عنه ـ في قبر واحد، ولكنَّه من شدَّة عدله أسهم بين زوجتيه في أيتهما تُقدَّم في اللَّحد أولاً.

أمَّا احتمال أذى الزَّوجة والصَّبر عليها وعلى سوء خلقها فإنَّه من صلاح الحال والصَّبر على العيال.. فقد راجعت امرأة عمر ـ رضي الله عنه ـ في الكلام، فقال: أتراجعيني يا لكعاء؟ فقالت: إنَّ أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خيرٌ منك[٢].

واعلم ـ **أيها الحبيب** ـ أنَّه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهنَّ يومًا إلى الليل[٣].

وعند نهاية العشرة الزوجية فإنَّه يبقى للمؤمنة حقُّها في الحفظ والصون ويبقى الفضل مذكورًا والخير منشورًا. أولئك الرِّجال الذين غشى قلوبهم الإيمان وزينهم بتعاليمه وأفاض عليهم من آدابه امتثالاً لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

يُروى عن **بعض الصالحين** أنَّه أراد طلاق امرأته فقيل له: ما الذي يريبك فيها؟ فقال: العاقل لا يهتك ستر امرأته، فلمَّا طلَّقها قيل له: لم طلقتها؟ فقال: مالي ولامرأة غيري؟[٤].

---

(١) كان بالشام في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ مات فيه خمسة وعشرون ألفًا.

(٢) رواه البخاري.

(٣) مكاشفة القلوب: (٣٩٣).

(٤) الإحياء: (٢/ ٦٤).

سبحان الله ما أعظم إيمانهم؟! وما أصدق سرائرهم؟! وما أحفظ ألسنتهم؟! لو لحظت الأمر اليوم كيف حال النساء وسوء عشرتهن وإيذائهن وظلمهن قبل الطلاق وبعده؟. لرأيت اختلال الموازين ونقص المكاييل.

أخي الحبيب:

رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية إلا في المرض، كما لا يعرف شكر الإطلاق إلا في الحبس.

وتأملت على الآدمي حالة عجيبة، وهو أن تكون معه امرأة لا بأس بها إلا أن قلبه لا يتعلق بمحبتها تعلقًا يلتذُّ به.

ولذلك سببان:

أحدهما: أنْ تكون غير غاية في الحسن.

والثَّاني: أنَّ كلَّ مملوك مكروه، والنفس تطلب ما لاتقدر عليه.

فتراه يضج ويشتهي شيئًا يحبُّه أو امرأة يعشقها، ولا يدري أنَّه إنَّما يطلب قيدًا وثيقًا يمنع القلب من التَّصرُّف في أمور الآخرة أو في أي علم أو عمل، ويخبطه في تصريف الدنيا، فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق، همُّه كلُّه معه.

فالعجب لمطلق يؤثر القيد، ومستريح يؤثر التَّعب.

فإنْ كانت تلك المرأة تحتاج أن تحفظ فالويل له لا قرار له ولا سكون، وإن كانت من المتبرجات اللواتي لا يؤمنُ فسادهن فذاك هلاكه بمرة.

فلا هو إن نام يلتذُّ بنومه، ولا إن خرج من الدار يأمن محلَّه. وإن كانت تريد نفقة واسعة وليس له، فكم يدخل مدخل سوء لأجلها؟ وإن كانت تؤثر الجماع وقد عَلَتْ سنه فذاك الهلاك العظيم! وإن كانت تبغضه فما بقيت من أسباب تلفه بقية، فيكون هذا ساعيًا في تلف نفسه.

وهذا على الحقيقة كعابد صنم.

فليتق الله من عنده امرأة لا بأس بها، وليعرض عن حديث النفس ومُنَاها فما له منتهى.

ولو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل وطلب ثالثة، ثمَّ يقع الملل ويطلب رابعة، وما لهذا آخر. إنَّما يفيده ذلك في العاجلة تعلق قلبه وأسر لُـبُّه، فيبقى كالمبهوت.

فكرُه كله في تحصيل ما يريد محبوبه، فإنَّ جرت فرقة أو آفة فتلك الحسرات الدائمة إن بقي أو التلف عاجلاً.

وأين المستحسن المصون الدين القنوع بمن يحبه هذا أقل من الكبريت الأحمر.

فلينظر في تحصيل ما يجمع معظم الهمِّ. ولا يلتفت إلى سواد الهوى وغاية المنى، يسلم(١).

شكا رجلٌ من بغضه لزوجته **لابن الجوزي** فقال: ما أقدر على فراقها لأمور، منها كثرة دينها عليَّ وصبري قليل، ولا أكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى، وفي كلمات تعلم بغضي لها.

فقال له **ابن الجوزي**: هذا لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها! فينبغي أن تخلو بنفسك فتعلم أنَّها إنما سُلطت عليك بذنوبك فتبالغ في الاعتذار والتوبة.

فأما التضجر والأذى لها فما ينفع كما قال الحسن عن الحجاج: عقوبة من الله لكم فلا تقابلوا عقوبته بالسيف قابلوها بالاستغفار.

---

(١) صيد الخاطر: (٤٩٨).

واعلم أنَّك في مقام مبتلى ولك أجر بالصبر: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فعامل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالصبر على ما قضى واسأله الفرج. فإذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر على القضاء وسؤال الفرج، حصَّلتَ ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها. ولا تضيع الزمان بشيء لا ينفع، ولا تحتل ظانًّا منك أنك تدفع ما قُدِّر: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾[1] [الأنعام: ١٧].

قال **داود الطائي**: ما أخرج الله عبدًا من ذلِّ المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزَّه بلا عشيرة، وآنسه بلا بَشَر[2].

عليك أخي المسلم: بترك المعاصي في السرِّ. وإلى هذا المعنى الإشارة في القرآن بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾ [النساء: ١].

كان **بعض السلف** يقول لأصحابه: زهَّدَنا الله وإياكم في الحرام زُهد من قدر عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته أو كما قال.

وقال **الشافعي**: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف[3].

ذُكر أن أعرابيًا قال: خرجت في بعض الليالي الظلم فإذا أنا بجارية كأنَّها علم فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك أما كان لك زاجرًا من عقل إذا لم يكن ناه من دين؟ فقلت: إنَّه ـ والله ـ ما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها[4].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) صيد الخاطر: (٥١٣).
(٣) صفة الصفوة: (٣/ ١٣٢).
(٤) روضة المحبين: (٣٩٥).

واتَّـــــق الله فتقـــــوى الله مـــــا
اورثْ قلْـــــبَ امــــريء إلا وصــــل

وهناك الآن من يحاول إفساء المرأة بالنظر والمهاتفة. . أو عن طريق نشر الفساد بين نساء المسلمين. . رحم الله من كانوا قبلنا. . كانوا يسعون لإعفاف المسلمة وسد جميع طرق الفساد حتى لا ترى إلا طريق الحق فتنقاد له وتعرض عن الشر وتبتعد عنه. . إنهم أهل إيمان وأصحاب قلوب حية يرون أن كل مسلمة لهم أخت وعليهم واجب إعفافها وسترها.

جاءت امرأة عليها ثوب قد نفض من الصبغ فسألت **حسان بن أبي سنان**، فقال لشريكه هكذا وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى، فذهب شريكه يزن درهمين قال: زن لها مائتين، فقالوا: يا أبا عبدالله، كنت تُرضي بذا، كذا وكذا من سائل، فقال: إنِّي ذهبت في شيء لم تذهبوا فيه، إني رأيت بها بقية من الشباب، وخشيت أن تحملها الحاجة على بعض ما يكره[1].

أنعم به من مال يصون به عرض أخته المسلمة التي يرى فيها حاجة ويخشى عليها من الانحراف. . كم من مسلم يقوم بهذا العمل اليوم؟!

كان بعض السلف يقول: أتراك ترحم من لم يقر عينيه بمعصيتك حتى علم أن لا عين تراه غيرك؟.

وقال بعضهم: ابن آدم إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصف لك من عين ناظرة إليك، فلمَّا خلوت بالله وحده صفتْ لك معصيتُك ولم تستح منه حياءك من بعض خلقه، ما أنت إلا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه لا

---

(١) حلية الأولياء: (٣/ ١١٦).

يراك فقد كفرتَ، وإن كنتَ علمت أنَّه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه لقد اجترأت[١].

قال مجرز أبو القاسم الجلاب: حدثني سعدان قال: أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خثيم فلعلها تفتنه[٢]، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثمَّ تعرَّضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمَّى بجسمك فغيَّرت ما أرى ما لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد ساء لك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة فسقطت مغشيًا عليها، فوالله لقد أفاقت وبلغت من عبادة ربها أنها كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق[٣].

وكان بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك، فلمَّا كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت: يا فتى، اسمع منِّي كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت، فمضى ولم يكلمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له: يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها، فأطرق مليًا وقال لها: هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعًا فقالت له: والله، ما وقفتُ موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي

(١) جامع العلوم والحكم: (١٦١).
(٢) هذا من فعل الفساق ولا يجوز.
(٣) كتاب التوابين: (٢٦٢).

لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها. وجملة ما أقول لك أن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك. فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاسًا وكتب كتابًا ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى مكانه، وكان فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، اعلمي أيتها المرأة أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا عصاه العبد حلم، وإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله ـ تعالى ـ لنفسه غضبة تضيق لها السموات والأرض والجبال والشجَّر والدَّواب، فمن ذا يطيق غضبه، فإن كان ما ذكرت باطلاً فإنّي أذكركِ يومًا تكون فيه السَّماء كالمهل وتصير الجبال كالعن، وتجثوا الأمم لصولة الجبَّار العظيم، وإنّي والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإن كان ما ذكرت حقًّا فإنّي أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم الممرضة والأوجاع المرفضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فإني مشغول عنك بقول ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٨، ١٩].

فأين المهرب من هذه الآية، ثمَّ جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت: يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدًا إلا غدًا بين يدي الله ـ تعالى ـ، ثم بكت بكاء شديدًا وقالت: أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك، ثم إنها تبعته وقالت: أمنن عليَّ بموعظة أحملها عنك وأوصني بوصية أعمل عليها، فقال لها: أوصيك بحفظ

نفسك من نفسك وأذكرك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[1] [الأنعام: ٦٠]

أيُّها الحبيب:

الزم الجادة وعليك بتقوى الله والبعد عن محارمه فإنَّ في ذلك صلاح قلبك وفلاح آخرتك.. ولا يكفي أن تقول نعم بل استقم كما أُمرت وجاهد نفسك واحرص على حفظ نظرك من الحرام في كل مكان ولا تكن كمن يريد النجاة وهو مستمر على معصيته مقيم على ذنبه.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبسِ

قال شعبة: عن منصور، عن إبراهيم، كلَّم رجل من العباد امرأة فلم يزل بها حتى وضع يده على فخذها، فانطلق فوضع يده على النار حتى نشت (احترقت)[2].

أخي المسلم:

لقد كان العرب قبل الإسلام يعدون غض الطرف أدبًا عظيمًا بل ويتفاخرون به، ومن ذلك قول عنترة:

وأغُضُّ طرفي ما بَدَتْ لي جارتي
حتى تواري جارتي مأواها

كان هذا حالهم وهم مشركون بالله ـ تعالى ـ يعدُّون ذلك أدبًا رفيعًا وخلقًا عظيمًا، فكيف بنا نحن المسلمين وبأيدينا كتاب الله وسنة نبينا

---

(١) الإحياء: (٣/ ١١٤).
(٢) روضة المحبين: (٣٩٧).

فيهما التحذير من الوقوع في شر النظر وإطلاق البصر فيما لا يحل.

فكم جرح النظر من قلب، وأوقع في غفلة، وأشعل نار الفتنة، ورُبَّ نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً.

وحقٌّ لمن غضَّ طرفه، وقاوم شهوته أن يقول الشاعر فيه:

ليس الشجاع الذي يحمي مطيته
يوم النزال ونارُ الحرب تشتعلُ
لكن فتى غضَّ طرفًا أو ثنى بصرًا
عن الحرام فذاك الفارس البطل[1]

وانظر إلى أدب الاستئذان لدخول المنازل فإن فيه من الآداب البعد عن إطلاق النظر وعدم الوقوف أمام الباب مباشرة بل يتنحى يمنة ويسرة حتىَّ لا يرى ما بداخل الدَّار من المحارم أو غيرها قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما جعل الاستئذان من أجل البصر**» [متفق عليه].

وأهدر العلماء عين من نظر في دار قوم بغير إذنهم، وقالوا لا قصاص فيها ولا ديّة قال رسول الله ﷺ: «**لو أن امرءًا اطَّلع عليك بغير إذنٍ فحذفْتَه بحصاةٍ ففقأت عينه لم يكن عليك جناحٌ**» [متفق عليه].

إنَّها آداب إسلامية رفيعة فيها من العفة وغض النظر الكثير..

قال **ابن عمر**: من تضييع الأمانة، النظر في الحجرات والدور[2].

روي عن **بكر بن عبدالله المُزني**: أن قصَّابًا أولع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن

---

(١) ذم الهوى: (١١٩).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا: (٦٦).

نفسها فقالت له: لا تفعل لأنا أشدُّ حبًّا لك منك لي ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه! فرجع تائبًا فأصابه العطش حتَّى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال: مالك؟ قال: العطش. قال: تعال حتَّى ندعو الله بأن تظلَّنا سحابة حتَّى ندخل القرية، قال: مالي من عمل صالح فأدعو الله، فادع أنت، قال: أنا أدع وأمِّنْ أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتَّى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصَّاب إلى مكانه فمالت السَّحابة معه فقال له الرَّسول ـ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم ـ: زعمت أن ليس لك عملاً صالحًا وأنا الذي دعوتُ وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثمَّ تبعتك، لتخبرني بأمرك، فأخبره، فقال الرَّسول: إنَّ التَّائب عند الله ـ تعالى ـ بمكان ليس أحد من النَّاس بمكانه[1].

كا ابن السَّماك ينشد:

يا مدمن الذَّنب أما تستحي
والله في الخلوة ثانيكا
غرَّك منْ ربِّك إمهالُه
وستره طُول مساويكا

دخل بعضهم غيضةً ذات شجر فقال: لو خلوت ههنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفًا بصوت ملأ الغيضة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2] [الملك: ١٤].

---

(١) الإحياء: (٣/ ١١٤).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١٦١).

أيها الحبيب:

كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة. وهي تقدح في الأصول، كاستعارة طلاب العلم جزءًا لا يردونه. وقصد الدخول على من يأكل ليؤكل معه، والتسامح بعرض العدوِّ التذاذًا بذلك واستصغارًا لمثل هذا الذنب. وإطلاق البصر في المحرم استهانة بتلك الخطيئة.

وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس، ومن مقام رفعة القدر عند الحق، أو فتوى من لا يعلم لئلا يقال: هو جاهل ونحو ذلك مما يظنه صغيرًا وهو عظيم.

وربما قيل له بلسان الحال: يا من اؤتمن على أمر يسير فخان. كيف ترجو بتدليك رضا الديَّان؟

قال بعض **السلف**: تسامحت بلقمة فتناولته فأنا اليوم من أربعين سنة إلى خلف.

فالله الله، اسمعوا ممن قد جرَّب، كونوا على مراقبة، وانظروا في العواقب، واعرفوا عظمة الناهي، واحذروا من نفخة تُحتقر، وشردة تُستصغر فربما أحرقت بلدًا.

وهذا الذي أشرتُ إليه يسير يدل على كثير، وأنموذج يُعرَّف باقي المحقّرات من الذنوب[١].

رأى **محمد بن المنكدر**: رجلاً واقفًا مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما سترنا الله وإياكما.

قال **الحارث المحاسبي**: المراقبة علم القلب بقرب الربِّ.

---

(١) صيد الخاطر: (١٨٧).

وسُئل **الجنيد** بما يستعان على غض البصر، قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره[1].

وذكر **أبو الفرج** وغيره أن امرأة جميلة كانت بمكَّة، وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يفتن به؟ قال: نعم، قالت: مَنْ؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فلأفتننَّه، قال قد أذنت لكِ.

قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرتْ عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله استتري، فقالت: إنِّي قد فتنت بك، قال: إني سائلك عنْ شيء فإنْ أنتِ صدقتني نظرتُ في أمركِ، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك.

قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو دخلتِ قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرُّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو أردت الممرَّ على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (١٦١).

قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت.

قال: اتقي الله فقد أنعم عليك وأحسن إليك، قال: فرجعتْ إلى زوجها فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطَّال ونحن بطَّالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير أفسد عليَّ امرأتي، كانت في كل ليلة عروسًا فصيَّرها راهبة[(١)].

وإذا كنت لا ترضى بأن يراك مَنْ تجلُّه وتحترمه وأنت على هذه المعصية، فكيف ترضى بأن يراك خالقك ورازقك، ومن بيده أمر هذا الكون وأنت على حال تغضبه ـ جلَّ وعلا ـ.

قال **ابن عباس**: يا صاحب الذنب لا تأمن من فتنة الذنب وسوء عاقبته. ولخوفك من الرِّيح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذَّنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب.

والرَّجل هو من عمَّر قلبه بمراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما قال **ابن الجوزي**: والرَّجل والله من إذا خلا بما يُحب من المحرم وقدر عليه وتقلقل عطشًا إليه، نظر إلى نظر الحق إليه فاستحى من إجالة همه فيما يكرهه فذهب العطش[(٢)].

قال **أبو الجلد**: أوحى الله ـ تعالى ـ إلى نبيٍّ من الأنبياء: «قل لقومك ما بالكم تسترون الذُّنوب من خلقي وتظهرونها لي إن كنتم ترون أنِّي لا

---

(١) روضة المحبين.

(٢) صيد الخاطر ص (١٣٧).

أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أنِّي أراكم فلم تجعلوني أهون النَّاظرين إليكم»[(١)].

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياطَ عروقها في مخِّها
والمخَّ في العظام النُحَّل
اغفر لعبدٍ تاب منْ زلاته
ما كان منه في الزَّمان الأول

قال **أبو عياش القطان**: كانت امرأة بالبصرة متعبدة يقال لها منيبة، وكانت لها ابنة أشدُّ عبادة منها، فكان الحسن ربما رآها وتعجَّب من عبادتها على حداثتها، فبينما الحسن ذات يوم جالس إذ أتاه آتٍ فقال: أما علمت أن الجارية قد نزل بها الموت فوثب الحسن فدخل عليها فلمَّا نظرت الجارية إليه بكت، فقال لها: يا حبيبتي ما يبكيك؟ قالت له: يا أبا سعيد الترابُ يُحْثى على شبابي ولم أشبع من طاعة ربي، يا أبا سعيد انظر إلى والدتي وهي تقول لوالدي: احفر لابنتي قبرًا واسعًا وكفنها بكفن حسن، والله لو كنتُ أجهز إلى مكة لطال بكائي، كيف وأنا أجهز إلى ظلمة القبور ووحشتها وبيت الظلمة والدود[(٢)].

قالت **عائشة بنت سعيد بن إسماعيل** لابنتها: لا تفرحي بفان، ولا

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (١٦١).
(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٢٩).

تزعجي من ذاهب وافرحي بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، واجزعي من سقوطك من عين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[1].

وهـذه قصة تروي النَّهاية السَّيئة لطريق الفساد والضِّياع بل ربَّما يكون آخر كلامه من الدُّنيا الهذيان بمحبوبة نظرها وتعلق قلبه بها.. وهي قصَّة معروفة مشهورة يردِّد صاحبها: كيف الطَّريق إلى حمام منجاب..

وهذا الكلام له قصَّة، وذلك أنَّ رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطَّريق إلى حمَّام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدَّار ودخل وراءها، فلمَّا رأت نفسها في داره وعلمت أنَّه قد خدعها أظهرت له البشرى والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقرُّ به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطريق والأزقة ويقول:

يــا رُبَّ قــائلــةٍ يــومًــا، وقــد تعبــتْ
كيــف الطــريــق إلــى حمَّــام منْجــابِ؟

فبينما هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجارية أجابته من طاقٍ:

هــلا جعلــتَ ســريعًــا إذ ظفــرتَ بهــا
حِــرزًا علــى الــدار أو قفــلاً علــى البــاب

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٢٥).

فازداد هيمانه واشتد، ولم يزل على ذلك، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا.

ولقد بكى **سفيان الثوري** ليلة إلى الصباح، فلمَّا أصبح قيل له: كل هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف (سوء) الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن **أبي الدرداء** أنَّه لمَّا احتضر جعل يغمى عليه ثمَّ يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السَّلف من الذنوب أن يكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق الإشبيلي: واعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في الأصل أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصَّدمة، ويختطفه عند تلك الدَّهشة، والعياذ بالله.

أخي الحبيب:

إليك بعضًا من قصص أصحابها أردتْ بهم نظرةٌ وذهبت بعقولهم لفتةٌ فأصبحوا من الخاسرين.

* يروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصَّلاة وعليه بهاء

الطاعة وأنوار العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك. قالت: لماذا؟ قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوِّجني منك. قال: أتنصَّر. قالت: إن فعلت أفعل، فتنصَّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار. فلمَّا كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه، فمات فلم يظفر بها، وفاته دينُه[1].

إنَّها النظرة الحرام التي ساقته إلى أن يترك ملَّة محمَّد ﷺ ويتنصَّر لأجل امرأة رآها..

تفنى اللذاذة ممنْ ذاق صفوتها
من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوءٍ في مغبتها
لا خير في لذَّة من بعدها النَّار[2]

* قال **عبدةُ بن عبد الرحيم**: خرجنا في سرية إلى أرض الروم فصحبنا شاب لم يكن فينا أقرأ للقرآن منه ولا أفقه ولا أفرض، صائم النهار قائم الليل، فمررنا بحصن فمال عنه العسكر ونزل بقرب الحصن فظننا أنه يبول فنظر إلى امرأة من النصارى تنظر من وراء الحصن فعشقها فقال لها بالرومية: كيف السبيل إليك؟ قالت: حين تتنَّصر يفتح لك الباب وأنا لك، ففعل فأدخل الحصن، قال فقضينا غزاتنا في أشدِّ ما يكون من الغمِّ

---

(١) الجواب الكافي: (١٩٨).
(٢) روضة المحبين: (٤٤٢).

كأن كل رجل منا يرى ذلك بولده من صلبه، ثم عدنا في سرية أخرى فمررنا به ينظر من فوق الحصن مع النصارى فقلنا: يا فلان ما فعلتْ قراءتك؟ ما فعل علمك؟ ما فعلت صلواتك وصيامك؟ قال: اعلموا أني نسيتُ القرآن كلَّه ما أذكر منه إلا هذه الآية: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [الحجر: ٢، ٣].

* قال منصور بن عمَّار: حججتُ حجَّةً، فنزلتْ سكة من سكك الكوفة، فخرجت في ليلة مظلمة، فإذا بصارخٍ يصرخ في جوف الليل وهو يقول:

إلهي! وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بنكَالِكَ جاهل، ولكن خطيئة عرضت لي أعانني عليها شقائي وغرَّني سترك المرخي عليَّ، وقد عصيتك بجهدي وخالفتك بجهلي ولك الحجة عليَّ؛ فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أتصل إذا قطعتَ حبلك منِّي؟ وا شبابا! واشباباه!

قال: فلمَّا فرغ من قوله تلوتُ آية من كتاب الله: ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ . . . ﴾ [التحريم: ٦] الآية. فسمعت حركةً شديدة، ثمَّ لم أسمع بعدها حسًّا، فمضيتُ. فلمَّا كان من الغد رجعت في مدرجتي، إذا بجنازة قد وضعت، وإذا بعجوز كبيرة، فسألتها عن أمر الميت، ولم تكن عرفتني، فقالت: هذا رجل لا جزاه الله إلا جزاءه! مرَّ بابني البارحة، وهو قائم يصلي، فتلا آية من كتاب الله؛ فلمَّا سمعها ابني تفطَّرتْ مرارته فوقع ميتًا[1].

الرغبة في الله وإرادة وجهه، والشوق إلى لقائه هي رأس مال العبد

---

(١) كتاب التوابين: (٢٨٩).

وملاك أمره وقوام حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرَّة عينه، ولذلك خُلق، وبه أمر، وبذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب[١].

* ويُروى أن رجلاً علَّق شخصًا، فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى أوقع، ولزم الفراش بسببه، وتمنَّع ذلك الشخص عليه، واشتد نفازة عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعوده، فأخبره بذلك الناس، ففرح واشتد فرحه وانجلى غمه، فجعل ينتظره للميعاد الذي ضرب له فيما هو كذلك إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنَّه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، ورغبت إليه وكلمته فقال: إنَّه ذكرني وفرح بي، ولا أدخل مدخل الرَّيبة، ولا أعرض نفسي لمواقع التُّهم، فعاودته فأبى وانصرف فلمَّا سمع البائس أسقط في يده، وعاد إلى أشد مما كان به وبدتْ عليه علائم الموت فجعل يقول في تلك الحال:

أسلـم يـاراحـة العليـل
ويـا شفـا المـدنـف النحيـلِ
رضـاك أشهـى إلـى فُـؤادي
مـن رحمـة الخـالـقِ الجليـلِ

فقلتُ يا فلان: أتق الله، قال: قد كان، فقمتُ عنه فما جاوزتُ باب داره حتى سمعتُ صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة[٢].

أيُّها الحبيب:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى

---

(١) روضة المحبين: (٤٠٥).

(٢) الجواب الكافي: (١٩٩).

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

فتأمل جلالة الـمُبشر ومنزلته وصدقه وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر ما بشَّرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع ـ سبحانه ـ فيه هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثِّمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرَّة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه، والأزواج جمع زوج والمرأة زوج للرجل وهو زوجها، والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة وطهر لسانها من الفحش والبذاء وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ.

قال عبد الله بن المبارك ثنا شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: **من الحيض والغائط والنخامة والبصاق**».

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود: «**أن رجلاً أصاب من امرأة قبلةً، ثَّم أتى النَّبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له فسكت النَّبيُّ ﷺ حتَّى نزلتْ هذه الآية، فدعاه فقرأها عليه، فقال رجل: هذا له خاصَّة؟ قال: بل للنَّاس عامَّةً**».

وقد وصف الله المتقين في كتابه بمثل ماوصى به النَّبيُّ ﷺ في هذه

الوصيَّة[1] في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

فوصف المتقين بمعاملة الخلق بالإحسان إليهم بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عنهم، فجمع بين وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى، وهذا هو غاية حسن الخلق الذي وصى به النبي ﷺ لمعاذ[2].

ثم وصفهم بأنهم ﴿ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾ ولم يصروا عليه. فدل على أن المتقين قد يقع منهم أحيانًا كبائر وهي الفواحش، وصغائر وهي ظلم النفس، لكنهم لا يصرُّون عليها بل يذكرون الله عقب وقوعها ويستغفرونه ويتوبون إليه منها، والتوبة: هي ترك الإصرار.

ومعنى قوله: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾: ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه وما يوعد به على المعصية من العقاب، فيوجب ذلك لهم الرجوع في الحال والاستغفار وترك الإصرار.

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ

---

(١) وهي ما جاء في الحديث: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحوها، وخالق الناس بخلقٍ حسن» رواه الترمذي، وحسَّنه.

(٢) في الحديث السابق.

﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**إذا أذنب عبدٌ ذنبًا، فقال: ربِّ إنِّي عملتُ ذنبًا فاغفرْ لي فقالَ الله: عَلِمَ عبدِي أنَّ له ربًّا يغفرُ الذَّنب ويأخذُ بالذَّنب قد غفرْتُ لعبدي، ثمَّ إذا أذنب ذنبًا آخر إلى أنْ قال في الرَّابعة فليعملْ ما شاء**» يعني: مادام على هذه الحال كلَّما أذنب ذنبًا استغفر منه[1].

أيُّها الحبيب:

مَتِّعْ نظرك بقراءة القرآن وأطلق بصرك ليرى عظمة صنع الخالق ـ جلَّ وعلا ـ ليكن ذلك في ميزان حسناتك. . واغضض بصرك عمَّا حرَّم الله تهنأ نفسك وتؤجر على فعلك وتجد حلاوة ذلك في قلبك.

جعلني الله وإيَّاك ممَّنْ إذا زلَّ ثاب وتاب وإذا أخطأ استغفر وعاد وغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين،،.

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١٦٣).

المصادر

١ ـ أحكام النظر إلى المحرمات لمحمد أحمد العماري، دار المعراج، ١٤١٣هـ.
٢ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد العزالي، دار الكتب العلمية، ط١/١٤٠٦هـ.
٣ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي، دار الكتب العلمية.
٤ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.
٥ ـ تزكية النفوس وتزكيتها كما يقرره علماء السلف، ماجد ابن أبي الليل وآخر، دار القلم.
٦ ـ تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ.
٧ ـ الجامع لأحكام القرآن.
٨ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم الجوزية.
٩ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
١٠ ـ حكم النظر للنساء لابن قيم الجوزية، دار الجيل، بيروت.
١١ ـ ذم الهوى لابن الجوزي.
١٢ ـ ذم الهوى واتباعه لابن القيم.
١٣ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية.
١٤ ـ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، محمد بن

١٨ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة، الإمام أبي محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق الشيخ خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى، ط١/١٤٠٦هـ.

١٩ ـ فتح القدير للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة.

٢٠ ـ الفوائد لابن القيم، دار النفائس.

٢١ ـ كتاب التوابين لموفق الدين ابن قدامة، دار الكتب العلمية.

٢٢ ـ مكاشفة القلوب لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، ط١/١٤٠٣هـ.

٢٣ ـ المجموع المنتخب من المواعظ والأدب، زامل الزامل.

٢٤ ـ الورع للإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٥ ـ الورع لابن أبي الدنيا، دار السلفية، الكويت.

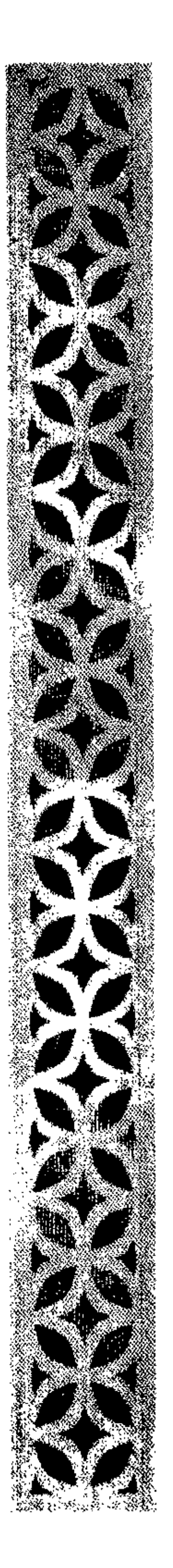
* * *

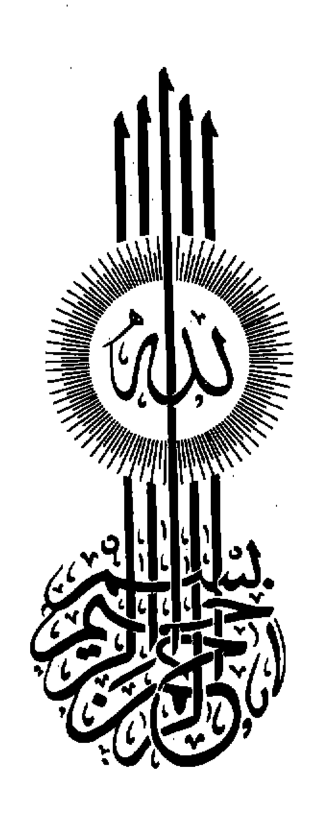


المجلد الرابع

عبد الملك القاسم

دار القاسم







رفقاء طريق

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

فإنَّ الإسلام دين صفاء ونقاء وأخوَّة ومودَّة، يظهر ذلك جليًّا في آيات كثيرة من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وفي سنَّة نبيِّه ﷺ.

وقد اخترت للأخ القارئ نماذج من الرفقة الصالحة قولاً وفعلاً لأهميتها في عصرنا الحاضر اقتداءً وتأسِّيًا.

وهذا هو الجزء الرَّابع عشر من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان «**رُفقاءُ طريق**».

أدعو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يعيننا على أداء حقوق الأخوة الصادقة وأنْ يـجْمعَنا وأحبتنا تحت ظلِّ عرشه إخوة متحابين.

عبد الملك بن محمد عبدالرحمن القاسم

مدخل

إنَّ الإنسان وهو يسير في هذه الدنيا ويقطع مراحل حياته فيها يحتاج إلى من يؤانسه في الطَّريق ويسلِّي وحدته في السَّفر.. ويكون له عونًا عند نزول الملمَّات والحوادث، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه.. أصاب من الدِّين أوفره ومن الأدب أكثره.. جمع الله له بين الدين والخلق.

إنَّه الأخ المسلم النَّاصح المشفق.. صاحب الخلق والدين.

ولا يخفى أنَّ ثمرة الخلق الحسن، الألفة وانقطاع الوحشة، ومهما طاب الثَّمر طابت الثمرة، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الألفة سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحبُّ الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع، قال الله ـ تعالى ـ مظهرًا عظيم منَّته على الخلق بنعمة الألفة: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي: بالألفة.

ثم ذمَّ التفرقة وزجر عنها فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ إلى ﴿... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال ﷺ: «**إن أقربكم منِّي مجلسًا أحاسنكم أخلاقًا الموطَّئون أكنافًا الذين يألفون ويُؤلَفون**»(١)، (٢).

أخي المسلم:

إنَّ التَّحابَّ في الله والأخوة في دينه من أفضل القربات، وألطف ما

---

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني.

(٢) الإحياء: (٢/ ١٧١).

يستفاد من الطاعات في مجاري العادات، ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله ـ تعالى ـ، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزعات الشيطان، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلفى، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى(١).

واعلم أنَّه لا يصلح للصحبة كل إنسان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: **الرَّجلُ علىٰ دينِ خَليلِهِ فلْينظرْ أحدُكم من يُخالل**»(٢)، ولا بدَّ أن يتميز الصاحب بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة.

ويطلب من الصَّحبة فوائد دينية ودنيوية:

أمَّا الدُّنيويَّة: كالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد استئناس بالمشاهدة.

أمَّا الدِّينيَّة: فيجتمع فيها أيضًا أغراض مختلفة:

منها: الاستفادة من العلم والعمل.

ومنها: الاستفادة من الجاه تحصُّنًا به عن إيذاء من يشوش القلب ويصدُّ عن العبادة.

ومنها: استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت.

ومنها: الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال(٣).

أخي المسلم:

ينبغي فيمن تؤثر صحبته خمس خصالٍ: أنْ يكونَ عاقلاً، حسنَ

---

(١) الإحياء: (١/١٧١).

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال النووي: إسناده صحيح.

(٣) الإحياء: (٢/١٨٥).

الـخُلقِ غير فاسقٍ ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا[١].

وقد أثنى ـ جلَّ وعلا ـ على الصحبة الطيِّبة وجعلها سببًا لدخول الجنَّة..

قال ﷺ: «**إنَّ الله ـ تعالى ـ يقولُ يومَ القيامة: أين المتحابُّون بجلالي اليوم أظلُّهم في ظلِّي يومٍ لا ظلَّ إلا ظلِّي**»[٢].

وقال ﷺ: «**سبعةٌ يُظلُّهم الله في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في طاعة الله، ورجلٌ قلبه مُعَلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتَّى يعودَ إليه، ورجلان تَـحَابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه...**»[٣].

بل ورفع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذكر الكلب برفقته للصالحين فقال ـ تعالى ـ: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ... ﴾ [الكهف: ٢٢].

إن الخليل هو المرآة التي تعكس صورتك للنَّاس وتريهم من تكون.. فالمرء على دين خليله، فلينظر المرء من يُخالل..

قال **أبو سليمان**: قوله: «المرء على دين خليله» معناه: لا تخالل إلا مَنْ رضيتَ دينه وأمانته، فإنَّك إذا خاللته قادك إلى دينه ومذهبه.. ولا تغرر بدينك ولا تخاطر بنفسك فتخالل من ليس مرضيًا في دينه ومذهبه[٤].

أنـــــت فــــي النـــــاسُ تُقـــــاس
بمـــــــن اختـــــــرتَ خليـــــــلاً

---

(١) الإحياء: (٢/١٨٦).

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) العزلة: (٥١٠).

فـــــاصْحَـــــبِ الأخيـــــارَ تعلُـــــو
وتنـــــلْ ذكْـــــرًا جميـــــلاً

وانظر ـ أخي المسلم ـ إلى موقف الأخلاء من بعض يوم القيامة وهو أهم المواقف وأعظمها شأنًا، قال ـ جلَّ وعلا ـ يصف حالتهم: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وفي وصف عجيب وتصوير دقيق للصُّحبة وأثرها قال رسول الله ﷺ: **«إنَّما مثل الجليس الصَّالح وجليس السُّوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إمَّا أن يُحذيك، وإمَّا أنْ تبتاعَ منه، وإمَّا أنْ تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير، إمَّا أن يُحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد ريحًا خبيثة»**[1].

وقال **علي** ـ رضي الله عنه ـ عليكم بالإخوان فإنَّهم عدة في الدنيا والآخرة، ألا تسمع قول أهل النَّار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾[2] [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وللأخوة حقوق قد ذكرها **عطاء بن ميسرة** بقوله: تعاهدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم وإنْ كانوا مشاغيل فأعينوهم، وإن كانوا نسوا فذكروهم[3].

ولا شكَّ أنَّ لكلِّ إنسانٍ عيبًا وفي كلِّ مخلوقٍ نقصًا.. من أولئك أيضًا من اخترتهم للصحبة واصطفيتهم للرفقة ولكن:

---

(١) متفق عليه.
(٢) الإحياء: (٢/١٧٥).
(٣) حلية الأولياء: (٥/١٩٨).

إنْ تَجِدْ عيباً فسُدَّ الخَلَلا
فجلَّ من لا عيبَ فيه وعَلا[1]

قال أبو علي الرباطي: صحبت عبدالله الرازي وكان يدخل البادية، فقال: عليَّ أنْ تكونَ أنت الأمير أو أنا؟، فقلت: بل أنتَ. فقال: وعليك الطَّاعة، فقلت: نعم، فأخذ مخلاة ووضع فيها الزَّاد حملها على ظهره.. فإذا قلت له: أعطني، قال: ألست قلت: أنت الأمير، فعليك الطَّاعة، فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصَّباح وعليه كساء وأنا جالس، يمنع عنِّي المطر.. فكنت أقول مع نفسي: ليتني مِتُّ ولم أقل: أنت الأمير[2].

أين أخي الحبيب هؤلاء من رفقة اليوم.. وصحبة هذا الزَّمن؟!

ولهذا قال **المأمون**: الإخوان ثلاثة:

أحدهم: مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه.

والآخر: مثله مثل الدَّواء يحتاج إليه في وقت دون وقت.

والثَّالث: مثله مثل الدَّاء لا يحتاج إليه قطُّ.. ولكنَّ العبد قد يُبتلى به وهو الذي لا أُنس فيه ولا نفع.

وقد قيل: مثل جملة النَّاس كمثل الشَّجر والنَّبات..

فمنها: ما له ظلٌّ وليس له ثمرٌ، وهو مثل الذي ينتفع به في الدُّنيا دون الآخرة فإنَّ نَفْعَ الدُّنيا كالظِّلِّ السَّريع الزَّوال.

ومنها: ما له ثمر وليس له ظل، وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا.

---

(١) البداية والنهاية: (١٤/ ١٦٠).

(٢) الإحياء: (٢/ ١٩٩).

ومنها: ما له ثمر وظلٌّ جميعًا.

ومنها: ما ليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثِّياب ولا طعم فيها ولا شراب، ومثله من الحيوان الفأرة والعقرب.

النَّاسُ شتَّى إذا ما أنت ذُقْتَهم لا
يستوون كما لا يستوي الشَّجرُ
هذا له ثمرٌ حُلو مذاقته
وذاك ليس له طَعْمٌ ولا ثمرُ[1]

ولكن ـ أخي الكريم ـ عليك بحسن الاختيار.. والحرص والتحرِّي.. وانظر مع من تجتمع وعلى ماذا تجتمع وكيف تختار الأصدقاء؟! أهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر: ٣] فأعانوا على الطَّاعة والاستقامة والسير إلى الله أم هم أهل الضِّياع والضَّلال والخسران؟!

فإن الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطَّبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنَّه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه **ثلاث آفات**:

إحداها: تزين بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود،

---

(١) الإحياء: (٢/ ١٨٧).

وبالجملة، فالاجتماع والخلطة لقاح إمَّا للنفس الأمارة وإمَّا للقلب والنَّفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللِّقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة من الشيطان، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات وعكس ذلك[1].

قال أبو حاتم: الكريم يلين إذا استُعْطفَ، واللئيم يقسو إذا أُلْطِفَ، والكريم يُجلُّ الكرامَ، ولا يُهين اللِّئام، ولا يؤذي العاقل، ولا يمازح الأحمق، ولا يعاشر الفاجر، مؤثرًا إخوانه على نفسه باذلاً لهم ما ملك، إذا اطلع على رغبة من أخ لم يدع مكافأتها، وإذا عرف منه مودة لم ينظر في قلق العداوة، وإذا أعطاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيء من الأشياء[2].

وإذا صاحبتَ فاصحبْ صاحبًا ... ذا حياءٍ وعفافٍ وكرم

قائلاً للشَّيء لا إنْ قلتَ لا ... وإذا قلتَ نعمْ قال نعم[3]

وليست موافقة الصاحب مقصورة على الحياة فحسب بل إن نفع هذا الخليل يمتد إلى ما بعد ذلك وهو استمرار لهذه المحبة الصادقة والأخوة الظاهرة فقد كان **محمد بن يوسف الأصفهاني** يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون مما خلَّفتَ، وهو منفرد

---

(١) الفوائد: (٦٨).
(٢) روضة العقلاء: (١٧٣).
(٣) شذرات الذهب: (١/ ٩٧).

بحزنك مهتم مما قدمت وما صرتَ إليه يدعو لك في ظلمات الليل وأنت تحت أطباق الثَّرى[١].

ورأينا هذا الفعل في كثير من الأخلاء الصَّالحين.. يدعون لصاحبهم.. وما ذكر في مجلس إلا ترحموا عليه ودعوا له بالمغفرة ولسان أحدهم يقول:

ولقد نظرتُ فلم أجدْ يُهدى لكم
غير الدعاء المستجابِ الصَّالحِ[٢]

ومثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى.. فهما يتعاونان في إصلاح بعضهما وكذلك يتشاركان في السرَّاء والضَّرَّاء.. وكل منهم للآخر معين ومساعد.. يعينه في سير الدنيا إلى الآخرة.

أخي المسلم:

إذا لم تجد رفيقًا صالحًا وأخًا في الله فإنَّ الوحدة وقراءة القرآن خيرٌ لك، والكتب النافعة أثمر والتزوُّد من الطاعات أجدى وأنفع.. وقس الأمر وانظر أين الخير؟!

فقد قال **مالك** بن **دينار**: كل جليس لا تستفيد منه خيرًا فاجتنبه[٣].

وقال بكر بن محمد العابد: قال لي **داود الطائي**: يا بكر، استوحش من الناس كما تستوحش من السَّبع[٤].

وقال **عبدالعزيز بن الخطَّاب**: رؤي إلى جنب مالك بن دينار كلب

(١) الإحياء: (٢/ ٢٠٢).
(٢) شذرات الذهب: (٧/ ٨٥).
(٣) حلية الأولياء: (٢/ ٣٧٢).
(٤) روضة العقلاء: (٨٢).

عظيم ضخم أسود رابض، فقيل له: يا أبا يحيىٰ، ألا ترى هذا الكلب إلى جنبك؟ قال: هذا خير من جليس السُّوء[1].

وعندما سُئل إبراهيم بن أدهم: لما لا تصحب الناس؟ قال:

إنْ صحبتُ من هو فوقي: تكبَّر عليَّ.

وإذا صحبتُ من هو دوني: لم يعرفْ حقِّي.

وإذا صحبتُ من هو مثلي: حَسَدني.

لا تصحبْ أخا الجهل
فإيَّاك وإيَّاهُ
فكم من جاهلٍ أرْدَىٰ
حليماً حين يغْشَاهُ
يقاسُ المرءُ بالمرءِ
إذا هو ما شَاهُ
وللشَّيْءِ على الشَّيء
مقاييسٌ وأشْباهُ
وللقلبِ على القلب
دليلٌ حين يَلْقَاهُ

أخي: اعلم أن كل من يُحبُّ في الله لابد أن يُبغض في الله فإنَّك إن أحببتَ إنسانًا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلابدَّ أنْ تبغضه لأنَّه عاصٍ لله وممقوت عند الله[2].

---

(١) روضة العقلاء: (٨٢).

(٢) الإحياء: (٢/ ١٨١).

والصحبة تنقسم إلىٰ ما يقع عليه الاتفاق، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب، أو في المدرسة أو في السوق، أو على باب السلطان أو في الأسفار، وإلى ما ينشأ اختيارًا وقصدًا، وأجلُّها وأعظمُها الأخوة في الدِّين، فإنَّ من رافق الأخيار أصبح منهم ومن سار مع الطيبين هبتْ نسمات الخير على وجهه.. فهم خير معين بعد الله في الدنيا وهم خير رفيق في السير إلىٰ الدار الآخرة..

انظر إلى حالهم في الدنيا وإلى نماذج من صورهم الطيبة وأفعالهم الزَّكية.. فقد دخل **علي بن الحسين** على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه فجعل يبكي فقال: ما شأنك؟ قال: عليَّ دَيْنٌ!! قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، قال: فهو عليَّ[1].

إذا أعجبتك خلال امريء
فكنه يكنْ منكَ ما يُعجبُك
فليس على الجودِ والمَكرما
ت إذا جئتها حاجبٌ يحْجبك[2]

نعم من يحجبُ الإنسان عن التخلُّق بالخلق الحسن؟ ومن يمنع المرء عن معالي الأمور؟..

قال **الشَّعبي**: إنَّ كرام النَّاس أسرعهم مودَّةً، وأبطؤهم عداوةً، مثل الكوب من الفضَّة يبطء الانكسار، ويسرع الانجبار، وإنَّ لئام النَّاس

---

(١) حلية الأولياء: (٣/ ١٤١).
(٢) مدراج السالكين: (٣/ ٤٥).

أبطؤهم مودَّةً وأسرعهم عداوةً، مثل الكوب من الفخَّار: يسرع الانكسار، ويبطيء الانجبار.

وقال أبو حاتم: الكريم مَنْ أعطاه شكره، ومَنْ منعه عذره، ومَنْ قطعه وصله، ومن وصله فضله، ومن سأله أعطاه، ومن لم يسأله ابتدأه، وإذا استضعف أحدًا رحمه، وإذا استضعفه أحد رأى الموت أكرم له منه، واللئيم بضدِّ ما وصفناه من الخصال كلِّها[1].

قال بعضهم لرجل وهو يعظه: جماع الخير كلُّه في ثلاثة أشياء: إن لم تُمض نهارك بما هو لك فلا تمضه بما هو عليك، وإن لم تصحب الأخيار فلا تصحب الأشرار، وإن لم تنفق مالك فيما لله رضاء فلا تنفقه فيما لله فيه سخط[2].

أخي المسلم:

إنَّ ما نراه من التَّكلُّف وعدم التَّبسُّط بين الأحباب ومع الأصحاب مَرَدُّه إلىٰ عدم معرفتنا حقوق الأخوَّة في الله.. ومدى قوَّة هذا الوثاق.

قال عبدالله بن الوليد: قال لنا أبو جعفر محمد بن علي: يُدخل أحدُكم يدَهُ في كُمِّ صاحبه فيأخذ ما يريد؟ قلنا: لا، قال: فلستم بإخوان كما تزعمون[3].

ويقول الإمام الشَّافعي:

إذا المــــرءُ لا يلقــــاكَ إلا تكلُّفــــاً
فَــدَعْــهُ ولا تُكثــر عليــه التــأسُّفــا

(١) روضة العقلاء: (١٧٤).
(٢) الزهد للبيهقي: (٣١٠).
(٣) حلية الأولياء: (٣/ ١٨٧).

ففـــي النـــاسِ أبـــدالٌ وفـــي التـــرك راحـــةٌ
وفـــي القلـــبِ صبـــرٌ للحبيـــبِ ولـــو جفـــا
فمـــا كـــلُّ مَـــنْ تهـــواه يهـــواكَ قلبُـــه
ولا كُـــلُّ مَـــنْ صـــافيتَـــه لـــك قَـــدْ صَفَـــا
إذا لـــم يكـــنْ صفـــوُ الـــودادِ طبيعـــةً
فـــلا خَيْـــرَ فـــي ودٍّ يجـــيء تكَلُّفـــا
ولا خيـــر فـــي خِـــلٍّ يخـــونُ خليلـــهُ
ويلقـــاهُ مِـــنْ بعـــد المـــودَّة بـــالجفـــا
وينكـــر عيشًـــا قـــد تقـــادم عَهْـــدُه
ويُظهـــر ســـرًّا كـــان بـــالأمـــس فـــي خَفَـــا
ســـلامٌ علـــى الـــدنيـــا إذا لـــم يكـــن بهـــا
صـــديـــقٌ صـــدوقٌ صـــادقُ الـــوعـــد مُنْصِفـــا

وصفات الصَّاحب الكريم صفات محبوبة وخصال حميدة.. والشَّاعر يميِّزه عن اللَّئيم فيقول:

وتـــرى الكـــريـــمَ إذا تقـــدَّم وصلـــه
يخفِـــي القبيـــح ويُظهـــرُ الإحســـانـــا
وتـــرى اللَّئيـــم إذا تقضـــى وصلُـــه
يخفـــي الجميـــلَ ويُظهـــر البُهتـــانـــا[1]

(١) الإحياء: (٢/١٩٥).

بل يا أخي:

إنَّ الكـــريـــم الـــذي تبقـــى مـــودَّتُـــه
ويحفـــظُ الســـرَّ إن صـــافـــى وإن صـــرمـــا

ليـــس الكـــريـــم الـــذي إن زلَّ صـــاحبـــه
بـــثَّ الـــذي كـــان مـــن أســـرار علمـــا[١]

قال بعض النَّاصحين: لا تصحب من النَّاس إلا من يكتم سرَّك ويستر عيبك فيكون معك في النَّوائب ويؤثرك بالرَّغائب وينشر حسنتك ويطوي سيئتك، فإنَّ لم تجده فلا تصحبْ إلا نفسك.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أنْ يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذكر الله لم يُعنْه، وإنْ نسي لم يُذكِّرْه، وإنْ غَفَل حرضه على ترك الذِّكْرِ. ومَنْ كان أصدقاؤه أشرارًا كان هو شرَّهم، وكما أنَّ الخير لا يحبُّ إلا البررة، كذلك الرديَّ لا يصحبُ إلا الفجرة؛ فإن المرء إذا اضطره الأمر فليصحب أهل المروءات[٢].

إنَّ أخـــاك الحـــقَّ مـــن كـــان معـــك
ومَـــنْ يضـــرُّ نَفْسَـــه لينفعـــك

ومَـــنْ إذا ريـــبُ زمـــانٍ صَـــدَعَـــكَ
شتَّـــتَ فيـــه شمْلَـــهُ ليجْـمَعَـــك[٣]

أخي الكريم:

إذا أجدبت الأرض وضاقت المسالك.. وادلهمَّت الخطوب وتاهت

---

(١) تاريخ بغداد: (١٥٨/٥).

(٢) روضة العقلاء: (١٠٢).

(٣) الإحياء: (١٧٨/٢).

الدروب.. هناك يظهر لك الأخ الصادق الوفي.. تستأنس برأيه.. وتتقوى بهمته يُهوِّن عليك المصيبة ويحمل عنك ما أثقل كاهلك..

أمَّا إذا اخضرَّت الأرض وابتسمت لك الدنيا.. فالكلُّ أصحاب وأحباب!!

وكـــلُّ النَّـــاس إخـــوانُ الـــرَّخـــاء إنَّمـــا
أخـــوك الـــذي آخـــاك عنـــد الشَّـــدائـــد[١]

ومن مصائب الدنيا وشدائدها مصيبة الموت.. فما هو أثرُ الرفقة والصحبة.. عند الموت وبعده..؟! هل إذا وسدْت الثَّرى ينقطعُ ذكرك وينساك الأصحاب والأحباب؟! بل هل يُترك أبناؤك لليتم والفقر والعوز.. بل والضياع؟!.

كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي حوائجهم[٢][٣].

ولهذا يوصي **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ فيقول: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنَّهم زينة في الرَّخاء وعدَّة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتَّى يجيئك ما يُقليك منه، واعتزل عدوَّك واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلَّم من فجوره، ولا تطلعه على سرِّك[٤].

---

(١) العزلة: (٥٤).
(٢) أعرف من قام بمثل هذا ثمانية عشر سنة.
(٣) منهاج القاصدين: (١٠٨).
(٤) منهاج القاصدين: (١٠٨).

قال مالك بن دينار: إنَّك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خيرٌ من أنْ تأكل الخبيص[(١)] مع الفجَّار[(٢)].

وقال أبو حاتم: العاقل لا يُدَنِّس عرضه، ولا يُعَوِّدُ نفسه أسباب الشر بلزوم صحبة الأشرار، ولا يغضي عن صيانة عرضه ورياضة نفسه بصحبة الأخيار، على أن الناس عند الخبرة يتبين منهم أشياء ضدَّ الظَّاهر منها.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان أبو حنيفة ربما يمر بالرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة، فإذا قام سأل عنه فإن كان به فاقة وصله، وإن مرض عادة حتَّى يجرُّه إلى مواصلته[(٣)].

وللرفيق حقوق وللصديق واجبات وقد ذكر سعيد بن العاص ذلك بقوله: لجليسي عليَّ ثلاث: إذا دنا رحبتُ به، وإذا حدَّث أقبلتُ، وإذا جلس أوسعتُ له[(٤)].

وقد ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعضًا من تلك الصِّفات الحميدة بين المؤمنين فقال ـ تعالى ـ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إشارة إلى الشفقة والإكرام، ومن تمام الشفقة أنْ لا ينفرد بطعام لذيذ أو بحضور في مسرَّة دونه بل يتنغَّص لفراقه ويستوحش بانفراده[(٥)].

---

(١) الخبيص: نوع من الحلوى.

(٢) روضة العقلاء: (١٠٠).

(٣) تاريخ بغداد: (١٣/ ٣٦٠).

(٤) الإحياء: (٢/ ١٩١).

(٥) المرجع السابق.

وقال رسول الله ﷺ: «خيرُ الأصحاب عند الله خيرُهم لصاحبه»(١).

إذا أنــــت صـــاحبـــتَ فكـــنْ فتـــىً
كـــأنَّـــك مملـــوكٌ لكـــلِّ رفيـــق
وكـــن مثـــل طعـــم المـــاء عـــذبـــاً وبـــاردًا
علـــى الكبـــد الحـــريِّ لكـــلِّ صـــديـــقِ(٢)

هذه صحبة الأخيار ورفقة الصَّالحين تناديك ـ أخي المسلم ـ فهي عونٌ لك في الشَّدائد ومنبِّه لك عند العثرات.. إعانة على الخير وتواصي بالصَّبر.. فالزم أهل الخير وجاور أهل التُّقى.

في الجانب الآخر.. ماذا نرى؟! إنَّهم الأشرار ورفقاء السُّوء.. تزيينٌ للفاحشة وإضاعةٌ للطاعات.. وإتيان للمحرَّمات.. لا تغني معرفتهم في الدنيا شيئًا ولا تثمر في الآخرة إلا شقاءً وندمًا.. وصفهم الله ـ جلَّ وعلا ـ يوم القيامة بأنَّهم أعداء.. انتهتْ تلك الرفقة وتلاشت تلك الصحبة. وتحوَّل كل ذلك إلى عداوة وبغضاء ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

كان **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك.. فقال: أجلس إلى قوم يذكِّروني معادي، وإن غبتُ لم يغتابوني(٣).

وكانوا يتحرَّون للصحبة كبارَ السِّن مَنْ جَمَّل الشَّيب مفارق رؤوسهم وعلا الوقار حديثهم، عصرتهم الأيام وخبرتهم الليالي.. أهل الدِّين والعقل والحكمة..

---

(١) رواه أحمد والتِّرمذي وصححه الألباني.
(٢) التواضع والخمول: (٣٧).
(٣) منهاج القاصدين: (٤٣٢).

قال **أبو عمرو بن العلاء**: رآني سعيد بن جُبير وأنا جالس مع الشَّباب، قال ما يجلسك مع الشباب؟ عليك بالشُّيوخ[(١)].

ومن جلس اليوم إلى الشيوخ لم يرض بمجالس الشباب فهناك تخرجُ من أفواه الكبار الحكمة والقصَّة وتذكر السِّنين الماضية.. وما بينهما إلا ذكرٌ لله واستغفار وتسبيح وتحميد.. فمن يداني تلك المجالس يربح ومن يلازمهم يفرح، وإن أخذ منهم وأضاف لهم من علمه وقراءته فقد زكى ونما.. وله في تلك الرفقة دعوة ومعرفة وخلاصة تجربة.. وإلا فعليه بقول **أبي الدرداء**: لصاحبٌ صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السُّوء، ومملي الخير خيرٌ من السَّاكتِ والسَّاكتُ خيرٌ من مُمْلي الشَّرِّ.

وقال **أبو حاتم**: العاقل لا يصاحبُ الأشرار؛ لأن صحبة صاحب السُّوء قطعة من النار، تُعقب الضغائن لا يستقم ودُّه، ولا يفي بعهده.

وإن من سعادة المرء خصالاً أربعًا: أن تكون زوجته موافقته، وولده أبرارًا، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده.

وكلُّ جليس لا يستفيد المرء منه خيرًا تكون مجالسة الكلب خيرًا من عشرته، ومن يصحب صاحب السُّوء لا يسلم، كما أنَّ مَنْ يدخل مداخل السُّوء يُتَّهم.

قال **الزهري**: وهل يُنتفع من السَّيِّءِ الخلق بشيء[(٢)].

وقال وهب بن منبه: الأحمق كالثوب الخلق، إن رفأته من جانب انخرق

---

(١) روضة العقلاء: (١٠١).

(٢) روضة العقلاء: (٦٥).

من جانب آخر، مثل الفَخَّار المكسور لا يُرَقَّعُ ولا يُشْعَبُ ولا يعادُ طينًا.

فهذا مَثَلُ الأحمق: إنْ صحبتَهُ عنَّاك، وإن اعتزلته شتمك، وإن أعطاك مَنَّ عليك، وإن أسرَّ إليك اتهمك، وإن أسررت إليه خانك، وإنْ كان فوقك حقَّرك، وإنْ كان دونك غمزك[(١)].

وحال بعض مجالس اليوم قريبة من ذلك بل وتزيد على ذلك..

أخي المسلم:

رفقة العاصي ما هي نتيجتها وفائدتها. إنَّها فراق وشقاق وخسران ووبال.. في يوم تتقطع تلك المودة وتزول المحبة لأنها بنيت على جرف هار.

قال **علي بن الحسين**: ما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة[(٢)].

وذلك لأن رباط المعصية رباطٌ واه كخيط العنكبوت سرعان ما ينقطع ويزول.. لأنَّه رباطٌ غير صادق لم يقم إلا على معصية ولم ينشأ إلا عن غفلة ومصلحة.. متى انتهت انقطع وتصرَّم!!

لكن أوثق العُرىٰ رباط الأخوة الدينية الذي ينبهك إذا غفلت، ويذكرك إذا نسيت، ويحتسب الأجر في مودتك ورفقتك..، ويتقرب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لمحبتك..

أخي الحبيب:

إنَّ مَنْ ذكَّركَ بحقِّ الله عليك وأعانك على الطَّاعة وجنَّبك المعصية لهو

---

(١) روضة العقلاء: (١٢٢).

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ١٢١).

خير الإخوان وأصدق الأخلاء وأوفى الرُّفقاء . . بل إنَّه بصنيعه هذا خيرٌ لك ممَّن يعطيك مالاً وينالك منه إحسانًا . . إنَّ هذا هو خير الإحسان وأوفره . .

قال **بلال بن سعد**: أخ لك كلَّما لقيك ذكَّرك بحظِّك من الله، خيرٌ لك من أخ كلَّما لقيك وضع في كفِّك دينارًا[١].

يدلُّك علىٰ درب الآخرة ويزودك من زادها ويسهل لك أمر العبادة ويفتح لك طرق الخير . . صاحب خوف ومراقبة وخشية ومحاسبة .

ومن الخوف المستمر، والوجل الدَّائم قال الفضيل بن عياض: بلغني عن **طلحة بن مصرف** أنَّه ضحك يومًا، فوثب على نفسه، فقال: فيم الضِّحك؟! إنَّما يضحك من قطع الأهوال وجاز الصِّراط، ثمَّ قال: آليت أن لا أُرى ضاحكًا حتَّى أعلم بماتقع الواقعة، فما رؤي ضاحكًا حتَّى صار إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[٢].

أخـي:

إنَّ رفقة الصَّالحين ومصاحبة الطَّيِّبين لهي خير معين على الطَّاعة والعبادة بل إنَّها من المثبتات على لزوم الجادة والسير إلى الدَّار الآخرة . . ولذا حرصوا علىٰ مصاحبة الأخيار والحثِّ على رفقة الصَّالحين .

قال **إبراهيم التيمي**: إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسلْ يدك منه[٣].

إنَّ مثل هؤلاء الأخيار تجب محبتهم ويحسن القرب منهم قال **عبدالله بن عمر** ـ رضي الله عنهما ـ في ذلك: والله لو صمتُ النَّهار لا

---

(١) حلية الأولياء: (٥/ ٢٢٥).

(٢) حلية الأولياء: (٥/ ١٥).

(٣) حلية الأولياء: (٤/ ٢١٥).

أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقتُ مالي غلقًا غلقًا في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حبٌّ لأهل طاعة الله وبغضٌ لأهل معصيته ما نفعني ذلك شيئًا(١).

ولنتأمَّل في إحدى نصائح من نُحبُّ في الله.. قال محمد بن يونس بن موسى: سمعت زهير بن نعيم وقد قال له رجل: يا أبا عبدالرحمن توصي بشيء؟ قال: نعم، أحذر أن يأخذك الله وأنتَ في غفلة.

والمعاملة الطَّيبة الحسنة صفةٌ ملازمةٌ لأهل الخير فهذا أحدُهم وهو **يزيد بن أبي حبيب** يقول: لا أدع أخًا لي يغضب عليَّ مرتين، بل أنظر الأمر الذي يكره فأدعه(٢).

ألا فنعمت الأخوة ونعمت المحبَّة.

وكنتُ إذا صحبتُ رجالَ قومٍ
صحبتهم وشيمتي الوفاءُ
فأحسن حين يُحسن محسنهم
واجتنبِ الإساءة إنْ أساءوا
وأُبصر ما يريبهم بعين
عليها من عيونهم غطاءُ(٣)

دخل جماعة على **الحسن** وهو نائم فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان(٤).

---

(١) الإحياء: (٢/ ١٧٥).
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٣٠).
(٣) شذرات الذهب: (٢/ ٣٣).
(٤) منهاج القاصدين: (١٠٨).

وجاء **فتح الموصلي** إلى منزل لأخ له وكان غائبًا، فأمر أهله، فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته، فأخبرت الجارية مولاها فقال: إنْ صدقت فأنتِ حرَّةٌ لوجه الله.. سرورًا بما فعل[1].

لســـتُ أنســـى تلـــك الحقـــوق ولكـــنْ
لســـتُ أدري بـــأيهـــن أكـــافـــيء

ومَنْ يكافيء أولئك الرِّجال؟!

كتب **الأوزاعي** إلى أخ له: أما بعد: فإنه قد أحيط بك من كل جانب، واعلم أنَّه يسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله والمقام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به.. والسلام[2].

أخي المسلم:

وإذا كان هؤلاء الإخوان وأولئك هم الأحبة.. بين فعل حسن ونصيحة مُحقَّة.. فعليك بهم كما أوصى بذلك **علي بن أبي طالب**: عليكم بالإخوان فإنَّهم عُدَّةٌ في الدنيا والآخرة.. ألا تسمعوا قول أهل النَّار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾[3] [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

ألا إنهم عدة في الدنيا والآخرة.. إذا كان أحدهم مثل **أبي سليمان الداراني** الذي يقول: تُعرض عليَّ النكتةُ من نُكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل، الكتاب والسنة[4].

وما ذاك ـ أخي الكريم ـ إلا خوفًا من أن تكون كلمة سوء.. يؤزر

---

(١) الإحياء: (٢/١٨٩).
(٢) حلية الأولياء: (٦/١٤٠).
(٣) الإحياء: (٢/١٧٥).
(٤) مدارج السالكين: (٢/٤٢).

عليها ولا يؤجر. ومجالس اليوم مجالس لا تَعْرضُ حديثها على الكتاب والسُّنَّة.. بل إنَّ بعضها فيه استهزاء بالكتاب وأهل السنة ـ والعياذ بالله ـ.

أخي الحبيب:

انظر إلى قياسهم في الصَّحبة وما يجب في الرفيق، فقد كفوك مؤنة البحث ومشقة النظر ووضعوا لك الموازين..

هذا **مالك بن دينار** يقول للمغيرة بن حبيب: يا مغيرة.. انظرْ كلَّ جليس وصاحب لا تستفيد في دينك منه خيرًا فانبذْ عنك صحبته[1].

وكل ما دون الدين فهو سهل وكل ما وراء الخير فهو هين.. ركيزة الدين هي الأساس وما ظهر خلاف ذلك من زلَّة وهنة فالرجوع قريب.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبقَ بين المسلمين عصمةٌ ولا أخوةٌ[2].

وقال **الفضيل بن عياض**: مَنْ طلبَ أخًا بلا عيبٍ بقي بلا أخ[3].

وقال **أبو حاتم**: الواجب على العاقل إذا رزقه الله وُدَّ امريء مسلم صحيح الوداد محافظ عليه: أن يتمسَّك به، ثم يوطن نفسه على صلته إن صرمه، وعلى الإقبال عليه إن صدَّعنه، وعن البذل له إن حَرمه، وعلى الدنو منه إن باعده، حتى كأنه ركنٌ من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلوُّنه في الوداد[4].

---

(١) الزهد: (٤٤٩)، صفوة الصفوة: (٣/ ٢٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٤/ ١٧٣).

(٣) روضة العقلاء: (١٦٩).

(٤) روضة العقلاء: (١٠٣).

ويجب أخذ أمر الصديق والرفيق على أحسن المحامل وخير التفسيرات.

قالت بنت عبدالله بن مطيع لزوجها **طلحة بن عبد الرحمن بن عوف** ـ وكان أجود قريش في زمانه ـ: ما رأيت قومًا ألأم من إخوانك!! قال لها: مه، ولم ذلك؟ قالت: أراهم إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك، فقال لها: هذا والله من كرم أخلاقهم، يأتوننا في حال قدرتنا على إكرامهم، ويتركوننا في حال عجزنا عن القيام بحقهم..

فلله درُّه كيف تأوَّل صنيع إخوانه على أوفىٰ وأكمل الأخلاق والنَّظرات.. وما ذاك إلا من تقاه وإيمانه وحسن خُلقه.

وإذا بحثتَ عن التَّقيِّ وجدتَهُ
رجلاً يُصدِّقُ قولَهُ بفعالِ
وإذا اتَّقَى الله امرؤٌ وأطاعه
فيداه بين مكارمٍ ومَعَالِ
وعلى التقيِّ إذا تراسخَ في التُّقَى
تاجان: تاجُ سكينةٍ، وجمالِ
وإذا تناسبت الرجالُ، فما أرى
نسبًا يكون كصالحِ الأعمال[1]

أخي الحبيب:

ومن لا يغمضُ عينه عن صديقه
وعن بعضِ ما فيه يمتْ وهو عاتبٌ

---

(١) روضة العقلاء: (٩/٢٨٦).

ومــــن يتتبــــع جـــاهـــدًا كـــلَّ عثـــرةٍ
يَجِــدهــا ولا يَبْقَــى لــه الــدَّهْــر صــاحــبُ[١]

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان عبدالله بن المبارك إذا عزم على الحجِّ يقول لأصحابه: من عزم منكم في هذا العام على الحجِّ فليأتني بنفقته حتَّى أكونَ أنا أنفق عليه، فيأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كلِّ صرَّةٍ اسمَ صاحبها ويجعلها في صندوق، ثمَّ يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب وحسن الخلق والتيسير عليهم، فإذا قضوا حجَّتهم يقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية؟، فيشتري لكل واحد منهم ما وصَّاهم أهله من الهدايا المدنية، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأُصْلحتْ وابيضَتْ أبوابها ورُمِّمَ شعثها فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق فتحه وأخرج منه تلك الصُّرر، ثم يُقْسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم[٢].

أخي المسلم:

للصداقة الحقَّة شروط فكما أن هناك صداقة قائمة على منفعة فهذه تدوم بدوام هذه المنفعة، وإمَّا صداقة قائمة على الهوى فهذه صداقة في مهبِّ الريح لأنَّها قامتْ على أساس متقلِّب فلا يأمن أصحابها غرر بعضهم

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٢٨٦).
(٢) البداية والنهاية: (١٠/ ٢٠٣).

ببعض، وأمَّا صداقة مبنية على الإيمان والحبِّ في الله فهذه هي الأخوة الصَّادقة المستمرة.

أخي الكريم:

سامحْ أخاك إذا خَلَطَ
منه الإصابة والغَلَطَ
وتجافَ عن تعنيفه
إنْ زاغَ يومًا أو قَسَطَ
واعلم بأنك إنْ طلبـ
ـت مهذبا رمتَ الشَّطَطَ
من ذا الذي ما ساء قـ
ـط ومن له الحسنى فقط

والأخ هذا الذي تتحمل جفوته وتصبر على زلَّته لا يعدو كونه أحد رجلين.. قال عنهم **شعيب بن حرب**: لا تجلس إلا مع رجلين: رجل إذا جلست إليه يعلمك خيرًا فتقبل منه، أو رجل تعلمه خيرًا فيقبل منك.. والثالث: اهربْ منه[1].

وانظر فيمن حولك لترى كيف هم أصحابك وأحبابك؟! وعليك بمراتب ومنازل ذكرها **ابن الجوزي** لتنزل كلا منهم منزلته، قال:

كان لنا أصدقاء والأخوة عجائب فأخذت أعتب.

ثمَّ انتبهت لنفسي فقلت: وما ينفع العتاب، فإنَّهم إن صلحوا فللعتاب لا للصداقة. فهممت بمقاطعتهم، ثمَّ تفكرت فرأيت الناس بي معارف

---

(١) صفوة الصفوة: (٣/٨).

وأصدقاء في الظاهر وإخوة مباطنين، فقلت لا تصلح مقاطعتهم.

إنَّما ينبغي أن تنقلهم من ديوان الإخوة إلى ديوان الصداقة الظاهرة فإن لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف، وعاملتهم معاملة المعارف، ومن الغلط أن تعاتبهم.

قال **يحيى بن معاذ**: بئس الأخ تحتاج أن تقول له اذْكرْني في دعائك.

وجمهور الناس اليوم معارف ويندر فيهم الصديق في الظاهر..

وإيَّاك أنْ تنخدعَ بمن يظهر لك الودَّ، فإنَّه مع الزَّمان يبين لك الحال فيما أظهره.

وربما أظهر لك ذلك لسبب يناله منك.

قال **الفضيل بن عياض**: إذا أردت أن تصادق صديقًا فأغضبْه فإن رأيته كما ينبغي فصادقْه.

وهذا اليوم مخاطرة، لأنَّك إذا أغضبت أحدًا صار عدوًّا في الحال[1].

في زمنهم مخاطرة أما في زمننا فهو أكثر من ذلك؟! فقد شحَّت الأنفس وضاقت الصدور واندثرت المروءات إلا ما رحم ربي وقليل ما هم!!

هذا **ابن المبارك** وقد صحب رجلاً سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلمَّا فارقه، بكى، فقيل له في ذلك، فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخُلُقُه معه لم يفارقْه[2].

قال **الفضيل بن عياض**: إذا خالطتَ فخالط حَسَنَ الخلق، فإنَّه لا يدعو إلا إلى خير، وصاحبُه منه في راحة ولا تخالطْ سيِّء الخلق فإنه لا يدعو

---

(١) صيد الخاطر: (٤٩٧).

(٢) الإحياء: (١٠/٥٧).

إلا إلى شرٍّ، وصاحبُه منه في عناء، ولأن يصحبني فاجرٌ حسن الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني قاريء سيء الخلق، إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله وخفَّ على النَّاس وأحبُّوه، وإن العابد إذا كان سيء الخلق ثقل على النَّاس ومقتوه[١].

أخي الحبيب:

ما هو سوء الخلق؟! وبأي شيء يُعرف حسن الخلق؟!

قال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال:

قلَّة الخلاف. وحسن الإنصات. وترك طلب العثرات. وتحسين ما يبدو من السيئات. والتماس المعذرة. واحتمال الأذى. والرجوع بالملامة على النفس. والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره. وطلاقة الوجه للصغير والكبير. ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه[٢].

سألزم نفسي الصفح عن كلِّ مذنبٍ
وإنْ كثرتْ منه عليَّ الجرائم

وما النَّاس إلا واحد من ثلاثة
شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاوم

فأمَّا الذي فوقي فأعرف قدره
واتَّبع فيه الحقَّ والحقُّ لازم

وأمَّا الذي دوني فإنْ قال صنت عن
إجابته عرضي وإن لام لائم

---

(١) روضة العقلاء: (٦٤).

(٢) الإحياء: (٣/ ٧٧).

وأمـــا الـــذي مثلـــي فـــإن زلَّ أو هفـــا
تفضلـــت إن الفضـــل بـــالحلـــم حـــاكـــم[١]

وأعظم من هذا وذاك قول الله ـ عزَّ وعلا ـ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠].

فالآية تشتمل على أربع قواعد في التَّعامل مع النَّاس:

فأوَّلـها: أخذ العفو.

وثانـيها: الأمر بالمعروف.

وثالـثها: الإعراض عن الجاهلين.

ورابعها: الاستعاذة بالله من نزغ الشياطين.

وقد روي عن جعفر الصادق أنه قال: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها[٢].

وذكر **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ سهولة حصول الخير فقال: البرُّ شيء هيِّن، وجه طليق، وكلام لين[٣].

ومن آداب المجالس وواجبات الأخوة في الله ما قاله **مجاهد** بن جبر.. لا تحدَّ النظر إلى أخيك ولا تسأل من أين جئت؟ وأين تذهب؟[٤].

وتأمل مجالس اليوم وكثرة الأسئلة فيها؟!

---

(١) الإحياء: (٣/١).
(٢) فتح الباري لابن حجر: (٨/٣٠٦).
(٣) الإحياء: (٣/١٢٩).
(٤) صفة الصفوة: (٢/٢٠٩).

ولرفعة النفس وسموها عن الدنايا قال **مالك** ـ رحمه الله ـ: ما جالست سفيهًا قط!!

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال مجاهد: صحبت **ابن عمر** وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني[1].

هذه صفةٌ من صفاتهم وفيض من نبعهم.. بها تستمر العشرة وتدوم المودة.

عن ميمون بن مهران قال: سمعت **ابن عباس** يقول: ما بلغني عن أخ مكروه قط إلا أنزلته أحد ثلاث منازل:

إن كان فوقي عرفتُ له قدره، وإن كان نظيري تفضلت عليه، وإن كان دوني لم أجهل به[2].

وأما ما وقع فيه كثير من الناس فقد قال عنه **الحسن**: ابن آدم تبغض الناس على ظنة، وتنس اليقين من نفسك[3].

نعم أنت تعلم وتعرف عيوبك ومساوئك وتظن الظنون بمساويء إخوانك وأحبائك وتبغضهم لذلك الظن.

إن أثر الصحبة الطيبة والرفقة الصالحة ظاهرة لا تحتاج إلى كثير إيضاح ويكفي من ذلك موقف واحد لتتميز الطرق وتتضح السبل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٤٣].

يكفي هذا الموقف لتأخذ المحبة في الله الصدارة وقصب السبق.

---

(١) السير: (٤/ ٤٥٢).

(٢) صفة الصفوة: (١/ ٧٥٤).

(٣) الحسن البصري: (١٠٦).

قال أحمد بن حرب: عبدتُ الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوة العبادة حتَّى تركت ثلاثة أشياء:

تركت رضا الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق.

وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصَّالحين.

وتركت حلاوة الدُّنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة[١].

وحين لا يجد المسلم من يُعينه.. ويثبّته ويشدُّ أزره في رحلة الدنيا فعليه بقول الإمام أحمد بن حنبل عندما قال: رأيت الخلوة أروح لقلبي[٢].

* * *

---

(١) السير: (١١/ ٣٤).

(٢) السير: (١١/ ٢٢٦).

المحبة في الله

إن المحبة في الله هي أوثق عرى المحبة، وأصدقها وأدومها وأبقاها.. فهي وإن كانت تبدأ في هذه الحياة الدنيا.. إلا أنَّها تستمر وتبقى في الآخرة.. لأنَّها محبة قائمة على طاعة الله مستمدة صفاءها من دين الله..

قال رسول الله ﷺ: **المرء مع من أحب**»[١].

صداقة خير تسير في طريق خير.. لأن المسلم بحكم إيمانه بالله ـ تعالى ـ لا يحب إذا أحب إلا في الله، ولا يبغض إذا أبغض إلا في الله.. وهو على هذا يحب عباد الله الصالحين ويتقرب منهم ويوادهم ويناصحهم ويواسيهم.. فهم أحبته وإخوانه بل ويتقرب إلى الله بهذا العمل الصالح، وفي الحديث: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان**» وذكر منها: «**وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله**»[٢].

قال **عبدالله بن عمر** ـ رضي الله عنهما ـ: والله لو صمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقًا في سبيل الله، أموت يوم أموت وليس في قلبي حبٌّ لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله. ما نفعني ذلك شيئًا[٣].

وهذه المحبة نابعة من طاعة الله.. لاتدنسها أهداف الدنيا ونوازع البشر فلا أطماع ولا مغانم سوى رضا الله وهو خير مغنم..

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) الإحياء: (٢/ ١٧٥).

قال **سفيان**: ليس شيء من عمل أرجو أن لا يشوبه شيء كحبِّي مجمعًا التميمي[١].

وهذا كمال الصدق في المحبة والإخلاص في العمل.. إنَّها محبة في الله.. ولله..

والمحبة في الله تجعل المسلم يرتفع بأخلاقه ويسمو بنفسه عن مواطن الزلل ومظان السُّوء.

قال عمر بن حفص.. قال لي **عمر بن عبد العزيز**: إذا سمعت كلمة من امريء مسلم فلا تحملها على شيء من الشرِّ ما وجدت لها محملاً من الخير[٢].

ولا شك أنَّه إذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه، فليأت إلى الناس الذي يحبُّ أن يُؤتى إليه[٣].

نعم ـ أخي الحبيب ـ أنزل الناس منزلتك.. وأنزل نفسك منزلتهم.. فإنك بهذا تُقيم ما اعوجَّ وتُصلح ما فسد.

قال **بكر بن عبد الله**: إذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضلٌ أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيرًا فقل هذا ذنبٌ أحدثتُه[٤].

وعن **أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ قال: ولا تظنن

---

(١) صفة الصفوة: (٣/١٠٨).
(٢) تاريخ الخلفاء: (٣٢٣).
(٣) الفوائد: (١٩٤).
(٤) صفة الصفوة: (٣/٢٤٨).

بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا وأنت تجد لها في الخير محملاً[١].

وقال **عبدالله بن زيد الجرمي**: إذا بلغك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل في نفسك: لعلَّ لأخي عذرًا لا أعلمه[٢].

اقبل معاذيرَ مَنْ يأتيك معتذرا
إن برَّ عندك فيما قال أو فَجَرا
فقد أطاعك مَنْ يأتيك مُعتذرًا
وقد أجلَّك مَنْ يعصيك مُسْتتِرا[٣]

قال **حماد**: ما رأيت رجلاً أشدَّ تبسمًا في وجوه الرِّجال من أيوب السختياني[٤].

وهذا التبسم والتبسط للمسلمين.. أما ما سواهم.. فالأمر كما قال **سفيان الثوري**: عندما سُئل: أصافح اليهود والنصارىٰ؟ فقال: برجْلِك نعم!![٥].

فإنَّ لأهل الإسلام كرامة ومنزلة لا يلغها غيرهم من بني الإنسان.

وقد كان **لمحمد بن سيرين** منازل لا يكريها إلا من أهل الذمة، فقيل له في ذلك، فقال: إذا جاء رأس الشهر رُعْتُهُ، أكره أنْ أروِّع مسلمًا[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢١٢).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٨).
(٣) طبقات الحنابلة: (٤/ ٩٤).
(٤) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٣١).
(٥) وفيات الأعيان: (٢/ ٣٨٨).
(٦) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤)، وحلية الأولياء: (٢/ ٢١٨).

نعم للمسلم مكانة في نفس أخيه المسلم ومحبة خاصة قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في وصف ذلك بأنَّهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

روِيَ عن محمد بن علي قال: أراد جار **لأبي حمزة السكري** أن يبيع داره، فقيل له: بكم؟ قال: بألفين ثمن الدار، وبألفين جوار أبي حمزة، فبلغ ذلك أبا حمزة، فوجَّه إليه بأربعة آلاف، وقال له: لا تبعْ دارك[١].

وانظر ـ أخي الحبيب ـ إلى الفرح والسرور برؤية آثار الطاعة ومحبة الخير للمسلمين.. قال **صالح بن أحمد بن حنبل**: جاء جارٌ لنا قد خضب، فقال أبي: إنِّي لأرى الرَّجل يحيي شيئًا من السُّنَّة فأفرح به[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **أبو معاوية الأسود**: إخواني كلهم خيرٌ منِّي، قيل له: وكيف ذلك يا أبا معاوية؟ قال: كلهم يرى الفضل لي على نفسه، ومَنْ فضَّلني على نفسه فهو خيرٌ مني.

والمــرء يــذْكَــرُ بــالجمــائــلِ بعــده
فــارفــع لــذكــرك بــالجميــل بنــاء
واعلــم بــأنــك تُــذْكَــر مــرةً
فيُقــال: أحســن، أو يقــالُ أســاءَ

إنَّها صفات كُمِّلت وجُمِّلتْ بالإسلام.. فكان تاجًا للأخلاق الفاضلة ونبراسًا للمعاملة الحسنة.

وتبقى الدنيا دار الهفوات ومقر الزلات والعثرات.. فهفوة الصديق لا

---

(١) السير: (٧/ ٣٨٧).
(٢) السير: (١١/ ٢٣٥).

تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الأخوة، أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نُصحه بما يقوِّم أَوْدَهُ[(١)]، ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله[(٢)].

ويكون ذلك عن طريق النصيحة والتوجيه.. وذلك بالحسنى والموعظة الحسنة قال **سفيان الثوري**: قلت لسعد بن كدام: تُحب أن يهدى إليك عيوبك؟ قال: أما من ناصح فنعم، أما من موبخ فلا[(٣)].

قال **الإمام الشافعي**:

تعمدني بنصحك في انفرادي
وجنبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوعٌ
من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإنْ خالفتني وعصيتَ قولي
فلا تجزعْ إذا لم تُعطَ طاعة

حين أمر **أبو الدرداء** على رجل قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما ابغضوا عمله فإذا تركه فهو أخي..

---

(١) أُوِدَ: أي عَوَجَ.
(٢) الإحياء: (٢/١٩٩).
(٣) حلية الأولياء: (٧/٢١٧).

وكذلك حكي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان إليَّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعودة إلى ما كان عليه[١].

قال **أبو حاتم**: الواجب على العاقل أن يتحبب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق؛ لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا، كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء ليفسد العمل، كما يفسد الخلَّ العسل، وقد تكون في الرجل أخلاقٌ كثيرة صالحة كلها، وخلق سيء، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الصالحة كلها[٢].

والنَّاصح المشفق هو الأخ الصادق كما قال **يحيى بن معاذ**: أخوك من عرَّفك العيوب وصديقك من حذَّرك من الذُّنوب.

وحتى حينما تكون المواجهة في مكان عام فانظر إلى الحلم والعفو وطيب النفس وعلوها.. خرج **علي بن الحسين** يومًا في المسجد فسبَّه رجل، فانتدب الناس إليه فقال: دعوه، ثم أقبل عليه، فقال له ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل، فألقى إليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم[٣].

قال حبيب الجلَّاب: سألت **ابن المبارك**: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل.

قلت: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب.

---

(١) الإحياء: (٢/ ٢٠٠).

(٢) روضة العقلاء: (٦٤).

(٣) البداية والنهاية: (٩/ ١١٨).

قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ شفيق يستشيره.

قلت: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل(١).

وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرًّا حتى قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه.

وقال الفضيل بن عياض موضحًا الفرق بين النَّاصح والشَّامت: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويُعير(٢).

وينثر أبو الدرداء دررًا من الكلام وجواهر من الحكم فيقول: معاتبة الأخ خيرٌ من فقده، ومَنْ لك بأخيك كله أعط أخاك ولن له ولا تطع به حاسدًا فتكون مثله، غدًا يأتيه الموت فيكفيك قتله، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركتَ وصله(٣).

لا أمدحُ المرءَ أبغي من فضائله
ولا أظلُّ أداجيه إذا غضبا

ولا يراني على باب أراقبه أبغي
الدخول إذا ما بابه حجبا

قال الخليل بن أحمد النحوي: الرجل أربعة:

* رجل يدري ولا يدري أنَّه يدري فذلك غافل فنبِّهوه.

* ورجل لا يدري ويدري أنَّه لا يدري فذاك جاهل فعلِّموه.

---

(١) السير: (٨/ ٣٩٧).

(٢) جامع العلوم والحكم: (٧٧).

(٣) صفة الصفوة: (١/ ٣٦٤).

* ورجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فاتَّبعوه.

* ورجل لا يدري ولا يدري أنَّه لا يدري فذاك مائق فاحذروه[١].

والنَّصيحة طريق النَّاصحين، هذا رجل نصح **لأبي حنيفة**: فقال: اتَّقِ الله!! فانتفض أبو حنيفة واصْفرَّ، وأطرق، وقال: جزاك الله خيرًا، ما أحوج النَّاس كل وقت إلى من يقول مثل هذا[٢].

والتَّواصي بالحقِّ.. يصدر من صغير إلى كبير ومن كبير إلى صغير.. بل ومن عالم إلى عالم.

كتب **إبراهيم بن أدهم** إلى الثوري: من عرف ما يطلب هان ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

وقال **الشافعي**: أعز الأشياء ثلاثة: **الجود** من قلَّة، **والورع** في خلوة، وكلمة **الحق** عند من يُرجى أو يخاف[٣].

حياة المؤمن كلها طاعة وأوقاته جلها عبادة.. قال **حاتم الأصم**: ما من صباح إلا والشيطان يقول لي: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول: آكل الموت وألبس الكفن وأسكن القبر[٤].

وكان **الربيع بن خيثم** إذا أصبح قال: مرحبًا بملائكة الله.. اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٣/ ٧٨٨).
(٢) السير: (٦/ ٤٠٠).
(٣) جامع العلوم والحكم: (١٩٥).
(٤) صفة الصفوة: (٤/ ١٦٢).

أخي الحبيب:

انظر القياس وزن الأمور.. قال **عروة بن الزبير** لبنيه ناصحًا وموضحًا: إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة، فاعلموا أن لها عنده أخوات، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات، فإن الحسنة تدل على أختها، والسيئة تدل على أختها(١).

وأيام الحياة تسير.. ودقائق الأوقات تنقضي.. ما هو الخير في تلك اللحظات الغالية النفيسة. إنَّه كما قال **سعيد بن عبدالعزيز**: لا خير في الحياة إلا لصموت واع وناطق عارف(٢).

وتبقى لحظات في حياة المسلم يؤانس بها صحبه ويزيل الكلفة عن رفقته.. فالدعابة لها وقت وشروط والمزاح له حد معقول.. فلا يفرط فيها.. لأن الإسلام ليس في حاجة إلى الهازلين والمهرجين واللاعبين، بل الحاجة قائمة للرجال الجادين الذين شغلوا أوقاتهم بطلب العلم والدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما من يُكثر من المزاح فقد أساء كل الإساءة لنفسه ولدينه، ومن حرص على سنته ﷺ، فإنه سيعطي المزاح قدرًا يسيرًا، والحق أنه من الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى لعب الزنوج في يوم عيد(٣).

عن الأحنف بن قيس قال: قال لي **عمر بن عبد العزيز**: يا أحنف، من

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ١١٥).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢١٩).

(٣) تهذيب موعظة المؤمنين.

كثر ضحكه قلَّتْ هيبته، ومن مزح استخفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومَنْ كثر كلامه كثر سقطه وقلَّ حياؤه، ومَنْ قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه[١].

والـــوجـــه تخلقـــه المـــزاحـــة إنهـــا
لفـــظٌ يضـــرُّ ومنطـــقٌ لا يـــرشـــدُ
فـــدع المـــزاحـــة للسفيـــه فـــربمـــا
هـــاجـــتْ عجـــاجُ عـــداوةٍ لا تحمـــدُ[٢]

إن الجادَّ في عمله الخائف من الأحوال التي أمامه.. في حال لا يتطرَّق إليها المزاح ولا الهزال إنَّه كما قال **حمَّاد بن إسماعيل**: لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا قطُّ لصدقتكم، كان مشغولاً لنفسه، إمَّا أنْ يحدِّث وإمَّا أنْ يقرأ وإمَّا أن يُسبِّح وإمَّا أنْ يُصلِّي، كان قد قسَّم النَّهار على هذه الأعمال.

نعم كانوا يخشون ما أقبل من الأيام ويخافون موقفًا تقشعر من رؤيته الأبدان.. فقد كان **عبدالله أبو يعلى** يقول: أتضحك ولعلَّ أكفانك قد خرجت من عند القصَّار[٣].

وحُكي عن **بعض الصَّالحين**: أنَّه رأى رجلاً وهو يضحك ضحكًا شديدًا، فقال له: يا هذا هل ذقت الموت؟ قال: لا، قال: فهل رجح ميزانك؟ قال: لا، قال: فهل جزت الصراط؟ قال: لا، قال: فلأي شيءٍ هذا الضحك والفرح؟!

---

(١) تاريخ عمر لابن الجوزي: (٢٠٠).
(٢) كتاب الصمت: (٢١٢).
(٣) الإحياء: (٣/ ١٣٧).

قال فبكى الرجل وقال: لله علي نذرٌ أن لا أضحك بعدها أبدًا.

لله درُّه.. أفاق من غفلته وقام من كبوته.. ليته يسمع بعض ضحكات المجالس.. ومزاح الفارغين.. وتفاهة بعض المتحدثين.

بل كيف لو رأى اللاهون العابثون يومًا من أيام **وكيع بن الجراح**.. فقد كان لا ينام حتى يقرأ ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر فيصلي ركعتين!!

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال الحارث الغنوي: آلى **ربعي بن حراش** أن لا يضحك حتى يعلم في الجنة هو أو في النار.

قال **الحارث الغنوي**: فلقد أخبرني غاسله أنه لم يزل مبتسمًا على سريره ونحن نغسله حتى فرغنا من غسله.

رحم الله ضعفنا وتفريطنا وطول غفلتنا..

قال **عمر بن عبدالعزيز** لإسماعيل بن عبدالله: يا إسماعيل: كم أنت عليك من سنة؟! قال: ستون سنة وشهور، قال: يا إسماعيل إياك والمزاح.

أخي:

إذا ما أتتْك الأربعون فعندها

فاخْشَى الإلهَ وكنْ للموتِ حذرا[1]

قال الفضيل بن عياض: بلغني عن **طلحة بن مصرف** أنه ضحك يومًا، فوثب على نفسه فقال: فيم الضحك؟ إنما يضحك من قطع الأهوال

---

(١) حلية الأولياء: (٥/٢٦٩).

وجاز الصراط، ثمَّ قال: آليت أن لا أفتر ضاحكًا حتى أعلم بم تقع الواقعة، فما رُئي ضاحكًا حتى صار إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وعن سعيد بن سالم القداح قال: سمعت **عبدالعزيز بن أبي روّاد** يقول لرجل: من لم يتعظ بثلاث لم يتعظ بشيء: الإسلام، والقرآن، والشَّيب.

صاح بي الشيبُ لا مقام
بين الرجعة السقام
صوتان قد أزْعجا وحثا
عمري وراعني الحمامُ
لا آمن الدَّهرَ والمنايا
إذ كلُّ عُمرٍ له انعدام[1]

ومن رأى تقلب الأيام وسرعة انقضائها وفجأة الموت.. هل يتنعم بلذة نعيم أو يهنأ باله بطرفةٍ ودعابة؟! الأمر جدٌّ.. والحساب شديد الجزاء قادم..

يا واقفًا يسألُ القبور أفق
فأهلها اليومَ عنك قد شُغلُوا
قد هالهم منكرٌ وصاحبُهُ
وخوف ما قدموا وما عملوا
رهائن للثرى على مدر
يُسمع للدود بينهم زجلُ

---

(١) حلية الأولياء: (١٠/ ١٨٤).

سرى البلى في جسومهم فجرتْ
دمًا وقيحًا وسالتِ المقلُ[١]

أخي المسلم:

عشت مثلي لحظات مشرقة من حياتهم.. سمعنا حديثهم ورأينا جدهم.. والسُّؤال الآن.. هل نترك التبسُّم والدعابة والطرفة مع الأحباب والأصحاب؟!

قال **الذهبي**: الضحك اليسيرُ والتبسُّم أفضل، وعدم ذلك من مشايخ العلم على قسمين:

أحدهما: يكون فاضلاً لمن تركه أدبًا وخوفًا من الله، وحزنًا على نفسه المسكينة.

الثَّاني: مذموم لمن فعله حمقًا وكبرًا وتصنُّعاً كما أنَّ من أكثر الضِّحك استخفَّ به، ولا ريب أنَّ الضِّحك في الشَّباب أخفُّ منه وأعذر منه في الشيوخ.

وأمَّا التَّبسُّم وطلاقة الوجه فأرفعُ من ذلك كله، قال النبي ﷺ: **تبسُّمك في وجه أخيك صدقة»**[٢].

وقال جرير[٣]: «**ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسَّم في وجهي**»[٤].

فهذا هو حلق الإسلام، فأعلى المقامات من كان بكَّاءً بالليل، بسَّامًا

---

(١) التبصرة: (١/٩١).
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن حبان وصحَّحه الألباني.
(٣) هو جرير بن عبد الله البجلي صحابي توفي عام ٥١ هـ.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

بالنَّهار، وقال ـ عليه السلام ـ: «**لن تسعوا الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسط الوجْه**»[١].

ينبغي لمن كان ضحوكًا بسَّامًا أن يُقصِّر من ذلك، ويلوم نفسه حتَّى لا تمجَّه الأنفس، وينبغي لمن كان عبوسًا منقبضًا أن يتبسَّم ويحسِّن خلقه، ويمقت نفسه على رداءة خُلُقه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم، ولابدَّ للنفس من مجاهدة وتأديب[٢].

أخي المسلم:

إن كانت الرفقة الصالحة والأخوة الصادقة تعين على الطاعة وتشد الأزر وتشحذ النفوس.. فإن المسلم يحتاج إلى وقفات محاسبة ولحظات مراجعة.

قال **عمر بن الخطاب**: خذوا بحظكم من العزلة[٣].

ولسنا نريد ـ رحمك الله ـ بهذه العزلة التي نختارها مفارقة الناس في الجماعات والجمعات وترك حقوقهم في العبادات وإفشاء السلام ورد التحيات وما جرى مجراها من وظائف الحقوق الواجبة لهم ووضائع السنن والعادات المستحسنة فيما بينهم، فإنَّها مستثناه بشرائطها جارية على سبلها ما لم يحلُ دونها حائل شغل ولا يمنع عنها مانع عذر[٤].

ولذلك قال **إبراهيم النخعي** لغيره: تفقَّه ثم اعتزل[٥]. وأما إذا كانت

---

(١) أخرجه الحاكم والبزار وأبو يعلى وفي إسناده ضعف.
(٢) السير: (١٠/ ١٤٠).
(٣) العزلة: (١٨).
(٤) العزلة: (١٣).
(٥) العزلة: (٢٤).

العزلة فيها مجانبة لمجالس الشرِّ ومفارقة لرفقاء السوء فإنَّها كما قال عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ: في العزلة راحة من خليط السوء[١].

وقال أبو ذر: الصاحب، مملي الخير خيرٌ من الساكت، والساكت خيرٌ من مملي الشرِّ[٢].

والمرء كما قال عنه مسروق: حقيق أن تكون له مجالس يخلو فيها فيذكر ذنوبه ويستغفر منها[٣].

دع الناس ما شاءوا يقولوا فإنني
لا أكثر مما يحكي عليَّ خُمُول
فما كل من أغضبه إذا معتب
ولا كل ما يروى عليَّ أقول

والعزلة ـ أخي الحبيب ـ فيها فوائد ظاهرة خاصة في مجتمعات تتفشَّى فيها الغيبة والنميمة.. كما قال إسماعيل بن محمد.. سمعت ابن إبراهيم يقول لو لم يكن في العزلة أكثر من أنَّك لا تجد أعوانًا على الغيبة لكفى[٤].

والكثير تنفر نفسه من العزلة ولا يصبر عن الناس والسبب في ذلك كما قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه فتكثر حينئذ علاقات الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليتستعين بها على الفكرة ويتفرغ لاستخراج الحكمة.

---

(١) العزلة: (١٨).
(٢) العزلة: (٥٧).
(٣) العزلة: (٣٩).
(٤) العزلة: (٣١).

وخير جليس كتاب الله يؤانس به المسلم وحدته ويتدبَّر آياته.. قال **بعضهم**: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس(١).

وإلا فكيف تتكدَّر نفسه ويضيق صدره وبين يديه كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقرأه ويتدبَّر معانيه.

قيل **لابن المبارك**: إذا أنت صلَّيت لم لا تجلس معنا؟ قال: أجلس مع الصحابة والتَّابعين، أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس(٢).

وليست المؤانسة بكثرة الكلام والمداعبة والمزاح.. فمن تهدأ بحضوره نفسك ويرتاح لوجوده سمعك وعينك فإنه نعم الرفيق حتى وإن تباعدت أيامه وغابت طلعته..

قال **شبيب بن شيبة**: إنَّ من إخواني من لا يأتيني في السنة إلا اليوم الواحد.. هم الذين اتخذهم وأعدُّهم للمحيا والممات، ومنهم من يأتيني كل يوم فيقبِّلني وأقبله، ولو قدرت أن أجعل مكان قبلتي عضة لعضضتُه(٣).

ويحتار الإنسان في النَّاس فكيف السَّلامة والمخرج؟! وأين الطَّريق والجادة؟!

قال **الشَّافعي** ـ رحمه الله ـ ليونس بن عبدالأعلى: يا أبا موسى رضا النَّاس غاية لا تدرك، ليس إلى السَّلامة من النَّاس سبيل، فانظر ما فيه

---

(١) العزلة: (٢٢).
(٢) السير: (٨/٣٩٨).
(٣) العزلة: (٤٥).

صلاح نفسك فالزمه، ودع النَّاس وما هم فيه[(١)].

أخي الحبيب:

لا تنس قول **سفيان الثوري**: كثرة أصدقاء المرء من سخافة دينه..

قال **أبو سليمان** يوضِّح ذلك.. يريد أنه ما لم يداهنهم ولم يُجلهم لم يكثروا لأن الكثرة إنما هي في أهل الريبة، وإن كان الرجل صلب الدين لم يصحب إلا الأبرار الأتقياء وهم فيهم قلة[(٢)].

قال **مالك** ـ رحمه الله ـ: الناس أشكال كأجناس الطير، الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والبط مع البط، والصَّعو[(٣)] مع الصَّعو وكل إنسان مع شكله[(٤)].

وهذه بعض آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام **بعض الحكماء**:

إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلَّة لهم ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع في غير مذلة. وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب من وجهك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها،

---

(١) العزلة: (٧٩).

(٢) العزلة: (٤٤).

(٣) الصَّعْوُ: عصفور صغير.

(٤) روضة العقلاء: (١٠٩).

وليكن مجلسك هادئًا وحديثك منظومًا مرتبًا وأصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تتبذل العبد وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدًا على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم وإن كان كثيرًا لم تبلغ قط رضاهم، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيديك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تجث على ركبتيك، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قرَّبك سلطان فكن منه على مثل السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفقك بالصَّبي وكلمه بما يشتهيه ما لم يكن معصية، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت كذلك مستحقًا عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال، وإياك وصديق العافية فإنَّه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلسًا فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس.

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياد لموضع

البصاق ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى.

ولا تجالس الملوك، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم ـ وإن ظهرت لك المودة ـ وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم.

ولا تجالس العامة، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم. وإيَّاك أن تمازح لبيبًا أو غير لبيب فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يجتريء عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه ويجرىء السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته المتقون، وهو يميت القلب ويباعد عن الرب ـ تعالى ـ ويكسب الغفلة ويورث الذلَّة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب وقد قيل: لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر.. ومن بلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه.. قال النبي ﷺ: **«من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»**[١].

---

(١) رواه الترمذي، وأحمد وابن حبان وصححه الشيخ الألباني.

وقبل الختام:

نعرج على أعظم صحبة وأجلها فقد كان الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ رفيق رسول الله ﷺ في دعوته وهجرته وجهاده. . فقدَّم روحه وماله فداء للرَّسول ﷺ ونفعًا للإسلام والمسلمين قال رسول الله ﷺ: «**ما نفعني مالٌ قطُّ ما نفعني مال أبو بكر**»، فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله [رواه أحمد].

وقال ﷺ: «**إنَّ أمنَّ النَّاس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر**» [رواه البخاري].

أخي المسلم:

جعلنا الله وإياكم من المتحابين فيه وجمعنا ووالدينا وأبنائنا وأزواجنا وأقاربنا في جنات عدن. .

* * *

المصادر

١ ـ إحياء علوم الدين للغزالي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.
٢ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مطبعة المتوسط.
٣ ـ التبصرة لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٠٦هـ.
٤ ـ تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.
٥ ـ تاريخ عمر لابن الجوزي، تحقيق أحمد حوشان، مكتبة المؤيد.
٧ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث.
٨ ـ تفسير بن كثير للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ.
٩ ـ تهذيب موعظة المؤمنين، جمال القاسمي، دار ابن القيم ط٢.
١٠ ـ التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، تحقيق لطفي الصغير، دار الاعتصام.
١١ ـ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ط٥/ ١٤٠٠هـ.
١٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، دار الكتاب العربي.
١٣ ـ دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.
١٤ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية.
١٥ ـ الزهد للحسن البصري، تحقيق د/ محمد عبدالرحيم محمد، دار الحديث.
١٦ ـ كتاب الزهد الكبير للإمام المحدث أحمد بن حسين البيهقي

تحقيق د/ تقي الدين الندوي، دار القلم.

١٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٨ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري ومحمد رواس، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

١٩ ـ صيد الخاطر لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

٢٠ ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، مطبعة السنة المحمدية وأخرى دار المعرفة، بيروت.

٢١ ـ الفوائد لابن قيم الجوزية، دار النفائس.

٢٢ ـ كتاب الصمت وآداب اللسان للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا، تصنيف أبي إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.

٢٣ ـ كتاب العزلة لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي ط١/ ١٣٥٦هـ نشره عزت العطار.

٢٤ ـ مختصر منهاج القاصدين للإمام المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧/ ١٤٠٦هـ.

٢٥ ـ مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢/ ١٤٠٨هـ.

٢٦ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، تصوير ط١/ ١٣٩٨هـ دار العربية.

٢٧ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٣٦٧هـ.


ورثة الأنبياء

المقدمة

الحمد لله الذي جعل في كل فترة من الرسل بقايا من أهل العِلم؛ يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرُون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله - تعالى - الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العَمَى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍ تائهٍ هدوهُ، فما أحسن أثرهم على الناس! وما أقبح أثر النَّاس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[1]، والصَّلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلما هُجر العلم الشرعي علمًا، وتعلمًا، وضعفت همم الناس وقصرت دون السعي له. جمعت بعض أطراف من صبر وجهاد علمائنا في طلب العلم، والجد فيه والمداومة عليه؛ لنقتفي الأثر ونسير على الطريق.

وهذا هو الجزء الخامس عشر من سلسلة **«أين نحن من هؤلاء»** تحت عنوان: **«ورثة الأنبياء»**.

أدعو الله - عز وجل - أنْ يجعل لنا نصيبًا من علمهم وصبرهم وحسن عملهم، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

---

(١) مقدمة الإمام أحمد في الردِّ على الزنادقة والجهمية.

مدخـل

لقد أثنى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على العلم وأهله، ورتَّب لمن سار في طريقه الأجر والمثوبة ورفع الدرجات في الدنيا والآخرة. ومن إكرام الله ـ عز وجل ـ للعلماء استشهاده بهم على أعظم مشهودٍ به وأجلِّه وهو توحيده، وقَرَنَ شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة.

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال **الإمام القرطبي** ـ رحمه الله ـ: في هذه الآية دليلٌ على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء(١).

ورفع الله ـ جل وعلا ـ درجة المؤمنين العالمين فوق درجة جهلة المؤمنين وفي كل خير فقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

قال **الشوكاني**: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ أي: ويرفع الذين أتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، ومعنى الآية: أنَّه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٤/٤١).

(٢) فتح القدير: (٥/ ٢٣٢).

ولا شكَّ أن ذلك من فضل الله وإحسانه ومنِّه وعطائه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

ولاختلاف تلك المنازل والدرجات فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نفى التَّسوية بين أهل العلم والعوام، فقال ـ عزَّ من قائلٍ عليمًا ـ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وعن المنزلة الرفيعة والمكانة العلية لأئمة الهدى ومصابيح الدجى قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام[١].

وقدَّم ـ جلَّ وعلا ـ العلم قبل العمل؛ لأن العلم هو الدليل الذي يهدي إلى المراد، فقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

ورُوي عن زيد بن أسلم ـ رضي الله عنه ـ: في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال: بالعلم؛ لأن الله لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم[٢].

وفي ذلك قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مخاطبًا نبينا محمدًا عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وقال ﷺ مبيِّنًا مكانة العلماء: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[٣] ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة[٤].

---

(١) الإحياء: (١/ ١٥).
(٢) فتح الباري: (١/ ١٤١).
(٣) من حديث رواه أحمد والترمذي.
(٤) الإحياء: (١١/ ١٦).

وبيَّـن ﷺ حالة طالب العلم وفضل طلب العلم على غيره من نوافل العبادات، فقال ﷺ مخاطبًا أبا ذر: «يا أبا ذر! لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عُمل أو لم يعمل به خير من أن تصلي ألف ركعة»(١).

وقال ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يطلب، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٢).

قال ابن رجب: يعني أنَّهم ورثوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خَلَفُوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنَّهي عن معاصي الله والذود عن دين الله.

ولعظم أمر العلم وأهميته الدنيوية والأخروية في حياة الفرد والمجتمع هذا رسول الله ﷺ يبين فضله وعِظم منزلته بقوله: «إنَّ الله وملائكته حتَّى النملة في جحرها وحتَّى الحوتُ في البحر ليصلون على معلِّم النَّاس الخير»(٣).

ويبين لنا الرسول ﷺ أن العالم الذي ينشر علمه ويُعلمه الناس، له مثل أجر مَنْ عمل بهذا العلم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، وهذه منَّةٌ

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناء حسن كما قال المنذري.

(٢) رواه أحمد وابن حبان.

(٣) رواه الترمذي.

عظيمة وفضل كبير؛ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئًا**»(١).

وأي عطاءٍ أعظم من هذا؟! به تقر الأعين، وتتحرك النفوس متطلعة إليه لما فيه من الأجر العظيم والثواب الجزيل.

قال **سفيان بن عيينة**: أتدرون ما مثل العلم؟ مثل دار الكفر ودار الإسلام؛ فإن ترك أهل الإسلام الجهاد وجاء أهل الكفر فأخذوا الإسلام، وإن ترك الناس العلم صار النَّاس جهالاً(٢).

وتلك الخطوات التي يسير بها طالب العلم في طريق تحصيله له فيها أجر عظيم، فقد قال رسول الله ﷺ: «**ما من خارجٍ خرج من بيته في طلب العلم، إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع حتَّى يرجع**»(٣).

قال **الإمام الخطابي**: ومعنى أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم أحد **ثلاثة وجوه**:

أوَّلـها: أنه بسط الأجنحة.

والـثَّاني: أنَّه كناية عن تواضعها تعظيمًا لطالب العلم.

والـثَّالث: أنَّ المراد ترك الطَّيران والنُّزول عند مجالس العلم لأجل استماع العلم(٤).

وكل منزلة من هذه الوجوه فيها من الشرف والعز ما تطمح إليه النفوس

---

(١) رواه مسلم.
(٢) حلية الأولياء: (٧/ ٢٨١).
(٣) رواه أحمد وابن ماجه.
(٤) معالم السنن.

وتتشوق إليه. وكفى بالمرء حُبًّا للعلم وطلبه قول النبي ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يُفقهه في الدين**»[١].

قال **الإمام الآجري**: فلما أراد الله ـ تعالى ـ بهم خيرًا فقَّههم في الدين، وعلمهم الكتاب والحكمة، وصاروا سراجًا للعباد ومنارًا للعباد[٢].

وقال رسول الله ﷺ في تفضيل العالم على العابد: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[٣].

فانظر كيف جعل العلم مقارنًا لدرجة النبوة، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم، وإن كان العابد لا يخلو من علم بالعبادة التي يواظب عليها، ولولاه لم تكن عبادة[٤].

والإسلام دين ينبذ الجهل، ويحث على طلب العلم، ويرتب الأجر والمثوبة على ذلك.

وفي الحديث عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «**طلب العلم فريضة**»[٥].

قال **الإمام أحمد**: يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه، قيل له: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله، صلاته وصيامه، ونحو ذلك.

وقال **الشَّيخ محمَّد بن عبدالوهاب**: اعلم أنَّ طلب العلم فريضة، وأنَّه شفاء للقلوب المريضة، وأن أهمَّ ما على العبد معرفة دينه، الذي معرفته

---

(١) رواه البخاري.
(٢) أخلاق العلماء ص (٩٤).
(٣) رواه الترمذي.
(٤) الإحياء: (١/ ١٧).
(٥) رواه ابن ماجه.

والعمل به سبب لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار، أعاذنا الله منها[(١)].

ويكفي هذا الأمر داعيًا إلى طلب العلم فإنه طريقٌ للجنَّة وموصل إلى أبوابها.

وقد دعا رسول الله ﷺ لمن يطلب العلم بالنضرة (وهي بهاء الوجه وجلاله) فعن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**نضَّر الله امرءًا سمع منَّا حديثًا فحفظه حتَّى يُبلغه غيره، فَرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقه منه، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه**»[(٢)].

وعلى هذا المنهج الرَّبَّاني سارت الأمة رجالاً ونساء في قافلة العلم والحثِّ عليه ومعرفة قدره. فهذا معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ يحث على طلب العلم ويبين فضله وفضل أهله فيقول: تعلموا العلم؛ فإنَّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة[(٣)].

أيُّها الحبيب:

اجتهد في طلب العلم، واحرص على النهل من معينه والعمل به، ثمَّ عليك بتبليغه وإيصاله إلى الناس امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»[(٤)]؛ فإننا في زمن اندرست فيه معالم الهدى، وظلَّ أكثر الناس جهلاً،

---

(١) حاشية ثلاثة الأصول للشيخ عبد الرحمن بن قاسم ص(١٠).

(٢) رواه الترمذي.

(٣) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ٥٤).

(٤) رواه البخاري.

ولم يبق إلا ندرة من العلماء الربانيون؛ أعلام الهدى ومصابيح الدجى.

والعلم الذي تُضرب له أكباد الإبل، وتطوى له الأرض، وتثنى لأجله الرُّكب: هو العلم الشرعي الصحيح المستند من الكتاب والسنة وبفهم السلف الصالح، وهو العلم الذي يوصل إلى تقوى الله ومراقبته وخشيته، ويدل على طاعة الله ـ عز وجل ـ ومعرفة حدوده وأحكامه، ويوصل إلى الجنة ويُبعد عن النار.

قال **عبدالرحمن السعدي**: أما العلم النافع فهو العلم المُزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين، وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال[١].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ قدس الله روحه ـ: وأكمل أنواع طلب العلم أن تكون همة الطالب مصروفة في تلقي العلم الموروث عن النبي ﷺ وفهم مقاصد الرسول ﷺ في أمره ونهيه وسائر كلامه، واتباع ذلك وتقديمه على غيره، وليعتصم في كل باب من أبواب العلم بحديث عن الرسول ﷺ من الأحاديث الصحيحة الجوامع.

أيُّها المسلم:

مـــــا العلـــــم إلا كتـــــاب الله والأثـــــر
ومـــــا ســـــوى ذاك لا عيـــــنٌ ولا أثـــــر
إلا هـــــوى وخصـــــومـــــات ملفقـــــة
فـــلا يغـــرنـــك مـــن أربـــابهـــا هـــدر[٢]

---

(١) بهجة قلوب الأبرار ص (٤٤).

(٢) شذرات الذهب: (٧/ ١٠٣).

أخـي:

إنَّ النية الصالحة والهمة العالية نفس تضيء، وهمة تتوقد، واعلم أنَّ من جدَّ وجد، وليس مَنْ سهِر كَمنْ رقد، وإن سلع المعالي غالية الثمن.

فالنُّفوس الشريَّفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة. والنُّفوس الدَّنيئة تحوم حول الدَّناءات، وتقع عليها كما يقع الذُّباب على الأقذار؛ فالنُّفوس العلية لا ترضى بالظُّلم، ولا بالفواحش، ولا بالسَّرقة، ولا بالخيانة؛ لأنَّها أكبر من ذلك، والنُّفوس الحقيرة بالضدِّ من ذلك[١].

وقد أنزل **الإمام الشَّافعي** العلماء منازلهم وأثر تلك العلوم عليهم وعلى طبائعهم وسلوكهم، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: مَنْ تعلَّم القرآن عَظُمت قيمته، ومن تعلَّم الفقه نَبُل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعَّلم الحساب جَزُلَ رأيه، ومن تعَّلم العربيَّة رقَّ طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

وأوَّل تلك العلوم وأسماها منزلة وأشرفها قدرًا وأنبلها هدفًا كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي فيه الآيات المحكمات والسُّور المنزلات. فهو النور وهو الشِّفاء وهو الحكمة.

قال **ابن مسعود**: إذا أردتم العلم فانثروا القرآن، فإنَّ فيه علم الأولين والآخرين[٢].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** مؤكِّدًا على ذلك وحاثّاً عليه: وأمَّا طلب

---

(١) الفوائد ص (٢٦٦).

(٢) الإحياء: (٣٢٣).

حفظ القرآن فهو مقدم على كثير ممَّا تسمِّيه النَّاس علمًا، وهو إمَّا باطلٌ أو قليل النَّفع. وهو أيضًا مقدم في التَّعلُّم في حقِّ من يريد أنْ يتعلَّم علم الدِّين من الأصول والفروع، فإنَّ المشروع في حقِّ مثل هذا في هذه الأوقات أنْ يبدأ بحفظ القرآن، فإنَّه أصل علوم الدِّين، بخلاف مايفعله كثير من أهل البدع من الأعاجم وغيرهم، حيث يشتغل أحدهم بشيء من فضول العلم، من الكلام أو الجدال، والخلاف أوالفروع النادرة والتَّقليد الذي لا يحتاج إليه، أو غرائب الحديث التي لا تثبت ولا ينتفع بها، وكثير من الرياضيات التي لا تقوم بها حجَّة، ويترك حفظ القرآن الذي هو أهمُّ من ذلك كلِّه[1].

قال **محمَّد بن الفضل**: سمعت جدي يقول: استأذنتُ أبي في الخروج إلى قتيبة، فقال: اقرأ القرآن أوَّلاً حتَّى آذن لك، فاستظهرتُ القرآن، فقال لي: امكث حتَّى تصلي الختمة، ففعلت، فلمَّا عيدنا أَذِنَ لي فخرجتُ إلى مرو[2].

وقال **أبو عمر بن عبدالبر**: طلبُ العلم درجاتٌ ومناقلُ ورُتَبٌ لا ينبغي تعديها، ومن تعدَّاها جملةً فقد تعدَّى سبيل السَّلف ـ رحمه الله ـ، ومن تعدَّى سبيلهم عامدًا ضلَّ، ومن تعدَّاه مجتهدًا زلَّ.

فأَوَّلُ العلمِ حفظُ كتاب الله ـ جلَّ وعزَّ ـ وتفهمُه، وكلُّ ما يُعين على فهمه فواجبٌ طلبُه معه، ولا أقول: إنَّ حفظه كلَّه فرضٌ، ولكن أقولُ: إنَّ ذلك واجبٌ لازمٌ على من أحبَّ أن يكونَ عالمًا ليس من باب الفرض[3].

---

(١) الفتاوى الكبرى: (٢/ ٢٣٥).

(٢) تذكرة الحفَّاظ: (٢/ ٧٢٢).

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص (٥٢٦).

وقال الخطيب البغدادي مؤكدًا على ذلك: ينبغي للطالب أن يبدأ بحفظ كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، إذا كان أجلَّ العلوم وأولاها بالسَّبق والتَّقديم[١]*.

وقال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: وأوَّل ما يبتديء به حفظُ القرآن العزيز؛ فهو أهمُّ العلوم، وكان السَّلف لا يعلِّمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن، وإذا حفظ فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالاً يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنِّسيان[٢].

وينبغي أن يبدأ في دروسه وحفظه ومذاكرته بالأهم فالأهم، فأول ما يبتديء به القرآن العظيم، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أمَّا العلم الذي يجب على الإنسان عينًا كعلم ما أمر الله به، وما نهى الله عنه، فهو مقدم على حفظ ما لا يجب من القرآن، فإن طلب العلم الأوَّل واجب وطلب الثَّاني مستحبٌّ، والواجب مقدم على المستحب[٤].

والعلم باب من أعظم أنواع العبادة؛ به يندفع الجهل، وترتفع راية

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي: (١/ ١٠٦).

* وقد ذكر والدي ـ حفظه الله وأجزل مثوبته ـ أنَّه عندما أراد في أوَّل عمره مساعدة جدي ـ رحمه الله ـ في جمع وترتيب مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية اشترط عليه أن يُتم حفظ القرآن أولاً، قال والدي: فأتممت حفظ القرآن كاملاً في ستة أشهر وبدأت في مساعدته في إنجاز هذا المجموع العظيم.

(٢) مقدمة المجموع شرح المهذب: (١/ ٣٨).

(٣) المجموع: (١/ ٣٨).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٥٤).

العلم، ويُعبد الله بما شرع، ويُحكم بما قضى.

قال الإمام الزهري: ما عُبد الله بشيء أفضل من العلم(١).

وقال سفيان الثوري: ما أعلم شيئًا أفضل من طلب الحديث إذا أريد به وجه الله.

وقال أيضًا: لا أعلم بعد النبوّة أفضل من العلم.

وأعظِم بها من منزلة تداني رتبة النُّبوّة وتسير على نهجها وتقتفي أثرها.

قال عبد الله بن وهب: كنت جالسًا بين يدي الإمام مالك بن أنس أقرأ عليه وأكتب، فأذن المؤذن وأمامي كتب منشورة فبادرت لأجمعها فقال لي: علي رِسْلِكَ فليس ما تَقْدُمُ عليه (من التبكير للصَّلاة) بأفضل ممَّا أنت فيه، إذا صحت فيه النيَّة(٢).

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّ طلب العلم خيرٌ من نوافل العبادة؛ فعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»(٣).

وقد عَدَّ الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ من نواقض الإسلام: الإعراض عن دين الله لا يتعلَّمه ولا يعمل به، والدَّليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقال أبو سعيد: كان أصحاب النَّبيِّ ﷺ إذا جلسوا مجلسًا كان

---

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٣٥٩).

(٢) ترتيب المدارك ص (٢).

(٣) رواه الطبراني.

حديثهم الفقه إلا أنْ يقرأ رجل سورةً أو يأمروا رجلاً أن يقرأ سورة[١].

وانظروا إلى الفقه في الدِّين وحاجة هذا الدِّين إلى العلم والعمل على هدى وبصيرة فقد قال **أبو الدَّرداء** ـ رضى الله عنه: لأنْ أتعلَّم مسألة أحبُّ إليَّ من قيام ليلة[٢].

وقال **خطيب البغدادي**: طلبُ الحديث في هذا الزمان أفضل من سائر أنواع التَّطوُّع لأجل دُروس السُّنن وخمولها، وظهور البدع واستعلاء أهلها[٣].

هذا في زمانه، فكيف بزماننا الذي رفع الجهل فيه رايته؟! وأطلت علينا البدع بأعناقها؟! وأصبح العلماء أندر من الكبريت الأحمر؟! فهذا زمن التَّشمير لطلب العلم ونشره بين النَّاس ونشره في الآفاق؛ لتحيا الأمَّة، وتهب من غفلتها، وتستعيد مجدها ورفعتها.

قال **البغوي**: وفضلُ العلم على العبادة من حيث أن نفعَ العلم يتعدَّى إلى كافة الخلق، وفيه إحياء الدِّين، وهو تلْوَ النُّبوَّة[٤].

ومن أجل ذلك فُضِّل العالم على العابد لنفعه المتعدي وخيره الفائض للعامة والأمة.

قال **أبو حاتم**: الواجب على العاقل إذا فرغ من إصلاح سريرته أن يُثني بطلب العلم والمداومة عليه، إذ لا وصول للمرء إلى صفاء شيء من أسباب الدُّنيا إلا بصفاء العلم فيه، وحكمُ العاقل أن لا يُقصِّر في سلوك

---

(١) رواه البيهقي.
(٢) الإحياء: (١/ ٢٠).
(٣) شرف أصحاب الحديث ص (٨٦).
(٤) شرح السنة: (١/ ٢٧٨).

حالة توجب له بسْطَ الملائكة أجنحتها رضًا بصنيعه ذلك.

ولا يجب أن يكون متأملاً في سعيه الدنو من السلاطين، أو نوال الدُّنيا به، فما أقبح بالعالم التَّذلُّل لأهل الدُّنيا[١].

قال **عبد الله بن أحمد بن حنبل**: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يومًا يقول: ما صليت اليوم غير الفريضة، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي[٢].

وقال ابن هانيء: قلت **للإمام أحمد**: أيهما أحبُّ إليك: أجلس بالدليل أنسخ أم أصلي تطوُّعًا؟. فقال لي: إن كنت تنسخ فأنت تتعلَّم به أمر دينك، لهو أحبُّ إليَّ.

وقال **الحسن البصري** ـ رحمه الله ـ: باب من العلم يتعلَّمه الرَّجل خيرٌ له من الدُّنيا وما فيها.

لأنَّ ذلك سبب نجاته وفلاحه كما قال **ابن الجوزي**: اعلم أنَّ الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على النَّاس هوالجهل، فهو يدخل منه على الجهَّال بأمان، وأمَّا العالم فلا يدخل عليه إلا مسارقة، وقد لبَّس إبليس على كثير من المتعبِّدين بقلَّة علمهم، لأنَّ جمهورهم يشتغل بالتَّعبُّد ولم يحكم العلم[٣].

وأكَّد على طلب العلم وأنَّه من الجهاد **أبو الدَّرداء** ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: من رأى أنَّ الغدوَّ إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نُقِصَ في رأيه وعقله.

---

(١) روضة العقلاء ص (٣٣).

(٢) السير: (١١/٢٢٨).

(٣) تلبيس إبليس ص (١٤٩).

وقال حاثًّا على السَّعي في منازل الخير: كن عالمًا، أو متعلِّمًا، أو مستمعًا، ولا تكن الرَّابع فتهلك[١].

وقال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: تذاكُرُ العلم بعض ليلة أحبُّ إليَّ من إحيائها[٢].

وقال **مطرِّف بن عبدالله الشِّخِّير**: فضل العلم خيرٌ من فضلِ العبادةِ، وخيرُ دينكم الورعُ[٣].

وقال **الزهري**: ما عُبِدَ الله بمثل الفقه.

وقال **سفيان الثوري**: لا أعلم شيئًا من الأعمال أفضل من العلم ـ أوالحديث ـ لمن حسُنت نيَّتُه[٤].

وقال **الشافعي**: طلبُ العلم أفضلُ من صلاة النَّافلة[٥].

وقال مهـنَّا: قلتُ **لأحمد**: حَدِّثْنا ما أفضلُ الأعمال؟ قال: طلبُ العلم[٦].

وقد **سُـئـل** شيخ الإسلام **ابن تيمية** عن تكرار القرآن والفقه أيُّهما أفضل وأكثر أجرًا؟.

فأجـاب: الحمد لله، خير الكلام كلام الله، لا يقاس به كلام الخلق؛ فإنَّ فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه. وأمَّا الأفضل في

---

(١) الإحياء: (١/ ٢٠).

(٢) رواه البيهقي.

(٣) الآداب الشرعية: (٢/ ٤١).

(٤) رواه البيهقي.

(٥) مناقب الشافعي ص (٩٧).

(٦) الآداب الشرعية: (٢/ ٣٧).

حقِّ الشَّخص، فهو بحسب حاجته ومنفعته، فإنْ كان يحفظ القرآن وهو محتاج إلى تعلم غيره، فتعلمه ما يحتاج إليه أفضل من تكرار التلاوة التي لا يحتاج إلى تكرارها، وكذلك إذا كان حفظ من القرآن ما يكفيه وهو محتاج إلى علم آخر، وكذلك إن كان قد حفظ القرآن أو بعضه، وهو لا يفهم معانيه فتعلمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه. وأما من تعبَّد بتلاوة الفقه فتعبُّده بتلاوة القرآن أفضل، وتدبُّره لمعاني القرآن أفضل من تدبُّره لكلام لا يحتاج إلى تدبُّره، والله أعلم(١).

وهكذا اعتنى الإسلام بالعلم وأهله، بل جعل طلب العلم فريضة على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ، حتَّى قال النَّووي: والحاصل أن المسلمين اتفقوا على أن الاشتغال بالعلم لوجه الله ـ تعالى ـ أفضل من الاشتغال بنوافل الصَّوم والصَّلاة والتَّسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن(٢).

ومن أعظم أسباب الحرمان والشقاء هو الإعراض عن طلب العلم ومجالسة العلماء والاستماع إليهم، فهذا ابن القيم يقول: أعظم الأسباب التي يُحرم بها العبد من خيري الدُّنيا والآخرة، ولذَّة النَّعيم في الدَّارين، ويدخل عليه عدُّوه منها، هما الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للعزيمة والإرادة، هذان هما أصل بلاء العبد وحرمانه، أمَّا الغفلة فمضادة للعلم، وقد ذم الله ـ سبحانه ـ أهل الغفلة فقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٣/ ٥٥).

(٢) المجموع: (١/ ٢١).

فمن علتْ همَّته وخشعتْ نفسه اتَّصف بكلِّ جميلٍ، ومن دنتْ همَّته وطغتْ نفسه اتَّصف بكلِّ خلقٍ رذيلٍ[(١)].

وفـــي الجهـــلِ قبـــل المـــوتِ مـــوت لأهلـــه
وأجســـامهـــم قبـــل القبـــور قبـــور
وأرواحهـــم فـــي وحشـــة مـــن جســـومهـــم
وليـــس لهـــم حتَّـــى النُّشـــور نشـــور[(٢)]

أخي المسلم:

لا شك أن الأصل في الإنسان الجهل وعدم المعرفة؛ قال الله ـ تعـالـى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨].

واكتساب العلم لا يمكن أنْ يحصل بين عشية وضحاها، ولا يمكن أن يصبح الإنسان عالمًا بين ليلة وأخرى، بل لابد من السعي والصَّبر وتحمل الأسفار، وثني الركب في حلق العلم، ومداومة الحفظ والتَّكرار، ولأن في ذلك جهدًا ومجاهدة وصبرًا ومصابرة قلَّ من يرد ماءه ويصبر على طول أيَّامه. ولهذا قلَّ العلماء وكثر الجهَّال الذين هم موتى بجهلهم وعدم علمهم.

أراد بشر بن الحارث الدُّخول إلى المقبرة فقال: الموتى داخل السُّور أكثر منهم خارج السُّور[(٣)].

وهذه الكثرة من الأموات نتيجة للجهل وهجر العلم الشَّرعي، ولذا

---

(١) الفوائد ص (٢١١).
(٢) مفتاح دار السعادة: (١/ ٤٨).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٣٣٢).

تسلَّط عليهم الشَّيطان بتلبيسه وتدليسه؛ فانتشرت البدع، وهجر العمل، وفُتن النَّاس بعلماء السُّوء.

قال ابن الجوزي: إنَّ التَّزوُّد من العلم النَّافع سبب رئيس في دفع مكائد الشَّيطان، وكلَّما ازداد العبد علمًا نافعًا ـ ممَّا يورث خشية الله وتقواه ـ كلَّما ازداد سلامة من نزغات الشَّيطان ومكايده، فأنت ترى مثلاً أنَّ أدنى عقبات الشَّيطان أن يُشغل العبد بالأعمال المرجوحة والمفضولة عن الأعمال الرَّاجحة والفاضلة. وعلاج ذلك بالفقه في الأعمال، والعلم بمراتب الطَّاعات عند الله ـ تعالى ـ، ومعرفة مقاديرها، والتَّمييز بين مفضولها وفاضلها، فإنَّ في الطَّاعات سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا[١].

وقال أيضًا: ترك العلم غفلة، والإعراض عنه جهالة؛ فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن تلمُّح العواقب، فمن ذلك أنَّ التَّكاسل في طلب العلم وإيثار عاجل الرَّاحة يوجب حسرات دائمة لا تفي لذَّة البطالة بمعشار تلك الحسرة، ولقد كان يجلس إليَّ أخي وهو عامي فقير، فأقول في نفسي: قد تساوينا في هذه اللَّحظة، فأين تعبي في طلب العلم وأين لذَّة بطالته[٢].

ولعلَّ شبابنا يستشعرون كلمات ابن الجوزي ويستفيدون من تجربته وتجربة أخيه فإن في ذلك عبرة.

قال عروة بن الزُّبير ـ رحمه الله ـ لأولاده: يا بنيَّ تعلَّموا العلم

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٢٢٥).
(٢) الآداب الشرعية: (٢/ ٢٢٩).

وادرسوه، فإنّكم إنْ تكونوا صغار قوم فعسى أنْ تكونوا كبراءهم، واسوءتاه!! ماذا أقبح من شيخ جاهل؟[١].

ولعلمهم أهميّة العلم وفضل التَّعلُّم كانوا يتعاهدون أبناءهم وهم صغار، ويدفعون بهم إلى العلماء للتَّلقِّي منهم.

فهذا **أبو سعد السَّمعاني** أحضره والده إلى مجلس العلم وهو ابن أربع سنين، فسمع من مسند زمانه عبدالغفار الشّيروي، ثمَّ رحل إلى بلاد كثيرة فسمع من سبعة آلاف شيخ[٢].

وقال **صالح بن أحمد بن حنبل**: رأى رجلٌ مع أبي مَحْبَرَةً، فقال له: يا أبا عبدالله، أنت قد بلغتَ هذا المبلغ، وأنت إمامُ المسلمين! ـ يعني: ومَعك المَحْبَرَة تحملُها؟! ـ فقال: مع المَحْبَرَة، إلى المَقْبَرَة.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: سمعتُ **أبا عبدالله أحمد بن حنبل** يقول: أنا أطلب العلمَ إلىٰ أن أُدخل القبر[٣].

وقال محمد بن إسماعيل الصَّائغ: كنتُ في إحدى سَفَرَاتي ببغداد، فمرَّ بنا **أحمد بن حنبل** وهو يَعْدُو، ونَعْلاهُ في يَده، فأَخَذ أبي هكذا بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحيي؟ إلى متى تعْدُو مع هؤلاء الصِّبيان؟! قال: إلى الموت[٤].

والكثير الآن تمرُّ عليه شهور بل وسنوات لم يتعلَّم فيها حكمًا شرعيًّا، ولم يحفظ آية من كتاب الله، ولم يقرأ حديثاً من أحاديث الرَّسول ﷺ،

---

(١) الأمالي للبغدادي.
(٢) السير: (٢٠/٤٥٦).
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص (٣١).
(٤) مناقب الإمام أحمد ص (٣٢).

لكنَّه ازداد معرفةً بأمور الدُّنيا فلا يفوته منها شيء، ولا يغيب عنه أمر.

فسبحان الله العظيم!! بعضهم مضى من عمره عشر سنوات وما حفظ فيها آية من كتاب الله ولا حديثاً من أحاديث الرَّسول ﷺ!.

قال أحمد بن محمد بن ياسين: سمعتُ أحمد بن منيع (بن عبدالرحمن البغوي) يقول: سمعتُ جدِّي يقول: مرَّ أحمد بن حنبل جائيًا من الكوفة، وبيده خريطة فيها كُتُب، فأخذتُ بيده فقلتُ: مرَّةً إلى الكوفة! ومرَّةً إلى البصرة! إذا كتب الرَّجل ثلاثين ألف حديث لم يكْفِهْ؟ فسكَتَ، ثمَّ قلتُ: ستِّين ألفًا؟ فسكَتَ، فقلتُ: مائة ألفٍ؟ فقال: حينئذٍ يعرفُ شيئًا. قال أحمد بن منيع: فنظرنا فإذا أحمدُ كتب ثلاثمائة ألف[1].

رحم الله الإمام أحمد فقد أتعب من بعده. وبقياس إمام أهل السُّنَّة في زماننا هذا لا نرى أحدًا يعرف شيئًا!!

لمَّا كتب عبد الله العمري العابد إلى مالك يحضُّه على الانفراد والعمل، كتب إليه **الإمام مالك**: إنَّ الله قسَّم الأعمال كما قسَّم الأرزاق، فَرُبَّ رجلٍ فُتح له في الصَّلاة ولم يفتح له في الصَّوم، وآخر فتح له في الصَّدقة ولم يفتح له في الصَّوم، وآخر فتح له في الجهاد. فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظنُّ ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر[2].

قال **النووي**: فهذه أحرف من أطراف ماجاء في ترجيح الاشتغال بالعلم على العبادة، وجاء عن جماعات من السَّلف ممَّن لم أذكره نحو ما

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص (٢٨).

(٢) السير: (٨/ ١١٤).

ذكرته، والحاصلُ أنَّهم متَّفقون على أنَّ الاشتغال بالعلمِ أفضلُ من الاشتغال بنوافل الصَّوم والصَّلاة والتَّسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله ـ سوى ما سبق ـ:

أنَّ نفع العلم يعمُّ صاحبه والمسلمين، والنَّوافل المذكورة مختصَّة به.

ولأنَّ العلماء ورثة الأنبياء ولا يوصفُ المتعبِّدون بذلك.

ولأنَّ العابدَ تابعٌ للعالم، مقتدٍ به، مقلِّدٌ له في عبادته وغيرها، واجبٌ عليه طاعتهُ، ولا ينعكس.

ولأنَّ العلمَ تبقى فائدتُه وأثره بعد صاحبه، والنَّوافلُ تنقطعُ بموت صاحبها

ولأنَّ العلمَ صفةٌ لله ـ تعالى ـ.

ولأنَّ العلم فرض كفاية؛ أعني العلمَ الذي كلامنا فيه، فكان أفضل من النَّافلة.

وقد قال **إمام الحرمين** ـ رحمه الله في كتابه «**الغِياثي**»:

فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث إنَّ فاعله يسدُّ مسدَّ الأمَّة ويسقط الحرج عن الأمَّة، وفرض العين قاصر عليه، وبالله التَّوفيق.

أخي الحبيب:

صحةُ الفهم وحسنُ القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أُعطي عبدٌ عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجلَّ منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبدُ طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدُهم، وطريق الضَّالين الذين فسدت فهومهم، ويصيرُ من المنعم عليهم الذين حسُنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصِّراط المستقيم الذين أمرنا أنْ نسأل الله أنْ يهدينا صراطهم في كلِّ صلاةٍ، وصحة الفهم

نورٌ يقذفه الله في قلب العبد، يميِّزُ به بين الصَّحيح والفاسد، والحقِّ والباطل، والهدى والضَّلال، والغي والرَّشاد، ويمدُّه حسنُ القصد، وتحرِّي الحقِّ، وتقوى الرَّب في السرِّ والعلانية، ويقطعُ مادَّة اتباع الهوى، وإيثارُ الدُّنيا، وطلبُ محمدة الخلق، وتركُ التَّقوى[١].

وبعدُ، هذه التَّوجيهات والتَّوصيات لطالب العلم، وأن يبدأ بالمهمِّ فالأهم، هناك من يضلُّ الطَّريق، وينحرف عن الجادَّة؛ فتراه يترك الأهمَّ ويبدأ بما دون ذلك.

قال **أبو حيَّان الأندلسي**: وأمَّا أنَّ صاحب تناتيف وينظر في علوم كثيرة؛ فهذا لا يمكن أن يبلغ الإمامة في شيء منها، وقد قال العقلاء: ازدحام العلوم مضلة للمفهوم، ولذلك تجد من بلغ الإمامة من المتقدِّمين في علم من العلوم لا يكاد يشتغل بغيره ولا ينسب إلى غيره[٢].

وقال **أبو عبيد القاسم بن سلام**: عجبت لمن ترك الأصول وطلب الفصول.

وقال **الحافظ النووي**: وبعد حفظ القرآن يحفظ من كلِّ فنٍّ مختصرًا، ويبدأ بالأهم، ومن أهمِّها الفقه والنَّحو، ثمَّ الحديث والأصول، ثمَّ الباقي على ما تيسَّر[٣].

ويذكر **أبو جعفر القطيعي** طرفًا من ذلك فيقول:

سألت أبا عبدالله عن الوضوء بماء النورة؟ فقال: ما أحب ذلك.

قلت: أتوضأ بماء الباقلاء؟ قال: ما أحبُّ ذلك.

---

(١) أعلام الموقعين: (١/ ٨٧).

(٢) الآداب الشرعية: (٢/ ١٢٥).

(٣) الجامع لأخلاق الرواة رقم (١٦١٢).

قلت: أتوضأ بماء الورد؟ قال: ما أحب ذلك.

قال: فقمت، فتعلَّقَ في ثوبي ثمَّ قال: إيش تقول إذا دخلتَ المسجد؟ فسكتُّ، قال: وإيش تقول: إذا خرجتَ من المسجد؟ فسكتُّ، قال: اذهب فتعلَّم هذا[١].

وقال المروزي: قال أبو عبد الله: سألني رجلٌ مرَّةً عن يأجوج ومأجوج؛ أمسلمون هم؟ فقلت له: أحكمت العلم حتَّى تسأل عن ذا؟![٢].

وقال أحمد بن علي الأبار: رأيت بالأهواز رجلاً حفَّ شاربه، وأظنُّه قد اشترى كتبًا وتعبأ للفتيا، فذكروا أصحاب الحديث فقال: ليسوا بشيء، وليس يسوون شيئًا، فقلت له: أنت لا تحسن تصلي. قال: أنا؟! قلت: نعم، قلت: أيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت الصلاة ورفعت يديك؟ فسكت. فقلت: وأيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا سجدتَّ؟ فسكت، فقلت: ما لك لا تكلم؟ ألم أقل إنَّك لاتحسن تصلي؟ أنت إنما قيل لك تصلي الغداة ركعتين، والظُّهر أربعًا. فالزم ذا خير لك من أنْ تذكر أصحاب الحديث، فلست بشيء ولا تحسن شيئًا[٣].

وإن كانت هذه صورًا نادرة في زمانهم فإنَّها تفشَّت واستشرت في زماننا. واستمع إلى أسئلة العوام ممن يدَّعون طلب العلم وشرف الصبر عليه.

وأمَّا الإمام ابن الجوزي صاحب التَّوجيهات والنَّصائح فإنَّه يقول: أمَّا العالم فلا أقول له: اشبع من العلم، ولا اقتصر على بعضه، بل أقول له:

---

(١) طبقات الحنابلة: (١/ ٤١).

(٢) الآداب الشرعية: (٢/ ٦٩).

(٣) الكفاية في علوم الرواية ص(٤).

قدِّم المهمَّ، فإنَّ العالم من قدَّر عمره، وعمل بمقتضاه، وإن كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العمر، غير أنَّه يبني على الأغلب، فإن وصل فقد أعدَّ لكل مرحلة زادًا، وإن مات قبل الوصول فنيَّته تسلك به.

فإذا علم العاقل أنَّ العمر قصير، وإنَّ العلم كثير، فقبيحٌ بالعاقل الطَّالب لكمال الفضائل أنْ يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه؛ ليحصل كلَّ طريق وكل رواية وكل غريب! وهذا لا يفرغ من مقصوده منه في خمسين سنة، خصوصًا إن تشاغل بالنَّسخ، ثمَّ لا يحفظ القرآن، أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث، أو بالخلاف في الفقه، ولا يعرف النَّقل الذي عليه مدار المسألة[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد كلام منثور كالدرر: لكن جماع الخير أنْ يستعين في تلقِّي العلم الموروث عن النَّبيِّ ﷺ، فإنَّه هو الذي يستحقُّ أنْ يسمَّى علمًا، وما سواه إمَّا أنْ يكون علمًا فلا يكون نافعًا، وإمَّا أن لا يكون علمًا وإن سمِّي به، وإن كان علمًا نافعًا فلابدَّ أنْ يكونَ في ميراث محمد ﷺ ما يُغني عنه ممَّا هو مثله وخير منه، ولتكن همته فهم مقاصد الرَّسول ﷺ في أمره ونهيه وسائر كلامه، فإذا اطمأنَّ قلبه أنَّ هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ ولا مع النَّاس إذا أمكنه. وليجتهد أنْ يعتصم في كلِّ باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النَّبيِّ ﷺ[2].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) صيد الخاطر ص (١٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٦٤).

هذه صورٌ مشرقة تتلألأ في جبين العلم وطلبته من خيار الأمة وأعلامها.

قال **سفيان بن عيينة**: قرأت القرآن وأنا ابن أربع سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن سبع سنين.

وحفظ **أحمد بن حنبل** القرآن في صباه، وتعلَّم القراءة والكتابة، ثمَّ اتَّجه إلى الدِّيوان يمرُّ على التَّحرير ويقول في نفسه: كنت وأنا غُليم أختلف إلى الكتَّاب ثمَّ أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة. وكانت نشأته فيها آثار النُّبوغ والرُّشد حتَّى قال بعض الأدباء: وأنا أنفق على ولدي، وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدَّبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم، انظروا كيف؟ وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقه.

قال **الشافعي**: كنت أُقْرِيءُ النَّاس وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، وحفظت الموطأ قبل أن أحتلم[١].

ومع الأسف أنَّ صغارنا في هذه السِّنِّ بعضهم لا يُحسن حتىٰ الوضوء، ولا يعرف الصَّلاة مع الجماعة، ولا يحفظ حديثاً من أحاديث الرَّسول ﷺ، فالله المستعان. أخذتهم الملهيات، وتركهم الأهل في يد كلِّ ناعقٍ وساقطٍ!! فتأمل شباب الأمة أين هم؟!

قال مجاشع بن يوسف: كنت بالمدينة عند مالك وهو يفتي النَّاس، فدخل عليه **محمد بن الحسن** صاحب أبي حنيفة وهو حَدَثٌ، وذلك قبل أن يرحل إليه لسماع الموطأ منه.

قال محمد: ماتقول في جُنبٍ لا يجد الماء إلا في المسجد؟ فقال

---

(١) السير: (١٠/ ٥٤).

مالك: لا يدخل الجنب المسجد، قال محمد: فكيف يصنع وقد حضرت الصَّلاة وهو يرى الماء: قال؟ فجعل مالك يكرِّر: لا يدخل الجنب المسجد، فلمَّا أكثر عليه قال له مالك: فما تقول أنت في هذا؟ قال: يتَيَمَّمُ ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ويخرج ويغتسل. قال: من أين أنت؟ قال: من أهل هذه ـ وجعل يشير إلى الأرض ـ ثمَّ نهض، قالوا: هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فقال مالك: محمد ابن الحسن كيف يكذب وقد ذكر أنَّه من أهل المدينة؟ قالوا: إنَّما قال: من أهل هذه وأشار إلى الأرض، قال: هذا أشدُّ علي من ذاك.

ويتحدث **ابن الجوزي** عن نفسه فيقول: إنَّ أكثر الإنعام عليَّ لم يكن بكسبي، وإنَّما هو من تدبير اللَّطيف بي، فإنِّي أذكر نفسي ولي همَّة عالية، وأنا في المكتب، ولي نحو من ستِّ سنين، وأنا قرين الصِّبيان الكبار، قد رزقتُ عقلاً وافرًا في الصِّغر يزيد على عقل الشُّيوخ، فما أذكر أنِّي لعبت في طريق مع صبيٍّ قط، ولا ضحكت ضحكًا جارحًا، حتَّى أنِّي كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع، ولا أتخير حلقة مشعبذٍ، بل أطلب المحدث، فيتحدث بالسَّند الطَّويل، فأحفظ جميع ما أسمع، وأرجع إلى البيت، فأكتبه(١).

وكان الأوائل يحرصون أنْ يكونَ لأبنائهم مربون ومؤدبون، ويوصونهم بالحرص والاهتمام بفلذات أكبادهم، فقد أوصى عتبة بن أبي سفيان مؤدب ولده بقوله: علِّمْه كتاب الله، وَرَوِّه من الحديث أشرفه ومن الشِّعر أعفه.

---

(١) لفتة الكبد في نصيحة الولد ص (٤٩).

وهاك ـ **أيها الحبيب** ـ قصة الإمام **أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم** ورحلته في طلب العلم على صغر سنِّه وحاجته، ودور المُعلِّم في حثِّ الطَّالب وتشجيعه على طلب العلم وإعانته على تخطي العوائق والظُّروف. ولك أنْ تنظر كم من الأجر العظيم لهذا المعلِّم ـ وهو أبو حنيفة ـ عندما أخرج عالمًا مثل أبي يوسف.

قال علي بن ديجور: أخبرني **أبو يوسف** قال: تُوفِّي أبي؛ إبراهيم بن حبيب وخلَّفني صغيرًا في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصَّار أخدمه، فكنت أدَعُ القصَّار وأمرُّ على حلقة أبي حنيفة فأجلسُ فيها، فكانت أمِّي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصَّار، ثمَّ كنت أخالفُها في ذلك وأذهبُ إلى أبي حنيفة لأستمع درسه، فلمَّا طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي فَدَعْه يكسب دانقًا كل يوم يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: يا امرأة! إنِّي أرى في ابنك عقلاً فدعيه يطلب العلم، وما يدريك أن يأتي عليه يومٌ يأكل الفالوذج بدهن الفُستق ـ وهذه أكلة لا يأكلها إلا الخلفاء في ذلك الزَّمان لندرتها وغلاء ثمنها ـ.

قال **أبو يوسف**: فجعلتُ أتعاهد مجلس أبي حنيفة، وفي أوَّل يوم أتيتُه جلس معي حتَّى انصرف النَّاس فدفع لي صرَّةً فإذا فيها مائة درهم وقال لي: الزم الحلقة وإذا نفدت هذه فأعلمني، فلزمتُ مجلسه، فلمَّا مضت مدَّة يسيرة دفع إليَّ مائة أخرى، ثمَّ كان يتعاهدني فما ترك لي خلةً، فنفعني الله بعلمه حتَّى تقلدَّتُ القضاء زمن الخليفة الأموي، ثم في زمن هارون صار لقبي قاضي القضاة؛ لأني كنت أرسل القضاة إلى الأقليم، وكنتُ أجالس الرشيد، فبينا أنا ذات يوم عنده إذ أُتي بطعام فقال لي: كُل

من هذا يا أبا يوسف فإنه لا يصنع لنا في كل وقت. قلتُ: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الفالوذج بدهن الفستق..!! فتبسمتُ: فقال الرشيد: ما لك تبتسم؟ فقلتُ: لا شيء، أبقى الله أمير المؤمنين، وألح عليَّ وقال: لتخبرني. فقصصتُ عليه القصَّة فقال: إنَّ العلم ليرفعُ وينفع في الدنيا والآخرة، ثمَّ قال: رحم الله أبا حنيفة؛ فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه.

وهذا مثل آخر يبرز حرص الآباء على تعلُّم أبنائهم، رغم بعدهم عنهم وعلمهم بمشقة السَّفر ومخاطر الطَّريق وبعد المفازة، ولكنَّهم آثروا فقد أكبادهم في سبيل طلبهم للعلم ونفع أنفسهم ومن ثمَّ الإسلام والمسلمين.

قال **علي بن عاصم الواسطي**: دفع إليَّ أبي مائة ألف درهم، وقال لي: اذهب وسافر لطلب العلم، ولا أرى وجهك إلا ومعك مائة ألف حديث، فسافر وارتحل وطلب العلم، ثمَّ رجع لنشره حتَّى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثين ألفًا[1].

وقال**المعتمر بن سليمان**: كتب إليَّ أبي. وأنا بالكوفة: اشتر الصُّحف، واكتب العلم؛ فإنَّ المال يفنى، والعلم يبقى[2].

هذه صور مشرقة من حرصهم على أبنائهم ومتابعتهم وحثِّهم على طلب العلم؛ فإنَّه لا يُثني عن طلب العلم ولا يحقره إلا جاهل لا يعلم خير دينه ودنياه. كما قال الإمام **أحمد** ـ رحمه الله ـ: لا يُثبط عن طلب العلم إلا جاهل.

---

(١) تذكرة الحفاظ: (١/ ٣١٧).

(٢) روضة العقلاء ص (٣٩).

وقال **ابن الجوزي** موصيًا ابنه وحاضًا له على الاشتغال بالعلم: واعلم أنَّ العلم يرفع الأرذال، فقد كان خلق كثير من العلماء لا نسب لهم يذكر ولا صورة تستحسن.

كان **عطاء بن أبي رباح** أسود اللون، مستوحش الخلْقة، وجاء إليه سليمان بن عبدالملك وهو خليفة ومعه ولداه؛ فجلسوا يسألونه عن المناسك، فحدثهم وهو معرض عنهم بوجهه، فقال الخليفة لولديه: قُومَا ولا تَنِيَا ولا تكسلا في طلب العلم فما أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود.

وكان الحسن مولى، وابن سيرين ومكحول وخلق كثير، وإنَّما شرفوا بالعلم والتَّقوى(١).

وقال أحمد بن النَّصر الهلالي: سمعت أبي يقول: كنت في مجلس **سفيان بن عيينة** فنظر إلى صبي دخل المسجد، فكان أهل المجلس تهاونوا به لصغر سنِّه، فقال سفيان: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٩٤] ثمَّ قال: يا نضر! لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدِّينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفأر، اختلفت إلى علماء الأمصار مثل الزهري وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، ومقلتي كالموز، وقلمي كاللوز، فإذا دخلت المجلس قالوا: أوسعوا للشَّيخ الصَّغير. قال: ثمَّ تبسَّم ابن عيينة وضحك. قال أحمد فتبسَّم أبي وضحك(٢).

---

(١) لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي ص (٤٦).
(٢) الكفاية في علم الرواية ص (١١٢)، السير: (٨/ ٤٠٤).

ورغم هذا العلم الوافر إلا أن العلم بحر لا ساحل له ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦] فكانوا يحتارون في المسائل. ويخشون الفتيا بدون علم، ويتدافعون الأمر.

عن عبدالرحمن بن مهدي قال: كنَّا عند **مالك بن أنس** فجاء رجل فقال: يا أبا عبدالله! جئتك من مسيرة ستَّة أشهر، حمَّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها قال: قل، فسأله الرَّجل عن المسألة، فقال: لا أحسنها، قال: فبهت الرَّجل كأنَّه قد جاء إلى من يعلم كلَّ شيء، فقال: أيُّ شيءٍ أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم؟ قال: تقول لهم: قال مالك: لا أحسن[1].

أخي الحبيب:

هذه وصيَّة **ابن الوردي** لابنه في لاميته المشهورة، والتي هي وصيَّة لكلِّ ابن وطالب علم على مرِّ الأيَّام وتعاقب السِّنين.

أي بُنَـــي! اسمـــع وصـــايـــا جَمعـــت
حِكمـــاً خُصَّـــتْ بهـــا خَيـــر الملَـــلْ
اطلـــب العِلـــمَ ولا تكسَـــلْ فمـــا
أَبْعَـــدَ الـخَيْـــرَ علـــى أهْـــلِ الكَسَـــلْ
احتفـــل للفقـــهِ فـــي الـــديـــن ولا
تَشتغِـــل عنـــهُ بمـــالٍ وخَـــوَلْ
واهجـــر النـــومَ وحَصِّلْـــهُ فمـــن
يَعـــرفِ المطلـــوبَ يَحقـــر مـــا بَـــذلْ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ٥٣).

لا تَقُـــل قـــد ذهبـــتْ أربـــابُـــه
كُـــلُّ مـــن ســـار علـــى الـــدرب وَصَـــلْ

وقديماً قال **الحكماء**: من أسهر نفسه باللَّيل فقد فرَّح قلبه بالنَّهار.
وإنَّه لفرح لا يعدله فرح بنشر علمه والسَّير على خطىٰ الأنبياء والصَّالحين في تبليغ الرِّسالة وتأدية الأمانة إليهم ـ أي العلماء ـ يرجع الأمر، وتصدر الأمة عن رأيهم وقولهم. وما ذاك إلا لأنَّهم حفظوا ميراث النُّبوَّة، وأعظِم به من ميراث.

ومن الأمثلة الحيَّة للنُّبوغ المبكِّر والاشتغال بالعلم منذ الصِّغر: الصَّحابي الجليل معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل**».

والذي قال عنه عمر بن **الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: لو استخلفتُ معاذ بن جبل فسألني عنه ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ: ما حملك على ذلك؟ لقلتُ: سمعت نبيك ﷺ يقول: «**إنَّ العلماء إذا حضروا ربَّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ كان بين أيديهم برتوة بحجر**». والذي شبَّهه **عبد الله بن مسعود** بإبراهيم الخليل ـ عليه السَّلام ـ في تعليمه الخير للنَّاس، وفي طاعته وإنابته لربِّه، فقال ابن مسعود: إنَّ معاذًا كان أمةً قانتًا لله حنيفًا.

ومات معاذ هذا، مات وعمره ثنتان وثلاثون سنة.

والإمام النووي صاحب التَّصانيف العديدة والمؤلفات المفيدة في الفقه والحديث والسُّلوك واللُّغة تُوُفِّي وعمره خمس وأربعون سنة.

ورغم أعمارهم القصيرة إلا أنَّ الله نفع بعلمهم الأمَّة، ولا يزال يطرق آذاننا كلَّ يوم: قال ابن مسعود، وقال النووي ـ رحمهم الله جميعًا ـ.

وحدَّث **الإمام الشَّافعي** عن نفسه فقال: كنت يتيمًا في حجر أمِّي،

فدفعتني إلى الكتَّاب ولم يكن عندها ما تعطيه للمعلِّم، فكان المعلِّم يرضى منِّي أنْ أخلفه إذا قام، فلمَّا ختمت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع المسألة أو الحديث فأحفظها، ولم يكن عند أمِّي مالٌ تعطينيه لأشتري به ورقًا وقراطيس أكتب فيها، فكنت أتتبع العظام والخزف وأكتاف الجمال وسعف النَّخل، فأكتب فيها الحديث، فإذا امتلأ طرحته في جرَّة كانت لنا في البيت، ثمَّ إنَّ الجرار التي في البيت قد كثُرت، فقالت لي أمِّي: إنَّ هذه الجرار قد ضيَّقت علينا البيت، فأقبلت على هذه الجرار أحفظ ما فيها ثمَّ ألقيها، ثمَّ بعد ذلك يسَّر الله لي السَّفر إلى اليمن[١].

وكان سبب تبكير سفيان لطلب العلم والاشتغال به تشجيع أمِّه له، وحضها له عليه، وتوجيهها له أن يستفيد ممَّا يعلم ومن مجالسة العلماء، وينبغي أنْ يؤثر العلم في سلوكه وأدبه ومعاملته للنَّاس وإلا فما فائدة العلم؟

فقد قالت لسفيان وهي تدفع به إلى حلقات العلم ومجالسة المشايخ: يا بُني! خُذ، هذه عشرة دراهم، وتعلَّم عشرة أحاديث، فإذا وجدتها تغيِّر في جلستك ومشيتك وكلامك مع النَّاس فأقبل عليه، وأنا أعينك بمغزلي هذا وإلا فاتركه، فإنِّي أخشى أنْ يكون وبالاً عليك يوم القيامة[٢].

وهذا **الإمام البخاري** صاحب الصحيح جمع الله له قلبًا واعيًا وذهنًا حافظًا، فاجتمع له أطراف العلم وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره،

---

(١) جامع بيان فضل العلم وأهله: (١/ ٩٨).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١٨٩).

فقد حدَّث في بداية طلبه أنَّ العلاَّمة الداخلي، الذي كان من كبار المحدِّثين في بخارى في ذلك العصر، وكانت له حلقة رائعة مشهورة، كان يُدرِّس ذات مرَّة حسب عادته، وكان البخاري يسمع، فقال الداخلي في إسناد حديث: «سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم».

فقال البخاري: إنَّ أبا الزُّبير لم يرو عن إبراهيم، وكان يريد أن ينبِّه على خطئه في هذا السَّند، ولكن الدَّاخلي دهش لمَّا سمع هذا الصَّوت وانتهره، فاعتذر له البخاري وقال له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك.

فدخل الداخلي وراجع الأصل، فاعترف بصحة قول البخاري، وانتبه لخطئه إلا أنَّه أجَّل تصحيح السند، وترك من باب الإنصاف أو بإرادة الاختبار تصحيحه إلى الإمام البخاري، فلمَّا خرج قال له: كيف هو يا غلام؟

فأجاب البخاري مرتجلاً: هو هكذا:

الزبير (وهو ابن عدي) عن إبراهيم.

فأخذ القلم وأصلح كتابه، وقال: صدقت.

قال: فقال له إنسان: ابن كم حين رددت عليه؟

فقال: ابن إحدى عشرة سنة[1].

وقد حفظ ـ رحمه الله ـ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين[2].

ومما يقرح الكبد ويدمي العين أن نرى شباب الأمة في مثل هذه السن

---

(١) مقدمة الفتح ص (٤٧٨)، مقدمة القسطلاني: (١/ ٢٧).

(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥٠).

لا يطلبون علمًا ولا يحسنون أدبًا. نعم أحد عشر عامًا كان عمر الإمام البخاري حين صحح إسناد حديث الرسول ﷺ. فأين أبناء المسلمين؟!

روى الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في مناقب **الإمام الشَّافعي** ـ رحمه الله ـ قوله: ومن ذلك أنَّه تصدَّر في عصر الأئمة المبرزين للإفتاء والتدريس والتصنيف، وقد أمره بذلك شيخه أبو خالد مسلم بن خالد الزِّنجي، إمام أهل مكة ومفتيها ـ وقتذاك ـ وقال له: أَفْتِ يا أبا عبد الله؛ فقد والله آن لك أنْ تفتي، وكان الشافعي إذ ذاك له خمس عشرة سنة(١).

ولابد لطالب العلم أنْ لا يفرق بين شيخ مشهور وآخر خامل غير معروف، بل يأخذ من الجميع.

قال **الغزالي**: فالاستنكاف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين هو عين الحماقة، فإن العلم سبب النجاة والسعادة، ومن يطلب مهربًا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ومن الحكمة: أن لا يفوِّت طالب العلم الخير حيث وجده.

ومن أدبه مع أستاذه: الصمت الكثير، والاستماع الشديد، والتسليم، والصبر، وعدم تكرار شيء فهمه عنده، وعدم الإكثار من الأسئلة التي قد فهم جوابها، فقد قال **الحسن بن علي** ـ رضي الله عنهما ـ لابنه مؤدبًا إياه: يا بني! إذا جالست العلماء فكن على أنْ تسمع أحرص منك على أن

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي: (١/ ٥٠).

تقول، وتعلَّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتَّى يُمسك[١].

قال **مالك**: قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: تعالَ فالبس ثياب العلم، فألبستني مسمرة، ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها، ثمَّ قالت: اذهب فاكتب الآن.

وكانت تقول: اذهب إلى ربيعة فتعلَّم من أدبه قبل علمه.

* * *

(١) الإحياء: (١/ ٥٠).

الهمم العالية

يقول ابن الجوزي متحدثًا عن الأئمة أصحاب العزائم والهمم:

كانت همم القدماء من العلماء علية، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم. إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت، لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطولات.

ثمَّ اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تنسخ. فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة؛ فإنَّه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة.

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتديء، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد[1].

رحم الله ابن الجوزي وهو يعتب على أهل زمانه، فكيف به لو رأى أهل زماننا، وقد تيسرت لهم أبواب العلم ولكنَّهم عزفوا عنها؟! هي بين أيديهم وتحت متناولهم، ولكن أصحاب الهمم قلائل، وأهل العزائم نوادر.

هاك ـ أيُّها الحبيب ـ نبذًا عن صبرهم، وكيف كانوا يطلبوَن العلم؟ وماذا يجدون من صعوبات في سبيل الحصول عليه؟ لترى الفرق والبون بين أهل ذاك الزمان وبين ما نحن فيه مع الأسف الشديد!!

أراد عبدالله بن القاسم العتكي المصري السَّفر من القاهرة إلى المدينة لطلب العلم عند الإمام مالك، وكانت زوجة عبد الله آنذاك حاملاً، فقال

---

(١) صيد الخاطر ص (٥٧١).

لها: إنِّي قد عزمت على الرِّحلة في طلب العلم، وما أراني عائدًا إلى مصر إلا بعد مدَّة طويلة، فإنْ شئتِ أنْ أطلِّقَكِ طلَّقتك فتنكحين مَنْ شئتِ، وإن أردت أن أبقيك في عصمتي فعلتُ ولكن لا أدري متى سأرجع إليك، فاختارت البقاء زوجة له، ورحل ابن القاسم إلى مالك، وبقي عنده سبع عشرة سنة ملازمًا لمالك لا يبيع ولا يشتري، بل همته مصروفة إلى طلب العلم، وفي هذه المدَّة ولدت زوجته غلامًا وكبر، ولم يكن يعلم ابن القاسم بولادة ولده؛ لأنَّ أخباره قد انقعطت عن زوجته منذ رحيله.

قال ابن القاسم: فبينا أنا ذات يوم عند مالك في مجلسه، إذ أقبل علينا حاج مصري شاب ملثم فسلَّم على مالك ثمَّ قال. أفيكم ابن القاسم؟ فأشاروا إليَّ، فأقبل عليَّ يعتنقني ويقبِّل ما بين عينيَّ، ووجدتُ منه رائحة الولد، فإذا هو ابني الذي تركت زوجتي حاملاً به وقد شبَّ وكبر.

والجد والتَّعب ليس في تحصيل العلم وتقييده فحسب، بل إنَّ من أنار الله له طريق العلم فعليه واجب نشره والجلوس لطلبة العلم والمتعلمين والعامَّة.

إنَّها زكاة العلم وواجب تعليمه، رحم الله وكيع بن الجرَّاح فقد كان يومه كلُّه في طاعة؛ كان يصوم الدَّهر، وكان يبكر فيجلس لأصحاب الحديث إلى ارتفاع النهار ثمَّ ينصرف فيقيل إلى وقت صلاة الظُّهر، ثمَّ يخرج فيصلِّي الظُّهر ويقصد طريق المشرعة التي كان يصعد منها أصحاب الرَّوايا فيريحون نواضحهم، فيعلِّمهم من القرآن ما يؤدُّون به الفرض إلى حدود العصر، ثمَّ يرجع إلى مسجده، فيصلِّي العصر، ثمَّ يجلس فيدرِّس

القرآن ويذكر الله إلى آخر النَّهار، ثمَّ يدخل إلى منزله فيُقدَّم إليه إفطاره[١].

وكان الإمام الطَّبري لا يعدمُ في الصَّيف الحيْس[٢]، والرَّيحان واللَّيْنَوْفَر[٣]، فإذا أكل نام في الخَيْش[٤] في قميصٍ قصير الأكمام مصبوغٍ بالصَّندلِ وماءِ الورد.

ثمَّ يقوم فيصلِّي الظُّهر في بيته، ويكتبُ في تصنيفه إلى العصر، ثمَّ يخرج فيصلِّي العصر، ويجلسُ للنَّاس يُقرأ عليه إلى المغرب، ثمَّ يجلسُ للفقه والدَّرس بين يديه إلى العشاءِ الآخرة، ثمَّ يدخلُ منزله. وقد قَسَّم ليله ونهاره في مصلحةِ نفسه، ودينه، والخلْق، كما وفقه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

لقد أمسكوا الصَّبر بزمامه، والعزم بخطامه، يحدوهم أمل عظيم ورجاء واسع وفضل من الله كبير.

سمع الخطيب البغدادي على إسماعيل بن أحمد الحيري بمكة صحيح البخاري في ثلاثة مجالس: اثنان منها في ليلتين؛ كان يبتديء بالقراءة وقت المغرب ويختم عند صلاة الفجر، والثَّالث من ضحوة النَّهار إلى طلوع الفجر. قال الذهبي: وهذا شيء لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه. ولعلَّ من أسباب تيسير ذلك بركة الزَّمان في ذلك الوقت[٥].

ولا ريب أنَّ ذلك من توفيق الله لهم وإعانته مع صبرهم وجلدهم، فقد

---

(١) تاريخ بغداد: (١٣/ ٥٠١).

(٢) الحيس: هو التمر يُخلط بالسمن والأقط ويُعجنُ شديدًا، وربما جُعل فيه السَّويق.

(٣) الليْنوفر: ضربٌ من الرياحين ينبتُ في المياه الراكدة.

(٤) الخيش: ثيابٌ في نسجها رقَّة، وخيوطها غلاظ، تُتخذُ من مُشاقة الكتَّان، تُلبس في الحر عند النوم.

(٥) قواعد التحديث للقاسمي ص (٢٦٢).

كانوا أصحاب همم وعزائم، يقول **ابن الجوزي**: كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نَفَسي من العَدْو لئلا أسبق[(١)].

إذا هبَّـــت ريـــاحـــك فـــاغتنمهـــا
فـــإن لكـــل عـــاصفـــة سكـــونـــا

أمَّا ثني الرَّكب عند العلماء والصَّبر على طلب العلم الذي نسمع به ولا نراه فلعلَّنا نعرض لبعض من حياة علماء الأمة وصبرهم على طلب العلم والحرص عليه.

قال **جرير بن حازم**: جلست إلى الحسن سبع سنين لم أُخرم منها يومًا واحدًا[(٢)].

نعم سبع سنين متواصلة لم يخرم منها يومًا واحدًا. إنَّها حياة، ومراجعة وحفظ ومذاكرة، يُزيِّنها الوقار، ويجملها الصَّبر على شظف العيش وعلى التَّكرار والمراجعة والبحث والتَّنقيب بين السُّطور وفي بطون الكتب.

ومن أمثلة قراءة الاستعراض ما حدث **للإمام الشافعي** ـ رحمه الله ـ لمَّا سُئل عن دليل مسألة الإجماع؛ فاستعرض القرآن ثلاث مرَّات في كلِّ ليلة حتَّى اهتدى إلى الموضع.

وهو قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥].

---

(١) لفتة الكبد في نصيحة الولد ص (٣).
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/١٩٩).

وقال الزهريُّ وكأنَّه يتحدَّث عن حالهم ويرى صنيعهم: منهومان لا يشبعان: طالبُ علمٍ، وطالبُ الدُّنيا.

فطالب الدُّنيا ثار غباره وعلمنا خبره عيانًا.

أمَّا طالب العلم فهو في بطون الكتب سيرة وذكرى، ولعلَّ الله يحفظ البقيَّة الباقية من علمائنا وطلبة العلم في زماننا.

قرأ **ابن حجر** - رحمه الله - السُّنن لابن ماجة في أربعة مجالس، وقرأ صحيح مسلم في أربعة مجالس سوى مجلس الختم، وذلك في نحو يومين وشيء؛ فإنَّه كان الجلوس من بكرة النَّهار إلى الظُّهر، وقرأ كتاب النِّسائي الكبير في عشرة مجالس، كل مجلس منها أربع ساعات، وأسرع شيء وقع له أنَّه قرأ معجم الطَّبراني الصَّغير في مجلس واحد بين صلاتي الظُّهر والعصر؛ وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو من ألف وخمسمائة حديث، وحدَّث بالبخاري في عشرة مجالس، كلُّ مجلس منها أربع ساعات[١].

يا طالب العلم:

إنَّ للقلوب شهوةً وإدبارًا؛ فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودَعُوها عند فترتها وإدبارها[٢].

ولأصحاب الهمم العالية والعزائم الصَّادقة وقفات جادَّة في طلب العلم والسَّعي له.

قال **أبو الدرداء** - رضي الله عنه -: لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ص (١٠٤).

(٢) الفوائد ص (١٩٣).

أحدًا يفتحها عليَّ إلا رجلاً ببرك الغماد[١] لرحلت إليه[٢].

وجاء في ترجمة الشيخ **سليمان بن عبدالله آل الشيخ** أنَّه كان يقول: أنا برجال الحديث أعرف مني برجال الدرعية[٣].

أما جهودهم ومصنفاتهم فهي ما يعجز عنه المقصرون ويتأخر عنه المتأخرون. فما أبرك ساعات الطلب عندهم وما أوسعها عند زكاتها! إنَّها أوقات عمروها طلبًا ثمَّ تبليغًا له.

أين نحن من هؤلاء؟!

حَسَبتْ تلامذة **أبي جعفر محمد بن جرير** منذ احتلم إلى أن مات فقسَّموا على المدَّة مصنفاته فصار لكلِّ يوم أربع عشرة ورقة[٤].

وما تعلَّموا من عمل إلا سعوا إلى تطبيقه والعمل به، فقد كان **الشَّيخ أبو عمر المقدسي** لا يكاد يسمع دعاء إلا حفظه ودعا به، ولا يسمع ذكر صلاة إلا صلاها، ولا يسمع حديثًا إلا عمل به، ومات وهو عاقد على أصابعه ليسبِّح[٥].

وهذا **ابن جرير** ينشط لكتابة التَّاريخ ويقول لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم؟ قالوا: كم يجيء؟ فذكر نحوًا من ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا ممَّا يفني الأعمار قبل تمامه. قال: إنَّا لله، ماتت الهمم[٦].

---

(١) برك الغماد: اسم لمكان بينه وبين مكة مسيرة خمس ليالٍ.
(٢) السير: (٢/ ٣٤٢).
(٣) الدرر السنة: (١٢/ ٤٨).
(٤) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٧١١).
(٥) شذرات الذهب: (٥/ ٢٨).
(٦) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٧١٢).

وقال ابن الجوزي محدثًا عن نفسه: كتبت بأصبعي ألفي مجلد، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفًا[١].

يا طالب العلم:

ومَــــنْ لـــم يـــذق مُـــرَّ التَّعلـــم ســـاعـــة
تجـــرع ذل الجهـــل طـــول حيـــاتـــه
ومـــن فـــاتـــه التعليـــم وقـــت شبـــابـــه
فكبِّـــر عليـــه أربعًـــا لـــوفـــاتـــه

وألق سمعك إلى مقالة تحكي واقعنا، وقد قلَّ العلماء وندر طلبة العلم، واتجهت الأمَّة إلى العلوم العصريَّة، وتركوا التَّفقُّه في الدِّين وما يجب معرفته من الدِّين بالضَّرورة.

فأمَّا علم طريق الآخرة وما درج عليه السَّلف الصَّالح ممَّا سمَّاه الله ـ سبحانه ـ في كتابه: فقهًا وحكمةً وعلمًا وضياءً ونورًا وهدايةً ورشدًا، فقد أصبح من بين الخلق مطويًا وصار نسيًا منسيًا[٢].

قال ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: ومن العلوم علوم لو علمها كثير من النَّاس لضرَّهم ذلك، ونعوذ بالله من علم لا ينفع، وليس إطلاع كثير من النَّاس بل أكثرهم على حكمة الله في كلِّ شيء نافعًا لهم، بل قد يكون ضارًّا قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن﴾ [المائدة: ١٠١].

أيُّها الحبيب:

أليس هذا هو واقعنا وما نراه ونشاهده؟ حتَّى أنَّك ترى جهلاً بأمور

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٤/١٣٤٤).

(٢) صيد الخاطر ص (٢٣٠) وما بعدها باختصار.

العقيدة، وخللاً في صلاة كثير من المصلِّين، وجهلاً بأصول الدِّين دون فروعه التي لا يعرفها إلا قلَّة على عدد الأصابع في كلِّ مدينة. فالله المستعان.

* * *

التخطيط لتحصيل العلوم النافعة

قال ابن الجوزي:

رأيت الشَّرِه في تحصيل الأشياء يفوِّت الشرهُ عليه مقصوده.

وقد رأينا من كان شرهًا في جمع المال فحصل له الكثير منه، وهو مع ذلك حريص على الازدياد.

ولو فهم، علم أنَّ المراد من المال إنفاقه في العمر، فإذا أنفق العمر في تحصيله فات المقصودان جميعًا.

وكم رأينا مَنْ جمع المال ولم يتمتَّع به فأبقاه لغيره وأفنى نفسه.

قدِّم المهم؛ فإنَّ العاقل من قدر عمره وعمل بمقتضاه، وإن كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العمر، غير أنَّه يبني على الأغلب.

فإن وصل فقد أعد لكلِّ مرحلة زادًا، وإن مات قبل الوصول فنيته تسلك به.

فإذا علم العاقل أنَّ العمر قصير، وإنَّ العلم كثير، فقبيحٌ بالعاقل الطَّالب لكمال الفضائل أنْ يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ليحصل كلَّ طريق، وكل رواية، وكلَّ غريب.

ومن أريد وفق. وإن لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أقوامًا يتولَّى تربيتهم ويبعث إليهم في زمن الطفولية مؤدبًا، ويسمَّى العقل. ومقومًا، ويقال له: الفهم، ويتولَّى تأديبهم وتثقيفهم، ويهيىء لهم أسباب القرب منه.

فإن لاح قاطع قطعهم عنه حماهم منه، وإن تعرضت بهم فتنة دفعها عنهم.

فنسأل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعلنا منهم، ونعوذ به من خذلان لا ينفع معه اجتهاد.

الرحلة في طلب العلم

العلم مواطن يُرتحل إليها ويُبذل للوصول إليها الغالي والنفيس؛ فكم من المشاق واجهت طلبة العلم، وكم من الصعوبات اعترضت طريقهم.

هذا **الإمام الحاكم** يصف الرَّحالين لطلب العلم فيقول: آثروا قطع المفاوز والقفار على التَّنعيم في الدمن والأوطان، وتنعَّموا بالبؤس في الأسفار مع مساكنة أهل العلم والأخبار، جعلوا المساجد بيوتهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسمرهم المعارضة، واسترواحهم المذاكرة، وخلوقَهُم المداد، ونومهم السهاد، وتوسدهم الحصى. فالشدائدُ مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجودُ الرَّخاء مع فقدِ ما طلبوه عندهم بُؤس! فعقولهم بلذاذة السُّنَّة غامرة، وقلوبهم بالرضا في الأحوال عامرة، تعلُّم السنن سرورهم، ومجالسُ العلم حبورهم، وأهلُ السنة قاطبة إخوانهم، وأهلُ الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم[(١)].

وقد بين ﷺ فضل الخروج في طلب العلم فقال: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتَّى يرجع**»[(٢)].

ولهذا كانت رحلتهم في طلب العلم عبادة يحتسبون فيها الأجر والمثوبة.

عن **كثير بن قيس** قال: كنت جالسًا عند أبي الدَّرداء في مسجد دمشق. فأتاه رجل، فقال: يا أبا الدَّرداء! أتيتُك من مدينة رسول الله ﷺ لحديث

---

(١) معرفة علوم الحديث ص (٢).

(٢) رواه الترمذي، وقال: الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٠٣٧) ضعيف الإسناد.

بلغني أنَّك تحدِّث به، عن النبي ﷺ، قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا، ولا جاء بك غيره؟ قال: لا، قال: فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهَّل الله له طريقًا إلىٰ الجنَّة**»[1].

ورحل عقبة بن الحارث من مكة إلى المدينة ليسأل الرَّسول ﷺ عن مسألة واحدة.

فعن أبي مليكة عن عقبة بن الحارث أنَّه تزوَّج ابنة لأبي إهاب بن عزيز، فأتته امرأة فقالت: إنِّي قد أرضعت عُقبة والتي تزوَّج، فقال لها عقبة: ما أعلمُ أنَّك أرضعتني ولا أخبرتني، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فسأله، فقال رسول الله ﷺ: «**كيف وقد قيل؟**» **ففارقها عقبة ونكحت زوجًا غيره**[2].

وسأل رجل من أهل خراسان الإمام عامر الشَّعبي عمَّن يعتق أمته ثمَّ يتزوَّجها، فروى الحديث الذي رواه أبو بردة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليه، ورجل كانت عنده أمة، فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثمَّ أعتقها فتزوَّجها؛ فله أجران**»[3].

ثم قال للسائل: أعطيتكها بغير شيء، قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة.

وعن **بسر بن عبيد الله** قال: إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار في الحديث الواحد.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد وهو صحيح انظر صحيح الأدب للألباني بالرقم (١٥٠).

وعن **أبي العالية** قال: كنَّا نسمع الحديث عن الصَّحابة، فلا نرضى حتَّى نركب إليهم فنسمعه منهم[(١)].

ياطالب العلم:

تغـــرَّب عـــن الأوطـــان تكتســـب العـــلا
وســـافـــر ففـــي الأسفـــار خمـــس فـــوائـــد
تفـــــرج هــــم واكتســـــاب معيشــــــة
وعلــــم، وآداب، وصحبـــــة مــــاجـــــد

وها هو أحد العلماء (منصور بن عمار) يصف حال الرحلة في طلب العلم وأهلها فيقول عنهم: هم يرحلون من بلد إلى بلد، خائضين في العلم كل وادٍ، فلو رأيتهم في ليلهم وقد انتصبوا النسخ ما سمعوا، وتصحيح ما جمعوا، هاجرين الفرش الوطيء والمضجع الشهي، غشيهم النُّعاس فأنامهم، وتساقطت من أكفهم أقلامهم، فانتبهوا مذعورين، ودلكوا بأيديهم عيونهم، ثمَّ عادوا إلى الكتابة حرصًا عليها، لعلمت أنهم حراس الإسلام وخزان الملك العلام، فإذا قضوا من بعض ما راموا أوطارهم انصرفوا قاصدين ديارهم، فلزموا المساجد وعمروا المشاهد.

وقد قيل **للإمام أحمد**: أيرحل الرَّجل في طلب العلم؟ فقال: بلى والله شديدًا، لقد كان علقمة بن قيس النَّخعي والأسود بن يزيد النَّخعي وهما من أهل الكوفة، كانا إذا بلغهما الحديث عن عمر ـ رضي الله عنه ـ لم يقنعا حتَّى يرحلا إلى المدينة فيسمعا الحديث منه.

ورحلاتهم ليست يومًا أو يومين فحسب، بل سنوات طويلة وأشهر

---

(١) فتح الباري: (١/ ١٩٢).

متتابعة، مع ما فيها من مشقَّة وجهد، وجوع وعطش، وخطر الطَّريق وآفات المسير.

فقد رحل **الإمام أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن مندة** لطلب العلم وعمره عشرون سنة، ورجع إلى بلده وعمره خمسة وستُّون عامًا، وكانت مدة رحلته خسمة وأربعين عامًا، وسمع فيها العلم وتلقَّاه عن ألف وسبعمائة شيخ، فلمَّا رجع إلى بلده تزوَّج وهو ابن خمسة وستِّين عامًا، ورزق الأولاد، وحدَّث النَّاس وعلَّمهم[(١)].

وقال **ابن المقرىء** يحدِّث عن نفسه: طفت المشرق والمغرب أربع مرَّات.

وقال مشيت بسبب نسخة «المفَضَّل بن فضالة» سبعين مرحلة، ولو عُرضَت على خباز برغيف لم يقبلها»[(٢)].

وقال **عبد الله بن بريدة**: إنَّ رجلاً من أصحاب النَّبي ﷺ رحل إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقدم عليه وهو يمدُّ لناقة له، فقال: مرحبًا، قال: أما إنِّي لم آتك زائرًا، ولكن سمعت أنا وأنت حديثاً من رسول الله رجوت أنْ يكون عندك منه علم. قال: ما هو؟ قال كذا وكذا[(٣)].

وجابر بن عبدالله الصحابي الجليل يروي قصة رحلته، فيقول: بلغني حديث رسول الله ﷺ لم أسمعه، فابتعت بعيرًا فشددت عليه رحلي، وسرت شهرًا، حتَّى قدمت الشَّام، فأتيت عبدالله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فأتاه، فقال له: جابر بن عبد الله؟

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٣/ ١٠٣٢).

(٢) تذكرة الحفاظ: (٣/ ٩٧٤).

(٣) سنن الدارمي: (١/ ١٤٢).

فأتاني فقال لي، فقلت: نعم. فرجع فأخبره، فقام يطأطىء ثوبه حتى لقيني فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص لم أسمعه، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله يقول. . . فذكر الحديث[١].

أخـــي لـــن تنـــال العلـــم إلا بستـــة
ســـأنبئـــك عـــن تفصيلهـــا ببيـــان
ذكـــاءٌ وحـــرصٌ، واجتهـــادٌ وبُلْغـــةٌ
وصُحبَـــةُ أُستـــاذٍ، وطُـــول زمـــان[٢]

والإمام البخاري رحل إلى محدثي الأمصار، وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق كلها والحجاز والشَّام ومصر، وورد بغداد دفعات[٣].

وقال ـ رحمه الله ـ محدثًا عن نفسه: كتبت عن ألف شيخ من العلماء وزيادة، وليس عندي حديث إلا أذكر إسناده[٤].

وهذا **أبو حاتم الرازي** كان يرتحل في طلب أحاديث رسول الله ﷺ ماشيًا على أقدامه، وقال ـ هو يتحدَّث عن نفسه ـ: مشيت على قدمي ألف فرسخ[٥]، ثم تركت العدد[٦].

نعم يا أهل الهمم، مشى على قدمه أكثر من خمسة آلاف كيلو متر.

---

(١) تدريب الراوي: (٢/ ١٤٢).
(٢) ديوان الشافعي ص (٨١).
(٣) تاريخ بغداد: (٢/ ٤).
(٤) تاريخ بغداد: (٢/ ١٠).
(٥) الفرسخ: نحو خمسة كيلو مترات.
(٦) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٥٦٧) بتصرف.

وقد سافر من البحرين إلى مصر، ومن مصر إلى الرملة، ومن الرملة إلى طرسوس على أقدامه، وضاقت عليه النفقات مرَّة في البصرة فباع ثيابه حتَّى نفدت، وجاع يومين، فأعلم رفيقه، فساعده وخدمه[١].

والمكتبات اليوم عامرة بالكتب وعلى بعد خطوات، ولكن أين الـمُجدون وأين الـمُشمِّرون؟!

دبَّـــتُ للـمَجْـــدِ والسَّـــاعـــون قـــد بلَغُـــوا
جَهْـــدَ النفـــوسِ وألقـــوا دونـــه الأُزُرَا

وكـــابـــدوا المجـــد حتـــى مـــلَّ أكثـــرهـــم
وعـــانـــق مـــنْ أوفـــى ومـــن صبـــرا

لا تحســـب المجـــدَ تمـــرًا أنـــت آكلـــه
لـــن تبلـــغ المجـــد حتـــى تلعـــق الصبـــرا[٢]

قال أبو العلاء الهمداني: رحلت إلى بغداد لطلب العلم، فكنت أبيت الليل في المساجد وآكل خبز الذرة.

وكان يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخًا[٣] وهو حامل كتبه على ظهره لأجل طلب العلم.

ورحل عمر بن عبد الكريم الرَّواسي في طلب العلم، وسمع العلم من ثلاثة آلاف وستمائة شيخ، وفي إحدى رحلاته سقطت بعض أصابعه من شدة البرد والثلج، ولم يكن معه آنذاك ما يتدفأ به[٤].

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٢/٥٦٨) بتصرف.
(٢) الأمالي لأبي علي القالي: (١/١١٣).
(٣) ثلاثون فرسخًا: تقارب ١٥٠ كم.
(٤) تذكرة الحفاظ: (٤/١٢٣٨) بتصرف.

وقال **أبو العالية**: كنَّا نسمع الرِّواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ فما نرضى حتَّى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم[١].

وتأمَّل ما يجدون من التَّعب والنَّصب ومجاهدة الأخطار وصعوبة الأسفار.

قال **عبدالرحمن بن خراش المروزي**: شربت بولي في السَّفر لطلب علم الحديث خمس مرات[٢].

ومقصوده ـ رحمه الله ـ أنه كان يسافر الأسفار البعيدة ويقطع المسافات الطويلة لطلب العلم، فربما في بعض رحلاته نفد عليه الماء فشرب بعض بوله ليدفع عن نفسه الموت.

وقال **محمد بن أبي حاتم** أيضًا: خرجت إلى آدم بن أبي إياس، فتخلفت عنِّي نفقتي حتَّى جعلت أتناول الحشيش ولا أخبر بذلك أحدًا، فلمَّا كان اليوم الثَّالث أتاني آتٍ لم أعرفه فناولني صرَّة دنانير، وقال: أنفق على نفسك[٣].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

رحل الإمام الحافظ **محمد بن طاهر المقدسي** في طلب العلم، وكان مما قال واصفًا حاله أثناء رحلته: بلتُ الدَّم في طلبي للحديث مرَّتين: مرَّةً ببغداد ومرَّةً بمكة؛ وذلك أنِّي كنت أمشي حافيًا في سفري لطلب العلم في شدَّة الحرِّ وعلى الرَّمضاء المحرقة، فأثَّر ذلك في جسدي فبلت دمًا، وما ركبت دابَّةً قطُّ في طلب الحديث إلا مرَّةً واحدةً، وكنت دائمًا

---

(١) سنن الدارمي: (١/ ١٤٠).
(٢) ميزان الاعتدال للذهبي جـ ٢.
(٣) الطبقات الكبرى للسبكي: (٢/ ٢٢٧).

أحمل كتبي على ظهري في أثناء سفري، حتَّى استوطنت البلاد وما سألت في حال طلبي للعلم أحدًا من النَّاس مالاً، وكنت أعيش على ما يأتيني الله به من رزق من غير سؤال[١].

ورحل **مسروق بن الأجدع** من أجل حرف واحد، ورحل **أبو سعيد** في حرف واحد[٢].

وقال **سعيد بن المسيب** ـ رحمه الله ـ: كنت أرحل الأيام والليالي في طلب حديث واحد[٣].

وسافر **عامر بن شراحيل** من الكوفة إلى مكة، لأجل ثلاثة أحاديث ذُكِرتْ له فقال: أسافر إلى مكَّة لعلِّي ألقى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فأسمعها منه.

وكان **إسحاق بن منصور المروزي** من تلاميذ الإمام أحمد، وقد كتب عن الإمام أحمد مجموعة من المسائل الفقهية ثمَّ رجع إلى بلده نيسابور، ثمَّ إنَّه بلغه أنَّ الإمام أحمد قد رجع عن تلك المسائل وصار يفتي بغيرها، فوضع إسحاق صُحُفَهُ وكتبه التي فيها تلك المسائل في جراب، وحملها على ظهره، وخرج راحلاً على قدميه من نيسابور[٤] إلى بغداد، حتَّى لقي الإمام أحمد وسأله عن تلك المسائل فأقرَّ له أحمد بما أفتاه به أولاً، وأعُجب الإمام أحمد به[٥].

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٤/ ١٢٤٣).

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ١١).

(٣) البداية والنهاية: (٩/ ١١١)، تذكرة الحفاظ: (١/ ٥٦).

(٤) نيسابور: مدينة تقع في مقاطعة خرسان شمال شرق إيران حاليًا.

(٥) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٥٢٤) بتصرف.

ولمَّا خرج أحمد إلى عبدالرزاق انقطعت به النفقة، فأكْرى نفسه من بعض الجمَّالين إلى أن وافى صنعاء، وقد كان أصحابه عَرَضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحدٍ شيئًا[(١)].

وقال أحمد بن سنان الواسطيُّ: بلغني أنَّ أحمد بن حنبل رَهَن نَعلهُ عند خبَّاز على طعام أخذه منه، عند خروجه من اليمن.

وسُرِقَتْ ثيابُه وهو باليمن، فجلس في بيته وردَّ عليه البابَ وفقدهُ أصحابه، فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم، فعرضوا عليه ذهبًا فلم يقبله، ولم يأخذ منهم إلا دينارًا واحدًا، ليكتب لهم به ـ أي أخذ الدينار على أن يكون أجرةً لما يَنسخُه لهم من الكتب ـ فكتَبَ لهم بالأجر، رحمه الله تعالى[(٢)].

نعم هذه حال إمام أهل السنَّة، قدس الله روحه وأمطر عليه شآبيب رحمته.

وأمَّا ما أصابه أيَّام المحنة مع صبره وثباته فهو عجيب يطيب سماعه.

لله يعلــــم مــــا قلبـــت سيـــــرتهــــم
يـــومـــاً فـــأخطـــأ دمـــع العيـــن مجـــراه

أمَّا بقي بن مخلد فقد قام برحلتين إلى الشَّام والحجاز؛ الأولى استغرقت أربعة عشر عامًا والثَّانية استمرَّت عشرين عامًا، وكلها كانت على الأقدام ماشيًا كما صرحَّ هو بذلك حيث قال: كلُّ من رحَلتُ إليه ماشيًا على قدميَّ[(٣)].

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص (٢٢٦).
(٢) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٢٩).
(٣) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٦٣١).

وقال عبدان الجواليقي: رحلتُ إلى البصرة ثماني عشرة مرَّةً من أجل حديث أيوب السختياني، كلَّما ذُكِرَ لي حديث من أحاديثه يوجد فيها رحلت إليها لأسمعه.

وهذه الرِّحلة وهذا الصَّبر في طلب العلم لا يتمُّ إلا كما أجاب الشَّعبيُّ عندما سُئل: من أين لك هذا العلمُ كلُّه؟ قال: بنفي الاغتمام، والسَّير في البلاد، وصبر كصبر الحمام، وبُكور كبكور الغُراب[1].

وصدق والله. إنَّما يقطع السَّفر بلزوم الجادة وسير اللَّيل، فإذا حاد المسافر عن الطَّريق، ونام اللَّيل كله، فمتى يصل إلى مقصده؟![2].

الجــد بــالجــد والحـــرمـــان فــي الكســل
فــانصـــب تُصـــبْ عـــن قـــريـــب غـــايـــة الأمـــل

إليك صبر وهمة أحدهم، ولعلَّ قلبك يتحَّرك وأنت تتخيَّل المخاطر والأهوال التي يلاقيها والمصاعب التي يواجهها؛ فقد سافر الخطيب التَّبريزي من تبريز إلى مَعَرَّة النعمان، وأخذ معه كتاب تهذيب اللغة للأزهري ليقرأه على عالم مشهور في معرة النعمان، ووضع الكتاب في جراب له وحمله على ظهره، وكان ـ رحمه الله ـ فقيرًا لا مال له، فلم يقدر على استئجار دابَّة ليركبها، فقطع المسافة ماشيًا على رجليه في شدَّة الحرِّ والقيظ والرَّمضاء، حتَّى أنَّه من كثرة العرق تصبب منه في شدَّة الحرِّ في هذه الرِّحلة تسرب البلل من ظهره إلى ثيابه ومن ثيابه إلى الجراب الذي فيه الكتاب، ووصل البلل إلى الكتاب فأثَّر في الحبر وأفسد بعض

---

(١) السير: (٤/ ٣٠٠).
(٢) الفوائد صـ ١٣١.

الكلمات حتَّى أنَّ من رأى الكتاب يظنُّه قد غُمس في ماء، وما هو إلا عرق الخطيب التبريزي[١].

والسؤال نحو القارىء الحبيب: كم قطرة عرق نزلت من على جبينك طوال سنوات تحصيلك العلمي؟! بل وكم سنة تغربت في طلب حديث أو تفسير آية؟!

هذا إمام أهل السُّنَّة **الإمام أحمد** قد طَلَبَ الحديث وهوابن ست عشرة سنة، وخرج إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين ومائة، وهو أوَّل سفر له، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين، وخرج إلى سفيان بن عُيينة إلى قلَّة سنة سبع وثمانين، وهي أوَّل سنة حجَّ فيها الإمام أحمد، وخرج إلى عبد الرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين، ورافق يحيىٰ ابن معين في رحلته إليه.

ورحل **هشام بن عمَّار** إلى الإمام مالك بن أنس، وهو بالمدينة، ليسمع عنه العلم، قال: فدخلت على مالك وأخبرته خبري، وقلت له: حدثني بحديث رسول الله ﷺ فقال: لا بل اقرأ أنت عليَّ، فقلت: لا، بل حدثني، فقال: اقرأ، فلمَّا راجعته وراددته في الكلام قال لبعض خدمه: يا غلام! اذهب بهذا واضربه خمسة عشر سوطًا، قال هشام: فذهب بي وضربني ثم ردني إلى مالك، فقلت لمالك: لقد ظلمتني؛ ضربتني بغير ذنب اقترفته، ولا أجعلك في حلٍّ، فقال مالك: فما كفارة هذا الظُّلم؟ فقلت: كفارته أنْ تحدثني بخمسة عشر حديثاً، قال هشام: فحدثني بخمسة عشر حديثاً، فلمَّا فرغ قلت له: زدْ من الضرب وزد في الحديث،

---

(١) وفيات الأعيان: (٢/ ٢٣٣).

فضحك مالك وقال لي: انصرف[١].

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: أول سنة خرجتُ في طلب الحديث أقمتُ سبع سنين أحصيتُ ما مشيتُ على قدمي زيادة على ألف فرسخ[٢]، لم أزل أُحصي حتَّى لما زاد على الألف فرسخ تركته، ما كنتُ سرتُ أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرَّة، ومن مكة إلى المدينة مرَّات كثيرة، وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيًا، ومن مصر إلى الرملة ماشيًا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجع من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعتُ، ثمَّ خرجتُ من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقَّة، ومن الرقة ركبتُ الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشَّام من واسط إلى النِّيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيًا، كل هذا في سفري الأول، وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ثلاث عشرة ومائتين، قدمنا الكوفة في شهر رمضان سنة ثلاث عشرة والمقرىء حيّ بمكة وجاءنا نعيُه ونحن بالكوفة، ورجعتُ سنة إحدى وعشرين ومائتين.

وخرجتُ المرَّة الثَّانية سنة اثنتين وأربعين ورجعت سنة خمس وأربعين، أقمتُ ثلاث سنين، وقدمت طرسوس سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة[٣].

---

(١) معرفة القراء الكبار للذهبي.

(٢) ألف فرسخ: أكثر من ٥٠٠٠كيلو متر.

(٣) الجرح والتعديل: (١/ ٣٥٩).

ومع ما في رحلتهم من حفظ للعلم ونشره فإن **إبراهيم بن أدهم** يذكرنا بأمر مهم يجلب الخير ويدفع البلاء وهو عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والتقرب إليه بالأعمال الصالحة؛ ومن أهمها حفظ هذا الدين بالعلم الشرعي: إن الله يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أهل الحديث[١].

وقال **ابن الجوزي**: لقد طاف الإمام أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع كتابه المسند[٢].

وانظر إلى علو الهمة وطول الصبر فقد قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ـ: حججتُ خمس حجج، منها ثلاث حجج راجلاً (من بغداد) أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهمًا[٣].

وقال **محمد بن إسحاق الأرغياني**: ما أعلم منبرًا من منابر الإسلام بقي عليَّ لم أدخله لسماع الحديث.

وأما **محمود بن عمر الزَّمخشري** فقد سافر لطلب العلم، فلمَّا كان ببعض أسفاره في بلاد خوارزم، أصابه برد شديد وثلج كثير في الطريق، فسقطت إحدى رجليه من شدة البرد، وكان الزمخشري بعد ذلك معه محضر فيه شهادة خلق كثير، أن رجله سقطت من البرد، لئلا يظن أحد أنها قُطِعَتْ في حد من الحدود الشرعية[٤].

وقال **يحيىٰ بن معين**: خرجت إلى صنعاء أنا وأحمد بن حنبل، لنسمع الحديث عن إمام أهل اليمن عبدالرزاق بن همام الصنعاني، وفي طريقنا

---

(١) شرف أصحاب الحديث.
(٢) صيد الخاطر صـ ٢٤٦.
(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر: (١/ ٧٣).
(٤) وفيات الأعيان: (٥/ ١٦٩).

من بغداد إلى اليمن مررنا بمكة فحججنا مع الناس، فبينا أنا في الطواف إذ لقيت عبد الرزاق بن همام وهو يطوف بالبيت، وكان قد حج في ذلك العام، فسلمت عليه وأخبرته أن معي في سفري أحمد بن حنبل، فدعا لأحمد وأثنى عليه خيرًا.

قال ابن معين: فرجعت إلى أحمد وقلت له: قد قرب الله خطانا، ووفر علينا النفقة، وأراحنا من السير مسيرة شهر، وهذا عبدالرزاق هاهنا فلنسمع الحديث منه هنا بمكة، فقال أحمد: إنِّي نويت وأنا ببغداد أن أسمع من عبدالرزاق بصنعاء، ولا والله لا أغير نيتي أبدًا، فلما قضينا حجنا ارتحلنا إلى صنعاء، ثم نفذت نفقة أحمد ونحن بصنعاء، فعرض عليه عبدالرزاق مالاً فرفضه، ولم يقبل مساعدة أحد، وكان يعمل التكك ويقتات من ثمنها[1].

عن أبان بن أبي عياش قال: قال لي أبو معشر الكوفي: خرجت من الكوفة إليك ـ إلى البصرة ـ في حديث بلغني عنك، قال: فحدثته به[2]. (والمسافة بين الكوفة والبصرة أكثر من ٣٥٠ كيلو مترًا).

ورحل **بقي بن مخلد** من الأندلس إلى بغداد، على قدميه ماشيًا، وقطع القفار والحبار والجبال وكان عمره آنذاك عشرين سنة، وكان مقصوده لقاء الإمام أحمد بن حنبل وسماع الحديث منه، ولمَّا اقترب من بغداد جاءه خبر محنة الإمام أحمد في فتنة القول بخلق القرآن، وبلغه أن الإمام أحمد قد مُنعَ من التدريس وإقامة الحلقات، وأنَّه مقيم في بيته رهن

(١) المنهج الأحمد في ترجمة الإمام أحمد: (٩/ ٣٩٣).
(٢) الرحلة في طلب الحديث صـ ١٤٨.

الإقامة الجبرية، قال بقي: فاغتممت لذلك أشد الهم والاغتمام، ولكنَّه أصر على مواصلة رحلته، فلمَّا وصل بغداد وضع متاعه ثم ذهب إلى الجامع الكبير بها، ثم خرج باحثاً عن منزل أحمد، فدُلَّ عليه، فطرق الباب ففتح له أحمد، فقال له بقي: أنا رجل غريب الدار وطالب حديث، وما كانت رحلتي إلا إليك، فقال: وأين بلدك؟ قلت: المغرب الأقصى، أجوز من بلدي إلى إفريقية (أي من الأندلس) فقال: إن موضعك لبعيد، ووددت مساعدتك ولكني في حيني هذا ممتحن ومحبوس في داري، فقال بقي: يا أبا عبدالله! أنا رجل غريب لا يعرفني أحد من أهل بغداد، فإن أذنت لي أن آتيك كل يوم في زي السُّؤال، فأطرق الباب وأسأل الصدقة، فتخرج إليَّ فتحدثني ولو بحديث واحد كل يوم، فقال أحمد: نعم بشرط ألا تظهر في الحِلقِ وعند أصحاب الحديث، قال بقي: فكنت آخذ عودًا بيدي وألفُّ رأسي بخرقة، وأجعل ورقي ومحبرتي في كمي، ثمَّ آتي باب الدار فأصيح: الأجر رحمكم الله، فيخرج إليَّ أحمد، ويغلق باب الدار، ويحدثني بالحديثين والثلاثة حتى اجتمع لي نحو ثلاثمائة حديث، ثم إن الله رفع المحنة عن الإمام أحمد وسُمِحَ له بعقد الدروس والحلقات، فكنت إذا جئته وهو في حلقته أفسح لي المكان وأجلسني بجواره، وقال لتلاميذه: هذا يصدق عليه اسم طالب العلم، ثم يقص عليهم قصتي معه، ثم مرة مرضت فأتاني أحمد يعودني ومعه أصحابه ومعهم أقلامهم يكتبون كلام شيخهم[1].

وقال **الإمام أحمد**: بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي

---

(١) السير: (١٣/ ٢٩٢).

طلحة، لو رحل رجلٌ فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا[١].

وقال **أبو حامد الإسفراييني**: لو رحل رجلٌ إلى الصين حتى يحصل له كتاب «التفسير» لمحمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا[٢].

وتفسير ابن كثير الآن بين أيدينا فكم من المسلمين من يقرأه؟!

طواه النسيان، واعتلاه عند أصحاب المكتبات الغبار. أمَّا أولئك فإنَّهم أصحاب جهاد وصبر.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال **الفضيل**: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به[٣].

وتأمل سيرة الأئمة الأعلام كيف يسر الله لهم هذا الطريق وفتح لهم مغاليق الأبواب.

عن عكرمة قال: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما قُبِضَ رسول الله ﷺ وأنا شاب، قلت لشاب من الأنصار: هلمَّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ ولنتعلَّم منهم فإنهم اليوم كثير، فقال لي: يا عجبًا لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ مَنْ فيهم؟

قال ابن عباس: فتركت ذلك الرجل وأقبلت أنا على المسألة، وجعلت أتبع الصحابة وأسألهم، فإن كنت لآتي الرجل في طلب حديث واحد يبلغني أنَّه سمعه من رسول الله ﷺ، فأجده قائلاً فأتوسد ردائي على بابه،

---

(١) فتح الباري: (٨/٤٣٨).
(٢) طبقات الفقهاء لابن الصلاح: (١/١٠٩).
(٣) تفسير النسفي: (٢/١٣٠٧).

تسفي الريح على وجهي التراب (أي تنثره) حتى يخرج، فإذا خرج قال: ابن عم رسول الله ﷺ؟! ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليَّ فآتيك، فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، بلغني حديث عنك أنَّك تحدثه عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك.

قال ابن عباس: فكان ذاك الفتى الأنصاري يراني بعد ذلك وقد اجتمع الناس حولي يسألونني فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني[١].

وهذا **يعقوب بن سفيان** يتحدَّث عن طلبه للعلم وصبره على ذلك ومجاهدته النَّفس حتَّى رزقه الله العلم والفقه فيقول: أقمت في الرحل ثلاثين عامًا، ففي إحدى رحلاتي قلَّت نفقتي، فكنت أعمل بنسخ الكتب ليلاً، وأطلب العلم بالنهار، وفي ذات ليلة بينا أنا جالس أكتب وأنسخ على ضوء السراج، وكان الوقت شتاءً، إذ نزل الماء في عيني، وما عدت أبصر شيئًا فبكيت أسفًا على ذهاب بصري لما سيفوتني من قراءة العلم وكتابته، فغلبتني عيناي فنمتُ وأنا على تلك الحال، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام، فناداني وقال: لم بكيت؟ فقلت: ذهب بصري فتحسَّرت على ما فاتني من العلم، فقال لي: ادنُ مني، فدنوتُ منه، فأمرَّ يده على عينيَّ كأنه يقرأ عليها ثم استيقظت فأبصرت، فأخذت نسختي وواصلت الكتابة[٢].

وذكر القاضي عياض أنَّ **أبا الوليد الباجي** كان أصله من «بطليوس» ثم انتقل إلى «باجة الأندلس» فقيرًا حتى احتاج أثناء سفره إلى أن يؤجر نفسه

---

(١) البداية والنهاية: (٨/ ٢٩٨)، وابن عبدالبر في بيان العلم وفضله: (١/ ١٠٦).
(٢) تهذيب التهذيب: (١١/ ٣٨٧) بتصرف.

لحراسة درب من الدروب، فكان يستعين بأجرة الحراسة على النفقة لطلب العلم، وبضوء مصابيح الدرب على القراءة والمطالعة، ثم إنَّه تولى ضرب صفائح الذهب وطرقها ودقها لتكون خيوطًا توضع في النسيج والقماش، فكان يخرج إلى بعض تلاميذه القلائل وفي يديه أثر المطرقة وصدأ العمل، ثمَّ بعد ذلك فشا علمه واشتهر صيته وذاعت شهرته فأغناه الله من فضله[1].

أخـــو العلـــم حـــي خـــالـــد بعـــد مـــوتـــه
وأوصـــــالـــــه تحـــت التـــــراب رميـــــمُ
وذو الجهـــل ميـــت وهـــو مـــاشٍ علـــى الثـــرى
يُظـــــنُّ مـــــن الأحيـــاء وهـــــو عـــــديـــــمُ

أمَّا **عبدالله بن حمود الزبيدي** فقد طلب العلم على يد أبي علي الفارسي، ففي ذات مرة نام في بيت الدواب الذي كان خارج دار أبي علي الفارسي، وكانت فيه دابة أبي علي، وإنما فعل الزبيدي ذلك لأجل أن يسبق الطلبة إلى أبي علي الفارسي قبل أن يزدحموا عليه ففي ذات مرة خرج أبو علي من بيته لصلاة الفجر مبكرًا قبل طلوع الفجر، فشعر به الزبيدي فتبعه في الظلام، فخاف أبو علي وظنه لصاً وقال: ويحك منْ تكون؟ قال: أنا تلميذك عبدالله الزبيدي، فصاح فيه: إلى متى تتبعني؟ والله ما على الأرض أحد أعلم بالنحو منك.

وحكى أبو الحسن يوسف بن أبي ذر البخاري أن **محمد بن إسماعيل البخاري** مرض، فعرضوا ماءه على الأطباء، فقالوا: إن هذا الماء يشبه

---

(١) ترتيب المدارك: (٤/ ٨٠٤).

ماء بعض أساقفة النصارى فإنهم لا يأتدمون، فصدقهم محمد بن إسماعيل وقال: لم آتدم منذ أربعين سنة، فسألوا عن علاجه؟ فقالوا علاجه الإدام، فامتنع حتى ألح عليه المشايخ وأهل العلم فأجابهم إلى أن يأكل مع الخبز سكرة[١].

بقــــدر الكَـــــدِّ تكتســــب المعــــالـــــي
ومـــــن طلـــب العـــلا سهـــر الليــــالـــي
تـــــروم العــــــز ثــــم تنــــامُ ليـــــلاً
يغـــوص البحـــر مــــن طلـــب الـــلآلـــي

أخي القارئ:

لعلك تسير بين السطور لترى رحلة أولئك بين هجير الشمس وزمهرير الشتاء وضيق العيش وكرب السَّفر.

رحل **عبدالله بن فروخ القيرواني** إلى أبي حنيفة ليطلب عنده العلم، فبينا عبدالله جالس ذات يوم في منزل أبي حنيفة إذ سقطت آجرة على رأس عبدالله بن فروخ فشجت رأسه وسال دمه، فقال له أبو حنيفة: اختر إما الدية أو ثلاثمائة حديث، فقال عبد الله: بل أختار ثلاثمائة حديث، قال: فحدثني بها[٢].

وقال **الإمام أحمد** ـ رحمه الله ـ: كنت ربما أردت البكور في طلب الحديث، فتأخذ أمي بثيابي وتقول: حتَّى يؤذن النَّاس أو حتَّى يُصبحوا[٣].

---

(١) مقدمة الفتح صـ (٤٨١).
(٢) ترتيب المدارك صـ ٣.
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٣١.

وحينما سُئل **أبو القاسم الطبراني** عن سبب كثرة حفظه وكتابته للأحاديث فقال: كنت أنام على البواري (أي الحُصُر التي في المساجد) ثلاثين سنة[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو الفضل بن بنيمان: رأيت **أبا العلاء الهمذاني** في مسجدٍ من مساجد بغداد يكتب وهو قائم لأن السِّراج كان عاليًا[٢].

وقال عمر بن حفص: فقدنا **البخاري** أيَّامًا من كتابة الحديث بالبصرة، فطلبناه فوجدناه في بيته وهو عريان، وقد نفِذَ ما عنده من مال ولم يبق معه شيء، فجمعنا له دراهم واشترينا له ثوبًا، فكسوناه إيَّاه[٣].

نعم هذه حال جامع صحيح البخاري! رحمه الله وأجزل مثوبته، وجزاه عن الإسلام خير الجزاء.

وتأمَّل أخي القارىء في طول الصَّبر والمصابرة والجهد والمجاهدة.

قال مالك: كان الرَّجل يختلف إلى الرَّجل ثلاثين سنة يتعلَّم منه.

العلـــم يُحيـــي أنـــاسًـــا فـــي قبـــورهـــم
والجهـــــل يُلحـــق أحيـــاءً بـــأمـــواتِ

قال **مصعب الزبيري**: أوصى يحيى بن زكريا إليَّ بكتب سليمان بن بلال التي كان عنده، فأخذت كتب سليمان وخبأتها عندي، فجاء الفأر فبال عليها، فكنت أقرأ ما استبان لي من الكلمات وأدع ما طمسه بول الفأر.

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٣/ ٩١٥).
(٢) تذكرة الحفاظ: (٤/ ١٣٢٥).
(٣) تاريخ بغداد: (٢/ ١٣).

وقال **الإمام أحمد**: رحلتُ في طلب العلم والسُّنة إلى الثغور، والشَّامات، والسَّواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقيين جميعًا، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عُدتُ إلى بغداد.

وخرجتُ إلى الكوفة، فكنتُ في بيتٍ تحتَ رأسي لبنةٌ! فحُممْتُ! فرجعتُ إلى أمي رحمها الله ولم أكن أستأذنتُها، ولو كان عندي تسعون درهمًا كنتُ رحلتُ إلى جرير بن عبدالحميد إلى الرَّي[١]، وخرج بعضُ أصحابنا ولم يمكني الخروج، لأنَّه لم يكن عندي شيء![٢].

وقال الوراق عن **الإمام البخاري**: كان أبو عبدالله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ، فكنت أراه يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري نارًا بيده ويسرج ويخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه، فقلت له: إنَّك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني، قال: أنت شاب فلا أحبُّ أنْ أفسد عليك نومك[٣].

رحمهم الله وأجزل مثوبتهم، ورزقنا من صبرهم وأفاض علينا من علمهم، وجمعنا وإيَّاهم ووالدينا في جنَّات عدن تجري من تحتها الأنهار.

* * *

---

(١) الرَّي: من مدن إيران: حاليًا.
(٢) مناقب الإمام أحمد ص (٢٥)، البداية والنهاية: (١٠/ ٣٣٦).
(٣) تاريخ بغداد: (٢/ ١٣).

حفظ الوقت

رأس مال الإنسان هو وقته، وحال العلماء ومحافظتهم على أوقاتهم يجب الوقوف عندها والتَّأمُّل فيها؛ فإنَّ في مراجعتها إحياء للهمم، وتقوية للعزائم، وطردًا للكسل، وإبعادًا للخمول.

ها هو الصحابي الجليل **معاذ بن جبل** ـ رضي الله عنه ـ عندما حضرته الوفاةُ قال لجاريته: ويحك! هل أصبحنا؟ قالت: لا، ثم تركها ساعة، ثم قال: انظري، فقالت: نعم، فقال: أعوذُ بالله من صباح إلى النَّار، ثم قال: مرحبًا بالموت، مرحبًا بزائرٍ جاء على فاقة، لا أفْلح من ندمَ، اللهم إنَّك تعلمُ أني لم أكن أُحبُّ البقاء في الدُّنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كُنتُ أُحبُّ البقاء لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحرِّ الشديد، ولمزاحمة العلماء بالرُّكب في حلق الذِّكر[١].

وهذا **الإمام البخاري** ـ رحمه الله ـ يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه، فيوقد السِّراج ويكتب الفائدة تمرُّ بخاطره، ثمَّ يطفىء سراجه، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى، حتى كان يتعدد ذلك منه في الليلة الواحدة قريبًا من عشرين مرة[٢].

وذكر في ترجمة **سليمان بن إبراهيم العلوي** أنه أتى على البخاري نحوًا من مائتين وثمانين مرَّة قراءة وسماعًا وإقراءًا.

وقال **أحمد بن حنبل**: قال أبو أسامة ـ رحمه الله ـ. كتبت بيدي هذه مائة ألف حديث.

---

(١) جامع العلوم وفضله: (١/ ٥٧).

(٢) البداية والنهاية: (١١/ ٢٨).

وقال **يحيىٰ بن معين** ـ رحمه الله ـ: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث(١).

مـــا تطعمـــتُ لـــذة العيـــش حتـــى
صـــرتُ للبيـــت والكتـــاب جليسًـــا
ليـــس شـــيء أعـــز عنـــدي مـــن العلـــم
فلـــم أبتـــغ ســـواه أنيســـاً
إنمـــا الـــذل فـــي مخـــالطـــة النـــاس
فـــدعهـــم وعـــش عـــزيـــزًا رئيســـا(٢)

وذكر عن **عباس بن الوليد الفاسي** أنَّ بعض إخوانه وجدوا مكتوبًا في آخر بعض كتبه: درست هذا الكتاب ألف مرَّة.

وذكر في ترجمة **ابن التبان** أنَّه أخذ العلم عن ابن اللباد وغيره، ودرس كتاب «المدونة» نحو ألف مرة.

وقال **محمد بن عبدالله الأبهري**: قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرَّة، وكتاب الأسدية خمسًا وسبعين مرَّة، والموطأ خمسًا وأربعين مرَّة، ومختصر البرقي سبعين مرَّة، والمبسوط ثلاثين مرَّة.

قال **بعض السَّلف**: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾(٣) [العنكبوت: ٤٣].

---

(١) تقييد العلم للخطيب.
(٢) شذرات الذهبك (٩/ ٥٧).
(٣) تفسير ابن كثير.

وقال سعيد بن فيروز: لأنْ أكون في قوم أتعلم منهم، أحب إليَّ من أن أكون في قوم أنا أُعلمهم[١].

وعندما سُئل ابن المبارك: إلى كم تكتبُ الحديث؟ قال: لعلَّ الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد.

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: مَرَّ بنا أحمد بن حنبل ونعلاه في يديه وهو يركض في دروب بغداد ينتقل من حلقة لأخرى، فقام أبي وأخذ بمجامع ثوبه وقال له: يا أبا عبدالله! إلى متى تطلب العلم؟ قال: إلى الموت[٢].

يا طالب العلم:

من عَلِمَ أنَّ الدُّنيا دار سباق وتحصيل للفضائل، وأنَّه كلَّما عَلتْ مرتبته في علم وعمل زادت المرتبة في دار الجزاء، انتهب الزَّمان ولم يضيِّع لحظةً، ولم يترك فضيلة تمكنه إلا حصلها[٣].

قال عبدالله بن محمد البغوي: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل يقول: أنا أطلب العلم إلى أنْ أدخل القبر[٤].

أما أبو سعد السَّمعاني فقد رحل إلى بغداد وعمره ستة عشر عامًا، ليدرك أبا نصر الزَّيني، ليسمع منه حديث علي بن الجعد عن شعبة، فلمَّا وصل بغداد تلقَّاه نبأ وفاة أبي نصر الزيني، فبكى أبو سعد وجعل يقول: من أين لي علي بن الجعد عن شعبة؟

---

(١) مفتاح دار السعادة جـ ١.
(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٦٨.
(٣) الآداب الشرعية: (١/ ٢٤١).
(٤) مناقب الإمام أحمد صـ ٣١.

وكتب أبو علي الفارسي مجموعة من كتب العلم بيده، ثم إنه جاء حريق فالتهم تلك الكتب، فبقي أبو علي شهرين كاملين، لا يكلم أحدًا، من شدة الهم والحزن على هذه المصيبة، وبقي مدة ذاهلاً متحيرًا من هذه الصدمة، ثم صبَّره الله وعاد إلى رشده.

وفقـــد الكتـــاب كفقـــد الصـــواب
فيـــا هـــول مـــن قـــد أضـــاع الكتـــب

وقديمًا قالوا: كتابك الذي تكتبه بيدك هو ولدك المُخلد بعد موتك.

وأما هموم الناس اليوم فهي هموم الدنيا وجمع حطامها؛ يُصبح الكثير من الناس ويُمسي وهو مهموم مغموم من دينار فاته أو درهم خسره.

ونتحدث عن الحماسة لطلب العلم الشرعي، لأننا في زمان ماتت فيه الهمم، وضعفت فيه العزائم، وقلت فيه رغبة الناس في تحصيل العلم الشرعي.

قال **أبو عبيد القاسم بن سلام**: ربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرِّجال، فأضعها في موضعها من الكتاب، فأبيت ساهرًا الليل كله فرحًا مني بتلك الفائدة.

وبات **محمد بن أحمد النسفي** ليلة قلقًا حزينًا لما أصابه من الفقر وركبه من الدين، وكانت قد أشكلت عليه مسألة فقهية لم يعرف جوابها، ففكر فيها في ظلام الليل وهو مهموم حزين ففتحها الله عليه وعرف جوابها، فقام يدور في غرفته ويتمايل طربًا، ويقول: أين الملوك وأهل الدنيا؟ فتعجبت امرأته من حاله، وظنت أنه قد وجد سبيلاً للحصول على مال يسد به فقره، فسألته: ما لك؟ فأخبرها الخبر؛ فتعجبت وحزنت.

وعندما سُئل **الإمام الشافعي**: كيف شهوتك للعلم؟ فقال: أسمع

بالحرف من العلم لم أسمعها من قبل، فتود أعضائي أن لها آذانًا تتنعم بها بهذه الكلمة كما تنعمت بها أذناي، فقيل له: كيف حرصك على تحصيل العلم؟ فقال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال. فقيل له: فكيف طلبك للعلم؟ فقال: كطلب المرأة التي أضاعت ولدها وليس لها ولد سواه.

وقالوا **لبعض السلف**: من يُؤنسك؟ قال: فضرب بيديه على كتبه وقال: هذه، فقالوا: من الناس؟ قال: الناس الذين فيها.

إنـــــي رأيــــت وفـــــي الأيــــام تجـــربـــــة
للصبــــــر عـــــاقبـــــة محمـــــودة الأثـــــر

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصابَ أرضًا، فكان منها نقيّة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلتُ به**»[1].

قال **الخطيب البغدادي**: جمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث مراتب الفقهاء والمتفقهين من غير أنْ يشذَّ منها شيء؛ فالأرض الطيبة: هي مثل الفقيه الضابط لما روى، الفاهم للمعاني، المحسن لردِّ ما اختلف فيه إلى الكتاب والسنَّة، والأجادبُ الممسكةُ للماء التي يستقي منها الناس هي

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

مثل الطائفة التي حفظت غير مغيَّرٍ، دون أن يكون لها فقه تتصرف فيه ولا فهمٌ بالرد المذكور وكيفيته، لكن نفع الله بها في التبليغ، فبلغت إلى من لعله أوعى منها كما قال رسول الله ﷺ: «**ربَّ مبلغٍ أوعى من سامع، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه**».

ومن لم يحفظ ما سمع ولا ضبط فليس مثل الأرض الطيبة ولا مثل الأجادب، بل هو محروم، ومثله مثل القيعان التي لا تنبت كلأً ولا تمسك ماء.

ومع تيسر السبل وسهولة طلب العلم كم فينا من المحرومين منه والغافلين عنه؟!

رحل **أسد بن الفرات** ـ رحمه الله ـ إلى محمد بن الحسن الشيباني، ولما حضر عنده، قال له: إنِّي رجل غريب قليل النفقة والسِّماع منك قليل، والطلبة عندك كثير، فقال له محمد بن الحسن: اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك فتبيته عندي وأحدثك بالعلم، قال أسد: فكنت أبيت الليل في منزل محمد بن الحسن، فينزل إليَّ ومعه قدح من الماء، ثم يأخذ ويبدأ في القراءة من كتب العلم، وأنا أستمع إليه، فإن طال الليل ونعست ملأ بالماء ونضح به وجهي فأنتبه، وهكذا عدة مرات في الليل، حتى أنهيت ما أريد سماعه منه، وكان محمد بن الحسن يتعهد أسد بن الفرات بالنفقة حين علم أن نفقته قد انتهت.

رحمهم الله. لقد صدق عليهم حديث الرسول ﷺ حيث رفعوا للأمة رأسًا وللعلم منارًا.

يـــا طـــالـــب العلـــم بـــاشـــر الـــورعـــا
وبـــايـــن النـــوم، واهجـــر الشَّبَعَـــا

مــــا ضـــــرَّ عبـــــدًا صحـــــت إرادتـــــه
أجـــاع يـــومًـــا فـــي الله أو شبعًـــا[1]

قال الحميدي: خرجتُ مع الشافعي إلى مصر، فكان هو ساكنًا في العلو، ونحن في الأوساط، فربما خرجت في بعض الليل فأرى المصباح فأصيحُ بالغلام فسمع صوتي فيقولُ: بحقي عليك إرْقَ، فأرقى فإذا قرطاس وحبر، فأقولُ: مَهْ يا أبا عبدالله، فيقول: تفكرت في معنى حديث أو في مسألة فخفت أن يذهب عليَّ فأمرت بالمصباح وكتبته[2].

قال أبو زكريا يحيىٰ بن محمد: دخلتُ على أبي محمد بن يحيىٰ الذهلي في الصيف الصائف وقت القائلة، وهو في بيت كُتُبه، وبين يديه السراجُ، فقلتُ: يا أَبَهْ!، هذا وقتُ الصيف، ودخانُ هذا السراج بالنهار يضرك! فلو نفَّست عن نفسك؟ فقال لي: يا بُني! تقولُ لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ ومع أصحابه والتابعين؟![3].

أخي الحبيب:

هذه هي مجالسهم وأولئك جلساؤهم.

مجـــالسهـــم مثـــل الـــريـــاض أنيقـــةٌ
لقـــد طـــاب منهـــا الـــريـــح واللـــون والطَّعـــم

قال أبو بكر النيسابوري مخبرًا عن نفسه: لقد أقمت أربعين سنة لا أنام الليل إلا جاثيًا، وصليتُ الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وهذا كله قبل

---

(١) روضة العقلاء ص ٣٥.
(٢) مناقب الشافعي ص ٤٣.
(٣) تاريخ بغداد: (٣/ ٤١٩).

أن أعرف أم عبدالرحمن، إيش أقول لمن زوَّجني، ثم قال: ما أراد إلا الخير[(١)].

وكان هذا السهر والنصب ألذ عند السلف من سائر ملذات الدنيا، ولذا قال قائلهم:

سهـــري لتنقيـــح العلـــوم ألـــذُّ لـــي
مـــن وصـــل غـــانيـــة وطيـــب عنـــاق
وتمـــايلـــي طـــربًـــا لحـــل عـــويصـــة
أشهـــى مـــن النغمـــات للعشـــاق
وألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لـــدفهـــا
نقـــري لألقـــي الـــرمـــل عـــن أوراقـــي
أأبيـــت سهـــران الـــدجـــى وتبيتـــه
نـــومًـــا وتبغـــي بعـــد ذاك لحـــاقـــي؟

سأل طلبة العلم ابن برهان أحمد بن علي البغدادي أن يخصص لهم وقتًا ليدرِّسهم فيه أحد الكتب فقال لهم: لا أجد لكم وقتًا، فكانوا كلما حدَّدوا له وقتًا قال لهم: أنا في هذا الوقت مشغول بمذاكرة الدرس الفلاني. فانتهى بهم البحث إلى أن حدَّدوا لهم درسًا معه في نصف الليل[(٢)].

قال إبراهيم النَّخعي: إنَّه ليطول عليَّ الليل حتى ألقى أصحابي فأذاكرهم[(٣)].

وكان وكيع بن الجراح إذا صلى العشاء ينصرف معه أحمد بن حنبل،

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٣/ ٨٢٠).
(٢) طبقات الشافعية للسبكي: (٦/ ٣٠) بتصرف.
(٣) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي ص ٢.

فيقف على الباب فيتذاكران الحديث، فما يزالان يتذاكران حتى تأتي الجارية وتقول: قد طلع الكوكب[١].

وعن ابن أبي حاتم قال: حضر قتيبة بن سعيد بغداد، وقد جاءه أحمد بن حنبل، فسأله عن أحاديث فما زالا حتى الصبح.

وقال علي بن الحسن بن شقيق: قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرته، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذن فأذن الفجر[٢].

لقد كان هذا سهرهم وتلك رغبتهم.

قال يحيىٰ بن أبي كثير في كلمات صادقة وحكمة مجربة: لا يُستطاع هذا العلم براحة الجسد.

لا تحسـب المجـدَ تمـرًا أنـت آكلـه
لـن تبلـغ المجـد حتـى تلعـقَ الصبـرا

قال أبو داود السجستاني: التقى وكيع وعبد الرحمن ابن مهدي في الحرم بعد العشاء فتواقفا، حتى سمعا أذان الصبح[٣].

وذكر أبو بكر محمد بن اللَّبَّاد أن محمد بن عبدوس صلى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة، خمس عشرة سنة من دراسة، وخمس عشرة سنة من عبادة[٤].

أين ليل الساهين اليوم؟ ثلاثون سنة ما بين دراسة وعبادة!!

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي.
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٧٧).
(٣) السير: (٩/ ١٩٥).
(٤) ترتيب المدارك: (٣/ ١٢٢).

عن فضيل بن غزوان قال: كنت أجلس أنا ومغيرة بن مقسم الضبي وناس آخرون نتذاكر الفقه بعد العشاء، فربما لم نقم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر فنذهب للوضوء.

وعلق على سهر الليل ومكابدة النَّوم الخطيب البغدادي فقال: وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل، وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك، وكان جماعة منهم يبدأون من العشاء فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح[(١)].

قال الشاعر العالم مبينًا حبه وحرصه على الكتب والقراءة:

لمحبـــرةٌ تجـــالسنـــي نهـــاري
أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن أنـــس الصـــديـــق
ورزمـــة كـــاغـــدٍ فـــي البيـــت عنـــدي
أعـــزُّ إلـــيَّ مـــن عـــدل الـــرفيـــق
ولطمـــةُ عـــالـــم فـــي الخـــد منـــي
ألـــذ علـــيَّ مـــن شُـــرب الـــرحيـــق

قال النصر بن شميل: لا يجد الرَّجل لذَّة العلم حتَّى يجوع وينسى جوعه[(٢)].

وقال أبو شهاب الحناط: بعثت أخت سفيان الثوري معي بجراب فيه طعام إلى سفيان، وكان سفيان آنذاك بمكة، فلمَّا قدمت، مكَّة سألت عن مكانه فدلوني عليه فأتيته وكان لي صديقًا، فسلمت عليه فرد عليَّ السلام

---

(١) المجموع: (١/ ٣٨).
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٣١٤).

ولم يهشَّ في وجهي كالمعتاد، فقلت له: إن أختك قد بعثت إليك بجراب من الطعام، فاستوى سفيان جالسًا وقال: عجِّل به، فلمَّا أكل قلت له: يا أبا عبدالله، أتيتك فسلمت عليك فلم تهشَّ في وجهي وأنا صديقك، ولمَّا أخبرتك أن أختك قد بعثت إليك جراب طعام استويت وكلمتني وأقبلت عليَّ، فقال سفيان: لا تلمني يا أبا شهاب، فإن لي ثلاثة أيام لم أذق فيها طعامًا، قال أبو شهاب: فعذرته[1].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال ابن أبي حاتم الرازي: كنَّا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، نهارنا ندور على الشيوخ، وبالليل ننسخ، فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا فقالوا: هو عليل، فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلمَّا صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فمضينا، فلم يزل السمك ثلاثة أيام وكاد ينفني، فأكلنا نيًا لم نتفرغ نشويه[2].

وقال ابن الجوزي في كتاب «صيد الخاطر» مخبرًا عن حاله في أيام طلبه للعلم: ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو أحلى عندي من العسل لأجل ما أطلب وأرجو.

ومـــــن تكـــــن العليـــــاء همـــــة نفســـــه

فكـــــل الـــــذي يلقـــــاه فيهـــــا محبـــــب

كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى ببغداد فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء

(١) الطبقات الكبرى: (٦/ ٣٧٢).

(٢) تذكرة الحفاظ: (٣/ ٨٣٠).

(لقسوتها وصلابتها) فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لئلا أسبق، وكنت أصبح وليس لي مأكل وأمسي وليس لي مأكل، ما أذلني الله لمخلوق قط، ولو شرحت أحوالي لطال الشرح.

ويذكر **أبو حاتم** ـ يرحمه الله ـ تجربة أخرى له فيقول: بقيت بالبصرة ثمانية أشهر لطلب العلم فانتهت نفقتي، فجعلت أبيع ثياب بدني شيئًا فشيئًا حتى بقيت بلا نفقة، فجعلت أطوف مع صديق لي على المشائخ، نسمع منهم الحديث، فإذا جاء المساء رجعت إلى منزلي الخالي فأشرب الماء من شدَّة الجوع، فإذا أصبح الصباح غدا عليَّ رفيقي وانطلقنا ندور على المشائخ وبي من الجوع ما الله به عليم، وفي ذات مرة غدا عليَّ لننطلق فقلت له: أنا ضعيف القوى لا يمكنني ذلك، فقال: ما لك؟ قلت: قد مضى عليَّ يومان ما ذقتُ فيهما طعامًا، فأعطاني نصف دينار لأتقوَّى به[(١)].

وكان **أحمد** بن حنبل يصلي بعبد الرزاق يومًا في صلاته فسأله عبدالرزاق عن سبب سهوه، فقال أحمد: ما ذقتُ طعامًا منذ ثلاثة أيَّام، وكانت هذه القصَّة في أثناء رحلة الإمام أحمد إلى اليمن لطلب العلم[(٢)].

قال **حجاج بن الشاعر**: جمعت لي أمي مائة رغيف فجعلتها في جراب، وانحدرت إلى شبابة بالمدائن، فأقمت ببابه مائة يوم، أغمس

---

(١) الرحلة لطلب الحديث للخطيب البغدادي، الجرح والتعديل ص ٣٦٣.
(٢) طبقات الحنابلة: (١/ ٩٧).

الرغيف في دجلة وآكله، فلمَّا نفذت خرجت[١].

وكان لمحمد بن سحنون جارية يقال لها أم مدام، فكان عندها يومًا وقد شُغل بتأليف كتاب إلى الليل، فلمَّا جاء الليل استمر في الانكباب على التأليف، فلمَّا مضى جزء من الليل جاءت له بالطعام ووضعته عنده، فقال لها: أنام مشغول الساعة عن الطَّعام، واستمر في تأليفه، فلما طالت عليها المدة جعلت تلقمه الطعام بيدها، وهو منكب على كتبه يؤلف ويكتب، واستمر في الكتابة حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر، فانتبه وقال لها: شُغِلْنا عنك الليلة يا أم مدام، هاتِ طعامك، فقالت: قد ألقمته كله لك يا سيدي، فقال لها: والله ما شعرتُ بذلك[٢].

في زماننا هذا أين نحن من هؤلاء؟!

قال أبو **المعالي الجويني** مخبرًا عن حاله وقت طلبه للعلم: أنا لا أنام ولا أحدد أوقاتًا خاصة للأكل، وإنَّما أنام إذا غلبتني عيناي على النوم ليلاً كان أو نهارًا، وآكل الطَّعام إذا اشتهيت الطَّعام في أيِّ وقت كان.

وقال **بقي بن مخلد القرطبي** مخبرًا عن نفسه: إني لأعرف رجلاً كانت تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم ليس له طعام إلا ورق الكرنب الذي يُرمى[٣].

وقال **إبراهيم بن عمر الجعبري**: كنت في أول طلبي للعلم أشتري جزرًا بفلس فكان يكفيني ثلاثة أيام.

وحدث **الإمام أبو علي البلخي** عن رحلته في طلب العلم فقال: لقد

---

(١) السير: (١٢/ ٣٠٢)، وطبقات الحنابلة ص (١٤٨).

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض: (٣/ ١١٤).

(٣) السير: (١٣/ ٢٩٢).

كنت بعسقلان أطلب العلم، فقلَّت نفقتي وبقيت أيامًا بلا أكل، فذهبت لأكتب، فعجزت عن الكتابة لما بي من الجوع، فكنت أذهب إلى دكان خباز وأقعد بقربه وأشم رائحة الخبز وأتقوى بها، ثم يسر الله لي مالاً[(١)].

وقال أبو العباس الجُرجاني: كان **أبو إسحاق الشيرازي** لا يملكُ شيئًا من الدُّنيا، فبلغ به الفقرُ مبلغه، حتى كان لا يجدُ قُوتًا ولا ملبسًا!

ولقد كنَّا نأتيه وهو ساكنٌ في القطيعة ـ حيٌّ من أحياء بغداد ـ فيقوم لنا نصف قومة، ليس يعتدلُ قائمًا من العري! كي لا يظهر منه شيء.

وهذا **عيسى بن موسى بن محمد المتوكل** يقول: مكثتُ ثلاثين عامًا، أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق فلا أقدر ذلك، لأجل البكور في طلب الحديث.

وقال **أبو العباس البكري**: جمعت الرحلة في طلب العلم بين محمد بن جرير الطبري ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني، فنفدت نفقتهم وافتقروا واشتد عليهم الجوع، فاتفقوا على أن يقدموا واحدًا منهم ليدعو الله أن يفرج عنهم، وييسر لهم طعامًا، والبقية يؤمنون، فكل واحد منهم اعتذر وقال: لست لذلك بأهل، احتقارًا منهم لأنفسهم، فاقترعوا فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال لهم: أمهلوني حتى أصلي ركعتين وبعدها أدعو لكم، فتوضأ وشرع في الصلاة، فبينا هو في صلاته لم يفرغ منها إذ طُرقَ الباب، ففتح أحدهم فإذا عبد مملوك لوالي مصر يقول: أيكم محمد بن نصر المروزي؟ قالوا: هذا، وأشاروا إليه، فأخرج صرة

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٤/ ١١٧٣).

فيها خمسون دينارًا، وفعل نفس الشيء مع محمد بن جرير ومحمد بن هارون ومحمد بن خزيمة ثم قال: إن الأمير كان قائلا بالأمس فرأى في المنام رسول الله ﷺ وهو يقول له: أدرك المحمدين الأربعة؛ فإنهم جياع في مكان كذا وكذا، ثم قال هذا المملوك: وإن الأمير يُقسم عليكم إذا نفذ هذا المال أن تبعثوا إليه ليرسل لكم بمال آخر(١).

وعن عليٍّ - رضي الله عنه - قال: العلمُ خير من المال، المال تحرسه واالعلم يحرسُك، والمال تفنيه النَّفقة والعلم يزكو مع الإنفاق، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَّهر، أعيانُهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة(٢).

يا طالب العلم:

مَنْ لم يباشر حر الهجير في طلاب المجد لم يقل في ظلال الشرف(٣).

وانظر ماذا فعل إسماعيل بن عياش عندما طلب العلم والمجد والسؤدد حيث قال: ورثت من أبي أربعة آلاف دينار أنفقتها في طلب العلم(٤).

ومثل المُحب للعلم مثل العاشق، فإن العاشق يهتم بمحبوبه ويهيم به، وكذلك المحب للعلم فكما أن العاشق يبيع أملاكه وينفقها على

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٢/٧٥٣).
(٢) جامع بيان العلم وفضله: (١/٥٧).
(٣) الفوائد ص (٥٦).
(٤) تذكرة الحفاظ: (١/٢٥٤).

معشوقه فيفتقر، كذلك محب العلم، فإنه يستغرقُ في طلبه العمر، فيذهب ماله ولا يتفرغ للكسب[١].

وسُئل **عبد الله بن المبارك** ـ رحمه الله ـ: مَنِ النَّاس؟ قال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين[٢].

أما محبتهم للكتب فهي أكبر من محبة الدينار والدرهم لأهل الدنيا، ومن وجد منهم كتابًا فكأنما وجد كنزًا.

قال **طلحة بن مظفر**: بيعتْ كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها أبو العلاء الهمداني، وكان عاشقًا محبًا للكتب، فعرضوا مجموعة من الكتب بستين دينارًا فاشتراها الهمداني، ولم يكن لديه آنذاك مال في جيبه، فانطلق إلى مدينته همدان، فلما وصلها عرض دارًا له للبيع فبلغت ستين دينارًا فقال: بيعوا، فقيل له: لو انتظرت يومًا أو يومين ستبلغ قيمة الدار آلافًا، والدار تساوي أكثر من ستين دينارًا، فرفض وقال: بيعوها، فباعوها بستين دينارًا وهي تساوي آلافًا، ثم رجع إلى بغداد فدفع ثمن الكتب وأخذها إلى بيته وما علم بحاله أحد.

أخي القارئ:

لقد قدموا غذاء الفكر على غذاء البطن، ولكن إذا لم يجدوا للبطن شيئًا ماذا يفعلون؟! وكيف نحن اليوم في ظل رغد العيش وبحبوحة الرزق؟!

---

(١) الآداب الشرعية: (١/٢٣٨).

(٢) الإحياء: (١/١٨).

قال محمد بن طاهر: لما رحلت لطلب العلم أقمتُ بتنيس مدة، ونفذت نفقتي هناك، ولم يبق معي إلا درهم واحد، وكنت محتاجًا إلى خبز لأسدَّ به جوعي، وإلى ورق لأكتب عليه الحديث، فإن صرفته للخبز فاتني ورق الكتابة، وإن صرفته للكتابة فاتني الخبز، فبقيت ثلاثة أيام بلياليهن مترددًا لم أذق فيها طعامًا، فلمَّا كان بكرة اليوم الرابع، قلت لنفسي: لو كان معي ورق ما استطعتُ أن أكتب فيه، لما بي من الجوع والتعب، فعزمت على أن أشتري به خبزًا، فذهبت إلى السوق وجعلت الدرهم في فمي، فبينا أنا أسير إلى السوق إذ بلعت الدرهم بدون شعور مني، فلمَّا شعرت بذلك جعلت أضحك كثيرًا، فلقيني أحد أصدقائي فسألني: مايضحكك؟ فأبيت أن أخبره، فألح عليَّ فأخبرته الخبر، فأخذني إلى منزله وأطعمني؛ ثم دبر له مالاً من بيت المال أغناه الله به[1].

قلـــت للفقـــر أيـــن أنـــت مقيـــم
قـــال لـــي فـــي محـــابـــر العلمـــاء
إن بينـــي وبينهـــم الإخـــاء
وعـــزيـــز علـــي قطـــع الإخـــاء[2]

وتأمل في مطلب ومقصد أصحاب الهمم الحية والقلوب الصادقة فقد قال الحسن البصري: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة، وقال: مَنْ نافسكَ في دينك فنافسه، ومَنْ نافسك في دنياك فألقها في نحره.

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٤.
(٢) شذرات الذهب: (٨/ ١٧٠).

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل[١].

إنَّهم أمَّة جعلوا دنياهم سبيلاً ومعبرًا لآخرتهم، فشمَّروا عن ساعد العلم والعمل، يتعلَّمون ويعلِّمون، يعبدون الله على بصيرة، ويدعون إليه على هدى ونور.

قال خلف بن هشام الأزدي: أشكل عليَّ بابُ من النحو فلم أفهمه، فأنفقت ثلاثين ألف درهم حتى فهمته وأتقنته.

وقال أبو عبد الله بن الضريس: آخر مرة قدمت فيها إلى البصرة، أعطيت الوراقين (وهم الذين ينسخون له الكتب) عشرة آلاف درهم.

وأنفق الإمام هشام بن عبدالله الرازي في طلبه للعلم سبعمائة ألف درهم، وسمع عن ألف وسبعمائة شيخ.

أما محمد بن سلام البيكندي فقد قال: أنفقت في طلب العلم أربعين ألفًا، وأنفقت في نشره أربعين ألفًا.

وقد رحل ابن جرير الطبري لطلب العلم وهو ابن ثنتي عشرة سنة، وكان والده يتعاهده بالنفقة بين حينٍ وآخر، قال ابن جرير: فمرة أبطأت عني نفقة والدي وتأخرت، ففتقت كُمي قميصي وبعتها واستعنت بثمنهما على طلب العلم[٢].

وقال الإمام ابن الجوزي في كتابه «لفتة الكبد في نصيحة الولد»، متحدثًا لولده عن نشأته ومبتدأ حاله:

واعلم يا بُني، أن أبي كان مُوسرًا وخلَّف ألوفًا من المال، فلمَّا بلغتُ

---

(١) لطائف المعارف.

(٢) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٧١٣).

دفعوا لي عشرين دينارًا ودارين، وقالوا لي: هذه التركة كلها، فأخذت الدنانير واشتريت بها كتبًا من كتب العلم، وبعتُ الدارين وأنفقتُ ثمنها في طلب العلم، لم يبق لي شيء من المال. وما ذلَّ أبوك في طلب العلم قط، ولا خرج يطُوفُ في البلدان من الوُعَّاظ، ولا بعث رُقعةً إلى أحدٍ يطلبُ منه شيئًا قطُّ، وأمورُهُ تجري على السَّداد: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

أين شباب الأمة اليوم وأين طلب العلم في حياتهم؟!

إذا رأيـــت شبـــاب الحـــي قـــد نشـــأوا
لا ينقلـــون قـــلال الحبـــر والـــورقـــا
ولا تـــراهـــم لـــدى الأشيـــاخ فـــي حِلَـــقٍ
يَعُـــون مـــن صـــالـــح الأخبـــار مـــا اتسقـــا
فـــذرهـــم عنـــك واعلـــم أنهـــم همـــجٌ
قـــد بـــدِّلـــوا بعلـــو الهمـــة الحُمُقـــا

أين أصحاب الهمم العالية والوجوه المتطلعة؟! أكثر الشباب هممًا طالما ماتت، وقلوبًا طالما نامت. تأمل في من يطلب العلم مع قرب العلماء والمراجع والكتب وسهولة الوصول إليها والحصول عليها تجد عجبًا!!

قال **عبد الله بن القاسم** انتهى وأفضى طلب العلم بالإمام مالك إلى أن نقض سقف بيته وباع خشبه ثم مالت عليه الدنيا بعد ذلك[1].

---

(١) ترتيب المدارك: (١/ ١٣٠).

قال **الإمام مالك**: لا ينال هذا لأمر حتى يذاق فيه طعم الفقر(١).

وكان **صالح بن أحمد** يملي على الناس الحديث بهمدان، وكانت له أرض فباعها بسبعمائة دينار، فلمَّا استلم الدنانير فرقها ونثرها على محابر تلاميذه من أصحاب الحديث.

قال **شعبة بن الحجاج**: لقد بعتُ طست أمي بسبعة دنانير(٢).

وقال الإمام أحمد: أقام **شعبة** عند الحكم بن عتبة ثمانية عشر شهرًا حتى باع جذوع بيته(٣).

الأموال الطائلة أين تصرف؟! والذهب والفضة أين يضيع؟! سؤال اليوم واضح الجواب، ولكن كيف حال سلفنا وماذا فعلوا بما تحتهم من الأموال؟!

ورث **يحيىٰ بن معين** أَلْفَ أَلْفِ درهم وخمسين ألف درهم، فأنفقه كلَّه على الحديث، حتى لم يبق له نَعْلٌ يلسبه!(٤).

زاده الله شرفًا، ورحم أقدامًا طالما تغبرَّت في سبيل الله.

وذكر ابن عساكر في كتابه: «تبيين كذب المفتري» في ترجمة **محمد بن الحسين النيسابوري**: أنَّه كن يُعلق دروسه ويطالع كتبه ويقرأها في ضوء القمر، لأنه كان فقيرًا لا مال لديه ليشتري به دهنًا ليُوقد به السراج، ومع ذلك كان لا يأخذ من مال الشبهة شيئًا.

---

(١) ترتيب المدارك: (٢/ ٦٨).
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٩٥).
(٣) العلل ومعرفة الرجال.
(٤) المنهج الأحمد: ١٠/ ٩٥).

قال **الإمام الشافعي** ـ رحمه الله: ـ فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهال فقر اضطرار.

وإليك قصة أحد العلماء:

قال أبو عبيدة: ضاقت المعيشة على **النضر بن شميل البصري** بالبصرة، فخرج يُريد خراسان، فشيَّعه من أهل البصرة نحوٌ من ثلاثة آلاف رجل، ما فيهم إلا مُحدِّثٌ أو نحويٌّ أو لغويٌّ أو عروضي أو أخباري، فلما صار بالمربد ـ مربد البصرة ـ جلس وقال: يا أهل البصرة، يعزُّ عليَّ فراقكم، والله لو وجدتُ كل يوم كيلجة باقلي ما فارقتكم، وسار حتى وصل إلى خراسان.

قال **النضر**: كنتُ أدخلُ على المأمون في سمره، فدخلتُ ذات ليلة وعليَّ ثوبٌ مرقوع، فقال: يا نضر، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ ضعيف، وحرُّ مروٍ شديدٌ، فأتبرَّد بهذه الخلقان، قال: لا، ولكنك رجلٌ متقشفٌ، ثم أجرينا الحديث، فأجرى هو ذكر النساء، فقال: حدَّثنا هشيم، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها؛ كان فيه سداد من عَوَرٍ**»، فأورده بفتح السين (سَدادٌ من عَوَر)، فقلت صدق هشيم، حدثنا عوف بن أبي جميلة، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها؛ كان فيها سِدادٌ من عَوَرٍ**»[1].

---

(١) ضعيف انظر السلسلة الضعيفة برقم (٢٤٠١).

قال: وكان المأمون مُتكئًا، فاستوى جالسًا، وقال: يا نضر، كيف قلت: سِدَاد؟ قلتُ: لأن السَّداد هاهنا لحنٌ، قال: أو تُلحِّنُني؟ قلت: إنما لَحَنَ هشيمٌ، وكان لحَّانة، فتبع أمير المؤمنين لفظه، قال: فماالفرقُ بينهما؟ قلتُ: السَّداد بالفتح: القصد في الدين والسبيل، والسِّداد بالكسر: البُلغة، وكل ما سددت به شيئًا فهو سداد، قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قلتُ: نعم، هذا العرجي يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهةٍ وسِداد ثغر

فقال المأمون: قبَّح الله منْ لا أدبَ له! وأطرق مليًا، ثم قال: ما لك يا نضر؟ قلتُ: أُريضة بمرو أتصابُّها وأتمزَّزُها، قال: أفلا نفيدك مالاً معها؟ قلتُ: إني إلى ذلك لمحتاجٌ، فأخذ القرطاس، وأنا لا أدري ما يكتب، ثم قال لخادمه: تبلغ معه إلى الفضل بن سهل، فلما قرأ الفضل القرطاس؛ قال: يا نضر، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب فيه؟ فأخبرته، ولم أكذبه، فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فأخذتُ ثمانين ألف درهم بحرف استفيد مني»[١].

ورحم الله من قال:

نِعمَ المحدِّث والرفيق كتاب
تلهو به إن خانك الأصحاب
لا مفشيًا للسر إن أودعته
ويُنال منه حكمة وصواب

---

(١) وفيات الأعيان: (٢/ ١٦١).

استغل وقتك في الأنفس من العلوم

ينبغي لطالب العلم أن يكون جل همته مصروفًا إلى الحفظ والإعادة. فلو صح صرف الزمان إلى ذلك كان الأولى، غير أن البدن مطية، وإجهاد السير مظنة الانقطاع.

ولمَّا كانت القوى تكلُّ فتحتاج إلى تجديد، وكان النسخ والمطالعة والتصنيف لابد منه، مع أن المهم الحفظ، وجب تقسيم الزمان على الأمرين، فيكون الحفظ في طرفي النهار وطرفي الليل، ويوزع الباقي بين عمل بالنسخ والمطالعة، وبين راحة للبدن وأخذٍ لحظِّه.

ولا ينبغي أن يقع الغبن بين الشركاء، فإنه متى أخذ أحدهم فوق حقِّه أثَّر الغبن وبان أثره، وإن النفس لتهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتكرار؛ لأن ذلك أشهى وأخف عليها.

فليحذر الراكب من إهمال الناقة، ولا يجوز له أن يحمل عليها ما لا تطيق.

ومع العدل والإنصاف يتأتَّى كل مراد.

ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه.

ومن طوى منازل في منزل أوشك أن يفوته ما جدَّ لأجله، على أن الإنسان إلى التحريض أحوج؛ لأن الفتور ألصق به من الجد.

وبعد، فاللازم في العلم طلب المهم، فرب صاحب حديث حفظ مثلاً لحديث: من أتى الجمعة فليغتسل: عشرين طريقًا، والحديث قد ثبت من طريق واحد، فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل.

والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط منه في نفس.

وكفى بالعقل مرشدًا إلى الصواب، وبالله التوفيق[(١)].

أخي المسلم:

هذا أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن القصري كان يقول: لي أربع وسبعون سنة ما جفَّ لي قلم. وكان ربما باع بعض ثياب فاشترى بثمنها كتابًا.

وعندما وصل **أبو جعفر القصري** إلى مدينة سوسة لزيارة صديق له، فوجد صديقه هذا قد ألَّف كتابًا، ولم يكن مع أبي جعفر مال يشتري به ورقًا لينقل فيه هذا الكتاب، فباع أبو بكر قميصه الذي كان عليه واشترى بثمنه ورقًا كتب فيه الكتاب ورجع به معه إلى القيروان.

ورحل **عبدالله بن القاسم** إلى مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ بالمدينة، ليطلب العلم على يديه، قال ابن القاسم: فكنت آتي مالكًا غلسًا (آخر الليل) فأسأله مسألة أو ثلاثًا أو أربعًا، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتيه في كل سحر، فتوسَّدت مرة عتبة بابه أنتظر خروجه لصلاة الفجر لأسأله عن مسائل، فغلبتني عيناي فنمتُ، وخرج الإمام مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فجاءت جارية مالك السوداء، فركضتني برجلها وقالت: إن مولاك أيها العبد قد خرج للمسجد، ليس يغفل كما أنت تغفل، له اليوم تسع وأربعون سنة ما صلى الفجر إلا بوضوء العشاء[(٢)].

قال ابن **الجوزي**: تأمَّلت عجبًا، وهو أن كل شيء نفيس خطير، يطول

---

(١) صيد الخاطر ص (٢٧٩).

(٢) ترتيب المدارك: (٣/ ٢٥٠).

طريقه ويكثر التعب في تحصيله، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة، حتى قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهي أكل الهريسة ولا أقدر؛ لأن وقت بيعها هو وقت سماع الدرس.

وقد أحسن من قال:

لـــولا المشقـــة ســـاد النـــاس كلهـــم
الجـــودُ يُفقـــرُ والإقـــدام قتـــالُ

وقال أبو محمد الثقفي: سمعت جدي يقول: جالست **أبا عبدالله المروذي** أربع سنين؛ فلم أسمعه طول تلك المدة يتكلم في غير العلم[١].

قال **أبو أحمد نصر بن أحمد السمرقندي**: لا ينال هذاالعلم إلا من عطَّل دكانه، وخرَّب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته[٢].

قال ابن **جماعة** معلقًا على هذا الكلام: وهذا كله، وإن كانت فيه مبالغة، فالمقصود به أنه لابدَّ لطلب العلم من جمع القلب واجتماع الفكر[٣].

قال **الزُّبير بن بكار**: قالت ابنة أختي لأهلنا: خالي خيرُ رجلٍ لأهله، لا يتخذ ضرةً ولا يشتري جارية. فقالت المرأة: لهذه الكتُبُ أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر وأصعبُ![٤].

---

(١) معرفة علوم الحديث ص (٨٢).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي: (٢/ ١٧٤).
(٣) تذكرة السامع والمتكلم ص ٧١.
(٤) تاريخ بغداد: (٨/ ٤٧١).

وقال **جعفر بن درستويه**: كنَّا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المديني، وقت العصر اليوم لمجلس غدٍ، فنقعد في أماكننا طوال الليل، مخافة ألا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه الحديث، فرأيت شيخًا في المجلس يبول في طيلسانه، ويُدْرج الطيلسان، وذلك مخافة أن يُؤخذ مكانه إن قام ليبول[١].

وقد أقام **أبو طاهر** في الإسكندرية من عام ٥١١هـ إلى عام ٥٧٦هـ لطلب العلم، وكان يقول عن نفسه: لي ستون سنة ما رأيت منارة الإسكندرية (وكانت من عجائب الدنيا) إلا من الطَّاقة.

وجاء **شعبة بن الحجاج** إلى خالد الحذاء، فقال شعبة لخالد: حديث بلغني عنك فحدِّثنيه، وكان خالدًا آنذاك مريضًا، فقال لشعبة: أنا الآن مريض ولا أستطيع أن أحدثك به، فقال شعبة: إنَّما هو حديث واحد فحدثني به، فحدثه به خالد الحذاء. فلمَّا فرغ من الحديث قال له شعبة: مت الآن إن شئت.

وحالهم لفقد بعض العلم أو العلماء حال من فقد حبيبًا وعزيزًا.

فهذا **شعبة بن الحجاج** يقول: إني لأذكر الحديث يفوتني لم أسمعه فأمرض.

وقد ذُكر **لشعبة** حديثٌ لم يسمعه فجعل يقول: واحزناه واحزناه.

ورحل **عبدالرحمن بن أحمد البغياني** مع أبيه المحدث المشهور ابن خلف الشيرازي بشيراز، فلمَّا دخلها أحمد ذهب يعدو إلى بيت ابن خلف ليسمع منه الحديث، فلقيه أحد أصدقائه فقال له: تعال أولاً لنتغدى

---

(١) الجامع لأخلاق الرواي.

عندي، فلمَّا فرغا من الطعام قال له صديقه: لقد مات ابن خلف قبل فترة وأنا الذي دفنته. قال عبدالرحمن: فلمَّا سمعت بموته كادت مرارتي أن تنشق.

لقد كان العلم همهم الأول وشغلهم الشاغل، قدموه على أمور الدنيا ومحبوباتها، يجالدون لذلك الأيام، ويصبرون على حرها وقرها.

قال **عُبيد بن يعيش**: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي في الليل؛ لأني كنت مشغولاً بكتابة الحديث، فكانت أختي تلقمني الطَّعام بيدها[1].

وقال يحيىٰ بن البناء: كان **الحُميدي**، من اجتهاده في العلم، ينسخ ويكتب العلم بالليل في شدة الحر، فكان يجلس في طست فيه ماء فيتبرد به ثم يشرع في الكتابة والنسخ[2].

إذا كنـــت تـــؤذي بحـــر المصيـــف
ويبـــس الخـــريـــف وبـــرد الشتـــاء
ويلهيـــك حســـن زمـــان الـــربيـــع
فـــأخـــذك للعلـــم قـــل لـــي متـــى[3]

عن أحمد بن سلمة قال: عُقِد **للإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح** مجلسٌ لمذاكرة الحديث، فذُكِرَ له حديث لم يعرفه، فانصرف إلى منزله ودخل غرفته وأوقد السراج وقال لأهله: لا يدخلن أحد منكم عليَّ في هذه الغرفة، فقالوا له: قد أهديتْ لنا سلة بها تمر، فقال: قدِّموها إليَّ، فقربوها إليه وانصرفوا، فجعل يبحث عن ذاك الحديث،

---

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي.
(٢) تذكرة الحفاظ: (١٢١٩/٤٠) بتصرف.
(٣) السير: (١٠٦/١٧).

ويأخذ تمرة تمرة يمضغها، فأصبح وقد فني التمر، ووجد الحديث، فكان مرضه من تلك الأكلة ثم مات بسببها(١).

وقد ذكر الإمام الزُرقاني أن **يحيى بن يحيى الليثي** كان تلميذًا عند إمام دار الهجرة مالك بن أنس في مسجد رسول الله ﷺ، فجاء فيل عظيم بجانب المسجد، فخرج الطلاب لرؤيته ولم يبق إلا يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي، فقال له الإمام مالك: لِمَ لم تخرج لترى الفيل وهو لا يكون ببلادك؟ فقال يحيىٰ: جئت من الأندلس لأراك لا لأرى الفيل، إنما رحلت لأتعلم من علمك وهديك، فأعجب به الإمام مالك وقال له: أنت عاقل الأندلس.

وأكثر أهل الدنيا اليوم يشدون الرحال ويفارقون الأوطان لرؤية الفيل والنعام!!

وهذا **ابن المكوي القرطبي أحمد بن عبد الملك**، وكان قد حبب إليه الدرس مدة عمره، لا يفتر عنه ليله ونهاره، وجعلت فيه لذته، حتَّى أنَّه في أحد الأعياد جاءه صديق له ليهنئه، فوجد بابه مفتوحًا فدخل الدَّار وأرسل إليه خادمه ليخرج إليه، فأبطأ عليه ابن المكوي ولم يخرج إليه، فأرسل إليه خادمه مرَّة أخرى، وبعد قليل خرج إليه ابن المكوي ومعه كتاب يقرأ فيه، ولم يشعر بصديقه الذي ينتظره حتى اصطدم به، لاشتغاله بالقراءة في الكتاب، فانتبه ابن المكوي حينئذ وسلَّم على صديقه، واعتذر إليه عما حصل بأنه كان مشغولاً ببحث مسألة مهمة، فلم يتركها حتى فتحها الله عليه، فقال له صديقه: أتقرأ في يوم عيد ويوم راحة؟

---

(١) تاريخ نيسابور.

فقال: والله ما لي راحة ولا لذة إلا في طلب العلم والنظر في الكتب.

وكان **ابن المبارك** يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النَّبيِّ ﷺ وأصحابه[١].

قال **شقيق البلخي**: قيل لابن المبارك: إذا أنت صليت لِمَ لا تجلس معنا؟ قال: أجلس مع الصحابة والتابعين، أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس[٢].

وهذا طالب العلم يتحدث عن نفسه ويدفع التهمة بعيدًا عن أرضه:

يقــــولـــون لـــــي فيـــك انقبـــاض وإنمــــا
رأوا رجـــلاً عـــن مــوقـــف الـــذل أحجمــــا

أرى النـــاس مـــن دانـــاهـــم هـــان عنـــدهـــم
ومـــن أكـــرمتـــه عـــزة النفـــس أكـــرمــــا

ولـــم أقـــضِ حـــق العلـــم إن كنـــت كلمـــا
بـــدا مطمـــع صيَّـــرتـــه لـــــي سُلَّمــــا

وأُكـــرم نفســـي أن أُضـــاحـــك عـــابسًـــا
وأن أتلقَّـــى بـــالمـــديـــح مُـــذمَّمــــا

ولـــم أبتـــذل فـــي خـــدمـــة العلـــم مهجتـــي
لأخـــدم مـــن لاقيـــت لكـــن لأخـــدمـــا

أأشقـــى بـــه غـــرسًـــا وأجنيـــه ذلَّـــةً
إذًا فـــاتبـــاع الجهـــل كـــان أحـــزمـــا

---

(١) السير: (٨/ ٣٨٢).

(٢) السير: (٨/ ٣٩٨).

فـــإن قلـــت زنـــدُ العلـــم كـــابَ فـــإنمـــا
كبـــا حيـــن لـــم نحـــرس حمـــاه وأظلمـــا

قال مكحول: ما عُبدَ الله بشيء أفضل من الفقه.

قال الحسن البصري: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء[١].

وعن مِسْعَر بن كِدام قال: أتيت أبا حنيفة في مسجده فرأيته يصلِّي الغداة، ثمَّ يجلس يعلِّم النَّاس العلم إلى الظُّهر، ثمَّ يصلِّي ويجلس للنَّاس طول نهاره إلى العشاء، فقلت في نفسي: متى يتفرَّغ هذا للعبادة، لأتعاهدنَّه الليلة، فتعاهدته، فلمَّا كان اللَّيل انتصب في المسجد قائمًا إلى الصَّباح فصلَّى الفجر ثمَّ جلس للنَّاس إلى العشاء الآخرة، ثمَّ فعل في اللَّيلة الآتية كفعله في الماضية، ثمَّ تعاهدته ففعل ذلك أيَّامًا كثيرة، فقلت: لألزمنَّه حتَّى أموت. فيقال: إنَّ مِسْعرًا مات في مسجد أبي حنيفة وهو ساجد[٢].

ولأن طلب العلم عبادة وتعليمه قُربة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلابد له من آداب وأخلاق.

ليس العلم بكثرة الرِّواية ولكن العلم الخشية[٣].

وتأمل ذلك في علماء بعض الأمصار تجد أن لديهم علمًا شرعيًا وافرًا ولكن لا ترى أثر ذلك عليهم في مظهرهم ومخبرهم. فذاك مسبل ثيابه،

---

(١) الإحياء: (١/١٨).
(٢) تاريخ بغداد: (١٣/٣٥٦).
(٣) الفوائد ص (١٩٣).

وآخر يجاهر بشرب الدخان، وثالث خالف أمر الرسول ﷺ وحلق لحيته!!

قال **ابن المبارك**: طلبنا العلم للدُّنيا فدلنا على ترك الدنيا[(١)].

وقال **الحسن** مبيناً أثر العلم على من حمله: قد كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه، وفي لسانه وبصره وبره[(٢)].

عن أبي عصمة بن عصام البيهقي قال: بت ليلة عند **أحمد بن حنبل**، فجاء بالماء فوضعه، فلمَّا أصبح نظر في الماء فإذا هو كما كان فقال: سبحان الله، رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل[(٣)].

وقال عبدالرحمن بن مهدي: سمعت **سفيان** يقول: مابلغني عن رسول الله ﷺ حديث قط إلا عملت به ولو مرة[(٤)].

لما جلس **الإمام الشَّافعي** بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه، لما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إنِّي أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية[(٥)].

وقال **الإمام أحمد**: ما كتبتُ حديثاً إلا وقد عملت به، حتى مرَّ بي أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت[(٦)].

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٤٥).
(٢) الزهد لأحمد ص (٢٢٨).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٣٣٩).
(٤) السير: (٧/ ٢٤٢).
(٥) الجواب الكافي ص (٩٨).
(٦) السير: (١١/ ٢١٣).

عن أبي سلمة الخزاعي قال: كان مالك إذا أراد أن يخرج يحدث توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ومشَّط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: أوقِّر حديث رسول الله ﷺ[١].

وعن معن بن عيسى قال: كان مالك إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل، وتبخر، وتطيب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه قال: قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] فمن رفع صوته عند حديث النبي ﷺ فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ[٢].

ويجب على طالب العلم الحذر من المعاصي والابتعاد عن المحرمات؛ فإن هذا العلم نور لا يجتمع مع المعصية، بل إنها تنازعه البقاء في القلب.

قال الإمام مالك: إنما يصلح لهذا الحفظ ترك المعاصي.

وقال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأن العلم فضل
وفضل الله لا يؤتاه عاصي[٣]

قال وكيع: كنَّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به[٤].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٧٦).
(٢) المرجع السابق.
(٣) الجواب الكافي ص ٩٨.
(٤) الباعث الحثيث ص ١٥٨.

قال **سعيد بن جبير**: ربما أتيت ابن عباس، فكتبتُ في صحيفتي حتى أملأها، وكتبتُ في نعلي حتى أملأها، وكتبتُ في كفِّي، وربما أتيته فلم أكتب حديثاً حتى أرجع، لا يسأله أحدٌ عن شيء[١].

وقال **سفيان بن عيينة**: من عمل بما يعلم كفي ما لم يعلم[٢].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: كل عاص لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنَّما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعصه[٣].

كتب رجل إلى **ابن عمر** أن اكتب إليَّ بالعلم كله: فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استعطت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم، فافعل[٤].

وكان طلب العلم عندهم طريقًا إلى الآخرة وسلمًا إلى الدرجات العلا. ولذا هجروا ما يبعد عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والدار الآخرة.

قال **عيسى يونس**: لم يكن في أسناني أبصر بالنجوم مني، فدخلني منه نخوة فتركته[٥].

ولهذا روي عن **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال لميمون بن مهران: إياك والنظر في النجوم؛ فإنها تدعو إلى الكهانة، وإيَّاك والقدر،

---

(١) السير: (٤/ ٣٣٥).
(٢) السير: (٨/ ٤٦٧).
(٣) الإيمان ص ١٩.
(٤) السير: (٣/ ٢٢٢).
(٥) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٨٠).

فإنه يدعو إلى الزندقة، وإياك وشتم أحد من أصحاب محمد ﷺ؛ فيكبك الله في النار على وجهك[١].

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إني لأحسبُ الرَّجل ينسى العلم كان يعلمه للخطيئة يعملها.

وقال وكيع: استعينوا على الحفظ بترك المعصية[٢].

قال وهيب بن الورد: عجبًا للعالم كيف تجيبه دواعي قلبه إلى ارتياح الضحك، وقد علم أن له في القيامة روعات ووقفات وفزعات[٣].

وقال الإمام الشافعي: من أحب أن يفتح الله له قلبه أو ينوِّره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه، وترك الذنوب واجتناب المعاصي، ويكون له فيما بينه وبين الله خبية من عمل، فإنه إذا فعل ذلك فتح الله عليه من العلم مايشغله عن غيره، وإن في الموت لأكثر الشغل[٤].

قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس[٥].

وقال الإمام مالك للشافعي أول ما لقيه: إنِّي أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية[٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: والله ـ سبحانه ـ جعل ممَّا يعاقب به

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.
(٢) روضة العقلاء ص ٢٩.
(٣) حلية الأولياء: (٨/ ١٤١).
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي: (٢/ ١٧١).
(٥) التذكرة ص (١٤٩).
(٦) إعلام الموقعين: (٤/ ٢٥١).

النَّاس على الذُّنوب سلب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٨٨].

وقال: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠].

وقال: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥][١].

عن يزيد بن أبي حبيب ـ رضي الله عنه ـ قال: من فتنة العالم أن يكونَ الكلام أحب إليه من الاستماع، وإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة وزيادة في العلم، والمستمع شريك المتكلم في الكلام، إلا من عصم الله، ترمق وتزيد وزيادة ونقصان[٢].

عن أيوب العطَّار أنَّه سمع بشرًا (ابن الحارث) يقول: حدثنا حماد ابن زيد ثمَّ قال: أستغفر الله، إن لذكر الإسناد في القلب خُيلاء[٣].

وقال الإمام سحنون: سرعة الجواب بالصَّواب أشدَّ فتنة من فتنة المال[٤].

وذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «مدارج السالكين» في منزلة الخشوع: ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٤/ ٢٥٥).
(٢) الصمت ص ٨٩.
(٣) السير: (١٠/ ٤٧٠)
(٤) السير: (١٢/ ٦٩).

من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيرًا مايتمثل بهذا البيت:

أنـــا المكـــدي وابـــن المكـــدي
وهكـــذا كـــان أبـــي وجـــدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أُجددُ إسلامي كل وقت، وما أسلمتُ بعد إسلامًا جيدًا.

قدس الله روحه. فهو يرسم صورًا عملية من التواضع، وإلا فهو من أئمة السلف ومن عائلة علم ودين نفع الله بها الإسلام والمسلمين، ولا تزال مؤلفات عائلة ابن تيمية في الأمة، تُصدر عنها وترجع إليها؛ فما فيها من علم والتزام بمنهج السلف الصالح القائم على الكتاب والسُّنة.

روي عن **بشر بن الحارث** أنَّه قيل له: ألا تُحدِّثُ؟ قال: أنا أشتهي أن أحدِّث، وإذا أشتهيت شيئًا تركته[١].

وعن أبي داود السجستاني قال: لم يكن **أحمد بن حنبل** يخوض في شيء يخوض فيه الناس من أمرالدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم.

ولمَّا عزم **الإمام مالك** على تصنيف «الموطأ» قيل له: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد عمل العلماء الموطآت؟! فقال: ما كان لله يبقى.

أيُّها الحبيب:

من علامات السَّعادة والفلاح: أنَّ العبد كلَّما زيد في علمه زيدَ في تواضعه ورحمته، وكلَّما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلَّما زيد

---

(١) السير: (١٠/ ٤٧٠).

في عمره نقص من حرصه، وكلَّما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلَّما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من النَّاس وقضاء حوائجهم والتَّواضع لهم.

وعلامات الشَّقاوة: أنَّه كلَّما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه، وكلَّما زيد في علمه زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلَّما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام[١].

قال **ابن الجوزي** مفصلاً الأمر: ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزًا ولا شرفًا ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة؛ فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعند الخلق؛ لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قدر المخالطة لهم، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم.

وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصًا في أمر مباح هان عندهم. فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم.

فقد قال **بعض السلف**: كنَّا نمزح ونضحك، فإذا صرنا يُقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك.

وقال **سفيان الثَّوري**: تعلَّموا هذا العلم واكظموا عليه، ولا تخلطوه بهزل فتَمُجُّه القلوب.

فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر.

---

(١) الفوائد ص (٢٠٣).

وقد قال ﷺ لعائشة: «**لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لهدمت الكعبة، وجعلت لها بابين**»(١).

وقال **أحمد بن حنبل** في الركعتين قبل المغرب: رأيت الناس يكرهونهما فتركتهما.

ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء، إنما هذه صيانة للعلم.

وبيان هذا أنَّه لو خرج العالم إلى النَّاس مكشوف الرَّأس أو في يده كسرة يأكلها قلَّ عندهم وإن كان مباحًا، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية.

فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظًا لهم، ومتى أراد مباحًا فليستتر به عنهم.

وهذا القدر الذي لاحظه أبو عبيدة حين رأى **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ قد قَدِمَ الشَّام راكبًا على حمار ورجلاه من جانب، فقال: يا أمير المؤمنين! يتلقاك عظماء النَّاس. فما أحسن ما لاحظ!

إلا أن عمر ـ رضي الله عنه ـ أراد تأديب أبي عبيدة بحفظ الأصل فقال: إن الله أعزكم بالإسلام، فمهما طلبتم العز في غيره أذلكم.

والمعنى: ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الأفعال، وإن كانت الصور تلاحظ؛ فإن الإنسان يخلو في بيته عريانَ، فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين وعمامة ورداء، ومثل هذا لا يكون تصنُّعًا ولا ينسب إلى كبر.

وقد كان **مالك بن أنس** يغتسل ويتطيب ويقعد للحديث.

ولا تلتفت يا هذا إلى ما ترى من بذل العلماء على أبواب السَّلاطين،

---

(١) رواه الترمذي، وقال الإمام الألباني عنه صحيح.

فإن العزلة أصون للعالم والعلم، وما يخسره العلماء في ذلك أضعاف ما يربحونه.

وقد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاة وعن قول هذا سكتوا عنه، وهذا فعل الحازم.

فإن أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك، وكن متعزلاً عن أهلك يطب لك عيشك، واجعل للقاء الأهل وقتًا، فإذا عرفوه تصنعوا للقائك، فكانت المعاشرة بذلك أجود.

وليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك. واحترس من لقاء الخلق وخصوصًا العوام.

واجتهد في كسبٍ يعفُّك عن الطمع، فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا.

وقد قيل لابن المبارك: ما لك لا تُجالسنا؟ فقال: أنا أذهب فأجالس الصَّحابة والتَّابعين، وأشار بذلك إلى أنَّه ينظر في كتبه.

ومتى رزق العالم الغنى عن الناس والخلوة، فإن كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته، وإن رزق فهمًا يرتقي إلى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات.

نسأل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ همَّة عالية تسمو إلى الكمال، وتوفيقًا لصالح الأعمال، فالسَّالكون طريق الحقِّ أفراد[١].

قال ابن مسعود: لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم

---

(١) صيد الخاطر ص ٣١٢.

وفعلكم ما عند الله؛ فإنه يبقى ويذوب ما سواه[١].

أيُّها المسلم:

لقد كان همُّهم من هذا العلم إيصال الحقِّ ونشره، فلا حظوظ للنَّفس، ولا مباهاة بالعلم، ولا جدالاً ومراء، ولا استعلاءً وزهوًا.

قال **الشافعي**: ما نظرت أحدًا فأحببت أن يخطىء[٢].

كان **مالك** يقول: المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل[٣].

وقال الربيع: سمعت **الشافعي** يقول: المراء في الدين يُقَسِّي القلب، ويُورث الضغائن.

وقال **الشافعي**: وددت أنَّ النَّاس تعلموا هذا العلم ـ يعني كتبه ـ على أن لا ينسب إليَّ منه شيء[٤].

وهذه الصفات الحميدة والأخلاق السامية تزينها وتجملها صفات عملية في مجالسهم، فهي وإن كانت طاعة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أولاً فإنها تربية عملية لتلاميذهم وطلابهم.

قال مسلم بن جنادة: جالست **وكيعًا (ابن الجراح)** سبع سنين فما رأيته بزق ولا مس حصاة، ولا جلس مجلسه فتحرك، ولا رأيته إلا مستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله[٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٨.
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢٥١).
(٣) جامع العلوم والحكم ص ١١٣.
(٤) السير: (١٠/ ٢٩).
(٥) تذكرة الحفاظ: (١/ ٣٠٧).

وقال الحسن: اطلبوا العلم، وزينوه بالوقار والحلم(١).

وقد روي عن أبي حنيفة أنَّه قال: ضحكت مرَّة وأنا من النَّادمين على ذلك، وذلك أنِّي ناظرت عمرو بن عبيد القدري، فلمَّا أحسست بالظفر ضحكت، فقال لي: تتكلم في العلم وتضحك، فلا أكلمك أبدًا. وأنا من النادمين على ذلك، إذ لو لم يكن ضحكي لرددته إلى قولي، فكان في ذلك صلاح العلم(٢).

وإذا كان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بمنه وتوفيقه قد جمع للعالم علمًا وخُلقًا، فهل يليق به أن يتنكر لذلك ويترك الناس على جهلهم وقلة علمهم، أم أنَّه من ورثة الأنبياء الذين يبلغون الرسالة ويؤدون الأمانة؟!

قال ربيع بن أبي عبدالرحمن: لا ينبغي لأحدٍ عنده شيءٌ من العلم أنْ يُضيِّعَ نفسه(٣).

أخي الحبيب:

كم لدينا ممن معهم من العلم ما يكفي لإلقاء الدروس والمواعظ؟ بل كم لدينا ممن يحسنون قراءة الفاتحة وقصار السور ونرى حولهم من كبار السن من يجهلون أم الكتاب؟! ولكن أين هم؟! وهل يُعذرون أمام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟!

قال أبو بكر بن عياش: الدخول في العلم سهل، ولكن الخروج منه إلى الله شديد(٤).

---

(١) الإحياء: (٣/ ١٨٩).

(٢) تنبيه الغافلين: (١/ ١٥).

(٣) رواه الخاري في ترجمة باب: (١/ ١٦٢).

(٤) السير: (٨/ ٣٠٥).

وعندما سُئل **يحيىٰ بن معين**: أيفتي الرَّجل إذا كان حافظًا لمائة ألف حديث؟ قال: لا.

قلت: ومن مائتي ألف حديث؟ قال: لا.

قلت: ثلاثمائة ألف؟ قال: لا.

قلت: خمسمائة ألف حديث؟ قال: أرجو.

أي إذا كان خمسمائة ألف حديث يفقهها ويعرف أحكامها فهذا هو العالم حقًا الذي ينبغي أن يُعتدَّ بقوله ويعمل بفتواه.

وروى ابن الجوزي في مناقب **الإمام أحمد** عن عبدالرحمن البغوي قال: مرَّ عليَّ أحمد بن حنبل جائيًا من الكوفة ومعه كيس فيه كتب فقلت له: إلى متى وأنت تطلب العلم؟ إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث ألا يكفيه ذلك؟ فسكت عنِّي، فقلت: ستين ألف؟ فسكت عني، فقلت: مائة ألف حديث؟ فقال أحمد: إذا كتب مائة ألف حديث فحينئذ يكون قد عرف شيئًا من العلم.

هذه هي بعض صفات العلماء فقل لي بربك: كم شخصًا في هذا الزمان يستحق أن يلقب بالعالم؟ وإذا أردت أن تعرف من هم العلماء؟ فاستمع إلى **الشعبي** ـ رحمه الله ـ وهو يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء قط إلا حفظته، وما سمعتُ من رجل حديثًا فأردت أن يعيده عليَّ، وإني الآن لكأني أنظر إلى أكثر من سبعين ألف حديث في كتابي[١].

هؤلاء حقًا هم العلماء وهم الحفَّاظ! ثم تأمل قلة عدد العلماء من بين

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي جـ ٢.

سائر أفراد الأمة ثم هؤلاء العلماء، ما أقل العاملين فيهم بعلمهم الذين يُرى عليهم!

استمع إلى مكانة أهل العلم في قلوب الناس يحدثك عنها الإمام **أبو هلال العسكري** فيقول: إذا كنت أخي ترغب في سمو القدر ونباهة الذكر، وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمس عزًا لا تثلمه الأيام والليالي، وإذا كنت تلتمس هيبةً من غير سلطان، وغنى من غير مال، ومنعة بغير سلاح، وعلاءً من غير عشيرة، وأعوانًا بغير أجر، وجندًا بلا ديوان وفرض «أي راتب» فعليك بالعلم، فاطلبه في مظانِّه تأتيك المنافع عفوًا، وتَلْقَ ما يعتمد منها صفوًا، واجتهد في تحصيله ليالي قلائل، ثم تذوق حلاوة الكرامة مدة عمرك.

واستمع إلى هذه القصَّة العجيبة التي تروى عن الوزير **نظام الملك**، فقد كان يملي الحديث على النَّاس في الرَّي مع كونه وزيرًا، فلمَّا فرغ قال: إنِّي أعلم أنِّي لست أهلاً لما أقوم به من إملاء حديث رسول الله ﷺ، لكنِّي أريد أنْ أربط نفسي على قطا نقلة حديث رسول الله ﷺ.

ولقد بلغ من إجلال النَّاس لأهل العلم، أن أولاد الخليفة كانوا يقدمون للعالم حذاءه إذا أراد الانصراف؛ فقد كان **الفراء** يُعلِّم ويؤدِّب ولدي الخليفة المأمون، فلمَّا كان ذات يوم قام الفرَّاء لينصرف، فاستبق ولدا الخليفة إلى نعليه، كل منهما يريد أن يقدِّمَها له، فتنازعا أيهما يقدمها له، ثمَّ اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهم فردة، فقدماها. ووصل الخبر إلى الخليفة المأمون، فاستعدى الفرَّاء، فلمَّا دخل عليه قال له المأمون: من أعز الناس؟ فقال: ما أعرف أحدًا أعزَّ من أمير المؤمنين، فقال المأمون: بلى، من إذا نهض تقاتل وليا عهد المسلمين على تقديم

نعليه إليه، حتَّى رضي كل منهما أنْ يقدم فردة، فقال الفرَّاء: لقد أردت منعهما من ذلك، فقال المأمون: لو منعتهما لغضبتُ عليك، ولقد زاد ما فعلاه من شرفهما عندي[١].

وهذا **أسد بن الفرات** ـ رحمه الله ـ أحد القادة الفاتحين رحل وهو في الثَّامنة عشرة من عمره إلى المدينة، وسمع كتاب الموطأ على الإمام مالك، ثمَّ رحل إلى العراق ودرس عند محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، ثمَّ رحل إلى مصر، ثمَّ رجع إلى بلدة القيروان وتولَّى منصب القضاء، وفي عام ٢١٢هـ ولاه الأمير قيادة الجيش الإسلامي المتوجه لغزو صقلية، فلمَّا خرج الجيش خرج النَّاس يودعونه في موكب عظيم، فلمَّا رأى أسد بن الفرات النَّاس أمامه وخلفه يودعونه خطبهم فحمد الله ثمَّ قال: يا معشر النَّاس! لا إله إلا الله وحده لا شريك له والله ما ولي لي أبٌ ولا جد ولاية قطُّ، ولا أحد من سلفي رأى هذا قط (يعني الاحترام والتكريم) وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام، فأجهدُوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، واصبروا على شدته؛ فإنكم تنالون به خير الدنيا والآخرة.

واستمع إلى **الإمام ابن القيم** ـ رحمه الله ـ في كتابه «مفتاح دار السعادة» وهو يحدِّثك عن سلطان العلم وهيبته وعزته في النُّفوس والقلوب فيقول: سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد النَّاس للحجَّة ما لا ينقادون لليد، فإنَّ الحجَّة تنقاد لها القلوب، وأمَّا اليد فإنَّما ينقاد لها البدن، فالحجَّة تأسر القلب وتقوده، بل سلطان الجاه إذا لم يكن

---

(١) تاريخ بغداد: (١٤/ ١٥).

معه علم يُساس به فهو بمنزلة سلطان السِّباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة.

وسلطان العلم نراه واقعًا ملموسًا في حياتنا لا يحتاج إلى بسط وإيضاح، فمن يذهب للعلماء للسلام عليهم أكثر بكثير ممَّن يذهب إلى الوزراء والحكَّام وغيرهم من أهل الدُّنيا!!

قال **سالم بن أبي الجسد**: اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني فقلت: بأي شيءٍ أحترف؟ فاحترفت العلم، فماتمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائرًا فلم آذن له[1].

وقال حمَّاد بن سليمان: دخلتُ على **حمَّاد بن سلمة**، فإذا ليس في البيت إلا حصير، وهو جالس وفي يده مصحف يقرأ فيه وجراب فيه عِلمُه، ومطهرة يتوضَّأ منها، فبينما أنا جالس إذ دقَّ الباب، فقال حماد: يا حبيبة! اخرجي فانظري من هذا؟ فقالت: رسول محمد بن سليمان إلى حمَّاد بن سلمة، فأذن له فدخل، فقال بعد أن سلَّم:

أما بعد، فصبَّحك الله بما صبَّح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة، فائتنا نسألك عنها والسلام.

فقال: يا حبيبة! هلمَّ الدواة، ثمَّ قال لي: اقلب كتابه واكتب:

أما بعد، فأنت صبَّحك الله بما صبَّح به أولياءه وأهل طاعته، إنَّا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا، فإن وقعت لك مسألة فائتنا وسَلْ ما بدا لك، فإن أتيتني فلا تأتني بخيلك ورجالك، فلا أنصح لك ولا أنصح إلا نفسي، والسلام.

---

(١) الإحياء: (١/١٩).

فبينما أنا جالس إذ دق الباب، فقال: ياحبيبة! اخرجي فانظري من هذا؟ قالت: محمد بن سليمان. قال: قولي له يدخل وحده، فدخل وجلس بين يديه ثم ابتدأ فقال: ما لي إذا نظرت إليك امتلأت منك رعبًا؟.

فقال: ما تقول - رحمك الله - في رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟

فقال حمَّاد: لا يفعل - رحمك الله -، فإنِّي سمعت أنسًا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أراد الله أنْ يعذِّب عبدًا من عباده في حياته وفَّقه إلى وصية جائرة**» فعرض عليه مالاً فلم يقبل وخرج.

وقال ابن جريج: كان المسجد فراش **عطاء بن أبي رباح** عشرين سنة!

وقال إسماعيل بن أمية: كان **عطاءٌ** يطيل الصمت، فإذا تكلم خُيل إلينا أنَّه مؤيد. وكان أسود، أعورَ، أفطَسَ، أشلَّ، أعرجَ، ثمَّ عمى! ففي جسمه ستة عيوب، ولكنَّه كان رُكنًا من أركان العلم والدين والصلاح والقُدوة، وكان ثقة فقيهًا، حجَّ نيِّفًا على سبعين حجَّةً[١].

قال **الزبير بن أبي بكر**: كتب إليَّ أبي وهو بالعراق يقول لي: عليك بالعلم؛ فإنَّه إن افتقرت كان لك مالاً، وإن استغنيت كان لك جمالاً.

وقد جمع **معاذ بن جبل** - رضي الله عنه - فضائل العلم فقال: تعلَّموا العلم، فإنَّ تعلُّمه حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه

(١) تذكرة الحفاظ: (١/ ٩٨).

جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قُربة، ألا إنَّ العلم سبيل منازل أهل الجنَّة، وهو المؤنس في الوحشة، والصَّاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدَّليل على السَّرَّاء، والمعين على الضَّراء، والزَّين عند الأخلَّاء، والسَّلام على الأعداء، يرفع الله له أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة أئمة، تقتفي آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وترغب الملائكة في خُلتهم، وبأجنحتها تمسهم، ويصلي عليهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوام الأرض وسباع البر والبحر والأنعام، لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوَّة الأبدان من الضَّعف، ويبلغ بالعبد منازل الأخيار والأبرار والدَّرجات العلا في الدُّنيا والآخرة، والتَّفكر فيه يعدل بالصِّيام، ومذاكرته تعدل بالقيام، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، ويلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء[(١)].

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك[(٢)].

وكان سليمان بن حرب: أحد شيوخ الإمام البخاري، قد وضع له منبر خاص في بغداد على مقربة من قصر الخلافة، في مكان مرتفع، لكي يجلس عليه، ويملي الأحاديث، وكان أمير المؤمنين مأمون الرشيد وجميع أفراد الخلافة يحضرون مجلسه، وكل كلمة كانت تخرج من فم

---

(١) تنبيه الغافلين: (٢/ ٤٦٦).
(٢) الإحياء: (١/ ١٨).

سليمان بن حرب يكتبها أمير المؤمنين بيده، وقد عُدَّ الحاضرون فكان أربعين ألف نسمة[(١)].

أمَّا أهمية العلم والعلماء وحاجة الناس إليهما فهو كما ذكره **الإمام أحمد بن حنبل**: النَّاس يحتاجون إلى العلم مثل الخبز والماء؛ لأنَّ العلم يحتاج إليه في كل ساعة، والخبز والماء في كلِّ يوم مرَّة أو مرتين[(٢)].

ولذلك قال **ابن القيم** في مدح الفقهاء والعلماء: فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال من الحرام، فهم في الأرض بمنزلة النُّجوم في السماء، بهم يُهتدى في الظلماء، حاجة النَّاس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

قال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ في إحدى الروايتين عنه، وجابر بن عبد الله، والحسن البصري وأبو العالية، وعطاء والضَّحَّاك، ومجاهد في إحدى الرِّوايتين عنه: أولو الأمر هم العلماء.

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: هم الأمراء. وهي الرِّواية الأخرى عن ابن عباس.

والتحقيق. أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء[(٣)].

---

(١) تذكرة الحفاظ: (١/ ٣٩٣).

(٢) شذرات الذهب: (٢/ ١٧٦).

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم: (١/ ٩).

إذا كانت هذه منزلتهم وهذه مكانتهم فإن الأمر في طاعتهم ومحبتهم كما قال علي ـ رضي الله عنه ـ: ومحبة العالم دين يدان بها.

وكثير من جهلة الناس اليوم يثنون أبناءهم عن دراسة العلوم الشرعية وأنَّها لا فائدة منها، وماعلموا أنَّها أساس الفلاح والصلاح!! ولو رأوا حال أصحاب العلوم الأخرى لما فعلوا. فهذا الوزير، وذاك القائد، كأن على رؤسهم الطير إذا دخل في المجلس عالم. فالناس تتجه له وتسأله وتنسى الوزير والكبير. أليس كذلك؟!!

قال سهل التستري: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم سكارى إلا العاملون بالعلم، والعاملون مغرورون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر.

قال الإمام الآجري: فما ظنكم ـ رحمكم الله ـ بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيه ضياء وإلا تحيروا، فقيَّض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم، فسلكوه على السلام والعافية، ثم جاءت طبقات من الناس، لابد لهم من السلوك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح فبقوا في الظلمة، فما ظنكم بهم؟ هكذا العلماء في الناس، لا يَعْلَم كثيرٌ من الناس كيف أداء الفرائض ولا كيف اجتناب المحارم، ولا كيف يُعبد الله في جميع ما يعبد به خلقه إلا ببقاء العلماء فإذا مات العلماء تحير الناس، ودرس العلم بموتهم، وظهر الجهل[١].

واستمع إلى أبي الوفاء بن عقيل وهو يصف ما لأهل العلم عند الله

---

(١) أخلاق العلماء ص ٩٦.

ـ تعالى ـ فيقول: حاشا المبدىء الخالق لهم على تلك الأشكال والعلوم، أن يرضى لهم بتلك الأيام اليسيرة، لا والله لا رضي لهم إلا بضيافة تجمعهم على مائدة تليق بكرمه سبحانه، نعيم بلا ثبور، وبقاء بلا موت، واجتماع بلا فرقة، ولذات بغير نغصة.

بل لقد بلغ من شرف العلم عند الناس أن ملوك الأرض وسلاطينها كانوا يتمنون أن يكونوا من أهل العلم، فمن ذلك ما رواه ابن عساكر عن محمد بن سلام الجمحي قال: قيل **للخليفة المنصور**: هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تحصله؟ فقال: بقيت خصلةٌ أن أقعد على سرير المدرس وحولي طلاب الحديث فيقول المستملي: حدثنا، فأقول: حدثنا فلان عن فلان.. عن رسول الله ﷺ، قال محمد بن سلام: فلمَّا كان الصباح غدا الوزراء وأبناؤهم، ومعهم المحابر والدفاتر، ودخلوا على المنصور ليكتبوا عنه الحديث ويحققوا له ما تمناه، فلمَّا رآهم المنصور قال: لستم بأصحاب الحديث الذين أريدهم إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلُهُم، الرحالون في البلدان(١).

قال الأعمش: إذا رأيت الشَّيخ لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له (أي الطمه)، فإنَّه من شيوخ القمراء، قيل: وما شيوخ القمراء؟ قال أبو جعفر: هم شيوخ دهريون، يجتمعون في ليالي القمر، يتذاكرون أيام الناس ولا يُحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة(٢).

وقال مبينًا قدر نفسه وقدر العلم الذي يحمله والذي رفع قدره وأنزله

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٧٧.

(٢) مفتاح دار السعادة جـ ٢.

منزلة عالية: لولا القرآن وهذا العلم عندي لكنت من بقالي الكوفة[١].

قال المزني: كان **الشافعي** ـ رحمه الله ـ إذا رأى شيخًا (أي كبير السن) سأله عن الحديث والفقه، فإن كان عنده شيء من العلم سكت عنه وإلا قال له: لا جزاك الله خيرًا عن نفسك ولا عن الإسلام، قد ضيعت نفسك وضيعت الإسلام[٢].

والعلماء لهم سهام من حديث الرسول ﷺ؛ يجري لهم الخير حتى بعد موتهم لما نشروه من العلم وما بينوه للناس.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان (وفي رواية ابن آدم) انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» [رواه مسلم].

قال كميل النخعي: خرجت مع **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ إلى الجبانة (أي الخلاء) فقال لي: يا كُميل! الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وسائر الناس همج رعاع؛ أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح. العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

وكان **الإمام البخاري** كلما حل مدينة أو نزل أرضًا كان المسلمون يزدحمون حوله حيث يفوق الوصف والبيان.

وكان الناس بعد ما سمعوا تلك الأوصاف الخارقة التي وهبها الله لهذا الإمام الجليل؛ من فقه عديم النظير، وذاكرة خارقة، وتبحُّر في العلم،

---

(١) السير: (٦/ ٢٢٩).

(٢) مفتاح دار السعادة جـ ٢.

كانوا يتمنون رؤيته. فإذا نزل مكانًا تجمعوا حوله بحيث لا يكاد يوجد موضع قدم من شدة الزحام وكثرة الناس.

ولمَّا رجع إلى بخارى عائدًا من رحلته الدراسية نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد، حتى لم يبق مذكور إلا ونشر عليه الدراهم والدنانير.

وجرى معه مثل هذا في نيسابور.

قال الإمام مسلم: لما قدم **محمد بن إسماعيل (البخاري)** نيسابور ما رأيت واليًا ولا عالمًا فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث[١].

وكان **الإمام عاصم بن علي** يجلس على سطح في رحبة النخل خارج بغداد، وكان مستمليه هارون يركب نخلة معوجة، وذات مرة أرسل الخليفة المعتصم بالله من يحرز له عدد الحاضرين في مجلسه، فكان عددهم عشرين ومائة ألف[٢].

وكانت طريقة إيصال العلم عن طريق الشيخ بوجود من يبلغ ما قال حتى ينقطع الصوت، ويقوم بهذا العمل عدد من المستملين.

ولما قدم **أبو مسلم الكجي** بغداد أملى في رحبة غسان، فكان في مجلسه سبعة مستملين يبلغ كل واحد منهم الآخر، ويكتب الناس عنه قيامًا، ثم مسحت الرحبة، وحسب من حضر بمحبرة، فبلغ ذلك نيفًا وأربعين ألف خبرة سوى النظارة.

---

(١) مقدمة الفتح ص ٤٩٣.

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٣٩٧).

وأما الذين كانوا يسمعون فقط ولا يكتبون، كانوا خارجين من عدادهم[١].

قال الفربري: إن تسعين ألف رجل أخذ من **البخاري** صحيحه في حياته واستجازوه روايته.

نعم تسعون ألفًا أخذوا إجازة في الحديث من الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ واليوم كم لدنيا من قرأ صحيح البخاري نظرًا.. بل جزءًا منه؟!

قال يحيى بن جعفر: إن مجلس **علي بن عاصم** كان يحضره ثلاثون ألف نسمة[٢].

ولما جاء **يزيد بن هارون** ودرَّس في بغداد قُدِّر عدد الحاضرين بسبعين ألف نسمة.

وعندما عقد **الفريابي** أحد شيوخ الإمام البخاري مجلس إملائه في بغداد كان عدد المستملين ثلاثمائة وستة عشر الذين كانوا يبلغون لفظ الشيخ للنَّاس، وقدر عدد الحاضرين بثلاثين ألفًا[٣].

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهل يستوي العالم والجاهل.

وكل ضرر يصيب العبد في دنياه أو أخراه سببه الجهل، ولذا أخبر الله ـ تعالى ـ أن الجهال هم شر الداوب فقال ـ تعالى ـ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

---

(١) تذكرة الحفاظ: (٢/ ٦٢١).

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٣١٧).

(٣) تاريخ بغداد: (٧/ ٣٠٢).

بل جعل الله الجهال بمنزلة العميان الذين لا يُبصرون فقال ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩] فالجهل أصل الأخلاق الرديئة من الكبر والفخر والظلم والفساد في الأرض.

وقد توعد الله ـ عز وجل ـ من أعرض عن العلم الواجب عليه وعن تعليمه بوعيد شديد فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ والمعنى أن من نسي ربه أنساه الله ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي مابه صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه. ونسيان الإنسان لربه بمعنى إعراضه عن دينه وتركه لتعلم شرعه وأوامره.

واستمع إلى **الإمام ابن القيم** وهو يبين لك حال الجاهل فيقول: العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، الإنسان إنما يتميز عن غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشًا، وإنما مُيز على الحيوانات بعلمه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم. والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيرًا منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل.

ورحم الله من قال:

فليجتهد رجل في العلم يطلبه   كيلا يكون شبيه الشاء والبقر

قال **عمر بن الخطاب**: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العالم خاف، واسترجع عن ذنوبه، وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب. فلا تفارقوا مجالس العلماء؛ فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يخلف على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء[١].

قال **الإمام أحمد**: النَّاس إلى العلم أحوج منهم إلى الطَّعام والشَّراب مرة أو مرتين، أما حاجته للعلم فهي بعدد أنفاسه[٢].

قال **الحسن** ـ رحمه الله ـ: لولا العلماء لصار الناس كالبهائم[٣].

يا طلاب العلم:

كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سُرُج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تُعرفون في السماء وتخفون على أهل الأرض.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: يا أبي! أي رجل كان **الشافعي** فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال لي: يا بنيَّ! كان الشافعي كالشمس للدنيا، والعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلفٍ أو منهما عوض؟[٤].

وقال **كعب الأحبار**: لو أنَّ ثواب مجالس العلماء بدا للنَّاس لاقتتلوا عليه حتَّى يترك كل ذي إمارة إمارته وكل ذي سوق سوقه[٥].

---

(١) الإحياء: (١/ ٤١٣).
(٢) تهذيب مدارج السالكين.
(٣) الفوائد ص ١٩٣.
(٤) تهذيب الكمال: (٢٤/ ٣٧١).
(٥) الإحياء: (١/ ٤١٣).

وقال **سفيان الثوري**: العالم طبيب الدِّين، والدِّرهم داء الدين، فإذا اجترَّ الطبيب الداء إلى نفسه، فمتى يداوي غيره؟[١].

ونحن نسير في رحاب العلماء، وهم ملء السمع والبصر ماضيًا وحاضرًا، نسترشد بقول الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم[٢].

وقد حدَّد ووضح العلماء منهج الطلب وسير المُجدِّ فقال **سفيان الثَّوري**: أوَّل العبادة الصَّمت، ثمَّ طلب العلم، ثمَّ العمل به، ثمَّ حفظه، ثمَّ نشره[٣].

ثم بعد كل هذا انظر وتأمل واعتبر في قول أحدهم.

قال **أبو عمرو بن العلاء**: ما نحنُ فيمن مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال.

قال **شيخ الإسلام** ابن تيمية: ومن له في الأمَّة لسانُ صدق عام بحيث يثنى عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأمة فهؤلاء أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وغلطهم قليلٌ بالنِّسبة إلى صوابهم، وعامته من موارد الاجتهاد التي يُعذرون فيها، وهم الذين يتبعون االعلم والعدل فهم بُعدَاء عن الجهل والظلم، وعن اتباع الظن وما تهوى الأنفس[٤].

❊ ❊ ❊

---

(١) روضة العقلاء ص ٤٣.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ٥٠.
(٣) روضة العقلاء ص ٤٣.
(٤) مجموع الفتاوى: (١١/ ٤٣).

توقير العلماء واحترامهم

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: كنَّا جلوسًا في المسجد إذ خرج رسول الله ﷺ فجلس إلينا فكأنَّ على رؤسنا الطَّير لا يتكَّلم أحدٌ منَّا[١].

وهذا **عبد الله بن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ مع جلالته ومنزلته، كان يأخذ بركاب دابة زيد بن ثابت الأنصاري ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا[٢].

وكان كثير من السلف يقول: ماصليت إلا ودعيت لوالدي ولمشايخي جميعًا[٣].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: وإذا كان الرجل قد علمه أستاذ؛ عرف قدر إحسانه إليه وشكره[٤].

فلا يجتمع التعلم مع الكبر، ولا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

قال **الغزالي**: ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلاً للعلم، والفهم، ثمَّ لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب؛

(١) رواه البخاري.
(٢) أخرجه الحاكم.
(٣) السير: (١٠/ ٨٢).
(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٧).

ليستقبل كل ما ألقي إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة. وليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة ـ أي لينة سهلة ـ نالت مطرًا غزيرًا فتشربت جميع أجزائها وأذعنت لقبوله، ومهما أشار إليه المعلم بطريق في التَّعلم فليتبعه، وليترك رأيه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها. فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لا خبرة له به[١].

وهذا **الإمام مالك** ـ رحمه الله ـ قال لفتى من قريش: يا ابن أخي! تعلَّم الأدب قبل أن تتعلَّم العلم[٢].

وهذا **الليثُ بن سعدٍ** لما أشرف على أصحاب الحديث فرأى منهم شيئًا فقال: ما هذا؟ أنتم إلى يسيرٍ من الأدب أحوجُ منكم إلى كثيرٍ من العلم[٣].

وقد قال **الإمام الشافعي**: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلِّ النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح[٤].

اصبر على مُرِّ الجفا من معلِّم
فإنَّ رسوبَ العلم في نفراتِه
ومن لم يذُق مُرَّ التَّعلم ساعةً
تجرَّع ذُل الجهل طول حياته

---

(١) الإحياء: (١/ ٥٠).
(٢) حلية الأولياء: (٦/ ٣٣٠).
(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٧٠.
(٤) مجموع الفتاوى: (١/ ٣٥).

ومـــن فـــاتـــه التعليـــم وقـــت شبـــابـــه
فكبِّـــر عليـــه أربعًـــا لـــوفـــاتـــه[١]

قال الربيع بن سليمان صاحب الشَّافعي وتلميذه المشهور: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشَّافعي ينظر إليَّ هيبة له.

قال أحمد بن حنبل: لزمت هشيمًا (ابن بشير) أربع سنين ما سألته عن شيء إلا مرتين هيبة له[٢].

ولذا ينبغي للمستفتي أن يحفظ الأدب مع المفتي، ويبجله في خطابه وسؤاله، ونحو ذلك، ولا يومىء بيده في وجهه، ولا يقول له: ما تحفظ في كذا وكذا؟ وما مذهب إمامك الشافعي في كذا وكذا؟ ولا يقل إذا أجابه: هكذا قلت أنا أو كذا وقع لي، ولا يقل له: أفتاني فلان، أو أفتاني غيرك بكذا وكذا، ولا يقل إذا استفتى في رقعة: إن كان جوابك موافقًا لما أجاب فيها فاكتبه، وإلا فلا تكتب[٣].

وما ذاك إلا لمعرفة قدرهم وجمع شملهم، والاستفادة من علمهم بحسن الأدب والتلطف في السؤال.

بل لقد كان الشافعي يقول: إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث كأنِّي رأيت رسول الله ﷺ[٤].

العلـــم ميـــراث النبـــي كمـــا أتـــى
فـــي النـــص والعلمـــاء هـــم ورَّاثـــه

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٢٩.

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٤٩).

(٣) أدب المفتي والمستفتي ص ١٦٨.

(٤) شرف أصحاب الحديث.

مـــا خلـــف المختـــار غيـــر حـــديثـــه فينـــا
فـــــذاك متـــــاعـــــه وأثـــــاثـــــه

والهدى الصَّالح قبس ونور من مشكاة النُّبوة، فقد روى عبد الله بن عباس أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الهدى الصَّالح والسَّمت الصَّالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النُّبوَّة**»[١].

قال يحيىٰ بن معاذ: العلماء أرحم بأمَّة محمَّد ﷺ من آبائهم وأمَّهاتهم، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنَّ أباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدُّنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة[٢].

وعندما مرَّ أعرابيٌّ وابن مسعود يُعلِّم ويُحدِّث طلابه وهم حوله مجتمعون قال الأعرابي: عَلاَمَ اجتمع هولاء؟ فقال ابن مسعود: على ميراث محمد ﷺ يقتسمونه بينهم[٣].

وقال **أبو داود الطيالسي**: لولا هذه العصابة (أي الفئة والجماعة وهم أهل العلم) لاندرس الإسلام.

قال **الشيخ عبد الرحمن السعدي** ـ رحمه الله ـ: وينبغي للمتعلم أن يُحسن الأدب مع مُعلمه، ويحمد الله إذ يسر له من يعلمه من جهله، ويحييه من موته، ويوقظُه من سنته، وينتهزُ الفرصة كل وقت في الأخذ عنه، ويُكثر من الدعاء له حاضرًا وغائبًا؛ فإن النبي ﷺ قال: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتَّى تروا أنَّكم كافأتموه**». وأيُّ معروف أعظم من معروف العلم والنصح والإرشاد؟!

---

(١) رواه أحمد.
(٢) الإحياء: (١/ ٢٢).
(٣) شرف أصحاب الحديث.

فكلُّ مسألة استفيدت عن الإنسان فما فوقها حصل بها نفعٌ لمتعلمها وغيره فإنه معروفٌ وحسناتٌ تجري لصاحبها، وقد أخبرني صاحبٌ لي كان قد أفتى في مسألة في الفرائض، وكان شيخه قد توفي، أنه رآه في المنام يقرأ في قبره، فقال: المسألة الفلانية التي أفتيت فيها وصلني أجرها[١].

وهذا أمر معروف في الشرع: **«من سنَّ في الإسلام سنَّـةً حسنةً فله أجرها وأجرُ من عمل بها إلى يوم القيامة»**.

أخي المسلم:

طلب العلم متيسر وقريب المنال. ومن تلك السبل:

١ ـ الالتحاق بالكليات الشرعية.

٢ ـ حضور الدورات الشرعية التي تعقد بين حين وآخر.

٣ ـ المداومة على دروس العلماء فهي بلسم للجروح ودواء للمرضى.

٤ ـ سؤال العلماء مقابلة أو مهاتفة.

٥ ـ مصاحبة الأخيار والصَّالحين.

٦ ـ زيارة العلماء والاستماع إلى علمهم ونصحهم.

٧ ـ قراءة مؤلفات السلف الصالح والسؤال عما أشكل عليك فيها.

٨ ـ الاستماع إلى أشرطة الدروس العلمية لعلمائنا الأجلاء.

ولا تكن كمن قيل له:

جهِلــــتَ فعـــــاديـــــتَ العلـــــوم وأهلهـــــا
كـــذاك يعـــادي العلـــم مـــن هـــو جـــاهلـــه

---

(١) الفتاوى السعدية ص ١٠١.

ومـــن كـــان يهـــوى أن يُـــرى متصـــدرًا
ويكـــره «لا أدري» أصيبـــت مقـــاتلـــه[(١)]

ذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه، فقال: يا عمِّ، ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر، فقال: لم لا تتعلمه اليوم؟ قال: أوَ يحسن بمثلي طلب العلم؟ قال: نعم، والله لأن تموت طالبًا للعلم خير من أن تعيش قانعًا بالجهل[(٢)].

أخي الحبيب:

قال سهل بن عبد الله: اجهدوا أن لا تلقوا الله إلا ومعكم المحابر[(٣)].

وعليكم بقول ابن المبارك عندما سُئل: لو أوحي إليك أنَّك ميت العشية، ما أنت صانع اليوم؟ قال: أطلب فيه العلم[(٤)].

وحينما رأى بعض الحكماء رجلاً قد جلس على كتاب، فقال: سبحان الله! يصون ثيابه ولا يصون كتابه، لَصَونُ الكتاب أولى من صون الثياب[(٥)].

كان أيوب السختياني إذا بلغه موت رجل من أصحاب الحديث، حزن لذلك حتَّى يُرى أثره فيه، وإذا بلغه موت عابد لم يُرَ ذلك فيه[(٦)].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٤٢.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٤٩.
(٣) شذرات الذهب: (٢/ ١٨٢).
(٤) تنبيه الغافلين: (٢/ ٤٦٧).
(٥) تقييد العلم ص ١٤٧.
(٦) شرف أهل الحديث.

ويقال: العلماء سراج الأمة، فكل عالم مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره. فكن سراج زمانك، بل وسراج بيتك، وسراج نفسك[(١)].

وقال أبو الدرداء: وكأنَّه يُطل على كثير من النَّاس في زماننا هذا: اطلبوا العلم فإن لم تطلبوه فحبوا أهله، فإن لم تحبوهم فلا تبغضوهم[(٢)].

قال علي بن أبي طالب: العالم أفضل من الصَّائم القائم السَّاجد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه[(٣)].

ومع كل هذه المنزلة والمكانة للعالم فإنَّ ذلك لم يتم له إلا بعد تيسير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له وتوفيقه عليه كما قال الشافعي: ينبغي للفقيه أن يضع التُّراب على رأسه تواضعًا لله، وشكرًا له[(٤)].

* * *

---

(١) تنبيه الغافلين: (٢/٤٦٨).
(٢) كتاب الزهد للإمام أحمد ص ٢٠٠.
(٣) الإحياء: (١/١٨).
(٤) السير: (١٠/٥٣).



ولو بشق تمرة

المقدمة

الحمد لله الكريم المتفِّضل بالعطايا والإحسان، والصَّلاة والسَّلام على أجود النَّاس وأبرِّهم؛ نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد فتح الله علينا أبواب جوده وكرمه، فدرَّ الضرع، وكثر الزَّرع وأخرجت الأرض كنوزها؛ ففاضت الأموال بأيدي النَّاس، وأصبحوا في رغد عيش وبحبوحة من الرِّزق. ورغم هذه العطايا العظيمة والنِّعم الجسيمة إلا أنَّ البعض نفسه شحيحة ويده مقبوضة.

فأحببت أن أُذكِّر بفضل الصَّدقة وأثرها في الدُّنيا والآخرة؛ مستهديًا بقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ومستنيرًا بحديث الرَّسول ﷺ، ومذكِّرًا بأفعال السَّلف الصَّالح.

وهذا هو الجزء السَّادس عشر من سلسلة «**أين نحن هؤلاء**» تحت عنوان: «**ولو بشق تمرة**» فيه من الآيات والأحاديث وأطايب الكلام ما يحثُّ على صدقة التَّطوُّع ويرِّغب فيها، فلا أرى أسعد منَّا حالاً ولا أطيب منَّا عيشًا في هذا الزَّمن الذي استرعانا الله فيه أمانة هذه الخيرات لينظر كيف نصنع.

جعلنا الله ووالدينا من الذين يتبوؤن من الجنَّة غُرفًا تجري من تحتها الأنهار.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

قال ـ تعالى ـ في وصف عباده المتَّقين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ٧١ ـ ٩١].

وقد وعد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهو الجواد الكريم الذي لا يخلف الميعاد، بالخلف لمن أنفق، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩].

وأجزل العطية للمنفقين بأعظم ممَّا أنفقوا أضعافًا كثيرة في الدُّنيا والآخرة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وذكر ـ جلَّ وعلا ـ آداب الإنفاق، ورتَّب لمن تمسك بها الأجر والأمن والسَّعادة في الدنيا والآخرة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

والآيات في الحثِّ على الإنفاق كثيرة جدًّا وهي من أبواب الخير العظيمة. وبذل الأموال في الإسلام يُعدُّ جهادًا في سبيل الله، بل إنَّ الجهاد بالمال مقدَّم على الجهاد بالنَّفس في جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الجهاد في القرآن العظيم ما عدا آية واحدة هي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١].

والصَّدقة من أفضل القربات، وهي أفضل من الجهاد، لاسيما إذا كان زمن مجاعة على المحاويج، خصوصًا صاحب العائلة، خصوصًا القرابة، ومن الحج؛ لأنَّه متعدٍ والحج قاصر[١].

ففيها تفريج كربة، وإغناء عن سؤال، وإشباع جائع، وفرحة لصغير، وسرور يدخل على قلب الكبير، وسعادة بين المسلمين. وتتجلَّى في الصَّدقة أسمى صور التَّكاتف والتَّعاون والتَّراحم بين المسلمين.

وفي الصَّدقة من أحاديث الرَّسول ﷺ ما تقرُّ به النُّفوس، وتهنأ به الصُّدور، ويستحث بها المسلم الخُطا إلى جنَّةٍ عرضها السَّماوات والأرض في طريق آمنة مطمئنة.

فعنه ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ أنَّه قال: «**اتَّقوا النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ**»[٢].

وقال ﷺ: **الصَّوم جنَّة، والصَّدقة تطفىء الخطية كما تطفىء الماء النَّار**»[٣].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**سبعةٌ يُظِلُّهُم الله في ظلِّه يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظلُّه**» وذكر منهم رجلاً: «**تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما تنفق يمنيه**»[٤].

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في العطاء والإنفاق حتَّى أتته النُّفوس طائعة والقلوب ملبية.

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: «ما سُئل رسولُ الله ﷺ على الإسلام شيئًا

---

(١) حاشية الروض: (٣/ ٣٣٨).
(٢) متفق عليه.
(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الترغيب والترهيب للألباني.
(٤) متفق عليه.

إلا أعطاه، ولقد جاءه رجلٌ، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم! أسلموا، فإنَّ محمَّدًا يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر...»[١].

وللمُمسكين والمُقترين نبشِّرُهم بحديث الصَّادق الذي لا ينطق عن الهوى حيث قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزاً، وماتواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ**»[٢].

وعنه ﷺ أنَّه قال: «**قال الله ـ تعالى ـ: أنفق يا ابن آدم يُنفق الله عليك**»[٣].

وهذه صورة من صور التَّنافس على الخير بين الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ فعن عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أنْ نتصدَّقَ، ووافق ذلك مالاً عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إنْ سبقته يومًا. قال: فجئت بنصف مالي، قال: فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله. وأتى أبو بكر بكلِّ ما عنده فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[٤].

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: وقد دلَّ النَّقل والعقل والفطرة وتجارب الأمم ـ على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها ـ على أنَّ التَّقرُّب إلى الله ربِّ العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكلِّ خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكلِّ شرٍّ؛ فما استُجلبت نعم الله ـ تعالى ـ واستُدفِعت نِقَمُه بمثل طاعته

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه أبو داود والترمذي.

والتَّقرُّب إليه، والإحسان إلى خلقه.

وقال ـ رحمه الله ـ: من رَفق بعباد الله رفق الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله ـ تعالى ـ بتلك الصِّفة بعينها في الدُّنيا والآخرة، فالله ـ تعالى ـ لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه.

وفي صورة من صور الإيثار في صدر الإسلام التي حفظها التَّاريخ على مرِّ الأيَّام والعصور، ما قاله عمر ـ رضي الله عنه ـ: أُهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاةٍ فقال: إنَّ أخي كان أحوج منِّي إليه؛ فبعث به إليه. فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتَّى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأوَّل[(١)].

كانت هذه أخلاقهم وتلك صفاتهم، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

قال يحيىٰ بن معاذ: ما أعرف حبةً تزن جبال الدُّنيا إلا الحبَّة من الصَّدقة[(٢)].

وكان ابن عمر إذا اشتدَّ عجبه بشيء من ماله قرّبه إلى ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ[(٣)]، وذلك امتثالاً لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢].

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٧٣).
(٢) الإحياء: (١/ ٢٦٧).
(٣) وفيات الأعيان: (٣/ ٣٠).

وكثير من النَّاس اليوم إذا بليت ثيابه أو تقطَّعت نعاله دفع بها إلى الفقراء وكأنَّه يتخلَّص منها!!

قال الفقيه **أبو الليث السمرقندي**: عليك بالصَّدقة بما قلَّ أو كثُر، فإنَّ في الصَّدقة عشر خصال محمودة: خمسة في الدُّنيا، وخمسة في الآخرة.

فأمَّا الخمسة التي في الدُّنيا:

فأوَّلها: تطهير المال كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**يا معشر التجار إن هذا البيع يحضره الحلف والكذب، فشوبوه بالصَّدقة**»[1].

والثَّاني: أنَّ فيها تطهير البدن من الذُّنوب كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والثَّالث: أنَّ فيها دفع البلاء والأمراض كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**داووا مرضاكم بالصَّدقة**».

والرَّابع: أنَّ فيها إدخال السُّرور على المساكين. وأفضل الأعمال إدخال السُّرور على المؤمنين.

والخامس: أنَّ فيها بركة في المال وسعة في الرِّزق كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩].

وأمَّا الخمسة التي في الآخرة:

فأوَّلها: أنْ تكونَ الصَّدقة ظلاًّ لصاحبها من شدَّة الحرِّ.

والثَّاني: أنَّ فيها خفَّة الحساب. **والثَّالث**: أنَّها تثقل الميزان.

والرَّابع: جواز على الصِّراط. **والخامس**: زيادة الدَّرجات في الجنَّة.

ولو لم يكن في الصَّدقة فضيلة سوى دعاء المساكين لكان الواجب على

---

(١) صحيح النسائي بالرقم (٣٥٥٦).

العاقل أنْ يرغب فيها، فكيف وفيها رضا الله ـ تعالى ـ ورغم الشَّيطان؟ وفيها الاقتداء بالصَّالحين؛ لأنَّ الصَّالحين كانت همتهم الصَّدقة[١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فإنَّ الصَّدقة تفدي من عذاب الله ـ تعالى ـ؛ فإنَّ ذنوب العبد وخطاياه تقتضي هلاكه، فتجيء الصَّدقة تفديه من العذاب، وتفكُّه منه؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ في الصَّحيح لما خطب النِّساء يوم العيد: «**يا معشرَ النِّساء، تصدَّقنَ ولو من حليكنَّ؛ فإنِّي رأيتكنَّ أكثر أهل النَّار**» وكأنَّه حثَّهنَّ ورغَّبهنَّ على ما يفدين به أنفسهنَّ من النَّار».

وأثر الصَّدقة واضحٌ على النَّفس، وفي بركة الأموال والأولاد، ودفع البلاء، وجلب الرَّخاء، كما أنَّ المتصدِّق كلَّما تصدَّق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح بها صدره.

وعليك ـ أيُّها المنفق ـ بقول جعفر بن محمد لسفيان الثَّوري: لا يتمُّ المعروف إلا بثلاثة: بتعجله، وتصغيره (في عينك حتَّى وإن كان كبيرًا) وستره[٢].

ومن صور الإنفاق العالية فِعْلُ ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقد كان يستغرق في المجلس ثلاثين ألفًا، ثمَّ يأتي عليه شهر ما يأكل مزعة لحم[٣].

أخي الحبيب:

كانوا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، ويعجِّلون ولا يسوِّفون، ويزرعون في الدُّنيا ويحصدون للآخرة. لم تكن الدُّنيا إلا مطية يعتلونها سيرًا إلى الله، ولم تكن الأموال إلا مركبًا لرضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تسير حيث أمر الله ـ عزَّ

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٤٧.
(٢) صفة الصفوة: (٢/١٦٩)، حلية الأولياء: (٣/١٩٨).
(٣) السير: (٣/٢١٨).

وجلَّ ـ ولهذا كانت الدُّنيا لديهم حقيرةً ذليلةً.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: ثمَّ ينبغي له أنْ يأخذَ المال بسخاوة نفس ليُبارِكَ له فيه، ولا يأخذه بإسرافٍ وهلع، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أنْ يكونَ له في القلب مكانة، والسَّعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء[1].

وقال **يحيى بن معاذ** وكأنَّه يطلُّ على حال كثيرٍ من أهل الدُّنيا: عجبت من ثلاثٍ:

رجلٌ يرائي بعمله مخلوقًا مثله ويترك أن يعمله لله.

ورجلٌ يبخل بما له وربُّه يستقرضه منه فلا يُقرضه منه شيئًا.

ورجلٌ يرغب في صحبة المخلوقين ومودَّتهم، والله يدعوه إلى صحبته ومودَّته.

أخي المسلم:

ويظهر عيب المرء في النَّاس بخله
ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغط بأثواب السَّخاء فإنَّني
أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه[2]

عن عروة قال: لقد رأيت عائشة تقسِّم سبعين ألفًا وهي ترقع درعها[3].

رضي الله عنها وأرضاها. إنَّها أم المؤمنين التي نشأت في بيت الصِّديق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وتربَّت في بيت النُّبوَّة.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٦٢).
(٢) فضائل الذكر ص ٤٠.
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٣٠).

وعنها ـ رضي الله عنها ـ أنَّهم ذبحوا شاة، فقال النَّبيُّ ﷺ: **«ما بقي منها؟»** قالت: مابقي منها إلا كتفها، قال: **«بقي كلُّها غير كتفها»**(١).

إنَّ الدَّرهم الذي نجمعه والدِّينار الذي نكنزه لا ثمرة له إلا بالإنفاق، ولا أثر له إلا إذا فارق مكانه.

قال **الحسن**: بئس الرَّفيق الدِّينار والدِّرهم لا ينفعانك حتَّى يفارقاك(٢).

ومن صور المفارقة الطَّيبة إخراجه في أبواب البرِّ ومواقع الإحسان التي لها أثر في الدُّنيا والآخرة؛ فالصَّدقة أثرها عظيم نراه في واقع حياتنا وفي سائر أحوالنا.

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله تعالى ـ: فإنَّ للصَّدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم بل من كافر، فإن الله يدفع بها عنه أنواعًا من البلاء، وهذا أمر معلوم عند النَّاس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلُّهم مقرُّون به لأنَّهم جرَّبوه.

وقال **أبو ذر الغفاري** ـ رضي الله عنه ـ: الصَّلاة عماد الإسلام، والجهاد سنام العمل، والصَّدقة شيءٌ عجيبٌ، والصَّدقة شيءٌ عجيبٌ، والصَّدقة شيءٌ عجيبٌ(٣).

ومن آثارها العجيبة في الدُّنيا ما روي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: **«بينما رجلٌ يمشي بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتًا في سحابةٍ: اسق حديقة فلان، فتنحَّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرةٍ(٤) فإذا تلك**

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) السير: (١٦/ ٩٥).

(٣) تنبيه الغافلين ص ٢٤٣.

(٤) حرة: الأرض المُلبسة حجارة سوداء.

الشراج[١] قد استوعبت ذلك الماء كله؛ فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يُحوِّل الماء بمسحاته، فقال له: عبدالله! ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبدالله! لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إنِّي سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أمَّا إذ قلت هذا، فإنِّي أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدَّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثُلثًا، وأردُّ فيها ثُلثه»[٢].

ومَنْ لَمْ ينفق فقد أساء الظَّنَّ بالله من عدم الخلف في الدُّنيا والأجر والمثوبة في الآخرة.

قال **أبو سليمان الدَّاراني**: من وثق بالله في رزقه زاد في حسن خلقه، وأعقبه الحلم، وسخت نفسه في نفقته، وقلَّت وساوسه في صلاته[٣].

فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزله الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أنْ يستعبده، فيكون هلوعًا؛ إذا مسه الشرُّ جزوعًا، وإذا مسَّه الخير منوعًا[٤].

فالواجب على المسلم العاقل أنْ يجعلَ الدُّنيا في يده وليست في قلبه، حتَّى وإنْ كثرت، فإنَّها في يده أسهل خروجًا وسخاءً.

رأى **الأحنف بن قيس** في يد رجلٍ درهمًا، فقال: لمن هذا؟ قال لي. قال: ليس هو لك حتَّى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر. وتمثَّل:

---

(١) الشرجة: هي مسيل الماء.
(٢) رواه مسلم.
(٣) حلية الأولياء: (٩/ ٢٥٧).
(٤) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٨٩).

أنـــــت للمـــــــال إذا أمسكتـــــــه
وإذا أنفقتــــــه فـــــالمـــــال لـــــك

أخي المسلم:

اعلم أنَّ المال إنْ كان مفقودًا فينبغي أنْ يكونَ حال العبد القناعة وقلَّة الحرص، وإنْ كان موجودًا فينبغي أنْ يكونَ حاله الإيثار والسَّخاء واصطناع المعروف والتَّباعد عن الشحِّ والبخل، فإنَّ السَّخاء من أخلاق الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ وهو أصل من أصول النَّجاة(١).

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إن استطعتَ أنْ تجعلَ كنزك حيث لا يأكله السُّوس، ولا تناله اللُّصوص، فافعل بالصَّدقة(٢).

قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وسمَّى الله هذا الإنفاق قرضًا حسنًا؛ حثًّا للنُّفوس، وبعثًا لها على البذل، لأنَّ الباذل متى علم أنَّ عين ماله يعود إليه ولابدَّ طوَّعت له نفسه، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أنَّ المستقرض مليءٌ وفيٌّ محسنٌ، كان أبلغ في طيب فعله وسماحة نفسه. فإن علم أن المستقرض يتَّجر له بما اقترضه، وينمِّيه له ويثمره حتَّى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح. فإن علم أنَّه مع ذلك كلِّه يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، فإنَّ ذلك الأجر حظٌّ عظيمٌ، وعطاءٌ كريمٌ؛ فإنَّه لا يتخلَّف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشحِّ، أو عدم الثِّقة بالضَّمان،

---

(١) الإحياء: (٣/٢٥٨).

(٢) تنبيه الغافلين ص ٢٤٧.

وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصَّدقة برهانًا لصاحبها.

وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسنًا، وذلك يجمع **أمورًا ثلاثة**:

أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثة.

والثَّاني: أنْ يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله؛ ابتغاء مرضاة الله.

والثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول يتعلَّق بالمال، **والثَّاني** يتعلق بالـمُنفق بينه وبين الله، **والثَّالث** بينه وبين الآخذ[١].

والبخل صفة دنيئة، هجر مركبها الأنبياء والصَّالحون، بل حتَّى كرام العرب في الجاهلية علموا أنَّها سوء موطن.

قالت **أمُّ البنين ابنة عبدالعزيز بن مروان**: أُفٍّ للبخل، لو كان قميصًا ما لبسته، ولو كان طريقًا ما سلكته.

وعندما سُئل **الحسن** ـ رضي الله عنه ـ عن البخل قال: هو أنْ يرى الرَّجل ما أنفق تلفًا وما أمسلك شرفًا[٢].

وقيل **لعلي**: ما السَّخاء؟ قال: ما كان منه ابتداءً، فأمَّا ما كان عن مسألة فحياء وكرم[٣].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **سعيد بن العاص** لابنه: يا بنيَّ، أخزى الله المعروف إذا لم يكن

---

(١) التفسير الميسر لابن القيم ص ١٤٨ وما بعدها.

(٢) مكاشفة القلوب ص ١٢٢.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٧.

ابتداءً من مسألة، فأمَّا إذا أتاك الرَّجل تكاد ترى دمه في وجهه أو جاءك مخاطرًا لا يدري، أتعطيه أم تمنعه؟ فوالله لو خرجت له من جميع مالك ما كافأته(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من فعلهنَّ فقد ذاق طعم الإيمان: من عَبَدَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده بأنَّه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه في كلِّ عام، ولم يعط الهرمة، ولا الدرنة، ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يسألكم خيرها، ولم يأمركم بشرِّها، وزكى نفسه**»، فقال رجلٌ: وما تزكية النَّفس؟ فقال: «**أنْ يعلمَ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ معه حيث كان**»(٢).

فجعل النَّبيُّ ﷺ تزكية النَّفس إحدى الخصال الموجبة لذوق طعم الإيمان.

أخي المسلم:

ضرب الرَّبيعَ الفالجُ، وطال به وجعه، فاشتهى لحم دجاج فكفَّ نفسه أربعين يومًا، ثمَّ حكى لامرأته فاشترت دجاجةً بدرهم ودانقين فسوَّتها، وخبزت له خبزًا وجعلت له أصباغًا كالحلوى، ثمَّ جاءت بالخوان، فلمَّا ذهب ليأكل قام سائلٌ، فقال: تصدَّقوا عليَّ.

فكفَّ، وقال: خذي هذا فادفعيه إليه.

قالت: فأنا أصنع ما هو أحبُّ إليه.

قال: وما هو؟

---

(١) البداية والنهاية: (٨/ ٩٣).

(٢) أخرجه الطبراني وصححه الألباني.

قالت: نعطيه ثمن هذا، وتأكل أنت شهوتك.

قال: قد أحسنت، إيتيني بثمنه.

فجاءت بثمن الدجاجة والخُبز والأصباغ.

فقال: ضعيه على هذا وادفعين جميعًا إلى السَّائل(١).

ونحن قد أنعم الله علينا وبسط لنا من خيرات الأرض. أصبح همُّ الكثير المأكل والمشرب والملبس والمسكن. تفاخر ومباهاة وشره وطمع!! تعال لِنَـرَ كيف كان السَّلف يجاهدون أنفسهم وبماذا ألزموها؟!

عن جابر بن عبدالله قال: رأى **عمر بن الخطاب** لحمًا مُعلقًا في يديَّ فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحمًا فاشتريته، فقال عمر: أفكلَّما اشتهيت يا جابر اشتريت؟! أما تخاف هذه الآية يا جابر: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠](٢).

أخي المسلم:

الفقير محتاج، والمسكين يتلهف لطارق يطرق عليه بابه ويناوله ما تيسر في يده. هذا واقعه: شدة حاجة وعوز وفقر ومسغبة. ولكن مع حاجته الماسة تلك إلا أنَّنا أحوج من الفقير، نحن في حاجة ماسة إلى ثواب الصَّدقة وأجر البر والإحسان في يوم تشخص فيه الأبصار. فحاجته دنيوية، وحاجتنا دنيوية وأخروية.

قال **الشَّعبي**: منْ لمْ ير نفسه إلى ثواب الصَّدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه.

---

(١) أحسن المحاسن ص ٢٨٩.

(٢) تاريخ عمر لابن الجوزي ص١١٩.

وقال **عبدالعزيز بن عمير**: الصَّلاة تبلغك نصف الطَّريق، والصَّوم يبلغك باب الملك، والصَّدقة تدخلك عليه.

وقال **عبيد بن عمير**: يحشر النَّاس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمن أطعم لله أطعمه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن كسا لله كساه الله.

قال **عبدالله بن مسعود**: من استطاع منكم أن يجعل كنزه حيث لا يأكله السوس ولا تناله السُّراق فليفعل، فإن قلب الرَّجل مع كنزه[١].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول الله، ما منَّا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «**فإن ماله ما قدم، ومالُ وارثه ما أخر**»[٢].

وفي صورة من صور الإنفاق العجيب والسخاء المنقطع النظير كانت **أسماء بنت أبي بكر** لا تدَّخر شيئًا لغد[٣].

ونحن والله يُخشى علينا العقوبة من كثرة ادخارنا وعدم أنفاقنا، فالبعض تمرُّ عليه شهور ولم ينفق من هذه الخيرات، والبعض ربما لا يعرف الصَّدقة إلا في رمضان، وإن خرجت فهي من أردأ ما في بيته وأقله، وتراه ينفق أضعافًا مضاعفة لعلاج نفسه أو دفع بلاء أصابه، ونسي أنه يُستدفع بالقليل من الصَّدقة أنواع البلاء وشتَّى الخطوب.

ركب **شعبة بن الحجَّاج** حمارًا له، فلقيه سليمان بن المغيرة فشكا

---

(١) حلية الأولياء: (١/ ١٣٥)، صفة الصفوة: (١/ ٤٢٠).

(٢) رواه البخاري.

(٣) السير: (٣/ ٣٨٠).

إليه، فقال له شعبة: والله ما أملك إلا هذا الحمار، ثمَّ نزل ودفعه إليه[١].

أخي المسلم:

اعلم أنَّ السَّخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجة السَّخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة. وإنَّما السَّخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشد. وكما أنَّ السَّخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشَّهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثَّمن؛ ولو وجدها مجانًا لأكلها. فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة؛ وذلك يُؤثر على نفسه غيره مع أنَّه محتاج إليه. فانظر ما بين الرجلين! فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء. وليس بعد الإيثار درجة في السَّخاء[٢].

ولكثرة النِّعم التي تُظلنا والخيرات التي تأتي إلينا لابدَّ أنْ نتأمَّلَ قول سلمة بن دينار: إذا رأيت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره[٣].

أخي الحبيب:

ها أنت تصرخ: إنَّها أموالي، ودوري وقصوري، وطعامي وشرابي، ولكن هاك حديث الرسول ﷺ يردُّ عليك قولك: «**يقول العبد مالي مالي، وإنَّما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنىٰ، أو لبس فأبلىٰ، أو أعطىٰ فاقتنى،**

---

(١) حلية الأولياء: (٧/ ١٤٦).

(٢) الإحياء: (٣/ ٢٧٢).

(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٥٧).

ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للنَّاس»[١].

عند هذا الرحيل يأتيك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقد قسَّم الله الأرزاق كما قسَّم الآجال بين عباده بحكمته وعلمه وعدله، فأعطى الغنيَّ ليشكُرَ ويبذلَ؛ ومنع الفقير ليصبرَ ويرضى ويستعفف، وكافأه بحديث الرسول ﷺ: **«يدخل الفقراء الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»**[٢].

وهذا الفقير الذي لا يملك من الدُّنيا إلا اليسير. قال رسول الله ﷺ عن أحدهم: **«رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»**[٣].

أخي المسلم:

نحن الآن في رغد عيش ونعم عظيمة لا تعد ولا تحصى. إذا لم ننفق الآن ونتوسع في ذلك ونحن على هذه الحال الطيبة ـ ولله الحمد ـ فمتى ننفق؟! أإذا حلَّ الفقر بساحتنا؟! أم إذا نزل الموت بأرواحنا؟!

ليس في كل حالة وأوان
تتهيأ صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها
ذراً من تعذر الإمكان[٤]

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه مسلم.
(٤) السير: (١٨/٤١٩).

قال **الحسن**: من أيقن بالخلف جاد بالعطية[١].

وقال **أبو وائل شقيق بن سلمة**: دخلنا على خباب بن الأرت في مرضه فقال: إنَّ في هذا التَّابوت ثمانين ألف درهم، والله ما شددت لها من خيط، ولا منعتها من سائل.

وعن عمرو بن دينار قال: دخل **علي بن الحسين** (ابن علي) على محمَّد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل محمد يبكي، فقال علي: ما شأنك؟ قال: عليَّ دين، قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، قال: فهو عليَّ.

وفي المال ـ أيُّها المسلم ـ حقوق سوى الزَّكاة، نحو مواساة قرابة، وصلة إخوان، وإعطاء سائل، وإعانة محتاج، وغير ذلك.

عن **الشَّعبي** قال: ما مات لي قرابة وعليه دين إلا قضيته عنه[٢].

ولأحمد عن أبي أيوب مرفوعًا: «**أفضل الصَّدقة على ذي الرَّحم الكاشح**» أي العدو المضمر للعداوة الطاوي عليها كشحه (أي باطنه) والذي يطوي عنك كشحه ولا يألفك.

وقال ﷺ: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة**»[٣].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أمر النبي ﷺ بالصدقة، فقال رجل: يا رسول الله! عندي دينار. فقال: «**تصدَّقْ به على نفسك**» فقال: عندي آخر. قال: «**تصدَّقْ به على زوجتك**» قال: عندي آخر. قال:

---

(١) الحسن البصري ص ٣٢.
(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٨١).
(٣) رواه الخمسة.

«**تصدَّقْ به على ولدك**» قال: عندي آخر. قال: «**تصدَّقْ به على خادمك**» قال: عندي آخر. قال: «**أنت أبصر**»[(١)].

وعنه ﷺ أنَّه قال: «**أفضل دينار ينفقه الرَّجل، دينار ينفقه على عياله**»[(٢)].

قال أبو قلابة: وأيُّ رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق على عيال صغار، يعفهم، أو ينفعه الله بهم ويغنيهم؟

والبخل ـ والعياذ بالله ـ إذا دخل قلب الرَّجل أغلق دونه أبواب الإنفاق على نفسه وأهله وعامَّة النَّاس. ولهذا تعوَّذ الرَّسول ﷺ من البخل فقال: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الهمِّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدَّين، وغلبة الرِّجال**»[(٣)].

* جاء رجل في حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة، فقيل له: عليك بالحسن بن علي، أو عبدالله بن جعفر، أو سعيد بن العاص، أو عبد الله بن عباس، فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه، فقال: من هذا؟ فقيل سعيد بن العاص. فقصده، فذكر له ما أقدمه، فتركه حتَّى انصرف من المسجد إلى المنزل، فقال للأعرابي: ائت بمن يحمل معك.

فقال: رحمك الله، إنما سألتك مالاً قراً، فقال: أعرف، ائت بمن يحمل معك.

فأعطاه أربعين ألفًا، فأخذها الأعرابي وانصرف ولم يسأل غيره[(٤)].

وليس الإنفاق مقصورًا على أصحاب الأموال العظيمة، بل كل له

---

(١) صحيح النسائي للألباني بالرقم (٢٣٧٥).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) البداية والنهاية: (٨/ ٩٣).

سهم، ونحن لنا في ذلك سهام بما عندنا من مال وملبس ومأكل.

هذا أبو هريرة يسأل الرَّسول ﷺ بقوله: أيُّ الصَّدقة أفضل؟ قال ﷺ: **«جهد المقلِّ، وابدأ بمن تعول»**[١].

وجهد المقل: أي طاقته، والمقصود إخراج شيء من قليل، بمعنى أنَّ الإنسان يرى نفسه فقيرًا، ولكن يجود من القليل ابتغاء ثواب الله وكرمه وانتظار فضله.

وعنه ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سبق درهمٌ مائة ألف درهم»**. فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: **«رجلٌ له مالٌ كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدَّقَ بها، ورجلٌ ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدَّقَ به»**[٢].

فالنَّبيُّ ﷺ يُبيِّنُ لنا ثواب الصَّدقة الخارجة من مال الفقير، يُضاعف أجرها مئات لأنَّ الغنيَّ يجود عن سعةٍ، وينفق عن كثرة ولكنَّ الفقير يدعوه إيمانه بربِّه إلى الإنفاق وينتظر رزق الله. وقد رُوي عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها تصدَّقتْ بتمرة واحدة[٣].

سُئل أبو ذر الغفاري عن الصَّوم؟ فقال: قربة وليس هناك فضل، قيل: فأي الصَّدقة أفضل؟ قال: أكثرها فأكثرها، ثمَّ قرأ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ۝٩٢﴾ [آل عمران: ٩٢].

قيل: فمن لم يكن عنده؟ قال: عفو مال، يعني يتصدق بفضل مال.

---

(١) رواه أبو داود والحاكم.

(٢) رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان، وحسَّنه الألباني.

(٣) وقد رأيت أحد العمَّال المساكين يتصدَّق بريالات قليلة على فقير كان بباب المسجد؛ فتأثَّرت من عمله رغم غربته وحاجته الظَّاهرة!!

قيل: فمن لم يكن عنده مال؟ قال: فعفو طعام.

قيل: فمن لم يكن عنده؟ قال: بغبن يفوته.

قيل: فمن لم يفعل؟ قال: يتقي النار ولو بشق تمرة.

قيل: فمن لم يفعل؟ قال: يكف نفسه، يعني لا يظلم الناس[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!.

كان الرَّبيع بن خيثم لا يعطي أقل من رغيف، ويقول: إنِّي لأستحيي أن يُرى في ميزاني أقل من رغيف.

وقال أبو إسحاق الطبري: كان **النجاد** يصوم الدهر، ويفطر على رغيف ويترك منه لقمة، فإذا كان ليلة الجمعة أكل تلك اللقمة التي استفضلها وتصدَّق بالرَّغيف[٢].

يفنـــي البخيـــل بجمـــع المـــال مـــدتـــه
وللحـــوادث والـــوارث مـــا يـــدع
كـــدودة القـــزِّ مـــا تبنيـــه يخنقهـــا
وغيـــرهـــا بـــالـــذي تبنيـــه ينتفـــع[٣]

كان علي بن الحسن بن علي إذا أتاه سائل رحب به وقال: مرحبًا بمن يحمل زادي إلى الآخرة.

وصدق فإنَّ هؤلاء أبواب لنا نحو الصَّدقة والإنفاق، ومن يُرِد الآخرة يتعنَّ ويتعب ويبحث ويدقِّق حتَّى يجدهم خاصَّة المتعففون من كبار السنِّ والأرامل والأيتام.

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٤٣.

(٢) تذكرة الحفاظ: (٣/٨٦٨).

(٣) البداية والنهاية: (١١/١٣).

كما ينبغي للمتصدِّق أنْ يتحرَّى في صدقته أهل الخير والصَّلاح والزُّهد والورع ممَّن يعينهم المال على طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وليحذر أنْ يعينَ أحدًا بماله على معصية أو فساد.

وأذكر هنا قصَّةً على عَجَلٍ تُوضِّحُ حاجة النَّاس وعوزهم وهم بين أظهرنا، فقد ذكر لي أحد أئمَّة المساجد عن شخص من الوافدين فرحه بقدوم شهر رمضان (وكان ضعيف الحال كبير السنِّ) قال الإمام: فسألته عن سبب هذا الفرح، فقال لي: حتَّى نأكل في المساجد ما لا نجده طوال العام في بيوتنا!!

وهذا الحديث كان قبل عشر سنوات تقريبًا ولم يتوسَّع النَّاس بعد في التَّفطير مثل الآن بل كان الإفطار ما تيسر!!

وفي أحوال كثير من الأسر ما يُحزن القلب ويُدمع العين، فكم من فقير ومن أرملة ومن يتيم! وكم من شيخ يئن وطفل يجوع وأرملة لا تجد غذاء ولا كساءً!! بل كم من أب وأم في حاجة إلى التَّوسعة عليهما، وربما تتطلع أنفسهم إلى أمر تكون الدراهم القليلة حاجزًا دونه، وابنهم في أيسر حال وأتمه!!

وقد حدَّثني أحد المشائخ الفضلاء ودمعته لا تفارق مجراها فقال: لحظت يومًا، وأنا خارج إلى المسجد قبل أذان الفجر، امرأة كانت واقفة أمام (النفايات) فتأخَّرت حتَّى أتبعتها النَّظر وعرفت مسكنها، وفي الغد أرسلت أهل بيتي لمعرفة أمرها، فإذا بها أرملة وأمٌّ لأطفال صغار ولا تجد ما يسد جوعهم إلا من بقايا الطَّعام الموجود في هذا المكان، فتخرج في جنح الظَّلام حتَّى لا يراها أحد.

وهذه المرأة المتعففة لها نصيب من حديث الرسول ﷺ: «**ليس**

المسكينُ بهذا الطَّواف الذي يطوفُ على النَّاس فترده اللقمة واللقمتان والتَّمرة والتَّمرتان».

قالو: فما المسكين يا رسول الله؟

قال: «**الذي لا يجدُ غنى يغنيه ولا يفطنُ له فيصدَّق عليه، ولا يسأل النَّاس شيئًا**»(١).

ومن تأمَّل في أحوال بعض أقاربه وجد أنَّهم من أهل الزَّكاة ولكنَّه يغفل عنهم، فكم حولنا من يتيم، وكم في أسرنا من أرملة، وكم في عوائلنا من ينتظره نهاية العام لتسديد أجرة منزله!! وكم في مجتمعنا من مطلقة حولها صغار لا يجدون دفترًا جديدًا أو قلمًا ومسطرة أو ثمن علاج ودواء! لكن من يبحث عنهم ومن يسأل عنهم؟! وأين من يتحرَّى ويدقق؟! بل والله قد ضعف هذا الأمر في كثير من الناس.

وتأمَّل حال الزَّكاة المفروضة، وهي عبادة عظيمة. كيف تُخرج؟! فإنَّه يخيِّل إليك أنَّه يتخلَّص منها بأيِّ شكل وبدون حرص واهتمام، وإن أردت مثالاً حيًّا لذلك فانظر كيف هي زكاة الفطر، وهي لا تزيد عن كيس أرز واحد عن أسرة كبيرة، فلا يبحث عن الفقراء، ولا يكلِّف المزكي نفسه مشقَّة السُّؤال والبحث!! رحم الله أحدهم، فقد سألته عن إخراج زكاة الفطر في مكَّة المكرمة ولم يكن من سكَّانها فقال لي: عليك برؤوس الجبال لتجد المستحقِّين!! فقلت له: غفر الله لك، ومن أين لنا رؤوس الجبال؟!

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: وإعطاء السَّائل فرض كفاية إن صدق، ولهذا جاء في الحديث: «**لو صدق ما أفلح من رده**»(٢).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) حاشية الروض ص ٣٤٤.

وفي صورة مؤثِّرة لا يفعلها إلا قليل ممَّن وهبهم خيرًا وإخلاصًا. عن عمر بن ثابت قال: لمَّا مات **علي بن الحسين ابن علي** فغسلوه فجعلوا ينظرون إلى آثار سواد في ظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جرب الدَّقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة[1].

وهذه مولاة **لداود الطائي** تخدمه فقالت له: لو طبخت لك دسمًا تأكله؟ قال: وددت، فطبخت له دسمًا ثم أتت به فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي بهذا إليهم، فقالت: أنت لم تأكل أدمًا منذ كذا وكذا، قال: إن هذا إذا أكلوه كان عند الله مذخورًا، وإذا أكلته كان في الحش[2].

عن ميمون بن مهران، أنَّ امرأة **ابن عمر** عوتبت فيه، فقيل لها: أما تتلطفين بهذا الشيخ؟! فقالت: فما أصنع به، لا نصنع له طعامًا إلا دعا من يأكل معه، فأرسلت إلى قوم من المساكين كانوا يجلسون بطريقه إذا خرج من المسجد فأطعمتهم وقالت لهم: لا تجلسوا بطريقه، ثم جاء إلى بيته فقال: أرسلوا إلى فلان وإلى فلان، وكانت امرأته أرسلت إليهم بطعام وقالت: إن دعاكم فلا تأتوه، فقال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أردتهم أنْ لا أتعشَّى اللَّيلة، فلَمْ يتعشَّ تلك اللَّيلة[3].

قال **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ: اثنان من الشيطان، واثنان في الله ـ تعالى ـ، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ يعني يأمركم بالطَّاعة والصَّدقة

---

(١) انظر السير: (٤/ ١٣٩).
(٢) تاريخ بغداد: (٨/ ٣٥٣).
(٣) حلية الأولياء: (١/ ٢٩٨).

لتنالوا مغفرته وفضله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦٨﴾ [البقرة: ٢٦٨] يعني واسع الفضل، عليم بثواب من يتصدق[١].

قال أحمد بن حنبل عن **عباد بن عباد**: كان ثقة صالحًا في دينه، بلغني أنَّه اشترى نفسه من الله ثلاث مرات أو أربعًا فتصدق بوزن نفسه فضة[٢].

وهذا **أبو الحسن النوري** مكث عشرين سنة يأخذ من بيته رغيفين، ويخرج ليمضي إلى السُّوق فيتصَّدق بالرغيفين ويدخل المسجد فلا يزال يركع حتَّى يجيء وقت سوقه. فإذا جاء الوقت مضى إلى السوق فيظن أنَّه قد تغدَّى في بيته، ومن في بيته عندهم أنه قد أخذ معه غداءه، وهو صائم!!

وكان **عامر بن عبدالله بن الزبير** يتخير العُباد وهم سجود، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانيروالدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه، فقيل له: ما يمنعك أن تُرسل بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمعَّر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني[٣].

أيُّها الحبيب:

أمامنا أهوال وأهوال وفزعات وروعات. ولذا اشترى بعض السلف نفسه من الله ثلاث مرات أو أربعًا يتصدق كل مرة بوزن نفسه فضة. واشترى **عامر بن عبدالله بن الزبير** نفسه من الله بديته ست مرات تصدق بها، واشترى **حبيب العجمي** نفسه من الله بأربعين ألف درهم تصدق بها[٤].

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٤٥.

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢١٠).

(٣) منهاج القاصدين ص ٤١.

(٤) حلية الأولياء: (٣/ ١٦٦).

قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ[١].

وقال رجل للحسن: ما تقول في رجل آتاه الله فهو يتصدق منه ويصل منه، أيحسب له أن يتعيش فيه (يعني يتنعم)؟

فقال: لا، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف، ويقوم ذلك ليوم فقره[٢].

وكان رسول الله ﷺ أجود من الريح المرسلة، ودلَّ سخاؤه على زهده وقلَّة حبه للدنيا، وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه، وقد كان سليمان ـ عليه السلام ـ في ملكه من الزُّهاد[٣].

تـــراه إذا مـــا جئتـــه متهلـــلاً
كـــأنـــك تعطيـــه الـــذي أنـــت ســـائلـــه
ولـــو لـــم يكـــن فـــي كفـــه غيـــر روحـــه
لجـــاد بهـــا فَلْيَتـــق الله ســـائلـــه
هـــو البحـــر مـــن أي النـــواحـــي أتيتـــه
فلجتـــه المعـــروف والجـــود ســـاحلـــه[٤]

كان مورق العجلي يتَّجر، فيصيب المال فيفرقه على الفقراء والمساكين، وكان يقول: لولاهم ما اتجرت[٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٩.
(٢) مكاشفة القلوب ص ١٥٦.
(٣) الإحياء: (١/ ٣٩).
(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٢.
(٥) الزهد ص ٤٤.

نِعمَ المال الصالح في يد الرجل الصالح، والله لقد حسنت النية في جمعه وفي إنفاقه!! ومن منا اليوم يخطر بباله هذا الأمر؟! بل ومن يستقبل يومه ليعمل ويحتسب أجر العمل عند الله ثم يحتسب أجر (أجرة) العمل إنفاقًا وإحسانًا؟!

أخي المسلم: في المال **ثلاثة أسئلة عظام يُسأل عنها** المرء: من أين اكتسبه؟! هل هو من حلال؟! أم من حلال خالطه حرام؟! أم حرام كله؟! ثم **السؤال الثاني**: أين وضعه؟! أفي حلال أم في حرام؟! ثم **الثالث**: أين أنفقه؟! أفي طاعة أم معصية؟! وهل هي طاعة زانها الإخلاص أم شابها الرياء؟! وهل...؟! ولو طبقنا تلك الأسئلة على مائة ريال مما نملك لعلمنا أن السؤال شديد وأن الحساب دقيق، ولربما أن هذه الأموال تكون سبباً في شقائنا وخسراننا؟!

قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: دخلت على أبي مسلم في يوم عيد، فرأيت عليه قميصًا مرقعًا وبين يديه خروف وهو يأكل منه، فقلت يا أبا مسلم! ما هذا؟ فقال: لا تنظر إلى الخروف ولكن انظر إذا سألني ربي: من أين لك هذا؟ فأي جواب أقول وما اعتذاري؟!

وقال **ابن المبارك**: لأن أردَّ درهمًا من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف. حتى بلغ ستمائة ألف[1].

وذلك طمعًا في قبول العلم وعظم الأجر والمثوبة؛ فقد قال ﷺ: «**من تصدق بعدل** ـ أي بمقدار ـ **تمرة من كسبٍ طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلُها بيمينه، ثم يُربيها لصاحبها كما يُربي أحدكم فُلُوَّه**

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٣٩).

ـ أي مهره ـ حتى تكون مثل الجبل»[١] .

قال **الراقدي**: صار إليَّ من السلطان ستمائة ألف درهم ما وجبت عليَّ زكاة فيها[٢] .

وكان دَخَلُ **الليث بن سعد** في كلِّ سنة ثمانين ألف دينار، وما أوجب الله عليه زكاة درهم قط[٣] .

وذلك بإنفاقها قبل أن يحول عليها الحول .

وفي كلمات صادقة لأصحاب القلوب الحية والنفوس الزكية الذين يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار .

كان **الحسن** يقول : رحم الله عبدًا جعل العيش عيشًا واحدًا ، فأكل كسرة ، ولبس خلقًا ، ولزق بالأرض ، واجتهد في العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وهرب من العقوبة ؛ ابتغاء الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[٤] .

قالت امرأة أبي حازم له: هذا الشتاء قد هجم علينا ولابد لنا من الطعام والثياب والحطب، فقال لها **أبو حازم**: من هذا كله بد، ولكن لابد لنا من الموت، ثم البعث، ثم الوقوف بين يدي الله ـ تعالى ـ، ثم الجنة أو النار[٥] .

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

عن محمد بن المنكدر عن أم درَّة ـ وكانت تخدم **عائشة** ـ رضي الله

---

(١) متفق عليه .
(٢) السير: (٩/ ٤٦٧).
(٣) وفيات الأعيان: (٤/ ١٣٠).
(٤) الزهد الكبير للبيهقي: (٢/ ٦٥).
(٥) الإحياء: (٤/ ٢٣٩).

عنها ـ قالت: إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق، فجعلت تُقسم بين الناس، فلمَّا أمست قالت: يا جارية! هَلُمَّ فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكَّرتيني لفعلت[١].

وكان سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم[٢].

وإطعام الطعام قلَّ في هذا الزمان وندر حتى أنك لا ترى لذلك أثرًا حتى بين الأحباب والأصحاب والجيران. أما الفقراء والمساكين فلم نسمع أن أحدًا يصنع لهم الطعام أو يُهدي لهم غذاءً أو عشاءً.

عن ميمون بن مهران قال: أتت ابن عمر اثنان وعشرون ألف دينار في مجلس فلم يقم حتى فرقها[٣].

وقال بكر الزجاج لمعروف الكرخي في علته: أَوْصِ فقال: إذامت فتصدقوا بقميصي هذا؛ فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانًا، كما دخلت إليها عريانًا[٤].

وقد مات الواقدي وهو على القضاء، وليس له كفن، فبعث المأمون بأكفانه[٥].

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٦٢).
(٢) السير: (١/ ٢١٦).
(٣) صفة الصفوة: (١/ ٥٧١).
(٤) وفيات الأعيان: (٥/ ٢٣٢).
(٥) السير ص ٤٦٧.

وقال عبدالرحمن بن عوف: قُتل مصعب بن عمير وهو خير منِّي، كُفِّن في بردة؛ إن غُطي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه.

أخي المسلم:

مـــا بـــال دينـــك تـــرضـــى أن تُـــدنســـه
وثـــوبـــك الـــدهـــر مغســـولٌ مـــن الـــدنـــس

روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: درهم ينفقه أحدكم في صحته وشحه أفضل من مائة يوصي بها عند موته[١].

ولهذا كان الأخيار من هذه الأمة ينفقون وهم في صحة وعافية قبل أن تغرغر الروح وتشرق شمس الآخرة.

عن أبي جعفر ابن علي بن الحسين أن أباه قاسم الله ـ تعالى ـ ماله مرتين، وقال: إن الله يحب المذنب التواب[٢].

ومن أدب الصدقة الإخلاص فيها ورجاء ما عند الله نصيحةُ عون بن عبدالله حيث قال: إذا أعطيت المسكين شيئًا، فقال: بارك الله فيك، فقل أنت: بارك الله فيك؛ حتى تخلص لك صدقتك[٣].

لأنَّه يريد أن تكون خالصة لله ـ عز وجل ـ، وليس فيها حظ من حظوظ النفس. وقد روي مثل ذلك عن عائشة وغيرها.

فالأمر كما قال الربيع بن خيثم: كل ما لايراد به وجه الله يضمحل[٤].

قال الحسن: المؤمن أحسن الناس عملاً وأشدهم من الله خوفًا، لو

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٤٥.
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١٤٠).
(٣) حلية الأولياء: (٤/ ٢٥٣).
(٤) السير: (٤/ ٢٥٩).

أنفق في سبيل الله مثل أحدٍ ذهبًا ما أمن حتى يعاين[١].

جاء سائل إلى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقال لابنه: أعطه دينارًا، فلما انصرف قال ابنه: تقبَّل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمت أن الله يتقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائباً أحب إليَّ من الموت، أتدري ممن يتقبل؟ إنما يتقبل الله من المتقين.

أيها المسلم:

أنفق ولاتخش إقلالاً فقد قُسمتْ
على العباد من الرحمن أرزاق
لا ينفع البخل مع دنيا مولِّية
ولا يضر مع الإقبال إنفاق[٢]

كان الليث بن سعد يستغل عشرين ألف دينار كل سنة وقال: ما وجبت علي زكاة قط[٣].

وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السَّائل قال: أطعموه السكر؛ فإن الربيع يحب السكر[٤].

أخي المسلم:

تأمَّل ماذا ينفقون؟! إنَّه أحب الموجودات إليهم، وأغلاها عندهم، وأنفسها في قلوبهم، أمَّا نحن فالمنفق منا لا تطيب نفسه إلا بالنطيحة والمتردية، أما كرائم أموالنا فنضنُّ بها على الآخرة، وننفقها في شراء

---

(١) الحسن البصري ص ٢٩.
(٢) مكاشفة القلوب ص ١٢٣.
(٣) تاريخ بغداد: (١٣/ ٨٠).
(٤) الزهد لابن السري: (١/ ٣٤٤).

الكماليات وعلى الفرش والأحذية. وتجد لدى البعض رجالاً ونساء ما يزيد عن عشرين أو خمسين بل مائة حذاء!! وكأنه جمعها ليسير بها آلاف الأميال!! ومع هذا كله لا يمر شهر أو أكثر إلا وقد اشترى حذاءً جديدًا!! وعن العشرين والخمسين والمائة وتركه حينًا سوف يُسأل. ومن السنن المهجورة الانتعال حينًا وتركه حينًا آخر.

وقد قال رسول الله ﷺ: **«ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري به عورته، وجلف الخبز، والماء»**[1].

قال **مالك بن دينار**: إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافًا فيقنع به، فقال **محمد بن واسع**: أغبط والله عندي من ذلك أن يصبح جائعًا ويُمسي خائفًا، وهو عن الله ـ عز وجل ـ راضٍ[2].

أيها المنفق:

عشر خصال تبلغ العبد منزلة الأخيار، وينال بها الدرجات:

أوَّلـها: كثرة الصدقة.

والـثَّاني: كثرة تلاوة القرآن.

والـثَّالث: الجلوس مع من يذكِّره بالآخرة، ويزهد في الدنيا.

والـرَّابع: صلة الرحم.

والخامس: عيادة المريض.

والـسَّادس: قلة مخالطة الأغنياء الذين شغلهم غناهم عن الآخرة.

والـسَّابع: كثرة التفكر في ما هو صائر إليه غدًا.

---

(١) رواه الترمذي، جلف الخبز: الخبز ليس معه إدام

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٧٠).

والثَّامن: قصر الأمل، وكثرة ذكر الموت.

والتَّاسع: لزوم الصمت، وقلة الكلام.

والعاشر: التواضع، ولبس الدون، وحب الفقراء والمخالطة معهم، وقرب اليتامى، والمساكين ومسح رؤوسهم(١).

ويقال سبع خصال تُربي الصدقة وتعظمها:

أوَّلها: إخراجها من حلال، لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

والثَّاني: إعطاؤها من جهد مقل، يعني يعطي من مال قليل.

والثالث: تعجيلها مخافة الفوت.

والرَّابع: تصفيتها مخافة البخل، يعني يعطيها من أحسن أمواله ولا يعطيها من الرديء، لأنَّ الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ يعني لا تأخذونه، يعني الرديء، إذا كان على الآخر لكم قرضًا.

﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ أي تسامحوا وتساهلوا فيه.

والخامس: يعطيها في السر مخافة الرياء.

والسَّادس: بعدُ المنِّ عنها مخافة إبطال الأجر.

والسَّابع: كفُّ الأذى عن صاحبها مخافة الإثم، لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤](٢).

روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها كانت جالسة ذات يوم إذ

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٥٢.

(٢) تنبيه الغافلين ص ٢٥٣.

جاءتها امرأة سترت يدها في كمِّها، فقالت لها عائشة: ما لك لا تخرجين يدك من كمك؟ قالت: لا تسأليني يا أمَّ المؤمنين. قالت عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ: لابدَّ لك أنْ تخبريني. فقالت: يا أمَّ المؤمنين! إنَّه كان لي أبوان، فكان أبي يحبُّ الصَّدقة وأمَّا أمِّي فكانت تبغض الصَّدقة، فلم أرها تصدقت بشيء إلا قطعة شحم وثوبًا خلقًا، فلمَّا ماتا رأيت في المنام كأنَّ القيامة قد قامت، ورأيت أمِّي قائمة بين الخلق، والخلقة موضوعة على عورتها، ورأيت الشَّحمة بيدها وهي تلحسها، وتنادي: واعطشاه، ورأيت أبي على شفير الحوض وهو يسقي الماء، ولم يكن عند أبي صدقة أحبُّ إليه من سقيه الماء، فأخذت قدحًا من ماء فسقيت أمِّي، فنودي من فوق: ألا من سقاها شلت يده، فاستيقظت وقد شلت يدي[١].

ولنا في رسول الله أسوة حسنة في فعله وقوله لمن كان يرجو الله والدار الآخرة.

عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردةٍ منسوجةٍ فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النَّبيُّ ﷺ مُحتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فقال فلان: اكسنيها، ما أحسنها! فقال: «نعم» فجلس النَّبيُّ ﷺ في المجلس، ثمَّ رجع فطواها، ثمَّ أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت. لبسها النَّبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، ثمَّ سألته، وعلمت أنَّه لا يردُّ سائلاً، فقال: إنِّي والله ماسألته لألبسها، إنَّما سألته لتكون كفني. قال سهل: فكانت كفنه[٢].

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٢١٥.

(٢) رواه البخاري.

وللحثِّ على بذل اللباس وستر عورات المسلمين وسدِّ حاجتهم قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كسا مسلمًا ثوبًا لم يزل في ستر الله ما دام عليه منه خيط أو سلك**»[١].

ومن كان في ستر الله فهو في ظلٍّ عظيم وخير كثير؛ فإنَّ للصَّدقة وفعل المعروف تأثيرًا عجيبًا في شرح الصدور؛ ودفع البلاء، وتوالي الخير، وتتابع النعم.

يقال إن **الحسن** مرَّ به نخَّاس ومعه جارية، فقال للنخاس: أترضى في ثمنها الدرهم والدرهمين؟ قال: لا، قال: فاذهب فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ رضي في الحور العين بالفلس واللقمة[٢].

أيُّها الحبيب:

تذكَّر قول **الإمام أحمد** وأنت تسير خطواتك المحدودة في هذه الدُّنيا؛ فإنَّ لهذه البداية نهاية، ولهذه الرِّحلة وقفة، وللطَّريق مهما طال منايا تلوح وسهام تُصيب.

قال **الإمام أحمد بن حنبل**: إنَّما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنَّها أيَّام قلائل[٣].

وقال **الحسن**: أدركت أقوامًا لو أنفق أحدهم ملء الأرض ما أمن لعظم الذنب في نفسه[٤].

نعم يخافون يومًا تتقلَّب فيه القلوب والأبصار، ولذا وصف الله عباده

---

(١) رواه الترمذي والحاكم.

(٢) الإحياء: (١/٢٦٨).

(٣) السير: (١١/٢١٦).

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢١١.

المتَّقين الأبرار بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان: ٨] وخصهم بالتجرد له في هذه الأعمال: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان: ٩].

وبطاعة الله وامتثال أوامره وبذل الخير أنزلهم خيرمنزل وأقامهم في أحسن مقام: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإنسان: ١١].

كان أهل المدينة عيالاً على عبدالرحمن بن عوف: ثلث يقرضهم ماله، وثلث يقضي دينهم، ويصل ثلثاً.

إن الكريم ليخفي عنك عسرته
حتى تراه غنيًّا وهو مجهود

وللبخيل على أمواله علل
زرق العيون عليها أوجه سود

إذا تكرهت أن تعطي القليل ولا
تكون ذا سمعة لم يظهر الجود

بُثُّ النوال ولا يمنعك قلته
فكل ما سدَّ فقرًا فهو محمود[1]

قال عبدالملك بن مروان لأسماء بنت خارجة: بلغني عنك خصال فحدثيني بها؟ فقالت: هي من غيري أحسن منها مني، فقال: عزمت عليك إلا حدثتني بها. فقالت: يا أمير المؤمنين! ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، ولا صنعت طعامًا قط فدعوت عليه قومًا إلا كانوا

---

(١) تاريخ بغداد: (١٢/ ٤٩١).

أمنَّ عليَّ مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئًا فاستكثرت شيئًا أعطيته إيَّاه[١].

ومن أدب الصَّدقة الرَّفيع التَّلطُّف مع السَّائل، وإكرامه بالكلمة الطَّيبة والفعل الحسن، فقد كان **علي بن الحسن** إذا ناول الصَّدقة السَّائل قبَّله ثمَّ ناوله[٢].

جاء رجلٌ من أهل الشَّام فقال: دلوني على **صفوان بن سليم**، فإنِّي رأيته دخل الجنَّة. فقلت: بأي شيء؟ قال: بقميص كساه إنسانًا.

قال بعضهم: سألت **صفوان** عن قصة القميص؟ فقال: خرجت من المسجد في ليلة باردة فإذا رجل عريان، فنزعت قميصي فكسوته[٣].

ولو تفقَّدنا منازلنا كلَّ ستَّة أشهر لوجدنا من الملابس التي لا نحتاج إليها كثيرًا جدًا، فلماذا نتأخَّر في دفعها للفقراء والمحتاجين خاصَّة أنَّنا لا نتوقَّف عن الشَّراء طوال العام؟! ووالله يُخشى علينا من العقوبة في هذا الأمر، وربَّما يبتلينا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا نجد ما نستر به عوراتنا؛ فإنَّ البعض وصل لديهم السَّرف والتبذير في ذلك حد الخيال.

قال **سالم بن أبي الجعد**: خرجت امرأة ومعها صبي لها، فجاء ذئب فاختلس منها الصبي، فخرجت في أثره، وكان معها رغيف، فعرض لها سائل فأطعمته، فجاء الذئب بصبيها حتى رده عليها، فهتف هاتف: هذه لقمة بلقمة[٤].

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٦٥).
(٢) حلية الأولياء: (٣/ ١٣٧).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ١٥٤).
(٤) تنبيه الغافلين ص ٥٢١.

وكان علي بن الحسن يحمل الخبز باللَّيل على ظهره يتبع المساكين في الظلمة ويقول: إنَّ الصدقة في الليل تطفيء غضب الرب(١).

واتفق العلماء على أن إخفاء صدقة التطوع أفضل وخير من إظهارها؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، وفيه بعدٌ عما تؤثره النفس من الصدقة، وفائدة ترجع إلى الفقير الآخذ وهي أنه إن أعطي في السر زال عنه الذل والانكسار، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية(٢).

والإخلاص لله هو حقيقة الدين ومفتاح دعوة الرُّسل، قال رسول الله ﷺ: «**من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدَّق يرائي فقد أشرك**»(٣).

والمخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

قال إبراهيم بن بشار: مضيت مع إبراهيم بن آدم في مدينة يقال لها طرابلس ومعي رغيفان ما لنا شيء غيرهما، وإذا سائل يسأل فقال لي: ادفع إليه ما معك فلبثت، فقال: ما لك؟ أعطه، فأعطيته وأنا متعجب من فعله، فقال: يا أبا إسحاق! إنَّك تلقى غدًا ما لم تلقه قطُّ، واعلم أنَّك تلقى ما أسلفت ولا تلقى ما خلَّفت، فمَهِّد لنفسك فإنك لا تدري متى يفاجئك أمر ربك، قال: فأبكاني في كلامه، وهوَّن علي الدنيا، قال: فلمَّا نظر إليَّ بكى وقال: هكذا كن(٤).

---

(١) السير: (٤/ ٣٩٣).
(٢) الإحكام لشرح أصول الأحكام لابن قاسم: (٢/ ٢٠٣).
(٣) رواه أحمد.
(٤) الزهد للبيهقي ٢٥١، صفة الصفوة: (٤/ ١٥٣).

وأمر الطعام الذي توسعنا فيه وأصبح همنا؛ نأكل ثلاث وجبات كاملة كل يوم، فيها كثير الأصناف والأنواع، ثمَّ ما بين تلك الوجبات نأكل ونشرب وكأننا حيوان مجتر، طول نهارنا لا نتوقف عن المضغ والأكل.

لمَّا نزلت: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٨] قالوا: يا رسول الله! أي نعيم نسأل عنه؟ وإنَّما هما الأسودان: الماء والتمر؛ وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نُسأل؟ قال: **«أما إن ذلك سيكون»**[١].

ورسول الله ﷺ نبيُّ هذه الأمَّة كما قالت عائشة - رضي الله عنها -: **«ما شبع منذ قدم المدينة من خبز ثلاث ليال تباعًا حتَّى قبض»**[٢].

سُئل **سهل التستري**: الرجل يأكل في اليوم أكلة؟ قال: أكل الصديقين، قيل له: فأكلتين؟ قال: أكل المؤمنين، قيل له: فثلاث أكلات؟ فقال: قل لأهله يبنوا له معلفًا[٣].

وقال **الحسن**: أدركت والذي نفسي بيده أقوامًا ما أمر أحدهم أهله بصنعة طعام قط، فإن قرب إليه شيء أكله وإلا سكت، لا يبالي حارًا كان أو باردًا، وما افترش أحدهم بينه وبين الأرض فراشًا وإنما يتوسد يده فيهجع من الليل، ثم يقوم فيبيت ليلته قائمًا راكعًا ساجدًا، يرغب إلى الله في فك رقبته[٤].

وتأمَّل - أيُّها الأخ الحبيب - بعين التَّفكُّر والاعتبار في ما قاله **بلال بن**

---

(١) فتح القدير: (٥/٦٠٧).

(٢) رواه البخاري، ومسلم.

(٣) الفوائد ص ٢٣٢.

(٤) حلية الأولياء: (٦/٢٧٠).

سعد: ربَّ مسرور مغبُّون يأكل ويشرب ويضحك، وقد حقَّ له في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّه من وقود النَّار(١).

وذكر جرير بن عبدالحميد أنَّ **سليمان التيمي** لم تُرَ ساعة قط عليه إلا تصدق بشيء، فإن لم يكن شيء صلى ركعتين(٢).

عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل امرىء في ظلِّ صدقته حتَّى يُقضى بين النَّاس**» قال يزيد: فكان أبو الخير مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو بكعكة أو بصلة(٣).

الله أكبر.. هذا ما يجدون.. وما وجدوا تصدقوا به وأنفقوه، ولقد ذهبوا وذهب كل ذاك وبقي أجر الصدقة وثواب الإنفاق.

وقد يخطر ببال الكثير: كيف أتصدق كل يوم في هذه الأيام؟! والحل سهل ميسور؛ فبالإمكان جعل حصالة أو صندوق في صالة المنزل، ثمَّ ضع فيها أنت وأهل بيتك كل يوم ما تجود به نفوسكم قل أو كثر، وفي نهاية كل شهر ادفع ما بها إلى أوجه الخير ومناحي البر. وبعض الأسر وضعت مثل ذلك في مجلس الرجال وفي مجلس النِّساء، بل إنَّهم عوَّدوا أبناءهم الصِّغار حث الضيوف على التَّبرع.

قال سليم بن منصور بن عمار: حدثنا أبي قال: دخلت على **الليث** خلوة، فأخرج من تحته كيسًا فيه ألف دينار، وقال: يا أبا السري! لا تعلم بها ابني، فتهون عليه.

وأعرف من كان ـ رحمه الله ـ يذهب بالصدقة ضحىً أيام رمضان معللاً

---

(١) صفة الصفوة: (٤/٢١٨).

(٢) السير: (٦/١٩٩).

(٣) رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.

بأن ذلك أنسب الأوقات وأبعد عن العيون؛ فالكل نائم في الدار، وكذلك الجيران وأهل الطريق.

سأل معاوية **الحسن بن علي** - رضي الله عنهم - عن المروءة والنجدة والكرم فقال:

أمَّا المروءة فحفظ الرَّجل دينه، وحذر نفسه، وحسن قيامه بضيفه، وحسن المنازعة، والإقدام في الكراهية.

وأمَّا النَّجدة فالذب عن الجار، والصبر في المواطن.

وأما الكرم فالتَّبرع بالمعروف قبل السُّؤال، والإطعام في المحل. والرَّأفة بالسَّائل مع بذل النَّائل.

وعندما رفع رجل إلى **الحسن بن علي** - رضي الله عنهما - رقعة قال له: حاجتك مقضية. فقيل له: يا ابن رسول الله! لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك. فقال: يسألني الله - عز وجل - عن ذل مقامه بن يدي حتى أقرأ رقعته.

وقال **ابن السماك**: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وأتى رجل صديقًا له فدق عليه الباب فقال: ما جاء بك؟ قال: عليَّ أربعمائة درهم دين، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي، فقالت امرأته: لِمَ أعطيته إذ شق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي[١].

---

(١) الإحياء: (٣/ ٩٧).

وسُئل بعض الأعراب: من سيدكم؟ فقال: من احتمل شتمنا، وأعطى سائلنا، وأغضى عن جاهلنا[١].

وكان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدُّون إليه الخراج، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه منه شيء[٢].

هب الدنيا تُساق إليك عفوًا
أليس مصير ذاك إلى انتقالِ
وما دنياك إلا مثل فيءٍ
أظلَّك ثم آذن بالزوالِ

قال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل فلم يكن معه ما يعطيه فبكى، فقلت: يا أبا محمد! ما الذي أبكاك؟ قال: أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيرًا فلا يصيبه؟[٣].

رحمهم الله ورحم زمانًا أظلهم وأرضًا أقلتهم، ورزقًا من طيب سجاياهم وكريم خصالهم.

أخي الحبيب:

من دقيق نعم الله على العبد، التي لا يكاد يفطن لها، أنه يغلق عليه بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القتت، ليُعرفه نعمته عليه[٤].

ومن عظيم نعم الله على العبد أن يسوق إليه الأموال، ثم يدفع إليه من

---

(١) الإحياء: (٣/٢٦١).
(٢) حلية الأولياء: (١/٩٠).
(٣) وفيات الأعيان: (٢/٢٩٣).
(٤) عدة الصابرين ص (١٧٤).

يعطيه منها ويسأل عن مستحقها ليوصلها، ثم يتقبلها منه وتكون له سترًا عن النار. إنها نعم متتالية.

جاءت امرأة فسألت **حسان بن أبي سنان** فقال لشريكه: هكذا، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى، فذهب شريكه يزن لها درهمين، فوزن لها مائتين فقالوا: يا أبا عبدالله! كنت تُرضي بهذا كذا وكذا من سائل. فقال: إني ذهبت في شيء لم تذهبوا فيه، إني رأيت بها بقية من الشباب وخشيت أن تحملها الحاجة على بعض ما أكره[١].

لم يكن عطاؤهم لسد الجوع وملء البطن فحسب، بل حتى الوصول إلى الكفاف والاستغناء؛ لكي لا تحملها الفاقة إلى فساد عرضها ودينها.

قال **علي بن عيسى الوزير**: كسبتُ سبعمائة ألف دينار. أخرجت منها في وجوه البر ستمائة ألف وثمانين ألفًا[٢].

والسُّؤال ـ أيها القارىء ـ: لو كانت في يدك؟ كم ستخرج وكم ستُبقي؟!

عندما سُئل **أبو صفوان الرَّعيني**: ما هي الدنيا التي ذمها الله في القرآن والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟ قال: كل ما أحببت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أحببت منها تريد به الآخرة فليس منها[٣].

وقال **علي بن أبي طالب** ـ رضي الله عنه ـ يصف الدنيا: حلالها حساب، وحرامها النار.

وقيل **لسفيان بن عيينة**: ما السخاء؟ قال: السخاء البر بالإخوان والجود بالمال.

---

(١) صفة الصفوة: (٣/٣٣٨).
(٢) السير: (١٥/ ٣٠٠).
(٣) تزكية النفوس ص ١٢٨.

قال: ورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صررًا إلى إخوانه. وقال: قد كنت أسأل الله ـ تعالى ـ لإخواني الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالمال؟.

قال **يحيىٰ بن معاذ** وكأنه يخاطب الكثير في عصرنا: مسكين ابن آدم، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة[١].

وقال **الحسن**: بذل المجهود منتهى الجود.

وقيل **لبعض الحكماء**: من أحب الناس إليك؟ قال: من كثرت أياديه عندي، قيل: فإن لم يكن، قال: من كثرت أياديّ عنده.

وقال **عبدالعزيز بن مروان**: إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده.

وقال **المهدي**: لشبيب بن شبة: كيف رأيت الناس في داري؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن الرجل منهم ليدخل راجيًا ويخرج راضيًا، وتمثَّل متمثلٌ عند عبدالله بن جعفر فقال:

إنَّ الضيعة لا تكون ضيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع

فإذا اصطنعت ضيعة فاعمد بها ... لله أو لذوي القرابة أو دع

فقال عبدالله بن جعفر: إنَّ هذين البيتين ليبخلان الناس، ولكن أمطر المعروف مطرًا، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللئام كنت له أهلاً[٢].

---

(١) تاريخ بغداد: (١٠/ ٣٦٧).
(٢) السير: (٨/ ١٤٨).

أما وصاياهم ونصحهم للأمة فلا حد له، وهم إلى الآخرة ينظرون ولتلك الأيام يستعجلون.

قال رجل لسفيان الثوري: أوصني؟ قال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك: فيها، والسلام(١).

ولو عملنا للدنيا بقدر بقائنا فيها، وللآخرة بقدر بقائنا فيها؛ لتغيرت الحال، وتبدلت الأعمال، ولكن أين من يجاهد نفسه ويعمل لدار الخلود؟!

قال قتيبة: كان الليث (ابن أسعد) يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة، وقال: ما وجبت علي زكاة قط(٢).

فرضت علي زكاة ما ملكت يدي
وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا

فإذا ملكت فَجُد، فإن لم تستطع
فاجهد بوسعك كله أن تنفعا

قال شفيق بن إبراهيم: بينما نحن ذات يوم عند إبراهيم بن أدهم إذ مر رجل فقال إبراهيم: أليس هذا فلان؟ فقيل: نعم. فقال لرجل: أدركه فقل له: قال لك إبراهيم: لِمَ لمْ تسلِّم؟ فقال له. فقال: والله إن امرأتي وضعت وليس عندي شيء فخرجت شبه المجنون. قال: فرجعت إلى إبراهيم، فقلت له، فقال: إنا لله، كيف غفلنا عن صاحبنا حتى نزل به هذا الأمر؟ وقال: يا فلان! إيت صاحب البستان فاستسلف منه دينارين، فادخل السوق فاشترِ له ما يصلحه بدينار، وادفع الدينار والآجر إليه.

---

(١) حلية الأولياء: (٧/ ٥٦).
(٢) طبقات الحنابلة: (١/ ٢٠٤).

فدخلت السوق فأوقرت بدينار من كل شيء، وتوجهت إليه فدققت الباب. فقالت امرأته: من هذا؟ قلت: أنا أردت ـ فلاناً. قالت: ليس هو هاهنا. قلت: فُمُري بفتح الباب وتنحَّي، قال: ففتحت الباب، فأدخلنا ما على البعير وألقيته في صحن الدار وناولتها الدينار. فقالت: على يدي، من بعث هذا؟ فقلت: قولي: على يد أخيك إبراهيم بن أدهم. فقالت: اللهم لا تنس هذا اليوم لإبراهيم[١].

وقال علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ: من وُصِف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيًا، وإنما السخي من يبتدىء بحقوق الله ـ تعالى ـ في أهل طاعته، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله ـ تعالى ـ تامًا.

وقيل للحسن: ما السخاء؟ فقال: أن تجود بمالك في الله عز وجل ـ. قيل: فما الحزم؟ قال: أن تمنه مالك فيه، قيل: ما الإسراف؟ قال: الإنفاق لحب الرئاسة.

ومن آداب الطَّعام التي غفلنا عنها وهجرناها دعوة الضعفاء والمساكين والأيتام لمشاركتنا نعم الله ـ عز وجل ـ وخيراته، فقد كان عبدالله بن عمر لا يأكل طعامًا إلا وعلى خوانه يتيم.

وأيتام الأمة الإسلامية تتخطفهم الحملات الصليبية، وتخترقهم جيوش الكفر، فأين نحن عن إعانتهم وكفالتهم وتعليمهم؟! بل أين أنت ـ أخي المسلم ـ عن أيتام أسرتك ممن هم في أمسِّ الحاجة إلى الرعاية

---

(١) صفة الصفوة: (٤/ ١٥٥).

* ليس المقصود هنا وصفه ـ جل وعلا ـ بالنسيان ـ تعالى عن ذلك ـ ولكن المقصود: أعظم له الأجر لفعله هذا اليوم.

وربما أنهم من أهل الزكاة وأنت عنهم غافل؟!

وليبشر كافل اليتيم ـ وهو القائم على أموره ـ بمرافقة الرسول ﷺ حيث بشره بذلك فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أناوكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما[١].

عن أنس بن مالك قال: كان أبو **طلحة** أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحب إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس فلمَّا نزلت: ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ**﴾ [آل عمران: ٩٢] قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ**﴾، اللَّهمَّ إن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وأدخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «**بخٍ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين**»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، قال: فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

أخي المسلم:

يفنـــي البخيـــل بجمـــع المـــال مـــدتـــه
وللحـــــوادث والأيـــــام مـــــا يـــــدعُ
كـــدودة القـــز مـــا تبنيـــه يهـــدمهـــا
وغيـــرهـــا بـــالـــذي تبنيـــه ينتفـــع

عن بيان **المصري** قال: كنت في مكة قاعدًا، وشاب بين يدي، فجاءه

(١) رواه البخاري.

إنسان وحمل إليه كيسًا فيه دراهم فوضعه بين يديه، فقال: لا حاجة لي فيه، فقال: فرِّقه على المساكين، ففرقه، فلمَّا كان العشاء رأيته في الوادي يطلب شيئًا لنفسه، فقلت: لو تركت شيئًا مما كان معك؟ فقال: لم أعلم أني أعيش إلى هذا الوقت.

سأل أعرابي **سعيد بن العاص** فأمر له بخمسمائة، فقال الخادم: خمسمائة درهم أو دينار؟ فقال: إنما أمرتك بخمسمائة درهم، وإذ قد جاش في نفسك أنها دنانير، فادفع إليه خمسمائة دينار، فلمَّا قبضها الأعرابي جلس يبكي، فقال له: ما لك؟ ألم تقبض نوالك؟ قال: بلى والله، ولكن أبكي على الأرض كيف تأكل مثلك[1].

وبعث **محمد بن المنكدر** إلى صفوان بن سليم أربعين دينارًا، ثم قال له لبنيه: يا بني! ما ظنكم برجل فرغ صفوان لعبادة ربه ـ عز وجل ـ[2].

أي كفاه مؤنة البحث عن الرزق وأعانه على أمور الدنيا.

أما من حسِبَ الدنيا مالاً لا ينفد ونعيمًا لا يزول فإليه إحدى تلك العبر من بين مئات يعرفها وتعرفها أنت وأنا.

كان **فخر الدولة علي بن ركن** (من ملوك بني بويه) يقول: جمعت لولدي ما يكفيهم ويكفي عسكرهم خمس عشرة سنة، وتوفي في قلعة بالري، وكانت مفاتيح خزائنها مع ولده، ولم يحضر، فلم يوجد له كفن، فابتيعَ من قيِّم الجامع الذي تحت القلعة ثوب خلف فيه، واختلف الجند فاشتغلوا عنه حتى أراح، فلم يمكنهم القرب منه، فشُد بالحبال، وجُرَّ

---

(١) البداية والنهاية: (٨/ ٩٣).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ١٤٢).

على درج القلعة من بُعد حتَّى تقطع، وكان قد ترك ألفي ألف دينار، وثمانمائة وخمسة وستين ألفًا، وكان في خزائنه من الجوهر والياقوت واللؤلؤ والبلخش والماس أربعة عشر ألفًا وخمسمائة قطعة قيمتها ألف ألف دينار. ومن أواني الفضة ما وزنه ثلاثة آلاف ألف، ومن الأثاث ثلاثة آلاف حمل، ومن السلاح ألف حمل، ومن الفرش ألفان وخمسمائة حمل[1].

أما الخليفة الزاهد **عمر بن عبدالعزيز** فقد قال له مسلمة بن عبدالملك: يا أمير المؤمنين، إنك أفرغت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لا شيءَ لهم، فقال عمر بن عبدالعزيز: أبالفقر تخوفني يامسلمة؟ أما قولك إني أفرغت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله إني ما منعتهم حقًّا هو لهم وأن بنيَّ أحد رجلين: إما رجل يتقي الله فسيجعل الله له رزقًا، وإما رجل مكب على المعاصي فإني لم أكن لأقويه على معصية الله. وعاش أبناء عمر رحمه الله لم يحتاجوا إلى أحد ولا سألوا من بعده.

وحال الأخيار لا يريدون علوًا في الأرض، يرون هذه الدنيا خطوات مضى أكثرها، يساهرون لذلك المسير ليلاً بالعبادة مشرقًا، ونهارًا بالطَّاعـة مزهرًا.

عن علي بن زيد قال: حج **الحسن** خمس عشرة حجة ماشيًا، وإن النجائب لَتُقاد بين يديه، وخرج من ماله لله مرتين، وقاسم الله ـ عز وجل ـ ماله ثلاث مرات، حتى إنه كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً.

عن ميمون بن مهران أن رجلاً من بني **عبدالله بن عمر** استكساه إزارًا وقال: قد تخرَّق إزاري، فقال: ارقع إزارك ثم البسه، فكره الفتى ذلك

---

(١) شذرات الذهب: (٣/ ١٢٤).

فقال له عبدالله بن عمر: ويحك، اتق الله ولا تكن من القوم الذين يجعلون ما رزقهم الله ـ عز وجل ـ في بطونهم وعلى ظهورهم[١].

ورؤي على سلمان الفارسي جبة من صوف فقيل له: لو لبست ألين من هذا؟ قال: إنما أنا عبد، ألبس كما يلبس العبد، فإذا أُعتقت لبست ثيابًا لا تبلى حواشيها[٢].

أولئك قومٌ قال عنهم الحسن: والله لقد أدركت أقوامًا ما طُوي لأحدهم في بيته ثوب قط، ولا أمر في أهله بصنعة طعام قط، وماجعل بينه وبين الأرض شيئًا قط[٣].

ومنهم طلحة بن عبيدالله الذي باع أرضًا له من عثمان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فلمَّا جاء بها قال: إن رجلاً تبيت عنده في بيته فلا يدري ما يطرقه من أمر الله لضرير بالله، فبات ورسله تختلف بها في سكك المدينة، حتى أسحر وما عنده منها درهم[٤].

لا تبخلــــنَّ بـــدنيـــا وهــــي مقبلـــة
فليـــس ينقصهـــا التبـــذيـــر والســـرفُ
وإن تــــولَّـــت فـــأحـــرى أن تجـــود بهـــا
فـــالحمـــدُ منهـــا إذا مـــا أدبـــرت خلـــفُ[٥]

اجتمع عند أبي الحسن الأنطاكي نيف وثلاثون نفسًا ـ وكانوا في قرية

---

(١) صفة الصفوة: (١/ ٥٧٥).
(٢) التواضع والخمول ص ١٧١.
(٣) حلية الأولياء: (٢/ ١٤٦).
(٤) صفة الصفوة: (١/ ٣٤٠).
(٥) الإحياء: (٣/ ٢٦١).

بقرب الري ـ ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان، وأطفأوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رُفع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئًا إيثارًا لصاحبه على نفسه[(١)].

وقال الربيع: أخذ رجل بركاب **الشافعي**، فقال لي: أعطه أربعة دنانير واعذرني عنده[(٢)].

أما **حكيم بن حزام** فقد كان يحزن على اليوم الذي لا يجد فيه محتاجًا ليقضي له حاجته حيث قال: ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها.

وقضى **ابن شبرمة** حاجة كبيرة لبعض إخوانه فجاء يكافئه بهدية. فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديته إلي، فقال: خذ مالك عافاك الله. إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها، فتوضأ للصلاة، وكبر عليه أربع تكبيرات، وعده من الموتى[(٣)].

وعلى هذا القياس في أيامنا هذه فالكثير إلى الأموات أقرب.

وذُكر أن **مالك بن دينار** ـ رحمه الله تعالى ـ كان جالسًا ذات يوم، فجاء سائل وسأله شيئًا، وكان عنده سلة تمر، فقال لامرأته: ائتيني بها؛ فأخذها مالك فأعطى نصفها إلى السائل، وردَّ نصفها إلى امرأته، فقالت له امرأته: مثلك يسمى زاهدًا؟! هل رأيت أحدًا يبعث إلى الملك هدية مكسرة؟ فدعا مالك بالسائل وأعطاه البقية، ثم أقبل على امرأته فقال لها: يا هذه اجتهدي ثم اجتهدي؛ فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٧٣).

(٢) السير: (١٠/ ٣٧).

(٣) الإحياء: (٢/ ١٥٩).

﴿ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢﴾ فيقال: من أين هذه الشدة؟ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣٤﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٤].

اعلمي ـ أيتها المرأة ـ قد طرحنا من عنقنا نصفها بالإيمان، فينبغي أن نطرح النصف الآخر بالصدقة[١].

ومن أثر الصَّدقة العاجل في الدنيا ما نراه في هذه الواقعة التي جرت على يدي **عبدالله بن جعفر** حين خرج إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرصٍ فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله، وعبدالله ينظر إليه، فقال: يا غلام! كم قوتك كل يوم؟! قال: ما رأيت! قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبدالله بن جعفر: أُلام على السخاء! إن هذا الغلام لأسخى مني. فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فعتق الغلام ووهبه منه[٢].

والله ـ عز وجل ـ جواد كريم يعطي الجزيل على العمل القليل، حتى وإن كان في الدواب والبهائم.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج**

---

(١) تنبيه الغافلين ص ٢٥٢.
(٢) الإحياء: (٣/ ٣٧٣).

فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسول الله! إن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: «**في كل كبدٍ رطبة أجر**»(١).

وفي رواية أخرى: «**بينما كلب يطيف** (يدور) **بركية** (بئر) **قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فاستقت له به، فسقته، فغُفر لها به**»(٢).

حدَّث محمد بن الفضل عن رجل من أهل البصرة قال: كان أعرابي صاحب ماشية، وكان قليل الصدقة، فتصدق بغريض من غنمه، (يعني بسخلة مهزولة» فرأى فيما يرى النائم كأنها أقبلت عليه غنمه كلها تنطحه، فجعل الغريض يحامي عنه، فلمَّا انتبه قال: والله لئن استطعت لأجعلن أتباعك كثيرة. قال: وكان بعد ذلك يعطي ويقسم(٣).

وها هو **جعفر بن محمد بن علي**، من شدة ثقته بالله ـ عز وجل ـ يطعم حتى لا يبقى لعياله شيء(٤).

وكان **أنس بن سيرين** يُفطِّر كل ليلة من رمضان خمسمائة إنسان(٥).

أما صدقة اللباس الذي يشترك في مهمة عظيمة، وهي ستر العورة، ومازاد عن ذلك فهو سواء قل أو كثر. فإنهم أصحاب أيادٍ بيضاء وصدقة لا تنقطع.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) تنبيه الغافلين ص ٢٥٢.

(٤) صفة الصفوة: (٢/١٦٩).

(٥) شذرات الذهب: (١/١٥٧).

قال قراد أبو نوح: رأى عليَّ شعبةُ قميصًا، فقال: بكم اشتريت هذا؟ فقلت: بثمانية دراهم، فقال لي: ويحك، أما تتقي الله؟ ألا اشتريت قميصًا بأربعة دراهم وتصدقت بأربعة كان خيرًا لك؟ قلت: يا أبا سطام، أنا مع قوم نتجمل لهم، قال: أيش نتجمل لهم؟[(١)].

أخي الحبيب:

كان عمرو بن قيس الملائي يقول: إذا سمعت شيئًا من الخير فاعمل ولو مرة به تكن من أهله.

اعمـــل الخيـــر مـــا استطعـــت وإن كـــا
ن قليــــلاً فلــــن تحيـــط بكلِّــــه
ومتـــى تفعـــل الكثيـــر مـــن الخيـ
ـــر إذا كنـــت تـــاركًـــا لأقلـــه[(٢)]

قال محمد بن إسحاق: كان الناس من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشهم، فلمَّا مات علي بن الحسن فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل[(٣)].

وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد فقالت: يا أبا الحارث! إن ابنًا لي عليل واشتهى عسلاً فقال: يا غلام، أعطها مرطًا من عسل (المرط عشرون ومائة رطل).

وكان أحمد بن إبراهيم، كثير الصدقة، سأله سائل فأعطاه درهمين، فحمد الله فجعلها خمسة، فحمد الله فجعلها عشرة، ثم ما زال يزيده

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٣٥٠).
(٢) أدب الدنيا والدين ص (٢٠٤).
(٣) البداية والنهاية: (٩/ ١١٧).

ويحمد السائل الله حتى جعلها مائة فقال: جعل الله عليك واقية باقية. فقال للسائل: والله لو لزمت الحمد لأزيدنك ولو إلى عشرة آلاف درهم[(١)].

وعندما عوتب **الحسن بن سهل** وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله فقيل له: ليس في السرف خير، قال: بل ليس في الخير سرف[(٢)].

وقد اشترى **خالد الطحان** نفسه من الله أربع مرات؛ فتصدق بوزن نفسه فضة أربع مرات.

وإن من علائم الخير في الأمم أن ترى أبناءها في حياتهم الشخصية والعائلية لا ينفقون إلا بقدر معتدل، ولا يبذلون إلا ما هو في حدود الكفاية. ولكنهم في حياتهم الاجتماعية أسخياء كرماء لا يعرفون للكرم حدودًا ولا غاية، هكذا يعيش أبناء العالم المتحضر اليوم، يقتصد أحدهم في الإنفاق على نفسه إلى درجة تقرب من البخل، فترى الغني يلبس الثوب البسيط، ولكنه ينفق الملايين على جامعة تؤسس، أو على ميتم ينشأ، أو على بحث من أبحاث العلم يحتاج إلى من يتفرَّغ له.

ولقد سبقهم أهل الإسلام بذلك؛ فلقد كان **أبو بكر** ـ رضي الله عنه ـ في حياته الخاصة من أبسط الناس معيشة ومأكلاً وملبسًا، حتى إذا احتاج المسلمون إلى المال للإنفاق في غزوة تبوك أخرج ماله كله.

وهذا **عثمان** ـ رضي الله عنه ـ، الغني، يصيب الناس في عهد عمر قحط وشدة، فتأتيه قافلة من الشام ألف جمل، عليها أصناف الطعام واللباس مما لا يُقدر في تلك المحنة بثمن، فيجيئه التجار يطلبون أن

---

(١) البداية والنهاية: (١١/ ١٣١).
(٢) وفيات الأعيان: (٢/ ١٢١).

يبيعهم هذه القافلة، فيقول: كم تعطوني ربحًا؟ قالوا: خمسة في المائة، قال: إني وجدت من يعطيني أكثر، فما زالوا يزيدونه حتى أعطوه عشرة بالمائة، فقال لهم: لقد وجدت من يعطيني أكثر؛ فتصدق بها[١].

وبعض الأسر المتحضرة المتعلمة تتميز بصفاء القلب، وكرم النفس وسخاء اليد، فلها في ذلك سهام تصل إلى الفقراء والمساكين والجيران وذوي الرحم، وهم مع هذا الإنفاق أهل مأكل وملبس لا يتميز عن غيرهم، رغم أنهم نشأوا في غنى قديم ونعمة متواترة، وغدًا تضم القبور من أكل كثيرًا ومن لم يأكل إلا قليلاً، ومن لبس الحرير ومن لبس دون ذلك، ولكن يبقى العمل وتتجلى أنوار العبادة في قبور مظلمة وصحبة موحشة.

سئل **سعيد بن عبدالعزيز** عن الكفاف من الرزق ما هو؟ فقال: شبع يوم وجوع يوم[٢].

حتى متى تُسقى النفوس بكأسها ... ريب المنون وأنت لاهٍ ترتع

أفقد رضيت بأن تعلل بالمنى ... وإلى المنية كل يوم تدفع

أحلام نوم أو كظل زائلٍ ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

فتزَوَّد ليوم فقرك دائمًا ... واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع[٣]

---

(١) أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعي ص ٢١.

(٢) تذكرة الحفاظ: (١/٢١٩).

(٣) السير: (٤/٢١٦).

وهذه نداءات خاصة للنساء فقد قال رسول الله ﷺ: **«تصدقن يا معشر النساء لو من حليكن»**[١].

وقال ﷺ: **«يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار»**[٢].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أنفقت المرأة في طعام زوجها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئًا»**[٣].

ومن صور الاستجابة في عهد الرسول ﷺ ما روته أم سنان الأسلمية ـ رضي الله عنها ـ في غزوة العسرة حين قالت: «لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدي النبي ﷺ في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيه مُسك، ومعاضد، وخلاخيل، وأقرطة، وخواتيم، وقد مُلىء، مما بعث من النساء يُعِنَّ به المسلمين في جهازهم»[٤].

والدعوة عامة لنا جميعًا معشر الرجال والنساء، قال الله ـ تعالى ـ في عطاء جزيل ومنة عظيمة من رب كريم رحيم: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

شبه الله ـ سبحانه ـ نفقة المنفق في سبيله ـ سواء كان المراد بها الجهاد

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الجماعة.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: (٤/ ٣٥٠).

أو جميع سبل الخير من كل حبة ـ بمن بذر بذرًا، فأنبتت كل حبة منه سبع سنابل، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها.

فإنَّ ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غير جزع ولا هلع، ولا مُتبعه نفسه، ترجُف يده وفؤاده[1].

أخي الحبيب:

تأمل في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل: ٩٦].

وأبشر ببشارة من رب الأرض والسماوات: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

بعد هذه النداءات المتتالية وصور الإنفاق الطيبة لا تكن كمن قال الله عنهم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨].

ولا تكن ممن هم أشد من أولئك: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ

---

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص ١٥٠.

بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [النساء: ٣٧].

فإننا والله كما قال **الربيع بن خيثم**: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا[1].

بل وكما قال **المغيرة**: أصبحنا مغرقين في النعم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون[2].

أخي المسلم.. أختي المسلمة:

إن هذا المال الذي هو نعمة أرسله الله إلينا وجعلنا أمناء عليه، ربما يتحول إلى نقمة إذا لم يكن عونًا على الطاعة وبلية إذا لم يكن طريقًا إلى الجنة، ولا ندعي كذبًا ونباهي زورًا أننا جمعناه بجدنا واجتهادنا وعرق جباهنا. فقد قال قارون مثل ذلك: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص: ٧٨].

بل احمد الله أن جعلك ممن نالهم هذا الخير، وكُل وأطعم، والبس وَاكْسُ، وأنفق وتصدق ليوم تشخص فيه الأبصار، واحمد الله ـ عز وجل ـ على أن جعلك تُعطي ولا تأخذ، وتتصدق ولا يُتصدق عليك.

أخي المسلم:

وأنت تسير في طريق الإنفاق، لا يغوينك الشيطان ويصدنك عن فعل الخير، واستحضر هذه الآية في كل حين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٦٧).

(٢) تزكية النفوس ص ٩٦.

رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ولا تظن أيها الأخ الحبيب أن أبواب الصدقة مقتصرة على دفع المال فحسب، بل هناك أنواع من الصدقة كثيرة دون المال، فمن ذلك ما قاله الرسول ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طليقٍ**»[١].

وعن أبي ذر جندب بن جنادة ـ رضي الله عنه ـ قال:

قلت: يا رسول الله! أي العمل أفضل؟ قال: «**الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله**».

قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: «**أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا**».

قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «**تعين صانعًا أو تصنع لأخرق**».

قلت: يا رسول الله! أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: **تكف شرَّك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك**»[٢].

وفي حديث آخر جمع فيه الرسول ﷺ أنواعًا من الصدقة فقال: «**كل سُلامىٰ من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الإثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»[٣].

ومن أعظم الصَّدقات صدقة الجاه، وقضاء حوائج النَّاس، والشفاعة لهم، خاصة في هذا الزمن؛ قال رسول الله ﷺ: «**إن لله خلقًا خلقهم**

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

لحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله»[١].

وقال ﷺ: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب»[٢].

ومن أعظم الصدقات إصلاح ذات البين، فقد قال رسول الله ﷺ: «أفلا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟» قالوا بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين»[٣].

أخي الحبيب:

قال رسول الله ﷺ: «إنَّك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتَّى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك»[٤].

فأبواب الخيركثيرة، وجوَّاد البر معلومة، جعلني الله وإياك ووالدينا من الحامدين الشاكرين الذين ينفقون في السَّراء والضراء، ممن يُنادون يوم القيامة: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

* * *

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) متفق عليه.

مفتاح دعـوة الرسل

المقدمة

الحمد لله وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن تربية النفوس وتزكيتها أمر مهم غفل عنه أمةٌ من الناس، ومع انتشار الخير وكثرة من يسلك طريق الاستقامة إلا أن البعض يروم الصواب ولا يجده وينشد الجادة ويتيه عنها، وقد انبرى لهم الشيطان فاتخذ هؤلاء مطية ومركباً يسير بهم في لجة الرياء والسمعة والعجب. ولخطورة الأمر وعظمه وردت الجمَّ وأدليت بدلوي ونزعت نزعاً لا أدعي كماله، وحسبي منه اجتهاد مُقِّصر ومحبة الخير لي وللمسلمين.

وهذا هو الجزء «**السابع عشر**» من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» تحت عنوان: «**مفتاح دعوة الرسل**».

رزقنا الله الإخلاص في القول والعمل، وجعل أعمالنا صواباً خالصة لوجهه الكريم لا رياء فيها ولا سمعة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

إن الإخلاص هو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة الرسل - عليهم السلام - قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

وقال - جل وعلا -: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر: ٣].

وقال - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ [الملك: ٢].

قال **الفضيل ابن عياض**: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً وصواباً، **والخالص**: أن يكون لله، **والصواب**: أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله - تعالى -: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال الله - تعالى -: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء: ١٢٥].

قال **ابن كثير**: أي أخلص العمل لربه - عز وجل - فعمل إيماناً واحتساباً[١].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله.

والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته.

أما حال من قصد غير وجه الله - عز وجل - فقد قال عنهم - جل وعلا -

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٠.

في محكم كتابه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] وهي الأعمال التي كانت على غير السنة أو أريد بها غير وجه الله(١).

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «**قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٢).

وقال ﷺ: «**من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك**»(٣).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٤).

أخـي المسلم:

إن الإخلاص أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدراً وشأناً، بل إن أعمال القلوب عموماً آكدُ وأهم من أعمال الجوارح.

يقول شيخ الإسلام **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ عن الأعمال القلبية: وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف

---

(١) مدارج الساكين، ص ٩٣.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد.
(٤) متفق عليه.

منه، والرجاء له، وهذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين[١].

ولأهمية ذلك وعظم أمره **قال أحد العلماء**: وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلِّم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلاّ، فإنه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

وحتى هذا العلم الذي ينفع الله به البلاد والعباد إذا لم يكن صاحبه صادق الإخلاص لله عز وجل في طلبه ثم في بذله فإنه متوعد يوم القيامة على لسان رسوله ﷺ حيث قال: «**من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله ـ عز وجل ـ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة** (يعني ريحها) **يوم القيامة**»[٢].

والله ـ عز وجل ـ مطلع على السرائر وما تخفي الأنفس، لا ينظر إلى الصور وما ملكت اليد؛ فهو صاحب الفضل ومُسدي النعم، ولكنه ينظر إلى ما في داخل الصدور من الإيمان به والتصديق برسالاته والعمل بمقتضى ذلك.

عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صُورِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٣].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٥.

(٢) رواه أبوداود.

(٣) رواه مسلم.

تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ـ قل أم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس[١].

والرياء: هو أن يُري الناس أنه يعمل عملاً على صفة وهو يضمر في قلبه صفة أخرى، فهو مستحق للذم والعقاب، ولا ثواب له إلا فيما خلصت فيه النية لله تعالى.

قال **الحافظ**: الرياء إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدونه عليها.

والفرق بينه وبين السمعة، أن **الرياء** لما يُرى من العمل، كالصلاة والصدقة، **والسمعة** لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث به. وهو البحر الذي لا ساحل له وقل أن ينجو منه، فمن أراد بعلمه غير وجه الله، أو نوى شيئاً إلى غير الله وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونياته[٢].

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصاً[٣].

وقيل: **الإخلاص** استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن.

والرياء: أن يكون ظاهره خيراً من باطنه.

والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٠٠.

(٢) حاشية كتاب التوحيد، لابن قاسم، ص ٢٦٤.

(٣) الإحياء ٤/ ٤٠٠.

وقيل: **الإخلاص**: نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله[(١)].

وتجمع المراءى به خمسة أقسام، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس:

القسم الأول: الرياء في الدين بالبدن:

وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل، وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر، ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته أو الجوع هو الذي ضعف قوته.

الثاني: الرياء بالهيئة والزي:

أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه.

والمراءون بالزي على طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المنحرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطى والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

---

(١) مدارج الساكين، ص ٩٥.

الثالث: الرياء بالقول:

ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار، لأجل الاستعمال في المحاورة، وإظهار لغزارة العلم، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي، وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه، ليعرف أنه بصير بالأحاديث، والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين. والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

الرابع: الرياء بالعمل:

كمراءاة المصلي بطول القيام ومدِّ الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس، وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام، وبالإخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى أن المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه

إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء الصالحين.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين:

كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه، ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ؟ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً ودرت البلاد وخدمت الشيوخ، وما يجري مجراه.

فهذه مجامع ما يرائي به المراءون، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم: من يقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم من راهب انزوى إلى ديرة سنين كثيرة، وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق، ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه فإنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال.

ومن المرائين: من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد.

ومنهم: من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه.

ومنهم: من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة.

ومنهم: من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها. فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء[١].

وقد توعد الله ـ عز وجل ـ المرائين فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧]

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأسباب الرياء وبواعثه ترجع إلى ثلاثة أصول هي:

الأول: حُب لذة الحمد والثناء من الناس.

الثاني: الفرار من الذم.

الثالث: الطمع فيما في أيدي الناس من مال وجاه وغيره.

ولأن هذه البواعث تطرق الإنسان وتأخذ بيد من وافقها فقد حذر النبي ﷺ من الرياء لخفائه وعدم ظهوره، بل وجهل بعض الناس بأمره. عن أبي سعيد مرفوعاً: «**ألا أُخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الشرك الخفي**».

وقد سماه خفياً لأنه عمل قلب لا يعلمه إلا الله، ولأن صاحبه يظهر أن

---

(١) الإحياء: ٣/ ٣١٤ باختصار.

عمله لله، وقد يقصد به غيره، أو شكه فيه بتزيين صلاته لأجله.

وعن **شداد بن أوس** قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر(١).

قال **ابن القيم**: وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق والحلف بغير الله وقول الرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت، وقد يكون هذا أكبر بحسب حال قائله ومقصده، ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله(٢).

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: فالسجود، والعبادة، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتحسب، والتوبة، والنذر، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محض حق الله، ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل(٣).

هذا إذا كان لا يجوز لملك مقرب ولا نبي مرسل فما بالك بمن يصرف بعضاً من ذلك أو يسيره رياءً لمن يرى من رؤسائه ومدرائه!! وسُمعة لمن يسمع من أقاربه أو معارفه وجيرانه؟!

أخي المسلم:

للمرائي علامات ذكرها **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه بقوله: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في

---

(١) رواه ابن جرير وغيرهو وصححه الحاكم.

(٢) حاشية كتاب التوحيد، ص٢٦٧.

(٣) الجواب الكافي ص ١٨٠.

الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقص إذا ذم[١].

إذا الســـر والإعــلان فـــي المـــؤمـــن استـــوى
فقـــد عـــزَّ فـــي الـــداريـــن واستـــوجـــب الثنـــا
فـــإن خـــالـــف الإعـــلان ســـراً فمـــا لـــه
علـــى سعيـــه فضـــل ســـوى الكـــدِّ والعنـــا

وسأل رجل **شقيق بن إبراهيم** فقال: إن الناس يسمونني صالحاً، فكيف أعلم أني صالح أو غير صالح؟ فقال شقيق:

أولاً: أظهر سرك عند الصالحين، فإن رضوا به فاعلم أنك صالح، وإلا فلا.

ثانياً: اعرض الدنيا على قلبك، فإن ردها فاعلم أنك صالح.

ثالثاً: اعرض الموت على نفسك، فإن تمنته فاعلم أنك صالح، وإلا فلا.

فإذا اجتمعت فيك هذه الثلاثة فتضرع إلى الله ـ تعالى ـ لكي لا يدخل الرياء في عملك فيفسد عليك أعمالك[٢].

وكثر حديث النفس في المجالس مباهاة ورياءً.. فهذا سعى لبناء مسجد: فتراه يذكر قصته من أول يوم وما واجهه من عقبات وصعوبات وكيف تعب وشقي حتى أتم الأمر كله!!

والآخر يتحدث عن صدقته وأنه يوصلها للأيتام بنفسه ويحكي ما رأى على سبيل حظ النفس وأنه ذهب في الحر الشديد ودخل أحياء موحشة!!

---

(١) الإحياء: ٣/ ٣١٣.
(٢) تنبيه الغافلين: ١/ ٢٤.

وتلك تتحدث عن جهدها في الدعوة وكم شريطاً اشترت وكم كتاباً وزعت!!

وهكذا يكون اللسان في كثير من المجالس وبالاً على صاحبه!!

وأما من ابتلي بأعمال ظاهرة للناس فتراه يتصنع التعب وضيق الوقت وكثرة الداخلين والخارجين وأن هموم الإسلام على ظهره!! فسبحان الله ما أجهله.. ولقد قارب الفلاح ولكن الشيطان أبى!!

يهـــــوى الثنـــــاء مبـــــرز ومقصـــــر
حـــــبّ الثنـــــاء طبيعـــــة الإنســـــان

قال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور[1].

قال ابن القيم لا شيء أفسد للأعمال من العُجْب ورؤية النفس، ولا شيء أصلح لها من شهود العبد مِنة الله وتوفيقه والاستعانة به والافتقار إليه وإخلاص العمل له[2].

أخي الحبيب:

إن العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه[3].

وفي العمل القليل الخالص لوجه الله ـ عز وجل ـ بركة وأجر عظيم.

قال سري السقطي: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما، خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو.

---

(١) مدارج السالكين ص٩٩.

(٢) الفوائد ص ٦٤.

(٣) المجموعة السعدية ٢/ ٢٦٢.

وقال **بعضهم**: في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز.

ويقال: العلم بذر، والعمل زرع، وماؤه الإخلاص[١].

ومن ثمرات الإخلاص وصدق التوجه إلى الله ـ عز وجل ـ ما نراه في حال السلف ـ رحمهم الله ـ.

قال **سفيان بن عيينة**: ما أخلص عبدٌ لله أربعين يوماً إلا أنبت الله الحكمة في قلبه نباتاً، وأنطق لسانه بها، وبصَّره عيوب الدنيا داءها ودواءها[٢].

هذا إذا كان هدفه من هذا الإخلاص وجه الله ـ عز وجل ـ وليس لهدف أن ينبت الله في قلبه الحكمة أو غيرها. فإنها حينئذ تنصرف إلى الجهة والقصد. ومن قصد الله وجده، ومن يمَّم نحو هدف كالحكمة أو هدف آخر فإن إخلاصه ينثلم!!

ومن جاهد نفسه يوماً بعد آخر وشهراً بعد شهر فإن الله ـ عز وجل ـ ييسر له أمر الإخلاص والانقطاع له ويجعل له نفعاً ولعمله قبولاً.

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: والمأمور به أمران: عملٌ باطن وهو إخلاص الدين لله، وعملٌ ظاهر وهو ما شرعه الله لنا من واجب ومستحب؛ وخلق كثير يعبدون غير الله، وخلق كثير يبتدعون عبادة لم يأذن بها الله، وكثيرٌ من الناس عملهم ليس خالصاً لله ولا موافقاً لشريعة الله، مبتدِعة ضُلاّل يُشَرِّعون ديناً لم يأذن به الله.

سئل **حمدون القصار**: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعزّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم

(١) الإحياء ٤/ ٣٩٩.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٢٨٧.

لعز النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق[١].

استعدوا للآخرة وتجهزوا لها وعملوا للإسلام وبذلوا له فكان لهم النفع والقبول، ثم طوت الأيام صفحتها وقل نظيرهم ونَدَر جنسهم. فالهوى والنفس الأمارة والشيطان كلٌ يجاذب الإنسان في طريق!! وها هو الشيطان في خداع مع الإنسان يبحث له عن مدخل ويطرق عليه جميع الأبواب.

قال **الحسين بن زياد**: لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يُخبر من عمله، لعله يكون كثير الطواف، فيقول: ما كان أحلى الطواف الليلة، أو يكون صائماً، فيقول: ما أثقل السحور، وما أشد العطش، فإن استطعت أن لا تكون محدثاً ولا متكلماً ولا قارئاً، إن كنت بليغاً، قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته، فيعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغاً قالوا: ليس يُحسن يُحدث، وليس صوته بحسن، أحزنك وشق عليك، فتكون مرائياً، إذا جلست فتكلمت ولم تبال من ذمك ومن مدحك من الله فتكلم[٢].

وعليك بإخلاص النية وصدق الالتجاء إلى الله ـ عز وجل ـ فإن في ذلك فلاح الدارين. حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد.. قال: أجاهده، قال: فإن عاد.. قال: أجاهده.. قال: هذا يطول. أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٢٢.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ٩١.

وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك[١].

أخي الحبيب:

من مداخل الشيطان العُجب وهو الدرجة الأولى في سلم الكبر والعياذ بالله. والعجب هو استعظام النِّعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المُنعم.

والعجب أنواع: فمن الناس من يعجب بصحته وقوته وتناسب أعضائه وحسن صورته، فليعلم أن ذلك من نصيب الدود وأن كل من عليها فانٍ، وقد قال سليمان عليه السلام: «**لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل منهن تنجب فارساً يجاهد في سبيل الله**» ولم يقل إن شاء الله، فلم تنجب منهن إلا واحدة ولدت نصف طفل، قال رسول الله ﷺ: «**لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله**»[٢].

ومن الناس من يعجب بعقله واستكشافه لبطائن الأمور الدينية والدنيوية، وثمرة هذا العجب أن تجده مستبداً برأيه مستجهلاً لغيره معرضاً عن سماع آراء الآخرين. فليفكر هذا العاقل فيما لو ابتلاه الله بمرض في دماغه لجن عقله وطار لبه، وذهب فكره، فليحمد الله على العافية وليشكره على النعمة.

ومن الناس من يعجب بنسبه ويظن أنه ناجٍ لا محالة، أليس هو ابن فلان؟ فليعلم هذا الغافل أن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وأن النبي

---

(١) تلبيس إبليس، ص ٣٧.
(٢) متفق عليه.

ﷺ نادى أقرب الناس إليه «**يا فاطمة: اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً**»(١).

ومن الناس من يعجب بكثرة أولاده وأهله وعشيرته، وهذا يكفيه قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [العبس: ٣٤ ـ ٣٧].

فأي عجب بمن يتركك في أشد أحوالك، ويهرب منك في أحرج أوقاتك؟.

ومن الناس من يعجب بماله وغناه، فليقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر: ١٥].

وقول رسوله ﷺ: «**بينما رجل يتبختر في حلة قد أعجبته نفسه مرجّل جمته إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٢).

ومن الناس من يعجب بعبادته، وهذا إنما أوتي من جهله، لأنه لا يدري أقُبلت عبادته أم لا؟.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ [الإسلام] هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

فمن لم يستسلم لله فقد استكبر ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الشرك والكبر(٣).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/١٤.

قال **مسروق**: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله[١].

بل لله الحمد في الأولى والآخرة. فله الحمد على نعمة الإسلام، وله الحمد على نعمة الهداية والتوفيق، وله الحمد أن يسر لنا العمل الصالح، وندعوه عز وجل كما يسر لنا ذلك ووفقنا له أن يوفقنا إلى قبول العمل الصالح الخالص لوجهه الكريم، وأن يتجاوز عن تقصيرنا فهو صاحب الإحسان العظيم ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات: ١٧].

عن **عمر** ـ رضي الله عنه ـ قال: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك، ومن صلاح عملك أن ترفض عجبك، ومن صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك.

وتأمل فقههم في الدين وعلمهم بعظمة الله ـ عز وجل ـ على العباد وحقوقه على عباده، قال **مطرف بن عبدالله**: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً[٢].

وروى عن **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ أن رجلاً سألها فقال: متى أعلم أني مُحسن؟ قالت: إذا علمت أنك مسيء. قال: ومتى أعلم أني مسيء؟ قالت: إذا علمت أنك محسن.

قال **ابن القيم**: كثر الخلق إذا نالوا الرئاسات تغيرت أخلاقهم ومالوا إلى الكبر وسرعة الانفعال، فمن الغلط أن تطالبه بالأخلاق التي كان

---

(١) رواه الدارمي.
(٢) السير ٤/١٠٩.

يعامل بها قبل الرئاسة؛ ومخاطبة الرؤساء بالقول اللين مطلوب شرعاً وعقلاً، وهكذا كان ﷺ يخاطب العشائر والقبائل[١].

ولخوف سلف الأمة على أنفسهم ومهابتهم من الله ـ عز وجل ـ قال **ابن أبي مليكة**: أدركت ثلاثين من صحابة رسول الله ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه[٢].

ولهذا قال **سهل بن عبدالله**: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى، لا يمازجه شيء، لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا.

والعجب إحدى الآفات التي تفسد الأعمال، وتهلك العباد، وهو أحد العوارض التي تعرض للعالمين أثناء سيرهم إلى الله ـ تعالى ـ، فمنهم من يباهي بنفسه أنه تصدق بكذا وكذا، وآخر أنه صلى كذا وكذا، والثالث أنه يدعو إلى الله منذ عشر سنين. وكل ذلك عجبٌ ومباهاة!!.

والعجب داء ينافي الإخلاص ويضاده، ويجافي الذل والافتقار لله تعالى، فهو سوء أدب مع الله ـ جل جلاله ـ كما أن العجب يجانب محاسبة النفس، ويُعمي عن معرفة أدواء النفس وعيوبها.

قال **أبوالليث السمرقندي**: من أراد أن يكسر العجب فعليه بأربعة أشياء:

أولها: أن يرى التوفيق من الله ـ تعالى ـ، فإذا رأى التوفيق من الله ـ تعالى ـ فإنه يشغل بالشكر ولم يعجب بنفسه.

---

(١) المجموعة السعدية ٢/٢١٨.

(٢) تنبيه الغافلين، ص ٢٥٢.

الثاني: أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها واستقل عمله ولم يعجب به.

الثالث: أن يخاف أن لا يتقبل منه، فإذا اشتغل بخوف القبول لا يعجب بنفسه.

الرابع: أن ينظر في ذنوبه التي أذنب قبل ذلك، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته فقد قل عجبه، وكيف يعجب المرء بعمله ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب[1].

قال **عبدالله بن المبارك**: العجب أن ترى عندك شيئاً عند غيرك[2].

وهذا أصل مرض إبليس حيث قال الله ـ تعالى ـ قاصاً اعتراضه على السجود لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢] فأعجبت المسكين نفسه حيث ظن أن النار خير من الطين، فأورثه ذلك العجب خسران الأبد، والعياذ بالله.

وهذا قارون أُعجب بنفسه وماله فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨] فأهلكه الله ـ تعالى ـ حيث خسف به الأرض.

يقول شيخ الإسلام **ابن تيمية**: وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ فمن حقق قوله:

---

(١) تنبيه الغافلين، ص ٢٥٢.
(٢) السير ٨/ ٤٧.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ خرج عن الإعجاب[١].

قال المحاسبي: يجمع العجب خصالاً شتى: يعمى عليه كثير من ذنوبه، وينسى مما لم يعم عليه منها أكثر، وما ذكر منها كان له مستصغراً، وتعمى عليه أخطاؤه، وقوله بغير الحق، ويخرجه ذلك إلى الكبر والتعظيم على العباد، ويغتر بالله ـ عز وجل ـ ويدل عليه بعلمه وعمله، حتى كأن له منّة على ربه عز وجل، فحينئذ ينقطع عن الله ـ عزّ وجلّ ـ عصمته، ويكله إلى نفسه، فيرى أنه من المحسنين وهو عند الله من الظالمين الفاسقين[٢].

قال النووي: وطريقة في نفي الإعجاب: أن يعلم أن العلم فضل من الله ـ تعالى ـ، ومنّة عارية، فإن لله تعالى ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه، وليس مالكاً له، ولا على يقين من دوامه[٣].

أخـي المسلم:

كل عملك الذي تقدمه قليل في جنب الله وإن ظهر لك مثل الجبال.. فاجمع على قلبك الخوف والرجاء، وتذكر قول ابن عون: لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدري أيقبل منك أم لا؟! ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري أكُفِّرتْ عنك أم لا؟! إن عملك مغيب عنك كله[٤].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٢٧٧.
(٢) الرعاية، للمحاسبي، ص ٣٣٧.
(٣) المجموع ١/ ٥٥.
(٤) جامع العلوم والحكم، ص ٢١١.

قال ابن بطال: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً، فحجب عنه(١).

وكان الحسن يروي أن **عائشة** ـ رضي الله عنهما ـ رأت رجلاً متماوتاً، فقالت: ما بال هذا؟ فقالوا: إنه صالح، فقالت: لا أبعد الله غيره، كان عمر ـ رضي الله عنه ـ أصلح منه، وكان إذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، فدعوا التصنع فإن الله لا يقبل من متصنع عملاً.

وروي عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد، إخفاء الزهد وكان يقول: من تزين للناس بما لا يعلمه الله منه شانه ذلك(٢).

وداء الرياء ليس في الحياة فحسب بل قد يصاحب أناساً بعد الموت.

قال **بشر بن الحارث**: قد يكون الرجل مرائياً بعد موته، يحب أن يكثر الخلق في جنازته(٣).

بل وبعضهم يُحب أن يكون طاغوتاً يعبد بعد موته من دون الله؛ فهو يسارع في آخر حياته إلى بناء [ضريحه] وتجميله واختيار الصناع المهرة لبنائه مخالفاً أمر الله ـ عز وجل ـ وأمر رسوله ﷺ في التحذير من ذلك والنهي عنه!!

وما أحسن قول **سهل بن عبدالله**: ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب(٤).

---

(١) فتح الباري ١١/ ٣٣٠.
(٢) الزهد، للحسن البصري، ص ١٩٠.
(٣) السير ١٠/ ٤٧٣.
(٤) جامع العلوم والحكم، ص ٢١.

وهاك أيها القارىء جوهرة من جواهر شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يصور للمرائي سقوط ما يسعى إليه وتهافت ما يبحث عنه حيث قال: رضا الناس غير مقدور وتحصيله غير مطلوب. . !

ومن ذا الذي يقدر على إرضاء الناس!! وهل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما يحث على السعي لتحصيل هذا الرضا والقبول؟! بل إن أكثر الناس كما قال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وهذا بحد ذاته يجعل الإنسان يركن إلى عزيز جبار ويلجأ إلى فاطر السماوات والأرض بعيداً عن تحصيل رضا فلان وعلان. . فإن رضي الله عنك فأنت في خير وإلى خير.

قال الفضيل بن عياض: تزيّنت لهم بالصوم فلم ترهَم يرفعون بك رأساً، تزينت لهم بالقرآن فلم ترهم يرفعون بك رأساً، تزينت لهم بشيء بعد شيء. إنما هو لحب الدنيا[(١)].

وقال الحسن: إن كان الرجل جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعر به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ذلك أن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ ادْعُوا

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٤٠.

رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وذلك أن الله ـ تعالى ـ ذكر عبداً صالحاً ورضي قوله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣].

قال **يعقوب**: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته[(١)].

وانظر إلى كرم الله ـ عز وجل ـ وجوده لمن أخلص له في عمله وصدق في توجهه واستقبل الآخرة وخلَّف الدنيا وأهلها وراءه!!

يقول **ابن تيمية**: إذا كان العبد مخلصاً له اجتباه ربه، فيحيي قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مرّ بعطفه[(٢)] أماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيباً ونقصاً وذماً، وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب.

ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له، قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل من سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه[(٣)].

وتأمل في حال من أخلص لله قلبه وتوجه بقلبه لله عز وجل، يقول

---

(١) تزكية النفوس، ص ١٧.

(٢) أي بجانبه.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/٢١٦.

العلامة ابن القيم: وقد جرت عادة الله التي لا تبدل وسنته التي لا تحول أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه، ويلبس المرائي اللابس ثوبي الزور من المقت والمهانة والبغضة ما هو اللائق به.

فالمخلص له المهابة والمحبة وللآخر المقت والبغضاء، وقد شرط الله لقبول العبادات وصحتها أن تكون خالصة له سبحانه وأن ينوي بها العبد التقرب إلى الله وإلا كانت عادة وليس عبادة، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وثبت في الصحيحين وغيرهما، قال ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أمواكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**(١).

وفساد النية في الغالب مرجعه إلى الشبهات والشهوات فإذا كثرت الشكوك والشبهات سبب ذلك الانحراف، وكذلك إذا كثر ورود شهوات على القلب أشرب حبها وأخذ يسعى في تحقيقها، وصدق الله العظيم: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الذين يدفعون زكاة أموالهم إلى السلطان خشية أن تضرب أعناقهم، أو تنتقص حرماتهم، أو تؤخذ أموالهم، وعن الذين يقومون يصلون خوفاً على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم. تحدث عنهم واصفاً إياهم بالنفاق والرياء ثم قال: عندنا وعند

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

أكثر العلماء، أن هذه العبادة فاسدة، لا يسقط الفرض بهذه النية[١].

عليك - أخي الحبيب - بجهاد النفس وإلزامها الجادة وترك الرياء والتصنع للناس فإنك يا ابن آدم كما قال **الحسن**: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من الناس.

ابن آدم: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك!![٢].

واعلم - أخي الحبيب - أن من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في عمله زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم[٣].

قال **الحسن**: السجود يذهب بالكبر والتوحيد يذهب بالرياء[٤].

وقال **بعضهم**: إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً، أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها[٥].

والشهرة التي يسعى إليها البعض من أهل الدنيا تنافي الإخلاص إذا كان الهدف منها الجاه وإبراز النفس والتيه على الآخرين، أما إذا أتت

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٦/٢٨.
(٢) حلية الأولياء ٢/١٥٥.
(٣) الفوائد، ص ٢٠١.
(٤) التواضع والخمول، ص ٢١٠.
(٥) الإحياء ٤/٣٩٩.

طائعة مرغمة فإنها من أنواع الابتلاء الذي يحتاج إلى جهاد ومدافعة لحظوظ النفس!!

قال **إبراهيم بن أدهم**: ما صدق الله عبد أحب الشهرة[1].

يقول **ابن الجوزي**: واعلم أن المؤمن لا يريد بعمله إلا الله سبحانه وتعالى، وإنما يدخل عليه خفي الرياء فيلبس الأمر، فنجاته منه صعبة، وفي الحديث مرفوعاً عن يسار قال لي يوسف ابن سباط: تعلموا صحة العمل من سقمه فإني تعلمته في اثنين وعشرين سنة.

وفي الحديث مرفوعاً عن إبراهيم الحنظلي قال: سمعت بقية بن الوليد يقول: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان، ودخلت عليه في صومعته فقلت له: يا سمعان، منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنة.. قلت: ما طعامك؟ قال: يا حنيفي، وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم. قال: في كل ليلة حمصة.. قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الذي بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتونني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظمونني بذاك، وكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها تلك الساعة. فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة. فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد. فوقر في قلبي المعرفة. فقال: أزيدك؟ قلت: نعم، قال: انزل عن الصومعة. فنزلت، فأدلى إلي ركوة فيها عشرون حمصة.. فقال لي: ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير اجتمعت النصارى، فقالوا: يا حنيفي، ما الذي

---

(١) السير ٣/ ٣٩٣.

أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته، قالوا: وما تصنع به ونحن أحق؟ ساوم. قلت: عشرين ديناراً، فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال: أخطأت، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك، هذا عز من لا يعبده، فانظر كيف تكون بعز من تعبده، يا حنيفي: أقبل على ربك[١].

أخي المسلم:

لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سَهُل عليك الإخلاص[٢].

عن يحيى بن أبي كثير قال: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل[٣].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: النية المجردة عن العمل يثاب عليها، والعمل المجرد عن النية لا يثاب عليه، ومن نوى الخير وعمل منه مقدوره وعجز عن إكماله كان له أجر عامل.

ومع كثرة مشاغل الحياة وجهل البعض ترى من لا يستحضر النية الصالحة في نومه وأكله وشربه ليؤجر عليها!!

ومما ينبغي التذكير به في هذا الموضع هو أن الإخلاص إذا تمكن من طاعة ما فكانت هذه الطاعة خالصة لوجه الله ـ تعالى ـ، فإننا نشاهد أن الله ـ تعالى ـ يجزي الجزاء الكبير والعطاء العظيم لهؤلاء المخلصين، وإن

---

(١) تلبيس إبليس، ص ١٥٣.
(٢) الفوائد، ص ١٩٥.
(٣) حلية الأولياء ٣/ ٣٠٧.

كانت الطاعة في ظاهرها يسيرة أو قليلة.

يقول ابن تيمية في هذا الشأن: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر كما في حديث البطاقة. فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون التوحيد، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة.

ثم ذكر ابن تيمية حديث البغيّ التي سقت كلباً فغفر الله لها.. والرجل الذي أماط الأذى عن الطريق فغفر الله له، ثم قال: فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها. فالأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإجلال(١).

وفي المقابل نجد أن أداء الطاعة بدون إخلاص وصدق مع الله، لا قيمة لها ولا ثواب، بل صاحبها متعرض للوعيد الشديد، وإن كانت هذه الطاعة من الأعمال العظام كالإنفاق في وجوه الخير، وقتال الكفار، ونيل العلم الشرعي كما جاء في حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمة فعرفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت**

---

(١) منهاج السنة ٦/٢١٨.

القرآن ليقال: قارىء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقي في النار»[١].

ومن الخوف العظيم من تسلط الرياء على الإنسان وخسران العمل وضياع الجهد..

قال **محمد بن أسلم**: لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي، لفعلت خوفاً من الرياء[٢].

يقول **ابن القيم** في بيان عظم أعمال القلوب: أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع ومكملة، وإن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح[٣].

ويقول ـ رحمه الله ـ: ومن تأمل الشريعة، في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وإنما أعمال القلوب أفرضُ على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد من الأعمال التي ميزت بينهما؟ وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت[٤].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) السير ١٢/ ٢٠٠.

(٣) بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٤.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٢٣٠.

ومن فوائد الإخلاص لله عز وجل وابتغاء مرضاته ما قاله **أبوسليمان الداراني**: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء[١].

قال **مورق العجلي**: ما أحب أن يعرفني بطاعته غيره[٢].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟

كان **محمد بن يوسف الأصبهاني** لا يشتري زاده من خباز واحد وقال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني[٣].

ومرّ **حمزة الزيات** برجل فاستسقى، ثم قال: أنت ممن يحضرنا في القراءة، قال: نعم، قال حمزة: لا حاجة لنا في مائك[٤].

ودخل **عبدالله بن محيريز** حانوتاً وهو يريد أن يشتري ثوباً، فقال رجل لصاحب الحانوت: هذا ابن محيريز فأحسن بيعه، فغضب ابن محيريز وخرج، وقال: إنما نشتري بأموالنا، لسنا نشتري بديننا[٥].

واليوم - والله المستعان - كثر المشترون بدينهم!!

أخـي المسلم:

السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرته شجرة طيبة، ومن كانت في معصية فثمرتها حنظل، وإنما يكون الجداد يوم المعاد، فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها.

---

(١) مدارج السالكين، ص ٩٦.
(٢) التواضع والخمول، ص ١٣.
(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٣١.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ١٥٦.
(٥) صفة الصفوة ٤/ ٢٠٦.

والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب، فروعها الأعمال، وثمرها طيّب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك[١].

قال **مالك بن دينار**: الخوف على العمل أن لا يُتقبل، أشد من العمل[٢].

وصدق، فإن الكثير تحولت لديه العبادة إلى عادة يجريها بلا روح وبدون حضور قلب!!

وقد أوصى أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** بوصية جامعة مانعة فقال للعاملين: كونوا بقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، فإنه لن يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يتقبل؟[٣].

ولهذا كانوا يحرصون على تخليص العمل من الرياء والسمعة، فأخفوه حتى عن أقرب الأقرباء وأصفى الأصفياء.

قال **محمد بن واسع**: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به[٤].

وقال **بعضهم**: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله[٥].

أما **وهب بن منبه** فإنه يذكر لنا قصة رجل من أفضل أهل زمانه، وكان يزار فيعظم، فاجتمعوا إليه ذات يوم فقال: إنا قد خرجنا من الدنيا وفارقنا

---

(١) الفوائد، ص ٢١٤.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٧.
(٣) تاريخ الخلفاء، ص ١٧٠.
(٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٦٩، حلية الأولياء ٢/ ٣٤٧.
(٥) مدارج السالكين، ص ٩٥.

الأهل والأموال مخافة الطغيان، وقد خفت أن يكون قد دخل علينا في هذه حالة من الطغيان أكثر مما يدخل على أهل الأموال في أموالهم. أرانا يحب أحدنا أن تقضى له حاجته، وإن اشترى بيعاً أن يقارب لمكانه دينه، وإن لقي حُيَّ ووقر لمكان دينه، فشاع ذلك الكلام حتى بلغ الملك فعجب به فركب إليه ليسلم عليه وينظر إليه، فلما رآه الرجل قيل له: هذا الملك قد أتاك ليسلم عليك، فقال: وما يصنع؟ قال: للكلام الذي وعظت به، فسأل غلامه: هل عندك طعام؟ فقال: شيء من ثمر الشجر مما كنت تفطر به، فأمر به، فأتي على مسح فوضع بين يديه، فأخذ يأخذ منه، وكان يصوم النهار ولا يفطر، فوقف عليه الملك فسلم عليه فأجابه بإجابة خفيفة وأقبل على طعامه يأكله، فقال الملك: أين الرجل؟ فقيل له: هو هذا!! قال: هذا الذي يأكل؟ قالوا: نعم، قال: فما عند هذا من خير، فأدبر، فقال الرجل: الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به[1].

وقيل: كان الحسن يقول: روي أنه من قِبَلَ الله ـ تعالى ـ من عمله حسنة واحدة أدخله بها الجنة، قيل: يا أبا سعد، فأين تذهب حسنات العباد؟ فقال: إن الله ـ عز وجل ـ إنما يقبل الخالص الطيب المجانب للعجب والرياء، فمن سلمت له حسنة واحدة فهو من المفلحين[2].

وعندما جاء سائل إلى ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال لابنه: أعطه ديناراً، فلما انصرف قال ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمت أن الله يتقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إليّ من

---

(١) تلبيس إبليس، ص ١٥٣.

(٢) الزهد، للحسن البصري، ص ١٦٠.

الموت، أتدري ممن يُتقبل؟ إنما يتقبل الله من المتقين.

ويقول **ابن الجوزي**: ما أقل من يعمل لله ـ تعالى ـ خالصاً، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم. واعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل وإخلاص القصد وستر الحال، هو الذي رفع من رفع.

فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافياً في وقت، ويحمل نعليه في يديه، ويخرج للقّاط، وبشر يمشي حافياً على الدوام وحده، ومعروف الكرخي يلتقط النوى. واليوم صارت الرياسات من كل جانب، وما تتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق، ونسيان الحق، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا.

ولقد رأيت من الناس عجباً حتى من يتزيا بالعلم، إن رآني أمشي وحدي أنكر عليّ، وإن رآني أزور فقيراً عظم ذلك، فقلت: فواعجباً هذه كانت طريق الرسول ﷺ والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فصارت أحوال الخلق نواميس لإقامة الجاه، لا جرم والله سقطتم من عين الحق، فأسقطكم من عين الخلق.

فالتفوا إخواني إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق، ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق، فبذلك صعد السلف وسعدوا[١].

وللحائرين الذين لم يجدوا الجادة.. ها هو قول **الفضيل** يرسم لهم منارات لهذه الحيرة وعلامات لما خفي من علم الشريعة: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافيك الله منهما[٢].

---

(١) صيد الخاطر، ص ٢٢٦ باختصار.

(٢) تزكية النفوس، ص ١٧، مدارج السالكين، ص ٩٥.

وتأمل في حال السؤال يوم القيامة عن كل كبيرة وصغيرة زانها الإخلاص أو شانها الرياء، وهل هي صواب على الجادة أم تفرقت بها السبل؟!!

قال **الثوري**: يُسألون والله عن كل شيء، حتى التبسم، فيم تبسمت يوم كذا وكذا؟[(١)].

وعن **سفيان بن عيينة** قال: قال رجل من العلماء: اثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة: ترك الطمع فيما بيني وبين الناس، وإخلاص العمل لله ـ عز وجل ـ[(٢)].

ويروى **عن بعضهم** قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت أشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملى عليه: خرج فلان متنزهاً وفلان مرائياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي وقال: اكتب: فلان خرج تاجراً، فقلت: الله الله في أمري!! ما خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها، ما خرجت إلا للغزو، فقال: شيخ، قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها، فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجراً. فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: اكتب: خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله ـ عز وجل ـ فيه بما يرى[(٣)].

وتأمل أخي الكريم في قول **الحسن**: ما ضربت ببصري ولا نطقت

---

(١) الورع، لعبدالله ابن حنبل، ص ١٩٣.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٢٧١.

(٣) الإحياء ٤/ ٣٩٩.

بلساني ولا بطشت بيدي ولا نهضت على قدمي، حتى أنظر أعَلَى طاعة أو على معصية، فإن كانت طاعة تقدمت وإن كانت معصية تأخرت[١].

قال **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: فإن الله ـ تعالى ـ لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً فأشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك**» وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، القارىء المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي ـ وقد مضى ذكره قريبًا ـ بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه[٢].

وقال رجل **لعبادة بن الصامت**: أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله ـ تعالى ـ ومحمدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات، كل ذلك يقول: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول: «**أنا أغنى الأغنياء عن الشرك**..»[٣].. الحديث.

وكان **عبدالله بن المبارك** يضع اللثام على وجهه عند قتاله في سبيل الله، ولذا قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له[٤].

---

(١) الورع، لابن أبي الدنيا، ص ١١٦.
(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٤٨.
(٣) الإحياء ٣/٣١٣.
(٤) صفة الصفوة ٤/١٤٦.

قال عون بن عبدالله في نصيحة للمتصدقين والمنفقين: إذا أعطيت المسكين شيئاً فقال: بارك الله فيك، فقل أنت: بارك الله فيك، حتى تخلص لك صدقتك[١].

لأنه يريد بهذه الوصية أن تكون صدقتك خالصة لله عز وجل وليس فيها حظ من حظوظ النفس.. وقد روي مثل ذلك عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -.

وهذا الحسين بن زياد وكأنه يخاطب أحدنا على ضعفنا وقصورنا وتفريطنا وتسويفنا فيقول: تُريد الجنة مع النبيين والصديقين، وتريد أن تقف المواقف مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، بأي عمل؟! وبأي شهوة تركتها لله عز وجل؟! وأي قريب بعدته في الله وأي قريب قربته في الله؟

قال ابن رجب: العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين، قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢].

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه، وإن كان أصله لله ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٥٣.

كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أو لا فيجازى على أصل نيته، فيه خلاف رجَّح أحمد وغيره لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى.

ولا يظن الظان أنه يكتفى فيه بحبوط عمله فلا له ولا عليه، قال الشيخ: بل هو مستحق للذم والعقاب، وقد دل الكتاب والسنة على حبوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد عليه.

وأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره، وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»(١)، وفي حديث أبي هريرة: يدخل علي الرجل في بيتي وأنا أصلي فيسرني ذلك، فقال: «**يرحمك الله لك أجران، أجر السر وأجر العلانية**» لأنه لم يقصد رؤية أحد عند الشروع، ولا قام بقلبه أن يراه أحد(٢).

وسأورد لك أخي القارىء بعضاً من دقائق الرياء التي لا تخفى على كثير من الناس وخفاياه على النحو التالي:

أولها: ما ذكره أبو حامد الغزالي في إحيائه حيث قال أثناء ذكره للرياء الخفي: وأخفى من ذلك أن يختفي [العامل بطاعته] بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وأن

---

(١) رواه مسلم.

(٢) حاشية كتاب التوحيد، لابن قاسم، ص ٢٦٦.

يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد لذلك استبعاداً في نفسه، كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يُطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر، ولا يسلم منه إلا الصِّدِّيقون[١].

ثانيها: فهو أن يجعل الإخلاص لله وسيلة ـ لا غاية وقصداً ـ لأحد المطالب الدنيوية.

وقد نبه **شيخ الإسلام** على تلك الآفة الخفية فكان مما قال ـ رحمه الله ـ: حُكي أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجَّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال: فأخلصت أربعين يوماً فلم يتفجر شيء، فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة، ولم تخلص لله ـ تعالى ـ.

ثم قال **ابن تيمية**: وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه، أو غير ذلك من المطالب، وقد عرف أن يحصل ذلك بالإخلاص لله وإرادة وجهه، فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص لله وإرادة وجهه كان متناقضاً، لأن من أراد شيئاً لغيره فالثاني هو المراد المقصود بذاته، والأول يراد لكونه وسيلة إليه. فإذا قصد أن يخلص لله

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٠٥، ٣٠٦.

ليصير عالماً أو عارفاً أو ذا حكمة أو صاحب مكاشفات وتصرفات ونحو ذلك، فهو هنا لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة له إلى ذلك المطلوب الأدنى(١).

ولذا يقول **الشاطبي** ـ رحمه الله ـ: إن الفاعل للسبب عالماً بأن المسبب ليس إليه، إذا وكله إلى فاعله وصرف نظره عنه كان أقرب إلى الإخلاص، فالمكلف إذا لبى الأمر والنهي في السبب من غير نظر إلى ما سوى الأمر والنهي، خارج عن حظوظه، قائم بحقوق ربه، واقف موقف العبودية، بخلاف ما إذا التفت إلى المسبب وراعاه، فإنه عند الالتفات إليه متوجه شطره، فصار توجهه إلى ربه بالسبب، بواسطة التوجه إلى المسبب، ولا شك في تفاوت ما بين الرتبتين في الإخلاص(٢).

ولما ذكر الشاطبي حكاية من أخلص أربعين يوماً، قال ـ رحمه الله ـ: وهذا واقع كثيراً من ملاحظة المسببات [النتائج والعواقب] في الأسباب، وربما غطت ملاحظاتها فحالت بين المتسبب وبين مراعاة الأسباب، وبذلك يصير العابد مستكثراً لعبادته، والعالم مغتراً بعلمه، إلى غير ذلك(٣).

ومن دقائق الرياء وهو **ثالثها**.. ما أشار إليه **ابن رجب** ـ رحمه الله ـ بقوله: وها هنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس، يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه؛ فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف

---

(١) الدرء ٦/ ٦٦، ٦٧.
(٢) الموافقات ١/ ٢١٩، ٢٢٠.
(٣) الموافقات ١/ ٢٢٠.

الصالح، قال مطرف بن عبدالله بن الشخير: كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملأ كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه[١].

أخـي المسلم:

الإخلاص وإخفاء العمل عن الناس عزيز وصعب المنال!! فما بالك وأنت في دارك بل وفي وسط بيتك وبين أهلك؟!

قال الخريبي: كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها[٢].

أخـي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

كان عمل الربيع بن خيثم كله سراً، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه[٣].

ولهذا قال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ: أيكم استطاع أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل[٤].

وقال سهل بن منصور: كان بشر (ابن منصور) يصلي فيطول، ورجل وراءه ينظر، ففطن له، فلما انصرف قال: لا يعجبك ما رأيت مني، فإن إبليس قد عبد الله دهراً مع الملائكة[٥].

وروي عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء فقالت له امرأته: لو تمشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان.. ص ٤٦، نقلاً عن الإخلاص والشرك الأصغر.
(٢) السير ٩/٣٤٩.
(٣) حلية الأولياء ٢/١٠٧.
(٤) الزهد، لابن المبارك، ص ٣٩٢.
(٥) السير٨/٣٦.

أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فكأنه لم تحضره في هذه المشية تعلق بالدين فلم يجز الإقدام عليها[١].

قال **ابن المبارك**: رب عمل صغير تعظمه النية[٢].

قال **الفضيل بن عياض**: كانوا يراءون بما يعملون، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون.

وهؤلاء كثروا في هذا الزمن وينطبق عليهم وعيد الله - عز وجل -: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فما أكثر المُدَّعين لأعمال غيرهم، خاصة إذا كانوا في الواجهة من مدراء أو كبراء أو غيرهم، فترى الواحد منهم ينسب عمل من تحت يده إليه ويباهي بذلك، ولا يستحيي من الله ولا من الخلق!!

أما استصحاب النية في عمل فإن الكثير مفرط فيه، وقليل من ينوي تحويل العادة كالأكل والنوم إلى عبادة بنية صادقة.

وقد أوضح شيخ الإسلام **ابن تيمية** تفصيلاً دقيقاً في هذا الأمر فيقول: ينبغي ألاَّ يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة[٣].

فالمسلم إذا قصد بنومه وأكله وشربه أن يتقوى بها على طاعة الله، كي يتمكن من قيام الليل والجهاد في سبيل الله، فهذا مثاب على هذه الأعمال بهذه النية. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال لسعد بن أبي وقاص:

---

(١) الورع، لعبدالله ابن حنبل، ص ١٢٢، الإحياء ٢/ ١١٠.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ١٤.
(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٦٠.

«إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك»[١].

قال **النووي**: وضع اللقمة في فيّ الزوجة يقع غالباً في حال المداعبة ولشهوة النفس في ذلك مدخل ظاهر، وعلى ذلك إذا وجه القصد في تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله[٢].

وقد حث العلماء ورغبوا في استحضار النية عند المباحات والعاديات، ليثاب عليها ثواب العبادات مع أنه لا مشقة علينا في القيام بها، بل هي مألوفة لنفسه مستلذة، وهذا من عظيم سعة رحمة الله، أن أباح لعبده الطيبات التي يشتهيها، ثم مع ذلك يثيبه عليها بحسن نيته[٣].

قال **يحيى بن كثير**: تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل[٤].

وقال **زبيد**: أحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في طعامي وشرابي[٥].

وعن **سفيان الثوري** قال: ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيتي، لأنها تتقلب عليّ[٦].

قال **مطرف بن عبدالله**: صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية[٧].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) فتح الباري ١/٣٧.
(٣) كتاب الإخلاص، لعمر الأشقر، ص ١٥٦.
(٤) حلية الأولياء ٣/٧٠.
(٥) حلية الأولياء ٥/٦١.
(٦) جامع العلوم والحكم، ص ١٢.
(٧) جامع العلوم والحكم، ص ١٢.

وقال عكرمة: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية لا رياء فيها[1].

يقول ابن القيم رحمه الله: على قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في معالي الأمور يكون توفيقه سبحانه وإعانته. فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم ونياتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب عكس ذلك، فالله ـ سبحانه ـ أحكم الحاكمين وأعلم العالمين يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به ويضع الخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم؛ وما أوتي من أوتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء. وملاك ذلك كله الصبر.

أخي الحبيب! أين نحن من هؤلاء؟!

كان عمرو بن قيس الملائي إذا حضرته الرقة يحول وجهه إلى الحائط ويقول لجلسائه: هذا الزكام[2].

وقيل: وعظ يوماً فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا ابن أخي، ما عساك أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقاً فقد شهرت نفسك، وإن كنت كاذباً فقد أهلكتها، ولقد كان الناس يجتهدون في الخفاء وما يسمع لأحدهم صوت، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القرآن فلا يشعر به جاره، ولقد كان الآخر يتفقه في الدين ولا يطلع عليه صديقه، ولقد قيل لبعضهم: ما أقل التفاتك في الصلاة وأحسن خشوعك؟ فقال: يا ابن

---

(١) الإحياء ٣/ ٣١٤.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٢٤.

أخي، وما يدريك أين كان قلبي؟[١].

وكان **أيوب السختياني** يقوم الليل كله، فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[٢].

أما **سلمة بن دينار** فإنه يحث على أمر عظيم غفل عنه كثير من الناس وذلك في نصيحة صادقة حيث قال: اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك[٣].

ومن يستطيع ذلك؟! إلا من جاهد نفسه ووفقه الله ـ جل وعلا ـ وأعانه وسدده!!

قال **الحسن**: إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام[٤].

وقال **جرير بن عمرو بن ثابت**: لما مات **علي بن الحسين** فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقيل: كان يحمل جرب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة[٥].

وفي صورة من صور حفظ العمل.. إخفاء الدمعة الصغيرة حتى لا تُرى قال **حماد بن زيد**: كان أيوب (السختياني) في مجلس، فجاءته عبرة، فجعل يتمخط ويقول: ما أشد الزكام[٦].

---

(١) الزهد، للحسن البصري، ص ١٥٩.
(٢) صفة الصفوة ٣/ ٤٩٢.
(٣) حلية الأولياء ٣/ ٢٤٠، السير ١٠/ ٦.
(٤) الزهد، ص ٣٧٣.
(٥) حلية الأولياء ٣/ ١٣٦.
(٦) السير ٨/ ٥٠٣.

وقال **محمد بن واسع**: لقد أدركت رجالاً، كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بلَّ ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً، يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعه على خده، ولا يشعر به الذي إلى جنبه[1].

وحالهم في إخفاء الصيام والصدقة عجيب. وقد جمع بين هاتين العبادتين **أبوالحسين النووي** الذي مكث عشرين سنة يأخذ من بيته رغيفين، ويخرج ليمضي إلى السوق، فيتصدق بالرغيفين ويدخل المسجد، فلا يزال يركع حتى يجيء وقت سوقه، فإذا جاء الوقت مضى إلى السوق، فيظن أنه تغدى في بيته، ومن في بيته عندهم أنه قد أخذ معه غذاءه، وهو صائم[2].

هؤلاء قوم صبروا على أعظم أنواع الصبر وأشقها وأعصاها على النفس وهو الصبر على الطاعة، فجاهدوا أنفسهم ودربوها فذلت لهم وأطاعتهم حتى أتت صاغرة نحو الحق والجد في الطاعة!!

إني رأيت وفي الأيام تجربة
للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جدَّ في أمر يحاوله
فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

صام **داود الطائي** أربعين سنة ما علم به أحد، وكان خزازاً، وكان

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٤٧.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٤٣٩.

يحمل غذاءه معه ويتصدق به في الطريق، ويرجع إلى أهله يفطر عشاء لا يعلمون أنه صائم[١].

قال رسول الله ﷺ: «**بشر هذه الأمة بالسنا والدين والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب**»[٢].

التقى **سفيان والفضيل** فتذاكرا، فبكيا، فقال سفيان: إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة، فقال له الفضيل: لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه شؤماً. أليس نظرت إلى أحسن ما عندك، فتزينت به لي، وتزينت لك، فعبدتني وعبدتك؟ فبكى سفيان حتى علا نحيبه، ثم قال: أحييتني أحياك الله.

أخـي المسلم:

صام **منصور بن المعتمر** أربعين سنة، وقام ليلها، وكان يبكي الليل كله فإذا أصبح كحل عينيه وبرَّق شفتيه ودهن رأسه، فتقول له أمه: أقتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صَنَعَتْ نفسي[٣].

وفي الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إن ها هنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله ـ تعالى ـ، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة، قال: وما أنت وذاك!! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٣٥.
(٢) رواه أحمد في المسند.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٤٢.

وتفرغت لغير ذلك! فقال: إن هذا من عبادتي، قال: فإني لا أتركك أن تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه فقال إبليس: يا هذا، إن الله ـ تعالى ـ قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك! وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك، ولله ـ تعالى ـ أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها!! فقال العابد: لابد لي من قطعها، فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس!! قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر ولك عليّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتها فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها!! فتفكر العابد فيما قال، وقال: صدق الشيخ! لست بنبي فيلزمني قطع الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة، فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه

وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؛ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا، غلبتني فخلِّ عني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك[(١)].

قال **بشر بن الحارث** يوصي الكثير منا في نصيحة صادقة ومحبة ظاهرة: لا تعمل لتُذكر، اكتم الحسنة كما تكتم السيئة[(٢)].

ومصارعة الرياء عجيبة، ولكن من أعانه الله صرعه مرة بعد الأخرى وإن عاد فله مثل الأولى!!

قال **يوسف بن الحسين**: أعز شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر[(٣)].

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب لعملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه[(٤)].

كان العالم العابد **عبدالله بن المبارك** كثير الاختلاف إلى طرطوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، قال: فقدم عبدالله الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجلاً، فخرج غازياً في سبيل الله، فلما قفل من غزوته، ورجع إلى الرقة، سأل عن الشاب، فقالوا: إنه محبوس لدين ركبه، فقال

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٩٨.
(٢) السير ١٠/ ٤٧٦.
(٣) مدارج السالكين، ص ٩٦.
(٤) المرجع السابق.

عبدالله: وكم مبلغ دينه؟ قالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُل على صاحب المال، فدعا به ليلاً، ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلّفه أن لا يخبر أحداً ما دام عبدالله حياً، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس[(١)].

أخـي المسـلم:

لما حرص أولئك الأولياء على الإخلاص التام وإخفاء الطاعات في سبيل تحقيق كمال التجرد لله وحده لا شريك له، فإن الله ـ تعالى ـ جازاهم في العاجلة بالقبول والثناء الحسن، وجعل الله لهم لسان صدق لأنهم سعوا إلى تحقيق مرضاة الله، فرضي الله عنهم، وأرضى عنهم الناس.

(ولقد جعلوا الإخلاص غاية ومقصداً، فلم يتوسلوا به إلى تحقيق رضا الناس عنهم، فمن أخلص لله ـ تعالى ـ ليصير له قبول وثناء حسن فهو لم يُرد الله ـ تعالى ـ، بل جعل الله وسيلة له) أما غير المخلصين من المرائين وأهل العُجب وأصحاب (العقل المعيشي) فما نالوا إلا ذم الناس وسخطهم، عقوبة لهم على نقيض قصدهم والوعيد الشديد لهم في الآخرة[(٢)].

خرج **داود الطائي** إلى السوق فرأى الرطب، فاشتهته نفسه، فجاء إلى البائع فقال له: أعطني بدرهم إلى الغد، فقال له: اذهب إلى عملك، فرآه بعض من يعرفه فأخرج له صرة فيها مائة درهم وقال: اذهب فإنه آخذ

---

(١) صفة الصفوة ١٤١/٤.

(٢) معالم في السلوك، ص ٩٢.

منك بدرهم فالمائة لك، فلحقه البائع وقال له: ارجع خذ حاجتك، فقال: لا حاجة لي منه إنما جربت هذه النفس فلم أرها تساوي في هذه الدنيا درهماً وهي تريد الجنة(١).

قالت **امرأة هشام بن حسان**: كنا نزولاً مع محمد بن سيرين في داره، وكنا نسمع بكاءه في الليل وضحكه بالنهار(٢).

بكاؤهم في الليل خوفاً وطمعاً يرجون رحمة ربهم، وضحكم بالنهار إخفاء لحالهم وإظهاراً للإخلاص وعدم إبداء التعب والحزن وآثار الجهد من قيام الليل.

روي عن **بعض الحكماء** أنه قال: مثل من يعمل الطاعات للرياء والسمعة كمثل رجل خرج إلى السوق وملأ كيسه حصاة، فيقول الناس: ما أملأ كيس هذا الرجل، فلا منفعة له سوى مقالة الناس، ولو أراد أن يشتري له شيئاً لا يُعطى به شيئاً، كذلك الذي عمل للرياء والسمعة لا منفعة له سوى مقالة الناس، ولا ثواب له في الآخرة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣].

يعني الأعمال التي عملوها لغير وجه الله ـ تعالى ـ أبطلنا ثوابها، وجعلناها كالهباء المنثور، وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس(٣).

ذكر **الإمام أحمد** عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يُغمى عليه ثم يفيق ويقرأ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى

(١) صفة الصفوة ٣/١٣٩.
(٢) الزهد، ص ٤٢٢.
(٣) تنبيه الغافلين ١/١٦.

طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]. فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحُسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله ـ تعالى ـ منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه. ما سُمع بهذا ولا عُلم به ولله الحمد، إنما تكون لمن له فسادٌ في العقيدة أو إصرار على الكبيرة، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى نزل به الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله[١].

* * *

(١) الجواب الكافي، ص ٢٤٥.

علاج الرياء

حيث أن لكل داء دواء علمه من علمه، وجهله من جهله، ولعظم أمر الرياء وخطورته على عمل المسلم، فإن لداء الرياء وكذا غيره مما يضاد الإخلاص أنواعاً من العلاج والدواء فمنها:

١ ـ أن يعلم المكلف علماً يقيناً بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه لا معاوضة.

٢ ـ مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو. فكل خير فهو مجرد فضل الله ومنته.

٣ ـ مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان، فكل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل، وللنفس فيه حظ، سُئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته، فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**» فإذا كان هذا الالتفات طرفة فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟!

٤ ـ تذكير النفس بما أمر الله ـ تعالى ـ به من إصلاح القلب وإخلاصه وحرمان المرائي من التوفيق.

٥ ـ خوف مقت الله ـ تعالى ـ إذا اطلع على قلبه وهو منطوٍ على الرياء.

٦ ـ الإكثار من العبادات غير المشاهدة وإخفاؤها؛ كقيام الليل وصدقة السر والبكاء خالياً من خشية الله.

٧ ـ تحقيق تعظيم الله ـ تعالى ـ، وذلك بتحقيق التوحيد والتعبد لله بأسمائه وصفاته العُلا، وأن يستيقن أن الناس لا يملكون له نفعًا ولا ضرًّا، وأنهم أضعف من أن يجلبوا نفعًا لأنفسهم فضلاً عن غيرهم، ويتحقق هذا للعبد بمعرفته التامة بتوحيد الأسماء والصفات فالنافع هو الله والمعطي هو الله، وأما غيره ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الرعد: ١٦].

٨ ـ تذكر الموت وسكراته والقبر وأهواله واليوم الآخر بأحواله التي تشيب لها الولدان.

٩ ـ معرفة الرياء ومداخله وخفاياه حتى يتم الاحتراز منه.

١٠ ـ النظر في عاقبة الرياء في الدنيا والآخرة.

فيعلم العبد أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، كما جاء في وصية رسول الله ﷺ لابن عباس، ولذا قال بعض السلف: من عرف أسباب الرياء استراح، واحرص على أن يكون الناس عندك كالبهائم والصبيان، ولا تفرق في عبادتك بين وجودهم وعدمهم وعلمهم بها أو غفلتهم عنها واقنع بعلم الله وحده.

ورضي الله عن **الفاروق عمر** القائل: فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله.

يقول **ابن القيم** معلقاً على عبارة أمير المؤمنين: «ومن تزين بما ليس فيه شانه الله» قال: لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص فإنه يظهر للناس أمراً وهو مبطن بخلافه ـ عامله الله بنقيض قصده، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدراً، ولما كان المخلص يُعجَّل له من ثواب

إخلاصه الحلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس، عجل للمتزين بما ليس فيه عقوبته أن شانه الله بين الناس، لأنه شان باطنه عند الله، وهذا موجب أسماء الرب الحسنى وصفاته العليا.

وأما عاقبة الرياء في الآخرة فكما قال ﷺ: **«من سمع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»**[1].

كما أن المرائي من أوائل الذين تُسعر بهم نار جهنم.

١١ ـ الاستعانة بالله على الإخلاص والتعوذ به من الرياء، فعلى المسلم أن يكثر من الدعاء والتضرع إلى الله بأن يقيه الرياء ودواعيه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: **«الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»**[2].

وأنواع الرياء كثيرة نسأل الله الإعانة في تحقيقها والتداوي بها[3].

أخـي المسـلم:

هناك أمور قد تخطر في ذهنك وهي أمور لا تعد من الرياء ومنها:

١ ـ حمد الناس للعبد على عمل الخير دون قصد منه، فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه؟ قال ﷺ: **«تلك عاجل بُشرى المؤمن»**[4]. وهكذا يفر المخلص من الشهرة ويكرهها ولكن الله يضع له القبول في الأرض،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٣/ ٢٣٣.

(٣) نقلاً عن كتاب الإخلاص، د. عبدالعزيز العبد اللطيف.

(٤) رواه مسلم.

فيسر العبد بفضل الله، وأما المرائي فإنه يركب الصعب والذلول ليحظى بالقبول.

٢ ـ نشاط العبد في عمل الخير عند رؤية العابدين، ومجالسة أهل الإخلاص والصالحين، فإنها تبعث في نفسه الهمة والنشاط وتقوي عزمه.

٣ ـ كتمان الذنوب: يجب على المسلم أن يستتر ولا يجاهر بذنوبه، فمن تاب تاب الله عليه. ونشر الذنوب والتحدث بها من إشاعة الفاحشة ويؤدي إلى الاستخفاف بحدود الله ـ تعالى ـ.

قال رسول الله ﷺ: **«كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان! عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»**(١).

٤ تجميل الثياب والنعل ونحوه: فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة. قال: **«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق، وغمط الناس»**(٢).

٥ ـ إظهار شعائر الإسلام: يتضمن الإسلام عبادات لا يمكن إخفاؤها، كالحج والعمرة والجمعة والجماعة، والعبد لا يكون مرائياً بإظهارها، لأن من حق الفرائض الإعلان عنها وتشهيرها؛ لأنها أعلام

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

الإسلام وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار[١].

واحذر أخي المسلم أن يأتيك الشيطان بعد إخلاصك وحذرك من الرياء بمدخل عجيب، وهو زهوك بنفسك وعجبك بها وعجبك بإخفاء العمل والمن بهذا على الله ـ عز وجل ـ، بل احمد الله واشكره أن يسر لك هذا الإخلاص، وتذلل له واخضع لطاعته.

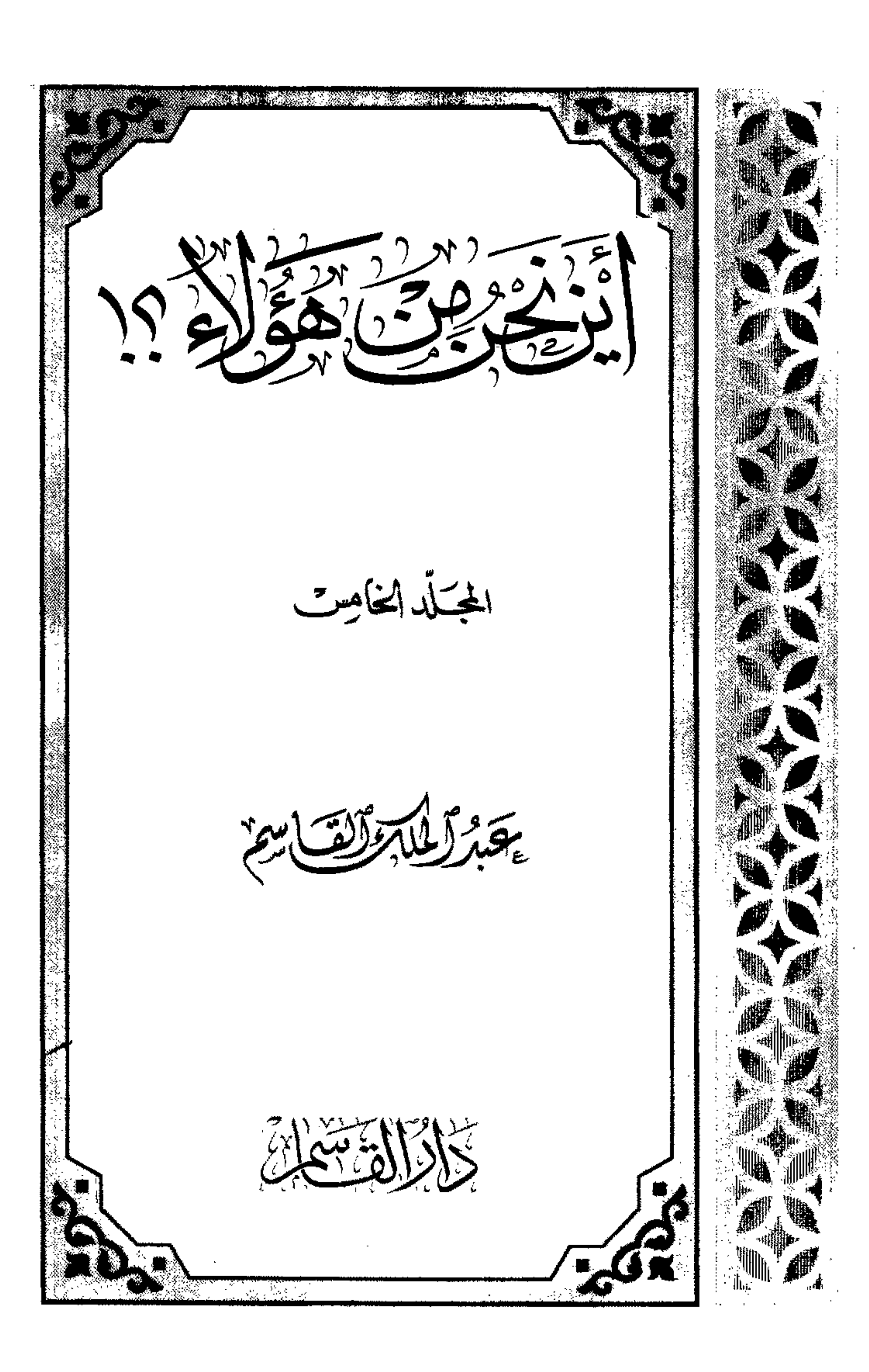
جعل الله أعمالنا صواباً ورزقنا الإخلاص في القول والعمل، وبارك في أعمالنا، وغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

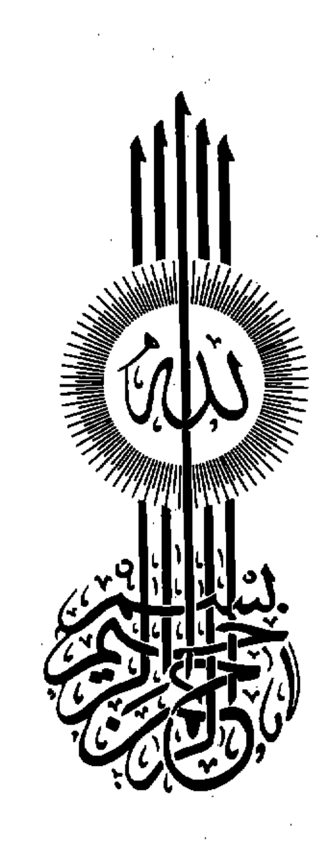
كما أدعوه عز وجل أن نعيش سعداء وأن نموت على التوحيد شهداء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) الرياء، ذمه وأثره في الأمة، ص ٥٣ وما بعدها باختصار.


أين نحن من هؤلاء ؟!
المجلد الخامس
عبد الملك القاسم
دار القاسم


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

وثلث لطعامك

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمه الظاهرة والباطنة، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد:

فإن الله خلقنا لأمر عظيم، وسخر لنا ما في السماوات والأرض جميعاً منه، وسهل أمر العبادة، وأغدق علينا من بركات الأرض؛ لتكون عوناً على طاعته.

ولتوسع الناس في أمر المأكل والمشرب حتى جاوزوا في ذلك ما جرت به العادة، أحببت أن أذكر نفسي وإخواني القراء بأهمية هذه النعمة ووجوب شكرها وعدم كفرها.

وهذا هو الجزء «الثامن عشر» من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» تحت عنوان «**وثلثٌ لطعامك**».

أدعو الله ـ عز وجل ـ أن يجعل ما أفاض علينا عوناً على طاعته وأن يعيننا على شكره وحسن عبادته وأن يبوأنا من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار.. إنه سميع مجيب. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: يقول الله ـ تعالى ـ آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم ـ تعالى ـ وأن يشكروه على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة[1].

وقال جل وعلا: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرفٌ ومخيلة.

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من السرف أن تأكل كُلَّ ما شئت**»[2].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله! أي نعيم نُسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نُسأل؟ قال: «**أما إن ذلك سيكون**»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٠٦).

(٢) رواه ابن ماجه وغيره وإسناده لا يصح.

(٣) فتح القدير (٥/٦٠٧).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي نُسأل عنه: ظل بارد، ورطب، وماء بارد**»(١).

وحال نبي الأمة ﷺ في أكله وشربه تروي لنا طرفاً منه أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ حيث قالت: «**ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من خبز ثلاث ليال تباعاً حتى قبض**»(٢).

وعلى المرء أن يتجنب الشبع المفرط لقول رسول الله ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات ـ وفي رواية: لقيمات ـ يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(٣).

وهذا الحديث أصلٌ جامع لأصول الطب كلها.

وقد روي أن ابن ماسويه الطبيب لما قرأ هذا الحديث قال: لو استعمل الناس هذه الكلمات لسلموا من الأمراض والأسقام ولتعطلت المارشايات ودكاكين الصيادلة، وإنما قال هذا لأن أصل كل داء التخم(٤).

وتأمل في نهاية كثرة الأكل وما يجر إليه في الآخرة؛ فعن سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة**»(٥).

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٢٢٦٥.

(٤) جامع العلوم، ص ٤٢٤.

(٥) رواه أبونعيم في الحلية وحسنه الألباني.

وعن أُبي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مطعم ابن آدم قد ضرب مثلاً للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير**»(١).

وهذا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يذكر طرفاً من حال الرسول ﷺ قال: أتي رسول الله ﷺ بطعام سخن فأكل، فلما فرغ قال: «**الحمد لله، ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا**»(٢).

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم قوم يشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن**».

وفي المسند أن النبي ﷺ رأى رجلاً سميناً، فجعل يومىء بيده إلى بطنه ويقول: «**لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك**».

وهذا نبي الأمة ﷺ يحذر أمته من شهوة الفرج والبطن، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوات التي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**».

وعن فاطمة عن النبي ﷺ قال: «**شرار أمتي الذين غُذُّوا بالنعم؛ يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام**»(٣).

وعن ابن عمر قال: تجشأ رجل عند النبي ﷺ فقال: «**كف جشأك عنَّا، فإن أطولكم جوعًا يوم القيامة أكثركم شبعًا في دار الدنيا**»(٤).

وقد سُئل الإمام **أحمد** عن قول النبي ﷺ: «**ثلث للطعام وثلث**

---

(١) رواه ابن حبان والطبراني وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٣٨٢.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) رواه البزار.

(٤) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني.

للشراب وثلث للنفس». فقال: ثلث الطعام هو القوت، وثلث الشراب هو القوى، وثلث النفس هو الروح[(١)].

قال **المروذي**: كان **أبوعبدالله** (أحمد بن حنبل) إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذُكِر الموت أهان عليَّ كل الدنيا، إنما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دون لباس، وإنها أيامٌ قلائل، ما أعدل بالفقر شيئاً[(٢)].

وعن **عبدالله بن عدي** وكان مولى **لابن عمر**، أنه قدم من العراق فجاءه فسلم عليه فقال: أهديت لك هدية، قال: وما هي؟ قال: جوارش، قال: وما جوارش؟ قال: يهضم الطعام، قال: ما ملأت بطني منذ أربعين سنة، فما أصنع به[(٣)].

وسُئل **سهل التستري**: الرجل يأكل في اليوم أكلة، قال: أكل الصديقين، قيل له: فأكلتان، قال: أكل المؤمنين، قيل له: فثلاث أكلات، فقال: قل لأهله يبنوا له معلفاً[(٤)].

وحالهم في المأكل والمشرب حال المُسارع إلى الخيرات متقلب بين حمدٍ وشكرٍ وإكرام ضيف.

قال **أبوحمزة السكري**: ما شبعت منذ ثلاثين سنة إلا أن يكون لي ضيف[(٥)].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٢٨.
(٢) السير ١١/٢١٦.
(٣) صفة الصفوة (١/ ٥٧٤).
(٤) الفوائد، ص ٢٣٢.
(٥) تذكرة الحافظ (١/ ٢٣٠).

وذكر أن **خالد بن معدان** كان يقول: أكلٌ وحمد خير من أكل وصمت[(١)].

وكان **نوح** عليه السلام إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله، فسماه الله عبداً شكوراً[(٢)].

أخي المسلم:

مبنى الدين على قاعدتين: **الذكر والشكر**، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دُبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبي واللساني، **وذكره** يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح.

وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما **الشكر** فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابّه ظاهراً وباطناً.

وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس

---

(١) السير (٤/ ٥٣٢).

(٢) الزهد للإمام أحمد، ص ٨٧.

والسماوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الله الكتب، وأرسل الرسل، وهي الحق الذي به خلقت السماوات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث.

قال **بعض العلماء**: ثلاث يمقت الله عليها: الضحك بغير عجب، والأكل من غير جوع، والنوم بالنهار من غير سهر، والحد من النوم: أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة؛ فالاعتدال في نومه ثماني ساعات في الليل والنهار جميعاً، فإذا نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار؛ فحسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة، ومهما نام ثماني ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث[١].

وأعـــرض عـــن مطـــاعـــم قـــد أراهـــا
فـــأتـــركهـــا وفـــي بطنـــي انطـــواء
فـــلا وأبيـــك مـــا فـــي العيـــش خيـــر
ولا الـــدنيـــا إذا ذهـــب الحيـــاء

قال **الشافعي** ـ رحمه الله ـ: ما شبعت منذ ست عشرة سنة، لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة.

فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع ثم في جدِّه في العبادة، إذ طرح الشبع لأجلها، ورأس التعبد تقليل الطعام[٢].

---

(١) الإحياء (١/ ٤٠٢).
(٢) الإحياء (١/ ٣٦).

قال الشيخ **عبدالرحمن السعدي** ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ٣١] جمع الله فيها أموراً كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل، فالأمر بالأكل والشرب يدل على الوجوب، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعاً كما لا يتمكن من ذلك قدراً ما دام عقله معه، وأن الأكل والشرب من نية امتثال أمر الله يكون عبادة، وأن الأصل في جميع المأكولات والمشروبات الإباحة، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لإطلاق ذلك، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسب ويليق به ويوافق لغناه وفقره، ويوافق لصحته ومرضه ولعادته وعدمها، لأنه حذف المأكول.

والآية ساقها الله لإرشاد العباد إلى منافعهم، وهي تدل على ذلك كله، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب ما ينفعه ويقيم صحته وقوته، وعلى الأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن، لأنه لما أمر بالأكل والشرب نهى عن السرف، وعلى أن السرف منهي عنه، وخصوصاً في الأطعمة والأشربة، فإن السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال.

أما ضرره **الديني**: فكل من ارتكب ما نهى الله ورسوله عنه فقد انجرح دينه، وعليه أن يداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع.

وأما ضرره **العقلي**: فإن العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه، ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلغ ما يدل على عقل صاحبه، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الإسراف الضار، فلا ريب أن ذلك لنقص عقله، فإنه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير.

وأما ضرره **البدني**: فإن من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات

انضرَّ بدنه واعتراه أمراض خطيرة، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الإسراف في الغذاء، ثم إنه ينضر أيضاً من وجه آخر، فإن من عوَّد بدنه شيئاً اعتاده، فإذا عوده كثرة الأكل أو أكل الأطعمة المتنوعة فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً فتنحرف صحته.

وأما **ضرره المالي**: فظاهر، فإن الإسراف يستدعي كثرة النفقات، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]؛ أي تلام على ما فعلت، لأنه في غير طريقه، ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ فارغ اليد.

وإخباره أنه لا يحب المسرفين، دليل على أنه يحب المقتصدين، ففي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله، وأنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأحوال كلها، فسبحان من جعل كتابه كنوزاً للعلوم النافعة المتنوعة[١].

والإسراف أخي المسلم هو الزيادة التي لا وجه لها، مثل زيادة الطعام والشراب بلا حاجة.

وأما **التبذير** فهو: صرف الأموال في غير وجهها، إما في المعاصي، وإما في غير فائدة لعباً وتساهلاً بالأموال..

وكلا الأمرين ـ الإسراف والتبذير ـ مذمومان بنص كتاب الله ـ عز وجل ـ. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

---

(١) المجموعة السعدية (٨/ ٤٥٣).

وقال في الإسراف: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثم تأمل نهاية الأكل وإلى أين يصير؟ هذه مولاة **لداود الطائي** تخدمه، فقالت له: لو طبخت لك دسماً تأكله؟ قال: وددت، فطبخت له دسماً ثم أتت به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي به إليهم، فقالت: أنت لم تأكل أدماً منذ كذا وكذا، قال: إن هذا إذا أكلوه كان عند الله مذخوراً، وإذا أكلته كان في الحش[١].

وكانت حالهم حال المنفق المتصدق؛ من يُقدم ولا يؤخر، وينفق ولا يقبض رغم قلة الحال وضيق ما في اليد.

هذا **أبو الحسين النوري** مكث عشرين سنة يأخذ من بيته رغيفين، ويخرج ليمضي إلى السوق فيتصدق بالرغيفين، ويدخل المسجد فلا يزال يركع حتى يجيء وقت سوقه، فإذا جاء الوقت مضى إلى السوق فيُظَّن أنه قد تغدى في بيته ومن هم في بيته عندهم أنه قد أخذ منه غداءه؛ وهو صائم!!

وهذا الإنفاق وسيلة إلى التقرب إلى الله ـ عز وجل ـ بدفعه والتصدق به على المحتاجين ومساعدة المعسرين!!

قال **عبيد بن عمير**: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمن أطعم لله أطعمه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن كسا لله كساه الله.

يقول **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله

---

(١) تاريخ بغداد (٨/ ٣٥٣).

وإعلاء كلمته سلبه الله إياه أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهنؤه، وعلى مخلفه وزره، وكذلك من رفّه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله أتعبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب، قال أبوحازم: لَمَا يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى.

واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته، وكذلك عباد الأصنام أنِفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر وأن يعبدوا إلهاً واحداً سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار[(١)].

ومن فوائد الجوع وعدم الإكثار من الأكل ما قاله **أبوسليمان الداراني**: إن النفس إذا جاعت وعطشت صفا القلب ورق، وإذا شبعت ورويت عمي القلب[(٢)].

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله تعالى ـ: وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات؛ وحسبك بهذين شراً. فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها، فمن وقي شر بطنه فقد وقي شراً عظيماً، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

---

(١) حكمة الابتلاء لابن القيم، ص ٥١.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٥١٧.

ثم قال: ولو لم يكن من الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ـ عز وجل ـ وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان، ووعده ومنَّاه، وشهَّاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شبعت تحركت، وجالت، وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت[١].

ومع كثرة ما حبانا الله ـ عز وجل ـ به من النعم الكثيرة والخيرات العظيمة احذر أيها الحبيب أن تكون ممن قال عنهم **بلال بن سعد**: رُبَّ مسرور مغبون، يأكل ويشرب ويضحك، وقد حُقَّ له في كتاب الله ـ عز وجل ـ أنه من وقود النار[٢].

أفلح الزاهدون والعابدون
إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حباً
فانقضى ليلهم وهم ساهرونا[٣]

قال **المروزي**: قال لي رجل: كيف ذاك المتنعم؟ **(أحمد بن حنبل)** قلت له: وكيف هو متنعم؟ قال: أليس يجد خبزاً يأكل وله امرأة يسكن إليها ويطأها؟ فذكرت ذلك لأبي عبدالله فقال: صدق، وجعل يسترجع فقال: إنا لنشبع[٤].

وتأمل حديث الرسول ﷺ بعين فاحصة وقلب واعٍ: «**من أصبح منكم**

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٧٣).
(٢) صفة الصفوة (٤/ ٢١٨).
(٣) الإحياء (١/ ٣٦٦).
(٤) جامع العلوم والحكم، ص ٥١٧.

آمناً في سربه، معافىً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[١].

ونحن في زمن مال فيه كثير من الناس إلى الإسراف والبذخ والتفاخر بالمآكل والمشارب والمراكب والمساكن. هذا **الحسن** يروي لنا حال من سبقنا ممن همهم الدار الآخرة ووجهتهم العبادة.. قال: أدركت ـ والذي نفسي بيده ـ أقواماً ما أمر أحدهم بصنعة طعام قط، فإن قرب إليه شيء أكله وإلا سكت، لا يبالي حاراً كان أو بارداً، وما افترش أحدهم بينه وبين الأرض فراشاً قط، وإنما يتوسد يده فيهجع من الليل، ثم يقوم فيبيت ليلته راكعاً ساجداً، يرغب إلى الله في فك رقبته[٢].

وقال رجل **للحسن**: ما تقول في رجل آتاه الله فهو يتصدق منه ويصل منه، أيحسب له أن يتعيش فيه (يعني يتنعم)؟ فقال: لا، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقوِّم ذلك ليوم فقره[٣].

فإن مقصد ذوي الألباب لقاء الله ـ تعالى ـ في دار الثواب، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلا بالعلم والعمل، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات، فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدين، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين: ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ ﴾ [المؤمنون: ٥١].

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٧٠).
(٣) مكاشفة القلوب، ص ١٥٦.

فمن يُقْدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ويقوى به على التقوى فلا ينبغي أن يترك نفسه مهملاً سدىً يسترسل في الأكل استرسال البهائم في مرعى، فإن ما هو ذريعة إلى يوم الدين ووسيلة إليه ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه. وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التي يزم العبد بزمامها ويلجم المتقي بلجامها، حتى يتزن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامه وإحجامها، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر وإن كان فيها أوفى حظ للنفس، قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليؤجر حتى في اللقمة يرفعها إلى فيّ امرأته**». وإنما ذلك إذا رفعها بالدين وللدين مراعياً فيه آدابه ووظائفه.

أخي الحبيب:

إذا اجتمع الإسلام والقوت للفتى
وكان صحيحاً جسمه وهو في أمن
فقد ملك الدنيا جميعاً وحازها
وحلَّ عليه الشكر لله ذي المن

قال الإمام **الشافعي**: ما شبعت منذ ست عشرة سنة؛ لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة[١].

وللإسلام شرائع وآداب عظيمة في جميع حياة المسلم فمن ذلك حال الإنسان في مأكله ومشربه، فإن الداعي إلى ذلك شيئان: حاجة ماسة، وشهوة باعثة.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٥١٨.

فأما **الحاجة** فتدعو إلى ما سد الجوع، وسكن الظمأ؛ وهذا مندوب إليه عقلاً وشرعاً لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد، ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين، لأنه يضعف الجسد، ويميت النفس، ويُعجز عن العبادة، وكل ذلك يمنع منه الشرع، ويدفع عنه العقل، وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر، ولا نصيب من زهد، لأن ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثواباً وأعظم أجراً، إذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات وإتيان القرب، ومن أخسر نفسه ربحاً موفوراً أو حرمها أجراً مذخوراً كان زهده في الخير أقوى من رغبته، ولم يبق عليه من هذا التكليف إلا الشهوة بريائه وسمعته.

وأما **الشهوة** فتتنوع نوعين: شهوة في الإكثار والزيادة، وشهوة في تناول الألوان اللذيذة.

فأما **النوع الأول**: وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة، والإكثار على مقدار الكفاية؛ فهو ممنوع منه في العقل والشرع، لأن تناول ما زاد على الكفاية، نَهَمٌ معر، وشر مضر.

أما **النوع الثاني**: فهو شهوة الأشياء اللذيذة، ومنازعة النفوس إلى طلب الأنواع الشهية، فمذاهب الناس في تمكين النفس منها مختلفة، فمنهم من يرى أن صرف النفس عنها أولى، وقهرها عن اتباع شهواتها أحرى، ليذل له قيادها، ويهون عليه عنادها، لأن تمكينها وما تهوى، بطر يطغى، وأَشَر يردي، لأن شهواتها غير متناهية، فإذا أعطاها المراد من شهوات وقتها، تعدَّتها إلى شهوات قد استحدثتها، فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضي، وعبد هوى لا ينتهي. ومن كان بهذه الحال لم يُرْجَ له صلاح، ولم يوجد فيه فضل.

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** ـ رحمه الله تعالى ـ: فالذين يقتصدون في المأكل نعيمهم بها أكثر من المسرفين فيها، فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقى لها عندهم كبير لذةٍ، مع أنهم قد لا يصبرون عنها، وتكثر أمراضهم بسببها.

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته
لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان[١]

ورث **داود الطائي** من أمه أربعمائة درهم، فمكث يتقوَّت بها ثلاثين عاماً، فلما نفدت جعل ينقض سقوف الدويرة ويبيعها[٢].

والمحاسبون لأنفسهم في هذه الدنيا يفعلون مثلما قال **أبويوسف القسولي** عن نفسه: أنا أتفقه في مطعمي من ستين سنة[٣].

وقال **الحسن**: أدركت أقواماً لا يفرحون بشيء من الدنيا أتوه، ولا يأسفون على شيء منها فاتهم[٤].

أما من أسرف على نفسه وأكل الحرام ليملأ بطنه فنسوق له قولاً بليغاً لعله يتعظ به!!

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٣٣٥.
(٢) السير (٧/ ٤٢٤).
(٣) كتاب الورع، عبدالله ابن حنبل، ص ١٠.
(٤) الزهد للإمام أحمد، ص ٢٣٠.

قال **سميط بن عجلان**: إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر فَلِمَ يدخلك النار؟[١].

وبعض الناس يقوده هذا الشبر إلى النار والعياذ بالله!!

ولهذا كانوا يتحرَّزون مما يأكلون، قال **حذيفة**: تعاهدوا أرقاءكم فانظروا من أين يجيئون بضرابهم، فإنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت[٢].

وقال **شعيب بن حرب**: لا تحقرن فلساً تطيع الله في كسبه، ليس الفلس يراد، إنما الطاعة تراد، عسى أن تشتري به بقلاً فلا يستقر في جوفك حتى يغفر لك[٣].

أخـي المسلم:

للأكل آداب عظيمة علمنا إياها رسول الله ﷺ، ولا يليق بمسلم أن يأكل ويشرب من نعم الله ـ عز وجل ـ وينسى ما دلنا عليه الشرع من آداب وأحكام!!

ومن الآداب التي تجاهلها الناس وأصبحت مهجورة إما كبراً أو جهلاً ونسياناً لعق الأصابع لقول النبي ﷺ: «**إذا أكل أحدكم طعاماً فلا يمسح أصابعه حتى يَلعَقَهْا**» أو «**يُلعِقها**»[٤].

ولقول جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أمر بلعق الأصابع

---

(١) مكاشفة القلوب، ص ١٧٠.

(٢) كتاب الزهد للإمام أحمد، ص ٢٦٣.

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٨٠).

(٤) رواه أبو داود والترمذي.

والصحفة، وقال: «**إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة**»[١].

وكذلك إذا سقط منه شيء مما يأكل أزال عنه الأذى وأكله، لقول النبي ﷺ: «**إذا سقطت لقمة أحدكم فليأخذها، وَلْيُمِطْ (ينح) عنها الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان**»[٢].

قال مسلم بن عبدالملك: دخلت على عمر بن عبدالعزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه بعد الفجر فلا يدخل عليه أحد، فجاءت جارية بطبق عليه تمر صبحاني، وكان يعجبه التمر، فرفع بكفه منه فقال: يا مسلمة! أترى لو أن رجلاً أكل هذا ثم شرب عليه الماء، فإن الماء على التمر طيب، أكان يجزيه إلى الليل؟ قلت: لا أدري. فرفع أكثر منه، قال: فهذا؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان كافيه دون هذا حتى ما يبالي أن لا يذوق طعاماً غيره، قال: فعلامَ تدخل النار؟! قال مسلمة: فما وقعت مني موعظة ما وقعت هذه[٣].

أخي المسلم:

قــرِّب طعــامــك وابــذلــه لمــن دخــلا
واحلــف علــى مــن أبــى واشكــر لمــن أكــلا

ولا تكــن ســاحــري العــرض محتشمــا
مــن القليــل فلســت الــدهــر محتفــلا[٤]

اجتمع مالك بن دينار ومحمد بن واسع فتذاكرا العيش، فقال مالك:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٧٧).

(٤) ترتيب المدارك (١/ ٣٠٧).

ما شيء أفضل من أن يكون للرجل غلة يعيش فيها، فقال محمد: طوبى لمن وجد غذاء ولم يجد عشاء ووجد عشاء ولم يجد غذاء، وهو عن الله راضٍ، والله عنه راضٍ[١].

هـي القنـاعـة لا تبـغ بهـا بـدلا
فيهـا النعيـم وفيهـا راحـة البـدن
انظـر لمـن ملـك الـدنيـا بـأجمعهـا
هـل راح منهـا بغيـر القطـن والكفـن؟

أخـي المسلم:

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرَّفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به حتى لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر، ووفَّقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصَّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها. وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرَّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويُحكى أن أعرابياً دخل على **الرشيد**، فقال: يا أمير المؤمنين، ثبَّت الله عليك النعم التي أنت فيها، بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها. فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحسن تقسيمه[٢].

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على

---

(١) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٤).
(٢) الفوائد، ص ٢٢٤.

الطاعة فيها، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: والفقر يصلح عليه خلق كثير، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم، ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة، وفي الضراء الألم ـ اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء(١).

قال **يوسف بن أسباط**: إذا تعبد الشاب يقول إبليس: انظروا من أين مطعمه، فإن كان مطعم سوء، قال: لا تشتغلوا به، دعوه يجتهد وينصب فقد كفاكم نصيبه(٢).

وقد وردت آيات عديدة كثيرة نصَّت على الترف والمترفين وسوء ذلك على نفوس الكثير، قال ـ تعالى ـ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

وقال ـ تعالى ـ عن أصحاب الشمال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٥].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦].

وكل ذلك ـ والعياذ بالله ـ من كفر النعمة وعدم شكرها والقيام بحقها، فإن الإنسان إذا توالت عليه النعم وكثرت في يده الخيرات قد يلهى ويستغني عن ربه وينقطع إلى الدنيا وتكون هي حياته ونهاية علمه!!

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٠٥).

(٢) الزهد للبيهقي، ص ٣٥٩.

كان **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ لا يكاد يعيب طعاماً، فقال غلامه يرفأ أو أسلم: لأجعلنَّه حتى يعيبه؛ فجعل لبناً حامضاً ثم قربه إليه، قال: فأخذ منه فقطب، ثم قال: ما أطيب هذا من رزق الله ـ عز وجل ـ[1].

هذا **سفيان الثوري** ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن الدنيا وزينتها وما هو الزهد فيها؟! قال: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء[2].

وجـــــدت الجـــــوع يطـــــرده رغيـــــف
ومـــــلء الكـــــف مـــــن مـــــاء الفـــــرات
وقـــــل الطعـــــم عـــــون للمصلـــــي
وكثـــــر الطعـــــم عـــــون للسبـــــات[3]

قال **عبدالله بن الفرج**: كان عتبة (الغلام) يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ثم يأكله ويقول: كسرة وملح حتى نهنأ في الدار الآخرة، الشواء والطعام الطيب، وكان يأكل خبزاً وملحاً ويقول: العرس في الدار الآخرة.

وقال **عبدالله بن شميط**: سمعت أبي إذا وصف أهل الدنيا يقول: دائم البطنة، قليل الفطنة، إنما همته بطنه وفرجه وجلده، يقول: متى أصبح فآكل وأشرب وألهو وألعب؟ متى أمُسي فأنام؟ جيفة بالليل بطَّال بالنهار[4].

---

(١) الزهد للإمام أحمد، ص ١٨١.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٣٥٥.
(٣) حلية الأولياء (٧/ ٢١٩).
(٤) الزهد للإمام أحمد، ص ٢٥٥.

وقد يظن بعض الناس أن هذه الأقوال دعوة إلى ترك الأكل الحلال وصرف النفس عنه!!

لكن يبين لنا **يحيى بن معاذ** توضيح ذلك كله فيقول وهو يحدث أصحابه: لست آمركم بترك الدنيا، آمركم بترك الذنوب، ترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، وأنتم إلى إقامة الفريضة أحوج منكم إلى الحسنات والفضائل.

قال **إبراهيم بن أدهم**: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه[١].

أخـي المسلم:

والدنيا أعيان موجودة، للإنسان فيها حظ وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض سكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومركب، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله ـ عز وجل ـ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور يُمدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنفه الشره ووقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تقوى على

---

(١) الإحياء (٢/ ١٠٣).

السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي: أن يؤخذ من الدنيا ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها[١].

قال **علي بن أبي طالب**: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك، ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة، ورجل يسارع في الخيرات، ولا يقلُّ عملٌ في تقوى، كيف يقلُّ ما يُتقبّل[٢].

وعليك أخي الكريم بوصية **سفيان الثوري** عندما سأله رجل فقال: أوصني، قال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها. والسلام[٣].

قال **مؤمل**: دخلت على سفيان وهو يأكل طباهج (اللحم المشرح) ببيض، فكلمته في ذلك، فقال: لم آمركم أن تأكلوا طيباً، اكتسبوا طيباً وكلوا[٤].

وقيل إن **سفيان الثوري** رحمه الله أكل ليلة فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام تلك الليلة حتى أصبح.

فعلى المسلم أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة الله ـ تعالى ـ ليكون مطيعاً بالأكل ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل فحسب. بل يكون الأكل زاداً له للطاعة ونشاطاً في العبادة.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص ٢١١.
(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٢١).
(٣) حلية الأولياء (٧/ ٥٦).
(٤) السير (٧/ ٢٣٧).

قال **إبراهيم بن شيبان**: منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئاً لشهوتي.

ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل، فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل ما دون الشبع؛ فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوي عليها، فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإيثار القناعة على الاتساع.

سُئل **سعيد بن عبدالعزيز** عن الكفاف من الرزق ما هو؟ قال: شبع يوم وجوع يوم[(١)].

أخي المسلم:

أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، إذ نُهِيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوءاتهما، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات، إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضرر المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلَّل العبد نفسه بالجوع وضيَّق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله ـ عز وجل ـ ولم تسلك سبيل البطر والطغيان، ولم ينجز به ذلك إلى

(١) السير (٨/٣٧)، تذكرة الحفاظ ١/٢١٩.

الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى، ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا[١].

فالأكل في مقام العدل يصح البدن وينفي المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى، وقد قلَّل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع فإنما أشار إلى الحالة التي ذكرناها. ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجع، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله، فما أهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يعالجه بعد استحكامه، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين!![٢].

حسبك من دهرك هذا القوت
ما أكثر القوت لمن يموت[٣]

دخلت خادمة منزل **طلحة بن مصرف** تقتبس ناراً وطلحة يُصلي، فقالت لها امرأته: مكانك يا فلانة حتى نشوي لأبي محمد هذا القديد على قصبتك يفطر عليها، فلما قضى الصلاة قال: ما صنعت؟ لا أذوقها حتى ترسلي إلى سيدتها تستأذنيها حبسك إياها وشواءك على قصبتها[٤].

---

(١) الإحياء (٣/ ٨٧).
(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص ١٧٧.
(٣) الزهد للبيهقي، ص ١١٧.
(٤) حلية الأولياء (٥/ ١٥).

وهذا من شدة ورعهم وبعدهم عن أخذ حقوق الغير . . أما في نفقتهم وجودهم فإنهم يضربون أروع الأمثال في ذلك!!

كان **الربيع بن خيثم** إذا جاءه السائل قال: أطعموه السكر؛ فإن الربيع يحب السكر[١].

لقد كانت نفقتهم مما يحبون من الأكل . . فيدعون شهوة بطونهم احتساباً للأجر والمثوبة فينفقون ويتصدقون، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

خطب **شداد بن أوس** فقال: أيها الناس، إن الدنيا أجلٌ حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة أجل مستأخر، يحكم فيها ملك قادر، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة، وإن الشر كله بحذافيره في النار[٢].

وقال **عمرو بن العاص** ـ رضي الله عنه ـ وكأنه يُطلُّ على زماننا: إذا لم يكن للرجل تجارة إلا الطعام طغى وبغى[٣].

وما ظنك بمن يفكر في عشائه ومن ماذا يتكون وهو على طعام الغداء، وتراه يسأل ويحرص على بطنه!! ودينه مرقع!! يأكل من نعم الله ويعصي بنعمه التي أنعم عليه من عين وسمع ويد ورجل!!.

قال **ابن معاوية الغلابي**: حدثني رجل قال: قالت **امرأة شميط** (ابن عجلان) يا أبا تمام! إنا نعمل الشيء فيبرد؛ نشتهي أن تأكل منه معنا فلا تجيء حتى يفسد ويبرد، فقال: والله إن أبغض ساعاتي إلي الساعة التي آكل فيها.

---

(١) الزهد لابن السري (١/ ٣٤٤).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٢٦٦).

(٣) الزهد للإمام أحمد، ص ٧٣.

وعن **ميمون بن مهران** أن امرأة **ابن عمر**، عوتبت فيه، فقيل لها: أما تلطفين بهذا الشيخ؟ فقالت: فما أصنع به، لا نصنع له طعاماً إلا دعا من يأكل، فأرسلت إلى القوم من المساكين كانوا يجلسون بطريقة إذا خرج من المسجد فأعطتهم وقالت لهم لا تجلسوا بطريقه، ثم جاء إلى بيته فقال أرسلوا إلى فلان وإلى فلان، وكانت امرأته أرسلت إليهم بطعام وقالت إن دعاكم فلا تأتوه، فقال ابن عمر - رضي الله عنهما -: أردتم أن لا أتعشى الليلة، فلم يتعشَّ تلك الليلة[1].

وهذا **يحيى بن معاذ** وكأنه يخاطب أهل البطون من همهم جمع الدنيا ومتابعتها حتى أصبحوا عبيداً لها: مسكين ابن آدم، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة[2].

أخـي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟!:

ضرب **الربيع** الفالج، وطال به وجعه، فاشتهى لحم دجاج فكفَّ نفسه أربعين يوماً، ثم حكى لامرأته فاشترت دجاجة بدرهم ودانقين فسوتها، وخبزت له خبزاً، وجعلت له أصباغاً كالحلوى، ثم جاءت بالخوان، فلما ذهب ليأكل قام سائل، فقال: تصدقوا عليّ، فكفَّ، وقال: خذي هذا فادفعيه إليه، قالت: فأنا أصنع ما هو أحب إليه، قال: وما هو؟ قالت: نعطيه ثمن هذا، وتأكل أنت شهوتك، قال: قد أحسنت، أئتيني بثمنه، فجاءت بثمن الدجاجة والخبز والأصباغ فقال: ضعيه على هذا وادفعيه جميعاً إلى السائل[3].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٩٨).
(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٣٧٨).
(٣) أحسن المحاسن، ص ٢٨٩.

قال **أبو إسحاق الطبري**: كان **النجاد** يصوم الدهر ويفطر على رغيف ويترك لقمة، فإذا كان ليلة الجمعة أكل تلك اللقم التي استفضلها وتصدق بالرغيف[(١)].

أولئك قوم قال عنهم **الحسن**: والله لقد أدركت أقواماً ما طُوي لأحدهم في بيته ثوب قط، ولا أمر في أهله بصنعة طعام قط، وما جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط!![(٢)].

وقال **الحسن بن يحيى**: من أراد أن تغزر دموعه ويرق قلبه فليأكل وليشرب في نصف بطنه.

قال **أحمد ابن أبي الحواري**: فحدثت بهذا أبا سليمان فقال: إنما جاء الحديث: «ثلث طعام وثلث شراب» وأرى هؤلاء قد حاسبوا أنفسهم فربحوا سدساً.

وقال **محمد بن النضر**: الجوع يبعث على البر كما تعبث البطنة على الأشر.

وقد ندب النبي ﷺ إلى الإقلال من الأكل في حديث المقدام وقال: «**حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه**»، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**». والمراد أن المؤمن يأكل بآداب الشرع فيأكل في معي واحد، والكافر يأكل بمقتضى الشهوة والشدة والنهم فيأكل في سبعة أمعاء.

وندب ﷺ مع الإقلال مع الأكل والاكتفاء ببعض الطعام إلى الإيثار

---

(١) تذكرة الحفاظ (٣/ ٨٦٨).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٤٦).

بالباقي منه، فقال: «**طعام الواحد يكفي الإثنين، وطعام الإثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة**».

فأحسن ما أكل المؤمن في ثلث بطنه وشرب في ثلث وترك للنفس ثلثاً؛ فإن كثرة الشرب تجلب النوم وتفسد الطعام.

قال **سفيان**: كل ما شئت ولا تشرب، فإذا لم تشرب لم يجئك النوم.

وقال **بعض السلف**: كان شباب يتعبدون في بني إسرائيل، فإذا كان فطرهم قام عليهم قائم فقال: لا تأكلوا كثيراً فتناموا كثيراً فتخسروا كثيراً.

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه يجوعون كثيراً ولا يشربون كثيراً يتقللون من أكل الشهوات، وإن كان ذلك لعدم وجود الطعام، إلا أن الله لا يختار لرسوله إلا أكمل الأحوال وأفضلها، ولهذا كان ابن عمر يتشبه به في ذلك مع قدرته على الطعام وكذلك أبوه من قبله.

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض».

وخرج البخاري عن أبي هريرة قال: «ما شبع رسول الله ﷺ من طعام ثلاثة أيام حتى قبض». وعنه قال: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز شعير».

وفي صحيح مسلم عن عمر أنه خطب فذكر ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلاً».

وخرج الترمذي وابن ماجه من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «**لقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد، وقد**

أتت عليّ ثلاث من بين يوم وليلة وما لي طعام إلا ما وراه إبط بلال»[١].

وهذه النعمة العظيمة التي نتقلب فيها من الطعام والشراب هي مطية لحُسن العبادة وطولها فقد كان **سفيان الثوري** حسن المطعم وكان يقول: إن الدابة إذا لم تحسن إليها في العلف لم تعمل[٢].

قال **القاسم بن مخيمر**: ما اجتمع على مائدتي لونان من طعام واحد[٣].

وقال **محمد بن صفوان**: كان **ليحيى القطان** نفقة من غلته، إن دخل من غلته حنطة أكل حنطة، وإن دخل شعير أكل شعيراً، وإن دخل تمر أكل تمراً[٤].

وكان ﷺ يأكل فاكهة بلده، ما قدمت له فاكهة فترك أكلها لا على سبيل الزهد الفاسد، ولا على سبيل الورع الفاسد، بل كان لا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، ويتبع قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فأمر بالأكل والشكر، فمن حرم الطيبات عليه وامتنع من أكلها بدون سبب شرعي، فهو مذموم مبتدع داخل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٨٧].

ومن أكلها بدون الشكر الواجب فيها مذموم، قال ـ تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٨] أي شكر النعيم..

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٢٧.
(٢) منهاج القاصدين، ص ٢٦.
(٣) حلية الأولياء (٦/ ٨٠).
(٤) السير ٩/ ١٨.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**».

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد بأن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**».

وكذلك الإسراف في الأكل مذموم وهو مجاوزة الحد.

ومن أكل بنية الاستعانة على عبادة كان مأجوراً على ذلك، وكذلك ما ينفقه على أهل بيته، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة**».

وقال لسعد: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك**»[١].

وكان **عبدالله بن عمر** لا يأكل طعاماً إلا وعلى خوانه يتيم[٢].

ومن دقيق نعم الله على العبد، التي لا يكاد يفطن لها، أنه يغلق عليه بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئاً من القتت، ليعرف نعمته عليه[٣].

ثم يكرمه الله ـ عز وجل ـ بسخاء اليد وطيب النفس فيعين أهل الكرب وأصحاب الحاجات، ويساعد الأرامل والأيتام سعياً وطلباً لمرضاة الله ـ عز وجل ـ.

كان **الحسن** يقول: رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً، فأكل كسرة، ولبس خلقاً، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢١٢).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٩٩).

(٣) عدة الصابرين، ص ١٧٤.

الخطيئة، وهرب من العقوبة، ابتغاء الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[١].

خلقان لا أرضى مفالهما
بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطراً
وإذا افتقرت على الدهر[٢]

قال **عبدالله ابن شبرمة**: عجبت للناس يحتمون من الطعام مخافة الداء، ولا يحتمون من الذنوب مخافة النار[٣].

ومن صور الورع العجيبة: أن امرأة من الصالحات أتاها نعي زوجها وهي تعجن، فرفعت يديها من العجين وقالت: هذا طعام قد صار لنا فيه شريك[٤].

وأعظم من ذلك ورع **الصديق أبي بكر** ﷺ، قال **زيد بن أرقم** ـ رضي الله عنه ـ: كنا مع أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فدعا بشراب، فأتي بماء وعسل، فلما أدناه من فيه، بكى وبكى حتى أبكى أصحابه، فسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى، حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته، قال: ثم مسح عينيه، فقالوا: يا خليفة رسول الله، ما أباك؟ فقال: كنت مع رسول الله، فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً، ولم أر معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «**هذه الدنيا مثلت لي**،

---

(١) الزهد للبيهقي (٢/ ٦٥).
(٢) السير (٤/ ٢٧٦).
(٣) السير (٦/ ٣٤٨).
(٤) تعني الورثة ومن له حق.

فقلت لها: إليك عني، فرجعت، فقالت: إنك إن أفلتَّ مني فلن يفلت مني من بعدك»[١].

قال **سهل**: من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، عَلم أو لم يعلم، ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه، ووفقت للخيرات.

وقال رجل **لابن عمر**: يا أبا عبدالرحمن، رقَّت مضجعك وكبر سنك، وجلساؤك لا يعرفون لك حقك ولا شرفك، فلو أمرت أهلك أن يجعلوا لك شيئاً يلطفونك إذا رجعت إليهم، قال: ويحك، والله ما شبعت منذ إحدى عشرة سنة، ولا اثنتي عشرة سنة ولا ثلاث عشرة سنة، ولا أربع عشرة سنة مرة واحدة، فكيف بي وإنما بقي مني ما بقي[٢].

أخـي الحبيب:

من سنن المرسلين إطعام الطعام وإكرام الضيف، وهي من علامات الإيمان لقوله ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه..»**[٣].

ويقول الشاعر:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
ويخصب عندي والمحل جديب
ما الخصب للأضياف في كثرة القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب[٤]

---

(١) عدة الصابرين، ص ٢٥٧.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٥١٥.
(٣) متفق عليه.
(٤) مكاشفة القلوب، ص ٤٢٥.

قال **عبدالرزاق**: لما قدم **سفيان** علينا، طبخت له قدر سكباج (لحم يطبخ بخل) فأكل ثم أتيته بزبيب الطائف فأكل، ثم قال: يا عبدالرزاق، اعلف الحمار وكده، ثم قام يصلي حتى الصباح(١).

ولو كانت الطاعة والعبادة بكثرة الأكل وتوفر النعم لكنا أكثر منهم قياماً وصلاة وعبادة، ولكنها حياة القلوب وموتها لا كثرة الأكل وتنوع الأصناف!!

قال شعبة: إذا كان عندي دقيق وقصب ما أبالي ما فاتني من الدنيا.

سهرت أعين ونامت عيون لأمور تكون أو لا تكون

فاطرد الهمَّ ما استطعت عن النفس فحملانك الهموم جنون

إن رباً كفاك بالأمس ما كان سيكفيك في غد ما يكون(٢)

عن **جابربن عبدالله** قال: رأى **عمر بن الخطاب** لحماً معلقاً في يدي فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحماً فاشتريته، فقال عمر: أفكلما اشتهيت يا جابر اشتريت؟ أفكلما اشتهيت يا جابر اشتريت؟ أما تخاف هذه الآية يا جابر ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ﴾ [الأحقاف: ٢].

دخل **عمر** على ابنه عاصم وهو يأكل لحماً، فقال: ما هذا؟ قال: قَرِمْنا إليه، قال: أَوَ كلما قرمت إلى شيء أكلته؟ كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما يشتهي(٣).

---

(١) السير (٧/٢٧٧).

(٢) تذكرة الحفاظ (٤/١٣٩٧).

(٣) تاريخ عمر لابن الجوزي، ص ١١٩.

وروي أن ابناً لسمرة بن جندب أكل حتى بشم، فقال له: لو مت ما صليت عليك!!.

قال صفوان بن محرز: إذا أكلت رغيفاً أشد به صلبي، وشربت كوز ماء ـ فعلى الدنيا وأهلها العفاء[1].

ملـــك كســـرى تغنـــي عنـــه كســـرة
وعـــن البحـــر اجتـــزاء بـــالـــوشـــل

اعتبـــــر نحـــــن قسمنـــــا بينهـــــم
تَلْقَـــــهُ حقـــــاً وبـــــالحـــــق نـــــزل

وتأمَّل في فعل السلف وقناعتهم بالرزق مع كثرة طاعتهم وحسن عبادتهم.

كان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل، ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد.

وفي هذا الزمن الذي تفجرت ينابيع الخيرات وكثر فيه الرزق يخشى أن يكون ذلك استدراجاً.

قال سلمة بن دينار: إذا رأيت الله ـ عز وجل ـ يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره[2].

هـــب أن البعـــث لـــم تـــأتنـــا رسلـــه
وجـــاحمـــة النـــار لـــم تُضـــرم

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص ١٢٠.
(٢) صفة الصفوة (٢/١٥٧).

أليس في الواجب المستحق
حياء العباد من المنعم[١]

قال **ابن بشار**: أمسينا مع **إبراهيم بن أدهم** ليلة، ليس لنا ما نفطر عليه، فقال: يا ابن بشار، ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة؟ لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا حج ولا صدقة ولا صلة رحم، لا تغتم فرزق الله سيأتيك، نحن والله ـ الملوك والأغنياء ـ تعجلنا الراحة، لا نبالي على أي حال كنا إذا أطعنا الله، ثم قام إلى صلاته، وقمت إلى صلاتي، فإذا برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير، فقال: كل يا مغموم، فدخل سائل فأعطاه ثلاثة أرغفة مع تمر، وأعطاني ثلاثة وأكل رغيفين[٢].

أخي الحبيب: في الجوع عشر فوائد هي:

الفائدة الأولى: صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنقاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك.

ويقال: مثل الجوع مثل الرعد، ومثل القناعة مثل السحاب، والحكمة كالمطر.

الفائدة الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة

(١) التخويف من النار، ص ١٢٥.
(٢) السير (٧/ ٣٩٤).

والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب.

قال **أبو سليمان الداراني**: أحلى ما تكون إليَّ العبادة إذا التصق ظهري ببطني.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله ـ تعالى ـ، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها. وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره، وإنما سعادته في أن يكون دائماً مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر.

الفائدة الرابعة: أن لا تنسى بلاء الله وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا يتذكر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار، حتى أنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل، فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها، فإنه هو الذي يهيج الخوف، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثَّل في نفسه ولم يغلب على قلبه، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء، وأولى ما يقاسيه من الجوع فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة.

الفائدة الخامسة: وهي من أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات

والقوى، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجموع إلا بضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس. إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا.

وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد. ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله ـ تعالى ـ، وأقل ما يندفع بالجوع: شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها، فيمنعه الجوع من كل ذلك، وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكه لا محالة بأعراض الناس، ولا يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها، والجوع يكفي شرها. وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني، فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيراً ومن كثر شربه كثر نومه، وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها. ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة. فالنوم منبع الآفات، والشبع مجلبة له، والجوع مقطعة له.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال، ثم يكثر تردادِه إلى بيت الماء لكثرة شربه. والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه.

قال **السري**: رأيت مع **علي الجرجاني** سويقاً يستف منه فقلت: ما حملك على هذا؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه في المضغ.

وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها، فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها بصرفه إلى ذكر الله وطاعته.

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته. ومن جملته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

وقد أشار **أبوسليمان الداراني** إلى ست آفات من الشبع فقال: من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظنّ أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن أول سائر المؤمنين يدورون حول

المساجد، والشباع يدورون حول المزابل.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضله الأخلاط في المعدة والعروق. ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر، وينغص العيش، ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله.

حكي أن **الرشيد** جمع أربعة أطباء: هندي، ورومي، وعراقي، وسوادي، وقال: ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه، فقال الهندي: الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود، وقال العراقي: هو حب الرشاد الأبيض، وقال الرومي: هو عندي الماء الحار، وقال السوادي وكان أعلمهم: الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء، قالوا: فما عندك؟ فقال: الدواء الذي لا داء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه، فقالوا: صدقت.

الفائدة التاسعة: خفة المئونة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له أخذ بمخنقه في كل يوم، فيقول ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام فيعصي أو من الحلال فيذل، وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقماءة، والمؤمن خفيف المؤنة.

وقال **بعض الحكماء**: إني لأقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي.

وقال **آخر**: إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي.

وكان **إبراهيم بن أدهم** رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقولون إنها غالية، فيقول: أرخصوها بالترك.

وقال **سهل** ـ رحمه الله ـ: الأكول مذموم في ثلاثة أحوال: إن كان من أهل العبادة فيكسل، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات، وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله ـ تعالى ـ من نفسه.

الفائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته.

فما يأكله كان خزانته الكنيف، وما يتصدق به كان خزانته فضل الله ـ تعالى ـ، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى. فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع.

وكان **الحسن** ـ رحمة الله عليه ـ إذا تلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال: عرضها على السماوات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها ـ سبحانه وتعالى ـ: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت، فقالت: لا، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت، ثم عرضها على الجبال الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها: هل تحملين الأمانة بما

فيها؟ قالت: وما فيها؟ فذكر الجزاء والعقوبة فقالت: لا، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوماً جهولاً بأمر ربه. فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً فماذا صنعوا فيها؟ وسَّعوا بها دورهم وضيقوا به قبورهم، وأسمنوا براذينهم وأهزلوا دينهم، وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان يتعرضون للبلاء وهم من الله في عافية، يقول أحدهم: تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكيء على شماله ويأكل من ماله، حديثه سخرة وماله حرام، حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال: يا غلام، ائتني بشيء أهضم به طعامي، يا لكع أطعامك تهضم؟ إنما تهضم دينك، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله ـ تعالى ـ بهم؟

فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر، فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه.

وعن **الحسن** قال: والله لقد أدركت أقواماً الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول: والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله.

فهذه عشر فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة. ولأجل هذا قال **بعض السلف**: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة(١).

---

(١) الإحياء (٣/ ٩١) باختصار.

تـــالله لـــو عـــاش الفتـــى فـــي عمـــره
ألفـــاً مـــن الأعـــوام مـــالـــك أمـــره
فتلـــــذَّذ فيهـــــا بكـــــل نعيـــــم
متنعمـــــاً فيهـــــا بنعـــــم عصـــــره
مـــا كـــان ذلـــك كلـــه فـــي أن يفـــي
بميـــــت أول ليلـــــة فـــــي قبـــــره

قيل لوهيب بن الورد: ألا تشرب من ماء زمزم؟ قال: بأي دلو؟ قال شعيب بن جرب: ما احتملوا لأحد ما احتملوا لوهيب، كان يشرب بدلوه.

وقال حرملة بن يحيى: أخذ سفيان بن عيينة بيدي فأقامني في ناحية وأخرج من كمه رغيف شعير وقال لي: يا حرملة! ما يقول الناس، هذا طعامي منذ ستين سنة(١).

ولأصحاب النهم الذين يكنزون الذهب والفضة ويجمعون ما يكفي لأمة بأسرها.. نسوق إليهم قول إمام أهل السنة رحمه الله ورضي عنه؛ الإمام أحمد: أسرُّ أيامي إليَّ يوم أصبح وليس عندي شيء(٢).

وتأمل أخي الكريم في قول الرسول ﷺ: «**ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري به عورته، وجلف الخبز والماء**»(٣).

وهذا الطعام من أوجه الإنفاق العظيمة؛ بصرفه يبلغ الإنسان الدرجات

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٢).
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٣٥٣.
(٣) رواه الترمذي.

العلا ويباعد بالتمرة عن النار . . قال رسول الله ﷺ: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة»**[١].

قال **أبو ذر لعمر**: يا عمر! إن سرك أن تلحق بصاحبك فانكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع[٢].

أتي **عبدالرحمن بن عوف** بطعام فجعل يبكي، فقال: قُتل حمزة فلم يوجد ما يكفن فيه إلا ثوباً واحداً، وقتل مصعب بن عمير فلم يوجد ما يكفن فيه إلا ثوباً واحداً، لقد خشيت أن يكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، وجعل يبكي[٣].

قال **أبوبكر** ـ رضي الله عنه ـ: دخلت على أبي مسلم في يوم عيد، فرأيت عليه قميصاً مرقعاً، وبين يديه خروف وهو يأكل منه، فقلت: يا أبا مسلم، فقال: لا تنظر إلى الخروف ولكن انظر إذا سألني ربي، من أين لك هذا؟ فأي جواب أقوله وما اعتذاري[٤].

أخي المسلم:

تتقلب في نعم الله صباحاً ومساءً . . فعليك بالشكر والحمد قولاً وفعلاً، واسأل الله ـ عز وجل ـ أن يديمها عليك وأن لا تكون استدراجاً . .

إذا كنت في نعمة فارعها
فإن المعاصي تزيل النعم

---

(١) متفق عليه.
(٢) الزهد للإمام أحمد، ص ٤٤٧.
(٣) السير ١/١٤٦.
(٤) الزهر الفائح، ص ٨٨.

كان يقال: من ملك بطنه ملك الأعمال الصالحة كلها.

وكان يقال: لا تسكن الحكمة معدة ملأى.

وعن **عبدالعزيز بن أبي داود** قال: كان يقال: ثلث الطعام عون على التسرع إلى الخيرات.

وعن **قثم العابد** قال: كان يقال: ما أقل طعم امرىء قط إلا ورقَّ قلبه ونديت عيناه.

وعن **عبدالله بن مرزوق** قال: لم نر للأَشَر مثل دوام الجوع، فقال له أبوعبدالرحمن العمري الزاهد: وما دوامه عندك؟ قال: دوامه أن لا تشبع أبداً، قال: وكيف يقدر من كان في الدنيا على هذا؟ قال: ما أيسر ذلك يا أبا عبدالرحمن على أهل ولايته، من وفقه لطاعته لا يأكل إلا دون الشبع هو دوام الجوع.

ويشبه هذا قول **الحسن** لما عرض الطعام على بعض أصحابه فقال له: أكلت حتى لا أستطيع أن آكل، فقال الحسن: سبحان الله، وما يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟.

وروي عن **أبي عمران الجوني** قال: كان يقال: من أحب أن ينور قلبه فلْيقلَّ طعمه.

وعن عثمان بن زائدة قال: كتب إلي **سفيان الثوري**: إن أردت أن يصح جسمك ويقل نومك فأقلل من الأكل.

وعن **ابن السماك** قال: خلا رجل بأخيه فقال: أي أخي! نحن أهون على الله من أن يجيعنا، إنما يجيع أولياءه.

وعن عبدالله بن أبي الفرج قال: قلت **لأبي سعيد التميمي**: الخائف يشبع؟ قال: لا.

وعن **رباح القيس** أنه قُرِّب إليه طعام فأكل منه، فقيل له: ازدد فما أراك شبعت، فصاح صيحة فقال: كيف أشبع أيام الدنيا وشجرة الزقوم طعام الأثيم بين يدي، فرفع الطعام من بين يديه، وقال: أنت في شيء ونحن في شيء.

وعن **إبراهيم بن أدهم** قال: من ضبط بطنه ضبط دينه، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة، وإن معصية الله بعيدة من الجائع قريبة من الشبعان، والشبع يميت القلب، ومنه يكون الفرح والمرح والضحك[١].

قال **سفيان الثوري** وهو يؤكد على أكل الحلال والبعد عن الحرام: انظر درهمك من أين هو؟ وصلِّ في الصف الأول[٢].

ويستطيع من أعانه الله أن يجمع بين الأمرين من أكل الحلال والصلاة في الصف الأول!!

قال **الحارث بن كلدة** طبيب العرب: الحمية رأس الدواء والبطنة رأس الداء.

وقال **الحارث** أيضاً: الذي قتل البرية وأهلك السباع في البرية إدخال الطعام على الطعام قبل الانهضام.

وقال غيره: لو قيل لأهل القبور: ما كان سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم.

فهذا بعض منافع قليل الغذاء وترك التملؤ من الطعام بالنسبة إلى صلاح البدن وصحته. وأما منافعه بالنسبة إلى القلب وصلاحه فإن قلة الغذاء يوجب رقة القلب وقوة الفهم وانكسار النفس وضعف الهوى

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص٤٢٦.
(٢) حلية الأولياء (٧/٦٨).

والغضب، وكثرة الغذاء يوجب ضد ذلك.

قال **الحسن**: يا ابن آدم! كل في ثلث بطنك واشرب في ثلثه ودع ثلث بطنك يتنفس ويتفكر.

وقال **المرزوي**: جعل **أبوعبدالله** (يعني الإمام أحمد بن حنبل) يعظم من الجوع والفقر، فقلت له: يؤجر الرجل في ترك الشهوات؟ فقال: وكيف لا يؤجر وابن عمر يقول: ما شبعت منذ ثلاثة أشهر، قلت لأبي عبدالله: يجد الرجل من قلبه رقة وهو شبع؟ قال: ما أرى.

وعن **ابن عمر** قال: ما شبعت منذ أسلمت.

أما **محمد بن واسع** فهو يقول: من قل طعامه فهم وأفهم وصفا ورقّ، وإن كثير الطعام ليثقل صاحبه عن كثير مما يريد.

وعن **أبي عبيدة الخواص** قال: حتفك في شبعك، وحفظك في جوعك، إذا أنت شبعت ثقلت فنمت استمكن منك العدو فجثم عليك، وإذا أنت تجوعت كنت للعدو بمرصد.

وعن **عمرو بن قيس** قال: إياكم والبطنة فإنها تقسي القلب.

وعن **سلمة بن سعيد** قال: إن كان الرجل ليعير بالبطنة كما يعير بالذنب يعمله.

وعن **بعض العلماء** قال: إذا كنت بطيناً فاعدد نفسك زمناً حتى تخمص.

وعن **ابن الأعرابي** قال: كانت العرب تقول: ما بات رجل بطيناً فتم عزمه.

وعن **أبي سليمان الداراني** قال: إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها فإن الأكل يغير العقل.

وَاسْعَ أخي المؤمن في فكاك رقبتك والسعي نحو نجاتك، ولا يكن همك في هذه الدنيا منصرفاً عن العبادة إلى الأكل والشرب، بل اجعلها عوناً على الطاعة.

قال **مالك بن دينار**: ما ينبغي للمؤمن أن يكون بطنه أكبر همه وأن تكون شهوته هي الغالبة[(١)].

قال النابغة:

ولست بجالس لغد طعاماً
حذار غير لكل غد طعام

قال **بشر بن الحارث**: ما شبعت منذ خمسين سنة.

وقال: ما ينبغي للرجل أن يشبع اليوم في الحلال لأنه إذا شبع من الحلال دعته نفسه إلى الحرام فكيف في هذه الأقدار؟[(٢)].

أخي المسلم:

لو قيل لأهل القبور: ما كان سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم[(٣)].

وقال الحكيم الخبير ـ جل شأنه وعظم سلطانه ـ: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال **بعض العلماء**: جمع الله بهذه الآيات الطب كله[(٤)].

جسمك بالحمية أحصنته
مخافة من ألم طارىء

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٢٥.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٥١٨.
(٣) جامع العلوم والحكم، ص ٥١٧.
(٤) جامع العلوم والحكم، ص ٥١٥.

وكـــــان أولـــــى بـــــك أن تحتمـــــي
مـــــن المعـــــاصـــــي خشيـــــة البـــــارىء[١]

عن **بلال بن تعب** قال: كان **طاووس** إذا خرج من اليمن (يعني إلى مكة) لم يشرب إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية.

وقال **الثوري**: الزهد في الدنيا قصر الأمل، وليس أكل الخشن، ولبس العباءة.

وصدق الثوري ـ رحمه الله ـ: فإن من قصر أمله لم يتسابق في المأكولات والمطعومات، ولا يتفنن بالملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسر، واجتزأ منها بما يبلغه[٢].

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ مفصلاً ما قد يكون مشوشاً على بعض الناس بشأن الأكل والشرب، فقال في كلام مفيد وتفصيل دقيق:

وأما الأكل واللباس: فخير الهدي هدي محمد ﷺ، وكان خلقه في الأكل أنه يأكل ما تيسر إذا اشتهاه، ولا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، فكان إن حضر خبز ولحم أكله، وإن حضر فاكهة وخبز ولحم أكله، وإن حضر تمر وحده أو خبز وحده أكله، وإن حضر حلو وعسل طعمه أيضاً، فلم يكن إذا حضر لونان من الطعام يقول: لا آكل لونين، ولا يمتنع من طعام لما فيه من اللذة والحلاوة.

وكان أحياناً يمضي الشهران والثلاثة لا يوقد في بيته نار، ولا يأكلون

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم، ص ١٢١.
(٢) العاقبة، ص ٦٩.

إلا التمر والماء، وأحياناً يربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان لا يعيب طعاماً، فإن اشتهاه أكله، وإلا تركه. وأُكل على مائدته لحم ضب فامتنع من أكله، وقال: «**إنه ليس بحرام، ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه**».

وقد كان اجتمع طائفة من أصحابه على الامتناع من أكل اللحم ونحوه، وعلى الامتناع من تزوج النساء، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٨٨].

وفي الصحيحين عنه أنه بلغه أن رجالاً قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقال ﷺ: «**لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٢]؛ فأمر بأكل الطيبات، والشكر لله، فمن حرم الطيبات كان معتدياً، ومن لم يشكر كان مفرطاً مضيعاً لحق الله.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضى من العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**».

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**».

فهذه الطريق التي كان رسول الله ﷺ هي أعدل الطرق وأقومها، والانحراف عنها إلى وجهين:

قوم يسرفون فيتناولون الشهوات، مع إعراضهم عن القيام بالواجبات. وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)﴾ [مريم: ٥٩].

وقوم يحرمون الطيبات، ويبتدعون رهبانية لم يشرعها الله ـ تعالى ـ، ولا رهبانية في الإسلام، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)﴾ [المائدة: ٨٧].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون: ٥١].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**»، فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم ذكر: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يُستجاب له**».

وكل حلال طيب، وكل طيب حلال، فإن الله أحل لنا الطيبات، وحرم

علينا الخبائث، لكن جهة طيبه كونه نافعاً لذيذاً.

والله حرم علينا كل ما يضرنا، وأباح لنا كل ما ينفعنا بخلاف أهل الكتاب فإنه بظلم منهم حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم، فحرم عليهم طيبات لهم، ومحمد ﷺ لم يحرم علينا شيئاً من الطيبات. والناس تتنوع أحوالهم في الطعام واللباس والجوع والشبع، والشخص الواحد يتنوع حاله، ولكن خير الأعمال ما كان لله أطوع، ولصاحبه أنفع، وقد يكون ذلك أيسر العملين، وقد يكون أشدهما، فليس كل شديد فاضلاً ولا كل يسير مفضولاً، بل الشرع إذا أمرنا بأمر شديد فإنما يأمر به لما فيه من المنفعة، لا لمجرد تعذيب النفس؛ كالجهاد الذي قال الله ـ تعالى ـ فيه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقر: ٢١٦].

والحج هو الجهاد الصغير، ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ في العمرة: «**أجرك على قدر نصبك**».

وقال ـ تعالى ـ في الجهاد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة، فليس هذا مشروعاً لنا، بل أمرنا الله بما ينفعنا، ونهانا عما يضرنا، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**».

وقال لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «**يسرا وتعسرا، وبشرا ولا تنفرا**».

وقال: «**هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فاستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا**».

وروي عنه أنه قال: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**».

فالإنسان إذا أصابه في الجهاد والحج أو غير ذلك حر أو برد أو جوع ونحو ذلك فهو مما يحمد عليه، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١](١).

وقبل الختام نعرج سوياً على بيت النبوة الذي حاله وقد عرضت على رسول الله ﷺ كنوز الدنيا، فلم يأخذها وقال: «**بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك**».

وسأل ربه أن يجعل له رزق أهله قوتاً، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**».

وفيهما عنه قال: «**والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى فارق الدنيا**».

وفي صحيح البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «ما أعلم رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً ولا شاة سميطاً قط حتى لحق بربه».

وفي صحيحه أيضاً عنه، قال: «خرج النبي ﷺ ولم يشبع من خبز شعير».

وفي صحيح مسلم عن **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلاً يملأ بطنه».

وفي المسند والترمذي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبيت الليالي المتتابعات طاوياً وأهله لا

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣١٠) باختصار.

يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير».

وفي الترمذي، من حديث أبي أمامة: «ما كان يفضل أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير».

وفي المسند، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «والذي بعث محمداً بالحق؛ ما رأى منخلاً ولا أكل منخولاً منذ بعثه الله ـ عز وجل ـ إلى أن قبض.

قال عروة: فقلت: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف ـ أي ننفخه ـ فيطير ما طار ونعجن الباقي».

وفي صحيح البخاري، عن أنس قال: «لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير ولقد سمعته يقول: «**ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات**».

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه»[١].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ سأل أهله الأدم فقالوا: ما عندما إلا الخل، فدعا به، فجعل يأكل ويقول: «**نِعْمَ الأدم الخل، نعم الأدم الخل**»[٢].

جعلنا الله وإياكم من الحامدين الشاكرين الذين يؤدون شكر نعمته، وجعل ما أمدنا به من خير عوناً على طاعته، وتجاوز عن خطأنا وتقصيرنا وجهلنا وعمدنا، وغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

لا تستوحش لهم الغبراء

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن أمر الورع قد ندر وقلَّ في هذا الزمن.. وها هو قلمي ينزوي حياءً أن يكتب في هذا الموضوع، لما في النفس من تقصير وتفريط. ولكن حسبها موعظة تقع في قلب مسلم ينتفع بها.. وهذا هو الجزء «التاسع عشر» من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**» تحت عنوان «**لا تستوحش لهم الغبراء**» ومدار حديثه وسطوره عن الورع والبعد عن الشُبَّه.

جعل الله لنا نصيبًا من ذلك، ورزقنا خوفه سرًا وعلانية.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر: ٤].

قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهِّر من الذنب. فكنى عن النفس بالثوب.

وقال **ابن عباس**: لا تلبسها على معصية ولا غدر[١].

وفي الحديث المشهور عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه...**»[٢].

وقال ﷺ في توجيه لمن أراد النجاة وبحث عن المخرج: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**»[٤].

وعن عطية بن عروة السعدي الصحابي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال

---

(١) مدارج السالكين، ص ٢١.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه البزار والحاكم وصححه الألباني.

رسول الله ﷺ: «**يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذارًا لما به بأس**»(١).

وهذا سيد الورعين وصفوة الخلق أجمعين يقول كما روى أبو أمامة عنه أنه ﷺ قال: «**عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، قلت: لا يا ربي ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا**»، أو قال: ثلاثًا، أو نحو هذا «**فإذا جعت تضرَّعت إليك وذكرتك، فإذا شبعت شكرتك وحمدتك**»(٢).

بل هاهو إمام الورعين وقدوة المؤمنين ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تطبيق عملي يترك تمرةً واحدة ورعًا وتقوى.. عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ وجد تمرةً في الطريق، فقال: «**لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها**»(٣).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** مبينًا أهمية الورع ومكانته: والورع من قواعد الدين(٤).

أخي المسلم:

الخوف من الله يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل، وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد، والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء، والقناعة تثمر الرضا، والذكر يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التوكل، ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة، والورع يثمر الزهد أيضًا، والتوبة تثمر المحبة أيضًا، ودوام الذكر يثمرها، والرضا يثمر الشكر،

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي وأحمد، وهو ضعيف انظر ضعيف الترمذي بالرقم ٤٠٨.

(٣) متفق عليه.

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٩/٣١٥).

والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات، والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه، والمعرفة تثمر الخلق، والفكر يثمر العزيمة، والمراقبة تثمر عمارة الوقت وحفظ الأيام والحياء والخشية والإنابة.

وإماتة النفس وإذلالها وكسرها يوجب حياة القلب وعزه وجبره، ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله ـ عز وجل ـ، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات، ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان. وصحة البصيرة تثمر اليقين، وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوّة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله أمران:

أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة، ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق البتة، وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم. ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها. والله المستعان[١].

قال **الفقيه السمرقندي** في تعريف الورع بشكل بيِّن واضح لمن أراد أن

(١) مدارج السالكين، ص ٢٩.

يسلك طريق النجاة وينجو بنفسه: الورع الخالص أن يكف بصره عن الحرام، ويكف لسانه عن الكذب والغيبة، ويكف جميع أعضائه وجميع جوارحه عن الحرام.

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: إن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع، وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد دون الورع(١).

وقال ـ رحمه الله ـ: وأما الورع فإنه الإمساك عما قد يضر. فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر(٢).

قال **وهيب بن الورد** في نصيحة صادقة وكلمات غالية: إذا أردت البناء فأسِّسه على ثلاث: على الزهد والورع والنية، فإنك إن أسسته على غير هؤلاء انهدم البناء(٣).

وقال **الضحاك**: لقد أدركت أصحابي وما يتعلمون إلا الورع(٤).

وقال **يحيىٰ بن معاذ**: الورع اجتناب كل ريبة، وترك كل شبهةٍ، والوقوف مع الله على حد العلم من غير تأويل(٥).

ومن صور الورع في صدر الأمة ما كان عليه الخليفة الراشد **أبو بكر الصديق** ـ رضي الله عنه ـ، فعن زيد بن أرقم قال: كان لأبي بكر الصديق مملوك يغلُّ عليه، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: ما

---

(١) مجموع الفتاوى: (٦١٩/١٠).
(٢) مجموع الفتاوى: (٦١٥/١٠).
(٣) الزهد الكبير للبيهقي، ص٣١٠.
(٤) المرجع السابق.
(٥) الزهد للبيهقي ص ٣١٩.

لك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني، فلمَّا أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني، فقال: أفٍّ لك، كدت تهلكني، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيَّأ وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بعُسٍّ من ماء فجعل يشرب ويتقيأ فرمى بها، فقيل له: يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة؟! فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها[1].

الله أكبر: أين نحن من هؤلاء؟

وروي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنه أتي بزيت من الشام وكان الزيت في الجفان (يعني في القصاع) وعمر يقسمه بين الناس بالأقداح، وعنده ابن له شعرات، فكلما أفرغت جفنة مسح بقيتها برأسه، فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: أرى شعرك شديد الرغبة على زيت المسلمين ثم أخذ بيده فانطلق إلى الحجَّام فحلق شعره وقال: هذا أهون عليك[2].

قال حذيفة موصيًا الحريصين على آخرتهم من يريدون نقاء صحائفهم وبيضها يوم القيامة: تعاهدوا أرِقَّاءكم فانظروا من أين يجيئون بضرابهم فإنه لا يدخل الجنة لحمٌ نبت من سُحت[3].

ولهذا قال مطرف بن عبدالله: إنَّك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صلاة وصومًا وصدقة والآخر أفضل منه بونًا بعيدًا، قيل له: كيف ذاك قال:

---

(١) صفة الصفوة: (١/ ٢٥١).

(٢) تنبيه الغافلين، ص ٢٤٥.

(٣) الزهد للإمام أحمد، ص ٢٦٣.

يكون أحدهما أشد ورعًا لله ـ عز وجل ـ عن محارمه[١].

والمقصود: أن **الورع** يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما في الآخر. ولهذا نُهي عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي. يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى أن ثوب البر ليُعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحد فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» فهذا يَعُمُّ الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع[٢].

قال **إبراهيم بن أدهم**: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضول.

وفي الترمذي مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، كن ورعًا تكن أعبد الناس**».

قال **الشبلي**: الورع أن يتورع عن كل ما سوى الله.

ولغلبة الهوى وحظ النفس وشهوتها قال **إسحاق بن خلف**: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشد منه في

---

(١) الزهد للإمام أحمد، ص٣٤٣.

(٢) مدارج السالكين، ص ٢١.

الذهب والفضة لأنهما يُبذلان في طلب الرياسة.

وقال **أبو سليمان الدّاراني**: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا[١].

وتأمل في حال صدر الأمة الأول وكيف كانوا يتورعون..

قال **بعض الصحابة**: كنّا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام[٢].

ولغفلة الناس عن أمر الورع قالت **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة وهو الورع[٣].

قال **عيسىٰ** ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لو صليتم حتى تصيروا مثل الحنايا، وصُمتم حتى تكونوا أمثال الأوتاد، وجرى من أعينكم الدموع أمثال الأنهار، ما أدركتم ما عند الله إلا بورع صادق.

وروي عن **ابن المبارك** ـ رحمه الله ـ أنه قال: تركُ فِلسٍ من حرام أفضل من مائة ألف فلس أتصدق بها.

وعنه أنه كان بالشام يكتب الحديث، فانكسر قلمه فاستعار قلمًا فلما فرغ من الكتابة نسي فجعل القلم في مقلمته، فلمّا رجع إلى مَرْو ورأى القلم عرفه فتجهّز للخروج إلى الشام لردِّ القلم.

وتأمل في وصايا الآباء، لأبنائهم وهي وصايا صادقة إنها جواهر ودرر.

عن سفيان قال: قال **لقمان لابنه**: يا بنيَّ، إن الدنيا بحر عميق غرق

---

(١) مدارج السالكين، ص ٢٢.

(٢) مدارج السالكين، ص ٢٣.

(٣) الإحياء: (٢/١٠٣).

فيها ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وزيادتها الإيمان بالله، ومشرعها التوكل على الله، لعلك تنجو، وما أراك ناجيًا[١].

والورع: توق مستقصى على حذر. وتحرج على تعظيم.

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: يعني أن يتوقى الحرام والشبه وما يخاف أن يضرَّه أقصى ما يُمكنه من التوقي.

والتوقي: فصل الجوراح.

والحذر: فصل القلب.

ويكون الباعث على الورع عن المحارم والشبه: إما حذر الوعيد، وإما تعظيم الرب جل جلاله ـ، وإجلالاً له أن يتعرض لما نهى عنه، فقد يتوقى العبد الشيء لا على وجه الحذر والخوف، ولكن لأمور أخرى، من إظهار نزاهة، وعزة وتصوف، أو اعتراض آخر، كتوقي الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنة ولا نار ما يتوقَّونه من الفواحش والدناءة تصونًا عنها، ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها، وطلبًا للمحمدة ونحو ذلك[٢].

وعن **أبي موسى الأشعري** ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنه قال: لكل شيء حد. وحدود الإسلام: الورع، والتواضع، والشكر، والصبر. فالورع ملاك الأمور، والتواضع براءة من الكبر، والصبر النجاة من النار، والشكر الفوز بالجنة[٣].

وانظر إلى المسابقين في الخيرات الحريصين على دينهم ممَّن قدموا الآخرة على الدنيا والباقية على الفانية.

---

(١) الزهد للبيهقي، ص ٣٣٥.
(٢) مدارج السالكين، ص ٢٣.
(٣) تنبيه الغافلين، ص ٢٤٤.

قال **حسان بن أبي سنان**: ما شيء أهون عندي من الورع إذا رابني شيء تركته[١].

ولكن لا يُظن أن هذا الترك سهل ميسور لكل أحد، بل إنه منحة ربانية لمن وفقه الله وأعانه وإلا فهو لغيرهم كما قال **الحسن البصري**: طلب الحلال أشد من لقاء الزحف[٢].

وأثر الحلال الذي لا شبهة فيه واضح بيِّن، هذا **عبدالله بن المبارك** يقول عن ردِّ الشبه ومنزلتها العظيمة: لأن أرد درهمًا من شبهة، أحب بمائة ألف ومائة ألف.. حتى بلغ ستمائة ألف[٣].

وتأمل - أخي الكريم - في أثر الحرام على النفس.

قال **سهل** - رحمه الله -: من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، ومن كانت طُعمته حلالاً أطاعته جوارحه، ووفِّقت للخيرات.

وللخوف العظيم والوجل المستمر من يوم تتطاير فيه الصحف ويحاسب فيه العبد على أمثال مثقال الذر.

قال **الحسن**: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام[٤].

وقال **سليمان بن داود**: أوتينا ممَّا أوتي النَّاس ومما لم يُؤتوا، وعلمنا مما عَلِمَ الناس ومما لم يعْلموا، فلم نجد شيْئًا أفضل من تقوى الله في السرِّ

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ١٣١.
(٢) الورع لابن أبي الدنيا، ص١١٧.
(٣) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١١٩.
(٤) جامع العلوم والحكم، ص١٠.

والعلانية، والعدل في الغضب والرضاء، والقصد في الفقر والغنى[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **الفضيل**: يزعم الناس أن الورع شديد، وما ورد عليَّ أمران إلا أخذت بأشدهما[٢].

قال **ابن عمر** ـ رضي الله عنهما: ـ إنِّي لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترةً من الحلال لا أخرقها[٣].

لأنها إذا انخرقت فتّح باب الحرام وهان الولوج فيه.

وقال **عمر** ـ رضي الله عنه ـ: إن من تمام التقوى أن يتقي العبد في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا حتى يكون حجابًا بينه وبين النار[٤].

عن **ميمون بن مهران**: لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه[٥].

ولعظم أمر الحلال ومنزلته عند الله ـ عز وجل ـ قال **يونس بن عبيد**: لو أعلم موضع درهم من حلال من تجارة لاشتريت به دقيقًا، ثم عجنته ثم خبزته ثم جفَّفته ثم دققته أداوي به المرضى.

قال **غالب القطّان**: ذكر الحلال عند بكر بن عبدالله المزني فقال بكر:

---

(١) الفوائد، ص ٧١.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ١٣١.
(٣) جامع العلوم والحكم، ص٩٠.
(٤) الإحياء: (٢/ ١٠٨).
(٥) السير: (٥/ ٧٤).

إن الحلال لو وُضع على جرح لبرى[١].

وقال **إبراهيم بن أدهم**: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه[٢].

أما **يحيىٰ بن معاذ** فإنه يقول ـ رضي الله عنه ـ: كيف يكون زاهدًا من لا ورع له، تورَّع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك[٣].

وقال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: لا تنظروا إلى صلاة امريءٍ ولاصيامه، ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا حدث، وإلى ورعه إذا أشفى، وإلى أمانته إذا اؤتُمن[٤].

ولنفسي ـ المقصرة ـ وللأحبة القراء تعريف سريع للورع، وهو جادة لمن أراد النجاة وسعى إلى الفوز بجنة عرضها السماوات والأرض.

قيل **لابن سيرين**: ما أشد الورع؟ فقال: ما أيسره؛ إذا شككت في شيء فدعْه.

وقال **هشام**: كنا قعودًا ومعنا يونس بن عبيد وذكرنا شيئًا، فتذاكروا أشد الأعمال، فاتفقوا على الورع، فجاء **حسان بن أبي سنان** فقالوا: قد جاء أبو عبدالله، فجلس فأخبروه بذلك، فقال حسان: إن للصلاة لمؤنة، وإن للصيام لمؤنة، وإن للصدقة لمؤنة، وهل الورع إلا إذا رابك شيء تركته[٥].

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١١٧.
(٢) الإحياء: (٢/ ١٠٣).
(٣) وفيات الأعيان: (٦/ ١٦٥).
(٤) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١٢١.
(٥) الورع لابن أبي الدنيا، ص ٥٧.

وجاء رجل إلى **عبدالله بن عبد العزيز** فقال: عظْني، فأخذ حصاة من الأرض فقال: زنة هذه من الورع يدخل قلبك خير لك من صلاة أهل الأرض. قال: زدني، قال: كما تحب أن يكون الله ـ عز وجل ـ لك غدًا فكن له اليوم[١].

وعن **أنس** ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشَّعر، كنَّا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[٢].

* قال محمد بن كعب القرظي: **ثلاث خصال** إن استطعت أن لا تترك شيئًا منها أبدًا فافعل:

لا تبغينَّ على أحد فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

ولا تمكرن على أحد مكرًا فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

ولا تنكثنَّ عهدًا أبدًا فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠].

* وقال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ: **الزهد ثلاثة أصناف**: زهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة:

فالزهد الفرض: هو الزهد في الحرام.

والزهد الفضل: هو الزهد في الحلال.

وزهد السلامة: هو الزهد في الشبهات.

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ١٨٣).

(٢) رواه البخاري.

* وقال أيضًا: **الورع ورعـان**: ورع فرض، وورع حذر:

فالورع الفرض: الورع عن معاصي الله ـ تعالى ـ.

والورع الحذر: الورع عن الشبهات.

* وقال أيضًا: **والحزن حزنـان**: حزن لك وحزن عليك:

فالحزن الذي هو لك: حزنك على الآخرة.

والحزن الذي هو عليك: حزنك على الدنيا وزينتها[١].

وكن ـ أخي المسلم ـ مثل **حبيب بن محمد** حيث قالت امرأته عنه: كان يقول: إن مت اليوم فأرسلي إلى فلان يُغسلني، وافعلي كذا واصنعي كذا، فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟ قالت: هذا قوله كل يوم[٢].

قال **العلاء بن زياد**: إنكم في زمانٍ أقلُّكم الذي ذهب عشر دينه، وسيأتي عليكم زمان أقلكم الذي يبقى عليه عشر دينه[٣].

ولننظر إلى حال **بعض الصالحين** وسيرتهم في مواقف معبرة من حياتهم، فمن ذلك ما روي عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء، فقالت له امرأته: لو تمشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فكأنه لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين، فلم يُجز الإقدام عليها[٤].

ومن علامات الطريق والسير مع الصالحين التواصي بالحق والتزود بنصيحة الأخ المحب المشفق، فحينما ودَّع **ابن عونٍ** رجلاً قال له: عليك

---

(١) تنبيه الغافلين، ص ٢٤٥.

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٣٢٠).

(٣) السير: (٢/ ٢٤٦).

(٤) الإحياء: (٢/ ١١٠).

بتقوى الله، فإن المتقي ليست عليه وحشة[١].

ولمن يتتبعون الرُّخص هوى واتباعًا للشهوات، وخروجًا من التكاليف.. إليهم قول **سليمان التيمي**: لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله[٢].

* قال **بعض الحكماء**: أمرُ الدنيا كلها عجب ولكني أتعجَّب من ابن آدم المغرور في **خمسة أشياء**:

أولها: أتعجب من صاحب فضول الدنيا كيف لا يقدم فضوله ليوم فقره وحاجته إليه.

والثاني: من لسان ناطق كيف يطاوع نفسه ويعرض عن ذكر الله ـ تعالى ـ وعن تلاوة القرآن.

والثالث: أتعجب من صحيح فارغ رأيته مفطرًا أبدًا كيف لا يصوم من كل شهر ثلاثة أيام أونحوه، وكيف لا يتفكر في عاقبة الصوم إذا استقبله.

والرابع: أتعجب من الذي يمهِّد فراشه وينام إلى الصبح، كيف لا يتفكر في فضل صلاة ركعتين في الليل فيقوم ساعة من الليل.

والخامس: أتعجب من الذي يجترىء على الله ويرتكب ما نهاه عنه وهو يعلم أنه يُعرض عليه يوم القيامة فكيف لا يتفكر في عاقبة أمره لينزجر عنه[٣].

وعلى اختلاف مشارب الناس وطرقهم في هذا الزمن وقلة الورعين إلا

---

(١) الفوائد، ص ٧١.

(٢) السير: (٦/١٩٨).

(٣) تنبيه الغافلين، ص ٢٤٤.

أنهم قد يصابون في مقتل وذلك بتحرُّزهم في أمور وترك غيرها فيكون ورعهم مخرومًا وطريقهم صعبًا.

قال ابن الجوزي: رأيت كثيرًا من النَّاس يتحرزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل، ويؤخرون الفريضة عن الوقت، في أشياء يطول عددها، من حفظ فروع وتضييع أصول.

فبحثت عن سبب ذلك، فوجدته من شيئين: أحدهما: العادة، والثاني: غلبة الهوى في تحصيل المطلوب، فإنه قد يغلب، فلا يترك سمعًا ولا بصرًا.

ومن هذا القبيل أن إخوة يوسف قالوا حين سمعوا صوت المنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف: ٧٠]: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف: ٧٣]، فجاء في التفسير: أنهم لما دخلوا مصر كمَّموا أفواه إبلهم، لئلا تتناول ما ليس لهم، فكأنهم قالوا: قد رأيتهم ما صنعنا بإبلنا فكيف نسرق؟ ونَسُوا هم التفاوت بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها، وبين إلقاء يوسف ـ عليه السلام ـ في الجب وبيعه بثمن بخس.

وفي الناس من يطيع في صغار الأمور دون كبارها، وفيما كُلْفتُه عليه خفيفة أو معتادة، وفيما لا ينقص شيئًا من عادته في مطعم وملبس.

نرى أقوامًا يأخذون الربا، ويقول أحدهم: كيف يراني عدوي بعد أن بعت داري، أو تغير ملبوسي ومركوبي؟!

ونرى أقوامًا يوسوسون في الطهارة، ويستعملون الكثير من الماء، ولا يتحاشون من غيبة.

وأقوامًا يستعملون التأويلات الفاسدة في تحصيل أغراضهم، مع علمهم أنَّها لا تجوز.

حتى إني رأيت رجلاً من أهل الخير والتعبد، أعطاه رجل مالاً ليبني به مسجدًا، فأخذه لنفسه، وأنفق عوض الصحيح قراضة، فلمَّا احتضر قال لذلك الرجل: اجعلني في حِلٍّ؛ فإني فعلت كذا وكذا.

ونرى أكوامًا يتركون الذُّنوب لبعدهم عنها، فقد أَلِفوا الترك، وإذا قربوا منها لم يتمالكوا.

وفي الناس من هذه الفنون عجائب يطول ذكرها.

وقد علمنا أن خلقًا من علماء اليهود كانوا يحملون ثقل التعبد في دينهم، فلمَّا جاء الإسلام وعرفوا صحته لم يطيقوا مقاومة أهوائهم في محور رياستهم.

وكذلك قيصر، فإنه عرف رسول الله ﷺ بالدليل، ثم لم يقدر على مقاومة هواه وترك ملكه.

فالله الله في تضييع الأصول، ومن إهمال سرح الهوى؛ فإنه إن أُهملت ماشية نفشت في زروع التقى.

وما مثل الهوى إلا كسبُع في عنقه سلسلة، فإن استوثق منه ضابطه كفَّه، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه، فلم تقاومها السلسلة، فأفلت.

على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة، ومنهم من يكفه بخيط،

فينبغي للعاقل أن يحذر شياطين الهوى، وأن يكون بصيرًا بما يقوى عليه من أعدائه، وبمن يقوى عليه[١].

ولمن يحملون على ظهورهم حقوق الآخرين غير مبالين بذلك نسوق لهم واقعة امرأة احتاجت إلى دَينٍ لسدِّ فاقتها وحاجتها ثم نسمع، جواب إمام أهل السنة عن ذلك وتوبيخه لها!!

استقرضت امرأة رغيفين فقال **أحمد بن حنبل**: ما أجرأك! تبيتين وعليك دين[٢]؟

وعن **بعض الصّالحين** أنَّه رُوي بعد موته في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيرًا، غير أني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها[٣].

هذا في إبرة وتلك في رغيفين! فكيف بمن فتح الباب على مصراعيه من أخذ حقوق الناس والتحايل عليهم، ونقص الموازين وتطفيف المكاييل، والتعدي على أموال بيت مال المسلمين.. ومن تتبع الأمر أعياه طول الطريق.

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟

كان **الضحاك** صاحب بشر بن الحارث يجيء إلى أخته حين مات زوجها، فيبيت عندها فيجيء معه بشيء يقعد عليه، ولم ير أن يقعد على ما خلف من غلة الورثة.

قال أحمد بن ماهان: سُئل **أحمد بن حنبل** عن مسألة في الورع،

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٣٣.
(٢) الورع للإمام أحمد بن حنبل، ص ٤٢.
(٣) الكبائر للذهبي، ص ١٢١.

فقال: أنا أستغفر الله، لا يحلُّ لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد! لو كان بشرُ بن الحارث، صلح أن يجيبك عنه، لأنه كان لا يأكل من غلَّة بغداد ولا من طعام السَّوَاد.

وقال الحسن بن محمد بن أعين: سمعتُ **أحمد بن حنبل** يقول: لولا بِشرٌ وما نرجو من استغفاره لنا لكنا في عطلة![١].

أما الإمام الورع الزاهد **سعيد بن المسيب** فقد كان لا يقبل من أحد شيئًا لا دينارًا ولا درهمًا ولا شيئًا[٢].

وقال **إدريس الحداد**: **كان أحمد بن حنبل** إذا ضاق به الأمر آجر نفسه من الحاكة، فلمَّا كان أيام المحنة وصُرِفَ إلى بيته.. حُمل إليه مال فرده وهو محتاج إلى رغيف، فجعل عمه إسحاق يحسب ما رد فإذا هو نحو خمسمائة ألف، قال: فقال: يا عم لو طلبناه لم يأتنا، وإنما أتانا لمَّا تركنا[٣].

وقال يحيى بن سعيد: زاملتُ **أبا بكر بن عياش** إلى مكة، فما رأيت أورع منه، لقد أهدى له رجل رُطبًا، فبلغه أنه من بستانٍ أُخذ من خالد بن سلمة المخزومي، فأتى آل خالد، فاستحلَّهم، وتصدق بثمنه[٤].

وتأمَّل بركة المال الحلال في سعادة القلب وصلاح الذرية، قال **إسماعيل المحدث** والد الإمام البخاري عن موته: لا أعلم في جميع مالي درهمًا من شبهة.

---

(١) الورع للإمام أحمد بن حنبل، ص ٢٩١.
(٢) حلية الأولياء: (٢/١٦٧).
(٣) السير: (١١/٣٠٠).
(٤) السير: (٨/٤٩٩).

ويكفي هذا الأب فخرًا وعظم أجر إنجابه وتربيته لابنه صاحب أصح الكتب بعد كتاب الله ـ عز وجل ـ صحيح البخاري الذي تلقته الأمة بالقبول . .

وقد غفل عن هذا الأمر كثير من الآباء والأمهات فأدخلوا بطون أبنائهم من السحت والحرام وهم يبحثون بعد ذلك عن الصلاح والهداية، والرسول ﷺ يقول: «**كل جسم نبت من سحت فالنار أولى به**»(١).

وبعض الناس يتوهم أن الحرام فقط في الربا والرشوة، وما علم أن إضاعته دقيقة من عمله الذي يأخذ عليه أجرًا هو مال حرام وكسب لا يجوز!! وتأمل كم يدخل البطون من أموال الموظفين والمدرسين والمدرسات من تضييع الدقائق التي يأخذون عليها أجرًا! ولو جمعت تلك الدقائق لأصبحت ساعات!! وصدق الرسول ﷺ حيث قال: «**يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام؟**».

ومن صور الورع ماروي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ وصله مسك من البحرين فقال: وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت امرأته عاتكة: أنا أجيد الوزن، فسكت عنها، ثم أعاد القول فأعادت الجواب، فقال: لا أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلاً على المسلمين.

وكان يوزن بين يدي **عمر بن عبدالعزيز** مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه

---

(١) رواه أحمد وابن حبان.

حتى لا تصيبه الرائحة وقال: وهل ينتفع منه إلا بريحه لما استبعد ذلك منه[(١)].

قالت فاطمة ابنة عبدالملك: اشتهى **عمر بن عبدالعزيز** يومًا عسلاً، فلم يكن عندنا، فوجهنا رجلاً على دابة من دواب البريد إلى بعلبك بدينار فأتى بعسل، فقلت: إنك ذكرت عسلاً، وعندنا عسل، فهل لك فيه؟ قالت: فأتيناه به فشرب، ثم قال: من أين لكم هذا العسل؟ قالت: وجَّهنا رجلاً على دابة من دواب البريد بدينار إلى بعلبك، فاشترى لنا عسلاً، فأرسل إلى الرجل فقال: انطلق بهذا العسل إلى السوق فبعه، واردد إلينا رأس مالنا، وانظر إلى الفضل فاجعله في علف دواب البريد، ولو كان ينفع المسلمين قيءٌ لتقيأت[(٢)].

ولمنازل الأخيار تميز، ولحياتهم نموذج عبادة وإشراقات ورع. هذه إحداهن تستفتي في أمر لا يخطر اليوم على بال..

ذهبت **أخت بشر الحافي** إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت: إني ربما طفيء السراج وأنا أغزل على ضوء القمر، فهل عليَّ عند البيع أن أميز هذا من هذا؟ فقال: إن كان بينهما فرق فميِّزي للمشتري[(٣)].

وجاء **مجمع التيمي** بشاة يبيعها، فقال: إني أحسب أو أظنُّ في لبنها ملوحة.

---

(١) الإحياء: (٢/١٠٩).

(٢) الورع للإمام أحمد ص ٨٥.

(٣) البداية والنهاية: (١٠/٣٣٨).

وباع **محمد بن واسع** حمارًا له بسوق بلخ، فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: لو رضيته لم أبعه[١].

وهذا امتثالاً لأمر النبي ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما**»[٢].

فأين من يبيعون اليوم بالغش والخداع والتدليس؟!

قال الحسن بن عرفة قال لي **ابن المبارك**: استعرت قلمًا بأرض الشام فذهب عليَّ أن أرده إلى صاحبه، فلما قدمت مرو نظرت فإذا هو معي، فرجعت يا أبا علي إلى أرض الشام حتى رددته على صاحبه[٣].

واستفتى أحدهم الإمام **أحمد بن حنبل**، في المشي على العبارة التي يجري فيها ماء السقية إلى آبار الناس؟ قال: لا، وكره المشي عليها، وقال إنما صُيِّرت هذه للماء، وأن يجري فيها، وقال: هذه تخرب، يعني إذا مشى عليها. وهكذا قال في المغتسل، لا يُغطى به البئر، إذا حفرت في المسجد، وقال: إنما جعل ذلك للموتى.

قال أبو بكر: رأيت أنابشر **بن الحارث** يمشي على العبارة بعد ما صلى على جنازة، وكان عندي من ضرورة، وذلك أن الناس ازدحموا خلفه ينظرون إليه[٤].

وهذا الدين لو يُتقى كما تتقى الملبوسات ويحافظ عليها لتغيرت الحال..

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا ص (١٠٦).
(٢) متفق عليه.
(٣) صفة الصفوة: (٤/١٤٥).
(٤) الورع للإمام أحمد، ص ٣١.

قال **سلمة بن دينار** لجلسائه: لوددت أن أحدكم يتقي على دينه كما يتقي على نعله.

ولا شك أن من يتقي على دينه ويحوطه بالرعاية والصيانة عن أثر الشبه والحرام لهو في خير عظيم.

قال **الحسن**: إن أيسر الناس حسابًا يوم القيامة، الذين حاسبوا أنفسهم لله في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم، فإن كان الذي هَمُّوا به لله، مضوا فيه، وإن كان عليهم أمسكوا، وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا، أخذوها على غير محاسبة، فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر، ثم قرأ: ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا (٤٩) ﴾ [الكهف: ٤٩].

أخي المسلم:

إنــــي وجـــدت فـــلا تظننـــي غيــره
أن التـــورع عنـــد هــــذا الـــدرهـــم
فـــإذا قـــدرت عليـــه ثـــم تـــركتـــه
فـــاعلـــم بـــأن تقـــاك تقـــوى المسلـــم[(١)]

قال علي بن ثابت: لو لقيت **سفيان الثوري** في طريق مكة ومعك فلسان تريد أن تتصدق بهما وأنت لا تعرف سفيان ظننت أنك ستضعهما في يده[(٢)].

---

(١) مكاشفة القلوب، ص ٣٢٩.
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١٤٧).

قال **المثنى بن عبدالله**: كتبت إلى عم لي وكان جليسًا للحسن أنه: يكفي من الدعاء مع الورع ما يكفي القدر من الملح[١].

وحتى الأموال التي أحبها الناس وساروا خلفها في كل ناحية وتبعوها في كل جهة، تركها الكثير تورعًا وخشية.. فقد تنزَّه يزيد بن زريع عن خمسمائة ألف ميراث أبيه فلم يأخذه وكان أبوه ولي الأعمال للسلاطين[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

كان **جابر بن يزيد** يتحدث مع بعض أهله فمر بحائط قوم فانتزع منه قصبة فجعل يطرد بها الكلاب عن نفسه، فلمَّا أتى البيت وضعها في المسجد، فقال لأهله: احتفظوا بهذه القصبة فإني مررت بحائط قوم فانترعتها منه، قالوا: سبحان الله يا أبا الشعثاء: ما بلغ بقصبة؟ فقال: لو كان كل من مرَّ بهذا الحائط أخذ منه قصبة لم يبق منه شيء، فلما أصبح ردها[٣].

وكم في الناس اليوم من يأخذ من أموال محرمة! فهذه أموال المسلمين لا يبالي أن ينفقها، وتلك استحلها وسماها بغير اسمها، وثالث يقول: مثلي مثل غيري والكل أخذ وأنا منهم. والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

قال **إبراهيم التيمي**: لقد أدركت ستين من أصحاب عبدالله في مسجدنا هذا وأصغرهم الحارث بن سويد، وسمعته وهو يقرأ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ... ﴾

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١٢٦.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ١٣٢.
(٣) حلية الأولياء: (٣/ ٨٧).

حتى بلغ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ ﴾ بكى، ثمَّ قال: إنَّ هذا الإحصاء شديد[١].

وتأمل في جواب صفوة الخلق نبي هذه الأمة فقد قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ: شِبْتَ يا رسول الله. قال ﷺ: «**شيَّبتْني هُود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كُوِّرت**»[٢].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **الوراق**: ركبنا يومًا إلى الرمي ونحن بفربر، فخرجنا إلى الدرب الذي كان يؤدي إلى الفرضة، فجعلنا نرمي، فأصاب سهم أبي عبدالله (الإمام البخاري) وتد القنطرة التي على النهر، فانشق الوتد، فلما رأى ذلك نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد وترك الرمي، وقال لنا: ارجعوا، فرجعنا، فقال لي: يا أبا جعفر، لي إليك حاجة، وهو يتنفس الصعداء، فقلت: نعم، قال: تذهب إلى صاحب القنطرة فتقول: إنا أخللنا بالوتد فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله أو تأخذ ثمنه، وتجعلنا في حلٍّ مما كان منا، وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر فقال لي: أبلغ أبا عبد الله السلام، وقل له: أنت في حل مما كان منك فإن جميع ملكي لك الفداء، فأبلغته الرسالة فتهلل وجهه وأظهر سرورًا كثيرًا، وقرأ ذلك اليوم للغرباء خمسمائة حديث وتصدق بثلاثمائة درهم[٣].

وحين مر **عبادة بن الصامت** ـ رضي الله عنه ـ بقرية دُمره أمر غلامه أن يقطع له مسواكًا من صفصاي على نهر بردى، فمضى ليفعل، ثم قال له:

---

(١) الزهد للبيهقي، ص ٣٢٤.
(٢) رواه أحمد والترمذي.
(٣) مقدمة الفتح، ص ٤٨٠.

ارجع، فإنه إن لا يكن بثمن، فإنه ييبس، فيعود حطبًا بثمن[١].

ومن الورع البعد عن حقوق الناس وأن يلي منها شيئًا قضاءً أو إمارة أو ولاية.. قال **الربيع بن عاصم**: أرسلني يزيد بن عمر بن هبير، فقدمت بأبي حنيفة عليه، فأراده أن يكون حاكمًا على بيت المال فأبى، فضربه عشرين سوطًا، فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب[٢].

قال الهيثم بن جميل: سمعت **مالكًا** (الإمام) سُئل عن ثمانٍ وأربعين مسألة فأجاب في اثنين وثلاثين منها بـ (لا أدري)[٣].

وسأل رجل **مالك بن أنس** عن مسألة فقال: لا أحسنها. فقال الرجل: إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها، فقال له مالك: فإذا رجعت إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أني قلت لك: لا أحسنها[٤].

وكان **ابن سيرين** إذا سُئل عن شيء من الفقه، الحلال والحرام، تغير لونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان[٥].

وقال **أبو حصين** وكأنَّه يرى تسارعنا إلى الفتوى والمسابقة في ذلك: إن أحدهم يفتي في المسألة، ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر[٦].

وكانوا ـ رحمهم الله ـ يتدافعون أربعة أشياء: الإمامة، والوصية والوديعة، والفتيا[٧].

---

(١) السير: (٢/ ١٠).
(٢) الإحياء: (١/ ٣٩).
(٣) السير: (٨/ ٧٧).
(٤) صفة الصفوة: (٢/ ١٧٩).
(٥) حلية الأولياء: (٢/ ٢٦٤).
(٦) السير: (٥/ ٤١٦).
(٧) الإحياء: (١/ ٨٥).

وتأمل في مدافعة الناس اليوم وسعيهم لهذه الأربعة!! والبعض يقف بالأبواب ليحظى بشيء من ذلك! فالله المستعان على أهل هذا الزمان!!

قال **قاسم الجرعي**: أصل الدين الورع، وأفضل العبادة مكابدة الليل، وأفضل طرق الجنة سلامة الحذر.

وقال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: إن الدين ليس بالطنطنة من آخر الليل، ولكن الدين الورع(١).

قال رسول الله ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٢).

فيه إشارة إلى أنَّ صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإن كان سليمًا ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه؛ صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها وتوقي الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات، وإن كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه ولو كرهه الله؛ فسدت حركات الجوارح كلها وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع قلبه.

ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فالقلب السليم هو السالم من الآفات والمكروهات كلها، وهو القلب

(١) الزهد للإمام أحمد، ص ١٨٤.
(٢) رواه البخاري.

الذي ليس فيه سوى محبة الله وخشيته وخشية ما يباعد عنه[١].

وقال **الثوري** لابن أبي ذئب: إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لن يُغنوا عنك من الله شيئًا[٢].

قال **أبو عبدالرحمن العمري** الزاهد: إذا كان العبد ورعًا ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه[٣].

دخل **أبو إسحاق الشيرازي** يومًا المسجد ليأكل فيه شيئًا على عادته، فنسي دينارًا فذكر في الطريق، فرجع فوجده، فتركه ولم يمسَّه وقال: ربما وقع من غيري ولا يكون ديناري[٤].

وكما كان تورُّعهم في الدينار والدرهم فإنهم حافظوا على جوارحهم الأخرى وعفت ألسنتهم عما يرون فيه بأسًا..

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

سئل **مسروق بن الأجدع** عن بيت شِعرٍ فقال: أكره أن أجد في صحيفتي شعرًا[٥].

ولما مات أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أوصى أن يغسله **محمد بن سيرين** وكان محمد محبوسًا فقالوا له في ذلك فقال: أنا محبوس،

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٩١ بتصرف.
(٢) الفوائد، ص ٧١.
(٣) جامع العلوم والحكم، ص ١٣١.
(٤) تزكية النفوس، ص ٢٠.
(٥) السير: (٤/٦٩).

فقالوا: قد استأذنّا الأمير في إخراجك، قال: إن الأمير لم يحبسني، من له الحق، فأذن له صاحب الحق فغسّله[١].

وقال **زيد بن أسلم**: كان يقال: من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا[٢].

ومن أنواع الورع: التورع عن الزينة لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها، وإن كانت الزينة مباحة في نفسها.

وقد سُئل **أحمد بن حنبل** عن النعال السبتية فقال: أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا.

ومن ذلك أن **عمر** ـ رضي الله عنه ـ لما ولي الخلافة كانت له زوجة يحبها، فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعة في باطل فيطيعها ويطلب رضاها.

وهذا من ترك ما لا بأس به مخافة مما به البأس؛ أي مخافة من أن يفضي إليه. وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات، حتى استكثار الأكل واستعمال الطيب للمتعزب فإنه يحرك الشهوة، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر، والفكر يدعو إلى النظر، والنظر يدعو إلى غيره، وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم، مباح في نفسه ولكن يهيِّج الحرص ويدعو إلى طلب مثله، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل في تحصيله.

وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرز من غوائلها بالمعرفة أولاً ثم بالحذر ثانيًا، فقلَّما تخلو عاقبتها عن خطر، وكذا كل ما أُخذ بالشهوة فقلَّما يخلو عن خطر، حتى كره أحمد بن

---

(١) البداية والنهاية: (٩٠/٣٠٨).

(٢) الفوائد، ص ٧١.

حنبل تجصيص الحيطان وقال: أما تجصيص الأرض فيمنع التراب، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها، واستدل بما روي عن النبي ﷺ: أنه سُئل أن يكحل المسجد، فقال: «**لا، عريشٌ كعريش موسى**»؛ وإنَّما هو شيء مثل الكحل يطلى به، فلم يرخص رسول الله ﷺ فيه، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا: من رق ثوبه رق دينه، وكل ذلك خوفًا من سريان اتباع الشهوات في المباحات إلى غيرها، فإن المحظور والمباح تشتهيهما النفس بشهوة واحدة، وإذا تعودت الشهوة المسامحة استرسلت، فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله، فكل حلال انفك عن مثل هذه المخافة فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة، وهو كل ما لا يخاف أداؤه إلى معصية ألبتة[١].

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: كان بين كتفي **عمر** ـ رضي الله عنه ـ أربع رقاع وإزاره مرقوع بأدم، وخطب عمر على المنبر وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة[٢].

وهذا **الواقدي** ـ رحمه الله ـ مات وهو على القضاء وليس له كفن فبعث المأمون بأكفانه[٣].

ومن الورع ما ذكره **الشيخ محمد بن صالح العثيمين** ـ رحمه الله ـ حيث قال: فالورع والاحتياط ألا تطلب شيئًا من ترقية أو انتداب أو غير ذلك، إن أُعطيت فَخُذْ، وإن لم تُعْطَ فالأحسن والأورع والأتقى ألا

---

(١) الإحياء: (٢/١٠٩).

(٢) البداية والنهاية: (٧/١٤٨).

(٣) السير، ص (٤٦٧).

تطالب، فكل الدنيا ليست بشيء، وإذا رزقك الله رزقًا كفافًا لا فتنة فيه، فهو خير من مال كثير تفتتن فيه. نسأل الله السلامة[١].

قال الحسن: رأيت في منزل ابن المبارك حمامًا طيارة، فقال ابن المبارك: قد كنَّا ننتفع بفراخ هذه الحمام فليس ننتفع بها اليوم. قلت: ولم ذلك؟ قال: اختلط بها حمام غيرها فتزاوجت بها. فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك[٢].

وجاء أبو بكر بن ميمون فدق على أبي عبدالله محمد الحميدي، وظن أنه قد أذن له، فدخل عليه، فوجده مكشوف الفخذ، فبكى الحميدي وقال: والله لقد نظرت إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت[٣].

قال حماد بن زيد: كنت مع أبي، فأخذت من حائط تَبْنَةً، فقال لي: لِمَ أخذت؟ قلت: إنما هي تبنة!! قال: لو أن الناس أخذوا منه تبنة هل كان يبقى في الحائط تِبْنٌ[٤]؟

قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله، فيقول: والله ما أعرفك، فيقول: أنت أخذت طينة من حائطي، وآخر يقول: أنت أخذت خيطًا من ثوبي. فهذا وأمثاله قطع قلوب الخائفين[٥].

كان الحسن يقول: رحم الله عبدًا جعل العيش عيشًا واحدًا، فأكل

---

(١) شرح رياض الصالحين: (٨/٧).
(٢) صفة الصفوة: (١٣٦/٤).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١٢١٩/٤).
(٤) الورع لعبد الله بن حنبل، ص ١٤٠.
(٥) الزهر الفائح، ص ٦٩.

كسرة، ولبس خَلَقًا، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة ابتغاء الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[١].

قال **سهل بن عبدالله**: من دقَّ الصراط عليه في الدنيا عرُضَ عليه في الآخرة، ومن عرض عليه الصراط في الدنيا دق عليه في الآخرة[٢].

وقد ترك ابن **سيرين** أربعين ألفًا، فيما لا ترون به اليوم بأسًا[٣].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال **العباس بن سهم**: إن امرأة من الصالحات أتاها نعي زوجها وهي تعجن، فرفعت يديها من العجين وقالت: هذا طعام قد صار لنا فيه شريك[٤].

تعني أنها ذهبت في ذلك إلى أمر الورثة ومن له حق في هذا المال!!

وعن ميمونة بنت مذعور قالت: نزل **مُورق العجلي** على غلام لامرأته يقال له: صغدي، فأتاه ببيض قد طبخه في قدر نحاس، فقال مورق: أنَّى لك هذه القدر يا صغدي؟ قال: رهن عندي، قال: ارفع عني بيضك، وأبى أن يأكل، وكره أن يستعمل الرهن[٥].

عن **أبي موسى الأشعري** ـ رضي الله عنه ـ قال: لأن يمتليء منخراي

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي: (٢/ ٦٥).
(٢) صفة الصفوة: (٤/ ٦٤).
(٣) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١٢٠.
(٤) الورع لابن أبي الدنيا، ص ٩٩.
(٥) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١٢٥.

من ريح جيفة، أحب إلي من أن يمتلئا من ريح امرأة[١].

ومن ذلك ما روى بعضهم أنه كان عند محتضر، فمات ليلاً فقال: أطفئوا السراج؛ قد حدث للورثة حق في الدهن.

وروى سليمان التيمي عن نعيمه العطارة قالت: كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يدفع إلى امرأته طيبًا من طيب المسلمين لتبيعه، فباعتني طيبًا فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكسر بأسنانها، فتعلَّق بأصبعها شيء منه، فقالت به هكذا بأصبعها، ثم مسحت به خمارها، فدخل عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: ما هذه الرائحة؟ فأخبرته فقال: طيب المسلمين تأخذينه، فانتزع الخمار من رأسها وأخذ جرَّة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه في التراب ثم يشمه، ثم يصب الماء ثم يدلكه في التراب ويشمه، حتى لم يبق له ريح، قالت: ثم أتيتها مرة أخرى فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها، فأدخلت أصبعها في فيها ثم مسحت به التراب. فهذا من عمر ـ رضي الله عنه ـ ورع التقوى، لخوف أداء ذلك إلى غيره، وإلا فغسل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين، ولكن أتلفه عليها زجرًا وردعًا واتقاء من أن يتعدَّى الأمر إلى غيره[٢].

وكان أحمد بن حنبل إذا نظر إلى نصراني غمَّض عينيه، فقيل له في ذلك؟ فقال: لا أقدر أن أنظر إلى من افترى على الله وكذب عليه[٣].

أَلا إنَّمـــا التقـــوى هـــو العـــزُّ والكـــرمْ
وحُبُّـــك للـــدُّنيـــا هـــو الـــذُّلُّ والعـــدمْ

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا، ص ٧٤.
(٢) الإحياء: (٢/ ١٠٩).
(٣) طبقات الحنابلة: (١/ ١٢).

وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ
إذا صحَّح التقوى وإن حاكَ أو حجم[1]

قال رجل للإمام **أحمد بن حنبل**: إني أُدعى أغسل الميت في يوم بارد فيفضل من الماء الحار، ترى أن أتوضأ منه؟ قال: لا، ذاك قد أُسخن بكلفة (كأنه ذهب إلى أمر الورثة).

وسُئل **أحمد بن حنبل** عمن سقطت منه ورقة فيها أحاديث، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردها؟ فقال: لا، بل يستأذن ثم يكتب. وهذا أيضًا قد يشك في أن صاحبها هل يرضى به أم لا، فما هو في محل الشك والأصل تحريمه فهو حرام، وتركه من الدرجة الأولى[2].

قال **ابن الجوزي**: أمكنني تحصيل شيء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص. فكنت كلما حصل شيء منه فاتني من قلبي شيء، وكلما استنارت لي طريق فاتني من قلبي شيء، وكلما استنارت لي طريق التحصيل، تجدد في قلبي ظلمة.

فقلت: يا نفس السوء، الإثم حواز القلوب، وقد قال: «**استفت قلبك**»، فلا خير في الدنيا كلها إذا كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب نوع كدرٍ.

وإن الجنة لو حصلت يقدح في الدين أو في المعاملة ما لذَّت، والنوم على المزابل مع سلامة القلب من الكدر ألذُّ من تكات الملوك.

وما زلت أغلب نفسي تارة وتغلبني أخرى، ثم تدَّعي الحاجة إلى

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص ٣٤٨.
(٢) الإحياء: (٢/١٠٩).

تحصيل ما لابد لها منه، وتقول: فما أتعدى في الكسب المباح في الظاهر.

فقلت لها: أوليس الورع يمنع من هذا؟ قالت: بلى.

قلت: أليست القسوة في القلب تحصل به؟ قالت: بلى. قلت: فلا خير لك في شيء هذا ثمرته.

فخلوت يومًا بنفسي، فقلت لها: ويحك: اسمعي أحدثك: إن جمعت شيئًا من الدنيا من وجه فيه شبهة أفأنت على يقين من إنفاقه؟

قالت: لا.

قلت: فالمحنة أن يحظى به الغير، ولا تنالين إلا الكدر العاجل، والوزر الذي لا يؤمن.

ويحك! اتركي هذا الذي يمنع من الورع لأجل الله، فعامليه بتركه. وكأنك لا تريدين أن لا تتركي إلا ما هو محرم فقط، أو ما لا يصح وجهه.

أو ما سمعت أن «**من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه**» أما لك عبرة في أقوام جمعوا فحازه سواهم، وأمَّلوا فما بلغوا مناهم؟

كم من عالم جمع كتبًا كثيرة ما انتفع بها! وكم من منتفع ما عنده عشرة أجزاء! وكم من طيب العيش لا يملك دينارين! وكم من ذي قناطير منغَّص!.

أما لك فطنة تتلمح أحوال من يترخص من وجه فيسلب منه من أوجه؟

ربما نزل المريض بصاحب الدار، أو ببعض من فيها، فأنفق في سنته أضعاف ما ترخص في كسبه، والمتقي معافىً.

فضجت النفس من لومي، وقالت: إذا لم أتعدَّ واجب الشرع فما الذي تريد مني؟

فقلت لها: أضنُّ لك عن الغبن، وأنت أعرف بباطن أمرك.

قالت: فقل لي ما أصنع.

قلت: عليك بالمراقبة لمن يراك، ومثِّلي نفسك بحضرة معظَّم من الخلق، فإنك بين يدي الملك الأعظم، يرى من باطنك ما لا يراه المعظمون من ظاهرك.

فخذي بالأحوط، واحذري من الترخُّص في بيع اليقين والتقوى بعاجل الهوى..

فإن ضاق الطبع مما تلقين، فقولي له: مهلاً، فما انقضت مدة الإشارة. والله مرشدك إلى التحقيق، ومعينك بالتوفيق(١).

سأل رجل **وكيعًا** عن المكاسب فضيَّقها عليه فقال: يا أبا سفيان! من أين نأكل؟ قال: كُلْ من رزق الله، وأرجُ عفو الله.

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ أحلَّ الطيبات وحرَّم الخبائث كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والأصل في الأشياء الإباحة حتى يدل الدليل على التحريم وهذا منَّة من الله ـ عز وجل ـ على عباده.

قال **الحسن**: إنَّ هذه المكاسب قد فسدت، فخذوا منها القوت، أي شبه المضطر(٢).

قال **أبو العباس بن عطاء**: تولَّد ورع المتورعين من ذكر الذرِّ والخردلة، وإن ربًّا يحاسب على اللحظة والهمزة واللمزة لمستقصي في

---

(١) صيد الخاطر، ص ٢١٥.

(٢) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١١٨.

المحاسبة، وأشد منه أن يحاسبه على مقادير الذرة وأوزان الخردلة، ومن يكن هكذا حسابه لحريٌّ أن يُتقى[١].

وتأمل - أخي المسلم - في واقعة عجيبة وفهم ثاقب ورؤية للآخرة بمنظار التقوى والورع!

خطب رجل إلى **الحسن** فكأن السفير بينهما قد رضيه، فذهب يومًا السفير يثني عليه بين يدي الحسن، فقال: يا أبا سعيد، وأزيدك أن له خمسين ألف درهم، قال: له خمسون ألفًا!! ما اجتمعت من حلال، قلت: يا أبا سعيد: إنه كما علمت ورع مسلم، قال: إن كان جمعها من حلال فقد ضنَّ بها عن حق، لا والله لا جرى بيننا وبينه صهر أبدًا[٢].

قالت **عائشة** - رضي الله عنها -: إن الناس قد ضيعوا أعظم دينهم الورع[٣].

قال **سعد بن إبراهيم بن سعد** حدثنا أبي قال: كنت أنا وسفيان الثوري في المسجد الحرام، قال: فكوَّم كومةً من حصباء، ثم اتكأ عليها، ثم قال: يا أبا إسحاق! هذا خير من أرضيهم.

وعندما أعطى ابن هبيرة **محمد بن سيرين** ثلاث عطيات، أبى أن يقبل.

قال قتادة: كان **معيقيب** - رضي الله عنه - على بيت مال عمر - رضي الله عنه - فكنس بيت المال يومًا فوجد فيه درهمًا، فدفعه إلى ابن لعمر، قال معيقيب: ثم انصرفت إلى بيتي، فإذا رسول عمر قد جاءني يدعوني،

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي، ص ٣١٥.
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ١٥١).
(٣) الزهد للإمام أحمد، ص ٢٩٧.

فجئت فإذا الدرهم في يده فقال لي: ويحك يا معيقيب! أوجدت عليَّ في نفسك شيئًا؟! قال: قلت: ماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: أردت أن تخاصمني أمةُ محمد ﷺ في هذا الدرهم(١).

وانظر إلى من ابتلاهم الله ـ عز وجل ـ بأموال المسلمين كيف هم وإياها.. والناس في هذا الأمر بين مقُلٍّ ومستكثر وأمامهم الحساب الشديد والإحصاء الدقيق!

* قال **وهيب بن الورد**: من لم يكن فيه ثلاث فلا يعتد بعمله شيئًا: ورع يحجزه عما حرم الله، وحلم يكف به السفيه، وخلق يداري به الناس(٢).

وقال أبو سنان إن **عمر بن عبدالعزيز** كان يُسخَّن له الماء في مطبخه، فقال لصاحب المطبخ: أين يسخن هذا الماء؟ قال: في المطبخ، قال: انظر منذ كم تسخنه في المطبخ فأخبرني به، قال: منذ كذا وكذا، قال: انظر ما ثمن ذلك الحطب، قال: كذا وكذا، فأخذه عمر فألقاه في بيت المال(٣).

قال الحكم بن الأعرج إن رجلاً قدم بساج له فساومه به زياد فلم يبعه منه، فغصبه إياه، فبنى به ظُلَّةً في المسجد، قال: فما رؤي أبو بكرة يصلي فيه حتى هُدم(٤).

ودخل **ابن محيرز** على رجل من البزازين يشتري منه ثوبًا، فقال له

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١٢٦.
(٢) الزهد الكبير للبيهقي، ص ٣١٠.
(٣) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١٢٤.
(٤) الورع لابن أبي الدنيا، ص ١٢٥.

رجل: أتعرف هذا؟ هذا ابن محيرز، فقام وقال: إنما جئنا نشتري بدراهمنا ليس بديننا[١].

وكثير هم الذين اشتروا اليوم بدينهم! حتى أصبح العلم لبوس كل جاهل ومتعالم!.

قال **عبد الله بن أحمد بن حنبل**: كنت مع أبي يومًا من الأيام في المنزل، فدق الباب قال لي: اخرج، فانظر من بالباب، قال: فخرجت فإذا امرأة، قالت لي: استأذن لي على أبي عبدالله، تعني أباه، قال فاستأذنته، فقال: ادخلها، فدخلت فجلست، فسلمت عليه، وقالت له: يا أبا عبدالله، أنا امرأة أغزل بالليل في السراج فربما طفىء السراج فأغزل في القمر. فعليَّ أن أبين غزل القمر من غزل السراج؟ قال: فقال لها: إن كان عندك بينهما فرق فعليك أن تبيِّني ذلك، قال: قالت له: يا أبا عبدالله، أنين المريض شكوى؟ قال: أرجو أن لا يكون شكوى، ولكنه اشتكاه إلى الله، قال فودعته وخرجت. قال فقال لي: يا بني، ما سمعت قط إنسانًا يسأل عن مثل هذا، اتبع هذه المرأة، فانظر أين تدخل؟ قال: فتبعتها، فإذا هي قد دخلت إلى بيت بشر بن الحارث وإذا هي أخته، قال: فرجعت، فقلت له، فقال: مُحالٌ أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر[٢].

والورع الذي نجول في أطرافه ونسمع عجائبه وحكايته.. إمام الزهد والورع يقول تورعًا.. لا أعرفه!

---

(١) حلية الأولياء: (٥/١٣٨).

(٢) طبقات الحنابلة، ص ٤٢٧.

قيل **للإمام أحمد بن حنبل**: هل للورع حدٌّ يعرف؟ فتبسم وقال: ما أعرفه[١].

وإذا أردت أن تعرف الورع من نفسك فعليك بقول الفقيه السمرقندي: علامة الورع أن يرى **عشرة أشياء** فريضة على نفسه:

أولها: حفظ اللسان عن الغيبة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

والثاني: الاجتناب عن سوء الظنِّ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولقول النبي ﷺ: «**إياكم والظن فإنه أكذب الحديث**».

والثالث: الاجتناب عن السخرية؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

والرابع: غض البصر عن المحارم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

والخامس: صدق اللسان؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والسادس: أن يعرف نعمة الله على نفسه لكي لا يُعجب بنفسه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات: ١٧].

والسابع: أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ يعني لم ينفقوا في

---

(١) الورع لأحمد بن حنبل، ص ٤.

المعصية ولم يمنعوا من الطاعة، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧] أي عدلاً.

والثامن: أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

والتاسع: المحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها بركوعها وسجودها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والعاشر: الاستقامة على السنة والجماعة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣][1].

قال **أبو الحسين الزنجاني**: من كان رأس ماله التقوى كلّت الألسن عن وصف ربحه[2].

قال **الحسن**: أبى قومٌ المداومة، والله ما المؤمن بالذي يعمل شهراً أو شهرين أو عامًا أو عامين، لا والله ما جُعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت[3].

أخي المسلم:

مررنا على صور عجيبة من صور الورع والبعد عن الحرام فقرَّت الأنفسُ وهنأت الصدور بهذا الامتثال العجيب والرغبة فيما عند الله ـ عز وجل ـ. ويبقى بعد ذلك اقتفاء الأثر والسير على خطى الصالحين

---

(١) تنبيه الغافلين، ص ٤٥.

(٢) الزهد للبيهقي، ص ٣٣٥.

(٣) الزهد للإمام أحمد، ص ٣٨٥.

مستهدين بالآية والحديث حتى ينصلح الحال ونحطَّ الرحال، ويسهل الحساب غدًا أمام الملك المتعال.

جعلني الله وإياكم ممن يتبعون الحق ويهتدون به، وأعاننا على أنفسنا، وثبت أقدامنا حتى نلقاه، اللهم اغفر لنا ولوالدينا وأزواجنا وأحبابنا والمؤمنين أجمعين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

من تواضع لله رفعه

المقدمـــة

الحمد لله الذي له الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

وبـــعد:

فإن من صفات المؤمنين الإنابة والإخبات والتواضع وعدم الكبر. ومن استقرأ حياة نبي هذه الأمة يجد فيها القدوة والأسوة، ومن تتبع حياة السلف الصالح رأى ذلك واضحاً جلياً..

وهذا هو الجزء «العشرون» من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» تحت عنوان: «**من تواضع لله رفعه**» أدعو الله ـ عز وجل ـ أن يزيننا بزينة الإيمان وأن يجعلنا أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين وأن يقينا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخـل

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص: ٨٣].

قال **عكرمة**: العلو: التجبر.

وقال **سعيد بن جبير**: بغير حق.

وقال **ابن جريج**: ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ تعظماً وتجبراً.

وعن **علي** ـ رضي الله عنه ـ قال: إن الرجل ليُعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾؛ وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره(١).

وقال الله ـ عز وجل ـ حاثاً على مكارم الأخلاق ومحذراً من الكبر والعجب: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

قال الشيخ **عبد الرحمن بن السعدي**: بلين جانبك، ولطف خطابك، وتوددك إليهم، وحسن خلقك، والإحسان التام بهم(٢).

وقال ـ تعالى ـ حكاية عن لقمان عليه السلام وهو يعظ ابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) ﴾ [لقمان: ١٨].

قال **ابن عباس**: لا تتكبر، فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم إذا كلّموك(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٤٠٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٤٨.

(٣) فتح القدير: (٤/٣٠١).

ونجد في القرآن الكريم آيات تمدح المتواضعين وتتوعد المتكبرين وتبيّـن أن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالعبرة بالتقوى وليست بالعلم أو المال أو الحسب أو السلطان، فإن اقترن واحدٌ من هذه بالتقوى كان خيراً عظيماً وإن عري عنها كان سبباً لاستحقاق العذاب الأليم، فكم من مال أودى بصحابه في المهالك، وكم من سلطان يكون في النار مع فرعون وهامان، وكم من عالم تُسعرّ به النار قبل غيره، فالتقوى هي قطب الرحى في جميع الأمور، وليس لأي من تلك الأمور السالفة فضيلة إلا باقترانها بالتقوى[١].

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]: منزلة «**التواضع**».

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] أي بسكينة ووقار، متواضعين، غير أشرين، ولا مَرِحين ولا متكبرين.

قال **الحسن**: عُلماء حلماء.

وقال **محمد بن الحنفية**: أصحاب وقار وعفة لا يسفَهون، وإن سُفه عليهم حلموا[٢].

قال الشيخ **عبد الرحمن السعدي**: ذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم يمشون على الأرض هوناً، أي

---

(١) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، ص١٢.
(٢) مدارج السالكين، ص ٣٤٠.

ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة، والتواضع لله ولعباده[١].

والتواضع علامة حُبِّ الله للعبد كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [التواضع: ٥٤].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليِّه، متعزِّزاً على خصمه وعدوه[٢].

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر**» فقال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة؟ قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[٣].

وبطر الحق: هو دفعه ورده على قائله، أما غمط الناس: فهو احتقارهم وإزدراؤهم.

وعن عياض بن حمارٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ**»[٤].

---

(١) تفسير السعدي: (٥/٥٩٣).
(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٧٣).
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ألا أخبركم بأهل النار؟: كل عُتل جَوَّاظٍ مستكبرٍ**»[١].

*** وفي سيرته ﷺ دروس في التواضع:**

فقد كان ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله.

ولم يكن ﷺ ينتقم لنفسه قط.

وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، ولو إلى أيسر شيء.

وكان ﷺ هين المؤنة، ليِّن الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بسَّاماً، متواضعاً من غير ذِلَّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، ليِّن الجانب لهم.

وكان ﷺ يعود المريض. ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

---

(١) متفق عليه.

وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف على إكاف من ليف[١].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبيُّ ﷺ يُدعى إلى خبز الشعيرِ والإهَالةِ السَّنِخةِ فيجيبُ، ولقد كان له دِرعٌ عندَ يهودي فما وجد مَا يَفُكُّها حتى مات»[٢].

وكان من تواضعه ﷺ ما رواه أنس بقوله: «**كان ﷺ يُؤتى بالتمر فيه دُود فيفشَّه، يخرج السوس منه**»[٣].

وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين**»[٤].

يقول **ابن الأثير**: أراد به التواضع والإخبات، وأن لا يكون من الجبارين المتكبرين[٥].

ولهذا قالت **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ: إنكم تغفلون عن أفضل العبادات: التواضع[٦].

قال **حمدون القصار** في تعريف التواضع: التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة، لا في الدين ولا في الدنيا[٧].

---

(١) مدارج السالكين، ص٣٤١. وانظر: الشمائل المحمدية للترمذي، ص ٢٨٤ وما بعدها. وفي سيرة الرسول ﷺ مواقف عظيمة في التواضع ولين الجانب وحسن الخلق.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) صحيح الجامع: (١/ ٢٧١).

(٤) حسن انظر الصحيحة برقم ٣٠٨.

(٥) مدارج السالكين، ص٣٤٤.

(٦) رواه البخاري.

(٧) رواه أبو داود وصححه الألباني.

وعندما سُئل **الفضيل بن عياض** عن التواضع؟ قال: يخضع للحق، وينقاد له ويقبله ممن قاله.

وقيل: **التواضع** أن لا ترى لنفسك قيمة. فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وقيل: **التواضع**: هو خفض الجناح، ولين الجانب.

وقيل: هو أن لا يرى لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى في الخلق شراً منه.

وقال **ابن عطاء**: هو قبول الحق ممن كان. والعِزُّ في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كتَطلُّبِ الماء من النار(١).

قال صاحب المنازل:

التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق.

يعني: أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقِّه بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه. فبهذا يحصل للعبد خُلق التواضع. ولهذا فسر النبي ﷺ الكبر بضده فقال: «**الكبر بَطْر الحق، وغَمط الناس**».

«**فبطر الحق**» رَدُّه وجَحده، والدفع في صدره؛ كدفع السائل. و«**غمط الناس**» احتقارهم وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراهم ـ دفع حقوقهم. وجحدها، واستهان بها.

ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة كانت النفوس المتكبرة لا تُقِرُّ له بالصولة على تلك الصولة التي فيها، ولاسيما النفوس المبطلة فتصول

---

(١) مدارج السالكين، ص٣٤٢.

على صولة الحق بكبرها وباطلها. فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها، فلا يقابلها بصولته عليها[١].

ولعظم عقوبة التكبر والخيلاء حتى في أمرٍ يراه الناس يسيراً قال رسول الله ﷺ: «**من جَرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»[٢].

وفي الحديث الآخر قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[٣].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: التكبر شرٌّ من الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله ـ تعالى ـ، والمشرك يعبد الله وغيره[٤].

وقال **الفضيل** عندما سُئل عن التواضع ما هو؟ قال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته[٥].

وعلى هذا القياس قلَّ أهل التواضع في زماننا!! وهم أندر من الكبريت الأحمر! فتأمل من يقبل الحق من صبي أو من جاهل أو فقير؟!

ولهذا قيل عن التواضع: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب.

قال **يوسف بن أسباط**: يجزي قليل الورع من كثير العمل، ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد[٦].

---

(١) مدارج السالكين، ص٣٤٦.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه مسلم.
(٤) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية: (١/ ١٦).
(٥) الإحياء ٣/ ٣٦٢.
(٦) الإحياء: (٣/ ٣٦١).

وقال **يحيى بن كثير** مفصلاً الأمر: رأس التواضع ثلاث: أن ترضى بالدُّون من شرف المجلس، وأن تبدأ من لقيته بالسلام، وأن تكره المدحة والسمعة والرياء بالبر(١).

وتأمل هذه الثلاث في نفسك وانظر أين مكانك الذي تُحب في المجلس؟ أهو صدر المجلس وتحب أن تُعظَّم ويُفسح لك ويشار إليك بالأيدي أم هو نهاية المجلس.. والتواضع وعدم حب الظهور؟

ثم تأمل في حال السلام تجد العجب في عدم إلقائه بحرارة وشوق خاصة على الفقراء والعمال والصغار!!

وثالثة الأثافي حبك للمدح والثناء، بل ربما ـ والعياذ بالله ـ بادرت في صدر كل مجلس بذكر تبرعك وصيامك وحجك وجهدك وخدمتك لهذا الدين ثم تُعرج على تعبك ونصبك لإصلاح الناس!

كان **علي بن الحسن** يقول: عجبت للمتكبر الفَخور الذي كان بالأمس نُطفة ثم هو غداً جيفة، وعجبت كل العجب لمن شك في الله وهو يرى خلقه، وعجبت كل العجب لمن أنكر النشأة الأولى، وعجبت كل العجب لمن عمل لدار الفناء وترك دار البقاء(٢).

والمصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه، وهذه محنة قد عمَّت أكثر الخلق:

فترى اليهودي أو النصراني يرى أنه على الصواب، ولا يبحث ولا

---

(١) التواضع والخمول، ص ١٥٥.
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٩٥).

ينظر في دليل نبوة نبينا ﷺ، وإذا سمع ما يُلِين قلبَه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع.

وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه، إما لأنه مذهب أبيه وأهله، أو لأنه نظر نظراً أول فرآه صواباً، ولم ينظر فيما يناقضه، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه[١].

قال **الحسن**: هل تدرون ما التواضع؟ التواضع: أن تخرج من منزلك فلا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً[٢].

ومن منا الآن يطبق هذا القول على نفسه؟! وينزلها تلك المنزلة؟!

بل البعض يأخذه العجب والتيه على عباد الله لدنياً أو علم أو جاه.. وكلها منح وعطايا من الله ـ عز وجل ـ. ومثلما أعطاها إياه فهو سبحانه قادر على أن يسلبها منه في طرفة عين!.

عندما سُئل **عبدالله بن المبارك** عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك[٣].

وقال **أبو علي الجوزجاني**: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله ـ تعالى ـ هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله ـ تعالى ـ به خيراً لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله ـ تعالى ـ، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله ـ عز وجل ـ، وإذا هاجت في نفسه نار

(١) صيد الخاطر، ص٥٩٢.
(٢) التواضع والخمول، ص١٥٤.
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/٢٧٨).

الحرص أدركتها القناعة مع عون الله ـ عز وجل ـ[(١)].

قال **ابن الحاج**: من أراد الرفعة فليتواضع لله ـ تعالى ـ، فإن العزة لا تقع إلا بقدر النزول، ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أصل الشجرة صعد إلى أعلاها، فكأن سائلاً سأله: ما صعد بك هنا ـ أعني في رأس الشجرة وأنت تحت أصلها؟! فكأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه[(٢)].

والفرق بين التواضع والمهانة: أن **التواضع** يتولَّد من بين العلم بالله ـ سبحانه ـ ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عمله وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلقٌ هو التواضع، وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قِبَله، وهذا خلق إنما يعطيه الله ـ عز وجل ـ من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما **المهانة**: فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السُّفَّل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، **فهذا كله** ضِعَة لا تواضع، والله ـ سبحانه ـ يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة[(٣)].

قال **سفيان بن عيينة**: من كانت معصيته في شهوة فَارْجُ له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر فَاخْشَ

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٦٢.
(٢) المدخل لابن الحاج: (٢/ ١٢٢).
(٣) كتاب الروح، ص٢٧٣.

عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعن[١].

وآفة حب الثناء والمدح التي يحبها البعض بل ويبحث عنها ويحث عليها - ما موقعها بين حال السلف؟! وعلى أي حال كانوا يقبلونها؟! وأي منزلة يُنزلونها؟!.

قال **مطرف بن عبدالله**: ما مدحني أحد قط إلا تصاغرتُ إلى نفسي[٢].

وما ذاك إلا لمعرفتهم بحقارة أنفسهم في جنب الله، وتواضعهم لجلاله، ومحاسبة أنفسهم ومعرفتهم بتقصيرهم وزللهم!!

أخـي المسـلم:

عجبت لمن يعجب بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمره.. إنما أوله لقمة، ضُمَّت إليها جرعة ماء، فإن شئت فقل كسيرة خبز، معها تمرات، وقطعة من لحم، ومَذْقَة من لبن، وجرعة من ماء، ونحو ذلك، طبخته الكبد، فأخرجت منه قطرات مَنيّ، فاستقر في الأنثيين، فحركتها الشهوة، فصُبَّت في بطن الأم مدة، حتى تكاملت صورتها، فخرجت طفلاً، تتقلب في خرق البول.

وأما آخره: فإنه يُلقى في التراب، فيأكله الدود، ويصير رفاتاً تَسْفيه السّوافي. وكم يخرج تراب بدنه من مكان إلى مكان آخر، ويقلب في أحوال، إلى أن يعود فيُجمع. هذا خبر البدن.

إنما الروح التي عليها العمل، فإن تجوهرت بالأدب، وتقوَّمت بالعلم، وعرفت الصانع، وقامت بحقه، فما يضرها نقض المركب. وإن

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٤٧.

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ٢٢٣).

هي بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين، بل صارت إلى أخس حالة منه[١].

أخـــي المســـلم:

حقيـــق بـــالتـــواضـــع مـــن يمـــوت
وحَســـب المـــرء مـــن دنيـــاه فـــوت[٢]

قال **أحمد ابن الورد**: وليُّ الله إذا زاد جاهُه زاد تواضعه، وإذا زاد ماله زاد سخاؤه، وإذا زاد عمره زاد اجتهاده[٣].

وقال **ابن المبارك**: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تُعْلِمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

أخـي الحبيـب:

كيف هو قلبك؟ أمع الفقراء والمساكين والمعدمين؟! محِّص نفسك بقول **يحيى بن معاذ**: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين[٤].

ولا تحقرن أحداً فإن من هؤلاء الضعفاء والمساكين من له منزلة عظيمة

---

(١) صيد الخاطر، ص ٤٥٧.
(٢) التبصرة: (١/ ٢).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ٣٩٥).
(٤) الإحياء: (٤/ ٢١١).

عند الله ـ عز وجل ـ كما قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه**»[١].

وعنه ﷺ أنه قال: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**»[٢].

قال **خالد بن معدان**: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس في جنب الله أمثال الأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أحقر حاقر[٣].

أخـــي المســـلم:

من اتقى الله ـ تعالى ـ تواضع له، ومن تكبر كان فاقداً لتقواه، ركيكاً في دينه، مشتغلاً بدنياه، فالمتكبر وضيع وإن رأى نفسه مرتفعاً على الخلق، والمتواضع وإن رؤي وضيعاً فهو رفيع القدر:

تـــواضـــع تكـــن كـــالنجـــم لاح لنـــاظـــرٍ
علـــى صفحـــات المـــاء وهـــو رفيـــعُ
ولا تَـــكُ كـــالـــدخـــان يعلـــو بنفســـه
إلـــى طبقـــات الجـــو وهـــو وضيـــعُ

ومن استشعر التواضع وعاشه كره الكبر وبواعثه[٤].

وتأمل في حال من تلبَّسه الشيطان في حالة واحدة من حالات الكبر يظنها بعض الناس يسيرة وهي عند الله عظيمة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حُلةٍ تعجبه نفسه، مَرجِّل رأسه**[٥]**، يختال في**

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) السير: (٤/ ٥٣٩).
(٤) التواضع والخمول، ص١٢.
(٥) مرجل رأسه: أي ممشطه.

مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل[١] **في الأرض إلى يوم القيامة»**[٢].

وتأمل في حالات كثيرة من المتكبرين من الرجال والنساء لجدة مركب أو شهرة ثوب أو لجاه ومنصب! وتلحظ بعض الناس تتغير شخصيته وطريقة حديثه وخطوات ممشاه إذا لبس جديداً أو اقتنى فانياً من حطام الدنيا!!

وقد ذم الله ـ عز وجل ـ الكبر في آيات كثيرة فقال ـ تعالى ـ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر: ٣٥]. ومن تدبر القرآن خشي على نفسه من هذه الآفة العظيمة.

ولنا في حال **أبي بكر** ـ رضي الله عنه ـ وهو الصديق خليفة رسول الله ﷺ عبرة وعظة ودرس وتربية: عن **ابن أبي مليكة** قال: كان ربما سقط الخِطَام من يد أبي بكر الصديق، قال: فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه قال: فقالوا له: أفَلا أمرتنا نناوِلُكَه؟ قال: إن حِبِّي ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً[٣].

ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه.

وقال **زياد النمري**: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر.

وكان السلف ـ رحمهم الله ـ يجاهدون أنفسهم ويحقرونها في جنب الله ـ عز وجل ـ حتى أن أحدهم يتأهب للمنادي!

---

(١) يتجلجل: أي يغوص وينزل.

(٢) متفق عليه.

(٣) صفة الصفوة: (١/ ٢٥٣).

قال مالك بن دينار: لو أن منادياً ينادي بباب المسجد: لِيخرجْ شرُّكم رجلاً، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوّة أو سعي.

قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكاً.

وقال الفضيل: من أحب الرئاسة لم يفلح أبداً[1].

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟!

قال علي بن ثابت: ما رأيت سفيان الثوري في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط ويستند إلى الحائط ويجمع بين ركبتيه[2].

وعندما قيل لأبي عبدالله ـ إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: ما أكثر الداعين لك؟ فتغرغرت عينه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً.

ولو قيلت هذه الكلمة لبعض الناس اليوم .. لأطلق ضحكة تجلجل واتبعها ما قام به من أعمال في سبيل هذا الدين وعدَّ كل شاردة وواردة! وكل ذلك رفعة ومباهاة مع جهل وغفلة!

قال يونس بن عبيد: دخلنا على محمد بن واسع نعوده فقال: وما يغني عني ما يقول الناس، إذا أُخذ بيدي ورجلي فألقيت في النار؟!

وقال يونس: قلت لأبي عبدالله (يعني أحمد بن حنبل) أن بعض المحدثين قال لي: أبو عبدالله ليزهد في الدراهم وحدها، قد زهد في الناس. فقال أبو عبدالله ومن أنا حتى أزهد في الناس! الناس يريدون يزهدون فيَّ.

---

(١) الإحياء: (٣/ ٣٦١).

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١٤٧).

* وقال **أبو عبدالله**: أسأل الله أن يجعلنا خيراً مما يظنون، ويغفر لنا ما لا يعلمون[١].

ومن تواضع أهل الطاعة والعبادة وعدم تزكيتهم أنفسهم ما قاله **محمد بن واسع** عن نفسه وهو عَلَمٌ من الأعلام وعابد من العباد: لو كان للذنوب ريح ما جلس إليَّ أحد[٢].

وكان **أيوب السختياني** يقول: إذا ذُكر الصالحون كنت عنهم بمعزل[٣].

وقال **الشافعي**: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله[٤].

ولهذا التواضع وإنزال النفس منزلتها قال **أبو حاتم**: الواجب على العاقل لزوم التواضع ومجانبة التكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تحمله إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة ـ لكان الواجب عليه أن لا يتزيَّا بغيره.

ولأثر الكبر السيء وسوء فعله في الأنفس والعقول قال **محمد بن الحسين بن علي**: ما دخل قلب امريء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلَّ أو كثر[٥].

---

(١) الورع لأحمد بن حنبل، ص١٥٢.
(٢) السير: (٦/١٢٠)، صفة الصفوة: (٣/٢٦٨).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١٠/١٣١).
(٤) السير: (١٠/٩٩).
(٥) الإحياء: (٣/٣٥٨).

أخي الحبيب:

التواضع تواضعان: أحدهما محمود، والآخر مذموم.

فالتواضع المحمود: ترك التطاول على عباد الله، والإزدراء بهم.

والتواضع المذموم: هو تواضع المرء لذي الدنيا رغبةً في دنياه.

فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم على الأحوال كلها، ولا يفارق التواضع المحمود على الجهات كلها[١].

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ في كتابه مدارج السالكين في منزلة الخشوع:

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام **ابن تيمية** ـ قدس الله روحه ـ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: ما لي شيء ولا مني شيء ولا فيَّ شيء. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنـــــا المكـــــدي وابـــــن المكـــــدّي
وهكـــــــذا أبـــــــي وجـــــــدي

هذه إجاباتهم وهذا تواضعهم وهم أئمة هذا الدين وعلماء زمانهم، ولهم البلاء والجهاد المعلوم المعروف.. فما يقول من هو دونهم علماً وعبادة؟!

وكان إذا أُثني عليه ـ رحمه الله ـ في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أُجدِّد إسلامي كل وقت وما أسلمتُ بعد إسلاماً جيداً.

قال **محمد بن زهير**: أتيت أبا عبدالله **(أحمد بن حنبل)** في شيء أسأله عنه فأتاه رجل فسأله عن شيء، أو كلمه في شيء، فقال له: جزاك الله عن الإسلام خيراً فغضب أبوعبدالله وقال له: من أنا حتى يجزيني عن الإسلام

---

(١) روضة العقلاء، ص ٥٩.

خيراً، بل جزى الله الإسلام عني خيراً[(١)].

إن التـــواضـــع مـــن خصـــال المُتقـــي
وبـــه التقـــي إلـــى المعـــالـــي يـــرتقـــي
ومـــن العجـــائـــب عجـــب مَـــن هـــو جـــاهـــل
فـــي حـــالـــه أهـــو السعيـــد أم الشقـــي

وفي كلمات واضحة لأمثالنا من أهل الذنوب والمعاصي، أصحاب الكسل والغفلة قال **ابن المبارك**: إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير عند نفسه أذل من الكلب[(٢)].

وقال **سفيان**: إذا عرفت نفسك لم يضرك ما قال الناس[(٣)].

أخـي المسـلم:

أول ذنب عُصي الله به أبوالثقلين: الكبر والحرص. فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه. وذنب آدم على نبينا وعليه السلام: كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية، وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار: إبليس.

وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدر: مع أبيهم آدم في الجنة.

---

(١) طبقات الحنابلة: (١/٢٩٨).
(٢) حلية الأولياء: (٨/١٦٨).
(٣) الزهد للإمام أحمد، ص ٥٠٧.

ونِعَم الله ـ عز وجل ـ التي يغدقها على العباد قد تتحول من نعمة إلى نقمة ومن خير إلى شر إذا صُرفت في غير مصرفها الصحيح وطريقها الشرعي، قال **قتادة**: من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثياباً أو علماً؛ ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة[١].

ولأن مما شاع في هذه الأيام المباهاة بالمآكل والمشارب والملابس والمراكب حتى أصبحت شغل الكثير وأضاعت من الأموال الكثير..

وقد قال رسول الله ﷺ: «**البذاذة من الإيمان، البذاذة من الإيمان، البذاذة من الإيمان**»[٢].

قال **عبد الله** (ابن أحمد بن حنبل) سألت أبي قلت: ما البذاذة؟ قال: التواضع في اللباس[٣].

وأثر التواضع في الدنيا محسوس ملموس.

قال **أبو حاتم** ـ رضي الله عنه ـ: التواضع يرفع المرء قدراً، ويعظم له خطراً، ويزيده نُبلاً[٤].

وقد حرصوا على طلب مرضاة الله ـ عز وجل ـ بالتواضع ونفي الكبر والبعد عنه وأخذ النفس على الحق.

قال **بكر بن عبدالله** (المزنى): إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت

---

(١) التواضع والخمول، ص ١٤٢.
(٢) رواه الحاكم وابن ماجة وأبوداود.
(٣) الزهد للإمام أحمد، ص ٢٠.
(٤) روضة العقلاء، ص٦٠.

إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضل أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا ذنب أحدثته.

هذا في أمر الآخرة أما أمر الدنيا وشرفها فكما قال **عروة بن الزبير**: التواضع أحد مصائد الشرف، وكل ذي نعمة محسود عليها إلا التواضع. لأنها تثمر ثمرة يَشرُف المرء بها على قومه ومن حوله؛ وذلك طاعة لله - عز وجل -، وامتثالاً لأمره، ومعرفة بنعمته وفضله.

قال بعض الحكماء: ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة.

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟

كان **الحسن بن علي** - رضي الله عنهما -: يمر بالسُّؤال وبين أيديهم كسر، فيقولون: هلمَّ إلى الغداء يا ابن رسول الله، فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب، ويقول: إن الله لا يحب المستكبرين[١].

وكان **عثمان** - رضي الله عنه - يلي وضوء الليل بنفسه، فقيل له: لو أمرت بعض الخدم فكفوك، قال: لا. الليل لهم يستريحون فيه[٢].

وعن عمرو بن قيس: أن **علياً** - رضي الله عنه - رُئي عليه إزار مرقوع فعوتب في لَبُوسه، فقال: يقتدي به المؤمن، ويخشع القلب[٣].

قال **نوح عليه السلام** لابنه سام: يا بني لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله فإنه من يأت الله مشركاً فلا حجة له، ويا بني لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الكبر فإن الكبرياء رداء الله - عز

---

(١) الإحياء: (٢/ ٢٦٢).

(٢) تأريخ الخلفاء، ص ١٥٣.

(٣) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ص١٦٥.

وجل ـ فمن ينازع الله رداءه يغضب عليه، ويا بني لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من القَنط فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال[١] .

وللمسرفين والمسرفات والمبذرين والمبذرات في فستان يُلبس ليلة واحدة، أو حلي للمباهاة والمفاخرة؛ إليهم نصح الخليفة الزاهد عمر بن العزيز لأحب وأقرب الناس إليه. .

فقد بلغ **عمر بن عبدالعزيز** أن ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فإذا أتاك كتابي، فَبع الخاتم وأشبع به ألف بطن، وأتخذ خاتماً بدرهمين، واجعل فصَّه حديداً حينياً، واكتب عليه: «رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه».

ولو فعل البعض مثل ذلك أو قريباً منه لما مات جائع مسلم في آسيا. . ولما تنصرت أم مسلمة في أفريقيا. . ولما أُغتصبت فتاة مسلمة في أوربا. . والله المستعان. . البعض يهنأ بالمراكب والفرش والحرير وإخوانه يموتون جوعاً وهو يرى ويسمع. . ووسائل الإعلام تقيم عليه الحجة ليلاً ونهاراً. . فما عذره أمام الله ـ عز وجل ـ؟!

قال **الحسن**: والله لقد أدركت أقواماً ما طُوي لأحدهم في بيته ثوب قط، ولا أمر في أهله بصنعة طعام، وما جُعل بينه وبين الأرض شيء قط[٢] .

والنفس المؤمنة إذا ما تشبَّعت بالمعاني الإسلامية والأخلاق الفاضلة، فلن تترك خلق التواضع إلى الكبر، وذلك لأن الكبر ينافي تلك المبادئ

---

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد، ص ٨٨.

(٢) حلية الأولياء: (٢/ ١٤٦).

التي تربى عليها الإنسان المسلم، فالمسلم يرفض التكبر لأنه إما أن يكون على العباد أو على الله ـ تبارك وتعالى ـ، وهو في كليهما مذموم، بل ومتوعَّد فاعله بصنوف العذاب كما جاء ذلك في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النحل: ٢٣] وغير ذلك من الآيات[١].

فالتكبر على الخالق إذاً يكون بمنازعته إحدى صفاته من كبرياء وعظمة أو بالتكبر عن عبادته. أما التكبر على الخلق فهو صنوف كثيرة توهم صاحبها بأنه أعلى رتبة من البشر، ويعامل نفسه على تلكم الوتيرة حتى يفضي به ذلك إلى مرض نفسي خطير يُدعى بمرض العظمة. فمن تلك الصنوف أن يتكبر العبد بحسبه ونسبه، أو بقوته وسطوته إن كان ذا سلطان أو بماله، أو بجماله، أو بعلمه، فهذه الأمور تكون من دواعي الكبر عند من لم يخالط الإيمان قلبه ولا اطمأنت بالسكينة نفسه.

والتواضع لله ـ عز وجل ـ على ضربين:

أحدهما: تواضع العبد لربه عندما يأتي من الطاعات غير معجَب بفعله، ولا راءٍ له عندهُ حالةً يوجب بها أسباب الولاية، إلا أن يكون المولى عز وجل هو الذي يتفضل عليه بذلك، وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العُجب عن الطاعات.

---

(١) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، ص١٠.

قال رسول الله ﷺ: **«ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**[(١)].

قال النووي: **«وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»** فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه الله في الدنيا، ويُثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويُحلّ مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا[(٢)].

والتواضع الآخر: هو ازدراء المرء نفسه واستحقاره إياها عند ذكره ما قارف من المآثم حتى لا يرى أحداً من العالم إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات وفوقه في الجنايات[(٣)].

أخـــي المسـلم:

كل ما تراه من مباهج الدنيا وزينتها وقَضِّها وقَضِيضِها إنما هو ظل زائل وراكب مرتحل.

قال **الإمام أحمد** رحمه الله ـ تعالى ـ: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل[(٤)].

خلقـــان لا أرضـــى طـــريقهمـــا

بطـــر الغنـــي ومـــذلـــة الـــدهـــر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) شرح مسلم للنووي: (١٦/١٤٣).

(٣) روضة العقلاء، ص٦٠.

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح: (٢/٢٣٩).

فـــــإذا غنيـــــت فــــــلا تكـــــن بطـــــراً
وإذا افتقـــرت فَتِهـــه علـــى الـــدهـــر[١]

كان الربيع بن خيثم إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا يزيد؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا.

أخي الحبيب: أين نحن من هؤلاء؟!

لما خرج أحمد بن حنبل إلى عبدالرازق انقطعت به النفقة، فأكرى نفسه من بعض الجمالين إلى أن وافى صنعاء، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئاً[٢].

وهذا الصديق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ صاحب رسول الله ﷺ ورفيق جهاده ودعوته والمبشر بالجنة يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن[٣].

وقال عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ: رأيت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على عاتقه قربة ماء، فقلتُ: يا أمير المؤمنين! لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها[٤].

وعن ميمون بن مهران قال: أخبرني الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ على بغلة وخلفها عليه غلامه نائل وهو خليفة.

وقال أيضاً: رأيت عثمان ـ رضي الله عنه ـ نائماً في المسجد في

---

(١) البداية والنهاية: (١١/ ١٦٤).
(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٣٤١)، السير: (١١/ ٢٠٦).
(٣) الزهد للإمام أحمد، ص ١٦٢.
(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٠).

ملحفة، ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين.

أما ذلك الصحابي صاحب المال الوفير والثروة الطائلة والإنفاق الواسع **عبدالرحمن بن عوف** ـ رضي الله عنه ـ فإنه كان لا يُعرف من بين عبيده، من التواضع في زيه وملبسه.

قـــــد يـــــدرك الشـــــرف الفتـــــى ورداءة
خَلِـــقٌ، وجيـــــبُ قميصـــــه مـــــرقـــــوع[١]

فلقد خلق الله الإنسان وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وألبسه حلة الإيمان، وزيّنهُ بأنواع الفضائل وذلك تتميماً لتكريمه وتفضيله.

والفضائل تلك هي أخلاق رفيعة تحمل صاحبها على السير بين الناس بسيرة حسنة من صدق، وكرم، ومروءة، وحب في الله، وحب الخير، وغير ذلك من الآداب.

والتواضع أحد تلك الفضائل، بل وركيزة مهمة من ركائز التربية الإيمانية في حياة المسلم، ذلك لأنه يضعه في المكان اللائق به ـ أعني مكان العبودية ـ فلا يبارح هذا المكان ولا يعتدي عليه.

أفلا ترى أن أكثر من نبذوا هذا الخلق إنما هم في الحقيقة معتدون على مقام الألوهية لأن الكبرياء والعظمة لله وحده، ولا يجوز للعبد أن يتصف بهما أو بإحداهما فقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، **فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم**»[٢] فليس بغريب إذاً أن نجد التواضع من سيماء الصالحين، ومن أخص خصال المؤمنين

---

(١) تأريخ الخلفاء، ص٢٤٩.

(٢) رواه بن ماجة وهو صحيح الإسناد، انظر صحيح ابن ماجه بالرقم ٣٣٦٥.

المتقين، ومن كريم سجايا العلماء[١].

عن المبارك بن فضالة قال: كان بين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وبين رجل كلام في شيء، فقال له الرجل: اتق الله يا أمير المؤمنين، فقاله له رجل من القول: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟!

فقال عمر: دعه فْليَقُلها لي، نِعْم ما قال.

ثم قال عمر: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها[٢].

وقال رجلٌ **لأبي حنيفة** رحمه الله: اتق الله!!

فانتفض واصفرَّ، وأطرق وقال: جزاك الله خيراً، ما أحوج الناس كل وقت إلى ما يقول هذا[٣].

الله أكبر! الأول خليفة والآخر عالم زمانه وهذا جوابهم، واليوم يخشى البعض وهو يقول ناصحاً لعامة الناس: اتقوا الله أن يصيبه من بذاءة ألسنتهم وفحش ألفاظهم.

ولســـــتُ أرى السعــــادة جَمــــع مـــــال
ولكـــــن التقـــــيَّ هــــــو السعيـــــــدُ
وتقـــــوى الله خيـــــرُ الـــــزاد ذخـــــراً
وعنـــــد الله لـــــلأتقـــــى مـــــزيـــــدُ

أخي المسلم:

اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَتِلْكَ

---

(١) تأريخ الخلفاء، ص٢٤٩.
(٢) تأريخ عمر لابن الجوزي، ص ١٧٦.
(٣) السير: (٦/ ٤١٥).

﴿ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فتارةً فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي.

فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال، وهو تقوى الله ـ عز وجل ـ، فإنه إن استغنى زانته، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة عليه، وإن ابتلي حملته، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه.

لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويوافق على الحدود.

والمتكبر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى، فإنها ستحول وتخليه خاسراً.

وَلازِم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلاَّ السعة، وفي المرض إلاَّ العافية. هذا نقدها العاجل. والآجلُ معلوم[1].

قال **يحيى بن معين**: ما رأيت مثل **أحمد بن حنبل**، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه في الصلاح والخير[2].

وكان ـ رحمه الله ـ يقول: نحن قوم مساكين

وقال إسماعيل بن إسحاق الثقفي: قلت **لأبي عبدالله** (أحمد بن حنبل) أول ما رأيته: يا أبا عبدالله، ائذن لي أن أقبِّل رأسك، فقال: لم أبلغ أنا ذاك.

---

(١) صيد الخاطر، ص ١٨١.

(٢) مناقب الإمام أحمد، ص ٣٣٤.

رحمه الله وأجزل مثوبته.. صبر على المحن وثبت على الفتنة التي أصابته وكان إماماً للمسلمين وهو مع هذا يقول: لم أبلغ أنا ذاك؟!

وهذا سِبْط رسول الله ﷺ وهو يؤدي شعيرة عظيمة خاشعاً متذللاً.. ترك الكبر والبطر والمباهاة والفخر..

فقد حج **الحسين بن علي** عشر حجج ماشياً ونُجُبه تقاد إلى جنبه[١].

وعن عمر بن ثابت قال: لما مات **علي بن الحسين بن علي** فغسلوه، فجعلوا ينظرون إلى آثار سواد في ظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جراب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة[٢].

أخي المسلم:

قال **عمر** ـ رضي الله عنه ـ: إن العبد إذا تواضع لله رفع حكمته وقال انتعِشْ رفعك الله، وإذا تكبَّر وعدا طَوْرَه رَهَصَه الله في الأرض وقال اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى أنه لأحقر عندهم من الخنزير[٣].

وذكر أن **العلاء بن زياد** قال له رجل: رأيت كأنك في الجنة، فقال له: ويحك، أما وجد الشيطان أن أحدًا يسخر به غيري وغيرك[٤].

وعندما مرَّ المهلب على **مالك بن دينار** متبخترًا، فقال: أما علمت أنه مشية يكرهها الله إلا بين الصفين؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ قال: بلى، أوَّلُك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل

---

(١) روضة العقلاء، ص٦٢.
(٢) انظر: السير: (٤/ ١٣٩).
(٣) الإحياء: (٣/ ٣٦١).
(٤) حلية الأولياء: (٢/ ٢٤٥).

العَذِرة، فانكسر، وقال: الآن عرفتني حق المعرفة[١].

قال الفقيه السمرقندي: اعلم أن الكبر من أخلاق الكفار والفراعنة، والتواضع من أخلاق الأنبياء والصالحين؛ لأن الله ـ تعالى ـ وصف الكفار بالكبر فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥].

وقال: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾ [غافر: ٦٧].

وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ۝٢٣﴾ [النحل: ٢٣].

وقد مدح الله عباده المؤمنين بالتواضع فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣] يعني متواضعين.

ومدحهم بتواضعهم وأمر نبيه بالتواضع فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾ [الشعراء: ٢١٥].

ومدح النَّبيَّ ﷺ بخلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

وكان خلقه التواضع لأنه روي في الخبر أنه كان يركب الحمار،

---

(١) السير: (٥/٣٦٢).

ويجيب دعوة المملوك، فثبت أن التواضع من أحسن الأخلاق، وكان الصالحون من قبل أخلاقهم التواضع، فوجب علينا أن نقتدي بهم رضي الله تعالى عنهم[١].

ومن أنواع الكبر المهلكة:

أولًا: الكبر على الله ـ عز وجل ـ مثل قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] إذ استنكف أن يكون عبدًا لله.

ثانيًا: الكبر على الرسل من حيث تعزُّز النفس وترفُّعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، ولذا لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله قولهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وقولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٩].

ثالثًا: التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ويزدريهم. ويكون التكبر على العباد بأمور دنيوية منها:

* **العلم:** وبعض من آتاه الله علمًا دينيًا أو دنيويًا يتسعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظرة البهائم وأنه ينبغي أن يخدموه وأن يكرموه وأن يكونوا أذلاء بين يديه.. وهو يفرح بكل ذلك مع كثرة جدله وحبه للمراء والمناظرة والغلبة على الخصوم بحق أو باطل.

* **العبادة:** بأن يرى أن الناس هالكين ويرى نفسه ناجيًا، ولذا يرى أنه أحق بالزيارة والتوسع له في المجلس وذكر زهده وعلمه وورعه.

* **التكبر بالحسب والنسب:** فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه علمًا وعملاً، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن

---

(١) تنبيه الغافلين، ص٩٧.

الناس له أموال وعبيد، وكان من عادات الجاهلية التفاخر بالأحساب والأنساب.

* **التفاخر بالجمال**: وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو إلى التنقُّص والغيبة والاستهزاء.

* **الكبر بالمال**: وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم ومن التجار في بضائعهم. وتأمل في حال قارون وهو في ماله ثم أين انتهى به الكبر والعياذ بالله ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩].

* **الكبر بالقوة**: وذلك في أهل القوة الجسمية والعسكرية وذلك بالبطش بالضعفاء وإهانتهم وتعذيبهم.

* **التكبر بالأتباع** والأنصار والتلامذة والعشيرة والأقارب والبنين.

قال **أبو سليمان**: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه.

وقال **أبو يزيد**: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعًا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً. وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه ـ عز وجل ـ ومعرفته بنفسه.

قال وهب بن منبه: آية المنافق أنه يكره الذم ويحب الحمد[١].

ولقد كثر ذلك في زماننا والله المستعان، فأصبح البعض يحب المدح والثناء ويسرُّ به ويُكرم من يقوم له بذلك ويغدق عليه الأموال، وبعض المدراء والرؤساء يقرب المداحين المنافقين ويبعد الناصحين المحبين!!

---

(١) الزهد للإمام أحمد، ص ٥١٧.

والمسلم إن مُدح بحق فهو لا يُؤجر على هذا المدح . . فما بالك بمن يُمدح بباطل ويحرص على أن تجمع له الكلمات وتُصفُّ له الحروف؟!

قال **أبو سليمان**: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه.

وقال **عروة بن الورد**: التواضع أحد مصائد الشرف. وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع[١].

ولا شك أن من علامة التواضع أن يكره المرء أن يُذكر بالبر والتقوى والصلاح والتقى بين الناس.

هذا إمام أهل السنة **أحمد بن حنبل** ـ رحمه الله ـ عندما ذُكر عنده أخلاق الوَرِعين فقال: أسأل الله أن لا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟[٢].

وهذا عَلَمٌ آخر من أعلام السَّلف لا يرى لنفسه حقًّا على غيره مع علمه وورعه وطاعته وعبادته!!

قال أحمد بن عبدالله العجلي: آجر **سفيان** نفسه من جمَّال إلى مكة، فأمروه أن يعمل خبزة، فلم تجيء جيدة، فضربه الجمَّال، فلمَّا قدموا مكة، دخل الجمَّال فإذا سفيان قد اجتمع حوله الناس، فسأل، فقالوا: هذا سفيان الثوري، فلمَّا انفضَّ عنه الناس تقدم الجمَّال إليه وقال: لم نعرفك يا أبا عبدالله، قال: من يفسد طعام الناس يصيبه أكثر من ذلك[٣].

---

(١) الإحياء: (٣/ ٣٦٢).
(٢) السير: (١١/ ٢٢٦).
(٣) السير: (٧/ ٢٧٥).

أخي المسلم:

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة
فإن رفيع القوم من يتواضع

قال **أبو حاتم** - رضي الله عنه - أفضل الناس من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة، ولا يترك المرء التواضع إلا عند استحكام التكبر، فلا يتكبر على الناس أحد إلا بإعجابه بنفسه، وعجب المرء بنفسه أحد حماد عقله، وما رأيت أحدًا تكبر على من دونه إلا ابتلاه الله بالزلة لمن فوقه(١).

وتأمل - أخي الحبيب - في صور التواضع العجيبة من خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وقد ضربا أروع الأمثلة على جلالة قدرهما وعظم منزلتهما.

قال علماء السير: كان **أبو بكر** - رضي الله عنه - يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منائح دارنا، فسمعها فقال: بل أحلبها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه، عن خلق كنت فيه، فكان يحلب لهم(٢).

وهذا ثاني الخلفاء الراشدين **عمر بن الخطاب** - رضي الله عنه - يضرب لنا مثلاً في التواضع، قال طلحة بن عبيد الله: خرج عمر ليلة في سواد الليل فدخل بيتًا، فلمَّا أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت، فإذا عجوز عمياء مقعدة، فقلت لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ فقالت: إنه يتعاهدني مدة

---

(١) روضة العقلاء، ص٦٢.
(٢) صفة الصفوة: (١/٢٥٨).

كذا وكذا، يأتيني بما يُصلحني، ويُخرج عني الأذى، فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرات عمر تتبع[١].

ومن خصال المتكبرين التي نراها ونشاهدها:

* جر الثياب بطرًا ورياء، والتفاخر بها والتعالي على الناس بكل ملبوس غالي الثمن.
* أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.
* أن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس.
* أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.
* أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته.
* أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته.
* ذكر ما لديه من الأموال والدور والقصور تكبرًا ومباهاة.

وجماع ذلك كله أن يرى أنه فوق الناس وهم دونه سواء في أمر معين كالعلم أو المال أو الجمال أو الحسب والنسب أو بها جميعًا.

ومن تأمل في تلك علم أنها ربما تزول في لحظات؛ فالعلم إلى زوال، والمال إلى نهاية، والجمال إلى شيخوخة أو قبل ذلك بطارق من طوارق الزمن.. ولنا في ما ذكره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن صاحب المال والغنى عبرة وتذكرة: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥)

---

(١) البداية والنهاية: (٧/ ١٣٩).

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٢].

أخي الحبيب:

لا تفخرنَّ بما أوتيت من نعمٍ
على سواك وخفْ من كسرِ جبَّارِ
فأنت في الأصل بالفخار مشتبه
ما أسرع الكسر في الدنيا لفخَّار(١)

قال علي بن ثابت: لو لقيت سفيان الثوري في طريق مكة ومعك فلسان تريد أن تتصدق بهما وأنت لا تعرف سفيان ظننت أنك ستضعها في يده. وما رأيت سفيان في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط ويستند إلى الحائط ويجمع بين ركبتيه.

إذا شئت أن تزداد قدرًا ورفعة
فَلِنْ وتواضع واترك الكبر والعُجْبَا(٢)

قال سعيد بن عامر: قيل إن يونس بن عبيد قال: إني لأعدُّ مائة

---

(١) شذرات الذهب: (٦/٢٤٨).
(٢) التواضع والخمول، ص١٢.

خصلة من خصال البر ما في خصلة واحدة[١].

وتأمَّل في المجالس إلى من يُزكُّون أنفسهم ويمجدون أفعالهم حبًا في الثناء وطمعًا في الشهرة.. وقد كثر هذا في الناس لقلة العلم الشرعي وضعف التقوى ومحبة الدنيا.

قال ابن وهب: سمعت **مالكًا** يقول: إن الرجل إذا أخذ يمدح نفسه ذهب بهاؤه[٢].

وقال **الفضيل**: إن استطعت أن لا تكون محدثًا ولا قارئًا ولا متكلمًا. إن كنت بليغًا، قالوا: ما أبلغه، وأحسن حديثه، وأحسن صوته، ليعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسن الصوت، قالوا: ليس يحسن يحدث، وليس صوته بحسن، أحزنك ذلك وشق عليك فتكون مرائيًا، وإذا جلست فتكلمت فلم تُبالِ من ذمك ومن مدحك، فتكلم[٣].

قال شعبة: ربما ذهبت مع أيوب (السختياني) لحاجة، فلايدعني أمشي معه، ويخرج من هاهنا وهاهنا، لكي لا يفطن له.

وتأمل حال الأخيار وأهل العلم الأبرار فإنهم يهربون من كل مادح!

قال أحمد بن حنبل: كان سفيان الثوري إذا قيل له إنه رؤى في المنام، يقول: أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنامات[٤].

ولقـــــد يكفيـــــك فيهـــــا
أيهـــــا الطـــــالـــــب فـــــوت

---

(١) السير: (٦/٢٩١).
(٢) السير: (٨/١٠٩).
(٣) االمصدر السابق.
(٤) السير: (٧/٢٥٢).

ولعمـــــــري عـــــــن قليـــــــل
كـــــل مـــــن فيهـــــا يمـــــوت[١]

سأل رجل **الإمام مالكًا** عن مسألة فقال: لا أحسنها، فقال الرجل: إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها!! فقال له مالك: إذا رجعت إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أني قد قلت لك إني لا أحسنها[٢].

وقد كثر المفتون في زماننا وبعضهم يبادر بالجواب قبل أن ينتهي السؤال.. ولمعرفة عظم مصيبته وجهله ليعلم أنه يجيب عن الله ورسوله فلينظر بماذا يُجيب؟

خرج **عبدالله بن مسعود** ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[٣].

وقال الحسن: كنت مع **ابن المبارك** يومًا فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا. يعني حيث لم نعرف ولم توقر.

وقال **صالح بن أحمد** (بن حنبل): كان أبي لا يدع أحدًا يستقي له الماء لوضوئه[٤].

ونتيجة الكبر والتعالي على الناس معروفة مرذولة في الدنيا والآخرة، عن **عمر بن شيبة** قال: كنت بمكة بين الصفاء والمروة فرأيت رجلاً راكبًا

---

(١) ديوان الإمام علي، ص٥٤.
(٢) حلية الأولياء: (٦/ ٣٢٣).
(٣) صفة الصفوة: (١/ ٤٠٦).
(٤) طبقات الحنابلة: (١/ ١٢).

بغلته وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس، قال: ثم عدت بعد حين دخلت بغداد فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حافٍ حاسر طويل الشعر، قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله، فقال لي: ما لك تنظر إليَّ؟ فقلت له: شبَّهتك برجل رأيته بمكة، ووصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس[١].

قال هشام بن حسان: ذكروا التواضع عند الحسن وهو ساكت حتى إذا أكثروا عليه قال لهم: أراكم قد أكثرتم الكلام في التواضع.

قالوا: أي شيء التواضع يا أبا سعيد؟

قال: يخرج من بيته فلا يلقى مسلمًا إلا ظن أنه خير منه.

ومن التواضع الذلة لله ـ عز وجل ـ وخوف التقصير والذلل.

كان **بكر بن عبدالله** إذا رأى شيخًا قال: هذا خير مني، عبدالله قبلي، وإذا رأى شابًا قال: هذا خير مني، ارتكبت من الذنوب أكثر مما ارتكب[٢].

قال **عبدالله بن مسعود**: لو تعلمون ما أعلم من نفسي حثيتم على رأسي التراب.

وعندما قيل للإمام **أحمد بن حنبل**: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عينه وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا[٣].

وروي عن **ابن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: الهلاك في شيئين:

---

(١) الإحياء: (٣/٣٦٢).
(٢) حلية الأولياء: (٢/٢٢٦).
(٣) الآداب الشرعية: (٣/٤٣٧).

العجب، والقنوط. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تُنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى.

قال **مطرف** ـ رحمه الله ـ: لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا، أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا.

واعلم أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق.

فأمَّا مع الخالق، فإنَّ العجب بالطاعات نتيجة استعظامها، فكأنه يمنُّ على الله ـ تعالى ـ بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها. وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها.

والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقًا له عند الله إدلالاً، فالعجب يحصل باستعظام ما عُجب به، والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده[١].

وكان **حَوْشَب** يبكي ويقول: بلغ اسمي مسجد الجامع.

وعن عطاء بن مسلم أحسبه قال: كنتُ وأبو إسحاق ذات ليلة عند سفيان وهو مُضْطَجع، فرفع رأسه إلى أبي إسحاق فقال: إياك والشهرة.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص٢٥٥.

قال: وقال **أبو مُسهر**: ما بينك وبين أن تكون من الهالكين إلا أن تكون من المعروفين[١].

وقال **عبد الله بن المبارك**: كن محبًا للخمول كراهية الشهرة، ولاتظهر من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك[٢].

أخي المسلم:

قال **علي** ـ رضي الله عنه ـ: تبدل لا تُشهر، ولا ترفع شخصك لتُذكر وتعلم، وأكثر الصمت تسلم، تسرُّ الأبرار وتغيظ الفجار.

وقال أيوب: ما صدق الله عبدٌ إلا سرَّه أن لا يُشعر بمكانه[٣].

وقال سعيد بن عبدالغفار: كنت أنا ومحمد بن يوسف الأصبهاني، فجاء كتابُ محمد بن العلاء بن المسيب من البصرة إلى **محمد بن يوسف** فقرأه، فقال لي محمد بن يوسف: ألا ترى إلى ما كتب به محمد بن العلاء؟ وإذا فيه: يا أخي، من أحبَّ الله أحب أن لا يعرفه الناس[٤].

وأثر الخير على الإنسان واضح جلي خاصة إذا كان من معدن زكي كما قال **يحيى بن خالد البرمكي**: الشريف إذا تنسَّك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم.

وقال **يحيى بن معاذ** موضحًا المعاملة بالمثل لمن استدرجه الشيطان وأطاح بتواضعه: التكبر على ذي التكبر عليك بما له تواضع.

ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر

---

(١) التواضع والخمول، ص١٣.
(٢) صفة الصفوة: (٤/١٣٧).
(٣) التواضع والخمول، ص١١٩.
(٤) المصدر السابق.

في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح.

ويقال:

لا عز إلا لمن تذلل لله - عز وجل -.

ولا رفعة إلا لمن تواضع لله - عز وجل -.

ولا أمن إلا لمن خاف الله - عز وجل -.

ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله - عز وجل -[١].

أخي المسلم:

هاك مواقف جميلة وعبرًا ناصعة من سلف هذه الأمة وحرصهم على التواضع والبعد عن الشهرة والثناء.

عن خالد بن معدان قال: **كان يحيى بن سعيد** إذا كثرت خلْقَتُهُ قام مخافة الشهرة.

قال ليث عن أبي العالية أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام.

وقال أبو بكر بن عياش: سألت الأعمش كم رأيت أكثر مارأيت عند **إبراهيم**؟ قال: أربعة، خمسة.

قال أبو بكر، ما رأيت عند **حبيب بن أبي ثابت** غلمة ثلاثة قطُّ[٢].

وقال: قال **بشر بن الحارث**: لا أعلم رجلاً أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح.

وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجلٌ يحبُّ أن يعرفه الناس[٣].

---

(١) الإحياء: (٣/ ٣٦٢).

(٢) التواضع والخمول، ص١٢٢.

(٣) التواضع والخمول، ص١٣٠.

حقيــقٌ بــالتــواضــع مــن يمــوت
ويكفــي المــرءَ مــن دنيــاه قُــوتُ
فمــا للمــرء يصبــح ذا همــوم
وحــرصٍ ليــس تــدركــه النعــوتُ
صنيــع ملكينــا حســن جميــل
ومــا أرزاقُــه عنَّــا تفــوتُ
فيــا هــذا ستــرحــل عــن قليــل
إلــى قــوم كــلامُهُــم السكــوتُ[1]

وقال مالك بن دينار: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما يخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن. وإن قلوب الأبرار تغلي بأعمال البرِّ وإن قلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور. والله يرى همومكم، فانظروا ما همومكم رحمكم الله[2].

وليتبد كل قارىء ويظهر همه ومنتهى أمله؟! أهو لدينا فانية ودار زائلة وكرسي متحرك؟! أم هو هم الدين ورفعته والدعوة إليه والصبر على ذلك!

مرَّ بالحسن شاب عليه بزَّةٌ له حسنة فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك! داوِ قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم[3].

وحال المتكبر تدعوه إلى رد الحق وعدم قبوله وهذه عين فساد القلب

---

(١) البداية والنهاية: (٨/ ١٢).
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص٢٧.
(٣) الإحياء: (٣/ ٣٥٩).

وخبثه. قال رسول الله ﷺ لرجل: «**كل بيمينك**» قال: لا أستطيع، فقال النبي ﷺ: «**لا استطعت ما منعه إلا الكبر**». فما رفعهاإلى فيه[(١)].

ورأى **محمد بن واسع** ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم. وأمَّا أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله!.

ورأى **ابن عمر** رجلاً يجرُّ إزاره فقال: إن للشيطان إخوانًا ـ كررها مرتين أو ثلاثًا[(٢)].

يا مُظهر الكبر إعجابًا بصورته ... انظر خَلاكَ فإن النتن تثريبُ
لو فكر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبر شُبان ولاشيبُ
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمةً ... وهو بخمسٍ مِن الأقذار مضروبُ
أنفٌ يسيلُ وأذن ريحها سهكٌ ... والعين مرفضةٌ والثغر ملعوبُ
يابن التراب ومأكول التراب غدًا ... أقصر فإنك مأكولٌ ومشروبُ[(٣)]

وثوب الشهرة قد يكون ثوبًا رديئًا ليظهر الإنسان حاله أنه من الزهاد والصالحين!! ومنها ما يلبسه بعض المتصوفة ويسمونه الجبة أو المرقوعة خضراء اللون ومرقعة من قطع بالية ومشكلة الألوان.

رأى **ابن عمر** على ابنه ثوبًا قبيحًا دونًا فقال: لا تلبس هذا، فإن هذا ثوب شهرة[(٤)].

أخي الحبيب:

كيف حالك مع الفقراء والمساكين والمعدمين؟! هذا سبط رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الإحياء: (٣/٣٥٩).
(٣) أدب الدنيا والدين، ص٢٣٣.
(٤) التواضع والخمول، ص١٢٩.

وقد حاز الشرف الرفيع والنسب العالي ومع هذايتواضع وهو أهل لذلك.

عن **الحسين بن علي** ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أنه مر بمساكين وهم يأكلون كسرًا لهم على كساء فقالوا: يا أبا عبدالله، الغذاء قال: فنزل وقال: إنه لا يحب المستكبرين، فأكل معهم، ثم قال لهم: قد أجبتكم فأجيبوني، فانطلقوا معه فلما أتوا المنزل قال لجاريته: أخرجي ماكنت تدخرين[1].

وذكر عن **عمر بن عبدالعزيز** ـ رحمه الله تعالى ـ أنه أتاه ذات ليلة ضيف فلما صلى العشاء وكان يكتب شيئًا والضيف عنده كاد السراج أن ينطفيء، فقال الضيف: يا أمير المؤمنين، أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ قال: ليس من مروءة الرجل أن يستعمل ضيفه. قال: أفأنبه الغلام؟ قال: لا، هي أول نومة نامها، فقام عمر وأخذ البطة فملأ المصباح، فقال الضيف: قمت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر وخير الناس عند الله من كان متواضعًا.

وقال قيس بن أبي حازم: لما قدم **عمر بن الخطاب** إلى الشام تلقاه علماؤها وكبراؤها فقيل: اركب هذا البرذَوْن يرك الناس، فقال: إنكم ترون الأمر من هٰهنا، إنما الأمر من ههنا وأشار بيده إلى السماء، خلوا سبيلي.

وروي في رواية أخرى أن **عمر** ـ رضي الله تعالى عنه ـ جعل بينه وبين غلامه مناوبة، فكان يركب الناقة ويأخذ الغلام بزمام الناقة ويسير مقدار فرسخ ثم ينزل ويركب الغلام ويأخذ عمر بزمام الناقة ويسير مقدار فرسخ، فلما قربا من الشام كانت نوبة ركوب الغلام، فركب الغلام وأخذ

---

(١) تنبيه الغافلين، ص٩٥.

عمر بزمام الناقة، فاستقبله الماء في الطريق، فجعل عمر يخوض في الماء ونعله تحت إبطه اليسرى وهو آخذٌ بزمام الناقة، فخرج أبو عبيدة بن الجراح وكان أميرًا على الشام وقال: يا أمير المؤمنين، إن عظماء الشام يخرجون إليك فلا يحسن أن يروك على هذه الحالة، فقال عمر - رضي الله تعالى عنه -: إنما أعزنا الله - تعالى - بالإسلام فلا نبالي من مقالة الناس[(١)].

وقال عروة بن الزبير - رضي الله عنهما -: رأيت **عمر بن الخطاب** - رضي الله عنه - على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها.

وولي **أبو هريرة** - رضي الله عنه - إمارةً، فكان يحمل حُزمة الحطب على ظهره ويقول: طَرِّقوا للأمير[(٢)].

وقال أنس: كان بين كتفي **عمر** أربع رقاع وإزاره مرقوع بأدم. وخطب على المنبر وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة[(٣)].

وقال مجاهد في قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ [القيامة: ٣٣] أي يتبختر.

ودخل ابن السماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين، إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين، إن امرءًا آتاه الله جمالاً في خلقته وموضعًا في

---

(١) تنبيه الغافلين، ص٩٧.
(٢) مدارج السالكين، ص٣٤٣.
(٣) البداية والنهاية: (١٤٨/٧).

حسبه وبسط له في ذات يديه فعفَّ في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده.

وكان **سليمان بن داود** ـ عليهما السلام ـ إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين.

وقال **بعضهم**: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة[١].

وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر، فعلاه، فقال: يا أمير المؤمنين ما تصنعُ؟! فقال: إن هذا ذلةٌ للتابع وفتنةٌ للمتبوع[٢].

وقال جرير بن عبدالله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت النطع فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو **سلمان الفارسي**، فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير، تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا[٣].

وقال رجاء بن حيوة: قَوَّمت ثياب **عمر بن عبدالعزيز** ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) الإحياء: (٣/ ٣٦١).
(٢) التواضع والخمول، ص١٢٣.
(٣) الإحياء: (٣/ ٣٦١).

وهو يخطب باثني عشر درهمًا. وكانت قباء وعمامة وقميصًا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة[١].

نعم هذا تواضع الخليفة الأموي الذي ملأ الأرض عدلاً وزان حياته بالزهد والورع ـ رحمه الله ـ.

قيل: أوحى الله ـ تعالى ـ إلى عيسى ـ عليه السلام ـ: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك.

وتأمل ـ أخي الحبيب ـ في قول كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه[٢].

أخي المسلم:

هذا حديث الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ اجعله على رأسك وأمام عينيك حيث قال: «**ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[٣].

رزقنا الله التواضع، وألزمنا جادة المؤمنين، وجعلنا ووالدينا وذرياتنا وأزواجنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) مدارج السالكين، ص٣٤٤.
(٢) الإحياء: (٣/ ٣٦١).
(٣) رواه مسلم.

الرزق أبوابه ومفاتحه

مقدمة

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، فهدانا للإسلام، وأتم علينا هذا الدين، وأرسل علينا السماء، وأخرج لنا من كنوز الأرض، فله الحمد والشكر، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

وبعد:

فإن الله - عز وجل - قسَّم الأرزاق بعلمه، فأعطى من شاء بحكمته، ومنع من شاء بعدله، وجعل بعض الناس لبعض سخريًا، قال الله - تعالى -: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ولأن أمر المال عظيم، والسؤال عنه شديد؛ لقول النبي ﷺ: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه**» فيما أقدم «**الجزء الحادي والعشرين**» من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟!**».

جعل الله سعينا في هذه الدنيا سعيًا مباركًا، وجعله عونًا على الطاعة.

عبدالملك بن محمد عبدالرحمن القاسم

مدخل

فرض الله ـ عز وجل ـ على عباده الاكتساب لطلب المعاش؛ ليستعينوا به على طاعته، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

فجعل ـ سبحانه ـ الاكتساب سببًا للعبادة.

وقال ـ تعالى ـ: عن الإنسان ومحبته للمال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ٨].

وقال ـ عز وجل ـ آمرًا عباده بعد انقضاء فريضة عظيمة هي صلاة الجمعة: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

قال **الإمام البغوي**: أي إذا فرغ من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم[١].

وكان **عراك بن مالك** ـ رضي الله عنه ـ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فرضك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[٢].

وقد حث الإسلام على العمل والاكتساب، فهو دين العمل والحركة والسعي في الأرض وعمارتها.

---

(١) مختصر تفسير البغوي: (٢/ ٩٤٥)

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧١).

قال ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه»**(١).

وأثنى النبي ﷺ على المال الصالح في يد العبد الصالح فقال: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**(٢).

ولم تُذم الدنيا لذاتها، إنما لما يقع فيها من المعاصي، والذنوب، وأكل المال الحرام، فالدنيا الحرام: الصارفة عن الدين، المجموعة من الحرام. أي أن تجمعها من الحرام، وتجعلها في الحرام.

ويحتم العمل ويجب الاكتساب على من كان له عيال، أو كانت له مسؤولية. فقد جعل الإسلام التقصير في حق الزَّوجة، والأطفال، والوالدين من الذنوب العظيمة فعن وهب بن جابر قال: شهدت **عبدالله بن عمرو بن العاص** في بيت المقدس وأتاه مولى له فقال: إني أريد أن أقيم هذا الشَّهر هاهنا ـ يعني رمضان ـ قال له عبدالله: هل تركت لأهلك ما يقوتهم؟ قال: لا، قال: أما لا فارجع، فدع لهم ما يقوتهم، فإني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: **«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»**(٣).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى رجل فأعجبه، قال: **«هل له من حرفة؟»** فإن قالوا: لا، سقط من

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه أحمد، وصححه الألباني صحيح الأدب بالرقم ٢٢٩.
(٣) حسنه الألباني في صحيح أبي داود ١٤٨٤ .

عينه، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «**لأن المؤمن إذا لم يكن ذا حرفة تعيَّش بدينه**»[١].

والمسلم يؤجر على قوت عياله كما قال ﷺ: «**دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رقبة، ودينارٌ تصدَّقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك**»[٢].

وروي عن **سفيان الثوري** ـ رحمه الله ـ أنه قال: عليك بعمل الأبطال. الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال.

وكان إذا أتاه الرَّجل يطلب العلم سأله هل لك وجه معيشة؟ فإن أخبره أنَّه في كفاية، أمره بطلب العلم، وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعاش.

وقال: أيوب السختياني: قال لي **أبو قلابة**: يا أيوب، الزم سوقك، فإن فيها غنى عن الناس وصلاحًا في الدِّين.

وعن محمد بن سيرين عن أبيه قال: صليت مع **عمر بن الخطاب** المغرب، وانصرف معه جماعة من قريش، فرأى تحت إبطي رزمة فقال: ما هذا يا **ابن سيرين**؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، آتي إلى السوق فأشتري وأبيع، فالتفت إلى جماعة من قريش فقال: لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة؛ فإن التجارة ثلث الإمارة[٣].

وقال **أبو سليمان الداراني**: ليست العبادة أن تصف قدميك وغيرك

---

(١) كتاب الجامع: (١/ ٣٤).

(٢) رواه مسلم.

(٣) تاريخ عمر ص٢١٤.

يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزها، ثم تعبد[١].

والمال في يد الإنسان المسلم طريق إلى الحياة الكريمة في الدنيا، والسعادة في الآخرة؛ لأنه كما قال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس[٢].

وقال **ابن قدامة** في تفصيل دقيق لحال طالب الدنيا: قد بينا أن المال لا يذم لذاته، بل ينبغي أن يمدح؛ لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله ـ تعالى ـ خيرًا، وهو قوام الآدمي. قال الله ـ تعالى ـ في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

وقال **أبو إسحاق السبيعي**: كانوا يرون السعة عونًا على الدين.

وقال **سفيان**: المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين.

وحاصل الأمر: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده، أمكنه أن يتحرز من شره، ويستدر من خيره[٣].

أخي المسلم:

اعلم أن المال لا يذم لذاته، بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما لشدة حرصه، أو تناوله من غير حلِّه، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

---

(١) الإحياء: (٢/ ١٧٢).

(٢) السير: (٤/ ٢٣٨).

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٢١٤.

وفي سنن الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[١].

وقد كان السلف يخافون فتنة المال. وكان **عمر** ـ رضي الله عنه ـ إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر لشر أراده الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

قال **يحيىٰ بن معاذ**: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه؛ فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حلِّه، ووضعه في حقِّه.

وقال في صاحب حق المال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، يُسأل عنه كله[٢].

ودين الإسلام دين التوكل لا التواكل، ودين السعي لا الخمول.

قال **عمر** ـ رضي الله عنه ـ: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني؛ فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة[٣].

وقال **محمد بن المنكدر** في كلمات جميلة عن المال: نعم العون على تقوى الله ـ عز وجل ـ الغنى[٤].

---

(١) رواه الترمذي صحيح.
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٢١٣.
(٣) الإحياء: (٢/ ٧١).
(٤) حلية الأولياء: (٢/ ١٤٩).

أخي المسلم:

هـــي القنـــاعـــة لا تبـــع بهـــا بـــدلاً
فيهـــا النعيـــم وفيهـــا راحـــة البـــدن
انظـــر لمـــن ملـــك الـــدنيـــا بـــأجمعهـــا
هـــل راح منهـــا بغيـــر القطـــن والكفـــن[(١)]

أخي الحبيب:

اعلم أنَّه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة واستمالة القلوب، إنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه[(٢)].

وقد كان زهد السلف في الدنيا خوف الوقوع في الحرام، قال مزمل: دخلت على **سفيان** وهو يأكل طبهاج (اللحم المشرح) ببيض فكلمته في ذلك، فقال: لم آمركم أن لا تأكلوا طيبًا، اكتسبوا طيبًا وكلوا[(٣)].

وقال **علي بن الفضيل**: سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي إنما أفعل ذا؛ لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي[(٤)].

---

(١) التذكرة ص ١٠٢.
(٢) منهاج القاصدين ص ٣٥٥.
(٣) السير: (٧/ ٢٧٧).
(٤) تاريخ بغداد: (١٠/ ١٦٠).

أسباب الرزق

أسباب الرزق كثيرة متنوعة **من أهمها: لزوم التقوى**، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

ومن أعظم الأسباب الجالبة للرزق: ترك الذنوب والمعاصي: فإنها تحرم خيري الدنيا والآخرة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠] أي بجنايتكم على أنفسكم، فقد سمَّى جناية المرء على نفسه كسبًا.

وقال ﷺ: «**إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[1].

وقيل لرجل من الفقهاء: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فقال الفقيه: والله، إنه ليجعل لنا المخرج، وما بلغنا من التقوى ما هو أهله، وإنه ليرزقنا وما اتقيناه، وإنا لنرجو الثالثة، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرًا[2].

---

(١) رواه أحمد، وحسنه الألباني في شرح الطحاوية برقم (٩٢) كجزء من حديث: «**لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل يحرم الرزق بالذنب يصيبه**».

(٢) حلية الأولياء: (٤/ ٢٤٨).

وقال بعض السلف متعجبًا ممن يعصي الله ـ عز وجل ـ كيف يرزقه الكريم الحليم، فقال: عجبت لمن يصلي الصبح بعد طلوع الشمس كيف يرزق؟!

أين نحن من هؤلاء؟!

لم تكن الدنيا أكبر همهم ومبلغ سعيهم، فلم تلههم، كانوا يعرفون نعم الله ـ عز وجل ـ الأخرى، وأعظمها وأهمها، وأكملها وأتمها نعمة الإسلام، ثمَّ نعمة الصحة والعافية، والأمن في الأوطان: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

عن الحسن بن صالح قال: ربَّما أصبحت ما معي درهم، وكأن الدنيا كلها قد حيزت لي[١].

ولقد كان ارتباطهم بالله ـ عز وجل ـ قويًا، وخوفهم من المعاصي شديدًا، ولهذا يرون أثر المعاصي لقلتها في دوابهم وزوجاتهم وأبنائهم!

فقد أغلظ رجل لوكيع بن الجراح، ثم دخل وكيع بيتًا فعفَّر وجهه بالتراب، ثم خرج إلى الرجل فقال: زد وكيعًا بذنبه، فلولاه ما سُلطت عليه[٢].

وكان المال وسيلة عندهم، والمآل والمنتهى والمطلب هو جنة عدن، ولهذا تدور إجاباتهم وهمومهم على الآخرة، فهي غاية المطالب، وأسمى المنازل.

قيل لأبي حازم الزاهد ما مالك؟ قال: مالان، لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما في أيدي الناس[٣].

---

(١) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢١٧).
(٢) تاريخ بغداد: (١٣/ ٥٠٣).
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٣٥٣.

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس
واقنع بيأس فإن العز في اليأس
واستغنِ عن ذي قربى وذي رحم
إن الغنيَّ من استغنى عن الناس[(١)]

ومن يسَّر الله له المال، وساق إليه الخيرات، فلْيشكر الله على نعمه، وليستعملها في طاعته، ويفرقها ذات اليمين والشمال في أصحاب الحقوق، وقضاء الحوائج.

قال ابن تيمية: «ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس؛ ليبارك له فيه، من غير أن يكون له في القلب مكانة. والسعي فيه إذا سعىٰ كإصلاح الخلاء».

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «فيكون المال عنده يُستعمل في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده، فيكون هلوعًا، إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا».

ورزق الله مكتوب مقدَّر، لا يجلبه حرص حريص، ولا يدفعه كسل كسول، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قسم الأرزاق بعلمه وعدله، ولهذا كفر من قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] إنما هي منحة ربانية؛ ليبتلي عباده بها!

قالت مريم البصرية: ما اهتممت بالرزق ولا تعبت في طلبه منذ

---

(١) مكاشفة القلوب ص ١٨١.

سمعت الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

أخي المسلم:

إذا سُدَّ باب عنك من دون حاجةٍ
فدعه لأخرى ينفتح لك بابُها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه
ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها
ولا تك مبذالاً لعرضك واجتنب
ركوب المعاصي يجتنبك تقلبُها(١)

وحذر النبي ﷺ أن تكون الدنيا وطعامها هَمَّ المسلم وديدنه في ليله ونهاره، تشغله عن الطاعة، وتصرفه عن العبادة، قال ﷺ: «**من أصبح والدنيا أكبر همه، جعل الله فقره بين عينيه، وشتَّت عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع**»(٢).

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله تعالى ـ: فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله ـ سبحانه ـ أكبر همه؟ فهذا من باب التنبيه والأولى(٣).

وقد وردت آيات كثيرة نصت على الترف والمترفين، وسوء ذلك على

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٥٤).
(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني.
(٣) طريق الهجرتين ص ٤٥.

نفوس الكثير، قال ـ تعالى ـ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

وقال ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤].

والأمر في الأموال والدور والقصور، مثلما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تصنيفه لفئات الناس مع المال: «والفقر يصلح عليه خلق كثير، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم، ولهذا كان أكثر ما يدخل الجنة المساكين؛ لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم، اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء».

ولهذا مال الإنسان محدود الفائدة في ذاته، إما لقمة يأكلها، أو ثوبًا يلبسه أو مركبًا يركبه، أما من أراد به الله الخير فهو ينفق منه، ويتصدَّق ويواسي ويفرج، فهذا نعم المال!

قال ﷺ: **«يقول ابن آدم مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»**[1].

---

(١) رواه مسلم.

قال **يحيى بن معاذ**: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة[١].

ومن هذا الخوف والوجل كانوا يحتاطون لأنفسهم، ويحاسبونها؛ رغبة في النجاة، وخوفًا من الوقوع في الهلاك.

قال خرمي بن يونس: سمعت **أبا يوسف الغولي** يقول: أنا أتفقه في مطعمي من ستين سنة.

وكان **أبو حنيفة** خزازًا يبيع الخز، فروي أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا حنيفة قد احتجت إلى ثوب خز، فقال: مالونه؟ قال: كذا وكذا، قال: اصبر حتى يقع، وآخذه لك، فما دارت الجمعة حتى وقع، فجاءه الرجل فقال له أبو حنيفة: قد وقعت حاجتك، ثم أخرج إليه ثوبًا فأعجبه، فقال: يا أبا حنيفة كم أزن للغلام؟ فقال: درهمًا، فقال: أتهزأ بي قال: لا والله إني اشتريت ثوبين بعشرين دينارًا ودرهم، فبعت أحدهما بعشرين دينارًا، وبقي هذا بدرهم، وما كنت لأربح على صديق. فأخذه![٢].

قال سفيان الثوري: أنظر درهمك من أين هو، وصل في الصف الأخير[٣].

وقال **محمد بن سيرين**: كان يقال: المتعلم المسلم عند الدرهم[٤].

وغالب الناس اليوم ينطبق عليهم قول الشاعر:

---

(١) تاريخ بغداد: (١٤/ ٢١٢).
(٢) مناقب أبي حنيفة للموفق: (١/ ١٩٦).
(٣) حلية الأولياء: (٧/ ٦٨).
(٤) الزهد للبيهقي ص٣٦٢.

نـــرقـــع دنيـــانـــا بتمـــزيـــق ديننـــا
فـــلا ديننـــا يبقـــى ولا مـــا نُـــرقـــع

ولهذا قلت الدمعة في المآقي، وندر البكاء من خشية الله.

قال **سهل** ـ رحمه الله ـ لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال[١].

وعندما رأى **عطاء بن يسار** رجلاً في المسجد فدعاه فقال: هذه سوق الآخرة، فإن أردت البيع فاخرج إلى سوق الدنيا[٢].

وروي عن **خالد البلوي** قال: جاء رجل إلى أبي حنيفة فقال: أرشدت إليك تبيعني ثوبين أريدهما لأمي وزوجتي، وأحسن بيعي، فقال له، أي لون تريد؟ فوصف له. فقال: انتظرني جمعتين، قال: نعم، فذهب، ثم جاء بعد ذلك فدفع إليه ثوبين ودينارًا واحدًا وقال: إني لم أخسر عليك، إني جعلت لك بضاعة فرزقت من عند الله ـ عز وجل ـ، فأحمده. فقلت له، أو قيل له: يا أبا حنيفة هل ذكرت بينكما معرفة قديمة؟ قال: لا. ألم تسمع إلى قوله: (وأحسن بيعي).

قال **سعيد بن جبير**: إذا قال الرجل للرجل: أحسن بيعي فقد ائتمنه، فلم أكن أبقي من الإحسان شيئًا إلا أتيته؛ لتسلم لي أمانتي[٣].

وعن علي بن حفص البزاز قال: كان **حفص بن عبد الرحمن** شريك أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة يجهز عليه، فبعث إليه في رفقة بمتاع، وأعلمه أن في ثوب كذا وكذا عيبًا، فإذا بعته فبيِّن. فباع حفص المتاع ونسي أن يبيِّن

---

(١) الإحياء: (٤٠/ ١٧٠).
(٢) الورع لعبد الله بن حنبل ص ٥١.
(٣) مناقب أبي حنيفة للموفق: (١/ ٢٤١).

ولم يعلم ممن باعه، فلمَّا علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع كُلِّه[١].

أخي الحبيب.. أين نحن من هؤلاء؟!

قال مسلمة بن عبدالملك: دخلتُ على **عمر بن عبدالعزيز** بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه بعد الفجر، فلا يدخل عليه أحدٌ، فجاءته جارية بطبق عليه تمرٌ صيحاني، وكان يُعجبه التمر، فرفع بكفِّه منه، فقال: يا مسلمة، أترى لو أن رجُلاً أكل هذا، ثم شرب عليه من الماء ـ على التمر طيب ـ أكان مُجزئه إلى الليل؟ قلتُ: لا أدري. قال: فرفع أكثر منه، فقال: هذا؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين، كان كافيه دون هذا، حتى ما يُبالي أن لا يذوق طعامًا غيره. قال: فعلام يدخل النار؟ قال مسلمة: فما وقعتْ مني موعظة ما وقعتْ هذه[٢].

وعن مزمل قال: سمعت **وهيبًا** (ابن الورد) يقول: لو قمت قيام هذه السارية ما نفعك حتى تنظر ما يدخل بطنك حلال أو حرام.

وعندما نظر **حذيفة المرعشي** إلى الناس يتبادرون إلى الصف الأول، فقال: ينبغي أن يتبادروا إلى أكل خبز الحلال، ولا يتبادر إلى الصف الأول[٣].

والشيطان في صراع وجهاد لإغواء المسلم وصده عن سبيل الله.

قال **يوسف بن أسباط**: إذا تعبد الشاب يقول إبليس: انظروا من أين مطعمه؟ فإن كان مطعمه مطعم سوء، قال: دعوه، لا تشتغلوا به، دعوه

---

(١) تاريخ بغداد: (١٣/ ٣٥٨).

(٢) الورع لأحمد ص ٦٣.

(٣) الزهد للبيهقي ص ٢٥٣.

يجتهد وينصب، فقد كفاكم نصيبه[١].

وقد يجعل الله ـ عز وجل ـ نعمة المال استدراجًا لمن عصاه وخالف أمره، كما سمعنا ذلك عن أمم سابقة، ورأينا ذلك في أمم ودولٍ معاصرة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

قال شعيب بن حرب: لا تحقرنَّ فلسًا تطيع الله في كسبه، ليس الفلس يراد، إنما الطاعة تراد، عسى أن تشتري به بقلاً يستقر في جوفك حتى يغفر لك[٢].

أرى حُللاً تُصان على أناس
وأخلاقاً تداس فلا تصانُ

يقولون الزمان به فساد
وهم فسدوا، وما فسد الزمان

قال بعض السلف: لترك دينار مما يكره الله، أحب إليَّ من خمس مائة حجة[٣].

ولهذا قال الحسن: رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحلَّ الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم[٤].

---

(١) الزهد للبيهقي ص٣٥٩.
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١٠).
(٣) الورع لابن أبي الدنيا.
(٤) حلية الأولياء: (٤/ ٢٥٥).

المـــال يـــذهـــب حلّـــه وحـــرامـــه
طـــرًا ويبقـــى فـــي غـــدٍ آثـــامـــه
ليـــس المتقـــي بمتـــق لإلهـــه
حتـــى يطيـــب شـــرابـــه وطعـــامـــه
ويطيـــب مـــا تحـــوى وتسكـــب كفـــه
ويكـــون فـــي حســـن الحـــديـــث كـــلامـــه[١]

أما صدق الحديث في البيع والشراء فإنك ترى العجب من حال أولئك!

حدثنا زياد بن الربيع عن أبيه: قال رأيت **محمدًا بن واسع** يمر ويعرض حمارًا له على البيع فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: لو رضيته لم أبعه[٢].

وجاء **مجمع التيمي** بشاة يبيعها، فقال: إني أحسب أو أظن في لبنها ملوحةً.

وجاء **يوسف بن عبيد** بشاةٍ، فقال: بعها وابرأ من أنها تقلب المعلف، وتنزع الوتد، ولا تبرأ بعد ما تبيع، بيِّن قبل أن تبيع[٣].

أين نحن من هؤلاء؟!

عن السري بن يحيى قال: لقد ترك **ابن سيرين** ربح أربعين ألفًا في شيء دخله[٤].

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٣٤٩).
(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص ١٠٤.
(٣) الورع لابن أبي الدنيا ص ١٠٤.
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٤).

وعن **ميمون بن مهران**: لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبةً من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه، ومطعمه، ومشربه[١].

وكانت الزوجة والابنة الصالحة تعين على الحلال واستطابة المطعم.

قالت **ابنة العدوية** لأبيها: يا أبه، لست أجعلك في حل من حرام تطعمنيه فقال لها: أرأيت إن لم أجد إلا حرامًا.

قالت: نصبر في الدنيا على الجوع، خير من أن نصبر في الآخرة على النار.

وقال **المعافى بن عمران**: كان عشرة فيمن مضى من أهل العلم، ينظرون في الحلال النظر الشديد، لا يدخلون بطونهم، إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استفُّوا التراب، ثم عد بشر، وإبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، وعلي بن الفضيل، وأبا معاوية الأسود، ويوسف بن أسباط، ووهيب بن الورد، وحزيفة شيخ من أهل حران، وداود الطائي، فعد عشرة كانوا لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استفُّوا التراب[٢].

وكان **بشرٌ** يقول: ينبغي للرجل أن ينظر خبزه من أين هو؟ ومسكنه الذي سكنه أصله من أي شيء؟ ثم يتكلم[٣].

وقال **علي بن شعيب**: قال لي أبي: كنت قلت عند فلان قال: فقال

---

(١) السير: (٥/ ٧٤).
(٢) الورع للإمام أحمد ص ١٠.
(٣) المرجع السابق.

لي: أكلت عنده؟ قلت: نعم، قال: أحمد ربك، أكلت ما لا تُسأل عنه، يعني عن كسبه(١).

وقال **أبو يوسف الغسولي**: إنه ليكفيني في السنة اثنا عشر درهمًا، في كل شهر درهم، وما يحملني على العمل إلا ألسنة هؤلاء القرَّاء، يقولون: أبو يوسف من أين يأكل؟

وكان يقول: أنا أتفقه في مطعمي من ستين سنة.

وسأل خلف بن تميم، **إبراهيم بن أدهم** فقال: منذ كم قدمت الشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، ما جئت لرباط ولا لجهاد، جئت لأشبع من خبزٍ حلال.

وقال **ابن المبارك**: رد درهم من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف درهم، ومائة ألف، حتى بلغ إلى ستمائة ألف(٢).

وتأمَّل في سؤال فقهي: ليس المراد الجواب.. بل في السؤال تحرَّز وبراءة للذمة!

سئل **الإمام أحمد** عن الرجل يكون معه ثلاثة دراهم منها درهم لا يعرفه. قال ـ رحمه الله ـ: لا يأكل منها شيئًا حتى يعرفه.

وكان **الحجاج بن دينار** قد بعث طعامًا إلى البصرة مع رجل، وأمره أن يبيعه يوم يدخل لسعر يومه، فأتاه كتابه أني قدمت البصرة فوجدت الطعام منقصًا فحبسته، فزاد الطعام، فازددت كذا وكذا، فكتب إليه الحجاج: إنك قد خنتنا، وصلت بخلاف ماأمرناك به، فإذا أتاك كتابي فتصدَّق

---

(١) المرجع السابق.
(٢) الإحياء: (٢/ ١٠٣).

بجميع ذلك الثمن ـ ثمن الطعام ـ على فقراء البصرة، فليتني أسلم إذا فعلت ذلك[(١)].

وكانوا يتواصون بالحرص على القليل من الحلال؛ ففيه غنية وبركة..

قال بشر بن الحارث: ما ينبغي للرجل أن يشبع اليوم من الحلال؛ لأنه إذا شبع من الحلال دعته نفسه إلى الحرام، فكيف على هذه الأقدار اليوم[(٢)]؟!

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره
فسوف لعمري على قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً
وأن أقبلت كانت كثيرة همومها[(٣)]

أخي المسلم:

كان عمرو بن قيس الملائي إذا نظر إلى أهل السوق قال: ما أغفل هؤلاء عما أُعد لهم[(٤)].

وكان يونس بن عبيد يشتري الأبرسيم في البصرة، فيبعث به إلى وكيله بالسوس، وكان وكيله يبعث إليه بالخز، فإن كتب وكيله إليه أن المتاع عندهم زائد لم يشتر منهم أبدًا، حتى يخبرهم أن وكيله كتب إليه أن المتاع عندهم زائد[(٥)].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص١٣٢.
(٢) الورع للإمام أحمد ص٧.
(٣) الإحياء: (٣/ ٢٢١).
(٤) صفة الصفوة: (٣/ ١٢٤).
(٥) حلية الأولياء: (٣/ ١٥).

أخي الحبيب:

يـــــريـــــد المـــــرء أن يعطـــــى منـــــاه
ويـــــأبـــــى الله إلا مـــــا أرادا
يقـــول المـــرء فـــائـــدتـــي ومـــالـــي
وتقـــوى الله أفضـــل مـــا استفـــادا

جاء رجل من أهل الشام من سوق الخزازين، فقال المطرف بأربعمائة، فقال **يونس بن عبيد**: عندنا بمائتين، فنادى المنادي بالصلاة، فانطلق يونس إلى بني قشير؛ ليصلي بهم، فجاء وقد باع ابن أخته المطرف من الشامي بأربعمائة، فقا يونس: ما هذه الدراهم؟ قال: ذاك المطرف بعناه من ذا الرجل، قال يونس: يا عبدالله هذا المطرف الذي عرضت عليك بمائتي درهم فإن شئت خذه، وخذ مائتين وإن شئت فدعه[1].

حدَّث **أحمد بن حفص**: دخلت على أبي الحسن، يعني إسماعيل. والد إبراهيم عبدالله البخاري عند موته، فقال: لا أعلم من مالي درهمًا من حرام. ولا درهمًا من شبهةٍ.

قال **أحمد**: فتصاغرتْ إليَّ نفسي عند ذلك، ثم قال أبو عبدالله: أصدق ما يكون الرجل عند الموت[2].

ورحم الله الصحابي الجليل **أبا الدَّرداء** إذ يقول: من فقه الرَّجل المسلم استصلاحه معيشته.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) السير: (١٢/٤٤٧).

وقال ـ رضي الله عنه ـ صلاح المعيشة من صلاح الدين، وصلاح الدين من صلاح العقل.

وقال: ليس من حُبِّك الدُّنيا التماسك بما يصلحك منها[١].

وقال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ موجِّهًا القرَّاء: يا معشر القرَّاء، استبقوا الخيرات، وابتغوا من فضل الله، ولا تكونوا عيالاً على الناس[٢].

ويحكى عن **مبارك أبي عبدالله**: أنَّه كان يعمل في بستان لمولاه، وأقام فيه زمانًا، ثمَّ أنَّ مولاه صاحب البستان ـ وكان أحد تُجَّار همذان ـ جاءه يومًا، وقال له: يا مبارك، أريد رُمَّانًا حُلْوًا.

فمضى مبارك إلى بعض الشجر، وأحضر منها رُمَّانًا، فكسره مولاه، فوجده حامضًا، فحَرِدَ عليه، وقال: أطلب الحُلْوَ فتُحضِرُ لي الحامِض! هات حُلْوًا.

فمضى وقطع من شجرة أخرى، فلمَّا كسره سيِّده وجده أيضًا حامِضًا، فاشتد حَرَده عليه، وفعل ذلك مرَّةً ثالثةً، فذاقه، فوجده أيضًا حامضًا، فقال له بعد ذلك: أنت ما تعرف الحُلوَ من الحامِض؟

فقال: لا.

فقال: وكيف ذلك؟

فقال: لأني ما أكلت منه شيئًا حتى أعرف.

فقال: ولِمَ لَمْ تأكل؟

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ١٥).

(٢) المرجع السابق.

قال: لأنَّك ما أذنت لي بالأكل منه.

فعجب صاحبُ البُستان من ذلك، ولمَّا تبيَّن له صِدْقَ عَبْده؛ عظم في عينه، وزاد قدْرُه عنده. وكانت له بِنْتٌ خُطبت كثيرًا، فقال له: يا مبارك، من ترى تُزَوَّج هذه البنت؟

فقال: أهل الجاهليَّة كانوا يزوِّجون للحَسَب، واليهود للمال، والنَّصارى للجمال، وهذه الأمَّة للدين.

فأعجبه عقلُه، وذهب فأخبر به زوجته، وقال لها: ما أرى لهذه البنت زوجًا غير مبارك.

فتزوَّجها، وأعطاهما أبوها مالاً كثيرًا، فجاءت بعبدالله بن المبارك، العالم، المحدث، الزَّاهد، المجاهد، الذي كان أكرم ثمرةِ زواجٍ على أبويه في آفاق زمانه، حتَّى قال فيه الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ ويقسم على قوله: «وربِّ هذا البيت، ما رأت عيناي مثل ابن المبارك»[1].

واليوم وقد كثر الغش، والخداع، في واقع حياة بعض الناس، ندر أن تجد الصادق الصدوق في أداء الأمانة، المبتعد عن الغش والخديعة!

وإن كانت نتيجة المعصية واضحة معلومة في الآخرة فإن مآلها في الدنيا أقرب!

ذكر أنَّ **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله تعالى عنه ـ نهى في خلافته عن مذق اللبن بالماء (أي مزجه به)، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة، فإذا بامرأة تقول لابنة لها: ألا تمذُقين لبنك فقد أصبحت؟

فقالت الجارية: كيف أمذُق وقد نهى أمير المؤمنين عن المَذق؟

---

(١) وفيات الأعيان: (٢/ ٢٣٧) والتبر المسبوك ص٨٥.

فقالت: قد مذق الناس فامذُقي، فما يدري أمير المؤمنين؟

فقالت: إن كان عمر لا يعلم، فإله عمر يعلم، ما كنْتُ لأفعله وقد نهى عنه.

فوقعت مقالتها من عمر، فدعا عاصمًا ابنه، فقال: يا بُني، اذهب إلى موضع كذا وكذا، فاسأل عن الجارية ـ ووصفها له ـ.

فذهب عاصم، فإذا هي جارية من بني هلال، فقال له عمر:

اذهب يا بُني، فتزوجها، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب.

فتزوجها عاصم بن عمر، فولدت له أُمَّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم، فأتت بعمر بن عبد العزيز[١].

وأما أثر المال الحرام فواضح، حتى وإن كان المال والرجل مجاهدًا..

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال النبي ﷺ: «**كلا إني رأيته في النار في بُردةٍ غلها ـ أو عباءة ـ**»[٢].

أين نحن من هؤلاء؟!

قال **بشر بن المفضل**: جاءت امرأة بمطرف خز إلى يونس بن عبيد تعرضه عليه، فقال لها: بكم؟ قالت: بستين درهمًا، فألقاه إلى جاره، فقال: كيف تراه؟ قال بعشرين ومائة، قال: أرى ذلك ثمنه، أو نحوًا من

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم ص٢٢.

(٢) رواه مسلم.

ثمنه، فقال لها: اذهبي فاستأمري أهلك في بيعه بخمسة وعشرين ومائة. قالت: قد أمروني أن أبيعه بستين، قال: ارجعي فاستأمريهم[(١)].

وحُمل إلى الإمام البخاري بضاعة أنفذها إليه أبو حفص أحد أخص تلامذة أبيه، فاجتمع بعض التجار إليه بالمعيشة وطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم.

فقال لهم: انصرفوا الليلة. فجاءه الغد تجار آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم، فردهم، وقال إني نويت البارحة أن أدفعها إلى الأولين، فدفعها إليهم وقال: لا أحب أن أنقض نيتي[(٢)].

فكان ـ رحمه الله ـ يريد أن يعوِّد نفسه على الإيثار، والبعد عن حب المال الذي يعد من الصفات القبيحة.

كم رأينا من جمع المال ولم يتمتع به فأبقاه لغيره وأفنى نفسه كما قال الشاعر:

كـــدودة القـــز مـــا تبنيـــه يهـــدمهـــا

وغيـــرهـــا بـــالـــذي تبنيـــه ينتفـــع

لما رأى المتيقِّظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابه، وتملُّك الشيطان، وقياد النفوس ورأوا الدولة للنفس الأمارة، لجأوا إلى حصن التضرُّع والالتجاء كما يأوي العبد المذعور إلى حرم سيده[(٣)].

أخي المسلم:

ما أخذ العبد ما حرم عليه إلا من جهتين:

---

(١) السير: (٦/ ٢٩٠) وحلية الأولياء: (٣/ ١٦).

(٢) مقدمة الفتح ص ٧٤٩.

(٣) الفوائد ص ٦٢.

إحداهما: سوء ظنه بربِّه، وأنَّه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيرًا منه حلالاً.

والثانية: أن يكون عالمًا بذلك، وأن مَنْ ترك شيئًا أعاضه خيرًا منه، ولكن تغلب شهوتُه صبره، وهواهُ عقله.

فالأول من ضعف علمه، والثاني من ضعف عقله وبصيرته.

قال **يحيىٰ بن معاذ**: مَنْ جمع الله عليه قلبه في الدعاء لم يرده.

قلت: إذا اجتمع عليه قلبُه، وصدقت ضرورته وفاقته، وقويَ رجاؤه، فلا يكاد يُردُّ دعاؤه[(١)].

قال **الحسن**: إنَّ هذه المكاسب قد فسدتْ، فخذوا منها القوت، أي شبه المضطر[(٢)].

* * *

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص ١١١.

كثرة المال ونتاجه

قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦].

فالأموال والدور والقصور متاع قليل.. سنوات تمضي، وأيام تنتهي، وأنفاس لا تعود! ثم الحساب والجزاء..

قال **خالد بن صفوان**: بت ليلتي، أتمنى، فكسبت البحر الأخضر، والذهب الأحمر، فإذا يكفيني من ذلك رغيفان، وكوزان، وطمران[١].

وقال إسحاق بن جبلة: دخل **الحسن بن صالح** يومًا السوق، وأنا معه، فرأى هذا يخيط، وهذا يصبغ، فبكى وقال: انظر إليهم يتعللون حتى يأتيهم الموت[٢].

قال **الحسن**: والله، ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها، إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد، فلم يظن أنه خير له فيها، إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه[٣].

وكان همهم الآخرة وعيونهم تجاه يوم عظيم..

قال موسى بن المغيرة: رأيت **محمدًا بن سيرين** يدخل السوق نصف النهار، يكبر ويسبح ويذكر الله ـ عز وجل ـ فقال له رجل: يا أبا بكر في

---

(١) أدب الدنيا والدين ص١٢١.

(٢) السير: (٧/ ٢٧٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٦/ ٢٧٤).

هذه الساعة؟ قال: إنها ساعة غفلة[١].

وقال **مالك بن دينار**: اتخذْ طاعة الله تجارة، تأتك الأرباح من غير بضاعة[٢].

أخي المسلم:

فرِّغْ خاطرَك للهمِّ بما أُمِرتَ به، ولا تشغله بما ضُمِنَ لك، فإن الرزق والأجل قريتان مضمونان. فما دام الأجل باقيًا، كان الرزق آتيًا. وإذا سَدَّ عليك بحكمته طريقًا من طرقه، فتح لك برحمته طريقًا أنفع لك منه.

فتأمَّل حال الجنين يأتيه غذاؤه، وهو الدم، من طريق واحدة وهو السرة، فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقين اثنين، وأجرى له فيهما رزقًا أطيب وألذ من الأول، لبنًا خالصًا سائغًا. فإذا تمَّتْ مدة الرضاع، وانقطعت الطريقان بالفطام، فتح طرقًا أربعة أكمل منها: طعامان وشرابان، فالطعامان من الحيوان والنبات، والشرابان من المياه والألبان، وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ. فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة. لكنَّه سبحانه فتح له ـ إن كان سعيدًا ـ طرقًا ثمانية، وهي أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيِّها شاء.

فهكذا الرب ـ سبحانه ـ لا يمنع عبده المؤمن شيئًا من الدنيا، إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له. وليس ذلك لغير المؤمن. فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس، ولا يرضى له به؛ ليعطيه الحظ الأعلى النفيس. والعبد

---

(١) صفة الصفوة: (٣/ ٢٤٥).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٢٧.

لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه، لا يعرف التفاوت بين ما مُنع منه، وبين ما ذُخِر له. بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئًا، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليًا. ولو أنصف العبدُ ربَّه، وأنَّى له ذلك؟ لَعَلِمَ أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها، أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولاأماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه، وليسلك الطريق الموصلة إليه. قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٢] ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٩] والله المستعان[١].

قد نادت الدنيا على نفسها
لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر واريته
وجامع بددت ما يجمع[٢]

قال سعيد بن مسعود: إذا رأيت الرجل تزداد دنياه على آخرته وهو به راضٍ، فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر[٣].

وكان ابن السماك: يقول: يابن آدم إنما تغدو في كسب الأرباح،

---

(١) الفوائد ص ٧٥.
(٢) تاريخ بغداد: (٤/ ٦٦).
(٣) الإحياء: (٣/ ٢٢٣).

فاجعل نفسك فيما تكسبه أنَّك لم تكسب مثلها[١].

ومـــن ينفـــق الســـاعـــات فـــي جمـــع مـــالـــه
مخـــافـــة فقـــرٍ فـــالـــذي فعـــل الفقـــر[٢]

* * *

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٧٤).
(٢) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٠٠).

فوائد المال

فوائد المال تنقسم إلى دنيوية ودينية:

أما الدنيوية: فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية: فتنحصر في **ثلاثة أنواع:**

أحدها: أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة، كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم، والملبس، والمسكن، وغيرها من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، لا يدخل في هذا التوسُّع والزيادة على الحاجة، فإنَّ ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو **أربعة أقسام**:

أحدهـا: الصدقة وفضائلها كثيرة مشهورة.

القسم الثاني: المروءة، نعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية، وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية؛ إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء، وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهو من الفوائد الدينية، فإن النبي ﷺ قال: «**ما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة**» وهذا لأنَّه يمنع العتاب من معصية الغيبة، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجرًا على الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لمهنة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذَّر عليه سلوك الآخرة بالفكر، والذكر، اللذين هما أعلى مقامات السالك، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن؛ لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر الفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يحصل به خيرًا عامًا، كبناء المساجد والقناطر، والوقوف المؤبدة. فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة، من الخلاص من ذلك السؤال، وحقارة الفقر، والعز بين الخلق والكرامة في القلوب، والوقار[١].

أخي المسلم:

كان السَّلف يخشون النعم أن تكون استدراجًا لهم، ولهذا قال بعضهم: من سأل الله الدنيا فإنَّما يسأل طول الوقوف للحساب[٢].

وكان **أبو الدرداء** يقول: اللهم إني أعوذ بك من تفرقة القلب قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يوضع لي في كل نفر قو مالاً[٣].

والكنز ورأس المال في هذه الدنيا، ما قاله **علي بن الحسين**: من قنع

---

(١) منهاج القاصدين ص ٢١٤ وما بعدها.

(٢) الإحياء: (٢/ ٢٢٤).

(٣) صفة الصفوة: (١/ ٦٣٩).

بما قسم الله له فهو من أغنى الناس[1].

نصيبك مما تجمع الدهر كله
ردان تلوى فيهما وحنوط

أخي المسلم:

الدراهم أربعة: درهم اكتسبُ بطاعة الله وأخرج في حق الله، فذاك خير الدرهم، ودرهم اكتسب بمعصية الله، وأخرج في معصية الله، فذاك شرُّ الدراهم، ودرهم اكتسب بأذى مسلم وأخرج في أذى مسلم، فهو كذلك، ودرهم اكتسب بمُباح وأُنفق في شهوة مباحة، فذاك لا له ولا عليه.

هذا أصول الدراهم، ويتفرغ أُخَر: منها درهم اكتسب بحق وأُنفق في باطل، ودرهم اكتسب بباطل وأنفق في حق، فإنفاقه كفارته، ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق في طاعة. وكما يتعلق الثواب والعقاب، والمدح والذمُّ بإخراج الدرهم، فكذلك يتعلق باكتسابه. وكذلك يسأل عن مستخرجه ومصروفه من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟[2].

قال **ميمون بن مهران**: لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام جزءًا من الحلال[3].

قال **زبير بن الحارث**: ألف بعرة أحب إليَّ من ألف دينار[4].

قال **أبو الدرداء**: أهل الأموال يأكلون ونأكل، ويشربون ونشرب،

---

(١) حلية الأولياء: (٣/ ١٣٥).
(٢) الفوائد ص٢٢٢.
(٣) الورع لعبد الله بن حنبل ص ٤٤.
(٤) السير: (٥/ ٢٩٦).

ويلبسون ونلبس، ويركبون ونركب، ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر إليها معهم، وحسابهم عليها ونحن براء[(١)].

لقد ورث **الإمام البخاري** تركة عظيمة من أبيه العلامة إسماعيل، ولم يكن إسماعيل في تجارته كسائر الناس من التجار الذين قد لا يتورعون عن بعض الأمور، أو يقع من عمالهم ومساعديهم شيء من التساهل والخطأ، فيقعون في أمور يلزم اجتنابها والحذر منها، وهكذا تصبح الأموال المكتسبة منها موضع شك وارتياب، ولكن إسماعيل كان حذرًا في تجارته، محتاطًا في اكتسابه، فقد كان مجتنبًا بعيدًا كل البعد عن جميع مواضع الشبهات، وقد قال ذلك لأحيد بن حفص، وكان من أخص تلاميذه، عند وفاته:

لا أعلم من مالي درهمًا من حرام، ولا درهمًا من شبهة[(٢)].

وتعجب أبو حفص لهذا القول الذي يدل على أن إسماعيل كان مبالغًا في الإحتياط، واتقاء الشبهات، وفي الوقت نفسه كان يريد أن يوضح لوارثه الذي كانت الأقدار تهيئه ليكون إمام الدنيا، ويلقب بإمام المحدثين، أن لا يقع في قلبه أدنى شك فيجتنبه، أو يتنازل عنه، بل يستفيد منه في مشاكله؛ لأنه طاهر وطيب من كل وجه.

وقال **محمد بن أبي حاتم** عن الإمام البخاري: إنه كان يعطي هذا المال مضاربة، وهي نوع من أنواع التجارة؛ لكي يتفرغ لخدمة العلم النبوي، وكان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أغناه من كل جهة.

---

(١) السير: (٢/ ٣٥٠).
(٢) مقدمة الفتح: (٤٧٩).

وكان سمحًا، رحيمًا، قد أُعطي حظًا وافرًا منهما، فذات مرة قطع له أحد الغرماء خمسة وعشرين ألفًا، فقيل له بأن الغريم قد وصل إلى آمل، وبإمكانك أن تأخذ منه الدراهم، فقال لهم: لا ينبغي لي أن أتعبه.

قال محمد بن أبي حاتم: فلما عرف الغريم جهودنا انتقل إلى خوارزم، فقلنا له: استعن بكتاب الوالي إلى حاكم خوارزم (لأن الغريم ليس بعيدًا، وبإمكانهم أن يلحقوه بكل سهولة) فقال لهم:

إن أخذت منهم كتابًا طمعوا، ولن أبيع ديني بدنياي.

قال محمد بن حاتم:

وكان لأبي عبدالله غريم قطع عليه مالاً كثيرًا، فبلغه أنه قدم آمل ونحن بفربر، فقلنا له: ينبغي أن تعبر وتأخذه بمالك، فقال: ليس لنا أن نروعه.

ثم بلغ غريمه، فخرج إلى خوارزم فقلنا: ينبغي أن تقول لأبي سلمة الكشاني، عامل آمل؛ ليكتب إلى خوارزم في أخذه، فقال: إن أخذت منهم كتابًا طمعوا مني في كتاب، ولست أبيع ديني بدنياي.

فجهدنا فلم نأخذه حتى كلمنا السلطان عن أمره، فكتب إلى والي خوارزم، فلما بلغ أبا عبدالله ذلك وجد وجدًا شديدًا، وقال: لا تكونوا أشفق عليَّ من نفسي، وكتب كتابًا، وأردف تلك الكتب بكتب وكتب إلى بغض، فرجع غريمه، وقصد ناحية مرو فاجتمع التجار وأخبروا السلطان، فأراد التشديد على الغريم، فكره ذلك أبو عبدالله، وصالح غريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيئًا يسيرًا، وكان المال خمس وعشرين ألفًا، ولم يصل من ذلك إلى درهم ولا إلى أكثر منه[1].

---

(١) الطبقات الكبرى للسبكي: (٢/ ٢٢٦).

وكان يهدف **الإمام البخاري** من تجارته هذه (أي المضاربة) أن ينفع خلق الله، فكان يساعد أهل العلم، وطلبة العلم، والشيوخ المحدثين، وكان ينفق من دخله خمسمائة درهم على الفقراء والمساكين، وطلبة العلم، وأصحاب الحديث كل شهر، فكان يعين طلبة العلم، ويشجعهم على الانهماك في طلب العلوم النبوية، ويحسن إلى أهل العلم كثيرًا، ولم يكن يعرف الترف والبذخ في حياته في المأكل والمشرب، فكان الصبر والاحتمال قد أصبحا طبيعةً له.

هب أنك قد ملكت الأرض طُرًا
ودان لك البلاد فكان ماذا؟
أليس غدًا مصيرك تُرب
ويحثو التراب هذا ثم هذا

قال **الحسن**: إذا أراد الله بعبد خيرًا أعطاه من الدنيا عطية، ثم يمسك فإذا نفد أعاد عليه، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطًا.

وقال **أبو حازم سملة بن دينار**: إن وقينا شر ما أعطينا لم ننل ما فاتنا[1].

وعن **حميد الطويل** قال: خطب رجل إلى الحسن، وكنت أنا السفير بينهما، قال: فكأن قد رضيته يومًا أثنى عليه بين يديه، فقلت: يا أبا سعيد وأزيدك أن له خمسين ألف درهم، قال: له خمسون ألف ما اجتمعت حلال، قلت: يا أبا سعيد إنه كما علمت ورع مسلم، قال: إن كان

---

(١) صفة الصفوة: (٢/١٥٨).

جمعها من حلال فقد ضَنَّ بها عن حق، لا والله، لا أجري بيننا صهرًا أبدًا[١].

وحال الناس مع الأموال، وزيادتها ونقصانها عجيب، ومن أعجب العجيب أنه يهتم بالنقص من ماله، ولا يهتم بالنقص مما هو أعظم من أموال الدنيا!

قال **يحيىٰ بن معاذ**: عجبت ممن يحزن على نقصان ماله. كيف لا يحزن على نقصان عمره؟![٢].

وعندما مرض **قيس بن سعد بن عبادة**، استبطأ إخوانه، فقيل له: إنهم يستحون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا: من كان عليه لقيس حقٌّ فهو منه في حل، قال: فانكسرت درجته بالعشي؛ لكثرة من عاده[٣].

وكتب غلامٌ **لحسان بن أبي سنان** إليه من الأهواز: أنَّ قصب السكر أصابته آفة، فاشترِ السكر فيما قبلك.

قال: فاشتراه من رجل فلم يأت عليه إلا قليل، فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفًا، فأتى صاحب السكر، فقال: يا هذا إن غلامي كان كتب إليَّ ولم أعلمك، فأقلني فيما اشتريت منك، فقال الآخر: فقد أعلمتني الآن وطيَّبته لك. قال: فرجع فلم يحتمل قلبه، قال فأتاه فقال: يا هذا، إني لم

---

(١) حلية الأولياء: (٢/١٥٦).

(٢) صفة الصفوة: (٤/٩٥).

(٣) منهاج القاصدين ص ٢٢١.

آت هذا الأمر من قبل وجهه، فأحب أن يسترد هذا البيع، قال فمازال به حتى ردَّ عليه[1].

قال **سلمة الفراء**: كان رأس مال عتبة الغلام فلسًا يتشري به خوصًا - الخوص: ورق المقل والنخل والنارجيل وما شاكلها، واحدته خوصة - يعمله ويبيع بثلاثة فلوس، فيتصدق بفلس، ويتعشى بفلس، وفلس رأس ماله.

أخي المسلم:

دع التهافت في الدنيا وزينتها
ولا يغرنَّك الاكثار والجشع
واقنع بما قسم الرحمن، وارض به
إن القناعة مال ليس ينقطع
وخل عنك فضول العيش أجمعها
فليس فيها إذا حققت منتفع[2]

ولو تأمل الناس اليوم في كلمات يسيرة لهانت الدنيا..

قال **سميط بن عجلان**: إنما بطنك يا بن أدم شبر في شبر فلِمَ يدخلك النار[3]؟.

لا يومك ينساك
ولا رزقك يعدوكا

(١) الورع لابن أبي الدنيا ص ١٠٥.
(٢) مكاشفة القلوب ص ٢٨٥.
(٣) الإحياء: (٣/ ٢٥٤).

ومـــن يطـــع فــي النـــاس
يكـــن للنـــاس مملـــوكـــا
فليكـــــن سعيـــــك لله
فـــــإنَّ الله يكفيكـــــــا[(١)]

كان داود الطائي قد ورث عن أمِّه أربعمائة درهم، فمكث يتقوتها ثلاثين عامًا، فلمَّا نفذت جعل ينقض شقوف الدويزة (تصغير الدار) فيبيعها حتى باع الخشب، والبواري (مفردها البورية): وهي الحصير المنسوج من القصب واللبن حتى بقى في نصف سقفة، وجاءه صديقٌ له فقال: يا أبا سليمان لو أعطيتني هذه فأبضعها لك؛ لعلنا نستفضل لك فيها شيئًا ينتفع به. فمازال به حتى دفعها إليه، ثم فكر فيها فلقيه بعد العشاء الآخرة فقال: أرددها عليَّ فقال: ولم ذاك يا أخي؟ قال: أخاف أن يدخل فيها شيء غير طيب فآخذها[(٢)].

تقنـــع بمـــا يكفيـــك واستعمـــل الـــرضـــى
فـــإنـــك لا تـــدري أتصبـــح أم تمســـي[(٣)]

قال الحسن: بئس الرفيقان، الدينار والدرهم لا ينفعانك حتى يفارقاك[(٤)].

وقال مالك بن دينار: وددت أنَّ الله ـ عز وجل ـ جعل رزقي في حصاة

---

(١) طبقات الحنابلة ص ٤١٩.
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١٣٩).
(٣) التذكرة ص٥٥.
(٤) السير: (٤/ ٥٧٦).

أمصها، لا ألتمس غيرها حتى أموت[١].

وقال **محمد بن سوقة**: أمران لو لم نعذب إلا بهما لكنا مستحقين بهما لعذاب الله؛ أحدنا يزاد الشيء من الدنيا فيفرح فرحًا ما علم أنه فرحه بشيء زاده قط في دينه، وينقص الشيء من الدنيا فيحزن عليه حزنًا ما علم أنَّه حزنه على شيء نقصه قط في دينه[٢].

قال **الشافعي**: ما فزعت من الفقر قط، طلب فضول الدنيا عقوبة، عاقب بها الله أهل التوحيد[٣].

عجبت لمن يخاف حُلول فقر
ويأمن ما يكون من المنون
أتأمن ما يكون بغير شك
وتخشى ما ترجحه الظنون[٤]

قال **أبو صالح حمدون بن أحمد**: كفايتك تساق إليك من غير تعب ولا نصب، وإنما التعب في الفضول[٥].

وما يدري الفقير متى غناه
ولا يدري الغني متى يعيل

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٣٧٠).
(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١١٧).
(٣) السير: (١٠/ ٩٧).
(٤) جنة الرضا: (١/ ٦٣).
(٥) صفة الصفوة: (٤/ ١٢٢).

قال عطاء بن مسلم: عاش داود الطائي عشرين سنة بثلاث مائة درهم[١].

خــذ القنــاعــة مــن دنيــاك، وارض بهــا
لــو لــم يكــن لــك إلا راحــة البــدن[٢]

أخي المسلم:

أمــوالنــا لــذوي الميــراث نجمعهــا
ودورنــا لخــراب الــدهــر نبنيهــا
والنفــس تكلــف بــالــدنيــا وقــد علمــت
أن الســلامــة تــركُ مــا فيهــا
فــلا الإقــامــة تنجــي النفــس مــن تلــف
ولا الفــرار مــن الأحــداث ينجيهــا
وكــل نفــس لهــا زور يصبِّحهــا
مــن المنيــة يــومًــا أو يمسيهــا

قال عمرو بن دينار: ما رأيت الدينار والدرهم عند أحد أهون منه عند الزهري، كأنها بمنزلة البعر[٣].

وعن النعمان بن حميد قال: دخلت مع خالي على سلمان الفارسي بالمدائن، وهو يعمل الخوص، فسمعته يقول: أشتري خوصًا بدرهم،

---

(١) السير: (٧/ ٤٢٤).
(٢) موارد الظمآن: (٣/ ٤٩٣).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ١٠٩).

فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهمًا فيه، وأنفق درهمًا على عيالي، وأتصدق بدرهم(١).

العيـــش ســـاعـــات تمـــر
وخطـــوب أيـــام تكـــر
اقنـــع بعيشـــك تـــرضـــه
واتـــرك هـــواك تعيـــش حـــر
فلـــرب حتـــف ســـاقـــه
ذهـــب ويـــاقـــوت ودر(٢)

قال **سفيان الثوري**: العالم طبيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا اجترَّ الطبيب الداء إلى متى يداوي غيره؟(٣).

وفي الحكم المنثورة: بشر مال البخيل بحادثٍ، أو وارث(٤).

كان **المسور بن مخرمة** قد احتكر طعامًا كثيرًا، فرأى سحابًا في الخريف فكرهه، فقال: ألا أراني كرهت ما ينفع المسلمين؟ فإلى، أن لا يربح فيه شيئًا، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال عمر: جزاك الله خيرًا(٥).

المـــرء يجمـــع، والـــزمـــان يفـــرق
وظـــل يـــرقـــع والخطـــوب تمـــزق

---

(١) صفوة الصفوة: (١/ ٥٤١).
(٢) الإحياء: (٣/ ٢٥).
(٣) تذكرة الحفاظ: (١/ ٢٠٤).
(٤) مكاشفة القلوب ص ١٢٤.
(٥) جامع العلوم والحكم ص ١٣٢.

كان **حماد بن سلمة** في سوقه، فإذا ربح في ثوب حبة أو حبتين شد جيوبه وقام[١].

سهـــــرت أعيـــــن ونـــــامـــــت عيـــــون
لأمـــــور تكـــــون أو لا تكـــــون
فـــاطـــرد الهـــم مـــا استطعـــت عـــن الـ
نفـــس فحمـــلانـــك الهمـــوم جنـــون
إن ربَّـــاً كفـــاك بـــالأمـــس مـــا كـــا
ن سيكفيـــك فـــي غـــدٍ مـــا يكـــون

عن **ابن عباس** ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما ضُرب الدينار، والدرهم، أخذه إبليس ووضعه على عينيه وقال أنت ثمرة قلبي وقُرة عيني، بك أطغى، وبك أكفر، وبك أدخل الناس النار، رضيت من ابن آدم بحب الدنيا أن يعبدني[٢].

وقال **بعض البلغاء**: خير الأموال، ما أخذته من الحلال، وصرفته في النوال، وشر الأموال، ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام[٣].

كان **الليث بن سعد** يستغل عشرين ألف درهماً في كل سنة وقال: ما وجبت عليَّ زكاة قط.

وقال **حسان بن أبي سنان**: لولا المساكين ما اتَّجرت[٤].

---

(١) شذرات الذهب: (١/ ٢٦٢).
(٢) صفة الصفوة: (١/ ٧٥٧).
(٣) أدب الدنيا والدين ص ٢١٤.
(٤) حلية الأولياء: (٣/ ١١٦).

وقال يونس بن عبيد: إنما درهمان، درهم أمسكت عنه حتى طُلب لك فأخذته، ودرهم وجب لله ـ تعالى ـ عليك فيه حق فأديته[١].

* * *

(١) حلية الأولياء: (٣/ ١٧).

ترك التجارة للعبادة

قال ـ عز وجل ـ محذرًا من الانشغال عن الطاعة والعبادة بأمور الدنيا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ [المنافقون: ٩].

قيل **لبشر بن الحارث**: بالله يا أبا نصر أيهما أحلى، الدنانير أو الدراهم؟ قال: الطاعة والله أحلى منهما جميعًا[١].

وقال **خلف بن حوشب**: كنت مع الربيع بن أبي راشد في الجبَّانة فقرأ رجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ [الحج: ٥].

فقال الربيع: حال ذكر الموت بيني وبين كثير من التجارة، فلو فارق ذكر الموت قلبي ساعة، لخشيت أن يفسد عليَّ قلبي. ولولا أن أخالف من كان قبلي لكانت الجبانة مسكني إلى أن أموت[٢].

قال **أبو الدرداء**: بُعث النبي ﷺ وأنا تاجر، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة، فلم يجتمعا، فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة، والذي نفس أبي الدرداء بيده، ما أحب أن أملك حانوتًا على باب المسجد لا يخطئني فيه صلاة، وأربح فيه كل يوم أربعين دينارًا، وأتصدق بهما كلها في سبيل الله، قيل له: يا أبا الدرداء وماتكره من ذلك؟ قال: شدة الحساب[٣].

---

(١) تاريخ بغداد: (١٤/ ٤٢١).

(٢) صفة الصفوة: (٣/ ١٠٩).

(٣) حلية الأولياء: (١/ ٢٠٩).

قال **أبو الدرداء** اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتى، واعلموا أنَّ قليلاً يغنيكم، خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا ينسى.

وكان **الفضيل بن عياض** يقول: أصلح ما أكون أفقر ما أكون، وأني لأعصي الله أعرف ذلك في خلق حماري وخادمي[١].

وقال **أبو علي الثقفي**: يا من باع كل شيء بلا شيء، واشترى لا شيء بكل شيء.

وقال: أفٍّ من أشغال الدنيا إذا أقبلت، وأفٍّ من حسرتها إذا أدبرت[٢].

فلو كانت الدنيا تنال بفطنةٍ
وفضلٍ ونقلٍ نلت أعلى المراتب
ولكنما الأرزاق حظٌّ وقسمة
بفضل مليك لا بحيلة طالب

قال **أبو حازم سلمة بن دينار**: يسير الدنيا يشغل عن كثرة الآخرة[٣].

يقولون لي فيك انقباض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس إكراما[٤]

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٢٣٨).
(٢) السير: (١٥/ ٢٨٢).
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ١٦٦).
(٤) السير: (١٧/ ٢٠).

وقال **مالك بن دينار**: السوق مكثرة للمال، مذهبة للدين[١].

أخي المسلم:

قال ابن مسعود: إن العبد ليهم بالأمر في التجارة والإمارة. حتى ييسر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة، اصرفوه عنه؛ فإنه إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فظل يتطيَّر بقوله: سبني فلان وأهانني فلان. وما هو إلا فضل الله ـ عز وجل ـ[٢].

قال **أبو حازم ـ سلمة بن دينار ـ**: إن بضاعة الآخرة كاسدة، فاستكثروا منها في أوان كسادها، فإنه لو جاء يوم نفاقها لم تصل منها إلى قليل ولا كثير[٣].

وقال **عبدالرحمن بن مهدي**: والله لا تجد فقد شيء تركته ابتغاء وجه الله، كنت أنا وأخي شريكين فأصبنا عللاً كثيرة، فدخل قلبي من ذلك شيء، فتركته لله، وخرجتُ منه، فما خرجت من الدنيا حتى رد الله عليَّ ذاك المال، عامته إليَّ وإلى ولدي. زَوَّج أخي ثلاث بناتٍ من بني، وزوجت ابنتي من ابنه، ومات أخي فورثه أبي، ومات أبي فورثته أنا فرجع إليَّ وإلى ولدي في الدنيا[٤].

تجـــرد مـــن الـــدنيـــا فـــإنـــك إنمـــا
خـــرجـــت إلـــى الـــدنيـــا وأنـــت مجـــردُ[٥]

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٣٨٥).
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٨.
(٣) صفة الصفوة: (٢/ ١٦٣).
(٤) صفة الصفوة: (٤/ ٦).
(٥) وفيات الأعيان: (٥/ ٥٤).

أخي المسلم:

قال **الحسن**: مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عذاب، إن أخذه من حله حوسب به، وإن أخذه من حرام عُذِّب به، ابن آدم يستقل ماله، ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من مصيبته في دنياه[١].

وقيل: **لعبدالله بن عمر**: توفِّي فلان الأنصاري. قال: رحمه الله. فقيل: ترك مائة ألف، قال: لكن هي لم تتركه[٢].

أمـــوالنـــا لـــذي الميـــراث نجمعهـــا
ودورنـــا لخـــراب الـــدهـــر نبنيهـــا
تلـــك المنـــازل فـــي الآفـــاق خـــاويـــة
أضحـــت خـــرابـــاً وضـــاق المـــوت بـــانيهـــا

قال **أبو الدرداء**: الحمد لله الذي جعل الأغنياء يتمنون أنهم مثلنا عند الموت، ولا نتمنى أننا مثلهم حينئذ، ما أنصفنا إخواننا الأغنياء، يحنوننا على الدين، ويعاودوننا على الدنيا[٣].

أخي المسلم:

غوائل المال وآفاته، تنقسم إلى دينية ودنيوية:

أما الدينية فثلاث:

الأولى: أنه يجر إلى المعاصي غالبًا؛ لأن من استشعر القدرة على المعصية، انبعثت داعيته إليها.

---

(١) الإحياء: (٣/ ٢٢٤).
(٢) الزهد لابن السري: (١٠/ ٣٣٥).
(٣) السير: (٢/ ٣٥٠).

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يئس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها.

ومن العصمة أن لا تجد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنَّه يحرك إلى التنعم في المباحات، حتى تصير له عادة وإلفًا، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسبٍ فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفاق؛ لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله، وهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادات ذكر الله ـ تعالى ـ والتفكر في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلبًا فارغًا.

وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرًا في خصومة الفلاحين، ومحاسبتهم وخيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج، والأُجراء على التقصير في العمارة، ونحو ذلك.

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكرًا في خيانة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضييعه المال.

وكذا سائر أنواع المال، حتى صاحب المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه.

ومن له قوت يوم بيوم فهو سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما

يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف، والحزن، والهم، والغم، والتعب.

فإذًا ترياق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات[(١)].

قال يحيىٰ بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما في ماله (أي في مال الإنسان) عند موته، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله.

يريد المرء أن يُعْطَىٰ مناه
ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي
وتقوى الله أكرمُ ما استفادا[(٢)]

قال **أبو الدرداء** ـ رضي الله عنه ـ: أبو الدرهمين أشد حبسًا، أو قال أشد حسابًا من ذي الدرهم[(٣)].

❋ ❋ ❋

---

(١) مختصر منهاج القاصدين: (٤/٢) وما بعدها.
(٢) طبقات الشافعية: (١٨٤/٢).
(٣) الإحياء: (٢١٠/٤).

بيان علاج الحرص والطمع
والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد القناعة، فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخرج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لابد له منه، فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوبٍ واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقد جاء في الحديث: «**ثلاث منجيات: خشية الله ـ تعالى ـ في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب**»(١).

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لابد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن روح القدس نفث في روعي، أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن**

---

(١) حسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٣٩).

يطلبه بمعصية الله ـ عز وجل ـ، فإن الله ـ تعالى ـ لا يُنال ما عنده إلا بطاعته»(١).

وإذا انسدَّ عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الطمع والحرص من الذل.

وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتهيات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عزَّ نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأرذال الناس، والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم، ويخيِّر عقله بين مشابهة أرذال العالمين، أو صفوة الخلق عند الله ـ تعالى ـ حتى يهون عليه الصبر على القليل، والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفادًا منه ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦﴾ [آل عمران: ١٩٦].

الخامس: أن يفهم ما في المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبدًا إلى من دونه في الدنيا، وإلى من فوقه في الدين، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) صحيح الجامع برقم (٢٠٨٥).

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[١].

وعماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء.

كان الأوزاعي الفقيه كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات:

المـــال ينفـــذ حِلّـــهُ وحـــرامـــه
يـــومـــاً ويبقـــى بعـــده آثـــامـــه
ليـــس التقـــي بمتـــق لإلهـــه
حتـــى يطيـــب شـــرابـــه وطعـــامـــه
ويطيـــب مـــا يجنـــي ويكســـب آجلـــه
ويطيـــب مـــن لفـــظ الحـــديـــث كـــلامـــه
نطـــق النبـــي لنـــا بـــه عـــن ربـــه
فعلـــى النبـــي صـــلاتُـــه وســـلامـــه[٢]

رزقنا الله جميعًا الرزق الحلال الطيب المبارك، وجعل ما في أيدينا عونًا على الطاعة، وغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين. وصلى الله وسلم على نبينا، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه مسلم.
(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٤٠٥)، أدب الدنيا ص ٢١٤.


أنهلك وفينا الصالحون؟!

المقدمة

الحمد لله الذي خصَّ هذه الأمة بالخيرية، والصلاة والسلام على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن من تأمل في حياة المسلمين اليوم وجد أن البعض منهم قد أهمل القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد لبَّس الشيطان في ترك هذه الشعيرة العظيمة بأعذار واهية.

وللرغبة في نفع نفسي وإخواني المسلمين، أقدم الجزء «**الثاني والعشرين**» من سلسلة «**أين نحن من هؤلاء؟**» وهو مختص بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

جعل الله أعمالنا صواباً خالصة لوجهه الكريم.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخـل

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُوي بساطه، وأُهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخُربت البلاد، وهُلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد»(١).

ولقد جعل الله ـ تعالى ـ حماية العقيدة، وصيانة الفضيلة، وعز الأمة والفلاح للمؤمنين منوطاً بالقيام بهذا الواجب العظيم، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منزلته في الإسلام رفيعة، وقد عده بعض العلماء الركن السادس من أركان الإسلام.

وقدمه الله ـ عز وجل ـ على الإيمان لفظًا، كما في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقدمه الله ـ عز وجل ـ في سورة التوبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٧١].

---

(١) الإحياء ٢/ ٣٠٢.

وفي هذا التقديم إيضاح لعظم شأن هذا الواجب وبيان لأهميته في حياة الأفراد والمجتمعات والشعوب، وبتحقيقه والقيام به تصلح الأمة ويكثر فيها الخير ويضمحل الشر ويقل المنكر، وبإضاعته تكون العواقب الوخيمة والكوارث العظيمة والشرور الكثيرة، وتتفرق الأمة وتقسو القلوب أو تموت، وتظهر الرذائل وتنتشر، ويظهر صوت الباطل ويفشو المنكر.

وقد ذكر النبي ﷺ درجات تغيير المنكر بقوله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[١].

قال **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: «ومن لم يكن في قلبه بغض ما يبغض الله ورسوله من المنكر الذي حرّمه من الكفر والفسوق والعصيان، لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه، فإن لم يكن مبغضاً لشيء من المحرمات أصلاً لم يكن معه إيمان أصلاً».

جاء رجل إلى **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ: فقال له: إني أعمل أعمال الخير كلها إلا خصلتين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «**لقد طمست سهمين من سهام الإسلام إن شاء الله غفر لك وإن شاء عذبك**».

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، وكل واحد من الأمة مخاطب بقدر قدرته، وهو من أعظم العبادات».

---

(١) رواه مسلم.

ثم قال ـ رحمه الله ـ في ضابط هذا العمل: وليس لأحد أن يزيل المنكر بما هو أنكر منه: مثل أن يقوم واحد من الناس يريد أن يقطع يد السارق، ويجلد الشارب، ويقيم الحدود؛ لأنه لو فعل ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد؛ لأن كل واحد يضرب غيره ويدعي أنه استحق ذلك؛ فهذا مما ينبغي أن يقتصر فيه على ولي الأمر المطاع كالسلطان ونوابه.

وكذلك دقيق العلم الذي لا يفهمه إلا خواص الناس.

وجماع الأمر في ذلك بحسب قدرته.

وإنما الخلاف فيما إذا غلب على ظن الرجل أن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر لا يطاع فيه هل يجب عليه حينئذٍ؟ على قولين. أصحهما أنه يجب وإن لم يقبل منه إذا لم يكن مفسدة الأمر راجحة على مفسدة الترك، كما بقي نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عاماً ينذر قومه. ولما قالت الأمة من أهل القرية الحاضرة البحر لواعظي الذين يعدون في السبت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤] أي نقيم عذرنا عند ربنا، وليس هداهم علينا؛ بل الهداية إلى الله(١).

قال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى ٣/ ٢٠٣.

يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم[١].

أخي المسلم:

قال **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: وفي الجملة فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية؛ فإذا غلب على ظنه أن غيره لا يقوم به تَعينَ عليه ووجب عليه ما يقدر عليه من ذلك؛ فإن تركه كان عاصياً لله ولرسوله. وقد يكون فاسقاً وقد يكون كافراً.

وينبغي لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون **فقيهاً** قبل **الأمر**، **رفيقاً عند الأمر**، ليسلك أقرب الطرق في تحصيله، **حليماً بعد الأمر**؛ لأن الغالب أن لابد أن يصيبه أذى كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧].

قال **الشيخ تقي الدين** ـ رحمه الله ـ: في قوله ﷺ: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**» أنه لم يبق بعد هذا الإنكار ما يدخل في الإيمان حتى يفعله المؤمن؛ بل الإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان؛ ليس مراده أن من لم ينكر لم يكن معه من الإيمان حبة خردل؛ ولهذا قال: «**وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ**» فجعل المؤمنين ثلاث طبقات، فكل منهم فعل الإيمان الذي يجب عليه.

قال: وعلم بذلك أن الناس يتفاضلون في الإيمان الواجب عليهم بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطاب إليهم كلهم[٢].

ومن لم يحب ما أحبه الله ـ وهو المعروف ـ ويبغض ما أبغضه الله

---

(١) اعلام الموقعين (٣/ ١٦).
(٢) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢٠٤.

تعالى ـ وهو المنكر ـ لم يكن مؤمناً؛ فلهذا لم يكن وراء إنكار المنكر بالقلب حبة خردل من إيمان. ولا يمكن أن يحب جميع المنكرات بالقلب إلا إن كان كافراً، وهو الذي مات قلبه، كما سُئِل بعض السلف عن ميت الأحياء في قولهم:

ليس من مات فاستراح بميت إنــما الميت ميت الأحــياء

فقال: هو الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً؛ لكن من الناس من ينكر بعض الأمور دون بعض، فيكون في قلبه إيمان ونفاق، كما ذكر ذلك من ذكره من السلف حيث قالوا: القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن. وقلب أغلف فهو، قلب الكافر. وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق. وقلب فيه مادتان: مادة تمده بالإيمان، ومادة تمده بالنفاق. فذلك خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً»[١].

وقد قال سماحة الشيخ **عبدالعزيز بن باز** ـ رحمه الله ـ: «فعند قلة الدعاة وعند كثرة المنكرات وعند غلبة الجهل **كحالنا اليوم**، تكون الدعوة فرض عين على كل واحدٍ بحسب طاقته»[٢].

أما من يتأخرون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحججٍ واهية، وأعذار متتالية، فقد قال عنهم **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: «وأقوامٌ ينكلون عن الأمر والنهي والقتال، الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا، وهم قد سقطوا في الفتنة.. وهذه حال كثير من المتدينين، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين

---

(١) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢٠٤.
(٢) الدعوة وأخلاق الدعاة ص١٦.

كله لله، لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه»(١)

ومن رأى المنكر ولم ينكر ورضيه فهو شريك في الإثم مع فاعل المنكر لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] في الإثم.

قال **القرطبي ـ رحمه الله ـ**: «فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها. فإن لم يقدر النكير عليهم، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية..».

وقال ـ عز وجل ـ في الآية الأخرى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣]. فالآية الأولى توبيخ للمسارعين في الإثم، والآية الثانية: توبيخ للعلماء لتركهم النهي.

وقال **بعض العلماء**: «ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم».

وقال **الضحاك**: «مافي القرآن آية أخوف عندي منها.. لا ننهى».

وبين بعض المفسرين أن ذم تاركي النهي؛ أبلغ وأقوى وأشد لتفريقهم بين معنى العمل والصنيع فإن العمل يكون صناعة إذا صار مستقراً أو

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/١٦٧) ملخصاً.

متمكناً وراسخاً، فجعل ذنب المسارعين ذنباً غير راسخ، والعلماء التاركين للنهي ذنبهم راسخ.

قال **الحسن**: لقد أدركت أقواماً كانوا أأمر الناس بالمعروف، وأأخذهم به، وأنهى الناس عن منكر وأتركهم له، ولقد بقينا في أقوام أأمر الناس بالمعروف وأبعدهم منه، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه، فكيف الحياة مع هؤلاء[1]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٥٥).

بواعث الأمر بالمعروف

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، ويُشكر فلا يكفر، وأن يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال ـ كما قال بعضُ السلف: وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله، وأن لحمي قرض بالمقاريض.

وكان عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز يقول لأبيه: وددت أني غلت بي وبك القدور في الله عز وجل.

ومن لحظ هذا المقام والذي قبله هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله تعالى، وربما دعا لمن آذاه ـ كما قال ذلك النبي ﷺ لما ضربه قومه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

وبكل حال يتعين الرفق في الإنكار. قال **سفيان الثوري**: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما

---

(١) رواه أحمد.

يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى».

وقال الإمام **أحمد**: «الناس محتاجون إلى مداراة ورفق الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معلن بالفسق فلا حرمة له، قال: وكان أصحاب ابن مسعود إذا مرُّوا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلاً رحمكم الله مهلاً رحمكم الله.

وقال ـ رحمه الله ـ: يأمر بالرفق والخضوع؛ فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد ينتصر لنفسه[١].

قال **النووي** ـ رحمه الله ـ إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة: والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد ولم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء»[٢].

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: علينا أن نعرف المنكر معرفة تميز بينه وبين المباح والمكروه والمستحب والواجب حتى نتمكن بهذه المعرفة من اتقائه واجتنابه، كما نعرف سائر المحرّمات، إذ الفرض علينا تركُها، ومن لم يعرف المنكر لا جملةً ولا تفصيلاً لم يتمكن من قصد اجتنابه، والمعرفة الجملية كافية بخلاف الواجبات، فإن الغرض لما

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٢٥٥.
(٢) شرح مسلم (٢/ ٢٣).

كان فعلها، والفعل لا يتأتى إلا مفصلاً وجبت معرفتها على سبيل التفصيل[١]، وكما قال القائل:

عرفت الشرَّ لا لشرٍّ ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الخير من الشرِّ يقع فيه

أخي المسلم:.

ضرب **محمد بن المنكدر** وأصحاب له في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأنكر الإمام **عماد الدين الجمَّاعيلي المقدسي** ـ رحمه الله ـ على فُساقٍ وكسر ما معهم، حتى غُشي عليه.[٢]

ولمن أصابه الوهن والضعف والخور وترك الأمر بالمعروف والنهي المنكر يقول **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: «وأي دينٍ وأي خيرٍ في من يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع ودينه يترك وسنة رسوله يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان، أخرس كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق. وهل بليه الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بماجرى على الدين، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل، وجد واجتهد واستعمل مراتب الإنكار الثلاث حسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون وهو موت القلب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل».

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: ومن لم يكن في قلبه بغض

---

(١) المجموعة السعدية ٢/ ١٢٤.

(٢) نزهة الفضلاء (٣/ ١٥٣٣).

ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرّمه، من الكفر والفسوق والعصيان، لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه، فإن لم يكن مبغضاً لشيء من المحرمات أصلاً لم يكن معه إيمان أصلاً[١].

أما مجالس المنكر والتي تظهر فيها المعاصي فقد قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «لا يَحِلُّ لأحد أن يحضر مجالس المنكرات باختياره لغير ضرورة، وعليه أن ينكر ولو بقلبه»[٢].

قال الخلال: أخبرني عبدالله بن صالح بطروس، قال: قال لي أبوعبدالله: «يعني الإمام أحمد بن حنبل» يا أبا حفص: يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم مثل الجيفة، ويكون المنافق يشار إليه بالأصابع. فقلت: يا أبا عبدالله، وكيف يشار إلى المنافق بالأصابع؟ فقال: **يا أباحفص صيروا أمر الله فضولاً**. وقال: المؤمن إذا رأى أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى، يعني قالوا: هذا فضول. قال: والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فمه. فقالوا: نعم الرجل، وليس بينه وبين الفضول عمل»[٣].

أخي المسلم:

التجافي عن صفات المنافقين، وظهور الفرقان بين صفاتهم وصفات المؤمنين.. ذلك أن من أخص صفات المؤمنين القيام بهذا العمل الطيب قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ

---

(١) المجموعة السعدية ٢/ ١٣.
(٢) المجموعة السعدية ٢/ ١٦٩.
(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال رقم ٦٥.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٧١﴾ [التوبة: ٧١].

كما أن ترك القيام بهذا العمل يُعد من صفات المنافقين البارزة، كما أخبر الله ـ عز وجل ـ عن ذلك بقوله: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ [التوبة: ٦٧].

قال **الإمام أحمد** ـ رحمه الله ـ «يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم مثل الجيفة ويكون المنافق يشار إليه بالأصابع ـ إلى أن قال ـ المؤمن إذا رأى أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى. . والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فمه، . .».

وعند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكتب الدرجات وترفع الحسنات، مع سافي ذلك من مصالح أخرى، كما قال **ابن القيم** ـ رحمه الله ـ: فإنكار المنكر له أربع درجات.

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل من جملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان والثالثة موضع اجتهاد والرابعة محرمة[(١)].

---

(١) مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية للشيخ السلمان ص ١٣١.

بعض الثمرات

العبادة والطاعة والتقرب إلى الله ـ عز وجل ـ سعادة في الدنيا والآخرة، ومن أعظم تلك القربات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن ثمراتها مايلي:

أولاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهام الرسل عليهم الصلاة والسلام: فلقد بعث الله الرسل ليأمروا الناس بعبادة الله وحده لا شريك له والتحذير من الطاغوت واجتنابه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص صفات الأنبياء العملية، حيث قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ثانياً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات المؤمنين كما قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢].

قال **الغزالي**: فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية»[1].

---

(١) الإحياء ٢/٣٩٧.

ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناط خيرية هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال قتادة: «بلغنا أن **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ في حجة حجها رأى من الناس رِعَة فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ثم قال: «من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها»[(١)].

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: «فبين الله سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم، لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وهذا كمال النفع للخلق».

رابعاً: من أسباب التمكين: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] ومن أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن الله عز وجل قرنها بالصلاة والزكاة اللذين هما ركنان من أركان الإسلام.

خامساً: من أسباب النصر على الأعداء: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠، ٤١] وهذه الآية نراها ماثلة أمامنا في واقع الصدر الأول حيث الفتوحات العظيمة والانتصارات الباهرة بفضل الله عز وجل ثم بتمسكهم بأصول هذا الدين العظيم.

---

(١) تفسير ابن جرير ٥/ ١٠٢.

سادساً: في الأمر بالمعروف رفع لراية الدين ودحر للمنافقين والكافرين.

قال **الثوري** ـ رحمه الله ـ: «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق»(١).

سابعاً: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات المنافقين قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

ثامناً: دفع البلاء والعذاب، فعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: يا أيها الناس، إنكم لتقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»** [رواه أبو داود].

وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مامن قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون أن يغيروا ولا يغيرون إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»**.

قال **ابن العربي** في شرق: وهذا الفقه عظيم، وهو أن الذنوب منها ما يعجل الله عقوبته، ومنها ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من الظلمة للخلق..».

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال ص٦٧.

تاسعاً: في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مظنة قبول الدعاء قال ﷺ: «**لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لكم**»[رواه أحمد].

قال **بلال بن مسعود** ـ رحمه الله ـ: إن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أُعلِنت فلم تغير ضرت العامة».

خطوات الإنكار

ذكر بعض العلماء خطوات الإنكار والتدرج فيه، وعاملوا بذلك صاحب المنكر كأنه طفل. والطفل قبل أن يطلب منه القراءة. لابد أن يعلم الحروف بأساليب تحبب إليه القراءة والكتابة، حتى لا ينفر من العلم، وكذلك صاحب المنكر لابد من معاملته على أنه مريض وجاهل فلابد من مداراته وأخذ الخطوات المتأنية المدروسة في الإنكار معه، قبل استخدام الإنكار المباشر باليد أو باللسان.

ومن بين هؤلاء العلماء الذين ذكروا هذه الخطوات الإمام **ابن قدامة المقدسي**. وجعل الخطوة الأولى هي التعريف على افتراض جهل صاحب المنكر.

الخطوة الأولى: التعريف:

«فإن الجاهل يقدم على الشيء لا يظنه منكراً، فإذا عرف أقلع عنه. فيجب تعريفه باللطف. فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علمنا العلماء، فلعل قريتك خالية من أهل العلم فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء.

الخطوة الثانية: الوعظ:

النهي بالوعظ والنصح والتخوف بالله، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويحكي له سيرة السلف ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب.

الخطوة الثالثة: التعنيف:

والتعنيف بالقول الغليظ الخشن وإنما يعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادىء الإصرار والإستهزاء بالوعظ والنصح، ولسنا نعني بالسب: الفحش والكذب، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٧].

الخطوة الرابعة: اليد:

التغيير باليد.

الخطوة الخامسة: التهديد:

التهديد والتخويف ـ كقوله: دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا، وينبغي أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إن أمكن تقديمه.

الخطوة السادسة: الضرب:

مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والإقتصار على قدر الحاجة، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف»[(١)][(٢)].

---

(١) عارضه الأحوذي (٩/ ١٥).

(٢) انظر كتاب الأمر بالمعروف للشيخ خالد السبت.

حالات الإعفاء من الإنكار

ويتعرض الإمام ابن قدامة لحالات عدم نفع الإنكار من حيث الوجوب فيقول: إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلى **أربعة أحوال:**

* **أحدها:** أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله، من غير مكروه يلحق، فيجب عليه الإنكار.

* **الحالة الثانية:** أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنه إن تكلم ضرب، فيرتفع الوجوب عنه.

* **الحالة الثالثة:** أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لكنه لا يخاف مكروهًا، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

* **الحالة الرابعة:** أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود، ويريق الخمر، ويعلم أنه يضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مستحبًا لقوله في الحديث: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**».

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل، وإن علم أنه يقتل، لكن إن علم أنه لا نكاية له في الكفار، كالأعمى يطرح نفسه على الصف، حرم ذلك، وكذلك لو رأى فاسقًا وحده وعنده قدح خمر وبيده سيف، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه، لم يجز له الإقدام على ذلك؛ لأن هذا لا يؤثر في الدين أثرًا يفديه بنفسه، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر، وظهر

لفعله فائدة، كمن يحمل في صف الكفار ونحوه.

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه، لم تجز له الحسبة؛ لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيءٍ. ولسنا نعني بالعلم في هذه المواضيع إلا غلبة الظن، فمن غلب على ظنه أنه يصيبه مكروه، لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه وجب، ولا اعتبار بحالة الجبان، ولا بالشجاع المتهور، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع، السليم المزاج. ونعني بالمكروه: الضرب أو القتل، وكذلك نهب المال، والإشهار في البلد مع تسويد الوجه، فأما السب والشتم، فليس بعذر في السكوت؛ لأ الآمر بالمعروف يلقى ذلك في الغالب.

هذا وقد يظن من لا علم له بحقيقة ما بعث الله به نبيه ﷺ أنه يكفيه أن يؤمن بالله وحده ويتقرب إليه ببعض الطاعات دون أن يشتغل بأمر غيره بالمعروف أو نهيه عن المنكر! وهذا غلط بيّن، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُعد من أعظم شرائع الإيمان كما أنه يعد من الأسس والدعائم الهامة لتحقيق الهداية وتحصيلها.

قال العلامة الشيخ **حمد بن عتيق** ـ رحمه الله ـ: فلو قُدر أن رجلاً يصوم النهار، ويقوم الليل، ويزهد في الدنيا كلها، وهو مع ذلك لا يغضب لله، ولا يتمعر وجهه، ولا يحمر، فلا يأمر بالمعروف، ولا ينهي عن المنكر، فهذا الرجل من أبغض الناس عند الله، وأقلهم ديناً، وأصحاب الكبائر أحسن عند الله منه، وقد حدثني من لا أتهم عن شيخ الإسلام إمام المسلمين، ومجدد القرن الثاني عشر، محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ أنه يقال مرة: أرى ناساً يجلسون في

المساجد على مصاحفهم يقرؤون ويبكون، فإذا رأوا المعروف لم يأمروا به، وإذا رأوا المنكر لم ينهوا عنه، وأشوف أناساً يعكفون عندهم يقولون هؤلاء لحي غوانم. وأنا أقول: إنهم لحى فواين[١].

فقال السامع: أنا ما أقدر أقول: إنهم لحى فواين. فقال الشيخ: إنهم من الصم البكم.

ويشهد لهذا ما جاء عن بعض السلف أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، والمتلكم بالباطل شيطان ناطق، فلو علم المداهن الساكت أنه أبغض الناس عند الله ـ وإن كان يرى أنه طيب ـ لتكلم وصدع، ولو علم طالب رضا الخلق بترك الإنكار عليهم أن صاحب الكبائر أحسن حالاً عند الله منه، وإن كان عند نفسه صاحب دين، لتاب من المداهنة ونزع، ولو تحقق من بخل بلسانه عن الصدع بأمر الله أنه شيطان أخرس وإن كان صائماً قائماً زاهداً لماّ ابتاع مشابهة الشيطان بأدنى الطمع[٢] أ.هـ.

ورحم الله **الثوري** حينما قال: إني لأرى الشيء يجب عليَّ أن آمر فيه وأنهى فأبول دماً[٣].

فهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن عندما يرى شيئاً من المنكرات.. أما ذاك الذي لا يتحرك له ساكن، ولا يتغير، فلا أظنه محققاً للإيمان المطلوب، ذلك أنه ليس بعد الإنكار بالقلب شيء من أعمال الإيمان فهو أضعفها، كما دل على ذلك قوله ﷺ عند ذكره لمراتب تغيير المنكر:

---

(١) جمع «فاين» وهي تطلق عندهم على المرأة البغي والسيئة.
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص (١٣٦).
(٣) مجموعة رسائل الشيخ حمد بن عتيق (٤٠-٤١).

«. . . **وذلك أضعف الإيمان**»[١] . يعني بالقلب .

وليس من شروط القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون عدلاً عند أهل السنة، لأن العدالة محصورة في قليل من الخلق والنهي عن المنكر عام في جميع الناس .

قال **الجصاص**: لما ثبت وجوب فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيّنا أنه فرض على الكفاية . . وجب أن لا يختلف في لزوم فرضه البر والفاجر لأن ترك الإنسان لبعض الفروض لا يسقط عنه فروضاً أخرى . . ألا ترى أن تركه للصلاة لا يسقط عنه فرض الصوم وسائر العبادات، فكذلك من لم يفعل سائر المعروف، ولم ينته عن سائر المناكير، فإن فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير ساقط عنه»[٢] .

وقد نُقل عن **الحسن** أنه قال لمطرف بن عبد الله: عظ أصحابك، فقال: إني أخاف أن أقول مالا أفعل . قال: يرحمك الله وأينا يفعل ما يقول! ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر»[٣] .

وكذا قوله في الحديث الآخر والذي فيه حال الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[٤] . أي بعد أن ينكر عليهم بقلبه .

---

(١) الجرح والتعديل (١/ ١٢٤).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٣٢٠).
(٣) تفسير القرطبي (١/ ٣٦٨).
(٤) رواه أحمد.

وبهذا يتبين لك أن الأمر بالعروف والنهي عن المنكر هو سمة المؤمن الصادق، كما وصفه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

وهو أيضاً سمة المجتمع الفاضل الخير: قال صاحب الظلال: «إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون عُرف المجتمع من القوة بحيث لا يجروء المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر»[(١)].

ولقد ضُيّع أكثر هذا الباب من أزمان متطاولة، ولازال ينقص مع مرور الأيام والليالي، فلم يبق منه إلا النزر اليسير جداً، مع أنه باب عظيم واسع، إذ به قوام الأمر وملاكه.. وبه تبقى السلامة والعافية، ومن حرص النبي ﷺ على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القيام به بأحوال عدة منها الإشارة والتنبيه دون التخصيص. فإذا وجد خطأ في بعض أفعال أو أقوال صحابته، يصعد المنبر فيحمد الله ويثني عليه ثم يقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**»، فلا يصرح بالأسماء لعلمه أن التصريح بأسماء المخطئين فيه خطورة على قلوبهم ونفوسهم.

---

(١) الظلال (٦/ ٢٢٢).

أنه يجمل بالمرء إذا وجد خطأ عند شخص ما أن ينبهه لذلك الخطأ ولكن بأسلوب حسن يغلب عليه التلميح لا التصريح.

والأمثلة على استخدام الرسول ﷺ لأسلوب التلميح كثيرة جداً، فمنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة**»[١].

وروى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

وروى البخاري ومسلم، أن النبي ﷺ صنع شيئاً فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب فحمد الله ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن شيء أصنعه، فوالله أني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**».

ويروي البخاري ومسلم، أن رسول الله ﷺ بلغه شرط أهل بريرة ـ رضي الله عنها ـ (أن الولاء لهم بعد بيعها)، فخطب الناس، فقال: «**ما بال الناس يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فليس له، وإن شرط مائة مرة، شرط الله أحق وأوثق**».

وكان ﷺ يحث على الرفق واللين، قال ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»[٢].

وهذه الصفة محببة إلى الخلق لأن الإنسان يحب الإحسان ويكره الإساءة، وهو يقبل عن طريق الرفق واللين ما لا يقبل من طريق العنف

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

والغلظة ولهذا قال ـ عز وجل ـ عن النبي ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قيل **للإمام مالك** ـ رحمه الله ـ: «الرجل يعمل أعمالاً سيئة، يأمره الرجل بالمعروف وهو يظن أنه لا يطيعه، وهو ممن لا يخافه كالجار والأخ؟! فقال: ما بذلك بأس. ومن الناس من يرفق به فيطيع؛ قال الله ـ عز وجل ـ ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٤]ا.هـ.

وقال **الثوري**: «أؤمر بالمعروف في رفق، فإن قبل منك حمدت الله ـ عز وجل ـ وإلا أقبلت على نفسك».

وقال **الإمام أحمد**: ما أغضبت رجلاً فقبل منك».

كما سُئل ـ رحمه الله ـ عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كيف ينبغي أن يأمر؟ قال: يأمر بالرفق والخضوع. ثم قال: إن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد ينتصر لنفسه».

وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه مرة حتى قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه[١]. كما قال الإمام الشافعي: جنبني النصيحة في الجماعة فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه.

قال **الشيخ تقي الدين**: الصبر على أذى الخلق عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن لم يستعمل لزم أحد أمرين: إما تعطيل الأمر والنهي، وإما حصول فتنة ومفسدة أعظم من مفسدة ترك الأمر والنهي أو مثلها أو قريب منها، وكلاهما معصية وفساد، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ

---

(١) جامع العلوم والحكم ص٥٠.

﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الأعراف: ١٧].

فمن أمر ولم يصبر، أو صبر ولم يأمر، أو لم يأمر ولم يصبر حصل من هذه الأقسام الثلاثة مفسدة. وإنما الصلاح في أن يأمر ويصبر[١].

أخي المسلم:

تأمل في حال قصة نراها مثلها الكثير ولكن لا نقوم بالواجب! حكي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره فقال: أحق ما كان إليّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده واتطلف له في المعاينة وأدعو له بالعودة إلى ما كان عليه[٢].

قال حماد بن سلمة: إن **صلة بن أشيم** مرّ عليه رجل قد أسبل إزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال: دعوني أكفيكم، فقال: يا ابن أخي إن لي إليك حاجة قال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك فقال لأصحابه: لو أخذتموه بشدة لقال: لا ولا كرامة وشتمكم[٣].

قال محمد بن زكريا القلابي: شهدت عبدالله بن محمد ابن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله، وإذا في طريقه غلام من قريش سكران. وقد قبض على امرأة فجذبها، فاستغاثت فاجتمع الناس عليه يضربونه، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس: تنحو عن ابن أخي، ثم قال: إلي يا ابن أخي، فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ثم قال له: أمضي معي، فمضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار، وقال لبعض غلمانه بَيِّتَه عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه،

---

(١) المستدرك على الفتاوى ٣/٢٠٦.

(٢) الإحياء ٢/ ٢٠٠.

(٣) الإحياء ٢/ ٣٦٣.

ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به، فلما أفاق من ذكر ما جرى فاستحيا منه وبكى وهم بالانصراف، فقال الغلام: قد أمر أن تأتيه، فأدخله عليه، فقال له: أما استحييت لنفسك أما استحييت لشرفك؟

أما ترى من ولدك فاتق الله وانزع عما أنت فيه فبكى الغلام منكساً رأسه ثم رفع رأسه وقال: عاهدت الله تعالى عهداً يسألني عنه يوم القيامة أني لا أعود لشرب النبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب. فقال: أدن مني، فقبل رأسه وقال: أحسنت يا بني، فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث(١).

وفي حديث **عمر** ـ رضي الله عنه ـ وقد سأل عن أخ كان آخاه، فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال: ما فعل أخي؟ قال: ذلك أخو الشيطان قال: مه، قال: إنه قارب الكبائر حتى وقع في الخمر، قال: إذا أردت الخروج فآذني فكتب عند خروجه إليه «بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى وقال: صدق الله ونصح أي فتاب ورجع(٢).

قال **الفضيل بن عياض** ـ رحمه الله: ـ المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير(٣).

---

(١) الإحياء ٢/٣٦٣.

(٢) الإحياء ٢/١٩٩.

(٣) جامع العلوم والحكم.

وسُئل حذيفة عن ميت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه[١].

قال قتادة: كان **عمر** يلبس وهو خليفة جبة من صوف مرقوعة بعضها بأدم ويطوف في الأسواق على عاتقه الدرة يؤدب بها الناس، ويمر بالنكث والنوى فيلتقطه ويلقيه في منازل الناس ينتفعون به[٢].

وحالهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال الوليد بن شجاع بن الوليد: كنت أخرج مع **سفيان الثوري** فما يكاد لسانه يفتر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهباً واجعاً[٣].

ولما حضر الموت **الحسن**، دخل عليه رجل من أصحابه، فقالوا: يا أبا سعيد: زودنا منك كلمات تنفعنا بهن، قال: إني مزودكم ثلاث كلمات ثم قوموا عني ودعوني ولما توجهت له، ما نهيتم عنه من أمر فكونوا من أترك الناس له، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم خطوتان: خطوة لكم وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون وأين تروحون[٤].

قيل **لعبد الواحد** صاحب الحسن: بأي شيء بلغ الحسن فيكم إلى ما بلغ وكان فيكم علماء وفقهاء؟ فقال: إن شئت عرفتك بواحدة أو باثنين، فقلت عرفني بالاثنتين، فقال: كان إذا أمر بشيء كان أعمل الناس له، وإذا نهى عن شيء كان أترك الناس له. قلت: فما الواحدة؟ قال: لم أر

---

(١) الإحياء ٢/ ٣٣٨.
(٢) تاريخ الخلفاء ١٢٠.
(٣) حلية الأولياء ٧/ ١٣.
(٤) حلية الأولياء ٢/ ١٥٤.

أحداً قط سريرته أشبه بعلانيته منه[١].

ولابد من الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحمل الأذى والصبر على الجهل وأهله.

كان **كرز بن دبرة** إذا خرج أمر بالمعروف، فيضربونه حتى يغشى عليه[٢].

وخرج **أبو إسحق إبراهيم القدسي** مرّ إلى قوم من الفساق فكسر ما معهم فضربوه ونالوا منه حتى غشي عليه، فأراد الوالي ضرب الذين نالوا منه فقال: إن تابوا ولزموا الصلاة فلا تؤذيهم وهم في حل من قبلي، فتابوا ورجعوا عما كانوا عليه[٣].

أخي المسلم:

قال عبدالله بن عبدالعزيز العمري: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخافة المخلوقين نزعت منه هيبة الله تعالى، فلو أمر بعض ولده أو بعض مواليه لاستخف به[٤].

قال **علي بن الحسين**: التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره، إلا أن يتقي منهم تقاة، قالوا: وما تقاه؟ قال: يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يطغى[٥].

---

(١) الحسن البصري ص١٦.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٨٠.
(٣) شذرات الذهب ٥/ ٥٨.
(٤) صفة الصفوة ٢/ ١٨١.
(٥) البداية والنهاية ٩/ ١٢٨.

لأن في ظهور المنكرات وفشوِ الفساد ضرر عظيم على الخاصة والعامة.

قال **بلال بن سعد**: إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أعلنت ولم تغير أضرت العامة(١).

وقد كانوا يحرصون على تجميل أنفسهم بالطاعة والبعد عن المعصية واستدراك هفواتهم وإصلاح زلاتهم هذا الخليفة الثاني **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ يقول: أحب الناس إليّ من رفع إليَّ عيوبي(٢).

وفي مجتمع اليوم، والدور متجاورة والمنازل متقابلة ومع ذلك تُرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أوساط الحي وساكنيه، وقلَّ من تجده ينكر على من لا يصلي مع جماعة المسلمين أو ينكر على منكرات المنازل الظاهرة أو غيرها! ولهذا تجد من ينصح ويأمر بالخير يرمى بأنه متشددٌ ويتدخل فيما لا يعنيه! أما ذلك الرجل الآخر فإنه حسن الخلق طيب المعشر!

قال **سفيان**: إذا أثنى على الرجل جيرانه أجمعون فهو رجل سوء، لأنه ربما رآهم يعصون، فلا ينكر ويلقاهم ببشر.

قال **الحسن**: إذا كنت آمراً بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلكت وإذا كنت ممن ينهى عن المنكر فكن من أنكر الناس له وإلا هلكت(٣).

ولقد تعجبت أم المؤمنين زينب ـ رضي الله عنها ـ وسألت النبي ﷺ:

---

(١) الإحياء ٢/٣٣٨.
(٢) تاريخ الخلفاء ١٢١.
(٣) الزهد لأحمد ص ٢٢٧.

«**أنهلك وفينا الصالحون**» سؤال عجيب! كيف نهلك وفينا الصوام والقوام.. أنهلك وفينا من يصوم أيام البيض والأثنين والخميس! أنهلك وفينا من يقوم الليل ويقرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار!

قال لها ﷺ في جواب حكيم: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[١].

ومما شاع وانتشر في هذه الأزمنة ومع التوسع في وسائل الإعلام وكثرة المرجفين في الأرض ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، كثرة الفخر واللمز بالآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وتصويرهم بصور شتى والحاق المصائب بهم وهم براء! والأمر في هذا الجانب خطير جداً.

*** فضولي:**

في «حاشية ابن عابدين» أن من قال هذا اللفظ لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: فهو مرتد[٢].

أنت فضولي:

في «الدر المختار» قال في فصل في الفضولي: (هو: من يشتغل بما لا يعنيه، فالقائل لمن يأمر بالمعروف: أنت فضولي، يخشى عليه الكفر)اهـ[٣].

وإن مما يؤسف له أشد الأسف ما نراه ونسمعه في زماننا اليوم ممن يرفع في وجه كل مصلح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحذر أمته من

---

(١) رواه البخاري.

(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ١٣٥.

(٣) حاشية ابن عابدين ٥/ ١٠٦.

مغبة الفساد في الدنيا والآخرة بأنه داعية فتنة وخروج على الأمة. فبالله أين الفتنة في من يشفق على أمته من عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة ويحذرها من أسباب عقوبته سبحانه. إن الفتنة بحق تكمن في هذا الخلط والتلبيس والذي نتيجته استمراء الفساد وتثبيط الآمرين بالخير والناهين عن الشر. وهذا شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بعد أن ذكر المفاسد التي تنجم عن الخروج على الأمة بالسيف وما في ذلك من الشرور والفتن العظيمة عقب بقوله: (ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السُنَّة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب...

قال مجدد الدعوة الشيخ **محمد بن عبدالوهاب** ـ رحمه الله ـ:

فالله الله إخواني تمسكوا بأصل دينكم، أوله وآخره، أسه ورأسه، وهو «شهادة أن لا إله إلا الله» واعرفوا معناها وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت، وعادوهم، وابغضوا من أحبهم، أو جادل عنهم، أو لم يكفرهم، أو قال ما علي منهم، أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى؛ بل كلفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم؛ والبراءة منهم ولو كانوا إخوانه أو أولاده فالله الله تمسكوا بأصل دينكم لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً. اللهم توفنا مسلمين والحقنا بالصالحين[(١)].

وكثيرٌ من الناس قد يرى تعارض الشريعة في ذلك؛ فيرى أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإما أن يؤمر بهما جميعاً أو يُنهى عنهما جميعاً.

---

(١) الدرر السنية (٢/ ٧٨).

وليس كذلك، بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال عبادة رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عُسرنا ويُسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثره علينا، وألاَّ ننازع الأمر أهله، وأن نقوم ـ أو نقول ـ بالحق حيث ما كُنا، لا نخافُ في الله لومة لائم)[١]، فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله وأمرهم بالقيام بالحق. ولأجل ما يُظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس. والحائر الذي لا يدري ـ لعدم ظهور الحق، وتميز المفعول من المتروك ـ ما يفعل؛ إما لخفاء الحق عليه، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه)أهـ[٢].

كما أن القول بالصبر والصفح وكف اليد لا يعني أبداً الركون إلى الدعة والإحباط والاستسلام للأمر الواقع، بل يجب إعداد النفوس والأمة بأسرها للجهاد في سبيل الله عز وجل وتقوية العزائم وشحذ الهمم، والأخذ بجميع الأسباب المشروعة ولاستكمال جانب القدرة الإيمانية والمادية حتى يأذن الله عز وجل بنصره في الوقت الذي يعلم فيه سبحانه أن عباده المؤمنين قد بذلوا ما في وسعهم من البناء والإعداد والأخذ بالأسباب.

بعض المرجئة وأهل الفجور يرون أن إنكار المنكر من الفتن:

وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة. وهؤلاء يقابلون

---

(١) رواه البخاري ومسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة بنحوه.
(٢) الاستقامة ١/٤١، ٤٢.

لأولئك. ولهذا ذكر الأستاذ أبومنصور الماتريدي المصنف في الكلام وأصول الدين من الحنفية الذين وراء النهر ما قابل به المعتزلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذكر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سقط في هذا الزمان[1].

أخي المسلم:

لعل مما يعين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أموراً عدة أذكرها بإيجاز:

أولاً: معرفة فضل الله ـ عز وجل ـ علينا ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، فإن هذا من شكر النعم والقيام ببعض حق الله ـ عز وجل ـ.

ثانياً: إخلاص النية لله ـ عز وجل ـ في هذا العمل العظيم والقيام بها طاعة وقربة لله ـ عز وجل ـ لا انتصاراً للنفس أو لإظهار حظوظ النفس.

ثالثاً: تثبيت النية للقيام بهذه الشعيرة العظيمة، فإن أراد الذهاب للعمل تفكر في منكرات الزملاء والأصدقاء وجعل لكل منكرٍ حلاً لازالته وردة.

رابعاً: تعاهد من حوله للقيام بهذه الشعيرة العظيمة، فالطالب يكسب معه زملاء ويسعون لإزالة المنكر الذي يعرفون حتى يكون ذلك أقوى وأوقع.

خامساً: الرفق بالناس والبحث عن مداخل شرعية لازالة المنكر.

سادساً: الصبر وتوطين النفس على ما تلاقيه حين، وبعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى ٣/ ٢٠٦.

سابعاً: استشعار الأجر العظيم حين القيام بهذا الأمر العظيم فإن ذلك يهون الأذى ويزيل الوحشة.

ثامناً: الإحسان إلى الناس بالكلمة الطيبة والابتسامة المعبرة حتى نصل إلى قلوب الناس آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر.

تاسعاً: تعريف الناس بأحكام الشريعة وإيصالها إليهم، فإن الملاحظ مع كثرة الفتن أن البعض يجهل بعض الأحكام الشرعية في ذلك.

عاشراً: الاستعانة بالله ـ عز وجل ـ والتوكل عليه وطلب العون والتوفيق منه وحده لا شريك له.

الحادي عشر: كثرة الدعاء والإلحاح على الله ـ عز وجل ـ بأن يسدد المساعي ويوفق إلى الخير.

الثاني عشر: الاستفادة من الوسائل الحديثة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ذلك استخدام الرسائل الشخصية والهاتف والجوال والإنترنت والصحف والمجلات وغيرها ولله الحمد كثير.

أخي المسلم:

«لقد كتبت ما تقدم من الكلام وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري ولو أن المرء لا يعظ حتى يحكم نفسه إذن لتواكل الخير ولرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإذن لاستحلت المحارم وقلّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض والشيطان وأعوانه يودون أن لا يأمر

أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر، وإذا أمرهم أو نهاهم عابوه بما فيه وبما ليس فيه[1]».

أسأل الله الكريم أن يجعلنا من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) لطائف المعارف ص ٢٢.


انفروا خفافاً وثقالاً

المقدمة

الحمد لله الذي وعد عباده المجاهدين بجنة عرضها السموات والأرض، والصلاة والسلام على من قام بهذا الدين خير قيام، وبعد:

فإن الجهاد في سبيل الله - عز وجل - من أعظم الطاعات وأجل القربات، وما دبَّ الوهن والضعف والذلة في أرجاء بلاد المسلمين إلا بتركه وهجره.

ورغبة في إتحاف نفسي وإخواني المسلمين بأجر هذا العمل العظيم وذكر مواقف السلف في تلك المواطن؛ هذا هو الجزء الثالث العشرون من سلسلة: «**أين نحن من هؤلاء؟!**».

أسأل الله - عز وجل - أن يجعلنا من الشهداء في سبيله وأن يأخذ من دمائنا حتى يرضىٰ، كما أسأله بمنه وكرمه أن يقيم راية الجهاد والعزة والتمكين للمسلمين.

عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن القاسم

مدخل

الجهاد حصن الإسلام وسياجه، وقوام الدين وعماده، ومعقل الدولة الأشب، وركن الأمة الركين، فيه حماية الذمار وصيانة الديار، وخضد شوكة العدو، وفلّ حدهم، وإرهابهم وإذهاب ريحهم، وكبح جماح مطامعهم.

وفيه قوة الإسلام وعزته، ورهبة جانبه، وأمنه وطمأنينته، وشجو حساده، وغيظ عدوه، واتساع رقعة بلاده، وبسطة نفوذه، وقوة سلطانه، ونفاذ كلمته، ما تركه قوم إلا ذلوا وذهبت ريحهم، وسيموا الخسف، وديثوا بالذلة والصغار وطمع فيهم عدوهم، وأمسوا على جناح خوف، وبمدرجة حتف، وباتوا غرباء في أوطانهم، لقمة كل جائع ونهبة كل طامع، يجوعون ليشبع أعداؤهم، ويعرون ليكتسي غاصبوهم، ويشقون ليسعد الطامعون فيهم[1].

ولنشر الدِّين ورفع رايته والدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورد كيد الكفَّار والمتربِّصين قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ

---

(١) كتاب الوسيلة للشيخ محمد أبي الوفاء ص (٨٤).

﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

قال **ابن كثير** ـ رحمه الله ـ: «يخبر الله ـ تعالى ـ أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال **الحسن البصري وقتادة**: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

وقال **شمر بن عطية**: ما من مسلم إلا ولله ـ عزَّ وجلَّ ـ في عنقه بيعةٌ، وفىٰ بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله. أي: قبل هذا العقد ووفى به.

وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال **عبد الله بن رواحة** ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «**الجنة**» قالوا: ربح البيع لا نُقيل ولا نستقيل، فنزلت: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم . . .﴾ الآية.

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة. ولهذا جاء في الصحيحين: «**وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي، إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة**».

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه

الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسىٰ، والقرآن المنزل على محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾، أي فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم»[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

قال ﷺ: «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار**» [رواه البخاري].

وقال ﷺ: «**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله**» [متفق عليه].

وقال ﷺ حاثـًا على الجهاد، وما أعدَّه الله للمجاهدين: «**لغدوة في سبيل الله، أو روحة، خير من الدنيا وما فيها**» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**» [متفق عليه].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٣).

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والجهاد ـ بإتفاق العلماء ـ أفضل من الحج والعمرة، ومن صلاة التطوع، وصوم التطوع... ونفع الجهاد لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، وهو مشتمل على جميع العبادات الظاهرة والباطنة: محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله»(١).

وسُئل أيضًا عن رجل قدم يريد الغزو ولم يحج فنزل على قوم ثبطوه عن الغزو وقالوا: إنك لم تحج تريد الغزو؟ قال أبو عبدالله (أي الإمام أحمد): «يغزو ولا عليه، فإن أعانه الله حج، ولا نرى بالغزو قبل الحج بأسًا».

قال أبو العباس: «هذا مع أنَّ الحجَّ واجب على الفور عنده، لكن تأخيره لمصلحة الجهاد كتأخير الزكاة الواجبة على الفور لانتظار قوم أصلح من غيرهم أو لضرر أهل الزكاة...»(٢)

قال ﷺ: «من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه» [رواه مسلم].

قال الحسن: إن لكل طريق مختصرًا، ومختصر طريق الجنة الجهاد(٣).

ولهذا كان السَّلف يتسابقون إلى ساحات الوغىٰ ومواطن الجهاد وأطراف الثغور رغبة فيما عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ رغم ما يصيبهم.

قال معاوية بن قرة: «أدركت ثلاثين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ما منهم إلا من طَعَنَ أو طُعِنَ، أو ضَرَبَ أو ضُرِبَ مع رسول الله ﷺ»(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥٣).
(٢) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٢١٦).
(٣) حلية الأولياء (٦/ ١٥٧).
(٤) حلية الأولياء (٢/ ٢٩٩).

كان أبو أيوب الأنصاري يقول: «قال الحمد لله ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ لا أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلاً»[(١)].

أين نحن من هؤلاء؟!

عن مروان بن الحكم، أنَّ زيد بن ثابت أخبره أنَّ رسول الله ﷺ أملىٰ عليه «**لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله...**»، فجاءه ابن أم مكتوم، وهو يملها عليَّ، قال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ، وكان أعمىٰ، فأنزل الله علىٰ رسوله ﷺ، وفخذه علىٰ فخذي، فثقلت عليَّ، حتىٰ خفتُ أن تُرَضَّ فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥].

وكان رضي الله عنه ـ بعد ـ يغزو ويقول: ادفعوا إليَّ اللواء؛ فإنِّي أعمىٰ لا أستطيع أن أفرَّ وأقيموني بين الصَّفَّين.

وعن أنس أن عبدالله بن زائدة ـ وهو ابن أم مكتوم ـ كان يقاتل يوم القادسية وعليه درعٌ له، حصينة سابغة[(٢)].

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهنَّ فلول من قراع الكتائب[(٣)]

نظر يونس بن عبيد الله إلى قدميه عند موته فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبدالله قال: «قدماي لم تغبَّرا في سبيل الله ـ عز وجل ـ»[(٤)].

---

(١) السير (٢/ ٤٠٥).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ١٥٤).
(٣) وفيات الأعيان (٧/ ١١).
(٤) حلية الأولياء (٣/ ٣٠٤)، وصفة الصفوة (٣/ ١٠١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والجهاد، منه ما يكون باليد ومنه ما هو بالقلب والحجة والدعوة واللسان والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمكنه، ويجب على القعدة لعذر أن يخلفوا الغزاة في أهليهم ومالهم»(١).

أخي المسلم:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة عينًا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، حتى إذا كانوا بالهدة بين عسفان ومكة ذكروا الحيَّ من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجلٍ رامٍ، فاقتصوا آثارهم، حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه، فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم فلما حسَّ بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلىٰ موضع فأحاط بهم القوم فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق إن لا نقتل منكم أحدًا، فقال عاصم بن ثابت: أيها القوم أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، ثم قال: اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خبيب وزيد بن الدثنة ورجل منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها قال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله لا أصحبكم إن لي بهؤلاء أسوة ـ يريد القتلى ـ فجروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم، فانطلق بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيبًا ـ وكان خبيب هو قَتَلَ الحارث بن عامر يوم بدر ـ فلبث خبيب عندهم أسيرًا حتى

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٥).

أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها فأعارته، فدرج بني لها وهي غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموس بيده قالت: ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، قالت: والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل قطفًا من عنب في يده، وأنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيبًا. فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلِّ قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين فتركوه فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبق منهم أحدًا، ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلمًا
على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

أين نحن من هؤلاء؟!

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين في بدر، فدنا المشركون فقال النبي ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**» قال نعم، قال: بخ بخ، قال رسول الله ﷺ: «**ما حملك على قولك بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل رضي الله عنه.

وعنه ـ رضي الله عنه ـ أنَّ أمَّ الرَّبيع بنت البراء وهي أم حارثة بن

سراقة، أتتِ النَّبيَّ ﷺ فقالتْ: يا رسول الله، ألا تحدِّثني عن حارثة، وكان قُتِل يوم بدر، فإن كان في الجنَّة صبرتُ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال: «**يا أمَّ حارثة، إنَّها جِنانٌ في الجنَّة، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلىٰ**» [متفق عليه]

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: جِيء بأبي إلى النبي ﷺ قد مُثل به فوُضِعَ بين يديه، فذهبت أكشف عن وجهه فنهاني قومٌ فقال النبي ﷺ: «**ما زالتِ الملائكة تُظلُّهُ بأَجنحتها**» [متفق عليه].

أولئك رجال كانت حياتهم جهاد ودعوة في سبيل الله..

كـــل عيـــش قـــد أراه نكـــدًا
غيـر ركـن الـرمـح فـي ظـل الفـرس
وقيـــام فـــي ليـــال دجـــن
حـارسًـا للنـاس فـي أقصـى الحـرس[(١)]

أخي المسلم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ومن كان كثير الذنوب، فأعظم دوائه الجهاد»[(٢)].

وقال ـ رحمه الله ـ: «اعلموا أن الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة، وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة، قال الله ـ تعالى ـ في كتابه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] يعني: إمَّا النَّصر والظفر، وإمَّا الشَّهادة والجنَّة، فمن عاش من المجاهدين كان كريمًا له

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ٣٠٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢١).

ثواب الدُّنيا، وحسن ثواب الآخرة، ومن مات منهم أو قتل فإلىٰ الجنَّة، قال ﷺ: «**يُعطىٰ الشَّهيد ستَّ خصالٍ: يُغفر له بأوَّل قطرة من دمه، ويرىٰ مقعده من الجنَّة، ويُكسى حلَّة من الإيمان، ويزوج ثنتين وسبعين من الحور العين، ويوقىٰ فتنة القبر، ويؤمن من الفزع الأكبر**» [رواه أهل السنن].

وقال ﷺ: «**إنَّ في الجنَّة لمائة درجة، ما بين الدرجة إلىٰ الدرجة كما بين السماء والأرض، أعدَّها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمجاهدين في سبيله**»، فهذا ارتفاع خمسين ألف سنة في الجنة لأهل الجهاد.

وقال ﷺ: «**مثل المجاهد في سبيل الله مثل الصائم القائم القانت، الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام**».

وقال رجل: أخبرني بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**لا تستطيعه**»، قال: أخبرني به؟ قال: «**هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر؟**» قال: لا، قال: «**فذلك الذي يعدل الجهاد في سبيل الله**»، وهذه الأحاديث في الصحيحين وغيرهما.

وكذلك اتَّفق العلماء ـ فيما أعلم ـ علىٰ أنَّه ليس في التَّطوُّعات أفضل من الجهاد، فهو أفضل من الحجِّ، وأفضل من صوم التَّطوُّع، وأفضل من صلاة التَّطوُّع»[1].

أخي المسلم:

دعنا نسير مع أولئك الرِّجال الأفذاذ في طريق جهادهم وما يلاقون من الشَّدائد والصعاب لعلنا نستحث الهمم ونقوي العزائم!

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤١٧).

قال عروة بن الزبير: لما تجهَّز النَّاس، وتهيأوا للخروج إلىٰ مؤتة، قال للمسلمين: صحبكم الله، ودفع عنكم، قال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة
وضربة ذات فرع تقذف الزبد
أو طعنة بيدي حرَّان مُجهزة
بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتىٰ يقولوا إذا مروا على جسدي
أرشده الله من غاز وقد رشدا[١]

قال: ثم مضوا حتى نزلوا بأرض الشام، فبلغهم أن هرقل قد نزل من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضمت إليه المستعربة من لخم، وجذام، وبلقين، وبهرا، وبلي، في مائة ألف فأقاموا ليلتين ينظرون في أمرهم.

وقال نكتب لرسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا.

قال: فشجع عبدالله بن رواحة الناس ثم قال: والله يا قوم إن الذي تكرهون للذي خرجتم له، تطلبون الشهادة، وما نقاتل العدو بعدة ولا قوم ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، قال: فقال الناس: قد ـ والله ـ صدق ابن رواحة فمضى الناس.

* أمَّا الموقف الثَّاني فهو لموقف مؤثر وهم يسيرون إلى الموت

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٤٨٣).

ويسرعون إلى لقاء العدو رغبة فيما عند الله!

عن زيد بن أرقم قال: كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج في سفرته تلك مردفي على حقيبة راحلته، فوالله إنا لنسير ليلة، إذ سمعته يتمثل بأبياته هذه:

إذا أدنيتنـــــي وحملـــــت رحلـــــي
مسيـــــرة أربـــــع بعـــــد الحســـــاء
فشـــأنـــك فـــأنعمـــي وخـــلال ذم
ولا أرجـــع إلـــى أهلـــي ورائـــي
وآب المسلمـــون وغـــادرونـــي
بـــأرض الشـــام مُستنهـــى الثـــواء
وردك كـــل ذي نســـب قـــريـــب
إلـــى الـــرحمـــن منقطـــع الإخـــاء
هنـــالـــك لا أبـــالـــي طلـــع بعـــل
ولا نخـــل أســـافلهـــا رواء

فلما سمعتهن بكيت، قال: فخفقني بالدرة، وقال: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة، وترجع بين شعبتي الرحل.

فأخذ الراية عبدالله بن رواح بعد قتل صاحبيه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بها بعض التردد، فقال عند ذلك:

أقسمـــت بـــالله لتنـــزلنـــه
طـــائعـــة أو لتكـــرهنـــه

إن أجلـــب النـــاس وشـــدوا الـــرنـــة
مـــا لـــي أراك تكـــرهيـــن الجنـــة
قـــد طـــال مـــا قـــد كنـــت مطمئنـــة
هـــل أنـــت إلا نطفـــةٌ فـــي شنـــة

وقال أيضًا:

يـا نفـس إن لا تقتلـي تمـوتـي هـذا حمـام المـوت قـد صليـت
ومـا تمنيـتِ فقـد أعطيـتِ إن تفعلـي فعلهمـا هـديـتِ
وإن تـأخـرت فقـد شقيـتِ

فلما نزل، أتاه ابن عم له من لحم، فقال: شد بهذا صلبك، فإن قد لاقيت من أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده، ثم انتهش منه نهشة، ثم سمع الحِطْمَة في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا!! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، فقاتل حتى قتل ـ رضي الله عنه ـ[١].

* وكان صلة بن أشيم في مغزي له ومعه ابن له، فقال: أي بني تقدم فقاتِل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، فاجتمعت النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت: «مرحبًا إن كنتن جئتن لتهنئني فمرحبًا بكن، وإن كن جئتن لغير ذلك فأرجعن»[٢].

ولعلَّنا نطلُّ على ما ادَّخره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للشُّهداء الصَّادقين لمن بذلوا دماءهم رخيصة في سبيل الله..

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١١٨).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٢٣٩).

عن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت الليلة رجلين أتياني، فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها، قالا: أما هذه الدار فدار الشهداءِ**» [رواه البخاري].

قال ابن كعب القرطبي: إن عبدالله ذا البجادين كان امرءًا من مزينة فوقع في قلبه حب رسول الله ﷺ وحب الإيمان فتوجه نحو النبي ﷺ وذهبت أمه إلى قومها فقالت: إن عبدالله قد توجه نحو محمد فاتبعوه فردوه. فقالت: أمه خذوا ثيابه فإنه أشد الناس حياء، فإنكم إن أخذتم ثيابه لم يبرح، فأخذوا ثيابه وجردوه فقعد في البيت فأبى أن يأكل ويشرب؛ حتى يلحق بمحمد ﷺ فلما رأت أمه أنه لا يأكل ولا يشرب أتتْ قومها فأخبرتهم أنه قد حلف ألا يأكل وألا يشرب حتى يلحق بمحمد ﷺ فأعطوه ثيابه فإني أخاف أن يموت، فأبوا فأخذت بجادها ـ كساء غليظ ـ وقطعته قطعتين ثم زررت أحدهما فاتزره ووضع الآخر على رأسه، وقالت: اذهب. فذهب، ترفعه أرض وتخفضه أخرى، حتى قدم المدينة وقرأ القرآن وفقَّه في الدين، فكان يأوي هو وأصحابه إلى ظل بيت لامرأة من الأنصار تضع لهم طعامهم وتهيىء لهم أمرهم، فقال له أصحابه ذات يوم: لو تزوجت فلانة، فبلغ ذلك المرأة فقالت: ما لكم هجيرًا ـ عادة ـ إلا ذكري، لتمسكن عن ذكري أو لا يأويكم ظل بيتي، فبلغ ذلك أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فأتاها فقال: يا فلانة ألم يبلغني أن عبدالله خطبك فتزوجيه؟ فإنه في حسب من قومه، وقد قرأ القرآن وفقَّه في الدين، وأتاها عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال لها مثل ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ، وكان عبدالله إذا طلعت الشمس قام فصلى ما شاء الله أن يصلي، ثم يمر بالنبي ﷺ فيسلم عليه ثم يذهب إلى رحله، فصلى ذات يوم فمر

بالنبي ﷺ قال: «**يا عبدالله ألم يبلغني أن تذكر فلانة؟**» قال: بلى، قال: «**قد زوجتكها**»، فأتى أصحابه فقال: رسول الله ﷺ قد زوجنيها، فجاءت نسوة من الأنصار فذهبن بها وهيئنها وصنعنها، وصنعن لها بردة، وصنعن لها وسادة من أدم، وقدحًا، وشيئًا من طعام، فزفينها عشاءً فقام يصلي ما عرض لها ولا أرادها حتى أذَّن بلال بالفجر، فلما أذن ذهبت النسوة إلى أزواجهن فقلن: والله ما لعبد الله من حاجة، ما عرض لها ولا أرادها ولا قربها، وصلى عبد الله مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر، فلما طلعت الشمس قام يصلي نحو ما كان يصلي فمر بالنبي ﷺ فسلم عليه فقال له رسول الله ﷺ: «**أما لك في أهلك حاجة؟**».

قال: بلى، ولكن رأيت نعمة من نعم الله ـ تعالى ـ رأيت امرأة جميلة وفراشًا وطعامًا فلم أجد شيئًا أتقرب به إلى الله إلا سلاحي، ولم أكن أوثر بسلاحي على الله ورسوله أحدًا إلا أن أصلي، فهذا وجهي إلى أهلي يا رسول الله، فذهب إلى أهله فأصاب منها، ثم أصابته جراحه يوم خيبر، فأوصى: «أني لم أكن أعطيت امرأتي شيئًا فأعطوها نصيبي من خيبر»، ومات.

أين نحن من هؤلاء؟!

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أصابنا جوع شديد فخرجت ذات ليلة فرأيت نويرة تَبُصُّ، فقلت: لأدنون منها لعلي أصيب عندها طعامًا، قال: فدنوت فإذا رسول الله ﷺ في القبر يحفر يناول أبا بكر وعمر التراب، وإذا عبدالله مسجى عليه، فلما دفنه قال: «**اللهم إني عنه راضٍ فارض عنه**» مرتين أو ثلاثًا[١].

---

(١) الحلية (١/ ١٢٢)، والسيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٣).

ولم تكن القصور والدُّور منتهى آمالهم في الدُّنيا، بل كانوا يتخفَّفون في المباني والدُّور!

كان لشفيق بن سلمة خص من نصب (البيت في النصب أو شجر) وكان يكون فيه هو وفرسه فإذا غزا نقضه وتصدق به، وإذا رجع أنشأ بنائه[١].

وهذا **سعد بن خَيْثَمة الأنصاري** ـ رضي الله عنه ـ أحد نقباء الأنصار الاثني عشر، شهد العقبة الأخيرة مع السبعين، ولمَّا ندب رسول الله ﷺ النَّاس إلى غزوة بدر قال له أبو خيثمة: إنَّه لابدَّ لأحدنا أنْ يقيم، فآثِرني بالخروج وأقمْ مع نسائِك، فأبىٰ سعد، وقال: لو كان غير الجنَّة آثرتك به؛ إنِّي لأرجو الشَّهادة في وجهي هذا. فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج فقتل ببدرٍ[٢].

قال **ابن تيمية** ـ رحمه الله ـ: «يجب على جميع المسلمين أن يكونوا يدًا واحدةً على الكفار، وأن يجتمعوا ويقاتلوا على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ويدعوا المسلمين إلى ما كان عليه سلفهم من الصدق وحسن الأخلاق، فإن هذا من أعظم أصول الإسلام وقواعد الإيمان التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه.. أمر عباده عمومًا بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف».

إذا أظمـــأتـــك كـــف اللئـــا

م كفتـــك القنـــاعـــة شبعًـــا وريـــا

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٨).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٤٦٨).

فكـــن رجـــلاً رجلـــه فـــي الثـــرى
وهـــامـــة همتـــه فـــي الثـــريـــا
أبيًّـــا لنـــائـــل ذي ثـــروة
تـــراه بمـــا فـــي يـــديـــه أبيـــا
فـــإن أراقـــه مـــاء الحيـــا
ة دون إراقـــة مـــاء المحيـــا[(١)]

كانت **أم إبراهيم الهاشمية** ـ رحمها الله ـ عابدة من عابدات البصرة الصالحات، وحدث ذات عام أن أغار الروم على ثغرٍ من ثغور المسلمين، فانتدب الناس للجهاد في سبيل الله، فقام العبد الصالح عبد الواحد بن زيد في الناس واعظًا وخطيبًا ومحرضًا على الجهاد، وكانت أم إبراهيم حاضرة في ذلك المجلس، وطال حديثه وتشويقه للجهاد، ثم شرع في وصف حور الجنان الحسان وجمالهن، وأطنب في ذلك وتوسع، فماج الناس لذلك واضطربوا، واشتاقت النفوس إلى الجنان، وتطلعت الأفئدة إلى الحور الحسان!!

فوثبت **أم إبراهيم** من وسط الحاضرين وقالت لعبد الواحد: يا أبا عبيد، ألست تعرف ولدي إبراهيم، فإن أعيان أهل البصرة يخطبونه لبناتهم!!، وأنا أضن به عليهم، فقد والله أعجبتني هذه الحورية التي ذكرت لنا أوصافها، وأنا أرضاها زوجة لولدي إبراهيم!!، فهل لك أن تزوجه منها وتأخذ مهرها عشرة آلاف دينارٍ، ويخرج معك في هذه

(١) تاريخ بغداد (١١/ ٣٢).

الغزوة، فلعل الله أن يرزقه الشهادة في سبيله، فيكون شفيعًا لي ولأبيه يوم القيامة؟!

فقال لها عبد الواحد بن زيد: لئن فعلت لتفوزن أنت وزوجك وولدك فوزًا عظيمًا!! فنادت ولدها إبراهيم من وسط الناس، فقال لها: لبيك يا أماه! فقالت: أي بني، أرضيت بهذه الجارية زوجة لك، ببذل مهجتك في سبيل الله، وترك العودة إلى الذنوب، فقال الفتى: إي والله يا أمي!!، رضيت وأي رضى، فقالت: «اللهم إني أشهدك أني قد زوجت ولدي هذا من هذه الحورية، ببذل مهجته في سبيلك، وترك العودة إلى الذنوب، فتقبله مني يا أرحم الراحمين!!».

ثم انصرفت فجاءت بعشرة آلاف دينار، ثم قالت: يا أبا عبدالله، هذا مهر الحورية، تجهز به، وجهِّز به الغزاة في سبيل الله!!

ثم انصرفت، فاشترت لولدها إبراهيم فرسًا جيدًا، وسلاحًا ثقيلاً، وخرج الجيش للقتال وهم يرددون قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فلما أرادت أم إبراهيم فراق ولدها، دفعت إليه كفنًا وحنوطًا وقالت له: أي بني، إذا أردت لقاء العدو، فتكفن بهذا الكفن، وتحنط بهذا الحنوط، وإياك أن يراك الله مقصِّرًا في سبيله، ثم ضمته إلى صدرها، وقبلت ما بين عينيه وقالت: لا جمع الله بيني وبينك، إلا بين يديه، في عرصات القيامة!!

قال عبدالواحد: فلما واجهنا العدو، برز ابنها إبراهيم في المقدمة،

فقتل من العدو خلقًا كثيرًا، ثم تجمعوا عليه فقتلوه!!

فلما انتهت الغزوة، ورجعنا إلى البصرة غانمين، خرج الناس يتلقوننا ويستقبلوننا، وخرجت أم إبراهيم فيمن خرج، فلما أبصرتني قالت: يا أبا عبيد، هل قبلت مني هديتي فأُهَنَّىٰ؟!! أم رُدَّتْ عليَّ فَأُعَزِىٰ؟!! فقلت لها: قد قبلت هديتك!!، وإن ولدك إبراهيم حي مع الشهداء إن شاء الله.

فخرت ساجدة لله ـ تعالى ـ، ثم قالت: الحمد لله الذي لم يخيب ظني وتقبل نسكي مني فلما كان من الغد، أتتني إلى المسجد، فقالت: يا أبا عبيد، بشراك!! بشراك!!. فقلت لها: لا زلت مبشرة بالخير!! فقالت: رأيت البارحة ولدي إبراهيم في روضة حسناء، وعليه قبة خضراء، وهو على سرير من اللؤلؤ وعلى رأسه تاج وإكليل، وهو يقول لي يا أماه.. أبشري!! فقد قبل المهر!! وزُفَّتِ العروس إلى عريسها!![1].

وعن **أبي قدامة الشامي** ـ رحمه الله ـ قال: كنت أميرًا على جيشٍ من جيوش المسلمين، في بعض الغزوات، فدخلت بعض البلدان، فدعوتُ الناس إلى الغزو، ورغَّبتهم في الجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ، وذكرت لهم فضل الشهادة في سبيل الله، وما لأهلها عند الله ـ عز وجل ـ من الثواب العظيم والنعيم المقيم، ثم تفرق الناس، فركبت فرسي، وسرت إلى منزلي، فإذا أنا بامرأةٍ، تقف لي على جانب الطريق، وتناديني وتقول: يا أبا قدامة!! يا أبا قدامة!! فقلت في نفسي: هذه مكيدة من الشيطان، ليفتنني بها!! فمضيتُ ولم ألتفتْ إليها، فقالت: ما هكذا كان الصالحون!! فوقفتُ لها حينئذ، فجاءتْ ودفعتْ إليَّ رقعة وخرقةً

---

(١) كتاب [مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق] لابن النحاس (١/ ٢١٥) بتصرف.

مشدودة، وانصرفتْ باكيةً، فنظرت إلى الرقعة فإذا مكتوبٌ فيها:

إنك دعوتنا إلى الجهاد، ورغَّبتنا في الثواب، وأنا امرأة لا قدرة لي على الخروج بنفسي، فقطعت أجمل ما في جسدي، وهما ضفيرتاي، وأعطيتهما إياك لتجعلهما قيدًا لفرس غازٍ في سبيل الله ـ تعالى ـ!! لعل الله ـ عز وجل ـ أن يرى شعري قيدًا لفرسٍ في سبيله، فيغفر لي.

فلما كانت صبيحة القتال، إذا بغلامٍ بين يدي الصفوف، يقاتل بقوة وشجاعة وبسالة!! فتقدمت إليه وقلتُ له: يا فتى، أنت غلامٌ صغير السن، راجل ولا فرس معكَ، ولا آمن أن تجول الخيل فتطأك بأرجلها، فارجع عن موضعك هذا!!.

فقال لي الغلام: أتأمرني بالرجوع وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦] فأعجبتني شجاعته وبسالته، فحملته على هجين كان معي!!.

فقال: يا أبا قدامة أقرضني ثلاثة أسهم!! فقلت له: أهذا وقت قرض!! فما زال يلحُّ علي حتى قبلت وقلت له: بشرط إن منَّ اللهُ عليك بالشهادة في سبيله، أكون في شفاعتك يوم القيامة!! فقال: نعم!! فأعطيته ثلاثة أسهمٍ، فوضع سهمًا في قوسه وقال: السلام عليك يا أبا قدامة!! ثم رمى به فقتل روميًّا!! ثم رمى بالآخر وقال: السلام عليك يا أبا قدامة سلام مودع!! فجاءه سهمٌ فوقع بين عينيه، فوضع رأسه على قربوس سرجه!! فتقدمت إليه، وقلت له: لا تنسها!! فقال لي ودماؤه

تنزف: نعم!! ولكن لي إليك حاجةٌ!! إذا دخلت المدينة، فأتِ والدتي وسلِّم خُرجي إليها وأخبرها بقصتي!!.

فقال له أبو قدامة: ولكن أخبرني من هي أمك؟!! وكيف أعرفها من بين نساء المدينة؟!!.

فقال له الغلام: إن أمي هي التي أعطتك شعرها، لتجعله قيدًا لفرسٍ في سبيل الله، فسلم لي عليها، فإنها في العام الأول، أصيبت بمقتلِ والدي في الجهاد، وفي هذا العام أصيبت بي!! ثم مات ـ رحمه الله ـ فحفرت له ودفنته بعد انتهاء المعركة، فلما هممنا بالانصراف عن قبره، قذفته الأرض، فألقته على ظهرها، فقال أصحابي: إنه غلام صغير السنِّ، ولعله خرج بغير إذن أمه، فرفضته الأرض ولم تقبله، فقلت لهم: إن الأرض لتقبل من هو شر من هذا!!

فبينا نحن كذلك، لا ندري ماذا نفعل به، إذ نزلت عليه طيورٌ بيضٌ، فأكلته!! ونحن ننظر إليها، لم يستطع أحدٌ منا الاقتراب منها!!

فلما أتيتُ المدينة، ذهبت إلى دار والدته، فلما قرعتُ الباب، خرجت أخته إليَّ، فلما رأتني عادت، وقالت: يا أماه، هذا أبو قدامة، ليس معه أخي، فقد أُصبنا في العام الأوَّل بأبي، وفي هذا العام بأخي، فخرجتْ أمُّه إليَّ فقالتْ: أمُعزِّيًا أم مُهنئًا؟!!.

فقلتُ: مامعنى هذا؟!! فقالت: إنْ كان مات فعزني! وإن كان استشهد فهنئني!! فقلتُ: لا، بل مات شهيدًا!! فقالت: له علامةٌ فهل رأيتها!!.

قلتُ: نعم!! لم تقبله الأرض، ونزلتْ الطيور فأكلت لحمه، وتركتْ

عظامه، فدفنتها فقالتْ الأم: الحمد لله!! ثم قالتْ: إنه كان إذا جنَّ الليل، وقام في محرابه يصلي، ناجى مولاه ـ تعالى ـ وبكى وتضرع، وقال في مناجاته: «اللهم احشرني في حواصل الطيور!!»[١].

أخي الحبيب أين نحن من هؤلاء؟!

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يا أمير المؤمنين احملني فإني أريد الجهاد فقال عمر لرجل خذ بيده، فأدخله بيت المال، يأخذ ما يشاء، فدخل فإذا هو بيضاء وصفراء فقال: ما هذا ما لي في هذا حاجة إنما أردت زادًا وراحلةً فردوه إلى عمر فأخبروه بما قال، فأمر له بزاد وراحلة وجعل عمر يرحل له بيده فلما ركب رفع يده فحمد الله وأثنى عليه بما وهبه وأعطاه، قال: وعمر يمشي خلفه يتسنى أن يدعو له فلما فرغ قال: اللهم عمر فاجزه خيرًا، وأومأ بيده إلى رحله[٢].

ألا في سبيل الله ماذا تضمنت
بطون الثرى وأستودع البلد الفقر
بدور إذا الدنيا دجت أشرقت بهم
وإن أجدبت يومًا فأيديهم القطر
فيا شامتا بالموت لا تشمتن بهم
حياتهم فخر وموتهم ذكر[٣]

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٤/ ٢٠٠) بتصرف.
(٢) كتاب الزهد لابن السري (١/ ٣١٤).
(٣) وفيات الأعيان (٧/ ٢٤٠).

عن جعفر بن عبدالله بن أسلم قال: لما كان يوم اليمامة، واصطف الناس كان أول من جرح أبو عقيل، رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن له شقه الأيسر في أول النهار، وجر إلى الرحل، فلما حمي القتال، وانهزم المسلمون، وجاوزوا رحالهم، وأبو عقيل واهن من جرحه، سمع معن بن عدي يصيح: (يا للأنصار» الله الله والكرة على عدوكم! قال عبدالله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد؟ ما فيك قتال!

قال: قد نوه المنادي باسمي، قال ابن عمر: فقلت له: إنما يقول: يا للأنصار ولا يعني الجرحى. قال أبو عقيل: أنا من الأنصار، وأنا أجيبه ولو حَبْوًا، قال ابن عمر: فتحزَّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنىٰ، ثم جعل ينادي: يا للأنصار! كرة كيوم حنين! فاجتمعوا رحمكم الله جميعًا، تقدموا فالمسلمون دريئة دون عدوهم، حتى أقحموا عدوهم الحديقة، فاختلطوا، واختلفت السيوف بيننا وبينهم.

قال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت في الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحًا كلها قد خلصت إلى مقتل، وقتل عدو الله مسيلمة. قال ابن عمر: فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: يا أبا عقيل! قال: لبيك ـ بلسان ملتاث ـ لمن الدبرة؟ يعني: الهزيمة. قلت: أبشر قد قتل عدو الله، فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات يرحمه الله[١].

---

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق (١/ ٥٠٩).

أخي المسلم:

قال ابن عبد ربه: «رجال الأنصار أشجع النَّاس، قال عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما استُلَّتِ السُّيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قيلة، يعني الأوس والخزرج، وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر، من الأزد».

عن قتادة قال: «ما نعلم حيًّا من أحياء العرب أكثر شهيدًا، أغرَّ يوم القيامة من الأنصار، قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك أنَّه قُتل منهم يوم أحدٍ سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسليمة الكذاب».

وعن أنس أنَّه كان يقول: يا ربِّ، سبعين من الأنصار يوم أحد، وسبعين يوم بئر معونة. وسبعين يوم مسيلمة الكذَّاب، وسبعين يوم جسر أبي عبيدة[1].

عن ابن سيرين: أنَّ المسلمين انتهوا إلى حائط فيه رجال من المشركين، فقعد البراء على ترس، وقال: ارفعوني برماحكم، فألقوه وراء الحائط، قال: فأدركوه وقد قتل منهم عشرة وجرح البراء يومئذ بضعةً وثمانين جراحة، ما بين رمية وضربة، فأقام عليه خالد بن الوليد شهرًا حتى برأ من جراحته[2].

أين نحن من هؤلاء؟!

---

(١) العقد الفريد (١/ ١١٨).

(٢) أسد الغابة (١/ ٢٠٦).

قال أبو رافع: وجه عمر جيشًا إلى الروم، فأسروا **عبدالله بن حذافة** ـ رضي الله عنه ـ فذهبوا به إلى الروم، فأسروا عبدالله بن حذافة فذهبوا إلى مهلكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد. فقال: هل لك أن تتنصر وأعطيك نصف ملكي؟ قال: لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما تملك العرب، ما رجعت عن دين محمد طرفة عين. قال: إذًا أقتلك، قال: أنت وذاك، فأمر به، فصلب، وقال للرماة: أرموه قريبًا من بدنه، وهو يعرض عليه، ويأبى، فأنزله، ودعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما، فألقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبى، ثم بكى فقيل للملك: إنه بكى، فظن أنه قد جزع، فقال: رُدُّوه، ما أبكاك؟ قال: قلت: هي نفس واحدة تلقى الساعة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تلقى في النار في الله. فقال له الطاغية: هل لك أن تُقَبِّلَ رأسي، وأخلي عنك؟ فقال له عبدالله: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم، فقبَّل رأسه، وقدم بالأسارى على عمر، فأخبره خبره، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ، فقبل رأسه[١].

أين نحن من هؤلاء؟!

قال **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ لأخيه زيد يوم أحد: أقسمت عليك ألا لبست درعي، فلبسها ثم نزعها، فقال له عمر: مالك؟ فقال: إني أريد بنفسي ما تريد بنفسك.

وقال **أبو إسحاق** السبيعي: نزل عكرمة يوم اليرموك، فقاتل قتالاً

(١) أسد الغابة (٣/ ٢١٢).

شديدًا، ثم استشهد، فوجدوا به بضعًا وسبعين من طعنةٍ ورميةٍ وضربةٍ[(١)].

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ فقال ابن أم مكتوم: أي رب أنزل عذري، فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]، فجعل بينها، وكان بعد ذلك يغزو ويقول: ادفعوا إليَّ اللواء فإني أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيموني بين الصفين، قال أنس بن مالك: كان من ابن مكتوم يوم القادسية راية ولواء.

قال **خالد بن الوليد**: «ما ليلة أبشر فيها بغلام أو تهدي إليَّ فيها عروس أحب إليَّ من ليلة مرة باردة في سبيل الله»[(٢)].

وعن **ابن عمر** قال: جمعت جعفرًا علىٰ صدري يوم مؤتة، فوجدت في مقدم جسده بضعًا وأربعين من بين ضربةٍ وطعنةٍ[(٣)].

كيف وهو الذي سمع حديث النبي ﷺ عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله ـ تعالى ـ أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**» [متفق عليه].

وعن سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه، وإنْ مات جرىٰ عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفُتَّان**» [رواه مسلم].

---

(١) السير (١/ ٣٢٤).

(٢) الثبات عند الممات ص (١٠٧).

(٣) السير (١/ ٢١٠).

قال **الإمام النَّووي** في هذا الحديث: هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد. وقد جاء صريحًا في غير مسلم: «**كل ميت يختم عمله إلا المرابط فإنَّه يُنمىٰ له عمله إلىٰ يوم القيامة**»[١].

أخي المسلم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتَّى قال: أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: لأنْ أرابط في سبيل الله أحبَّ إليَّ من أنْ أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود»[٢].

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة فأنفذه، قال عامر: فزت والله؟ قال الراوي: وذهب بعامر علوا في السماء حتى ما أراه، فقال رسول الله ﷺ: «**أن الملائكة وارت جثته وأنزل عليين**»، وسأل جبار بن سلمى ما قوله: فزت الله، قالوا: الجنة، قال: فأسلم جبار لما رأى من أمر عامر بن فهيرة فحسن إسلامه، قالت عائشة، رفع عامر بن فهير إلى السماء فلم توجد جثته يرون أن الملائكة وارته[٣].

وقال **جابر**: لما قتل أبي يوم أحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني وجعلت عمتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: **تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظلله**

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤١٨).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٢٩٨)، والبخاري (١٢٤٤).

بأجنحتها حتى رفعتموه»[(١)].

وعن جابر قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألا أخبرك أن الله كلم أباك كفاحا»**، فقال: عبدي، سلني أعطك، قال: أسألك أن تردني إلى الدنيا، فأقتل فيك ثانية، فقال أنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب، فأبلغ من ورائي، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[(٢)] [آل عمران: ١٦٩].

قال أبو الطيب:

عش عزيزًا أو مت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود

أخي الحبيب:

قال **ابن عون**: بينا نحن يوماً في بلاد الروم إذا أنا بوجوه قد تغيرت، فقلت لرجل إلى جنبي: ما هذا قال الذي أرى في وجوه الناس؟ قال: أما ترى العدو؟ فنظرت فإذا الجبل مسود من الأعلاج، قال ابن عون: نعلم أن الموت كريه، وإلى جنبي رجل لا أرى في وجهه ما أرى في وجوه القوم، في يده تفاحتان يقلبهما إذ خرج رجل من العدو فدعا البراز، فبرز له رجل من المسلمين فحمل عليه فطعنه، ودعا إلى تفاحتيه، فأخذها فجعل يقلبهما، فقلت لرجل إلى جنبي من هذا؟ قال البطَّال:

وصبر عن معترك المنايا
وقد شرعت أسنتها بنحري[(٣)]

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٤٦) حديث رقم (٣٠١٠)، وابن حبان (٢٢ . ٧).
(٢) مكارم الأخلاق ص (٣٨).
(٣) شذرات الذهب (٢/ ٨).

وأنواع الجهاد كثيرة ولله الحمد ـ خاصة في هذا الزمن ـ منها الجهاد بالكلمة والقلم وفضح المنافقين والرد عليهم . .

قال أبو إسماعيل **عبدالله بن محمد الهروي**: عرضت علي السيف خمس مرات لا يقال لي ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي: اسكت عما خالفك، فأقول لا أسكت[١].

أخي المسلم:

أولئك أباؤك وأجدادك قال عنهم علي الجارم:

عشنا أعزاء ملء الأرض ما لسمت
جباهنا تربها إلا مصلينا
لا ينزل النصر إلا فوق رأيتنا
ولا تمسى الظبا إلا نواصينا

* سأل **عمر خباب بن الأرت** ـ رضي الله عنهما ـ عما لقي من المشركين، فقال خباب: يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري، لقد أوقدت لي نار وسحبت عليها فما اطفأها إلا ودك ظهري.

وفي زمن العزة والجهاد نرى قولاً عجيبًا. قال الزبير ـ رضي الله عنه ـ: «نحن أمة لا نموت إلا قتلى، فمالي أرى الفرش كثر عليها الأموات».

فكيف لو رأى الحال اليوم!

وقد ذكر **بعض العلماء**: إنَّ أكثر من ثمانين بالمائة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قضوا نحبهم في ميادين الجهاد والطعن والنزال،

---

(١) تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٨٤).

ولهذا ارتفعت الراية وعز أهل الإسلام وانتشرت الدعوة في أصقاع الأرض.

وعن علي بن زيد: «أخبرني من رأى الزبير، وفي صدره أمثال العيون من الطَّعن والرَّمي».

وعن عروة قال: «كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن في عاتقه، إن كنت لأدخل أصابعي فيها، ضرب ثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك».

أنشد خبيب بن عدي أنشدوة الموت وهي قصيدة الفداء:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا
على أي جنب كان في الله مصرعي
ولست عبد للعدو وتخشعا
ولا جزعًا إني إلى الله مرجعي
وذاك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أشلاء شلو ممزع

أخي المسلم:

قال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ في مراتب الجهاد: «ثم بالنسبة إلى قتال الكفار لذلك ثلاث مراتب:

صدر الإسلام فيه الكف والصفح عن المشركين..

ثم انتقل إلى حال آخر، وهو الإذن في قتال من قاتل، لقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٩٣].

ثم بعد ذلك الأذان والأمر بقتال المشركين، كما قال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وهي آية السيف، وهذا الحديث[١] مثل الآية، فإنه كما شرع أن يقاتلوا دفعًا عن النفس، فإنه في الآخر أذن في القتال وأمر حتى يدخلوا في الإسلام».

ثم ـ قال رحمه الله ـ: «ثم المعروف أن المشركين يقاتلون لأجل شركهم، لا لأجل عدوانهم من أدلته حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. . .**»[٢].

ولم يقل: نقاتل من قاتلنا، ولا من نخشى شره.

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٢٩] دل على أن قتالهم بالوصف: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾ هذا هو العلة.

﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ [التوبة: ٥] يفيد أنهم يقاتلون لأجل شركهم؛ فإن الاسم إذا كان بصيغة الوصف دل على اعتبار الوصف كقولك: أعط الفقير درهمًا.

«**قاتلوا من كفر بالله**»[٣] هذا من البرهان على أن الكفرة يقاتلون لأجل كفرهم. والرسول أفهم الخلق، فلو كانوا لا يقاتلون إلا لأجل دفع شرهم لقال: إن قاتلوكم.

والله سبحانه لم يأمره أولاً بالجهاد، ثم أمر بذلك بعد.

---

(١) «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا. . .**».

(٢) متفق عليه وأخرجه أصحاب السنن.

(٣) وهو حديث سلمان بن بريدة عن أبيه، وقد أخرجه الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه والترمذي وصححه.

«**أغزوا في سبيل الله**»[١]، و«**جاهدوا المشركين بقلوبكم، وأيديكم، وألسنتكم**»[٢] في هذا الجهاد بأمرين، أو بثلاثة أمور عندما يكون بإمكانه؛ فإن الحديث يدل على أنهم يجاهدون بها كلها إذا أمكن، وتقدم أن ذلك فرض كفاية.

الحجة والبيان هذه حصة أهل العلم: كشف الشبهات، والذب بالقلم واللسان عن الدين، ومما يدل على ذلك قول النبي ﷺ لحسان: «**اهْجُهُمْ...**»[٣] فالهجاء عندما يحتاج إليه، وبيان الحق عندما يوجد شبهة: كله جهاد.

ولا تجد في كتب أهل الدعوة[٤] ما يدل على أنهم يقاتلون لدفع شرهم، بل لو سألت صاحب فطرة لأنبأك أنهم يقاتلون لكفرهم.

وهذه مسألة فروعية وبعض الإخوان يقول: وإن كانت فروعية فالقول بأنهم يقاتلون لأجل صيالهم كأنه يبطل مصارمتهم».

وقال ـ **رحمه الله** ـ: «ونعرف شيئًا واحدًا، وهو: أن العلماء متفقون على وجوب قتالهم، لكن الذي أوجب الله: هل هو لأجل هذا، أو لا. وكثير لا يدريه.

الجمع بين القولين: في التعليل بدفع شرهم، ولأجل كفرهم.

مع أن هذه المسألة لا متعلق لأحد فيها: هم في كل زمان دائبون في ذلك، فكيف مثل هذه الأزمان، يتركون إلى متى؟ وفي الحقيقة هم لا

---

(١) وهو حديث بريدة السابق.
(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.
(٣) وجبريل معك «**اللهم أيده بروح القدس**».
(٤) يريد: دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتلاميذه وتلاميذهم.

يزال شرهم، هم إذا جاءت مسألة الدين فهم جميعًا على سلبها من المسلمين، ويريدون أن يمنعوا الدين عن المسلمين، ويبقوا هكذا: يستعمرونهم في مصالحهم. وقتالهم للمسلمين في الوقت الحاضر، بالراديوهات، وبالمجلات، وبالمدارس، وغير ذلك.

وفي الحقيقة أنه من أعين المتعين قتالهم في الوقت الحاضر لو تيسر»(١).

أخي القارىء:

بينما الناس يأخذون أعطياتهم بين يدي عمر ـ رضي الله عنه ـ إذ رفع رأسه فنظر إلى رجل في وجهه ضربة: فسأله: فأخبره أنه أصابته في غزاة كان فيها فقال: عدوا له ألفًا فأعطى الرجل ألف درهم، ثم حول المال ساعة ثم قال: عدوا له ألفًا فاستحى الرجل من كثرة ما يعطيه فخرج، فسأل عنه، فقيل له: إنا رأينا أنه استحى من كثرة ما أعطي فخرج، فقال عمر: «أما والله لو أنه مكث ما زلت أعطيه ما بقي من المال درهم رجل ضرب ضربة في سبيل الله حفرت وجهه»(٢).

قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ في الجنَّة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدَّرجتين كما بين السَّماء والأرض»** [رواه البخاري].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«منْ آمن بالله وبرسوله، وأقام الصَّلاة، وصام رمضان، كان حقًّا على الله أنْ يدخله الجنَّة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها»**.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم (٦/ ١٩٨).

(٢) حلية الأولياء (٣/ ٣٥٥).

فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشِّر الناس؟!

قال: **«إنَّ في الجنَّة مائة درجة أعدَّهَا الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السَّماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوا الفردوس، فإنَّه أوسط الجنَّة وأعلىٰ الجنَّة، أراه قال: وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»** [رواه البخاري].

«أو جلس في بيته» فيه تأنيس لمن حرم الجهاد وأنَّه ليس محرومًا من الأجر، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنَّة وإن قصر عن درجة المجاهدين.

واستنتج ابن حجر من ظاهر الحديث أن المراد: لا تبشر النَّاس بما ذكرته من دخول الجنَّة لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه فيقفوا عند ذلك ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدَّرجات التي تحصل بالجهاد...

و**«الأوسط»** الأعدل.

وفي الحديث إشارة إلى أنَّ درجة المجاهد قد ينالها غير المجاهد، إمَّا بالنِّيَّة الخالصة، أو بما يوازيه من الأعمال الصَّالحة، لأنَّه ﷺ أمر الجميع بالدُّعاء بالفردوس بعد أن أعلمهم أنَّه أعدَّ للمجاهدين...[1].

دبَّتُ للمجد والسَّاعون قد بلغوا ... جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا

وكابدوا المجد حتَّىٰ ملَّ أكثرهم ... وعانق من أوفىٰ ومن صبرا

(١) فتح الباري (٦/ ١٢).

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله
لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبرا[١]

عن ابن عمر قال: وجدنا فيما أقبل من بدن جعفر بن أبي طالب ما بين منكبيه تسعين ضربة ما بين طعنه برمح وضربه بسيف.

فتى الحرب عضت به الحرب عضها
إن شمَّرت عن ساقيها الحرب شمَّرا

أخي المسلم:

نصر الله قريب إذا تحققت شروطه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٤٧]، ولهذا كان السلف ـ رحمهم الله ـ يتوبون إلى الله ـ عز وجل ـ خاصَّة عند ملاقاة العدو واقتراب الواقعة!

كان الفضيل بن عياض يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد «عليكم بالتوبة فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف».

وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: «اعمل عملاً صالحًا قبل الغزو فإنما تُقاتِلون الناس بأعمالكم».

وقال مسلمة بن عبدالملك أمير السرايا: «برجاء بن حيوة وبأمثاله نُنصر»[٢].

وقال الأصمعي: لما صاف قتيبة بن مسلم الترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع فقيل: هو ذاك في الميمنة جامع على قوسه، يشير

---

(١) الأمالي لأبي علي القالي (١/ ١١٣).
(٢) السير (٤/ـ).

بأصبعه نحو السماء، قال: تلك الأصبع أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير[١].

وكانوا ـ رحمهم الله ـ يسارعون إلى الجهاد وإعلاء كلمة الله ورفع راية الدِّين وإذلال الكفَّار والمشركين.

أفنوا أعمارهم في الجهاد ومزقوا أجسادهم في القتال، بعضهم أقام عمره في الجهاد وبعضهم ما عاد من غزو إلا أنشأ غزوة أخرى، وبعضهم تعد له الغزوات كما يعد لغيره الحج.

غزا **أبو عامر** حاجب الممالك الأندلسية في مدته نيفًا وخمسين غزوة ولقد جمع من غبار غزواته ما عملت منه لبنه، والحدت خده[٢].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلج النارَ رجلٌ بكَىٰ من خشيةِ اللهِ حتى يَعودَ اللبنُ في الضرعِ، وَلاَ يجتمعُ علىٰ عبدٍ غبارٌ في سبيل اللهِ ودخان جهنم**» [رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح].

عن أبي عبسٍ عبدالرحمن بن جبر، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اغبرَّتْ قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسَّهُ النَّارُ**» [رواه البخاري].

قال **الحافظ ابن حجر**: فإذا كان مجرد مس الغبار للقدم يحرم عليها النَّار، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفد وسعه[٣].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «فهذا في الغبار الذي يصيب

---

(١) السير (٦/ ١٢١).
(٢) السير (٦/ ١٧).
(٣) فتح الباري (٦/ ٣٠).

الوجه والرجل: فكيف بما هو أشق منه كالثلج، والبرد، والوحل»[١]!

وذُكر أنَّ صلاح الدِّين الأيوبي لم يؤد حجة الإسلام وشغله جهاد الصليبيين عن الحجِّ، ولم يؤاخذه أو يعتب عليه؛ لأنَّ جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج كما يقول ابن تيمية فالأعمال درجات.

وكان هارون الرشيد يحج عامًا ويغزو عامًا ولهذا قال الشاعر في حقه:

فمـــن يطلـــب لقـــاءك أو يـــرده
فبـــالحـــرميـــن أو أقصـــى الثغـــور[٢]

أخي المسلم:

انظر إلى ما يتكبده المجاهدون وما يلاقيه الرجال من شدة الأهوال وقرع النبال يصورها بشر بن ربيعة في معركة القادسية:

تـــذكـــر هـــداك الله وقـــع سيـــوفنـــا
ببـــاب قـــديـــس والمكـــر ضـــريـــر

عشيـــة وذ القـــوم لـــو أن بعضهـــم
يعـــار جنـــاحـــي طـــائـــر فيطيـــر

إذا بـــرزت منهـــم إلينـــا كتيبـــة
أتـــونـــا بـــأخـــرى كـــالجبـــال تمـــور

فضـــاربتهـــم حتـــى تفـــرق جمعهـــم
وطـــاعنـــت إنـــي بـــالطعـــان مهيـــر[٣]

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤١٨).
(٢) شذرات الذهب (١/ ٣٣٤).
(٣) السير (١/ ٣٦٥).

قال **عبدالله بن عبدالله بن عمر**: غزا المسلمون كابل وعليهم عبدالرحمن بن سمرة، فانتهوا إلى ثلمة لا يقوم عليها إلا رجل واحد فقال: انظروا من يقوم عليها، فقالوا: عمر بن عبد الله بن عبيد الله بن معمر، فدعوه، فقالوا: قم عليها، فقام عليها ثم إنه أصابته رمية فسقط، فحمل إلى أهله فقالوا: من يقوم عليها فقالوا: عباد بن الحصين فدعوه فقام عليها فما رأينا شله قط، ما زالوا يقابلونه ويرمونه ويقاتلهم ويكبر حتى إذا كان في بعض الليل خمد صوته فلم نسيه، قلنا: إن لله قتل عباد، فلما أصبحنا وجدنا، قد شد عليهم، واقتحم الثلمة فولوا وكانت الهزيمة، وإذا قد صحل حلقة من الصياح وانقطع صوته[١].

وحين قدم الزبير على عمرو وجده محاصرًا حصن (بابليون) فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرَّق الرجال حول الخندق، وطال الحصار حتَّى بلغت مدته سبعة أشهر، فقيل للزبير: «إن بها الطاعون» فقال: «إنما جئنا للطعن والطاعون»[٢].

يـــا راكبيـــن عنـــاق الخيـــل ضـــامـــرةً
كـــأنهـــا فـــي مجـــال السبـــق عقبـــان
وحـــامليـــن سيـــوف الهنـــد مـــرهفـــة
كـــأنهـــا فـــي ظـــلام الليـــل نيـــران
وراتعيـــن وراء النهـــر فـــي دعـــة
لهـــم بـــأوطـــانهـــم عـــز وسلطـــان[٣]

---

(١) مكارم الأخلاق ص (٤٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٧).
(٣) موارد الظمآن (٢/ ٧١٠).

عن **ابن عمر** قال: جمعت جعفرًا بن أبي طالب على صدري يوم مؤتة، فوجدت في مقدم جسده بضعًا وأربعين من بين ضربة وطعنة[١].

أولئك ـ رضي الله عنهم ـ من رضوا بالسياحة في سبيل الله، السياحة الإيمانية التي ارتضاها الله ـ جل وعلا ـ لعباده وأمرهم بها..

عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: «**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل**» [رواه أبو داود بإسناد جيد].

ولله در الشاعر وهو يقول:

مـــن ذا الـــذي رفـــع السيـــوف ليـــرفـــع
اسمــك فـــوق هـــامـــات النجـــوم منـــارا

كنـــا جبـــالاً فـــي الجبـــال وربمـــا
صـــرنـــا علـــى مـــوج البحـــار بحـــارا

بمعـــابـــد الإفـــرنـــج كـــان أذاننـــا
قبـــل الكتـــائـــب يفتـــح الأمصـــارا

لـــم تنـــس أفـــريقيـــا ولا صحـــرائهـــا
سجـــداتنـــا والأرض تقـــذف نـــارا

وكـــأن ظـــل السيـــف ظـــل حـــديقـــة
خضـــراء تنبـــت حـــولنـــا الأزهـــارا

أرواحنـــا يـــا رب فـــوق أكفنـــا
نـــرجـــو ثـــوابـــك مغنمًـــا وجـــوارا

---

(١) السير (١/ ٢١٠).

قال **جبير بن نفير**: لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله ـ عز وجل ـ إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمه قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترد[1].

قال **عبد الله بن عبد الخالق**: سبىٰ الروم نساء مسلمات، فبلغ الخبر الرقة وبها هارون الرشيد أمير المؤمنين، فقيل لمنصور بن عمار: لو اتخذت مجلسًا بالقرب من أمير المؤمنين فحرضت الناس على الغزو، ففعل فبينما هو يذكرهم ويحرضهم فإذا نحن بحرقة مصرورة مختومة قد طرحت إلى منصور، وإذا كتاب مضموم إلى الصرة، ففك الكتاب فقرأه فإذا فيه: إن إمرأة من أهل البيوتات من العرب، بلغني ما فعل الروم بالمسلمات وسمعت تحريضك الناس على الغزو، وترغيبك في ذلك، فعمدت إلى أرم شيء من بدني وهما ذو أبتاي فقطعتهما وصررتهما في هذه الخرقة المختومة وأناشدك بالله العظيم لما جعلتها قيد فرس غار في سبيل الله فلعل الله العظيم أن ينظر إلى تلك الحال نظرة فيرحمن بها. قال: فبكى وأبكىٰ الناس، وأمر هارون أن ينادي بالنفير، فغزا بنفسه، فأنكى فيهم وفتح الله عليهم. قال الذهبي هذه امرأة حسنة قصدها وغلطت في فعلها لأنها جهلت أن ما فعلت منهي عنه فلينظر إلى قصدها.

أخي المسلم:

للجهاد أبواب كثيرة وللمشاركة في الجهاد طرق متعددة.. بالنَّفس

---

(١) الجواب الكافي ص (٨١).

والمال والجهد والرَّأي والكتابة والتَّحريض..

قال ﷺ: «**إن الله يدخل بالسهم ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله، وارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة تركها**» أو قال: «**كفرها**» [رواه أبو داود].

وقد أثنى الله ـ عز وجل ـ على المنفقين في سبيله ـ تعالى ـ فقال عز وجل: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

وعن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من جهز غازيًا في سبيل الله، فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا**» [متفق عليه].

قال **الإمام النووي** ـ رحمه الله ـ: «يعني أنَّ الذي جهَّز غازيًا حصل له أجر بسبب الغزو، وهذا الأجر يحصل بكلِّ جهاد، وسواء قليله وكثيره، ولكلِّ خالف له في أهله بخير من قضاء حاجة لهم، وإنفاق عليهم، أو مساعدتهم في أمرهم، ويختلف قدر الثَّواب بقلَّة ذلك وكثرته، وفي هذا الحديث الحثُّ على الإحسان إلى من فعل مصلحة للمسلمين أو قام بأمر من مهمَّاتهم»(١).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٤٠).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتبس فرسًا في سبيل الله، إيماناً بالله، وتصديقًا بوعده، فإن شبعه، وروثه، وبوله في ميزانه يوم القيامة» [رواه البخاري].

وعن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة» [رواه مسلم].

وعن أبي يحيىٰ خريم بن فاتك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف» [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن].

ولمَّا ضعفت الأنفس عن الجهاد بالنَّفس والمال أجلب الكفار علينا بخيلهم ورجلهم حتى جاسوا خلال الديار فأهلكوا الحرث والنَّسل وأصبح المسلم لا يرفع رأسه في بلده بل ضربت عليهم الجزية وأخذت خيراتهم واستولى العدو على كنوزهم وأموالهم!

رب وامعتصماه انطلقت
ملء أفواه الصبايا اليتم

لا مست أسماعهم لكنها
لم تلامس نخوة المعتصم

مررت على القدس الشريف مسلمًا
على ما تبقى من ربوع وأنجم

فغاضت دموع العين مني صبابه
على ما مضى من عصره المتقدم

فلــو كــان يفــدى بــالنفــوس فــديتــه
بنفــس وهــذا الظــن فــي كــل مسلــم[١]

أخي المسلم:

لا يغيب المنظر عن الأنظار فكل يوم كارثة حتى باتت من تباشير الصَّباح كل يوم. . ألا ترى المرأة المسكينة والطفل الباكي كل يوم!

فــي خيمــة عصفــت ريــح الــزمــان بهــا
لمحــت بعــض بنــي قــومــي وقــد سلمــوا
فــأسلمــوا لنيــوب الليــث ضــاريــه
البــــرد والجــــوع والإذلال والألــــم[٢]

أخي المسلم:

ســـــاءلتنـــــي فـــــي حمـــــانـــــا ظبيـــــة
أتحـــب الشـــوق فـــي عيـــن صبيـــة
قلـــت لا أعشـــق طـــرفًـــا نـــاعسًـــا
وخـــدودًا وشفـــاهـــا قـــرمـــزيـــة
إنمـــا أعشـــق صـــدرًا عـــامـــرًا
يحمـــل المـــوت ويـــزهـــو بـــالمنيـــة
أدركـــت ســـري وقـــالـــت ظبيتـــي
أنـــت لا تعشـــق غيـــر البنـــدقيـــة[٣]

---

(١) شذرات الذهب (٥/ــــ).
(٢) شعراء الدعوة الإسلامية العصر الحديث (٤/ ١١).
(٣) شعراء الدعوة الإسلامية (٤/ ١٣).

وقد طال المقام وصدق الشاعر في قوله:

السيف أصدق أنباءً من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لأسود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب[1]

***

(١) وفيات الأعيان (٢/ـ).

وعيد من ترك الجهاد

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فهذه ثمانية شهوات تعلق صاحب الدنيا بدنياه وتحببه إلى البقاء فيها فإن طغى حب الله عليها هانت عند صاحبها وقدم روحه رخيصة في سبيله فكان الله ـ سبحانه ـ المشتري والشهيد هو البائع والثمن سلعة الله الجنة.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ﴾: أي إلى نعيمها والإقامة فيها.

قال القرطبي: هذا توضيح على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وقال ﷺ: «**من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق**» [رواه مسلم].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأقوام ينكلون عن الأمر والنّهي والقتال الذي يكون به الدِّين كلُّه لله، وتكون كلمة الله هي العلياء، لئلا يفتنوا، وهم قد سقطوا في الفتنة... وهذه حال كثير من المتديِّنين،

يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدِّين كله لله؛ لئلا يفتنوا بجنس الشَّهوات، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم ممَّا زعموا أنَّهم فرُّوا منه» انتهى ملخصًا[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٦٧).

ثمرات الشهادة في سبيل الله

الشهادة رتبة عظيمة ومنزلة عالية اختصها الله ـ سبحانه ـ لبعض عبادة ليرفع درجتهم في الجنة ويحشرهم في زمرة الأنبياء والصديقين كما قال تعالى: ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩] فخاصة عباد الله أربعة أصناف، والشهداء من ضمن هذه الخاصية.

وقد اختلفت الأقوال في سبب تسمية الشهيد شهيدًا:

فقيل: لأنه مشهود له بالجنة.

وقيل: الشهيد بمعنى الشاهد، أي: الحاضر في الجنة.

وقيل: سمِّي بذلك لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة.

وأيًا كان من هذه الأقوال صحيحًا فإن للنفس المؤمنة تمني الشهادة والبحث عن مظانها وقد منَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الشهداء بفضائل لاتحصى، ومأثر لا تستقصى كيف لا وهم يقدمون أرواحهم بأكفهم وهي أغلى ما يملكون طمعًا فيما عنده سبحانه، وسأذكر باختصار مع الاقتصار على مايثبت من الأدلة بعض ثمرات الجهاد في سبيل الله وكفى بثمرة واحدة:

١ ـ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، أرواحهم في حواصل طير خضر: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]، عن مسروق قال: سألنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ

ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا . . .﴾ فقال ـ رضي الله عنه ـ: سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: **أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم اطلاعه فقال هل تشتهون شيئًا؟ فقالوا: أيُّ شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»** [رواه مسلم].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب**» فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ . . . ﴾(١).

قال **القرطبي** ـ رحمه الله تعالى ـ: الذي عليه المعظم من العلماء: إن حياة الشهداء محققة وأنهم أحياء في الجنة يرزقون كما أخبر ـ تعالى ـ، ولا محالة إنهم ماتوا وإن أجسادهم في التراب وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم.

٢ ـ من ثمرات الشهادة: أنه ليس أحدًا يدخل الجنة ويحب أن يخرج منها ولو أعطي ما في الدنيا جميعًا إلا الشهيد، فإنه يتمنّى أن يرده الله إلى

---

(١) رواه أحمد وابن المبارك واللفظ له.

الدنيا ليقاتل في سبيل الله كما قتل أولاً لم يرَ من عظيم كرامة الشهداء وفضلهم عند الله ـ تعالى ـ قال ﷺ: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وإن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد فإنه يتمنىٰ أن يرجع إلى الدنيا ليقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة**» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله وأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل**» [متفق عليه]

فانظر أخي أشرف من مشى على التراب المغفور له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر سيد ولد آدم يقسم بالله أنه يرغب في الشهادة فما بال أناسٍ غرقوا في الذنوب والملذات قد نكصوا عنها ولم يلقوا إليها بالاً نعوذ بالله من الخذلان.

٣ ـ الشهادة تكفر ما على العبد من الذنوب التي بينه وبين الله: قال ﷺ: «**يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين**»، وفي رواية: «**القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين**» [رواه مسلم].

قال **القرطبي** في تفسيره: «الدين الذي يحبسه صاحبه عن الجنة ـ والله أعلم ـ هو الذي قد ترك له وفاء، ولم يوص به؛ أو قدر على الآداء فلم يؤده ومات ولم يوفه، وأما من أدين في حق واجب كفاقة وعسر وليس في سفه وإسراف ولم يترك وفاء فإن الله لا يحبسه عن الجنة ـ إن شاء الله شهيدًا ـ كان أو غيره» انتهى كلامه.

٤ ـ الشهادة في سبيل الله متاجرة رابحة مع الله: ثمنها الجنة وهذا وعد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن أصدق من الله قيلاً، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

٥ ـ الشهيد لا يجد من ألم القتل في سبيل الله إلا كما يجد أحدنا من ألم القرصة: قال ﷺ: «**ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة**[١]»[٢].

يقول مؤلف كتاب [تفريج الكرب]: «وكنت أعجب قبل ـ عندما ـ أقرأ عن بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ وقد وُجد في جسده أكثر من ثمانين طعنة رمح أو ضربة بسيف وكنت أقول: كيف يتحمل هذا الألم الشديد وأحدنا لا يتحمل وخزة الإبرة الصغيرة؟ وبعد قرائتي لهذا الحديث زال هذا العجب فسبحان من جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم» انتهى كلامه.

٦ ـ الشهيد لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة: قال ﷺ: «**القتلى ثلاثة رجال**» ذكر أولهم، فقال ﷺ: «**رجل مؤمن جاهد نفسه وماله في سبيل الله حتى إذا ألقىٰ العدو قاتله حتى يقتل، ذلك الشهيد الممتحن في خيمة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة**»[٣].

٧ ـ أكرم الله الشهداء بأن لا تأكل الأرض أجسادهم: فعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أراد معاوية أن يجري الكظامة «شبهية بالقناة» قال: من كان له قتيل فليأت قتيله ـ يعني قتل أحد ـ قال:

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) والقرصة: هي شد الجلد والضغط عليه بين إصبعين.

(٣) رواه أحمد، والبيهقي.

فأخرجناهم رطابًا يتثنون قال: فأصابت المسحاة أصبع رجل منه فانفطرت دمًا»[١].

وأيضًا قصة جابر مع أبيه الذي استشهد في أُحد فدخل السيل على قبره في عهد معاوية بعد ستة وأربعون سنة من موته قال جابر: فكأنه نائم وما تغير من حاله شيء لا قليل ولا كثير[٢].

٨ ـ ولعظم منزلة الشهيد فإن الله كلف الملائكة بإظلاله حتى يُرفع: لحديث جابر بن عبدالله أنه قال جيء بأبي يوم أُحد قد مثل به حتى وضع بين يدي رسول الله ﷺ وقد سجى ثوبًا فذهبت أريد أن أكشف عنه فنهاني قومي ثم ذهبت أكشف عنه فنهاني قومي فأمر رسول الله ﷺ فرُفع فسمع صوت صائحة، فقال: «من هذه»، فقالوا: ابنة عمرو، أو أخت عمرو، قال: «فلم تبكي؟»، أو قال: «**لا تبكي فما زالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى رفع**» [متفق عليه].

٩ ـ ومن ثمرات الشهادة أن الله يكرم الشهيد بأطيب الريح وهي رائحة المسلك: قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله ـ والله أعلم بما يكلم في سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك**» [متفق عليه].

وقد تُشَمُّ هذه الرائحة الطيبة من الشهيد حال موته في الدنيا ولذلك شواهد لا يتسع المقام لذكرها، وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أسود أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رجل أسود منتن الريح

---

(١) رواه ابن المبارك وعبد الرزاق.

(٢) ذكره الواقدي في المغازي.

قبيح الوجه لا مال لي فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا؟ قال ﷺ: «**في الجنة**» فقاتل حتَّى قُتل فأتاه ﷺ عليه فقال: «**قد بيَّض الله وجهك، وطيَّب ريحك، وأكثر مالك**»، وقال لهذا ولغيره: «**لقد رأيت زوجته من الحور العين نازعته جبة له من صوف تدخل بينه وبين جبته**»(١).

١٠ ـ من مات شهيدًا أجري عليه عمله ورزقه حتى يبعث: لقوله ﷺ: «**رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتان**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**كل ميت يختم على عمله الذي مات عليه إلا المرابط في سبيل الله ـ عز وجل ـ فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر**»(٢).

فالمرابط ليلة كصائم قائم لمدة شهر وإذا مات مرابطًا فإن له من الأجر كمن بقي مرابطًا إلى يوم القيامة وقال ﷺ: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**» [متفق عليه].

١١ ـ شهادة النبي ﷺ لحسن وجمال دار الشهداء في الجنة: قال ﷺ: «**رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بي الشجرة وأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها قال لي: أما هذه فدار الشهداء**» [رواه البخاري].

١٢ ـ يغفر الله للشهيد في أول دفعة من دمه: كما قال ﷺ: «**للشهيد عند الله ست خصال وذكر منها يغفر له في أول دفعة من دمه أو يرى مقعدة من الجنة**»(٣).

---

(١) رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
(٢) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.
(٣) رواه الترمذي، وقال الألباني في صحيح الجامع: صحيح.

١٣ ـ ويجار الشهيد من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر: لقوله ﷺ: «ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر».

١٤ ـ يكرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على رؤوس الخلائق يوم القيامة بتاج الوقار: قال ﷺ: «ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها»(١).

١٥ ـ يزوج الشهيد باثنين وسبعين زوجة من الحور العين: قال ﷺ: «ويزوج اثنتان وسبعين زوجة من الحور العين»(٢).

١٦ ـ وتتعد كرامة الشهادة الشخص نفسه فيشفع في سبعين من أقاربه: كما قال ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال وذكر منها: ويشفع في سبعين من أقاربه»(٣).

أخي المسلم:

عن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من سأل الله ـ تعالى ـ الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» [رواه مسلم].

يعني أنَّه إذا سأل الشَّهادة بصدق أعطي من ثواب الشُّهداء وإنْ كان على فراشه، وفيه استحباب سؤال الشَّهادة، واستحباب نيَّة الخير(٤).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٥٥).

الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه» [رواه مسلم].

أسأل الله ـ عز وجل ـ أن يجعلنا من الشهداء في سبيله مقبلين غير مدبرين وأن يرزقنا الصبر والثبات إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

***